

JANUARY—JUNE 1934 يناير الى يونيو سنة ١٩٣٤



مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

المجلد الرابع والثمانون

AL-MUKTATAF

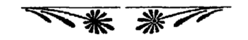
A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by : FUAD SARRUF

VOL. LXXXIIII

FOUNDED 1876 BY DRS Y. SARRUF & F NIMR

فهرس المجلد الرابع والثمانين





تمثال للزهرة يضاهي زهرة ميلو

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الاول من المجلد الرابع والثمانين

١ يناير سنة ١٩٣٤ — ١٥ رمضان سنة ١٣٥٢

تحويل العناصر

مباحث العلماء تحقق احلام الاقدمين

ولكنها تختلف في مرماها

استهوت فكرة تحويل العناصر ألبابَ الكيماويين الاقدمين . فراحوا يبحثون عن حجر الفلاسفة الذي يمكنهم من تحويل العناصر بعضها الى بعض ، ومن تحويل سخيفها الى ذهب ، ولا يزال الموضوع يسترعي عناية الباحثين في اقطار الارض . بل ان طائفة من العلماء في معامل الجامعات والشركات الصناعية ، مكبّون على البحث في هذا الموضوع ، ولا عناية لهم الاَّ بهِ

ونحن اذا نظرنا الى مباحث الكيماويين الأقدمين ، بعيون علماء اليوم وما يلقونه من المصاعب التي تعترضهم وتقطع عليهم سبيل تحقيق الغرض الذي يصبون اليهِ ، فهمنا ان الخيبة كانت بلا ريبة مصير اسلافهم . ولكن الاقبال على هذا البحث عصراً بعد عصر يرجع في الغالب الى كتابات ارسطوطاليس التي كان لها تأثير عظيم في العصور المتوسطة واتجاهات ابنائها الفكرية . فالمادة كانت في نظر ارسطوطاليس مؤلفة من مادة اولية او اساسية ، تختلط بالعناصر الأربعة، التراب والهواء والنار والماء . والمواد تختلف بعضها عن بعض بمقدار ما تحتوي عليهِ من هذه العناصر الاربعة . فاذا اخذت بهذا الرأي ، فمن الأمور التي لا تحتاج الى دليل ، امكان تحويل المادة الواحدة الى اخرى ، اذا كشفت الطريقة التي تمكن الباحث من تغيير مقدار ما في المادة الواحدة من احد العناصر الداخلة في بنائها . وكان طبيعيًّا ان تتجه الافكار الى تحويل العناصر المعدنية السخيفة الى ذهب . وقام رجال في عصور مختلفة ادّعوا انهم نفذوا الى سرّ تحويل النحاس او الرصاص او غيرهما من الفلزات الى ذهب . وكان الكيماويون القدماء ، معتمَد بعض الحكام في ايام الضيق ، لكي يسدّوا العجز في

بيوت المال بصنع الذهب من المعادن السخيفة . وكانوا يفلحون احياناً في صنع معدن لهُ رواء الذهب ولكنهُ ليس ذهباً ، فلم تسفر تجاربهم الا عن خفض قيمة النقد الذهبي ، بصنعهِ من مادة ليست ذهباً على الاطلاق

وبعد ما اثبتت المباحث التجريبية فساد القول بامكان تحويل المعادن السخيفة الى ذهب ، ظلَّ الناس يعتقدون في صحة هذا الإمكان ، حتى ليستطيع شطّار الخادعين ، في هذا العصر العلمي ، ان يدَّعوا عثورهم على طريقة لتحويل العناصر الى ذهب ، فيؤلفوا الشركات لهذا الغرض ، ويبتزّوا الاموال من جيوب عباد الله الآمنين

التحول ممكن !

اثبتت مباحث علماء الكيمياء في القرن التاسع عشر ان المادة تظهر في نحو ثمانين عنصراً متميزاً احدها عن الآخر ، والذرّات التي منها تتركب العناصر ، لا يمكن تحويلها او ابادتها ، بقوة من القوى الطبيعية المعروفة ، كالحرارة والضغط . وعلى ذلك ظهر ان فكرة تحويل العناصر متعذّرة ، الاَّ اذا وفِّق الباحثون الى وسائل اقوى فعلاً في الذرّات من الحرارة والضغط . وثبت في الوقت نفسهِ ، من دراسة الجدول الدوري الذي وضعهُ مندليف العالم الروسي ، ان لا بدَّ من وجوه شبهٍ بين العناصر المختلفة في بنائها . فلما اكتشف السر جوزف طمسن الالكترون (الكهرب) سنة ١٨٩٧ تأيَّد هذا الرأي . واسفرت المباحث في الالكترون عن انهُ يحمل شحنة كهربائية سالبة، وان كتلتهُ جزء من ١٨٤٠ جزءًا من كتلة ذرة الايدروجين وهو اخفُّ العناصر . ثم ان احد هذه الالكترونات او اكثر من واحد ، يمكن ان يزال من مدارهِ حول نواة الذرّة ، بفعل الاشعة التي وراء البنفسجي أو الاشعة السينية ، فتصبح الذرّة بعد ذلك موجبة الكهربائية بدلاً من ان تكون متعادلتها ، وتختلف خواصها عن خواص الذرّة المتعادلة . والتحوُّل في الخواص ، يكون وقتيًّا ، لان الكهرب لا يلبث ان يعود الى مداره السويّ حول النواة ، وتعود الذرّة متعادلة الكهربائية ، وخواصها على ما كانت عليهِ

ففي الفترة بين زوال الكهرب من مداره حول النواة ، وعودتهِ اليه ، تحوَّلت الذرَّة من شيءٍ الى شيءٍ آخر . ولكنَّ الادلة المعتمدة بين العلماء حينئذٍ ، كانت تشير الى تعذُّر احداث تحوُّل دائم في بناء الذرّة وخواصها ، بإزالة بعض كهاربها او اضافة كهارب اليها . وكلُّ تغير من هذا القبيل لا بدَّ ان يكون وقتيًّا

ولكن بكرل الفرنسي اكتشف فعل الاشعاع سنة ١٨٩٦ واقبل رذرفورد وصدي البريطانيان على درس هذه الظاهرة فأثبتا سنة ١٩٠٣ ان الاشعاع مظهر من مظاهر عدم الاستقرار في بناء الذرّة . ففي العناصر المشعة ، تنفجر الذرة على حين فجأة ، وينطلق منها اما دقيقة ضخمة (الضخامة نسبية طبعاً) تعرف بدقيقة الفا ، او دقيقة صغيرة سريعة تدعى دقيقة بيتا — هي والالكترون سواء . فيسفر

هذا الانفجار والانطلاق عن ان الباقي من الذرة يختلف في خواصهِ الطبيعية والكيمائية عنهُ قبل انفجاره وانطلاق ما انطلق منهُ

فلما طال البحث في هذا الموضوع ، تبين ان عنصري الاورانيوم والثوريوم ، يتحوّلان بالانفجار والانطلاق الى عناصر اخرى مشعة ، منها الراديوم المشهور ، وهذا بدوره يتحول بعد ان ينقضي زمن طويل على اشعاعهِ الى نوع خاص من الرصاص . وفي التجارب التي قام بها رذرفورد ورمزي وصدي ، تبين ان دقائق الفا المنطلقة من الراديوم في حالة اشعاعهِ ، انما هي ذرات عنصر الهليوم ، ولكنها تحمل شحنة كهربائية بدلاً من ان تكون متعادلة . فلما قيست قوة انطلاق دقائق الفا وبيتا من ذرّات العناصر المشعة تبين انها طاقة عظيمة جدًّا ، تفوق مليون ضعف ، الطاقة المتولدة من اتحاد الذرّات في مادة مفرقعة

على ان تحوّل العناصر المشعّة ، يتمّ من تلقاء نفسهِ ، ولا سيطرة للعالِم عليهِ بالقوى الطبيعية التي يملكها ، فهو لا يستطيع ، بالضغط العظيم او الحرارة العالية او البرد الشديد ان يسرع انطلاق الدقائق من الذرات او يبطئهُ . والعناصر المشعة قليلة اذا قيس عددها ، بعدد كل العناصر المعروفة ، ومعظم العناصر مستقرٌّ ولا يحدث فيهِ فعل الاشعاع ، واذاً فالعناصر بوجهٍ عام — ما عدا العناصر المشعة — لا يمكن تحويلها بعضها الى بعض في احوال عادية

بناء الذرة

وعليهِ وجب على المهتمين بتحويل العناصر ان ينتظروا قليلاً ، حتى يتسع نطاق معرفة الباحثين ببناء الذرة نفسها لعلَّ هذه المعرفة ، تمهّد السبيل ، الى استنباط وسيلة جديدة تمكنهم من تغيير هذا البناء . والمسلَّم بهِ الآن ، ان ذرّات العناصر كلها ، مبنيةٌ بناءً كهربائيًّا . ففي وسط الذرّة نواة صغيرة ولكن كتلتها كبيرة — بل ان معظم كتلة الذرة في كتلة النواة — وتحمل شحنة كهربائية موجبة تختلف ، باختلاف العناصر من واحد الى ٩٢ . وعلى مسافة من النواة توجد الكهارب موزّعة على طريقة لم يقرّها البحث بعد — كانت في البدء تحسب كالسيارات حول الشمس في ذرّة بور الدنمركي — ولكنها تتحرك حركة رحوية سريعة . وعدد الكهارب حول النواة مساوٍ لعدد الشحنة الموجبة على النواة . فالذرّة التي على نواتها شحنة موجبة رقم ٥ لها خمس كهارب في جوّها . وقطر النواة ، لا يزيد في الغالب عن جزءٍ من ١٠٠٠٠٠ جزءٍ من قطر الذرّة نفسها ، ولكن معظم كتلة الذرّة مقيم في النواة ، وللنواة سيطرة على عدد الكهارب في الذرّة ، وعلى حركتها كذلك . ولما كانت خواص الذرة الطبيعية والكيمائية مرهونةً بعدد الشحنات الكهربائية الموجبة على نواتها ، فمن الممكن ان تختلف اوزان الذرات من عنصر واحد من دون ان يختلف عدد شحناتها الموجبة على النواة

واذاً فقد نجد عنصراً لهُ نوعان او اكثر من الذرّات . وكل نوع وزنهُ يختلف عن وزن النوع الآخر ، ولكن الشحنة الكهربائية في الاثنين واحدة . فذرّات الليثيوم — ولهذا العنصر مقام خاص

في درس تحويل العناصر — نوعان او نظيران (كلمة نظير العربية وضعها الدكتور صرّوف لتقابل كلمة ايسوتوب) احدهما وزن ذراته ٦ والآخر وزن ذراته ٧ والثاني اكثر من الاول . وذرّات عنصر من العناصر هي في الغالب خليطٌ من ذرات « نظرائهِ » . وسوف نجد ان نظيري الليثيوم يختلفان في مقدرة العلماء على تحويلهما بالمعنى الكيمائي . فاحدهما يسهل تحويله ، والآخر يتعذّر تحويله او يحتاج الى طريقة تختلف عن طريقة تحويل صنوه

هذا ما يعرف عن بناء الذرّات بوجهٍ عام . ويرجع الفضل في معرفتنا عن انتظام الكهارب وحركتها ، وطريقة اشعاع الأشعة السينية منها ، الى مباحث بور Bohr وانداده . ولكن مانعرفهُ عن بناء النواة لا يزال يسيراً . فنحن نعرف مقدار الشحنة الكهربائية على النواة . ولكننا نجهل انتظام الدقائق فيها . كنا الى عهد قريب نظن ان نواة الذرّة مركبة من نوعين من الدقائق الكهربائية — الكهارب وهي سالبة الكهربائية والبروتونات وهي موجبتها . ثم ثبت ان دقائق الفا — وهي نوى ذرات الهليوم ، ووزن الدقيقة منها ٤ اذا قوبلت بوزن البروتون ١ — لها شأن خطير في بناء النواة.وفي السنة الماضية اكتشف النيوترون — وهو دقيقة وزنها كوزن البروتون اي ١ وشحنتها الكهربائية متعادلة . وفي مطلع الصيف الماضي اكتشف البوزيترون — والمظنون أنهُ يقابل الكهرب — اي انهُ كهرب ولكن شحنته موجبة بدلاً من ان تكون سالبة . وعليهِ يصحُّ ان نحسب نواة ذرّة من ذرات العناصر الثقيلة مبنية من انواع مختلفة من الدقائق ، شحنة بعضها موجبة كدقائق الفا والبروتون والبوزيترون ، وشحنة البعض الآخر متعادلة كالنيوترون ، وكلها مرتبطة بعضها ببعض بقوى عظيمة جدًّا في حيّزٍ ضيّق ، فينشأ من ارتباطها بناءٌ مستقرٌّ

قذائف الطبيعة

ان مشكلة تحويل عنصر الى آخر ، كما يراها علماءُ العصر الحديث تقتضي احداث تغيير في الشحنة التي على نواة الذرّة . وهذا مستطاعٌ نظريًّا ، بزيادة دقيقة ذات شحنة كهربائية ، كدقيقة الفا او بروتون الى النواة ، او بطرح احدى دقائقها . وانما يجب ان نذكر ، ان بناءَ النواة مستقرٌّ ، وان دقائقها مرتبطة بعضها ببعض ، بقوى عظيمة . فلكي نحطم نواة من النوى ، يظهر في بادىءِ الامر ان لا بدَّ من ان نعمد الى قوى عظيمة الطاقة . ومن الطرق التي يمكن استعمالها ، اطلاق مقذوفات صغيرة عظيمة السرعة على نواة الذرة . فدقائق الفا التي تنطلق من تلقاء ذاتها من ذرّة الراديوم في حالة الاشعاع ، من اسرع المقذوفات التي يستطيع العالم الطبيعي استعمالها ، ومن اعظمها طاقة . لذلك قيل انهُ اذا اطلق تيار من ذرات الفا على مادة من المواد ، فيحتمل ان تصيب احداها ، نواة ذرّة من الذرات ، او ان تصير على قرب عظيم منها ، وفي الحالين لا بدَّ من ان تؤثر في القوى التي تربط بين دقائق النواة ، فتفقد النواة استقرار بنائها وتنقسم الى نواتين

لذلك عمد اللورد رذرفورد سنة ١٩١٩ الى امتحان هذا الرأي بالتجربة ، لعله يأتي بدليل عملي على

ان تحويل بعض العناصر مستطاع باطلاق دقائق الفا على نوى الذرّات . وكانت تجاربه بسيطة اذ اخذ مركّباً من مركبات الراديوم واستعمله مصدراً لمقذوفاته — دقائق الفا — ومن المعروف انهُ اذا اصطدمت دقائق الفا بلوح عليه سلفور الزنك ، ظهر اثر الاصطدام في لمعات من الضوء تمكن رؤيتها في غرفة مظلمة . فقال رذرفورد ، اذا اعتمدنا على هذه الطريقة في اكتشاف اثر دقائق الفا فلعلّنا نعثر على شيءٍ جديد . اخذ مركب الراديوم وسدّد دقائق الفا المنطلقة منهُ الى غاز الاكسجين فلم يرَ اثراً ما . فلما ابدل الاكسجين بالنتروجين ، رأى لمعات خاصة ، على مسافة لا تستطيع ، دقائق الفا الوصول اليها . ثم ثبت ان سبب هذه « اللمعات » بروتونات ، لابدّ ان تكون قد انطلقت من نوى ذرّات النتروجين عند اصطدامها بدقائق الفا المنطلقة من الراديوم . واذاً فذرة النتروجين قد تحوّلت بانطلاق بروتون او اكثر منها . وهذه التجربة كانت اول دليل علمي ، اقامهُ الانسان ، على ان التحويل ممكن بوسائل ابتدعها الذهن البشري

ولم يعرف اولاً كيف تمَّ هذا التحوُّل . ولكن مباحث بلاكت Blackett الحديثة بيَّنت انهُ لابدَّ ان تكون احدى دقائق الفا قد اخترقت نواة ذرّة من ذرّات النتروجين ، فاحدث وجودها اضطراباً في بناءِ النواة المستقرّ ، فطرد بروتون من النواة بسرعة عظيمة . وهو البروتون الذي دلّت اللمعات على وجودهِ

فلننظر الآن في هذا الامر من ناحية الارقام . اننا نعلم ان كتلة النواة في ذرّة النتروجين ١٤ وان شحنتها الكهربائية ٧ . فاذا اصطدمت بها دقيقة الفا ، واخترقتها واستقرّت فيها ، اضيف وزنها — وهو ٤ — الى وزن النواة فيصبح ١٨ ، واضيفت شحنتها الموجبة — وهي ٢ — الى شحنة النواة فتصبح ٩ ولكن النواة اذ ذاك تفقد بروتوناً واحداً وزنهُ ١ وشحنته الكهربائية ١ كذلك فيصبح وزن النواة بعد اضافة دقيقة الفا وطرح بروتون واحد ، ١٧ وتصبح شحنتها ٨ . ولكن شحنة نواة ذرّة الاكسجين ٨ واذن فالتفاعل الناشيء عن اصطدام ذرة النتروجين بدقيقة الفا ، وما تلاهُ حوّل ذرّة النتروجين الى ذرة اكسجين

وقد يقال ان وزن نواة ذرة الاكسجين ١٦ وليس ١٧ فكيف ذلك . فنقول ان للاكسجين نظيراً isotope وزن ذرّتهِ ١٧ وهذا على ما بيّنا واقع في الطبيعة

ثم تبيّن من تجارب الدكتور شدك Chadwick احد علماء جامعة كمبردج ، ان اثني عشر عنصراً على الاقل من العناصر الخفيفة يمكن تحويلها باطلاق دقائق الفا عليها . والراجح ان طريقة التحوُّل فيها شبيهة بما يصيب النتروجين في حالة تحوُّلهِ . اي ان دقيقة الفا تندمج في نواة الذرّة ، ثم ينطلق من النواة بروتون واحد ، فيزيد وزن الذرة ٣ (الفرق بين وزن الدقيقة وهو ٤ ووزن البروتون المنطلق وهو ١) وتزيد شحنتها الكهربائية ١ . وهذه التجارب تثبت ان الباحث اذا اجاد التجربة استطاع ان يحوّل ذرّة عنصر من العناصر الاثني عشر ، الى ذرّة عنصر آخر ، اعلى منه في جدول العناصر

ويجب ان ننبه في هذا المقام ان المقدار المتحوّل من عنصر ما الى عنصر آخر يسير جداً ، بل هو اقل من ان يمكن اكتشافه بالكواشف الكيميائية . ولولا ابتداع طرق عجيبة في دقتها لاحصاء الذرات القليلة المتحولة ، لما اتيح للباحثين ، ان يتبينوا نجاحهم في تجاربهم . ولما كانت نوى الذرّات دقيقة كلّ الدقة ، فاحتمال اصابتها بالمقذوفات المطلقة عليها ، ضئيل جداً . ففي تجربة النتروجين يبلغ الاحتمال ١ الى ١٠٠٠٠٠ اي ان دقيقة واحدة من مائة الف دقيقة مطلقة على غاز النتروجين يحتمل ان تصيب نواة احدى الذرات . وهذا الاحتمال يقلّ في العناصر الاخرى . ويستحيل على الباحث ان يوجّه مقذوفاته الى نوى الذرات ، ولذلك فهو يطلقها على مقدار من الغاز ، فيتفق ان تصيب احدى نوى ذرّاته في الفينة بعد الفينة

ولكن بعض العناصر ، كالليثيوم والكربون والاكسجين لم تعنُ لقذائف دقائق الفا اي ان اطلاق دقائق الفا عليها ، لم يؤثر في نوى ذرّاتها فلم تتحوّل ، كما تحوّلت بعض ذرات النتروجين

ويختلف عنصر البريليوم عن هذه الطائفة وتلك . فان قذفه بدقائق الفا لم يطلق منه بروتونات كما هي الحالة في النتروجين وغيره ، ولا هو ظلّ جامداً لا يتأثر بها كالاكسجين ، بل انطلق منه نوع من الاشعاع القوي النفوذ ، لاحظه العالم الالماني Bothe اولاً ثم درسته مدام كوري جوليو (وهي ابنة مدام كوري) وتبيَّنت فيه خواصّ عجيبة . وتلاها الدكتور شدك الانكليزي ، فاثبت ان هذا الاشعاع انما هو تيار من دقائق لم تعهد من قبل دعاها « نيوترونات » Neutrons وهي تماثل البروتونات في ان وزن النيوترون كوزن البروتون ١ ولكن النيوترون متعادل الكهربائية حالة ان البروتون موجبها . واذاً فتحوّل عنصر البريليوم يختلف عن تحوُّل النتروجين فذرّة البريليوم تلتقط دقيقة الفا وتطلق نيوتروناً وبذلك يتحوّل البريليوم الى كربون

هذه « النيوترونات » المنطلقة من نوى البريليوم ، قذائف عجيبة ، يمكن استعمالها باطلاقها على نوى ذرّات اخرى فتحوّلها وهي لصغر حجمها ، وتعادل كهربائيتها تخترق ذرات المادة من دون ان تفقد شيئاً كثيراً من طاقتها . ولا تنمّ على نفسها ، الاّ اذا اصطدمت بنواة ذرّة من الذرّات . فقد اثبت فذر Feather ان اطلاق النيوترونات على الاكسجين يحوّله ، بقذف دقائق الفا من نوى ذرّاته . وهذه الحقيقة لها شأن خاص لان اطلاق دقائق الفا على الاكسجين لم تؤثر فيه على الاطلاق

قذائف العلماء

لقد عالجنا حتى الآن تحويل العناصر باطلاق قذائف عليها ، منبعثة من تلقاء نفسها من انحلال العناصر المشعّة كالراديوم . ولكن ما لبث الباحثون ان ادركوا ، ان توسيع نطاق معرفتهم ببناء الذرة وتحويل العناصر ، يقتضي قذائف اخرى منوعة . وكان معروفاً ان اطلاق تيار كهربائي في غاز لطيف ، يخرج منهُ مقذوفات منوعة من ذرات وجزيئات سريعة الانطلاق . فاذا اسرعت هذه الذرات المنطلقة بامرارها في فراغ معرّض لفعل الجذب الكهربائي ، فقد تصبح سرعتها كافية

لاطلاقها على نوى الذرات بغية تحطيمها . فاذا اطلق مثلاً تيار كهربائي في غاز الايدروجين في احوال معيَّنة، انقذف تيار من القنابل الصغيرة السريعة ، لا يقذف مثلها مائة الف غرام من الراديوم ، في الوقت نفسهِ . ثم ظنَّ انه اذا استعملت تيارات كهربائية عالية الضغط —من رتبة مليون فولط— تمكن العلماء من الحصول على مقذوفات سريعة يستطيعون استعمالها ، كما استعملوا دقائق الفا من قبل . وبعد سنين من المحاولة والامتحان : تمكن كوكروفت وولتن في جامعة كمبردج ، من اطلاق بروتونات ، مولدة توليداً صناعيًّا ، بالطريقة التي ذكرناها ، على ذرات عنصر الليثيوم ، فقذفت هذه الذرات ، دقائق الفا منها ، اي ان نوى ذرات عنصر الليثيوم حطمت لاول مرة في تاريخ العلم على ما نعلم ، بواسطة قذائف صنعها الانسان

وقد انجلت الآن الطريقة التي يحدث بها هذا التحطيم . فمن ألوف البروتونات المطلقة على ذرات الراديوم يصطدم بروتون بنواة ذرة من الذرَّات . اما وزن البروتون فواحد . واما وزن نواة ذرَّة الليثيوم فسبعة . فاذا اصطدم البروتون بالنواة ، لا تلبث النواة ان تنفصل الى قسمين كل منهما دقيقة الفا—وهي ذرة الهليوم—وزنها ٤ ومجموع وزنيهما ٨ اي مجموع وزن نواة الليثيوم (وهو ٧) ووزن البروتون (وهو ١). وبعد ما نجح كوكروفت وولتن في تحويل الليثيوم الى هليوم ، عمدا الى اطلاق مقذوفاتهما على عنصري البور Boron والفلور Fluorine فوجدا ان اطلاقها يسفر عنه انقذاف دقائق الفا من ذرات هذين العنصرين . اي ان ذرات هذين العنصرين تتحوَّل بوجهٍ عام كما تحولت ذرات عنصر الليثيوم . والظاهر ان اطلاق دقائق الفا على العناصر يحوّلها الى عناصر اعلى منها في جدول العناصر ، فالنتروجين يتحوَّل الى اكسجين واما إطلاق البروتونات فيحوّلها الى عناصر ادنى منها في جدول العناصر ، فالليثيوم يتحوَّل الى هليوم

وثمة نوع ثالث من المقذوفات يستعمل في تحويل العناصر . هي بروتونات الايدروجين الثقيل. ولا يخفى على من قرأ مقالتنا في مقتطف اكتوبر ١٩٣٣ في « الايدروجين الثقيل » ، ان لعنصر الايدووجين نظيراً ، يشبههُ في خواصهِ الكيمائية ، ولكن ذرته اثقل من ذرة الايدروجين العادي ، وان الماء المصنوع من هذا الايدروجين اكثف من ماء الايدروجين العادي بنحو ١٠ او ١١ في المائة ، ويختلف عنه في درجة غليانهِ وتجمده . وقد عمد الاستاذ لورنس الاميركي الى اطلاق بروتونات الايدروجين الثقيل (ووزن البروتون منها ٢ بدلاً من ١ وهو وزن بروتون الايدروجين العادي) ثم زاد سرعة انطلاقها بطريقة خاصة استنبطها ، فوجدها افعل في تحطيم الذرات من البروتونات العادية

ولعلَّ القارىء يسأل دهشاً بعد هذا البيان الوافي ، عن غرض العلماء في درس تحويل العناصر هل يريدون ان يصنعوا الذهب والبلاتين من النحاس والرصاص والفضة ؟ فنقول لا انهم يبحثون عن اسرار الكون وصلة بناء الذرة بتركيب الشموس وضيائها وحرارتها ، وصلة ذلك بالأشعة الكونية ، وهل في هذه المعرفة اي تعليل لنسبة الموجود من العناصر في القشرة الأرضية . هذه المسائل العويصة تفتن لبَّهم ، والنفوذ الى بعض الغازها أثمن من الذهب وأغلى من البلاتين !!

اجنحة المدافع المصرية

لمصطفى صادق الرافعي

إِسْتَجْنِحي[1] يا مَدافعَ مصرَ وطيري ، إن المجدَ يطلبُ منا إنسانَهُ البَرْقيّ

لقد مَدّتْ لغةُ القوة في هذا العصر مَدَّها حتى أصبح الطَّيَرانُ بعضَ معاني المشي ، ولم يَعُدِ العالَمُ يدري كيف تكون الصورةُ الاخيرةُ التي يستقرُّ فيها معنى إنسانِه

فَلْتَتَمَجَّدْ مصرُ بانسانها البرقيّ الذي تَخرجُ النارُ بيده من أعْراضِ السحاب ، وتُفَرقِعُ في أصابعِه هَزَماتُ الرَّعد ، ويجعلُ في قُبّة السماء صَلْصَلَةَ وجلْجَلَةَ ، ويحمل الاسمَ المصريّ الى مُعلَّقِ النجم فيضعُ له من هناك التعريف الناريّ الذي وضعتهُ الدولُ العظمى لأسمائها

ولتتمجدْ مصرُ بانسانها البرقيّ الذي يُشعِرها حقيقةَ العُلوّ العالي ، والعُمقِ العميق ، والسَّعَةِ التي لا تُحدُّ ، ويزيدُ في معاني أحيائنا معنىً جديداً لاحياء السحب ، وفي معاني امواتنا معنىً جديداً لموتى الكواكب

إنسانٌ برقيٌّ يتمُّ بشجاعته في السماء بطولةَ فلاّحِنا الانسانِ الشمسيِّ في الارض ، ويعلو بكبرياء مصرَ الوطنيِّ في ذِرْوة العالَم فتظهر طيّاراتُها العظيمةُ قُدرةً في الجوّ كما ظهرت آثارُها العظيمةُ قدرةً في الثرى

إنها مصر . مصرُ القادرةُ التي سحرت القِدَمَ بقوتها وفنّها فبقي فيها على حاله وجلالته وانهزم الدهرُ عنهُ كأنه قوةٌ على قوة الزمن نفسِها

فاستجْنِحي يا مدافع مصر وطيري . ان المجدَ يطلب منا انسانه البرقيّ

* * *

ولما فُتح السجلّ ذاتَ صباحٍ لتكتبَ مصرُ اسماءَ الفَوْج الاول من نُسورها الحربيين ، صاح مجدُها الخالدُ من أعماق التاريخ :

أضْرِمي الشُّعلةَ الآدميةَ الاولى يا مصر ، وافتحي القبرَ الجويَّ الاول وأَلْحِدي فيه من عنصريك المسلمين والاقباط ، وضعي الحياةَ في أساس الحياة ، واستقبلي عصركِ الجديدَ بأذان المسجد ودق الناقوس ليباركهُ الله ، وليتلقَّ الشعبُ اول طيّاريه بقلوب فيها رُوحُ المعركة وأكبادٍ عرفت مَسَّ النار ، ولا ينظرَنَّ الى طياراته الأُوَل إلاّ بعد ان ينظر النعشين فيرى مجدَ الموتِ في سبيل الوطن ، فتسطعَ نظراتهُ ببريق الكبرياء

(١) اي اتخذي الاجنحة ولم تأت الكلمة في اللغة بهذا المعنى ولكنا استعملناها فيه قياساً على كلامهم

ولمعة العزيمة وشماع الايمان ، ويأتلق فيها النور السماوي الذي يجعل الناس في بعض ساماتهم كواكب ، نور صلاة الشعب على موتاه الشهداء

واستجاب القدر لصوت المجد ، فالتج الظلام في وضح الصبح ، وانطفأ سراج النهار في قبة الفلك ، وأطبقت نواحي الجو إطباق ليلة تساقطت اركانها ، وأقبل الضباب يعترض اعتراض جبل مائم يتذبذب في بحر ، واستأرض السحاب فتخلى عن طبيعته السماوية الرقيقة ، وتذامرت العناصر على القتال يحضن بعضها بعضاً ، وتغشت السماء بوجه الموت كالح فاربد وانتفخ وتكسرت فيه الغضون كل غضن كسقفة ظلام ، وعاد أوسع شيء أضيق شيء فكان الفضاء كصدر المحتضر ليس معه الا عمر ساعة وأنفاسها

وابتدرت الى مجد الموت الطيارة المصرية الاولى وكان فيها انكليزيان يقودانها فأباها الموت فذهبت فانتحرت أسفاً وتردت متحطمة وانسل الرجلان من مخالب الردى وكانا في الطيارة كورقتين من النبت في فم جرادة همت تقضمهما . . . .

وتستبق الثانية فاذا فيها وديعة الكرم من عنصري مصر «حجاج ودوس[1]» وكان سراً من اسرار مصر اجتماعهما في مداحض الغمام ومزالقه ليكونا هدية مصر الاولى الى مجدها الحربي ، ثم ليكونا هدية المجد الى إحساس هذا الشعب يحس منهما العالم المنطوي له في مستقبل النصر

واعتسفت طيارة الشهيدين طريق الفناء ومتاهة الحياة ، فذهبت عنها معارف الأرض وعميت عليها معالم السماء ، وخرجت من تصريف أيدي البطلين الى تصريف أجلهما ، وأصبحت كأنها تطير في الانفاس الباقية لهما فما تتقدم ولا تتأخر ، ولم تعد طيارة تحملهما بل جناحاً ممدوداً لهما من رحمة الله

ثم اجترها الموت الى غور فانحطت من الهواء جانحة كالطائر يطلب ملجأً في العاصفة ثم انهضت واثبة وتطرت منقلبة فاشتعلت فاستعرت فأنضجت راكبيها رحمهما الله

وكثيراً ما يكون منظر الحزن في الحياة هو انهماك الحياة في عمل جديد تبدع منه السرور والقوة . احترق البطلان لتتسلم مصر في نعشيهما رماداً لن يبنى تاريخ العزة الوطنية الا به

فاستجنحي يا مدافع مصر وطيري . ان المجد يطلب منا إنسانه البرقي

* * *

صنعت النار الآدمية الحقيقة ، ووضعت لنا الاسم البديع الذي نطلقه على

(١) هما فؤاد حجاج وشهدي دوس ، وكان في الطيارة الاخرى التي تحطمت المستر بليت والمستر سميث

طيّارينا الأبطال ، فلا تُسَمُّوهم نُسور الجو ولكن سموهم « جَمَراتِ الجو »

صنعت نارُنا الحقيقة ، وأوحت الينا أن نستبدلَ من انفسنا حالة بحالةٍ ، وأن نُفاجِئ شعورَنا الحالمَ فنصدمَه بآلام اليقظة المرّة ، وأن نغير قاعدة الحياة في التربية المصرية فلا تكون : العيشَ العيش ولكن القوة القوة

صنعت النارُ الحقيقة ، وأثبتت لنا ان الحياة إن هي الاّ اداةٌ للحي وليس الحيُّ اداةَ للحياة ، فليتصرّفْ بها على قوانين الروح وآمالِها فيسمُوَ وتسمو ، ولا يدَعْها تتصرفُ على مذاهب اقدار المادة وتصاريفها فيُذلَّها وتذلَّه . وفي قانون الروح : لا قيمة لعالَم الاشياء الاّ كما تَصْلُحُ لنا ، وفي قانون المادة وضَغْطَة الحياة : كما تصلُحُ لنا وكما نصلُحُ لها .....

بَلى ، قد صنعت النارُ الآدميةُ الحقيقةَ وأعطتنا قصةَ الحرية كاملةً في معنى واحد ، وهو أن هذه الحرية لعاشقيها كأجمل الجميلات للمتنافسين عليها : جمالها متوحش ، وخلاعتها مُفْترسة ، وظَرْفُها سَفّاكٌ للدم

فاستجنحي يا مدافع مصر وطيري . ان المجد يطلب منا انسانه البرقي

* * *

والى السماء يا « جَمَراتِ الجو » ، فاذا استويتم على السحاب فليست الطيارةُ ثَمَّ طيارةً بل حقيقةً حيةً حاملة للمجد ، فلتحملْ معناها المصري من بطلها المصري

واذا سبحتم في مهبط القدَر فليس الطيّارُ ثَمَّ طياراً بل حياةً عبقريةً أرسلتها مصر تستنزلُ للحياة اقداراً سعيدة

واذا خضتم في المعْرَكِ الضَّنْكِ تتبَعْثر فيه الآجالُ على الرياح فليس الجسمُ المصريُّ هناكَ من لحم ودم بل ناموساً طبيعيًّا ماضياً الى غاية

واذا تقاذفتم في بحر الشمس فأنتم هناك على شِباكٍ طرحتموها لصيد أيام مضيئة تلتمع في تاريخ مصر

واذا نفذتم من أقطار السماوات فانظروها بأعينكم تلك العُلى وافهموها بقلوبكم ذاتية الوطن المصريّ تعلو وتعلو ولا تزال أبداً تعلو

انما الطيارةُ وسلاحُها وطيّارُها تأليف من الانسانية والعناصر معناه في العزيمة « لا بدَّ » . ومتى هدرت الطيارة هديرَها فانما تقول للبطل منكم : هَلُمَّ من عال الى أعلى ، الى أكثرَ علوًّا ، الى اقصى حدود الواجب على النفس حين يأخذ الواجب الكلَّ وحين تعطي النفسُ الكل

فاستجنحي يا مدافع مصر وطيري . ان المجد يطلب منا انسانَه البرقي

العلم وحياتنا اليومية

العلم والفلاح — فوائد البكتيريا — مواد جديدة للبناء

عجائب الكيمياء — احوال العمال

العلم والفلاح

الزراعة اقدم اعمال الانسان المتمدن وأوثقها صلةً بحياته . والمباحث العلمية الحديثة في طبائع الارض والتربة قد ايّدت معظم النتائج العامة التي توصل اليها الانسان القديم بالممارسة الطويلة . فقد ادرك الفلاحون الاقدمون ان روث الحيوانات يزيد خصب الارض . فأثبت العلم الحديث ان التربة تستمدُّ من روث الحيوانات مركَّبات النتروجين التي لا ندحة عنها لحياة النبات . فلما ارتقى البحث في العهد الحديث اصبح في مستطاع الانسان ان يصنع هذه المركبات ، في شكلٍ مركّز ، هي الاسمدة الكيماوية ، وإضافتها الى التربة تزيد خصبها اضعافاً كثيرة . وكذلك شرع الانسان يستعمل الاسمدة الطبيعية النقية اولاً مثل نترات الصودا ثم الاسمدة الصناعية كسُلفات الامونيا

ولا يخفى ان نترات الصودا يستخرج من مناجم في بلاد شيلي . فهو في الواقع سماد طبيعي ولكنه نقيٌّ الى حدٍّ كبير . اما سلفات الامونيا فيصنع من سوائل الامونيا في معامل الغاز . بيد ان المناجم التي تحتوي على السماد الطبيعي وشيكة النفاد ، ولا بدَّ للانسان من ان يبحث عن وسائل يستطيع ان يصنع بها مركَّبات النتروجين التي لا ندحة عنها لخصب ارضهِ

والهواء اغنى مصادر النتروجين . فأربعة اخماس الهواء نتروجين حرٌّ مباح لمن يشاء . ولكن النتروجين في الهواء ، غاز غير قابل للتفاعل مع العناصر الاخرى ، وانما يختلط اختلاطاً بالاكسجين الذي لا بدَّ منهُ للحياة . فالمشكلة التي اعترضت العلماء هي مشكلة استنباط طريقة لحمل جانب يسير من هذا النتروجين على الاتحاد بالعناصر الاخرى ، فتصنع منهُ المركَّبات النتروجينية اللازمة للتربة . وهذا العمل يعرف بتثبيت النتروجين الجوّي . ولم يفلح علماء الكيمياء في حل هذه المشكلة الاَّ في العقد الثاني من القرن العشرين

ولذلك غير طريقة واحدة . منها الطريقة المستعملة في بلاد النروج ، حيث يحمل اكسجين الهواء على الاتحاد بنتروجينهِ ، بواسطة نور القوس الكهربائي . وبعد ذلك يحوّل هذا الاكسيد الى المركَّبات الاخرى . ولكن لما نشبت الحرب العالمية وقلَّ ورود نترات الصودا الى المانيا ، لما ضربهُ الحلفاء حولها من الحصر البحري ، اكتشف احد الكيماويين الالمان طريقة تثبيت نتروجين الهواء ، بجعله يتحد بالايدروجين ، فتتولد الامونيا من اتحادها ، ومن الامونيا ، يصنع سماد سلفات الامونيا (النشادر) الالماني المشهور . هذا من ناحية الكيماوي . اما علماء النبات فقد بينوا للفلاح ، كيف يثبّت بعض النبات من الفصيلة البقلية كالفول والعدس والحمص والبرسيم نتروجين

الهواء بواسطة حبيبات من البكتيريا على جذوره ، شأنها امتصاص قليل من نتروجين الهواء وتحويله الى مركّبات نتروجينية يسهل امتصاصها على جذور النبات . فهذه الحبيبات تتناول النتروجين من الهواء اولاً ثم تناولهُ الى النبات في شكل يسهل عليهِ امتصاصهُ . واكتشاف هذه الحقيقة مكّن علماء الزراعة من اعداد التربة لزراعة نبات يستنفد كثيراً من المركبات النتروجينية في خلال نموّهِ ، بزراعة نبات من هذه الفصيلة اولاً ، فيمد التربة بالمركّبات النتروجينية اللازمة للمحصول التالي

ثم ان علم الوراثة اصبح لهُ شأن عظيم عند الفلاّح . ذلك ان القواعد التي اكتشفها مندل والذين جروا مجراهُ ، قد مكّنت العلماء من استنباط اصناف جديدة من الحنطة والشعير والبطاطس وغيرها،هي اكثر محصولاً واشدُّ مقاومة للآفات . وزراعة اشجار الفاكهة قد خضعت للسيطرة العلمية وخصوصاً ما كان منها مرتبطاً بمكافحة الحشرات، وتطعيم الاشجار . بل ان المباحث العلمية ، قد زادت مقدار السكّر في قصب السكر والبنجر ثلاثة اضعاف . ثم ان التجارب تجرّب في استنباط وسائل لتجفيف العشب تجفيفاً صناعيًّا ، وقد اثبتت هذه التجارب ان قيمة العشب الغذائية ، من حيث هو علف للمواشي ، تزيد اذا جفف تجفيفاً سريعاً . وكذلك يبطل القول المأثور في الغرب « اصنع التبن ما زالت الشمس مشرقة » Make hay while the sun shines

وكانت الزراعة في الماضي عملاً يدويًّا في الغالب . وهي لا تزال كذلك في معظم اسيا وافريقية وبعض اوربا . فلا نزال نرى في الصين والهند ومصر وايطاليا ، الثيران تجرُّ المحاريث القديمة ، والنساء يجمعن التبن ويحزمنهُ في اوربا الشرقية والمتوسطة . وهي مشاهد خلدتها صورة الانجلوس المشهورة واضرابها . ولكن العلم والصناعة اخذا يغزوان الزراعة بالوسائل الميكانيكية للحرث والبذر والحصد والجني ، وكثيراً ما ترى الآلات التي تسير بقوة الاحتراق الداخلي (كالسيارات) تحرث وتبذر وتحصد . ولعلَّ الامة التي شأت سائر الامم في هذه الناحية هي الولايات المتحدة الاميركية

ولكن استعمال الآلات في الزراعة يخلق مشكلات اجتماعية لا بدَّ من مواجهتها . فاذا كان المحراث الآليُّ يعمل عمل عشرة محاريث تجرُّها الخيل واذا كان المحراث الآليُّ لا يحتاج الاّ الى عمل رجل واحد ، فلا بدَّ للمجتمع من ان يبحث عن عمل للرجال التسعة ، الذين تعطلوا عن العمل لاستعمال الآلات . واذا كان الجري على الاساليب العلمية ، في الحرث والزرع والتسميد يمكننا من ان ننتج حبتين من الحنطة حيث كنا لا ننتج الاَّ حبة واحدة ، فلا بدَّ ان يأتي يوم (وقد رأينا ذلك بعيوننا في ما نعانيه الآن) تهبط فيه اسعار المحاصيل ، فلا تدرُّ ربحاً ما على زرّاعها ، وينكب العالم بضائقة اقتصادية خانقة . وقد اشارت احدى المجلات العلمية ، الى ان زرّاع اشجار المطاط يرفضون استعمال الاسمدة الخاصة بهذه الاشجار لان الاسعار التي يبيعون بها مطاطهم الآن اقل من من ان تغريهم بزيادة المحصول . والعلاج لمثل هذه المشكلات ليس اقلال الانتاج في المصانع والحقول ، لانَّ الوف الالوف من الناس في بقاع مختلفة من الارض، لا يزالون يحتاجون الى ضرورات العيش وهم لا ينالونها ، وانما العلاج يقوم بتنظيم الانتاج والتوزيع تنظيماً علميًّا عالميًّا

فوائد البكتيريا

اثبتت مباحث العلماء ان البكتيريا طائفتان . طائفة ضارّة تسبب الامراض . واخرى مفيدة تحدث التخمير وتستمدّ النتروجين من الهواءِ وتحولهُ غذاءً للنبات . فخصب الارض الى حدّ بعيد مرهون بفعل البكتيريا . وخصب الارض اساس لحياة النبات والحيوان . ثم ان صنفاً من البكتيريا في معد وامعاء الحيوانات ذات الحافر كالفرس والجمل والغنم والبقر ، يمكنها من هضم القش والتبن ، واذاً فالبكتيريا لا بدَّ منها لحياة الانسان الذي يغتذي باللحم . على ان الانسان ادرك فائدة هذه الاحياءِ الدقيقة ، قبل ان تدرس في المعمل على شريحة المكرسكوب . فاستعملها في صنع العجين الذي لا يختمر ويصبح صالحاً للخبز الاّ اذا اضيف اليهِ قليل من الخميرة والخميرة قريبة الصلة بالبكتيريا . ثم ان تعطينه لعيدان الكتان في الازمنة القديمة دلَّ على انهُ فهم عمل هذه الاحياءِ من دون ان يراها . يضاف الى ذلك استخراج الكحول بتخمير السكر والنشاءِ . كل ذلك يتوقف على فعل البكتيريا . ولكن البحث الحديث بيَّن لنا كيف تفعل البكتيريا هذه الافعال ، فمهّد للانسان سبيل السيطرة عليها

فقد عني باستور العظيم في دور من ادوار حياتهِ بالبحث في طرق صنع الجعة ، فاكتشف ان تحضير الجعة بحسب الطرق القديمة ، قد يفضي احياناً الى حموضتها بدخول بكتيريا اخرى من الهواء ، غير البكتيريا الخاصة بصنع الجعة . وتلاهُ بحّاث آخرون اثبتوا كذلك ان انضاج الجبن والزبدة بمجرّد تعريضها للبكتيريا التي في الهواءِ ، قد يفضي الى دخول بكتيريا ضارّة بها ، تفسدها وتجعلها غير صالحة للأكل . لذلك ترى في مصانع الالبان الحديثة ، مزدرعات نقية من البكتيريا الخاصة ، اللازمة لتحضير الجعة ، او انضاج الجبن والزبدة ، وبذلك يطمئن الصانع ، وصاحب المصنع ، الى ان النتائج لا بدَّ ان تأتي كما يتوقعها . وللاسباب عينها ترى المخابز الكبيرة تستعمل نوعاً خاصًّا من الخميرة ، محضراً بطريقة خاصة ، تجعله نقيًّا من الشوائب التي قد تفسد العجين

وتستعمل البكتيريا كذلك في تحضير بعض المركّبات الكيمائية كالجليسيرين والحامض اللبنيك (لاكتيك) والحامض الليمونيك (ستريك) والخلّ . والعلماء متجهون الآن ، الى وجوب السيطرة على البكتيريا التي لا بدَّ منها في تحضير هذه المركّبات واضرابها ، حتى لا تترك النتائج عرضة للمصادفة

أشرنا في الفقرة السابقة الى فعل بعض البكتيريا — التي في حبيبات الجذور في الفصيلة البقلية — في امتصاص نتروجين الهواءِ وتحويلهِ الى مركّبات يسهل على الجذور امتصاصها . وقد عني بعض العلماءِ حديثاً ، باعداد مزدرعات نقية من هذه البكتيريا ، يمكن شراؤُها ورشُّ الارض بها ، حتى تكثر فيهِ المركّبات النتروجينية . والواقع ان العلم الآن في مستهلّ عصر ، قد يستطيع في خلالهِ من استعمال البكتيريا في مئات الاغراض . وليس ما ذكرنا هنا الاَّ مثالاً على نواحي فائدتها الكبيرة

العلم ومواد البناء

لم يكتف العلم بأنهُ ابدع للناس وسائل جديدة للعمل ، بل ابدع لهم كذلك مواد جديدة يعملون بها .

فقد حرر العلم الانسان من استرقاقه للطبيعة ، من ناحية المواد التي تجهزه بها ، فهي آناً سخية تجود وتغدق ، وآناً بخيلة ، تقتّر وتمسك . فصار قادراً ان يجاريها في صنع اغلب ما يحتاج اليه من المواد ، مستقلاً عن جودها وامساكها . فعلم الكيمياء مثلاً ، مكن الانسان من السيطرة على خواص الفولاذ (الصلب) فيصنع منهُ صنفاً شديد القساوة ، وآخر يسهل مطه ومدُّه ، وثالثاً يستطيع الثبات على تقلب الحرارة . وبهذه الاصناف من الفولاذ تمكن من صنع التربينات المائية والبخارية والمولدات والمحركات الكهربائية وآلة الاحتراق الداخلي وكل الادوات اللازمة التي يقتضيها القياس الدقيق في العلم والصناعة

خطا الانسان الخطوة الاولى نحو السيطرة على الفولاذ في اواسط القرن التاسع عشر . وكان الحديد الصلب ، معتمد المهندسين ، في بناء خطوط السكك الحديدية والآلات الضخمة لأن الفولاذ كان لا يزال غالي الثمن عسر المنال . ولكن في سنة ١٨٥٦ استنبط المهندس البريطاني هنري بسمر Bessemer (١٨١٣—١٨٩٨) طريقة لصنع الفولاذ من دون نفقة كبيرة . والمبدأ في طريقته ، نفخ الهواء المضغوط في الحديد الخام المصهور فتتأكسد الشوائب التي تخالطه ، وبذلك يتنقّى ، فاذا تماسكت دقائقه لم يكن بينها ما يجعلهُ قصماً . فاذا اضيف الى الحديد المصهور الذي عولج بهذه الطريقة قليل من الكربون او السلكون او المنغنيس ، جُعلت خواص الفولاذ على ما يشتهيها الصانع

واستنباط هذه الطريقة لصنع الفولاذ من دون نفقة كبيرة ، مهد السبيل لارتقاء المواصلات بواسطة السكك الحديدية والسفن البخارية . وكذلك ترى ان القاطرة الحديثة ، لا تختلف في اصولها عن القاطرات التي صنعها مستنبطها ستيفنسن في اخريات ايامه ، وانما تفوقها ، لان فولاذ هذه يفوق حديد تلك . ولا يخفى ان بناء البواخر الحديثة ، ما كان مستطاعاً ، لولا اتساع معرفة المهندسين بخواص الفولاذ ، ومقدرتهم على صنعه بحسب ما يريدون . يضاف الى ذلك انهم يستعملون الآن الاشعة السينية في امتحان قطع الفولاذ المستعملة ، ليكتشفوا ما فيها من مواطن الضعف في بنائها ، من شرخ داخلي ، او فراغ ، لا يلبث ان يأتي الضغط عليه حتى ينقصم الفولاذ حيث يكون الشرخ او الفراغ . وفي العهد الحديث ، اهدت الكيمياء الصناعية الى الانسان مادة جديدة من مواد البناء ، نعني الخرسانة المسلحة التي يبنى بها السدود العظيمة كسد خزان اسوان وخزان سنار ، وحواجز الامواج والصروح الشامخة . والخرسانة ، مزيج من الحصى والرمل والماء تربط بينها مادة لاحمة مصنوعة من الجير والصلصال . توضع الخرسانة في شكل معجون في قوالب من الخشب او الحديد ، يتخللها قضبان او اعمدة من الفولاذ ، فتتحجر وتصبح هي والاعمدة قطعة واحدة اصلب من الصخر ، والخرسانة تحمل الضغط وتحفظ الاعمدة الفولاذية من الصدإ

وقد كان لاكتشاف هذه المادة الجديدة من مواد البناء ، اثر كبير في فن العمارة ، لانها اغنت المهندسين عن اقامة الاعمدة والقناطر في الصروح العظيمة . وقد تغيّر كذلك فن الزخرفة المعمارية ، فصرنا أميل الى الخطوط المستقيمة في المباني الحديثة ، على نحو ما يشاهد من ناطحات السحاب ، في اميركا والمباني الحديثة في عواصم اوربا ، بل في القاهرة

عجائب الكيمياء

والصناعة الحديثة لا تستغني عن الكيماوي ، لانهُ يستطيع ان ينفذ بكواشفه الى صميم المواد ويعرف بناءَها . فالعمال في مصانع الحديد قد يهيئون المرجل الذي يحتوي على قدر هائل من الحديد المصهور وقد خلطت بهِ مقادير معيّنة من العناصر الاخرى لتقسيته او لجعله اقبل المدّ والمط ، ولكنهم لا يستطيعون ان يصبّوهُ ، حتى يأخذ الكيماوي نموذجاً منهُ ويفحصهُ ، ثم يجري العمال بحسب النتائج التي يسفر عنها بحثهُ . وفي المناطق المعدنية ، حيث تستخرج المعادن من المناجم ، ترسل نماذج من ركاز المعدن الى الكيماوي ليحلها ويفحصها . اما صناعات الزجاج والخزف والصابون والسكّر والمطاط ومواد التصوير الشمسي فكلها صناعات كيمائية ولا يستغنى فيها عن الكيماوي ووسائله

وقد اسفرت المباحث الكيمائية الحديثة ، عن صنع مواد جديدة ، يستطيع الصنّاع عن ان يستعملوها في صنع اشياء اصبح الناس لا يستغنون عنها ، بل ان التوسع في صنعها بحسب مقرّرات العلم ، رخّص ثمنها وقرّبها من متناول رقيقي الحال . وفي طليعة هذه المواد ، الاشياء المصنوعة من السلولوس . هذا المركّب ، المؤلف من الكربون والايدروجين والاكسجين ، هو المادة الرئيسية في جدران الخلايا النباتية . فمن السلولوس يصنع الحرير الصناعي فبعد ما يحوّل الى رُبّ يعالج بالصودا الكاوية ويُمَدُّ في خطوط دقيقة تعالج بعد ذلك باساليب خاصة وتصبح صالحة للنسج والحياكة . واذا عولج السلولوس بالحامض النتريك ، تولّدت مادة تعرف بالنترسلولوس . وهذه المادة اذا ضغطت في الكافور كانت لنا مادة السلولويد ، التي تستخدم عوضاً عن العاج والابنوس في مئات الاشياء كالازرار ومقابض السكاكين والامشاط وسماعات التلفون وشرائط التصوير الشمسي والصور المتحركة . فاذا وضع غشاء رقيق منها بين لوحين من الزجاج وضغطا ، تكوّن لوح زجاجي لا يتشظّى اذا تكسّر ويستعمل الآن في السيارات امام مقعد السائق . ثم ان النتروسلولوس نفسه مادة مفرقعة وتستعمل في نسف الصخور ، وشق الطرق . فاذا حلّت ، في مواد خاصة ، تحوّلت الى مادة تمنح السطح الذي تبسط عليهِ غشاء لامعاً كالزجاج ولذلك تستعمل في دهن اجسام السيارات لحفظ معدنها من التلف

ثم اننا نستطيع الآن ان نركّب بوسائل الكيمياءِ الصناعية : موادّ ، ما كنّا نستطيع الحصول عليها الاَّ من الطبيعة . فكحول الخشب ، كان لا يستخرج قبلاً الاَّ من تقطير الخشب ، اما الآن فيستطاع تركيبهُ بالصناعة من اول اكسيد الكربون والايدروجين . ثم ان اكسدة كحول الخشب يولد مادة « الفورمَلْدَهَيْد » التي تستعمل مطهراً ، وتباع في الصيدليات محلولة في الماءِ باسم «فورمالين » . فاذا عولج جبن اللبن بالفورملدهيد ، تحوّل الى مادة قاسية تحلُّ محلّ العاج . ولكن اذا عولج الفورملدهيد بالحامض الكربوليك او غيره من المواد المقطرة من قطران الفحم الحجري ، تحول الى مادة تدعى بايكلَيْت ، تستعمل لعزل الاسلاك الكهربائية ولذلك كان لها شأن كبير ، في تقدم الصناعات الكهربائية . والبايكلَيْت نفسه يمكن ان يصقل ويستعمل محل الخزف . ولكنهُ اخفُّ من الخزف فيستعمل غطاء للآنية في السفن البحرية والجوية حيث لوزن الاشياءِ مقام خاص

وقد نفذت الكيمياء الى البيت . فالادهان النباتية كدهن جوز النارجيل ، يمكن ان تقسَّى ثم توضع في علب ، وتباع باسم « مرجرين » . والمصابيح الكهربائيــة الوضاءة ، التي حلّت محلّ مصابيح الزيت وروائحها الكريهة ، انما هي نتيجة البحث الكيماوي . كذلك السكاكين المصنوعة من الفولاذ الذي لا يدبغ ، باضافة قليل من معدن الكروم ، توفر على ربة البيت كثيراً من التعب في تنظيف السكاكين وصقلها بعد استعمالها . اما الثلاجات التي لا يستغنى عنها الناس في البلدان الحارة ، والقائمة على مبدإ ضغط سائل نشادريّ ، ثم تبخيره ، فمن هدايا الكيمياء الصناعية الى ربات البيوت

العلم واحوال العمل

كان للعلم اثر مباشر وغير مباشر في تحسين العمل احوال . فالمصانع الآن أحسن تهوية ، والمع ضوءًا او اجمع للوسائل الصحية مما كانت في منتصف القرن الماضي . بل ان بعض العلماء قد انصرفوا الى درس عمل العمال فأثبتوا انهُ اذا ازيلت بعض الحركات التي يقوم بها العمال ، قلّ تعبهم وزاد انتاجهم. بل انهم اشاروا بوجوب منحهم فترات للراحة وفي بعض المصانع يعطون قليلاً من الشاي حتى يستجمّوا قواهم . وقد يتمكن العلم في المستقبل من تخفيف التعب الجسماني ، والسآمة العقلية في الاعمال الرتيبة التي تقتضيها الصناعة الآلية الحــديثة . ثم ان استعمال القوة الكهربائية لادارة الالات قلل في المعامل الاذرعة الحديدية الطويلة والسيور الجلدية فاصبحت المصانع انظف مما كانت واقل ضجة واخفّ وطأة على الاعصاب . بل ان علم الصحة العامة قد انصرف الى الامراض الخاصة بالعمال . فالعمال الذين كانوا يشتغلون بصنع عيدان الثقاب كانوا يصابون بمرض مميت في الأنف والفكين من جرّاءِ استعمال الفصفور الأصفر. ولكنّ البحث العلميّ اثبت ان الفصفور الاحمر صالح كالاصفر لصناعة عيدان الثقاب . وفي الوقت نفسه لا يسمّ العمّال . ومنذ ما اكتشفت هذه الحقيقة واقبلت المعامل على استعمال الفصفور الاحمر ، قلّت حوادث التسمم بالفصفور حتى اصبحت من النوادر . وكان صنّاع الزجاج والحديد ، يصــابون بمرض في عيونهم سببهُ طول تعرضها للحرارة العالية في الاتاتين التي يصهر فيها الحديد الزجاج . ولكن العلم حماهم من هذا المرض بواسطة نظارات تصنع من زجاج خاص ، يحجب عن العيون الحرارة العالية . وكان المشتغلون بمواد يدخل الرصاص في تركيبها ، كالزجّاجين والخزافين والدهّانين يصابون في الغالب بتسمم الرصاص . اما الآن فالتعليمات الصحية والعناية الطبيــة ، تقي كثيرين منهم وعلاوة على ذلك اثبت البحث العلمي ، ان الدهان الذي كان يستعمله الخزافون ، يمكن صنعه او صنع ما يماثله من دون ادخال الرصاص في تركيبهِ

ولا يخفى ان الغبار في بعض الصناعات ، يتغلغل في اعضاء التنفس ويعرض البنائين والخزافين والمعدنين والمشتغلين بالفلزّات ، لانواع من مرض التدرن . ثم ان سبب التسمم بالرصاص هو اولاً الاكل بأيد تناولت دهاناً رصاصيًّا من دون غسلها ، وثانياً تنشُّق هواء فيهِ دقائق الرصاص او دخانه. وقد كشف العلم عن بعض الوسائل التي تقي المشتغلين بالفلزّات، كصانعي المبارد ، من فعل هذا الغبار. وما تقدم امثلة فقط على اثر العلم في تحسين احوال العمل

طائر الفينكس

اسطورة الحياة المثلى

بقلم ميخائيل نعيمه

لعلّ اصعب ما يلاقيه الفكر هو الفصل بين حقيقة الحياة ووهمها . غير ان اكثر الناس لا يفكرون فلا يترددون لحظة في اقامة الحدود بين ما يدعونهُ حقيقة وما يروقهم ان يدمغوه بدمغة الوهم او الخرافة . هكذا فالغراب في نظرهم حقيقة . اما الفينكس فخرافة لا يؤمن بها الاّ البسطاء والقدماء

ألا فليزجّني من شاء بين القدماء والبسطاء لانني اومن بالفينكس . وانا اومن بالفينكس لانني اومن بالخيال الذي ابتدعهُ . او ليس الخيال حقيقة ؟ اذنْ كل ما يحبل بهِ الخيال ويلده ويغذيه ، سواء كان اجمل الجميل او اقبح القبيح ، يشترك في حقيقة الخيال . ونحن لو نظرنا في الخيال الذي يعمل بغير انقطاع لوجدنا ان ما دون النزر من اعماله يتخذ شكلاً محسوساً . فلو رضينا بهذا النزر وحدهُ حقيقةً ، ونبذنا ما بقي كما لو كان وهماً او غير حقيقةٍ ، لكان الخيال ذاته خرافة والانسان نفسه اسطورة

ان خيالاً يلد طائراً كالفينكس لخيال مبدع في ذاته ومن ذاته . الانسان خلق الفينكس ، وللانسان الحق ان ينظر الى ما خلقهُ ويقول : « هو حسن جدًّا » بلى انني اضيف الى ذلك ، حتى وان رماني البعض بالتجديف ، ان الله نفسه ، لو انهُ فكّر بطائر كهذا الطائر ، لخلق واحداً مثله . وقد يكون ان خيال الانسان يتمم خيال خالقه . اوَ لم يصنع الله الانسان على صورته ومثاله ؟

من روايات هذه الاسطورة الكثيرة الروايات ان الفينكس يسكن الجزيرة العربية . فتعال نفلت من نطاق الجدران والسقوف ونهرب بالخيال الى غاب في مجاهل تلك الشقة من الجزيرة التي دعاها الاقدمون « العربية السعيدة » والتي نعرفها اليوم باسم اليمن . لعلنا نطلُّ على الفينكس في موطنه

هوذا الشمس قد ارتفعت في المشرق . السماء صافية زرقاء ، ونسمات الصبح العليلة تتهادى بين الاشجار مدغدغة اوراقها الفضية . في الغاب نهر وسيع عميق يسير بجلال نحو البحر حاملاً على صفحته الصافية خيالات الاشجار والادغال المتعانقة عن جانبيه . كيفما التفتّ لا ترى الاّ جمالاً وسلاماً . حتى انك لتحسبك في جنة من جنان الفردوس . غير ان الاشجار تحذرك من الانخداع بالظواهر . فهي تعرف ان فيها وعليها وحواليها قد اشتبك الموت والحياة في صراع عنيف . كل ما في الغاب من مخلوقات تمشي ، ومخلوقات تدب او تزحف ، ومخلوقات تمتطي الهواء وتهمزه بالاغاريد ، يدأب بلا انقطاع طالباً قوتاً لنفسه او مطلوباً ليكون قوتاً لسواه . ولا مهرب من ذلك الدُردور حتى للصخور التي في الغاب . كل ما ينبثق من الارض تبتلعهُ الارض رويداً رويداً لتعود فتلفظهُ حيوانات

وطيوراً وزحافات وحشرات واشجاراً واعشاباً وازهاراً . فالحياة ههنا ، شأنها في كل المسكونة ، تشتعل كعليقة موسى من غير ان تحترق

في رأس اعلى شجرة في الغاب قد جثم طائر لا شبيه له في كل الخليقة . وقد اتجه نحو الشمس فبانت كل ريشة من صدره القرمزي الناعم كما لو كانت تلتهب بنار من عالم آخر . وكل ريشة من جناحيه الذهبيين ، المغموسة اطرافهما في زرقة ولا زرقة السماء ؛ كما لو كانت تقدح شرراً من شرر الثريا . عنقه الطويل البديع ، المطوق في الوسط بطوق ناصع البياض ، قد تقوّس الى الامام . اما رأسه الدقيق الصنع فقد ارتدّ قليلاً الى الوراء مسدّداً منقاره الطويل الحادّ نحو الشمس . لقد جمع هذا الطائر بين زخرفة الطاووس دون خيلائه وجمال طائر الفردوس دون خجله . هو ينظر بطمأنينة الى الشرق كأنهُ لا يشعر بوجود شيءٍ في العالم سوى الشمس — مصدر النور والحياة . ترفّ من حواليه طيور كثيرة ، بين كبيرة وصغيرة ، واذ تمرّ بهِ تخفض اجنحتها مسلمة عليه سلام اعجاب واحترام . حتى ان القويّ من الفراش الذي يتمكن من الصعود اليهِ يرفّ حواليه مرتين او ثلاثاً ثم يهبط الى الارض شاكراً جذلاً

الغاب تعج بالاصوات من طائر يناجي عشيره ، او وحش ينادي رفيقه . الاّ هذا الطائر الغريب — فهو لا يناجي احداً ولا احد يناديه . اذ لا عشير ولا رفيق لهُ لا في مشارق الارض ولا في مغاربها ، ولا في عالم آخر من العوالم الدائرة في الفضاء . سواهُ من الطيور منهمك في بناء اعشاش او تربية فراخ . اما هو فلا عش يبنيه ولا فراخ يزقّها . سواهُ من الطيور يرفّ هنا وهنالك طالباً غذاءً . اما هو فلا يقتات بشيءٍ حي بل بالبخور والعطور . سواهُ من الطيور يصبح فرقاً وقد علق بمخالب عدوّه . اما هو فلا يعرف الخوف لانهُ لا يؤذي مخلوقاً فلا يؤذيه مخلوق . لا ولا تؤذيه العناصر . هو وحيد في العالم كله . لكنهُ لا وحدة في قلبه ولا وحشة . سواه من الطيور يبدل ريشه مرة في كل سنة . اما هو فلم يبدل ريشة واحدة منذ كان لهُ من العمر يوم واحد — وذلك منذ خمسمائة سنة !

لقد نبتت في الغاب اشجار كثيرة فنمت حتى طاولت السحب . ثم هرمت وتفتتت واخلت مكانها لاشجار اخرى . ولقد جرفت الفصول المسرعة اجيالاً لا تحصى من الطيور والحشرات والحيوانات ثم جاءت بغيرها لتحلّ محلها . ووراء حدود الغاب : في مملكة البشر ، قد طغت موجة فوق موجة من اعمال الناس ثم تكسرت وتبعثرت على شواطئ الزمان الذي لا بداية لهُ ولا نهاية . امم بكاملها اطلّت على الحياة ثم توارت ، فكأنها لم تكن . ومدن عديدة شمخت بابراجها وقببها الى السماء فلم تلبث ان عانقت التراب . ممالك علت ثم انخفضت ؛ غزاة ومغزوون . ابطال وانذال . عاشقون ومعشوقون . رؤوس متوّجة ورؤوس بلا تيجان — كل هؤلاء مشوا على الارض فترة من الزمن ثم عادت الارض فاحتضنتهم ليمشي فوقهم سواهم من ابناء الارض . حيث كانت تكرّ انهار جبارة نبتت اليوم اشواك واحساك وبنى النمل قراه والجراذين جحورها . كم من جنان غناء ابتلعتها الصحراء ، وكم من صحراء أورقت وازهرت ! كم آلـه أُنزل عن عرشه وآلـه أُجلس على عرش ! كل ما في الكون تغير وتحوّل في خلال خمسة

قرون الآ هذا الطائر الذي في عينيه – كما في عيني يهوه – «الف سنة كيوم امس الغابر وكهجعة من الليل»
غير ان الوقت قد ازف حتى للفينكس ان «يتغير» . لا صوت يهمس في اذنيه . لا اصبع تدلهُ كيف يتجه. ولا قوة خارجية تأمره ان يفعل ما هو عازم ان يفعله .لكنه بدليل من نفسه، وبصوت من داخله يدير وجهه نحو الشمال الغربي، وبعد ان يصفّق بجناحيه ثلاثاً، يمتطي الهواء ، ولا حزن في قلبه على امساء خمسة قرون يتركها وراءهُ. ولا خوف من اغواء خمسة اخرى يقابلها. وهو يعرف محجته كل المعرفة
في وادي النيل البعيد مدينة كان المصريون يدعونها «آنو» واليهود «بيت شمس» والروم «هليوبولس» وفي تلك المدينة هيكل مكرّس لعبادة الاله « راع » . الفينكس يعرف المدينة والهيكل ، ويعرف الفسحة على المذبح التي سيستقر عليها . لانهُ منذ اجيال لا تحصى يقصد جلجثته هذه مرةً في كل خمسمائة سنة ليقتبل عليها الموت . ومرة في كل خمسمائة سنة يعود منها تاركاً الموت في حيرة وارتباك
يشقّ الفينكس الهواء بجناحيهِ القويين مسرعاً نحو وادي النيل .فتجتمع من حوله شتى الطيور لترافقه ولو بعض المسافة فتظهر له تجلّتها واحترامها. ولا يزال يطوي المسافات الى ان تبدو لعينيهِ هليوبولس
في هيكل راع نافذة فوق المذبح تطل منها الشمس فتمتزج اشعتها بدخان البخور وتضفر منهُ ذوائب من ذهب وفضة كأنها انفاس ارواح تائهة. وهذه الذوائب تلتف وتنحلّ فوق المذبح كأنها خيوط ممدودة على منوال خفي وبيد خفية تحوك منها انسجة غريبة .ليس في الهيكل الواسع المظلم سوى كاهن عجوز غارق في تأملاته
يسمع الكاهن فجأة حفيف اجنحة يقطع عليه مجرى تأملاته . واذ يرفع عينيه يرى على المذبح طائراً يغتسل بنور الشمس ، وقط لم تقع عيناه على اجمل منه. فتأخذه الدهشة لاول وهلة . ولا تلبث دهشته ان تنقلب الى رهبة اذ يحدّق في الطائر على المذبح فيراه قد انتصب رافعاً جناحيه الى فوق ، ثم يراه يصفق بهما تصفيقاً حاداً. وما هي الآ لمحة طرف حتى يلتهب الجناحان فيظهران كأنهما مروحتان من نار . فيندمج الطائر بأشعة الشمس حتى يشكل على الكاهن ان يفرق بينهما . وما هي الآ لمحة اخرى حتى يرتفع الجناحان الى فوق ، وقد كفّا عن التصفيق ، فتبدو كل ريشة فيهما كأنها مشعال نار حية . يكاد الكاهن لا يصدق عينيهِ من شدة دهشته . فحيث رأى منذ لحظة طائراً حيّاً يبصر الآن السنة من لهيب تثب الى فوق . ويا لهُ من لهيب مدهش لم يسبق له ان أبصر مثيله في كل حياته. هو لهيب يرتد البصر كليلاً عن بهائه ، وتسكر الانفاس بعطره . ألا تبارك راع الازلي الابدي الذي يحيي نفسه بنفسه ويحيي كل شيء !

يملأ اللهيب الهيكل باشباح مريعة ، كلها يثب الى فوق ويتلاشى في وثباته . ورويداً رويداً تخمد النار تاركة حفنة من الرماد المتوهج. يا للخسارة ان يهلك طائر بديع كهذا الطائر ، وان يتلاشى في هيئة مفجعة كهذه الهيئة ! ولكن. . . أحقّاً انه قد هلك ؟ يفرك الكاهن عينيه ليتأكد انه ليس في منام . فيرى —ويا للعجيبة ! — طائراً يخرج من كومة الرماد المتوهج ، كاملاً بكل تفاصيله ، عجيباً بجماله كالطائر الذي التهمته النار منذ لحظة. فيهبط الكاهن على ركبتيه ، ويغطي عينيه بيديه ، ويحني رأسه الابيض حتى يلامس الارض ويتمتم كلمات يكاد لا يسمعها :

«يا راع ! ايها الكائن الجميل الذي يجدد ذاته في حينه . ايها الطفل الالهي . يا وريث الابدية . يا والد نفسه . يا أمير الارجاء السفلى ومدير الأحياء العليا . يا آله الحياة . يا رب المجد . كل نسمة تحيا بشعاعك»

***

ان خيالاً جريئاً وخصباً ، اذا ما أعطيته مثالاً كمثال الفينكس ، نمّق فيه ووشى حواشيه الى ما لا نهاية له . فالقدماء مع محافظتهم على الفينكس كطائر يحيا فرداً ويجدد ذاته بذاته ، قد ابتدعوا اساطير مختلفة لموته وللمدة التي يحياها بين التجدد والتجدد . وما الرواية التي حاولت ان اصورها في ما سبق الاّ واحدة من تلك الروايات الكثيرة التي ضاع مصدرها في زمان قلما كان يحفل بالاسماء والتواريخ لانه كان يهتم قبل كل شيء بحقائق الحياة الثابتة او بالفكرة الابدية

لاخلاف على ان اسم الفينكس يوناني . والكلمة تعني ، في بعض معانيها الكثيرة نوعاً من النخيل ولعل اليونان عرفوا ذلك النوع من النخيل في بلاد فينيقية اولاً فأسموه باسم البلاد . او انهم اسموا فينيقية باسم ذلك النوع من النخيل لانه كان يكثر فيها . وقد يكون انهم اطلقوا اسم الفينكس على ذلك الطائر الخرافي لانهم اخذوا الاسطورة عن الفينيقيين ، وفي الفقرة الآتية من نشيد بولاق للآله راع ما يدعم الظن بان اسم الفينكس مأخوذ من فينيقية

« المجدُ له في الهيكل عند ما ينهض من بيت النار . الآلهة كلها تحب اريجه عند ما يقترب من بلاد العرب . هو رب الندى عند ما يأتي من ماتان . ها هو يقترب بجماله اللامع من فينيقية محاطاً بالآلهة»

ان يكن اصل الاسم في شك فأصل الطائر ذاته اكثر تعقداً من الاسم . فقد يكون فينيقيًّا . وقد يكون مصريًّا . واقرب شبيه لهُ في الآثار الكتابية القديمة نجده في ذلك السفر المصري الغريب المعروف بكتاب الاموات . وهو مجموعة فصول شائقة في العلوم الباطنية والفلسفة والشعر والسحر يرجع بعضها الى القرن الاربعين قبل التاريخ المسيحي . ولعلَّ هذه المجموعة هي اثمن ما ورثناه عن سكان وادي النيل الاقدمين . فهي من اولها الى آخرها تنبض بايمان المصريين القدماء بالخلود . فالموت عندهم لم يكن الاّ سياحة بين عالمين او انتقالاً من شاطىء الحياة الادنى الى شاطئها الاقصى . ولما كان حكماؤهم كانوا يدركون ان عامة الناس اجهل من ان تتناول الحقيقة مجردة تراهم اقاموا لهم بنايات عديدة من الرموز كيما يسهلوا عليهم ان يدركوا بالحس ما هو أبعد من الحس . وكان احد رموزهم طائراً من نوع الغرنوق او مالك الحزين . وكانوا يدعونه « بنّـو » والاسم مشتق من كلمة تعني الرجوع . وهذا الطائر كان يمثّل في اساطيرهم وفي رأسه ريشتان منحنيتان الى خلف . من يطالع « كتاب الاموات » يرَ ان هذا الطائر كان يرمز الى راع — الآله الذي ولد نفسه من نفسه ، والذي لا يعرف الموت — النهار المنبثق من حقوي الليل ، والنور المتغلب ابداً على الظلمة . فمن هذا القبيل ، وكذلك من حيث الصلة بينه وبين هليوبولس ، ترى ان طائر « البنّـو » يشترك في بعض خصائص الفينكس . غير انه ليس مذكوراً في كتاب الاموات او في كتاب آخر كطائر يموت بالنار كل خمسمائة سنة او اكثر ثم ينهض متجدداً من رماده

الاّ ان كاهناً مصريًّا اسمه هورابولّو،عاش في القرن الخامس قبل المسيح ، جعل صلة متينة بين البنّو والفينكس . ففي ترجمة كتاباته اليونانية التي وصلت الينا نسمعه يتكلم عن طائر معروف عند المصريين وفي تقاليدهم يجدد نفسه بنفسه . واسمه في الترجمة اليونانية « فينكس » . وبعد ان يتكلم هورابولّو عن ظهور هذا الطائر مرة في كل خمسمائة سنة يصف موته هكذا : —

«عند ما يشعر الفينكس بدنوّ أجله يطرح نفسه بعنف على الارض فينجرح ويسيل دمه . ومن دمه المتجمد يولد فينكس آخر . وهذا حالما يكتسي بالريش يطير بوالده الى هليوبولس . واذ يبلغانها يموت الوالد عند شروق الشمس. فيحرقه الكهنة المصريون.اما الفينكس الجديد فينطلق الى بلاده»

من بعد هورابولّو اخذت حكاية الفينكس تنتشر وتزداد شهرةً في الغرب الى حد انها استرعت انتباه اكبر المؤرخين والشعراء واللاهوتيين القدماء . ومنهم هيرودوتس . فهذا المؤرخ ، في سياق وصفه لسياحة قام بها في مصر،يتكلم عن الفينكس كما لو كان طائراً عربيًّا. ثم يضيف متحفظاً : «اما انا فلم ابصره الاّ في الصور» — لكن الشاعر اوفيد لايتحفظ قط في وصفه.فهو يتكلم عن الفينكس كطائر يجدد ذاته بذاته ويتغذى بالعطور لا غير . ويقول انه بعد ان يعيش خمسمائة سنة يبني لذاته عشًّا من القرفة والناردين والمرّ في رأس نخلة . وفي ذاك العش يلفظ آخر انفاسه . ومن جثته يولد فينكس جديد.وهذا ، عند ما تكتمل قواهُ ، ينتشل العش من الشجرة—وهو مهده ولحد ابيه— ويطير به الى هليوبولس في مصر حيث يضعه في هيكل الشمس.واكثر جرأة من الشاعر اوفيد المؤرخ طاشيتوس الذي لايتردد في ذكر ظهور الفينكس كحادث تاريخي في زمان القنصل بولس فابيوس (سنة ٣٤ م)

كذلك درجت حكاية الفينكس على ألسنة القدماء واقلام كتّابهم وشعرائهم. وكان آباء الكنيسة المسيحية اكثر الناس اقبالاً عليها . فقد اتخذها امثال ترتوليانوس وكلمندس وابيفانيوس وسواهم رمزاً لقيامة المسيح من الموت . اما روفينوس فقد وجد فيها حجة لا تدحض على ولادة المسيح من عذراء اذ قال : « ما بالنا نستغرب ان تحبل العذراء وتلد ومن المثبت ان الطائر الشرقي المعروف باسم الفينكس يولّد ذاته من غير ذكر ويحيا ابداً وحيداً ولا رفيق له من جنسه.وابداً يخلف نفسه بنفسه ؟»

من اقدم الآثار الكنسيّة التي فيها ذكر للفينكس كتاب «الفيزيولوغوس» الاسكندري.وهو مجموعة حكايات وثنية عن الحيوانات والطيور استخلص منها جامعوها مواعظ وارشادات وحججاً دينية . وقد وردِ فيها ان الفينكس طائر هندي لايتغذى بشيء الاّ الهواء . ومرةً في كل خمسمائة سنة يقصد هليوبولس حاملاً على جناحيه انواع الطيب . وهناك يحرق نفسه على مذبح الهيكل . فتخرج من رماده دوَدة تتحول بعد ثلاثة أيام الى فينكس كامل . وهذا الفينكس يحيّي الكاهن ثم يطير الى بلاده. وتنتهي الحكاية بالموعظة الآتية : —

« يا لهُ من رمز كوّنه الله لارشاد الناس . فالله ، خالق السرّ الذي تم في المسيح ، قد بيَّن لنا ههنا مشيئته . المسيح كالفينكس ، جاء بعد قرون عديدة حاملاً طيوب الحياة واتخذ طبيعة بشرية ومثلما يُصعِدّ الفينكس لحمه على المذبح في مدينة الشمس المصرية ، هكذا رفع المسيح صليبه بإرادته

على الجلجثة في مدينة اورشليم . ومثلما يستلقي الفينكس على ظهره ويحرق نفسه حتى الموت ، هكذا اقتبل المسيح الموت وانفصلت روحه عن جسده . وكما ان الدودة المولودة من رماد الفينكس تتحوَّل بعد ثلاثة ايام الى طائر كامل ، هكذا الله الكلمة اقام جسده في اليوم الثالث . وكما ان الفينكس يستكمل قواهُ وشكله في اليوم الثالث ، كذلك جسد المسيح الناهض من القبر اصبح ابديًّا وغير متغيّر . ومثلما يعود الفينكس الى الهند — موطنه الأول — هكذا عاد المسيح بجسده الجديد الى موطنه الأبدي »

وفي اللاتينية كتاب يدعى Anecdota Syriaca وهو مجموعة حكايات سريانية وردت فيه حكاية الفينكس هكذا

« يقولون كذلك ان في بلاد الهند طائراً عظيماً يأتي مرَّة في كل خمسين (كذا) سنة الى جبل لبنان وهناك يجمع اطيب العطور واجمل الازهار ثم يعود الى الهند . ومجيئه يكون في شهر نيسان . في ذلك الشهر يقيم كاهن المنطقة مذبحاً على رأس جبل عال ويبني حول المذبح شبه بيت من اغصان الكرمة فيأتي الطائر ويدخل البيت ويقف على المذبح . ثم يأخذ يصفق بجناحيه حتى يلتهبا ويلتهب البيت معهما الى ان يصبح الكل رماداً . وبعد ثلاثة ايام يصعد الكاهن الى قمة الجبل ويتفحص الرماد وفيه يجد دودة صغيرة . والدودة هذه تكبر وتتحول الى طائر كالذي احترق . وهذا الطائر يعود من حيث أتى . وكما ان لهذا الطائر ان يحرق نفسه ثم يجددها تماماً ، فبالاحرى قوة المسيح على اقامة جسده الطاهر من القبر . فحقًّا قيل في الانجيل المقدس (يوحنا ١٠ — ١٨) : « ولي سلطان ان ابذلها ولي سلطان ان آخذها ايضاً » ألا فلنذهب الى الرب يسوع بالصوم والصلاة والعطور الطيبة والاعمال الصالحة لنكون اهلاً لان نقتبل من ملكوت السموات »

***

لقد بقي الايمان بالفينكس حيًّا خلال عصر التجدد (الرنسانس) . وبعد ذاك اخذ يتقهقر من وجه « العلم » الذي لا يؤمن الاَّ « بالبرهان الحسي » . حتى اصبح « خرافة » قلَّ من يهتم بها ، وقلَّ من يعرف عنها اكثر من اسمها . غير ان الفينكس ما أُدرج في اكفان النسيان والاهمال الاَّ بعد ان ترك في العالم آثاراً من جماله لا تمحى . ويندر ان تجد امة قديمة لم تنسج على مثاله ولم تخلق لها طائراً قريباً منهُ . فالعرب قد خلقوا العنقاء والسمندل . والفرس « السيمورغ » . والهنود « غارودا » والصينيون « فنغ — هوانغ » واليابانيون « هوْ — اوْ » . مَن شاء ان يقابل بين رقي الامم الروحي فليقابل بين الطيور التي ابتدعها خيالها ففي المقابلة درس جميل ولذة كبيرة . اما انا فلي لذة اكبر في درس الفينكس . وقبل ان اودع هذا الطائر العجيب احب ، اذا استطعت ذلك ، ان انفذ الى سرّه فاعرف القصد من وجوده . لنقل انه رمز . ولكن الى ماذا يرمز ؟ ألعله وليد شوق الانسان الفاني الى عدم الفناء ؟ ام تراه قناعاً من الجمال حاكهُ الوهم لاعين قرّحتها الشناعة ؟ ام هو رؤيا من رؤى الالهام الذي ينير الآباد بطرفة عين وينشب من خلال الاشكال الحسية الى روح الاشياء وجوهرها ؟

ان اكثر البحاثين الذين وقفت لهم على رأي في الفينكس يتخلصون منهُ بقولهم ان المصريين القدماء اتخذوه رمزاً للشمس في شروقها وغروبها . لانهم كانوا يعبدون الشمس تحت اسم راع . واذ انني

لست بحاثة ولا عالماً اسمح لنفسي ان اخالف هذا الرأي دون ان اجلب لذاتي سخط البحاثين وعداوة العلماء

لا جدال في ان سواد الشعب المصري القديم كان يتخذ الشمس الهاً له . اما مؤلفو كتاب الاموات، وشائدو الاهرام، وخالقو ازيس واوزيريس واسرارهما، ومعلمو ديموقريطوس وفيثاغوروس وافلاطون ، فكيف تصدق انهم كانوا يعبدون جرماً سماويًّا — مهما عظم ذلك الجرم وعجب — وهم قد رادوا الفضاء واكتشفوا سبل النجوم ؟ بل ان الشمس لم تكن لامثال هؤلاء اكثر من رمز محسوس لـ « راع » — الوالد نفسه من نفسه . المحيط بكل شيء ولا يحيط به شيء. المبدع الاشكال ولا شكل له . والخالق البدايات والنهايات ولا بداية له ولا نهاية . وما آلهة المصريين ، على وفرتها، سوى صفات متنوعة لذلك الاله الواحد . ان من يقرأ كتاب الاموات ،ولو قراءة سطحية، لايسعه ان يقول غير هذا القول . وانا اجلّ حكماء المصريين عن حماقة تجعل من الشمس رمزاً لراع ؛ ثم تخلق الفينكس الذي لم يكن يبصره الاّ نفر قليل من الناس — وذلك مرة في قرون عديدة — لتجعله رمزاً للشمس التي يراها كل انسان في كل يوم . انما يرمز الفينكس الى ما هو ابعد وابقى من الشمس — الى الحياة في مظهريها كمادّة وروح

في خواء الظواهر المتقلبة تعوّد الانسان ان يميز بين نوعين من التغيير ، وان يدعو الواحد موتاً والآخر حياة . اما الفينكس فكأني به يقول ان الحياة والموت واحد لان مصدرهما واحد ، وهو الروح المرموز اليه بالنار . فالنار ابداً هي هي . تلتهم الاشياء ثم تنوعها وتكثرها لكنها لا تلتهم ولا تنوع او تكثر ذاتها . هي النار او الروح — تلك الحياة الاولية التي يدعوها العلم الحديث « قوة » تنظم ذرات الاشياء على اختلاف انواعها ثم تنثرها . فهي متغلغلة في كل شيء — في ركام الجليد الطافي على وجه المياه مثلها في الشمس. وفي الزناد مثلها في كتلة اللحم النابضة في صدر الانسان. وهي عندما تلتهم شيئاً تردّه الى عناصره الاصلية. لكنها لا تتلاشى ، بل تنعتق من سجنها الوقتي. وهكذا عندما يحرق الفينكس نفسه لا « يموت » حتى لحظة واحدة . لان النار التي هي روحه تبقى حيةً في رماده . وهي التي تعود فتجمع ذرات جسده من جديد . فهو ، وان بدل جسده مرة في كل خمسمائة سنة ، لا يبدل الروح التي لا يطرأ عليها انقطاع ولا تغيير

ثم ان الناس يتباهون بما يدعونه «نموّاً» و «تقدماً» اما الفينكس فكأني به يقول ان ليس في الحياة نموّ وتقدم . اذ ان كل ما ينمو يحمل في داخله جراثيم موته وانحلاله ، وكل ما يموت وينحل لا يدوم ، وكل ما لا يدوم لا وجود او لاحقيقة له في ذاته . بل هو يتناول حقيقة وجوده من الحقيقة الواحدة التي هي اليوم مثلها امس . وغداً مثلها اليوم. فلا يطرأ عليها اقل تغيير او تبديل . وهي لا « تنمو » اذ لا شكل لها ولا قياس ، ولابداية ولا نهاية . وهي لا « تتقدم » اذ ليس في الوجود ما هو خارج عنها لتتقدم من ذاتها اليه . الفينكس يقول ان السبيل الاوحد الى « النمو » هو بالنقصان — بالتجرد من الاشكال الخارجية للتوصل الى الحقيقة الكامنة في الاشكال — الى النار التي هي رمز الروح الكائن في كل شيء. وان السبيل الاوحد الى «التقدم» هو بالرجوع الى الوراء — كل الى هليوبوليسه

اما المدة التي يحياها الفينكس بين التجدد والتجدد، والتي تختلف باختلاف الروايات بين خمسين وخمسمائة وخمسمائة وثمانين والف واربعمائة واحدى وستين، حتى وسبعة آلاف سنة، فالمتفق عليه انها ترمز الى ادوار وتقلبات فلكية. فلنتركها لعلماء الهيئة. غير ان فيها معاني لا علاقة لها بدورة الافلاك. فكأني بالفينكس الذي يعمر مثل هذه الاجيال الطويلة يقول ان اعمار الكائنات موقوفة على جمال حياتها الباطنية وائتلافها مع ذاتها ومع ما حوالها من كائنات سواها. فهي تطول بطول تلك الالفة وتقصر بقصرها. هكذا ترى الفينكس الذي لا يسطو على مخلوق من اجل طعامه، ولا يقاتل مخلوقاً من اجل رفيقة او عشيقة، يعيش في الفة مع كل مخلوق. ولانه لا يشتهي شيئاً تراه لا يخاف شيئاً بل يحيا في سلام مع كل شيء. ومن ثمَّ فانا لا اعرف مثالاً كمثال الفينكس يبين لك ان نقاوة الجسد — كنقاوة القلب — قوة لا تقهر. فهذا الطائر لا يغذي جسده بنبات الارض او بحيوانها، بل بعطورها. لذلك يعمر قروناً طويلة. الاّ ان هذا الغذاء، على كل ما فيه من طهارة، معرض للانحلال. ولذلك يعرّض جسد الفينكس الذي يتغذى بهِ للانحلال حتى بعد قرون. فالنظام الاعلى قد حتّم على كل ما يولد من مصدر قابل للتغير ان يكون عبداً للتغير. وعلى كل ما يتغذى بالمادة ان يغذي بدورهِ المادة. وكل ما يأخذ ان يعطي بقدر ما يأخذ. وكل ما يشتهي شيئاً خارجاً عن ذاته ان يكون محطّاً لشهوات الاشياء الخارجة عن ذاته

هناك صفة تفرّد بها الفينكس عن كل الطيور التي ابتدعها خيال الانسان. فهو ابداً وحيد ولا رفيق له من جنسه. كأنه ذكر وانثى معاً. وكأني به يعلن بذلك مع الناصري ان في الوجود ارجاء «لا يتزوجون فيها ولا يزوجون». وان الذكر والانثى عنصران مختلفان في دورة محدودة من دورات الحياة. وان الاثنين يتوحدان في عوالم غير عالمنا هذا. ولك، ان انت انستَ من نفسك ميلاً الى التعمق في بواطن الحياة، ان تقرأ في الفينكس معاني غير التي قرأت واجمل مما قرأت الاّ انك قد تكون ممن لا يؤمنون بغير ما يلمسون ويبصرون. وحينئذٍ فالغراب احق بايمانك من الفينكس. وما الفينكس عندك الاّ خرافة مهترئة واسطورة قديمة. ألا خذ غرابك واعطني الفينكس

***

ها أنا اطبق اجفاني فتنهض امامي من خرائبها مدينة آنّو العاتية الزاهية — هليوبولس — بيت الشمس — وقد قام في وسطها هيكل راع بكل أبهتهِ. وعلى مذبح الهيكل أبصر طائراً مغموراً بنور الشمس وهو يصفّق بجناحيهِ الجميلين تصفيق جذل وغبطة. ها صدره القرمزي قد التهب فتحولت كل ريشة فيه الى لسان من نار ثم تحول الطائر كله الى ذبيحة متوهجة ونور معطّر وعناق محرق بين الحياة والموت. واذ تهدأ النار فأبصر فينكس جديداً ناهضاً من كومة الرماد، اهتف كالمسحور مع كاهن الهيكل: «يا راع! ايها الكائن الجميل الذي يجدد ذاته في حينه. ايها الطفل الالهي. يا وريث الابدية. يا والد نفسه. يا امير الارجاء السفلى ومدير الاحياء العليا. يا الٓه الحياة. يا رب المجد. كل نسمة تحيا بشعاعك.»

لبشر فارس

الذكرى

ورقةٌ جفَّت على غصنٍ ذوى
فزِع العصفورُ منها فانزوى
عبِث الطَّلُّ بها ثمَّ ارعوى
نَبَذَتها الريحُ في عُرضِ الفضا

شاخ حبّي فضوى ثمَّ انطوى
مال عنهُ القلبُ، طلاَّبَ جوى
شَمِتَ الرشدُ بهِ حتى ارتوى
عضَّهُ الذلُّ فولَّى مُرمَضا ·

جهاد الملك فيصل

مراحل العراق نحو جمعية الامم

لامين الريحاني

من كتابه « فيصل الاول » (قريب الظهور)

ما قدّر لملك من ملوك العرب في هذا الزمان اجتياز ما اجتازه الملك فيصل من غمرات المشاكل الوطنية والدولية . ولا قدر لسيامي من ساسة الدول الصغيرة ان يوفق مثله بين شتى العناصر المتضاربة التي اكتنفت المفاوضات لعقد معاهدة كانت تبدو دائماً في طور التكوين . فلم تكن الوضعية لتثبت حتى اساساً على حال من الاحوال . هي وضعية ذات انوار وظلال مضطربة متقلقلة ، وضعية مقيدة بعوامل من التبدل والتغير كانت تنبعث ليس من لندن فقط ، بل من جنيف ، ايضاً ومن انقره وطهران والرياض . فأين من هذا الاضطراب ، وتضارب المنافع والاغراض ، طريق الثقة والاطمئنان ؟ اين تلك الطريق التي كان يتلمسها ويتحسسها الملك فيصل ، وقلما يجدها سليمة امينة . ولا غرو ، فقد كثر فيها لمع السراب ، وتعددت فيها الحفر والاخاديد ، فاشتد في الملك الحذر ، وازداد الاحتياط

انها لحرب سلمية ، انها لحرب في الغيب . وقد تخللت واقعاتها سحب من الغازات السامة ، فجعلت التقنع ـ التستر ـ المخادعة ـ من لوازم الدفاع وقد كانت القضية ومعضلاتها في منزلة من الخطورة تصغر عندها الشخصيات ، وان كانت ملكية ، وتضؤل المطامع الخاصة ، وان كانت لاكبر السياسيين . فمن اهم الواجبات اذن هو ان تحلّ هذه المعضلات ، وتسوّى تلك القضية على مبدأ العدل الثابت ، والرضى الدائم ، فضلاً عن التأمينات الوطنية والدولية . هي ذي الحقيقة الكبري التي قلما غابت عن بال الملك فيصل . فقد كان ، والحق يقال اشد ملوك العرب شعوراً باشتراك المنافع ، واكبرهم تقديراً للوضعية الاوربية في ذا الاشتراك

على ان واجبه الاول هو في صون حقوق البلاد من غوائل السياسة التي مرّ ذكرها ، سياسة المخاتلة واللين . وهمه الاول هو ان يحفظ المملكة الفتية من عوادي الشقاق والفوضى التي بدأت تفتك بها في اواخر السنة الاولى من حياتها . وقد أشفق الانكليز انفسهم مما كان يهدد العراق يومئذ . فكتبت المس بل الى امها في شهر آب سنة ١٩٢٢ تقول « اننا نخشى انفجاراً ثانياً » (وهي تشير الى الانفجار الاول ، اي الثورة الاخيرة)

ولكان الانفجار لولا صبر فيصل وتعقله ، ولولا حنكته وبعد نظره . وما بالي ان يتهم بالعداء

للانكليز ، وما بالي ان يقال انه يؤثر مصالحهم على مصالح البلاد . فقد مر بالتهم الانكليزية والعراقية مر الكرام ، ومشى الى غرضه بقدم ثابتةٍ ، وهمة صادقة . وما كانت مهمته هذه من المهمات التي يغبطه عليها احد من السياسيين او الحكام . فهناك الدسائس والمؤامرات والمخاتلات والخيانات ، يغالبها ويتغلب عليها . وهناك الاقليات والعشائر، المطيعون دائماً فيمناوأته ، يداريهم ويجاملهم ليستميلهم اليه . وقد كان لكل خطوة اتجاه ، ولكل خطة اسلوب يختص بها . وكانت كلها بمجموعها تؤدي به من موحل الى آخر أوحل منه . ومع ذلك كله فقد كان هدفه طول ذلك الجهاد واحداً — هدفاً بعيداً ثابتاً ناصعاً لايتغير ، ولا يثنيه عنه شيء في مغالبات الناس وحماقتهم ، او في نكد الزمان وعواديه. وهذا الهدف هو عصبة الامم . سعى وجاهد فيصل ليصل بالعراق الى عصبة الامم،لا لفضل فيهاخاص، بل للتخلص بواسطتها من هذا الشيء الذي ولدته ـ من هذا الانتداب ابنها ، ومن نيره

وقد كان عليه ان يقود العراق في اجتيازه المراحل ، الواحدة بعد الاخرى ، الى تلك المحجة البعيدة.ولكنه كان مقيداً في القيادة بخطة اخرى غير خطته ، بل بخطط غير تلك التي كانت توحي بها السياسة الفيصلية . كيف لا ، وللانكليز وجهة نظر يجب أن تتقدم ، وان تغيرت كل يوم ، وجهة نظره ، او تلتئم بها . كيف لا وللانكليز حق في الارشاد ، وأساليب في الارشاد عجيبة . فعليه ان يسلك بموجبها ، او يتلمس سبيله بتعقل انكليزي ، كما يتلمس الجواد طريقه خلال الضباب في لندن

بل كان عليه ان يرى وراءه كما يرى امامه ، وان يحسن فوق ذلك شيئاً من علم المناقضات . وها نحن في الفصل الاول من هذا العلم الطريف ،:تعقد معاهدة تحالفٍ مع حكومة دستورية نيابية ، لا مجلس نيابي لها ولا دستور ! ولا بأس فانه من الممكن ، في علم المناقضات ، ان تجر العربة الحصان[1]

وعند ما تدنو ساعة الاعجوبة ـ اي عند ما تشرع الامة في سن دستورها الاساسي ـ ينبغي ان لا يحدث ما قد يمنع الحصان منالسير وراء العربة . وبكلمة عربية مجردة من المجاز الانكليزي ينبغي الا يكون في دستور الامة ـ ذات السيادة ـ ما يناقض مضمون المعاهدة ، ولقد حاول فيصل ان يسير بنور هذه الحكمة الانكليزية ـ ان يهتدي بهذا الهدي البعيد الضياء ـ وان يفوز فوق ذلك بحب شعبه واحترامجيرانه . فهل افلحسعيه هذا المثلث الزوايا ؟ سنعود الى هذه المسألة وتتقصاها في الفصل التالي. اما الآن فعلينا ان نتتبع الحوادث

بعد ايام من عقد المعاهدة صدر بلاغ ملكي بوجوب انتخاب المجلس الوطني التأسيسي ليجتمع في الشهر الاول منسنة ١٩٢٣ . ولكن المعارضة المستمرة حالت دونمباشرة العمل . وكانت تزداد شدة في الشيعة ، اذ افتى المجتهدون بمقاطعة الانتخابات ، وهم يموهون سياستهم الفارسية بما يظهر من عطفهم على الاتراك . وكان آية الله الشيخ مهدي الخالصي اشد زملائه تطرفاً وانكرهم مكابرة حتى في مجابهة الملك . فغضب رئيس الوزارة عبد المحسن السعدون غضبته الاولى وامر بتسفير آية الله الكبرى

وعند ما أبعد الشيخ مهدي الخالصي الى بلاد فارس ، صاح زملاؤه محتجين ، وختموا احتجاجهم

(١) مثل انكليزي يضرب لمباشرة الامور من آخرها

بان حمل كل منهم عصا الترحال ، ونفض عن نعله غبار العراق . راحوا يشاركون اخاهم الاكبر منفاه في طهران . فحمدل السعدون . ولكن العقبات ظلت قائمة في سبيله . بل كانت المحنة محنته تشتد بدعاء اولئك المجتهدين ، على بعدهم ، وبصلوات اتباعهم الحارة

فزع الملك وفزع العميد الى السعدون . توحدت قوات البلاط والمفوضية والحكومة على المعارضة ففتت في ساعدها ، وما تمكنت من القضاء عليها ، وقد استمرت الجال هذه سنة كاملة ، سقطت خلالها وزارة السعدون . فجاء جعفر باشا العسكري بأمر ملكي يستأنف الجهاد جهاد المعارضين بانتخاب المجلس لانه كما ادعوا سيسن قانوناً يتضمن الاعتراف بالمعاهدة . مضت وزارة جعفر في سبيلها ، وكانت تمدّها المفوضية ويمدها البلاط بكل ما لديهما من القوة القانونية والنفوذ الادبي غير القانوني وكانت في النهاية موفقة . فجرت الانتخابات ، واجتمع المجلس التأسيسي الذي فتحه الملك فيصل في ٢٧ اذار (مارس) سنة ١٩٢٤ اي بعد سنة وخمسة اشهر من يوم توقيع المعاهدة

وفي خلال ذلك عقدت وثيقتان في لندن ولوزان هما للعراق على جانب من خطر الشأن . الاولى الملحق الذي جعل مدة المعاهدة اربع سنوات بدل العشرين سنة ، والثاني عهد الصلح بين تركيا والحلفاء فجاءت هاتان الوثيقتان مدداً للحكومة في خضد شوكة المعارضة ولو خارج المجلس . اما في المجلس فقد كان الوطنيون المتطرفون الاكثرية فيه ، فحملوا على المعاهدة ، وخصوصاً على ملحقاتها الثلاثة التي تتعلق بالجندية والمالية والقضاء حملات شديدة ، تخللها نوع من الجدل لا يندر في الغرب ويستغرب في الشرق . فدارت رحى القتال ، بالايدي والكراسي ، بينهم وبين انصار الحكومة . وكان حزب العمال البريطاني قد فاز في الانتخابات فتولى الحكم هناك ، فناط المتطرفون بوزارته كبير الآمال ، وأمعنوا في العصيان . ان احرار بغداد يحبون احرار العمال بلندن ، ويستعطفونهم

وقد رأى المندوب السامي الجديد السر هنري دوبس شيئاً من البراعة في هذه المناورة ، فحاول مغالبتها بتعديل الاتفاق المالي وهو غير متيقن ما قد يكون موقف الحكومة الجديدة فيه . وما عمّ ان جاءه الخبر اليقين . فلا يزال النور في وزارة المستعمرات نور المستر تشرشل ، ولا تزال القاعدة في عهد العمال كما كانت في عهد السلف — « العجلة تجر الحصان »

اجل يجب ان تقر المعاهدة قبل كل شيء . وبعد ذلك « تعيد الحكومة البريطانية النظر في تعهدات العراق المالية » وكان احرار بغداد يتوقعون غير هذا من اخوانهم احرار لندن ! فازدادوا تمرداً اذ رأوا عكس ما أمّلوه ، وتفانوا ، لجأوا الى الكراسي ، في سبيل المعارضة . فارسلت اذ ذاك وزارة المستعمرات بلاغها المصعق — ان لم يتخذ المجلس في اليوم العاشر من حزيران (يونيو) او قبله قراراً حاسماً ، تحسب الحكومة البريطانية المعاهدة مرفوضة وتسترعي نظر عصبة الامم الى الانتداب . وبكلمة اخرى قد انذرت العراق بالحكم الانكليزي التام ، بالحكم المباشر

ومما شجع الحكومة البريطانية يومئذ في ذا العمل مفاوضتها والاتراك في مسئلة الحدود العراقية الشمالية . وقد كانت الموصل موضوع البحث والنزاع . فهل تفادون بالموصل . يا أحرار بغداد ؟ نعم .

الموصل . ستخسرون الموصل . وسرى التهامس في الدوائر السياسية ،وفي الاندية ـ سنخسر الموصل حتماً اذا رفضنا المعاهدة

وكان المجلس قد ارفضَّ لاجل غير مسمى ، فصدر الامر باجتماعه ثانياً فأطاع الامر ثلثان او اقل من أعضائه . وعند ما جاء اليوم العاشر من حزيران ، وأدبر نهاره ، وأقبل ليله ، لم يكن في المجلس العدد الكافي للنصاب القانوني . فبادر بعض رجال الحكومة والبلاط لكشف المحنة . راحوا يفتشون في بغداد عن الاعضاء المتلكئين والمختبئين ، فاهتدوا اليهم وتوسلوا ـ حاسنوهم بالكلام ، وجاملوهم ووعدوهم وتوعدوهم ـ وظفروا بعد ذلك بهم . فجاءوا المجلس وكمل النصاب في الساعة الاخيرة قبيل نصف الليل . وكانت تلك الليلة من ليالي فيصل المدلهمة . ولكنه في الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة تنفس الصعداء ، اذ جاءه الخبر ان المجلس قد أقر المعاهدة(١). على أنه اضاف الى الاقرار ملحقاً يعرب فيه عن امله بأن تعدّل الحكومة البريطانية ، برّاً بوعدها الاتفاق المالي في القريب العاجل وألاّ تتنازل لتركيا ، في أي حال كان ، عن ولاية الموصل . وبعد ذلك استأنف اعماله بهدوءٍ وسكينة . فأنجز الدستور وقانون الانتخاب وأقرهما ثم ارفض عقده وتفرق اعضاؤه

هذي هي المرحلة الاولى التي اجتازها العراق في طريقه إلى عصبة الامم . وقد اجتازها بالرغم عن مناصبة الشيعة ومقاومتها ،من دون ان يحدث ما ينكد عيش المتشرعين والمتعاهدين . ومن الحقائق الثابتة الاخرى هو ان الحكومة البريطانية سترشح العراق لعضوية العصبة في سنة ١٩٢٨ أي بعد اربع سنوات من تاريخ معاهدة لوزان . وماذا عسى أن يكون بعد ذلك شأن المعارضة؟ بل ماذا عسى أن تقول في الحكومة البريطانية . وقد برهنت في تلك السنة أي بعد شهرين من اقرار المعاهدة على صدق نياتها . فقد وقف اللورد بارمور في مجلس العصبة بجنيف في دورة ايلول (سبتمبر) يقدم المعاهدة الانكليزية العراقية وملحقاتها للموافقة ، ويقول : قد تقدم العراق في السنتين الاخيرتين تقدماً سريعاً مما يجعل سياسة الانتداب وفقاً لمادة ٢٢ من ميثاق العصبة غير موافق له بعد حين . ثم اعرب عن يقين أنه سيصبح في سنة ١٩٢٨ أهلا لعضوية العصبة فترشحه الحكومة البريطانية لذلك

وقد نهجت هذا المنهج الحكومة البريطانية في تقريرها عن العراق لعام ١٩٢٥ وتكلم مندوبها أمام لجنة الانتدابات الدائمة بلهجة اصرح من لهجة اللورد بارمور عن تقدم الحكم الوطني الدستوري . ومما لا ريب فيه أن بريطانيا كانت راغبة فى إنهاء الانتداب رغبة العراق رغبة صادقة ، اللهم بعد ان يكون قد امنت بواسطة المعاهدة علاقتها ومصالحها هناك

وها هنا حد السلامة . ها هنا تجابه الحكومتين العقباتُ التى نشأت عن مسألة الحدود التركية العراقية ومع أن نيات الحكومة البريطانية كانت صادقة شريفة فيها كذلك ، فقد أخفقت مساعيها لحل المشكل مباشرة ، فاضطرت إذ ذاك أن تحيل المسألة إلى عصبة الامم عملا بمضمون معاهدة لوزان . وقد عينت العصبة بناء على ذلك لجنة من قبلها فزارت العراق في أوائل سنة ١٩٢٥ وقضت ثلاثة أشهر تستكشف

(١) كان الاعضاء ٦٩ فوافق على القرار ٣٦ وقاومه ٢٤ وامتنع التسعة الباقون عن الاقتراع

الحدود الشمالية وتحققها وتدرس أحوال الاقليات هناك وتسمعهم يشكون ويتدللون

وكان الاشوريون اشد تلك الاقليات المزعجة ازعاجاً . مع انه لم يكن لهم في ذلك الحين على الاقل ما يسوّغ الشكوى . بل كانوا عكس الامر مغمورين بالعطف . مدللين . عطفت عليهم حكومة جعفر . ودللتهم حكومة ياسين . وجاءهم حتى من الملك فيصل الكلمة التي فيها كل الضمان والامان . فقد تعهدت الحكومة العراقية ان تقدم الاراضي لاولئك الذين يضطرون بعامل التحديد الجديد ان يخرجوا من بلادهم . وان تنشىء ادارات محلية تضمن لهم الحد الاقصى من الحرية في مزاولة اعمالهم ، وفي المحافظة على تقاليدهم وثقافتهم. وقد كان لموقف الحكومة العراقية الوقع الحسن في نفس اللجنة فخططت مطمئنة الحدود التي ضمنت ولاية الموصل للعراق

غضب الاتراك لذلك ، وبعد ان أعلنت الحدود الجديدة التي دعيت « بخط بروسل ». اخترقت جنودهم تلك الحدود . وهجموا على بعض القرى فذبحوا بأهلها الاكراد والاشوريين . وتقدموا في اغارتهم جنوباً وهم يهددون بالاستيلاء على الموصل . فروعوا حتى عصبة الامم التي عينت لجنة اخرى لاعادة النظر في تلك الحدود . فجاءت اللجنة الثانية وساحت ودرست وحققت وقدمت تقريرها الى العصبة في جلسة كانون الاول (دسمبر) سنة ١٩٢٥

وبينما كانت اللجنة قائمة بعملها في الشمال انتخب العراق مجلسه النيابي الاول . ففتحه الملك فيصل في غرة تموز (يوليو) ، وهو مستبشر بهذه الخطوات التي تقرب تلك الحجة القصية بجنيف . فها كم دستورنا ، وها كم مجلسنا النيابي ، وهذه حدودنا الشمالية قد تحددت . فماذا يبتغون بعد ذلك منا ؟

سافر الملك فيصل الى اوربا في الشهر الثاني وهو على توعكه ووهن جسمه فرح مبتهج . فقد راح في هذا الصيف مستشفياً ومستكشفاً جوّ السياسة . وكان امله أن يصل بالعراق الى العصبة قبل الموعد . وما المانع ونحن نجتاز المرحلة بعد الاخرى بسرعة مدهشة . فراسل وحادث وقابل من لهم النفوذ الاكبر في السياسة الدولية وفيهم المخلصون والمحبون وظل على اتصال بهم وهو يستشفي بأحدى مدن الينابيع المعدنية بجنوب فرنسا . وهناك الغير المخلصين والمحبين في حومة السياسة الدولية ، والغير العاملين في سبيل السلام والغير الآمرين بالمعروف وهم من اصحاب الامر والسلطان . وكان لاصواتهم وهمساتهم وحتى لانفاسهم في الجو المضطرب مكان ، أي مكان . ولا بد ان يكون قد سمع فيصل ، كما سمع بطل الرواية مكبث [1] بعض اصوات الحقيقة في ذلك الصيف من فم « بنات الديجور » بنات عم النفاثات في العقد . وأخلق بهن ان ينطقن ، إن في هذا الشرق او في ذاك الغرب ، باسم زمان عُتُل زنيم

« المليح قبيح ، والقبيح مليح —
هات الحطب وهات الشيح
وانفخي ، وانفخي ، وانفخي يا ريح » [2]

---

(١) هي من روايات الشاعر الانكليزي الاشهر شكسبير، وفيها تشاهد العرافات اللواتي يدعوهن « بنات الديجور »
(٢) هذا ما تقوله السواحر الثلاث في تلك الرواية ، ومعناه ان ما يراه الناس مليحاً هو قبيح في اعيننا ، وما يرونه قبيحاً هو عندنا حسن . وقد جاءت بهذا المعنى الآية : « وعسى ان تكرهوا شيئاً وهو خير لكم » .

ايه ايتها السواحر الشقيقات . النافخات والنافثات . ايه بريطانيا وتركيا وجنيف ، انفخي في النار السياسية . انفثن في العقد الدولية . وقلّسنَ . وقلّسنَ في باقي الاسرار . حول النار . وتبأن لهذا الملك العربي ، المتحدر من صلب نبي العرب

فيصل العراق :
النجم بعيد قريب ،
والعصبة اخت الحبيب !! ،
هات الحطب ، وهات الشيح ،
وانفخي ، وانفخي ، وانفخي يا ريح
فيصل العرب :
على مغزل العصبة غزل العراق ،
وغزل الشقاق والاشتياق

وكان مجلس العصبة يدرس في ذلك الحين تقرير لجنة الحدود الثانية ، فاثبت في جلسة كانون الاول (دسمبر) ما قررته اللجنة الاولى — اي خط بروسل — على شرط — على شرط ان تعقد انكلترا والعراق معاهدة جديدة لمدة خمس وعشرين سنة ! « المليح قبيح والقبيح مليح ... »

وكان فيصل قد عاد الى بغداد متشائماً ، ولكنه لم يتوقع مثل هذا الشؤم ، ومثل هذه الكريهة. ماذا عدا عما بدا . فقد اقرت العصبة منذ سنة (في جلسة ايلول سنة ١٩٢٤) المعاهدة العراقية الانكليزية وأقرت الملحق الذي خفض مدتها من عشرين سنة الى اربع سنوات . فما الذي جرى خلال السنة ليبرر هذا الانقلاب ؟ وما السبب يا ترى في رفض الملحق ونبذه ؟ هل وقفت العصبة هذا الموقف الجديد لخير بريطانيا العظمى ، ام لخير تركيا ، ام لخير العراق ؟ أم هل كانت قد اشربت حب الاشوريين والاكراد فهامت بهم ، وأغدقت عليهم خمساً وعشرين سنة من بركات الحماية البريطانية ؟

لاشك ان الاقليات في ولاية الموصل كانت يومئذ في حاجة الى الحماية ، وخصوصاً من غوائل الاتراك ، ولكن العراق كان مستعداً وقادراً . فضلاً عن حليفته العظمى ، ان يقوم بهذه الحماية ، اضف الى ذلك ان دستور العراق يضمن لهذه الاقليات كل ما لسواهم في البلاد من الحقوق المدنية والدينية. فماذا فوق هذا تبتغي عصبة الامم ؟ وكيف تسوغ موقفها الشاذ المحفوف بالغموض ؟ انه لمن الصعب جداً ان ندرك الحقيقة كلها في نيتها واغراضها . فهل هي في عملها انسانية الشعور والاحسان . تعطف على اقلية مظلومة . وقل مهددة بالفناء . وتود ان تخلصها وتضمن لها اسباب العيش والاطمئنان ؟ أم هي في عملها اوروبية النزعة ، مسيحية الشعور ، تفصل بين دولتين اسلاميتين من جهة . وبينهما وبين دولة مسيحية كبرى من الجهة الاخرى . فتسمح بالدخول على مقرراتها لاغراض اقلية مسيحية . او بالحري لاغراض رؤساء تلك الاقلية الدينيين . وأصحاب المصالح من أشياعهم ؟ انه لا يسهل ان نتغلب على اعتقادنا في صحة الموقف الاول . من ان نتغلب عليه في الثاني

ولكن التحليل لا يريح البال ولا يدخل على القلب السرور. حملت بريطانية قرار العصبة الجديد وساومت في تنفيذه فوصلت المعاهدة الجديدة الى بغداد في اواخر كانون الاول (دسمبر) فوقعها رئيس الوزارة السعدون بعد ان وعده المندوب السامي الوعود في ما يتعلق بالاتفاق المالي وبدخول العراق في عصبة الامم. ثم جاء الرئيس بالمعاهدة الى المجلس فتصدت لها المعارضة يتقدمها ياسين الهاشمي وطلبت ان تحال الى لجنة خاصة للدرس فرفض السعدون الطلب واقترح ان تكون المناقشة سريّة فأيّد اقتراحه رجال حزب التقدم وكانوا قد رفعوا اليه عريضة يلحون فيها بالاسراع في المناقشة. وعند ما اخرج المتفرجون خرج كذلك رجال المعارضة فلم يبال الرئيس بذلك. وعند ما أقفلت ابواب المجلس فاه بكلمة وجيزة صريحة شديدة: أيها السادة اذا رفضنا ان نقرَّ هذه المعاهدة خسرنا الموصل. وما زال الامر كذلك فلا بأس اذا جاملنا المندوب السامي في طلبه بل في طلب وزير المستعمرات المستر إمري وهو ان يتم الاقرار قبل افتتاح دورة المجلس النيابي البريطاني في اول شهر شباط (فبراير) وكان المجلس او ما تبقى فيه بعد خروج المعارضة من حزب السعدون فبالغ بالمجاملة بعد الحوقلة والاتكال على الله. وأقر المعاهدة اكراماً للموصل لا للمستر إمري في ١٨ كانون الاول (دسمبر) بما يقارب الاجماع [1]. وفي هذه المعاهدة عاد الانكليز الى تعديل نص عهدهم الذي يتعلق بدخول العراق عصبة الامم فجاء كما يلي: «عند ما تنتهي المعاهدة الاولى عملاً بالملحق المعقود في شهر نيسان سنة ١٩٢٣، وبعد ذلك في كل اربع سنوات متوالية الى ان تنتهي الخمس وعشرون سنة اي مدة المعاهدة الجديدة، وتنظر الحكومة البريطانية في هل يمكن أن تتوسط لادخال العراق في عصبة الامم» هو المطال والتحمُّل، بل هو العهد المنقوض. وقد رطم العراق وتضعضع. وأمسى الملك فيصل في حال جهاد شبيهاً بحاله في سنة ١٩٢٢، بل اشد وانكد. واحز قلباه من قلبه شبم...

ومع ذلك فما وهن منه العزم ولا ضعفت ثقته بالله وبنفسه. بل كان دائماً يقول: سنسير بعون الله من معاهدة الى اخرى، وسنظفر بالتي فيها حقنا بأجمعه — سنظفر بالمعاهدة التي ستدوم. وبعد بضعة اشهر انعشت آماله وآمال العراق المعاهدة الثلاثية — التركية العراقية البريطانية — التي عقدت في انقرة في الخامس من شهر حزيران سنة ١٩٢٦، فاعترفت تركيا بخط «بروسل» وسلمت للعراق بولاية الموصل

وقد ادب الملك مأدبة رسمية إحتفالاً بهذا الحدث وتفاؤلاً به، فخطب خطبة اعرب فيها عن رغبته الشديدة بالسلم وجيرانه كلهم، وانه سيبذل ما في طاقته في هذا السبيل. وقد اشار المندوب السامي في تقريره الى هذه الخطبة فقال: وقد اعرب الملك عن امتنانه للحكومة البريطانية وتقديره لجهود ممثليها في سبيل العراق». ولكن الحوادث التي تتابعت بعد ذلك وتفاقمت لا تشف عن شيء من روح الامتنان والتقدير. ليصور المندوب صوره السياسية الزاهية الالوان. ليموه وينمق ما يشاء وشاءت سياسة المحال، فان الحقيقة البارزة الناصعة هي ان العراقيين فقدوا الثقة بالانكليز، فقدوها كلها، وكان احتقارهم لممثلي الحكومة البريطانية يزداد يوماً فيوماً، احتقروهم نعم ومقتوهم [للفصل تتمة]

(١) من الثمانية والثمانين، عدد اعضاء المجلس، كان تسعة غائبين و ١٩ من المعارضين الذين خرجوا والباقي ٥٨ اقروا المعاهدة

أثر الحضارة العربية

في الاندلس وصقلية وما اليهما[1]

بقلم محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ووزير معارف سوريا سابقاً

لما بدأ العرب بفتوحاتهم في الاسلام فقضوا على فارس واقتطعوا من بيزنطية مملكة الروم الشرقية الشام ومصر وسواحل افريقية كانت فارس والروم اقوى دول العالم واكثرها حضارة ، وكان العرب شبه متحضرين يتعلمون ممن غلبوهم ما يصلح الملك والسلطان . وما انقضى ثمانون سنة على خروج العرب من جزيرتهم حتى اضافوا ما عرفه المغلوبون الى ما عرفوه هم من اساليب الحرب والادارة فرأيناهم وقد مكّن لهم في الغرب يستولون على الاندلس ويتوسعون في فتوحهم جنوبي فرنسا

وبينا كان بنو أمية في الشام يديرون ملكاً عظيماً ويضعون اسس المدنية العربية بنقل العلوم المادية عن السريانية والقبطية والرومية ويعنون كل العناية بتدوين العلوم الدينية والادبية وقد بدأت طلائع الحضارة في البلاد التي اظلها سلطانهم ، كانت بلاد الغرب اللاتيني في احط دركات المدنية بل كانت الى همجية مرمضة تعد بداوة العرب في جزيرتهم قبيل الاسلام مدنية اذا قيست ببداوة الغرب . بلى كان الناس يعيشون في بلاد اللاتين والانجلوسكسونيين والجرمانيين والصقالبة في توحش مدلهم وأوربا غاصة بالغابات الكثيفة متأخرة في زراعتها والمستنقعات في كل ناحية تحصد الارواح والوبالة والاوبئة تغادي تلك الشعوب القذرة وتراوحها لا يعرفون البيوت الصحية ولا الفرش الوثيرة تنام الاسرة كلها في غرفة واحدة على فرش من تبن او نبات مجفف وهي الى الفطرة بعاداتها وأكلها وشربها ولباسها ومجالسها . وبيوت لندرا وباريس اكواخ صغيرة بنيت من احجار مضفورة مصفوفة كيفما اتفق وهناك قلاع وابراج وكنائس لا هندسة لها

وليس في الغرب شيء اسمه أمن وأمان ويقضي على كل انسان ان يكون على استعداد في كل حين ليردّ الاشقياء عن داره وحقله وفي غدوه ورواحه فلا ينام الاّ وسلاحه الى جنبه ولا يستطيع المرء ان يسير فراسخ قليلة دون ان يستهدف للقتل او السلب ، وقد جعل بعض ارباب القوة من نهب عروض الناس في الطرق مهنة لهم يعيشون منها يقتلون ويقتلون وما من حكومة قوية تناقشهم الحساب على ما تجني ايديهم لان الامراء كانوا مع رجال الدين اشبه برؤساء عصابات منهم بزعماء بلاد. ولم تكن اوربا كلها قد دانت بالنصرانية بل كان من ممالكها من لم يزل على مجوسيته ووثنيته. والنصرانية

(1) القيت في جامعة القاهرة الاميركية وينتظر ان تصدر مع سائر المحاضرات في كتاب على حدة يطبعه وينشره الياس انطون الياس صاحب المطبعة والمكتبة العصرية

دخلت المدن اولاً وتسربت الى القرى والدساكر بعد ازمان ، وبينا كان شارلمان اعظم ملوك الغرب أميًا او يقرب من الامية كان المنصور والرشيد والمأمون تترجم لهم كتب الطبيعيات والرياضيات والفلك والطب والفلسفة والصناعات . وبينا كان اهل غاليا اميين كلهم ما دوّنوا كتاباً ولا اخباراً ولا عرفوا ادباً ولا شعراً، كان العرب قد انشأوا في كل قطر نزلوه كتلاً علمية ومجالس ادبية واصبح عامتهم يقرأون ويكتبون وخاصتهم ينظمون وينثرون ويخطبون ويؤلفون ويبحثون في العلم والفلسفة على طريقة اشبه بطرق اهل المدنيات الحديثة على حين كان نبلاء القرون الوسطى في الغرب لا يمتازون عن الفلاحين بتهذيبهم وعلمهم وكلهم اميون جهلاء قساة الطباع يستحلون كل منكر لانهم لهم غير الشراب والطعام والصيد والغارات

وبينا كان الغرب لا يعرف حياة الرفاهية ، ومن اهله كسكان شلشويق (شلزويك هولشتاين) في الدانيمرك مَن كانوا كالوحوش يسترون عوراتهم بقطع من الجلود شأن كثير من الشعوب في شرق اوربا وشمالها ولا يحسنون لفق الجلود ولا خياطتها ايضاً كان العرب قد دخلوا في مباهج الحياة ورفاهة العيش يلبسون. ونساءهم اجمل الاكسية من الحرير والقطن والصوف والكتان ينسجونها في معاملهم ويحوكونها على انوالهم وهي وافية بحاجات الحضري والقروي منهم على اختلاف الفصول

كان اول احتكاك مدني وقع بين العربي والغربي في آسيا الصغرى لانها كانت ميداناً للغارات بين العرب والروم منذ اقتطع العرب الشام من املاك البيزنطيين وحاولوا ان يتقدموا الى فتح القسطنطينية. وتكون الغزوات بين الفريقين سجالاً فيأخذ كل فريق من الفريق الآخر أسارى قد يقضون في بلاد عدوهم اعواماً فيتعلم العربي الرومية ويتعلم الرومي العربية ويزور في ايام المهادنات والسلام بعض اهل الطبقة العالية والوسطى البلاد المجاورة ويرى كل ما عند الفريقين من اسباب التفوق وما خلت بلاده مما عند جاره من عوامل النهوض واساليب القوة في الامم

ولما انبلج فجر القرن الثاني زادت ساحة اخرى لتعارف العربي بالغربي وهي ساحة جنوب اوربا الغربية أضيفت الى ساحة جنوب اوربا الشرقية بفتح العرب الاندلس سنة (٩٢هـ) عند ما قضوا على مملكة الويزغوت او القوط كما كان يطلق عليهم العرب . وانحاز الاسبانيون الى شمال جزيرة ايبريا يعتصمون في جبال جليقية ويستأثر العرب بمعظم بلاد اسبانيا والبرتقال يستصفونها من البحر الرومي الى بحر الظلمات ويقرون اهل البلاد على قضاتهم وأداراتهم ويعدلون فيهم ويقلدونهم بعض الاعمال الصغرى ينتهون منها الى كبرياتها بعد زمن قليل . ومن عادة العرب اذا فتحوا قطراً ان يبقوا لأهله اوضاعهم ومصطلحاتهم وتراتيبهم وان يحكموه لاول الامر حكماً اشبه بالحماية ثم يحيلونهُ ملكاً صرفاً، وهذا من بديع سياستهم. وكانت الجزية التي ضربها العرب على غير المسلمين زهيدة بالقياس الى ما كانوا يستمتعون بهِ من الراحة والمناعة وقضت شروط الصلح على ان تجعل على كل رجل حر بالغ ديناراً واحداً في السنة واربعة امداد قمح واربعة امداد شعير ومقداراً من الخل والعسل والزيت وعلى العبد نصف ذلك وان تحفظ على اهل البلاد دماؤهم فلا يسبون ولا يفرق بينهم وبين اولادهم ونسائهم ولا يكرهون على دينهم ولا تحرق كنائسهم

وما عتّم الاسبانيون والبرتقاليون ان شاهدوا الفرق المحسوس بين ثقافة العرب الغالبين وثقافة

المغلوبين وادعى بعضهم ان حضارة الاندلس كانت لا بأس بها بدخول العرب وفاتهُ ان القوم نسوا لغتهم بمجرد استيلاء الغريب على اسبانيا فما انقضت ثلاثون سنة على الفتح حتى اصبح الناس ينسخون الكتب اللاتينية بحروف عربية كما كان يفعل اليهود بمخطوطاتهم العربية وما مضى نصف قرن حتى دعت الحال الى ترجمة التوراة والقوانين الكنسية الى اللغة العربية ليتمكن رجال الدين انفسهم من فهمها وما اتت على الفتح خمسون سنة حتى اصبح الناس كلهم يتكلمون بالعربية والعقود والمواثيق تكتب بالعربية حتى بين الاسبانيين انفسهم. واتخذ النصارى من اللغة العربية ترجماناً لعواطفهم وقلوبهم واخذوا يحبون تلاوة قصائد العرب وقصصهم ويدرسون كتب علماء الاسلام وفلاسفتهم لا ليردوا عليها بل ليحلُّوا بها منطقهم، يقرأون العربية بلذة ويقتنون كتبها بالاثمان الغالية يؤلفون منها خزائن نفيسة ويذكرون في كل مكان ان آداب العرب مما يعجب به واذا حدثتهم عن كتبهم الدينية اجابوك بازدراءٍ ان هذه الكتب غير حرية بالتفاتهم ، وما كنت تجد في الف رجل من يكتب رقعة مناسبة باللغة اللاتينية وانت اذا كلفت احدهم ان يكتب بالعربية تجد جمهوراً يعبرون عن افكارهم بهذه اللغة على صورة بديعة وقد ينظمون من الشعر العربي ما يفوق بما فيه من الصناعة شعر العرب انفسهم

لم يمضِ قرن على فتح الأندلس حتى اخصبت القرى وكثرت المزارع واتصل العمران وتزاحم الناس بالمناكب في المدن ، وغدت قرطبة عاصمة البلاد كعواصم اوربا اليوم : تنار ليلاً بالمصابيح يستضيء الساري بسرجها ثلاثة فراسخ ، وكان من رجال الحسبة وهي أشبه بالمجالس البلدية ودواوين الشرطة اليوم، ان بلَّطوا الشوارع واخذوا كل يوم يرفعون القمامات والقاذورات ويزال ضرر المجاري والقني لئلاَّ يتأذى بها السكان ولا يبني من يحب البناء الاَّ على طريقة هندسية يعينها له ديوان الحسبة ليترك فراغاً يتمتع بهِ الجيران وابناء السبيل لا يمنع عنهم الشمس والهواء ولا تتضايق المارَّة مهما كثر سوادهم . فقرطبة اذاً اول مدينة في العالم كان لها مثل هذا النظام . وما لبثت ان غدت عاصمة علم وصناعة وفن وتجارة، وكعبة يحج اليها بعض النابهين من اهل الغرب ينظرون الى تراتيب العرب وعدلهم واحكامهم نظر الدهشة والاستغراب ومثلها كانت طليطلة وغيرها من قواعد الأندلس في الشمال والجنوب

ونقل بنو أمية منذ كانت الاندلس احدى ولاياتهم وبعد ان فتحها عبد الرحمن الداخل الاموي فتحاً ثانياً واستقلَّ بملكها بعد تغلب العباسيين على دولة اهله في الشرق — اصول آلهِ في اداراتهم واحكامهم واوضاعهم وطراز هندستهم في القلاع والجسور والدور والقصور والجوامع حتى لقد جعل العرب البيوت والمساكن في ارض الاندلس على الطراز الذي عرفوه في عاصمتهم القديمة دمشق كأن تدخل البيت من دهليز طويل ينتهي بفناء واسع وسطه حوض ماء وعلى جوانب صحن الدار غرف وابهاء ومقاصير يأوي اليها اهل البيت في الصيف وفي الشتاء ينزلون في الطبقة الثانية من الدار وفيها جميع المرافق وفناء الدار غاص بالازهار وبعض الاشجار المثمرة او الملطفة للهواء . والدار طبقتان فقط وتكون غرف الرجال ومثاوي الضيوف منعزلة عن غرف النساء ولا يزال هذا الترتيب في البيوت محبباً الى الناس في الولايات المعروفة بالولايات الأندلسية الى يوم الناس هذا يجددون دورهم

على هذا الطراز. واصبحت الاندلس على عهد عبد الرحمن الثالث الاموي عالم الملوك وحامي الآداب والعلوم والصنائع والتجارة وعلى عهد اخلافه ولا سيما ابنه الحكم الثاني احسن الممالك حضارة وعلماً وحسن ادارة في القرون الوسطى بل ما وسع المرابطين والموحدين وان كانوا من البربر الاَّ ان يخدموا الحضارة العربية ، بل ان الملوك من بني الاحمر لم يسعهم فيما بعد الاَّ ان ينسجوا في الاندلس على منوال الامويين كما لم يجد ملوك الطوائف والمتغلبون على الاطراف مندوحة من الجري على هذا المثال في خدمة العلوم والآداب يغالون في اختيار خيرة العلماء والادباء لتقليد الاعمال . ولقد وهت في الاندلس بعد بني امية امور كثيرة ولاسيما في السياسة ولم يضعف فيها العلم والصنائع والتجارة والزراعة، وكان ولاة الامر الى الخير في عامة احوالهم تقل الرشوة فيهم ويبتعدون عن كل ما لا يعبث باصل من اصول الدين في الجملة. وكان معظم ملوك الغرب على اتصال دائم بملوك الاندلس وامرائها يوم كانوا لاول سلطانهم في عاصمتهم قرطبة وكذلك لما ضغط عليهم ملوك قشتالة وقبعوا في عاصمتهم غرناطة . وما بقي من آثار العرب الكثيرة في جامع قرطبة وقصر الحمراء في غرناطة الى اليوم دليل ناطق بما بلغته حضارتهم من مراقي الفلاح الباهر

وادخل العرب الذين جلوا الى الاندلس وسكنوا في المدن والارياف سكنى دائمة طرائق معيشتهم واصول زراعتهم وصناعاتهم على النحو الذي ألفوه في المشرق ادخلوا اليها كثيراً من اصناف الحبوب والبقول والاشجار وزرعوا الفلوات واحيوا الموات وعمروا القرى والمدن وادخلوا الى الاندلس معظم الصنائع واخذوا يجرّون المياه في بسائط الجزيرة بما اقاموه من الخزانات والنواعير وبما عرفوه من اساليب الهندسة في تقسيم المياه ، واسداد بلنسية الباقية الى اليوم شاهدة بتفننهم في اعمال الري والسقيا ، وهي أثر من آثار نبوغهم في الهندسة . وغلب هذا العلم على اهل هذه الولاية حتى لنقرأ في تراجم الرجال ان فلاناً امام الجامع الاعظم كان مهندساً وفلاناً قاضي الجماعة وقاضي القضاة كان مهندساً رياضيًّا . وامتع العرب ابناء البلاد من النصارى — وكانوا يسمونهم المستعربين كما يسمون المسلمين الخاضعين لاسبانيا المدجنين — بعامة حرياتهم يبنون ما شاءوا من بيع وكنائس ويعقدون مجامع اساقفتهم ، وقد عقدوا (سنة ٧٨٢ م) مجمعاً في اشبيلية وفي (سنة ٨٥٢ م) مجمعاً في قرطبة. وكان رجال الدين من النصارى يدعون الى دينهم في صميم بلاد الخليفة الاندلسي وربما وقفوا على ابواب المساجد يتسقطون المسلمين ليبثوا دينهم بينهم ويتعرضون للقتل والاهانة حتى تكتب لهم الشهادة والسعادة . والمسلمون لا يتعرضون لهم واذا مرّوا باللغو مرّوا كراماً . وبلغ من سياسة العرب في الاندلس انه اذا شجر خلاف بين مسلم ونصراني من الجند يعطي الحق غالباً للنصراني فنشأت بذلك وحدة وطنية بين الغالب والمغلوب . وكان الغالب يومئذٍ في أقصى قمم عظمته وقوته

ولقد علَّم العرب الشعوب النصرانية كما قال العلامة جوستاف لوبون اثمن الصفات الانسانية واعني بها التسامح ، وما تناول التبدل الذي ادخلوهُ الى الغرب الماديات والعقليات فقط بل تعداها الى تحسين الاخلاق ، وكان العرب ينطوون على صفات فيها الكرم والاحسان وفيها الشمم وعزة النفس مما لم يكن له أثر عند غيرهم . وانتحل الاسلام كثير من الاندلسيين وما كان لهم غير مصلحة

ضئيلة في ذلك لأن النصارى في الحكم العربي كانوا يعاملون كاليهود ايضاً بقواعد المساواة ولهم ان يتولوا جميع اعمال المملكة ، وكانت تجري على سادات الاسبان احكام الاسلام فيختلطون باشراف العرب ومن ظلَّ محتفظاً منهم بدينه تنسى تقاليده ، فصار يحجب نساءه كالمسلمين ويقتدي بازيائهم والبستهم وعاداتهم في مآدبهم ورفاهيتهم ولذائذهم ويزهد في اللغة اللاتينية ويجتهد في تعلّم اللغة العربية وتنامى الاسبان اصولهم واستعربوا بحضاراتهم واخلاقهم وانشأوا يفصحون بالعربية وصار الخلفاء يختارونهم عمالاً لاداراتهم وامناء لمشورتهم يفضون اليهم باسرارهم وكان كثير من اذكياء الجلالقة والقشتاليين والليونيين والنافاريين دع من كانوا في البلاد الواقعة في حكم المسلمين من ارض الاندلس يتعلمون العربية ويقصدون الخليفة الاندلسي أو احد رجاله يستخدمون في ارضه

وتزوج العرب من بنات الاسبانيات والبرتقاليات وشاع هذا الزواج بين العرب وامسى ملوك النصارى على عهد انقسام الأندلس بين ملوك الطوائف يتزوجون من بنات امراء المسلمين فقد تزوج الفونس السادس بزايدة ابنة امير اشبيلية وعقد مثل هذا الزواج غير مرة وكان عدد المتزوجات من الاسبانيات والبرتقاليات من المسلمين وعدد المسلمات المتزوجات من الاسبانيين والبرتقاليين آخر ايام الاندلس كثيراً جداً حتى جرى لذلك كلام في الشروط التي تمت بين الغالب والمغلوب. ومن العرب من آثر زي الاسبانيين من الملابس والسلاح واللجم والسروج وكلف بلسانهم وكثير من اهل الطبقة العالية من المسلمين كانوا يعرفون لسان جيرانهم ويتشبهون بهم في الاكل والحديث وكثير من الاحوال والهيئات وكان بعض ملوك بني الاحمر يتزيا بزي الاسبان وكذلك اجنادهم . وذكر العلامة ابن خلدون ان الاندلسيين لعهده اخذوا يتشبهون بأمم الجلالقة في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم واحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت وعدَّ ذلك من علامات الاستيلاء . ولقد قالوا ان عزيز بن خطاب وكان من اكابر العلماء لما ملك على مرسية استمع خطبة الخطيب حاسر الرأس على مثال ملوك الافرنج وكذلك كان ابن هود يسير في بلاده حاسراً وعلى هذا درج بنو الاحمر . وكان يسمح لعلماء المسلمين هناك ان يرخوا ذوائبهم على مثال رجال الفنون والادب من الاسبان وأخذ النساء والبنات المسلمات يقلدن الاسبانيات في العهد الاخير بملابسهنَّ والسفور او الحجاب الذي لا بال له» وبلغ من تسامح امراء المسلمين في الاندلس ان منذر بن يحيى صاحب سرقسطة وأذكنها ان اجرى زواج ريمند الجليقي وشانجه القسطلي من ملوك الاسبان على يديه وكتب عقد النكاح بينهما بحضرة سرقسطة في حفل من اهل الملتين . وذكروا ان بعض الاندلسيين كانوا يعرضون في قصورهم التماثيل الجميلة وفيها صور الآدميين وغيرهم

كانت الاندلس العربية البلد الوحيد في الغرب الذي كانت فيه حقوق اليهود مصونة من جور الجورة فانهالوا عليها من كل فج وكثر فيها سوادهم ومنهم من انصرف الى خدمة الدولة وتعلم العلوم كالطب ونحوه ومنهم من انتفع بما ربطته حكومة الاندلس مع البلاد المجاورة من الصلات التجارية فكانوا من اول التجار الذين تسافر متاجرهم مع متاجر العرب والبربر وغيرهم على الاساطيل التجارية

مقلعة من مالقة وبجانه والمريّة ولشبونة وبرشلونة تحمل الى الشرق والى شمال افريقية وجنوب اوربا غلال الاندلس وتأتي اليها بغلال البلاد القاصية . وبعد انقضاء عقود من السنين كان الفضل لبعض علماء اليهود في الاندلس بنقل الحضارة من العربية الى العبرانية واللاتينية فحملوا علم ساداتهم بالامس الى من لم يلقوا منهم في معظم الادوار الا العنت والارهاق وربَّ كتاب ضاع اصله العربي وبقيت ترجمته اللاتينية او العبرانية على نحو ما كان من السبعين كتاباً التي نقلها في مدينة طليطلة من العربية الى اللاتينية جيراردو دي كريمونا في القرن الثاني عشر وهي في الهيئة والنجوم والهندسة والطب والطبيعة والفلسفة

وعدّن عرب الاندلس المناجم على اختلاف ضروبها فكانوا يبعثون بما يستخرجونه من ارضهم ويصنعونه من السلاح في معاملهم وبالحرير والجوخ والجلد والسكر والورق الى افريقية وسائر بلاد المشرق والمغرب واشتهرت معامل الورق في شاطبة اشتهار قرطبة بجلودها وسلاحها وحليّها واشبيلية بحريرها ومالقة بزجاجها والمرية بوشيها وديباجها وجوخها وباجة بنسج كتانها وسرقسطة بسلاحها ورية بسجادها وطليطلة ومرسية بأسلحتها . وكانت اوربا الغربية تأخذ ورقها من الاندلس واوربا الشرقية تستبضعه من معامل دمشق وحلب وطبرية وطرابلس من الديار الشامية . وحمل العرب الى الغرب من جملة الصنائع صناعة السجاد وصناعة السفن فجعلوا في كل فرضة بحرية من موانئ الاندلس على البحر الرومي وبحر الظلمات دور صناعة تخرج لهم السفن الوافية بالغرض في تلك العصور . فكان الانتفاع من البر والبحر على اتم حالاته . وكانوا يستخرجون من دابة تحتك بحجارة على شط البحر في شنترين وبراً في لون الخز لونه لون الذهب وهو عزيز قليل تنسج منه ثياب فيتلوّن في اليوم الواناً ويحجز عليها ملوك بني امية فلا تنقل الا سرًّا وتزيد قيمة الثوب على الف دينار لعزته وحسنه . بل بلغ من غرام ملوك غرناطة بالعلم ان فرضوا جوائز للمخترعين لينشطوهم ويلقوا المنافسة بينهم وربما ميزوهم بامتيازات خاصة وان يجيزوا بالمال الكثير من يستظهرون كتاباً يعينونهُ في الفن الفلاني . وكما كانت للاندلسيين مجامع علمية تجتمع في اوقات مخصوصة من السنة كان علماؤهم يؤلفون رسائل يفهمها كل انسان تكون لهُ عوناً على الانتفاع بالاعمال العامة اي دساتير سهلة التناول يتدارسها الصناع والعملة فتعبدهم فيما هم بسبيله

وانتقلت بعض صناعات العرب واساليبهم الى فرنسا ولاسيما في الزراعة وحفر الترع والخلجان ونظام الري وكانوا انشأوا الطرق والجسور والفنادق للسياح والمستشفيات والجوامع والرباطات في كل محلة ومنزل ورأى الفرنسيس كيف عمر العرب ناربون وبروفنسيا لما استولوا عليها وكيف نظموا اساليب سقياها وادخلوا اساليب عمرانهم الى قرقشونة ونيم واتون وسانس وافنيون ومرسيليا وارل وبوردو ومنها ما جعلوه قاعدة لاعمالهم الحربية والبحرية ووقفوا عند حدود سبتمانيا حيث اقاموا لهم فيها مراكز دائمة وعقدوا عهوداً مع اهل البلاد . وكان رجال الكهنوت في تلك الاصقاع يؤثرون حكم العرب على حكم الغزاة من الجرمانيين لان هؤلاء ما كانوا يتحرجون من الاستيلاء على املاك الكنائس واخذت الصلات العديدة تنعقد بين المسلمين والنصارى ولما ارتد العرب عن اقليم سبتمانيا سنة (٧٥٩ م) احتفظوا هناك باملاكهم وبيوتهم

آيات في خلقه

[طلب الينا نفر من اصدقاء المقتطف — وطلبهم عزيز علينا — ان ننشر في كل عدد منه فصلا في عجائب المخلوقات ، وما جهزتها به الطبيعة من وسائل العيش والكفاح ، فاخترنا لهذه الفصول العنوان السابق ، وهو عنوان مقالة لمنشيء المقتطف الدكتور صروف — رحمة الله عليه — ونشرنا المقالة نفسها توطئة للفصول التي اعددناها عسى ان يصيب القراء من مطالعة هذه الفصول لذةً وفائدة]

الآيات البينات

في ادارة المقطم والمقتطف مطبعة او آلة طباعة يديرها سير من الجلد تحركهُ الكهربائية فتسحب الورق من لفتين كبيرتين وتمرّهُ فوق حروف الطباعة بعد ان تحبّرها وتطبعهُ من وجهيهِ وتقصّ منهُ صحيفتين بعد صحفتين وتضع احداهما داخل الاخرى وتلصقها بها وتطويهما طولاً وعرضاً اربع طيات فيخرج المقطم منهما مطبوعاً مقصوصاً ملصوقاً مطويًّا . وهي تطبع كذلك اثني عشر الف نسخة في الساعة وتقصها وتلصقها وتطويها وتعدها تفعل ذلك كلهُ من غير ان تساعدها يد او يرشدها عقل . ولكن لقد اشتغلت عقول مئات من العلماء وعملت ايادي الوف من العمال مدة سنين كثيرة الى ان صارت هذه الآلة تعمل هذا العمل . وحتى الآن لا يخرج منها عدد واحد من المقطم مطبوعاً الاَّ بعد ان تشتغل العقول وتعمل الايادي في بلدان كثيرة في عمل الورق والحبر واستخراج الفحم الحجري وتوليد الكهربائية ناهيك بما يلزم للآلات الكهربائية من المواد والعمال وبما لزم لسبك الحديد والنحاس والرصاص والنكل ونحو ذلك من المعادن التي دخلت في عمل آلة الطباعة وعمل الحروف وعمل الآلات الكهربائية . ولو احصينا جميع الذين اشتغلوا في عمل كل ما يلزم لطبع عدد واحد من المقطم لبلغ عددهم الوفاً وعشرات الالوف . فمن يقول ان المطبعة تطبع الجريدة لذاتها وينكر كل ما وراءها من العقول يخالف كل معقول

***

يُزرَع القمح في هذا القطر في نحو مليون وربع مليون من الافدنة ومساحة الفدان ٤٢٠٠ متر مربع ولا يقل عدد السنابل في المتر المربع عن مائتي سنبلة فعدد السنابل كلها التي تنبت كل سنة

في القطر المصري وحدهُ لا يقل عن مليون مليون سنبلة اي اكثر من عدد كل سكان الارض ستمائة ضعف. وفي كل سنبلة بل في كل حبة من حبوبها من الدقة في التركيب والحكمة في الوضع والصفات الموروثة والمكتسبة والاستعداد للنمو والتوليد ما لا يوجد عشر معشارهِ في آلة الطباعة المشار اليها آنفاً . فمن يستطيع ان ينكر وجود العقل الموجد لها والمتولي شؤونها ولو بايجاد القوى التي تحرك كل دقيقة من دقائقها وكل ذرة من ذراتها

واذا استنرت بنور الكيمياء وحللت دقائق حبة القمح رأيت ان كل دقيقة منها مؤلفة من ملايين وملايين الملايين من الذرات الصغيرة وكلها متحركة ولا تحرك اجزاء آلة الطباعة وفيها من الصفات والخواص ما يميز القمح الصعيدي عن البحيري والهندي عن البلدي . ثم اذا علمت ان ما يزرع من القمح في هذا القطر ليس جزءا من مائة مما يزرع في الارض كلها ولا جزءا من مائة الف جزء مما ينمو من سائر الحبوب والبزور رأيت ان عالم النبات وحدهُ يذهل العقول حتى لا ترى لها مندوحة عن الاعتراف بالقوة الخالقة المدبرة

وعالم الحيوان لا يقلُّ عن عالم النبات في غرائبهِ . ترى حيواناً من اصغر الحيوانات الدنيا السابحة في الماء طولهُ جزء من ثلاثة آلاف جزء من العقدة اي لو جمع ثلاثة آلاف حيوان منهُ ونظمت طولاً في سطر واحد ما بلغ طولها اكثر من عقدة (بوصة) فلا يرى الاَّ بالمكرسكوب . راقب بعضهم هذا الحيوان في العام الماضي ودرس طبائعهُ وكتب عنهُ يقول : — رأيتهُ اولاً مستطيلاً ولهُ ذنب دقيق طويل وعند مغرز هذا الذنب في بدنهِ ذنب آخر غليظ قصير فيسبح في الماء بتحريك هذين الذنبين . وبعد ان يسبح مدة تختلف من بضع دقائق الى بضع ساعات يسكن ويصير كرويًّا ويبقى ذنبهُ الطويل متحركاً متمعجاً كالافعى وحركتهُ تجعل امواجاً في الماء تندفع اليهِ بما فيها من الميكروبات . وحينما تدنو هذه الميكروبات منهُ ينحني عليها ذنبهُ الطويل وتنفتح لها فتحة بين الذنبين فتبتلعها . على هذه الصورة يلتقم هذا الحيوان غذاءهُ وقد يلتقم حيوانات صغيرة من نوعهِ فهو من الحيوانات المفترسة على صغر جسمهِ وحقارة قدرهِ . وقد التقم واحد امامي خمس حيوانات صغيرة من نوعهِ في تسع ساعات وقبض على ثلاثة أُخرى ليبتلعها لكنها تملّصت منهُ وهربت بعد ان كاد يفترسها . وفي باطنهِ سائل حامض يهضم ما يفترسهُ كما تهضم معدنا الطعام . ثم يسكن مدة بعد ما يغتذي الغذاء الكافي ويعود جسمهُ مستطيلاً كما كان اولاً وتكثر المادة الحبيبية فيهِ ويحدث لهُ حينئذٍ امر من امرين إما ان يستدقَّ من وسطهِ ثم ينقسم الى حيوانين مستقلين كلٌّ منهما مثل الحيوان الاول واما ان يتغير شكلهُ وتضعف حركتهُ ويأتي حيوان آخر يشبههُ وهو في شكلهِ الاول ويلتصق بهِ فيمتزج الحيوانان امتزاج التزاوج الحقيقي ويصيران حيواناً واحداً كرويًّا فيزول ذنباهُ ويسكن مدة طويلة ست ساعات او اكثر ثم ينفجر من احد جوانبهِ وتخرج البزور منهُ وكلٌّ منها جزءٌ من ثلاثين الف جزء من العقدة . وهذه البزور تعوم في الماء وتنمو رويداً رويداً وبعد نحو ساعتين يتولد لكلٍّ منها ذنبان ويصير حيواناً كاملاً . اي ان

هذا الحيوان الذي لا يرى بالعين لصغرهِ يولد ويتحرَّك ويغتذي ويتزوج ويلد حيوانات كثيرة من نوعه إما بالانقسام وإما بالولادة

وكم في مياه الارض من الملايين وملايين الملايين من مثله وكم في هوائها وترابها من مثل ذلك وكل حيوان منها يولد ويسعى ويأ كل ويغتذي ويتزوج ويلد وفي بنيتهِ من الاعضاء والآلات ما يفوق آلة الطباعة المشار اليها آنفاً اتقاناً واحكاماً عدا ما فيها من ذرات العقل المدبر والاعصاب التي تشعر وتدبر حركات الحيوانات وتكيّفها بحسب الاحوال التي تعرض لها حتى تهاجم وتدافع وتفترس وتهتضم وتغتذي وتتزاوج وتتوالد

وما هي هذه الحيوانات الميكرسكوبية الدنيا بالقياس الى الحيوانات الكبيرة ، الى الاسماك والطيور والزحافات والى الحيوانات العليا كالهر والاسد والفرس والفيل بل بالقياس الى الانسان سيد المخلوقات في هذه الارض فهل يعقل ان ليس في الكون قوة خالقة مدبرة اوجدت هذه الكائنات او اوجدت القوى التي توجدها وتدبرها وتدبر حركاتها

هذه هي بعض الآيات البينات التي لا يغضي عقل الانسان عنها وعمَّا تدلُّ عليهِ الاَّ اذا تكلَّف الاغضاء تكلُّفاً أو كان خاملاً لا يفكّر ولا يقيس ولا يستنتج

الاكسجين وحياة الحيوان

عجائب الوسائل التي ابتدعتها الطبيعة

تشبَّهُ الحياةُ بالشعلة . فيقال اذا طاح الردى بشابٍ « اطفئت فيهِ شعلة الحياة » . وهذا التشبيهُ ليس من ابتداع الخيال الوثاب فقط ، بل هو قائم على اساس من الحقيقة . فالشعلة لا يمكن ان تستمرَّ الاَّ اذا استمرَّ تفاعل كياويٌّ معيَّن ، هو اتحاد الاكسجين (الاكسدة) بمادة عضوية لهوبة . والفرق بين شعلة النار وشعلة الحياة ، ان الاكسدة في الاولى بسيطة وشديدة ، تتمّ على درجات عالية من الحرارة ، وأما الثانية فمعقَّدة ولطيفة . فالخشب يشتعل ولكن الجسم الحيَّ يحترق احتراقاً بطيئاً . الشعلة حامية وأما الجسم فدافئٌ فقط . وفي كلا الحالين ، في الخشب المشتعل ، أو في خلايا الجسم الحيّ ، ترى المادة تتأكسدُ . فالاكسجين لا بدَّ منهُ للشعلة ولا بدَّ منهُ كذلك للحياة

والحاجة الى الاكسجين يشترك فيها الاحياء جميعاً من ادناها وابسطها الى اعلاها وأكثرها تعقيداً . وما مصدر الاكسجين ؟ ينفخ الهواءُ في الاتون بمنفاخ قوي فتستمدُّ النار من تيارهِ

الاكسجين الذي تحتاج اليهِ . والاحياء تستمدُّ الاكسجين من الهواء كذلك . وليس ثمة اي مصدر آخر للاكسجين تستطيع الاحياء ان تتناولهُ منهُ . ومقدارهُ في الهواء كبير جدًّا ، فالهواء الذي يملأ الفضاء فوق كل ميل مربع من الارض فيهِ خمسة ملايين طن من الاكسجين . ولما كان الانسان في خلال حياتهِ لا يستنفد اكثر من طنٍّ واحد من الاكسجين ، فلا خوف اذاً من ان يصاب الناس بقحط الاكسجين يوماً من الايام ، اذا ظلَّت الاحوال الجويّة على ما هي عليهِ الآن

والمسألة التي تهمُّ الاحياء ، ليست « هل هناك مقدارٌ كافٍ من الاكسجين ؟ لان المقدار يفوق ما تحتاج اليهِ ، وانما « ما هي الوسائل التي تمكّنها من الحصول عليهِ » . ان الاحياء الدنيا تعيش في الماء ، بل المرجَّح عند علماء الحياة ، ان الحياة نفسها بدأت في البحر لا على اليابسة . فالاحياء الاولى كانت بعيدة عن الهواء ، فكيف كانت تستطيع الحصول على الاكسجين الكافي لافعال الحياة ؟ والجواب عن ذلك ان الاكسجين ، يمكن حلّهُ الى حدٍّ ما في الماء ؛ فاذا تكسرت الامواج او أزبدَ البحرُ ، حلَّ بعض الاكسجين الذي في زبد الامواج في المياه ؛ وكذلك لا يعسر على حيٍّ يقطن البحر من الحصول على قدر من الاكسجين ، اذا كان جسمهُ مجهزاً بآلة لذلك ؛ واذا كان مسكنهُ غير بعيد الغور

ولكن هل تستطيع الاحياء البحرية ان تتناول كل ما تحتاج اليهِ من الاكسجين مما ذاب منهُ في الماء ؟ الغالب ان حاجتها الى الاكسجين يسيرة ؛ فمعظمها صغير الحجم ، والحيوانات ذوات الخلية الواحدة منها لا تزيد على رأس دبّوس او هي اصغر . فالمقدار الذي تحتاج اليه من الاكسجين يسير . وهي تستمدّهُ من الماء ، بامتصاصه ، كما تمتص قطعةُ السكر ، الشايَ او القهوةَ ، اذ يُصَبُّ احدها في الفنجان . على ان قلة ما تحتاج اليهِ الحيوانات الواحدة الخلية ، من الاكسجين ليس سببهُ صغر حجمها فقط ، بل كونها باردةً وقليلة الحركة كذلك . فاذا اخذنا حيوانين متساويين حجماً وكان احدها بارداً قليل الحركة ، وكان الآخر ، دافئاً نشيطاً كثير الحركة ، كانت حاجة الثاني الى الاكسجين اعظم من حاجة الاول

***

على أنَّ البحر يحتوي على حيوانات ، بلغت درجات متفاوتة في سلم الارتقاء . وهي في ارتقائها اصبحت معقدة البناء كبيرة الحجم . خذ مثلاً حيوان التوتياء (الرتسا) فهو حيوان شائك ، لم يبلغ درجة عالية في سلم الارتقاء ، ولكنه لا يقل عن البيضة حجماً وقد يبلغ حجم رأس الطفل . هذا الحيوان لا يمكن للاكسجين ان يخترق سطحه ، كما يتغلغل الشاي في قطعة من السكر . ثم اذا اعتمد حيوان التوتياء على امتصاص الاكسجين ، وتغلغله في الجسم ؛ تعذَّر عليهِ العيش لأن الامتصاص والتغلغل بطيئان ، وجسم التوتياء في جميع اجزائهِ يحتاج الى هـذا الغاز الذي يحفظ شعلة الحياة متقدةً في جسم صاحبها . لذلك ابتدعت الطبيعة لهذا الحيوان جهازاً من الاقنية تطوف

بكل اجزاء الجسم ، يدخلها ماء البحر ، فيتصلُ كل جزءٍ من الجسم بالماء الذى فيه الاكسجين ويمتصُّ منه ما يحتاج اليهِ ، او ما يستطيعهُ

قلنا ان السائل الذي يدور في اقنية التوتياء ماء ، والواقع انهُ ليس ماء لانهُ اذا وضع في الهواء تخثر . بل انهُ نوع بدائي من الدم او هو من المحاولات الاولى التي حاولت بها الطبيعة خلق سائل يؤدي وظيفة الدم

***

نلتفت الآن الى حيوان اعلى مرتبة في سُلَّم النشوء . هو الكَرْكَنْد (القريدس في سواحل الشام والجمبري في مصر — معجم الحيوان) وهو من الحيوانات البحرية عشارية الارجل . حركة هذه الحيوانات اشد من حركة التوتياء فحاجتهُ الى الطاقة التي مصدرها اتحاد الاكسجين بالمواد العضوية اعظم من حاجة التوتياء . ومن الطبيعي ان ننتظر ان تكون الوسائل التي جهَّزتهُ بها الطبيعة لتناول الاكسجين اوفى من وسائل الحيوان السابق . فالكركند ، اقنية يندفع فيها السائل الحاوي للاكسجين ، ويصحُّ ان ندعوها اوعية دموية . وله قلب يدفع هذا السائل ، وله علاوة على ما تقدم ، وسائل خاصة يستطيع ان يتناول بها الاكسجين من ماء البحر هي نوع من الخياشيم التي نجدها في الاسماك . فالصدفة التي تغطي ظهر الكركند يتدلى منها ترسان تغطيان جانبي الحيوان من دون ان تكون ملتصقة بهما . فاذا ازيل الترسان رأينا تحتهما اجساماً تشبه الريش في بنائها . وكل ليف من الياف هذه الاجسام يحتوي على اوعية دموية في داخلها . فالدم الذي يدور في هذه الاوعية ، مفصول عن ماء البحر المحتوي على الاكسجين ، بغشاء رقيق جدًّا ، بنيت منهُ جدران الاوعية ، وتقيه الترسان من صدمات الاجسام الصلبة في البحر . فاذا جاء الدم من انسجة الكركند الى هذه الاوعية المكشوفة لماء البحر ، كان خالياً من الاكسجين فيمتصه من الماء الذي يحيط بجدران الاوعية ويعود الى الانسجة ليغذيها بهِ

***

ولكن هنا شيء عجيب . ذلك ان الاكسجين تصعب اذابتهُ في الماء . بل هو يختلط بهِ بنسبة جزئين الى مائة جزءٍ حجماً . واذاً فعلى الكركند ان يتناول قدراً كبيراً من ماء البحر لكي يستخرج منهُ المقدار الذي يحتاج اليهِ من الاكسجين . لذلك ابتدعت الطبيعة مادة كيمائية يسهل حلُّها في الماء ، فاذا حلَّت فيهِ ، سهل على الماء حمل مقدار كبير من الاكسجين . اي ان هذه المادة تسهل انحلال الاكسجين في الماء . ولهذه المادة صفة اخرى عجيبة . ذلك انهُ اذا وصل الدم الحامل للاكسجين الى انسجة الكركند ، تخلَّت هذه المادة عن الاكسجين الذي نقلتهُ من الاوعية الجانبية — وهي بمثابة رئات لهذا الحيوان . وتدعى هذه المادة « هيموسيانين » وهي من مركبات النحاس . وهي تذكرنا بالهيموغلوبين الذي في دم الانسان ، ووظيفته امتصاص الاكسجين من

الرئتين وحمله الى الانسجة . ولكن اذا قرَّ الحيوان ولم يتحرك الماء حواليه تفد الاكسجين من الماء الراكد ؛ فتعذر عليه الحصول على ما يحتاج اليهِ منهُ ، ولذلك ترى في الكركند جهازاً آخر كالجذاف دائم الحركة ، الغرض منهُ تحريك الماء ، بغية اقصاء الماء الذي نفد منهُ الاكسجين ، ليحل غيره محله

فشكلة الحصول على الاكسجين في الحيوانات العليا ؛ تتمثل لنا في حياة الكركند فهي اولاً تجهز الجسم بعضو يستطيع ان يمتصَّ الاكسجين (العضو الشبيه بالخيشوم في الكركند والخياشيم في السمك والرئة في الانسان) ثم جهاز آخر لنقل هذا الاكسجين من مكان امتصاصهِ الى كل جزءٍ من الجسم ، ثم جهاز ثالث لتجديد المادة التي يؤخذ منها الاكسجين سواءٌ كانت ماءً في حالة الحيوانات البحرية او هواءً في الحيوانات العليا التي تقطن اليابسة . وليس جهازا التنفس والدورة الدموية الاَّ الوسائل التي ابتدعتها الطبيعة — مع تباين في درجة ارتقائها — لتحقيق هذا الغرض

***

والحشرات شبيهة بالحيوانات المفصلية الارجل (كالكركند) التي تعيش في الماء . ولكن الحشرات تعيش في الهواء ، وهي اقرب اتصالاً ، بالاكسجين . على ان الوسائل الطبيعية التي يستعملها الكركند لتناول الاكسجين من الماء وتوزيعه في الجسم لا تجديها نفعاً . لذلك نشأ في اجسام الحشرات نظام آخر ، هو انابيب تمتدُّ من سطح الجسم ، الى داخلهِ حيث تتشعب فيهِ . ولكن هذه الانابيب ليس فيها جهاز ينفخ الهواء فيها او يخرجهُ منها . فاذا طالت الانابيب ، اي اذ كبر حجم الحشرة تعذر عليها التنفس . ولذلك ظلت الحشرات بوجهٍ عام صغيرة الحجم ، لهذا السبب . وذبابة التنين من اكبر الحشرات ، ولكن جسمها ليس ضخماً ، فلا يقتضي انابيب طويلة ، لا تصلح للتنفس متى طالت

فاذا انتقلنا الى الحيوانات الفقرية ، رأينا كيف جهزتها الطبيعة باوفى الاجهزة للتنفُّس . فالاداة الاولى اللازمة لتناول الاكسجين هي الرئة والرئة في الانسان عبارة عن اكياس صغيرة ، كل كيس منها مقسّم الى خلايا او حجر صغيرة ، يدخلها الهواء بواسطة الاستنشاق . وفي جدران الحجر اوعية دموية دقيقة ، رقيقة الجدران تمنع الدم من اختراقها ولكنها لا تمنعهُ من امتصاص الاكسجين من الهواء في الرئة . وهذا البناء يعرّض اكبر مساحة من دم الانسان للهواء حتى يمتصَّ اكبر قدر منهُ يحتاج اليهِ

وتختلف طرق نفخ الرئة وتفريغها باختلاف الحيوان . ولكنهما يتمَّان عادة بحركة عضلية يسيطر عليها الجهاز العصبي . فالضفدع تملأ فمها ماءً ثم تطبق فمها وتسدُّ منخارها ، فيجري الماء الى الرئتين ، وفيهما يتصل الماء بالاوعية الدموية فيمتص الدم الاكسجين منهُ . ثم تفرغ رئتيها بفتح الانف

اما طريقة نفخ الرئة في الطيور وتفريغها فلا تزال الى حدٍّ ما لغزاً من الالغاز . ذلك ان رئة الطير ، ليست كرئة الانسان كيساً قائماً عند نهاية انبوبٍ ، كالقصبة في الانسان ، ولكنها عبارة عن رئات كثيرة صغيرة ، قائمة على جانبي انبوب ويظن بعض العلماء ان الطير في اثناء طيرانه يستنشق الهواء ويزفره وفقاً لكل حركة من حركات جسمهِ، تحدثها عضلاته . وهذا النظام يسهّل على الطير الطيران مسافات طويلة من دون ان تلهث تعباً ، لان الاستنشاق والزفير في الانسان من اصعب الامور في خلال العدو السريع

اما الحيوانات الدافئة الدم ، فالدماغ فيها مسيطر على حركة اعضاء التنفس شهقاً وزفيراً . فاذا كان التنفس عنيفاً ، حدث تغيُّر في تركيب الدم ، فتتأثر بذلك مراكز الدماغ المسيطرة على التنفس لتبطئ الحركة العضلية الخاصة بذلك ، ويضعف التنفس . واذا كان التنفس ضعيفاً وحاجة الجسم الى الاكسجين غير كافية ، تغيَّر كذلك تركيب الدم ، فتتأثر بتغييرهِ المراكز العصبية ، وتبعث بالرسائل العصبية الى العضلات الخاصة فيشتدُّ التنفس ويسرع

***

بقيت كلمة نقولها عن الانسان . فقد ارتقى فيهِ الشعور بارتقاء الجهاز العصبي وقوى الشعور والادراك فيهِ هي اول ما يتأثر في جسمه ، بنقص الاكسجين في الدم . بل ان شدّة احساس الدماغ بفقد الاكسجين بلغت درجة ، يصعب معها الاحتفاظ بالوعي من دون اكسجين ، اكثر من بضع ثوانٍ . فليس في الرئتين من الاكسجين الاَّ مقدار يكفي الانسان نحو دقيقتين وفي الدم مقدار يكفي مدى دقيقة واحدة . فاذا منع الانسان من التنفس تعذَّر عليهِ الاحتفاظ بوعيهِ اكثر من دقيقتين او ثلاث دقائق

وقد وصف احد الرحّالين ، الغوَّاصين على اللؤلؤ ، فقال انهم يغوصون ، ويظلّون غائصين لا يتنفسون ، حتى يكاد الاكسجين كلهُ ينفد من رئاتهم ودمهم ، ولا يصلون الى سطح الماء الاَّ وقد اصيبوا بالاغماء ، فينتشلون ، ويلقون حيث التنفس سهل عليهم ، فلا يكادون يستعيدون قواهم بالتنفُّس السويّ ، حتى يستعدّوا لغوصة اخرى

***

ولا يخفى ان الانسان يجد في الطبيعة آناً وفي الحضارة آناً آخر ، ما يدفعهُ الى اختراق طبقات الجوّ ، او الى الهبوط في المناجم العميقة طلباً للفحم والحديد والذهب والماس . وهو في كلا الحالين يبلغ اجواءً اكسجينها اقل من اكسجين الجوّ العادي الذي يعيش فيهِ ، فيحتاج الى زيادة العنف في حركة التنفس طلباً للاكسجين . فاحياناً يزيد الهيموغلوبين في الدم ، وهو المادة التي تمتصهُ من الرئتين وتحملهُ الى الانسجة . واحياناً يتضخم الصدر حتى تزداد مقدرة الانسان على الشهيق والزفير . وكلّ ذلك تلبيةً لداعي حاجة الجسم الى الاكسجين

الجوع والتاريخ

تلخيص عن ولز

لإسماعيل مظهر

للاشتغال بفلاحة الارض واستغلالها اثر كبير في تكوين التاريخ الانساني . فان بدء استغلال الارض وفلحها يعتبر فتحاً جديداً في تطور الحضارة . وللاشتغال بالزراعة تدرجات دقيقة وخطى تطورية تكوّنت حلقاتها خلال ازمان طويلة ترجع الى ما لا يقل عن عشرين الف سنة على الاكثر وثمانية آلاف سنة على الاقل

وقبل هذا التاريخ كان الانسان حيواناً من الحيوانات النادرة الوجود . كان الانسان من السوائم المفترسة ، لا يمتاز على بقية الحيوانات الاّ بميزتين : الاولى — انهُ كثير التنقل محبًّا للمهاجرة من مكان الى مكان . والثانية — انهُ يستخدم ادوات خاصة . وعلى الجملة كان متوحشاً ، يعيش في جماعات صغيرة ، قدرتها على التفاهم بالكلام لم تكن كاملة في الراجح . وكانت ملكيتهُ تنحصر في الاشياء المنقولة دون الاشياء الثابتة ، وينفق كل حياته جادًّا وراء الصيد طلباً للغذاء ، وتتعاقب عليه فترات طويلة لا تتسق فيها احواله فمن فترة مفرطة الطول يطوي فيها على الجوع والحاجة الشديدة ، الى اخرى ينعم فيها بالامتلاء وما فوق الكفاية . كان يتبع مسير الحيوانات وجولاتها التي تطلب فيها الغذاء ، او الهجرة اتقاء تغاير الفصول . كان حرًّا . وكان محتاجاً . فحياته اذن كانت محوطة بالخطر الدائم . مدخولة بالمخاطرات التي لا بدَّ منها

انتقل الانسان من هذه الحالة الى حالة اخرى ينتج فيها طعامه ويحفظه للحاجة . بدأ اولاً بايلاف قطعان من بهائم الانعام التي يصيدها ، ولا يكترث للبقاء في مكان اللهمَّ الاّ حيث يجد حبوباً او جذوراً او ثماراً يكتفي بها عن اللحوم . غير ان جولاته في الصيد كانت تتقيد حينذاك بوجود المراعي التي تغتذي بها قطعانه التي ألَّفها ، وبانتظار الغلة مما زرع . ثم تكاثرت لديه الادوات وتعددت الوسائل . فكان ذلك سبباً في ان يتكاثر الانسان في بعض البقاع تكاثراً لم يعرف من قبل ثمانية آلاف خلون من السنين . بل بلغ تكاثره حدًّا لم يفقه فيه اي نوع من انواع القردة العليا . فبنى البيوت وحاز الاملاك . وتبدل من السعي وراء الغذاء بالصيد ، حالة استقرار اشتغل فيها بالزراعة مستهدياً بتعاقب الفصول ينتج غذاءه بعرق جبينه . وخزن الطعام . وهنا بدأ الانسان طور العمل وبدأت مشكلة العمال تأخذ صورتها البدائية . فمن وجبات كانت تأتي عفواً وبحسن الطالع حيناً ، وبالمخاطرة والمغامرة حيناً آخر ، وقّت الانسان وجباته ونظمها . وكان هذا طور انتقال عظيم الاثر في تاريخ الحضارة . فان الانسان قد انتقل فيه من حيوان يعيش عيش المصادفة والاتفاق ، الى حيوان «اقتصادي» نظيم الحياة

والانسان هو الحيوان الوحيد من بين ذوات الثدي — Mammalia — الذي خطا هذه الخطوة الكبيرة . فان تاريخ الطبيعة لا يدلنا على حيوان من ذوات الثدي استطاع ان يجتاز هذه المفازة المخيفة من مفاوز الحياة . فالقندس — Beaver — يبتني ويخزن والسنجاب يؤلف قطعاناً وجماعات ، والكلاب تدفن العظام . ولكن لا يجب ان ننسى ان هذا ليس بكاف لتنظيم الحياة على الصورة التي استطاعها الانسان . اما الحشرات فقد سبقت ذوات الثدي في هذه الناحية وحياة النمل والنحل وتكوينها جماعات تعاونية رشيدة ، لأسمى المثل التي نضربها

وقبل ان يأخذ الانسان بعادة الاستقرار ، غشيه عهد التنقل والتجوال ، تخوطه الاشفاق والوجل وعضته الحاجة بنابها السام . مرت بالانسان كل هذه الاطوار قبل ان يضع نظام العمل المنتج. ولقد بدأ العمل في عهد الانسان الظّراني القديم — Paleo-lithic ولكنهُ كان عملاً بالصدفة ولمجرد التسلية . فكان يكب على عمل الادوات التي تلزمهُ حيناً بعد حين ، ولكنها كانت تجبَلُ بايدي الذين يحتاجون اليها عادة . وعكف على دبغ الجلود . وانصرف البعض الى الصيد ، كما تفرغ غيرهم الى العناية بالنار يذكونها بالوقود لئلاّ تخبو . فان من اكبر الكوارث التي كانت تنزل بالانسان في ذلك العهد العهيد ، ان تخبو ناره. ويذهب بعض ثقاة الباحثين ان جماعات الانسان الاولى كانت تعهد الى فئة منهم بخدمة النار ليكونوا مسؤولين عنها . ومن ذلك انحدر الينا بعض الطقوس التي لا تزال مقدسة في بعض الاديان . والغالب ان عبادة النار طرف موروث من هذه العادة القديمة . وبالجملة نريد ان نقول ان في العصر الذي اتخذ فيه الانسان الصيد وسيلة لمعاشه ، لم يكن هنالك من نظام للعمل على ما يفهم من معنى العمل الدوري المنتظم المرهون بظروفه اي العمل كما نفهمهُ الآن

***

على ان اكثر العمل المضني الذي كانت تحتاج اليه الجماعة كان من نصيب النساء . فان الانسان البدائيّ لم يكن يفهم للشهامة ولا للنخوة او النجدة معنىً . فكانت الجماعة اذا عزمت على الانتقال من مكان نزلت فيه ، حمل النساء والشّابات كل ما يوجد من المتاع ، ومشى الرجال بغير شيء الاّ اسلحتهم وهم على استعداد لدفع الطوارىء. ولا شك في ان العناية بالاطفال كانت ايضاً من نصيب النساء

كانت هذه الحالة سبباً في ان يذهب البعض الى القول بان النساء كنّ اول من بدأ في فلح الارض وهذا المذهب لا تنقصهُ المرجحات الكثيرة . فان جمع الحبوب ومواد الاكل الخضرية كانت من عمل النساء ، لان الرجال كانوا يخرجون دائماً في جولاتهم الطويلة للصيد والقنص . ولا يبعد ان يكون النساء هنّ اللائي لاحظنَ ان الحبوب تنمو في الامكنة التي كانت من قبل مخيماً لجماعات أخر، يكونون قد بذروا الحبوب على وجه الارض قرباناً لاله من الآلهة عسى ان يعوّض عليهم ما بذروا اضعافاً تعد بالمئات . وعلى هذا لا نشك في ان اول طور من الاطوار التي تدرجت فيها الزراعة ، كانت عبارة عن استلاب محصول بذره الغير فان الجماعات التي كانت لا تزال في طور « الرُّعاة » _ Pastoral _ يرجح ان يكونوا قد زرعوا ، ليحصدوا اذا انقلبوا راجعين الى مكانهم الاول . وليس مما يبعد

احتماله ان يكون بين عادة التضحية بالنفس البشرية والبذار ، علاقة بدأت منذ ذلك العهد الذي عكف فيه الانسان على استلاب المحاصيل الزراعية التي كانت تترك ليتم نضجها . فان انساناً كان يُذبح ويترك حيث كان البذار ليحرس الزرع حتى يعود اصحابه اليه . ويغلب ان تكون الزراعة قد بدأت في قطع صغيرة من الارض تفلحها النساء بايديهنَّ . فكانت مصدراً إضافيًّا للغذاء . والمرجح ان الزراعة لم تصبح شيئاً ذا بال في حياة الجماعات البدائية ، الاَّ تحت تأثير ظروف استثنائية

وانهُ ليسهل عليك ان تتصور كيف ان الانسان البدائيّ قد لاحظ الفائدة من الزرع في الاراضي التي ينتابها الفيضان في ازمان دورية من السنة . فانهم كانوا يبذرون مادة عيشهم في الماء قبل انحساره تماماً ، فيجدون انهُ ارتدَّ اليهم اضعاف ما كان بين ايديهم . ويقول الاستاذ « اليوت سميث » ان الزراعة النظامية باعتبارها حاجة لاسلوى وعبثاً ، بدأت في مصر . والحق أنهُ لا يوجد على ظهر الكرة الارضية بقاع من الارض اكثر ملاءمة من مصر لتعليم الانسان ضرورة الزرع في ازمان دورية . والراجح ان الزراعة النظامية بدأت في اراضٍ كانت تنتابها الفيضانات. ومن هنا لا يصعب على الانسان ان يفكر في الوسائل التي يكرر بها فعل الطبيعة. فالطبيعة تغمر الارض بالفيضان، وهو يغمرها بطرق الريّ الصناعي

بيد انهُ لا يجب ان يغيب عنا ان الزراعة ليست حضارة . فان زراعة الحنطة قد ذاعت الى شواطىء المحيط الاطلانطيقي — بحر الظلمات — والمحيط الهادىء ، بانتشار الانسان الظرّاني الحديث — Neolithic — ويرجع ذلك الى ١٥٠٠٠ او على الاقل الى ١٠٠٠٠ سنة قبل أن تبدأ الحضارة في ان يكون لها وجود حقيقي . ذلك لان الحضارة شيء اكثر من العكوف على زرع الحنطة في ازمان دورية . انها عبارة عن استقرار جماعة من الناس في بقعة ما يمتلكونها ويزرعونها على التوالي. جماعة تعيش مستقرة في مشيدات تأهل بهم ، فتكوّن مدينة او قلعة ، ويكون لهم فوق ذلك اصول من العرف او القانون تجري عليها المعاملات

ان اول الاشياء الضرورية التي احتاج اليها الانسان الظرّاني الحديث ليستقرَّ استقراراً تامًّا في مكانٍ ، بعد ان كان استقراره مرهوناً بكثرة الارزاق، كان من غير شك نبعاً يزوّدُه بحاجته الدائمة الى الماء ، ووجود العلف الكافي لبهائمه ، والغذاء اللازم له ، ثم وجود المواد التي يشيد منها مساكنه . كان من الواجب لكي يستقر ان يجد كل الاشياء الضرورية على مدار الفصول ، بحيث يُكفى الحاجة التي تلجئهُ الى التجوال . ولا ريبة في ان هذه الضرورات كان من الممكن ان يحصل عليها الانسان البدائي اذا ما هبط اي وادٍ من وديان اوربا او آسيا التي تجري فيها الانهار . وفي مثل هذه الوديان استقرَّ الانسان منذ ازمان موغلة في القدم ، كما نستدل على ذلك بقدم مساكن البحيرات في سويسرا غير اننا لا نقع على بقاع اجتمعت فيها هذه الظروف ، فكانت اكمل او اشد ملاءمة مما هي في مصر وما بين النهرين — دجلة والفرات — وعلى شواطىء الخليج الفارسي

في هذه البقاع ينابيع للماء لا تغيض . وقوة الاشعة التي ترسل بها الشمس مما تحتمله الاجسام البشرية . ناهيك بغلاتٍ تكاد تكون محققة النتائج عاماً بعد عام . ويقول هيرودوتس ان الحنطة كانت

تغل للمزارع مائتي ضعف ما يبذر ويذكر بلنيوس انها كانت تحصد مرتين، ثم تكون بقاياها علفاً للاغنام. وكانت تلك البقاع غنية بالنخيل وكل صنوف الثمار الاخرى. اما مواد البناء فمصر غنية بها والوسائل كثيرة. وما بين النهرين تكاد تعدل مصر من هذه الوجهة

وفي مثل هذه البقاع يمسك الانسان عن التجوال ويستقر من غير ان يفكر فيما يمكن ان تخبيء الاقدار. وقد يتكاثر النسل ويلهي الناس التكاثر حتى يخيل اليهم ان كثرتهم دريئة لكل خطر يأتي من ناحية الغزو الخارجي. ولقد تكاثر الناس في هذه البقاع فعلاً حتى بلغ عددهم مبلغاً لم يبلغ مثله في أيةٍ من البقاع الاخرى وعلى مدى تاريخه الماضي. وعني الانسان بسكنه فاصبح امعن في المادية وانقرضت الحيوانات المفترسة من مساحات كبيرة من الارض، وزاد الامن على النفس، فاعتاد الناس ان يمشوا في الطرقات وفي خلال المزارع غير مثقلين بالسلاح شأن اسلافهم، وبدأ السلام بين الناس أن يكون ضرورة، فسالموا. وبالجملة فان الانسان في هذه البقاع قد امتدت جذوره أكثر مما امتدت في اي بقعة اخرى من الارض

***

وكانت مصر وما بين النهرين اصلح البقاع واكثرها ملاءمة لاستقرار الانسان. على ان جغرافية هذه البقاع قد تغيرت عما كانت عليه منذ سبع آلاف سنة مضين. فان وديان البحر الاحمر ووديان شرقي البحر المتوسط، كانت مغمورة بالمياه في ذلك الحين. ولكن شواطىء بلاد العرب، وعلى الاخص الجزء الجنوبي الغربي منها، كانت اكثر خصباً مما نعرف في كل ما تبع ذلك من العصور. وكان البحر الاحمر يتصل ببوغاز طبيعي بالبحر المتوسط، كما ان الخليج الفارسي كان اكثر امعاناً في الامتداد الى الشمال

في الوقت الذي بدأ الانسان يستعمر فيه وديان الانهار العظمى، كانت تتكوّن في بقاع اقل خصباً وارقّ حالاً واكثر بعداً عن الملاءمة لحياة الاستقرار، كغابات اوربا الواسعة العريضة، والصحاري العربية، وسهول آسيا التي ما كانت الطبيعة تجود عليها بخير اكثر من انها تصبح مراع صالحة خلال ادوار معينة من السنة — كانت تتكوّن جماعات من الناس اقل عدداً، ولكنهم انشط وأشجع وأصبر على المشاق، نشأوا من سلالات تختلف عن السلالات المتحضرة، فكانوا الذين ندعوهم جماعات البدو البدائية. وعلى الضد من الجماعات التي استقرت وعكفت على الزراعة، كان هؤلاء البدو يعيشون في اباحة من عرف الحضارة مروّعين مخاطرين بأنفسهم وبأموالهم وأولادهم. كانوا بالقياس الى الاولين نحاف الاجسام جوعى. ما يجمعهم شيء بقدر ما يجمعهم التعاون على الصيد. وما يحفزهم الى الحرب مع جيرانهم الاّ رغبة الحصول على المراعي ليسدوا من قطعانهم رمقاً ليس من دونه شيء الاّ الموت. ولقد يحدث ان ينتقل اليهم اسلوب عمل السلاح واستخدام المعادن الذي استكشفه المتحضرون، فيزدادون قوة وفروسة. وبذلك انتقلوا بجهد المتحضرين من العصر الظّراني الحديث

Neolithic الى العصر البرونزي — Bronze Age — فاشتد بهم السعي للقتال وألحت عليهم الرغبة فيه ، لما ان ارتقى سلاحهم فأصبح امضى وأقتل . ناهيك بأنهم كانوا خفاف الحركة سريعي الانتقال لما ان حفزتهم الحاجة الى ان يكونوا اخف وأسرع ، فكانوا

على انه لا يجب ان يخيل الينا ان حالة البدو طور ضروري يجب ان يسبق حالة الاستقرار والتحضر . فان الانسان لم يكن بدياً الاً حيواناً بطيء الحركة والانتقال يتبع صيده ويمضي الى غذائه على قدر الحاجة . ثم اختلفت الطرق . فنزعت جماعات الى ترك عادة الانتقال بتة فاستقرت وتحضرت ، وجدّت اخريات الى زيادة السرعة والتنقل فكانت بدواً رحلاً . وأخذ المتحضرون يعتمدون في حياتهم على الحبوب لتكون غذاءهم . وعمد البدو الرحل الى اللّبن ليكون رأس غذائهم . وبهذا نرى ان اختلاف اسلوبي الحياة انتهى بنقيضين

ولم يكن من مفر ان يتصادم النقيضان ، المتحضرون والبدو ، وان يظهر البدو للمتحضرين في ثوب برابرة اجلاف ، وان يظهر المتحضرون للبدو في لباس الليونة والخنث ، فيتخذون منهم مرعى خصيباً وموردا للسلب والنهب . فكانت تخوم الحضارات الناشئة مسرحاً للغزو المتتالي والصدام الدائم ، بين قبائل البدو والقبائل الجبلية من ناحية ، وبين المتحضرين الذين هم اكثر عدداً ، ولكنهم اقل في الطعان جلداً

ولم تتجاوز هذه الحال ان تكون مناوشات او غزوات على التخوم . فان المتحضرين كانت لهم غلبة العدد . وكان البدو يغزون ليسلبوا ، اذ لم تكن الاقامة في مستطاعهم . وهذا التنابذ المتبادل قد يستمر على ما صورنا اجيالاً عديدة . ولكن لا تلبث الحال على هذا طويلاً ، حتى يبرز في الميدان زعيم (او قبيلة) من خلال هذه الفوضى المستحكمة في حياة البدو ؛ فيكون اشد عزماً واصلب عوداً فيفرض عليهم بنفوذ قبيلته ان يدينوا بالاتحاد لقوته . فاذا دانوا له ، فالويل اذن لاقرب حضارة تتجه اليها انظارهم . ينقضّون عليها كالسيل المزبد ، ويجتاحون السهول المذللة المسالك المجردة عن السلاح ويبدؤون حرباً للغزو والاقامة ، فبدلاً من ان يحملوا بعد الغزو سلاحهم وغنائمهم ، يستقرون في الأرض المغزوّة ، وتصبح برمتها لهم غنيمة وسلباً . ويرتد اصحاب الارض من المتحضرين عبيداً يدفعون الجزية او قطّاع اخشاب او حمّالي ماءٍ ، وينقلب البرابرة الاجلاف ملوكاً وامراء واسياداً لهم صفة الارستقرطية والنُّبْل . ثم يأخذون في التحضر ويتعلمون من المهزومين المغلوبين على امرهم الفنون واساليب الترف التي يعكف عليها عبيدهم المتحضرون ، ثم تمتد الرَّبالة الى اجسامهم ، ويعرف الشبع طريقه الى بطونهم ، ولكنهم يظلون اجيالاً عديدة حائزين لكثير من صفاتهم البدوية عاكفين على الكثير من عاداتهم القديمة ، فيخرجون للصيد ويزاولون الالعاب الرياضية ، فيركبون الخيل او يستبقون بالمركبات ، في حين انهم ينظرون الى العمل وعلى الاخص الى الزراعة ، نظر من يؤمن بأنه نصيب المغلوبين ومن حظ السلالات الدنيا والطبقات السفلى في المجتمع

« البقية في باب الاخبار العلمية »

النيل في العهد الفرعوني

جغرافيته . فيضانه . مقاييسه

للدكتور حسن كمال

النيل اطول انهار القارة الافريقية وثاني انهار العالم طولاً . وهو يروي الجزء الشمالي الشرقي من إفريقية مبتدئاً باقليم خط الاستواء عند منطقة البحيرات ومنتهياً عند البحر الابيض المتوسط . ويبلغ طوله ٣٤٧٣ ميلاً . وكان له عند قدماء المصريين عدة اسماء منها «حعبي» وهو اسمهُ المقدّس. وقد ظلّ هذا الاسم يطلق عليهِ حتى زوال الوثنية ومنها « البحر الكبير» او (أور) وقد استعمل كثيراً في العصور المتأخرة وفي العهد القبطي . اما في الكتاب المقدس فقد ورد اسمهُ « يور » ومعناهُ « نهر » . اما اليونان والرومان فسموه « نيلوس » . ولما أتى العرب اطلقوا عليهِ اسم « النيل » او « نيل مصر »

وقلما تجد بين كائنات هذا العالم ما اثر في نفس الانسان وانضى تفكيره واذكى خياله مثلما أثر نهر النيل في سكان واديه . ويظهر من الآثار ان قدماء المصريين عرفوا مجرى هذا النهر من البحر الابيض المتوسط شمالاً الى ملتقى النيلين الازرق بالابيض جنوباً . ولا يبعد انهم عرفوا ايضاً مجرى النيل الازرق حتى منبعه ومجرى النيل الابيض حتى بحر الغزال . ثم وقفت في وجوههم منطقة السدود فعجزوا عن الوصول الى اقليم البحيرات . والمعلومات التي اكتسبها هؤلاء القوم اخذها عنهم الفرس واليونان . اما هيردوتوس (حوالى ٤٥٧ ق . م .) فقد تتبع مجرى النيل حتى الشلال الاول وكان يظن ان منبع النيل عند بحيرة (تشاد) . ورسم اراتوسثينيس Eratosthenes امين مكتبة الاسكندرية عام ٢٥٠ ق . م . خريطة لوادي النيل قريبة من الصواب تبين مجراه حتى موقع الخرطوم ورسم ايضاً نهري العطبرة والنيل الازرق . وكان اول من أشار الى وجود بحيرات استوائية كمنبع لنهر النيل

فلما جاء عام ٢٠ ب . م . كتب يوبا Juba الثاني ملك موريتانيا في كتابه المسمى Libyca — وقد اورد ذلك بلينيوس في كتاباته — ان نهر النيل ينبع من بلاد موريتانيا الغربية بالقرب من المحيط من بحيرة حيواناتها تشبه حيوانات النيل . ومن ثمَّ يتخذ النهر مجرى تحت الارض بضعة ايام حتى يبلغ بحيرة اخرى مماثلة للاولى في اقليم موريتانيا القيصرية . بعدها يستمر سائراً في مجراه تحت الارض مدة عشرين يوماً حتى يصل الى منبع يقال له نجريس Nigris على حدود افريقية واثيوبيا . ثم يخترق

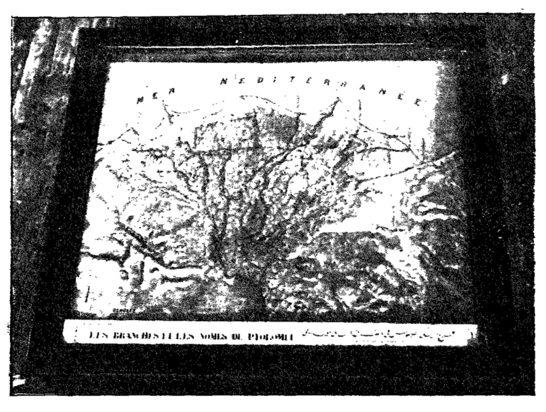
اقليم إتيوبيا حيث يسمى باسم استابوس Astapus . وقد استرعت هذه النظرية عناية كثير من الباحثين ولا يبعد انها كانت سبباً في النظرية القائلة بان نهر النيجر فرع من النيل

وصعد استرابون في النيل حتى اسوان (وكان معاصراً للملك يوبا السالف الذكر) وقال ان الباحثين الاقدمين عزوا فيضان النيل الى الامطار الصيفية التي تهطل على الجبال الجنوبية. وهذا الرأي اثبتتهُ البعثة التي ارسلها بطلميوس الى تلك الاقاليم . وفي هذا الوقت ظهر رجل يوناني يقال له داليون Dallion قيل عنهُ انهُ تتبع مجرى النهر حتى النيل الابيض . وارسل نيرو بعثتين لاستكشاف نهر النيل وقال سنيكا Seneca ان رجال هاتين البعثتين وصلوا الى اقليم المستنقعات (وهو قسم النيل فوق الصوبات) . وفي ذلك الوقت ايضاً توغل التجار اليونانيون في افريقية حتى شاطىء زنجبار . وفي عام ٥٠ بعد الميلاد قدم تاجر يوناني من شاطىء افريقية الشرقي واخبر سوريا من طيرة يهتم بعلم الجغرافية يدعى مارينوس Marinus انهُ لما توغل في افريقية مسافة خمسة وعشرين يوماً بلغ اقليماً بهِ بحيرتان كبيرتان وسلسلة جبال مغطاة بالثلج وان النيل يبدأ من هاتهِ البقعة . ولم نعثر للآن على رواية مارينوس نفسه انما عثرنا على ملخصها في كتاب بطلميوس (راجع دائرة المعارف البريطانية : طبعة ١٤ مجلد ١٦ ص ٤٥٥)

الى هنا انتهى باختصار تاريخ جغرافية نهر النيل القديمة من اقدم العصور الى العهد المسيحي اما ما يتعلق بجغرافية قسمه المصري فقد سبق ان المعنا الى ان قسمه الواقع بين الشلالات والقاهرة لم يتغير كثيراً على مرور الزمن

اما قسمه الشمالي للقاهرة فقد كان اولاً مغموراً بالبحر الملح ومتصلاً بالفيوم . وكانت الدلتا في تلك المدة حمأة مستوحلة فأخذ النيل يقذف طميه السنوي في هذا الجون حتى ملأها وكان تياره محولاً على الشاطىء الشرقي ثم اخذ يخترق له طريقاً في الجون وهو مستمر في جريانه الى ان صدم كثباناً من الرمال لا تزال آثارها باقية عند بنها . وكان كل ما اقتطعه من الشاطىء القاه في تلك الكثبان فيرسب ويتراكم بعضهُ فوق بعض حتى تكوَّنت منهُ الدلتا ولذلك قال هيرودوتس عنها انها هدية النيل . ثم ان طمي النيل اخذ يتراكم الى ماوراء بنها وظلّ مستمرًّا في رسوبه وامتداده حتى تلاقي برأس ابي قير فوقف عندها . ثم ان ذلك الطمي المتراكم اخذ يجف ويتجمد ويعلو شيئاً فشيئاً حتى نشأت عنهُ الاراضي وقد قدَّر علماء طبقات الارض المدة التي اخذ النيل يواصل بطميه مصر باكثر من ٧٤ الف سنة حتى أتمّ تكوين وادي النيل والدلتا معاً . قال ماسبرو ان هذه المدة مبالغ فيها لان الطمي كان سريع السير في المدة القديمة اكثر منهُ الآن

قال المرحوم كمال باشا في كتابه الحضارة المصرية القديمة — « أما فروع النيل الاصلية فكانت ثلاثة اولها الفرع الكانوبي اي فرع ابي قير وكان يجري الى الغرب ويصب في البحر الابيض المتوسط بقرب أبي قير في النهاية الغربية من القوس السالف الذكر الذي كان يحدّ خطّ الساحل . والثاني الفرع البيلوزي اي فرع الطينة وهو الفرع الشرقي وكان يجري في طول سلسلة جبال العرب مارًّا بالنهاية



شكل ٣ — صورة لانموذج مجسم لافرع النيل في عهد بطلميوس في القرن الثاني الميلادي عن صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون
تصوير الدكتور حسن كمال



شكل ١ — صورة لانموذج مجسَّم لافرع النيل في عهد هيردوتوس. عن صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون — القرن الخامس قبل الميلاد . تصوير الدكتور حسن كمال



شكل ٢ — صورة لانموذج مجسّم لافرع النيل في عهد استرابون في القرن الاول الميلادي — عن صاحب السمو الامير الجليل عمر طوسون . تصوير الدكتور حسن كمال

الشرقية من قوس الساحل . والثالث الفرع السبنّيتي أي فرع سمنود وكان يقسم المثلث المحصور بين فرعي أبي قير والطينة وبين البحر الابيض المتوسط الى قسمين متساويين منذ الفي سنة تقريباً . ومبدؤه من قرية تسمى (كاركاسو) او (كركسورا) كانت على مقربة من امبابه وعلى بعد ستة كيلو مترات من الجهة البحرية للقاهرة الآن . ولما ملىء فرع الطينة زال انقسام المثلث . وكانت تلك الفروع الثلاثة تجتمع في ملتقى يخرج منهُ رياحات وترع وجداول بعضها طبيعي والبعض الآخر صناعي . وكانت تارةً تتسع وتارةً تسدّ وطوراً تفتح واحياناً تتقفل ثم تتشعب الى عدة فروع تجري في اراضي الوجه البحري ويبقى فيها الطمي حتى أصبحت خصبة صالحة لانبات الزرع ....

***

قال هيردوتوس : للنيل قديماً سبعة افواه تعرف الآن بالاشاتيم وهي تصب في البحر الابيض فيما بين الاسكندرية واراضي الجفار . وذلك ان النيل كان يتفرع من جهة القناطر الخيرية الى ثلاثة افرع كبيرة احدها بحر الطينة وهو الشرقي وثانيها البحر الغربي يجري الى الرحمانية فينقسم الى فرعين وهو فرع كانوب وفرع رشيد وثالثها بحر الوسط يستمر الى آريب فيخرج من بحر موسى ثم الى سمنود فيخرج منهُ بحر ويش ثم يستمر الى المنصورة تقريباً فينقسم الى البحر الصغير وبحر دمياط فيكون مجموع فروع النيل سبعة وهي : —

الاول بحر الطينة: — كان كبيراً جدًّا وله فروع ويشق القليوبية والشرقية ويصب في البحر الابيض المتوسط عند مدينة الطينة. وكان عليهِ وعلى افرعهِ مدن عظيمة منها الطينة التي عرف بها البحر ومنها مدينة رمسيس فوق الترعة الاسماعيلية وهي التي خرج منها بنو اسرائيل مع موسى عليهِ السلام ومنها مدينة القرما ومدينة القناطر من اسم قنطرة كانت على هذا البحر تمرّ عليها القوافل بين مصر والشام

الثاني بحر موسى : — والغالب انهُ بحر السردويس المعروف الآن ببحر صان وبالبحر المنديسي وهو بحر بمديرية الشرقية يتجه الى صان فيصب في البحر الابيض المتوسط من اشتوم ام فرج ببورسعيد وكان لهُ معاطف وفروع كبيرة آثارها باقية الى الآن في الارض المسبّخة

الثالث البحر الصغير : — يشق بلاد الدقهلية ويمرّ باشمون وطناح والمنزلة وكان يصب في البحر الابيض المتوسط من اشتوم الديبة . والارض التي بين المنزلة وبين هذا الاشتوم كانت تزرع وكان بها قرى عامرة ازالتها عوامل الايام

الرابع بحر ويش : — كان يمرّ بمديرية الغربية ويصب في البحر الابيض المتوسط عند مدينة (بوتو) القديمة وكان بها معبد كبير لهذه المعبودة كانت تزوره الناس في كل سنة . وكان لهذا الفرع فروع مشعبة تمتد يميناً وشمالاً . ولذلك كانت تلك الجهة خصبة ثم فسدت بعدئذٍ باضمحلال الفرع وصارت تلالاً وسباخاً . وقد سدّ فمه واوصل بالبحر الشبيني وسمي ببحر بسنديلة

الخامس فرع دمياط : — يخترق الوادي الخصب الواسع ويصب في البحر الابيض المتوسط
السادس فرع رشيد : — يجري موازياً لجبل برقة جهة الشمال الى رشيد ثم يصب في البحر الابيض المتوسط

السابع بحر كانوب : كان يشق مديرية البحيرة من اسفلها الى ان يصب في البحر الابيض المتوسط بقرب ابي قير وكان له فروع من الجهتين وارض جيدة ذات مزارع وبساتين وكروم ومدن عامرة منها مدينة مريوط التي اشتهرت قديماً بجودة النبيذ ومنها مدينة كانوب التي عرف بها هذا الفرع وكان بها دير ومعبد تحتمي فيه الارقاء وكانت تحجه اغلب الناس . وكان في الشاطىء الآخر من هذا الفرع حزاء مدينة كانوب مدينة اقدم منها تسمى بالينيوس اندثرت واشتهرت بعدها مدينة كانوب ثم غرقت هذه ايضاً بسد ابي قير وصارت بحيرة ثم نضب ماؤها وصارت سباخاً . ولا تزال اطلالها باقية الى الآن» (شكل ١ و ٢ و ٣)

***

وبديهي ان آراء المصريين الاقدمين عن منبع النيل كانت عرضة لكثير من التغيير . فقد كانوا يتصورون اولاً ان النيل ينبع بين صخور منطقة اصوان واستمروا على هذا الرأي مدة طويلة . لكنهم لما توغلوا في افريقية طمعاً في الفتوحات او اضطراراً الى الغزوات تبين لهم خطأهم . ويظهر انهم لما يئسوا من معرفة منبع النيل الحقيقي نسبوه الى اصل سماوي واحاطوا هذا الرأي بعدة خرافات وخزعبلات . ومما ساعد على ثبات هذه الخرافات مكانة هذا النهر المقدسة عندهم وشدة تبجيلهم له على مدى العصور . لذلك زعموا ان النيل يخرج من نيل سماوي في يومه الموعود وان سبب فيضانه السنوي ان المعبودة (ازيس) لما فقدت اخاها وزوجها وهو (ازوريس) بقيت مدة من الدهر لا صديق لها حتى ان ذرية عبادها نسوا اسمها . وكانت في ١١ بؤونة من كل سنة تدمع على زوجها دمعة واحدة فتنزل تلك الدمعة في النيل السماوي فتفيضه ويزداد به النيل الارضي ويسمون ليلة نزولها ليلة اللجة المنهمرة من دموع المعبودة الكبيرة (راجع نصوص هرم اوناس) ولا تزال هذه الرواية متناقلة بين عامتنا الى يومنا هذا فتراهم يقولون بنزول النقطة من السماء الى النيل ليلة ١١ بؤونه التي توافق ١٧ او ١٨ يونيه . وحينئذ يبتدىء فيضان النيل الذي هو في الحقيقة نتيجة هطول الامطار على جبال الحبشة كل سنة ابتداء من يونيه الى سبتمبر . ومعروف ان هذه المياه الغزيرة تقذف معها مقادير كبيرة من الغرين الذي يرسب على اراضي مصر والذي تولدت منه الدلتا من قديم الزمن . ويقدر مقدار مياه الفيضان النيلي التي تمر بالنيل الازرق كل ثانية بحوالي ٣٥٠٠٠٠ قدماً مكعبة او تزيد وبالنسبة الى غزارة هذه المياه تجد مياه النيل الابيض محبوسة وقتئذ ولا تساهم بنصيب يذكر في الفيضان

وعلى الفيضان النيلي تتوقف آمال الفلاح المصري القديم (والحديث ايضاً) لانه اساس دخل الخزينة الفرعونية التي تعتمد على اموال الاراضي المزروعة ومقادير الحبوب التي تصدر الى الاسواق

الخارجية . ثم ان الفيضان اساس نعيم الاهالي لان الوجه القبلي يكاد يكون عديم الامطار ولا يعتمد اهله مطلقاً على الامطار في مزارعهم . اما الوجه البحري فقليل الامطار، لذلك كان المصريون شديدي الاهتمام بأمر الفيضان حتى ألهوا النيل ورسموه بشكل آدمي بين الذكر والانثى حاملاً فوق رأسه زهور البردي بدل التاج المصري. وكثيراً ما رسموا رسمين لمعبود النيل يقدمان لفرعون مصر قطري مصر العلوي والسفلي ممثلين في نبات اللوطس والبردي ويعلوها لفظة « الضم » . وبهذه الطريقة كانوا يزينون عرشهم مظهرين بذلك خصب القطر وغناه في عهد ذلك الملك

***

والفيضان الواطيء يعرقل مرافق البلاد الاقتصادية كل العرقلة وقد وردت عدة قصص على الآثار للقحط الذي حل بالقطر من جراء انخفاض الفيضان مما يشير الى عظم تأثير هذه النكبة في نفوس القوم وقتئذٍ . واهم ما ورد عن ذلك هو الشرح المدوّن على الحجر الصوان المعروف بحجر السبع سني القحط الذي اكتشفه المستر ويلبور الاميركي في ٦ فبراير سنة ١٨٨٩ اثناء مباحثه في مصر ثم ارسل نقوشه وصوره الى الاستاذ بروكش الأثري الالماني عام ١٨٩١ واليك ترجمة الجزء الاول من هذا الأثر:

في السنة الثانية عشرة من حكم ملك مصر (زوسر) ارسل جلالته الى الامير (معدو) رئيس معابد الوجه القبلي والبحري ومدير قسم اصوان رسالة قال فيها — «انني اجلس فوق عرشي في بؤس وضيق . فقلبي متألم لما صُدعت به بلادي من قلة فيضان النيل سبع سنين. فقد نفدت الحبوب والخضروات والمأكولات وكثرت السرقات والتعديات. فاذا هم القوم يمشون خانتهم قواهم فالشبان يجرون اعضاءهم جراً. وقلوب الطاعنين يئست من الفرج. فعجزوا عن السير وسقطوا على الارض . وأمسكوا بطونهم بأيديهم تألماً وتضجراً من الجوع . اما وزرائي فقد عجزوا عن النصيحة وطرشوا . وأما المخازن ففارغة هاوية . وأما البلاد فخربة تعسة » . (راجع مقالتي بالمقتطف عدد فبراير سنة ١٩٢٤ صفحة ١٥٢)

هذا الوصف يظهر درجة القحط الذي اصاب القطر المصري في تلك العصور . ولكي اظهر للقاريء عظم الكارثة في مثل تلك الاحوال اورد هنا ما شاهده عبد اللطيف البغدادي اثناء اقامته في القطر المصري سنة سبع وتسعين وخمس مائة هجرية (راجع الافادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادي صحيفة ٤٩)

« ودخلت سنة سبع (أي سبع وتسعين وخمس مائة) مفترسة اسباب الحياة . وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الاسعار واقحطت البلاد وأشعر اهلها البلاء . وهرجوا من خوف الجوع وانضوى اهل السواد والريف الى امهات البلاد وانجلى كثير منهم الى الشام والمغرب والحجاز واليمن وتفرقوا في البلاد ايادي سبا . ومزقوا كل ممزق . ودخل الى القاهرة ومصر خلق عظيم . واشتد بهم الجوع . ووقع فيهم الموت . وعند

نزول الشمس الحمل وبىء الهواء ووقع المرض والموتان واشتدّ بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبقر والارواث . ثم تعدوا ذلك الى ان اكلوا صغار بني آدم . فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون او مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة باحراق الفاعل لذلك والآكل »

ومما يدل على الجهد العظيم الذي كان يبذله المديريون ايام انخفاض الفيضان ما ورد في مقبرة امنمعت (الاسرة الثانية عشرة ببني حسن) هذا تعريبه : —

« ولما حلت سنوات القحط هممت بنفسي وحرثت الحقول في حدود مديريتي من اقصاها الشمالي الى اقصاها القبلي وهكذا مكنت الخلق من المعيشة ويسرت لهم الغذاء فلم يوجد جوعان لديّ واطعمت الارملة كما اطعمت المتزوجة ولم اميز في عطائي الابن البكر على سائر الاخوة بل كانوا جميعاً سواء امام عيني. ولما ارتفع ماء النيل (وحل الفيضان العظيم) كثر القمح والشعير وكل شيء فلم اضنّ على الناس بشيء من الزيادة لاحتفظ به لنفسي»

***

وهناك نصوص وردت بمقبرة رجل مصري اسمه (بابا) ولقبه (ابانا) بمدينة الكاب يرجع تاريخها الى حوالي زمن الاسرة الثالثة عشرة ترجمها المرحوم كمال باشا ومنها يستدل على عظم اهتمام كبار القوم بأهل بلدتهم وقت القحط الناجم من قلة فيضان النيل . واليك نصها : —

« كنت ذا قلب رؤوف لا آلف الغضب . ولذا اكرمتني المعبودات بالخير الجزيل في دار الدنيا وكان اهل بلدي وهي الكاب يهنئونني بالصحة والسلامة . وكنت اقتص من المسيئين . ورزقت من الاولاد مدة حياتي باثنين وخمسين ولداً (بين ذكر وانثى) وكان لكل واحد منهم سرير وكرسي ومائدة وكانوا يأكلون كل يوم ١٢٠ هنّاً من القمح والحبوب . وكانت لهم ثلاث بقرات حلوبة و ٥٢ رأس من الماعز وثمانية حمير. وكانوا يحرقون من البخور ما ينوف على الهنّ (مكيال مصري قديم) ويصرفون من الزيت ملء زجاجتين . فان ناقضني احد وظنّ انه اضحوكة فأشهد المعبود (مونت) على ما قلته من الحق . وانني احضرت جميع ذلك في بيتي . وكنت اعطي اللبن الرائب في قدر والبوظة في قدر طويل ضيق الرأس يعرف بالدلق بمقدار يزيد على الهنّ . وجمعت قمحاً كثيراً محبة للمعبود الطيب (اي الملك). وكنت متيقظاً وقت الزراعة في السنين المخصبة . فلما حصل القحط مدة سنين كثيرة كنت اعطي القمح لاهل المدينة في كل مجاعة »

من ذلك يتضح ان لفيضان النيل تأثير كبير في نفوس القوم لأن سعادتهم ووجودهم في هذا الكون يكادان يعتمدان عليه بخلاف الحال في البلدان الاخرى التي تعتمد على الامطار في مزروعاتها

وقد تمكن المصري على مرور الزمن من معرفة مقدار محصول القطر بوجه التقريب من مقدار فيضان النيل فكان يجهز الاراضي الممكن زرعها ويتخذ العدة لذلك قبل زوال الفيضان . وهذا الاهتمام بالفيضان هو الذي اذكى فيهم الحمية لايجاد طريقة لقياسه فابتكروا مقاييس النيل وسجلوا ارتفاعات الفيضان على مدى العصور وشادوا في كل جهة من جهات القطر الرئيسية مقياساً تتبعوا به يوميًّا حالة الفيضان من حيث الارتفاع والانخفاض . وكانوا لا يسمحون للمياه ان تدخل الترع والرياحات الاّ اذا بلغ الفيضان حدًّا معيناً وجرت العادة ان يصحب ذلك مهرجان تشترك فيه الناس وتقوم فيه بالعبادات والقربان لمعبوداتهم . لانهم اعتبروا كثرة المياه من علامات رضى الآلهة وقلتها عارضاً لغضبهم كما يلاحظ ذلك في بعض نصوصهم . ولا يبعد ان يكون ارتفاع مستوى النهر وقت فيضانه الآن هو نفس ما كان عليه قدماً . لكن قاع النهر ومسطح الاراضي المنزرعة عرضة دائماً للتغيرات فمجرى النيل وقوة اندفاعه من جهة ورسوب الغرين على الاراضي الزراعية اثناء الفيضان من جهة اخرى يغيران كثيراً من منسوب الاراضي بالنسبة الى النهر على مرور الزمن . لهذا السبب فسر بعضهم عدم تناسب المقاييس المدونة على جزيرة اسوان مع حالة الفيضان الحالي حيث لوحظ ان اعلى العلامات القديمة هي الآن دون حدّ الفيضان الحالي بمسافة كبيرة

***

ومن اقدم النصوص التاريخية التي لها صلة بقياس النيل هي الواردة على حجر بالرمو الذي يرجع تاريخه الى الاسرة الاولى على الارجح . وتوجد بدار التحف المصرية قطع صغيرة منه متممة للحجر الاصلي . وقد ورد على هذا الأثر اسماء لملوك كانوا يحكمون مملكة الوجه البحري (اي قبل ضمه الى الوجه القبلي في عهد الملك مينا) . ومدوّن مع كل منها اهم الحوادث التاريخية التي حصلت في عهده . وقد ورد ذكر ملوك أخر غير ملوك العهد السابق لعصر الاسر مثل الملك سنفرو (الاسرة الثالثة) وسحورا ونفركارع وغيرهم . ومن ضمن الحوادث المنقوشة على هذا الاثر مناسيب النيل التي بلغها فيضانه السنوي . وبفحصها يتضح ان ارتفاع النيل وقت الفيضان كان يتراوح بين ذراع وثماني اذرع عن مستواه المعتاد . وهذا المقدار يتفق مع حالته في العهد الروماني وحالته الراهنة ايضاً

والمعروف ان المصريين كانوا يقيسون زيادة نيلهم بذراعهم المقدرة بأربعة وخمسين سنتمتراً . فاذا بلغ أربع عشرة ذراعاً نادوا بحسن زيادته . ولعلّ المناداة الآن مأخوذة عنهم

***

ولضبط اعمال الميزانية والضرائب كان الوزير الجنوبي يقدم للملك تقريراً شهريًّا عن المصروفات والايرادات يعاونه في ذلك رؤساء الاقلام وكبار الموظفين . ولما كانت الضرائب مرتبة على نتاج الارض وهذا ايضاً مرتبطاً بدرجة فيضان النيل كحالنا الآن كانت ترسل الى وزير الجنوب بلاغات رسمية عن حالة فيضان النيل (برستد)

عجائب التلفزة

عين صناعية لها شبكية من البطاريات

بشّرتنا مجلة العلم العام الامريكية ببشرى ثلجت لها صدور الباحثين في المخترعات العلمية ، وهي أن فوجاً من المهندسين الأميركيين قد جرّبوا من عهد قريب صندوقاً صغيراً أسوَد ، مجهول التركيب ، كان موضوعاً على ركيزة مثلثة القوائم . وكان في رأس ذلك الصندوق ، الشبيه بالبرج ، عدسة ناتئة منهُ نتوءاً يخيل لناظرهِ انهُ صندوق آلة تصوير شمسي . والواقع انهُ كان يحوي آلة تصوير فذّة في نوعها ، قضى مخترعها في اختراعها عشر سنوات كاملة . وهي اقرب الآلات الميكانيكية المصورة شبهاً للعين البشرية . واسمها ايكونوسكوب اي منظار الاشباح ومخترعها الدكتور زوريكين Dr. Vladimir K. Zworykin . ويقال ان ذلك المنظار سيذلّل العقبات التي ما زالت تحول دون بلوغ التلفزة الشأو العملي الذي ينشدهُ لها العلماء . فيتاح وضع طائفة من بطاريات عيون التلفزة بجوار ميكرفونات الراديو في ميادين الالعاب الرياضية ، وفي غيرها من محال الاحتفالات العامة الجليلة ، فتلقط توًّا مناظر الوقائع والاصوات الحقيقية ، وترسلها في الجو نبضات كهربائية ، فيستطيع كل من كان لديه تلفاز في دارهِ ، وهو جالس بازائهِ ، التمتع برؤية الحوادث التي تقع على بعد أميال من سكناه

ولا غرو اذا أوشكت ان تتحقق نبوءات العلماءِ الاعلام الذين سبق أن تنبؤا بذلك منذ سنين فقد تمَّ الشطر العلميُّ من ذلك الاختراع » ولم يبق الاَّ شطراه التجاريُّ والماليُّ ، وما يلحقهما من المعضلات الواجب حلّها قبل بلوغ المرام . ولعلَّ ذلك قريب ، فقد صرَّح الدكتور زوريكين أن العين الميكانيكية التي اخترعها قد حلّت المعضلات التي أبقت التلفزة في طور الاختبار العلمي حتى الآن

ولكل من المزايا الثلاث لتلك العين الصناعية « الايكونوسكوب » شأن خطير في تقدم التلفزة واليك البيان : —

فالمزية الاولى للايكونوسكوب ، خفته وسهولة نقله من مكان الى آخر فيتيسر للمرء حمله على عاتقه معلقاً بسير أسوة بحمله آلة تصوير الصور المتحركة المألوفة، ولذلك يسهل نقله الى اماكن الحوادث

وثاني مزايا الايكونوسكوب احساسه بالنور فيتمكن به المصور من تصوير الحوادث في ريعان النهار في المخترفات Studios كما يصورها في الخلاءِ ، ويرسلها في الاجواء

وثالث مزاياه كونه عيناً للتلفزة ، مجردة من الاجزاءِ الميكانيكية المتحركة ، خالية من الاقراص الدوّارة والمحركات الداوية . وهذا مما لا يقيد سرعة الايكونوسكوب في التقاط صور الحوادث

ولما كان احراز جميع هذه المزايا ، نتيجة اتباع القواعد الاصلية للتلفزة ، فلا مندوحة لنا عن

ايراد تلك المبادىء فيما يلي لكي يسهل على القارىء فهم احدث اختراع فيها

فاول قاعدة للتلفزة ، وضع الصورة في المرسل الكهربائي ، ثم تلقيها حالاً في مكان قصيّ وذلك بالجهاز اللاقط . وكانت الوسيلة الاولى لذلك النقل بطارية السلينيوم ، ثم حلت محلها حديثاً اختها الاشدّ احساساً منها بالضوء ، وهي البصاصة الكهربائية او العين الكهرنورية . وتانك البطاريتان تحولان الضياء نبضات كهربائية تذاع اما بالاسلاك ، واما بالامواج الكهربائية اللاسلكية

فان اردنا استعمال تينك البطاريتين ، لا بدَّ لنا من تجزئة الصورة اجزاءً ، يذاع كل جزءٍ منها نبضات كهربائية ، اما قوية ، واما ضعيفة ، بحسب ذلك الجزء ، نيراً كان أو معتماً . ويمكن ارسال تلك النبضات توًّا الى الجهاز اللاقط حيث تحوَّل نوراً كما كانت ، فيُعاد تكوين الصورة المنقولة

وأسهل اسلوب لاتمام تلك الغاية ، عرض الصورة المراد نقلها على لوحة ذات مربعات مكونة من بصاصات كهربائية ، منسقة بعضها بجانب البعض ، ثم ارسال جميع النبضات الكهربائية التي تتولد من تلك البطاريات الحساسة بالنور مرة واحدة الى مصابيح كهربائية مطابقة لها . (او توجيهها الى غلف عدسات جهاز مربعات مشابه للنوع المتقدم موضوع خلف ستار الجهاز اللاقط) وقد نجح في هذه الطريقة عالمان فرنسيان منذ سنة ١٩٠٦ فأرسلا نماذج بسيطة من الصور بوساطة جهاز مؤلف من ٦٤ بصاصة كهربائية كلٌّ منها يتصل بغلاف العدسة التي في الجهاز اللاقط بوساطة سلكين . فان أُريد الحصول على صورة واضحة كاملة وجب توليد ٧٠٠٠٠ جزء مختلف على الأقل من عناصر الصورة الاصلية ، النيرة منها والمعتمة ، كل جزء منها على حدتهِ . ومن البديهي انه يستحيل نقل مثل ذلك العدد الفاحش من النبضات في آنٍ واحد لانه يستوجب استخدام ١٤٠٠٠٠ سلك من الجهاز الناقل الى كل جهاز لاقط . ومن ثمَّ نشأ مشروع اما استطلاع Explore الصورة واما Scan تقصّيها جزءًا فجزءًا من الوجه الى سائر الاعضاءِ ونقلها جزءًا فجزءًا بدلاً من نقلها مرة واحدة وهذا لا يحتاج غير سلك واحد او مجاز لاسلكي مفرد

ولا مراءَ ان التجارب الحديثة في التلفزة ما زالت كلها قائمة على ذلك الاساس . وقوامهُ اقراص دوّارة مرصعة بعدسات او مثقوبة ثقوباً بحيث يمرُّ كل جزءٍ من اجزاءِ الصورة المراد نقلها من ذلك الثقب ، او يمرُّ على عدسة احدى البصاصات الكهربائية ، نيراً كان ذلك الجزء او معتماً . فيتولد من مرور الاجزاء على البطاريات الحساسة بالنور ، سلسلة من النبضات الكهربائية تذاع في الجوّ . وفي الجهاز اللاقط تتحكم النبضات الكهربائية في الضوء الذي يجتاز مجرًى ملائماً على ستار الالتقاط لكي تعيد تكوين الصورة . وقد يتم ذلك العمل سريعاً بحيث ان أثر شعاعة النور في الجهاز اللاقط يصير صورة تامة وحيدة . وتكرر هذه العملية عدة مرات في كل ثانية من الزمن لكي تظهر للناظر صوراً متحركة

وقد صادف مهندسو التلفزة من عهد حديث عقبة ، وهي عدم تمكنهم من تحسين الصور اكثر مما هي عليه ، لان تحسينها يستوجب ادارة الجهاز المرسل اسرع من المعتاد لكي يحوي نقطاً مفردة

من نقط الصورة اكثر من المعتاد . اذ كانوا يعجلون ادارة آلاتهم بحيث لاتكاد تستطيع البصاصات الكهربائية المثبتة في الاجهزة المرسلة مجاراتها في التقاط كل جزء من اجزاء الصورة التي تدور أمام البصاصات الكهربائية . ولذلك لم يتمكن العلماء من القيام بالتلفزة العملية الاَّ في محترفاتهم بوساطة ضوء الشمس الباهر

ولئن فشل العلماء في اقتحام تلك العقبة التي خيل لهم استحالة التغلب عليها ، فقد اتيح للدكتور زوريكين الفوز بأن نبذ جميع الوسائل الحالية ، وعدل الى المبادىء الاساسية للتلفزة ، فبلغ ما كان يطمح اليه ، فاخترع عيناً ميكانيكية تعدُّ معجزة في التلفزة . ونعني بها الايكونوسكوب ذا العدسة التي تعكس صور المشاهد على شبكية صناعية مثل شبكية العين الطبيعية . وهذه الشبكية العجيبة هي دعامة الاختراع كله . وتتركب شبكية العين الصناعية التي اخترعها الدكتور زوريكين من ملايين من البصاصات الكهربائية الدقيقة متصلة بعضها ببعض كشبكية العين البشرية المكونة من مستقيمات ومخروطات لا تحصى ، مطابقة للضوء . وتلك البصاصات من معدن يحس بالضوء ، يرسَّب فوق واجهة صفيحة رقيقة من معدن الميكا ــ الطلق ــ بتبخر المعدن في اناء مفرغ من الهواء. ثم ان الغشاء المعدني المغشَّى بهِ ظهر تلك الصفيحة الطلقية العازلة للكهرباء ، وكذلك الجزء المفضض من الانبوب المحتوي على الشبكية الصناعية ، يقومان مقام قطبي الدائرة الكهربائية ، فيمثلان العصب البصري في العين البشرية الذي ينقل ماتراه شبكيتها

ولكن بقيت امام الدكتور زوريكين عقبة اخرى وهي كيفية جمع العين الميكانيكية للنبضات من تلك البطاريات التي تعد بالملايين حتى تتكوَّن صورة واحدة فرأى انه لا محيص لهُ من الالتجاء قليلاً الى (طريقة الحلقة) فأتيح له اختراع طريقة جديدة ، من كل الوجوه ، لتلك الغاية بأن وضع الشبكية في أنبوب من انابيب كروكس التي تولد الاشعة السلبية والتي تطلق شعاعة من الكهارب (الكترونات) على البطاريات الكهربائية الحساسة بالنور المختلطة بعضها ببعض[1]. ولما كانت الشعاعة السلبية يمكن تحريفها من موضعها بالمغناطيس ، وضع الدكتور زوريكن ذلك الانبوب بين اربعة قضبان مغناطيسية كهربائية تحرك الشعاعة تحريكاً امامياً وخلفياً تجاه الشبكية الصناعية بمعدل عشرين ميلاً في الدقيقة فتمرُّ على كل مصباح دقيق من مصابيحها عشرين مرة . وفي اثناء تحرك الشعاعة ، تشحن البطاريات الكهربائية الدقيقة الحساسة بالنور ، كلما تعرضت للنور . وكلما سطعت الشعاعة السلبية المتحركة على بطارية حساسة بالنور ، افرغت شحنتها الكهربائية كما تنطلق البندقية اذا تحرك نابضها . فتتولد من ذلك موجة او نبضة فجائية في جهد الدائرة الكهربائية المشتركة بين جميع البطاريات الحساسة بالنور

وعلى ذلك النمط تنتظر كل بطارية من ملايين البطاريات الحساسة بالنور ، دورها ، فتنطلق في

(١) المقتطف : المستنبط الاول لهذه الطريقة هو حسن كامل الصباح المهندس في معامل الشركة للكهربائية العامة باميركا . وقد استخرج بها « باتنتة » وذكر استنباطه هذا في مقال نشره المقتطف سنة ١٩٣٠ عدد مايو .

الجو وتذيع ما التقطته من صورة المشهد الاصليّ ، نوراً كان او قتاماً فتؤلف الصورة التي يلتقطها الجهاز اللاقط من مجرى النبضات الكهربائية التي تذاع في الجو من الجهاز اللاسلكي المرسل

وقد تتم تلك العملية عاجلاً بحيث يحدث التقصّي في الصورة ٢٠ مرة في الثانية . وفي فترة الانتظار التي تنقضي قبل اذاعة الصورة في الجو ، تشحن كل بطارية حساسة بالنور شحنات كهربائية تفوق شحنتها بالوسائط الاخرى ألوف المرات ، اذ تكون البطاريات محلقة في الصورة دائماً ، لا متغاضية عنها — ولذلك ترى (الايكونوسكوب) يعمل في الخلاء وفي داخل البيوت في اي نور مما كان يعتبر بالامس غير ممكن استعماله للتلفزة . فصار كل نور يستطاع به التقاط الصور بالفوتوغرافيا المألوفة ، صالحاً الآن للتلفزة

ولو سمعت ، اول وهلة ، شرح هذه القاعدة العويصة ، ثم رأيت الآلة نفسها ، لدهشت من خفتها وفائدتها وبساطة وظيفتها . وقد سبق الدكتور زوريكين ان اخترع منذ عدة سنين تلفازاً للبيوت صالحاً لالتقاط الصور سماه Kinescope كينوسكوب ، قوامه انبوب من أنابيب الأشعة السلبية يشبه الانبوب المستعمل في الجهاز المرسل وانما يختلف عنه باستبدال الشبكية فيه بنافذة من مادة مضيئة تُنار كلما صوبت اليها الشعاعة السلبية . ثم ان قضبان المغناطيس الكهربائي تحرك تلك الشعاعة تحريكاً مطابقاً له في الجهاز المرسل ، فيتم احداث التموج في الشعاعة نفسها في اثناء ذلك بالنبضات اللاسلكية الآتية من الجو . فترى الشعاعة المتحركة تتقصى الصورة متتبعة اجزاءها النيرة والمعتمة التي تقع على النافذة النيرة في الانبوب . فان جلس امرؤٌ تجاه الآلة في داره ، ابصر صورة متحركة ، طولها نحو خمس بوصات ، وعرضها نحو اربع بوصات ، ان شاء كبرها ، والا ابقاها كما هي عليه . ويرى الحوادث القاصية كانهُ يشهدها بنفسه . والعجيب في ذلك الجهاز خلوه ، من اوله الى آخره ، من اي جزء ميكانيكي متحرك حتى التيارات النابضة نفسها التي تحرك قضبان المغناطيس الكهربائي في الجهازين المرسل واللاقط ، فانها تتولد من ضرب من الانابيب المفرغة من الهواء . فلا بأس باستعمال اي تلفاز لاقط من التلافيز المصطلح عليها لالتقاط الصور من الايكونوسكوب ومنها الاشكال الحالية التي تلتقي بها الصور الكبيرة على ستائر المسارح

اذن يسوغ لنا ان نتوقع بناء مسارح جديدة تعرض فيها على روّادها ، حوادث العالم عند وقوعها ، بدلاً من عرضها عليهم بعد ساعات او ايام بشُرُط السينما . وسيتاح بهذا الاختراع بلوغ التلفزة ، الى المنزلة التي تسهلها في البيوت والمحال العامة . ومتى تم ذلك سيوجد زمن كاف لانشاء وظائف اخرى لهذه العين الميكانيكية في زمني الحرب والسلم ، وفي عالمي الصناعة والعلم . كأن توضع تلك العين في عدسة ميكروسكوب قوي ، لم يصنع مثله حتى اليوم ، ثم تنار بشعاعة من الاشعة التي فوق البنفسجية ، فتظهر عجائب لم يسع العالم رؤيتها الا بالفوتوغرافيا . وهذا الاختراع كغيره من المخترعات الخطيرة لا يمكننا الآن التنبؤ بما سوف يترتب عليه من المعجزات

(عن مجلة العلم العام) عوض جندي

السفن والملاحة بمصر

للدكتور علي مظهر

مصر القديمة

ان صحّ ما نقله المقريزي الينا في خططه (ص ١٩ ج ١) كان مصرايم حفيد نوح هو اول من صنع السفن في النيل ولكن ذكر ان اول سفينة كانت ثلاثمائة ذراع طولاً في عرض مائة ذراع ونحن نرتاب في هذا الامر ونعتقد ان حجم تلك السفينة مبالغ فيه

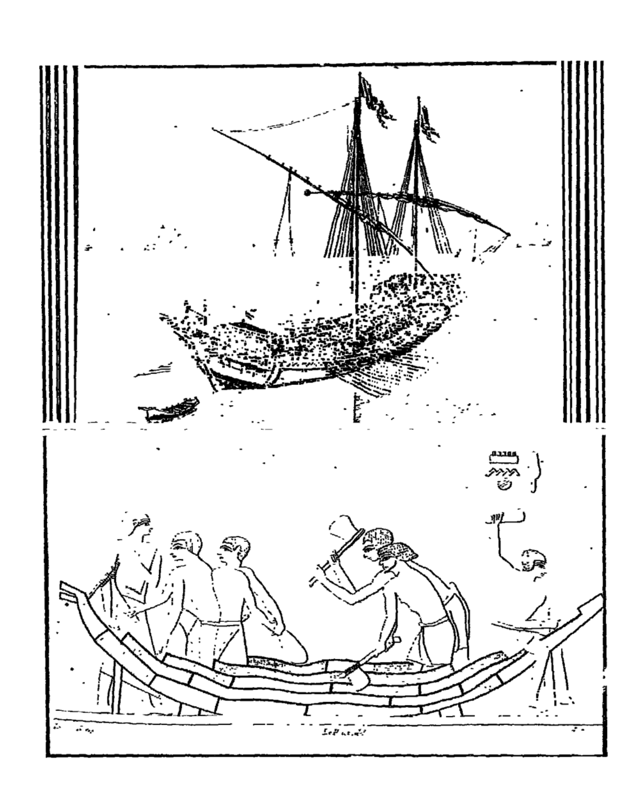
ويظهر ان سكان مصر في العصور القديمة كانوا يعنون ببناء السفن سيان كان ذلك في النيل او في البحار المالحة وقد كان النيل هو اهم طرق المواصلات في القديم وربما كانت سفن النيل من اسرع هاته السبل واقلها كلفة ومشقة . كما ان سواحل مصر نفسها على البحرين الابيض والاحمر وسواحل البلاد التي افتتحتها كبلاد الشام وغيرها وحاجة مصر الى نقل جندها الى البلد الذي تريد وحماية تلك السواحل والقيام على حراستها وحاجة مصر الى ان تكون على صلة تجارية او غير تجارية مع البلاد الاخرى جعلها تعنى ببناء السفن وصنع الاساطيل لما قدمنا من الاسباب

والزائر لآثار مصر الباقية يرى رسوماً عديدة لسفن تمخر البحار وقد رأينا كثيراً من ذلك في المقابر القديمة والبنايات التي تركتها لنا يد الحدثان وقد روى كثير من المؤرخين ان اول من صنع السفن بعد الطوفان هو « مينا » قبل الميلاد بنيف وخمسة آلاف سنة [1]

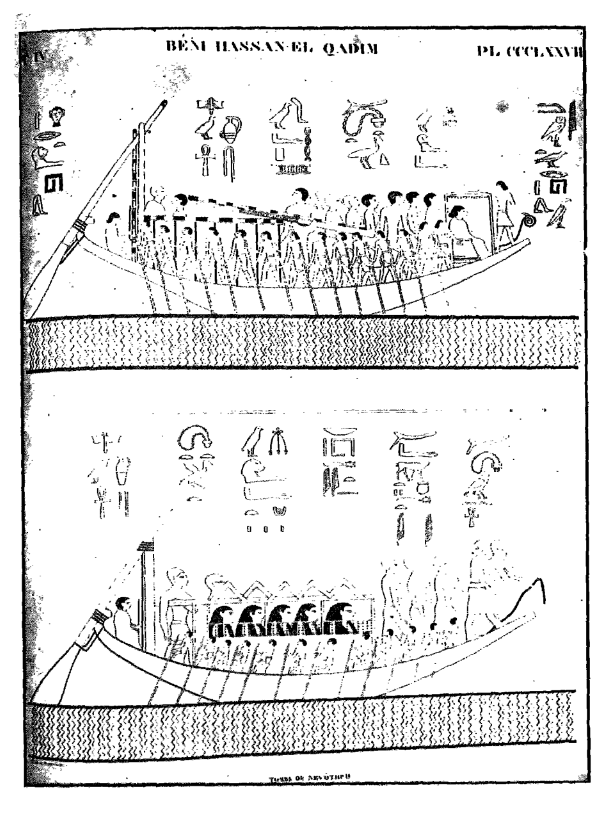
وكثر اختلاط قدماء المصريين بالأمم الاخرى لا سيما الفينيقيين الذين بزّوا غيرهم في العصور القديمة في صناعة السفن وركوب البحر ولذا أخذ المصريون يتقنون صناعة السفن حتى وصلوا الى مكانة حسدوا عليها في تلك العصور . ولما اخضع فراعنة مصر فينيقية لسلطانهم زادت تلك الصناعة عندهم خطراً وكان اهل مصر كغيرهم يستعملون الشراع والمجاذيف في اسفارهم النيلية وكانوا يشدون القلاع على الصواري على هيئة المربع (وليس على هيئة المثلث كما يرى الآن) . واذا ما انحدروا من أعلى النيل انزلوا الشراع ونكسوا الصواري واستعملوا المجاذيف [2] . وكانت السفن المعدة للبحار الملحة تشبه السفن النيلية في الشكل والاستعمال ولكنها كانت اكثر صلابة واكبر من سفن النيل

وكانت السفن تحمل الأحجار اللازمة للبناء كما كانت تسير الى بلاد العرب وبلاد الشام لنقل الاخشاب النفيسة والصمغ والعطور والذهب والفضة واللازورد والحجارة النفيسة والمتاجر كما كانت تسير لحمل الجنود المقاتلة وكثيراً ما فعلت وعادت منصورة . وقد ذكر عن حاتاسو ابنة تحوتمس الاول ثالث ملوك العائلة الثامنة عشرة بطيبة انها سارت لقتال بلاد « بون » وانها حاربت اهلها وانتصرت عليها وكانت هي أول ملوك مصر الذين قادوا الاساطيل في البحر الملح [3]

(١) حقائق الاخبار ص ٢ ج ٢ (٢) حقائق الاخبار ص ٤ ج ٢ (٣) حقائق الاخبار ص ٥ ج ٢



صناعة السفن في عهد الاسرة الثانية عشر



سفن مصرية صنعت في عهد الاسرة الثانية عشرة

وترى صور تلك الغزوة البحرية على جدران مباني «القرنة» وقد صورت السفن تصويراً حسناً

وقد ذكر ديودورس الصقلي ان رمسيس الثاني كان مهتماً بأمر البحرية المصرية فشيد جملة سفن في البحر الاحمر والبحر الابيض وبعث من القصير اسطولاً كبيراً به نيف وثلاثمائة سفينة حربية واستولى على سواحل هذا البحر وعلى جزره ومدنه وثغوره كما استولى على جزائر بحر الهند. وارسل اسطولاً ثانياً الى سواحل فينيقية فاستولى عليها وعلى كثير من جزائر بحر الاوخبيل بعد ان هزم اليونان في عدة وقائع بحرية بينما كان يفتح الفتوحات الكثيرة في اواسط آسيا وافريقيا وروى البعض ان فتوحاته كانت اكثر من فتوح اسكندر المقدوني الشهير [١]

وذكر ديودورس الصقلي ايضاً ان سيزوستريس انشأ في النيل سفينة كبيرة بلغ طولها ما يعادل ١٤٠ متراً. وذكر بلنيوس ان احد البطالسة انشأ سفينة في مثل هذا الطول وعليها اربعمائة بحار واربعة آلاف جذاف ونحو ثلاثة آلاف جندي [٢] وآثار المبالغة واضحة جداً فيه ولعله يقصد سفناً لا سفينة واحدة. وكانت القوة البحرية المصرية في عهد بطلميوس الاول اكبر واعظم قوة في العالم البحري حينئذ (٢٩٣ ق.م) فقد كان في دار الصناعة نحو ٣٥٠٠ سفينة بين كبيرة وصغيرة حربية وتجارية وكان يعنى بالفنون البحرية وصناعة السفن وقد ارتقت الملاحة المصرية في ايامه واتسع نطاق التجارة العامة البحرية [٣]. ويجمل بنا ان نذكر عناية الملك نيخاوس الثاني (٦١٢ ق.م) فقد اعد اسطولاً لاستكشاف سواحل افريقية

واستخدم بعض الفينيقيين وامرهم ان يسافروا في البحر الاحمر من خليج السويس الى الجنوب وقيل انهم لبثوا زهاء ثلاث سنوات حتى جاءوا الى رأس الرجاء الصالح وصعدوا شمالاً حتى بلغوا بحر الزقاق (جبل طارق) ودخلوا البحر الابيض حتى وصلوا الى مصر ورووا ما شاهدوه اثناء سفرهم وقد كانت هذه الرحلة من اخطر المشاريع البحرية شأناً واحفها بالاخطار في الازمان القديمة وكل من يطالع هذا الخبر يلحقهُ العجب من ان ملكاً من ملوك مصر كان يعيش قبل ٢٥٠٠ سنة يقوم بعمل كبير كهذا العمل وهو لم يتيسر الا لملوك البرتقال منذ ٤٠٠ سنة فحسب. ويظهر ان قوات مصر البحرية بالبحر الاحمر كانت اكثر منها بالبحر المتوسط. وفكر كثير من ملوك مصر مثل سيزوستريس ونيخاوس وبطلميوس الثاني وغيرهم في توصيل البحرين بحفر ترعة نيلية لجمع الاساطيل في اي مكان يحتاج اليه عند الضرورة. وقد ساعدت تلك الاساطيل مصر في فتوحها وغزواتها فقد امتدَّ سلطانها على اكثر جزائر بلاد آسيا والبحر الاحمر وافريقيا وجزائر اليونان وسوريا

وقد ضربنا صفحاً عن شكل السفن ومعداتها في ذلك العصر القديم ومن اراد التوسع في ذلك فليراجع ما كتب في حقائق الاخبار في اوائل الجزء الثاني

مصر بعد الفتح الاسلامي

وجاء عمرو بن العاص الى مصر غازياً وفاتحاً من قبل الخليفة عمر وقد تسنى لذلك الغازي ان

(١) حقائق الاخبار ص ٦ ج ٢ (٢) حقائق الاخبار ص ٧ ج ٢ (٣) حقائق الاخبار ص ٧ ج ٢

يستولي على بعض سفن الروم في واقعتي الاسكندرية ثم صرَّح الخليفة بركوب البحر فأخذ في صنع السفن في مصر على مثال سفن الروم

وقد رأينا عبد الله بن ابي سرح يخرج على رأس اسطول مصري مركَّب من مائتي سفينة لغزو قبرص (٢٨ هـ) ثم قاد اسطولاً آخر في مثل هـذا العدد المذكور (٣٤ هـ) في واقعة ذات الصواري التي انتصر فيها على قسطنطين بن هرقل وكان قد جاء في الف مركب يريد الاسكندرية فنصر الله عبد الله وقيل انها سميت غزوة ذات الصواري لكثرة صواري المراكب واجتماعها وتسمى في كتب الافرنج بواقعة فونيكنته Phoenicontp البحرية لوقوعها بالقرب من فونيكه . وبعد هذه الواقعة ازدادت اساطيل الاسلام بسرعة حتى تمكنت اساطيل معاوية من فتح بوغاز غليبولي سنة ٦٥٥ م . ولولا النار الاغريقية اذ ذاك لتمكَّن معاوية من فتح القسطنطينية التي قصد فتحها سنة ٦٦٨ م بعد ان أعدَّ لها عدته من الاساطيل . وفي عهد الخليفة المتوكل العباسي نزل الروم بدمياط في يوم عرفة سنة ثمان وثلاثين ومائتين وامير مصر يومئذٍ عنبسة بن اسحق فملكوها وقتلوا بها جمعاً كثيراً من المسلمين وسبوا النساء والاطفال وساروا الى تنيس فاقاموا باشتومها ولذا اهتمَّ بأمر صناعة السفن للدفاع وأنشئت الشواني برسم الأُسطول وجعلت غزاة للبحر كما كان هناك عسكر للبر

عصر الطولونيين والاخشيد

وقد عني ابن طولون بامر الاساطيل فزاد في بناء السفن وجهزها بالآلات والرجال وكانت دار الصناعة ايامه بجزيرة الروضة . وكان ينشأ بها الحربيات والشلنديات وغيرها من انواع السفن وصار لهُ بها الهيبة في قلوب اعدائهِ[1] وذكر ابن اياس انهُ لما مات احمد بن طولون (٢٧٠ هـ) ترك الف مركب من سفن الحرب والشواني وقد عني بنوه بهذا الامر وانشأوا السفن للحرب وكانت لهم قوة بحرية ذات شأن وخطر حتى اذ كانت ايامهم الاخيرة واخذت بحريتهم تقل قيمتها وتنقرض

ولم تكن عناية الاخشيديين بالسفن كبيرة ولذا طمع الروم في الاغارة على مصر .وقد جاءوا الى دمياط عام ٣٥٧ هـ في بضع وعشرين سفينة فقتلوا واسروا مائة وخمسين من المسلمين واستمرت الاستهانة بامر هذه الصناعة حتى زالت دولتهم بقدوم الفواطم الى مصر

عصر الفواطم

اما عناية الفواطم بالاسطول فكانت كبيرة جدًّا وقد عني بها المعز لدين الله منذ قدومه لمصر وتابعهُ بنوه في هذا الطريق فقد كانت المراكب تنشأ بمدينة مصر والاسكندرية ودمياط واوسعوا في النفقة على امراء السفن ومن ركب البحر وكانت السفن ايام المعز لدين الله نيفاً وستمائة قطعة ولم تنقص في اواخر ايامهم عن مائة قطعة . وكانت لهم منظرة يجلس فيهـا الخليفة لوداع الاسطول ولقائهِ على ساحل النيل الى جوار جامع المقس فكان يجلس الخليفة في تلك المنظرة يستعرض الاساطيل ويوسع في العطاء لهم وما غنمه الاسطول فهو للغزاة لا يشاركهم فيهِ احد الاَّ ما كان من الاسري والسلاح. وقد قلَّت العناية بالاساطيل عقب سقوط دولة الفواطم لهذا تجرأ الفرنجة على الدنو من مصر (تتلى)

(١) حقائق الاخبار ص ٢٤ ج ٢


سير الزمان
فصل المأساة الاخير
الثورة الروسية
الثورة الالمانية
النهضة التركية الكمالية
للدكتور شهبندر
خطط الرئيس روزفلت
لانعاش الولايات المتحدة
الحوادث الدولية
سنة ١٩٣٣

اوربا بعد الحرب العالمية

فصل المأساة الاخير

١ — الثورة الروسية

كانت روسيا اقلّ الامم الاوربية الكبرى استعداداً لخوض غمار الحرب . ولكن البحث في الوثائق الرسمية اثبت أنها كانت البادئة في تعبئة الجيوش ، فاجتمع تحت ألويتها ما لا يقلُّ عن خمسة عشر مليوناً من الجند . وما لبث الجيش ان ادرك بعد سنتين من القتال ، ان الطبقة الحاكمة في روسيا ، عاجزة عن قيادة الجيش او تغذيته او تجهيزه بالملابس والذخائر . فكان طبيعيًّا ان يلقي الجيش اللومَ في خذلانهِ على القيصر . وكان ضباط الجيش لا يدرون ، ما يقع في القصور الامبراطورية بين سمع القيصر وبصرهِ . ولو أنهم عرفوا ما كان يعرفهُ الوزراء حينئذٍ ، لما غادروا قراهم للاشتراك في الحرب . وكان القيصر ، ضعيف الارادة ، مبلبل الخاطر ، وكان لا يفقه ما قد يكون تأثير الحرب في روسيا . وكانت افعالهُ اليومية ، تسير بمقتضى اهواءِ القيصرة ، وهي امرأة غير متزنة ، تستهويها اللذة ، ويسيطر عليها الراهب راسبوتين . وكان راسبوتين فلاَّحاً من فلاَّحي سيبيريا يحمل على رأسهِ ندبة جرحٍ أثراً لضرب مبرّح اصابهُ لسرقتهِ المواشي فأصبح الآمر الناهي في البلاط الروسي وكان في نظر القيصرة نبيًّا يستطيع ان ينجي ابنها العليل ويمنحهُ الصحة والعافية . ولكن رجال البلاط عرفوا فيهِ ، رجلاً فاسداً منغمساً في اللذّات . فلما ضاق الاشراف بهِ ذرعاً ، دبّرت ضدّه مؤامرة ، قتل فيها سنة ١٩١٦ .

ثورة مارس سنة ١٩١٧

ولكن اغتيال راسبوتين لم يكن كافياً لاعادة الثقة ، الى الجنود الروس في صفوف القتال ، ولا الى العمال في مصانع الذخيرة . ولما تعدّدت حوادث الفساد والارتكاب ، فقد الجيش كل ثقتهِ في الحكومة . وكانت طبقة الحكام تحسُّ بقصورها وعجزها عن تنظيم البلاد — لموالاة الحرب — ولكنها كانت مقيَّدة بقيود التقاليد ، فلم تحرّك اصبعاً لتحسين الحال ، وتحويل الخيبة الى نجاح . فأخذ الجنود يفرّون من الصفوف ، حتى ليقال ان نحو مليون جنديٍ روميٍ ، فرّوا من الجيش في شهر يناير سنة ١٩١٧ واخذت نفقات المعيشة ترتفع في المدن ، حتى اصبحت طبقات العمّال على وشك الموت جوعاً

واذا الثورة تنفجر في بتروغراد . كان اليوم — ٢٣ مارس — يوم النساء الدولي ، فاغتنم النساء العاملات في العاصمة ، هذه الفرصة ، ليعلنَّ اضرابهنَّ . ولو ان الاضراب انحصر في النساء العاملات لقضي الامر بالقوة وبالحديد . ولكن العمَّال ، رأوا في اضراب العاملات دعوة لهم ، فلم تنقض بضع ساعات حتى اعلن في بتروغراد اضراب عام ، وحفلت شوارعها بالمشاغبين . ودعي القيصر الى العاصمة فهرول اليها . ولكن العمال حالوا دون وصوله ، لانهم تصدُّوا لقطاره ومنعوه من دخول المحطة فاضطرَّ ان يعود من حيث أتى . وصدرت الاوامر الى جنود القوزاق بالهجوم على المضربين وتفريقهم ، ولكن القوزاق عطفوا على المضربين ، كأنهم واياهم على اتفاق . ثم دعيت فرقة المشاة لاطلاق النار على الجماهير . فرنَّت أصداء طلقات متفرقة في الفضاء وقتل بعض المشاغبين . ولكن فرقة المشاق نفسها كانت تنفذ بعض الاوامر الصادرة اليها متلكئة.ولم تمض عليها فترة حتى انضمَّت الى المضربين في الهجوم على مراكز البوليس . فلما كان اليوم الثالث من ايام الاضراب كان العمال قد اصبحوا اسياد بتروغراد . وكانوا لا يعلمون لماذا ثاروا ، ولا ما يفعلون وقد احرزوا النصر ، فالاضراب جاءَ عفواً ، كأن العمال قرَّروا في ذوات نفوسهم ان ساعات العمل المرهقة والطعام اليسير الذي لا يسدُّ جوعاً ، اصبحا مما لا يطاق . فلم يكن للمضربين خطة ، ولا زعماءَ ، ولا نظام

***

وكان في بتروغراد ، جمعية ثورية منظمة ، ولكنها دهشت لهذه الثورة المفاجئة ، لانها لم تكن تتوقعها . نعم ان الحزب الاشتراكي ، كان قد مضى عليهِ سنوات ، وهو يبثُّ دعايتهُ في صفوف العمال ، وفي سنة ١٩٠٣ كان الحزب قد قرَّر ان الانتقال بالبلاد الى الدولة الاشتراكية ، لا يتمُّ الاَّ بالعنف ، وان الوسائل السلمية لا تجدي نفعاً . فعرِف هذا الفريق القائل بالعنف ، بفريق البولشفيك اي الاكثرية . وعرِف الفريق الآخر بالمنشفيك . وحدثت فتنة سنة ١٩٠٥ نشأت عن خذلان روسيا في حربها مع اليابان . وكان العمال قد انتخبوا مجالس — سوفيتات Soviets — من صفوفهم تتولى ادارة المصانع ، وكان الجنود والفلاَّحون قد فعلوا ما هو شبيه بذلك في بعض القرى والثكنات. فلما حدثت فتنة سنة ١٩٠٥ واحتدمت ، ابعد زعماءُ الحزب الاشتراكي من روسيا . لذلك لما حدثت ثورة ١٩١٧ الاولى كانت ثورة من دون زعماءٍ ، يتولون توجيهها

ولكن العمال في سنة ١٩١٧ ظلوا يذكرون المجالس — السوفيت — التي انتخبت سنة ١٩٠٥ لذلك كان من الطبيعي ان يتجهوا بعد فوزهم الى انتخاب مجالس على نمط ما فعلوا سنة ١٩٠٥ وكان معظم الممثّلين الذين اختاروهم لهذه المجالس من الفريق المنشفيكي في الحزب الاشتراكي القائل بوجوب اتباع الوسائل السلمية ، في تحويل الدولة الى النظام الاشتراكي . ولما كان رجال الفريق المنشفيكي ، معارضين في استعمال العنف ، لم يختاروا للحكومة رجالاً من صفوف الاشتراكيين ، بل من صفوف الاحرار ، الميالين الى الاصلاح . وكذلك أُنشئت حكومة وقتية برآسة البرنس لووف Louv فلما تسلَّمت هذه الحكومة مقاليد الحكم ، لم تدع مجالس السوفيت بلاغاً نهائيًّا بوجوب اصلاح

حال العمال ، بل اكتفت بطلب حرية القول وحرية الصحافة. والواقع ان هذه المجالس ، ما كانت تدري الهدف الذي ترمي اليهِ . ولا كان وزراء البرنس لووف يدرون ما هم يريدون . وقد قال تروتسكي في تاريخهِ للثورة الروسية ، واصفاً هذه الحالة الشاذة : — «كان الثوّار يتوسلون الى الاحرار ليخلصوا الثورة من الاخفاق . وكان الاحرار يتوسلون الى الملكيين لكي يخلصوا الاحرار من الخيبة» . كان العمال قد ثاروا في بتروغراد فايدهم العمال في موسكو . ولكن روسيا لم يكن فيها رجل واحد ، يعرف ان يحوّل هذه الثورة الى انقلاب تامٍ

لنين

كان لنين الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يتولى الزعامة . ولنين كان منفيًّا من بلاده ، يقيم في سويسرا . فلما قرأ في الصحف عن فتنة بتروغراد ، ادرك ان اليوم الذي ما زال يتطلع اليهِ ويعمل في سبيله من ٢٦ سنة قد جاء وهو في السابعة والاربعين من عمره . كان والده معلّم مدرسة قد ارتقى حتى صار مفتشاً للمعارف ، ثم رقي الى طبقة الاشراف لتنظيمهِ تعليم الشبان في مقاطعة على نهر الفولجا . فلما كان لنين في السابعة عشرة من عمرهِ ، أُعدِم شقيقهُ الاكبر لاشتراكهِ في مؤامرة دُبِّرت لاغتيال القيصر اسكندر الثالث . فتحوّل لنين من ذلك اليوم الى صفوف الثوّار وقبيل ان يتم دراستهُ القانونية ، وينال شهادتهُ . كان قد انشأ اتحاداً للكفاح في سبيل تحرير طبقة العمال . وكان قد قرأ كتابات كارل ماركس ، فآمن معهُ ، بانهُ حيث تكون وسائل الانتاج ملكاً للافراد ، لا يتورّع هؤلاءِ الافراد عن ظلم العمال في سبيل جني الربح الطائل وحشد الثروة . فيفرضون عليهم عملاً يزداد ارهاقاً حتى ينقلب العمال على اسيادهم ويسيطرون هم على وسائل الانتاج. وفي سنة ١٨٩٦ نفي لنين الى سيبيريا مدة ثلاث سنوات ، لانهُ كان يدعو عمال بتروغراد ، الى الانتقاض على الدولة . وكانت فتاة تدعى كروبسكايا ، قد اشتركت معهُ في دعايته فتبعتهُ الى المنفى ، واصبحت زوجتهُ . فكتب لنين في منفاه مؤلفهُ العظيم ، (نشوء الرأسمالية في روسيا) فلما انقضت مدة النفي ، ذهب الى مونيخ حيث انشأ جريدة ثورية . وفي سنة ١٩٠٣ كان من فريق البولشفيك الذي انفصل عن الحزب الاشتراكي . ولم يشترك في فتنة ١٩٠٥ ، ولكنَّ أثرهُ ظهر في بعض حوادث التمرد البحرية التي وقعت في كرونستاد وسڤيبورج في السنة التالية . ثم ذهب مع زوجتهِ الى باريس ومنها الى لندن حيث اصبح محوراً لمساعي فريق من الثوّار الروس . فلما نشبت الحرب الكبرى كان هو وزوجتهُ في زوريخ يعيشان في غرفة رثة

كانت الحرب في نظر لنين ، عملاً جنونيًّا ، فيها القضاء المبرم على الحضارة الرأسمالية القائمة على الاستبداد والمنافسة ، الحضارة التي قضى حياتهُ مشهّراً بمساويها . وكان من البدءِ معارضاً في خوض روسيا لغمراتها ، وكان يحسّ ان طبقات العمال في روسيا ، غير راضية عنها كذلك

فلما جاءتهُ انباءُ الفتنة التي وقعت في ٢٣ مارس ١٩١٧ كان يعلم ما يتحتّم عليهِ ، والى اين يجب ان

يتجه . على ان دول الحلفاء ، رفضوا ان يسمحوا لهُ في اختراق بلدانها للعودة الى روسيا . ولكن المانيا ، سمحت لهُ في ذلك املاً منها في انهُ يدعو الى السلم عند عودتهِ بيد انها اشترطت عليهِ وعلى صحبهِ ان لا يغادر احد منهم القطار الذي يقلّهم في ارض المانية

وفي مساءِ ١٦ ابريل سنة ١٩١٧ وصل لنين الى محطة فنلندا في بتروغراد . فقابلهُ فيها زعماء الحزب البولشفيكي وساروا بهِ رغماً عنهُ الى ردهة الانتظار ، حيث اعدُّوا لهُ حفلة استقبال . وكان الجمهور يهتف طالباً من الزعيم خطبة وكان ينتظر منهُ ان يقول كلمات منمقة يهنئهم بها على الثورة ، ولكن خطبته صعقتهم . فانه لعن البولشفيك لانهم ضيّعوا الفرصة السانحة للقبض على زمام الامور . واعلن ان الحكومة الوقتية التي يرئسها البرنس لووف يجب ان تسقط في الحال وان السلطان ، كلَّ السلطان ، يجب ان يكون في ايدي السوفيت ، وان روسيا ، يجب ان تنسحب من الحرب

فلما ذهب ، الى دار الحزب البولشفيكي — وكانت البناية خاصة باحدى راقصات القيصر قبلاً — ردَّد الكلام الذي قالهُ في استقبال المحطة . فحسبهُ البولشفيك مجنوناً او على الاقل حسبوهُ منفيًّا قد فقد صلتهُ بسير الحوادث في روسيا . ولكن الحكومة الوقتية — وكان المسيطر عليها رجل يدعى كرنسكي — كانت في عجزها كحكومة القيصر . ثم تمرَّد بحَّارة الاسطول في كرونستاد وأنشأوا مجالس سوفيتية . فلما رفض الجيش تنفيذ خطة الهجوم التي اعدَّت لشهر يونيو ، بدأ البولشفيك ينضمون رويداً رويداً الى لنين ، ويسلمون بآرائهِ . ولكنهُ اضطرَّ في خلال ذلك ان يبتعد عن بتروغراد الى ان تسنح الفرصة التالية للثورة فذهب الى فنلندا ، وجعل يرقب الحوادث من هناك ، وكان على اتصال دائم بحزبهِ ، فقال لهم يجب ان يكون شعارنا : — « السلطان للسوفيت ، والارض للفلاحين ، والخبز للجوعى ، والسلام لجميع الناس » . كان هذا شعاره الذي يؤمن بهِ ، وقد اتيح لهُ ان يعيش حتى يحققهُ

ثورة نوفمبر

عاد لنين الى بتروغراد في نوفبر ، متخفياً . وفي جلسة عقدها الحزب البولشفيكي ، ودامت طوال الليل اقنعهُ بوجوب الاضراب ضدّ حكومة كرنسكي . فأنشىء حرس احمر ، ونظمت المجالس السوفيتية التي اكثريتها من البولشفيك للتمهيد ، لذلك الاضراب . وفي ليلة ٦ نوفبر (كان يوم ٢٤ اكتوبر بحسب التقويم الروسي اليولياني) اعلن لنين وتروتسكي الثورة بالتلفون . كانا حينئذ على اتصال بالاسطول الروسي في كرونستاد وبالحرس الاحمر ، وبالذين عهد اليهم في قطع خطوط المواصلات حتى لا تستطيع حكومة كرنسكي طلب النجدة . قال تروتسكي لهؤلاء . اذا لم تستطيعوا تحقيق ما عهد اليكم بالكلام فاستعملوا السلاح

فلما استيقظت بتروغراد في الصباح كان البولشفيك قد تقلدوا زمام الاحكام وأنشأوا مجلس قوميسيرية الشعب لتوليها . وقد كتب تروتسكي في سيرتهِ وصف ذلك قال :— من دون اضطراب .

ومن دون حرب او سفك دماء ، احتلّ الجنود او البحارة او الحرس الاحمر ، داراً بعد اخرى ، بناء على اوامر صادرة من معهد سمولني (مركز ادارة الحزب البولشفيكي) . ومن محاسن ما يرويهِ تروتسكي ، انهُ عهد الى بحّار انكليزي يدعى ماركن في حماية مخازن الخمر ، حتى لا يستولي عليها الثوار ويسكروا بها . فلما عجز عن حمايتها حطّم زجاجاتها فجرت الخمر في مجاري المدينة الى نهر النيفا

كان العمل الذي اتخذته الحكومة الجديدة على عاتقها ، من وراء المقدرة الانسانية . « السلطان للسوفيت » . لقد انشئت مجالس السوفيت في بتروغراد وموسكو وكرونستاد . ولكن لا بدَّ من اقناع سائر البلاد الروسية ، باقتفاء أثر هذه المدن . « الارض للفلاحين » . نعم لا شك في ان الفلاحين لا يتوانون عن اغتصاب الارض ولكن المشكلة كلَّ المشكلة في توزيعها بالعدل على جميع الناس. «الخبز للجوعى». لقد صادرت حكومة السوفيت ، الغذاء والخبز ، ووزعت التذاكر على مؤيديها ، وجعلت تمنح كل حامل تذكرة نصيبهُ من الاغذية المصادرة . اما الذين يقاومون السوفيت فليموتوا جوعاً . و « السلام لجميع الناس » . ان الحوائل التي تحول دون تحقيق هذا الغرض ؛ يصعب تخطيها . فروسيا مرتبطة بمعاهدة مع الحلفاء بأن لا تنفرد في عقد الصلح . ولكنَّ البولشفيك انكروا هذه المعاهدة وانكروا كذلك ايَّة رابطة تربطهم بالحلفاء . قالوا ان الحرب هي حرب الرأسماليين ، وليست حرب الشعب الروسي . وكذلك اقترح ، في ٢٠ نوفمبر عقد هدنة مع المانيا وأحلافها ، وفي ٢٠ دسمبر عقد مؤتمر الصلح في مدينة برست ليتوفسك

كان مؤتمر برست ليتوفسك من اغرب المؤتمرات . هنا على جانب واحد من المائدة الخضراء ، كان ممثلو المانيا الامبراطورية حملة القاب فخمة ، يقابلهم على الجانب الآخر ، تروتسكي ، ابن فلاح يهودي ، منفوش الشعر ، قضى حياته بين السجن والمنفى . وما كان تروتسكي يحمل في حقيبتهِ شيئاً يستطيع ان يساوم بهِ . ذلك ان روسيا نفسها كانت قد طلبت عقد الهدنة ، لعجزها عن مواصلة الحرب ، فكأنها قد هزمت ، وللمانيا الحق في ان تملي شروطها عليها . ولكن ثلاثة اشهر انقضت ، قبلما وقّعت المعاهدة . في خلال هذه الاشهر الثلاثة ، ماطل تروتسكي وجادل وناقش ، حتى امتلأت صحف العالم ، بأنباء المؤتمر . فكان مؤتمر برست ليتوفسك اعلاناً عظيماً للحكومة البولشفيكية الجديدة . فلما نشرت مواد المعاهدة تبيَّن انها شديدة كلَّ الشدة وبمقتضاها سلمت روسيا بخسارة اوكرانيا وبولونيا وفنلندا ولتوانيا واستونيا ولتفيا اذ منحت هذه البلدان استقلالها. وخسرت بلاد القوقاس ايضاً لتركيا . وكذلك خسرت روسيا ، ربع سكانها ، وثلاثة ارباع حقول الحنطة في بلادها . وفرضت عليها غرامة قدرها ستة ملايين مارك

كانت معاهدة برست ليتوفسك معاهدة املتها المانيا الظافرة . ولكنها في الواقع كانت نصراً لتروتسكي ، لانهُ احرز الاعلان المطلوب للحكومة الروسية الجديدة ، حالة ان المانيا ، وهي لا تزال مشتبكة في الحرب مع الدول الاخرى ، لا تستطيع ان تنفذ شروط المعاهدة بالسيف . وعاد تروتسكي من برست ليتوفسك الى بتروغراد ، لينظم الجيش الاحمر لمقاومة أعداء النظام الجديد

٢ — الثورة الالمانية

كانت المانيا ، في مستهلّ سنة ١٩١٨ في خطر من نشوب ثورة فيها ، كما كانت روسيا في مستهلّ السنة السابقة . ففي يناير سنة ١٩١٨ اعلن اضراب عام في برلين فبطشت الحكومة باصحابهِ . واضطرَّ العمال ان يعودوا الى العمل بالقوة . وفي يوليو اعدَّ اركان حرب الجيش الالماني ، خطة هجوم ، ظنَّ كلُّ الخبراءِ العسكريين ان نجاحها مكفول . ذلك ان روسيا كانت قد خرجت من الحرب ، وايطاليا قد هزمت ، فاستطاع الالمان ان ينقلوا وحدات جيشهم الى الجبهة الغربية . ولكن الخطة منيت بالخيبة . واخفق الالمان في معركة المارن الثانية ولم يخترقوا صفوف الحلفاءِ . فَسرَتْ موجة يأس وقنوط في طبقات الامة الالمانية

وتلا معركة المارن الثانية ، هجوم الحلفاءِ . وانسحبت بلغاريا من المعترك في سبتمبر . وتركيا في اكتوبر ، وكانت المانيا قد سئمت حكّامها ، فدعي البرنس ماكس اوف بادن — وهو من الاحرار — لانشاء وزارة . واشار الجنرال لودندورف على البرنس ماكس ، في ٣ اكتوبر بان يبعث الى رئيس الولايات المتحدة الاميركية ، بمذكرة يقترح فيها المحادثة في عقد الصلح على اساس شروطهِ الاربعة عشر ، وكان ولسن قد اقترحها اساساً للصلح في خطبة اذاعها في يناير سنة ١٩١٨ وبمقتضاها كان يتعين على المانيا ان تخلي البلجيك وروسيا والبلقان ، وان تتخلى عن الالزاس لورين لفرنسا ، وتمزّق معاهدة برست ليتوفسك الجائرة مع روسيا . هذا من حيث تخطيط الخريطة الاوربية . اما من حيث المبادىء العامة ، فقد اقتراح ولسن في خطبتهِ المشار اليها ، عقد معاهدات السلام في جلسات علنية ، ويجب ان تنطوي هذه المعاهدات ، على حرية البحار المطلقة وازالة الحواجز الاقتصادية على قدر الامكان وانشاءِ مساواة بين الامم في احوال التجارة

وجاءَ نبأ المذكرة التي بعث بها البرنس ماكس ، طالباً الصلح على أساس شروط ولسن ، ضربة اقسى من الاخفاق في معركة المارن ، على القوة المعنوية الالمانية . واذن فليس مما يبعث على الدهشة ان يرفض الاسطول الالماني ، تنفيذ الاوامر الصادرة اليهِ في أواخر اكتوبر ، بالخروج من ولهلمزهافن ومهاجمة شواطىء البلجيك . وفي الحال وزعت وحدات الاسطول على اربعة مرافىء المانية وكذلك اجتنب حدوث تمرّد بين رجالهِ . ولكن ذلك لم يطل . ففي ٤ نوفمبر ، احتلَّ بحّارة السفن المرابطة في كيل ، مدينة كيل ، وطالبوا بالاعتراف بمجالسهم السوفيتية ، فسيّرت فرقة من المشاة عليهم ، ولكن الجنود سلّموا سلاحهم ، وانشأوا مجالس سوفيتية خاصة بهم . وفي ٥ نوفمبر ، رفع العلم الاحمر على وحدات الاسطول الالماني في كيل

وكذلك تحوَّل التمرُّد الى ثورة سياسية . كانت المدن الالمانية على شواطىء بحر بلطيق ، قد رفعت العلم الاحمر ، وكان البحّارة والجنود والعمال ، قد قبضوا على زمام الامر فيها وانشأوا مجالسهم السوفيتية . اما في بافاريا الكاثوليكية ، فقام رجل يدعي كورت أيْسنر — وهو كاتب

مشهور — وقاد مظاهرة ضدّ مواصلة الحرب ، وتمرّد الجند ، وفي صباح ٩ نوفمبر ، استيقظ سكان بافاريا فرأوا في الشوارع الواحاً تعلن ان بافاريا اصبحت جمهورية حرّة مؤلفة من مجالس الجنود والعمال والفلاحين السوفيتية . في ذلك اليوم نفسهِ ، انفجرت الثورة في برلين ، وكان البرنس ماكس قد اقنع الامبراطور غليوم في الصباح ، بوجوب التنازل عن العرش ، ومغادرة البلاد ، لان ذلك هو السبيل الوحيد ، لاجتناب نشوب حربٍ اهلية . ولكن التنازل عن العرش جاء متأخراً ، فلم ينجِ الحكومة من السقوط . ففي الصباح اعلن اضراب عام ، ورفضت الجنود ان تطرد الجماهير من الشوارع ، فاستقال البرنس ماكس ، وتولى ايبرت زعيم الجناح الايمن من حزب الاشتراكيين الدمقراطيين (وهو يقابل المنشفيك في روسيا) تأليف حكومة اشتراكية معتدلة ، واجتمع ممثلو مجالس السوفيت الخاصة بالجنود والعمال ، لوضع نظام للحكومة المحلية

على ان الشيوعيين لم يرضوا عن سمة الاعتدال في هذا الانقلاب فاشتبكوا في بعض معارك في شوارع المدينة بعد ما ارخى الظلام سدولهُ

لم يقتل في خلال النهار اكثر من خمسة عشر رجلاً ، راحوا فدية الانقلاب من النظام الامبراطوري الى الحكم الشعبي في المانيا . وتبع سقوط آل هوهنزولرن سقوط نحو عشرين بيتاً من البيوت المالكة في الدول الالمانية . وكذلك اصبحت المانيا جمهورية برآسة ايبرت ، صانع السروج

***

كانت المشكلة الاولى التي واجهتها الحكومة الجديدة ، مشكلة انهاء الحرب . كان البرنس ماكس قد بعث بالسياسي ارزبرجر ، لمفاوضة فوش في عقد هدنةٍ . فكانت الشروط التي املاها فوش ، شديدة صارمة ، ومنها انشاء منطقة حياد على ضفة الرين الالمانية ، وتسليم جميع مدافع الجيش الالماني وطياراته ، وسفن الاسطول . ولكن الالمان اضطروا الى التسليم بها في ١١ نوفمبر ، وهم يرجون ان تكون شروط الصلح اقلّ صرامة منها . ألم يقل ولسن ان شروطه الاربعة عشر سوف تكون اساساً لمعاهدات الصلح ؟

وكانت المشكلة الثانية التي واجهتها الحكومة الجديدة ، مشكلة تغذية الامة الالمانية . ذلك ان الثورة كانت قد حالت دون انتاج المواد الغذائية فمات كثيرون جوعاً . وفي الشهور الثلاثة الاولى من عهد الجمهورية زادت وفيات الاطفال ثلاثة اضعاف . ولولا جمعيات الغوث الاميركية ، لفشا الموت جوعاً في المانيا الجمهورية

اما المشكلة الثالثة فكانت معالجة المقاومة العنيفة للجمهورية ، من ناحية الحزب الشيوعي المعروف بحزب « سپارتاكس » . ففي ٩ نوفمبر طلب الشيوعيون ، تحديد يوم العمل بست ساعات واستيلاء الامة على البنوك والارض والصناعات والتنازل عن السلطة للمجالس السوفيتية . وكان حزب ايبرت ، حزب الاشتراكيين الدمقراطيين ، يؤمن بالحكومة البرلمانية ، ورغماً عن المظاهرات العنيفة التي قام بها الشيوعيون ، قرّرت الحكومة اصدار الاوامر لانتخاب جمعية تأسيسية

. ولكن زعماء الشيوعيين امثال ليبنخت وروزا لوكسمبرج ، قرّروا ان يكافحوا ، على مثال ما كافح لنين ، لجعل المانيا شيوعية . ولكنهم كان يعوزهم عبقرية لنين . ففي ٦ يناير ١٩١٩ احتلّوا ادارات الصحف ووزارة الحربية ودار محطة برلين ، ولكنهم لم يتمكنوا من الثبات فيها ، واضطرُّوا الى التراجع امام النار التي اطلقها عليهم فلول الجيش الامبراطوري . وقد كتب احد الذين شهدوا تلك الايام في برلين قال : « ولو كان للسبارتاكيين زعماء حربيون ، واستبدلوا الكلام والخطابة بالحرب ، لسهل عليهم اخراج الحكومة الاشتراكية من الولهلمستراس واقامة النظام السوفيتي في برلين» . ولكن ثورتهم تبعها ، نوع من حكم الارهاب في برلين ، وقبض الجمهور على ليبنخت وروزا لوكسمبرج وهما في طريقهما الى السجن وقتلا شرَّ قتلة

***

ومع انخذال السبارتاكيين في فتنة ٦ يناير ظلّ الغموض يكتنف المصير النهائي بين المعتدلين والمتطرفين . فالبرلمان الجديد انتخب ايبرت رئيساً للريخ ، ولكن السبارتاكيين رفضوا ان يعترفوا بالبرلمان . وفي مارس ، احتلَّ السوفيت في برلين ، الجانب الشرقي من المدينة . ولولا العوبة ابتدعها نوسكي Noske وزير الدفاع ، لكان الشيوعيون فازوا في احداث الانقلاب . ذلك ان نوسكي اعلن للصحف ان الشيوعيين قتلوا ستة وخمسين رجلاً من رجال البوليس ، وذكر اسماءهم واحداً واحداً فانقلبت الامة على الشيوعيين . وكذلك تمكن نوسكي من اخماد الثورة بعد اربعة ايام من القتال ، سقط في خلالها ١٢٠٠ قتيل في برلين . وخمد الاضطراب في النواحي الاخرى ، بعد تسليم يسير ، لمطالب السوفيت ، في كونجسبرج وبرسلو وسيليزيا العليا وهمبرج وغيرها

فخبا صوت الشيوعيين ، حتى الربيع واذا الاضراب يتلو الاضراب في المناطق الصناعية في الرور واسن . ولكن الحكومة تغلبت على المضربين بالحكم العرفي ، ومنع الطعام عن المناطق المضربة حتى يعود العمال الى العمل . وحدث شغب في مجدبرج وبرنسويك ودرسدن . اما في مونيخ فلما اغتيل أيسنر قام الشيوعيون يحتجّون واعلنوا انشاء جمهورية سوفيتية ثانية . ولكن نوسكي لم يلق صعوبة كبيرة في تحطيم سوفيت بافاريا . وكذلك ضعف شأن الشيوعيين في المانيا . فلما اديلت المانيا من مؤتمر الصلح تلك الضربة القاسية — معاهدة فرساي التي اعلنت في ٨ مايو ١٩١٩ — نسي الالمان الحرب الاهلية ، واجتمعوا حول حكومة الرئيس ايبرت

***

في كلا روسيا والمانيا ، فرضت الحرب العالمية على الامة بواسطة حكومة اوتوقراطية . وفي كلا الحالين ، افضت الحرب الى ثورة . وفي كلتا الثورتين ، انشئت اولاً حكومة حرّة ، (حكومة البرنس لووف وحكومة البرنس ماكس) . اما المانيا فكان فيها طبقة متوسطة قوية احتفظت بالحكومة البرلمانية والنظام الرأسمالي . وأما في روسيا ، فان الطبقة المتوسطة تخاذلت امام حكومة العمال ، يقودها ويدير دفتها نبوغ لنين

المشكلات الاجتماعية الكبرى في الشرق العربي

النهضة التركية الكمالية

او الحياة بعد الموت

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

دعونا النهضة التركية عقب الحرب العالمية « كمالية » للقسط الوافر الذي استقلَّ بهِ الغازي مصطفى كمال باشا في احداثها وهي تختلف عن الفاشستية والنازية اختلافاً جوهريًّا في انها لم تكن تغلُّباً حاسماً فقط على حكومة من ابناء البلاد يرأسها خليفة تحفُّ بهِ العقائد المتوارثة بل كانت ايضاً انتصاراً باهراً في ميدان الحرب على دولة اجنبية يعضدها الحلفاء وفي مقدمتهم انكلتره وانقاذاً للشعب التركي من الاضمحلال حتى اذا كان هنالك شيءٌ يدعى حياة بعد الموت فهو تجدد شباب تركيا بعد الهرم ونهوض ابنائها ينفضون تراب الموت السياسي عن وجوههم . لا جرم ان هذه النهضة اتخذت شكلا عسكريًّا منذ ما تألفت لان رجالها من الجنود وفيها جميع الفضائل والنقائص التي عرفت في اعمال الرجال العسكريين ، ولم تبلغ المانيا في ادق ساعات محنتها ولا ايطاليا في اشأم ازماتها ما بلغتهُ تركيا يوم احتلَّ الحلفاء عاصمتها وسخر الانكليز الجيش اليوناني لاكتساح ازمير وداخليتها وامضى الخليفة محمد السادس حفيد محمد الفاتح ! معاهدة (سيفر) الطافحة بالمخازي والحافلة بالنصوص القاضية على الحياة القومية التركية قضاءً مبرماً . فقد تنازل فيها هو وحكومته والمجلس الاعلى الذي عقده عن تراقيا وازمير وداخليتها وجانب من الدردنيل لليونان وسمحوا بتأليف دولة ارمنية في لب بلادهم وسجلوا على انفسهم ديوناً باسم تعويضات لا يمكن اداؤها الاَّ اذا عاشوا ابد الدهر في ربقة الذل واعادوا سلطة الامتيازات الاجنبية الى سالف مجدها فرضوا ان يكونوا وهم في بلادهم ادنى مرتبة من الاجنبي النازل بها وقبلوا الاَّ يكون لهم جيش او اسطول لا في الغبراء ولا على ظهر الماء ولا في كبد السماء . وقصارى القول انهم وضعوا المناديل في اعناقهم ورفعوا ايديهم بالاستسلام ، وما دوَّنا هذه الخلاصة المخزية الاَّ لنبين للقراء في العالم العربي كيف تعمل الهمة الثابتة والعزيمة الصادقة في انهاض الركب المقعدة ، وكيف تكون الحياة بعد الموت ، وفي ميسورهم الآن ان يفسروا الانقلاب

الكمالي الخطير من وجهتيهِ السياسية والاجتماعية . وغني عن البيان ان الوطنيين الترك ارادوا من الوجهة السياسية ان يكونوا قبل كل شيء اسياداً في بلادهم فضمنوا هذه السيادة بحجة السلاح الدامغة ، لان الذي يملك القوة لايحتاج الى برهان آخر ، ثم طهروا بلادهم تطهيراً سياسيًّا من الطراز الاول وذلك بالغاء التدخل الاجنبي الغاءً صريحاً باتًّا حتى صارت « الاجنبية » في تركيا الحديثة وبالاً على صاحبها وسبباً من الاسباب التي تحسب عليهِ بدلاً من ان تحسب له . فاذا اراد اجنبي اليوم ان يباشر عملاً مجدياً في تركيا فضَّل ان يكون له شريك وطني يحميهِ عند الحاجة بخلاف ما يعمله الوطنيون في بعض البلدان العربية حيث يبحثون عن الشريك الاجنبي لتحقيق هذه الحماية ، ثم لم تعد مسألة الارمن مسألة انشاء دولة ارمنية في لب الاناضول ولا قضية اليونان قضية تأليف امبراطورية يونانية على انقاض الدولة العثمانية بل المسألة كلها التوسل بالطرق الممكنة للمحافظة على البقية الباقية من هذه « الاعضاء الأثرية » في تركيا الحديثة كما حرص علماء الانسان عبثاً على المحافظة على الافراد القلائل من اهل (تسمانيا) الذين انقرضوا على بكرة ابيهم في اواخر القرن الماضي . ومما يدل على مقدار التأثر في الذهنية التركية مما اصابها من الكبرياء الاجنبية في البلاد ان منشأة دولية في الاستانة تابعة لسكة حديد الشرق ومراكب النوم فيها غفل مديرها الايطالي في السنة الماضية فحرم على المستخدمين الوطنيين ان يتكلموا بلغتهم على التلفون — يعني حرّم على الترك ان يتكلموا بالتركية في الاستانة ! — فكان الويل وكان الثبور وكانت عظائم الامور. ولولا هربه من شباك المكتب لهجم عليهِ المتجمهرون من الموظفين والطلبة وعلموه درساً لن ينساه في احترام اللغة التركية . فاين هذا مما نعانيه في بعض اقطار العالم العربي حيث تكتب الاعلانات حتى للوطنيين باللغات الاجنبية ، وفي بعض مسارح السينما تترجم المناظر بالانكليزية والفرنسية بل باليونانية ايضاً ولا تترجم بالعربية ، وان ترجمت فقد توضع على لوح حقير في الزاوية المهملة وبلغة مغلوطة لا تنطبق على المعنى . كل ذلك احتقاراً لها — ومن احتقر لغة فقد احتقر اهلها . وحدث لي في سبتمبر الماضي انني ارسلت تعزية الى بغداد بوفاة الملك فيصل فأبت شركة (ايسترن) قبولها لانها مكتوبة بالعربية مما حملني على ارسالها بواسطة شركة ماركوني ، يعني ان بعض الفرنجة يأبون علينا ان نتخاطب في اقطارنا بلغتنا ، والغريب ان يجري ذلك كله امام الوطنيين من غير اقل ملاحظة فعّالة تبدر منهم كأنَّ الامر لايعنيهم ما داموا قد تعلموا تلك اللغات الاوربية وامتازوا على سائر اخوانهم في الوطن بفهمها فكأن هذه الرشوة الادبية التي فرحوا بها ألهتهم عن ذاك الواجب المقدس

***

وقد دلني الاستقراء في الشرق والغرب على ان معيار حب الاستقلال في الامة يكون على قدر حرمتها للغتها وسعيها لانعاشها ، وان الذي لا يغار على لغته لا يغار على أمته

وتدل مثل هذه المظاهر في الترك على ما تأصل في نفوسهم من النفرة من الحالة السياسية التي كانوا عليها ومن تسلط الاجانب عليهم في عقر دارهم ليس فقط بالامتيازات الاجنبية المضنية التي كان هؤلاء يتمتعون بها بل بالمظاهر الاخرى اللغوية والادبية التي تجعل للاجنبي ميزة على ابن البلاد، وقد تعدت محاربة الوطنيين الترك السياسة الاجنبية التي خضعت لها الدولة العثمانية في الماضي الى محاربة الاوضاع السياسية التركية الماضية نفسها ، وساعد على ذلك خنوع السلطان محمد السادس وحكومته واقدامهم على امضاء معاهدة ستبقى رمزاً لانحلال الخلافة العثمانية وزوال كل اثر من آثار عظمتها . فاذا اضفنا الى هذا العمل المزري ان الخلافة في السنين الاخيرة ولا سيما في زمن السلطان عبد الحميد كانت بؤرة الرجعى وموئل الجامدين ومحط آمال المتطرفين من اهل المحافظة ادركنا الاسباب التي أوجدت حول الغازي من جاراهُ من المخلصين على الغاء الخلافة من تركيا ومحو اثرها من ادمغة الترك ومحاربتها في البلاد الاخرى خشية تأثيرها في البقية الباقية من المؤمنين بها

***

ولكن سيبقى السؤال الآتي ماثلاً في اذهان الكثيرين من الاختصاصيين بالشؤون السياسية العالمية — ناهيك بمن يعنون بالشؤون الدينية الاجتماعية — وهو : ألا تستطيع النهضة التركية الحديثة ان تحتفظ بالخلافة اداة للسياسة الخارجية كما تفعل اوربا العلمانية التوسعية في اعتمادها على الاكليروس وان تمنع جولانها الداخلي بحصرها في منطقة معينة لاتتعداها ؟ ومما لاشك فيهِ على الاطلاق ان خلافة روحية عليها مسحة من تقديس القرون الوسطى قد تكون بأيدي الكماليين في مثل البحران السياسي العالمي الحاضر سلاحاً ماضياً فيما لهم من العلائق بالدول الاوربية. قال (دليزل بورنس) في كتابه السياسة الدولية [١]

« اما الاسلام فهو الدين الثالث العظيم ذو الشأن الدولي ، والحج السنوي الى مكة من جميع الاقطار الاسلامية هو موضوع اهتمام السياسيين والموظفين ، فانه يربط برباط واحد أبعد الاقوام وهو السبيل لنشر الآراء والسياسة في جميع البلدان الاسلامية . . . ويجوز ان يؤثر الاسلام في الموقف الدولي نظراً لوجود عدد كبير من المسلمين تحت الحكم البريطاني ، مما يدعو بريطانيا خاصة الى تجنب جرح عواطف المسلمين » . وبعد ما اشار الكاتب الى التنافس بين انكلترا وفرنسا في آسيا والى الاعانات التي جمعت للدولة العثمانية في الهند في ابان حربها مع الروسيا سنة ١٨٧٧ والى الاحتجاجات التي طيرها الهنود على ايطاليا لمهاجمتها طرابلس الغرب ومقاومتهم العنيفة لفكرة تمزيق تركيا في سنة ١٩١٩ قال «واخذت فرنسا تشعر بموقفها الاسلامي في مراكش وافريقيا الوسطى وربما في سوريه ايضاً ، وقد يؤثر هذا الحال في سياسة فرنسا الخارجية . . . وعلاوة على ذلك فالاقوام

(١) International Politics p. 43

والامم الاسلامية لها شيء مشترك بينها يفوق الآراء اللاهوتية،فالاسلامهو قانون للحياة والشريعة الاسلامية حقيقة سياسية ... وعلينا ان نتذكر ان العقائد الدينية الاسلامية بل الافكار السياسية الاسلامية هي المستولية في بعض اجزاء الهند ، وفي فارس ، وتركيا وآسيا الصغرى وبلاد العرب وبين جميع السكان القاطنين في افريقيا شمال الدرجة الخامسة عشرة من الطول الشمالي »

***

اما وقد خطا الترك هـذه الخطوات الواسعة في الميدان السياسي فلا عجب ان تتناول حربهم التجددية الميادين الدينية والاجتماعية والتشريعية وما الى ذلك من الاوضاع الادبية ، فالاساليب التي نجحت في الحرب وحققت للترك استقلالهم السياسي استهوتهم ايضاً في هـذه الميادين فانبروا يتركون كل شيء حتى القرآن ، وأخذوا يطهرون على زعمهم التركية من العربية والفارسية ظناً منهم ان الاستقراض في اللغـة حالة مثل الاستقراض في المال ،وفاتهم انهم بعملهم هذا يحرمون لغتهم من اكبر المزايا التي تشاركها فيهـا الانكليزية اعظم اللغات الاوربية انتشاراً . وكم ندبنا حظنا معاشر العرب لان لغتنا محافظة وهي شديدة النفرة من مثل هذا الاستقراض ، ونظرة واحدة في المدونات العلمية الحاضرة في شتى اللغات الاوربية الحية كافية لاقناع اشد المطهرين الترك تطرفاً ، بالخدمات الجلّى التي تقدمها اللاتينية واليونانية للعلماء ، وقد يستظهر الطبيب او المحامي الانكليزي او الفرنسي او الالماني المئات او الالوف من الكلمات المشتقة من هاتين اللغتين من غير ان يشعر بأقل غضاضة وطنية

***

ومن المهازل التاريخية التي تدل على سرعة الانتقال من الماضي الى الحاضر ان الذي كان يذهب من العرب الى المشنقة في سنة ١٩١٥ وما بعدها بتهمة الخيانة للخليفة صار له زميل يقابله من الترك يذهب الى المشنقة في سنة ١٩٢٥ وما بعدها بتهمة الدعوة الى الخلافة !

وتعد النظم المتعلقة بالاحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث من اشد النظم ثباتاً ومحافظة ومع ذلك فقد تخلى الترك عما لهم منها بجملته واستبدلوا به احدث النظم التي نبتت في ديار الغرب مع تعديل طفيف لا يعد شيئاً مذكوراً

***

وقصارى القول ان تركيا من الوجهة العلمية التاريخية هي حقل تجارب تشبه مخابر البيولوجيين وقد تكون سائرة في سبل اصلاحية لم نألفها او لا نقرها ، ومن الصعب جداً الحكم على مصيرها الاجتماعي النهائي وان كانت بوادر النجاح الاقتصادي السياسي تلازمها ملازمة جلية في مراحلها كما يتضح من مقابلة الادوار التي مرت فيها منذ نهاية الحرب العالمية الى اليوم ، ولا مشاحة في انها

باعتمادها على السلاح وعلى سواعد ابنائها قد سلكت السبيل التي يجب على كل امة تطلب الحياة ان تسلكها ، وفي وسعنا ان نتخذ منها حجة على الذين يزعمون ان الثورة لا تأتي بطائل . فلو احنى الوطنيون رؤوسهم للخليفة محمد السادس وحكومته وسجلوا على تركيا معاهدة (سيفر) المريعة فأين يكون الترك اليوم ؟ وماذا تنفعهم عصبة الامم المتفسخة وعهدها الذي لا يتجاوز جدرانها ؟ ثم ان الانقلاب الذي تم فيها حتى الآن قد سار بها شوطاً مهما تراجعت بعده لن تكون قريبة مما كانت عليه بوجه من الوجوه ، وهي في تنظيمها الاقتصادي ومقاومة الشرور التي تنطوي عليها الرأسمالية المتطرفة ، وفي تشجيعها العمل ومحاربة البطالة وفتح المعابر والطرق ومد السكك الحديدية وتسهيل المواصلات تسير سير الفاشستية؛ ولممثليها السياسيين ومندوبيها في المؤسسات الدولية كلمة مسموعة على قدر جيشها المدرَّب وسلاحه الماضي ، ولاول مرة في الجيل الحاضر ازل زعيم شرقي بقوة السلاح رئيس وزارة دولة اوربية معظمة مثل المستر لويد جورج عن دست الوزارة بعد ما كان يدعى « منقذ بريطانيا » في الحرب العالمية

***

اما المجلس الوطني الكبير في (انقره) فهو مثال آخر على حبوط الطريقة البرلمانية القديمة في الامم الناشئة التي هي احوج ما تكون الى سرعة الانجاز في العمل ، وهو نسخة ثانية عن برلمان ايطاليا ، وكما يمثل هذا ارادة الدتشي كذلك يمثل ذاك ارادة الغازي ، بل ان موسوليني عاف اخيراً برلمانه وملّ اجتماعاته التي صار يراها نمطية وعلى غير جدوى فأمر بحله ، على ان الناظر الى هذين المجلسين لا يرى فيهما بالاجمال ما يرى في البرلمانات الديمقراطية الاعتيادية من المساجلات الفارغة المملة والاعتراضات التي لا يراد من معظمها الا اظهار كفاءة المعترضين او وضع العقبات في سبيل المشروعات لاغراض في النفس ، وقد تخسر هذه الطريقة الدكتاتورية في الاحوال القليلة الانتقادات الجوهرية المخلصة الثمينة التي تصدر من النواب الاكفاء الصالحين المستقلين ولكنها تعتاض عنها الاتساق وسرعة الانجاز وهو المطلوب في الدرجة الاولى في عصر الزعازع والعواصف

***

ويشعر العالم العربي بشيء من الامتعاض وخيبة الامل لمحاولة تركيا الحديثة صرم حبال المجد التي تربطها بتاريخنا المشترك ولكننا نرجو ان تكون هذه البوادر مظهراً اجتماعيًّا موقتاً من مظاهر النفرة من الماضي القريب فقط واحتجاجاً صاخباً على الجمود العتيق البالي ، ذلك لان الترك هم من صميم الشرقيين ولان الامة الحية ذات التاريخ الحافل بالحوادث اهون عليها ان تنسلخ من بلادها من ان تنسلخ من دواعي مجدها وفخارها

خطط الرئيس روزفلت

نتائجها وغرضها الاجتماعي البعيد

قل ما شئت في الرئيس روزفلت ، وانظر الى أعماله بعين الاقتصادي المحافظ ، او بعين الخصم الحزبيّ العنيد ، وشكّ ما اردت ان تشكّ في نتائج الخطط التي يختطّها ، والوسائل التي يتوسل بها، افعل كل ذلك ، ولكنك لا تستطيع ان تتهمهُ بانهُ قابع في البيت الابيض ، مكتوف الايادي ينظر الى الازمة نظراً جامداً ، وهو ينتظر فعل الطبيعة الشافي او علاجاً الهيًّا يهبط عليهِ من السماء

فهو رجل قال من الساعة الاولى ما معناهُ « شعارنا العمل، والعمل السريع : فاذا حال الكنغرس دون ذلك طلبنا ان يخوّلنا سلطة واسعة النطاق لتنفيذ الخطط التي نراها لتفريج الازمة» . وقال في رسالة بعث بها الى مجلس الامة : — « ان الاحوال الجديدة تقتضي وسائل جديدة للخلاص »

وقد مضى عليهِ تسعة اشهر في منصب الرآسة،وهو آية في النشاط ودقة الاستجابة لمطالب الرأي العام . فانهُ بعدما انتزع من مجلس الامة، القوانين التي تخوّله السلطة اللازمة ،لمعالجة الحالة في خلال عطلة المجلس،عمد الى مشروع الانعاش الصناعي فأزال المنافسة الحادَّة بين اصحاب الصناعات التي ترمي الى قهر الخصم ، ولا تسفر الاَّ عن خفض الاسعار وتشريد العمال ، فكان من اثر هذا المشروع ، رغم المعارضة القوية التي لقيها ، ان ارتفعت اسعار المصنوعات ، وأجور العمال وعاد نحو مليونين ونصف مليون من العمال المتعطلين الى العمل . ثم ادرك ان هذا لا يكفي في بلادٍ فيها نحو ١٢ مليون عامل متعطل عن العمل ، وان رفع الاسعار وأجور العمال لا يجدي الاّ اذا قابله من ناحية الجمهور اقبالٌ على الشراء ، والاقبال على الشراء لا يتمُّ الاّ اذا تداول الناس النقود ، اجوراً لعملٍ يقومون بهِ ، فأخرج مشروع الاعمال العامة ، ولكن تنفيذهُ تأخر لاسباب فنيَّة . ثم تبيَّن ان اسعار المصنوعات تتقدم اكثر من تقدم اسعار الحاصلات الزراعية ، وهذا يرفع اسعار المعيشة في نظر جمهور الزرَّاع وهم طائفة كبيرة ، فعمد الى مساعدة الزرَّاع وامدادهم بالمال على حاصلاتهم ، لقاء شروط معينة ترتبط بمساحة الاراضي المزروعة وغيرها . ثم رأى ان يعمد الى شراء الذهب في السوق الاميركية والاسواق الخارجية بتعيين سعرٍ له اعلى من سعر السوق ، فيخفض بذلك سعر الدولار ، واذا خفض سعر الدولار ارتفعت اسعار الحاصلات والمصنوعات ، وهو ما يتوخَّاه . وسوف يمضي في هذه السبل جميعاً الى ان يبلغ مستوى الاسعار ما كان عليه سنة ١٩٢٦ . وهو متوسط اسعار البضائع والمحصولات بعد الحرب . وعندئذ يستطيع المدين ان يسدد دينه من دون ان يغبن

اذا نظرت الى خطط الرئيس روزفلت نظر الاقتصادي المحافظ ، تحيرت وفهمت الحيرة التي اصابت الدوائر المالية العالمية . ولكن اذا شئت ان تفهم ما يرمي اليهِ ، وجب ان تنسى مبادىء الاقتصاد الى حين ، وتعمد الى النظر في المسألة من ناحيتها السياسية والاجتماعية

ذلك ان الانتخابات التي تمَّت من سنة لم تسفر عن مجرَّد انتقال السلطة من هوفر الى روزفلت ،

او من الجمهوريين الى الدمقراطيين ، وانما كانت ثورة او انقلاباً ، بكل ما في الثورة والانقلاب من المعاني الصميمة . فهذا الانتخاب اسفر عن انتقال السلطة من أيدي الدائنين الى أيدي المدينين ، وهذا النزاع بين الدائن والمدين في اميركا يقابل الى حدٍّ بعيد ، النزاع الصامت احياناً والصاخب احياناً اخرى ، بين المتمول والعامل في اوربا . على ان الحزب الذي فاز ، اي الحزب الدمقراطي ، ليس حزب مدينين فقط ، ولا الحزب الذي خذل ، اي حزب الجمهوريين ، حزب دائنين فحسب . بل في كلا الحزبين عناصر قوية من الفريقين . وانما اتفق ان الحزب الجمهوري بعد بقائهِ في الحكم اثنتي عشرة سنة ، أصبح معروفاً بأنهُ خادم لمصالح فريق خاص ، هو فريق الدائنين . واما الحزب الدمقراطي ، فبعد قليل من التردّد ، وقف موقف المدافع عن مصلحة المدين . وقد أسبغ عليهِ الرئيس روزفلت ثوباً خلاباً ، اذ دعاهُ « بالرجل المنسيّ » ، اي الذي نسيت مصالحه ولم ترعَ الرعاية اللازمة . فكان لهذه العبارة رنّة وأثر في الانتخابات فهذا الانقسام في حياة اميركا السياسية لهُ خطرهُ ، وقد فات بعض النـاس في البدءِ ، ولا يزال فريق منهم يجهل ما لهُ من الشأن الخطير . فالرئيس صرّح من البدءِ ، انهُ يرمي الى اعادة توزيع الثروة توزيعاً يقضي على سيطرة الممولين المطلقة، على حياة الامة الاميركية ، وان الممولين في المستقبل يجب ألا يكونوا ، الا أمناء من قبيل الامة، على ادارة المشروعات الكبيرة ، لقاء مرتب لا بأس بهِ. ثم قال انهُ في السير وراء غرضهِ ، لا يبغي ان يجري على المبادىء والاصول المعروفة ، بل سوف يبتدع وسيلة اثر اخرى، بعضها قديم وبعضها جديد ، بعضها جرّب وبعضها لم يجرّب ، حتى يبلغ المحجة ويحقق الغرض

* * *

مضت ستة أشهر او تزيد على شروع الرئيس روزفلت والجنرال هيوجنصن وأعوانهما في تنفيذ مشروع الانعاش الاقتصادي الذي قصدا بهِ الى اعادة الرخاء في اميركا. وقد صرح الجنرال جنصن عند شروعهِ في تنفيذ الخطط الجديدة أنه في خلال شهرين يعرف مصيرها ، نجاحاً او اخفاقاً . ولما كانت المصـاعب والعراقيل المنوّعة التي قامت في سبيل العمل ، لم تكن في الحسبان فقد كان من الانصاف، ان يؤخر الحكم على المشروع او لهُ الى حين . والكلمة التالية نظرة اجمالية في نتائجهِ

كان غرض مشروع الانعاش سباعيًّا أهم وجوهـه تقصير ساعات العمل ، وانعاش الصناعات الكاسدة ، ونقص العمال المتعطلين ، ومساعدة الزراع ، وزيادة مقدرة الجمهور على الشراء . فالحكم على المشروع يقوم بالنظر في هذه الاغراض ما حقق منها وما لم يحقق

كان الجانب الاول من المشروع الذي وضع موضع التنفيذ ، تقصير ساعات العمل ورفع مستوى أجور العمال. فوضعت الدساتير الصناعية لكل صناعة على حدة وأُمضيت ، واستعمل الضغط والاجبار في بعض الاحيان لحمل أصحاب الصناعات المتلكئين على امضائها . فنقصت ساعات العمال ورفعت اجور العمال. ولكن النتائج لاتبعث على الرضى التام. لان تقصير ساعات العمل وزيادة الاجور للعمال ، يعنيان زيادة نفقات الصناعة والانتاج ، وهذا لابدَّ ان يظهر في أثمـان البضائع التي تظهر في السوق . حتى وزيرة العمل الاميركية المس بركنز ، تصرح اليوم ، بان المشكلة هي ايجاد طريقة لرفع الاجور

رفعاً حقيقيًّا لا رفعاً نسبيًّا ، إذ ما يجني العامل من زيادة اجوره ، اذا زادت نفقات معيشته ، مثل زيادة أجوره ، او فاقها . فالأجور زادت ، ونفقات الانتاج ارتفعت ، وأسعار العروض تخطَّت ما كانت عليهِ وما تزال آخذة فيذلك ، ويظن بعض الخبراء ، أن اجور العمال الحقيقية سوف تصبح في آخرالشتاء ، أقل مما كانت في العهد السابق لروزفلت

وكان احد الاغراض كما قدمنا انعاش الصناعة الكاسدة ، والاحصاءات الاخيرة تشير الى نقص في انتاج الصناعات الثقيلة (كالصلب والحديد والفحم) في سبتمبر عن يوليو وأغسطس . ففي منتصف شهر يوليو الماضي كان انتاج مصانع الصلب ٥١ في المائة من الانتاج الذي تستطيعهُ . وهو الآن ٣٤ في المائة فقط . ونقص استهلاك القطن من ٦٧١ الف بالة في اغسطس سنة ١٩٣٣ الى ٥٧٥ الف بالة في سبتمبر (يقابلهما ٥٥٨ الف بالة في سبتمبرسنة ١٩٣٢) والاحصاءات من معظم الصناعات الاخرى ، تشير الاشارة نفسها ، لذلك ترى زعماء الصناعة منقبضين لهذه الحالة ، وبعضهم — ومنهم المستر فورد — يقاومون المشروع مقاومة سلبية . فيشتكون من أن الدساتير الصناعية أسفرت عن زيادة اضطرابات العمال . فالاضراب والشغب ، ممتــدان من شاطىء المحيط الاطلنطي الى شاطىء المحيط الهادىء . ولذلك تراهم ينظرون نظرة تشاؤم الى الحـال ، وخوفهم من زيادة نفقات الانتاج حمل بعضهم على نقل أعمالهم الى كـندا .أما في مسألة نقص العمال المتعطلين فقد قصَّر المشروع عن الغرض الذي عينه ، مع ان ما تم لايمكن ان يستصغر شأنه على الاطلاق فقد عين الجنرال جنصن يوم ٤ سبتمبر الماضي ، ميعاداً لاعادة ٦٠٠٠٠٠٠ عامل الى العمل . فلما حلَّ ذلك اليوم كان قد عاد مليونا عامل الى العمل فقط . واعادة مليوني عامل الى العمل في خلال شهرين ليس بالامر اليسير ، ولكن اذا نظرنا الى ان المتعطلين في اميركا كانوا يربون على ١٢ مليوناً ، عرفنا أي غرض بعيد ، وضعه الرئيس ومعاونه نصب عيونهما وقد زادعدد العمال الذين عادوا الى العمل الآن الى نحو ثلاثة ملايين

وكان الظنُّ انه لايلبث ان يوضع مشروع الاعمال العامة — الطرق والتحريج والمباني العامة — موضع التنفيذ ، حتى يحتاج القائمون به الى نحومليون من العمال ولكن تنفيذ المشروع تأخَّرتأخراً غير منتظر ، لقيام العراقيل الفنية في وجه مديريه ، لان كل عمل من هذه الاعمال يحتاج الى دراسة مستفيضة من الوجهة الفنية والهندسية ،قبل اقراره ، واميركا بلاد مترامية الاطراف ، وهذه الدراسة لا يمكن اتمامها بسرعة ، على وجه يدعو الى الثقة

أما الحالة الزراعية فخطيرة كل الخطورة ، لان طوائف كبيرة من الفلاحين ، ثائرة على الحكومة فالاضراب والشغب ممتدان في الولايات الزراعية . وقد أنذر زعماء الفـلاحين ، الرئيس روزفلت ، بانه اذا لم يفعل في الحال ، ما يساعد الفلاحين ، امتد الاضراب والشغب . وأصل البلاء ارتفاع اسعار المعيشة ، وهبوط أسعار الحاصلات . فما يشتريه الفلاح غال . وما يبيعه رخيص . ففي خـلال اربعة أشهر من ١٥ ابريل الى ١٥ يوليو ارتفعت أسعار الحاصلات قليلاً . ووعد الرئيس بعمل كل ما يمكن عمله لرفعها كذلك . ولكن رغم ما توسلت بهِ الحكومة ، من حرق ٦ ملايين خنزير ،

وطمر القطن في الوف من الافدنة ، وإمداد زرّاع القمح بالنقد ، هبطت الاسعار ولم ترتفع . والفلاحون الاميركيون ، لا يستطيعون ان ينظروا الى المسألة من كل وجوهها ، ولا هم يدركون المصاعب التي تلقاها الحكومة ، والعراقيل التي تقوم في وجهها ، ولا هم يقدرون الجهود الجبارة ، التي يبذلها الرئيس واصحابهُ وعلاقة ذلك بالازمة العالمية . وكل ما يهمهم هو ان يزيد مقدار ما ينالونه من النقد ، لقاء قطنهم ولبنهم وخضراواتهم ، ليدفعوا بهِ ثمن ملابسهم وحاجاتهم الاخرى. فهم محنقون على الحكومة والاضراب والشغب ، اعراب عن حنقهم هذا. وقد حاول الرئيس وصحبه زيادة حركة البيع والشراء ، بالقيام بدعاية قوية عنيفة واسعة النطاق يدعى بها الشعب الى الشراء الآن كان شعارها «اشتروا الآن» . ولكن الدعاية لم تسفر عن نجاح كبير. فالاسعار آخذة في الارتفاع ، والناس وقد لُسعوا ، ممتنعون عن الشراء ويميلون الى خزن دريهماتهم لليوم المطير

فالرئيس روزفلت يواجه حالة صعبة معقدة . لقد فقد كثيراً من أنصاره . وبعض أصحاب البنوك والصناعات ، بل كثير منهم ، يقاومونه والفلاحون جازعون لا صبر لهم على هذه الحالة . وقد كان اتحاد العمال الاميركي ، مؤيداً له ، وقد بدأ ينتقد . وتقلّب الدولار يحير التجار والصناع . والجمهور فقد شيئاً كبيراً من حماسته . والجنرال جنصن جانباً من ثقته . فانه لما خطب في ١٦ اكتوبر الماضي أشار الى وجوب ايجاد «طريقة للخروج من هذا المأزق» وما كان يعترف بهِ من قبل

بعد كتابة هذه السطور جاءت الانباء من الولايات المتحدة الاميركية ان سمة التفاؤل عادت الى الناس . فالاسعار عادت الى الارتفاع ، وزاد انتاج المصانع ، على ما يستدلّ من زيادة ما تنتجهُ صناعة الحديد والصلب ، ونشاطها في الغالب يؤخذ مقياساً لنشاط حركة الصناعة والتجارة في اميركا. وكان الاستاذ سبراغ خبير الخزينة قد صرّح يوم استقال ان حكومة روزفلت لا تلبث ان تفقد ثقة الناس بمقدرتها المالية ، ولكن الانباء الاخيرة تشير الى ان الثقة بمالية الحكومة لا تزال كالصخر الراسي والشعب من وراءِ الرئيس يؤيده في محاولاتهِ الجبارة يدلّ على ذلك استقرار الحال في المناطق الزراعية والمرجّح ان يكون الرئيس ، عند اجتماع مجلس الامة في يناير ، السيّد القابض على ناصية الحال

هذه هي الحالة ملخصة . أما مقاومة بعض العناصر لروزفلت فمفهومة . أصحاب المصانع والبنوك يقاومونه ، لان روزفلت لا يرمي فقط الى اعادة الرخاء الى اميركا ، بل الى اقامة الاجتماع الاميركي على أساس ، لا يكون المرابون والماليون أصحابَ السيطرة عليه . وهو يرمي الى تخفيف أعباء الديون الاهلية . والخاسر في ذلك الدائن و « البنكير » . قد يعيد المشروع الرخاء الى اميركا . وقد يفضي بها الى الفوضى . فاذا أفضى الى الفوضى فقد يكون روزفلت آخر الرؤساء ، على ما قال في نكتة لاحد أصحابه . ولكننا نميل الى الاخذ بأن نتائج مشروع الرئيس ، أعظم من ان يحكم عليها في الحال ، وأبعد ظهوراً من شهر أو شهرين ، وسنة أو سنتين . إنه يرمي الى تنظيم الحياة الاقتصادية بعد ما كانت الحياة الاقتصادية سائرة على فلسفة Laissez—Faire أي ترك الامور تجري في أعنتها وكل دور انتقال في التاريخ يصحبه نوع من الفوضى والاضطراب ، يحير البصر ويزيغ حكم المعاصرين

الحوادث الدولية

كانت سنة ١٩٣٣ حافلة بالحوادث الدولية الجسام . ففي يناير تقلَّد هتلر منصب المستشار في دولة الريخ ، وفي مارس نصّب فرنكلن روزفلت رئيساً للولايات المتحدة الاميركية ، وما كاد يتسلَّم مقاليد الرآسة ، حتى دعا رؤساء الحكومات المدينة لاميركا للمباحثة في شؤون الديون وبرنامج المؤتمر الاقتصادي العالمي فخفَّ في من خفَّ الى وشنطن المستر مكدونلد ممثلاً لبريطانيا والمسيو هريو ممثلاً لفرنسا ، وكانا لا يزالان في عرض البحر لما أعلن الرئيس حظر اصدار الذهب من الولايات المتحدة الاميركية . وفي يونيو اجتمع المؤتمر الاقتصادى العالمي في لندن . فظهر في الحال ان الاتفاق على المسائل الاساسية فيه متعذّر ، لان الولايات المتحدة الاميركية ، رفضت تثبيت النقد ، وجارتها في ذلك بريطانيا . ففضَّ المؤتمر على ان تبقى لجنة دولية مهمتها ان تدعوه الى الاجتماع متى ظُنَّ ان احوال العالم الاقتصادية والمالية مواتية للاتفاق . ثم اجتمع مؤتمر نزع السلاح وفضَّ على ان يجتمع في ١ اكتوبر فلما اجتمع ثانية في ١ اكتوبر ظهر ان الاتفاق مع المانيا متعذّر ، لانها رفضت الاقتراح الفرنسي القاضي بفترة طولها اربع سنوات لا يسمح لالمانيا في خلالها ان تتسلَّح . ولما اجتمعت جمعية الامم في سبتمبر واكتوبر ، وتبين لالمانيا انهُ لا يمكن تحقيق مبدإ المساواة الذي سلم لها بهِ ، هجرت جمعية الامم وخرجت من مؤتمر نزع السلاح في ١٤ اكتوبر . واجريت الانتخابات الالمانية في ١٢ نوفمبر ففاز فيها هتلر بتأييد يكاد يكون اجماعيًّا . وخشي ان يستعمل هذا الفوز لاحداث حدثٍ في السياسة الدولية ، ولكنهُ عمد في الحال الى عقد معاهدة عدم اعتداءٍ بين المانيا وبولونيا . وفي خلال ذلك انشأت دول الاتفاق الصغير شبه اتحاد سياسي اتفقت فيهِ على توحيد سياستها الخارجية ، وعقدت روسيا معاهدات عدم اعتداءٍ مع جيرانها ، وفازت في نوفمبر باعتراف حكومة الولايات المتحدة بها ، وخرجت اميركا عن قاعدة الذهب ، وعمد روزفلت الى طريقة شراء الذهب في السوق الاميركية والاسواق العالمية لخفض سعر الدولار ورفع اسعار البضائع والمحصولات الاميركية ، ونشبت ثورة في كوبا ، وتقرّبت تركيا من اليونان وبلغاريا ويوجوسلافيا ورومانيا ، واحتفلت في ٢٩ اكتوبر بانقضاء عشر سنوات على انشاء الجمهورية. واحتفظت النمسا باستقلالها بتأييد فرنسا وايطاليا وبريطانيا واعلن المجلس الفاشستي الاعلى انهُ لابدَّ من اصلاح جمعية الامم . وتوالت الوزارات الفرنسية بعد سقوط وزارة دالادييه حتى فازت اخيراً وزارة المسيو شوتان في مجلس النواب والشيوخ بالموافقة على المقترحات المالية التي تمكنها من موازنة الميزانية الفرنسية ، وأسفر الانتخاب الاسباني في ١٩ نوفمبر عن اتجاه الى احزاب اليمين فحدثت حوادث شغب قام بها الشيوعيون والسنديكاليون . ولكن الحكومة قبضت على ناصية الحال وأُلِّفت وزارة راديكالية . وفي ٣ ديسمبر اجتمع مؤتمر الجامعة الاميركية في منتيفيديو عاصمة باراغواي والراجح انهُ يسفر عن تقلد جمهورية الارجنتين لزعامة جمهوريات اميركا الجنوبية المتوسطة



حديقة المقتطف

قصي عليّ قصة

لرابندرانات طاغور

اشجان القمر : لبودلير

الدسيسة : لشكسبير

الصديق الغادر : للشريف الرضي

الزمان : لشلي

المنتحر : لهلن مولنز

حسناء القرية : لوشنغطن ارفنغ

قصي عليَّ قصة

لرابندرانات طاغور

اول ما يتعلّم الطفل الكلام يقول لجدّته : —

« قصّي عليّ قصة »

فتبدأ الجدّة بالحكاية قائلة : —

« كان في قديم الزمان امير وكان له صديق هو ابن الوزير . . . »

اما المعلّم فيقطع الحديث على الجدّة بقوله : —

« حاصل ثلاثة مضروبة في اربعة يساوي اثني عشر »

ولا يفتأ اولئك الذين يغارون على صالح الولد يقرعون طبلة اذنه بقولهم :

« حاصل ثلاثة مضروبة في اربعة يساوي اثني عشر . وهذا القول حقيقة راهنة . اما قصة الامير فحديث خرافة . لذلك . . . »

ولكن قولهم هذا لا يحرك ساكناً في نفس الطفل لأن خياله قد طار به الى مجاهل قطر لم يرتده قط انسان، حيث ذبح الامير الجنّي . أما الحساب فلا اجنحة له ليحلق بالولد الى ذلك القطر النائي

فيهزّ حينئذٍ اولئك الذين يعنون بشؤون الطفل رؤوسهم قائلين : —

« لقد ساءت تربية هذا الولد . فلا خير منه يرتجى »

فيخرسُ كلامُ المعلم الجدّة . ولكنّ راوية يتلو راوية في قصّ القصص على الولد بلا انقطاع . وعبثاً يعيد النصحاء النصيحة على مسمعهِ بقولهم : —

« هذه قصص لم يسجلها التاريخ ، فهي روايات ملفقة كاذبة »

فمن المدرسة الابتدائية الى الاعدادية ، ومن المدرسة الاعدادية الى الكلية ، يحاول المصلحون تقويم أود الولد ولكن مساعيهم تذهب ادراج الرياح . فلا يستطيعون حمله على الاقلاع عن طلب القصة . فهو ابداً يلح قائلاً : — « اريد قصة »

نال جائزة نوبل الادبية سنة ١٩١٣

***

تتراكم القصص سنة فسنة في كل بيت من بيوت الناس في اقطار

عن كتابه الزورق الذهبي

المعمور قاطبة سواء أكانت القصة مكتوبة ام مما يرويه الرواة بينات شفاههم . فتغمر القصص كل ميراث آخر انتقل الى المرء من آبائه واجداده

ولكن قد فات المربين ان يعملوا الفكرة الصحيحة في هذا الامر وهو ان تصنيف القصص والروايات نزعة الخالق ذاته . فان لم تنتزع هذه العادة من نفس الخالق فليس في الاستطاعة نزعها من نفوس البشر

أخذ الخالق ، وهو منهمك في معمله ، يبني العناصر . وكان الكون يومئذ كتلة بخارية . فنضد الصخور والمعادن طبقة فوق طبقة ولو رأينا الخالق في ذلك الحين لما وجدنا أثراً لنزعة الطفولة فيه . وكل الذي صنعه حينئذ كان مما ندعوه الآن شيئاً جوهريًّا

ثم لاحت بوارق الحياة . فنما العشب وبسقت الاشجار . وظهرت الطيور والوحوش والاسماك . فبنى بعضها عشاشاً وسرح بعضها على سطح الارض ناشراً نوعه . اما البعض الآخر فاختفى تحت وجه الغمر

تعاقبت الدهور . وأخيراً في ذات يوم ابتدع الخالق الانسان . والى ذلك الحين كان شأن المبدع في بعض اعماله عالماً وفي البعض الآخر رازاً . اما يوم خلقه الانسان فاصبح فناناً أديباً

فأخذ يعلن النفس البشرية بحكايات يصنفها . لان الحيوانات اكلت ونامت وربت صغارها . اما حياة الانسان فتحركت في عناصر القصة — في تيار تكوّنت امواجه المتلاطمة من اصطدام الهوى بالانفعال والفرد بالمجتمع والعقل بالجسد والرغبة بالحرمان . وكما ان النهر ليس سوى جدول ماء جار كذلك الانسان فانهُ سيل تلفيق جارف . فاذا اجتمع آدميان فلا بد من ان يتساءلا قائلين : « ما الخبر ؟ ما الذي جرى ؟ » . اما الاجوبة عن هذا السؤال فقدحاكت شبكة عظيمة غطت وجه الارض. وما تلك الاجوبة سوى قصة الحياة — سوى تاريخ الانسان الحقيقي

فعالمنا سداه التاريخ ولحمتهُ القصّة . وليس تاريخ « اسوكا » [1]

ترجمة عبد المسيح وزير

(١) عاهل هندي بوذي مشهور ملك ٢٦٤ - ٢٢٨ او ٢٢٧ ق . م ويقول فيه المؤرخ كوبان « لوكان مقياس شهرة المرء عدد القلوب التي تحترم ذكراه والالسن التي لهجت ولا تزال تلهج بذكره لعد « اسوكا » اشهر من «شرلمان» و «قيصر»»

و« اكبر »[1] الحقيقة الوحيدة في نظر الانسان . فقصة الامير الذي ارتاد الابحر السبعة في طلب الدرّة اليتيمة قصة حقيقية في نظره كتاريخ ذينك العاهلين . ولا فرق عنده بين حقيقة الانسان الخرافي وبين حقيقة الانسان التاريخي . لان بيت القصيد ليس الامر الذي يصح اعتمادنا عليه بل حديث الخرافة الذي يلذّ لنا استماعه دون غيره

والانسان تحفة فنية . فالخالق في ابداعه الانسان لم يُعْنَ جلّ عنايته بعنصره الآلي ولا بعنصره الاخلاقي ، بل بذل قصاراه في ابداع مخيلته . اما اولئك الذين يغارون على صالح الانسان ، فيحاولون ستر هذه الحقيقة . ولكن الحقيقة سرعان ما تشتعل فتحرق ذلك الحجاب . فينتهي الامر الى الفزع . فيحاول معلمو المدارس ومحبو الخير التوفيق بين النظام الاخلاقي وبين الخرافة . ولكن متى اجتمع الاثنان اخذ احدهما بخناق الآخر الى ان يُقضى عليهما كليهما فتعلو انقاضُ الخراب ركاماً

اشجان القمر

لبودلير
١٨٢١–١٨٦٧
الشاعر الفرنسي

— يحلم القمر الليلةَ في كسل متزايد
كأنهُ كاعب بارعة الجمال مستندة الى وسائد شتّى
تمرّ على مدار ثديها — قبل ان تهجع — يداً غافلة رفيقةً
— يستسلم القمر لغشيات طويلة كأنهُ مشرف على الموت
وهو مستلقٍ على ظهورٍ مصقولةٍ لجروف ليّنة
يسرّح بصرهُ في المرئيات البيض المتصاعدة في زرقة
الفضاء كأنها مجموعة ازدهارات
— واذا ارسل القمر دمعة خفية الى هذا العالم وهو مسترخٍ متقاعد
يتلقف شاعر ورعٌ ، عدوٌّ للنوم ، تلك الدمعة الشاحبة
ذات الاضواءِ الملوّنة كأنها قطعة من حجر الاوپال
ثم يجعلها في قلبهِ بنجوةٍ من عيون الشمس

[ترجمها بشر فارس]

---

(١) اعظم عواهل الهند المنوليين واسدهم رأياً . ولد سنة ١٥٤٢ م وتوفي سنة ١٦٠٢ م

الدسيسة

Conspriacy

لشكسبير
١٥٦٤—١٦١٦

من روايته
« يوليوس قيصر »

بربّك يا دسيسة خبّرينا لأية خسّة تتحفزينا
وفي اي التلاع وأيّ ليلٍ ضرير النجم اقتم تجثمينا
ومالك تعمنين وراء سترٍ فهل من قبح وجهك تخجلينا
وهل أحسست لؤمك فاستدارت بك الشبهات تحتلك اليقينا
واقسم لو اجنّك الف كهفٍ يضلّ بهيم ظلمته السفينا
لشقّ الفجر ليلك واستطالت يدٌ تبتزّك السرّ الدفينا
وصلد الزند ان الححتَ قدحاً عليه تنفّس القبسَ الكمينا
ولكن ان طلبتِ حمىً منيعاً تخلّفَ بشاشة المتبسمينا
وتحت اللفظ يقطر منك ودًّا هنالك تكمنين فتختفينا

[ترجمها شعراً الشيخ فؤاد باشا الخطيب]

الصديق الغادر

للشريف الرضي
٣٥٩—٤٠٦ ه

وكم صاحب كالرمح زاغت كعوبه ابى بعد طول الغمز ان يتقوما
تقبّلت منه ظاهراً متبلجاً وادمج دوني باطناً متجهما
فأبدى كروض الحزن رقت فروعه واضمر كالليل الحداريّ مظلما
ولو أنني كشّفته عن ضميره اقمتُ على ما بيننا اليوم مأتما
فلا باسطاً بالسوء ان ساءني يداً ولا فاغراً بالذم ان رابني فما
كعضو رمت فيه الليالي بفادح ومن حمل العضو الاليم تألما
اذا امر الطبّ اللبيب بقطعه اقول عسى ضنًّا بهِ ولعلّما
صبرت على إيلامه خوف نقصه ومن لام من لا يرعوي كان ألوما
هي الكفُّ مضٌّ تركها بعد دائها وان قطعت شانت ذراعاً ومعصما
اراك على قلبي وان كنت عاصياً اعزَّ من القلب المطيع واكرما
حملتك حمل العين لجّ بها القذى ولا تنجلي يوماً ولا تبلغ العمى
دع المرء مطويًّا على ما ذممتَهُ ولا تنشر الداء العضال فتندما
اذا العضو لم يؤلمك الاّ قطعتهُ على مضضٍ لم تبق لحماً ولا دما
ومن لم يوطّن للصغير من الاذى تعرض ان يلقى اجلّ واعظما

[اختارها محمود محمد شاكر]

الزمان

لشلي
١٧٩٢—١٨٢٢

ايها البحر الذي لا يسبر غَوْرُهُ، يا مَنْ امواجهُ السِنون
يا خضمَّ الزمان يا من امواههُ لوعات
قد امتزجت عبرات البشر بها حتى اصبحت لاذعة .
ايها الآتيُّ الذي لا ضفة لهُ . في مدّك وجزرك
تقبض على حدود الفناء
تعاف الفرائس وتجأر مستزيداً منها
ثم تمجُّ حطامك عند شاطئك المتجهم .
انت غادر في السكون ، عاتٍ في العاصفة .
من ذا الذي يجسر على خوض عبابك
ايها البحر الذي لا يسبر غورهُ

في فترة
من فترات يأسه

المنبر

لهلن مولتز

باعثٌ من اليأس ، ويد لا ترتعش ، واضطراب في بحار الابدية
واذا رجل اعياه التعب عن الكدح يفارق الحياة بجبهة موصومة .
هناك أشجار يستند اليها وشموس تنير سبله الملتوية ، وسبلنا
ولكن نال منه الذعر حتى فزع منه الى باب يدخل بهِ الى دار صديق .
ايها الموت تقبّلهُ على الرحب مع انهُ قادم اليك على عجلٍ
ولا تجعله يثير غضبك لانك تباطأت عنهُ
اننا نرأف بهِ ونحن دونك .
وإنهُ لَيَغرق اذا حببٌ يتجمع فوق الامواج الابدية
ها هوذا غلام ما انفكَّ يخطىء حتى انطلق الى داره بعنف

شاعرة اميركية
معاصرة

مساء القرية

لوشنغطن ارفنغ الكاتب الاميركي

كنت اطوف في داخلية بلاد الانكليز أروّح الخاطر والنفس من عناءِ الاعمال . ففي عصر ذات يوم القيت عصا الترحال في قرية خلعت عليها الطبيعة رداءً من السكينة والعزلة . والبست سكانها ثوباً من البساطة يندر في القرى الواقعة على السبل العامة . فأتيت فندق القرية حيث تناولت شيئاً من الطعام ثمَّ خرجت امتع الطرف بمحاسن تلك المناظر . ولم أسرْ طويلاً حتى بلغت الكنيسة وقد قامت بمعزلٍ عن البيوت ، فاذا بها قديمة العهد . وكان النهار ماطراً والجوُّ لايزال محجوباً بالغيوم المكفهرّة الاَّ رقعة منهُ في الغرب انفرجت عنها السحب ، فاندفعت اشعة الشمس وراءها واضاءت اوراق الاشجار الدامعة وابتسم بها وجه الطبيعة ابتسام السكينة والهدوءِ . وكأن الشمس قبل الغروب تقيٌّ بارٌّ يكاد يفارق الحياة وهو يبتسم على هموم العالم واحزانهِ ، وكأن سكينة انحلالهِ دليل على انهُ سيقوم الى المجد العتيد.[ثم حدّث الكاتب كيف رأى جنازة تسير الى الكنيسة القديمة فاستقصى اخبارها فعرف انها جنازة فتاة ماتت ضحية حبّ عقيم لضابطٍ قال فيهِ : —]

لكنهُ (اي الضابط) لم يفاتحها امر الحبّ ولا اتى على ذكرهِ وانما هنالك من الطرق للافصاح عنهُ ما هو ابلغ من الكلام واسرع منهُ بلوغاً الى القلب واشدّ وقعاً فيهِ . فاتقاد العينين ، ورنـة الصوت ، والرقة التي تنبعث في كل لفظةٍ ونظرةٍ وحركةٍ — هذه صورة بلاغة الحبّ يشعر بها الواحد ويدركها لكنهُ يعجز عن وصفها . فلا بدع اذاً ان الفتى اكتسب قلباً خليًّا طاهراً ... اما الفتاة فاحبتهُ وهي لا تفقهُ ما الحب ولم تقف لتسأل نفسها عن ذلك الشعور الذي انبثق في فؤادها فشغلها عن سائر الخواطر والعواطف .... فاذا حضر حبيبها صارت كلها آذاناً وعيوناً لسماع كلامهِ والتملي من مرآهُ ، واذا غاب عادت تتأمل فيما حدث لها في اجتماعهما الاخير . وكانا يقضيان زمان اللقاءِ يتماشيان في الحقول والهضاب المجاورة بين الخضرة والاشجار ، فعلّمها ان ترى في الطبيعة حولها جمالاً جديداً لم تكن تراهُ وحدها

« البقية صفحة ١٢٧ »



مملكة المرأة

بسائط الفسيولوجيا

الملح وحاجة الجسم اليه

بحث صحي علمي

الزواج والصحة والفحص الطبي

اهمية التعليم المنزلي للفتاة

للمربية فاطمة فهمي

عقل الطفل في تطوره

لاحمد عطية الله

الاولاد ودرس الطبيعة

مميزات الطفل النفسية

بسائط الفسيولوجيا

« اعرف نفسك » حكمة كانت شعاراً لليونان الاقدمين . وهذه الحكمة على جلالة قدرها في تلك العصور القديمة ، اجلّ شأناً في عصرنا الحاضر . كانت معرفة اليونان بافعال الاحياء ، ووظائف اعضائها اقلّ من معرفتنا نحن ولكن حاجتهم اليها كانت اقل من حاجتنا ، لان معيشتهم كانت اقرب الى الطبيعة من معيشتنا. فكانوا ينفقون معظم وقتهم في العراء. ولا يزدحمون ازدحامنا في الدور المقفلة. وكان طعامهم بسيطاً مغذيًّا . وكانت اجسامهم نشيطة لان اعمالهم كانت تتيح لهم استنشاق الهواء النقي وتمرين العضلات فلا تهزل ولا تضمر

ولكن الناس في هذا العصر مزدحمون في مدنٍ مزدحمة. وقلَّ من تتاح لهُ فرصة التمرين الرياضيّ الاّ اذا قصد الى ذلك ووفّر له العزم والوقت والنفقة. فنحن اكثر تعرضاً منهم للامراض المعدية ، لاننا نقيم في الغالب في دور مقفلة ، وننتقل بالسيارات الخاصة او العامة ، ونستعمل التليفون بدلاً من المشي الى مكتب صديق نريد مخاطبتهُ ، ونأكل اصنافاً من الطعام ، يختلط فيها المفيد بالضارّ ، وبعض هذه الاطعمة محضّر في معامل فلا ندري هل هو نقي من الشوائب او لا . ثم انّ اعمال طائفة كبيرة منا تلقي على اعصابنا عبئاً ثقيلاً ، لان عمل الدماغ ، يحلُّ عندها الى حدٍ بعيد ، محلَّ عمل العضلات

***

في هذه الحياة المعقّدة المضنية ، يصبح الاحتفاظ بالصحة والنشاط ، عملاً صعباً . فالناس في المدن ، يسكنون في احوال غير طبيعية حتى المعيشة في الريف تواجه مشكلات جمة معقّدة . فنحن في حاجة متزايدة ، الى فهم نواميس الحياة ، لكي نتمكن من المحافظة على الصحة الخاصة والعامة

فتعلّم الفسيولوجيا (الفسلجة — تعريب العراق — او علم وظائف الاعضاء اي عملها ترجمة) لا بدَّ منهُ لفهم القوانين الصحية وتطبيقها ، وبسائطهُ تستهوي القارىء لما فيها من العجائب ، لانها تنمُّ على حكمة الخالق في خلق كل عضو من الاعضاء ، واختصاصهِ بوظيفة من الوظائف ، وانشاء الصلات المحكمة بين الاعضاء جميعها ، حتى تعمل معاً عملاً متسقاً منتظماً ، هدفهُ صحة الكيان الفرديّ وسلامتهُ

والفسيولوجيا فروع اهمها الفسيولوجيا السوية وهي دراسة الاعضاء في حالتها الطبيعية، والفسيولوجيا التجريبية ، اذ يعمد الباحث الى تغيير مقادير الغذاء واصنافه ودرجات الحرارة والرطوبة لمعرفة اثرها

في الجسم الحي والفسيولوجيا الباثولوجية وهي دراسة الاعضاء في حالة المرض . ولكن الغرض من هذه السلسلة، بسط اهم الحقائق عن اعضاء الجسم ووظائفها ، بكلام عام خالٍ من التعقيد . ونرجو ان يستفيد منهُ قرّاءُ هذا الباب وقارئاتهُ ، الفائدة التي نرجوها من كل ما ننشرهُ في المقتطف

الاعضاء والانسجة

نحن نعلم ان الاحياء تغتذي وتتنفّس وتحسُّ وتفرز ، والعليا منها لها دورة دموية وجهاز عصبي يتدرج تعقيداً ، بتدرجها ارتقاءً في سلّم التطوّر . وقد يدهش بعض القرّاء ، اذا قلنا لهم ان النبات كذلك يغتذي ويتنفس ويفرز ولهُ سائل يدور في جسمهِ دوران الدم

والفرق المهم بين الاحياء الدنيا والاحياء العليا ، ان الاحياء الدنيا تقوم باعمال الحياة المتقدمة جملةً . فجسم الكائن الدنيء بجملتهِ ، يتحرك ويتنفس ويغتذي . ولكن الاحياء العليا لها اعضاءٌ ، وكل عضو لهُ عملٌ خاصٌ بهِ . فالقلب ، رئيس الدورة الدموية ، والمعدة للهضم ، والعين للإبصار . « فالعضو » هو ذلك الجانب من الجسم الحيّ الذي لهُ عمل خاص او وظيفة خاصة ، يقوم بها . وهو في عملهِ هذا ، يشترك مع الاعضاءِ الاخرى ، في حفظ كيان الجسم الحيّ . واذن نستطيع ان نتصور الجسم على أنهُ مجموعةٌ من الاعضاء التي تتعاون لتحقيق غرض خاص هو صحة الكيان وسلامتهُ

بناء الاعضاء

فاذا مضينا في تحليل الاعضاء نفسها وجدنا ان العضو في الجسم، كالنافذة في الدار او كالكرمي في البهو . فالنافذة ليست خشباً كلها وانما يدخل في بنائها الخشب والحديد والزجاج . والكرمي يدخل في تركيبهِ ، الخشب والجلد والقماش والقش او القطن . كذلك الانف في الجسم . فالجلد يغطيه من الخارج ، والغشاء المخاطي من الداخل ، وهو قائم على هيكل من الغضروف والعظم وتجري فيهِ اوعية دموية واعصاب ، وفي مدخلهِ شعر لتنقية الهواء الذي نتنفسهُ ، وفيهِ عضلات تمكننا من تحريكهِ ، حركة يسيرة . فالانف مؤلف من انسجة مختلفة ، ألجلد نسيج ، والعظم نسيج ، والغضروف نسيج وهكذا . « فالنسيج » هو نوع خاص من المادة الحية يعمل عملاً واحداً . والعضو في الغالب يبنى من انسجة مختلفة فاليد عضو مؤلف من عظم وعضل وعصب ودم وغيرها . وكلٌّ من هذه نسيج

الخلايا

بعد اكتشاف المكرسكوب في مطلع القرن السابع عشر ، عمد الباحثون ، الى تكبير الانسجة النباتية والحيوانية ، بعدستهِ ، لمعرفة بنائها فثبت لاحدهم في الثلث الاول من القرن التاسع عشر ان الانسجة مؤلفة ، من وحدات ، اشبه شيءٍ بلبنات البناء . وكانت هذهُ الوحدات قد رؤيت قبل

قرن او قرنين من الزمان. فدعيت «خلايا» واحدتها «خلية» لانهُ ظن انها خالية من الداخل. ولكن العالمين الالمانيين شليدن وشوان اقاما على اساس علمي نظرية «البناء الخلوي» اي ان الانسجة مؤلفة من خلايا. وكان بعض الباحثين يرى ان هذه الخلايا تتصل بعضها ببعض بواسطة انابيب دقيقة ولكن الرأي الغالب ان كل خلية مستقلة عن الاخرى، الاّ بما تتبادلهُ عن طريق الامتصاص من السوائل

والخلايا في الجسم انواع مختلفة. وهي تختلف شكلاً وبناءً. فالخلايا «المخاطية» كالاقراص او كالاسطوانات والمسافة بين الخلية الواحدة والاخرى قليلة جدًّا. والخلايا «الغضروفية» كانصاف الدوائر في شكلها وبعيدة واحدتها عن الاخرى يملأ الفراغ بينها مادة تفرزها الخلايا، كالملاط بين اللبنات في الجدار. «والخلايا العظمية» تكون ملزوزة في العظم الحديث، ثم تبتعد بعضها عن بعضٍ رويداً رويداً اذ يكثر ما تفرزه الخلايا فيستقرُّ فيما بينها. وهذا الافراز يحتوي على مادة فصفات الكلس. وهو الذي يتحجّر ويمنح العظم قوامهُ الجامد. والخلايا «العصبية» تختلف شكلاً بعضها عن بعض فبعضها مستدير وبعضها مستطيل وبعضها لا شكل لهُ. والخلايا «العضلية» اشبه بالالياف المستدقة من اطرافها. فاذا انقبضت العضلة قصرت الالياف وثخنت من وسطها. والخلايا «الدموية» هي الكريات السابحة في سائل الدم فالكريات الحمر اقراص والكريات البيض لاشكل خاص لها

***

وتختلف الخلايا حجماً كذلك. فبعض الخلايا الحيوانية الصغيرة لا يزيد على $\frac{٣}{١٠٠٠}$ من الملمتر حالة ان بيضة الدجاجة — وهي خلية فردة — قد تزيد على بضعة سنتمترات

بناء الخلية

وقد عني الباحثون في العصر الحديث عناية خاصة ببناء الخلية. وتتلخص مباحثهم في ان كل خلية مبنية من كتلة لزجة من المادة الحية (البروتوبلاسما) في داخلها كتلة كثيفة تعرف بالنواة، والظاهر ان افعال الحياة في الخلية مركزها هذه النواة. لانهُ اذا ازيلت النواة من الخلية لم تطل حياتها بعد ذلك. وثمة اجزاءٌ اخرى. فنستطيع ان نعرّف الخلية بقولنا انها «كتلة من البروتوبلاسما لها نواة ويحيط بها جدار في الغالب». اما البروتوبلاسما من الناحية الكيماوية، فمركبة في الغالب من عناصر الكربون والايدروجين والاكسجين والنتروجين والحديد والكبريت والكلسيوم والفصفور. وقد توجد مقادير يسيرة من عناصر اخرى في بعض الخلايا. ولكنَّ العناصر المذكورة هي العناصر الاساسية. فالبروتوبلاسما ليست الحياة، وانما هي المادة التي تنزع فيها الحياة. ولا بدَّ لكل خلية من نواةٍ، ولا بدَّ كذلك لكل نواة من بروتوبلاسما تحيط بها

حياة الخلايا

وتمتاز الخلايا الحية عن الجوامد ، في مقدرتها على النماء والترميم والتكاثر بالانشطار . وليس في العالم المادي مادة تتصف بهذه الصفات الا مادة البروتوبلاسما . ونمو الخلية يتم بما تمتصهُ من الخارج . ففي الجسم الانساني ، نتناول الغذاء ونهضمهُ ثم يسري في الدم فتمتصهُ الخلايا كل خلية تمتص ما يوافقها وتمثلهُ . ثم ان الآلة المصنوعة من افضل انواع الفولاذ تبرى وتندثر رويداً رويداً فلا بدَّ من تجديد اجزائها . والخلايا ايضاً يأتي عليها القدم فتندثر او يندثر جانب منها ، فيجب ان تجدَّد بناءها ، او ان تحلَّ خلايا جديدة نشيطة محلَّ الخلايا القديمة الضعيفة . والنمو والتجدُّد او الترميم من صفات المادة الحية . يضاف الى ذلك ان الخلايا الحية تستطيع ان تتكاثر بالانشطار . فالخلية الواحدة تنشطر خليتين . والاثنتان تنشطران اربعة . وهذا الانشطار نوع من التناسل في الحيوانات الدنيا

والحيوانات نوعان . نوع مؤلف من خلية واحدة ، تستطيع ان تقوم بافعال الحياة الاساسية كالاغتذاء والهضم والتنفس والحركة والتكاثر . ولكن جسم الانسان مؤلف من الوف والوف الالوف من الخلايا . على ان الخلية الواحدة منها لا تستطيع ان تقوم بافعال الحياة مستقلة عن الاخرى . لكل خلية عمل خاص ولكن عملها يتوقف على اشتراكها مع الخلايا الاخرى . فالاجسام الكثيرة الخلايا ، تعتمد على مبدإ تقسيم الاعمال ، فخلايا تختص بالتناسل ، واخرى تختص بالحركة ، واخرى بتلقي الاحساس ونقلهِ . وتقسيم الأعمال ، والاختصاص ، اساس لاجادة العمل واتقانهِ ، على انهما يقتضيان التعاون التام ، بين الخلايا المختلفة والانسجة والاعضاء المتباينة . وهذا يجعل جسم الانسان آلة معقدة التركيب ، دقيقة البناء . والفصول التالية تفصل لنا هذا البناء حتى نستطيع الاحتفاظ بهِ سليماً صحيحاً

« في العدد القادم فصل في بناءِ الجسم من الناحية الكيماوية »

الملح وحاجة الجسم اليه

بحث صحي علمي

يرجع استعمال الملح في طعام الانسان والحيوانات الى أبعد ازمنة التاريخ . ويروي المؤرخ اللاتيني «طاشيتوس» Tacitus الذي عاش نحو قرن واحد قبل الميلاد عن نشوب حروب طاحنة بين قبائل الجرمان طمعاً بامتلاك مناجم الملح في جوار حدود بلادهم . كما ان «بلنيوس» العالم الطبيعي الروماني صاحب الانسيكلوبيديا الشهيرة المؤلفة من ٣٧ مجلداً في تاريخ العلوم القديمة والذي هلك في انفجار

فيزوف سنة ٧٩ م . قد اوصى باستعمال الملح كدواء جزيل النفع في كافة الآلام الجسمية والنفسية
ولم يبزغ فجر القرن الثاني عشر حتى عمَّ استعمالهُ هذا بين طبقات الناس فأصبح طعاماً ضرورياً لايمكن الاستغناءعنهُ لحياة الانسان وعيشهِ وفرضت عليهِ ضرائب اميرية فادحة كانت سبباً لاندلاع نيران ثورات دامية طيلة القرون الوسطى . وقد دامت هذه الفوضى حتى أواخر القرن الثامن عشر ثم زالت بزوال وطأة تلك الضرائب عن كاهل الاهلين ، لا سيما في فرنسا سنة ١٧٩٠ .لكن ما لبثت الحال ان رجعت في سنة ١٨٠٤ الى ما كانت عليهِ قبلاً عند ما سنَّت الحكومات من جديد قانوناً يقضي بفرض جباية على ملح الطعام قدرها عُشرَي فرنك للكيلو غرام الواحد ، وحتى ايامنا هذه لا يزال هذا القانون معمولاً بهِ في كثير من البلدان ، ومنها فرنسا ، حيث لا يمكن ، بدون رخصة اغتراف ليتر واحد من ماء البحر لاستخراج الملح منهُ

﴿ الملح في ماء البحر ﴾ : الملح في الارض اما جامد كالصخر (ملح برّي) ، او ذائب في ماء البحر حيث يختلف فيهِ من ٢٥غراماً الى ٣٥ غراماً في الليتر الواحد.ويذهب بعض العلماء الى انهذا المقدار في العصور الخوالي — عند ما كانت درجة البحار أعلى مما هي عليهِ الآن ، اي ٤٠ الى ٤٢ درجة — لم يتعدَّ الـ ٨ الى ٩ غرامات في الليتر الواحد . لكنَّ الامطار ومجاري المياه أخذت تغسل تدريجاً الاراضي الصلبة وتجرف الى الاوقيانوسات من الملح على توالي السنين مايكفي لتغطية سطح الكرة الارضية بطبقة لا يقلّ سمكها عن ٢٥ متراً

﴿ الملح في الجسم ﴾ : يؤخذ من احصاءات العلماء ان متوسط ما يستهلكهُ الانسان من الملح يتباين من ٤ كيلو غرامات الى اربعة ونصف سنوياً . لكن هل هذا المقدار لازم لجسم الانسان حقيقةً ؟ هذا ما يزال الكيماويون والاطباء يختلفون في تقديره . وانما هناك شيءٌ لا ينكر وهو ان الملح ذو تأثير نافع جدًّا في بعض الحيوانات الداجنة لانهُ يساعدها على هضم بعض انواع العلف والكلأ وان اغلب الحيوانات المذكورة ، عدا الكلب والهر ، لها ميل خاص للطعام المالح

اما مقدار مايحويهِ الجسم من الملح فيبلغ بحسب الاختبارات الحديثة نحو ٢٠٠ غراماً موزعة كما يلي : ٧ غرامات بالألف في الدم ، ونحو غرام واحد بالألف في العضلات الطرية ، و٧ر١ غرام في المادة العصبية و١٣ر١ غرام في الكبد . اما العظام فخالية منهُ بعكس الغضاريف التي تحتوي منهُ على مقدار وافر

كذلك نجد الملح في مفرزات جسم الانسان: فالبول يقذف منهُ يومياً الى الخارج نحو ١٣ غراماً (وهذا الرقم يهبط وقت وجود الحمّى) ، والعرق غرامين في الاربع وعشرين ساعة ، واللعاب نحو غرام واحد بالمائة، والحليب ٣٥ر١ غرام في الليتر الواحد (اي اكثر من حليب البقر الذي لايحتوي الاَّ على ٨١ سنتغرام بالألف) . واخيراً الجهاز الهضمي الذي يحتوي على مقدار وافر منهُ اذ بفضل وجوده في خلايا المعدة يتكوَّن الحامض الايدروكلوريك الذي يعطي للعصارة المعدية خواصها المعروفة . فاذا كثر مقدار الملح في طعامنا كثرت افرازات العصارة المعدية

وليس الملح لازماً فقط لافراز العصارة المعدية هذه بل ان وجوده في الدم يساعد بوجهٍ خاص

على طرد ، كافة الاخلاط ونفاية الجسم السامة الخطرة عن طريق الكليتين : كالحامض البولي ، والكرياتين والسكر عند المصابين بداء البول السكري الخ . . . واذا ما فحصنا البول بعد ثلاثة أيام من الانقطاع التام عن استعمال الملح لم نجد فيه اكثر من غرام او غرامين في الاربع وعشرين ساعة، حالة ان مقداره في الدم يبقى دائماً ثابتاً ، ولهذا يجب ان نوجد الـ ١٣ غراماً من الملح المستخرجة يومياً من الجسم . فما العمل ؟

ان التغذية تحلّ هذه المعضلة حلاً سهلاً . فالمواد الغذائية الاعتيادية تدخل يومياً في جسمنا ٧ غرامات من الملح . ولكي نكمّل الـ ١٣ غراماً المطلوبة يجب ان نضيف الى اطعمتنا الستة الغرامات الناقصة وذلك بتمليح هذه الاطعمة — تمليحاً قد يصل الى ١٥ و ١٧ و ٢٠ غرام يومياً بما نتناوله من المآكل المتبّلة ، والحساء وغيرها وذلك إما قصداً او بالعادة . وفي الواقع ان الملح مهيج للشهية والتغذية ونحن نفرط في استعماله من غير ان نشعر شأننا بوجه عام في المهيجات الاخرى كالقهوة والمشروبات الكحولية والتدخين مثلاً . وعلى كلٍّ فاننا نجد في التركيب الكيمائي للاطعمة المذكورة ان نسبة الملح فيها كما يأتي : ١٥ سنتغراماً بالألف في الليتر الواحد من المرق ، ونحو غرام واحد بالألف في اللحم ، و ٨١ سنتغراماً بالألف في لبن البقر ، و ١٢ ر ١ غرام بالمائة في البيض ، و ٢٣ بالمائة في سمك اللِّمَّا Raie كذلك في اسماك البحر الاخرى الغنية بالملح بنوع خاص، ثم الجبن المملح... واخيراً الخبز الذي يتراوح مقدار الملح في الكيلو غرام الواحد منهُ من ٥ الى ١٥ غراماً بحسب كونهِ عادياً او فاخراً

﴿الملح في الاطعمة النباتية﴾: ولنذكر الآن شيئاً عن الاطعمة النباتية التي لها شأن كبير والتي قدّرت نسبته بنحو ٧٧ ./. من مجموع اطعمة الانسان . واليك بعض الارقام عن نسبة وجود الملح في ١٠٠ جزء من البقول الطرية المحروقة: العدس ١٨ ر٥ غرامات، الفاصوليا البيضاء ٧١ ر٣ غرامات، البسلّة ٩٠ ر١ غرام ، الفول ٤٤ ر٢ غرامين . اما البطاطس فخالية منهُ عدا نوع او نوعين منها، بعكس الهليون والقنبيط (القرنبيط) اللذان يحتويان على مقدار كبير منهُ . لكنَّ الاثمار والفاكهة الغضّة كالتفاح والكمثرى (والاجاص) والخوخ والكرز الخ.. فمقداره فيها ضئيل جداً ويتراوح ما بين ٣ر ١٤ سنتغراماً بالألف

فيجب اذن أن نملّح اطعمتنا بنسبة ٦ غرامات يومياً . ولربَّ سائل يسأل : هل هذا التمليح الاضافي هو بالحقيقة ضروري ونافع لجسم الانسان ؟ الجواب عن هذا ان المسألة لا تزال حتى الآن قيد البحث وآراء الاطباء مختلفة بشأنها . فالاستاذ ريشه Richet يجد ان غرامين ونصف من الملح تكفي يومياً لشخص وزنهُ ٦٠ كيلو غراماً . كما ان بعض الكيمائيين يرون ان الحدّ النهائي لذلك هو غرامين فقط . وفي كلتا الحالتين يظهر ان الارقام المذكورة لا تفي بحاجة الجسم ، بينما السبع غرامات المنوّه عنها اعلاه هي اقرب الى الحقيقة الراهنة لانها مستندة على اختبارات فسيولوجية

عرفنا مما تقدم ان الملح يساعد على افراز العصارة المعدية ويزيد مقدار حامض الكلور ، ففي بعض حالات سوء الهضم نرى الافرازات المذكورة تزداد زيادة فائقة سواء من جهة مقدارها أم من

جهة حموضتها، ومصحوبة باعراضها المختلفة المزعجة : كالتجشوآت ، والتقيوآت الحامضة والحرقة الخ..
أليس بالامر المعقول اذاً أن نفتكر والحالة هذه أن بتقليلنا استعمال الملح يقلّ مقدار العصارة المعدية وحموضتها ؟ ان الاختبار يؤيد هذه النظرية الصائبة لاننا كثيراً ما نشاهد زوال الاعراض المتقدم ذكرها والشفاء من سوء الهضم ، مع تحسن في حالة الشخص العامة بفضل الاطعمة قليلة الملح او بالامتناع عن هذا الملح مؤقتاً

﴿ الملح والكلى ﴾ : ولننظر الآن من جهة تأثير الملح في الكليتين : فعندما تكون «المصفاة» الكلوية متلبدة بالاوساخ او مصابة باحد الامراض كما هي الحال مثلاً في التهاب الكلية ، اوالبيلة الآحينية Albuminuric او ايضاً مرض بريط Bright يصعب حينئذٍ على الملح أن «يمرّ» بتلك المصفاة الى الخارج فيأُخذ اذ ذاك يتجمع ويتراكم في الخلايا ، فيملأُ الانسجة ويجذب اليه مصل الدم وتكون النتيجة ظهور ما تراه عادةً في التهابات الكلية من الترشحات والانتفاخ والاورام في الارجل والسيقان ، والاستسقاء وغيره

فاراحةً للمريض من هذه الحالة المزعجة إن لم نقل المؤلمة ، كان لا بدَّ من اتخاذ الوسائل الفعالة المدرّة للبول والمزيلة للاعراض المذكورة الناتجة عن ركود الماء في النسيج الخلوي .وقد رأى الاطباء في الحمية عن الملح او بالاقتصار على الاطعمة قليلة الملح : كالحليب والسكر والخبز مثلاً اكبر مساعد على ذلك ، خصوصاً في امراض القلب . وفي الواقع ان هذه الاطعمة لا تُدخل في جسمنا إلاَّ قدراً ضئيلاً جدًّا من الملح لا يتعدى ١٫٢٧ غرام في الاربع وعشرين ساعة لمائة غرام من الخبز مع ليترين من الحليب المحلى بالسكر بنسبة ٤٠ غرام في الالف

هذا من جهة . ومن جهة اخرى اذا ما اردنا مثلاً ان نملّح الحليب او اطعمة الاشخاص المصابين باحد الامراض المتقدم ذكرها فلا تلبث تلك الاضطرابات ان تظهر كما كانت ، وعلى الضد نرى الاضطرابات نفسها تزول عندما نرجع الى الحمية عن الملح في طعامنا.وقد تبين الآن انه يمكن للمصاب بالبيلة الآحينية ان يقتات كالشخص السليم — بشرط ان يكون طعامهُ خالياً من الملح

أما عند المبتلين بالصرع ففائدة الحمية عن الملح لا تقدّر ، لاسيما اذا قرنت باستعمال برومور البوتاس الذي هو دواء الصرع . ففي هذه الحالة يكون اثر هذا الدواء ، ولو كان مقداره يسيراً ، اضمن واعظم فائدة مما لو كان وحده . فنستنتج من هذا كله ان الملح له فوائد ومضار ، ولا بدَّ من ان اذكر ان الافراط في استعماله يوميًّا يؤثر تأثيراً سيئاً جدًّا في اعضائنا بما يسببه من تصلب الشرايين ، والهرم الباكر — نتيجة تراكم الملح في خلايا الجسم

فعلينا اذن ان نرجع الى المثل القديم المأثور وهو : لا زائد ولا ناقص . . بل الاعتدال في كل شيء . وخير الامور اوسطها . فستُّ غرامات من الملح يوميًّا مضافة الى اطعمتنا الاعتيادية يظهر انها المتوسط الكافي لدوام صحة الانسان وسلامة جسمه

الدكتور عبده رزق
طبيب مستشفى تذكار مود في القورنه بالعراق

الزواج والصحة والفحص الطبي

هذه مقالة صريحة في موضوع عمراني حيوي ولابدَّ من مواجهة الحقائق في مثل هذه الموضوعات. فكثيرون من الوالدين يرفضون ان يزوجوا بناتهم من رجال ادمنوا المسكرات مثلاً ولكن التقاليد المرعية تمنعهم ان يسألوا هل طالب الزواج مصاب بمرض خبيثٍ معدٍ او لا . لذلك آثرنا نقل هذه المقالة المفيدة بتصرّف عن مجلة الدسكفري العلمية

ان الاحوال التي يطلب فيها من الشاب ان يفحص جسمهُ فحصاً طبيًّا دقيقاً ويحصل على شهادة طبية رسمية قليلة جدًّا اشهرها حين التأمين على حياته في شركةٍ من شركات التأمين الكبرى فيفحصه حينئذ احد اطباء الشركة . كذلك تطلب الحكومة مثل هذا الفحص ممن يطلب الانضمام الى مصلحة من مصالحها . وهذا عمل القومسيون الطبي هنا . وفي بعض البلدان التجارية تطلب الشركات التجارية ذلك ممن يطلب الانضمام الى مكتب من مكاتبها البعيدة وهذا ما تفعلهُ شركتا ڤاكوم وشل في مصر على ما نعلم. وفي كل هذه الاحوال لا يحسب طلب الشهادة الطبية او الفحص الطبي اهانة او امراً غريباً

وعلى الضد من ذلك نشاهد قلة الاهتمام بزواج فتيان هذا العصر وفتياته من الوجه الصحي . فشركات التأمين والحكومات والشركات التجارية تطلب شهادة صحية لتؤمن على مصالحها اذ تعلم ان من يتولى السهر على تلك المصالح كفوءٌ من الوجهة الصحية . ولكن ما اكثر الرجال الذين تراهم مستعدين للتضحية بسعادتهم مدى الحياة لانهم لم يهتموا بفحص صحتهم فحصاً طبيًّا دقيقاً والتأكد من انهم صالحون للزواج

فمن الواجب ان تتخذ خطة جديدة في امر الزواج . وكل الذين على اهبته سواء كانوا رجالاً او نساءً وكل الآباءِ يجب ان يطالبوا بحق لهم وهو الوقوف على حالة طالب الزواج الصحية وهل هو سليم من الامراض المعدية. فما من شاب يجرب ان يخفي عن حميهِ حالتهُ المالية مع ان الاسئلة التي توجهُ اليهِ في هذا الموضوع تحسب مخلة باللياقة ولكن الامور الصحية اهم بما لا يقاس من الامور المالية

كثيرون لا يعيرون علم « اصلاح النسل » Eugenics التفاتاً لانهم يرون ان قواعدهُ تقضي بان يكون المتزوجون من مستوى واحد في العقل والجسم والطبقة الاجتماعية وان عاطفة الحب الجنسي يجب الاَّ تكون الدليل الى الزواج وهذه امور لا يحتملها العمران الآن . لكن لماذا نختلف على الاسماء والمسألة المهمة بسيطة جدًّا وهي ان علم الطب ارتقى ارتقاءً كبيراً واصبح الطبيب البارع قادراً ان يشخص الامراض المعدية بدقة تامة . وكثيرون من المصابين بهذه الامراض لا يدرون انهم مصابون بها. لذلك يجب ان ينشأ رأي عام يقضي بفحص طالبي الزواج فحصاً طبيًّا دقيقاً واذا كانوا مصابين يجب ألاَّ يتزوجوا ما زالوا كذلك

فعلى والد كل فتاة ان يعرف هل زوجها العتيد مصاب بالسلّ مثلاً او بمرض زهري . وتلك المعرفة في مصلحة ابنتهِ وهي مما يسهل الحصول عليه

مكروب السل معروف شكلهُ وكل بكتيريولوجي يستطيع البتَّ في هل هو في بصاق احد او لا . فاذا كان في بصاق احدٍ فصاحب ذلك البصاق يجب الاَّ يتزوج لانهُ اذا تزوج اعدى امرأتهُ واولادهُ ايضاً . والحوادث التي تؤيد هذا القول كثيرة

***

كذلك امتحان الدم يظهر بصورة لاتقبل الشك هل صاحب الدم مصاب بمرض زهري . ولاشك ان القارىء يستطيع ان يعدّد الامثلة التي هدمت فيها سعادة عائلة اتصل مكروب احد هذه الامراض الخبيثة الى افرادها لان الوالد لم يهتم بفحص جسمهِ قبل اقدامهِ على الزواج

فالواجب يقضي اذاً على كل رجل شريف ان يكون على بينة من حالتهِ الصحية قبل ان يقدم على الزواج . ولكن كثيرين من الرجال يصابون بمرض خبيث معدٍ ولا يدرون لذلك يقع الواجب على والد الفتاة بان ينبه صهرهُ العتيد الى ذلك الامر وان لا يكتفي بعد ذلك الاَّ بشهادة طبية رسمية . وذلك لا يعني انهُ في حالة الاصابة يمنع عقد الزواج بين شاب وفتاة قد تحابا بل يؤجل الزواج ما زال احدهما مصاباً وعلى المصاب ان يتعالج حتى ينال الشفاء التام وهذا ليس بالامر المستحيل على الطب في هذا العصر

وهناك مسألة الامراض العقلية الموروثة وهي معقدة لا يسهل البتُّ فيها كالسلّ وغيره . فقد تعلم فتاة ان خطيبها من والدين ماتا في بيمارستان المجانين وترفض الانفصال عنهُ وقد تكون في ذلك على حق ولكن خير لها ان تعرف ذلك قبل ان تعلن عزمها النهائي فان كون والديهِ مجنونين لا يستلزم انتقال الجنون اليهِ وهذا تشارلس لام احد كبار الكتّاب عند الانكليز كان ابن معتوهين واخا معتوه

كذلك قد يظهر الفحص الطبي ضعفاً في القلب وقد يصاب صاحب القلب الضعيف بما يقعدهُ عن العمل كل حياته . فيقول قائل ان زواجاً أبطل لهذا السبب يكون ابطاله مدعاة للخجل فنقول ان الاهتمام بمثل هذه المسألة يوازي الاهتمام بمسألة ثروة الخطيب على الاقل

***

لم نذكر حتى الآن فوائد فحص المرأة فحصاً طبيًّا قبل زواجها لان الرجل في الاسرة عليهِ المعوّل في اعالتها ولذلك يجب ان نعير صحتهُ التفاتاً كبيراً

لكنّ على المرأة ان تعرف بعض الحقائق عن حالتها الصحية لئلاَّ يكون زواجها مجلبة للتعس والالم والشقاء . فبعض النساء تعسر عليهنَّ الولادة لسبب في تكوين اعضاء الولادة . وهناك بعض الامراض الوراثية التي لاتنتقل الاَّ بالنساء اشهرها النزف الدموي ولكنهُ نادر جدًّا لايهمنا بحثه هنا

فالحاجة اذاً جلية غاية الجلاء وقد يأتي يوم يصبح الزواج المنعقد بين اثنين احدهما مصاب بمرض معدٍ جريمةً يعاقب عليها . والوالد الذي يهمل البحث عن صحة صهرهِ العتيد باخلاص مسؤول لدى ابنتهِ التي يحق لها ان تعتمد عليهِ في ذلك

كلمة تمهيدية

اهمية التعليم المنزلي للفتاة

بقلم المربية الفاضلة فاطمة فهمي

الرجل بدون البيت وبدون المرأة شريد في هذا العالم . فاذا سلمنا بهذا الاعتراف وجب ان يكون شاغل الامة الاول هو البيت وتعليم ربة البيت ، ثم لايهم بعد ذلك ماذا يكون شاغلها الثاني او الثالث ، فقد بعثت المرأة منذ البدء لتكوين البيت وتهذيب المعيشة فيهِ وتربية الاطفال وسيظل البيت يطلب منها الى ما شاء الله القيام بهذه المهمة رغم اتساع دائرة اعمالها اليوم . فاذا فهمت كل فتاة ذلك جيداً ما احتقرت البيت واعتبرت العمل فيهِ مهيناً لها بل رأت فيـهِ عظمة المهنة التي خصتها بها الطبيعة

أقول ذلك وقلبي مفعم بالاسى إذ حينما ادركت وزارة المعارف خطر هـذا التعليم لكل فتاة وشكى بعض الآباء خلو المناهج منهُ أدخلتهُ في باقي مدارسها (الثانوية للبنات) ولكن جعلتهُ علماً اختيارياً فلم يقبل عليهِ مع الاسف إلاَّ القليلات . وقد عتبت على طالبة ذكية عدم التحاقها بهذا القسم فكانت حجتها انهُ عمل شاق غير جذاب وترى انهُ من ظلم الرجل ان يخصها بهِ ! وهذا نقص في العقل دون شك اوجدهُ نقص التعليم المنزلي في التعليم العام . فلو جعلنا هذا التعليم أساساً لتعليم البنت مطلقاً ونهجنا فيهِ نهجاً صحيحاً كان وسيلة لتربية عقلها وقلبها واعتبرتهُ عملاً متقفاً ذا خطورة اجتماعية وقومية واقتصادية ولاحترمت البيت وعاشت له وعملت من أجلهِ

وان اكبر وسيلة للقضاء على حب الترفه والراحة وعلى الاستخفاف بالحياة المنزلية التي يشكو منها العالم كله اليوم هو تعليم الفتاة واجباتها التي بعثت من أجلها قبل كل شيءٍ آخر — وليست العلوم المنزلية علوماً آلية كما يظن البعض ولكنها من الفنون الجميلة التي تثقف العقل وتربي حسن الذوق فإن كياسة ترتيب البيوت وملاحـة نظامها تفتن الفتاة بحب الاشياء الجميلة وتعلمها تقدير الجمال في الانسجام . وان الاشياء التي نراها كل يوم عادية تستطيع المرأة الملمة بفن التعليم المنزلي بحسن ترتيبها وتنسيقها ان تكسبها بهاءً جديداً تتراءى في شكل فني ظريف . وليس هذا فقط فقد تخلق ابهى الاشياء من لا شيء

ومنذ سنوات جاء ضمن اسئلة امتحان التدبير العملي لفتاة مصرية بانكلترا عمل ثلاث اشياء جديدة من ملابس بالية وقصاصات مختلفة من الاقمشة فعملت مظلة لمصباح من منديل للرأس من الحرير كالذي تلبسه الفلاحات عندنا . ثم نموذجاً صغيراً لستارة من البفتة السمراء بعد خياطة قطع عليها من قصاصات القماش المشجر فبدا كأنهُ ورد بالبوية ابدع صنعه واتقن تلوينه — واخيراً من

جميع القصاصات الباقية كونت وسادة تسر رؤيتها العين — وقد احتفظت بها جميعها الى عهد قريب فكانت موضع اعجاب الكثير.

وهذا مثل بسيط يتبين منه كيف يمكن الانتفاع بهذا الفن في كل خطوة من خطوات البيت — هذا عدا ما في خدمة الغير من اعضاء الاسرة لاسيما المرضى والشيوخ والاطفال وفي اصلاح ما أفسده الضعف وأفسدته الايام . واذا كانت بعض ممالك اوربا قد جعلت هذا الفن اجبارياً كما انشأ بعضها جمعيات للعمل على منع المرأة من هجر منزلها فأولى بنا نحن الذين تئن بيوتنا من الفوضى ألاّ نخص طبقة دون سواها بهذا الجزء الهام من التعليم فانه لازم لجميع الطبقات على السواء . للفقيرة كي تعمل بنفسها والمتيسرة كي تعمل بمن يساعدها والغنية ليكون اشرافها اشراف الملم بجميع الامور فلا تنخدع بالظاهر ولا تعيش تحت رحمة الخدم طول حياتها . وقد فكرت وزارتنا في انشاء مدرسة عليا لتعليم هذا الفن تعليماً صحيحاً يتفق وثقافة الفتاة الحديثة . والامل كبير في تنفيذ الفكرة سريعاً وان كانت مدرسة واحدة لا تسدّ رمق الحاجة الاّ انها على كل حال تكون نواة صالحة لعدة مدارس في المستقبل وحينئذٍ تظفر بالمرأة الصالحة ويمهد راحة الانسان وخيره وهو «البيت»

***

والفتاة المصرية الى عهد قريب كانت تتعلمّ شؤون الدار من امها بالتقليد، على اعتبار ان التعليم المنزلي لا يحتاج الى دراسة نظرية منظمة ، ولا يحتاج الى تعليم مدرسي ، ولكن الاخذ بهذه الفكرة ، له خطره على الثقافة النسوية وعلى تطور البيت المصري

واظهر نتيجة لهذا ، الجمود في نظامنا المنزلي من طهي او حياكة او تنسيق لاثاث البيت . فالفتاة المصرية التي تعرف شيئاً من الطهي تنقله من امها او من الخادمات العارفات بذلك وهؤلاءِ عمن سبقهنّ وهكذا . لهذا كانت المحافظة على اساليب الطهي قوية ثابتة في حياتنا المنزلية ؛ فألوان الطعام التي كانت مستعملة منذ قرن مضى ما زلنا نستعملها الى اليوم

والتجديد في الطهي امرٌ لا بد منهُ ، فالمواد الاولية التي نستعملها الآن في الطهي ليست هي المواد القليلة التي كانت معروفة في القرن الماضي ، فهذا بطبيعته قد وسّع دائرة الطهي . وليس للفتاة المصرية انْ تعتمد فقط على التقليد في تعليمها المنزلي ، بل لا بد وان تعرف الأسس النظرية التي بنيت عليها التعاليم المنزلية ، وهذا ما يميز اليد العاملة ، من اليد المفكرة المتفننة التي للفتاة المثقفة تثقيفاً شاملاً

وما نقوله عن التجديد في الطهي نقوله عن التجديد في تأثيث المنزل وعن الحياكة والتطريز وعن ادارة المنزل . كل هذا يؤكد لنا اهمية التعليم المنزلي المدرسي ، ويوضح لنا ان النهضة النسوية في مصر لا تزال قاصرة الى ان تعنى العناية اللائقة بأخص ما يعني المرأة وهو التعليم المنزلي

فاطمة فهمي
ناظرة مدرسة المعلمات بالقبة وخريجة لندن



مقدمة عن الطفولة — ان اهتمام الآباء بمستقبل ابنائهم ، والتفكير في اعدادهم للغد ، يحدوهم الى تناسي حاضر هؤلاء الاطفال ولا يتيح لهم الفرصة للبحث في تكوين الطفل الجسمي والعقلي ، ولا في التطورات التي يسير عليها عاماً بعد عام منذ ولادته

فالطفل في نظر بعض الآباء وهو في سنته الثالثة هو نفسه في العاشرة من عمره ، بل ان كثيراً من الآباء لا يزالون يعاملون ابناءهم وقد اضحوا شباناً كما كانوا يعاملونهم في سن السابعة ؟ وان كان يرجع بعض هذا الى تكوين العادة فيهم الا انه يوضح لنا ان اهتمام الآباء بدراسة اطفالهم دراسة جدية ، وعنايتهم بتعرف تطورات هؤلاء الاطفال الجسمية والنفسية ضعيف عند البعض ، بل ومنعدم عند البعض الآخر

ولا ينجم ضعف العناية بدراسة الاطفال عن اهمال فحسب ، بل ان القائمين بتربية الطفل آباء كانوا ام معلمين ، يكونون فكرة خاطئة عن تكوين الطفل وعن استعداده ، فيأخذونه بوسائل تعوق نموه الطبيعي ، وتضر باستعداداته ، وتجعل عمل التربية مستحيلاً . فالاعتقاد الذي كان سائداً في القرون الوسطى بأن الطفل ما هو الا رجل صغير ، كان عاملاً اساسياً في فساد الوسائل التي كان يأخذ بها القائمون بالتعليم في تلك العصور ، كاهتمامهم بتقليده البالغين في لباسهم وفي تقاليدهم الاجتماعية وعنايتهم بتلقينه العلوم الفلسفية والدينية والاخلاقية

كيف بدأت دراسة الطفل — والنهضة العلمية الحديثة التي انفجرت في اوربا واميركا في اواخر القرن الماضي والتي عملت على تقدم كثير من العلوم والدراسات ، ساعدت ايضاً على ظهور علوم ودراسات لم تكن معروفة من قبل وكان هذا نتيجة لتقدم البحث وارتقاء طرق التنقيب في العلوم الاخرى . فدراسة الاطفال وهي احدى هذه الدراسات الجديدة ؛ لم تصر علماً مستقلاً له طرقه ومادته وأغراضه ، الا منذ نصف قرن . ولا شك ان عوامل لم تكن موجودة من قبل ساعدت على ظهور هذا العلم ، وعلى اعطائه المكانة التي له الآن . فمن هذه العوامل التقدم الكبير في دراسة علم النفس ، الذي يدور البحث فيه على مظاهر الحياة العقلية عند الانسان . فباتساع دائرة هذه الدراسة ابتدأ الباحثون يشعرون (اولاً) بأن هنالك فروقاً بين الاستعداد العقلي للرجل البالغ وبين الاستعداد العقلي للطفل

(ثانياً) بأن الطفل يسير في مراحل حتى يصل الى طور الرجولة الكاملة ، وهذا التطور يحدث تدريجيًّا الى ان يقف في سن خاصة

(ثالثاً) ان لكل طور من اطوار الطفولة مميزات خاصة ؟

التربية ودراسة عقل الطفل — مشكلة التربية كانت عاملاً اساسيًّا على الاهتمام بجعل دراسة الطفل علماً مستقلاً له شأنه الخاص . ولقد اخذ هذا الاهتمام مظاهر متعددة ، منها انصراف جماعة من العلماء الى دراسة طبائع اطفالهم ، وجعل هؤلاء الاطفال ميداناً لابحاثهم وتجاربهم ، فجعلوا سجلاً لحياة هؤلاء الاطفال يقيدون فيه كل ما يشاهدونه ماثلاً في سلوكهم منذ ولادتهم . ومن هؤلاء داروِنْ في انجلترا ، وبرير في المانيا ، واستانلي هول في امريكا ، فهذه الابحاث الفردية وان لم تكن قد جعلت دراسة الاطفال علماً مستقلا في نظرياته فهي على الاقل قد ولدت الميل لدراسة الطفل على انه موضوع حري بالدراسة

ثم ان تكوين جمعيات الآباء والامهات صارت خطوة جدية في تاريخ هذا العلم ، وان كانت النتائج التي وصلت اليها مثل هذه الجمعيات ليس من السهل ان تقرر صحتها لانها مبنية على المشاهدات الخاصة التي قد تخطىء وقد تصيب ، الاَّ ان هذه الجمعيات قد مهدت السبيل الى تكوين جمعيات اخرى قوامها الاخصائيون في الطب وعلم النفس جعلوا الطفل محور دراستهم وعلى هذه الابحاث تقدمت دراسة الطفولة ، تقدماً محسوساً في هذه السنين الاخيرة

وليست مشكلة التعليم فقط هي التي عملت على الاهتمام بدراسة الطفل ، بل ان تقدم المجمع الانساني خلق عوامل اخرى ، كان لها الفضل ايضاً في التوسع في دراسة الطفل

فمن هـذه العوامل مشكلة تشغيل الاطفال في بعض المهن والصناعات ، وبحث انواع المهن التي تكون اصلح لاستعداد الاطفال الفسيولوجي والعقلي ، وعدد الساعات التي يشتغلها الطفل ، مع دراسة الاضرار التي تنجم عن تشغيل الاطفال في سن مبكرة

ثم هنالك مسألة الاجرام عند الاطفال ، ودراسة الاسباب الداعية له ، وتقدير مسئولية الاطفال القضائيـة والاخلاقيـة ، وبحث انواع العقوبات الناجعة لتلافي هذه الاضرار

ثم هنالك مسألة الشذوذ العقلي عند الاطفال ، والمظاهر الشاذة لسلوك الاطفال كالهرب من البيت والمدرسة ، والميل الى تكوين العصابات

كل هذه العوامل جعلت الاهتمام بدراسة الطفل ضرورية لا محيص منها . اذا اردنا ان نأخذ الطفل بالوسائل الانسانية الطبيعية

احمد عطية الله
عضو المجمع البريطاني لعلم النفس

المقال الثاني

معنى الطفولة ومميزاتها العامة وطرق دراستها

المقال الثالث

النمو الحسي عند الاطفال

المقال الرابع

تطور عقل الطفل من الولادة الى العام الثالث

الاولاد ودرس الطبيعة

كتاب الطبيعة مفتوح امام جميع الناس ، ودارسهُ لا يحتاج الى تعلّم حروف الهجاء ولا الى درس لغة اجنبية ، بل يكتفي فيهِ، ان يفتح الانسان عينيهِ واذنيهِ وينظر ويقابل ويستنتج . واذا كان لهُ منبه ينبههُ الى امامهُ ، ومرشد يرشده الى كيفية النظر والبحث والمقابلة جرى في هذا الدرس من نفسهِ بعد ذلك . والاولاد يحبّون الطبيعة . انظر اليهم في بستان يمرحون بين اشجاره ورياحينهِ ويقطفون من اثماره وازهاره . او انظر اليهم على شاطىء البحر ، يجمعون الابواق والاصداف ، او يحفرون خنادق الرمل ، ويبنون منهُ الدور والقلاع . او راقبهم يحتضنون اجراءَ الكلاب والهررة او يراقبون حركات الطيور في اقفاصها تجد البهجة والحبور على وجوههم . وفي حركاتهم . حتى الطفل الصغير الذي لم يناهز السنة يبتهج بمنظر جرو او عصفور اكثر مما يبتهج بمنظر والديه

ثم اذا كبر الولد وصار رجلا او امرأة ، كثرت مطالب الحياة عليهِ او اضطرَّ ان يوجه اهتمامه الى امور اخرى ، لكن الميل الى الطبيعة يبقى في نفسهِ ويعود الى شدّتهِ متى شاخ . واذا ربي من صغره على درس الطبيعة ، وتعشقها وجد فيها عزاءً وسلوى عن هموم الحياة ومتاعبها ، مهما كان سنهُ

وهنا مجال واسع للامّ الحكيمة لكي تربي اولادها على درس الطبيعة . مثال ذلك ان الاولاد يقطفون الازهار ويلعبون بها ثم يرمونها . فالام الحكيمة تلتفت اليها وتخبر ولدها كيف تنمو الازهار ، وكيف تتكوّن البذور منها . والوقت الذي تنمو فيهِ من السنة . وتقابل زهرة باخرى . فيتعلّم الولد منها اموراً كثيرة من علم النبات ، وهو غير متقل بهم الدرس والمذاكرة ولا بدّ ان يكون ذلك كلهُ بلغة يفهمها الولد ، وبصور وتشابيه ، يدركها عقلهُ

والاولاد يسرّون برؤية الطيور على الاشجار والاسماك في البرك . والام الحكيمة تستطيع ان تغتنم الفرص حين رؤيتها وتذكر لهم قصصاً كثيرة عن الطيور والاسماك تشرح لهم فيها طبائعها

ومعلوم ان الوالدة لا تستطيع شيئاً من ذلك ما لم تكن هي قد قرأت كتاب الطبيعة وطالعت كثيراً مما كتبه الكتّاب في الموضوع . ومن هنا مقام علوم التاريخ الطبيعي والطبيعة في مدارس البنات

واذا ربي الولد على حب الطبيعة ، بقي عمره كله فرحاً بها وزاد ذلك في سروره ولين عريكته

وترى في هذا الصدد ان ملك اسوج خرج مرة هو وزوجته يجولان لجمع النباتات والازهار وركبا حمارين ولم يكن معهما الاَّ خادم واحد فالتقى بهما رجل فرنسي من علماء النبات وظنهما مثله من علماء النبات ، وجال معهما وبقي الثلاثة يبحثون عن النباتات الى الظهر فطلب منهما ان يدلاه على مكان يتغدى فيه فقال لهُ الملك تعال هنا نغديك في بيتنا فشكره العالم وسار معهما الى ان وقفا امام القصر . فالتفت العالم دهشاً . فقال له الملك الامر كما ترى وانا ملك اسوج ولكن ذلك لا يمنعك من ان تتغدى معنا . وكان حديث المائدة على النبات . وكذلك ترى ان عشاق الطبيعة متساوون في حبهم لها وفي نسبتهم اليها

مميزات الطفل النفسية

بين الثالثة والتاسعة من عمره

— ١ —

ان حواس الطفل في الدور الاول من حياته حساسة كاللوح الفوتوغرافي تتأثر بكل ما يقع ضمن دائرتها وهي في هذا الدور من الحياة لا تزال كذلك وعليها يجب ان نعتمد في نقل الافكار الجديدة والمبادىء العلمية الاولية لأنها منافذ النفس وابواب العلوم .

لو كان المعلم يستطيع ان ينقل الافكار من عقله الى عقل تلميذه كما ينقل قطعةً من الاثاث من مكان الى آخر لكان فن التعليم اسهل الفنون وابسطها بل لما كان فنًّا على الاطلاق . ولكن انّى له ان يفعل ذلك والتلميذ لديه معلومات محدودة نفذت الى مكامن عقله عن طريق حواسه وكلما اراد المعلم ان يضيف الى هذه المعلومات شيئاً جديداً وجب عليه ان يفسره بعبارات مألوفة لدى الولد . على اننا لا نعلّم الولد سوى كلمات وعبارات لا يفهم لها معنى ولا يقوم لها في عقله صورة ما لم تكن في جزئياتها مطابقة لكلمات وعبارات عرفها قبلاً وان كان مجموعها جديداً

يعرف كاتب هذه السطور ولداً يُربي عمره على الثلاث سنوات اطعمتهُ امهُ في احد الايام قطعة من الحلوى المعروفة في لبنان «بالسنيوره» وذكرت امامهُ هذا الاسم وفي صباح اليوم الثاني جاءت الى بيتهم بائعة اللبن واتفق ان اسمها او كنيتها كان سنيوره فلما دعتها امه باسمها نظر اليها متعجباً وسألها قائلاً — انا اكلتك يا سنيوره فمن أين اتيت الآن ؟ ويروى ايضاً عن فتاة رأت شاربي خالها الصغيرين ولم تكن قد لاحظتهما من قبل فسألتهُ وأحرجتهُ بسؤالها — « أهذا حاجب ثالث ؟ »

فالولد مثل كل احد من الناس لا يستطيع ان يدرك الجديد الاَّ بعد ان يجد فيهِ علاقات تربطهُ باشياء قديمة يعرفها . كذلك لا نقدر ان نتصوَّر المستقبل الاَّ بدرس الماضي وما التاريخ سوى سلسلةٍ منظومة الحلقات يرتبط تاليها بسابقها

فتقديم الافكار الجديدة بطريقة سهلة وبعبارات مألوفة لدى التلميذ، تقرّب اليهِ المعنى وتسهّل عليهِ الفهم والادراك وهذا هو واجب المعلم الاكبر . وهو السرّ في نجاح بعض الكتّاب والمؤلفين واخفاق البعض الآخر . لذلك يتحتم على المعلّم ان يدرس معارف تلاميذه قبل الشروع في تعليمهم لكي يصبح على بيّنة مما هو فاعل والاَّ ذهبت اتعابهُ ادراج الرياح

— ٢ —

قوة التصور والخيال لها أثر كبير في تكييف حياة الولد في هذا الدور من الحياة ومن اهم مظاهرها

تعطشهُ لسماع القصص . على أنهُ يتطلب الآن قصصاً مترابطة الاجزاء منسقة الحوادث تتلو مسبباتها اسبابها فترسم لهُ صوراً من الحيـاة فاذا كان المعلمّ محدّثاً ماهراً قدر ان يستهوي الولد بقصصهِ وأحاديثهِ . وعليهِ ان لا يودعها المبـادىء الفلسفية العالية التي لا يتمكن الولد من ادراك كنهها . وزد على ذلك فان الولد يصبح قادراً في هذا الدور من الحياة على التفريق بين الحقيقة والخيال وتظهر فيهِ قوة التصور والتمييز والتفضيل والنقد البسيط فبينما نرى الطفل في الدور الاول من طفولتهِ لا يفرّق بين القصص الوهمية الخرافيــة والحوادث الواقعية الحقيقية تجدهُ في هذا الدور وبوجهٍ خاص في نصفهِ الثاني مميزاً منتقداً يسأل « هل هذا صحيح ؟ » و « هل هذا في حيّز الامكان ؟ » والاشياء التي يصدّقها لمجرّد سماعها يطلب الآن ان يقف على اسرارها وخفاياها . فلذلك يجب على المعلّم ان يولجهُ قليلاً الى هيكل الحقيقة الفخم وان يطلعهُ على الاسرار البسيطة التي يقدر ان يفهمها فيزداد بذلك كنز معارفهِ واختباراتهِ ويصبح مستعدًّا للدرجة الثانية في سلّم التقدم العلمي ومراتب النشوء الفكري مما سبق يتضح لنا ان قوة الفهم والادراك بدأت بالتنبُّه والظهور ولا يكتمل نموها الاَّ في دور البلوغ

— ٣ —

لا يمرّ يوم جديد من حياة الولد الاَّ ويأتيهِ باختبار جديد يضيفهُ الى اختباراتهِ السابقة ويبدأ بتفهم المبادىء الطبيعية البسيطة فيربطها بعضها ببعض ويوجد بينها علاقة السبب بالمسبب ويعلم انهُ اذا وقع السبب فلا بدَّ من وقوع المسبب . وعلى المعلّم ان يتوقف عن قصص الجن والحكايات الخرافية حينئذٍ لان تلميذهُ بدأ يدرك الحقيقــة الطبيعية الكبرى في مبدأها الاولي — وهي ان الاشياء تسبب بعضها بعضاً

وهذا الانتقال لا يتم الاَّ تدريجيًّا ولكنهُ يظهر في دور الطفولة الثاني. فوجود الولد في المدرسة يوسع دائرة اطلاعهِ وأفق نظرهِ الى الحياة ويولّـد فيهـا افكاراً كثيرة لم يسبق لها وجود في عقلهِ فينمو نموًّا عقليـاً سريعاً . كذلك تكثر اسئلتهُ لانهُ يريد ان يفهم العلاقات المختلفة بين شتى الامور ليكوّن كلاًّ كاملاً في جميع جزئياتهِ ولذلك يريد ان يربط هذه الاجزاء بنواميس وقوانين شاملة يدركها ويفهمها هو . ومن هذا القبيل يتعرض المعلّم الى ارتكاب ثلاث اغاليط وهي :

١ — ان يحسب المعلم الولد قادراً على ادراك كل شيء مهما يكن بسيطاً فيفسر لهُ المبادىء العلمية الجديدة لديهِ كما لو كان يفسرها لشبان قد اكتملت فيهم قوى الفهم والادراك . نعم ان الولد شرع يفهم علاقة السبب بالمسبب لانهما يحدثان معاً في زمن واحد وفي مكان واحد. تشرق الشمس فينتشر النور في الآفاق . هو يعرف هذه الحقيقة لان الامرين يقعان في زمن واحد ولكنهُ لا يفهم التعليل الفلسفي ولا العلاقة المنطقية بين الشروق وانتشار النور . انهُ لا يستطيع ان يفهم هذه العلاقات قبل ادراك سن البلوغ حينما يكتمل فيه نمو القوى العاقلة

٢ — ان الاعمـال السافلة في رأيهِ هي الاعمال التي يرافقها العقاب العنيف او غضب الوالدين

الشديد . والاعمال الحسنة هي التي يسرّ بها والداهُ واقاربهُ وتعود عليهِ بالثناء . فهو لايستطيع ادراك القوانين الادبية بمعناها الفلسفي البعيد الغور ولكنه يفهمها كسبب ونتيجة لانهُ يحكم على الأمور بعواقبها وعلى الحوادث بنتائجها . فلذلك يجب ان يكون نصحنا وارشادنا موافقاً لاعمالنا وسلوكنا فاذا قلنا ان الكذب ممنوع يجب ان نعاقب الولد كلما كذب حتى نثبت لهُ ان الكذب عاقبتهُ وبيلة واذا امتدحنا الصدق امامهُ فعلينا ان نثني عليهِ حينما يصدق في اقوالهِ وافعالهِ او نجيزهُ على ذلك. على اننا قد نرى مسوّغاً لمخالفة بعض القوانين والخروج عليها في بعض الاحيان فنفعل غير ما نقول ، لسبب نعتقده كافياً ولكن يجب ان نتجنب هذه المخالفات امامهُ لانهُ غير قادر ان يفهم السبب مهما تكن الحجة بالغة والدليل قويّا ، فيحدث ذلك تشويشاً في عقله ويصبح كأنه سائر في ظلمات حالكة يتلمس طريقه تلمساً ولا يهتدي الى السبيل القويم . يجب ان نحيطه بنظام ادبي شامل لا يتغير ولا يتبدّل فينشأ وللمبادىء والعادات التي كسبها في صغره سلطة النواميس الطبيعية وقوتها

٣ — الصراحة والاخلاص — ذكرنا ان الطفل في هذا الدور من الحياة كثير الاسئلة ولذلك يتحتم علينا ان نكون في اجوبتنا عنها مثالاً للصراحة والاخلاص . المقترنيْن بالحكمة فالولد الذي يسأل امهُ لتطلعهُ على حقيقة الغول ولا تصدقه الخبر لا يلبث ان يعرف خطأه حينما يضحك منهُ رفاقهُ في المدرسة فيترك ضحكهم اثراً سيئاً في نفسهِ فيعتقد ان امهُ عرضتهُ لتلك الصدمة الاجتماعية لانها لا تخلص لهُ القول ولم تصارحهُ الحقيقة فيفقد ثقتهُ الكبيرة بها . والطفل في هذه السن باشد حاجة الى عطف الام وحنانها ونصحها وارشادها فاذا فقد ثقتهُ بها فبمن يلوذ ؟ كذلك المعلم الذي يطلب من تلاميذه ان يعتقدوا شيئاً لايعتقده هو ولايطلعهم على السبب الذي دفعه الى ذلك لانهم في رأيه لا يستطيعون ادراكه يرتكب الخطأ عينهُ لان الولد يلوم المعلمّ حينما يقف على جهلهِ وقد كان من واجب المعلمّ ان يطلعهُ بصراحة واخلاص على الحقيقة . فخير للتلميذ ان لايذكر الموضوع امامه على الاطلاق من ان يذكره ناقصاً مشوّهاً

— ٤ —

ان الولد في هذا الدور يميل الى قراءة الروايات ومطالعة الاشعار القصصية الحماسية . فلنجرب ان نربي فيهِ عادة حميدة هي مطالعة الروايات الشهيرة المعروفة بحسن اسلوبها وبلاغة تعابيرها وما تعيهِ من الحكم والعبر . وقد يجيء التلميذ الى معلمهِ ويسأله أحقيقة وقائع تلك الرواية ام لا ؟ فعلى المعلم عندئذٍ ان يصدقهُ الخبر فيقول : كلاّ ان هذه الحوادث كما هي ليست واقعية ولكن ألا تظن ان هناك حوادث كثيرة مثلها ؟ ألا تظن ان الحكم التي وعتها حكم غالية والنصح ثمين يحسن بنا الجري عليهِ فيصبح المعلمُ ملجأ التلميذ عند اضطراب بحر الوجود ، يعتمد عليهِ ويلوذ بهِ حين تقوم في وجهه مشاكل الحياة فيأتيهِ طالباً عونهُ وارشاده للسير في سبل النماء الفكري والادبي حتى يصبح قادراً ان يعتمد على نفسهِ . واذ ذاك تصير المبادىء التي كوّنها في صغره والاخلاق التي وضعت اركانها في طفولتهِ حصن حياتهِ الاجتماعية الحصين ومعقلها الثابت الاركان

باب المراسلة والمناظرة

في بحور الشعر

حول نقد « صنَّاجة » الرياشي

بقلم بشر فارس

نقد الشاعر حسن كامل الصيرفي ديوان قبلان افندي الرياشي في « مقتطف » شهر ديسمبر الماضي . وليس لي ان أتعرض لذلك النقد . الاَّ انني اصبت فيهِ ما لم اطمئن اليهِ . فلقد ذهب الاستاذ الصيرفي الى ان للشاعر سقطاتٍ في الوزن ، والذي عندي انهُ وهمٌ فيما ذهب اليهِ . واليك بيان ذلك

قال الاستاذ الصيرفي : « فمن سقطاته في الوزن — وفي الصنَّاجة من ذلك كثير — قوله :

وبعـد قليل اتى كاهن يضيء الشموع ويذكي البخورا

ويتلو الصلاة على « نعشه م وهو» جاثٍ يناجي الاله الغفورا

وقوله : وما كان في لحمهِ « شبع » ولا كان قتل الضعيف اضطرارا

وقوله : نَظَرت « ربات » الجمال اليـهِ يتغنى بحبهـا ويجيد

« وكان يصح ان تكون كلمة « جثوًّا » بدل « وهو جاثٍ » وكلمة « مشبع » بدلاً من «شبع» و« ربّة » عوضاً عن « ربّات » ليستقيم لهُ الوزن ، ولعلَّ هـذه وما يشابهها اخطاء مطبعية يتداركها الشاعر في طبعة ثانية »اه

***

والتحقيق أن الوجه على غير ما يذهب اليهِ الاستاذ الصيرفي . فإذا تدبرنا مآخذهُ وجدناها مقصورة على بحرين : اولها المتقارب (فعولن فعولن فعولن فعولن ، مرتين) والآخر : الخفيف (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ، مرتين)

(١) اما المتقارب فكأنَّ الاستاذ الصيرفي يأخذ على الشاعر استعماله «العروض» تارةً (فَعَلْ) واخرى (فعولن) — (وذلك حين يقول « جثوًّا » بدل « وهو جاث ») ، ثم كأنه يأخذ عليهِ قبض ١ فعولن) بحيث تكون (فعولُ) — (وذلك حين يقول « مشبع » بدلاً من « شبع »)

والذي اراهُ أن استعمال «فَعَلْ» و«فعولن» في«العروض» في القصيدة الواحدة شائع متواتر: قال الشريف الرضي (طبعة بيروت ص ٧٦٢)

ألسنا بني البيض من « هاشمٍ » اعز جناباً واوفى ذماما

فان رابكم ما يقول « الفصيح » فسالوا القنا واستشيروا الحماما

وقال مهيار (طبعة دار الكتب ص ٣٥٢) :

تشككني وهي طوع « الريا ح » تتبعها يمنةً او يسارا

وتجلو عليك بنات « الفسيل » اذا كست السعفات الثمارا

هذا واما قبض (فعولن) بحيث يجيء (فعولُ) فلا غبار عليهِ وفي الابيات التي مرّت بك امثلة في ذلك

(٢) بقي ان الاستاذ الصيرفي يأخذ على الشاعر استعماله في « الخفيف » (مستفعلن) بدلاً من (مفاعلن) — وذلك حين يأخذ عليهِ قوله « ربّة » عوضاً عن « ربّات » في هذا البيت :

نظرت « ربات الجمال » اليهِ يتغنى بحبها ويجيد

والذي اراه ان استعمال (مستفعلن) بدلاً من (مفاعلن) لامطعن فيهِ ولا مغمز. قال عديّ بن زيد

ايها الشامت المعير بالدهر أأنت المبرأ الموفور

ام لديك « العهد الوثيق » من الايّـام بل أنت جاهل مغرور

من رأيت المنون خلـدن او كا ن عليهِ « من ان يضام » خفير

وقال أبو تمام (طبعة محمد جلال ص ٢٩٣)

فتح الله في اللـواء لك الخا فق يوم « الاثنين » فتحاً مبينا

حوّمته « ريح الجنوب » ولن يحـــمد صيد العقاب حتى تحوما

نعمة الله فيك لا اسأل الله م اليها « نعمى سوى » ان تدوما

وقال مهيار (طبعة دار الكتب ج ٢ ص ١١٤ ، ١١٥)

وامتطت وحدها الى غاية المجد ظهوراً « خشناً وطرقاً » وعورا

وتصفوا « من ناصر الدولة » ابناً يشهد الفخر ظافراً منصورا

وقال ابو العلاء: غير مجدٍ « في ملتي » واعتقادي نوح باكٍ ولا ترنّم شاد

وشبيه « صوت النعي » اذا قيـــس بصوت البشير في كل ناد

خفف الوطأ ما اظن أديم الا رض إلاَّ « من هذه الاجساد »

وقال البحتري: وتماسكت حيث زعزعني الدهر م التماساً « منه لتعسي » ونكسي

وقال (طبعة رشيد عطية ص ٢٧٥)

في سماء « من خضرة » الروض فيها أنجم من شقائق النعمان

واصفرار « من لونه » وابيضاض كاجتماع اللجين والاقحوان

وتذكرت وافد الشيب فاستعجلت م حظي « في الراح والريحان »

هذا والمعلوم ان اصل هذا الوزن (فاعلاتن مستفعلن فاعلاتن ، مرتين)

قال ابو تمام (ص ٣٦)

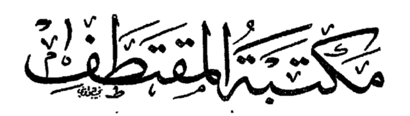
اي مرعى « عين ووادي » نسيب لحبته « الايام في » ملحوب

وقال ابن المعتز (طبعة بيروت ص ٢٣٣)

راض نفسي « حتى رضيت » ابليـــس قديماً « قد طاوعته » النفوس

اسكبوها « في الدن من » مهد نوح كظلام « فيه نهار » حبيس

ب . ف



على هامش السيرة

للدكتور طه حسين

الدكتور طه حسين غنيٌّ عن التعريف ولكن ذلك لا يمنعنا ان نقول انهُ بين الكتّاب في هذا العصر فذٌّ لا يجارى ، في كثرة انتاجه وجودته وتعدُّد نواحيه . فهو قائم على تحرير « كوكب الشرق » عمله فيهِ يقتضي التغلغل في الشؤون السياسية في مصر ، بقراءة صحفها جميعاً والاجتماع بقادة الرأي فيها ، ويقتضي كذلك الاحاطة باتجاه التيارات الدولية في السياسة والاقتصاد . ولكنهُ مع ذلك يجد لديهِ متسعاً من الوقت لكي ينصرف الى شؤون الادب والنقد والثقافة بوجهٍ عام فيكتب المقالات الادبية للرسالة ، ويلقي المحاضرات العامة ، ويخرج مثل هذا الكتاب النفيس

***

ولا تعجبن اذا قلنا لك ان هذا الكتاب الاخير للدكتور طه حسين لمن صنف كتاب الايام . فان اختلف الموضوع في ذينك المؤلفين فان الاسلوب واحد فيهما . ذلك ان كليهما قائم على سرد اخبار وحوادث . وما نظن احداً من كتاب اليوم يقدر على ان يقص على الناس قصصاً مليئة في ذلك الظرف وتلك السهولة

ليس « على هامش السيرة » بالكتاب العلمي المحض المتبادر الى الذهن . أنهُ كتاب تأثري ، افرغ فيه الدكتور طه حسين ما اختلج في نفسه وجاش في صدره وهو يطالع السيرة . ومن ذا يحس بمحتويات السيرة مثل طه حسين وهو الذي تخرج في الازهر قبل كل شيء ثم اولع بقراءة الكتب الصفر واقبل على اخبار عرب الجاهلية ودرس شعرهم ونظر في القرآن وما يليه من تفاسير وقصص

***

والذي يجعل بين هذا الكتاب وكتاب الايام وجهاً من الشبه ذلك الاسلوب الرشيق الذي به يصف الدكتور طه حسين الاشخاص ويسرد الحوادث . فكأن الاشخاص بمرأى وكأن الحوادث بملمس . ولربما انطلق الدكتور فيما يصف ويسرد حتى لانهُ يخرج عن موضوع بحثه ويستطرد من هنا وهنالك فيفتح لك آفاقاً ويكشف عن حجب وانت منقاد اليه انقياداً بل مسحور برشاقة تعبيره وفصاحة عبارته

مقالبر الكتب

١ — ابن خلدون (حياته وتراثه الفكري)

(تأليف محمد عبد الله عنان — مطبعة دار الكتب العربية سنة ١٣٥٢ وسنة ١٩٣٣)

نشأ ابن خلدون في بيت من بيوت المجد قد نزح من الاندلس الجميل الى تونس الفيحاء ، ونما في بيت من العلم والرياسة ، والشرف والسياسة ، وصبغ بصبغة الجيل الذي عاش فيه ، فلما استوى على سوقه وجد ما بين يديهِ من دول الاندلس والمغرب كالنساءِ الضرائر ، لاتفتر واحدة عن الكيد لصواحباتها . وكان صدر هذا الشاب (ابن خلدون) يغلي بأمانيهِ وأوهامهِ ومطامعهِ ، فرأى فيه أهلهُ ومن يحيط بهم من أهل الشرف والرياسة ، وهو في سن العشرين ، بارقةً من النبوغ والعبقرية والسيادة ، وتداول الناس امره حتى سمع بهِ أبو محمد بن تافراكين فاستدعاه لكتابة (العلامة)[1] عن السلطان أبي اسحاق فكان ذلك اول اتصاله بالحياة السياسية في دول المغرب والاندلس ، والتي خاض (ابن خلدون) فيما بعد غمرتها وتلظى بها وأصلى فيها او شبَّ نيرانها ، وكان لها في تاريخ حياته أثر بيّن ، حبيبٌ حيناً وبغيض أحياناً . ومكث ابن خلدون في عمله هذا حتى نزعت به همته الى الرحلة من تونس سنة ٧٥٣ الى (قَفْصَة) ثم الى (بسكرة) فنزل ضيفاً على صاحبها (يوسف بن مزني) ومن هنالك قصد الرحلة الى (أبي عنان) بتلمسان ولكنهُ لم يمض في طريقه حتى لقيه (ابن أبي عمرو) صاحب (بجاية) فصرفه عن أبي عنان وحمله معهُ مكرَّماً الى (بجاية) فكان فيها حديث الناس حتى بلغ ذكره (أبا عنانٍ) وكان لهُ مجلس من العلماء فرأى ان يستدعي (ابن خلدون) لما بلغه عنه فحمله على خير محمل سنة ٧٥٥ وأتمَّ بهِ مجلس العلماء واختصَّه بالكتابة والتوقيع بين يديه . وكان اصحاب (أبي عنان) من اكثر اهل البلاد حسداً وغيرةً ، فكادوا لهُ كيداً عظيماً لمـا رأوا من حظوتهِ عن السلطان ، فلم يجد صاحبنا بدًّا من التقحم في غمرات الدسائس والمكايد ، ولعلها وافقت هوى من نفسه ، فبرع في الدس والكيد والتلوُّن واثارة الفِتن حتى اضطرمت في عهده البلاد ناراً من الفتنة كان هو مثيرها حيناً ومطفئها احياناً . واستمر أمره على ذلك فيما تقلب فيه من امر الدول المغربية والاندلسية وليس سبيلنا هنا ان نترجم لابن خلدون ولكنَّا قدَّمنا هذه الكلمة لما كان للدسائس من الخطر في حياة هذا الرجل ، وقد استقصى ذلك الاستاذ عنان في كتابه بايجاز وعرضه على القارىء عرضاً جميلاً

كان هذا الرجل ذكيًّا قادراً بليغاً دقيق العبارة جيد الافصاح عن ضمير نفسه . مشرق الفهم رحبُ الادراك ، يقع لهُ الامر من الامور فيفصّله ويبيّنه ويوضحهُ ويجمع اليه القرائن ويجيد القياسَ بين شيءٍ وشيءٍ ممـا يحدثُ لهُ أو لغيره من الناس فوَضعَ من ذلك في ذهنهِ شيئاً كثيراً ، هو الذي اجتمع لهُ حين ألَّف مقدمته المشهورة في الشرق والغرب ، فاخرج فيها من

(١) ذكر (العلامة) الاستاذ عنان في كتابه ولم يفسرها ، وكان الاولى تفسيرها ، لانها شيء قد درس قلما يفهم احد ما يعنى بها . والعلامة عندهم في ذلك العصر هي : « الحمد لله ، والشكر لله » تكتب في كتاب السلطان او مرسومة بالقلم الغليظ بين البسملة وما بعدها من الكلام

الحقائق ، والنظريات والأسس في حياة الدولة ما لم يجمعهُ كتاب عربيٌّ قبلهُ . وما ذلك الا لانهُ كان — كما أسلفنا — (بليغاً ، دقيق العبارة ، جيّد الافصاح عن ضميره نفسهِ)

واكثر الناس على ان ابن خلدون هو أولُ من اهتدى — من العرب — الى هذه الحقائق العظيمة التي اثبتها في مقدمته ، فهذا صحيح من ناحية ، هي انهُ اول من دوّنها جميعها بين دفّتي كتاب ، ولكنّي لا اشكُّ ان اهل السياسة والرياسة في الدول العربية في الشرق والغرب كانوا يجيدون ما اجاد ابن خلدون من هذا العلم ، وكانوا يعرفون ذلك حقَّ المعرفة ، وهناك ادلة كثيرة على ذلك ليس هذا موضعُ ايضاحها وتفصيلها . وأنا لا اظنُّ ان رجلاً مثل (لسان الدين بن الخطيب) الوزير الاندلسيُّ البارع في السياسة والادب كان يجهل من هذا ما علمهُ ابن خلدون ، بل أرجح الظنّ عندي أن (لسان الدين) كان على شرف من هذا العلم يكاد يفوق به صديقه ابن خلدون الا ان ما تهيأ لابن خلدون من البلاغة التي لا صنعة فيها ومن دقة العبارة ومن جودة القياس ، ومن براعة الافصاح عمّا يترجرج في نفسه وضميرهِ — لم يتهيأ — للسان الدين بن الخطيب فقد كان هذا شاعراً كاتباً بليغاً على أسلوبٍ غير هذا الذي كان لابن خلدون ، ولم يكن لسان الدين بأقل من ابن خلدون في إشراق الفهم ورحب الادراك ولكنه كان أقلّ منهُ في القياس بين النظائر التي كانت تحدث لهُ وهو وزير الدولة أو التي كانت تجدُّ في الجوّ السياسيّ المتلبّد بغيوم من الدسائس والفتن والاهوال الرائحة الغادية على الدولة وأهلها

نقل الاستاذ عنان ، قول جمبلوفتش « لقد اردنا ان ندلّل على انه قبل اوجست كونت ، بل قبل ڤيكو الذي اراد الايطاليون ان يجعلوا منهُ اول اجتماعيّ اوربيّ ، جاء مسلم تقيٌّ فدرس الظواهر الاجتماعية بعقل متزن ، واتى في هذا الموضوع بآراءٍ عميقة وما كتبه هو ما نسميه اليوم علم الاجتماع » واستوقفتني هذه الكلمات زمناً طويلاً ترامى فيهِ الفكر ، واستيقظ في القلب ذلك الاحساس بالظلم والغبن والتجاهل الذي لقيه الفكر العربيّ في هذه الازمان وما قبلها

ان القرآن نزل على رسول الله صلى الله عليهِ وسلم وحياً لا شكَّ فيهِ ، بآيات بيّنات فيها حاجة الانسان المدنيّ العامل الظافر بالسعادتين في الدنيا والآخرة ، وكان هذا القرآن مادّة العلم العربيّ على القرون ومنهُ استقى ابن خلدون وغير ابن خلدون من علماء هذه الامة الاسلامية ومنه خرج التشريع العظيم الذي ملأ الارض عدلاً وكان منهُ ما نسميه علمُ الفقه . ففي هذا العلم تجد علم الاجتماع مفرّقاً في مسائله وأحكامه ، ومن رجع الى كتب الأئمة (المتقدمين خاصة) وجدَ من أُسس علم الاجتماع ما لا يدعُ شكّاً في نفس احد من ان ابن خلدون انما استخرج اسسه (وأسس غيره مما أتى به في مقدمته) من هذا المورد الذي لا ينفد . ولا بدَّ من ان نقول ان القرآن اتى بأسس هذه العلوم مختصرة غير مفصلة وان الرسول في حديثه بيّن بعضها وترك بعضاً للفكر الانساني لئلاَّ يضيقَ وينحصرَ ويخمد اذا اتاهُ بالتفاصيل كلّها . هذا وليس من المعقول ان يوحيَ الله الى رسولٍ من رسله بكلِّ شؤون الحياة مفصلة ولئن فعل ، فمن ذا الذي يحفظها ، كما حفظ القرآن والحديث ؟ !

من العلوم الاسلامية علم مجهول لا تجد فيه الا كتباً قلائل مما نجا من عبث الأيام وجهل علماء المتأخرين بقدره وخطره ، ذلك هو علم (القواعد) الّف فيه كثير من الأئمة ، وخير ما أُلِّف فيه كتاب القواعد (للعزّ بن عبد السلام) وكتاب (ابن رجب) . ففي هذا العلم تجد من روائع الفكر العربي في علوم الاجتماع والحياة ما يبهرك ويفتنك، وارجو ان اوفق قريباً الى كتابة كلمات عن هذا في هذه المجلة

هذا وحقٌّ كتاب الاستاذ عنان اكثر من هذه الكلمة ، لانهُ بذل فيه من الجهد في المراجعة والتثبُّت والنظر ما عهد فيه ، ولولا ان احدنا اذا امسك قلمه للكتابة انفتحت له الابواب من كلٍ ناحية ، وتطلب كل باب منها مقالة او اكثر لتركنا النفس على غلوائها ، وعرضنا للقارىء تفصيلاً لما اوجز الاستاذ عنان ، ووقفنا عند كلّ ما يثير في النفس افكارها وآراءها وخيالها وآلامها من الظلم والغبن والتجاهل التي نزلت بالفكر العربي

٢ — قلب جزيرة العرب

تأليف «فؤاد حمزة» المطبعة السلفية ومكتبتها سنة ١٣٥٢ — سنة ١٩٣٣

قام كثير من الاعاجم الاوربيين ، وجاسوا خلال الجزيرة العربية ، ودرسوا — على قدر ما وفقوا اليهِ — أمر هذه البلاد ، وألّفوا في ذلك كتباً كثيرة تشهد لهم بالفضل والبراعة والسبق الى ما تأخرعنهُ ابناء هذه البلاد وأحبَّاؤها من احفادها الذين رحل اجدادهم منها الى بقية البلاد التي تنطق بالعربية الآن كمصر والشام والمغرب وغيرها. وقد وضع بعض العرب كتباً عن الجزيرة العربية الاَّ انها لاتفي بحاجة الامم العربية المتباعدة، ولا تكشف لهم عن سرّ هذه الجزيرة، ولاتقوم صلةً بينهم وبينها

وقد اثار هذا الاستاذ فؤاد حمزة لتأليف كتابهِ (قلب جزيرة العرب) على أتمّ ما رأى من طريقة لتعريف ابناءِ العربية ببلاد العربية، والاستاذ فؤاد اقرب من ننتظر منهُ الاجادة في غرض كهذا لانهُ عربيٌّ يخاص لهذه البلاد ، ثم لانهُ قد سلخ اعواماً طوالاً في قلب الجزيرة (بلاد نجد) وفي الحجاز الذي فاء الى حكم ابن سعود النجدي، ثم هو قد تقلَّب على رمالها كما تقلب في سياستها وأمور دولتها . فاذا كتب في حال هذه الجزيرة في ايامنا هذه كان اقرب الى الاجادة ممن يدخلها سائحاً يخرج منها كاتباً او مؤلفاً

وقد بدأ كتابه بذكر طبيعة الارض العربية ، وتكوينها الجيولوجي وما في هذه البلاد من انهار وبحيرات وغير ذلك من سهولها وجبالها وجوّها وامطارها وسيولها الكثيرة . وهذا بابٌ واسع جدًّا كان على المؤلف ان يستوفيه لولا ما في ذلك من المشقة والتعنت، والحاجة التي لا تتمُّ من الآلات الحديثة التي يصعب نقلها واستعمالها ، وبخاصة اذا كان الذي يقوم بذلك فرد برأسهِ لا أعوان له ولا أنصار . وقد كان من الفرض على الامم العربية ان تتعاون على ذلك ، الاَّ ان المآرب السياسية قد عاقت ذلك واخَّرته الى اجل نسأل الله ان لا يجعله بعيداً . ثم اتبع هذا بالكلام على الحالة الاجتماعية في الجزيرة ، وهذا كسابقه مما لا بدَّ لهُ من التوسع حتى يقع في مجلدات ولكن المؤلف اوجزه على خير ما يكون الايجاز وعرض فيه للقارىء أهم ما يفكر فيه أو يخطر على باله واجاد في ذلك اجادة الخبير الذي شاهدَ وسمعَ وفهمَ كلَّ ما شاهدَ وما سمع بعين عربية واذن عربية وقلب

عربيّ ، ونقول ذلك لان كثيراً ممن كتبَ من الاعاجم انما رأى بعين أعجمية وسمع بأذن أعجمية وتلقف ذلك بقلب أعجميّ حتى كثر الخطأ في كلامهم ، ثم لان السياسة كان لها يد ورجل ايضاً فيا كتبوا ودوّنوا من شؤون هذه البلاد الاجتماعية والسياسية

ويلي هذين البابين ، باب قد استكمل بهِ المؤلف نقصاً كبيراً في فرع من علوم العرب ألا وهو « الانساب » . فان علم الانساب (انساب القبائل وغيرها) كان من اهم ما امتازت بهِ الامة العربية ، وقد ألف المتقدمون في ذلك الكتب المطوّلة ، واستقصوا فيها انساب العرب قبيلةً قبيلة وبطناً بطناً وفخذاً فخذاً ولم يتركوا صغيراً ولا كبيراً في هذا الباب الاّ ذكروه ، ففي هذا الباب حشد المؤلف ما في الجزيرة الآن من القبائل وفروعها على قدر ما اتيح لهُ ، وتوفّق لذلك من اهل البلاد وعلماء الانساب فيها وردّ ما استطاع من هذه القبائل الى اصولها من القبائل العربية الاولى ، وبذلك وصل بين هوّتين في تاريخ النسب العربيّ ، وكان اسبق من اخرج للناس هذه الانساب التي اهملها مؤرخو هذا العصر . فلما انتهى المؤلف من التعريف بالقبائل التي تسكن البادية العربية الآن اوجز تاريخ الحكم الذي مرّ بهذه الجزيرة حتى انتهى الى الدولة القائمة الآن — دولة عبد العزيز بن السعود وآله

هذه ترجمة ما في الكتاب من العلم ، وبقي علينا ان نقول الكلمة في قدر هذا الكتاب وغيره من الكتب التي من بابته . فالأمم العربية الآن تمزقها السياسة الاستعمارية التي تتولى كبرها وتحمل اوزارها امم الاعاجم من الاوربيين . وقد بلغوا منا مبلغاً عظيماً في التمزيق والتفريق بالدسائس حيناً وبالتعليم الفاسد حيناً ، وبالنكبة القاصمة التي تدفّق علينا سيلها وسماها الناس الجنسيات وتهافتوا عليها كما يتهافت الفراش على حتفه من النار . ولا بدّ للامم العربية فيما بين الصين الى اقاصي الغرب أن تعلم ان الجنسيات فتنة لا يراد بها الا الشرّ للعرب اولاً وللشرق الغني ثانياً ، وان تعلم ان حياتها في النصرة والتعاون والتآزر ، وان تعلم ان لا حياة لواحدة منها ما دامت الاخرى لا تزال على (المشنقة) الاستعمارية ، وان تعلم ان لا سبيل الى الحرية الاّ بالعلم الانسانيّ الذي يتلقفهُ قلبٌ عربيٌّ ليبقى عربيًّا لا ليتحوّل من عربيتهِ الى ارجوحة بين العربية والاعجمية . وما من سبيل الى ذلك الاّ بايقاظ الاحساس العربيّ في كل قلب ، وعقد الآمال على المادة العربية والمجد العربي ، وما من سبيل الى ايقاظ هذا الاحساس إلا بالتعارف والتكاشف ، وسبيل التعارف الآن هي هذه الكتب التي تكشف للعرب عن خفايا بلادهم وتصل ما تقطّع من اواصرهم بالمعرفة وفي المعرفة المحبة ، وفي المحبة التآلف ، وفي التآلف التناصر ، وفي التناصر الحرية والاستقلال

وهذه الجزيرة العربية — على ما فيها من الضعف — هي مادة هذا التناصر ، وهي مهوى قلوب الامم العربية والاسلامية وهي معقدُ الآمال ، وهي حِصنُ العرب واليها تحشد القوى الاعجمية وتدبر الدسائس ، وفيها تلقى الفتن ، وتوقد نيرانُ العداوة بين اهليها . . . لأن الاعاجم الاوربيين يعلمون من ذلك ما يتجاهله ابناء العربية أو ما يتورطون في تجاهله وانكاره . فعمل الامم الناطقة بالعربية على التعارف والتكاشف هو عملها الى الحرية والمجد والظفر بالاماني والآمال

محمود محمد شاكر

دائرة المعارف الاسلامية

ينقلها الى العربية — محمد ثابت الفندي — احمد الشنتناوي — ابرهيم زكي خورشيد — عبد الحميد يونس
عنوان ادارتها ٢٣ شارع قصر النيل بمصر

« الحضارة الاسلامية وليدة البعثة النبوية . . . مثّلت فيها مثّلت حضارات اليونان والروم والفرس . وشملت اُمماً مختلفة الامزجة والطبائع ، فلم تكن حضارة العرب فحسب وانما كانت حضارة الامم الاسلامية جميعها ، او قل هي حضارة العصور الوسطى التي ربطت العلم القديم بالعلم الحديث . ولقد اهتم العالم الحديث اهتماماً خاصًّا بالدور التي لعبته تلك الحضارة (كنا نفضل لو قيل . . . « بما كان لتلك الحضارة من الشأن والاثر ») فأكبَّ فريق من علماء الغرب « المستشرقين » على دراسة تراث تلك الحضارة العظيمة بما فيها من دينٍ سمحٍ رضيٍّ كريم ، ومن لغة غنية بمفرداتها ، مرنة باشتقاقاتها ، جميلة برسم حروفها ، ومن ادب يصور نبضات القلوب وخلجات النفوس ونجوى الضمائر ، ومن تصوّف وفناء في التأمل ، ومن فلسفة بلغت الغاية في عمقها وشمولها . ومن حكم وتشريع لم تصل الانسانية بعد الى خير منهما . وقد اذاعوا دراساتهم في كتب عدَّة ومجلاَّت خاصة ، ثم رأوا من بداية هذا القرن ان يجمعوا خلاصة ابحاثهم في كتاب جامع يتبعون فيه منهج القواميس والمعاجم ، فكتبوا « دائرة المعارف الاسلامية » (او دائرة معارف الاسلام ؟) باللغات الاوربية الكبرى — الانكليزية والفرنسية والالمانية — وهنا نحن نتقدم بترجمتها الى قرَّاء اللغة العربية »

وقد اختمرت فكرة ترجمة هذه الدائرة في رؤوس طائفة من شباننا النجباء ، من نحو ثلاثة اعوام فعكفوا على دراسة المشروع من جميع نواحيه وألمّوا بكل الصعوبات المادية والمعنوية التي كثيراً ما تعترض الاعمال العلمية والادبية .... ولكنهم اقدموا وجردوا العزم للقيام بالعمل وقد صدر الجزء الاول والجزء الثاني من نتاج عملهم فنهنئهم بالتفكير فيه اولاً والاقدام عليه ثانية

وغنيٌّ عن البيان ان هذا العمل يصطدم بمصاعب شتى لعلَّ أهمها صعوبة الترجمة ترجمة دقيقة في موضوعات لا بدَّ فيها من الاطلاع على ما كتبهُ علماء الاسلام وفلاسفتهُ وما اكثرهُ ، حتى تستقيم العبارة مع ما كتبوه ، وتأتي الالفاظ في اماكنها . وقد أشار بعض النقاد الى ما يعتور الجزء الاول من النقص في هذه الناحية . وليس هذا مجال العودة الى ذكرهِ ، وانما نعلم ان الادباء القائمين على اتمام هذا العمل الخطير ، يطلبون الحقيقة ، ويرحبون بالنقد ، لانهم يبغون ان يجيء عملهم اقرب ما يكون الى التمام . وقد راجعنا بعض ما جاء في الجزء الثاني على الاصل الانكليزي فرأيناهُ وافياً بالمرام بوجهٍ عام

وقد أشار احد الكتَّاب كذلك ، الى وجوب التعليق على كتابات المستشرقين ، بما يقوّم معوجَّها في بعض النواحي ، لان المستشرقين ، بلغت ما بلغت معرفتهم للغة العربية ، وفلسفة الاسلام ، لا بدَّ

ان تفوتهم اشياء ، او هم قد يتأثرون ببعض الوان الدعاية الغربية ، فينساقون مع التيار، ويشطون عن الحقيقة . وهذا التعليق قد يكون متعذّراً على القائمين بعمل الترجمة والنشر وهو بحدّ ذاته جهد عظيم ، ولكن ذلك لا يمنع ان تعهد لجنة ترجمة الدائرة الى نفر من علماءِ الاسلام على رأسهم الأمير شكيب ارسلان ، في وضع التعليقات اللازمة ونشرها جنباً الى جنب مع اجزاءِ الدائرة ، — قل مثلاً جزءًا من التعليق لكل خمسة اجزاءٍ من الدائرة كي تظهر في ثوبها العربي

والجزآن اللذان بين أيدينا مطبوعان طبعاً متقناً على ورق جيد، وحبَّذا لو عنيت اللجنة باختيار حرف اسود ، لعنوانات الفقرات حتى يستطيع القارئ ان يميزها من دون عناءٍ

١ — مطبوعات جامعة بيروت الاميركية

A Post-War Bibliography of the New Eastern Mandates

أحسنت دائرة علوم الاجتماع في كلية الآداب والعلوم بجامعة بيروت الاميركية في اخراج هذا السفر النفيس . فالبحث العلمي يقتضي معرفة الحقائق . والتوصُّل الى الحقيقة لايتمُّ الاَّ عن طريق المقابلة والموازنة بين الآراءِ . واذاً فالباحث يحتاج الى الاطلاع على المراجع التي بسطت فيها هذه الآراء ، سواءٌ أكانت مقالات في الصحف اليومية والمجلات ، او كتباً ورسائل طبعت ونشرت على حدة . لذلك عنَّ لطائفة من الاساتذة الذين عيّنوا حديثاً في جامعة بيروت الاميركية ان يجمعوا هذه المراجع ، الخاصة بسورية والعراق وفلسطين وشمال الجزيرة العربية ، مبتدئين من يوم الهدنة — ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ — الى آخر سنة ١٩٢٩ وهم ينوون ان ينقحوا المجموعة كل خمس سنوات لذلك يتوقعون من العلماءِ الباحثين ، ان يبيّنوا لهم ما وقع في المجموعة الاولى من نقص او خطإٍ لان غرضهم الحقيقة قبل كل شيءٍ . وقد جمعوا كل ما تمكنوا من العثور عليهِ في اللغات الآتية ، الفرنسية والانكليزية والالمانية والهولاندية والايطالية واللاتينية والعربية والعبرية والارمنية والتركية والفارسية والسريانية والكردية . وهم لا يدّعون انهم جمعوا كل ما كتب وبوّبوه، ولكنهم لم يدّخروا وسعاً في تحقيق الغرض الذي وضعوهُ نصب عيونهم . اما الموضوعات التي جمعوا مراجعها فهي المباحث التي تتناولها العلوم الاجتماعية بوجهٍ عام كالحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، بل انهم لم يهملوا الدين وعلم الاجناس والتربية والجغرافية البشرية وعلم النفس وتراجم الافذاذ ، وعهدوا الى الاستاذ ستيورت دُدّ Dodd استاذ علم الاجتماع المساعد في الجامعة ، ليشرف على اخراج هذه المجموعة

***

اهدت الينا الجامعة النسخ الانكليزية والايطالية والعبرية من هذه المجموعة النفيسة ، ففتحنا المجموعة الانكليزية اتفاقاً عند الصفحة ٦٩ من فهرس الكتاب فرأينا ذكر مقالة للمستر مورغنتو سفير اميركا في الاستانة سابقاً عنوانها «الصهيونية : تسليم لا حلٌّ » نشرت سنة ١٩٢١ في مجلة عمل العالم

في الولايات المتحدة وانكلترا . ورأينا ذكر مقالة للمستر (؟) مُس عنوانهُ «اليهود واليهودية في تدمر» ظهرت سنة ١٩٢٨ في نشرة البحث الاثري الفلسطيني . وعلى هذا النمط تجد مئات بل الوف المقالات والرسائل والكتب التي نشرت في اللغة المذكورة وتعالج ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية في الشرق الادنى . والمجموعة مرتبة اولاً بحسب أسماء الكتّاب وثانياً بحسب الموضوعات

٢ — الاصول العربية لتاريخ سورية

في عهد محمد علي

توفَّر الدكتور اسد رستم استاذ التاريخ الشرقي في جامعة بيروت الاميركية ، على دراسة تاريخ الشرق الادنى في عهد محمـد علي ، وقضى السنين الطوال في البحث والتنقيب ، وانفق المال في اقتناء الكتب النادرة والرسائل المخطوطة . وقد شرع من بضع سنوات في نشر ما دعاه « الاصول العربية لتاريخ سوريا في عهد محمد علي» وهذا هو المجلد الخامس وهو يحتوي على الاوراق السياسية لسنة ١٢٥٦ هجرية والى القارىء مثالاً من هذه الاوراق يتبين منها اسلوب الكتابة في ذلك العصر وناحية من نواحي الموضوعات التي تبسطها هذه الاوراق ولا بدَّ منها مادَّة للمؤرخين : —

فقدان الامن بضواحي بيروت

غاية ربيع الاول سنة ١٢٥٦

الامير محمود ناجي والقنصل مور . ١٦×٢٣ س . من الورق الصكوكي الرقيق . وهو محفوظ في دار القنصلية البريطانية في بيروت وعلى ظهره كلمة circular بالانكليزية

الجناب الاكرم حضرة المحب الأجل المحترم قونسلوس بك دولة الانكليز المحتشم حفظه الله تعالى ليس خافي محبتكم الحال الواقع من ظهود خروج بعض اشقيا من رعايا جبل لبنان كما هو المسموع والمحسوس بالقرب من هذه الناحية ومن جرآ ذلك رعايا بيروت من اسلام وذميون سكنا البريه متحسبين وعمال ينزلوا عفشهم الي البلده والبعض نزلوا من محلاتهم الي البلده فبحيث الحالة هذه وللمحافظة المامورين بها واحتراساً لامرٍ ما مآ اقتضى التنبيه بان كافة البوابات تقفل اذآن المغرب وبالاذن يصير فتح بوابة السراي الي حد العشآ فقط وبعد اذآن العشا المتقدم شرحه ما في رخصه لفتح البوابه كلياً بل الذي يكون داخل البلده يقفل بها كما والذي خارج البلده ايضاً وحيث ذلك عايد لراحة الضمير ولاجل المحافظه المامورين بها اقتضي افادة محبتكم بذلك والله تعالى يحفظكم

غاية ر ١ سنة ٢٥٦ الختم مير محمود محافظ بيروت

فن الصحة

الجزء الثاني — الصحة الاجتماعية — تأليف الطبيب احمد حمدي الخياط — استاذ فن الجراثيم وعلم الصحة — في المعهد الطبي العربي بدمشق

كان الجزء الاول من هذا السفر المفيد ، يشتمل على قواعد الصحة البدنية ، عالج فيه المؤلف البيئة الصحية ، كالارض والهواء والماء والغذاء والمسكن والملبس ، ثم عرض لصحة الاجهزة البدنية : كصحة الجلد وصحة اعضاء الحركة وصحة جهاز التنفس وصحة اجهزة الدوران والهضم والاعصاب

فالجزء الثاني الذي بين ايدينا ، متمم للجزء الاول ، ومن اقتنى ذلك لا يستغني عن هذا . وقد قال في فاتحته : — يختص هذا القسم بالبحث عن القواعد الصحية التي لها علاقة بالحياة الاجتماعية اكثر من الحياة الفردية كالبحث في صحة الوليد ، والتربية والتعليم والمدارس والمشافي (المستشفيات) وسبل الوقاية من الامراض السارية او الاجتماعية» . والى القارىء كلمة في المقابر ، افتتح بها الفصل الخاص بموضوع دفن الموتى ، ونواحيه الصحية والعلمية . قال :

«القبر هو الحفرة التي تلقى فيها جثة الانسان بعد موته . ومهما تكن اسباب الوفاة فالاحتياطات الواجب اخذها لتحديد انتشار الضرر منهُ مهمة وضرورية جداً . وقد جرت العادة ، منذ الازمان القديمة ، للتخلص من كل ضرر يحتمل وقوعه من شلو الانسان بعد تركه الحياة ، ان يدفن في الارض في حفرة بعيدة عن كل اتصال بسطحها ، حيث يكون عرضة للتحلل والتفسخ بتأثير الجراثيم المتنوعة ، فيصبح بعد قليل من الزمن او كثير ، هباء ويعود تراباً ، أي كما بدأ يعود ، كأن لم يكن شيئاً

«ولا بد لحسن جريان هذا التفسخ والتحلل ، لحصول الفناء بصورة معتدلة او سريعة ، من النظر في جبلة الارض المعدة للدفن وكثرة رطوبتها او قلتها ، او خلوها منها البتة ، لما في ذلك من التأثير الكلي في تعجيل الفناء او تأخيره كما يأتي بيانه . كما انهُ لا بد لتمام الفائدة من ذلك وجودة الوقاية وحفظ الصحة أن ينظر في احوال مياه تلك الارض او رطوبتها او اتصالها بمياه بعض المدن او عدمه ، وملاحظة هوائها وانتشاره في جو المدينة وما يتبع ذلك ، ثم العناية بنقل الاموات ودفنها حرصاً على الصحة العامة ووقاية لها من ضرر تلك الاشلاء إلى أن يواريها التراب »

والجزء الثاني ابوابهُ منسقة احسن تنسيق ، اولها باب صحة الوليد ، وقد عرض فيهِ لتلقي الوليد عند ولادتهِ ومهدهِ ولباسهِ وتغذيتهِ ونظافتهِ واسنانه وتلقيحهِ ضدَّ الجدري . اما الباب الثاني فوقفهُ على بحث التربية والتعليم من وجوههما الصحية ، وفي هذا الباب شيءٌ من علم النفس المطبَّق . اما النبذة التي كتبها عن المدارس فيجب ان تكتب بماءِ الذهب وتوضع في كل وزارات المعارف في الشرق .

ويتناول في البابين الرابع والخامس ، المستشفيات والمقابر . ثم عرض لسبل الوقاية من الامراض بوجهٍ عام كالعزل والتطهير وابادة الحشرات والجرذان . ثم فصَّل ذلك في الفصل الذي يليهِ ، كل مرض على حدة ، كالجدري والحصبة والحمى القرمزية وغيرها — من الامراض السارية — والادواءِ الزهرية على اختلافها من الامراض الاجتماعية

روائع من قصص الغرب

نقلها كامل كيلاني — نشرتها مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر — صفحاتها ٥٧٦ قطع متوسط

قال الناقل في مقدمته :

« هذي طباع الناس معروضة فخالطوا العالم او فارقوا »

« هكذا يقول شيخ المعرّة ابو العلاء . وليست القصص الاّ معرضاً رائعاً تتمثل فيه الوان الحياة وجوانبها ومُثُلها العليا وخلجاتها الخفية المستسرَّة . وقد برع كتّاب الغرب وشعراؤهُ في هذا الفن براعة لا توصف ونقل الينا كثير من ادبائنا ومترجمينا روائع من قصصهم الخالد . ورأى الناس في هذه المائدة من الوان الغذاء الفكري ما بهر البابهم وسحر عقولهم فراحوا يطلبون المزيد من هذه الالوان المعجبة الشهية .... وقد توخيت في اختياري ، أن تجمع كل قصة من هذه المجموعة الى عمق الفكرة دقة والتحليل وسمو الغاية وبراعة الاداء ، كما توخيت ان اختار من روائع الغرب قصصاً انسانية عامة غير محلية ، وهذا القصص الانساني صالح لكل امة وفي كل زمن لانهُ لا يكاد يعرف بيئة بعينها »

القصة الاولى تمثيلية للكاتب الفرنسي جان سارمان Jean Sarment وعنوانها « صيّاد الخيال » ونحن لم نقرأ القصة بالفرنسية فلا نستطيع ان نهدي القارىء الى عنوانها بتلك اللغة . وانما تلخص فكرتها في قول شكسبير « انها قصة يرويها مخبول ، حافلة بالضجيج والصخب ، ثم هي بعد لا تعني شيئاً » . والرواية آية من آيات الادب الفرنسي في الدرامة العصرية ، ففيها شعرٌ وفيها اجتماع وفيها تحليل لنواحي النفس . اما الحوار — ولا يخفى عليك ان براعة الحوار سرٌّ من اسرار التأليف المسرحي — فيبلغ في بعض فصولها أعلى مراتب الابداع

ويلي ذلك اقصوصة لفرنسوى كوبيه — الفرنسي — عنوانها النافذة المنوّرة ، ثم مختارات ، من قصص ذلك القاصّ الايطالي البارع — العبقري في نظر طائفة كبيرة من النقاد — ونعني بوكاتشو . ويليها قصة « ممرّ الاغراء » لفولتير وانت تعلم ان فولتير من اساطين الاحرار الذين اثاروا بكتاباتهم الثورة الفرنسية ، وملأ عصرهُ بآثار فكرهِ الحرّ ، ونتاجهِ الخصب ، من علم وأدب وشعرٍ وقصص . ثم فصل من « ديدرو » زعيم الانسكلوبيذيين الفرنسيين . ويلي ذلك قصة كاملة بعنوان جورجينا تأليف الفرد سرڤن في نحو مائة صفحة فرواية تمثيلية اخرى تامة من تأليف بول إرڤييه عنوانها « القول يبقى » وهي من غرر الروايات المسرحية ، ومختارات من سرڤنتس وسوِفت وغيرهم من اعلام الادب الاوربي

فنشكر للناقل عنايتهُ بهذا النوع من الانتاج الادبي ، ونهنئ مطبعة عيسى البابي الحلبي ، بحسن اختيارها وشدّة عنايتها بنتاج القرائح المعاصرة ، جنباً الى جنبٍ مع عنايتها بمؤلفات الاقدمين

اطياف الربيع
وأبو شادي في الميزان

حالت اشغالنا دون مطالعة ديوان اطياف الربيع ، الذي أصدره الدكتور احمد زكي ابو شادي في منتصف الصيف الماضي ، ولكننا قرأنا محاضرة الاستاذ محمد عبد الغفور التي عنوانها «ابو شادي في الميزان » فأعجبنا فيها قولهُ صفحة ١٣ : «هنا شاعرية عجيبة متأججة ، اول مؤهلاتها الوراثة ثم الثقافة ، وتشمل الوراثة تكوينهُ العصبيَّ الحيَّ الذي لا يهدأ والذي تؤثر فيهِ اطياف الحياة تأثيراً قويًّا متواصلاً كما تؤثر فيهِ اخيلته وتصوّفه واحلامه وتجاريبه المتعددة ومطالعاتهُ الكثيرة وسياحاتهُ واحتكاكه بالناس ... » وقولهُ صفحة ١٥ : «واعدّ من مؤهلاتهِ كشاعرعظيم ، انسانيته العميقة وتسامحه الجميل الذي اعطانا شعراً انسانيًّا عالياً لا اثر للتصنّع فيهِ . ولولا انهُ يعيش في ذاتهِ كانسانٍ حسَّاسٍ كريم النفس لما كان من الميسور ان نظفر منهُ بكل هذا الشعر الانساني العالي الذي يفيض رحمة وصفاءً وحناناً» وقولهُ صفحة ١٦ : «. . . . رجل . . . . . يحب الحياة غاية الحبّ ويتذوق الاستمتاع بها نهاية التذوّق يتغنى بجمالها واوصافها البديعة . . الخ . وقد اجاد المحاضر عبد الغفور في اختيار مقطعات من شعر ابي شادي للتمثيل على الاغراض التي نظم فيها . وانما لا نوافقه على ان قصيدتهُ في المغفور لهُ الملك فيصل تنزل في المكانة التي اعدَّها لها المحاضر ، في ما قالهُ عنها صفحة ٤٤ . وفي المجموعة التي تحتوي على هذه المحاضرة بحث نفيس للاديب صالح جودت موضوعه « السخط على البيئة في شعر أبي شادي» وبحثان آخران للاديبين مختار الوكيل في « الاطياف في شعر أبي شادي»ومحمود احمد البطاح في « الشخصية في شعر أبي شادي »

ونكتفي الآن في الاشارة الى ديوان اطياف الربيع ، بقول خليل مطران في مقدمة الديوان

«قرأ ابوشادي الشعر عربيًّا فأشجاه ، وقرأه افرنجيًّا فأشجاه، وطالع التواريخ ومنها بخاصة اصول الادب الاغريقي ، وقارن بين متباين المذاهب في البيان . سواء اكانت تلك المذاهب خيالية وجدانية لا تعدو حكايات حالٍ عن النفس كما هي في لسان الضاد ، ام خيالية وجدانية موضوعية اساسُ الجمال فيها بناؤها على الحق او الواقع او ما يتشبه بهما كما هي في اللغات الافرنجية . وعلى اثر هذه المطالعات وجد ابو شادي في نفسه باعثاً شديداً على وجهة فنية جديدة يوليها شطره فأحدث في العربية شعراً سلساً بألفاظه ، قريب المأخذ بسهولته ، سليماً بلغته جهد ما تسعه المعاني العصرية متقيداً بأوزانه ولكن تقيد الموشك ان يعمد الى الافتكاك من كل ثقيل الكلفة فيها . وعمَّر ابيات منظوماته بمعان تاريخية متشعبة المصادر وصور جديدة من كل لون وضرب ، وافكار في الجمال آخذة من كل مأخذ شرقي او غربي

«وأبو شادي — بين اعماله الكثيرة الشاقة التي لا تضمها الآرابطة شغفه بالعلم والادب وأخذه بهما وتسخيره قواه الجمة لهما — يقول هذا الشعر في فضول من وقته ، ولكنه يجمع له كل عزيمة رأيه وكل بواعث وجدانه . يقوله بحرارة واقتناع . يقوله على ان البداهة تتناوله ، وان الناس

جدراء بأن يفهموه فهمه . يقوله مرسلاً ارسالاً ، وفي كل قصيدة صورة مستكملة لا بدَّ منها ، وكل صورة لها طرافتها وغرابتها وجزئياتها ، وفي هذه الجزئيات اشارات تاريخية ورموز اصطلاحية وفي هذا كله جملة وتفصيلاً لا يعنيه ان يكون من قرائه من لم يطالع الميثولوجيا او لم يتتبع ما نحا به الغربيون نحوها من اساطير الاسرائيلية القديمة والمسيحية الاولى ، ولا يعنيه ان تكون الاسماء الاعجمية في شعرنا مما تنبو به اسماعنا ، ولا يعنيه ان تكون طائفة من الالفاظ التي اتخذها من العربية قد نيطت بها معان هي غير معانيها في الاصل . معان لا تدرك مراميها الحديثة الاّ من طريق المقاربة او المقارنة بالمواضعات الاجنبية ، بل كل همه هو ان يبث بثه ويتقن مثاله ويبلغ شعوره الى ادنى خلجة من خلجات الحس فيهِ . ويضيف الى ذلك انهُ لا يرى عيباً في الوثبات يثبها في استعاراته الى ابعد مدى ، ولا يرى عيباً في بعض موازين الشعر يحرفها قليلاً او كثيراً لتكون من الجزالة او السهولة او الرنة الموسيقية بحيث يريد ، ولا في القوافي — وقد اتحد الحرف فيها — ان تلزم لزوماً لصيقاً ما اقره الجهابذة من مراعاة تجانس مخصوص فيها قبل الحرف . تجيش في نفسه الشودة فينشدها ، او تتجلى لعينه صورة فينقلها ، او تتدفق في ذهنه خواطر فيشق لها الانهار بشق قلمه السيال . وفي الكثير منها ابتكار عجيب وابداع مدهش ، وفي جوانب منها هنات من الاغراب في اللفظ او المعنى يراها هيّنات بجانب مأربه السامي الكبير»

النبي

تأليف جبران خليل جبران — ترجمة الارشمندريت انطونيوس بشير — طبع بالمطبعة العصرية بمصر

لما صدر كتاب النبي كتبنا عنهُ الكلمة الآتية : «هو خلاصة آرائهِ في الحب والموت والزواج والاولاد والهوى والعقل والفرح والالم والثياب والبيوت والصلاة والدين والقوانين والمعرفة وغير ذلك على لسان نبيّ سمّاهُ المصطفى . وكأنّنا بالمؤلف قضى حياتهُ يستعدُّ لاخراج هذا السفر النفيس فان كتبهُ السابقة من عربية و انكليزية ليست سوى مقدمات لما في هذا الكتاب من حكمة وفلسفة وشعرٍ وفنّ

«فلا نرى فيهِ جبران الثائر الذي تراهُ في « العواصف » ولا جبران الشاعر الذي تراهُ في « ايتها الارض » «وايها الليل » وغيرها ولا جبران المتألم في « لكم لبنانكم ولي لبناني » وفي صورة «وجه امي وجهُ امتي » ولا جبران المعلم الحكيم في « القشور واللباب » ولا جبران الرسّام الرمزي في جميع ما ابرزتهُ ريشتهُ الساحرة ولا جبران الخياليّ في « بين ليل وصباح » وفي « حفار القبور » بل ترى في هذا الكتاب جبران الذي هو مزيج من هذه العناصر جميعها بل هو خلاصتها المختارة . فانك لا تقرأ فصلاً من فصولهِ الا وترى امامك حكمة في خيال وفلسفة في بلاغة وجمالاً في فن واي فن ! انهُ جعل اللغة الانكليزية تنقاد لمرامهِ ولا كانقيادها لابنائها . وايّ جمال ! في تلك الرسوم البديعة « التي لا بدّ منها لا كمال الكتاب » فالصورة الاخيرة منها من اروع ما تصور بهِ القوة المدبرة التي وراءَ هذا الكون — يد تعمل وبصيرة ترى وحولها العوالم صنعها في حلقات متراكزة»

والترجمة التي بين ايدينا للارشمندريت انطونيوس بشير حسنة غير اننا كنا نفضل لو نشرت الصور التي رسمها جبران بريشته دون غيرها

ديوان زكي مبارك

لعلّ المقدمة التي كتبها الدكتور زكي مبارك خير ما يكتب في تحليل شعره ولا غرو، فقد تجرّد كناقدٍ من ذاتيتهِ، وعمد الى ما يعرفهُ عن نفسهِ — « اذ كنت اعرف بهِ من سواي » — فجعله اساساً لتلك النظرة النقدية التي انصف فيها نفسهُ وشعره . قال عن نفسهِ : « فان الشاعر نفسهُ يحدثنا في مواطن كثيرة من مؤلفاته الادبية والوجدانية بانهُ يجهل قلبهُ كلَّ الجهل » . واشار في الموضوع نفسه الى رسالة كان قد كتبها فقال فيها «واعيد عليك يا صديقي ان الازمة الباقية هي ازمة القلب . فقد فهمت كل شيءٍ وبقي قلبي كالغابة المجهولة في ضمير الظلماءِ» . وكلاهما قول شاعرٍ . ثم اشار في ظرف الى اول عهده بالشعر ، وكيف الهمتهُ اياهُ اولاً « بنية خفيفة الروح حلوة الحـديث » كانت تداعب قلبهُ المتفتح بالفاظ مطلولة تتمثل في هذه الكلمات «انت يا ولد عيونك خضر زي عيوني» . وقد ظلّت هذه الفتاة منية روحهِ الى ان اغارت الاقدار فسلطت عليها الموت فأهدى الديوان الى بقاياها في التراب اذ قال : « الى تلك الفتاة التي خفق لها القلب اول خفقة ، والتي قلت فيها اول قصيدة ، وسكبت عليها اول دمعة ، الى تلك الفتاة المنسية التي تنام في قبر مجهول تحت سماءِ سنتريس ... » ثم يمضي الشاعر في وصف الاطوار التي مرَّ فيها شعرهُ في الازهر ثم في الجامعة المصرية ثم ديار الغرب . ثم هو لا ينكر ان في اشعاره صدىً للاخيلة البدوية ، « وعذر صاحبنا انهُ حفظ في حداثته ثلاثين الف بيت من الشعر القديم » . وفيها «كذلك اسراف في النفرة من عبث الشباب اذ كان يجاهد نفسهُ وهواهُ جهاد الابطال» . اما «اشعاره الحديثة ففيها مرونة في التعبير، وفيها ترحيب بطيّبات الحياة وفيها احياناً دعوة الى موجبات النزق والطيش »

***

وانك لترحّب اذ تقرأ اشعار هذه المجموعة باشراق ديباجتها وجرسها ، والاجادة في اختيار الفاظها . قال في قصيدة الديوان الاولى

جَنَتْ عليَّ الليالي غير ظالمةٍ — اني لاهلٌ لما القاهُ من زمني
فما رأيت من الاخطار عادية — الا بنيتُ على اجوازها سكني
ولا لمحتُ من الآمال بارقة — الاَّ تقحمت ما تجتاز من قننِ
اصبتُ دنياي معنىً لا قرارَ لهُ — في ذمة المجد ما شردت من وسنِ

ومن غرر الديوان قصيدة «غريب في باريس» صفحة ١٠٨ وحبذا الحال لو لم يجعل اسم الديوان بالفرنسية Poèmes Erotiques لا لعيب في الاسم نفسهِ ، ولكن في عدم انطباقهِ على السمة الغالبة على قصائد الديوان ، وان كان في بعضها « ترحيب بطيّبات الحياة واحياناً دعوة الى موجبات النزق والطيش ».

فيصل

تأليف كريم ثابت — حبس ريعهُ لمنكوبي فلسطين — مطبعة المقطم

يمتاز هذا الكتاب بكونه يعالج ناحية خاصة من نواحي حياة الملك فيصل الحافلة بالاعمال فالمؤلف يروي ما عرفهُ بنفسه من اخلاقه وما خبره بذاته من آرائهِ في رحلاتهِ المتعددة وفي اجتماعاته بمختلف المناسبات ويدوّن ما سمعه من اقواله مما لم يتح لغيره من المؤلفين

فهو يحدثك في الصفحات الاولى عن مقابلته الاولى لجلالته في فندق شبرد سنة ١٩٢٠ وهو في طريقهِ الى العراق — وقد كان المؤلف طالباً في مدرسة — فيقول له وقد عرف انهُ يدرس اللغة العربية على استاذ خاص « بارك الله فيك ، ان من يتبرأ من لغة آبائهِ وأجداده يتبرأ آباؤه واجداده منهُ . ولا يؤلمني اكثر من ان بعض الشرقيين الذين يستحيون من لغتهم الاصلية ويتظاهرون بأنهم لا يستطيعون الاعراب عن افكارهم بها بوضوح وجلاء » فهو يلقي درساً بليغاً في المحافظة على القومية على بعض الشبان المتفرنجين» .ويحدثك في فصل آخر عن رحلة الملك المرحوم الى اوربا سنة ١٩٢٦ واجتماعهِ بجلالتهِ حين عودتهِ وقوله: «لقد أثرت مدنية سويسرا تأثيراً عظيماً في نفسي وثبت لي ان المدنية الحقيقية لا تكون بالقصور الشامخة والبنايات الفخمة وان الاستقلال الحقيقي لا يشيد الاّ على التعليم فالتعليم هو الركن الاكبر وحجر الزاوية لكل امة تبغي التقدم ، يجب علينا ان نتعلم حتى اذا تعلمنا تعين علينا ان نبني . ان ما شاهدتهُ في سويسرا ليس وليد يوم او شهر او سنة بل هو ثمرة جهود بذلها شعب نشيط في خلال عشرات من السنين . هنالك بنى الآباء للاولاد والاولاد للاحفاد فيجب علينا نحن ايضاً في الشرق ان نبني لاولادنا ويجب على اولادنا ان يبنوا للاحفاد»

ويحدثك في مكان آخر عن مرافقتهِ لجلالتهِ في رحلتهِ الى ايران سنة ١٩٣٢ فيروي ما قاله له في الاغراض التي رمى اليها من رحلتهِ تلك وهو « ان الغرض من رحلتي الى ايران هو رغبتي في توثيق اواصر الصداقة والمودة مع جارتنا فنحن نريد ان نعيش مع جميع جيراننا بصفاء ووئام . ان الدول لم تعد تفكر الآن الاّ في شيء واحد وهو تعزيز مرافقها الاقتصادية لكي تعيش ونحن نريد ان نعيش

ويتكلم في مكان آخر عن ذكرياته في خلال رحلته الى اوربا في الباخرة اسبيريا فيروي ما سمعه من جلالته عن رأيه في الحكم والحكام وعن الحياة في الشرق وقد قال « لنا نحن معشر الشرقيين في حياتنا العمومية عيبان الاول اننا لم نكن نهتم بتنظيم عملنا والثاني اننا كنا دائماً اذا فكرنا في مشروع جديد لا ننظر الاّ الى الصعاب التي يمكن ان تعترض تنفيذه ننظر اليها لا بعين الحكمة لتدبير الحلول اللازمة لتذليلها بل بعين التردد والتخاذل فنحجم عن الاقدام» . وجر الحديث الى تعليم المرأة فبسط جلالته رأيه بقوله « لا اريدها متعلمة ولكنني اريد ان تعرف كيف ترعى ولدها وكيف تجعل زوجها سعيداً هذا ما اريد ان تتعلمه الفتاة العراقية قبل كل شيء وهذا ما اعتقد انهُ لا مندوحة لكل فتاة عنه . اما كيف تختار ملابسها وكيف تتكلم في المجالس فهذا من الكماليات التي اتركها للاغنياء وهم احرار فيها اما التعليم النسائي العام عندنا فسيكون قائماً على الاساس الذي قلته»

امير الصعيد

امر ملكي

نحن فؤاد الاول ملك مصر

بعد الاطلاع على القانون رقم ٣٥ لسنة ١٩٣٣ الخاص بوضع نظام الاسرة المالكة

ونظراً لاستحسان نسبة امارة ولي عهدنا الى اقليم تضاف اليهِ تنويهاً بمكانهِ بين امراء الاسرة المالكة

امرنا بما هو آت :

١ — يطلق على ولي عهدنا الامير فاروق لقب « امير الصعيد »

٢ — على رئيس ديواننا بالنيابة تنفيذ امرنا هذا

صدر بسراي عابدين في ٢٤ شعبان سنة ١٣٥٢ — ١٢ ديسمبر سنة ١٩٣٣

« فؤاد »

توراة سينا وشيء عنها

في التلغرافات العامة ان المتحف البريطاني اشترى بواسطة الحكومة البريطانية وبمساعدتها المالية التوراة المشهورة باسم (كودكس سيناتيكس) او الكتاب السينائي وهي اقدم مخطوطة وجدت للكتاب المقدس باللغة اليونانية ولا يفوقها في القدم والشهرة سوى المخطوطة الفاتيكانية المعروفة «بكودكس ڤاتيكانوس» وهي باللغة اليونانية ايضاً

وقد عثر على المخطوطة الاولى المسيو تسخندورف في دير القديسة كاترينا بسيناء في سنة ١٨٤٤ واشتراها قيصر الروس في سنة ١٨٦٩ وهي مكتوبة على ورق رفيع في اعمدة كل أربعة منها في صفحة وكانت تتألف في الاصل من العهد القديم والعهد الجديد اي الأناجيل الاربعة ورسائل الرسل وهي كاملة وفي آخرها رسالة الرسول برنابا ورسالة راعي هرماس ولكنهما غير كاملتين والمرجح انه كان بينهما مخطوطة اخرى فقدت تماماً

ومن رأي تسخندورف ان هذه المخطوطة نسخها اربعة كتاب في القرن الرابع من التاريخ المسيحي وقد وجد بمقابلة هذه المخطوطة بالمخطوطة الفاتيكانية ان احد هؤلاء الكتاب الاربعة هو الذي سبق ان نسخ المخطوطة الاخرى (الفاتيكانية)

واصل المخطوطة السينائية مصحح في عدة اماكن والمرجح ان التصحيح عمل في القرنين السادس والسابع وقد قال المصحح في آخر سفر استير انه اعتمد في هذا التصحيح على نسخة قديمة كتبها بامفيليوس مؤسس مكتبة قيصرية بفلسطين

ويظن ان هذه التوراة كانت في الاصل في مكتبة قيصرية ولكن آخرين يذهبون الى انها كانت في الاسكندرية . اما الرأي الاول فيدعمه ما اثبته المصحح في آخر سفري استير وعزرا من انه صحح التصحيح في مكتبة قيصرية وان تقسيم اصحاحات اعمال الرسل يمكن رده الى تلك المكتبة اما الرأي الثاني فيعززه امران : الاول

ان خط احد نساخ التوراة الاربعة مماثل كل المماثلة لشكل الخط القبطي اليوناني الموجود في البردي. والثاني ان تبويب رسائل بولس الرسول هو على المنوال الذي وضعهُ القديس اثناسيوس الاسكندري

جامعة استانبول الجديدة

في الوقت الذي احدث فيه الترك انقلاباً من جهة الفن بعنايتهم بالفن البيزنطي في جامع ايا صوفيا احدثوا انقلاباً آخر من جهة العلم فاسسوا جامعة جديدة وتحولوا بجملتهم الى علوم الغرب الوضعية والعملية وقطعوا صلتهم بعلوم الاسلام . وعدلوا عن اضافة « معهد الدراسات الاسلامية » الى جامعتهم كما كان مقترحاً عليهم في اول الامر وقرروا ان لا يدرس الفقه الاسلامي في جامعتهم اما اللغات الشرقية فيكون تعلمها اختيارياً في معهد اللغات القديمة وأدبياتها

وقد يكون السبب في حذف العلوم الدينية من جامعة استانبول الجديدة هو علم الترك بان هذه العلوم تدرس على وجه اكمل من ذلك في جامعة اسلامية قديمة مخصصة لها وهي الجامعة الازهرية في مصر وعدم استطاعة الترك انشاء جامعة تنافسها في استعدادها ولكن هناك سبباً آخر على ما يقال وهو ان الحكومة التركية تعتقد ان التخصص في العلوم الدينية لا يطابق حالة العصر المتجه الى اقتباس علوم الغرب . وان العلوم الوضعية هي التي كانت سبب ما بلغهُ الغرب من التقدم فيجب ان تكون هي اساس التعليم في تركيا

وكان لا بدَّ لتركيا ان تدعو عدداً كبيراً من علماء الغرب وأساتذته للتدريس في هذه الجامعة لتكون قادرة على تأدية المهمة التي انشئت لاجلها فماذا تفعل لتحقيق هذه الغاية ؟

لم يكن المرجح ان تستطيع انقرة اجتذاب رجال من المشهورين الذين يشار اليهم بالبنان من الاوساط العلمية الاوربية واقناعهم بالمجيء الى تركيا لان البلاد بعيدة. ولان الوسط العلمي فيها متأخر . ولان الكاتب الفرنسوي بيار لوتي ومن على شاكلته من الكتَّاب وصفوا تركيا وصفاً قصصيًّا ونسبوا اليها اموراً خيالية . اضف الى ذلك ان لغتها صعبة وتحتاج الى دراسة خاصة الى غير ذلك من العقبات التي يتعذر معها تزويد جامعتهم بهيئة ذات كفاءة ومقدرة من علماء الغرب

غير ان ما حدث في المانيا من الانقلاب غيَّر الظنون وذلل العقبات وجعل عدداً كبيراً من كبار العلماء اليهود يبحثون لهم عن عمل او عن مناصب علمية في بلدان اخرى تعوضهم من المناصب التي نزعت من ايديهم في المانيا او التي كان ينتظر ان تؤخذ منهم عملاً بما ترمي اليه الحملة على اليهود هناك

ففي اثناء هذا الانقلاب الالماني كان الترك يؤسسون جامعتهم ويؤثثونها فلم تشعر حكومة انقرة الاَّ وقد تقدمت اليها طلبات عدة من علماء المان من اليهود كانوا اساتذة في جامعات المانية ورغبوا الى تركيا في ان تسند اليهم عملاً فيها فاغتنمت هذه الفرصة التي سنحت لها ومن المائة والخمسين منصباً التي تحتاج اليها الجامعة اسندت ٣٨ الى علماء اجانب عينتهم في كراسي التعليم الرئيسية في المعهد الجديد . ومن هؤلاء اثنان وثلاثون عالماً من الالمان والجانب الاكبر منهم

من الجنسية اليهودية وخمسة من العلماء الفرنسيين وكان الاولون يدرسون في جامعات برلين وبينا ومونستر وفرنكفورت وجوتنجن وكولوني ومربورج وبرسلاو وغيرها. ومنهم استاذ الفلك وكان من علماء مرصد بوتسدام

وسيتولى هؤلاء الاساتذة المثقفون باحدث اساليب العلوم الوضعية الغربية — تدريس الكيمياء والبكتريولوجيا والنبات والطبيعة العملية والفلك والنباتات الطبية والهندسة الكهربائية والصحة والجراحة وهي علوم يجيد الالمان تدريسها وهم خير العلماء المتضلعين منها

وستدرس في جامعة استانبول ايضاً العلوم البشرية الآتية وهي علم الاجتماع والتاريخ والاقتصاد والفلسفة والرياضيات واللغة اللاتينية وادبياتها والحقوق . وهذا العلم الاخير يقبل عليه الطلبة الترك كثيراً فان من ١٨٠٠ طالب في الجامعة يتعلمه ٥٠٠

ولا شك في ان حكومة انقرة لم تنجح في اقناع هؤلاء العلماء بالمجيء الى تركيا الاَّ بعد ما أغرتهم بالرواتب الحسنة فقد عينت لكل منهم راتباً قدره ٤٠٠ ليرة تركية في الشهر أي نحو ٧٥ جنيهاً انكليزيًّا في حين يتقاضى الاستاذ من الترك ٣٠٠ ليرة او نحو ٤٠ جنيهاً. وقد تعاقدت معهم على التدريس مدة خمس سنوات وتعهدت لهم باعداد ما يحتاجون اليه من معامل الكيمياء والطبيعة ولم تبخل الحكومة التركية بشيء في اعداد هذه المعامل بل جهزتها بجميع الآلات والادوات العلمية وبلغ ما خصصته للانفاق على اتمام مباني الجامعة وللمعامل ولرواتب العلماء مليوني ليرة تركية وثمان مائة الف ليرة

ومن هذا المبلغ الطائل مليون ونصف مليون ليرة ستصدر بها الحكومة قرضاً داخليًّا مضموناً بمالية الدولة لان ميزانيتها الحالية ليس فيها من الوفر ما تدخره للانفاق على هذا المعهد العلمي ولولا ما تعلقه الحكومة من الشأن الكبير على تجديد الجامعة وما تؤمله من ورائها من نشر الثقافة العالية في البلاد لما اضطرت الى حمل عبء هذه النفقة في وقت استحكمت فيهِ حلقات الازمة الاقتصادية

ولكن حتى بعد كل هذا النجاح في تدبير العلماء الاكفاء والمعامل الحديثة وبعد انفاق هذا المال الكثير على الجامعة لا تزال توجد امام الحكومة صعوبات اخرى. ومن هذه الصعوبات مسألة اللغة التي تدرس بها العلوم . ومما زاد هذه المسألة تعقيداً ان العلماء الذين عينوا لا يتكلمون الاَّ لغتهم الالمانية . في حين ان الطلبة الترك لا يعرفون لغة اجنبية او انهم لا يعرفون سوى اللغة الفرنسية لان المدارس الثانوية لا تعلم سواها . وقد كانوا يدرسون الحقوق بها ايضاً

ومع ذلك فان الترك لا يتقنون هذه اللغة كما ينبغي وكان هذا من بواعث تأخر التعليم في تركيا . حتى اعترف كبار الترك الآن بان تركيا لا تتقدم تقدماً حقيقيًّا الاَّ اذا اتقن ابناؤها لغة اجنبية ما كالالمانية او الانكليزية او الفرنسية ، ومما نص عليه قانون الجامعة الجديدة انه اذا رسب طالب مرتين في امتحان لغة اجنبية فصل من الجامعة

ولكن الى ان يتعلم الطلاب الترك لساناً اجنبيًّا ويتعلم الاساتذة الاجانب اللغة التركية تمَّ الاتفاق على ان يكون التعليم باللغة التركية بعد مضي ثلاث سنوات باسلوب غير مألوف وهو ان

يتلو الاساتذة محاضراتهم بلغتهم الاصلية ثم يترجمها مترجم الى التركية للطلبة ثم يعرض هؤلاء ما يرومون من اسئلة ويتولى المترجم ترجمتها الى لغة الاستاذ . وهذا يقتضي ان يرافق كل استاذ مترجم من الترك وتدبير هؤلاء المترجمين الا كفاء في الترجمة من اشق الامور

ومما تعهد به العلماء الاجانب هو ان يصدروا في كل سنة كتاباً باللغة التركية يتضمن نص المحاضرات التي القوها

ولا حاجة الى القول ان الغازي يرمي من وراء هذه الجامعة الى تخريج علماء ترك وليس الغرض منها مقتصراً على تخريج قضاة ومحامين واطباء وموظفين بل ان يتذوق خاصة الترك لذة البحث العلمي وتنشأ في البلاد معاهد ومجامع علمية يرتقي بواسطتها العقل التركي الى مرتبة الكمال في الدراسات العلمية وتذيع اسماء العلماء والمكتشفين الترك في العالم كما ذاعت في ايام ابن سينا وابن رشد لما كان الشرق يعلم الغرب اساليب الفلسفة

الطيران في مصر

طبع الاحتفال بافتتاح مؤتمر الطيران في دار الاوبرا يوم (الاربعاء ٢٠ دسمبر) فن الطيران بمصر بطابع رسمي يلفت اليه النظر في الشرق والغرب

ومن سوء الحظ ان الحالة الجوية البديعة في معظم ايام السنة عندنا ساءت في هذا الاسبوع بسبب الاضطرابات الجوية في اوربا وسورية فهاج البحر المتوسط واتصل تأثير ذلك كله بنا فحال دون وصول جانب من الطائرات التي كان طياروها يمنون النفس بالاشتراك في المباراة المعدة للطيران وحضور اجتماعات المؤتمر وحفلاته وقضى امس بتأجيل المباراة الاولى حذراً من فعل العواصف

ولا يسع الباحث الا الاستغراب لقرار الذين استصوبوا عقد هذا المؤتمر واقامة مباراته في هذا الفصل من فصول السنة مع ان المأثور هو ان الجزء الاخير من شهر دسمبر عرضة لهذه العواصف ولكن ما كتب فقد كتب ولات ساعة مندم . غير ان الذي يبعث على الاسف هو ان تخيب آمال هذا العدد الكبير من الطيارين والمندوبين الاجانب وقد استقرَّ في اذهانهم مما سمعوا وما قرأوا ان جو مصر لا يعلى عليه في كل ما يتعلق بالطيران فيرونه الآن غائماً او ملبداً بالسحب او عاصفاً وهو ما لا يحدث عندنا في مجموعه في اكثر من عشرين يوماً من ٣٦٥ يوماً

ولكن فن الطيران اخذ يخطو في مصر خطوات كبيرة يدفعه الى الامام ثلاثة عوامل اولها عناية الحكومة بتنظيم شؤونه واعداد المطارات في الاسكندرية والعاصمة ومدن مصر الكبيرة واهتمامها بالطيران العسكري وتأليف سلاح الطيران وعزمها على التوسل بالطائرات لقضاء جانب من اعمال الحراسة والرقابة وهو مبدأ سيتسع تدريجيًّا بما يبدو للعيان من فوائده

والثاني نشاط شركة مصر للطيران وحسن استعدادها وكفاية معداتها وهمة القائمين بأمرها والمنوط بهم ادارتها فان هذه الشركة على قرب العهد بنشوئها فازت بقسط عظيم من النجاح فأنشأت في البلاد اهتماماً بالطيران وسهلت سبيله لمن يشاء وأنشأت مدرسة في هليوبولس واخرى

في الاسكندرية لتعليمه وبالامس احتفلت بفتح خط جوي عظيم بين القاهرة واسوان وهي تدرس مشروع انشاء خط جوي بين مصر وفلسطين . وهذه مقدمات لما سيتلوها من خطوط اخرى قد تكون اطول منها

والثالث اقبال الشبان المصريين والشابات على تعلم فن الطيران ورغبتهم فيه ونجاح جانب منهم نجاحاً جعل جريدةعظيمة كجريدة التيمس الانكليزية تنوه بمقدرة الطيارة لطفيه النادي

ومما زاد هذهالرغبة مشاهدة الناس لاعتماد بعض العظماء على الطائراتفي انتقالهم كالسر برسي لورين وطلعت حرب باشا . ولو كانت الاحوال المالية غير ماهي وفي طاقةالناس ان يشتروا الطائرات كما كانوا يشترونالسيارات فيعهد اليسر والرخاء لكثر عدد الذين يطيرون ولما خلا جو مصر من طائرات في النهار

ومما يزيد الناس ولوعاً بالطيران علاوة على الاعتبارات المتقدمة انه مطابق لما فيفطرة البشر من النزوع الى العلاء نزوعاً ما برحوا فيالعصور الغابرة يحاولون اظهاره بالشعر وسواه ولكن بما كان ابلغ ما خطر لهم التعبير عنه حكاية بساط الريح فانها ستظل الى آخر الدهر من ابدع ما نسجته مخيلة الانسان

عجائب العين الكهربائية

نقل برنامج لاسلكي بشعاعة نور

شاهد حديثاً المولعون بالراديو أعجوبة من أعاجيب القرن العشرين وذلك فيمساء ذات يوم اذ سمعوا أنغاماً موسيقية ، منقولة على شعاعة من أشعة النور ، لا على امواج الراديو المألوفة

وتفصيل ذلك الحادث الغريب، انهُ اجتمعت فرقة موسيقية في برج صرح كريسلر بمدينة نيويورك حيث عزفت الحانها امام ميكروفون، ولم يكن فيذلك البرج سلك ارضي ينقل الصوت المكبر الى قاعة الموسيقى التي تبعد عنه نصف ميل ، بل كان هناك عوضاً عنه ، شعاعة زرقاء تنبثق من نور مصباح كهربائي كشاف قوته ٥٠٠٠٠ شمعة تنقل الانغام الموسيقية الى الجهة المقصودة،فاخترقت السقوف التي تعترضها حتى وصلت الىقاعة الموسيقى حيث كان في نافذة تلك القاعة ، عدسة كبيرة تلتقط الشعاعة ثم تحصرها في بصّاصة كهربائية ، فالتقطت الالحانالموسيقية واطلقتها في الجو ، وبلغ من شدة اتقان الاذاعة ان كثيراً ممن سمعوها لم يعرفوا كنهها

واستخدام شعاعةالنور بمثابة سلكتليفوني ليست فكرة حديثة فقد سبق المستر جون بلامى الخبير الكهربائي بشركة الكهرباء العامةفي الولاياتالمتحدة ان استنبط مثل ذلكالاستنباط (وقد وصفناه سابقاً) اذ تحادث من المنطاد لوس انجيليس الى سطح الارض . ثم تمكن حديثاً من نقل الاصوات ، بتلك الواسطة من قنة جبل الى مدينة شنيكتادي بولاية نيويورك والمسافة بينهما ٣٥ ميلاً . ولا جرم ان طريقة استخدام اشعة الضوء بدل الاسلاك التليفونية ما زالت في حيز المختبرات العلمية غير ان الجهاز الجديد الذي اخترع وعرض حديثاً علىمستعملي الراديو يتوقع الخبيرون نجاحه في الاعمالالتجارية

ورب سائل يسأل . وكيف يستطاع نقل الكلام بشعاعة الضوء فنقول :

يتوقف ذلك على اختراع وسيلة تجعل المصباح

الكهربائي يخفق خفقاناً يتفق ونبضات الصوت البشري . وقد فاز العلماء بتلك الامنية بالبصاصة الكهربائية اذ توضع في مجال نور المصباح حيث تكون بمثابة جهاز مستقبل يلتقط تموجات النور ويصيرها نبضات كهربائية يسمع صوتها بالبوق (سماعة اللاسلكي المكبرة للصوت) والشعاعة الناطقة يمكن تسديدها الى محطة الاستماع بحيث يتعذر اعتراضها على اي انسان كان بعيداً عن مجراها . وبذلك يتسنى جعل تلك الشعاعة الناطقة خفية فتنقل الرسائل السرية في ابان الحرب

ولقد كانت اعوص العقبات التي تغلب عليها المجربون استنباط نور ينبض عشرة آلاف نبضة في الثانية (وهي السرعة الضرورية لجعل الكلام او صوت الموسيقى يسمع طبيعيًّا) ويظل متألقاً تألقاً كافياً ليتخلل ابعاداً شاسعة فذللت

عوض جندي

الجوع والتاريخ

(تابع المنشور على الصفحة ٥٠)

في خلال السبعين الفارطة من القرون كانت هذه الرواية تتكرَّر في الوف من مختلف المناظر والصور وتتعاقب على تاريخ المدنية . ففي بدايات التاريخ الاولى التي نستطيع ان نحلّ رموزها نقع على طبقتين من الناس . طبقة حاكمة لا تعمل : وطبقة محكومة شأنها العمل . وكذلك نلحظ ان الارستقراطيين بعد مرور بضعة اجيال من استقرارهم وتحضرهم ، يبدؤون يلقون بنظرة احترام على الفنون ، وعلى المعارف ، وعلى سنن التحضر ويفقدون شيئاً بعد شيء خشونتهم الاصلية . ثم يأخذون في التزاوج من المغلوبين مظهرين بذلك شيئاً من روح التسامح بين الغازي والمغزوّ . ثم يعكفون على مبادلة الآراء الدينية ، ويدرسون تدرجاً كل المعلومات التي تتطلبها بيئتهم ، لخصائص الارض ، وطبيعة الاقليم . وبذلك يندمجون ، فيصبحون جزءًا من الحضارة التي غزاها اوائلهم . ولن يصل بهم الامر إلى هذا الاندماج ، حتى تكون الطبيعة قد هيأت لهم قوماً آخرين ، نحالاً جائعين ، ينقضُّون على هذه المدنية من جديد انقضاض السيل المزبد . ومن هذا تكوَّن التاريخ

حسناء القرية

(تابع صفحة ٨٨)

وهو يطرفها بالاخبار والنوادر بالكلام المسبوك ، كلام اهل الطبقة العليا من الناس ، فكان كمن يتنفس في أُذنيها انفاس التخيل والشعر والحرية

وكان انعطاف هذه الفتاة اليه كأطهر ما يكون عليه الحبّ . وقد يحدث ان جمال منظره وبهاء بزّته العسكرية خلبا لبّها لاول وهلةٍ وانما الذي أسرَ فؤادها مبلغهُ من التربية والمعرفة والتعليم . فكان حبّها لهُ يقرب من العبادة فنبّه فيها اجتماعهُ بها رقة شعورها واستعدادها الفطري للتخيل الشعري فاستيقظت فيها تلك العواطف للشعور بالجمال والرفعة والعظمة ولم تحفل بالبون الشاسع بينهما في المقام والغنى ... فكانت تصغي لاحاديثهِ باذنين مسحورتين . وقد اغضت عينيها حياءً وابتهاجاً وتورَّد خدّاها فاذا التفتت اليهِ التفاتة الظبي النفور على سبيل الاعجاب بهِ عادت فاسترَدت لحظها وهي تتنهد وقد صبغ وجهها الحياءُ شعوراً بتقصيرها عنهُ

الجزء الاول من المجلد الرابع والثمانين

صفحة

JUNE—DECEMBER 1933 يونيو الى دسمبر سنة ١٩٣٣



مجلة علمية صناعية زراعية

لمنشئيها

الدكتور يعقوب صرّوف والدكتور فارس نمر

المجلد الثالث والثمانون

AL-MUKTATAF

A MONTHLY ARABIC SCIENTIFIC REVIEW

Edited by : FUAD SARRUF

VOL. LXXXIII

FOUNDED 1876 BY DRS Y. SARRUF & F. NIMR

فهرس المجلد الثالث والثمانين

مجلة المجلات

بيان الى قراء المقتطف ومريديه

يرى القارىء في هذا العدد مثالاً للخطة الجديدة التي وضعها قلم تحرير المقتطف لهذه السنة . ونأمل ان نجعل المقتطف رفيقاً لا يستغني عنهُ شرقي مثقف او شرقية مثقفة . وعلاوة على زيادة حجم الصفحة نحو ثلاثة اسطر اضفنا الابواب الآتية :

﴿ مملكة المرأة ﴾ فالعالم العربي تنقصهُ الآن مجلة نسائية تكون للمرأة جليساً أنيساً ومرشداً اميناً ولذلك رأينا ان نخصص جانباً من مقتطف كل شهر لهذه المجلة على ان نتوسع فيها اكثر مما كانت تسمح لنا صفحات باب «شؤون المرأة وتدبير المنزل»، في هذا الباب تجد المرأة كل شهر مقالات في الصحة والجمال، في التربية ونفسية الاطفال، سير النساء العاملات، وتقدم الحركة النسوية في العالم، في ترتيب الدار وشؤون المنزل العملية

﴿ سير الزمان ﴾ ثم ان شؤون العالم تسير سراعاً . ففي الحياة الاقتصادية محاولات لا ندري مدى اثرها في الاجتماع البشري الآن . وفي الحياة السياسية، نظم جديدة ومذاهب جديدة . كالشيوعية والفاشستية وتجربة روزفلت . وفي علاقات الدول والامم بعضها ببعض تحوُّل سريع فيما يتعلق بالسلاح والحرب والديون الدولية والتعاون والنقد والمواصلات . لذلك قرَّرنا ان نفتح في المقتطف باباً ندعوه «سير الزمان» ننشر فيهِ كل شهر مقالتين او ثلاثاً ، تمكن المطالع من مماشاة التطور الحثيث في شؤون الامم

﴿ حديقة المقتطف ﴾ وللأدب حقٌّ علينا . الادب العربي والادب الغربي . وفي باب « حديقة المقتطف » الجديد يجد القارىء كلَّ شهر قطعة او اكثر من روائع الادب العربي . كما يختارها كبار الأُدباء . ومنتخبات مترجمة من الأَدب الغربي لتكون بمثابة اللقاح للخيال العربي والبيان العربي

فاذا أضفت هذه الأَبواب ، الى ما اشتهر بهِ المقتطف في خلال حياة طويلة حافلة، من عناية بتتبع التقدُّم العلمي والادبي في الشرق والغرب ، عرفت ان المقتطف (في سنة ١٩٣٤) مجلة عربية في روحها واسلوبها، عالمية في اتساع افقها وتعدُّد مناحيها

— فاشترك في المقتطف الجديد — — المقتطف مجلة لا يستغنى عنها —

— واذكرهُ أمام أصدقائك — — بيت شرقي يقدر الثقافة حق قدرها —

الى الشعراء

اعلى الشعر وأصدقه ما يتفجّر به الشعور الانساني النبيل ، وأنبل ما يتفجر به الشعور ، ذلك الماء الدافق الذي تتطهر بهِ الاوطان لتخرج الى الحياة نقية ناضرة قوية مشبوبة ، وذلك هو « شعر الوطن »

وقد كان هذا الشعر في العصر الاخير طَهور الحركات الوطنية وغذاءها وحافزها وموجد القوة في عضلاتها التي طال على سكونها الامد ، بيد انّ ما يؤسف له ان اكثر ذلك الشعر الحيّ قد طوى مع تلك الحركات لاسباب كثيرة فصار مضيّعاً بين سائر الشعر ،... وهو الذي غيّر القلوب وبدّل الانفس وبعث في الام حياة تنزّى لتثب ، ثم ها هو ملقيّ في زاوية من التاريخ والأدب مع انهُ هو اناشيد الوطن وأغاني الشعب ... وأصدق العواطف التي منحها الشعراء اممهم مهيبين ومنذرين وموقظين ومصلحين . وقد رأينا برأي محرر المقتطف ان ننفث في هذا الشعر روح الحياة لنبعثه ، ثم لنوقظ قلوب الشعراء حتى تمدنا بآيات منه تتلوها الشعوب العربية لتستشعر العزة والكرامة والاباء

وأخيراً رغبت ادارة المقتطف قياماً بما فرض عليها للام العربية والشعر العربي ان تنتزع الهمة لدراسة هذا الشعر ونقده وتفصيل اغراضه واظهار روائعه للناس ليكون نبراساً في هذه الظلمات التي ارخت سدولها على العالم العربي. ورجاء المقتطف ورجاؤنا ... ان ينتزع شعراؤنا — في مصر والسودان والشام والعراق وجزيرة العرب وبلاد المغرب والمهجر — همتهم في ارسال ما طوي من شعر الوطن والحرية والاستقلال ، وان لا يبخل شاعر بارسال شعره او ديوانه مع ذكر الظرف الذي قيل فيه ، والاشارة الى مواضع هذا الشعر من الديوان ان كان مطبوعاً... واملنا ان لا تكون شعر شاعر او قدرته بما نعته من ان يرسل الينا شعره ، فان الذي حملنا انفسنا على الشمه والاضطلاع به امر عظيم له ما بعده

ان الاوطان العربية المسكينة تنادي شعراءها ليوقظوا فيها روح الحماسة والطموح والحرية والشرف والمجد والاستقلال «فليستجب الشعراء»

نرجو ان تكون المراسلات الخاصة بهذا الموضوع باسم محمود محمد شاكر « ادارة المقتطف بمصر »

م	
٣٥	القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠	« « « « (طبعة ثالثة)
٧٥	« « عربي نكليزي (طبعة ثانية)
٣٥	« المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠	قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠	« « عربي انكليزي فقط
١٥	« « انكليزي عربي فقط
٧٠	« سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠	« « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠	« « « « « وبالعكس
١٠	التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢	الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠	الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥	في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠	عشرة ايام في السودان « « «
١٢	مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥	روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥	روح السياسة « « «
١٠	الاراء والمعتقدات « « «
١٠	اصول الحقوق الدستورية « « «
٢٠	الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥	حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠	الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥	ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨	اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠	مختارات « « «
٨	نظرية التطور واصل الانسان « «
٢٠	اناتول فرانس في مباذله، للامير شكيب ارسلان
١٥	الدنيا في امريكا (للاستاذ امين بقطر)
١٠	المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبدالله حسين)
١٠	جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥	المرأة بين الماضي والحاضر
٥	مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥	حصاد الهشيم (للاستاذ ابرهيم عبدالقادر المازني)
١٠	قبض الريح (« « « « «)
٨	نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠	رسائل غرام جديدة (سليم عبدالواحد)
١٠	الغربال في الادب المصري (لمخائيل نعيمة)
٥	حكايات للاطفال، اول (مصور بالالوان)
٥	« « ثان « « «
٥	« « ثالث « « «
٥	تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥	جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦	مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥	مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

م	
١٠	التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥	خواطر حمار (للاستاذ الجمل)
٥	التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥	الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥	ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠	علم الاجتماع (جزآن كبيران) «
١٥	اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠	المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠	الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥	الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠	تاييس « « « «
٥	مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠	القصص المصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠	مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢	رواية اهوال الاستبداد، مصورة
١٠	« فاتنة المهدي، او استعادة السودان
٨	« الانتقام العذب (اسعد خليل داغر)
٥	« فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢	« باريزيت، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢	« غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥	« روكامبول، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥	« ام روكامبول، ٥ اجزاء «
٢٠	« باردليان، ٣ اجزاء «
٢٠	« الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
٢٠	« الاميرة فوستا، جزآن «
٢٠	« عشاق فنيسيا، جزآن «
١٦	« الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦	« كابيتان، جزآن «
١٦	« الوصية الحمراء، جزآن «
١٦	« بائعة الخبز «
١٢	« فلمبرج، جزآن «
١٠	« فارس الملك «
١٠	« ضحايا الانتقام «
٨	« المرأة المفترسة «
٥	« المتنكرة الحسناء «
٥	« مروضة الاسود «
٥	« شهداء الاخلاص «
١٦	« دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠	« فرنسوا الاول « «
١٠	« الجنون فنون « «
٨	« حورية « «
٨	« الغلامان الطريدان « «
١٢	يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٨	النبي (« « «)
٥	آلهة الارض (« « «)



ارثر شنتزلر

كاتب نمسوي من اشهر كتاب العصر الحديث . وُلِد سنة ١٨٦٢ وتوفي في السنة الماضية . راجع قصته صفحة ٢١٧

المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الثاني من المجلد الرابع والثمانين

١ فبراير سنة ١٩٣٤ — ١٦ شوال سنة ١٣٥٢

علم الطبيعة بين عهدين

التحوّل في النظر الكوني

بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين

اكتب هذه الكلمة وأمامي صورة لافوازييه العالم الفرنسي العظيم الذي حزّت عنقه بمقصلة الثورة الفرنسية ، بحجة ان زعماءها لا يحتاجون الى العلماء . كان لافوازييه أول من فسر تفسيراً صحيحاً فعل « الاحتراق » من الوجهة الكيمائية ، على انه اتحاد المادة المحترقة بالاكسجين . هذا الرجل الفرنسي العبقريّ ، لايزال مذكوراً في كتب الطبيعة والكيمياء ، ببحثهِ الالمعيّ في ناموس حفظ الطاقة والمادة ، وهو من الاركان التي قام عليها علم الطبيعة في القرن التاسع عشر

وقد انقضت نحو مائة واربعين سنة ، على تلك المأساة التي فقد فيها هذا العالم رأسه ، ونحن اذا تطلعنا حوالينا الآن وجدنا اننا في عالم جديد من علمي الطبيعة والكيمياء فقد انقضت حاسة الاستقرار ، في هذين العلمين ، كأنّهما كانا مضربين في الصحراء ، فهبت عليهما ريح عاتية اقتلعتهما وتركتهما مسفى للرمال . ولو انهُ اتيح للعالم لافوازييه ان يعود الى الارض من نحو ربع قرن او ثلث قرن فقط ، لما رأى في علم الطبيعة شيئاً يتنكر له . كان لا بدّ له ان يجد حقائق جديدة ، ومستنبطات كثيرة ، ولكنه ما كان يستطيع ان يتبين تحولاً في الاصول التي يقوم عليها العلم

واذ كان الزمن يسير سيره الطبيعي متنقلاً من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين ، كانت

عقول الرجال تختمر بصور جديدة للطبيعة . واذا التجارب والنظريات ، توهن من مقام الآراء القديمة التي مضت في استحواذها على ميدان العلم من ايام لافوازييه الى أيام رنتجن في العقد الاخير من القرن الماضي . واذا نحن بين ليلة وضحاها من ليالي الزمان وأضحيته في غمار ثورة تقلب علم الطبيعة رأساً على عقب . فانهار كذلك البناء المستقر المشمخر الذي شاده علم الطبيعة في القرن التاسع عشر ، واصبحنا امام مكتشفات لا يستطيع ان يصدقها من آمن بفراداي ومكسويل وكلفن ، مع انها تسير اليوم تحت الوية رجال أمثال بلانك واينشتين وطمسن ورذرفورد وملكن

واذا أنت سألت من تريد ، ممن درس علم الطبيعة الحديث ، ما رأيه في ناموس حفظ المادة — اي ان المادة لا تتلاشى وانما تتحول فقط — الذي قال بهِ لافوازييه لاجاب انه يصدق في احوال الطبيعة كما نحسّ بها نحن ، ولكن الايمان المطلق بصحته ، في عالم الذرّ الدقيق ، قد انقضى عهده . كان الرأي القديم ، أن المادة مؤلفة من دقائق صغيرة صلبة ، لا يمكن ان تتلاشى . ولكن ذلك الرأي كان لهُ عهد وانقضى . وأصبحنا اليوم نعتقد ، ان الجبال الدهرية الراسية ، والانهار الجارية ،وأجسامنا الحية ، وهواءنا الذي نتنفسه ، وهذا الورق الذي اكتب عليه ، وهذا الضوء الذي تبعثه الينا الشمس والكواكب ، انما هذه جميعاً دقائق من الطاقة الكهربائية ، أو هي حزم من دقائق الطاقة الكهربائية

فالمادة والطاقة في أصلها، بحسب آراء العلم الحديث، ترتدان الى شيء واحد هو الطاقة الكهربائية

واذاً فاحداها يمكن تحويلها الى الاخرى

واذاً فالمادة يمكن ان تحول الى طاقة . واذاً فالمادة لا تحفظ كما قال لافوازييه

***

ونحن لا نعدو الحقيقة ، ان قلنا انَّ علم الطبيعة الآن ، وهو في غمرات هذا الانقلاب الخطير ، مختلط عاليه بسافله . كان يظن في اواخر القرن الماضي ان علم الطبيعة علم مستقر ، وان مبادئه الاساسية ، قد كشفت جميعاً . ففي القرنين السابع عشر والثامن عشر كشفت قواعد الميكانيكيات واخرج هوجنس نظريته الموجية في الضوء . وفي القرن التاسع عشر أيّد فرنل الفرنسي وينغ الانكليزي ، نظرية الضوء الموجية . وعلى هذه المباحث نهضت صورة الاثير المالئ لرحاب الفضاء ، وبني ناموس حفظ الطاقة ، وقام القول بان الطاقة المتحولة انما تتحول الى درجات اوطأ ولا يعكس أي ان الطاقة القصيرة الامواج القوية الفعل تتحول الى طاقة طويلة الامواج ضعيفة الفعل ، وكذلك محتوم على الكون ، في المستقبل البعيد جداً ، ان ينتهي من تحول الطاقة فيه ، الى طاقة لا قدرة لها على احداث التحوُّل . وهذا ما يعرف بناموس الترموديناميكس الثاني . ثم جمع فراداي ومكسويل بين الكهربائية والضوء وقالا بنظرية الضوء الكهرطيسية (من كهربائية ومغناطيس) اي

ان امواج الضوء تخضع لقوانين الكهربائية والمغناطيس . وبعد ذلك قام هرتز وأثبت وجود الامواج الكهرطيسية التي أطول من امواج الضوء ، وكذلك افتتح عهد اللاسلكي العظيم ، الذي جرى في ميدانه ، لودج وبرانلي ومركوني وفلمنغ ودهفرست وغيرهم

كانت هذه هي الاركان التي يقوم عليها علم الطبيعة في القرن التاسع عشر

فلما ناوله القرن التاسع عشر الى القرن العشرين ، كان ينتظر منه ان يحافظ عليه ، ويضيف اليهِ شيئاً هنا وشيئاً هناك ، من دون ان يتعدى عليهِ ، بالتحويل ، دع عنك التدمير والنقض

ولكن العلم ليس شديد الاحترام ، إلاَّ للحقيقة . وهذا هو الانقلاب ، قد أقبل علينا في خلال ثلاثين سنة ، بخيله ورجله ، فلا نستطيع أن نفلت منها . اكتشفت اولاً أشعة اكس، ثم فعل الاشعاع ، فثبت ان المادة ليست دقائق مستقرة لا تتحول . ثم كشف طمسن الالكترون ، فبيَّن ان الذرة التي كانت تحسب كالكرة الصلبة ، انما هي مركبة من دقائق اصغر منها . ثم كشف الراديوم ففتح ميدان البحث في تحوُّل العناصر أمام العلماء ، وعند الحد الفاصل بين القرنين التاسع عشر والعشرين ، أعلن بلانك ، ان الطاقة — الضوء والحرارة وغيرها — ليست متصلة البناء، بل هي كالمادة ذرية البناء ، وهذا هو المبدأ الذي تقوم عليهِ نظرية الكم ، كما تدعى ، ونظرية « المقادير » كما نحب ان ندعوها، لان مقدار ترجمة Quantum وهو اسم النظرية في اللغات الاعجمية . فاقتضت هذه النظرية اعادة النظر في نظرية الضوء الموجية ، فوجد العلماء انفسهم في مأزق ، وهم الآن يحسبون الضوء دقائق أو مقادير من الطاقة تسير سيراً موجيًّا ، ولكن المخرج التام من المأزق لم يكشَف بعد

***

ثم جاء اينشتين ، وبنى على تجربة قام بها العالم الاميركي ميكلصن ، فادخل فكرة النسبية واستغنى عن اثير القرن التاسع عشر ، وقال انهُ من المستحيل علينا التوصل الى معرفة الحركة المطلقة لان كل حركة انما تتم بالنسبة الى مشاهدها فتختلف في اتجاهها وسرعتها في نظره عنهما في ناظر مشاهد آخر . وحبك من الزمان والمكان شيئاً جعلهُ وحدة الكون الطبيعي او ما يدعوه بالحادثة (Event)

ولم تمضِ سنوات ، حتى بدا لنا كأن حلم الكيماويين الاقدمين قد بدأ يتحقق . وها هو ذا رذرفورد ، وغيره من علماء الطبيعة يطلقون المقذوفات المنطلقة من الراديوم ، وغيرها من المقذوفات التي يصنعونها هم، على ذرات العناصر، فيحولونها ، فيجعلون النتروجين اكسجيناً ، والليثيوم كربوناً . انهم يحولون العناصر ، ولكنهم لا يبغون صنع الذهب ، بل يبحثون عن الحقيقة ، وهي عندهم أغلى من الذهب وأثمن من البلاتين

وقد تحول كذلك النظر الى السماء فالكون يمتد وراء المجرة الى مجرات اخرى وهي كلها تتفرق جميعاً كأنها نثار قنبلة قد انفجرت . ومن رحاب الفضاء تجيئنا أشعة قوية النفوذ والاختراق للاجسام يحسبها

ملكن دلائل على تكون العناصر الثقيلة في رحاب الفضاء ويقول جينز انها اشارات الى فناء المادة في تحولها الى اشعاع . فالاول يقول ان الكون يبتدىء حيث ينتهي اذ تتحول الطاقة الى مادة ، واما الثاني فيقول ان الطاقة اذا تحولت الى طاقة ضعيفة بحسب ناموس الترموديناميكس الثاني ، فلن ترتدُّ

وأدهى من كل هذا ان العالم هيزنبرج الالماني ، اثبت انهُ اذا تغلغلت الى عالم الالكترونات تعذر عليك أن تؤمن بأن في الطبيعة سبباً ومسبباً او علة ومعلولاً ، فناموس السببية يضعف عند ما يدخل عالم الالكترونات وهذا ما يعرف عند علماء العصر بمبدإ عدم التثبُّت Principle of Uncertainty ، ومن هنا ما يدعى أزمة العلم الحديث

***

وازمة العلم الحديث شبيهة بأزمة الاقتصاد الحديث . فالازمة الاقتصادية هي أزمة «كثرةٍ وفيض» اكثر منها ازمة «فقر وامحال» . كذلك في العلم . ففي عصر حافل بنشاط علمي يضاهي عصر غليليو ونيوتن ، نسمع نغمة حيرة تتردد في المحافل والمجامع . فكأن العلم بعد ما غزا الطبيعة فقد ثقته في نفسه . فارتبك وتجلجل . ذلك ان الثورة التي طغت على العلوم الطبيعية الحديثة ، فقلبت اوضاعها الاساسية جعلت العالم والعامي سواء ، في اعتقادهما ان النظريات العلمية غير كافية للاعراب عن الحقيقة بل هما يرتابان في أن الطبيعة يمكن ان تكون حقيقة كما يصورها لنا رجال العلم ، محدثوهم وقدماؤهم على السواء

فالرجال الذين يعالجون نظرية المقدار يقولون ان الاوليات العلمية وناموس العلة والمعلول تتهاوى بين ايديهم اذ يحاولون تطبيقها على الالكترون والبروتون . ولما كانت كل الاشياء المادية مبنية من الكترونات وبروتونات فمعنى قولهم هذا أنهم لا يؤمنون بعد الآن في السببية او الجبرية . يقول اينشتين ان الايمان بناموس السببية مهدد اليوم من قبلٍ أولئك الذين انار هذا الناموس سبيلهم — اي علماء الطبيعة . فكأن قول الفيلسوف كونت لما حذَّر العلماء من التمادي في النفوذ الى ما وراء المكروسكوب من اسرار الطبيعة ، قد صحَّ بحذافيره

كان كونت ناقماً — لما قال قوله هذا — على علماء الاجتماع ، الذين يريدون أن يتعدوا درس مظاهر الاجتماع الى البحث في الاسباب الاولى فقادهم ذلك الى الشقاق والفوضى . نخشي أن تصاب العلوم الطبيعية بما أُصيبت بهِ العلوم الاجتماعية ، اذا شرع علماء الطبيعة في البحث عن الاسباب الاولى . وكان رأيهُ ان يكتفي العلماء ، بتخطيط الظاهرات الطبيعية ، من حيث انتظامها العملي ، لتكون مرشداً للانسان في حياته اليومية ، لانهُ اذا حاول العالِم ان يتقصَّى النواميس الطبيعية كما هي وراء مظهرها الواقعي ، فقد يجد أنها ليست مطلقة ، وأنها لا تخرج عن كونها احتمالات ، لا نواميس على الاطلاق . ولكن العلم لم يأبه لنصح الفيلسوف ، وها هوذا مرتطم محيَّر لا يعرف من المأزق مخرجاً

***

ولا ريب في انه من المستطاع ان يقام الدليل على ان سرعة تقدم العلوم قد بلغ بها رأس منحدر

أخذت تنزلق من شاهقه الى سفحه . فبرتراند رسل الفيلسوف الانكليزي يبدي قلقه من وجود الهوة التي نشأت بين الصور المجردة التي يرسمها العلم الحديث والصور التي يرسمها ويدركها الذهن البشري.وكأن العلم الحديث أصبح برج بابل جديد تبلبلت فيه الالسنة ، فلا يفهم الجمهور الثاوي عند قاعدته ، ما تقوله الخاصة المقيمة على قمته

والأثر النفسي للانقلاب الذي احدثه اينشتين واتباعه فزعزع الصورة التي رسمها نيوتن للكون ، هو ان النظريات العلمية لاتخرج عن كونها شيئاً ذهنيًا لايطابق الحقيقة . يقول الاستاذ بردجمن احد علماء جامعة هارفرد «كنا نتوقع ان يكون هدف النظريات الطبيعية الكشف عن الحقائق الاساسية اما اليوم فاننا لانصرّ كثيراً على الحقائق الاساسية ، وذلك لاننا اضعف ثقة مما كنا في ان الحقيقة الاساسية ، التي كانت هدفنا ، لها اي معنى على الاطلاق »

بل ان حيرة ادنجتن وشكّهُ اوضح من حيرة رسل وريبة بردجمن ، وهو يعبر عنهما بصورة شعرية اذ يقول بأنهُ واثق من اننا لا نستطيع ان نكشف بالعلم ، الاّ آثار خطانا على الرمل ، واننا لا نستطيع الخروج من التعميم الصادر عن ذواتنا ، الاّ في « علم المقدار» وهناك نكتشف ان ليس للطبيعة نظام معقول . فكل النواميس التي نصوغها ليست الاّ نواميس مصطنعة وان الناموس الوحيد ، هو ان ليس في الطبيعة ناموس

وقد نستطيع ان نمضي في سرد اقوال العلماء والمشتغلين بالعلم ، التي من هذا القبيل ، فنرسم لحالة العلم في العقد الرابع من القرن العشرين ، صورة قاتمة تبعث القنوط في النفس ، ولكن هل هذه الصورة تمثل الحقيقة والواقع

***

لا يحتاج الكاتب الى ان يكون فيلسوفاً عمليًا ، لكي يؤمن بالقول المأثور « من ثمارهم تعرفونهم » . فاذا نظرنا الى العلم هذه النظرة ثبت لنا في الحال ان القول بانهياره سابق لاوانه على الاقل ، لاننا لا نعرف عصراً ، يفوق هذا العصر ، في كثرة ما انتجهُ العلم من الثمار . ولا نحن نستطيع ان نحسب نظرية النسبية ، صورة ذهنية غير مطابقة للحقيقة ، بعد ما ايدتها المباحث في مختلف فروع البحث الطبيعي والفلكي، حتى في ميدان نظرية المقدار حيث ثبت ان النواميس العالمية ليست الاّ احتمالات كبيرة ، وان المبدأ الاساسي في الطبيعة هو مبدأ الصدفة لا مبدأ الحتم . هنا يتبين لنا عند انجلاء الغبار من ميدان المعمعة ، ان القول بأن النواميس الطبيعية ليست الاّ احتمالات كبيرة، لا يضير العلم، وانما يضير كرامة العالم فقط او ما يحسبهُ العالم كرامتهُ ، لانهُ كان يقول بأن النواميس العلمية التي اكتشفها نواميس مطلقة . ولعلّنا نجد في هذا القول ما يطمئننا الى حين

فؤاد صروف

المصطلحات العلمية

والفاظها العربية

للامير مصطفى الشهابي

كلما تناول احدنا معجماً علميًّا باحدى اللغات الاوربية الكبيرة وأخذ يقلب صفحاته التي لا تحصى يهوله ما تحويه تلك الصفحات في طياتها من آلاف الالفاظ في العلوم والمخترعات الحديثة ويروعه ان تكون لغتنا العربية خلواً منها او من معظمها ويشوقه ان يظل الناطقون بالضاد صادفين عن الاخذ بيد هذه اللغة المباركة لاهين عن جعلها تتسع لعلوم هذه الايام كما اتسعت لعلوم الاقدمين في السنين الخوالي . واذا ما تحدثت في هذا الامر مع الذين درسوا العلوم الحديثة بلغة اجنبية اجابك جمهورهم بأنهم يأسون من صلاح لغتنا للاغراض العلمية في عصر الناس هذا فهي اذن على ما يرون مقضيٌّ عليها إن عاجلاً وان آجلاً . لكنك اذا استقصيت بواعث هذا الاعتقاد القائم فيهم رأيتها تنحصر في شيئين الاول جهلهم اسرار اللغة العربية ومكامن الحياة فيها والثاني قلة ثقتهم بكفاءة من جعلوا انفسهم او جعلتهم السياسة قوّامين على هذه اللغة افراداً كانوا او جماعات او حكومات

فالجهل بوسائل النمو في اللغة العربية لا يستلزم فقد هذه الوسائل لانها موجودة يعرفها كل من جدَّ في طلبها وهي كامنة في اللغة لكنها تحتاج الى من يثيرها من مرقدها ويبعث فيها الروح فتعود الى الحركة وتعود العربية معها الى الحياة . ويتضح من ذلك ان السر في جمود لساننا ليس منبعثاً عن قصور هذا اللسان بل عن تقصير ابنائه وعن اهمال الحكومات التي تتكلم به . وقبل اثبات هذا الاهمال وذاك التقصير لا بد لنا من ذكر اهم حاجات لغة الضاد وذكر الذين يمكنهم ان يضمنوا لها تلك الحاجات . فما تحتاج اليه العربية قبل غيره اصبح شيئاً معروفاً لكثرة لوك الالسنة لهُ ووفرة سيلان الاقلام بهِ على القراطيس . وخلاصته ايجاد الفاظ عربية او معربة لابحاث العلوم العصرية وللمخترعات والمصنوعات والادوات الحديثة وهي آلاف مؤلفة من الالفاظ . ولا بدَّ لمن يتصدَّون لوضع هذه الالفاظ من ان يجمعوا بين امور ثلاثة وهي اولاً الاختصاص بعلم او بفن وممارسته نظريًّا وعمليًّا ثانياً التغلغل في سرائر اللغة العربية ولاسيا فيما يتعلق بذلك العلم او ذلك الفن ، ثالثاً اتقان لغة واحدة على الاقل من لغات اوربا الغنية بالعلوم والفنون . ولقد قلت في المجلد الثامن من مجلة المجمع العلمي العربي انهُ اذا فقد شرط واحد من هذه الشروط الثلاثة فقدت معهُ معظم الفوائد التي ترجى ممن يودّون اصلاح لغة الضاد والعمل في احيائها بايجاد الالفاظ اللازمة للعلوم والفنون والمخترعات الحديثة

واذا انعمنا النظر في مواهب علمائنا واستعرضناهم واحداً واحداً نجد هذا فقيهاً باللغة العربية علياً بصرفها ونحوها وبيانها وبديعها وعروضها لكنهُ يجهل حتى مباديء العلوم الحديثة التي يتعلمها الصبيان في المدارس . وذاك قد درس العلوم واتقنها بلغات اجنبية لكنهُ لم يحفل بلغتهِ ولم يصمد لمدارستها فظلت صلته بها متراخية . وثالث حصل على الشروط الثلاثة التي ذكرتها لكنهُ اغترَّ بنفسه وحمَّلها فوق طاقتها فراح يؤلف الموسوعات او المعاجم العلمية ويضع الالفاظ جزافاً وفاتهُ ان عمر الانسان اقصر من ان يحيط بعلم واحد من العلوم الحديثة وان العالم المحقق ربما افنى زهرة عمره في الفاظ هذا العلم دون ان يستوفيها كلها . ولهذا لا بد لمن يجشّم نفسهُ وضع الالفاظ بالعربية من ان يقتصر في عمله على الالفاظ المتعلقة بعلم اختص به واطلع على دقائقه . وقبل ان ابحث عن السبل التي يجب ان نسلكها في وضع الالفاظ للمصطلحات العلمية يفيد ان اذكر كيف اهتدى الاوربيون الى آلاف الكلمات التي اضافوها الى لغاتهم وما هي الطرق التي ساروا عليها للوصول الى هذا الهدف . ولنتمثل باسماء النباتات لان في حديثها لذة ولانه جرت مراسلات فيها لا تخلو من فكاهة بيني وبين مسيو غانيوبان احد علماء النبات الاختصاصيين في متحف المواليد الفرنسي في باريس وهو صاحب معجم مخطوط في اشتقاق اسماء الاجناس النباتية وله رأي قويم في صدد هذه الاسماء

تسمية النبات

لنفرض ان عالماً نباتياً رحل الى مجاهل افريقيا او فيافي الجزيرة او سهول الصين الفسيحة يلتقط الاعشاب ويتعرف اليها حتى اذا عثر على نبتة لا يعرفها راح يدرس تحليتها اي صفاتها النباتية فاذا بها مما لم يدرسه احد قبله فالنبتة اذاً جديدة لدى النباتيين وعليه اذن ان يضع لها اسماً جديداً . واول اسم يتبادر الى ذهنه اسم نفسه تنويهاً بهِ وتخليداً له جزاءَ ما يلقاه ذلك العالم من النصب في عمله الشاق . وهذا شيء مستملح لا غبار عليه البتة وليس بامكان احد ان يستقبح إيثار النفس على الغير في مواضيع كهذه . لكن صاحبنا النباتي له اسم واحد فاذا اطلقه على العشبة الاولى التي كان اول موجد لها فبماذا يسمي النباتات الاخرى التي يعثر عليها وقد تكون كثيرة تعد بالعشرات. وهنا يجول في خلده تسمية النبات باسم الاقليم او الكورة التي وجده فيها . ولكن اسماء الكُوَر في الشرق الاقصى او لدى زنوج افريقيا كثيراً ما تكون ثقيلة على السمع لتنافر مخارج حروفها او لغير ذلك من الاسباب فيعنُّ على باله اطلاق اسم احد العلماء على ذلك النبات فيستعرض أسماءهم فيرى ان كلاًّ منهم قد نسب اليه نبات من النباتات من قبل احد النباتيين الذين تقدموه ، ولهذا يقف صاحبنا يائساً من ايجاد اسم لعشبته في هذه الناحية ايضاً فيتجه الى نواح اخرى أهمها درس صفات العشبة المذكورة في اوراقها او ازهارها او غير ذلك من اعضائها حتى اذا وجد في احدها صفة بارزة سمى العشبة باللفظة اليونانية او اللاتينية التي تدلُّ على تلك الصفة ، وهكذا يظن النباتي انه اوجد اسماً جديداً لجنس النبات الذي عثر عليه . لكنه كثيراً ما يتفق ان اجناساً نباتية اخرى تكون

جائزة على الصفات نفسها وان احد علماء النبات كان اطلق اللفظة اليونانية المذكورة على جنس نباتي آخر فيرجع صاحبنا بالخيبة ويعود الى التفتيش عن صفات بارزة اخرى في عشبته او يطرق ابواباً لم يطرقها بعد كتسميتها باسم احد الآلهة الاقدمين او بالاسم الذي يعرفها بهِ اهالي تلك البلاد او بالصفة الدالة على أهم ما فيها من الخواص الطبية او الصناعية الخ

يتضح مما مرَّ ذكره ان علماء النبات منذ القرن السابع عشر الى اليوم قد لقوا عرق القربة من وضع اسماء علمية لاجناس النباتات العديدة فلا غرابة اذن ان يجيء بعض هذه الاسماء ثقيلاً على الاسماع فليس كل نبات يدعى حنطة او شعيراً او تفاحاً او رماناً بل هناك الوف من الاجناس ومئات الالوف من الانواع والاصناف النباتية ليس لها اسماء حتى في ارقى اللغات الاوربية . ومن المستحيل ان تجيء كل الالفاظ التي توضع للدلالة عليها خالية من كل شائبة . والحال واحد في كثير من العلوم الاخرى كعلم الحيوان والجيولوجية والمعدنيات والطب والحشرات والآلات الزراعية والصناعية وغيرها فهي كلها تحتاج الى وضع آلاف مؤلفة من الاسماء العلمية التي تسمو عن متناول العامة ولا يحفظها سوى الخاصة من الناس . ويلخص ما قلناه عن اسماء اجناس النباتات العلمية وعن الطرائق التي اتبعها العلماء العشَّابون في وضعها ان تلك الطرائق هي اولاً تسمية النبات باسم الذي كشف عنه كقولنا لينيا وفورسكاليا فهما نباتان منسوبان الى النباتيين المشهورين لينيوس وفورسكال. ثانياً نسبة النبات الى المدينة او الكورة او الاقليم حيث تكون منابته الطبيعية كلفظة ادينيا فهي من عدن العربية وقد وضعها فورسكال للدلالة على نبات وجده في عدن . ثالثاً الاحتفاظ بالاسم الذي عرفه الاقدمون كاليونان والعرب مثل كوفيا فهي من القهوة وبستاسيا من الفستق وموزا من الموز وكلها مأخوذة من العربية . رابعاً نسبة النبات الى احد العلماء او الملوك او الحكام المشهورين ممن احبّوا العشابين وعطفوا عليهم وأعانوهم في اعمالهم الشاقة مثل دَرْوينيا فهي منسوبة الى العلامة دروين الشهير وكوبرنيكيا فهي نخلة نسبوها الى الفلكي كوبرنيكوس وهكذا . خامساً نسبة النبات الى احد آلهة الاقدمين من يونان ورومان وغيرهم مثل مركورياليس فهي منسوبة الى مركور (عطارد) إلـه الفصاحة والتجارة عند اليونان ، وأبولونيكا فهي باسم أبولون إلـه الشعر والصنائع النفيسة وغيرها عند اليونان والرومان ، وباسيفلورا اي زهرة الآلام (يسمونها الساعة في دمشق) فهي تدل على آلام المسيح لان زهرة هذا النبات تشبه خشبة الصليب ومسامير العذاب . وسماها الدمشقيون « ساعة » تشبيهاً لها بمينا الساعة وعقربيها . سادساً تسمية النبات بالنعوت الدالة على بعض خواصه الطبية او الصناعية او غيرها مثل بَلْموناريا ومعناها عشبة الرئة لانها تستعمل في بعض امراض الرئة . ومثل متريكاريا ومعناها عشبة الرحم لانهم كانوا يستعملونها في امراض الرحم. سابعاً الاحتفاظ بالاسم الذي يطلقه سكان البلاد الاصليون على النبات المبحوث عنه . مثال ذلك إتسوغة وهي لفظة يابانية تدل على شجرة مشهورة من اشجار الفصيلة الصنوبرية . ومثل سكويا

وهي تطلق في كليفورنيا على « الشجرة الجبارة » المنسوبة الى الفصيلة الصنوبرية ايضاً
ثامناً الرجوع الى صفة بارزة من صفات النبات وتسميته باللفظة اليونانية التي تدل على تلك الصفة. وهذا الشكل في وضع الاسماء هو الاعم مثال ذلك النبات المسمى أسبيديسترا من الفصيلة الزنبقية فهو مبذول في بيوت دمشق وأراه امامي وانا اكتب هذه المقالة . فهذه اللفظة معناها الدُرَيقة اي الترس الصغير لان لزهرته ميسماً لحمياً غليظاً على شكل قبعة مستديرة محدبة تغطي الزهرة كغطاء القدر. ولنتمثل ايضاً بنبات ثان تمثل به صاحبنا العالم النباتي الفرنسي الذي ألمعت اليه وهو النبات المسمى اكريدوكربوس فان هذه اللفظة مركبة من لفظتين يونانيتين معنى الاولى جرادة ومعنى الثانية ثمرة . فترجمة الاسم العلمي اذن عشبة الثمرة الجرادية او الجرادية الثمرة . وفي الحقيقة اذا القى الانسان نظرة على ثمرة هذا النبات رآها تشبه جرادة طائرة مبسوطة الجناحين . وأسماء النباتات التي وضعت على هذه الطريقة تعد بالالوف ولهذا يقولون ان اليونانية واللاتينية هي للغات الاوربية معين لا ينضب . ولهذا ايضاً ترى علماء النبات يشعرون بماهية النبات من تلاوة اسمه . والعكس بالعكس اي اذا كان النباتي قديراً في صنعته يدرك من نظرة يلقيها على نبتة من النباتات اهم صفات تلك النبتة كما يدرك الاسم الذي يجب ان يكون وضع لها . تاسعاً اتباع طرق شاذة في وضع اسماء النباتات كأن يكون النبات منسوباً الى أحد العلماء لكن اسم هذا العالم طويل يصعب التلفظ به فيحرفونه ويختصرونه حتى يسلس على اللسان ويرنّ جيداً في الاذن . وكأن يبدلوا مكان الحروف في اسم احد النباتات اي يستعملوا القلب المعروف في اللغة العربية ويخلقوا على هذا الشكل اسماً جديداً لنبات جديد . ومما يتفق لهم ايضاً ان يضيق العلم بالامر ذرعاً فيضع للنبات اسماً لا معنى له كلفظة لوازا الدالة على زهرة معروفة فانها لا معنى لها وقد ركبها ادنسون من حروف وردت على خاطره عفواً

النقل الى العربية

اما وقد عرفنا كيف وضع العلماء الاوربيون اسماء لذلك العدد العظيم من النباتات اصبح من السهل علينا استنتاج السبل التي يجب ان نسلكها في وضع الفاظ عربية او معربة لها . واذا أنعمنا النظر في قائمة اجناس النباتات نجد منها عدداً عرفه اجدادنا ووضعوا له اسماء عربية او عربوا اسماءه اليونانية كما نجد عدداً لم يعرفوه . فالقسم الاول ندع الفاظه العربية او المعربة على حالها ونستعملها كما وردت في كتب العشّابين والاطباء كابن البيطار وغيره بعد التثبت من صحة اللفظة لان النساخ وعمال المطابع كثيراً ما يعبثون بها

اما القسم الثاني فهو الأهم بل هو بيت القصيد لان ما جهله اجدادنا من النباتات يبلغ اضعاف ما عرفوه منها . ففي هذا القسم أرى ان نسير في وضع الاسماء للمسميات على الطريقة الآتية . وهي :
اولا اسماء الاجناس النباتية المنسوبة الى افراد من الناس (علماء وملوك وحكام وغيرهم) أو الى آلهة القدماء فهذه يجب ان تُعرب إما بأن تترك على حالها واما بأن تجعل بصيغة النسبة . مثال ذلك شجرة

مكلورا فهي منسوبة الى المواليدي الاميركي المسمى مكلور. ولذلك نسميها مكلورا كما هي اللفظة العلمية او مكلورية بصيغة النسبة . ولا يجوز لنا ان نعبث بتلك اللفظة واشباهها لانها انما وضعت للتنويه باسماء العلماء واصحاب السلطان من محبي العلوم ومن حق هؤلاء على الناس أن لا تضيع اسماؤهم عملاً بارادة النباتيين الكاشفين الذين سموا النباتات بتلك الاسماء . لكنهُ من البديهي انهُ اذا كان يوجد بلساننا لفظة عربية فصيحة تدل على نباتٍ لفظتهُ العلمية منسوبةٌ الى احد العلماء فمن واجبنا في هذه الحال ترجيح اللفظة العربية . ومن الامثلة على ذلك البقلة التي تطلق عليها لفظة العكّوب فان اللفظة العلمية التي تدلُّ على جنس هذا النبات هي غونداليا وهي محرَّفة عن اسم الطبيب الالماني غوندلشيمر فنحن لسنا بحاجة الى تعريب اللفظة العلمية المذكورة ما دام يوجد لدينا لفظة عربية ترادفها . ثانياً اسماء الاجناس النباتية المنسوبة الى مدينة او كورة او اقليم فهذه ايضاً لابد من استبقائها على حالها او جعلها بصيغة النسبة شريطة ان يرسم الاسم كما يرسمه العرب فيقال عدني لا أدني للنبات الذي يسمونه ادينيا وهكذا . ثالثاً اسماء الاجناس النباتية الموضوعة بلسان سكان البلاد التي عثروا فيها على تلك النباتات. فهذه ايضاً يجب ان نعربها ولنا اسوة في ذلك باللسان العلمي وبجميع الالسنة الاوربية الكبيرة

رابعاً اسماء الاجناس النباتية الدالة على صفة بارزة من صفات النباتات . فهذه الاسماء (وعددها هو الاكبر) تترجم الى العربية بمدلولات معانيها فيقال اذن الدب للنبات المسمى اركتوتيس وزهرة الرمال للنبتة المسماة ارينازيا وشجرة البهاء للشجرة التي تدعى كالودندرون الخ . وليس من المناسب على ما ارى تعريب هذه الالفاظ العلمية كما شاهدت في بعض الكتب والمعاجم العلمية العربية لان تعريب هذه الاسماء اي نقلها الى العربية على حالها يدلُّ على ان الناقل يجهل معناها الاشتقاقي او على انه لم يجشم نفسه تحري هذا المعنى اثناء النقل . وهو ملوم في الحالين

وهنا اصل الى مسئلة لم اتعرض لها بعد في هذا المقال وهي ان اسم النبات العلمي يكون في العادة مركباً من لفظتين الاولى تدل على الجنس والثانية تدل على النوع . فكل ما اوردته الى الآن يتعلق باللفظة الدالة على الجنس وهي المهمة . اما اللفظة الدالة على النوع فانهُ يكون لها معنى في معظم النباتات ولهذا يجب علينا ان نترجم هذا المعنى الى العربية لا ان نفعل كما فعل بعض اصحاب المعاجم العلمية الذين اكتفوا بتعريب لفظة النوع جهلاً منهم بمعناها اللاتيني . مثال ذلك « كبانولا رباتا » ومعناها الجُرَيس الملتحي فلفظة كبانولا تدل على الجنس وقد ترجمناها بمدلولها وفاقاً لما مرَّ ذكرهُ ولفظة رباتا تدل على النوع وهي صفة معناها الملتحي فلا يجوز ان نعربها بل ينبغي ان نترجمها بلفظة الملتحي وهكذا في كل الالفاظ الدالة على النوع اذ نقول الجريس النبيل والجريس المجتمع الزهر والجريس الكبير الورق والجريس الجذروفي الخ . واللغة العربية تتسع لكل الاسماء التي لها معانٍ من هذا القبيل . والدليل على ذلك انني اوجدت في « معجم الالفاظ الزراعية » نحو الفي لفظة عربية تدل على نباتات زراعية ما كان يعرفها اجدادنا وليس لها اسماء بلغتنا . وقد نشرت قسماً من هذه الالفاظ مع مرادفها

من الالفاظ العلمية في رسالة اسميتها الرسالة النباتية طبعها مجمعنا العلمي العربي بدمشق سنة ١٩٣٢

اما الاسماء الدالة على الصنف او الضرب النباتي فعددها كبير جداً ويندر وجودها في المعاجم بل توجد في كتب الازهار والاشجار والكتب الزراعية والنباتية المهمة . واذا كان للفظة التي تعبر عن الصنف معنى من المعاني التي لها لفظ بالعربية ترجمنا معناها والاّ تركناه على حاله وعربناه اضطراراً كما يفعل الاجانب عند ما ينقلون الى لغاتهم اصناف بلادنا فهم يقولون مثلاً قمح حوراني وبلدي ونورسي وعنب داراني وزيني وقاصوفي تاركين ألفاظ الصنف على حالها . وقد ازداد عدد الاصناف النباتية ولاسيما الزراعية منها حتى عجز ارباب الزراعة المشتغلون بأيجاد الاصناف الجديدة عن ابتكار اسماء لها لذلك تراهم احياناً يرقمونها بأرقام تدل عليها او ينسبونها الى اشخاص من اقاربهم اواصدقائهم او صديقاتهم او حبيباتهم . وربما سموها باسماء خيلهم او كلابهم او حقل من حقولهم او مكان يمثل ذكرى من ذكرياتهم وهكذا . واذا اردتم امثلة على ما ذكرت راجعوا مئات الاصناف من الورد او البغونيا او الاقحوان او غيرها من الازهار والرياحين واشجار التزيين والكروم ولاسيما الهجن الاميريكية من الكروم المستعملة مطعمة لاتقاء اضرار حشرة الفيلوكسرا المشهورة

وجوه الاعتراض وردها

هذا مجمل في اجناس النباتات وانواعها واصنافها وفي كيفية نقل كل منها الى العربية . وربَّ معترض يقول كيف ندخل على لساننا هذا الجيش الجرار من الاسماء المعربة لنباتات منسوبة الى اشخاص او الى كور وقد تكون تلك الاسماء ثقيلة على السمع او خارجة عن الاوزان العربية فنجيبه بأن بعض الالفاظ المعربة قديماً ومنها ما ورد في القرآن نفسه لا اوزان عربية لها كلفظة ابراهيم وابريسم وخراسان وإطريفل الخ . فلم يمنع ذلك اجدادنا من أخذها وادخالها في لسانهم . وقد ذكر اهل اللغة ان المعربات لا يشترط فيها ان تكون على الاوزان العربية لكنه لا بأس بتشذيبها حتى تصير على نهج كلام العرب واسلوبهم . اما ان يكون بعض الالفاظ المعربة ثقيلا في الاذن فهذه مسئلة لا يعتدُّ بها كثيراً لان الاذن تألف بالممارسة اغرب الاسماء . والدليل على ذلك اننا لا نستثقل اليوم الفاظ كرويا وباذنجان وأنيسون ونرجس ونيلوفر وعشرات من امثالها وكلها معربة قديماً . بل نكاد لانستثقل لفظة بطاطس وبنادورى وطماطم وهي اشد وقعاً على الاذن من لفظة الكَنَهْور التي لم ترق صديقنا الاستاذ احمد امين كما صرّح في «الرسالة» على حين ان لفظة الكنهور لازمة لنا في علم الجويّات وهي أخف على السمع من مئات من الالفاظ العلمية الاخرى . بل يمكن استعمالها في الادب والشعر اذا وضعت حيث يجب ان توضع كما في البيتين الآتيين وهما من قصيدة لي عنوانها «حنين الى القاهرة»

اين الكنهور في جوّ الشآم اذا كانون هاج اعاصيراً تغادينا
من رائق الجوّ في مصر وقد نسمت ربّما تداعب في الروض الرياحينا

ولا يظنن اننا نشكو وحدنا ثقل بعض الالفاظ العلمية وصعوبة التلفظ بها . فنحن والاوربيون

في ذلك سواسية لأن لغاتهم كلغتنا لا تهضم في بادىء الامر تلك الالفاظ لكن كثرة استعمالها تنتهي بجعلها قابلة للهضم . فلنا اذن اسوة بهم

هذا بيان موجز في الوسائل التي اتخذها العلماء الاوربيون لوضع ذلك العدد العظيم من الاسماء للمسميات النباتية . وهذه هي الطريقة التي ارى وجوب اتباعها لنقل تلك الاسماء الى العربية . ولا أظن انه سبقني احد من كتّاب العرب الى ايضاح هذه الطريقة على الوجه الذي جلوتها بهِ ، وهي التي يجب اتباعها في ايجاد المصطلحات العلمية في العلوم السائرة كالحيوانات ومنها الحشرات والزراعة والطب وغيرها. وخلاصتها اولاً تحري الالفاظ العربية الاصيلة والمولدة في كتب اللغة واستعمالها للدلالة على ما يرادفها من الالفاظ العلمية . وقد اوجدت بهذه الطريقة بضع مئات من الاسماء والافعال في «معجم الالفاظ الزراعية» مما لم يرد في المعاجم الاعجمية العربية ونشرت قسماً منها في مجلة مجمعنا الدمشقي بعنوان « الفاظ عربية لمعانٍ زراعية » و «الوان الخيل وشياتها» و «اصطلاحات النباتات الدنيا» الخ. ثانياً ترجمة كل ما له معنى سهل الترجمة من الصفات والموصوفات. ثالثاً تعريب ما ينسب الى شخص او مدينة او كورة او غير ذلك من الاعلام وكذا كل ما يرجح ادخاله على حاله في متن اللغة كالراديو والفلم واشباههما

وهنالك طرائق غير ما ذكرت يمكن الرجوع اليها في بعض العلوم كعلم الحشرات مثلاً . فمن المعلوم ان الحشرات آلاف مؤلفة وانه ربما افنى المرء عمره في درس انواع رتبة من رتبها . وقد قلت في احدى مقالاتي انني اعرف عالماً اوربيّاً اختصاصيّاً برتبة مُغمَّدة الاجنحة سلخ عشرين سنة من عمره وهو مكب على انواع هذه الرتبة درساً وتنقيباً ولما ينته بعد . وآخر لم يتناول من هذه الرتبة سوى فصيلة واحدة لا يتجاوزها الى غيرها من الفصائل . ومن المعروف ان لهذا الجيش الجرار من الحشرات اسماء علمية لكنهُ ليس لعدد كبير منها اسماء باللغات الاوربية حتى اللغات الكبيرة منها . ونحن لا نحتاج الآن الى وضع اسماء لغير ما يهمنا من الحشرات اي لغير التي لها تأثير في صحة الانسان وفي مرافقهِ الاقتصادية . فالحشرات التي تؤثر بنا وبزرعنا لا تتجاوز اليوم بضع مئات . وأمامنا طريقتان في ايجاد اسماء لها الأولى الرجوع الى اصل اللفظة العلمية والى اشتقاقها وترجمة معناها اذا كان لها معنى سهل الترجمة او تعريبها اذا كانت منسوبة الى احد الاعلام وهي الطريقة التي تكلمت عليها باسهاب في النبات . والطريقة الثانية اضافة الحشرة الى النبات الذي تستولي عليه كأن يقال سوسة الفول وذبابة البرتقال وخنفساء الحنطة وفراشة الدقيق الشهباء وقملة الزيتون وبقة الخطمي وَقتَع ساق التفاح وأرَقة القطن الخ . وهذه الطريقة اسهل من الاولى وأدلّ على نوع الحشرة واضرارها . وهي متبعة في اللغات الاوربية لكثير من الحشرات وان كانوا يعدونها غير علمية. ومن البديهي ان اتباعها يتعذر كلما كان للنبات الواحد حشرات عدة تفتك بهِ . ومع هذا فقد سهل عليّ العمل بها في «معجم الالفاظ الزراعية» تجاه جميع الحشرات التي يهمنا وضع اسماء لها

ومن الشواذ نقل المصطلحات الكيماوية فهي وان كان لها معانٍ يمكن ترجمتها لكن جمهور العلماء

على وجوب تعريبها وهو الاصلح فنقول كبريتات وحامض كبريتور وحامض كبريتيك وهلمَّ جرًّا لانه من الصعب ترجمة الادوات العديدة التي تضاف على اول اسم او على آخره فتقلب مدلوله الى مادة جديدة . ومن الشواذ ايضاً اشتقاق افعال ونحت كلمات جديدة لا غنى لنا عنها وان كان الاشتقاق والنحت سماعيين . ولا يجوز ان تجمد اللغة لان قدماء النحويين او اللغويين افتوا بأنهُ لا يجوز لاحد ان يشتق او ينحت . ولو عاش هؤلاء في ايامنا هذه واطلعوا على العلوم الحديثة وما تستلزمه من الافعال والاسماء لكانوا اكثر تساهلاً في هذا الصدد . ومن الامثلة على الافعال المشتقة حديثاً سلفر اي عالج بالسلفور وبرعم اي طعم بالبرعم . ومما نحتوهُ اخيراً تحتُربة من تحت التربة وهي طبقة من التراب تكون تحت الطبقة السطحية التي يتناولها المحراث الخ . واذا رجعنا الى التاريخ نجد ان الذين نقلوا كتب العلوم القديمة الى العربية واضافوا الى لساننا مصطلحات عديدة لتلك العلوم ليسوا بلغويين ولا نحويين بل هم اناس هضموا تلك العلوم واخضعوا اللغة لاغراضهم فنمت وازدهرت . ومن هؤلاء ثابت بن قرة الحراني وسنان بن جابر الحراني والطوسي وابن الحمصي والنسطوري وحنين بن اسحق وابن ماسويه وابن وحشية وابن البطريق وقسطا بن لوقا البعلبكي والحجاج بن مطر وغيرهم

وعند ما بدت حاجتنا الملحة الى وضع الالفاظ العلمية الجديدة منذ اوائل القرن الماضي الى اليوم لم ينبرِ لها او لم يبرز فيها سوى من جمعوا بين العلم واللغة كاحمد ندى وعلي رياض واحمد حمدي الجراح وفنديك ويوحنا ورتبات وجورج بوست وبطرس البستاني وبشاره زلزل ويعقوب صرُّوف ونفر من المستشرقين مثل فريتاغ ولين ودوزي وغير هؤلاء . اما اذا استعرضنا الاحياء الذين يعملون في انماء ثروة اللغة العربية نجد ان جلهم رجال اختصوا بفن من الفنون علميًّا وعمليًّا فجعلوا يبحثون عن الالفاظ المتعلقة به فتيسر لهم الوصول الى ما يبتغونه او الى بعض ما يبتغون . والخلاصة ان حاجة اللغة العربية الى المصطلحات العلمية لا يسدها سوى الذين اشرت اليهم في بدء هذا المقال وهم الذين جمعوا بين الاختصاص بأحد العلوم واتقان قواعد اللغة العربية ومفرداتها والاطلاع على لغة واحدة على الاقل من لغات اوربة الغنية بالعلوم والفنون . اما ان نعهد الى النحويين واللغويين بوضع الفاظ في الطب والزراعة والرياضة والفلك والحيوان والنبات والحشرات واشباهها فمعناه كما قال الدكتور يعقوب صرُّوف رحمه الله « تخويلك قاضياً تطبيب الابدان وطبيباً تصوير الالوان » فعلماء اللغة يستعان بهم في مراجعة بعض الالفاظ وفي ضبط بعضها ونفعهم في هذا الباب لا ينكر . لكنه ليس من الصواب تحميلهم فوق طاقتهم وندبهم لغير ما اختصوا بهِ . واتساع الفنون في هذه الايام لا يدع مجالاً في ميدان الاعمال المفيدة لغير الاختصاصيين من العلماء . وقد انقضى الزمن الذي كان الانسان فيه لا يعد عالماً ما لم يدرس العلوم باسرها وما لم يصنف فيها جميعاً . ولا شك أنه اذا تكاتف فقهاء لغتنا وعلماؤنا الاختصاصيون بالفنون الحديثة على العمل معاً في سبيل هذه اللغة قطفنا من تكاتفهم اينع الثمار وازكاها

وقفة في سلع

وهي المعروفة بوادي موسى او البتراء

للشيخ فؤاد باشا الخطيب

تلك القبورُ، وماثلُ الاطلالِ　　صُحُفٌ منشَّرةٌ وذكرٌ خالِ

للنفسِ بينهما وحولَ حماها　　عظةٌ ومسرحُ عبرةٍ وجلالِ

ان ناح مرتجزُ السحابِ عليهما　　فاستسقِ صيّبَ دمعكَ الهطَّالِ

هي (سلع) والبتراء ترجمة اسمها　　نسجت عليهِ عناكب الاهمالِ

وادلٌّ منهُ ومن معاهدِ انسها　　زمن يروّع كلَّ ناعم بالِ

فاذا العروبة هجنة ممسوخة　　واذا المنازل والديار خوالِ

وادٍ تحفُّ به الشوامخُ ممعنٌ　　في السَّفح اربدُ قالص السربالِ

يندسُّ آونة ويسنح تارة　　بين الوهاد — ومن وراء جبالِ

متعرجٌ يلتف غير معرّج　　ويجول حين يهيم كلَّ مجالِ

فلو انّ مرتاعاً يروع مشرَّداً　　ماكان اعجبَ منهُ في الايغالِ

متجاوب الاصداءِ تسمع كلما　　اصغيت فيه هماهمَ الاغوالِ

إن صرَّحتْ باليأسِ منهُ امدّها　　املٌ على الايام ليس بسالِ

* * *

شقَّ الاديم الى الصميم مهرولاً　　في الارض بين حزونة ورمالِ

ذكر القطين فجدَّ يهبط خلفهم　　يتقحم الاعماق غير مبالِ

قد كان منتجع العفاة ولم يزل　　بعد العفاء محطَّ كلِّ رحالِ

لمشمّرٍ بين البلاد، محبّرٍ　　نبأ العباد، وسائحٍ جوَّالِ

فلق الحجاز كأنَّ كلَّ طمرَّة　　سرُح اليدين عليهِ ذات شكالِ

غبَرتْ تعضّ على الشكيم تغيظاً　　وتدبّ بين تعسف وخبالِ

تترقب القدر المتاح تلفتاً　　فتغصُّ حين تهم بالتصهالِ

ويهولها الامد السحيق كأنها　　تجتاز فوقَ مزالق الاجيالِ

* * *

اشرفتُ منهُ على العصور تمثلتْ　　ومشيت بين هدى وبين ضلالِ

وشققت جيب الارض من اطرافها حتى انتهيت اليهِ نضوَ كلالِ
وشهدت فيهِ مدينة منحوتةً في الصخر تحتَ مشيَّد التمثالِ
موصولة حجراتها بفنائها نقراً على عُمُد لهنَّ طوالِ
لبست اياة الشمس في الوانها وزهت بابرع زخرفٍ وصقالِ
والقصر نحو القصر ينظر شاخصاً نظر المدلّه مؤذناً بزيالِ
ان ورّع العبرات جاش اتيُّها وَهمتْ سجالٌ منهُ بعد سجالِ

* * *

ومغارةٍ وقفت حيالَ مغارةٍ ومدرَّج في إثر آخرَ تالِ
يتشعّثُ الدرج الشتيت خلالها كخطوط أعسر او دبيب نمالِ

* * *

بلد كأنَّ يداً دَحتْهُ تخرُّ من قُلَل الجبال ممزَّقَ الاوصالِ
فهنا الصخور على الصخور تحطمتْ وهناك منهُ حقيقة كخيالِ
او كالطلاسم فوق مُهرق ساحرٍ في كلّ زاوية خبيئة حالِ
موتٌ تطوف بهِ الحياة وموقفٌ خشعت لديهِ طوارق الاهوالِ
تمضي القرون على القرون كأنُّها وقد انحدرْنَ اليهِ بضعُ ليالِ

* * *

فانظر الى الامصار كيف تنكّرتْ والى القضاءِ يصولُ كل مصالِ
والى الانام تلفُّهم اكفانهم بعد الجهادِ ونضرةِ الآمالِ
وانزع الى الملك المهيمن فوقهم فالعلمُ ملّ تنطُّس الجهّالِ
وجدالَ دجّالٍ وسخف موسوسٍ يتشدقان بطائش الاقوالِ

* * *

تلك الربوع فسَلْ بها آثارها واسمع فثمَّ جواب كلّ سؤالِ
فلعلّ عن (موسى الكليم) محدثاً بين التلاع يصيحُ والادحالِ
ولعلَّ (طور سنين) بين هضابها باقٍ كمهدِ الوحي غير مذالِ
واذا اقتبستَ من الخرائب حكمةً فلقد افدْتَ غنىً وحسْن مآلِ

* * *

سبحان من يهب الحياةَ تبرعاً من قبل ايّ رضى وايّ سؤالِ
متصرف في الكون غير مفرّط يبني الجديد من القديم البالي
كتب الخلود على الوجود فلم يكنْ في الموتِ غير تحوّلِ الاشكالِ

غلاّب الموت

كيف قهر بانتنغ البول السكري بالانسولين

—١—

اي شأن لبانتنغ ، بل اي صلة له بالبول السكري ؟ انها لجرأة على العلم من هذا الجرّاح ! كان العلماء قد جمعوا قدراً كبيراً من الحقائق المتصلة بهذا المرض . ولكن بانتنغ كان براءً من هذه المباحث جميعاً، لانهُ لم ينوِ في حياتهِ ان يكون طبيباً متوفراً على معالجة المصابين بهِ . انتظم في الجيش الكندي في خلال الحرب الكبرى ، وذهب الى فرنسا ، فلم تبدُ عليهِ آيات الذكاء الخارق لا في المعاهد العلمية ولا في الجيش . ولكنه كان عنيداً ، لايقرّ بهزيمة . قيل انهُ جرح في ذراعهِ في خلال الحرب ، فأشار عليهِ الاطباء بقطعها والاّ تعرض للموت فصاح بهم ، « اني اريد ان احتفظ بذراعي » . وها هوذا قد عاد من ميادين الحرب ، وذراعهُ لم تقطع

اشتغل فترةً في مستشفى الاطفال في تورنتو ، ثم استقال وذهب الى بلدة صغيرة في اونتاريو ليمارس الجراحة فيها . فانتظر ثمانية وعشرين يوماً قبل ما جاءه المريض الاول . وكذلك ختم الشهر الاول من ممارسته الجراحية المستقلة ، بمريض واحد ودخلٍ قدره ثمانون قرشاً . وفي نهاية الشهر تمكن من الفوز بعمل معيد في مدرسة طبية هناك ، وقد فعل ذلك لا لطموح علمي فيه بل لاجل العيش . فكان يقضي الليالي الطوال مكبًّا على كتب العلم بين يديه ، يعدّ الدروس لليوم التالي . ومضى على ذلك الى ان كانت ليلة ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٢٠

كان في تلك الليلة يطالع في وظيفة الغدة الحلوة (البنكرياس) فتغلغلت في نفسهِ حقيقة قديمة ولكنها خطيرة : اذا ازيلت منا جميعاً الغدد الحلوة متنا بالبول السكري . كان في عهد الطب قد تعلم ان هذه الغدة تفرز في قناتها الى المعى الدقيق مفرزات خفية الفعل ، تساعد على هضم المواد السكرية والدهنية والنشوية في الطعام . جلس في تلك الليلة التاريخية يقرأ كيف استأصل منكوفسكي Minkowski الالماني الغدة الحلوة من كلب سليم ، ثم خاط جانبي الجرح في البطن حيث استخرجت الغدة ، وأحاطهُ بكل ضروب العناية ، وجعل يراقبه يهزل امام عينيه رويداً رويداً ، ويشتدُّ ظمأه وجوعه ، ويضعف نشاطه ، ويزداد السكر في بوله ، وفي اقل من عشرة ايام نفق ذلك الكلب بداء البول السكري . ثم اقبل على مباحث العلماء الآخرين فقرأ كيف اكتشف ذلك الالماني الآخر — لانغرهانز Langerhans — اجساماً صغيرة في تلك الغدة ، كانت اشبه شيء بالجزائر في البحر مفصولة عن الخلايا التي تولّد المفرزات الهاضمة وعلم ليلتها ان هذه الجزائر لا قناة لها ؟ فسأل نفسه وما الفائدة منها ؟

وخطر على باله في تلك الليلة ان يصرّح لتلاميذه في اليوم التالي، ان هذه الخلايا—خلايا الجزائر التي كشفها لانغرهانز — هي ما يقينا من البول السكّري بل لتستطيع ان تربط القناة الحلوة في كلب وتمنع مفرزاتها من الوصول الى المعى الدقيق ومع ذلك لا يصاب الكلب بالبول السكري . . . ولكن اذا استأصلت الغدة كاملة . . . . ! ثم ان الباحث الاميركيّ اوغي Ogpie كان قد بحث في الغدد الحلوة في اناس ماتوا بالبول السكّري فوجد كتل الخلايا المعروفة بجزائر لانغرهانز مريضة حائلة. هل تفرز هذه الخلايا هرموناً ؟ هل تصبّ هذه الخلايا في الدم اذ تكون سليمة ، افرازاً داخليًا يحتوي على مادة مجهولة ، تمكّن خلايا الجسم ، من حرق السكّر الذي في الدم، لتتناول من حرقه طاقة الحرارة التي تحتاج اليها ؟ لم يسمع بعدُ ان احداً كشف هذه المادة المجهولة في افراز هذه الخلايا

ها هوذا بانتنغ قد قضى الليلة يبحث في ما تقولهُ طوائف البحّاث في انحاء العالم ، كيف قضت سنوات تبحث عن هذه المادة المجهولة ، وتخفق في بحثها . وها هي ذي الاحصاءات الطبية يؤخذ منها ان الوفاً من الرجال والنساءِ والشبان والشابات يموتون ، بالبول السكري هزالاً ظماءً جياعاً . فكيف يستطيع احد ان ينتظر من بانتنغ اكسير الحياة لهؤلاءِ الناس المقضيّ عليهم . بل انك لو قلت لهُ انهُ بعد ساعة واحدة فقط، سيكشف اول الطريق الذي يفضي بهِ الى ذلك الاكسير، لضحك من قولك !

وانقضى الهزيع الثاني من تلك الليلة التاريخية ، وقام بانتنغ الى سريرهِ ، بعد بحثهِ المتقدّم ، ليأخذ قسطاً من الراحة ، فوجد على المائدة قرب سريرهِ ، آخر عدد من مجلة « الجراحة والولادة وامراض النساء » وكان قد وصلهُ في النهار ففتحهُ ، ليتصفح مباحثهُ ... مهلاً ... اتفاق غريب ... هوذا اسم يطالعهُ من احدى الصفحات مقترناً بالغدة الحلوة ! يكبّ على الصفحة التي فيها مقالة هذا الرجل . امرٌ عجيب كيف تحوّل موضوع الدرس ، المملّ ، الى بحث أخّاذ . ان هذا الكاتب يثبت ، انهُ اذا سدّت الحصى القناة الحلوة ، ومات المريض ، وشرّحت غدتهُ هذه تبيّن ان الخلايا العادية التي تولّد الافراز الهضمي تكون قد ضمرت وضؤلت وحالت وماتت . واما الخلايا في جزائر لانغرهانز فسليمةٌ سويّة . . . . طار النوم من عينيهِ . . .ان هؤلاءِ الذين تسدّ الحصوات قنوات غددهم الحلوة لا يصابون بالبول السكّري . اذاً ثمة علاقة بين الاصابة بهذا الداء ، وبين جزائر لانغرهانز . وعمد الكاتب الى الكلاب يشق بطونها ، ويربط قنوات الغدد ، ثم يخيط الجرح ويترك الكلاب تعيش عيشة سوية ، ثم بعد ايام يشقّ بطونها ثانية ، فيرى الغدد الحلوة حائلة ، ولكن جزائر لانغرهانز فيها سليمةٌ سوية . . . . وهذه الكلاب لم تصب بالبول السكّري

أوى بانتنغ الى سريره ، ولكنهُ لم ينم اذ كيف ينام وفي دماغهِ عاصفة ، وهو يحاول من دون وعيٍ ، ان يصل بين عملية الكلاب ، وبين انقاذ المصابين بالبول السكّري من الموت المحتوم . أليس ثمة وسيلة ، لاستخلاص خلايا الجزائر السليمة في كلب ، حالت بقية غدته ، واستعمالها في كلب مصاب بالبول السكّري فيبقى على قيد الحياة ؟؟ وفي الساعة الثانية بعد نصف الليل هبّ من سريرهِ ،

وكأَنَّ الهاماً هبط عليهِ ودوَّن في دفترهِ : — « اربط قناة الحلوة في الكلب . ثم انتظر ستة اسابيع الى ثمانية حتى تحول . ثم استأصل بقيتها واصنع منها خلاصةً »

عندئذٍ استطاع ان ينام ، ولما استيقظ في الصبح ادرك انهُ لم يولد ليكون جرَّاحاً

—٣—

ذهب بانتنغ الى الاستاذ مكلود Macleod رئيس قسم الفسيولوجيا في كلية الطب بجامعة تورنتو وها هوذا في مكتبهِ يحاول ان يستنجد بالالفاظ العلمية الضخمة ، ليقع من الاستاذ الكبير ، موقع الاحترام والقبول . ولكنه لا يصيب الاَّ تلك العبارات الثلاث البسيطة ، التي دوَّنها في الساعة الثانية بعد نصف الليل ، .... قال .... اننا اذا ربطنا قناة غدة البنكرياس الخ . . . . وكان الاستاذ مكلود حالماً ، فأراد ان يعرف هل ما يقولهُ بانتنغ قد ثبت بالامتحان ، وتأيد بمباحث الاطباء والعلماءِ . ولعله اشار على بانتنغ في شيءٍ من التعالي بوجوب انصرافهِ بضع سنوات الى القراءة في تشريح الحلوة ووظيفتها . او لعله انقضَّ عليهِ كالصقر واثبت لهُ في جملة او جملتين ، وهو العالم بكيمياءِ السكر في الدم ، ان بانتنغ يجهل هذا الموضوع الخطير كلَّ الجهل . على ان بانتنغ كان رجلاً عنيداً ، راسخاً كالجبال لا تميد مع الريح ، فاعترف للعالم الكبير امامهُ انهُ لا يعلم الاَّ اليسير من تشريح الحلوة ووظائفها وكيمياءِ السكر في الدم ، وانهُ لم يثبت بالتجربة ان ما يقولهُ صحيح ، ولكنهُ يحسُّ في قرارة نفسهِ انه صحيح . وكلما اعاد مكلود في مسألة البرهان العلمي وضرورتهِ ، بدأَ بانتنغ يبيّن ، بان ما يحسُّ بهِ في قرارة نفسهِ لا بدَّ ان يكون صحيحاً

ولا ريب ان الاستاذ مكلود يستحق الثناء من التاريخ، لانهُ صبر على سماع هذيان الرجل واخيراً سألهُ ما يريد ، فقال عشرة كلاب ومساعداً وثمانية اسابيع ليثبت ... ما عجز عنهُ فطاحل العلماءِ !

فلما اخبر بانتنغ استاذهُ في الجراحة وغيرهُ من اصدقائهِ الخلّص ، بانهُ ينوي ان يبيع عيادتهُ ، ويستقيل من عمل التدريس قالوا لهُ جميعاً ان ذلك حمق وتهوُّر ، وان حماستهُ لهذه الفكرة العارضة ، لا بدَّ ان تخفَّ سورتها ، واشاروا عليهِ بالعودة الى بلدتهِ والمضيّ في عمله هناك . فعاد . ولكن هذه الفكرة ظلّت مستحوذة عليهِ ، لا تفارقهُ . ما العمل وليس امامه معمل يجرّب فيهِ ، ولا كلبٌ يستلُّ منهُ حلوتهُ . فأَكبَّ على ما كتب في الموضوع يطالعهُ ، واهمل عيادتهُ ، لانهُ كان اذا كلَّت عيناه من المطالعة عمد الى التصوير وهو لايدري من اصولهِ شيئاً

١٦ مايو سنة ١٩٢١ وها هوذا ، بانتنغ في جامعة تورنتو ، في غرفة حقيرة، عالمٌ لم يعيّن من قبل احد للبحث في موضوع اخفق فيهِ من سبقهُ من الباحثين ولا يتوقع ان ينال من احد اجراً ما

ها هوذا في غرفة حقيرة ، وليس له فيها الاَّ دكّة من الخشب ، ومساعدٌ لا يزال طالب طبٍّ في الحادية والعشرين من عمره وعشرة كلاب . كان هـذا المساعد ، تشارلز بست Best بارعاً في قياس مقدار السكر ، في دم الـكلاب المصابة بالبول السكري وبولها . وكان اوسع علماً من بانتنغ

بكيمياء السكر في الدم والبول ، لان بانتنغ كان يكاد لايعرف شيئاً . ولعلَّ جهل هذين الباحثين ، كان اول باعث من بواعث نجاحهما ، حيث اخفق الآخرون لشدة تقيدهم بما عُرف

أخذ بانتنغ الكلاب العشرة وبقر بطونها ، وربط قنوات الغدد الحلوة فيها ، فنجحت العمليات لانهُ كان جرَّاحاً بارعاً . وانقضت سبعة اسابيع او ثمانية عليها وهو ينتظر . وفي اليوم السادس من شهر يوليو سنة ١٩٢١ ، أخذ كلبين من الكلاب العشرة وكانت كلّها مرحة لم يؤثر فيها بقر البطون ولا ربط القنوات، وخدّرها بالكلوروفورم وبقر بطنيهما ثانية ، منتظراً ان يرى الحلوة في كلّ منهما ، وقد ضمرت وحالت ، بحسب نظريتهِ فوجدها على حالتهما الطبيعية . سبعة أسابيع قد ذهبت عبثاً ، وليس في التجربة ما يدل ايسر دلالة على صحة ما احسَّ بصحتهِ . ثم ما لبث ان تبيَّن لهُ انهُ قد شَدَّ رباط القنوات، فحدثت فيها غنغرينا ، ثم نمت الطبيعة قناة اخرى ، صرفت فيها مفرزات الغدَّة . فأقبل على الكلاب الاخرى وبقر بطونها ، فوجد ان رباط القنوات لم يكن شديداً فيها كما كان في الكلبين السابقين، وبحث فيها فوجدها قد ضمرت حتى لكاد يتعذَّر عليهِ ان يجدها

كان مكلود قد سافر الى اوربا ، ليزور معاهد العلم او ليتنزَّه ، ومن مفاخره انهُ لم يأمر بطرد بانتنغ من الجامعة اذا انقضت الاسابيع الثمانية ولم يفز بضالتهِ . وما كان بست يملك مالاً فاقترض من بانتنغ . أما كيف كان بانتنغ يعيش فأمر قد يظلّ من مطويات تاريخ العلم الحديث

وأخيراً اقبل اليوم المشهود ، يوم ٢٧ يوليو ١٩٢١ . كان بانتنغ قبل تسعة ايام قد تناول كلباً واستلَّ منهُ الحلوة وترك الكلب يتغذَّى غذاءً عاديًّا كسائر الكلاب . ولكنهُ اخذ يهزل ويضعف ، وصار شديد الظماء ، شديد الجوع ، فلما قيس مقدار السكر في دمه ، تبيَّن انهُ كبير، حتى ليصح ان تقول ان دمهُ كان في اليوم الثامن واليوم التاسع اشبه شيء بشراب سكّري كثيف قاتم. وعجز الكلب عن النهوض، وعن تحريك ذنبه ، لشدة ما ضعف وهزل . ذلك ان جسمهُ ،وقد استلت منه الغدة الحلوة عجز عن حرق السكر فتجمَّع في دمه . وكان السكر الذي يسقاه شراباً لتغذيتهِ ينصرف مع بوله ، لا يستطيع ان يستفيد منه شيئاً . وكان في صباح يوم ٢٧ يوليو سنة ١٩٢١ على وشك الموت

اقبل بانتنغ ومعهُ كلب من الكلاب التي ربطت قنوات غددها الحلوة فوضعهُ على المشرحة وشقَّ بطنهُ واستلَّ الغدَّة الحلوة الحائلة وناولها الى بست ، فهرَسها في قليل من ماءٍ ملحٍ بارد ثم صفَّاها ، ووضعها في الحقنة وحقنها في وريد الكلب الذي يوشك ان يموت . وجلس الاثنان ينتظران ساعة مرَّت كأنها دقيقة. كان بانتنغ يرقب الكلب ، فاذا هو يرى دلائل النشاط تدبّ فيهِ . فاخذ قليلاً من دمهِ ، واعطاهُ لصديقهِ بست ، في غرفة اخرى، ليفحص ما فيهِ من السكّر ، وقد كان بالامس كالشراب السكري ، فاذا المساعد بست يصيح بان مقدار السكّر قد هبط الى الصفر . واذا الكلب يرفع رأسهُ اولاً ، ثم ينهض وهو يهزُّ ذنبهُ ويمشي مترنحاً . ولكنهُ واقف ، ويمشي على كل حال ... كان الملح المسكّر ، قبل ساعة يمرُّ في جسمه ويخرج مع بولهِ ولايستطيع الكلب ان يحرقهُ .

ها هوذا الآن يسقى الماءَ المسكّر ، فيتناول الجسم سكّرهُ ويحرقهُ ، ويستمدّ منهُ النشاط ... ولكن الكلب مات في اليوم التالي !

— ٣ —

من كان ينتظر دوام هذه العجيبة ؟ كلّ ما فعلهُ بانتنغ وصاحبهُ ، انما هو حقن قليل من حُلوة كلب آخر كانت قد ربطت قناتها في دم كلب سُلّت منهُ حُلوتهُ . حدّق بانتنغ ببست وكره ان يقول انهُ وقد التوى غصن النصر في يديهما ، لا يرى انهما قد فازا بشيءٍ عملي ، اذ من المتعذّر ان تضحي بعشرات الكلاب لكي تحفظ كلباً واحداً حيًّا فترةً يسيرة من الزمن

ولكن الحقنة كان لها اثر عجيب . ألا يمكن ان يكون ذلك الاثر قد جاءَ اتفاقاً ؟ اذن لا بدّ من اعادة التجربة . فاعاداها ، والجوّ حارٌّ رطب يثقل الصدور ، وحقنا الكلب الثاني ، بحقنةٍ كالاولى فانقذاهُ بعد ما كان مائتاً لا ريب فيهِ ، واضطرّا ان يقتلا كلبين سليمين من الكلاب التي ربطت قنوات غددها ، لكي يبقوا هذا الكلب الثاني حيًّا ثلاثة ايام

ولكن الكلب مات لما توقّفا عن حقنهِ . وهذا مما لا يطاق !

جرّب بانتنغ في خلال هذه الايام الثلاثة ان يحقن الكلب المائت ، بخلاصة الكبد او بخلاصة الطحال ولكن ذلك لم يجدهِ شيئاً . وكانت الكلاب العشرة التي طلبها من مكلود قد نفدت . وكان مكلود لا يزال في اوربا لا يدري المصاعب التي اصطدم بها بانتنغ ، ولا كان يرتاب ، ان في معملهِ كان هذان الشابان ، يمهّدان سبيلاً لمكافحة الموت ، المكشر للانسان في البول السكري

وجرّبا التجربة الثالثة في كلبة كان لها مكانة خاصة عندهما ، فحفظاها حيّة ثمانية ايام متوالية ، بعد ما اشرفت على الموت وهما يحقنانها بخلاصة الغدد الحلوة الضامرة المستخرجة من خمسة كلاب . ولكن ما الفائدة ؟ لا ريب في ان المادة المجهولة ، التي تمكن الجسم الحيّ من حرق السكّر الذي يتناولهُ ، موجودة في خلايا جزائر لانغرهانز — فدعاها أيلتين نسبةً الى أيلند او أيلت اي جزيرة — ولكن الأيلتين كالجواهر النادرة يكاد يتعذر الحصول عليهِ ، وعلى سطح الارض الوف وعشرات الالوف من المرضى بالبول السكري ، المصابين بعجزهم عن حرق السكر الذي يتناولونه . فاين السبيل الى ايجاد كلّ « الأيلتين » الذي يحتاجون اليهِ جميعاً

وانقضت الايام سراعاً ، وتتالت الايام شهوراً ، وبانتنغ يبحث عن مصدر يستطيع ان يستمدّ منه هذا « الاكسير » . وجاء شهر نوفمبر وتعرّت الاشجار من اوراقها وعاد مكلود من رحلتهِ الى اوربا وأكبَّ على البحث في موضوع لا صلة لهُ بالبول السكري . ونفد مال بانتنغ ، وكثرت ديونه واصبح لا يستطيع المضي في عمله الاّ اذا اسعفهُ احد بيسير من المال ليحصل به على القوت الضروري . فهبَّ الى نجدتهِ الاستاذ هندرسن ، رئيس قسم الصيدلة في جامعة تورنتو ، وعيّنهُ مدرساً في القسم ، يتناول مرتب المدرس ، ولا يلقّن الطلاّب دروساً

وكان في ذات ليلةٍ من ليالي نوفمبر يطالع في كتاب قديم للعالم لاجس Laguesse فعثر على قولٍ مؤداه ان خلايا جزائر لانغرهانز اكثر في حلوة الطفل الوليد من الخلايا التي تفرز الافراز الهضمي . فقال بانتنغ اذا صحّ ذلك على الطفل الانساني ، فلا بدّ ان يصحّ على جرو الكلب . واذا صحّ على الجرو فلا بدّ ان يصح على الجنين ، ورجّح ان حلوة الجنين معظمها من خلايا جزائر لانغرهانز . فذهب الى صديقهِ الاستاذ هندرسن في الصباح وأطلعه على اكتشافه فقال له هندرسن « وكيف تستطيع ان تحصل على اجنّة الكلاب . عليك ان تربيها وتنتظر حملها »

ولكن بانتنغ كان قد قضى جانباً من صباه في المزارع وعرف كيف تسمّن البقر للذبح . فذهب مع صديقه بست الى السلخانة وعادا بحلوات تسعة عجول — او بالحري اجنة عجول تختلف اعمارها من ثلاثة اشهر الى اربعة . ثم تبيّن لهما انهما اذا استعملا الكحول المحمّض بدلاً من ربط قناة الحلوة ثم هرس بقيتها في الماء الملح استطاعا ان يعتمدا على حلوات البقر الكبيرة ، بدلاً من حصر الاستخلاص في حلوات الاجنة . فعجبا كيف لم يخطر ذلك على بالهما من قبل . ولكن احد حكماء الكتّاب يقول : « كل المشكلات سهلة . . . بعد ما تُحَلّ »

— ٤ —

كان « غلكريست » صديقاً لبانتنغ ، تلازما حديثين وتصاحبا طالبين في مدرسة الطب ، ثم افترقا ، فذهب كلٌّ في سبيلهِ . وأصيب «غلكريست» بداءِ البول السكري فهزل جسمه وشحب وجههُ ، وتراكم السكر في بولهِ ودمهِ ، وتصاعدت من فمهِ رائحه الاستون الناجم عن انحلال الادهان في جسمهِ . وكان يدرك ادراك الطبيب ان هذا لا ريب سائر بهِ الى القبر ، فبدّلت بشاشتهُ الطبيعية ، كآبة وقتاماً . وكان يجرّ رجليه جرّاً اذ يذهب كل يوم لعيادة مرضاه ، ويكاد يمتنع عن كل طعامٍ ، لان اقلّ طعام كان يزيد السكر في دمهِ . وفي ذات يوم من ايام الخريف سنة ١٩٢١ التقى بالفهِ القديم بانتنغ فقال لههذا «قد أبشرك قريباً ببشرى عجيبة» . ثم اصيب «غلكريست» بالنزلة الوافدة وهي من الاصابات التي يخشاها المصابون بالسكر ، فزاد هزالهُ واصبح لا يستطيع ان يتناول اكثر من ثلاث اوقيات من المواد النشوية من دون ان يظهر السكر في بولهِ . وعجز عن العمل لضعفهِ وهو يودّ لو استطاع ان يأكل ما يشتهي ، ليكفي ذلك الجوع الذي يعضهُ بنابٍ ، ولكنهُ كان يدرك ان ذلك قد يزيد السكر في بولهِ ودمهِ حتى يصاب بغيبوبة تكون القاضية عليهِ

فعلّق كل امله ببانتنغ وهو متعلّق من الامل بحبل اوهى من خيط العنكبوت

كان بانتنغ جرّب تلك المادة العجيبة — أيلتين — في الناس بعد الكلاب . جرّبها في نفسهِ وبست قبل ان جرّبها في احدٍ ، لكي يثبت ان هذه المادة التي تفيد الكلاب المصابة بالبول السكري لا تضرّ البشر . وكان في مستشفى تورنتو العمومي ، مصابون قد اشفوا ، فجرّب حقنهم بالايلتين فردّوا الى الحياة . فتناقلت الناس هذه الاخبار همساً . وذهب بانتنغ الى اجتماع طبيّ معقود في

جامعة يايل ، فلم يمنح الاّ بضع دقائق لتلاوة رسالتهِ ، لكثرة الرسائل العلمية الخطيرة !

واقبل يوم ١١ فبراير سنة ١٩٢٢ وجيء « بغلكريست » الى معمل بانتنغ وبست . هو الآن الحيوان الذي يجرّبان فيهِ تجاربهما . وهو لا يكاد يفرق عن الكلاب التي سلّت حلواتها ، لان حلوتهُ كانت عاجزة عن القيام بعملها . فهل يمكّنه « الايلتين » من حرق السكر في دمهِ ؟ فسقي اوقية من الغلوكوس ، ثم اخذت قطرات من دمهِ فاذا السكر فيها كثير كثير . ثم حقن حقنة من الايلتين وجلس بانتنغ وبست يراقبانهِ ، ومضت ساعة وساعتان ، ولم يبدُ على غلكريست ان جسمه بدأ يحرق الغلوكوس بفعل الايلتين العجيب . فاستولت السوداء على بانتنغ . هل تفيد هذه المادة العجيبة الكلاب ولا تفيد الناس ؟ جلس كئيباً وهو يكاد لا يجرؤ ان ينظر الى إلفهِ القديم ظنّـاً منهُ انهُ مائت لا محالة وكان مضطرّاً ان يسرع للحاق بقطار مسافر الى الشمال لزيارة اهلهِ فترك العليل في المعمل ومضى . وما كاد يخرج ، حتى همَّ غلكريست بالخروج وهو لا يدري ان في خفايا جسمهِ انتصرت آية الحياة والعلم على آية الموت . فاقنعهُ بست بالبقاءِ ريثما يحقنهُ حقنة ثانية . وما لبث بعيدها حتى تنفس في الآلة الخاصة بذلك ، فأحسَّ ان لهُ رئتين يتنفس بهما ، وكان لثقل تنفسهِ لا يحسُّهما من قبل . ثم شعر بصفاء في ذهنهِ وان فخذيهِ قد فكّتا من عقالٍ حديديّ كان يثقلهما فاسرع الى دارهِ ، وخاطب بانتنغ عند وصوله وقال ان العجيبة قد تمّت . وجلس عندئذٍ يتناول العشاء الذي يشتهي وبعد العشاء خرج للنزهة مشياً على الاقدام فجعل الناس يحدقون فيهِ ماشياً باسماً وكأنهُ عاد من عالم آخر

عندئذٍ ادرك مكلود ان بانتنغ المتعثر ، قد حقق ما عجز عنهُ اكبر الفسيولوجيين . ولا ريب في انهُ باهى في ما بينهُ وبين ذات نفسهِ ، بانهُ لم يمنع عن بانتنغ المساعدة والكلاب والاسابيع الثمانية . فصدف الآن عن تجاربهِ العلمية الخاصة واقبل هو ومساعدوهُ على الايلتين — بعد ما غيَّر اسمهُ الى انسولين — يدرسون طرق تحضيره ، وانضمَّ اليهم كولب من جامعة البرتا . اما بانتنغ فترك لهم هذه التفصيلات ووجّه عنايتهُ الى المصابين يودُّ ان ينقذهم من براثن الموت وذهب مكلود الى مؤتمر الجمعية الطبية الاميركية فالقى رسالة علمية في هذا الاكتشاف الخطير ، فاصغى اليهِ اساطين الطب وقرّروا ان يوجّهوا الشكر الى « الاستاذ مكلود ومساعديهِ لما نفحوا بهِ الانسانية من نعمة الانسولين ! »

من عجائب الطبيعة البشرية ضنّ الزميل على زميله احياناً بالثناءِ الذي يستحقُّ . فقد روى الدكتور بول ده كروف [1] ان جماعةً من الاطباءِ والبحّاث ، جلسوا في ليلة يتحدثون ، فلما ذكر بانتنغ هـزّت الرؤوس وقلبت الشفاه . وكان ده كروف جديد العناية بسيرة بانتنغ والانسولين ، فأفاض في الحديث . فقيل ولم يعزَ الفضل كلهُ لبانتنغ ، فلما اطلعهم على الحقيقة قالوا واذا كان الفضل كل الفضل له فلا ريب في انهُ كان موفّقاً ولن يستطيع ان يكتشف اكتشافاً آخر مثلهُ

ولكن من يستطيع ذلك !

---

(١) Men Against Death وعنه لخصنا هذا الفصل

كيف تولدت الطيور

علمٌ في أدب

لا يخفى ان في تولُّد انواع الحيوان مذهبين الاول انها خُلقت وكل نوع منها قائم برأسهِ بمميزاتهِ وان ما بينها من التشابه انما كان لان خالقها اراد ان يكون بينها هذا التشابه من بعض الوجوه كما اراد ان يكون بينها اختلاف من وجوه اخرى لاغراض لا نعلمها . والثاني ان انواع الحيوان متولدة كلها من اصل واحد او بضعة اصول وان ما بينها من التشابه دليل على وحدة اصلها وما بينها من الفروق عرَض تولد فيها لاختلاف المؤثرات الخارجية كما تتولـد المميزات في افراد النوع الواحد باختلاف الامكنة والمؤثرات . وعلى هذا المذهب الثاني اكثر علماءِ الطبيعة وهم يقولون ان الطيور تولـدت من الزحافات المعروفة بالعظايات . وقد وضع بعضهم رواية فكاهية عبَّر بها عن كيفية هذا التولد على اسلوب بديع قال :

حدث منذ عشرين مليوناً من السنين ان ذكراً وانثى من العظايات الكبيرة تزاوجا واستقرَّا في احد السواحل البحرية في غربي اوربا وكان لكلٍّ منهما رأس كبير طويل مستدقٌّ كمنقار الطائر ويدان طويلتان ورجلان قصيرتان والذكر منهما اكبر من الانثى جسماً واشد عضلاً فعاشا كلاهما بالرفاءِ والهناءِ على احسن حال في ذلك العصر وهو العصر الثاني من العصور الجيولوجية . وكان غارهما شديد الرطوبة ولكن رطوبته لم تضرَّهما بل نفعتهما ولا سيما بعد ان علا النبات حولهُ وصار يحجبهما عن الانظار

ولم تمضِ ايام كثيرة حتى ولدت الانثى ولداً ذكراً فاحتضنتهُ كالام الرؤوم ورآهُ ابوهُ فأحبهُ وجعل يسعى لزوجتهِ وولده ثم انتبه هو وهي انَّ في ولدهما شيئاً لم يرياهُ في اولاد غيرهما من العظايات وهو غشاءَان لحميَّان صفيقان يمتدَّان من يديهِ الى حقويهِ . فجعلا يفكران في امر هذين الغشائين ولا يدركان المراد منهما ولا كيف تولدا الاَّ انَّ ذلك لم يصرفهما عن حب ولدهما لان الولد فلذة من الكبد . ولما رأيا ان هذين الغشائين كالجناحين سمياه أبا جناح ولم يكن في الأرض حيوان مجنَّح غير الحشرات

وشبَّ ابو جناح شديد الاعصاب قوي العضل فافتخر والداهُ بهِ وجعلا يسيران في طلب الرزق ويأخذانهِ معهما يعلمانه الصيد والقنص . ولم يكن العدوان شديداً بين الحيوانات في تلك الايام لانها كانت تعلم ان بعضها خلِق لبعض اكلاً فاذا اقتنص الكبير منها الصغير خضع الصغير لحكم القدر .

ورأى ابو جناح من والديهِ عضداً لهُ فاغترَّ بنفسهِ ولم يعد يحسب لغير الايام حساباً . وظلَّ على هذه الحال والخيلاء ملء دماغهِ الى ان رأى عظاية من نوعهِ في ريعان صباها فشغفت لبهُ وكاشفها بما في فؤادهِ فنظرت الى جناحيهِ وتبسمت ثم قالت لهُ لا تنتظر مني وصلاً ما لم ارَ منك فعلاً تمتاز بهِ على اقرانك . فقال لها اذا كان الامر كذلك فسترين مني ما تفتخر كل زوجة ان تراهُ في زوجها. واخذ من ذلك الحين يفكـر في طريقة يظهر بها بسالتهُ حتى ترغب حبيبتهُ فيهِ

واتفق ذات يوم انهُ كان واقفاً على قمة اكمة فرأى وحشاً كبيراً يدنو منهُ وهو طويل العنق هائل الجثة جسمهُ مغطى بحراشف كبيرة صفيقة كالدروع وذنبهُ غليظ يستدق رويداً رويداً حتى يصير كالقصبة وهذا الوحش من نوع العظايات ولكنهُ من اكبرها جسماً واشدها بطشاً فعلم ابو جناح انهُ اذا قبض ذلك الوحش عليه لم يكن الاَّ لقمة في فيهِ . وكان ابواه قد علَّماه ان يهرب من وجههِ حيثما رآه والاَّ قضي عليهِ اما الآن فلم يرَ الى الهرب سبيلاً لان الوحش باغتهُ مباغتة فشلَّ اعصابهُ . ولـكن المصائب تنتج الغرايب والحاجة تفتق الحيلة فحدث حينئذٍ ما لم يحدث في عالم الزحافات من قبل فانهُ لم يكد ذلك الوحش يمـد عنقهُ ليلتهم ابا جناح حتى بسط ابو جناح ذراعيهِ ووثب طالباً الفرار وجعل يرفرف مسرعاً خوفاً من عدوه فحمله الهواء كما يحمل الحشرات . فثبت لهُ حينئذٍ ان ذينك الغشائين اللذين لم يعلم لهما نفعاً قد انقذاه من الهلكة . ورأت العظايات ابا جناح طائراً في الجوّ فوقفت مدهوشة لانهُ اول حيوان طار في الهواءِ . ولم يكد يصل الى الارض حـتى عـلم انهُ اتى من الفعال لم يأتهِ غيرهُ من الاقران واجتمعت العظايات حولهُ تسمع قصتهُ من الوحش وتنظر الى جناحيهِ مدهوشة وطلبت منهُ ان يجرّب الطيران امامها ففعل وطار فوق رؤوسها ثم عاد الى المكان الذي طار منـهُ والعيون شاخصة اليهِ . وكانت حبيبتهُ بين الجماعة وقد خفق فؤادها حبًّا وسروراً فلم يكن الاَّ ايام حتى اقترنا ثم ولد لهما ثلاثة اولاد ولكلٍّ منها المزية التي كانت للوالد اي غشاءان صفيقان من ذراعيهِ الى حقويهِ . وتوالد نسلهما دهوراً طوالاً وهذه الخاصة فيهِ الى ان ولد لهُ اولاد على اجنحتها ريش وهي الطيور المعروفة . وقد حدث هذا كلهُ منذ الوف وملايين من السنين والآثار المتحجرة في الارض تدل على ذلك كما تدل آثار الهياكل المصرية القديمة على السكان الاقدمين وعمرانهم . ويقول علماء الطبيعة ان التغير يحدث في الافراد من وقت الى آخر فاذا نفع لحفظ الفرد وظهر في نسله بالوراثة استمرَّ فيهِ وقوي رويداً رويداً بالاستعمال حتى يصير من المميزات او المقومات للنوع فيصير نسل ذلك الفرد نوعاً قائماً برأسهِ لكن الاختلاف الطبيعي لا يرسخ في النسل ويصير من مقومات النوع الاَّ بعد دهور طوال



احد الطيور المسننة المناقير وهي متوسطة بين الزواحف والطيور الحالية

عناية الحيوان بنسله

او « الشمرجة »

للدكتور كامل منصور المدرس بكلية العلوم (١)

ان الكائن الحي هو الجسم الذي يتغذى بمواد مخالفة لتركيبه وتؤدي هذه التغذية الى النمو فالتكاثر فكأن التكاثر نتيجة واجبة لازمة على كل كائن حي وكأنَّ الكائن الحي بعد تكاثره قد أدَّى واجبه الوحيد نحو نوعهِ وجنسه فتنقضي حياته ويموت

من أبسط طرق التكاثر الجنسي (الشقّي) ما نعرفه عن بعض نجوم البحر (كف مريم). تضع الانثى عدداً كبيراً من البيض وليس للبيضة غلاف ما وليس فيها مواد غذائية مختزنة . وينتج الذكر حيوانات منوية كثيرة ويطرح هذان النوعان من المنتجات في البحر وبذلك تترك عملية الاخصاب ونمو البيضة المخصبة للمقادير . فاذا لم تسعف البيضة بالحيوان المنوي هلكت واذا أخصبت ابتدأت ادوار نموّها متعرضة فيها جميعها لكافة الاخطار وكثيراً ما ينتهي بها الامر الى القضاء العاجل عليها فاما ان تعبث بها الامواج واما ان يبتلعها غيرها واما ان تموت جوعاً او غير ذلك . الاَّ ان من هذه الملايين من البيضات مُا يصل الى دور التمام وهذا وان يكن قليلاً قلَّةً نسبيةً الاَّ انه كافٍ لتواصل النوع . والاسراف في هذه الطريقة جليٌّ

وهناك طريقة ثانية قد تقلل الاخطار التي يتعرض لها النسل اذ نجد للبيضة غلافاً قويًّا وبداخله مقدار وافر من الغذاء اللازم للجنين في اثناء ادواره الاولى. يفقس الجنين من البيضة هنا اما على حالة يرقة تنمو وتتطور فتصل الى شكل أبويها واما على شكل الحيوان الكامل مباشرة . ففي هذه الطريقة يقضي الصغير ادواره الاولى في مأمن من كثير من الاخطار . وعلى ذلك نجد عدد البيض قليلاً اذا قوبل بمثله في نجوم البحر والسبب في قلته غالباً ان نسبة ما ينجو منه اكثر مما ينجو في الحالة الاولى . وكلما ارتفعت هذه النسبة قلَّ عدد البيض او بوضع آخر كلما زادت الاخطار ازداد عدد البيض

وفي كثير من الحيوانات يبقى البيض داخل الجهاز التناسلي وهناك ينمو بعيداً عن معظم الغوائل الخارجية فاذا ما تم نموّه ترك امه وابتدأ حياته حرًّا مستقلاً ففي امثال هـذه الحالة يقل عدد البيض كثيراً . وقد يصل في حالات كثيرة الى واحدة فقط

لا علاقة لكل ذلك بموضوع العناية بالنسل بل هذه كلها وسائل وأساليب تدبرها يد الطبيعة

(١) من محاضرة القيت في المجمع المصري للثقافة العلمية

دون مجهود ملموس من جانب الابوين . والآن سأنتقل الى وصف ما يمكن ان يسمى الاعتناء الابوي او الشمرجة ولسهولة الشرح نقسم الموضوع الى (١) وضع البيض (٢) وقاية او حراسة البيض او الصغار (٣) التغذية (٤) نظافة السكن (٥) الارشاد

﴿وضع البيض﴾ تضع معظم الحيوانات بيضها في اماكن أمينة بعيدة عن الاعداء الطبيعية فالبعض يترك بيضه تحت غطاء كصخر او ما أشبه او يضعهُ داخل شق والبعض يبني لذلك عشوشاً محكمة الصنع وغالباً ما تكون مواضع وضع البيض في نفس البيئة التي تعيش فيها الحيوانات التامة النمو الاَّ انهُ في حالات كثيرة تعيش الحيوانات التامة النمو في بيئة تختلف عن البيئة التي تربَّت فيها ففي هـذه الحالات التي تتغرب فيها الحيوانات التامة النمو عن بيئتها الاصلية فهي تحج عائدة الى تلك البيئة لتضع بيضها او تلد صغارها

فالضفادع مثلاً تتربى في الماء واكثرها يعيش على مقربة من الماء الا ان هناك ضفادع جبلية تبعد محال معيشتها عن الماء فاذا قرب وضع البيض راحت باحثة عن بقعة ماء لتترك فيها بيضها . وما يأتيه العلجوم المولد في هذه الناحية غريب في بابه . هذا نوع جبلي وعند وضع البيض لا تذهب الانثى الى الماء بل تشتبك مع ذكرها فيلتف حبل البيض على رجليهِ وعند انتهاء الاشتباك يبقى الذكر حاملاً هذه الامانة فيعيش بها على شاطىء اقرب بركة مبللاً اياها عديداً واذا ما اقترب ميعاد الفقس نزل بها الى الماء حتى تخرج الصغار فيحرَّر من عبوديته

وبعض السلاحف يعيش في الاعماق البحرية وعند البيض يرتحل الى الشاطىء ليضع بيضه في الرمل

ومن ابدع الامثال التي تظهر لنا ما لاختيار الاماكن لوضع البيض من الشأن ما هو معروف عن كثير من اسماك الانهر كالبوري وسمك سليمان وثعبان الماء او حنش السمك

فالبوري معروف لنا جميعاً يعيش في مياه النيل حتى دور التناسل فيتجه نحو البحر ومبايضه محشوة وهناك يضع بيضه في بقاع ثابتة وكثيراً ما تكون هذه السفرة حافلة بالاخطار ولكن هذا كله لا يمنع عن تأدية الوظيفة التناسلية على الوجه الاكمل . وبعد فقس البيض ترجع الصغار متجهة نحو مداخل البحيرات او المصارف او الانهر وتصعد ضد تيارها الى حيث تجد مرعاها وكثيراً ما يصعب دخول هذه السميكات في بعض المصارف لوجود سدود او طلمبات كما هو الحال في بحيرة مريوط وقد تنبهت لذلك مصلحة مصايد الاسماك وعملت على نقل السميكات بانتشالها من امام السد ونقلها الى داخل البحيرة

اما سمك سليمان فيرحل رحلتهُ التناسلية على عكس البوري . يعيش هذا السمك في البحر وعند البيض يغزو الانهر رغم تيارها الشديد ورغم سدودها وشلالاتها العديدة (ولا يتغذى) حتى يصل الى المنابع وهناك يضع البيض ويقفل راجعاً . اما الصغار فتمضي ما يقرب من ثمانية عشر شهراً في المياه العذبة ثم تتجه نحو البحر وهنا أيضاً لوحظ منذ زمان بعيد ان يد الانسان كثيراً ما عبثت بصغار

هذا السمك ولذلك اصدر هنري الثامن سنة ١٥٣٣ امراً يحرم صيدها خوفاً من قلة محصولها المقبل

اما حكاية ثعبان السمك (الانكليس) وهو يعيش في أنهر اوربا وافريقيا الشمالية فهي اعجب ما كشف عنهُ البحث العلمي في القرن الحالي ويرجع معظم الفضل في هذا المضمار لعالم دنياركي وهو الدكتور يوهانس شمدت وقد نعاه البريد بالغاً من العمر ٥٦ سنة فقط

اثبت لنا هذا البحاثة ان هذا النوع من السمك لا يتوالد على مقربة من اماكن وجودهِ بل يرحل بسرعة ١٠ أميال في اليوم لمدة ثلاثة سنوات حتى يصل الى بقعة ثابتة وهناك يضع بيضه . وقد ثبت لنا الآن قطعياً ان احناش النيل تتجه ايضاً ناحية هذه البقعة وفيها تتوالد . تقع هذه البقعة على مقربة من جزائر برمودا ويبلغ عمقها نحو ٣٠٠٠ قامة وبعد التلقيح ووضع البيض تموت الحيوانات الكبيرة اما البيض فيخرج منهُ يرقات صغيرة الرأس مفلطحة الجسم شفافة تتغذى وتنمو هذه اليرقات قريباً من سطح الماء وتتحرك رويداً رويداً ناحية الشرق حتى اذا ما اقتربت من سواحل اوربا كان طولها نحو ثلاث بوصات وكان عمرها نحو الثلاثين شهراً . عند هذا الحجم وهذا السن تقف اليرقات عن التغذي وتتطور الى جسم خيطي يقل طولاً ٢٫٥ بوصة عن سابقه المفلطح تلك هي الحنيشات او الثعابين الزجاجية وهذه الحنيشات هي التي تقتحم مصبات الانهر . رغم الشقة الواسعة بين موضع البيض والبيئة المستقبلة ورغم هذا السفر الشاق والزمن الطويل فان ما يصل من الحنيشات الى مصبّات الانهر لا يعد ولا يحصى فقد قدر ان ما صيد منها في يوم واحد في ناحية جلوستر بانكلترا كانت زنته ثلاثة اطنان وفي كل طن ٢٢٤٠ رطلاً وفي كل رطل ١٤٠٠٠ يرقة . تجتاز الحنيشات عقبات كثيرة مختلفة حتى تصل الى محل مناسب وهناك تتغذى وتنمو ولا تبلغ الاَّ بعد ٥ او ٧ سنوات للذكور وثمانية الى اثنى عشر عاماً للاناث

﴿ تغذية الصغير ﴾ قلَّ من الحيوانات من يضع بيضه او يلد صغيره في مكان بعيد عن الغذاء الطبيعي ومعرفتكم باعداء الزرع واعداء الانسان تكفي فلا نشرح هذه النقطة

وبعض الحيوانات يجمع الغذاء اللازم لصغاره ويجهزه في عش محكم الصنع واذا ما تمَّ النمو داخل غلاف البيضة خرجت اليرقة وهي في مأمن داخل العش او الخلية وتغذت بما خزن لها وبلغت دور التمام يختلف نوع الغذاء المختزن باختلاف الانواع . ففي كثير من نحل العسل تخزن الشغالة الرحيق وحبوب اللقاح وتجعل منها غذاء للصغار بعد دور البيضة وكثير من النحل الاحاوي يشابه مخزونه مخزون نحل العسل . اما الزنابير فالبعض منها يجمع اليرقات ويخدرها بحقنها ببعض مفرزاتهِ ويضع في كل منها بيضةً حتى اذا ما فقس البيض وجد النسل غذاءً كافياً في جسم الفريسة التي اقتناها له ابواه

والبعض الآخر من الزنابير متطفل يضع بيضه مباشرة بواسطة آلة وضع البيض في جسم فريسته وهذا من اسهل السبل لضمان تغذية الصغار

وانواع الجعلان تخزن الغذاء في شكل كور وتضع بيضة واحدة في كل منها . اما قصة محار المياه

العذبة (إنودونتا) في غاية الغرابة . تفقس اليرقات داخل خياشيم الام وتبقى حتى مرور سمكة (روديوس) فتخرج من مخابئها وتلتصق بجسم هذه السمكة متطفلة عليها حتى تمام تطورها الى محارة صغيرة فتنفصل وتقع الى القاع لتعيش عيشة مستقلة . ولكن ادهى من ذلك ان لسمكة روديوس هذه قصة اغرب من قصة المحار اذ انها في اثناء انتفاخ المحارة ترسل آلة وضع البيض الى ما بين المصراعين وتلصق بيضها بجسم المحارة ليبقى هناك في مأمن حتى الفقس . والبعض من الحيوانات يحمل الغذاء للصغير بعد فقسه كما هو معروف عن بعض انواع النمل . اما الطيور فجهودها في هذا السبيل غاية في العظم فثمة طائر مثلاً يجمع يرقات الحشرات ويحضرها لفراخه في عشها

ومما نعرفهُ الآن ان رحلات الابوين الى العش في هذه الحالة لا تقل عن ٤٧٥ مرة يوميًّا

وتغذية الصغار بمفرزات من جسم الابوين كثيرة الامثلة واشهر هذه الامثلة حالة الحيوانات الثديية او اللبونة ، ومن الحيوانات الاخرى نجدها في الطيور من امثال الحمام

ففي الحيوانات اللبونة تقوم الام بعملية التغذية اما في حالة الحمام فيتناوب الابوان اطعام صغارهم بافرازات لبنية تحضر في آخر المريء وتمر الى الخارج عن طريق الفم الى فم الفرخ الصغير . يغذى فرخ الحمام بهذا مدة وجيزة ثم يعطى البذور تدريجيًّا من صغيرة الى اكبر منها فيتدرج بذلك الجهاز الهضمي ويقوى الفرخ على ابتلاع الحبوب التي يتغذى بها أبواه ثم على تكسيرها

﴿ الاعتناء بنظافة المسكن ﴾ النظافة غريزة عند الحيوانات ولو تأملنا في حياة احدها وجدنا هذه الغريزة ظاهرة دون جدال وانما تختلف سبل النظافة باختلاف نوع الحيوان وبيئته . ليس لنا ان نتكلم الآن عن النظافة عموماً بل عن كيف تحفظ الحيوانات صغارها نظيفة وكيف تعتني بحفظ مسكنها خالياً من البقايا التي لا لزوم لها . الامثلة على ذلك كثيرة . خذ لذلك مثل البقرة اولاً فانها تلعق ولدها لتنظفه مما علق بجسمه واللعق للنظافة غريزة طبيعية عندها تأتيها دون تعقل او تفكير ولكن ادهى من ذلك ما تأتيه بالمشيمة اذا لم تبعد عنها فانها تلتهمها « نعم ان البقرة لا تأكل مشيمة غيرها اذا قدمت لها لانها ليست من اللواحم (آكلات اللحوم) ولكن حرصها على مصلحة ولدها يدفعها الى تنظيف ما حوله حتى لا يتعفن ذلك المكان ويكون مأوى للجراثيم التي قد تضرهما معاً »

وما تعمله الطيور من هذا القبيل ينبئنا ايضاً بمقدار اهتمام الطبيعة بنظافة محال السكنى . اذ ان بالرغم عن انهُ في حالات كثيرة يغطى البراز بافراز يجف على شكل جلد يحفظ ما تحته فانك لتجد ان الابوين حريصين اشد الحرص على ازالة هذه القمامات وابعادها عن العش ويحكى عن ثقة ان بعض الطيور اذا وجد ان ميعاد التبرز قد فات يتحايل على صغيره حتى يؤدي هــذه العملية ومتى اتمها الصغير ازيلت البقايا من العش باسرع ما يمكن . وفي حالة النسور تتبرز الصغار ذرباً فتتلبد بطانة العش مع بقايا الفرائس وكلما تراكمت الاوساخ في هذه البطانة تسلخها الابوان واستبدلاها بفراش نظيف جديد

ويحكى كذلك عن بعض الزنابير الاحاوية التي تجمع يرقات بعض الحشرات الاخرى وتخدرها وتضع

بيضها فيها انها تفتح الخلية اثناء نمو الصغير وتنظفها من بقايا اليرقة السابقة وتضع لصغيرها غذاء طازجاً

﴿ الارشاد ﴾ أما ما نعلمه عن ارشاد النسل بين الحيوانات فمعظمه مستمد من حياة الطيور واللواحم كيف يتعلم الفرخ الصغير الطيران وكيف يتعلم البعض الآخر السباحة والعوم بل كيف يتعلم فرخ الدجاجة التنقير . كل هذه غرائز أسسها موروثة ولكن لاسبيل الى اظهارها الا بارشاد الابوين

فالنسر يعود فرخه وهو في العش تمرين عضلات اجنحته واذا ما اجبر هذا الفرخ على التمرين الجدي خارج العش كان ذلك تحت اشراف ابويه فطوراً يشجعانه كأن يطيرا طيراناً بطيئاً على مقربة منهُ حتى لا يتسرب اليه اليأس وطوراً يحركان أجنحتهما لينقل الصغير تلك الحركات عنهما ويتأصل في فن الطيران . واذا وجد ان الصغير على وشك الخيبة انزلق احد الابوين برشاقة تحت مستوى جسم هذا الغشيم ودعمه واقياً اياه شر السقوط . والعوم غريزة يرثها صغار الطير المائي ففراخ البط تنزل الماء مباشرة دون تحريض (وابن الوز عوام) اما الاوز العراقي (البجع) والنورس فهي تزج بفراخها قهراً في الماء لاول مرة . اما التنقير فلا تأتيه فراخ الدجاج او فراخ النعام مثلا دون ارشاد الام ويمكن الاستعاضة عن الام في هذه العملية بتحريك الاصبع او القلم على شكل رقبة ورأس الطير المنقر ومن اول مشاهدة تقلد الفراخ الصغيرة هذه الحركات ولن تنساها مطلقاً

اما العصفور (Swallow) فيتدرَّج به أبواه حتى يتم تمرينه ففي اول يومين بعد الخروج من العش يتدرب الصغير على خفة الحركة واتزان الجسم في الهواء ويتكفل الابوان باطعامه في العش عند انتهاء التمرين وفي اليومين التاليين تعطى الفراخ غذاءها في الهواء من منقاري الابوين وهذا معناه ازدياد الحنكة والاتزان والخطوة الاخيرة هي ان يسقط المدرب اثناء طيرانهِ طعام الصغار على مقربة منها وعليها هي الآن ان تلتقطهُ في اثناء سقوطه . فاذا نجحت في ذلك اصبحت اهلاً لاستقلالها في المعركة الحيوية . وفي اللواحم نجد ان الهررة تعوّد اولادها مداعبة الفيران وقنصها وكذلك حال ابن عرس . ويستغرق تدريب الشبل سنة ونصف حتى يتضلع من الصيد ويمكنهُ ان يحافظ على سمعة ابيه ومما هو جدير بالذكر هنا ان رعاة الاغنام في الجهات القريبة من مرابض الاسود لا يهدأ لهم بال ما دام هناك اشبال تحت التمرين على مقربة منهم اذ ان اول دروس الشبل العملية هي اقتناص الحملان وهذا الدرس يكون تحت المدربين الكواسر

سمعتم الآن اليسير عن بعض ضروب عناية الحيوانات بنسلها فهي تختار المحال المناسبة لوضع البيض بعدت تلك عنها ام قربت وهي تبني العشوش لايواء الصغير وهي تراقب صغارها بيضاً كانوا ام احياء في عشهم وهي تخزن الغذاء المناسب وتستعدُّ لتغذية الصغار اذا فقسوا وهي تحضر لاولادها قوتهم يوماً فيوم مهما تكلفت في ذلك من المشاق وهي تعتني باعداد ولدها لحياته المستقبلة معلمة اياه كيف يقنص وكيف يدافع عن نفسه وهي فوق ذلك كله تعتني بنظافة مسكنها حرصاً على ولدها مما قد ينشأ عن تراكم الاقذار [ثم عطف المحاضر على فائدة هذه الامثلة في عنايتنا باطفالنا]

أثر الحضارة العربية

في الاندلس وصقلية وما اليهما

بقلم محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق ووزير معارف سوريا سابقاً

— ٢ —

كان اختلاط العرب بالاسبانيين والبرتقاليين والكتلانيين والفرنسيس والبشكنس Les Basqnes اختلاط محارب مع محارب يعرفونهم لاول الامر بغاراتهم بأخذ بعضهم من بعض اسرى فلما طال الزمن رأت تلك الامم المضعوفة انهُ لا مناص لها من ان تتعلم في مدارس الامة المرهوبة . وهكذا كان فان كثير من نبهاء الافرنج رحلوا الى الاندلس يأخذون عن علمائها العلم ويقتبسون من انوارهم ومنهم او من مشهوريهم البابا سلفستر الثاني (جربرت) وقد درس الرياضيات والفلك عند علماء العرب في اشبيلية وقرطبة فكان اعظم علماء عصره في قومه ولما صعد الكرسي البابوي سنة (٩٩٩ م) كان اول الباباوات الذين وجهوا وجهتهم الى توحيد قوى الغرب لمقاومة المسلمين في استعمارهم في الشرق والغرب ومثله كثيرون ممن اخذوا عن العرب وكتبت لهم مكانة بما تلقوه عنهم بين قومهم

***

وذكروا ان شانجه امير ليون كان يستشير اطباء العرب. واطباء العرب من الاندلسيين هم الذين نقلوا الطب الى فرنسا . في زمن انشأ فيه الاندلسيون في كل ناحية من بلادهم المدارس وخزائن الكتب والجامعات العلمية في العواصم وغيرها كانت مواطن العلم في الغرب زمناً طويلاً ومنها اليوم صلمنقة عاصمة العلم في اسبانيا وقلمرية عاصمة العلم في البرتقال على نحو ما نشهد بعهدنا مدينة ليبسيك في المانيا واكسفورد في انكلترا . وزالت الامية في الاندلس بما انشأ الملوك من المدارس وكان في قرطبة عشرات من الكتاتيب للفقراء واصبح الرجال والنساء على السواء يكتبون ويقرأون بل ربما كان من ابناء الفلاحين من ينثرون وينظمون

واخذ الاسبان عن العرب في الاندلس وصقلية معنى الشعر وبعض اوزانه وموضوعاته ولم يكن

للشعر الغربي الى عهد العرب شاعر افرنجي يرفع الرأس ما خلا اغاني هي اشبه بشعر العامة منها بشعر الخاصة . واحتذى الاسبانيون حذو العرب في القصائد التاريخية والمواليا ونمت رياض الادب الغنائي فتفشت عدوى الاشتغال بالادب العربي بين اساقفة النصارى المستعربين وراحوا يقرضون الشعر بلغة عربية عالية . وكثير من قصائد الذين كانوا يجوبون في الولايات (تروبادور وتروفير)(١) هي قصائد عربية واقتبس دانتي شاعر الطليان كثيراً من افكار العرب في روايته المهزلة الالهية وخصوصاً من أبي العلاء المعري. وتأثر الادب الروائي والشعر الاسباني بالاسلوب العربي واخذوا عن العرب اوزان التفاعيل الثمان والاغاني الاسبانية القديمة منتحلة من دواوين شعراء العرب الى غير ذلك ، ثم ان اسبانيا تأثرت ايضاً بالموسيقى العربية وما زالت الموسيقى الاسبانية في اسبانيا . وجميع البلاد التي استولت عليها في سالف الدهر ولا سيما الارجنتين والبرازيل هي الموسيقى العربية بل سرت الموسيقى العربية الى البيع الاسبانية وما كانت ألحانها الا عربية في القرن الثالث عشر للميلاد وكذلك يقال في الرقص فان الرقص الاسباني الى اليوم هو بالرقص العربي اشبه وبايقاعه وتلاحينه اعلق . وهكذا يقال في كثير من ادوات الموسيقى الاسبانية فانها او اكثرها مما اقتبسوه عن العرب وهؤلاء جاؤا به من الحجاز وهذه نقلتها عن فارس وعن الروم

ويقول الاسبان اليوم انك اذا أنصت للغناء في شوارع قرطبة وإشبيلية وغرناطة لعهدنا توقن انهُ غناء عربي واذا طعمت في دار أندلسية تجد الطعام طعاماً مغربيًّا واذا شهدت من يجلسون الى خُوان في مقهى تحصي لهم عادات أهلية خاصة . وان جميع حياة الاندلس تذكر بالامة العربية القديمة ، وان الحدائق والحقول تسقى من ترع وقني عربية وان الموسيقى عربية ، وهناك صناعات صغيرة وتجار صغار وقوافل من الحمير والآن تجتاز الازقة على ما نحو ما هي في البلاد العربية واذا استمعت من بعد الى تلفظ اهل تلك المدن الاندلسية يتكلمون بالاسبانية تحسبهم يتكلمون بالعربية لا بالاسبانية . اما هندستهم وشوارعهم واحياؤهم وأقنية بيوتهم فهي عربية صرفة على مثال ما هو من نوعها في دمشق وتونس

***

يقول لوبون ان تأثير العرب في الغرب كان عظيماً واليهم يرجع الفضل في حضارة اوربا ولم يكن نفوذهم في الغرب اقل مما كان في الشرق ولكنه كان يختلف عنه . أثروا في بلاد المشرق بالدين واللغة والصنائع اما في الغرب فلم يؤثروا في الدين وكان تأثيرهم في الفنون واللغة ضعيفاً وعظم تأثيرهم بتعاليمهم في العلم والآداب والاخلاق . ولا يتأتى للمرء معرفة التأثير الذي أثره العرب في الغرب الا اذا مثل

(١) (Les Troubadours & les Trouvères) التروبادور شعراء ينظمون باللغة الفرنسية القديمة كانوا بعد القرن الحادي عشر الى القرن الخامس عشر والتروفير شعراء بلغة وال كانوا يعانون ذلك من القرن الحادي عشر الى القرن الخامس عشر يختلفون الى الملوك والعظماء ينشدون الاشعار ويضربون على الاوتار وربما اقاموا في قصورهم مدة

لعينيهِ حالة اوربا في الزمن الذي دخلت فيه الحضارة . واذا رجعنا الى القرنين التاسع والعاشر من الميلاد يوم كانت المدنية الاسلامية في اسبانيا زاهرة باهرة نرى المراكز العلمية الوحيدة في عامة بلاد الغرب كانت عبارة عن مجموعة ابراج يسكنها سادة نصف متوحشين يفاخرون بانهم أميون لا يقرأون ولا يكتبون وكانت الطبقة العالية المستنيرة في النصرانية عبارة عن رهبان فقراء جهلة يقضون الوقت بالتكسب في اديارهم بنسخ كتب القدماء ليبتاعوا ورق البردي لنسخ كتب العبادة

قال وطال عهد الجهالة في اوربا وعمَّ تأثيره بحيث لم تعد تشعر بتوحشها ولم يبد فيها بعض ميل للعلم الاَّ في القرن الحادي عشر وبعبارة اصح في القرن الثاني عشر ولما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلاً بالحاجة الى نضو كفن الجهل الثقيل الذي كان الناس ينوءون تحته طرقوا ابواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون اليهِ لانهم وحدهم كانوا سادة العلم في ذلك العهد . ولم يدخل العلم اوربا في الحروب الصليبية كما هو الرأي الشائع بل دخل بواسطة الاندلس وصقلية وايطاليا وفي سنة ١١٣٠ أنشئت مدرسة للترجمة في طليطلة بعناية رئيس الاساقفة واخذت تنقل الى اللاتينية اشهر مؤلفات العرب وعظم نجاح هذه الترجمات وعرف الغرب عالماً جديداً ولم تفتر الحركة في هذه السبيل خلال القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر . ولم تنقل الى اللاتينية كتب الرازي وابي القاسم وابن سينا وابن رشد وغيرهم بل نقلت اليها كتب اليونان امثال جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرخميدس وبطلميوس وهي الكتب التي كان المسلمون نقلوها الى لسانهم

اصبحت اللغة العربية منذ النصف الثاني من القرن الثامن للميلاد لغة العلم عند الخواص في العالم المتمدن وحافظت على مرتبتها الاولى بين سائر اللغات الى آخر القرن الحادي عشر وكان يقضي على كل من يحب الاطلاع من اهل القرن الحادي عشر على آراء عصره ان يتعلم اللغة العربية ولذلك قالوا ان كثير من زعماء النهضة كروجر باكون وغيره كانوا يعرفون لغتنا . وكان ملوك الاندلس يفاوضون جيرانهم باللغة العربية وهؤلاء يجيبونهم بها على لسان تراجم لهم يجيدون العربية ، واكثر سفراء الافرنج عند ملوك الاندلس يقضي عليهم ان يلموا ولو الماماً خفيفاً بلغة العرب

***

وبعد ان اخذ الغرب العلم عن كتب العرب وقلدهم في مخابرهم ومعاملهم وجامعاتهم ومدارسهم وقرئت كتبهم وعلومهم في جامعات الغرب مدة ستمائة سنة ودام ذلك الى القرن الثامن عشر لا نستغرب ان تدخل في جميع اللغات الغربية الالفاظ العلمية العربية ولا سيما في الايطالية والفرنسية والاسبانية البرتقالية وفي كل لغة من هذه اللغات اللاتينية بضعة الوف من الالفاظ العربية اخذوها مضطرين ن العرب لا لان هؤلاء احتلوا بلادهم او اماكن منها بل لان العلم العربي كان وحده هو المتفوق في العالم وكان العرب دعامته ورعاته خلال بضعة قرون

نعم لم يجد العلم ملجأً اميناً له غير العرب في تلك القرون وهذه فرنسا لم تنهض من كبوتها بعد غارات البرابرة الا بعد ثمانية قرون وذلك بفضل العرب ومن علماء فرنسا من يعز عليهم الاعتراف بهذه الحقيقة وبينما كانت المدنية الاسلامية زاهرة كانت فرنسا في احط دركات التأخر ولم ينتشر الطب والصيدلة في ربوعها الا بمساعي اطباء اليهود الذين اعتصموا باسبانيا ثم باقليم لانكدوك بعد القرن الحادي عشر وفي لانكدوك انشأوا عدة مدارس ومنها مدرسة مونبليه ، واضطرت بعض الامم الغربية ان تحمل بعض ابنائها على تعليم اللغة العربية وأسست جنوة مدرستها لتعلم العربية سنة (١٢٠٧م) ورأى ملوك قشتالة بعد وقعة العقاب التي كتب فيها النصر للاسبان على العرب ان لا يقاطعوا الماضي القديم وانهم في حاجة الى ان يتعلموا من معلميهم القدماء من العرب فحاول الفونس العاشر ان يعمل لاسبانيا النصرانية ما عمله العرب لاعلاء شأن الاسلام وذلك بالاخذ من احسن ما في الحضارتين الاسلامية والنصرانية ومزجهما بالحضارة الاسبانية فأسست سنة (١٢٥٤ م) في اشبيلية مدرسة عامة لاتينية وعربية واستدعى الملك الى عاصمته العلماء من جميع الملل والنحل ليؤسس مدرسة طليطلة الثانية يجمع فيها بين الاوضاع العربية وغيرها . وقضى مجمع فينا الديني سنة (١٣١٢ م) ان تؤسس في باريس واكسفورد وبولون وصلمنقة دروس عربية لتنصير المسلمين ودروس عبرانية لتنصير اليهود . وعنيت ايطاليا منذ ذلك العهد عناية خاصة بالعربية ترى تعلمها من الضرورات لكل تجار المدن البحرية وكان من ذلك ان احتكرت البندقية تجارة اوربا مع الشرق واستأثرت بتجارة آسيا الصغرى وتمت للبندقية وبيزا وجنوة وطقانة معرفة الشعوب الاسلامية اكثر من عامة اهل اوربا وكان من العادة الجارية في طبقة التجار من ابناء البندقية ان يتكلموا بالتركية والعربية ويأخذوا انفسهم ببعض العادات والالسنة بالمصطلحات الشرقية

وملك البيزيون والجنويون والبنادقة املاكاً مهمة في الشواطىء الشرقية من البحر المتوسط وفي غيرها فامتزجوا بأهل البلاد وتأخرت الممالك الاخرى في تلقف العربية الى القرن السابع عشر والثامن عشر ومنها هولندا والمانيا وفرنسا وانكلترا والنمسا والبرتقال وروسيا وبولونيا الخ

***

اصبح البحر الرومي بما فتحه العرب من شواطئه بحراً عربيًّا اوائل القرن الثالث وذلك لان شواطىء افريقية واسبانيا وكثير من الجزر كجزائر منورقة وميورقة ويابسة المعروفة بجزائر الباليار او الشرقية وغيرها دخلت في حكمهم ولما فتحوا في سنة (٢١٢ هـ) جزيرة صقلية وكانوا غزوها غير مرة منذ اخذوا يسافرون على سفنهم على عهد الخليفة الثالث واتبعوها بجزيرة سردانية وغيرها تراجعت سفن الروم الى الموانىء القريبة من بلادهم وامتدت غزوات العرب الى بلاد انكبردة او لمبارديا وقلورية اي كالابرا من جنوبي ايطاليا واستولوا على اكثر اصقاعها الجنوبية نحو تسع وعشرين سنة . ومن البلاد التي احتلوها احتلالاً موقتاً و غزوها وتخلوا عنها ربو والبندقية وطارانت وسامرن واماليفي

ونابل وورومية وجنوة والغالب ان العرب في الولايات التي نزلوها من جنوبي ايطاليا لم يؤثروا بصناعاتهم وعلمهم ولم يخلفوا أثراً من آثارهم كالنقود والرنوك والمصانع والجوامع على ما حقق ذلك العلامة نالينو

اما في جزيرة صقلية فان العرب طالت فيها ايامهم الى سنة ٤٨٤م واثروا فيها انواع التأثير فتركوا لاهلها اولاً عاداتهم وقوانينهم وحريتهم الدينية المطلقة واكتفوا منها بجباية قليلة كان مقدارها اقل مما كان يستوفيه اليونان منهم واعفوا منها النساء والاولاد والرهبان وحافظوا على جميع الكنائس الموجودة ولم يسمحوا بأنشاء غيرها على خلاف ماجروا عليهِ في الاندلس وعمدوا الى الزراعة والصنائع فاحيوها وادخلوا اصنافاً من الزرع لم تعرفها الجزيرة ومنها القطن وقصب السكر والزيتون والبردي والكتان والمران واقاموا المجاري التي لم تبرح ماثلة للعيان وعلموا الناس عمل القني ذات الانابيب المعقفة (السيفونات) وكانت قبلهم غير معروفة

وانشأ العرب في صقلية مصانع لصنع الورق ومنها انتشرت الوراقة في ايطاليا. وعدنوا مناجم الجزيرة وعلموا اهلها صنع الحرير. والغالب ان صناعة صبغ الثياب انتشرت في اوربا من صقلية ومن مصانع الصقليين كانت تصدر الاكسية المحلاة بالجواهر والطنافس المصورة والمنقوشة والجلد المدبوغ والحلى البديع وبالاجمال حمل العرب الى صقلية مظاهر غريبة من فنهم وقناطرهم العالية الجميلة ونقوشهم من المقرنصات وجمال قاشانيهم ذي الميناء والفسيفساء المعمولة من الرخام الملوّن وصورهم الجميلة وبهيج صناعاتهم وما كادت اعلامهم تعلو هذه الجزيرة العظيمة حتى نمت التجارة وكانت قبلهم ضئيلة وانشأوا يقلعون على سفنهم الى الجهات الاربع وكانت لهم حكومة ذات مجد ورقي وكثر المسلمون فيها خلال قرنين حتى اصبحوا نصف سكان الجزيرة

وسار النورمان على سياسة رشيدة لما استولوا على صقلية وقضوا على سلطان العرب فيها فابقوا المسلمين على عاداتهم ودينهم ولسانهم واستعملوا منهم كثيرين في قصورهم وحروبهم فكان منهم القواد والعظماء والعلماء في خدمة الدولة الجديدة وبقيت لغتهم رسمية في الجزيرة مدة حكم النورمان وتعلم ملوكها العربية ومنهم من برزوا فيها ونظموا فيها الاشعار وطربوا لادبها. وهكذا تخلق النورمان باخلاق رعاياهم وعاملوهم معاملة نادرة في باب التسامح السياسي وعدم التحزب الديني في القرون الوسطى حتى اتهم البابوات امراء النورمان بانهم دانوا بالاسلام وما زالوا بهم حتى قضوا عليهم بهذه التهمة وغيرها

كان روجر اول ملك نورماني استخلص صقلية من العرب هو واضع اساس هذا التسامح مع المسلمين وهو الذي استقدم اليهِ من بر العدوة — وبر العدوة ما سامَتَ الاندلس وصقلية من شمالي افريقية ويعنون بالعدوة المغرب الاقصى والاوسط والادنى — الشريف الادريسي وبالغ في اكرامه وطلب اليهِ ان يبقى في صقلية وان يحقق لهُ اخبار البلاد بالمعاينة لا بما ينقل من الكتب وندب لذلك اناساً البنّاء وجهزهم روجر الى اقاليم الشرق والغرب والجنوب والشمال وسيّر منهم قوماً مصورين ليصوروا ما شاهدوه عياناً فكان اذا حضر احدهم بشكل أثبته الشريف ادريسي حتى تكامل لهُ ما

اراد وجعله مصنفاً سماه نزهة المشتاق في اختراق الآفاق وهو من أجل كتب الجغرافيا التي بقيت من تآليف العرب . وعمل الادريسي لروجر كرة أرضية من الفضة كانت من اجمل ما ابتدعته قريحة عربية رسم فيها العالم ببحره وبره وجباله وسهوله وانهاره وبحيراته ومدنه وممالكه

كان تأثير العرب في صقلية بعلمهم اكثر من تأثيرهم بمبانيهم ومصانعهم وكان الروح فيها عباسيًّا ثم فاطميًّا لان بني الاغلب امراء افريقية اي تونس للعباسيين تولوا ذلك منها اولاً ثم جاء الفاطميون تخضعت لسلطانهم اما في الاندلس فكان الروح امويًّا بحتاً لاسلطان فيها لغير العرب. يقول العلامة آماري المستشرق الصقلي ان صقلية مدينة للعرب وايطاليا مدينة لصقلية بابتكار الشعر الوطني بمعنى انه منذ قلد البلاط الصقلي البلاط الملكي الاسلامي بدأت العناية بقرض الشعر تلك العناية التي كانت السبب في نهوض الشعر الايطالي. وقال رينالدي لم يساعد العرب فقط على انهاض الشعر الصقلي والايطالي بل انهم امدوا القصص الايطالية بشكلها ومادتها . وفي بلرم التي اتخذها العرب عاصمة صقلية وعمرت عمراناً غريباً، انشأ العرب اول مدرسة للطب وما عهد مثلها في جميع اوربا فقد انشئت مدارس الطب في الغرب بعد مدرسة صقلية العربية باعوام ومنها انتشر الطب في بلاد ايطاليا وساعد ان البابوات كانوا رحلوا الى افنيون من ارض فرنسا فخلا الجو للعلم العربي ثم تفرغ العرب بعد ذهاب سلطانهم من الجزيرة الى العلم والتجارة . فكانوا نحو قرنين آخرين بعد خروج صقلية من ايديهم رجال المال والاعمال فيها بل كانوا سادتها بالفعل . ومن كان له العلم والمال لا ينقصه شيء من القوى والاعمال

اخرجت هذه الجزيرة في العهد العربي عظماء من الرجال في العلم والادب وكان عددهم بالقياس الى من اخرجت الاندلس قليلاً وقلّ فيهم النوابغ في علوم العقل على نحو ما كان في الاندلس ولكن عمل صقلية في التمدين لم ينقص كثيراً عن مهمة الاندلس فاذا كانت هذه الجزيرة غذت غرب اوربا بضعة قرون بمدنيتها فان صقلية كانت مدة رسالتها ثلاثة قرون ترسل اشعة المدنية العربية الى اواسط اوربا . ولعلّ ما دعا صقلية الى ان تكون دون الاندلس في هذا المضمار كون العرب فيها قلائل واكثر من نزلوها من البربر بخلاف الاندلس التي كان فيها العرب كثرة غامرة هاجروا اليها وكانت لهم مستقراً ومقاماً

وقصارى القول ان العرب في الاندلس وصقلية بما كان لعنصرهم من المرونة تتقبل كل نافع بقبول حسن كتب لهم الابداع في صنائعهم ومصانعهم وشعرهم وأدبهم وعلمهم وعملهم كأنَّ هواء الغرب علمهم ان يغيروا ما حملوا معهم من مدنية الشرق بما يلائم تلك البيئة الجديدة وحببوا من دون اكراه ما نقلوه الى اهل البلاد فطبعوهم بطابعهم وصاغوهم الصياغة التي لاتنافي تعاليمهم ونظمهم فقرَّبوهم من مناحيهم ومنازعهم ووقفوهم على سر حضارتهم وتفوقهم. وسرى النور من ارض احتلوها الى ارض بعيدة عنهم ومن شعوب تمثلوا فيهم بعض الشيء الى شعوب ما وسعهم الآن ان تجاريهم فيما لا يخرجهم عن تقاليدهم وتعاليمهم والاحتفاظ بمقوماتهم من جنس ولغة

جهاد الملك فيصل

مراحل العراق نحو جمعية الامم

لامين الريحاني

- من كتابه « فيصل الاول » (قريب الظهور)

—٢—

كانت السنة التي عقبت ابرام المعاهدة الاخيرة اظلم ما كان من عهد السر هنري دوبس المظلم. فقد توترت العلاقات فيها بين البلاد والمفوضية ، وتكاثفت صفوف المعارضة للسياسة البريطانية ، وانتشر في البلاد روح عداء للبريطانيين باصرة عاقلة ، فكانت لذلك ابلغ واسرع في تقويض اركان سياستهم الادبية على الاقل . ولا عجب وهم هم المخلفون بالوعود ، الناقضون للعهود.

وما حلت المعاهدة من العقد جميعها غير عقدة واحدة هي الحدود التركية العراقية، وظلت الاتفاقات الاضافية ، المالية فيها على الاخص والعسكرية مفتوحة للبحث ، للمحادثة ، للنزاع . بيد ان وزارة السعدون كانت تنتظر تسوية المشاكل المالية على الاقل وتقديمها في اتفاق جديد . فخاب املها واستعفى رئيسها عبد المحسن حرداً ناقماً

فانتدب الملك جعفر العسكري ليؤلف وزارة جديدة . فجاء يباشر العمل باسم الله وباسم التفاهم العراقي البريطاني — هم بليتنا ، يا اخي، ونحن بليتهم . فيجب علينا ان نتفاهم لنحدد على الاقل البليتين

وكان المندوب السامي السر هنري دوبس قد بدأ يشعر هذا الشعور ، ويدرك هذه الحكمة . لا سيما ان بليته الشخصية اوجبت عليه الاسراع في العمل ، اذ كانت اسبابها تتصل بوزارة المستعمرات التي طالما اصمت اذنها لاقتراحاته وآرائه ولكنه توفق في النهاية الى شيء من الاقناع فقبل رئيسه الوزير ان يعاد النظر في المعاهدات لتعديل بعض بنودها . وبدأت المفاوضات فوراً في بغداد ، ثم فر المتفاوضون هاربين من حر العراق ، واستأنفوا العمل بلندن في الخريف . وكان الملك فيصل قد تقدمهم الى اوربا ينشد العافية ، ويستوحي عن كثب مقامات السياسة الدولية وارباها. وقد حط رحاله على مياه «إكس» المعدنية فكان اتصاله بوفد العراق بلندن متوفر الاسباب قريبها . على ان المفاوضات كانت سريعة التطور . فرأى الوفد ان يكون الملك اقرب اليهم، فأبرقوا بذلك اليه

غادر الملك فيصل « اكس له بان » فعرج على باريس في طريقه الى لندن . ويوم كان في عاصمة الفرنسيس قرأ في صحف الاخبار في الصفحة الاولى، مطبوعاً بالحرف العريض نبأ جاء من العراق من كركوك،

من عاصمة النفط ، ينبيء بالحدث الخطير . الا ان « بابا كركر » لمن المرسلين . « بابا كركر » بكر الآبار ، ينطق بالخير ويبشر بالبركات . فبينما كانت الشركة التي منحت امتيازها في سنة ١٩٢٥ تسبر غور « كركر » وقبل ان بلغت الثمانين بعد المائة قدم الى قلبه ، انفجر انفجاراً هائلاً ، وقذف بخيره عالياً — مائة وستين قدماً فوق الارض « بابا كركر » — « بابا كركر » ! تبارك اسمك وتمجد ! وسيساعدنا نبأك في حل المشاكل والمعضلات . عبر الملك فيصل بحر المانش وهو سابح في سماء من احلام النفط والاستقلال

ولكن لندن عدوة الاحلام . ووزارة المستعمرات فيها تقرأ انباء « بابا كركر » وتمضي في امورها . ومن تلك ما كان مهيئاً لفيصل . فقد صدم في وزارة المستعمرات ، يوم وصوله ، صدمة عنيفة جاءت في مذكرة كانت منتظرة هناك . جاش في صدره الغيظ وهو يقرأ ، ويتأمل خط كاتبها. عرف الخط وتأكده فازداد تغيظاً . نعم هو خط المندوب السامي السر هنرى دوبس نفسه ، كلماته التهم والتوبيخ — الملك فيصل يناصب بريطانيا العظمى العداء — الملك فيصل لا يمثل العراق بما يفعل ويقول . الملك فيصل يناصر المعارضة ويشجع سراً المعارضين والمتطرفين . وينبغي ان يعلم انه ملك دستوري لا يجوز له ان يتدخل في شؤون الدولة بل ينبغي ان يتركها لرؤساء الحكومة وللبرلمان . ويجب عليه ان يترفع عن المنازعات والسياسات الحزبية ..... وعند ما سأل الملك معنى ذلك وبيانه اجيب انهُ جاءهم في التقارير الرسمية من بغداد

ليس في تلك المذكرة نظراً الى الزمان والمكان ، شيء من حسن الذوق وليس فيها ، نظراً الى الاحوال ، شيء من الاصالة والسداد . وهب ان ما جاء في التقارير المبنيّة عليها صحيح ، فهل تساعد يا ترى في انجاح المفاوضات ؟ وهب ان اضطراب الجوكان وقتيًّا وان حلم الملك فيصل وصبره تغلبا على شعوره ، فكيف السبيل الى التوفيق بين حقائق السياسة وظواهرها ؟ كيف نستطيع ان نوفق بين معاهدة سنة ١٩٢٢ وبين الاحوال الحاضرة ؟

* * *

مما لا مراء فيه ان العراق في السنوات الاخيرة تقدم تقدماً يذكر ان في السياسة والاقتصاد ، وان النفقات البريطانية الادارية والعسكرية هبطت هبوطاً جسيماً [1] ومما لا ريب فيه ان كفاءة العراق للعضوية في عصبة الامم هي اظهر مما كانت يوم رفع اللورد بارمور صوته في مجلس العصبة ، وردد تقرير سنة ١٩٢٥ صداه امام لجنة الانتدابات الدائمة ، تنويهاً بالعراق وتأييداً لمطالبه

ولكن — ولكن — « نظراً » الى حكم العصبة بالموصل للعراق وتقييد ذلك الحكم بشرط أن تمدد المعاهدة خمساً وعشرين سنة ، ودفعاً للظنون التي قد يثيرها التعديل او محاولته في نفوس الاتراك فيعودون الى المطالبة بالموصل ، فضلاً عن اتهامهم بريطانية والعراق بنقض العهود بعد بلوغ الارب — نظراً الى هذه الامور كلها ليس من مصلحة الحكومتين أن تستعجل الانضمام الى عصبة الامم . بل

(١) لم تتجاوز النفقات في سنة ١٩٢٧ التسعمائة الف ليرة ذهبية

ينبغي أن تؤجل المسألة الى سنة ١٩٣٢[1] وستظل في هذه الاثناء العلاقات البريطانية العراقية على حالها

اما الوفد العراقي فقد قاوم هذا التحفُّل وحاول التغلب عليهِ ، مصرًّا على تعديل يُعَدُّ تعديلاً فاخفق في محاولاته ومساعيه ، ووقف المتفاوضون امام العقدة التي لا تحل . فغضب جعفر بلندن كما غضب قبله السعدون ببغداد ، وحمل حقائبهُ وارتحل . وكان الملك فيصل قد عقد النية على الرحيل لولا فرصة سنحت لاعادة المحادثة والحكومة . فقد أقيمت لهُ مأدبة وداع ، حضرها بعض الوزراء فخطب فيها خطبة بليغة بصراحتها . ومما قال انهُ يؤثر العودة صفر اليدين على ان يحمل معاهدة لا تفضل التي سبقتها بشيء ، بل هي دونها في بعض موادها . فهز الوزراء رؤوسهم ان صحيح ، وأكدوا له بعد ذلك ان الامل لم ينقطع ، وان المأزق قد يتسع للخلاص

توقف الملك فيصل عن السفر ، وابرق الى وزيره جعفر الذي كان قد بلغ الاسكندرية ، يأمره بالعودة. امتثل جعفر الامر ، فعاد ادراجه ، ثم استؤنفت المفاوضات ، وقبلت المعاهدة ، دون تعديل فيها يستحق الذكر . فما السبب يا ترى في هذا الانقلاب الفجائي ؟ ما الذي حمل الملك وجعفر على القبول بعد ان صرح الاول ذلك التصريح ، واعرب الثاني عن رفضه بالرحيل ؟ هل اعتمد الملك على وعود الوزراء اصحابه ومعها ضمانات وزارية سرية ، ام هل كان الملك مكرهاً

اقف ها هنا لاقول كلمة فيها بيان شخصي . الليلة كان الملك فيصل يقص عليَّ قصة هذه المعاهدة ، او ما كانت قسمته فيها من المفاجآت المفرحة والمفجعة ، من « بابا كركر » في صحف باريس الى تلك المذكرة في وزارة المستعمرات بلندن ، جاءهُ رئيس الوزراء نوري السعيد بالخبر السارّ من منطقة القتال ببرزان ، فتحول الحديث من لندن الى بلاد الاكراد . وما سنحت بعد ذلك الفرص — سنحت الفرص ؟ انما هي كلمة باطلة لا يجوز ان اموّه بها ذنبي . فقد ذهلت عن الموضوع في ما كان بعد ذلك من

(١) النصوص المختلفة للتعهد الواحد هي كما يلي

«يتعهد صاحب الجلالة البريطانية بان يتوسط لادخال العراق في عصبة الامم باسرع ما يمكن»

المادة ٤ — معاهدة ١٩٢٢

«ينتهي اجل المعاهدة بدخول العراق في عصبة الامم . ولا يتأخر ذلك في اي حال عن الاربع سنوات من تاريخ عقد الصلح وتركية»

الملحق للمعاهدة — نيسان سنة ١٩٢٣

«عند انقضاء مدة معاهدة ١٩٢٢ والملحق لها ، تنظر الحكومة البريطانية فيما اذا كان العراق قد بلغ الرقي الذي يؤهله للعضوية في عصبة الامم»

المادة ٣ — معاهدة ١٩٢٦

« اذا استمر العراق في رقيه الحاضر وظلت الامور جارية مجراها الحسن ، يؤيد صاحب الجلالة البريطانية في سنة ١٩٣٢ ترشيحه لعضوية العصبة »

المادة ٨ — معاهدة ١٩٢٧

وكذلك تتلون العهود وتنتقض . فالعهد الذي قطعه الانكليز في سنة ١٩٢٢ ، عدلوه في سنة ١٩٢٣ ونقضوه في سنة ١٩٢٦ ، ثم بعث حياً سنة ١٩٢٧ وهو مقيد بشرطين

وقد جاء في تقرير الحكومة البريطانية على ادارة العراق لسنة ١٩٢٨ صفحة ٢٧ ما يلي :

«ان هذا التقلب في موقف الحكومة البريطانية بعث الريبة في نفوس العراقيين بحسن نيات انكلترا ، ولكن فيهم الاعتقاد بأنها لا ترغب في تأسيس دولة مستقلة في العراق . بل ان قصدها الحقيقي هو ان تستعمر البلاد »

المجالس والاحاديث وما عاد الملك اليه. وقد يكون شريكي في الذنب، رحمهُ الله ، فشغلني مراراً عن السياسة بتلك الاحاديث الحافلة بالعبر وباللطائف البشرية ولكني وانا اعود الآن الى تقصّي الحوادث ، استعين ببعض الوثائق والتقارير الرسمية ، علني استطيع ان اجلو للقراء خبر ذلك الحدث اوازيل شيئاً من غموضهِ

اعيد اذن السؤال : هل كان الملك فيصل مكرهاً في قبول معاهدة ١٩٢٧ ؟ يسارع بعض الكتاب والسياسيين العرب ، في مثل هذه الاحوال ، الى اتهام الحكومة البريطانية بالمكر والخداع دون ان يتحققوا الحوادث، ودون ان يثبتوا التهم. وقد قالوا في الحادث الذي نحن بصددهِ انها اثارت عرب نجد على العراق في ذلك الحين لتنفذ سياستها فيهِ ، لتجبر الملك فيصلاً على قبول المعاهدة. وفي ظاهر الامر ما يسوّغ الظن على الاقل. فقد أغار عرب نجد على العراق في خريف سنة ١٩٢٧ ثم في شتاء السنة التالية

ولكن ذلك لا يثبت الحقيقة كلها . فهل كان عرب نجد ، او بالحري هل كان الملك عبد العزيز ابن سعود مدفوعاً من الحكومة البريطانية في تلك الاغارات لاكراه العراق واذلاله ؟ اذا لم يكن الامر كذلك فكيف اتفقت يا ترى تلك الاغارات وانقطاع تلك المفاوضات بتاريخها الواحد ؟ فهل هي الصدف ، هل هي الاقدار التي أضرمت النار على حدود العراق عند ما كان جعفر يتجهز للرحيل ؟ فاذا كانت الصدف او الاقدار بريئة من هذا الاثم ، فهل الانكليز بريئون ؟ واذا لم يكونوا بريئين فكيف تستطيع ان تثبت ذلك ؟ وهب ان الامر لا يحتاج الى الاثبات ، وهب اننا قبلناه على ظاهره ، فهل الانكليز وحدهم بلوموين ؟ اوَ ليس اللوم الاكبر على العرب الذين يقبلون بان يذلّوا اخوانهم العرب لاعزاز الاجنبي ؟ أني اجلّ ابن سعود عن هذه المعرّة وامثالها ، وان الحقائق الراهنة في هذه المسألة لاتسوّغ حتى الظنون. فقد كان لحوادث نجد واغارات اهله اسبابها النجدية العراقية. وكان للانكليز يد فيها. ولكن الصلة مفقودة بين سياسة الامن وسياسة المعاهدات. وبكلمة اخرى إن السلسلة التي تربط البادية بوزارة المستعمرات حلقة مفقودة ، ولا نظنها في ما يتعلق بموضوعنا موجودة[1]

---

(١) اني مثبت الحقائق التاريخية في ما يلي :—

ا — ما رضي عرب مطير بالحدود النجدية العراقية المقررة في معاهدة العقير (تشرين الثاني سنة ١٩٢٢) وقد احتجوا لدى ابن سعود وتحاجوا مراراً بخصوصها

ب — قررت الحكومة العراقية بناء مخفرين عسكريين الواحد في أبي الغار والآخر في البصية للمحافظة على تلك الحدود ومنع الغزوات بين البلادين

ج — قلق عرب مطير وهم يرتادون الاماكن المجاورة للمخفرين وما دونهما في الايام المجدبة ، وخافوا ان يفقدوا ما يدعونه حقاً شرعياً تقليدياً — فرفعوا امرهم الى ابن سعود فاحتجت حكومة نجد (ت ١ سنة ١٩٢٧) على المخفرين بحجة انهما يحدثان الاضطراب فضلاً عن انهما يخالفان المادة الثالثة من معاهدة العقير

د — بعد شهر ونصف من احتجاج حكومة نجد (في ٢٥ ت ٢) اغار عرب مطير على مخفر البصية واكتسحوه

ه — قبل هذه الاغارة بيوم واحد ارسل ابن سعود وزيره الشيخ حافظ وهبه الى الكويت بالطيارة ليحضر المؤتمر المقصود عقده هناك لبحث المسائل التي تتعلق بالحدود النجدية العراقية . ولكن غزوة البصية حدت بوكيل المندوب السامي الى تأجيل المؤتمر

و — في اوائل ك ١ اغار عرب نجد على القبائل العراقية في لواء الناصرية

ز — في ١٣ ك ١ قبل ان وقعت المعاهدة البريطانية العراقية بيوم واحد هاجم سرب من الطيارات الانكليزية اولئك العربان كما فعلت قبلاً في غزوة الشهر السابق

اما الملك فيصل فاني اميل الى الاعتقاد انه كان يجاري الوزراء اصحابه ، ويتبع في الوقت نفسه سياسة خاصة به ، فيوصل الخيوط ويقطعها عملاً بتطور الاحوال . اذكر كلمة بليغة لاحد العرب وفيها حكمة رائعة : « غلبتمونا وجهلتم اننا شئنا هذه الغلبة لكم » ولا عجب اذا انتهج الملك فيصل هذا المنهج ، بعد تلك الولمية ، وهو متيقن انهُ سيرطم الانكليز برطمة المعاهدات التي تتابعت السنة بعد السنة ، فتزداد العقد تعقيداً ، ويقنطون اذ ذاك من الغلبات غير المفيدة

وقد كان . فقد بلغ فريق من السياسيين هذه المرحلة وقامت صحافتهم تندد بالحكومة—هي ذي الدعاية التي رحب فيصل بها — فقالت ان الحالة امست لا تطاق ، وانها « من انكر الحالات في العلاقات الدولية الحاضرة » . وعند ما يرفض المجلس النيابي العراقي المعاهدة غداً ، فماذا عساها ان تقول في « الحالة المنكرة ؟ »

اذن سنورد هذه المعاهدة حتفها ، سنشيعها الى القبر . وسيكون في الجنازة النصر الباهر للمعارضة — للبلاد ، ولكن الحكومة البريطانية اعدت كذلك العدة للعمل ، وجاء المفوض السامي السرهنري دوبس ليكلل المعاهدة بالاقرار البرلماني . واحد يريد دفنها ، وآخر يريد تتويجها

انتقل المسرح من لندن الى بغداد ، وجاء المتصارعون—الملك وجعفر والسر هنري— يستأنفون الصراع . من مدينة الضباب جاءوا الى مدينة الغبار — وفي الحالين حال الستار دون الابصار

ما كان المندوب السامي ليطمئنَّ الى وزارة جعفر ، فباشر لابدالها بوزارة اخرى . ولو كان له ان يرى شيئاً من مناورة جعفر الاولى لكفى نفسه مؤونة المناصبة . جاء جعفر بالمعاهدة للعرض لا للتلويح ، واول ما كان من مناورته ، عند وصوله بغداد ، انهُ اذاع مضمونها ، فأثار عليها الرأي العام . حملت عليها الصحافة حملات شديدة ، وقامت المعارضة تندد بها وبالوزير حاملها : رمى جعفر بالمعاهدة الى الامة تمزقها قبل ان تصل الى المجلس ، وهو يضحك في سره ، ثم استقال . وقد عدت استقالته النصر الاول للسر هنري دوبس . ثم دعي عبد المحسن السعدون لتأليف وزارة جديدة وعبد المحسن صديق الانكليز . كيف لا وهو الذي حمل المجلس منذ سنة على اقرار المعاهدة الاخيرة. لبى عبد المحسن الدعوة ؛ فعدَّ ذلك نصراً ثانياً للسر هنري . وهذا البرلمان لا يعوَّل عليه ، فينبغي ان يحل . وكان عبد المحسن يرى هذا الرأي ، فحل البرلمان ، وفاز السر هنري فوزه الثالث

ثم جرت الانتخابات ، وكان لحزب التقدم (حزب السعدون) الاكثرية الساحقة في المجلس الذي اجتمع في ايار سنة ١٩٢٨ ، فتم النصر للسر هنري دوبس

اما الملك فيصل فقد سار في الوقت ذاته سيره ، ودبر تدبيره . افليس السعدون وزيره الاول ،

ح — اغار عرب نجد الكرة مرتين بعد توقيع المعاهدة في شهري ك ٢ وشباط من سنة ١٩٢٨

ط — اضف الى ذلك ان فيصل الدويش شيخ مطير كان ثائراً كما برهنت الحوادث على ابن سعود لمطامع شخصية سياسية وان ابن سعود في قمع ثورة الدويش والقضاء عليه لم يكن مدفوعاً بغير مصالحه ومصالح بلاده

وزيره لا وزير سواه ؟ او ليس هو فضلاً عن ذلك من اشراف العرب ، ومن كبار الوطنيين في العراق ؟ والزعيم الاول المهيمن على حزبه ، المتمتع بثقة انصاره ؟

كان السر هنري عالماً بذلك ، وعالماً فوق ذلك بأمور كثيرة . ولكنما فاته الشيء الذي فيه العلم . وهو ان صديقه السعدون قد غير خطته السياسية ، فلا يرى من الآن حاجة الى الضغط على المجلس . بل لا يرى ان يعرض المعاهدة عليه قبل ان يتم تعديل الاتفاقين المالي والعسكري . وهو اذا اصرّ على ذلك يكفي نفسه شر المعاهدة فتظل مدفونة في مكتبه . ذلك لان في الاتفاقين عقداً عصى حلّها اسلافه وسلف السر هنري » . وما كانت شروط الحكومة البريطانية هذه المرة اخف مما سبقها . فقد قيدت ملكية العراق لميناء البصرة ولسكة الحديد بقيود ثقيلة وتحمّلت على عادتها في مسألة التجنيد الاجباري

تلبد جو المفوضية بالغيوم . فقد تمردت لجنة المجلس المعينة لدرس الاتفاقين ، فضربت باقتراحات المندوب السامي عرض الحائط . وتمردت الوزارة ، فأصرت على تعديل كلي جوهري ، وتمرد المجلس الذي اصبح حزب التقدم فيه — حزب السعدون — اشد تطرفاً من المتطرفين انفسهم

صُعقت المفوضية . تبلبل السر هنري دوبس . فالاذعان لارادة العراقيين مستحيل ، والرد لمطالب العراقيين خيبة له ، هو الطامح الآمل بابرام المعاهدة . فعمل المكره عليه ، قبل بالخيبة . ثم استقال السعدون ، وكان النصر الاكبر ، في رفض المعاهدة والاتفاقين ، للامة وللبلاط ، فهتف الملك بشكر الله وحمده . ولكن الحساب لم ينته بينه وبين المندوب السامي . فلا يزال هناك دين صغير — تلك المذكرة في وزارة المستعمرات المكتوبة بخط يده . لم ينسها الملك فيصل ، وعندما سقطت وزارة السعدون (كانون الثاني ١٩٢٨) واخفقت المساعي المتكررة لتشكيل وزارة جديدة ، وأقبل السر هنري الى البلاط يطلب مقابلة الملك ، حان وقت الحساب

السر هنري : « البلاد بلا وزارة يا صاحب الجلالة ، وهي تنتظر ان تعينوا من يؤلفها »

الملك فيصل : « ولكني ملك دستوري ، وعلى الملك الدستوري ان يلزم الحياد »

وعندما جاء المرة الثانية بالمهمة نفسها ابرز تلك المذكرة وقال : « هذا تريده انت يا حضرة المندوب . يجب على الملك الدستوري ألاّ يتدخل بشؤون الدولة[1] أليس كذلك ، ان شؤونها الآن بيدك ولك ان تعين من تشاء » . ومرت ثلاثة اشهر ، والبلاد بلا وزارة ، والملك فيصل في موقفه لا يتحول عنه . انكسفت المفوضية بعد انهزامها مرتين متواليتين ، واسترجعت المعاهدة التي كانت اصل الازمة ، وحانت ان تنتهي مدة السر هنري دوبس كمندوبٍ سامٍ في العراق ، فانتهت قبل اوانها . وكان من الممكن ان تنتهي بأوانها وبسلام

(١) « بعد ان اعلن الدستور اخذ الملك فيصل يتجنب التدخل اكثر من اللازم بشؤون الدولة » (السر هنري دوبس . وفي رسائل غرترود بل ، الجزء الثاني ، صفحة ٥٥٤)

خليل شيبوب

غيوم الخريف

جاء الخريف بغيمه يتهادى في الجوّ مطرداً عليه طرادا
لما علت شمس الضحى خلعت على تلك الغيوم من النضار بجادا
مدّت اشعتها حبالاً فوقها نشر الخريف غيومه ابرادا
فكسا بها الافق القصيّ مطارفاً تذرو عليها الماطراتُ رمادا
شيبت سواد في البياض فشابهت شَيْباً علا فوق الرؤس سوادا
ان الغيوم سرادقات فخمة ركزت لها تلك الشعاع عمادا
او انها صحف النذير الى الورى بشتائهم أَنْ قد دنا ميعادا
او ان هذا الجوّ صدر واسع تغلي اشعة شمسه احقادا
حانٍ على بحر خضمٍ هائج يرغي بموج غيومه ازبادا
فاذا صفا وصفت تدرج وشيها يققاً مدارجهُ اتسقن صعادا
رقّت حواشي بردها وتباعدت فاذا السماء وراءها تتهادى
كغلالة زرقاء جمّل لونها وشى المخرّم فوقها اسنادا
يا حسنَ الوية السلام خوافقاً خفق القلوب اذا خلصنَ ودادا
حارت بها هذي الطبيعة فاكتست بالظلّ مدَّ ذيوله وتمادى
والماء رقّ وراق يجري منسياً حرَّ الهجير وجمرهُ الوقادا
الارض جسم والمياه لها دم يغذو بها الاغوار والانجادا
عادت الى الحقل العوامل بعد ما في الصيف كنَّ فرغنَ منه حصادا
وتنفس الحيوان في روحاته وغدا يطيب له التراب وسادا
وتعرّت الاشجار من اوراقها وتبدّلت اغصانها اعوادا
وتداعت الاطيار من آفاقها تبني الوكون وتستحثّ الزادا
وبدت طلائع للشتاء مغيرة جاءت بأول برده مرتادا
ان الشتاء لكل حي راحة تسليه من عنت الحياة جهادا
مترقباً عود الربيع وعودها بقوى الشباب كأنه قد عادا
سبحانك اللهمّ كونك كله نظم تقلبها هدًى ورشادا
قد شدته للناس دارَ عبادة وبه دعينا في الكتاب عبادا
في كل خافية وظاهرة لك التسبيح ان همساً وان انشادا

آياته في خلقه

الطبيعة رائد المخترعين

﴿ السمك النشّاب والقسي والسهام ﴾ : لئن استوضحت امرءًا تتوسم فيه الحصافة « أي اختراع تعتقد ان الانسان مخترعهُ من اصوله الى فروعه » لاجابك من فوره « القسيّ والنُشّاب » وما شا كلها كالبندقية وكل سلاح يقذف قذيفة نارية . والواقع ان من يتوهم ذلك لمخطئ . لان الطبيعة اخترعت تلك القاعدة،قبلما عرف الانسان بعصور طويلة ، وسيلة قتل الطيور بقذفها بالحصى

ويؤيد قولنا ان كثيراً من النباتات وبعض الحيوانات تتذرع بالقذائف الى الحصول على غذائها وافضل مثال لذلك « السمك النَشّابُ » الذي يعيش في مياه بحار الهند ، ويعرف عنه العلماء باسم Toxotes Jaculator اي «السمكة ذات البندقية» ويتغذى غالباً بالحشرات التي تأوي الى النباتات التي تنمو على السواحل . ولما كانت تلك السمكة عاجزة عن الوثوب من الماء الى الحشرات حين تحوم حول تلك النباتات ، فانها تتوسل الى قنصها بقذفها ببندقيتها ، أسوة بالصائد الذي يصوّب بندقيته الى الطيور من بعيد . فترى السمكة تشتف الماء حتى ينتفخ شدقاها ، ثم تقبض فمها وتبعُّ ما فيه من الماءِ بشدة على فريستها . وقلما تخطىء المرمى ، فتصرعها ثم تلتهمها

﴿ المحقنة وأنياب الافاعي ﴾ : لم يعرف الاطباء المحقن الذي يستعمل لحقن الادوية تحت الجلد الا في خلال النصف الاخير من القرن الماضي . فتوسلوا بهِ الى حقن المرضى في الانابيب الدموية بالطفيف من العقاقير المخدّرة ، تخفيفاً لآلام العمليات الجراحية وتمكيناً للمريض من احتمالها . مع ان الطبيعة اخترعت ذلك الاختراع قبل الانسان بملايين السنين ، بيد أنها تملأ محاقنها سمًّا، جاعلة اياهُ سلاحاً دفاعيًّا لبعض مخلوقاتها . وما الانياب السامة للافعى ذات الاجراس ، والصل المصري ، — الناشر — وما اليها من الثعابين السامة ، الا محاقن طبيعية في اجسامها تماثل المحاقن الصناعية التي يستخدمها الاطباء سواء بسواء . والنحل والزنابير والبعوض ، وما شا كلها من انواع النمل ، مجهزة بمحاقن مملوءة سمًّا تقتل بهِ غيرها من الحشرات وتكدّر به صفو سيد المخلوقات . ولكن المحاقن التي في ابدان تلك الحشرات تختلف اختلافاً طفيفاً في تركيبها ، عنها في انياب الافاعي .

لان ابرة أية حشرة من هاتيك الانواع تخرق الجلد بمباضع دقيقة تتحرك حركة سريعة ، متصلة بالانبوب الذي يسري منهُ السم الى الملسوع [1]

﴿ القصر البلوري والزنبق المائي ﴾ : ومع ان الطبيعة سبقت ان اخترعت كثيراً جدًّا من المخترعات التي استطاع البشر تقليدها ، غير ان المخترعين قلما يقتبسون مخترعاتهم مباشرة من الطبيعة ولقد كان بدء احتذاء الطبيعة في اعمالها كل الاحتذاء ، موافقاً لتاريخ بناءِ القصر البلوري في لندن — وهو أول صرح بُني بالفولاذ والزجاج فقط . ويعتبر النموذج الاول الذي قلّده المهندسون فيما بعد في كل ما انشأوه وينشئونه من سقائف للمصانع ولمحطات السكك الحديدية

وتفصيل ذلك الحادث انه في سنة ١٨٥١ احتاجت ادارة المعرض في لندن الى بناءٍ فسيح للمعروضات، فتبارى المهندسون في عرض الرسوم المختلفة ، فلم تحز القبول ، لان ذوي الشأن كانوا يعترضون على كل رسم منها لعدم استيعابه للشروط المطلوبة كافةً

فجاءهم ذات يوم بستانيٌّ ، وهو يوسف بكستون وعرض عليهم بغتة رسماً غير متقن (مسوَّدة) لبناية تقام على قاعدة جديدة من كل الوجوه . وكان قد درس الزنبق المائي المسمى Victoria Regia وهو نبات مائي ذو اوراق ضخمة تستطيع الورقة الواحدة منها حمل طفل متوسط الجرم . وكان قد قد وقف على سرّ قوة احتمال الورقة الزنبقية فاقتبس باكستون اختراع الدعائم الفولاذية من نظام اضلاع اوراق الزنبق المائي المستديرة العائمة الضخمة . واضاف اليها الواحاً من الزجاج كالالواح التي تركب في أطر مشاتل النباتات في بستانه . فكان ذلك اساس بناء القصر البلوريّ . واعترافاً بفضله ، أنعمت عليهِ حكومته بلقب سير ، فاصبح البستاني الخامل الذكر ، السير يوسف باكستون المهندس المشهور

﴿ نبات الجرّة والثلج الصناعي ﴾ : ولا يخفى على كل منا كيفية صيرورة يوم صيهب [2] ، بارداً ، عقب انهمار بارقة [3] thunderstorm فجائية . ويعلم دارسو الطبيعيات ان الحرارة تستنفد في تبخير بعض الماءِ وتحويله مطراً يبرّدُ الجوّ . وان بعض المواد ، كالنشادر والحامض الكربونيك ، يستنفدان حرارة كثيرة في تبخرهما تفوق ما يستنفده الماء فينشأ من تبخرهما رطوبة اشد من رطوبة الماءِ وان هذا هو اساس صناعة الثلج . ومع ذلك فقد سبقت الطبيعة الانسان بزمن بعيد فاستخدمت نتيجة تبخر الحامض الكربونيك والماءِ ، لنفع النبات المسمى « نبات الجرّة » الذي ينمو في بلاد الهند . وهو يستهدف غالباً للعطش ازماناً طويلة ، فيحتاج بطبيعتهِ الى الاستعانة بجهاز للتبريد لكي يحصل بهِ على الماءِ من الهواءِ . وبعض اوراقه تشبه الجرّة في شكلها ، ويمتد من ساقهِ جذر طويل مفرّع متصل بقعر الجرة . وسطح باطن الجرة يفرز ماء وحامضاً كربونيكاً فاذا ما تبخّر ذلك المزيج المرطّب ،

(١) اللسع لذوات الابر واللدغ بالفم — فالعقرب تلسع والحية تلدغ

(٢) الصيهب — اليوم الحار ، او شدة الحر (٣) البرقة بوزن الغرفة . والبارق سحاب ذو برق والسحابة بارقة — مختار الصحاح — المترجم . وهذه افضل ترجمة للفظ Thunderstorm الانكليزي

انخفضت درجة الحرارة في الجرّة فيترتب على ذلك اجتماع رطوبة الهواء على جذر الشجرة من الداخل كاجتماع قطرات الماء على سطح جرة من ماء مثلوج ، فتنحدر تلك الرطوبة الى الاسفل حتى تصل الى قعر الجرة حيث يمتصها النبات وينتفع بها

﴿ الحارود — كلب الماء — واختراع الخزانات ﴾ : ولا يغرب على الكثيرين من القراء ان الحارود النشيط هو مخترع الحياض التي يخزن فيها الماء لادارة المصانع . وانهُ ايضاً اول من قنّى القنيّ لجر المياه واستخدامها للنقل والانتقال بالسفن . وكلب الماء يأتي ذلك في الغياط القريبة من الاشجار لكي يتمكن من قطع اغصانها وتعويمها في القناة ليستعملها في بناءِ الخزان او بمثابة كتل للطعام

وطالما افتخر المهندسون البشريون بحفر قناة بناما ، وهم خليقون بالفخر ، بيد أنها ليست اغرب من بعض الترع التي يحفرها ذلك الحيوان البحري المهندس

وقد رأى المستر ارنست طمسون سيتون ترعة من ذلك النوع انشأتها كلاب الماء في جبال اديرونداك في نيويورك فاذا طولها ٦٥٤ قدماً وعرضها يتراوح بين قدمين وثلاث اقدام وعمقها قدمان

ويمتاز الخزان الذي ينشئه كلب الماء بغرابة شكله اذ يبنيه من اغصان الاشجار المتينة والطين . وقد يبلغ عرضه ٢٠ قدماً وعمقه ١٢ قدماً وطوله ١٢٠٠ قدم . فلا شك ان ذلك الحيوان المهندس هو رائد المخترعين للخرسانة المسلحة لان مواد البناء التي يستخدمها في بناياته اي الطين والاغصان تقابل خليط الاسمنت والقضبان الحديدية المؤلفة[1] للابرق المسلح

﴿ الارضة الافريقية ونواطح السحاب ﴾ : تبني الارضة — وتعرف بالنمل الابيض وهي ليست نملاً — بيوتها من الصلصال فيتصلب من الشمس تصلباً شديداً بحيث تستطيع زمرة من الناس الوقوف على سقوفها دون ان تتصدع . وتجعل الارضة بيوتها مقبّبة ، ذات طبقات عدة من المخادع ، تعلو بعضها بعضاً لاغراض شتى . وتوصلها بعضها ببعض بمجازات تحفرها في جوف الارض فتصبح بمثابة مدينة يعلوها سقف واحد كأنها صرح من الصروح المكتظة بدوائر الاعمال ، الحافلة بالسكان التي يطلق عليها اسم (ناطحات السحاب)

وقد يبلغ ارتفاع بيت الارضة ١٢ قدماً مع ان ارتفاع اشهق مباني العالم اي الامبيرستيت ١٢٠٠ قدم . فان اردت المقارنة بين ذينك البيتين باعتبار قامة بانيه ، اتضح لك البون الشاسع بين مجهود الارضة ، ومجهود الانسان . اذ عمارة «الامبيرستيت» لا يزيد ارتفاعها على ٢٠٠ ضعف قامة انسان طوله ست اقدام . على حين ان بيت الارضة يفوق ٥٠٠ ضعف قامتها التي لاتعدو ربع بوصة ! ! اذن تكون ابذخ مباني البشر واشهرها شيئاً حقيراً بازاء بناية الارضة المهندسة البارعة ! !

﴿ الزنابير وصناعة الورق ﴾ : معظم الناس يعرف ان الورق الذي تطبع عليه صحفنا اليومية من

---

(١) الابرق كالبرقاء والجمع ابارق — غلظ فيه حجارة ورمل وطين مختلطة — ولعل هذا افضل لفظ يسوغ استعماله بدلاً من الخرسانة المسلحة . وهو مقتبس من معجمي الفيروزابادي ومختار الصحاح

عجينة الخشب او رُبّهِ . بيد انهم لا يفقهون كوننا نتأسى في ذلك بأقدم صناع الورق — ونعني بها الزنابير — !! تلك الحشرات النشيطة التي حذقت صناعة الورق ، قبل ان يتعلم الصينيون صناعته بالايدي بدهور. وطريقة الزنابير تقوم بمضغ اوراق الشجر او الياف الخشب حتى تصيرهُ عجينة فتستعملها في بناء عشها اما في حفير من الارض واما في غصن شجرة واما ملصقاً بعرق خشب بدار قديمة او هري عتيق

﴿ مذبنة زهرة Venus, Flytrap ﴾ : يدلنا التاريخ البشري ان الانسان حينما شرع يفكر في صيد الحيوان ليقتات بلحمه (اخترع الفخَّ) وكان ذلك الفخ بمثابة حفير في السبيل التي اعتادت الحيوانات الطريدة سلوكه ، ثم اخفاء الحفير عن عيونها بغطاءٍ ركيك ، حتى اذا مرّت عليهِ ناءَ بها فتسقط فيهِ حيث لا تستطيع حراكاً فيفاجئها الصائد ويغتالها . ثم تدرج العالم من ذلك الى اتقان الحبائل رويداً رويداً حتى اتيح لهم صنع الفخ الفولاذي ذي النابض . الاّ ان الطبيعة قد سبقت الانسان الى صنع الفخاخ منذ ملايين السنين ممثلة في نبات ضئيل ينبت في ولايتي كارولينا الشمالية والجنوبية وفلوريدا بأميركا ويعرف باسم مذبنة زهرة . فاذا نصب ذلك الفخ رأيت شقي الورقة المستديرين فاغرين ، وثلاث شوكات متينة كالاسنان نائتة في وسط كل من الشقين . وويحاً للحشرة التعسة التي تلمس الشوكة العليا فتكون كمن يبحث عن حتفه بظلفه إذ ينطبق الشقان عليها بغتة وتشتبك توّاً اسنان الشقين بعضها ببعض كما تشتبك اصابع الكفين اذا تداخلت بعضها ببعض فتستقر الحشرة في جوف النبات وحينئذ تفرز غدده سائلاً هاضماً وتمتص المادة النيتروجينية التي في الحشرة وقد يقضي النبات عدة ايام في هضم ذبابة واحدة وقلما تتمكن الورقة الواحدة من هضم ذبابتين او ثلاثاً قبل موتها

﴿ اجهزة تنفس الحشرات والكمامات الواقية من غبار الصناعات ﴾ وقد ترتب على الصناعات العصرية طائفة من الحرف التي يستهدف ذووها الى الذرات التي تتناثر منها . ومنها حرفة الحفر على الزجاج والمعدن بنسف الرمل ، التي تقتضي توجيه مجرى من الرمل الناعم بوساطة الهواء المضغوط على سطح من الزجاج من ثقوب مقطع[1] فينجم عن ذلك طيران ذرات الرمل والزجاج ، فان تعرض الصانع على الدوام لاستنشاقها ، احدثت تهيجاً في رئتيه فرضاً وبيلاً . ولذلك يجهز الصناع بأقنعة او كمامات للتنفس تنقي الهواء مما يشوبه من الذرات الصلبة وذلك بوساطة شبكة سعدنية دقيقة لكي تحول دون دخولها (اي الذرات) في رئتي الصانع . وقد يخيل للمرء ان هذا الاختراع ليس من مستلزمات الطبيعة . والواقع ان الحشرات تكاد تكون كلها مجهزة بأمثال ذلك الجهاز

ويجهل الكثيرون من الخلق كون الحشرات لا تتنفس بأفواهها . والحاصل ان الهواء يدخل

---

(١) المقطع — جاء في اللسان والمقطع بكسر الميم ، مثال يقطع عليه الاديم والثوب وغيره (ارنيك) Stencil

اجسامها شهيقاً ويخرج منها زفيراً ، وذلك من جوانبها مباشرة بوساطة صف من المسام يسمى Spiracles مؤلفة من شعور دقيقة تقي تلك المسام من دخول الغبار . ولو حرمت الحشرات من تلك المصافي لصارت حالاً اجهزة التنفس كلها في اجسامها غير مجدية

﴿ البقباق[1] المائي والزوارق ومقاذيفها Water—boatman ﴾ قبل ان يعرف العالم في العصور الاولى من التاريخ البشري طريقة تجويف كتل الخشب وجعلها زوارق ، وقبل ان يتعلموا كيفية تسييرها بمقذافين ، اخترعت الطبيعة مقاذيف متقنة لنفع حشرة مائية ضئيلة سميتها البقباق المائي وقد يتسنى لك رؤية تلك الحشرات في الماء الضحل على شواطىء البرك الصيفية . والبقباق يقطع سابحاً بمقاذيفه الطبيعية مسافة لا تزيد على نصف بوصة كلما حرك مقذافيه مرة واحدة — ولو تأملته عن كثب لرأيت الشعور المتينة الناتئة من جوانبه تنقبض في الماء حينما يبغي التقدم . وتنبسط حين يبغي التقهقر . وعلى ذلك النمط ترى الطبيعة اتقنت صنع المجذاف على شكل الريشة قبل ان يحذق الناس ذلك بملايين السنين . والطبيعة تراعي دائماً الاقتصاد في مخترعاتها — فان ذينك المقذافين اللذين جهزت بهما البقباق المائي هما ساقاه . وهذه هي خطة النشوء والارتقاء — اي انه اذا استجدت حاجة لمخلوق من المخلوقات لا يمكن ان يعيش من غير استيفائها ، عدلت الطبيعة اي عضو من اعضائه حتى يفي بتلك الحاجة . ولو عرف الناس مخترعات الطبيعة كنه المعرفة من قديم لكانوا استطاعوا اختراع بعض مخترعاتهم قبل تواريخ اختراعها بالوف السنين

ولما اخترع روبرت فلطون باخرته الاولى جعل رفاسها بمثابة عجلتين على جانبيها . ثم حسن غيره من المخترعين تلك الطريقة فجعلوا البواخر التي تشق عباب المحيطات ذات رفاسات مختلفة عن ذلك النوع فبدأوا باختراع الرفاس اللولبي وذلك النوع ما يزال مستخدماً لتسيير البواخر من اصغرها الى اكبرها . مع انه لم يكن معروفاً منذ مائة سنة . والحيوانات الدقيقة التي تؤلف اجسامها من خلية واحدة والتي تسمى ذات الذوائب او السياط flagellates تنطلق بسرعة في مياه البرك وتستخدم الرفاس اللولبي الذي في جسم كل منها وهو ذنبها منذ عصور لا حصر لها . فاذا ابصرتها سابحة في الماء خلتها طيارة يدور محركها فيشق الهواء فيدفعها الى الامام ساحباً جسمها وراءها . وعلى ذلك الاسلوب تسبح تلك الحيوانات الدقيقة ذات الاجسام اللولبية الاشكال في الماء محركة ذوائبها الطويلة قدامها

﴿ عظام الجمجمة والتعشيق في النجارة ﴾ : يعرف كل نجار ان اوثق رباط لزوايا اي صندوق من الخشب هو التعشيق اي ادخال ألسنة من الخشب من جانب في تجاويف مطابقة لها في الجانب الآخر فتشتبك الزوايا بعضها ببعض كما تشتبك اصابع اليد بالاخرى اذا ضممت كفيك — ويعرف هذا الاشتباك في اللغة الفصحى بالاشتباك التدريزي وعند العامة والنجارين في مصر باسم (نقر ولسان) اي انثى وذكر — وعاشق ومعشوق — والطبيعة اول من اخترع هذه الطريقة وغيرها من

(١) لم اعثر على ترجمة لذلك الاسم فاطلقت عليه البقباق المائي مقتبساً اياه من بقبق الكوز في الماء

القواعد الصالحة للبناء التي يستعملها الانسان . وحسب المرء ان يفحص الخطوط الموصلة بين العظام المكونة للجمجمة فيجدها كلها على مثال العاشق والمعشوق . فلا غرو اذا كان سميتون المهندس الاسكتلندي قد نهج هذا المنهج في ربط احجار اساس منارة اديستون Eddystone حيث تثور عواصف البوغاز الانكليزي (بحر المانش) وامواجه الطاغية . وقد اقيمت تلك المنارة على انقاض منارة قديمة ، كانت مبنية بالاحجار فاكتسحتها الامواج والعواصف لضعف بنائها. فلما نيط بذلك المهندس تجديد البناء لم يرَ أفضل من طريقة تعشيق حجارة الاساس بعضها ببعض ثم تعشيقها هي ايضاً في سطح صخر اديستون المبنية عليهِ المنارة نفسها. وقد انقضى على بناء تلك المنارة مائة وخمسون سنة ولم تؤثر فيها العناصر تأثيراً يذكر

﴿ النحل في قفيره واجهزة الهواء في المسارح والمصانع والمناجم ﴾ : لا يخفى ان لكل مسرح من المسارح العصرية ، ولكل مصنع من المصانع الحديثة الطراز ، ولكل منجم من المناجم الجديدة جهاز لتجديد هوائه وذلك الجهاز يعد حديثاً في هندسة البناء البشرية اذا قسناه بقاعدة تجديد الهواء التي عرفها النحل واستخدمها منذ دهور . والغايات التي يتوخاها النحل من ذلك التجديد الهوائي في خلاياه ، لا تختلف عما يقصده الناس ، فالنحل يولد تياراً من الهواءِ بتحريك اجنحته. والانسان يجدده بالمراوح الكهربائية ولذلك يؤلف النحل صفاً طويلاً من جنوده تقف عند مدخل قفيرهِ فتأخذ في الدويّ بلا انقطاع ، ضاربة الهواء باجنحتها فتحركه وتحدث فيهِ تياراً يخفف وطأة الحرارة في القفير أو يقلل ما يلحقهُ من الرطوبة

﴿ اصحاب مزارع تربية المواشي وحبائل الصيد والجرابي ﴾ : ومن قبل ان يتعلم رعاة المواشي بازمنة طويلة كيفية القبض على العجل الهارب بقذف ربقة حول قرنيه ، اخترعت الطبيعة مثل تلك الاحبولة التي تلقى من بعيد على الطريدة — ممثلة في الحرباءة — وهي اول مخلوق يستفيد بتلك الوسيلة وبها يتسنى لذلك الحيوان قنص الفراش وغيره من الحشرات من بعد يتراوح بين ٦ بوصات و٨ بوصات

والواقع ان ربقة الحرباءة انما هي لسانها ذو الطرف اللزج فبذلك اللسان يتيسر للحرباءة وهي جاثمة على اي غصن من اغصان الاشجار ان تقنص اية حشرة تراها على بعد مناسب لطول لسانها فترحف اليها دون ان تزعجها حيث تختطفها بلسانها في طرفة عين ثم تفترسها . ومن ثمَّ ترى الطبيعة قد جهزت الحرباءة بذلك اللسان العجيب لانها تأوي الى الاشجار حيث يتعذر عليها الوثوب من شجرة الى اخرى لصيد فريستها . فتستعين بلسانها على ادراك كل بعيد عنها ، فان خلت الانسان اول مخترع لاي اختراع تراه حديثاً في عرفك ، فانك تخطىء لان الطبيعة اخترعتهُ قبل ذلك بالوف السنين . وهذا سبب كون العلم الآن يشير على المخترعين باستجلاء غوامض الوسائط الطبيعية الميكانيكية واستقرائها حتى يقتبسوا منها ما يصلح لاستفادة المجتمع الانساني من الاختراعات الجليلة الشأن

(عن مجلة العلم العام) عوض جندي

لمصطفى صادق الرافعي

قلبي... يا قلبي

قلبي ، أأنتَ نَصيري في محبَّتها ... أم أنت يا قلبُ فيها بعضُ أعدائي ؟
كلُّ الذي فيكَ من بُرْئي وعافيتي ... هو الذي فيكَ من سُقْمي ومن دائي

* * *

يا رحْمَتَا لكَ من قلبٍ كصَوْمَعَةٍ ... في رأسِ شَاهِقَةٍ في جَوْفِ صَحراءِ
شِيدَتْ من الصخرِ لكنْ في طهارتِها ... هي الغَمامةُ قد شِيدتْ من الماءِ
تَطْوي معانيَ هذي الأرضِ في كلمٍ ... كالطِّفْلِ عالَمُهُ في بعضِ أسماءِ
فالموتُ فيها بلا معنىً يُميتُ كما .. ... فيها الحياةُ بلا معنىً لإحياءِ

* * *

يا حسْرَتا لكَ من قلبٍ تقلَّبَ من .. ... جوعٍ لجوعٍ وإظماءٍ لإظماءِ
عند الأَحباءِ لا يألو مُنَازَعَةً ... وإن تكنْ رَوْحَهُ عند الأَحبَّاءِ
ناءٍ قد ازْوَرَّ عن ناءٍ وما ابتعدا ... لكنْ مُعاندُ من يهوَى هو النائي
يَظَلُّ ذا كرَ حُبٍّ غيرَ محتَفِلٍ ... ذكرى ، وناسيَ حبٍّ غيرَ نسَّاءِ

* * *

اوْفى بِكَ الحبُّ يا قلبي على زمنٍ ... كالأرضِ بعد حَصَادِ الزَّرعِ للرائي
سَوْدَاءَ شَعْثاءَ مُغْبرًّا جوانبها ... من بعدِ لفَّاءَ رَيَّا النبتِ خضراءِ
قلبي ، أأينَ بِتَّ مطويًّا على حُرَقٍ ... من الصَّبابةِ تُطفيها باطفائي ؟
وَيْكَ اتَّئِدْ ، إنّ نيرانًا تُحرِّقني ... في حبها ، هي نيراني وأضوائي

* * *

يا بؤسَ للقلبِ من هجرٍ عَرَفْتُ به ... ثِقْلَ الزمانِ على قلبي وأحشائي
يمرُّ يومٌ فيومٌ في تَسَلْسُلِهِ ... والحبُّ حاسِبُني في يوم أخطائي
مِثْلَ الضبابِ على الأنوار يتركُها ... مرضى من النُّورِ قد حُمَّتْ بظلماءِ
وشُقَّةُ الهجرِ تمضي لا انتهاءَ لها ... إذا الدَّلالُ مَشَى فيها بإِبطاءِ ! !

* * *

قلبي ، أأنت نصيري في محبتها ... أم أنت يا قلبُ فيها بعضُ أعدائي
كلُّ الذي فيك من بُرْئي وعافيتي ... هو الذي فيك من سُقْمي ومن دائي

النيل في العهد الفرعوني

مقاييسه . اعياده . مدحته

للدكتور حسن كمال

— ٢ —

سنذكر للقارىء بياناً موجزاً لبعض مقاييس النيل التي كانت في عهد الفراعنة والتي لا تزال آثارها باقية للآن مبتدئين بأقصاها جنوباً ومنتهين بأقصاها شمالاً

(١) مقياس النيل في جهة سمنة : — في قلعة سمنة القديمة (بالسودان) نقوش غاية في الخطورة خاصة بمناسيب النيل وقت الفيضان. ويظهر ان مشروعات الري العظمى التي شادها امنمحعت الثالث (١٨٢٠ ق. م.) في الفيوم تطلبت معرفة حالة الفيضان قبل وصوله الى الفيوم بمدة كافية وكتابة هذه الاحوال بالضبط على الصخور وارسال اخبار الفيضان بواسطة اشارات من تل الى آخر حتى المركز الرئيسي . وهذه النصوص اوردها لبسيوس في مجلده الثاني من الدنكمالر لوحة ١٣٩ وهي تقع على ارتفاع عشرين قدماً فوق سطح النيل الحالي . ومن هنا نشأ كثير من الارتباك والتخمين في تفسير هذا الفرق العظيم . ويستدل من طريقة نقش هذه النصوص انها حفرت عند حد المياه الحقيقي وليست عند النهاية العليا لحبل طوله عشر اذرع او عشرون ذراعاً مثلاً بينما نهايته السفلى تمس سطح النهر ويرى الاستاذ بتري ان نصوص سمنة تشير الى انخفاض قاع النهر في بلاد النوبة العليا بخلاف الحالة في مصر وهذا ينشأ من امرين اولهما تآكل قاع النهر الحجري وثانيهما ارتفاع قاع النهر عند طرف النوبة الجنوبي (راجع تاريخ مصر للاستاذ بتري جزء ١ ص ١٩٥) . والنصوص التي في جهة سمنة هي خاصة بالفيضان سنويًّا في عهد الملك سباك حوتب الاول (٢٤٦٠ ق .م .) الى الرابع (اسرة ١٣) — راجع بتري جزء ١ ص ٢٥٩) . والمعروف ان امنمحعت الثالث (١٨٢٠) كان اعظم ملوك اسرته اهتماماً بأمور الري فهو الذي اصدر امره لحامية قلعة سمنة بأن تقيس في جهتها اقصى ارتفاع لمياه النيل كل سنة فتأسس لذلك مقياس النيل المذكور اعلاه . ولما كانت اخبار هذه المقاسات ترسل على عجل الى موظفي مكتب الوزير بمصر السفلى فقد تمكن القوم وقتئذ من تقدير مقدار الحبوب الممكن انتاجها في البلاد في السنة التالية. وبناء على ذلك قدروا نسبة الضرائب والرسوم التي تطلبها الادارة المالية من ذوي الاملاك (برستد تاريخ مصر ١٢٣ ترجمة الدكتور حسن كمال)

(٢) مقياس النيل بمعبد كلابشة : — هذا المقياس في الجهة الغربية لممر المعبد الداخلي .

وهو محفوظ بحالة جيدة . ونكتفي الآن بالاشارة اليه تاركين التفصيل للمقاييس الاخرى التي تفوقه شأناً

(٣) في جزيرة انس الوجود (بيلاق او فيلة) مقياس للنيل وهو عبارة عن بئر في الجنوب الشرقي من اطلال الهيكل هناك وفيهِ سلم مستقيمة تحتوي اولاً على ٥٢ درجة وتنتهي ببسطة مربعة تنعطف منها على اليمين ١٢ درجة ممتدة الى ماء النيل . اما الماء فيدخل في هذه البئر من باب مصنوع باسفلها ومن بعض فجوات في الحائط يعلو بعضها بعضاً بمقادير متفاوتة . وفي هذه البئر جهة الشمال في اتجاه الدرجة المربعة التقاسيم القديمة منقوشة في الحجر بكيفية غير متقنة ومجزّأة الى سبعة اقسام واحد يشمل ٤٢ درجة مقدّرة بثلاث اذرع واربعة يحتوي كل منها على ٢٨ درجة وكل قسم مقدّر بذراعين . ثم يلي ذلك قسمان آخران كل منهما ١٤ درجة وكلاهما مقدرّ بذراع . فعلى ذلك يكون مجموع الاذرع ١٣ ذراعاً . وقد اكتشف هذا المقياس المرحوم محمود باشا الفلكي عام ١٢٨٦ هجرية واصلحهُ وابقى تقاسيمه القديمة وجعل فيهِ المقياس عربيًّا بحسب الطريقة المتبعة في مقياس الروضة وقد قدّر الباشا المذكور الذراع القديمة المستعملة لمقياس النيل فوجدها ثلاثة وخمسين سنتيمتراً . ولم يعلم بالضبط حتى الآن تاريخ انشاء هذا المقياس (عن المرحوم كمال باشا في الحضارة القديمة ص ٧٤)

(٤) وفي جزيرة اصوان (ويقال لها ايضاً الجزيرة وعند الافرنج الفانتين) مقياس للنيل في مقابل مدينة اصوان وهو عبارة عن سلم مدرّج ينتهي بالمقياس وهذا عبارة عن تقاسيم ونقوش على جدار البئر . والتقاسيم عبارة عن اذرع والذراع مقسمة الى اقسام صغيرة كل منها يعادل اصبعين . وبعد ما مضى على هذا المقياس حوالي الالف سنة بلا استعمال اصلح في عهد الخديو اسماعيل عام ١٨٧٠ ميلادية كما يستدل على ذلك من النقوش العربية والفرنسية هناك . وعلى جدران السلم تشاهد نقوش يونانية يرجع تاريخها الى العهد الروماني توضح مناسيب النيل . ومقاسات هذا المقياس رومانية العهد والاذرع مكتوب عليها بالخط اليوناني . اما المقياس الحديث فمنقوش على الواح من الرخام

قال استرابون ان هذا المقياس مصنوع من احجار منحوتة نحتاً متساوياً وهو واقع على ضفة النيل ومنقوش عليهِ مناسيب النيل القصوى والصغرى على حدٍّ سواء لان الماء في هذه البئر يعلو وينخفض مع ماء النهر . وعلى جانب البئر علامات تشير الى ارتفاع الماء الى العلو الكافي للريّ وغير ذلك . وهذه المناسيب تقرأ وتدوّن وتنشر للعلم ..... ولهذا شأنهُ عند الفلاحين اذ عليهِ تترتب مواعيد الريّ والمحافظة على الترع والجسور الخ . ولهُ ايضاً شأن كبير عند الموظفين الماليين لان منسوب النيل وقت الفيضان له علاقة بالضرائب . فكلما علا المنسوب زادت الاموال

(٥) وفي معبد حوريس بأدفو دهليز مدرّج تحت الارض يبدأ من القسم الشرقي للممرّ حول المعبد وهذا الدهليز ينتهي إلى مقياس قديم عبارة عن بئر دائري خارج المعبد ويحيط بهِ سلم حلزوني وعلى حائط هذا السلم المقاييس والارقام الديموتيقيّة الخاصة بقياس النيل . وهذه البئر كانت متصلة بالنيل بطريق سفلي سدّ الآن ولم يعد على اتصال بالنهر

(٦) وفي الركن الشمالي الشرقي للسور الخارجي لمعبد مدينة هابو بالاقصر فوق البحيرة المقدسة وعلى بعد ٤٥ ياردة والى الشمال الغربي منها يوجد مقياس للنيل ويتوصل اليهِ بباب منقوش عليهِ اسم الملك تقتانب الاول وهذا الباب يوصل الى حجرة ثم الى دهليز ينتهي بسلم مدرّج يصل الى عمق ٦٥ قدماً حيث توجد مقاييس الفيضان النيلي

(٧) مقياس الكرنك: — على جدار مرسى السفن القديم لمعبد الكرنك نقوش تدل على مناسيب النيل في عهد عدة فراعنة . وقد نشر هذه النقوش وترجمها الاستاذ ليجران في مجلة السيتشرفت الالمانية عدد ٣٤ . وهذا المرسى مشاد باحجار ضخمة وعليهِ ٤٥ نصًّا خاصة بمناسيب النيل ابتداءً من السنة السادسة للملك شيشاق الاول الى السنة التاسعة عشرة من عهد الملك بسامتيك الاول. اما النصوص فبسيطة ولا يجد الباحث صعوبة في ترجمتها وهي عبارة عن تكرار العبارة الآتية: — « النيل في العام ... من حكم جلالة ملك الوجهين القبلي والبحري ... » وبجانب هذه النصوص توجد نصوص اخرى تاريخية واخرى لها علاقة بالريّ . خذ مثلاً النص الخامس الخاص بالعام الثالث لحكم الملك اوسركون الثاني فانهُ يخبرنا عن فيضان عالٍ جدًّا. وقد عثر الاستاذ دارسي في معبد الاقصر على نصوص هيروغليفية يرجع تاريخها الى ذلك الزمن شرحها امام المعهد العلمي المصري قائلا ان الثمانية الاسطر الاولى تصف حالة طيبة في هذا الفيضان غير الاعتيادي من حيث وفرته حتى منع القيام بالاحتفالات الكبيرة المعتادة للمعبود امون حامي المدينة. يلي ذلك دعاء من الملك الى المعبود امون ليوقف هذا الفيضان عند حده»

قال الاستاذ بتري في تاريخه عن مصر الجزء الثالث ص ٢٥١ ان هذا الفيضان حصل حوالي ١٠ اغسطس سنة ٨٧٦ ق.م . وهو ميعاد مبكر جدًّا لان اعلى الفيضان يبلغ اقصاه في طيبة حوالي ٢٥ اغسطس في الازمنة الحاضرة

وقبل الفراغ من هذا البحث يجدر بنا ان نذكر شيئاً عن مقياس الروضة ومقابلتهِ بالمقاييس الفرعونية . فالمقاييس في العهد القديم كانت آباراً متصلة بالنيل ومنقوش على جدرانها المقاسات المصرية القديمة. ويظهر ان المقاييس تطورت بعد ذلك فجُعلت التقسيمات على عمود خاص وسط البئر وقد سبق ان ذكرنا ان لعظم الفيضان النيلي اثراً في نفس المصري القديم حتى اعتبره من عمل المعبودات فلما دخل العرب مصر تأثروا ايضاً بهذا الحادث السنوي العظيم وتذكروا قوة المولى جل وعلا فنقشوا الآيات القرآنية الشريفة عليه . وهذا المقياس شيّد في ايام سليمان بن عبد الملك الخليفة الاموي على يد أسامة بن زيد التنوخيّ عام (٩٦ — ٩٧ هجرية) (ويقابله ٧١٤ — ٧١٦ ميلادية) . وهو مكوّن من بئر رباعية الشكل تصل اليها مياه النيل من ثلاثة سروب وفي وسطه عمود مثمن الاضلاع نقشت عليه تقاسيم الاذرع التي تعرف بها ارتفاعات المياه . وكانت ابنية هذا المقياس اعظم كثيراً مما هي الآن فقد كان لها دار وفي جانب الدار فسقية عظيمة ذكرها ابن دقاق. وكان للمقياس قبة اما الآيات القرآنية التي نقشت عليه فهي : —

على الجانب الشرقي المقابل لمدخل المقياس : بسم الله الرحمن الرحيم : وانزلنا من السماء ماءً مباركاً فانبتنا به جنات وحب الحصيد
على الجانب الشمالي : وترى الأرض هامدة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج
على الجانب الغربي : ألم تر ان الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الارض مخضرة ان الله لطيف خبير
على الجانب الجنوبي : وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولي الحميد
وهذه الآيات الشريفة موجودة الآن في المواضع التي ذكرت في رواية ابن خلكان

***

اعياد النيل السنوية التي يحتفل بها الآن هي في الحقيقة تكرار لاعياد فرعونية قديمة فمن هذه عيد ١١ بؤونة (١٨ يونيه) — المعروف بليلة النقطة — لاعتقاد العامة انهُ في هذه الليلة تنزل نقطة من السماء في النيل فتسبب فيضانهُ . والحقيقة ان هذه التسمية ناشئة من اعتقاد قدماء المصريين بان دمعة المعبودة ازيس تنزل في النيل في تلك الليلة فتحدث فيضانه . وادَّعى علماء الفلك الاقدمون انهم تمكَّنوا من تحديد الساعة التي تنزل فيها هذه النقطة . واعتاد قدماء القبط ان يمضوا هذه الليلة على شاطىء النيل مؤدّين انواع الخزعبلات — كأن يضع كل فردٍ من عائلة قطعة من العجين على سطح منزله فمن تخمّرت عجينته سَعُد صاحبها . وفي ٢١ يونيه يرتفع منسوب النهر قليلاً وفي ٤ يوليو (٢٧ بؤونة) ينادي منادي النيل بان الفيضان بلغ الحدّ المطلوب . ولا بد ان القارىء سمع هذه المناداة مراراً ومن عدة اشخاص لانها دارجة ومنتشرة في القطر . يلي ذلك عيد جبر البحر او يوم وفاء البحر ويقع هذا في منتصف شهر مسرى (منتصف اغسطس) . ويحتفل رسميًّا بهذا العيد بمهرجان العقبة وذلك جهة فم الخليج . وفي هذا اليوم يصل منسوب النيل حدّ ١٦ ذراعاً

قابل هذا بما كان يقوم بهِ اجدادنا الاقدمون اذ يحين الانقلاب الصيفي ويأتي الماء لمقدس من اصوان الى جبل السلسلة . فان القسوس المقيمين في هذا الجبل او الملك الحاكم أو ابنه كانوا يتقرّبون بثور او حيوان آخر ويلقون في الماء قرطاساً من البردي مختوماً يشتمل على امرٍ فيهِ اطلاق الحرية للنهر بالزيادة كي يضمن لمصر الخير بفيضان معتدل . فاذا كان المتقرّب بالقربان هو نفس الملك نقشوا على الصخر ما فيهِ تذكرة بهذا الاحتفال وكانوا يعتنون بهذا العيد سواءٌ حضرهُ الملك او لم يحضره لانهم كانوا يراعون الرواية القديمة القائلة « ان سعادة السنة وشقاءَها متوقفان على ذلك المهرجان . فان حصل في شأنه إهمال او توانٍ رفض النيل الامر الصادر اليهِ واغرق الاهالي والجهات »

وفي هذا الموسم كان الفلاحون يأتون بالزّاد ويأكلون معاً اياماً متوالية ويشربون حتى يثملوا ويستمرّون على ذلك حتى يأتي اليوم الكبير فتخرج حينئذٍ القسوس من المحراب ومعهم التمثال فيزفّونهُ على الشاطىء بالالحان والاصوات المطربة والترتيل والمديح وصدح الآلات الموسيقية

وفي الجهة البحرية من جبل السلسلة معبد شيّد في العام الاول لحكم الملك منفتاح مرسوم فيهِ

الملك يقدم القرابين للمعبودات (حراصت) و (بتاح) ومعبود النيل (وذلك على يمين الداخل) ويقدم ايضاً القرابين للمعبودات (امون) و (موت) و (خنسو) (وذلك على يسار الداخل) . اسفل ذلك تشاهد نقوش لمدحة النيل الطويلة وقائمة بالهدايا التي تقدّم لمعبود النيل

اما السبب في الاحتفال بفيضان النيل جهة جبل السلسلة فهو ان النيل اعتبر قدماً انهُ ينبع من صخور ذلك الجبل . واستمر القوم يعملون المهرجان في تلك الجهة على توالي العصور بالرغم من تتبعهم للنيل الى اقاصي السودان السابق ذكرها في المقال السالف

ويقال ان السبب في تسمية هذا الجبل بهذا الاسم هو ان وادي النيل كان موصداً في تلك الجهة بسلسلة عظيمة مثبتة في جانبيه المقابلين لبعضهما

وللنيل مدحة كان القوم ينشدونها في اعياده وُجدت مدوّنة على عدة آثار منها درج ساليير الثاني ودرج انسطاسي السابع (وهما محفوظان في دار التحف بلندن) ودرج تورين . وايضاً على قطعة حجرية ostraca تعرف باسم الاستاذ جولنشيف الروسي وقد سبق ان المعنا الى نقش هذه المدحة بجبل السلسلة وذلك في ٢١ مايو سنة ١٣٠٠ قبل الميلاد في عهد الملك رمسيس الثاني ثم اعيد نقشها بنفس الجهة في السنة السادسة من حكم رمسيس الثالث اي سنة ١١٩٦ قبل الميلاد (الذي حكم القطر من سنة ١١٩٨ — سنة ١١٦٧ . م) . واليك ترجمتها عن المرحوم كمال باشا (الحضارة القديمة) : —

السلام عليك أيها النيل يا من ظهرت على هـذه الارض واتيت لاحياء مصر . انت الذي يختفي مجيئك في الغياهب الى يوم الترتيل بقدومك . انت البحر المفيض بمياهك على البساتين التي اوجدتها الشمس لنا لتحيي جميع ما يكون . انت الذي تمتنع عن ريّ الصحراء حين نزولك من مياه السماء . فمعبود الارض (سب) يتولع بايجاد العيش ومعبود الحبوب (نبرا) يقدم قرابينه . والمعبود (بتاح) يصلح احوال العامل . انت صاحب الاسماك . متى تجاوزت الشلال لم يعد الطير ينزل الى الحقول . انت صانع القمح وموجد الشعير ومطيل اجل المعابد . ان تعطلت اصابعك او اعتراك كساد اصبحت الالوف من الناس في فاقة . وان نقصت وقت نزولك من السماء افنيت المعبودات والخلق وتكدرت الحيوانات وصارت الارض كباراً وصغاراً في عذاب . واذا كانت الحال على عـكس ذلك واستجيب دعاء الناس حين تفيض وتكون لهم نيلاً مباركاً عند ارتفاعك حينئذٍ تصبح الارض مبتهجة وتشرح كل ذي بطن ويهتز كل ظهر من الضحك وتمضغ كل سنة . يا مجلب الارزاق ومكثر المأكولات ومبدع أحسن الاشياء . انت صاحب الجرائم . انت اللطيف بمجيئك حين تـكون خليـلاً لهم . نعم انت الذي توجد علف الحيوانات وتعطي كل ما لزم لقرابين المعبودات . فالبخور الناتج عنك هو الاجود . انت الذي تهتم بالقطرين فتمتلىء المخازن وتزداد خيرات الفقراء . انت الذي تستجيب دعاءهم عند تقديم النذور فلا ينقصهم شيء . انت سند الفقراء لم تصوّر في حجر ولم تمثل بتمثال ذي التاج المزدوج . ولم تبصرك العين ولم تدفع لك جزية . ولم يؤت اليك بقربان . ولم يؤثر فيك كلام السحر

الخفي ولم يعرف لك مكان . ولم يهتد الى مقرك بسر الطلاسم السحرية . لا بيت رحيباً يكفيك . ولا احد يطلع على ضميرك . ان ذراري اولادك تنشرح منك . لانك تحكم كملك اوامره نافذة على جميع اهل الارض . يتجلى في مشهد من سكان اهل الجنوب وسكان اهل الشمال . وهو الذي يشفق فيجفف دموع الاعين ويفيض باحساناته . اينما وجدت حلت الافراح وانشرحت الصدور واخذ التمساح يثب سروراً لان طائفة المعبودات المصاحبة لك اعدت كل شيء واخذ الفيضان يروي الحقول ويجعل جميع الناس في تهامة . وكل يروي بدون نزاع . فاذا دخلت كنت محاطاً بالاغاني . واذا خرجت صاحبك التهليل . واذا رقصوا فرحاً يوم ظهورك من غياهبك فما ذلك الا لكون عجزك اضمحلال لهم وفساد . ومتى تضرعوا اليك لينالوا الماء السنوي شوهد اهالي مصر الوسطى واهالي الوجه البحري مصطفين بعضهم بجانب بعض وشوهد كل امرىء حاملاً بعدد صنعته ولا ينزوي احد وراء جاره . ولا يلبس احدٌ ملابس الاعياد . ولا يتحلى بحليّ . وطائفة المعبودات التسعة تلبث في ظلمة . لكن متى منحت الزيارة تعطر كل انسان . انت منبت الارزاق الحقيقية التي هي رغبة الناس . هذا هو كلام الالتماس الذي يجعلك مجيباً لدعائهم . اذا تكرمت بلجج المحيط السماوي على الانسانية قدم إلـه الحبوب (نبرا) قربانه وتهجدت لك كل المعبودات ولم تنزل الطيور فوق الجبال . ومتى عجنت يداك شيئاً صار ذهباً او طوبة صارت فضة . نعم لا يؤكل اللازورد . لكن القمح افضل من الاحجار الكريمة . لقد شرعوا ينشدون على الناس ويرتلون لك ويصفقون باستمرار لتبتهج من اجلك ذراري اولادك وليكثروا من اجلك اناشيد المديح كيف لا والنيل هو آلـه الثروة الذي يحسن الاراضي ويكثر السفن في عيون الناس . وهو الذي يحيي قلوب النساء الحبالى ويحب كثرة الحيوانات . اذا ما ارتفعت في عاصمة الامير شبع الغني وعفى الصغير اللوطس وصار كل شيء ثابتاً وجيداً للغاية ووجدت جميع الحشائش لاولادك ، ولو اغفلت عن اعطاء الغذاء زالت السعادة من المساكن وحلّ بالارض الضعف الشديد

ولعلّ اقدم رسم للنيل هو الوارد في لوح العاج للملك مينا اول ملوك الاسرة الاولى وجد بالعرابة يرجع تاريخه الى حوالي (٣٤٠٠ سنة ق . م .) تشاهد عليه نقوش تعتبر من اقدم النقوش الهيرغليفية المعروفة للآن . وهو مقسم الى اربعة اقسام . فالقسم العلوي يحوي في طرفه الايسر رسم الباز الملكي الخاص بالملك مينا وفي طرفه الايمن رسم معبد منصوب في حوشه رمز المعبودة (نيث) وتعلو هذا الرسم سفينة . اما القسم الثاني فيشاهد في طرفه الايسر الملك قابضاً على وعاء من « مزيج الذهب والفضة » ومقدماً القرابين اربع مرات . ويشاهد في الطرف الايمن رسم ثور داخل حوش يعلو احد اطرافه طائر (الفينكس) والقسم الثالث يحوي رسم النيل تمخر فيه السفن وتشرف عليه المدن وتعترض مجراه الجزر . والقسم الرابع ويحوي رسوماً هيرغليفية قديمة غير مفهومة

السفن والملاحة بمصر

من صلاح الدين الى نابليون

للدكتور علي مظهر

— ٢ —

عصر الايوبيين وسلاطين المماليك

ولما كان صلاح الدين وعصر الايوبيين عنى سلاطين هذه الاسرة بأمر الاساطيل دفاعاً عن البلاد التي كانت الفرنج تغير عليها او تطمع في ذلك . وقد افرد صلاح الدين للاسطول ديواناً وعين له عدة اقاليم وبلدان للاتفاق عليه وكانت لهم اساطيل في البحر الاحمر كما كانت لهم في البحر المتوسط الابيض

ويظهر مما ذكره المقريزي ان عناية صلاح الدين بالاسطول كانت اكثر من عناية خلفائه فقد كانوا لا يفكرون في امره الا عند الحاجة وقلت العناية بذلك حتى طمع الفرنج في بلادهم وهاجموها لما علموا بضعف البحرية الايوبية وسار الحال كذلك حتى ان كانت دولة المماليك الاتراك وعني الظاهر بيبرس البندقداري بأمر الاسطول (٦٥٨ هـ) وتقدم بعمارة الشواني في الاسكندرية ودمياط وكان يقوم على ذلك بنفسه وقد كانت بعض مراكبه تسير للفتح والغزو كما كانت تدافع احياناً عن مصر وغيرها وعنايتهم.كانت ضرورية لان اساطيل الروم كانت تجيء الى الثغور وتتعدى على الاهالي بالسلب والنهب كما كانت تتعرض لسفن التجارة في البحر

وفي سنة ٩٠٤ هـ — سنة ١٤٩٨ م كانت سفن البرتقال قد اكتشفت طريق الهند مارة برأس الرجاء الصالح يقودها فاسكو دو غاما ثم ارسل فرانسوى دالميدا وأخذت السفن البرتقالية تمخر بين البصرة وعدن وتتعدى على سفن مصر والعرب التجارية وتنهبها وتستولى عليها وانقطع طريق الهند عن مصر

ولما طلب السلطان مظفر شاه ملك كجرات والسلطان عامر ملك اليمن المساعدة من السلطان الغوري[١] ارسل خمسين سفينة حربية وجيوشاً كثيرة يقودها الامير حسين بك الكردي (٩١٣ هـ)

(١) راجع مقالات (صفحة من تاريخ التجارة المصرية) لاحمد زكي باشا بمجلة المقتطف سنة ١٩١٧ (من عدد سبتمبر الى عدد ديسمبر)

لمطاردة سفن البرتقال بقيادة فرانسوى دالميدا وقد حدثت وقائع عادت بعدها سفن مصر بعد ان فقدت بعض قطعها ثم عاد سنة ٩١٧ هـ قاصداً كجرات ثانية وقد ساعدت سفن البنادقة السفن المصرية في هذه الغزوة البحرية لان الضرر لحق بالفريقين من تحويل البرتقال لتجارة الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح وكان ذلك في ايديهم من قبل

ولم تكن سفن البحر الاحمر هي كل ماكان للغوري فقد كانت لهُ اساطيل بالبحر الابيض وقد رأيناهُ يمد الامير كركور اخا السلطان سليم بعشرين سفينة حربية لتساعدهُ على ان يكون سلطاناً بدل اخيه وقد وقع اغلب هذه السفن في يد العثمانيين . وقيل بل اصابتها زوبعة شديدة غرق كثير منها واستولى العثمانيون على باقيها . وفي سنة ٩١٩ هـ دخل اسطول برتقالي الى البحر الاحمر واخذ في اعمال النهب والتخريب فسار اليهِ الاسطول المصري بقيادة الامير حسين بك الكردي وقد تمكن من اجلاء السفن البرتقالية عن عدن فلما انتصر المصريون سار الاسطول البرتقالي طالباً عرض البحر

وعاد الاسطول المصري الى مياه اليمن فعاد البوكرك Albuquerque البرتقالي باسطوله واراد الاستعانة بنجاشي الحبشة على المصريين وفاوضهُ في امر تحويل مصب النيل الى البحر الاحمر ليموت اهل مصر وبلادها عطشاً (!!؟) وكان يظن هذا امراً يسيراً

وقد ضايقتهُ الاساطيل المصرية واحتلت جزيرة قمران كما استولت على كثير من بلاد اليمن واقلع الامير حسين الى عدن وهاجمها واستولى على زيلع وغيرها وجاءَهُ مدد بقيادة الامير سلمان احد امراء مصر فجعلهُ يرافق سفن تجار عدن القاصدة بلاد الهند وكان سلمان هذا على خمسين غراباً[1]

وما زالت سفن البرتقال تتعدى على سفن المسلمين في تلك المياه حتى استولت الدولة العثمانية على مصر وقامت اساطيلها بمحاربة البرتقال حتى منعت عدوانهم واطمأنت ثغور بلاد العرب من شرهم

البحرية بمصر بعد ان صارت ولاية عثمانية

لما فتح سليم مصر وضع لها نظاماً تسير عليهِ في اداراتها وجعلت اساطيله تتردد على مياهها اما لحراستها او لاظهار قوة الدولة في نفوس من بقي من المماليك لاسيما على ثغور البحر الابيض

وبعد ان عاد السلطان الى الاستانة كان خير الدين بك الوالي الفعلي الذي تركه سليم على مصر فاخذ في اصلاح المراكب الموجودة بالنيل يساعدهُ في ذلك خير بك امير الامراء

اما ماكان لمصر من اغربة (مراكب بحرية) بالبحر الاحمر حينئذٍ ايام قانصوه الغوري فقد كان معظمها قد ضاع وفقد وما بقي منها حجزهُ الامراء المصريون بجهات اليمن بقيادة سلمان رئيس الاسطول الذي ذكرنا اسمه

وجاءَت الاخبار من مكة في سنة ٩٢٥ هـ انهُ يوجد للفرنج (البرتقال) ما يقرب من اربعين

(١) نوع من السفن ايامئذ ولمعرفة اسماء السفن يراجع كتاب سفن الاسطول الاسلامي لعبد الفتاح عباده

مركباً في قبالة جده وان هاته المراكب بقيت بالبحر وتقوم باعمال القرصنة وتقطع على التجارة طرقها فما وسع والي مصر الاَّ ان أرسل جماعة من المماليك الشراكسة وغيرهم يبلغ عددهم ثلاثمائة مع الحجاج وجعلهم يقيمون في جـدة خشية ان يطرقها الفرنج ويفاجئونها وقد ساروا براً لانهُ لم تكن لديه قوة بحرية يرسلها لهذا الغرض

ومن ذلك الحين اخذت العناية ببناء السفن تزداد واهتم بصناعتها خير الدين بك فأمر بذلك في دار صناعة بولاق وقد جاء في تاريخ ابن اياس (ج ٣ ص ٢١٤) ان ملك الامراء عرض المراكب الاغربة التي انشأها ولعبت قدامه في البحر والشرح من ذلك سنة ٩٢٦ هـ . اهـ

وقد كان من جراء التعدي المتوالي من مراكب البرتقال على السواحل المصرية وغيرها بالبحر الاحمر ان اهتمَّ السلطان سليمان بأمر الثغور البحرية فجعل أنظمة خاصة لادارة السواحل المصرية والامور البحرية فيها وعين ثلاثة امراء بحر لمصر كل امير لثغر من ثغورها دمياط والسويس والاسكندرية وسُمي كل منهم قبودان بك وكان تعيينهم وابدالهم بغيرهم راجعاً الى السلطان مباشرة

وكانت الدولة ترسل حاميتها رأساً من الاستانة تحت قيادة امراء البحر المذكورين وتمدهم كل سنة بما يلزم من الذخائر الحربية

ولم يكن هؤلاء الامراء البحريون يعتبَرون من جيوش مصر الاَّ لانهم يقيمون في ثغورها وتصرف لهم مرتباتهم من خزانتها الاَّ انهم كانوا مستقلين تمام الاستقـلال عن حكومتها وكانوا يتلقون الاوامر من دار الخلافة رأساً وكثيراً ما كانت توجد اغربة حربية تحت قيادة هؤلاء الامراء البحريين ما عدا من كان بالسويس لما ذكرناه

ولمـا ازدادت العناية بصناعة السفن ارسلت بعضها وعليها بعض الملاَّحين العثمانيين والمغاربة لمقاتلة البرتقال وكانوا يعبثون بالبحر الاحمر فقاتلوهم حتى تغلبوا على المراكب البرتقالية وقبضوا عليهم واخذوا ما كان معهم بالمراكب وكان بها بضائع وجوخ واصناف فاخرة وكبلوا الفرنج وارسلوا الى ملك الامراء وكان ذلك عام ٩٢٧ ثم جهزت مراكب اخرى في اواخر تلك السنة لما عاد البرتقال الى العبث بالسواحل المصرية واعمال القرصنة وقد وجدوا سفن الفرنج وفيها تجار ومعهم بضائع قدرت قيمتها بخمسين الف دينار ودار القتال بينهما فدارت الدائرة على البرتقال وقبض عليهم وأخذت بضاعتهم (ابن اياس ج ٣ ص ٢٧٤ — ٢٧٧) وزاد عبث البرتقال في البحر حتى كادت التجارة بين مصر وغيرها من بلاد العرب وبلاد الهند تنقطع الى ان استغاث بهادر شاه حاكم كجرات من بلاد الهند بالسلطان سليمان وكانت اساطيل البرتقاليين تتعـدى على بلاده لتمنع التجارة بين الهند ومصر فأصدر سليمان امره الى والي مصر اذ ذاك الخادم سليمان باشا (٩٤٤ هـ) بأن يسيّر اسطولاً في البحر الاحمر لنقل الجنود العثمانية الى بحر الهند فجهز ستين غراباً وثلاثين سفينة بالمدافع والآلات الحربية وأسرع في عمل ذلك واقلع بها من السويس ومرَّ بعدن وقتل اميرها عامر بن داود وستة نفر من

اصحابه ونصّب عليها احد ضباطه المسمى بهرام بك وزوّده بالمدافع والجنود ثم اقلع الى الهند ومع ما بذله من الجهود بجهات ديو فانهُ لم يتمكن من طرد البرتقال عن تلك الجهات فعاد الى عدن ثم الى مُخَا وأقلع من بلاد اليمن الى مصر

***

ومما يحسن ذكره ان الاخشاب اللازمة لبناء هاته السفن كانت تجلب من اضاليا (بلاد الاناضول) وتنقل بواسطة السفن ثم تنقل على النيل الى القاهرة وتحمل من القاهرة على الجمال الى السويس حيث تبنى منها السفن المطلوبة

ومع ان سليمان باشا هذا لم يقض الوطر من حملته الى بلاد الهند الاَّ انهُ طرد امير عدن وكان موالياً للبرتقال كما امكن ان ينشىء حكومة جديدة في بلاد اليمن وقد عادت تلك الحملة البحرية ببعض الفوائد لرائدي البحار

وقد بنيت بعد ذلك سفن عديدة وجهزت بالمعدات اللازمة وسارت الى البحر الاحمر وبحار الهنـد وخليج العجم وكانت تقاتل اساطيل البرتقال في تلك البحار واستمرَّ ولاة الدولة يصنعون السفن لتشارك اساطيل الدولة ولتحمي البلاد من عدوان الغير ولتجعل طريق المواصلات آمنة بينها وبين البلاد الحجازية وسواحل اليمن وثغـور الدولة بالبحر الاحمر واستمرت هذه العناية بصناعة السفن حتى النصف الاخير من القرن الثاني عشر الهجري فأخذت القوة البحرية في مصر تتضـاءل وتنحط لضعف الولاة ولضعف الدولة نفسها ولما كان بمصر من الاضطرابات والفتن والثورات واستمرت الثورات حتى اضطرت الدولة ان ترسل امـير البحر (القبودان) حسن باشا الجزائري ببعض سفن حربية ونقالات للجند ليوقع الرعب في قلوب الامراء المتمردين (مراد بك وابرهيم بك) وكان ذلك سنة ١٢٠٠ هـ. وقد جاء بسفنه وعساكره الى مصر صاعداً في النيل عن طريق فوة وغيرها رغم ما اظهره الامراء من الطاعة والخضوع لاوامر الخليفة واضطر العصاة ان يفروا الى الصعيد وتم اخيراً الصلح بينهم وبين امير البحر حسن باشا المذكور وهدأت الاحوال وأقام حسن باشا بالصعيد اربع سنوات ثم عاد الى القاهرة وشرع في انشاء دار صناعة بالجيزة وصنعت فيها السفن وجعل بحارتها ورئيسهم من نصارى الاروام واصبح لرئيسهم نيقولا من النفوذ العظيم والسطوة ان اكثر من التعدي على سفن الاسلام والفرنج معاً. وقد ذكر العلامة جودت باشا في تاريخه انه كان من اسباب الحملة الفرنسية على مصر ما اتاه هذا الرئيس نيقولا من المظالم وما اوقعهُ بالتجار الفرنسيين وقد عاد حسن باشا امير البحر بأسطوله الى الاستانة وفي عهد سليم الثالث ازدادت اهمية البحرية العثمانية لما ادخل عليهـا من الاصلاحات وقد ارسل بعض السفن لحراسة البلاد المصرية

ثم جاء نابليون الى مصر وكانت معركة ابي قير الشهيرة وتمَّ اخـيراً الامر لمحمد علي وسترى ذلك مفصلاً في مكانه في العدد التالي

الصناعة في العراق

لامين سعيد

زار كاتب هذا المقال العراق في الخريف الماضي
ودرس شؤونه واحواله وخص المقتطف بهذه المقالة

معمل الجوخ — معامل السكاير —
الصابون — المنسوجات الصوفية

كان العراق حتى نهضته الجديدة محروماً من الصناعات الحديثة قوام الحياة الاقتصادية وركنها الركين فلما انشئت الدولة الجديدة في ربوعه واستقرت اموره ظهر النشاط في كل فرع من فروع الحياة العامة وكان للصناعة من هذا النشاط الحظ الاوفى

ولعل معمل الجوخ العراقي في الكاظمية على شاطىء دجلة من اعظم دور الصناعة الحديثة في العراق واكبرها شأناً فقد بدأ الوجيه فتاح باشا وابنه نوري بك بانشائهِ في سنة ١٩٢٦ يساعدهما نسيب لهما درس فن الميكانيكا الصناعية واختص بها فتولى ادارة العمل الفني وفي سنة ١٩٢٧ تم انشاء هذا المعمل ويضم اليوم ٣٠٠ عامل عراقيّ حذقوا عملهم واتقنوه . وهنالك خبير الماني يستخدمونه وقتيًّا ريثما يعود من اوربا الذين ارسلوا للتخصص في العلوم الصناعية

زرت هذا المعمل ابان رحلتي الاخيرة الى بغداد ، فأعجبني اتقانه ونظامه ، وسرني ان يكون في البلاد العربية امثال هذه المعاهد الصناعية التي يرجى ان تكون نواة نهضتنا الاقتصادية تتلو النهضتين السياسية والوطنية فما أخر الشرق سوى فقر شعوبه واهمالها الصناعات وأخذها بالسفاسف والقشور . وتمتاز هذه الدار الصناعية عن امثالها في الشرق العربي بكونها مستكملة لجميع ما تحتاج اليهِ من معدات وبكونها تغزل الصوف وتصبغه وتنسجه وتخرجه جوخاً للبس والاستعمال اي انها حاوية لجميع المعدات اللازمة لهذه الصناعة الراقية

ولقد شاهدت نفس هذه العملية في ادوارها ورأيت الصوف تعلوه طبقات من الغبار والاقذار حينما يؤتى بهِ من الارياف فتتسلمه نسوة يعملن في (عنبر) قرب الباب فيبدأن بنفشه واعداده وبعد الانتهاء من هذه العملية البسيطة ينقل الى احواض معدة لغسله ، فينقع بادىء بدء في حوض خاص

مملوء بالماء الحار الممزوج بالصودا والصابون مدة ساعتين ثم ينقل الى حوض آخر فثانٍ وثالث ورابع اي انهُ يسير بنفسه مضغوطاً بقوة البخار من حوض الى حوض حتى الرابع وهو اكبرها فيستقر فيه قليلاً ثم يخرج منه وهنا تنتهي عملية الغسيل وتبدأ عملية جديدة هي عملية التجفيف تتولاها ماكينة خاصة في عنبر (الغسيل) فتجففه وتقصره وبعد ان يعرض لنور الشمس ينقل الى المصبغة فيصبغ في احواض خاصة معدة لذلك . ومنها ينقل الى قسم (الحلج) ثم الى ماكينات التمشيط فيخرج منها خيوطاً صوفية وتتكرر «عملية» التمشيط مثنى وثلاث ورباع في ماكينات خاصة وفي كل مرة يزداد الصوف المحلوج الممشط نعومة ومن هنالك ينقل الى المغازل فتبدأ عملية الغزل وتتكرر ايضاً في ادوار مختلفة حتى يخرج الخيط او «الفتلة» طبقاً للحاجة المطلوبة ويبلغ طول الكيلوغرام الواحد من الصوف ٢٤ الف متراً اذا كان الخيط رفيعاً و ١٢ — ١٤ الفاً اذا كان ثخيناً .

وبعد ان يصبح الصوف خيوطاً رفيعة ناعمة ينقل الى ماكينة «السدى» فتعده للانوال ثم ينقل الى المناسج ولها عنبر كبير وعددها عندهم ٨٤ نولاً او منسجاً وجميع آلات العمل تدار بالكهربائية وعندهم مولدان للقوة الكهربائية تديرها ماكينات بقوة ٢٥٠ حصاناً تقريباً

وينقل الجوخ بعد انتهاء نسجهِ الى الغسيل فتغسله ماكنات خاصة في احواض مملوءة بالماء الساخن الممزوج بالصودا والصابون وتدقه وتدعكه وتقصره ثم ينشف في ماكينة اخرى اي ان العملية التي عملت قبل النسج تتكرر ولكن بطرق واساليب غير تلك . ثم ينقل الى فرن فيوضع فيهِ مدة ثم يوضع في ماكينة خاصة تنظفه وتزيل ما يعلوه من وبر وتتكرر هذه العملية مثنى وثلاث ورباع على البخار ثم يرسل ثانية الى الفرن ثم يكوى بمكاوٍ خاصة ثم ينظف باليد ثم يكوى ثم يسلم الى ماكنة تطويه وتخرجه اثواباً جاهزة وتضع على كل ثوب رقمه وطول الثوب الواحد ١٠٠٠ متر ولما وقفت على العامل الذي يتولى هذه العملية كان يرقم بالعربية ٣٠١٣ على الثوب الموجود بيده

ويخرج المعمل يومياً ٧٠٠ متر من الجوخ وفي استطاعته ان يزيد هذه الكمية عند الحاجة وتباع مصنوعاته في العراق باثمان بخسة فثمن المتر الواحد من الجيد لا يزيد عن ٢٥ قرشاً صاغاً ويصدر كميات الى سورية وفلسطين والخليج الفارسي وايران ومصر وتلقى رواجاً لرخصها وجودة صنعها

ولقد ذكر لي مدير المصنع انهُ كان في نيتهم استحضار صوف من استراليا وهو انعم من الصوف العراقي واصلح للنسج وكانوا يعتمدون في اتمام هذه العملية على مساعدة المغفور له الملك فيصل فقد وعدهم بان يمدهم مالياً كما ساعدهم في جميع ادوار العمل وشجعهم بيد ان وفاته قضت على هذا المشروع او ارجأته الى وقت آخر على الاقل. ويقدم المعمل للجيش العراقي ما يحتاج اليهِ من البسة شتوية ومن «بطانيات» ويخرج من هذه كميات كبيرة تلقى رواجاً عظيماً في اسواق العراق والشام لرخصها وجودة صنعها كما يقدم للشرطة العراقية وطلاب المدارس ما يحتاجون اليهِ من البسة يصنعها طبقاً للتوصيات

وفي المعمل ايضاً «مناتل» لغزل الخيطان تخرج مقادير كبيرة منها وعندهم مغزل صغير لغزل

القطن او الحرير الصناعي ويحتاجون اليهِ في صناعاتهم . وكذلك فهم يخرجون مقادير كبيرة من خيطان الصوف يبيعونها للنساج في بادية العراق وفي مدنه فيحيكون منها العباءات ولا يزال عدد لابسيها غير قليل في بغداد نفسها وهم يكثرون في الارياف فلا بدَّ للابس الملابس العربية من عباءة يضعها فوق ثوبهِ في جميع فصول السنة وتختلف بحسب اختلاف الفصول

وفي العراق ايضاً صناعات جديدة نشأت مع النهضة الجديدة ونمت في ظلها ، وفي مقدمتها صناعة لفائف التبغ فقد كان العراقيين يعتمدون حتى الايام الاخيرة على ما يسمونه لفائف « الدك » وطريقة صنعها بسيطة جدًّا وهي انهم يأتون بالدخان فيكسرونه بايديهم حتى ينعم ثم يملأونه باليد في ورق خاص اعدّ له ويبيعونه على هذه الطريقة بثمن بخس ، ومخازن باعة التبغ في الارياف مملوءة باللفائف الفارغة ولا تملء الاّ عند البيع . اما الخاصة فكانوا يعتمدون على التبغ التركي في عهد الترك ثم على التبغ الانكليزي في عهد الاحتلال

وفي بغداد اليوم ما لا يقل عن ١٠ معامل لفرم التبغ واعداده طبقاً للاساليب الحديثة يعمل فيها نحو ٣٠٠٠ عامل والتبغ الرائج عندهم هو التبغ العراقي وقد جاؤوا بتقاويهِ من تركيا وزرعوه في المناطق الشمالية الجبلية المجاورة للاناضول التركي وفي منطقة « السليمانية » فنجحوا نجاحاً كبيراً كما يقولون وولدوا تبغاً لذيذاً . والتبغ رخيص في العراق بالنسبة لما هو عليهِ في مصر والشام لعدم الاحتكار او رسوم جركية باهظة كما يظهر فعندهم انواع عديدة منها غازي والرشيد وفيصل والملوكي وعبد المحسن السعدون وعلبه فاخرة وسعر العلبة ذات العشرين لفافة من الصنف المتوسط ١٠ مليمات ومن الجيد ١٦ مليماً

وكذلك فقد بدأوا بادخال صناعة طبخ الصابون وقد كانوا حتى الحرب العظمى يستوردون مقادير كبيرة من سورية وفرنسا . وفي بغداد اليوم ٣ معامل لطبخه ويستحضرون مواده الاولية من الخارج لعدم وجودها في العراق . ولا تزال هذه الصناعة في دور التكوين ولم تلق من النجاح ما اصابته صناعتا نسج الجوخ ولفائف التبغ

وكذلك عندهم معمل للدباغة . وقد انشأهُ احد اغنياء بغداد سنة ١٩٢٨ ويديره نجله وقد درس هذه الصناعة في انكلترا ، ويخرج هذا المعمل ولا يزال صغيراً للعراق ما يحتاج اليه من جلد ونعل وتباع الاحذية من مصنوعاته بأثمان رخيصة جدًّا في اسواق بغداد ويقبل عليها الناس

وقد بدأوا حديثاً بانشاء معمل لغزل الصوف ونسج الاقمشة الصوفية ويرجى ان ينجز قريباً فيستغني العراق عما يستورده من الاقمشة الصوفية

هذا بعض ما عرفته عن حالة الصناعة الجديدة في العراق ولا تزال في دور النشوء والتكوين والمأمول ان تنمو وتتقدم في ظل الدولة العربية الجديدة وبتأييد العرب كافة ومساعدتهم . فالشرق في أشد الحاجة الى ترقية صناعاته حفظاً لثروته ولايجاد اعمال العاطلين من ابنائه وهم كثيرون

تشخيص النسا [1]

وتعيين الجنس بالتفسرة [2] وجس النبض والطرائق الحيوية

للدكتور شوكت موفق الشطي

الاستاذ في المعهد الطبي العربي بدمشق

ان ما يتمتع بهِ الذكر من الحقوق في الارث والملك وما له من الأثر في حماية المنزل واستمرار سؤدده ومجده ورفع شأنه جعل الحوامل وبعولتهن وذوي قرباهم يسارعون الى التكهن بجنس (شق) الجنين فدفع ذلك العلماء والعرّافين [3] الى التنقيب عن وسائل تشخيص الحمل منذ العصور الغابرة فكثر عدد العرافين كان لهم في تاريخ هذا البحث شأن خطير . وكان عرافو المصريين يلجأون الى طريقة غريبة لتشخيص الحمل وتعيين الجنس وقد ظهرت رسالة حديثة تطرقت الى هذا الموضوع واثبتت ان قدماء المصريين كانوا يعرفون منذ اربعة آلاف سنة واسطة تساعد على التكهن بالحمل وجنسه .

تستند هذه الطريقة الى تأثير بول الحوامل في القمح والشعير فكانوا يكلفون الحامل أن تروي ببولها يوميًّا كيسين في احدها قمح وفي الثاني شعير فان نمت الحبوب دل ذلك على الحمل وان لم تنم استدلّ على عدم وقوعه واذا كان نمو القمح اكثر من نمو الشعير دل على ان الجنين ذكر وان وقع العكس كان الجنين انثى . ولعل القول الشائع في الديار الشامية حتى الآن الذي يسترشد به الى جودة الامر او نقيضه وولادة الصبي او البنت « اقمح ام شعير » هي من تراث ذلك العهد

درس ليوليوس منجر Liolios Manger وزوندك Zondek درجة تأثير بول الحوامل في نمو النبات وأخذا يقابلان بين النتائج التي حصلا عليها وما هو مذكور في اوراق البردي . وقد تمكن شولر Schoeller وغوبل Gobel ان يعجلا نمو العيصلان « نبات زنبقي » والبصل العادي والذرة بارواِئها بالرسول [4] الجرابي ثم كررا التجربة في نباتات اخرى فنجحت ولما كان بول الحوامل

---

(١) النسأ : مبدأ الحمل . نسئت المرأة تنسأ — بدأ حملها (المخصص) (٢) بول المريض يستدل به على حالته (٣) العراف : الذي يخبر عن الماضي والمستقبل (٤) رسول : ترجمة هرمون وهي كلمة اطلقت على افرازات داخلية تنبه افرازات اخرى ولها انواع كثيرة

محتوياً على هذه المادة وعلى وسول النمو المتولد في فص الغدة النخامية الامامي فلا غرابة في انباته الحب وانمائه . كرر ليوليوس طريقة المصريين القديمة فنجحت في تشخيص الجنس ولم تفد في اظهار الحمل لان البول يعيق نمو النبات ممدداً كان او صافياً ولعل سبب خيبة تجربته استعمال حبوب القمح العادي لا النوع الفارسي المذكور في اوراق البردي

وجاء في قانون ابن سينا ان بول الحوامل صاف وربما كان على لون ماء الحمص وماء الاكارع اصفر فيه زرقة وعلى رأسه ضباب وفي وسطه كقطن منفوش وكثيراً ما يكون مثل الحب ينزل ويصعد وان كانت الزرقة شديدة الظهور فهو اول الحمل وان كان بدلها حمرة فهو آخره وخصوصاً اذا كان يتكدر بالتحريك . وجاء في كتاب شفاء الاسقام ودواء الآلام لنور الدين الشهيد ان ابوال الحبالى صافية لاحتباس ما يغلظ البول ويكدره عليها ضباب في رأسها لطيف يطلب الاعالي من المائية ويقف هناك

وذكر اطباء العرب عن نبض الحوامل انهُ عظيم وسريع ومتواتر بسبب مشاركة الولد لأمه وكانوا يستطيعون تشخيص الحمل بجس النبض . ولا تزال هذه الفكرة سائدة في الاذهان حتى يومنا هذا وكثيراً ما تسأل النساء الاطباء ان يجسوا نبضهنَّ وينبئوهنَّ عن كونهنَّ حوامل وعن نوع الحمل

سعى العلماء لمعرفة الجنس فزعم ابقراط ان مدة اقامة الصبي في الرحم اقل من زمن اقامة الانثى ونقل ارسطاطاليس وجالينوس آراء وذكر اطباء العرب الجوسي والرازي وابن سينا ان المرأة اذا كانت حاملاً بذكر تبكر معها حركات الجنين واذا كان الحمل انثى تأخرت الحركات

قال الرازي الحبلى بذكر ابسط واصح نوماً وشهوة واسكن اعراضاً تحس بالثقلة في الجهة اليمنى ويعظم الثدي الايمن اولاً وتحمر حلمته ويكون اللبن غليظاً ابيض وتحرك الرجل اليمنى اذا مشت وتعتمد على اليد اليمنى اذا قامت وتكون عينها اليمنى اخف واسرع حركة والذكر يتحرك بعد ثلاثة اشهر والانثى بعد اربعة اشهر

وذكر غيره من اطباء العرب ان مما يدل على ذكورة الحمل كون النبض متوتراً قويًّا والهضم سهلاً ووجود خط احمر او اسود على الخط المتوسط للبطن وقالوا ان فحص البول قد يرشد الى معرفة جنس الحمل فجاء في كتاب شفاء الاسقام « ان طفا على البول غمامة تغطي جميع وجه الماء دل على ان الولد ذكر وان كانت الغمامة في جانبه فالولد انثى وان كانت كالحبات فليست المرأة حبلى بل كان ذلك دليلاً على الرياح »

***

ليس من الحكمة بعد ان اوردنا ما تقدم عن طريقة المصريين وما عرفه اطباء العرب ان نتهم القدماء بالغفلة لذكرهم اساطير كهذه ولا ان ننبذها قبل ان نبحث عنها بحثاً دقيقاً لان اكثرها وليد اختبارات جمة ومشاهدات عديدة . واكبر دليل على ذلك ما اثبته العلم في الوقت الحاضر وهو

امكان تشخيص الحمل منذ بدأهِ وتعيين الجنس بواسطة البول واننا نذكر فيما يلي احدث ما وصل اليه الاحيائيون biologists في السنين الاخيرة والطرق المستعملة اليوم

لم يتناول الاحيائيون سابقاً هذا البحث اعتقاداً منهم انه سرٌّ من اسرار الطبيعة الى ان كشف ابدرهالدن Abderhalden سنة ١٩١٢ القناع عن هذا السر وقال بتفاعله المثبت للحمل وقد أمَّل الاحيائيون ان يتوصلوا الى تعيين الجنس بتعميق ابحاثهم بعد ان وفقوا الى تشخيص الحمل

بحث زوندك واشايم Asheim في ذلك وقالا بوقوع وجوه من التغير في الدم خلال الحمل تساعد على تشخيص النسأ والجنس اذ لا يخفى ان الحمل يؤثر في الغدد الصمِّ فيضطرب توازن رسلها وتتبدل الاخلاط الدموية . نذكر فيما يلي نبذة عن تفاعل ابدرهالدن لما له من القيمة التاريخية فقط ثم نذكر التفاعلات المستعملة اليوم والمستندة الى بول الحوامل كما كان الامر قديماً

تفاعل ابدرهالدن ، يستند الى تبدل خواص الاخلاط بتأثير اسباب معينة فيظهر في دم الحوامل مثلاً عناصر آحينية (زلالية) خاصة تقابلها الاخلاط بخمرات تصنعها الكبد والكريات البيض

يستند التفاعل المذكور الى كشف هذه الخمائر في مصل دم الحوامل . ولم تنتشر هذه الطريقة لانها دقيقة صعبة وليست نتائجها مع ذلك صحيحة فقد يبدو التفاعل سلبيًّا في الحمل وايجابيًّا في غيره ثم عرفت في هذه السنوات الاخيرة طرائق متعددة اهمها طريقة اشايم وزوندك والتفاعلات المعدلة عنها

اثبت هذان المؤلفان ان بول الحامل يحتوي على رسل الفص النخامي الامامي الخاصة بالحمل فاذا حقنت به ادراص [1] نما مجراها التناسلي وضخمت رحمها واحتقنت ولتمّت الاباضة (تكون البيضة الناضجة) وزف المبيض . وقد استعملت هذه الطريقة في المانيا فكانت نتائجها صحيحة في ٩٩ حادثة من مائة

يظهر رسول الفص الامامي في البول بعد الالقاح ببضعة ايام ولا يزول الا بعد الولادة، تحقن الفأرة الصغيرة مرتين او ثلاث مرات بالبول في اليوم الواحد مدة ثلاثة ايام متتابعة ثم تقتل وتفتح جثتها ويفحص مبيضها فان بدت فيه بقع نزفية دلَّ ذلك على الحمل

وقد استبدل بروها Brouha وسيمونه Simonet الحيوان المؤنث بذكر . يحقن البول مرة في اليوم مدة ٨ الى ١٠ ايام متعاقبة ثم يقتل الحيوان بعد يومين وتفتح جثته وتوزن خصيتاه ولا سيما الحويصلان المنويان فان ازداد حجمها بالنسبة الى حيوانٍ شاهد لم يحقن دلّ ذلك على الحمل والعكس بالعكس . وقد بدت نتائج هذه الطريقة مشابهة لسابقتها

وقد ارتأى بروها Brouha وفريدمن Friedman ان يُلجأ الى حيوانات كبيرة لان التفاعلات في الصغيرة منها قد لا تكون جلية فاتخذا الارانب في اختبارها ولا يشترط في الارنبة ان تكون دون

(١) ادراص : جمع درص وهو ولد الفأر

البلوغ بل يكفي ان تكون بعيدة عن الذكر لئلاً تبيض (تكون البيضة الناضجة) بتأثير الجماع
فيتشوش العمل

***

تبدو التبدلات الكاشفة لهذا التفاعل كالبقع النزفية في المبيض وتبيُّغ[1] الدم في المجاري واضحة وضوحاً كبيراً كما ان وريد الارنبة الهامشي كبير والحقن فيه سهل . فيحقن الوريد المذكور بـ ٥—١٠ سنتمترات مكعبة من البول . ولا بأس من تكرار الحقن مرة ثانية في اليوم الثاني ثم تقتل الارنبة في اليوم التالي للحقنة الثانية وتفتح جثتها ويشاهد ماوقع من التغير في مجراها التناسلي واعضائه

ينتخب بول الصبح عادة على ان يطهر بترشيحه من الشمعات وتكلف المرأة أن لا تتجرع دواء في اليوم السابق . وقد كانت نتائج هذه الطريقة صحيحة ايضاً في ٩٩ حادثة من مائة $\frac{٩٩}{١٠٠}$ لذلك كان من اللازم الاعتماد عليها في التشخيص والاسترشاد بها في بعض الامور الشرعية والقانونية

وقد عرفت حديثاً وسيلة لكشف الجنس تقوم بحقن وريد الارنب البالغ الهامشي ببول المرأة فاذا نمت خصيتاه دلّ على ان المرأة حامل بأنثى ولا يطرأ عليها اقل تبدل اذا كان الحمل ذكراً . توصل الى ذلك مؤلفان اميركيان وهما ج . ه . دورن J. H. Dorn وأدوار سوغرمان Edouard Sugarman بينما كانا يجرّبان طريقة زوندك واشايم في تشخيص الحمل . غير ان النتيجة لا تكون صحيحة الاّ اذا كان سن الحيوان مناسباً . ينتخب لذلك ارانب في دور البلوغ قد بدأت خصياتها بالنزول . وقد لاحظ هذان المؤلفان ان مدة هبوط الخصية واجتيازها الحلقة المغبنية وبلوغها جدار الصفن تختلف من عشرة الى خمسة عشر يوماً . يراقب سير هبوط الخصية بالجس البسيط ولا يصلح الارنب للاختبار المذكور الاّ في هذه المدة فقط . وطريقة العمل : يؤخذ ١٠ سنتمترات مكعبة من بول الحامل الصبحي ويحقن احد اوردة الارنب واحسنها الهامشي بها ثم يقتل الحيوان بعد ٤٨ ساعة وتفحص خصيتاه عيناً ومجهراً فاذا كان التفاعل ايجابيّاً اي دالاً على كون الجنس انثى تتكاثر عروق الخصية ويبدأ تولد المني فيها واما اذا كان الجنين ذكراً فلا يظهر اقل تبدل في الخصية . وقد كانت نتائج هذا الاختبار صحيحة في ثمانين حادثة من ٨٥ حادثة $\frac{٨٠}{٨٥}$

يستنتج مما تقدم ان ابحاث القدماء واختباراتهم جديرة بالعناية والاهتمام وكثيراً ما اثبت العلم صحة ما دونوه وكما انهُ جاز للمؤرخين ان يقولوا بان التاريخ يعيد نفسه يجوز ان يقال ايضاً بان العلم يعيد نفسه في بعض الاحيان مع الاحتفاظ بالتناسب بين شتى العصور طبعاً ودليل ذلك تأييد مؤلفي الالمان صحة اختبارات المصريين التي مضى عليها اكثر من ٤٠٠٠ سنة . لذلك كان علينا نحن معشر الشرقيين ان نقتبس من علوم الغربيين فقد سبقونا اشواطاً بعيدة في مضمار الرقي وان لا نهمل الماضي بل علينا ان ننقب في بطون الكتب لنبحث عما عني به اجدادنا ونقتطف ثمار ابحاثهم وعلومهم

(١) تبيغ الدم تهيج وتوقد حتى يظهر في العروق

الخبراء الاجانب

وتقاريرهم عن التعليم في مصر [1]

في السنوات الخمس الاخيرة : انتدبت وزارة المعارف جماعة من الخبراء الاجانب ، لدراسة نظم التعليم العامة في مصر ، والنظر في السياسة التعليمية او لدراسة نظم مدارس معينة كمدرسة الهندسة الملكية . وما نلاحظه عما لهذه التقارير من الشأن، ان النظر في السياسة التعليمية في بلادٍ ما ، لا بدَّ ان يراعى فيه دراسة مستفيضة لتطور نظم التعليم والاسباب التي ادت الى هذا التطور ، ودراسة سيكلوجية لمستوى التلاميذ العقلي وبحث اقتصادي واجتماعي للبيئات المختلفة . لهذا وجب ان تؤخذ تقارير هؤلاءِ الخبراء ، والنتائج التي وصلوا اليها بشيء من التحفظ ، لاسيما ما يختص منها بسياسة التعليم العامة . ولكن لا شك في ان آراء هؤلاء الخبراء فيها شيء كثير من الحقيقة . لاسيما ما كان منها خاصًا بالشؤون التي لا تعتمد على الاستعداد السيكلوجي او اعتبارات البيئة وان كان غير واحد من المشتغلين بالتعليم في مصر قد ردد جانباً كبيراً من هذه اللاحظات في فترات مختلفة. واهم هؤلاء الخبراء الذين درسوا نظم التعليم العامة ، كلاپاريد السويسري ومان الانجليزي

﴿ مهمة كلاباريد ﴾ الدكتور كلاباريد ، مدير معهد البيداجوجيا (التربية) واستاذ علم النفس الخاص بالاطفال في جامعة جنيف في سويسرا وقد ندبته وزارة المعارف وعهدت اليه في وضع خطة عامة للاصلاح المدرسي تتناول النظام السائد حالاً في مصر وبوجه خاص مدرسة المعلمين . وقد جاء كلاباريد في اواخر شهر اكتوبر سنة ١٩٢٨ ، وبقي نحو ثمانية اشهر ، اصدر بعدها تقريراً عن آرائه ومباحثه ، طبعته وزارة المعارف فيما بعد . وقد اعتمد في دراسته على مصادر متعددة ، منها آراء المعلمين والمفتشين وخبراء الامتحانات ثم على الملاحظات التي عنَّت له في خلال زياراتهِ للمدارس المختلفة ، كذلك على الاختبارات السيكلوجية التي اجراها على بعض تلاميذ المدارس في مختلف درجات الدراسة في المدن والارياف ، كما انه اعتمد على ملاحظات لفيف من طلاب مدرسة المعلمين العليا

واهم المباحث التي عهد الى الاستاذ كلاباريد في درسها ما يأتي :

(١) نظام مدارس المعلمين ، وهل تختلط فيها المواد العلمية البيداجوجية، وهل تنضم مدرستا المعلمين الى كليتي العلوم والآداب بالجامعة المصرية. وما الخطة التي تسير عليها الوزارة في تخريج المعلمين.

(٢) دراسة نظام التعليم العام : وهل النظام الدراسي في جميع مراحل التعليم يحتاج الى اصلاح او تغيير لا سيما من حيث مواد الدراسة وعددها ومقدارها ومن حيث التوحيد بين الدراسة في مدارس

---

(١) فصل من « تقويم التعليم » صنفه احمد عطية الله ومثلته دار الهلال للطبع

البنين والبنات وعدد المدارس التي تخصص لكل مرحلة بالقياس الى عدد السكان. (٣) دراسة نظام التعليم الالزامي — وهل الخطة المتبعة تتفق مع الانتقال من حالة الامية الى حالة المعرفة من الوجهتين الاجتماعية والتعليمية (٤) دراسة ميزانية التعليم بالقياس الى الميزانية العامة (٥) علاقة المدارس العليا بالجامعة

يرى كلاپاريد ان المشتغلين بالتعليم يخلطون بين الغرض من التعليم والغرض من التربية وان كان لا يرى ان هـذا الخطأ خاص بمصر وحدها غير ان مصر باستمدادها النماذج المدرسية من اوربا انما نقلت منها اسوأ النماذج وزادتها سوءًا من عندها . واكبر ظاهرة في هذا الاضطراب، اللغو في التعليم وبناؤه على الفاظ يحفظها التلميذ دون فهم لمعانيها وهذا كلهُ نتيجة لتحميل المناهج الدراسية ما لا تطيق وخوف الامتحانات وجهل اساتذة كثيرين بطبيعة عقل التلميذ وضرب مثلاً لذلك بدروس الديانة . ورأى ايضاً ان التفاوت في اعمار تلاميذ الفرقة الواحدة كبير وعدَّد الاضرار الخلقية والفنية التي تنشأ عن هذا التفاوت . ثم انه لاحظ كثرة عدد التلاميذ في فرق مدارس الاطفال كثرة شاذة. وكذلك انتقد تخصيص المعلمين في المدارس الاولية والابتدائية . واخذ على نظار المدارس انصرافهم عن دراسة حالة تلاميذهم النفسية والصحية . ثم انه نقد الابنية المدرسية وقلة مدارس البنات

﴿ ماذا يقترح كلاپاريد ﴾ شخص كلاپاريد الداء ثم انه اقترح علاجاً لهُ واهم مقترحاته ما يلي :

نقص عدد التلاميذ في الفرق مع زيادة التجانس في السن والمستوي العقلي واختبار كل طفل على حدته اختباراً فرديًّا مع تعيين معلمي فرق في المدارس الاولية والابتدائية وجعل تعليم الاطفال الى التاسعة في ايدي المعلمات . ثم انه يرى تضييق نطاق المناهج وتعديل نظام الامتحانات وجعلها تعتمد على التفكر لا على الاستظهار . ثم انه يرى توسيع نطاق التعليم الابتـدائي والثانوي للبنات والاتئاد في نشر التعليم الالزامي ريثما يتخرج المعلمون القادرون على القيام باعبائه . واقترح تعديل اسلوب اعداد المعلمين وانشاء فرق متنقلة لنشر الثقافة في الارياف والقاء محاضرات اسبوعية في التربية لتجويد المعلمين وتعيين مفتشين سيكولوجيين لمواصلة البحث في المدارس ولارشاد المعلمين . ثم انهُ ندَّد بنظام المركزية في التعليم واشار بوجوب منح مدى من الحرية للمعلمين ونظار المدارس

﴿ تقرير المستر مان ﴾ : ندبت وزارة المعارف المستر (مان) مفتش المدارس وكليات المعلمين بوزارة المعارف الانكليزية لدراسة سياسة التعليم في مصر فجاءَ في سبتمبر سنة ١٩٢٨ وامتدت زيارته الى ابريل سنة ١٩٢٩ واعدَّ تقريراً قدمه إلى وزارة المعارف . وأهم المسائل التي طاب اليهِ بحثها وابداء الرأي فيها نظام تخريج المعلمين ثم مناهج الدراسة المتبعة في مراحل التعليم العام والعلاقة بين مناهج مدارس البنات والبنين ثم دراسة نظام التعليم الاولي الالزامي وعدد المدارس اللازمة لكل مرحلة من مراحل التعليم ثم ابداء رأيه فيما يجب تخصيصه للتعليم من ميزانية الدولة العامة

يرى المستر مان أن ما أعد حتى الآن من وسائل التعليم الاولي ناقص نقصاً كبيراً كما ان تعليم الاطفال في المدارس بحسب الطرق الحديثة يكاد يكون معدوماً في جميع انحاء القطر حالة أن ما أعد للتعليم

العالي وما يتبعهُ من التعليم الابتدائي والثانوي يزيد زيادة فاحشة بالقياس الى ما أعد للتعليم الاولي. ثم ان ما اعد من الوسائل لتعليم البنات يسير اذا قيس بما أعد لتعليم البنين . أما فيما يختص بأجور التعليم وبنظام المجانية وبالمرتبات المدرسية فيرى انها غير منظمة وناقصة من بعض الوجوه

وهو يستهجن التغالي في تركيز السيطرة على التعليم في الادارة الرئيسية ، هذا الذي ادى الى طبع المدارس وطرق التدريس ومواد الدراسة بطابع واحد . لهذا يقترح ان يعدل نظام اختصاص الموظفين في وزارة المعارف تعديلاً يمنع الخلط في الاعمال الادارية ، كما يرى ان يعهد في ادارة التعليم الاولي وما يتبعهُ من مدارس المعلمين والمعلمات الى سلطات محلية مع توزيع المفتشين على مناطق معينة ثم هو يقترح أن يخول نظار المدارس قسطاً من الحرية اوفر مما يخوّلونه الآن في ادارة مدارسهم

وقد اهتم المستر مان بأمر الامتحانات اهتماماً كبيراً واقترح اقتراحات عديدة بشأن كل شهادة من الشهادات فهو يرى مثلاً الاّ يمتحن الطلبة في الشهادة الابتدائية الاّ في الرياضة واللغة العربيــة ولغة اوربية واحدة . اما في التعليم الثانوي فاقترح ان يباح للتلاميذ التخصص في الدراسة العلمية او الادبية ابتداء من السنة الاولى مع انقاص عدد المواد المقررة للامتحان . وعنده ان يبطل اعطاء شهادات للطلبة الناجحين في امتحان شهادة اتمام الدراسة الابتدائية ، وإلغاء نظام الملاحق وعـدم اعتبار الشهادات الدراسية اساساً لتعيين موظفي الحكومة

وقد درس الخبير الانكليزي مسألة الحياة الاجتماعية الخاصة بالطلبة الغرباء فرأى ان تتولى المدرسة التي هم فيها امر سكناهم وتدبير شئون معيشتهم ورياضتهم واعداد فنادق مدرسية موافقة للطلبة الكبار وتنقيح جداول اوقات الدروس بقصد ايجاد فترات كافية لتمكين المدرسين والطلبة من الاستراحة وتناول الغذاء . وقد عني في تقريره بأمر المدارس الفنية المتوسطة فهو يرى ان يؤخذ التلاميذ لهذه المدارس من المدارس الاولية مباشرة ويراعى في الاختيار صغر السن . اما عن نظام التعليم فهو يرى وجوب مقاومة تغلب الدراسة النظرية والعلمية على الدراسة العملية في التعليم الفني وذلك بتأليف مجلس استشاري في كل مدرسة وزيادة عدد معلمي الصناعات ممن سبق لهم ان مارسوا العمل في ميدان الصناعة الحرة

ويتبين مما تقدم ان هذين التقريرين يشيران الى ضرر نظام المركزية في التعليم والاهتمام الشاذ بأمر الامتحانات العامة وتشجيع التعليم الابتدائي والثانوي على حساب التعليم القومي . اما اصلاح نظام التعليم فلا يكون الاّ باعطاء حرية كافية للنظار والمعلمين وبصرف العناية عن التعليم التلقيني النظري . ومما نلاحظه عن تقرير الخبير السويسري عنايته بالدراسة السيكولوجية الفردية للتلاميذ ، الاّ انه اخطأ في تطبيق الاختبارات الاوربية على التلاميذ المصريين لذلك كانت النتيجة التي وصل اليها غير صحيحة وهي انخفاض مستوى ذكاء الطفل المصري عن اي طفل اوربي . اما آراء الخبير الانكليزي فمشبعة بنظام التعليم الانكليزي

واعظ المنصور

[من اهل الحق رجالٌ يجلوهم الحق كجلاء السيوف ، حتى يستوي عندهم هام الناس من الملوك بأذنابهم من السوقة والعامة ، فاذا وقفوا بين يدي الملوك ارسلوا عليهم من مواعظِهم شواظاً من نارٍ تحرق ضعاف الملوك ، فهم فيها كيابس الحطب ، وتنقي كرامهم ، فهم فيها كالذهبِ ، لا يزدادُ على النارِ الا بهاءً وصفاءً . وهؤلاء الرجالُ من الحياة بمنزلة الملوك ، لانهم هم ساسة الحقّ والقائمون بأمره في هذه الدنيا . وواعظ المنصور هو امامٌ من ائمة هؤلاء الافذاذ]

بينما المنصور يطوف ليلاً إذ سمع قائلاً يقول :

اللهمَّ اني اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع

فخرج المنصور ناحية من المسجد وأرسل الى الرجل يدعوه ، فصلى الرجل ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة

فقال المنصور : ما الذي سمعتك تذكر من ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوتَ مسامعي ما ارمضني

قال : يا امير المؤمنين ان أمَّنتني على نفسي أنبأتك بالامور من اصولها ، والاّ احتجزت منك واقتصرت على نفسي ففيها لي شاغل، فقال :

أنت (آمنٌ) على نفسك (فقل) ، فقال : إن الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغي والفساد لأنتَ

قال : ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والحلو والحامض عندي !

قال : وهل دخل احداً من الطمع ما دخلكَ ! إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم فأغفلت امورهم واهتممت بجمع اموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجصّ والآجرّ وأبواباً من الحديد وحجبةً معهم السلاحُ ثم سجنت نفسك فيها عنهم ، وبعثت عمالك في جباية الاموال وجمعها ، وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع ، وأمرت بألاَّ يدخل عليك من الناس الاّ فلان وفلان نفرٌ سميتهم ، ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العاري ولا الضعيف الفقير ولا احدٌ الاَّ وله في هذا المال حقٌ

فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت الاّ يحجبوا عنك ، تجبي الاموال وتجمعها ولا تقسمها قالوا : هذا قد خان الله فما بالنا لا نخونه وقد سجن لنا نفسه ! فأتمروا بألاّ يصل اليك من علم اخبار الناس شيء الاَّ ما ارادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف امرهم إلاّ قصبوه عندك ونفوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم ، اعظمهم الناس وهابوهم ، فكان اول من صانعهم عمالك بالهدايا والاموال ليقووْا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا بهِ ظلم من دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل فان جاء متظلم حيل بينه وبين دخول مدينتك ، فان اراد رفع قصته اليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ، وأوقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم فان جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك (خبره) سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمتهُ اليك ، فان المتظلم منهُ له بهم حرمة ، فأجابهم خوفاً منهم فلا يزال المظلوم يختلف اليه ويلوذ بهِ ويشكو ويستغيث وهو يدفعهُ ويعتل عليه ، فاذا اجهد وأحرج وظهرت ، صرخ بين يديك ، فضرب ضرباً مبرحاً ، ليكون نكالاً لغيره ، وأنت تنظر فلا تنكر ، فما بقاء الاسلام على هذا !

وقد كنت يا اميرَ المؤمنين (اسافر) الى الصين فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه ، فبكى يوماً بكاءً شديداً فحثهُ جلساؤه على الصبر فقال : أما اني لست ابكي للبلية النازلة بي ، ولكني ابكي لمظلوم بالباب يصرخ ولا اسمع صوته ثم قال : أما اذ ذهب سمعي فان بصري لم يذهب ، نادوا في الناس ألاّ يلبس ثوباً احمر إلاّ متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفي نهاره ، وينظر هل يرى مظلوماً

فهذا يا امير المؤمنين مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين شح نفسه وأنت مؤمن بالله ثم من اهل بيت نبيه لا تغلب رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ، فان كنت انما تجمع المال لولدك ، فقد اراك الله عبراً في الطفل يسقط من بطن امه وما له على الارض مال ، وما من مال الاَّ ودونه يد شحيحة تحويه فما يزال الله يلطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس اليهِ ، ولست بالذي تعطي بل الله يعطي من يشاء ما يشاء، وان قلت انما اجمع المال لتشديد السلطان فقد اراك الله عبراً في بني امية : ما اغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وأعدوا من الرجال والسلاح والكراع حتى اراد الله بكم ما اراد ، وان قلت انما اجمع المال لطلب غاية هي اجسم من الغاية التي انا فيها، فوالله ما فوق ما أنت فيهِ الاَّ منزلة لا تدرك الاَّ بخلاف ما انت عليه يا امير المؤمنين ، هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل

قال المنصور : لا ، قال : فكيف تصنع بالملك الذي خولك ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ! ولكن بالخلود في العذاب الاليم ، قد رأى ما قد عقد عليهِ قلبك وعملتهُ جوارحك ونظر اليهِ بصرك واجترحتهُ يداك ومشت اليهِ رجلاك، هل يغني عنك ما شححت عليهِ من ملك الدنيا اذا انتزعهُ من يدك ودعاك الى الحساب

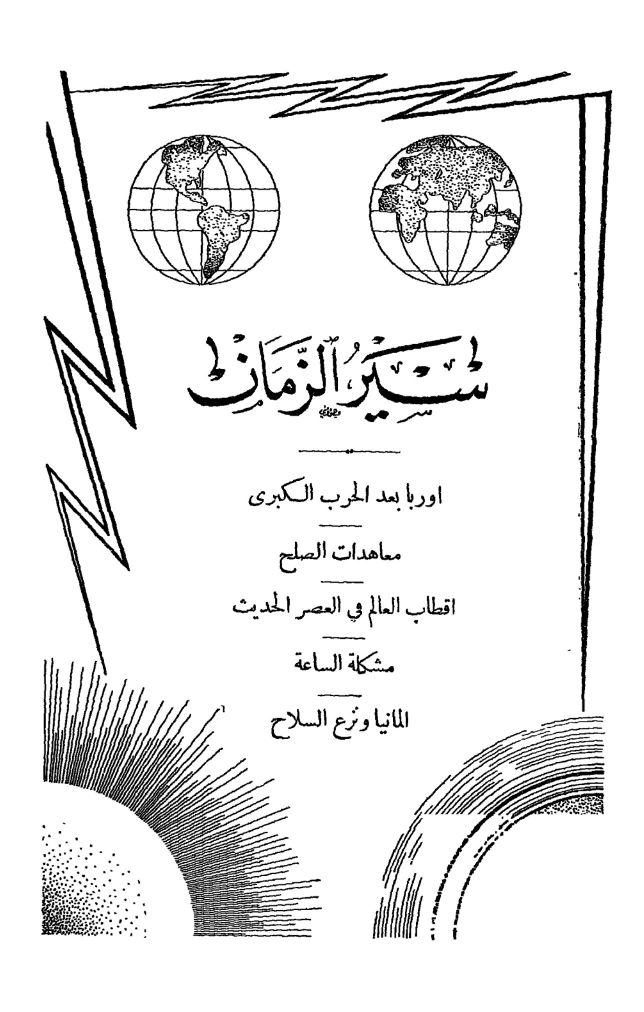
فبكى المنصور وقال : يا ليتني لم أخلق ! ويحك ! فكيف احتال لنفسي

قال . يا امير المؤمنين إن للناس اعلاماً يفزعون اليهم في دينهم ويرضون بهم فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم في امرك يسددوك

قال : قد بعثت اليهم فهربوا مني

قال : خافوا ان تحملهم على طريقتك ولكن افتح بابك وسهّل حجابك وانصر المظلوم واقمع الظالم وخذ الفيء والصدقات مما حل وطاب واقسمهُ بالحق والعدل على اهله وأنا الضامن عنهم ان يأتوك ويسعدوك على صلاح الامة . وجاء المؤذنون فسلموا عليهِ فصلى وعاد الى مجلسهِ وطُلِبَ الرجل فلم يوجد




سير الزمان
اوربا بعد الحرب الكبرى
معاهدات الصلح
اقطاب العالم في العصر الحديث
مشكلة الساعة
المانيا ونزع السلاح

معاهدات الصلح

جو الحرب في المؤتمر

انقضى شهران على عقد الهدنة (١١ نوفمبر ١٩١٨) قبلما اجتمع مؤتمر الصلح في باريس . وكان بعضهم قد اقترح ان يعقد المؤتمر في مدينة جنيف ، حيث يكون بعيداً جهد الطاقة عن روح الحرب التي تسود جوّ العواصم الكبرى . ولكن الحكومة الفرنسية اصرّت على رغبتها في ان يوقع الالمان معاهدة الصلح في ردهة المرايا في قصر فرساي ، حيث اعترفت فرنسا بهزيمتها سنة ١٨٧٠ . فلما اجتمع المؤتمر كان خلواً من ممثلي الدول المركزية، لانّ القرار كان قد تمّ على ان تمنع المانيا وحلفاؤها من الاشتراك في وضع معاهدة الصلح ، وان تملى شروطهُ عليها إملاءً . ولكن المانيا كان قد وثقت بالرئيس ولسن ، وولسن كان قد جاء باريس ليحضر المؤتمر ويشترك في وضع المعاهدة. وليس ثمة شكٌ في انهُ قابض على مفتاح الصلح بكلتي يديهِ . ذلك ان دول الحلفاءِ كانت مدينة للولايات المتحدة ومعظم دول اوربا المركزية كانت تعتمد على جمعيات الاغاثة الاميركية في انقاذها من الموت جوعاً . ولذلك توقعت المانيا صلحاً قائماً على النصفة والعدل ، وفصلاً سريعاً في المشكلات التي تحتاج الى فضٍ . غير أن المانيا لم تحسب حساباً لجوّ باريس . ذلك ان كلّ دولة ودويلة من الدول المتحالفة والمشتركة في الحرب ، كانت قد بعثت بمندوبيها الى باريس ، وكان كل ممثل مصمّماً ألاَّ يغادر باريس الاَّ وقد اصاب نصيباً من الغنائم والاسلاب . فكان الامل في سرعة الوصول الى اتفاق املاً خلّباً . اما من حيث النصفة والعدل ، فاين السبيل اليها ، وباريس ما تزال تغلي بحمى الحرب واحقادها وضغائنها . كان زعيم الوفد الفرنسي المسيو جورج كلمنصو ، قد صرّح بان غرضه سحق المانيا . وكان زعيم الوفد البريطاني المستر لويد جورج ، قد فاز — قبيل ذلك — في انتخاب بريطاني عام وشعارهُ فيهِ «احملوا المانيا على الدفع» و «يجب ان نشنق القيصر» . ثم كيف تخبو الضغينة على المانيا في بضعة اسابيع او بضعة شهور وهي التي ولّدتها في النفوس دعاية قوية منظمة خلال اربع سنوات ؟ طغتْ هذه الضغينة على النفوس كأنها الاتيُّ لا حيلة لك في صدّهِ فوقف ازاءها الرئيس ولسن حائراً عاجزاً

وكذلك اجتمع في باريس ممثلو الارمن الذين نجوا من الذبح ، ووفود الفرس ، ومندوبو العرب

الذي وعدتهم بريطانيا وقطعت لهم عهداً بالاستقلال على يد الكولونل لورنس وزنوج من افريقية وصينيون ويابانيون وروسيون (لا يمثلون الحكومة القائمة حينئذٍ) وتشكيون وكرواتيون وسلوفينيون ولتفيون واستونيون واقرانيون ، علاوة على ممثلي الدول الكبرى الظافرة . جاء جميع هؤلاء الى باريس، ولكل مطلب عزيز، يؤيده بالادلة التاريخية او التوزيع الجغرافي او حجة العدل الهابط من العلى . وكان في كثير من هذه المطالب ، جور على العدل وتعدٍّ على التوزيع الجغرافي. ذلك ان كل امة كانت في الغالب ترمي الى ضمّ قطعة من بلاد مجاورة يقطنها شعب غير شعبها ، ولكن المندوبين قامروا على جهل ولسن ولويد جورج بهذه الحقائق الجغرافية الدقيقة . ثم انهم حسبوا حساباً للمساومة فطلبوا اكثر مما يتوقعون الحصول عليه

مجلس الاربعة

كيف يستطيع مؤتمر مؤلف من ممثلي اثنتين وثلاثين دولة ان يقبل على معالجة هذه المشكلات من دون ان يسرف في الخطابة والجدل العقيم . لذلك تقرر في بدءِ المؤتمر ان يعهد الى مجلس مؤلف من عشرة رجال في وضع معاهدة الصلح . ثم تبيَّن ان العشرة عدد كبير ، اذا كانت الامم ترغب في الحصول على معاهدة صلح في بضعة شهور . لذلك عيّن مجلس ، مؤلف من ولسن وكلمنصو ولويد جورج واورلندو ، لوضع المعاهدة . وعرف هذا المجلس بمجلس الاربعة . وقد وصف المستر كاينز الكاتب والاقتصادي البريطاني هؤلاءِ الرجال وصفاً بديعاً في كتابهِ «نتائج الصلح الاقتصادية» :قال: جلس كلمنصو لابساً قفازيهِ الرماديين على كرسيٍ مغطى بالحرير المطرَّز وكأنهُ جالس على عرش . جافيَ الروح خالياً من الامل شيخاً متعباً — ... كان ينظر الى فرنسا ، نظر بركليس الى اثينا .... هي الخير الاعلى في الدنيا ، وليس ثمة غيرها شيءٌ يؤبه لهُ .... اما مبدأهُ في معاهدة السلام فيمكن ان يلخَّص في انهُ كان يعتقد ان الالماني لا يفهم الا البطش ، وفي المفاوضات لا يدرك معنى السخاء او تأنيب الضمير ، وانهُ في سبيل مغنم ما لا يقف عن ايَّة خسة ، فهو لا شرف لهُ ولا كرامة ولا رحمة». ويقابل كلمنصو الرئيس ولسن . قال فيهِ كاينز : «كان الرئيس اشبه بقسيس .... لم يكن عنده خطة يريد ان يجري عليها ، ولا مقترحات عملية تبعث الحياة، في الوصايا التي اذاعها من البيت الابيض ... كان في استطاعتهِ ان يلقي عظة بليغة او يرفع دعاءً حارًّا الى العزة الالهية ، في كل موضوع من موضوعاتها .... ولكنهُ كان عاجزاً عن تطبيقها تطبيقاً عمليًّا ، على حالة اوربا الراهنة ... وعلاوة على ذلك كان ما يعرفهُ عن احوال اوربا خاطئاً في الغالب . ومع ذلك كان يسمح لنفسهِ ، ان ينفرد كل يوم ، برجال ابرع منهُ واوسع حيلةً .... فتأثر بالجوّ الذي يحيط به واصبح يتحدث في شؤون الصلح ، على اساس الحقائق التي يقدمونها والخطط التي يقترحونها عليه ، وكذلك سار معهم في الطريق الذي اختاروهُ» . وكان لويد جورج في الغالب ، يوافق كلمنصو ، الذي ما برح طوال المؤتمر

يذكرهُ بالعهد الذي قطعهُ امام الناخبين البريطانيين « احملوا المانيا على الدفع » . وقد قال كلمنصو في لويد جورج :— « اظن ان هذا الرجل يستطيع ان يقرأ ولكنني اشك في انهُ يفعل » وقال كذلك في لويد جورج وولسن : « الاول يحسب نفسه نبوليون بونابرت اما الثاني فيظن انه السيد المسيح » . وماذا تقول في اورلندو ؟ كان اورلندو لا يعرف الانكليزية وكان ولسن ولويد جورج يجهلان الفرنسية فالتخاطب بينهم كان متعذراً . اما كلمنصو فكان يجيد اللغتين ويعرف الهدف الذي يرمي اليهِ ، فكان الصلة بين الفريقين فسيطر على المؤتمر

وكذلك تبدّد كل امل بتحقيق حلم الرئيس ولسن . كان الثلاثة وبوجهٍ خاص كلمنصو ، ابرع منه في المناورات السياسية ، فتغلبوا عليه في معظم المسائل وهو لا يدري انهم تغلبوا عليه . بيد ان كلمنصو ، كان داهية في استرضائهِ حيث لا يكلفه الاسترضاء شيئاً . خذ مثلاً على ذلك موضوع « ميثاق جمعية الامم » فان ولسن اصرّ على جعلهِ في مستهلّ كل معاهدة من معاهدات الصلح . فاعترض على ذلك لويد جورج واورلندو ، بحجة ان العالم لا يستطيع ان ينتظر حتى يوضع دستور الجمعية وينقّح ، ولكن كلمنصو انحاز الى ولسن ، ودافع عن رأيه ، حتى اقرّهُ مجلس الاربعة وخرج ولسن من هذا الجدال باكليل الغار

عقاب المانيا

ولما هم المؤتمر بعقد معاهدة الصلح مع المانيا ، عرضت لهُ ثلاث مشكلات

كانت المشكلة الاولى ما يعرف بدولة الرين . ذلك ان الوزارة الفرنسية كانت قد طلبت انشاء دولة مستقلة على نهر الرين ، تقوم بين المانيا وفرنسا مقام المجنّ بين الجندي وخصمهِ ، على ان تنشأ من ارض كانت المانية قبل الحرب ، وتكون خاضعة للنفوذ الفرنسي بعد الصلح . فاعترض ولسن على ذلك فتنازل كلمنصو ، بعد اخذٍ وردٍّ طويلين عن « دولة الرين » المقترحة ولكنهُ اشترط ان تحتفظ فرنسا بمقاطعتي الالزاس واللورين وان يعهد اليها في السيطرة على مناجم الفحم الغنية في وادي السار . اما ولسن فما كان ينوي قط ان يسلب المانيا وادي السار ، ولكن ما العمل وقد تنازل كلمنصو عن جانب كبير من مطالبهِ ؟ والواقع ان المطالبة « بدولة الرين » لم تكن من ناحية كلمنصو الاَّ من قبيل المساومة

وكانت المشكلة الثانية خاصة بمال التعويض . ففي الشروط الاربعة عشرة التي اذاعها ولسن اساساً للصلح قبل عقد الهدنة ، ببضعة أشهر ، صرّح انهُ يجب على المانيا . ان تدفع ثمن الدمار الذي احدثتهُ وتصلح الاراضي التي عبثت بها الجيوش في كرّها وفرّها وتقدمها وتأخرها . واصرَّ كلمنصو على ان التعويض يجب ان يشمل التعويض الادبي وان المانيا يجب ان تدفع المعاشات التي تصرفها الحكومة الفرنسية وغيرها من حكومات الحلفاءِ ، للارامل ، اذ من السخرية ان تعوّض الفلاحين

مما خسروه من الدجاج والماشية ، ولا تعوّض الامهات ما خسرنهُ من الابناءِ والازواج . ووافق لويد جورج على اقتراح كلنصو واضطرَّ ولسن ان يسلم بما وافق عليهِ الاثنان

ولكن كيف يقدَّر الخراب الذي احدثتهُ الحرب ؟ عهد الى لجانٍ مختلفة في ذلك فتضاربت آراؤها ، لان عمل هذا التقدير العظيم، كان اكبر واعقد من ان يتمَّ في بضعة اسابيع . فاكتفى مجلس المؤتمر بفرض الف مليون جنيه على المانيا تسددها في خلال سنتين، وعهد الى لجنة التعويضات في تقدير المبلغ النهائي الذي يُطلَب منها . وقد نظن الآن ، ان هذا العمل ، كان من اختصاص جمعية الامم ، وكان يجب ان يعهد اليها فيه ، ولكن جمعية الامم لم تذكر حينئذٍ ، وانشئت لجنة التعويضات على ان تكون مستقلة عن اي مجلس او جمعية

وكانت المشكلة الثالثة خاصة بمصير بولونيا . ففي شروط ولسن قطع عهد لبولونيا باستقلال الأراضي التي يقطنها اقوام بولونيون وان يكون لها منفذ حرٌّ الى البحر . وكان كلنصو يبغي ان يكون هذا المنفذ على بحر البلطيق ، فتنفصل بهِ وبالطريق اليهِ ، بروسيا الشرقية عن سائر الريخ الالماني ، وان يجعل ان دانترغ مدينة بولونية . فاعترض لويد جورج ، على هذا التقطيع في اوصال المانيا ، قائلاً أنهُ ينطوي على حقد ورغبة في الاخذ بالثأر . ولكن اللجنة التي عينت للبحث في الموضوع قرّرت ما رجَّح رأي كلنصو، فانشىء المجاز البولوني . على ان كلنصو كان سخيًّا ! فسلم لولسن بجعل مدينة دانترغ وما يجاورها مقاطعة دولية يحكمها مندوب او لجنة من قبل جمعية الامم ، بدلاً من ان يحتم جعلها بولونية على ما جاءَ في اقتراحهِ الاول

***

وبعد ما انقضت ثلاثة اشهر او نحوها ، على المناقشة والبحث والمساومة ، اعدّت المعاهدة وقدمت لالمانيا . فكانت اكثر المعاهدات التي عقدت في العصر الحديث ، تضييقاً على امة مغلوبة. كانت المانيا امة صناعية ، تعتمد في معيشتها على مصادر ثروتها المعدنية ، وعلى تجارتها الخارجية في اسواق مستعمراتها والاسواق العالمية بوجهٍ عام . فحكم عليها في المعاهدة بان تفقد جانباً كبيراً من فحمها وحديدها ، فمنحت مناجم الالزاس لورين والسار لفرنسا ، ومناجم سيليزيا العليا لبولونيا . وصودر اسطولها التجاري (الا السفن التي يزيد محمول السفينة منها على الف طن) ونزعت منها مستعمراتها ، واخضعت انهارها — وهي بمثابة عروق التجارة الداخلية فيها — لسيطرة ادارة دولية، ثم حكم عليها علاوة على غرامة الحرب ، وتقطيع اوصالها الاقتصادية، بان تحمل تبعة نشوب الحرب . ففي المادة ٢٣١ من معاهدة فرساي النصُّ الآتي : —

« ان الحكومات المتحالفة والمشتركة ، تؤكد ، والمانيا تقبل ، تبعة المانيا وحلفائها في احداث كل الخسارة والدمار اللذين تعرضت لها الحكومات المتحالفة والمشتركة وابناؤها ، نتيجة للحرب ، التي فرضها عليهم تعدّي المانيا وحلفائها »

وفي اليوم السابع من شهر مايو جيء بالوفد الالماني يحيط بهِ حرس شاكي السلاح ، الى فندق تريانون، وقدّم نصّ المعاهدة اليهِ . وفي الثالث عشر من مايو ، ردّ الكونت بروكدورف رانتزو على المعاهدة مصرّحاً بانهُ مضطرٌ الى رفضها لانها تناقض الشروط الاربعة عشرة التي اذاعها ولسن ولان موادّها لايمكن تطبيقها تطبيقاً عمليًّا . قال : اننا لسنا واهمين بل ندرك مدى خذلاننا وضعفنا .. ونحن لاننوي انبرىء المانيا من تبعة الحرب كلها ، وانما نبغي ان لاتتحمل المانيا — التي كان شعبها يعتقد انهُ يحارب حرباً دفاعية — كل التبعة دون غيرها » ثم قال : «ان من يوقع هذه المعاهدة ، كمن يوقع الامر بالاعدام لملايين من الرجال والنساء والاطفال الالمـان » . ونحن اذا راجعنا تاريخ الفترة التي انقضت على توقيع معاهدة ڤرساي ندرك ان ماقاله الكونت بروكدورف رانتزو كان صحيحاً

***

اما المانيا ، فردّدت قول بروكدورف رانتزو من اقصاها الى اقصاها . ذلك ان المعاهدة انقضّت على الامة الالمـانية كالصاعقة ، فجعلت تسأل « اين السلام الولسنيّ ؟ اين الشروط الاربعة عشرة ؟ » ونحن الآن نسأل الاسئلة نفسها ؟

ذلك ان ولسن لم يدرك ان كلمنصو كان ابرع منهُ في الكرّ والفرّ ، وانهُ لبراعتهِ حقق ما يطلبهُ وولسن مقتنعٌ انـ ما انطوت عليهِ المعاهدة هو الحق كل الحق . فلما قدّم بروكدورف رانتزو اعتراضات المانيا على المعاهدة ، ومقترحات جديدة ، أيّده لويد جورج بعض التأييد ، ولكن ولسن رفض ان يتزحزح قيد انملة عن نصّ المعاهدة الاصلي، اذ لا سبيل عندهُ الى التنازل عما هو «حق» . فرفضت مقترحات الالمان ولم يسلم لهم الاّ بجعل مصير سيليزيا العليا ، رهن استفتاءٍ يجري فيها بدلاً من ان تمنح لبولونيا بلا اي استفتاء . ثم انذرت المانيا بانها تمنح حتى الساعة السابعة من مساء ٢٣ يونيو لتقبل المعاهدة او ترفضها

وقعت المانيا في مأزق حرج، لانها اذا قبلت المعاهدة ووقعتها ، ارهقت نفسها باعباءٍ لا قبل لها بها . واذا رفضت سارت جيوش الحلفاء الى برلين . ففضلت وزارة شيدمان ان تستقيل على ان توقع. ولكن المانيا اضطرّت اضطراراً الى القبول فوصل جوابها الى المؤتمر ساعة ونصف ساعة قبل نفاد الميعاد المضروب . وفي يوم ٢٨ يونيو — اي بعد انقضاء خمسة اعوام على مصرع الارشيدوق النمسوي في سراييڤو — وقّعت المانيـا معاهدة الصلح ، في ردهة المرايا بقصر ڤرساي حيث وضعت اركان الامبراطورية الالمانية سنة ١٨٧١ على يدي بسمارك

المعاهدات مع الدول الاخرى

على ان عمل المؤتمر لم ينتهِ بتوقيع معاهدة فرساي . ماذا يفعل بالامبراطورية النمسوية ؟

سوف نعود الى موضوع اوربا الوسطى في فصل تالٍ ، فنكتفي الآن بأن نقول ان معاهدة الصلح مع النمسا ، حوّلتها من دولة في الطبقة الاولى بين دول اوربا الى دولة في الطبقة الخامسة . نزعت منها الولايات الشمالية — وهي الولايات الصناعية — وانشأت منها جمهورية تشكوسلوفاكيا . وضمت ولاياتها الجنوبية وشواطىء دلماتيا الى مملكة سربيا فأصبحت بعد اتحادها بمملكة الجبل الاسود مملكة يوغوسلافيا ، واستقلّت بلاد المجر ، وضمّت مقاطعة الى بولونيا من ناحية ، ومقاطعة اخرى من ناحية اخرى — في التيرول — الى ايطاليا . وما بقي من الامبراطورية القديمة المترامية الاطراف وعاصمتهُ فينا ، جعِل جمهورية لها الحق في ان تدافع عن استقلالها بثلاثة مراكب بوليس على نهر الدانوب ، وجيش مؤلف من ٣٠ الف جندي ! ووقعت المعاهدة مع النمسا في سان جرمان في سبتمبر ، وتعرف بمعاهدة سان جرمان

وبعد انقضاء شهر على عقد معاهدة سان جرمان عقدت معاهدة نويي Neuilly مع بلغاريا ، فأصبحت من دول البلقان الصغيرة وفرضت عليها غرامة حربية قدرها ١٢٠ مليوناً من الجنيهات . اما عقد المعاهدة مع المجر فتأجل . ذلك ان بيلا كون ، كان قد اكتسح العاصمة بودابست ، بفريق من الشيوعيين ، ولم يغلب على امره الاّ في يوليو ، فتأخر عقد معاهدة تريانون مع بلاد المجر حتى شهر يونيو سنة ١٩٢٠

وكان الحلفاء قد وضعوا معاهدة مع تركيا ، بنوا موادّها على الاركان التي بنوا عليها المعاهدات الاخرى مع المانيا وحلفائها ، ولكن قبل ان توقع تركيا هذه المعاهدة ، تحدى مصطفى كمال الحكومة العثمانية في الاستانة وحكومات الحلفاء جميعاً ، فتغلّب على الارمن سنة ١٩٢٠ وطرد اليونان من آسيا الصغرى في سنة ١٩٢١ ولما سلمت تركيا الكمالية بعقد مؤتمر للصلح في لوزان سنة ١٩٢٣ اصرّت على تحقيق مطالبها القومية ، فخرجت من لوزان وقد غنمت مقدونيا والاستانة

***

اما الدول القائمة على الشاطىء الشرقي من بحر بلطيق — لتوانيا ولتفيا واستونيا وفنلندا — فاعترف باستقلالها . ووضعت الحكومات المتحالفة والمشتركة معاهدات لحماية الاقليات في بولونيا وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا ورومانيا واليونان ، معترفة للقوميات المختلفة بحق احتفاظها بشرائعها وعاداتها . وكذلك نرى ان مؤتمر الصلح لم يحافظ الاّ على مبدإ حقوق الاقليات ، من مبادىء الرئيس ولسن ، ومع ذلك سلّم باخضاع نحو مليونين ونصف مليون من الالمان لبولونيا (في سيليزيا) ونحو ثلاثة ملايين ونصف مليون لتشكوسلوفاكيا ، وحكم بتوزيع نحو ثلث الشعب المجري في اوربا بين رومانيا وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا

وقد صدّرت كل معاهدة من المعاهدات المذكورة بميثاق جمعية الامم ولهذا حديث تالٍ

اقطاب العالم

في العصر الحديث

بين محنة الازمة والامل بانفراجها يتطلّع العالم المتحير، إلى ما قد تسفرعنهُ المحادثات السياسية والمؤتمرات الدولية المختلفة. يسأل بعضنا بعضاً هل نشهد بأم العين ما تغنى بهِ الشاعر الانكليزي لورد تنيسون على أنهُ من الاحلام إذ قال: «ونفذت بنظري الى المستقبل، الى أبعد ما يصل اليه النظر البشري.. في برلمان الانسان واتحاد العالم»؟ ولكن رجل الشارع، أيّـاً كان هذا الشارع وأين كان يسأل: — «على من تلقى التبعة في خيبة هذه المؤتمرات. ان فيها ميداناً واسعاً للابداع، فكيف نعلل خيبة الآمال؟ كيف نفسر التردد وعدم الحزم حيث لا ينجينا إلاَّ الحزم والاقدام؟»

وقد أعرب الدكتور بطلر، رئيس جامعة كولومبيا، عن رأي رجل الشارع اذ اسند هذا النقص في حياة العالم العامة الى عوزٍ في الزعماء وصفات الزعامة. فالمعرفة واسعة النطاق، والآمال والنيات تنطوي على الخير في الغالب والبواعث تستدعي العمل. ولكن يعوزنا الزعماء. ويؤيدهُ رجل الشارع فيقول: «فاذا أخفق الزعماء فلعلَّ لهم عذراً في ذلك. انهم غير الزعماء في العصور الماضية. أين نشتام وبرك ودانيال وبستر وتاليران وبسمارك ودزرائيلي؟»

وليس الغرض من هذا المقال المقابلة بين زعماء هـذا العصر وزعماء العصر الماضي أو العصور الماضية، بقصد الحكم لهؤلاءِ او لهؤلاءِ. وانما القصد أن نبين ما طرأ من التغيير على احوال الزعامة والحكم في العصر الحديث مما جعل الزعماء في حال لا يحسدون عليها

فالتغيير الاول هو من الثبات والاستقرار الى التقلب في مناصب الحكم، فالزعماء اليوم، يتقلدون الحكم في الغالب بفعل المشيئة القومية المعبر عنها في المجالس النيابية، وهذه تتقاذفها الآراء والاهواء، فتتقلب وتنقلب غداً على زعيم اليوم، او بعد غد على زعيم الغد. والتغيير الثاني من البساطة في المشكلات التي يعالجها الزعماء الى التعقيد. ولو أن احد اقطاب الماضي، عاد اليوم الى مناصب الحكم، لوجد امامه طائفة منوعة معقدة من المشكلات الجنسية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، يتعذر علاجها وحلّها باللسان الذرب والنطق الخلاَّب. علينا ان نذكر هذين الوجهين من وجوه التغيير اذا شئنا أن نصل الى حكم منصف في مقام اقطاب العالم اليوم من مشكلات عصرهم

ففي القرن الثامن عشر والقرن التاسع كان الزعماء يحسون انهم ليسوا باطياف عابرة على مسرح السياسة. فوشنطن وادمز وجفرسن وهملتن وفرنكلن وغيرهم من مؤسسي الجمهورية الاميركية ظلوا ذوي اثر عظيم في حياة أمتهم طوال حياتهم. وفي بريطانيا ظل بت Pitt الصغير حاكماً لبريطانيا خلال عشرين سنة من سني الحرب والسلم. ثم ان حياة ولنغتن وبامرستون وغلادستون العامة

انبسطت على نصف قرن من التاريخ البريطاني. ودزرائيلي ظلَّ زعيماً لحزب المحافظين البريطانيين بضعة عقود من السنين . كذلك كان شأن مترنيخ في فينا وتاليران في باريس وبسمارك في برلين

وقد انقضى حتى الآن ، من القرن العشرين ، ثلث حافل بأمهات الحوادث ، ومع ذلك نستطيع ان نتبين فيهِ ، اربعة ادوار من الزعامة ، خلف احدها الآخر ولكل دور رجال وزعماء يختلفون في الغالب ، عن رجال الدور الآخر وزعمائهِ . فالدور الاول يشتمل على ١٤ سنة سابقة لنشوب الحرب الكبرى . ثم تليها ست سنوات هي سنو الحرب وعقد معاهدات السلام . ثم ثماني سنوات كانت سنوات الرخاء الموهوم . وتلتها سنو الازمة التي ما زلنا نعانيها حتى الساعة

ان نشوب الحرب الكبرى ، يجعل ما يعرف عن زعماء الامم قبلها وكأنهُ خاص بعصر آخر . فالحرب كانت حدًّا فاصلاً في كيان بعض الامم كألمانيا وروسيا والدولة العثمانية وامبراطورية النمسا والمجر . بل اننا نتذكر بثمان هلفيج الوزير الالماني صاحب القول بأن المعاهدة «قصاصة من الورق» وفيفياني بفصاحته الخلابة في باريس ، واسكوث وجراي بأساليبهما السياسية المداورة في انكلترا وكأننا نتذكر رجال عهد بائد . كانت الزعامة حينئذ خاصة بطبقة من الطبقات ، فلما وقعت الحرب اصبحت الزعامة فوضى لا ضابط لها ولا رابط . فنشأ خلال الحرب وبعيدها ، رجال امثال كرنسكي في روسيا ، ونورثكليف في بريطانيا ، ودانونزيو في ايطاليا ، وبيلا كون في المجر ، كأنهم نيازك ظهرت فجأة في الفضاء ثم توارت بعد حين قصير

وفي الدور الثاني طلع علينا رجال وكأنهم افرغوا في قوالب الابطال ، نذكر منهم ولسن وكليمانصو واورلندو وقد ذهبوا جميعاً الى خالقهم . اما لويد جورج فقد انقضت عليه نحو عشر سنوات وهو منزو ، يظنهُ بعضهم امل الاحرار البريطانيين الوحيد ، ويظنه البعض الآخر حجر الرحى في اعناقهم . وقلَّ من يذكر ملنر — الاَّ قليلاً في مصر — وبونارلو في انكلترا ، وبوردن في كندا ، وهيوز في استراليا فكأنهم كانوا اشباحاً عبرت ولم تترك وراءها اثراً . ثم اننا اذا نظرنا الى القواد وزعماء الحرب ، رأينا انهم لم يتركوا وراءهم في الغالب الاَّ مذكرات يحاولون ان يسوغوا بها اعمالهم وينقدوا اعمال خصومهم . كان عهد وكانت كلمة من جوفر وفوش وملتكي الثاني ولودندورف وهيج وبرشنغ تهزُّ الدنيا ، فأصبحنا اليوم واذا الحرب نفسها ، صناعة هؤلاء الزعماء عمل غير شرعي في العرف الدولي — النظري على الاقل ! وليس بين قواد الحرب ، من كان له اثر بعدها ، الاَّ بلسودسكي في بولونيا ، ومصطفى كمال في تركيا ، وهندنبرج في المانيا

وفي الدور الثالث ، اتجهت العناية الى الترميم والاصلاح . فحاولت بعض الامم ان تحتفظ بزعمائها ، فلم تتخلَّ بريطانيا عن لويد جورج بعد الحرب رأساً بل ظلَّ في الحكم حتى سنة ١٩٢٢ واصغت فرنسا الى بريان وبوانكاره ، وظلت اليابان تقدس العرش والفئة الحاكمة من حوله

ولكن الشعور العالمي — وكان في الغالب شعوراً باطنيًّا ومن هنا قوته وعنفه — كان ينطوي

على ان « العصر الجديد يقتضي رجالاً جدداً » فنشأ في كل بلاد زعماء ، ما كان احد يحلم قبيل ذلك بانهُ يتاح لهم يوماً أن يصلوا الى مقدمة الصفوف ... من سمع بهاردنغ وكولدج في اميركا قبل سنة ١٩٢٠ وكيف تغلب ستانلي بلدوين ، على المركيز كرزون السياسي والمؤلف ، وأذكى من تولى منصب نائب الملك في الهند ، على ما يقولون ؟ كذلك منحت روسيا السلطة المطلقة لرجلين ، كانا مجهولين الاَّ في دوائر الثورة ، هما لنين وتروتسكي ، وتقلد رآسة الجمهورية في بولونيا موسيقي عالمي الشهرة هو بادروسكي ، وفي تشكوسلوفاكيا استاذ جامعة هوماساريك ، وفي المانيا سروجي هو إيبرت ، وعهد في مصير ايطاليا الى موسوليني وهو ابن حـداد . كذلك اكتشفت الهند غاندي ، وارتفع الستار في مصر عن عظمة زغلول ، ولمع في سهول الجزيرة وفوق صحاريها نجم ابن سعود ، وخرج رضا خان من صفوف الجيش الى عرش الاكاسرة في ايران ، وتمخضت الامة الالمانية الكليمة النفس — لشدَّ ما بلتها بهِ معاهدة فرساي — عن هتلر والحركة الاشتراكية الوطنية

ولقد احتفظ بعض هؤلاء بمكانتهم ولكن آية السياسة العالمية اليوم هي التقلُّب . فما تخلصت اسبانيا من قبضة بريمو ده ريفيرا ، حتى طردت الفونس وأنشأت جمهورية . ثم انرومانيا استدعت ملكها المتنازل عن العرش — كارول — واقامته شبه دكتاتور

والغالب ان تتجه الامم الى الافعال دون الاقوال الآن . فما اخرج تروتسكي من روسيا حتى حوَّل ستالين الحكم الروسي الى بيوروقراطية (طبقة حاكمة معينة) والمانيا بزعامة هتلر تقتفي خطوات ايطاليا الفاشستية ولكن على منوالها الخاصّ ، وبريطانيا أشركت زعيمها الاشتراكي مع المحافظين لانشاء حكومة فعَّالة ، وانتخب الرئيس روزفلت لكي يخرج بأميركا من الوهدة التي سقطت فيها ، وقد عهد اليه الكنغرس بسلطان واسع النطاق لم يعهد بمثله لرئيس اميركي آخر من قبل في زمن السلم

والتحول من دور الحكم الطويل الى دور الحكم القصير ، كان له اثر في احكام الزعماء أنفسهم . فبسمارك اذ كان يفاوض ، لم يجُل في خاطره شبهة ما في انه معرَّض للسقوط ، وانه قد يطرد من منصبهِ باكثرية يسيرة او كبيرة . لذلك كان يوجه كل عنايته الى الخطة السياسية التي يتبعها . فكان يتكلم في مجامع الدول كمن له سلطان . ما أقل الزعماء في هذا العصر الذين يستطيعون ان يفعلوا هذا ! فما رجع ولسن من اوربا ، حتى رفضت أمته توقيع معاهدة فرساي والانتظام في جمعية الامم ، وكذلك في البلدان الاخرى . كانت الوزارات تؤلف وتحل في مدى نهار وليلة . فاضطر الزعماء وهم يفاوضون ان يحسبوا حساباً للمنازعات السياسية كل في بلاده فأفضى هذا الى العقم والتردد في السياسة الدولية

ثم اذا نظرنا الى المشكلات التي يعالجها الزعماء رأيناها معقدة كل التعقيد . فتعيين الحدود ، يرتبط بالتاريخ الجغرافي والسلالة . ولهُ كذلك صلة بالاقتصاد والتبادل والحواجز الجمركية . والشؤون الاقتصادية لا يمكن فصلها عن مسائل التسليح والحرب . والتسليح يتصل كل الصلة ، بأحوال

النفس والعقل، اتصاله بالمصلحة والتاريخ . كل هذه مشكلات ليست بالمشكلات السهلة . انها تلخص في قولنا « ترميم الحضارة واعادة بنائها بناءً جديداً » . فالذكاء والالمعية والشجاعة ليست الصفات الوحيدة التي يجب ان يتصف بها الزعماء ، وبعض زعماء العالم الآن متصف بها في سعيه ، ووراء تحقيق هذه الاغراض العليا ، بل يجب ان تواتيهم احوال العصر المضطربة لكي يصيبوا شيئاً من النجاح. ونحن اذا صبرنا قليلاً فقد نرى او قد يرى ابناؤنا ان مساعيهم قد اسفرت عن شيء مما يبغون

مشكلة الساعة

المانيا ونزع السلاح

ان خروج المانيا المفاجيء من مؤتمر نزع السلاح في ١٤ اكتوبر (١٩٣٣) وجّه الافكار الى الاخطار العظيمة التي تنطوي عليها الحالة الاوربية الآن . ففرنسا تظلّ مسالمة راضية اذا هي استطاعت ان تحافظ على موقفها الراهن من ناحيتيه الجغرافية والسياسية . ولكن المانيا متبرمة وتبرّمها يغذي فيها نزعة الكفاح في سبيل ما تراه حقًّا لها . وهذه النزعة مكبوحة الآن لان المانيا تدرك عجزها عن تحقيق اغراضها بالقوة. فالحالة اليوم تقتضي اتفاقاً على خفض السلاح، اكثر مما كانت تقتضيهِ في اي دور سابق من ادوار مؤتمر نزع السلاح وخروج المانيا من المؤتمر اقنع ولاة الامر بان الاتفاق على المسائل الفنية وحدها لا يكفي بل يجب ان يشمل العوامل الاساسية التي تبعث على القلق السائد لبرّ اوربا

لما انفضّ مؤتمر نزع السلاح في يوليو ١٩٣٣ ادرك المطلعون على سير الامور فيهِ انهُ لايستطيع المضيّ في عمله الاّ اذا وصل الى نتائج عملية قبل فوات الاوان . وكان قد انقضى عليهِ سنة ونصف سنةٍ ، تخللتهما فترات من الراحة ، ما زالت تطول كلما قامت العقبات السياسية في وجههِ ، حتى أصبحت تحصى بالشهور . وها هوذا المؤتمر لم يجتمع بعد انفضاضهِ في الصيف الماضي

يقول بعضهم انّ في الامكان المحافظة على السلم الاوربي بابقاءِ المفاوضات دائرة بين الدول في جنيف . وقد يكون في هذا القول نصيب من الصحة . والواقع انهُ ما زالت، المسائل التي يدور عليها البحث مسائل فنية مجردة ، فالمضي في المفاوضة مستطاع ، لا يخشى معهُ اي اصطدام خطير في الخطط الاساسية . ولكن لما تحوّلت المناقشة الى مسائل معينة ، مثل عدد المدافع والطيارات والدبابات الذي يسمح بهِ لاية دولة من الدول واطرزة هذه الاسلحة ، بلغ المتفاوضون مأزقاً ، لم يروا حتى الساعة سبيلاً الى الخروج منهُ . خذ مثلاً على ذلك الطيارات الحربية. فقد قضى الخبراء بضعة اسابيع يتناقشون في افضل السبل لتعيين درجات الطيارات . ايكون ذلك بقوة محركاتها ، او

بوزنها ، او بمساحة اجنحتها ، او بجميع هؤلاء معاً ؟ وبدت في الحال طلائع الخلاف بين الآراء المتقابلة ، ولكن المتباحثين اجتنبوا الخوض في الشؤون السياسية ، فجنى المؤتمر من مباحثاتهم حقائق فنية مفيدة . واذا كان الخبراء قد توصلوا الى شيء من الاتفاق على تعيين درجات الطيارات فالمتباحثون الذي فوّض اليهم تعيين عدد الطيارات لكل دولة من الدول لم يوفقوا مثل هذا التوفيق

وكذلك ترى ان الناحية الفنية من الموضوع نالت نصيباً وافياً من البحث . ولكن الحكومات يعوزها الحزم في تعيين الخطط الاساسية التي تبغي ان تختطها

***

ولما اجتمع المؤتمر الاقتصادي العالمي في لندن (يونيو ١٩٣٣) تنفس الناس الصعداء قليلاً ، لان الافكار انصرفت عن العقبات التي اصطدم بها مؤتمر نزع السلاح ، الى البحث في شؤون العالم الاقتصادية. فلما اخفق مؤتمر لندن ادرك الناس ، ان الوصول الى اتفاق على نزع السلاح او خفضه ، اصبح ابعد منالاً مما كان. فقضى المستر هندرسن رئيس مؤتمر نزع السلاح عطلة الصيف متجولاً بين عواصم الدول الاوربية ، يسبر غور اصحاب الرأي فيها ، من دون ان يتوصل الى قاعدة ، يصح ان تجعل اساساً للاتفاق . وكان يوم ١٦ اكتوبر المعيّن ، لعودة المؤتمر الى الاجتماع ، قد اصبح على الابواب ، وبرنامج الموضوعات التي يتناولها المؤتمر لم يرتّب بعد

في هذا الجوّ الملبّد ، بدأت المفاوضات تدور في اواخر سبتمبر واوائل اكتوبر (سنة ١٩٣٣) والحالة ما ذكرنا . دارت مباحثات في باريس وجنيف اشترك فيها الفرنسيون والبريطانيون والاميركيون اولاً ثم انضمّ اليهم الايطاليون والالمان ، واسفرت عن ان يعهد الى « لجنة تسيير المؤتمر» في وضع برنامج للعمل على اساس مشروع مكدونلد ، فكان همُّ هذه اللجنة ، قبل كل شيء ، ان تحاول تقريب الشقة بين موقفي فرنسا والمانيا

وقد اشارت حكومة فرنسا ، بانها رغماً عن تطوُّر الحال في المانيا تطوُّراً يبعث على القلق ، مستعدّة لان تخفض سلاحها . ذلك ان المسيو دالادييه رئيس وزراء فرنسا حينئذٍ ، ادرك الخطر الذي يسفر عنهُ حبوط مؤتمر نزع السلاح ، فحاول ان يسهل لوزير خارجية بريطانيا ، مهمته ، بكل ما يملكهُ من الوسائل . وكأنهُ فهم حينئذٍ ، ان اقامة « ضمان السلامة» على الاساس الذي تطلبهُ فرنسا ، وهو انشاء جيش دولي ومعاهدات التعاون المتبادل متعذر ، فوافق على ان ينصّ اتفاق نزع السلاح على تعيين لجان مهمتها ان تزور البلدان المختلفة وتشرف على مدى صنع الاسلحة فيها — وهذا يعرف الآن بمبدإ الرقابة الدولية — لانهُ اذا كانت فرنسا تستطيع ان تطمئن الى ان المانيا لا تتسلح وراء ستار ، فقد تجد الحكومة الفرنسية المسوّغ الذي يمكنها من نقص سلاحها نقصاً تدريجيًّا في خلال مدة معيّنة . اما ان يطلب منها ان تنقص سلاحها فوراً فذلك متعذر . بل هي تشترط ان لا تبدأ نقص سلاحها ، الاَّ بعد انشاء لجان الرقابة والتثبت من حسن قيامها بعملها وتحويل الجيوش الاوربية ،

الى جيوش رديف Militia وهذا يعني ان جيش الريخسفهر الالماني — عدده ١٠٠٠٠٠ جندي — المدرَّب تدريباً عسكريًّا يجعل كل جندي فيهِ بمثابة ضابط ، يجب ان يحوَّل الى جيش مؤلف من ٢٠٠٠٠٠ جندي رديف تكون مدة خدمتهِ العسكرية قصيرة . وكذلك اتفق على انهُ يحق لالمانيا في خلال مدة الاتفاق ، ان تبني عدداً — يعيَّن فيما بعد — من اطرزة الاسلحة المختلفة التي لا تتفق الدول على الغائها قبل انتهاء مدة الاتفاق . وذهب الفرنسيون الى انهُ لا يحق للالمان ان يشرعوا في صنع هذه الاسلحة ، الاَّ بعد فترة تجربة طولها اربع سنوات ، تقوم في خلالها لجان المراقبة بعملها ، وتحوَّل الجيوش على الاساس المتقدم ذكرهُ

***

طلبت المانيا في بدءِ المفاوضات ان يعترف لها بحقها في ان تملك حالاً نماذج من اصناف الاسلحة التي لا تتفق الدول على الغائها ، ومن هذه الاسلحة ما كان محظوراً على المانيا بمقتضى معاهدة فرساي ، كالطيارات الحربية . فكان هذا الطلب عقبة خطيرة ، ولكن تخطيها بالمفاوضة لم يكن مستحيلاً لان الدول المتفاوضة كانت قد سلَّمت بالاعتراف لالمانيا بمبدإ المساواة في اصناف الاسلحة المختلفة في خلال مدة «معاهدة السلاح» وعلى كل حال لا بدَّ ان يستغرق صنع هذه الاسلحة فترة من الزمن اذا كانت المانيا لم تتسلَّح سرًّا كما كان يقال

كان المندوبون البريطانيون والايطاليون معنيِّين في اوائل اكتوبر بالبحث عن قاعدة تقرِّب بين المانيا وفرنسا . فدفعوا الى الوفد الالماني بملخص بيانٍ كانوا يحاولون استيفاء تفصيلاتهِ ، ووجهوا الى الوفد الالماني ، بعض اسئلة شفهية ، فعاد البارون فون نويرات الى برلين ليرى رأي حكومتهِ في الامر ، وبعد بضعة ايام ارسل الالمان مذكرة مفصلة الى روما ولندن بسط فيها موقف المانيا . وهذه المذكرة لم تنشر ، ولكن جريدة « الايكو ده باري » نشرت ملخصاً للمذكرة ليس ثمة ما يدعو الى الشك في دقتهِ . واهمُّ ما فيه ان الحكومة الالمانية ، ترفض ان تسلم بفترة التجربة وانها مستعدة لتحويل الريخسفهر الى جيش قصير الخدمة . ثم ان المذكرة تشير الى ان المشروع البريطاني يذكر ثلاثة اصناف من الاسلحة هي الاسلحة التي تمنع او تلغى في المستقبل . والاسلحة التي تقيَّد بقيود . والاسلحة التي لا تقيد بقيود ما . اما المانيا فتسلم بالغاءِ اي صنف من الاسلحة اذا كان الالغاء عامًّا شاملاً . بل هي تتنازل عن طلب التسلح باسلحة تملكها الدول الاخرى الآن اذا تعهدت تلك الدول بتدميرها في خلال فترة لا تتعدَّى مدى المعاهدة ، وتشترط ان تمنع هذه الاسلحة في المستقبل . اما الصنف الثاني من الاسلحة ، وهو الصنف الذي ينتظر تقييده من حيث النوع والمقدار فطلبت المانيا في مذكرتها ان تعرف في اول فرصة المقترحات الخاصة بهذا التقييد ، ثم قالت انهُ يحق لها ان تملك الاسلحة التي تملكها الدول الاخرى ، وهي مستعدة ان تخضع للقيود التي يتفق عليها . اما الاسلحة التي لا تقيد بقيد ما ، فالمانيا ترى انهُ ما زالت الامم الاخرى غير خاضعة لقيود ما في هذا

الصنف من الاسلحة ، فالمانيا يجب ان تكون كذلك مطلقة من اي قيد . فاذا اريد في المستقبل نقص هذه الاسلحة المقيدة بقيود ، فالمانيا مستعدة لنقصها على اساس من المساواة مع الدول الاخرى

***

هذا الموقف الذي وقفتهُ المانيا لم يحز قبولاً من حكومتي فرنسا وانكلترا لاصرار المانيا فيهِ على زيادة سلاحها . ولهذا السبب عينهِ لم يحز قبولاً عند حكومة الولايات المتحدة الاميركية . ولكن باب المفاوضة لم يقفل ، فمضى المندوبون في بحثهم ومحاولتهم اعداد البرنامج لعرضهِ على جلسة المؤتمر العامَّة في ١٦ اكتوبر ، رغم سفر المندوب الالماني من جنيف بدعوةٍ من حكومتهِ للتفاوض معهُ . وبذل كلّ سعيٍ ، للوصول الى قاعدة سلمية ، لا يسلّم بها بطلب المانيا ان تزيد سلاحها ، ولكنها تمهّد السبيل لتحقيق مبدأ المساواة الذي تصرّ عليهِ المانيا ، مع ابقاءِ الباب مفتوحاً لمفاوضات تالية ، ينظر فيها في بعض النقاط الاخرى التي في البيان الالماني . هذا هو البرنامج الذي عرضهُ السرجون سيمون على « لجنة تسيير المؤتمر » يوم ١٤ اكتوبر . ولما كان المستر نورمن دايفس معارضاً من البدءِ ، في تسلّح المانيا (كان رأيهُ ان ينقص سلاح الدول الاخرى رويداً رويداً حتى تتحقق المساواة) وافق على البيان الذي قدّمهُ السرجون سيمون ، وكذلك وافق عليه بول بونكور — وزير خارجية فرنسا — ورئيس الوفد الايطالي

في الساعة التي كان السرجون سيمون يلقي بيانه هذا على « لجنة تسيير المؤتمر » في جنيف كانت المانيا ، تستعدُّ لاذاعة بيانها بخروجها من مؤتمر نزع السلاح وهجرها لجمعية الامم . والواقع ان الصحف العالمية التي صدرت يوم السبت في ١٤ اكتوبر ، نشرت في اعمدة متحاذية ، نبأ بيان السرجون سيمون ، ونبأ خروج المانيا من المؤتمر والجمعية

***

يتعذّر على من تتبع سير الحوادث ان يصدق ان بيان السرجون سيمون كان الباعث على خروج المانيا من المؤتمر فانهُ لم تمضِ الاّ دقائق معدودات على وصول نبأ الاجتماع الذي القى فيه السرجون سيمون بيانه الى برلين ، حتى اذاعت حكومة الريخ قرار انسحابها من المؤتمر . واذن يضطرُّ الباحث ان يذهب الى ان المانيا ، كانت قد اقرّت الخطة التي جرت عليها ، قبل ذلك ، لانها رأت في المباحثات والمحادثات التمهيدية ، ان الدول لن تسلم بموقفها او بمطالبها جميعاً . والواقع ان البرقية الرسمية التي بعثت بها الحكومة الالمانية الى المؤتمر تعلنهُ بانسحابها ، مبنية على نظرة عامة لعمل المؤتمر ، وعجزهِ عن تحقيق غرضه وان الدول المسلحة ترفض ان تنزع سلاحها ، وان مطالبة المانيا بالمساواة لن يسلّم بها

وليس لنا الآن ان نتخيل ما وقع في المانيا قبل اتخاذها هذا القرار . ذلك ان تغيراً كان قد طرأ على موقف المانيا ، في بضعة الاسابيع السابقة لانسحابها من المؤتمر ، فتبدلت رغبتها في المفاوضة بمحاولتها ان تتلمس المعاذير التي تسوّغ لها الانسحاب منهُ . فما الباعث على ذلك ؟ لما ارسل الرئيس

روزفلت رسالتهُ المشهورة الى المؤتمر الاقتصادي العالمي ، في ٣ يوليو ١٩٣٣ ، وصدم بها المؤتمر ، قال بعضهم ان هذه الرسالة تنبئ بتحولٍ او انقلاب في سياسة الرئيس . والراجح انها لم تعنِ ذلك على الاطلاق . ذلك ان الرئيس ، عبر في رسالتهِ عن النتائج الدولية ، للخطط القومية التي يسير عليها في بلادهِ . وما فعله الرئيس ، هو ما فعلتهُ المانيا في اكتوبر ، على ما نظن ، او هما من قبيل واحد

كان الحزب الاشتراكي الوطني ، وحكومة هتلر ، قد بنوا نداءهم الى الشعب الالماني ، على وعدهم ببذل كل ما يبذل لانقاذ الشعب الالماني من اعباء معاهدة ڤرساي ، واستعادة مكانة المانيا بين الامم ، فتصير هي وغيرها سواءً بسواءٍ . وليس بعيداً عن المعقول ، ان هتلر رأى ، ان عقد اتفاق لنزع السلاح ، لا بدَّ ان يعني بقاء المانيا ، في حالتها الراهنة السياسية والجغرافية مدة ذلك الاتفاق ولو سلّم لالمانيا ببعض التبديل في جيشها وسلاحها . وعقد اتفاق من هذا القبيل يسلب المانيا السلاح الذي تكافح بهِ في سبيل احداث التغيير الذي تطلبه — وهو سلاح التهديد بالتسلح . وقد رأت المانيا انهُ ليس من الحكمة ، التخلي عن هذا السلاح القوي الذي بيدها، لقاء نقص يسير في سلاح الدول الاخرى وزيادة يسيرة في سلاحها . فاذا سلمنا بصحة هذا الرأي فالراجح ان ما قاله السر جون سيمون في جنيف يوم ١٤ اكتوبر لا قدَّم ولا أخَّر في موقف المانيا وقرارها

***

ان خروج المانيا من مؤتمر نزع السلاح وجمعية الامم يشير الى نقمتها على معاهدة فرساي ، ويعني رفضها ان تفاوض في جنيف مندوبي خمسين امة ، في مسائل ترى انها تهمها وتهم جاراتها بوجه خاص ، وهي مسائل لا يمكن حلّها الا بالمفاوضة في دائرة خاصة من الدول التي يعنيها هذا الامر

ومن العبث ان نحاول توزيع اللوم على هذه النتيجة التي وصلت اليها مفاوضات نزع السلاح . فلو ان البيان الذي اعدَّهُ السر جون سيمون بعد مفاوضات طويلة ، والقاه في جنيف في ١٤ اكتوبر سنة ١٩٣٣ اعدَّ قبل ذلك ، وقدم الى الحكومة الالمانية التي يرأسها الدكتور بروينغ ، لكانت المانيا قبلتهُ وحسبتهُ نصراً لها . ولو ان مؤتمر نزع السلاح وصل قبل سنتين الى النتائج التي وصل اليها في اكتوبر سنة ١٩٣٣ لكان تاريخ السنتين الاخيرتين في السياسة الاوربية غير ما هو . ولكن الذي وقع وقع ، ورجال السياسة ، في الغالب ، بطيئون متمهلون ، لا يماشون التحول السريع في سير الزمان

فاذا وقع المحذور ، دهش لهُ حتى اكثر الناس اتصالاً بسير الامور . ان معاهدة ڤرساي زرعت بزور الخصام والمرارة في اوربا المتوسطة . ثم جاء التضخيم الماليّ في المانيا ، فقضى على الطبقة المتوسطة من الشعب ، التي تؤيد في الغالب النهج المعتدل . ولكن الثورة في المانيا جمعت زخمها اذ كانت فرنسا ، لا تزال مترددة في الخطة التي تنهجها ، فلما اشتدت الازمة العالمية ، استفحل الميل الى

الانقلاب ، في نواحي الحياة السياسية والاقتصادية ، في المانيا وغيرها من الامم

كانت المانيا قد انتظرت اربع عشرة سنة ، لتحقيق العهد الذي قطع في معاهدة فرساي ، وهو ان نزع سلاح المانيا ليس الاَّ توطئةً لنزع سلاح الدول الظافرة . ومن العبث ان نبحث الآن ، في هل هذا العهد كان عهداً ادبيًّا او عهداً قانونيًّا يجب تنفيذه . حتى اذا سلمنا بان العهد كان ادبيًّا لا غير ، فليس ثمة ريب في ان احترامهُ كان واجباً . ومما يرتاب فيهِ ان خفض السلاح الذي تمَّ بعد الحرب الكبرى حقَّق هذا العهد . نعم ان الدول البحرية الكبرى قد خفضت اساطيلها ، وان فرنسا حوَّلت مدة الخدمة في جيشها من ثلاث سنوات الى سنة واحدة ، وذلك من تلقاءِ نفسها . ومع ذلك فلا سبيل الى انكار ان جارات المانيا ، متفوقة عليها تفوقاً كبيراً في قواها الحربية . وقد قيل للشعب الالماني ، ان هذا التفوق ترك المانيا ، في حالة لا تستطيع معها الدفاع عن نفسها . فكان لهذا القول اقوى الأثر ، في احداث ثورة النفس الالمانية التي افضت الى سلسلة الحوادث التي بسطناها . والالمان الآن اذ يشيرون الى عدم مساواتهم بالدول الاخرى ، يعنون في الغالب ، تخلفهم عن تلك الامم في قوتهم الحربية

***

ضع نفسك ايها القارىء مكان الالماني او مكان الفرنسي ، تجد انك تستطيع ان تقيم الحجة لموقف الاثنين . فالفرنسي يرى ان نزعهُ لسلاحهِ ، وحالة المانيا النفسية ما هي الآن ، مخاطرة كبيرة . اما الالماني ، فلن يستقرَّ ما زال يحسُّ انهُ لا يملك القوة اللازمة للدفاع عن نفسهِ ، اذا هوجم . والموقفان سليمان من الناحية المنطقية ، مع ان كلتا فرنسا والمانيا ، تعترف بان المسائل المعلقة بين البلادين ، اذا استثنينا مسائل نزع السلاح ، لا تبعث على القلق ، اذا نظر الى العلاقة بينهما ، مجردة عن اشتباك المصالح الاوربية الاخرى . ولكن هذه النظرة المجرَّدة غير مستطاعة ، لان لالمانيا حدوداً غير الحدود بينها وبين فرنسا ، وفرنسا وايطاليا تريان ان لهما عند هذه الحدود مصالح حيوية

استطاعت اوربا ان تحتفظ بمواد معاهدة فرساي حتى الآن ، لان الدول الظافرة التي املت هذه المعاهدة ، متفوقة تفوقاً حربيًّا كبيراً على الدول المغلوبة . والاحتفاظ بها يظلُّ ممكناً اذا ظلت الدول الظافرة متفوقة من الناحية الحربية . فكل اتفاق على نزع السلاح ، يقضي على هذا التفوق ، يكون في نظر فرنسا ، خطوةً نحو الغاءِ معاهدة فرساي ، واذن يكون اتفاقاً لا تقبله فرنسا وحلفاؤها — ولعلَّ ايطاليا وانكلترا لا تقبلانهِ كذلك . وكل اتفاق على نزع السلاح ، يترك المانيا في مقام ثانوي من ناحية التسلُّح لا يقبلهُ الالمان . فاذا شاءَت اوربا ان تحلَّ مشكلاتها القائمة الآن فهي تحتاج الى مؤتمر سلام جديد تكون فيهِ مسألة نزع السلاح احد الموضوعات التي يعالجها . واذا كانت المانيا مقتنعة بان حلَّ المشكلات السياسية والجغرافية القائمة بينها وبين جاراتها يجب ان يكون بالمفاوضة السلمية ، لا بالقوة ، وكانت الدول الظافرة مستعدة ان تلاقيها عند منتصف الطريق ،

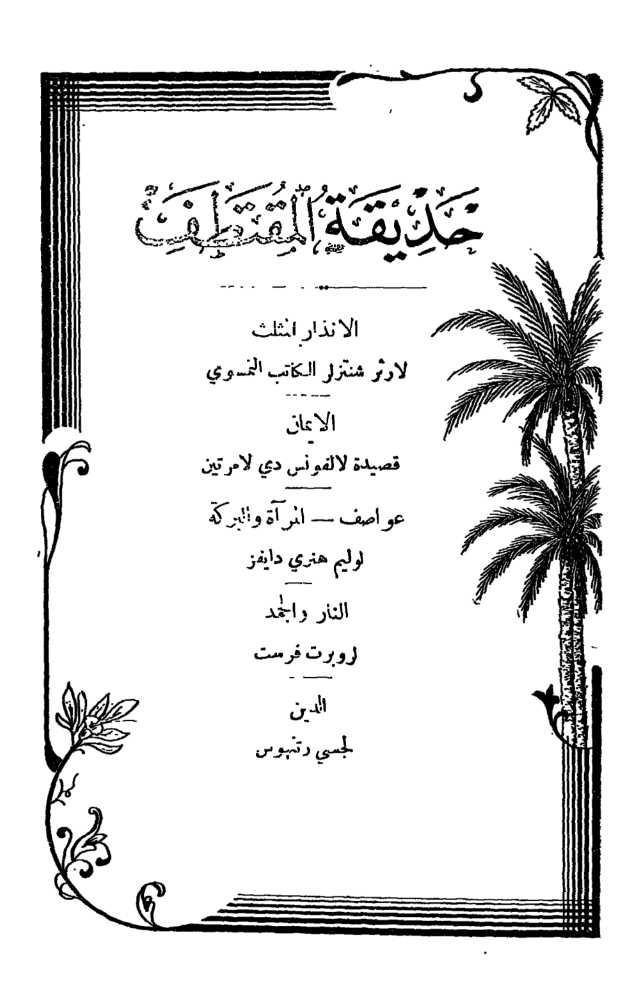
فالوصول الى اتفاق على نزع السلاح لا يزال ممكناً . ولكن الاوان لم يئن بعد ، اذ تستطيع الدول التي تعنيها هذه الامور ، ان تواجه الحالة بحزم واخلاص . وقد لا تستطيع ان تواجهها كذلك الاَّ وقد سبق السيف العذل . فاذا لم تُحلّ المشكلة قبل ان تتسلّح المانيا ، فاوربا سائرة لا ريب ، على الطريق المفضي الى حرب طاحنة ، الاَّ اذا قرّرت جارات المانيا ، ان تحارب المانيا قبل تسلّحها ، وتبطش بها قبل ان تشتدَّ وعندئذٍ تكون قد أجّلت الحلّ المعقول عشرين سنة الى ثلاثين

***

وقد كان لخروج المانيا من مؤتمر نزع السلاح ، اثر خطير ، في الخطة التي جرت عليها الحكومة الاميركية في نزع السلاح . كانت حكومة الولايات المتحدة ، حتى منتصف اكتوبر الماضي، قد تعاونت مع سائر الامم ، في البحث ، عن اساس فني technical للوصول الى قاعدة تصلح ان تكون اساساً لخفض السلاح وكذلك قدمت المسائل الفنية على المشكلات السياسية . فكان نزع السلاح ، غرضاً يطلب لذاتهِ . وكان المستر نورمن دايڤس قد سار شوطاً بعيداً في تحقيق خطة المستر روزفلت والمستر هوفر من قبله ، وهي الخفض المتبادل في الاسلحة والجيوش ، وبوجهٍ خاص الغاء المدافع الضخمة والدبابات الثقيلة الوزن وما من قبيلها مما يطلق عليهِ اسم « اسلحة الهجوم » . وارتبط ذلك التقدم بابتداع ، مبدإ الرقابة الدولية . لكي تحس الامم المخلصة في تنفيذ عهودها ان الدول الاخرى لا تتسلح سرًّا . فكان لكل ذلك اثر في احداث تعديل يسير في موقف فرنسا ، التي كانت لا ترضى من قبل ان تخفض سلاحها ، الاَّ اذا ضمنت سلامتها ، بمحالفات دفاعية ، وهو ما لم ترض بهِ الولايات المتحدة ولا الامبراطورية البريطانية

وكان الامل كبيراً في الوصول الى اتفاق معقول على هذا الاساس ، ما زالت المانيا راضية ، بأن تحقق طلب المساواة تحقيقاً متدرجاً عن طريق خفض سلاح الدول المتسلحة رويداً رويداً . اما بعد انسحابها من المؤتمر لانها لا ترضى بفترة التجربة ، وتطالب بحيازتها في الحال نماذج من الاسلحة التي لا يتم الاتفاق على الغائها الغاء شاملاً (وهو مطلب منطقي معقول) — فقد تحول موضوع نزع السلاح ، وصار يتعين على جارات المانيا ان تنظر في النهج الذي تسير عليهِ ، لا من حيث علاقته ، باتفاق عالمي على خفض السلاح او نزعه ، بل من حيث علاقته ، بموضوع تسلح المانيا خاصةً . وهذا ما لا تستطيع حكومة الولايات المتحدة الاميركية ان تشترك في بحثهِ ، لان على الدول الاوربية ان تقرر اولاً ، هل تترك موضوع التسلح للمقادير ، او تشهر على المانيا حرباً واقية ، او تقترح على المانيا مقترحات جديدة غرضها الوصول الى اتفاق . فاذا كان الامر الثالث ، فعندئذ تستطيع حكومة الولايات المتحدة الاميركية أن تستأنف اشتراكها مع حكومات الامم الاخرى في البحث عن افعل السبل إلى وضع الاتفاق المنشود

[بتصرف قليل عن مجلة الشؤون الخارجية للمستر دوليس العضو الاميركي في اللجنة التمهيدية لمؤتمر نزع السلاح ١٩٢٦]



حديقة المقتطف

الانذار المثلث

لارثر شنتزلر الكاتب النمسوي

الايمان

قصيدة لالفونس دي لامرتين

عواصف — المرآة والبركة

لوليم هنري دايفز

النار والجمد

لروبرت فرست

الدين

لجسي رتنهوس

الانذار الثالث

لارثر شنتزلر الكاتب النمسوي

« وعندَهُ مفاتحُ الغيبِ لا يعلمُها الاَّ هو ويعلمُ ما في البرِّ والبحرِ وما تسقطُ مِنْ ورقةٍ إلاَّ يعلمُها ولا حبَّةٍ في ظلماتِ الارضِ ولا رطبٍ ولا يابسٍ إلاَّ في كتابٍ مبين »

سورة الانعام : ٥٩

خرج الفتى والضباب يحجب وجه النهار الاَّ فتوقاً تنفذ معها اللمحات الى عنان السماء الزرقاء، وسار يطوي الارض الى الجبال وقد خُيّل اليهِ أنها تناديه ، وكان قلبه كأنما يرقص بين جنبيه على نغم الطبيعة المنسجم، فسار في السهول خليًّا لا يكبو به همٌّ فيما مضى او فكر فيما يستقبل ، فلما اشرف على طرف الغابة ابتدر سمعه دويٌّ صوت فيهِ خفاء البعيد ومسٌّ القريب فسمع نبأة خافتة توحي اليه

— لا تخترق الغابة ، يا فتى ، الاَّ اذا سرَّك ان تكون قاتلاً

فوقف الفتى ذاهلاً يتلفت ، فلما لم يجد حيًّا ولا ناطقاً ذهب به الظنُّ الى ان الجن كانت تحدِّثهُ وتهتف بهِ ، ولكنهُ لم يعبأ بذلك لما جُبِل عليه من الجرأة والثبات فمضى لا يلوي على شيءٍ الا انهُ وضع من سرعة سيره — اذ استيقظت فيهِ غريزة الاحتراس فكان يستعدُّ للقاء ذلك العدوّ المجهول الذي انذره .... لم يلق الفتى احداً في سيره ،ولا سمع صوتاً يقذف في روعه بالريبة حتى نفذ من ظلال الاشجار الى الفضاء الرحب وهناك في برد الظلال ألقى العصا وجلس يستجمُّ ويَستَروِح واستقرَّ ببصره على المروج الفيحاء الممتدة الى سفوح الجبال ، وقد نهدت بين هذه السفوح قمة شامخة جرداء ناتئة الاضراس وكانت هي الهدف الذي يرمي باشواقه اليهِ

لبث هنالك ما شاء ، وما كاد ينهض حتى سمع نأمة صوت كأنهُ قريب بعيدٌ معاً يوحي اليهِ في جدٍّ وحرارة

— لا تخترق المروج ، يا فتى ، الا اذا سرَّك ان تجلب الدمار على وطنك

وكان ما بين جنبه من الكبرياء والتَّقحُّم أبى عليه ان يعبأ بهذا النذير، فابتسم لهذه التبرُّهات الباطلة التي يوحي اليهِ بها الهواء ، وكأنها تنطوي على أمرٍ ذي بال ، واسرع

الفتى يتدفّق في سيره ، وما يدري أيستحثهُ القلق أم يستفزّه الجزع ، فلما بلغ مواطىء ذلك العملاق الصخري الذي رمى اليه بنفسه كان الليل قد ارخى ستوره على المرج . وما كاد الفتى يطأ الصخر حتى راعه ذلك الصوت القريب البعيد ، يقول في تهديد غامض

— على رسلك ايها الفتى والا لقيت الحتف

فقهقه الفتى ثم مضى مسرعاً لا يتردد ، وكان كلما استوعرت مسالكه ومطالعه امتلأ صدره بهواء الجبل اللطيف ، فلما بلغ القمة كان نور الشفق يتلألأ على هامته ....

« ها أنذا » يرسلها بصوت الظافر «ان يكن هذا امتحاناً منك ايتها الروح الصالحة — او ايتها الروح الشريرة — فها أنا قد فزت وبلغت لم ارتكب جريمة قتل تلوث قلبي اوضميري، وها هو وطني ينام في ظلال الامن والعزة ، واما انا ايتها الروح — فما زلت حيًّا ينبض قلبي بالحياة ... فكن لِمَن تشاء ايها الصوت فأنا اقوى ممن ارسلك اذ لم أومن بك ولقد احسنتُ» . واذا بصوت كقاصف الرعد يجلجل من جوانب السماء ، وكأن قصفه في اذنيه

— اخطأت يا فتى اخطأت

وقعت هذه الكلمات ثقيلة عليه فلم يطق حملها ، واستلقى على حافة الجبل ليجد مَسَّ الراحة واخذ يجمجم بهذه الكلمات ، وقد لوى شفته ساخراً

— أَراني قد اقترفت جريمة قتل ولا علم لي بما جنيت ! ! فدوى الصوت

— ان قدمك الغافلة قد ازهقت روح دودة من دود الارض

فأجاب الفتى مستخفًّا ساخراً — الآن فهمت، فليس النذير من الارواح الصالحة او الشريرة وانما هي روح متهكمة ساخرة تستروح الهزل، وما كنت اعلم ان مثلها ممن يطوف بنا نحن ابناء الموت فدوى الصوت اخرى على رِزَق الشفق المتهدِّلة على الافق

— ألست انت ذلك الفتى الذي كان يطوي الارض هذا الصباح ؟ ألم يكن قلبك يرقص بين جنبيك على نغم الطبيعة المنسجم ؟ ، فالآن أرى قلبك استحجر فلم يعد يهزّه حزن شيء او فرحه . . ، وان كان دودة من دود الارض

— « أههنا غُرتَ ؟ » يقولها وقد تغضّن جبينه . «ان يكن ذلك فأنا مجرم بل مجرم يحمل اوزار الف جرم ، ومثلي في ذلك مثل سائر البشر أبناء الموت الذين يطؤون باقدامهم الغافلة احياء لا تعد فيزهقون بذلك ارواحها

— وأنت قد حُذِّرت عاقبة ما اجترحت من الخطيئة ، فهل تدري ماذا تقع هذه الدودة التي قتلت من نظام الكون . فحنى الفتى رأسه وقال

— لما كنت لا اعلم موقعها من نظام الكون ، ولا استطيع ان اعلم ذلك ، كانت

الجريمة واقعة ولا شك . فأنا في تجوالي قد اقترفت هـذه الجريمة وهي واحدة من عدة جرائم اجترحتُها...كنتَ تستطيع ان تحذرني عاقبتها ، ولكن كيف يكون اجتيازي ذلك المرج ، كما تقول ، سبباً في جلب الدمار على وطني . هذا ما أريد ان تخبرني بأمره

فقال الهاتف — هل تذكر تلك الفراشة الزاهية الالوان التي رفرفت بأجنحتها من عن يمينك . فقال الفتى — رأيت فراشاً كثيراً غير التي ذكرت

— أجل ! فراشاً كثيراً ، ان أنفاسك حادت بهذا الفراش عن طريقه ، غير ان الفراشة التي أعني ، ذهبت ناحية الشرق ، وحملتها الريح حتى بلغت سياجاً ذهبيًّا يحيط بالحديقة الملكية في وطنك، فستلد تلك الفراشة ويخرج من ولَدها أُسْرُوع[1] ، ففي يوم من ايام الصيف المقبل ، يزحف هذا الاسروع حتى يقع على عنق الملكة البض فيوقظها من نومها مذعورة تنتفض حتى يسكت قلبها عن النبض ، وتموت وفي احشائها ثمرة الحياة من الولد . وكذلك يا فتى، يرث اخو الملك العرش وقد فقد الوارث من الولد الذي ازهقت انت روحهُ قبل ان يولد ، وأخو الملك هذا ظالمٌ مستبدٌّ جائرٌ . . . فسيحكم بجوره حتى يحلَّ بشعبهِ البؤس والشقاء ، ثم يحاول بعد ذلك ان يخلّص نفسهُ فيخوض بالبلاد غمرة حرب آكلة تجلب على الوطن الدمار....وما من ملوم غيرك ، أنت وحدك ، يا من ذهبت انفاسهُ بالفراشة الى المشرق فطارت فوق المرج حتى اجتازت ذلك السياج الذهبيّ الى حديقة الملك

فهزّ الفتى كتفيه استخفافاً وسخرية ثم قال :

— ايها الهاتف الخفيّ ، كيف لي ان أُنكر كل ما تتنبأُ بهِ . لا ، ما زالت الاحداث يستتبع بعضها بعضاً في هذه الدنيا ، .. ومن ادنأ الاسباب تخرج أجلُّ الاحداث ، ومن اجلّ الاسباب تخرج اهون الاحداث !! كيف أُصدق هذه النبوءة وما زالت ثالثة نبوءاتك لم تتحقق ، وهي التي توعدني بالموت إذا أنا ركبت هذا الجبل

فدوّى الهاتف النذير « ان من ركب الجبل وجب عليهِ ان يهبط منهُ من حيث صعَّد فيهِ اذا ابتغى ان يعود الى الحياة الانسانية مرّة اخرى ، فهل فكرت في ذلك يا فتى ؟

فوقف الفتى ساعة وكاد يستقرُّ رأيهُ على ان يسلك السبيل الذي ينجيهِ الى سفح الجبل ولكنهُ خشى الليل المكفهرّ الذي يكتنفهُ وادرك ان الاخطار التي تحفُّ بهِ في التصويب من الجبل لا يكشفها عنهُ الا ضوء النهار وذلك لكي يحشد قوة فكره في تصويبه ولا يبعثرها في ظلام الليل... لم يجد الفتى بدًّا من ان يستلقي على الحافة الضيقة فاستلقى لايهم بحراك ، يستجلب بذلك النوم الذي ينشىء في بدنهِ القوة، الاَّ ان الفكر فيما هو فيهِ كان

(١) واحد الاساريع وهي دود حمر الرؤوس بيض الاجساد تنسلخ فتصير فراشة

يطرد عنهُ النوم. ففتح الفتى جفونَـه المتعبة، وأحس بقشعريرة تمشي في عروقهِ ورِعْـدةٍ تدبُّ في ظهرهِ . وكانت الهوَّة مائلةً بين عينيه، وطريقها هو الطريق الفرد الى الحياة . كان هذا الفتى قبل هذه الساعة، فتىً رابط الجأش راسخ القدم جريئاً ، اما الآن فقد انقلبت رباطة الجأش الى ريبة تنسلُّ الى قلبه فتفتُّ من جرأته وتزلزل من قدميه فكان ذلك سبباً في آلام لم يستطع تحملها ، فعزم لساعته ان يحاول ما لا بدَّ له منهُ ، فلا يبقى في عذاب من القلق والحيرة والاضطراب منتظراً اضواء النهار . نهض الفتى وهو يعدُّ نفسه للمغامرة غير منتظر نجدة ضوء النهار، نهض متحفزاً ليغلب خطر السبيل ويظهر عليه ،.. نهض ولكن كانت خطواته متزلزلة تتعثر !! فما كاد ينقل قدمه في ظلمة الليل حتى توَثَّـق من ان حتفه حتم لا يرد ، وان منيته قضاء مبرم . فصاح مغيظاً محنقاً

— ايها الهاتف الخفي ، يا من انذرني ثلاثاً ولـكنـي كذبته وأبيت ان اسمع له ، ايها الهاتف الذي اخشع له كما يخشع الضَـرَع لمن هو اقوى منه ، حدثني قبل ان انكبَّ على موارد الهلاك ... وخبرني من انت ؟

فدوّى الصوت وما يدري الفتى اهو يدوي في اذنيه ام في جنبات الفضاء المترامية

— لم يعرفني الى يومي هذا أحد من ابناء الموت ، والاسماء متعددة فمن آمن بالغيب سماني « القدر» ، ومن آمن بحماقاته سماني « الحظ » ، والمؤمنون يقولون « هو الله » ، اما الحكماء فيقولون «هو القوة التي كانت في البَـدْءِ وسوف تكون سرمداً بلا نهاية الى الابد»

فصاحَ الفتى وقد قذف الموت في قلبه جنون الحياة

اذاً فأنا ابرأ منك في ساعة النفس الاخير من الحياة ... اذا كنت كما يقولون — القوة التي كانت في البدء وسوف تكون سرمداً بلا نهاية الى الابد ، فقد كان من قـدَري ان يقع ما وقع .... أَنْ اخترق الغابة فاجترم خطيئة القتل ، وان اجتاز المرج فأجلب الدمار على وطني ، وان أُصَعّـد في هذا الجبل الشامخ لاستقبل الموت ، وكل هذا بعد تحذيرك اياي وانذارك . . . . فإمَّـا كنت تعلم ان انذارك لن يردني عما كنت فيهِ ، فلماذا اسمعتني كلامك وكلمتني ثلاثاً .. لماذا لماذا ..!! يا للسخرية. ألا فأخبرني في هذه الساعة المُـتَـصَـرِّمة الاخيرة وانا مضطر ان لا القي سؤالي الاَّ اليك ! لماذا .. لماذا .. !!

فكان الجواب الساخر القاسي ، قهقهة قاصفة تُـطـيف بمعانيها الاسرار ، ودَوّت اصداؤها في جنبات السموات التي لا ترى . وحاول الفتى ان يتـلـقَّـف الكلمات في قصف الضحك الاَّ ان الارض غالت بهِ وكأنْ قد انخسفت من تحت قدميه ، فهوى كما يهوي في اعماق لا غور لها الى ليل الزمان الذي كان وسوف يظل ابداً في مبدإ الاحداث ونهايتها

[افرغها في القالب العربي محمود محمد شاكر]

الايمان

قصيدة لالفونس دي لامرتين

ايها العَدَم ! ايتها الهاوية الصامتة الي خرجت منها ، وسأعود اليها ! لماذا تركت المرءَ يفلت منك ؟ فقد كنتُ انام في احضانك نوماً عميقاً ، لا تُزعجه أحلام ، ولا تخيفه يقظة ، نوماً هنيئاً وانا ملتحفٌ بالنسيان الابدي في ازلية اللانهاية ، دون ان ترى عيناي هذا النهار الزائف الذي امقُتُه ، وهذه الحياة التي لا أجد فيها غير شقاء يتكدَّس فوق شقاء ، والتعاسة تَزحم التعاسة

لقد شاءت الاقدار ان آتي الى هذا الوجود ، ولو خُيرتُ لآثرتُ البقاءَ في غياهب العَدَم ، ولكن أنّى للانسان أن يُؤبه لرأيه ، فقد حُكم عليه ان يرى الحياةُ ، ولا مردَّ لحكم القضاء

فما ذلك الشَفَق البادي لاول مرة ؟ وتلك اليقظة المضطَرِبة ، يقظة المخلوق الذي يجهل نفسه ، وهذا الفضاء الممتدُّ امامه ، وهذه النظرات العميقة ، التي يُلقيها الانسان مسائلاً السماوات ، وهذا الافتتان المُبْهَم ، والأمَل الذي يملأ الجوانح ؟ . . . . كل هذا يَبهرُ بصرهُ ، وهو لم يزلْ بعد على عَتَبة الوجود ، وفي فجر الحياة

سلاماً ايها المقرُّ الجديد حيث أَلقاني الزمنُ ، سلاماً ايتها الكُرَة الشاهدة ما يخبئ لي المقدورُ بين طيَّات الغيْب ، سلاماً ايها المصباح المقدس المغذّي للطبيعة ، وايتها الشمس الحبيبة الاولى لكل كائنٍ حيٍ ، سلاماً ايتها السماء الحاجبة وجه الخالق العظيم ، وانتِ ايتها الارض مهْد الانسان،لأ نتِ قصر مُنيف يقضي فيه الانسان حياته الفانية ثم ينحلُّ غلافه الى ذرَّات تندمج في ذراتك .

سلاماً ايها الانسان الآتي الى هذا العالم الفاني على كَرَه منك،انك خَدِيْني واخي وانتِ ايتها الكائنات ، يا اداة سعادتي وهنائي ، اذا كان ثمَّ هنائا وسعادة في هذا الوجود سيْري في الطريق الذي خُطَّ لك، غير عابئة بقلب يتألم، وآمال تتحطَّم ، فقد اضفتُ بمجيئي اليك ، فؤاداً الى تلك الافئدة الكسيرة ، وقلباً الى تلك القلوب المنسحقة

انه حُلم لذيذ ، يستأثر اللب ،ويستهوي المشاعر . ولكنه وا اسفاه ! لم يخرج عن كونه حُلماً ، فقد بدأ قريباً وانتهى وشيكاً ، لان الآلام المُبرّحة فتحت لي قبل الاوان ابوابَ القبر الذي يتطلع اليَّ ويدعوني ، فسلاماً يا يومي الاخير ، كُنْ لي أجملَ يوم اكتحلَتْ بهِ عيناي في رِحْلتي الارضية

لقد عشتُ ، لقد قطعتُ مفازةَ هذه الحياة،حيث تذبل دائماً تحت قدميَّ ، كل زهرةٍ من أزاهير الهناءة ، حيث دائماً الاملُ يخدع الاماني ، مظهراً لي السعادة في أفُقٍ خافق مضطرب ، حيث انفاس الموت الحارّة تجفف تحت شفتيَّ ، كل الينابيع العذبة الباردة

أرى غيري يذوب حسرةً على ما ولّى من حياته، فيلتمس من الماضي عَوْداً ، باكياً على فجر ربيعهِ الآفل ، نادباً الأوَيْقات التي اقتطعها الزمن من حياته ، كأن العيش بهجة وصفاء ، لا تعساً وشقاء . اما انا ، فلو ان القدَر بلغني مُنى النفس وامانيها ، وحَباني بالثراء والسؤدد والمجد واعطاني كل مفاخر العالم، ومنحني الحكمة والجمال والصيت الخالد ، لاعرضت عن هذه المِنَح غير آسفٍ ، لاني لا أصبو الى العيش في دنيا زائلة فانية ، تذبل ذبول وردة عندلفح السموم ، دنيا كل ما فيها مشوّش مُبْهم ، فالذكرى الخالدة تبلى فيها ويعفو أثرها ويوم الهناء لا تبزغ فيه شمس ، ولا يعقبه غد

ايها اللهيب الذي يفترسني ، ايها الروح ، اي شيءٍ انتَ ؟ هل ستحيا بعدي ، هل ستتألم اذا تركتك ؟ ايها الضعيف الخفي ، ماذا سيحل بكَ بعد هجري ؟ هل ستنضم الى مَشْعَل النهار وتندغم فيه ؟ اذ قد تكون شرارة ضئيلة من ناره ، او شعاعاً تائهاً يرتد اليه ويعود الى مصدره ، او عصارة نقية كوّنتها الارض ، او طيناً نُفِخَت فيه نسمة الحياة، او صلصالاً حيًّا مفكّراً . .ولكن ماذا أرى ؟ لِمَ ترتعد فرَقاً ؟ أتخشى العدَم وأنت تَتعب من الآلام ؟ أتخاف الحياة ثم ترتعد من الموت ؟

ايها اللغز الخَفيُّ ، من يحلّك ويفسّر أحاجيك ؟ عبثاً أصغي الى اصوات حكماء العالم فالشكّ قد تطرّق ايضاً الى هذه العقول الجبّارة ، اذ لم تخرج عن كونها مجبولة من صلصال كغيرها،فمنذ الفيْ سنة ونيّف أفنى سقراط عمره باحثاً منقباً،واحتذى افلاطون حذْوَه ، ولكن دون جدْوَى ، وها أنذا اليوم ، أسعى وابحث ، ومع ذلك لن افوز بضالّتي ، وستمضي الوف السنين،وبنو آدم يتخبطون في الظلام الذي نحن فيهِ،والحقيقة الشاردة بمنجاة من قبضة ايدينا، والله وحده يجمع كل اشعتها المتفرّقة

والآن وقد اوشكتُ ان أُغمِضَ عيني عن نور هذه الحياة، فلا اجد اقل أمل يؤاسيني في ساعتي الاخيرة ، فستسير رُوحي دون دليل ولا ضياء ، من ليل هذه الحياة الداجي ، الى ليل القبر الحالك ، حاملة الى العالم المجهول ، فضائلي دون امل . وآلامي دون ثواب

أجِبْني ايها القضاء الظالم الغشوم ، اذا كان ثمّ شيءٌ يسمى قضاءً ، اذ لي الحق المشؤوم ان ألعنَ شرائعك ، فبعد كَدّ النهار وتعبه ، يحق للاجير ان يأوي الى ظلال الراحة والهدوءِ ويتناول كراءه لكني بعد ما أنوءُ تحت حِمْل القدَر ، لا يكون

جزائي ، بعد مشقة الحياة وآلامها ، سوى الموت

ولكن بينما في يتنفس نتن الشك والتجديف ، وعيناي تنظران الى قبري وتبكيان على نفسي ، استيقظ فيَّ الايمان كأنهُ ذكرى لطيفة ، وألقى شعاعاً من الامل على مستقبلي الكالح ، فانعشني تحت ظل الموت ، وألهب قواي ، واعاد الى ايامي العتيقة ، شباب النفس وريعانها ، فصعدتُ تحت ضوء هذا المشعل المقدس ، من مغرب حياتي الى صباحها الضاحك ، وتجلّى امامي حظّ الانسانية جمعاء ، وتبدّى لناظريَّ نظام الكون البديع، وتسلسلُ اشيائه المنسجم ، وقرأتُ في صفحة المستقبل صواب الحاضر ، فأُغلق الاملُ ورائي ابواب العدم، فاتحاً الأفق لروحي النشوى ، ومفسراً بالموت لغز الحياة

وهذا الايمان الذكي ينتظرني على حافة القبر ، .. وافرحتاه ! لقد تذكرته :فقد حام فوق مهدي ، وهو الإرث الخالد لارض المعاد ، يتركه الآباء للابناء من جيل الى جيل، ويتقبّله عقلنا منذ يقظته الاولى ، عطية إلهية ، كما يتقبل الحياة ونور الشمس ، فهو اللبن المُغذّي للروح ، ينسكب من فم الأُمّ فيملأ جوانحنا ثقةً ، وقلوبنا املاً ، يتغلغل الى الانسان في فصله الغضّ ، فيشع نبراسه في الفؤاد قبل ان يتفتق الذهن ويعي العقل، والطفل في مهده لا يكاد يتلفظ بمخارج الكلام حتى يتمم قانونه السامي، فينمو في قلبه تحت رعاية الام الحنون، جنباً الى جنبٍ مع الفضيلة، ولا يشعر به حتى تتأصل جذوره فيُورِق ويثمر

حبذا لو جُعلت الحقيقة لهذه الارض ، فقد عُرضت على انظارنا منذ طفولتنا ، وتسلّلت الى نفوسنا من كل جهة عن طريق الحواس ، كما يتسلل الشعاع الطاهر من اللهيب السماوي ، فقد احاطت بنفوسنا منذ إنبثاق فجرها ، وانحدرت الى قلوبنا من مداركنا ، فانضمّت الى تذكاراتنا ، وذابت في اخلاقنا ، كحبّة مخصبة يدثّرها الشتاء ، فتنبت في افئدتنا طويلاً قبل ان تظهر ، حتى اذا جاوز الانسان صيفهُ المملوء اعصاراً ، برزت اغصانها وتفتحت اكمامها ، وأينعت ثمارها الإلهية الخالدة

ايتها الشمس السرية ، مصباح العالم الآخر أعيري عينيّ المطفأتين نورك الرمزي ، إنبعثْ من احضان العليّ ايها الشعاع المعزي ، أشرقْ في قلبي ايها الكوكب المحيي .. لهفَ نفسي ! ليس لي غيرُك في ساعاتي العصيبة ، فهذا العقل الانساني سراج ضئيل، يخبو كالحياة على اعتاب القبر ، فتعالَ لتحِلَّ محله ايها النور السماوي ، تعالَ لتفيض على جفوني يوماً لا سحاب فيه ، أعضني من الشمس التي لن اراها فيما بعد ، وأنر الأفق كما ينير كوكب المساء ، لأحظى بحياة سرمدية خالدة ، برهنها آجال وهنيهتها اجيال

[نقلها جورج نيقولاوس]

عواصف

وليم هنري دايفز

في عقلي عواصف ، تثور ساعات متواصلة
فتظل افكاري، حتى تمطرني العواصف بالكلمات
ازهاراً ذابلة او طيوراً واجمة حردة
فاعصفي يا عواصف وانشري ظلالك القاتمة
لانك اذا امطرتني بالكلمات ، تصبح افكاري
ازهاراً رواقص وطيوراً غردة مرحة

المرآة والبركة

وله ايضا

اذا نظرت في المرآة ، انحصر همي في نفسي
اما اذا نظرت الى البركة فلاجل ما فيها من العجائب
اذا نظرت الى المرآة رأيت رجلاً احمق
ولكنني ارى حكيماً اذ أنظر الى البركة

النار والجمد

روبرت فرست

يقول بعضهم ان العالم سوف ينتهي بالنار
ويقول البعض الآخر ، بالجمد
اما فيما عرفته من الشهوة
فأنا من مذهب القائلين بالنار
ولكن اذا فني العالم مرتين
فاظنني اعرف في البغضاء ما يكفي
للقول بان الجمد كافٍ لتدمير الارض

الدين

جي رتنهوس

دَيْني لك ايتها الحبيبة دين لا استطيع
ان اوفيه بنقد اية مملكة في يوم الحساب
فمن ذا الذي يستطيع ان يقدر دَيْنك
لمن يجعلك تحلم حين الاحلام كلها ذاوية
او يدفعك الى الانشاد اذ الاناشيد جميعها صامتة ؟



مملكة المرأة

الشقاء في الزواج

بسائط الفسيولوجيا : بناء الجسم وتغذيته

المرأة بين الغيرة والحب

عقل الطفل في تطوره

لاحمد عطية الله

ضغط الدم والصحة

بحث صحي مفيد

الشقاء في الزواج

اسبابهُ وتلافيها

انشئت في مدينة نيويورك جمعية ، جعلت غرضها البحث في شؤون الزواج في الولايات المتحدة الاميركية ، وتقصي خفاياها وتبويب ما تجمعهُ من الحقائق المتصلة بها ، واسداءِ النصيحة والمشورة للازواج الذين لا قبل لهم باستخدام محام يدافع عنهم او يهديهم سواء السبيل في المسائل القانونية. وقد كتب احد مديري هذه الجمعية مقالاً خصَّص فيهِ ، ما عرفه عن بواعث الشقاء بين المتزوجين كما استخلصها من حوادث الطلاق التي أخذ رأيهُ فيها

وعنده ان اهم اسباب الشقاء في الزواج تسعة وهي كما يلي : — تنافر الذوقين . تدخل الاقارب في شؤون الزوجين . الغيرة ويتلوها الاخلال بالشرف الزوجي . الاسراف والتقتير . وقلة ترتيب الزوجة . وفقد الشعور بالتبعة من احد الجانبين . والاختلاف في المعتقد الديني ... قال الكاتب

جاء مكتب شركتنا في احد الايام فتاة بهية الطلعة ، رشيقة حسنة الهندام ، وبعد تردد وتلعثم سردت لي حكايتها وطلبت مني ان اخبرها هل في امكانها الحصول على تصريح قانوني بالطلاق فسألتها ولكن لماذا تريدين ان تطلقي زوجك ؟ ألا يقوم بنفقاتك ؟

فقالت بل يقوم بنفقاتي ، ولكننا لا نستطيع ان نتفق في امر من الامور . فهو لا يفهمني فيحسبني من المتظاهرين بالعلم لاني احب المطالعة والقراءة، وانا أراه كثير التردد على الملاهي ولذلك قلَّما نجتمع معاً . واذا اجتمعنا فلا نستطيع ان نتحدث لان ما يلذُّ لي لا يلذُّ لهُ وما يلذُّ لهُ لا يلذُّ لي . وعلمت بعد ذلك ان زوجها دخلاً سنويًّا كبيراً فكان يعطيها منهُ ما يكفي نفقاتها ولا يعاملها معاملة فظة في حال من الاحوال وكان لهما ابن كان واسطة الاتصال بينهما الى زمن لكن حتى محبته لم تقوَ على ما بينهما من نفور فجاءت امه تطلب الطلاق

ان خير الوسائل لاجتناب الشقاء في الزواج ان يتأكد الزوجان انهما متلائمان في ذوقيهما وان هناك جامعة تجمع بينهما ويجب ان يعرفا ان الفرق كبير بين مقابلة الناس بعضهم لبعض في المجتمعات والاندية والحفلات وبين المعيشة البيتية الدائمة حيث يكشف عن حقيقة الاخلاق التي قد تسترها تقاليد الاجتماع وآداب السلوك

***

واذا كانت للمرأة عقيدة دينية تختلف عن عقيدة الرجل فالراجح انهما يختلفان يوماً ما وتتسع شقة الخلف بينهما اذا لم يتسع صدر احدهما ويحلّ التساهل فيهِ محل التعصب . فالغاية من الدين اسعاد

الناس ولكني عرفت اناساً بلغ منهم التعصب لعقائدهم مبلغاً استحلّوا معهُ هدم العائلة واشقاء اعضائها . وقد اتصلت بي قصة جرت حديثاً تبين العاقبة الوبيلة التي تنجم عن التعصب وتدخّل الاقارب في شؤون الزوجين وذلك ان فتاة اسكتلندية تزوجت رجلا من مذهب ديني غير مذهبها فمضت عليهما بضع سنوات وملاك السعادة يرفرف فوقهما وولد لهما ابنتان . لكن والدي الزوج كانا شديدي التعصب لمذهبهما وساءهما جدًّا ان يتزوج ابنهما فتاة من غير مذهبهما وما زالا ينقران على هذا الوتر امامه حتى استمالاهُ قليلاً عنها ثم جعلا يهزآن بها لانها لا تصلي كما يصليان وجريا على المقابلة امامها ، بينها وبين كنتيهما الاخريات وبالطبع كانا يفضلان اولئك عليها وكان زوجها ضعيف الارادة فلم يحامِ عنها كما كان يجب عليه واخيراً تخاصمت عائلتها مع عائلة زوجها فاتسعت شقة الخلف بين الزوجين وتلا ذلك انفصالهما فاخذت الزوجة ابنتيها وجعلت تشتغل لكي تعولهما

***

اما الغيرة فمن اصعب ما يلاقيه الزوجان وهي لا تدخل بيتاً الاَّ هدمتهُ لانهُ من اعسر الامور ان تتكلم كلاماً معقولاً مع من اوغرت صدره الغيرة وزد على ذلك فقد تدفع الغيرة الرجل او المرأة الى اعمال لا يتصورها العقل السليم

من ذلك اني كنت اعرف فتاتين من بيتين مشهورين كلفتا بحب شاب فخطب احداهما .وفي اليوم السابق ليوم العرس جاءت صديقات العروس الى بيتها يزرنها ويرين جهازها وكانت بينهن الفتاة مزاحمتها على خطيبها فجلسن يتحدثن ، ثم انصرفنا وبقيت هذه الفتاة مع الخطيبة واذا بالخادم يدعو الخطيبة من الغرفة فغابت عنها نحو ثلث ساعة ولما عادت اليها وجدت صديقتها قد مزقت كثيراً من اجمل اثوابها واغلاها وفي جملتها ثوب حفلة الاكليل غيرة منها . وقد بلغتني حادثة اخرى تدل على تأثير الغيرة وذلك ان امرأة كان لها زوج مصور كانت تقلقهُ بما يبدو عليها من مظاهر الغيرة لانهُ يصور فتيات ونساء بارعات الجمال وبلغت الغيرة منها انها ذهبت الى مكتبه فرأت فيهِ صورة بديعة لفتاة جميلة فأخذت دبوس قبعتها وجعلت تثقبها انتقاماً منها

وليس النساء وحدهنَّ اللواتي يقعن فريسة الغيرة بل الرجال مثلهن معرضون لذلك . ومن اسباب الشقاء في الزواج اختلاف العمر لان ذلك ينشأ عنه اختلاف في الاذواق والاميال . فمتى تزوج رجل طاعن في السن بفتاة لا تزال في ميعة الصبا فقل ان الشقاء على الغالب سائر في أثرها ولكن قلما جاءنا شاب تزوج من امرأة كبيرة السن يشكو منها وذلك لانه في الغالب يكون قد تزوجها لانها غنية فيقبل كلَّ ما يقسم لهُ في سبيل ذلك

***

ولا شك في ان الاسراف من جانب الزوج او من جانب الزوجة اكبر اسباب الشقاء في العائلة . جاءني شاب في احد الايام وقال « امرأتي تنفق اكثر مما اكسب وفي كل يوم يزداد الدين عليَّ »

فجربنا ان نساعده وبحثنا عن نفقات امرأته فوجدنا ان لها معارف على جانب وافر من الثروة وانها كانت تخجل ان تقتصد في أثوابها ما زالت في دائرتهم الاجتماعية . فجمعنا بين الرجل وامرأته في مكتبنا كما نفعل في امثال هذه الحوادث وبحثنا في الموضوع بصراحة تامة فقال الشاب لامرأته « انت تعلمين انك تنفقين فوق طاقتي وان عندك من الاثواب ما يزيد على حاجتك ولكنك تمضين في شراء اثواب جديدة» فأنّبها ضميرها وشعرت انها اذا استمرت على تلك الحال خسرت زوجاً فاضلاً فقبلت كلامهُ بسعة صدر وعادا الى بيتهما بعد ان عزمت ان تقتصد طاقتها

كذلك البخل والتقتير كالاسراف من اكبر اسباب الشقاء في العائلات . حدثتنا امرأة مسكينة لها سبعة اولاد ان لها زوجاً يتناول راتباً اسبوعيًّا قدرهُ ٣٠ ريالاً ويلزمها الاَّ تنفق اكثر من ريال واحد في اليوم على اعالة العائلة . وكان يعيرها اذناً صمّاء حينما كانت تجتهد ان تقنعهُ بان ريالاً لا يكفي ثمن الخبز لثمانية أنفار . فجمعنا بين الرجل وامرأته في مكتبنا واجتهدنا ان نقنعه بانهُ مخطىء في عمله فقال «ان النساء يطلبن نقوداً اكثر مما يلزم لهن . وقد عزمت عزماً قاطعاً ان لا أزيد قرشاً واحداً على ما اعطيها اياه فلا تراجعوني في ذلك» . لكننا رفعنا عليه قضية وحكمت عليه المحكمة بدفع معظم راتبه الاسبوعي الى امرأته لكي تعول تلك العائلة الكبيرة

***

لا شك ان الزواج من اعظم الامور شأناً في الحياة والذي يقدم عليه يجب ان يعرف ما يلقى عليه من تبعة في القيام بواجباته . مع هذا لا يندر ان ترى من ينظر اليه نظره الى وسيلة لهو او تسلية . عرفت امرأة قبل زواجها من أبهى الفتيات طلعة كثيرة الطلاب . ولكن ما لبثت بعد زواجها ان اخذ زوجها في طريق الكسل والخمول فعجز دخله عن القيام بنفقاتها وكانت ولدت ابناً فاضطرت امها ان تساعدها اولاً . لكن زوجها لم يهتم بها وبابنه على الاطلاق وفسدت اخلاقه من معاشرة الفاسدين . وفي احد الايام ترك بلده وسافر الى بلد آخر . ثم جاءت منه رسائل بانهُ بدأ عملاً هناك ولكنه لم يرسل نقوداً لامرأته ثم انقطعت اخباره فجعلت المرأة تشتغل لتعول ابنها وتكسوه وتعلمه ولا تزال تشتغل الى الآن. كل شاب كهذا يقدم على الزواج قبل ان يدرك ما فيه من التبعة والشأن الخطير يشقي امرأته وأولاده شقاءً مرًّا

ويجب على كل امرأة ان تكون لبقة مرتبة في لبسها وفي بيتها لأن الرجل الذي يعمل طول النهار يتوق ان يعود الى بيته في المساء فيراه نظيفاً مرتباً فيهِ وسائل الراحة فيلذ له البقاء فيه . واذا كانت المرأة عكس ذلك كره البقاء في البيت فيتولد النفور بينهما

قال الكاتب ولا اريد القارىء ان يفهم مما رويته ان الزواج كله شقاء بشقاء انما الغاية منهُ تمثيل العبرة من اختبار الناس بأمثال واضحة . واذا كانت امثال هذه الحوادث تعد بالالوف فالعائلات السعيدة تعد بالملايين

بناء الجسم وتغذيته

يحسُّ كل انسان انهُ يعرف الفرق بين الحيّ وغير الحيّ او الجماد . ولا ريب في اننا لا نلقى صعوبة ما في التفريق بين الكلاب والحجارة . او بين الطيور والورق الذي نكتب عليهِ من هذه الناحية . ولكن كيف نستطيع ان نعلم ان حبة الفول الجافة : حية او غير حية ؟ قد نعرف ذلك اذا زرعناها فاذا انتشت عرفنا انها كانت حية ، ولكننا لا نستطيع ان نفصل في ذلك من مجرد النظر فيها

وفي الغالب نعتمد على تحليل الكيماوي لان الكيماويين ما برحوا يحاولون من اقدم الازمة ، ان يحلّوا المواد الى عناصرها الاولى . وقد وجدوا انها اثنان وتسعون عنصراً وان بعضها نادر جدًّا . اما العناصر التي تدخل في تركيب الاشياء المألوفة ، فقد لا تزيد على عشرين عنصراً

فالسكر الذي نذيبهُ في الشاي ، والكحول الذي نشربهُ في الوسكي ، والغليسيرين الذي نطرّي بهِ اليدين والنشا الذي نطبخهُ في النشوية (البالوظة) والدهن الذي نقلو بهِ البيض ، كل هذه مركبة من ثلاثة عناصر ، هي الكربون والايدروجين والاكسجين . اما البنزين وما اليهِ فمركب من الكربون والايدروجين . وهذه المواد مركبة من اجزاءٍ مختلفة من عناصر واحدة . أما من حيث العناصر التي تدخل في تركيب الاجسام فلست تجد فرقاً بين الحيّ والجماد او غير الحيّ . فجانب من العصارة المعدية الهاضمة حامض ايدروكلوريك . وهذا الحامض فيها هو مثل الحامض الذي يصنع في المعامل من حيث تركيبهُ . وفي الدم حديد يحمرُّ او يصبح قرمزيًّا اذ يتحد بالاكسجين . وكذلك الحديد في الطبيعة يحمرُّ اذ يتحد بالاكسجين ، وهو الصدأ . والملح الذي يفرز في الدموع والعرق المتصبب من الجسم ، هو مثل الملح الذي نذرّهُ على الطعام

***

والمادة الحيّة ، مركبة من طائفة يسيرة من العناصر التي كشفها العلم وأهمها ، الكربون ، والايدروجين والاكسجين والنتروجين والكلسيوم والفصفور والكبريت والصوديوم والكلور والفلور والبوتاسيوم والحديد . وفي الجدول التالي نسبة ما في الجسم

من كل عنصر منها	النسبة
الاكسجين	٧٢ في المائة
الكربون	١٣ر٢ «

من كل عنصر منها	النسبة	
الايدروجين	١ر٩	في المائة
النتروجين	٥ر٢	»
الكلسيوم	٢٥ر٠	»
الفصفور	١٥ر٠	»
الكبريت	٠٢ر٠	»
الصوديوم	٣٠ر٠	»
الكلور	٠٨ر٠	»
الفلور	٠٨ر٠	»
البوتاسيوم	٠٢٦ر٠	»
الحديد	٠١ر٠	»

أما المغنسيوم والسليكون والنحاس والرصاص والالومنيوم فمقاديرها اقل من ذلك كثيراً

***

وهذه هي نفس العناصر التي نجدها عند حل الهواءِ والماءِ والصخور وما شاكل . فالجسم الحيّ مبني من نفس العناصر التي تركب منها الجوامد . ولكن لا بدّ من فرق بين الفريقين ، فما هو ؟

المركبات الرئيسية في الجسم

اذا حلّت المواد ، التي تبنى منها عمارة فخمة ، وجدنا عناصرها نفس العناصر التي في الجسم الحي.ولكننا اذا تكلمنا عن بناء عمارة ، لا نذكر العناصر ، بل المواد التي تركب من تلك العناصر ، كالحجارة والاخشاب ، وغيرها . كذلك اذا تكلمنا عن بناء الجسم ، فقلما نشير الى العناصر نفسها بل الى المواد او المركبات المبنية من تلك العناصر . وهذه المركبات الرئيسية اربعة هي الزلاليات (بروتينات) والنشويات (كربوهيدرات) والادهان والحيويات (فيتامينات) وعلاوة على ذلك لا بدّ من الماء والملح

الزلاليات مركبة من الكربون والاكسجين والايدروجين والنتروجين ، ويدخلها في الغالب مقادير يسيرة من الكبريت والفصفور ولا تخلو منها اجسام النباتات والحيوانات . ففي عدسة عين الانسان منها ٣٨٫٣ في المائة وزناً ، و١٦ في المائة من العضلات و١٢ في المائة من الكبد و٩ في المائة من الدم . وليست هذه المقادير باليسيرة كما يبدو لاول وهلة ، لان الجانب الاكبر من جسم الانسان ماءٌ . فاذا اخذت جسم الانسان جملة واحدة ، كان الماءُ فيهِ ٦٧ في المائة

الزلاليات وبناء النسج

لا بدَّ للجسم من المواد الزلالية . فاما ان يبنيها بنفسهِ او ان يستمدَّها من الاطعمة التي يتغذَّى بها . والمعروف ان الاول ، اي بناءَها بنفسهِ متعذر عليهِ ، واذن فلا بدَّ منها في غذائنا . وعليهِ لا بدَّ ان نتناول في طعامنا مقداراً كافياً من الزلاليات والاَّ متنا جوعاً بلغ ما بلغ مقدار ما نتناولهُ من الاصناف الاخرى . والجسم يحتاج الى الزلاليات في القيام بعملهِ ، وبوجهٍ خاص العضلات والدم . فالعضلات والدم تفقد في قيامهما بافعال الحياة ، جانباً كبيراً من المواد التي تتركب منها . فاذا لم نعوّضها ما تفقدهُ ضعفت وخارت . فالطعام المحتوي على المواد الزلالية ، لامندوحة عنهُ للجسم الحيّ

وقد نحصل على هذه المواد في اشكال مختلفة ، من الاغذية النباتية والحيوانية . فهي في اللحوم تدعى (ميوسين) وفي البيض (البومين : زلال البيض) وفي اللبن الحليب (كاسيين) وفي الحنطة (غلوتين) وفي الفول والعدس وما اشبه (لغيومين) ومع ان هذه المواد مختلفة الاسماء باختلاف مصادرها ، الاَّ انها متشابهة في تجهيزها الجسم بما يحتاج اليهِ من الزلاليات لبناء النسج وتعويضها مما تفقدهُ منها . وقد يُظَنُّ ان « الزلاليات » المستمدة من مصادر حيوانية اشبه بزلاليات الجسم ، التي تحلُّ محلها ، من زلاليات المصادر النباتية . وهذا صحيح الى حدٍّ بعيد

المرأة بين الغيرة والحب

وقف الرجل والمرأة في تاريخ الماضي وحوادث الحاضر والحكايات والروايات مواقف لايشتهيها احد لعدوٍ فضلاً عن صديق — وقفا بين عاملين قويين تنازعاها وتجاذباها كقطعة حديد بين مغنطيسين متساويين في القوة لا يقوى احدهما على جذبها اليهِ الاَّ اذا قلَّت قوة الآخر او صارت اقرب اليهِ منها الى الآخر

ففي تاريخ الماضي وقف بطرس الاكبر بين عاطفتين شديدتين حبّ بلادهِ وحبّ ولي عهدهِ فقدم الاول على الثاني لما رأى ان حبّ ولي عهدهِ على ما كان بهِ من السفه والطيش والعناد يجرُّ على البلاد الخراب والدمار فامر بقتلهِ برًّا بوطنهِ

وفي تاريخ الحاضر ذكروا ان امرأة يابانية كانت متزوجة بروسيّ فلما نشبت الحرب بين الروس واليابانيين باتت كمن بين نارين فاما حب الوطن واما حب الزوج فقدمت الاول قائلة الزوج والاولاد فداءُ البلادِ وهجرت بيتها برًّا بشعبها

وفي الحكايات ان ملكاً حُكم على ولي عهدهِ بقلع عينيه فاما ان يعفو عن ابنهِ فيسخط العدل

ويرضي الرحمة او ان ينفذ الحكم فيهِ فيرضي العدل ويسخط الرحمة ويحرم ابنهُ لذة بصرهِ فاختار الثاني ولكنهُ فقأ عيناً من عيني ابنهِ وعيناً من عينيهِ فوقف بين العدل والرحمة بما يرضيهما كليهما

وفي الرواية المعروفة باسم « غرام وانتقام » وقف بطل الرواية بين حب معشوقتهِ والانتقام من ابيها قاتل ابيهِ فاختار الثاني دون الاول ولم يمنعهُ هوى حبيبتهِ عن الاخذ بالثار ازالة للعار

***

ومن اجمل ما ذكر من امثال هذه النوادر ما ورد في بعض المجلات من ان فتاة اوقفت موقفاً حرجاً بين حب حبيبها وبين الغيرة عليهِ من بنات جنسها . ومتى عرفت ان الغيرة اظهر صفات المرأة واقوى العواطف المتسلطة عليها ادركت حرج موقفها وشدة حيرتها . وتحرير الخبر ان اميرة حبشية احبت فتىً من رعايا ابيها فلما درى الملك بذلك استشاط غيظاً وحكم على محبوب ابنتهِ بان يقاد الى مشهد لهُ بابان مقفلان داخل احدهما وحش كاسر وداخل الآخر فتاة جميلة . ثم امره بان يفتح الباب الذي يختاره فاذا كان وراءه الوحش مزقهُ ارباً او كان وراءه الفتاة زوجهُ اياها حالاً واطلق سبيله وعفا عنهُ

فحار الفتى في امره وادار نظره في جمهور المشاهدين حوله فوقعت عينهُ على عين الاميرة حبيبتهِ وكانت هي وحدها تعلم ما في كلٍّ من الغرفتين فأشارت اليهِ ذات اليمين ففتح الباب الذي هناك وماذا لقي —

***

هذه هي الحكاية وقد طلبت المجلة من قرائها ان يكتبوا اليها آراءهم في المسألة — هل دلت الحبيبة على الباب الذي كان الوحش وراءه فلقي حتفهُ او دلتهُ على الباب الذي كانت الفتاة الجميلة وراءه فتزوج بها . وبعبارة اخرى هل تغلب حب الاميرة لحبيبها على غيرتها من الفتاة الجميلة التي اختارها ابوها ليزوجهُ اياها فدلتهُ على الغرفة التي كانت الفتاة فيها فتزوجها . او تغلبت غيرتها على حبها فدلته على الغرفة الاخرى حيث افترسهُ الوحش الضاري مفضلة موتهُ على تزوجهِ بفتاة اخرى غيرها

***

فلبى الكتّاب دعوتها رجالاً ونساءً وتباروا في هذا الميدان فانقسموا فريقين فمن ذاهب الى ان الاميرة دلت حبيبها على باب نجاتهِ ومن ذاهب الى انها دلتهُ على باب حتفهِ . واكثر الكاتبات من الاول وحجتهن في ذلك انهُ وان تكن الاميرة حبشية وليست على درجة سامية من التمدن والحضارة فانهُ لا يهون عليها ان ترى حبيبها يمزق ارباً امام عينيها . وهاك بعض ما قيل دفاعاً عن المذهب الاول . قالت احدى السيدات : —

في رأيي ان الاميرة دلّت حبيبها على الباب الذي خرجت الفتاة منهُ لانها اذا كانت مخلصة في حبها لهُ ضحت بكل شيء لتفتديهُ وتنقذه

وقالت اخرى انهُ وان كان اقتران حبيب الاميرة بغيرها مما يهيج كوامن غيرتها الى حد الجنون

الاَّ انها لا بدَّ ان تكون قد قالت في نفسها ما دمت على قيد الحياة ففسحة الامل واسعة امامي . ولا يبعد ان تفعل كلَّ ما في وسعها بعد ذلك للفصل بين حبيبها ومناظرتها اما بابعادها الى خارج البلاد او بواسطة اخرى

***

وقال كاتب ارى ان الاميرة عقدت نيتها على انقاذ حبيبها فلا تفقده بوقوعهِ بين براثن الوحش المفترس وان كان انقاذها لهُ يعد خسارة لها من جهة اخرى باقترانهِ بفتاة غيرها . والسبب في عقدها النية على انقاذهِ علمها انهُ وان تزوج غيرها لم يفتإِ العمر عن ان يحلها المحل الاول من قلبهِ وهــذا مما يعزيها لانهُ ما من شيء تطمح المرأة اليهِ في هذا العالم الفاني اعظم من ان يكون لهــا المقام الاول في قلب رجل قوي الارادة كريم الاخلاق . وهي لا تخشى ان تفقد مكانتها عنده علماً منها بميل الرجل ميلاً فطريًّا الى الارتقاء في المناصب . ثم انها تؤمل ان تموت زوجتهُ فتتزوجه بعد موت ابيها وهذا الامل يوسع مجال العيش في عينها ويمكنها من احتمال المحنة بالصبر والسكينة

وقال آخر ان الغيرة قد تكون اشدَّ من الحب ثورة ولكن الحب يتغلب عليها اخيراً فلو كانت الفتاة قد اجتذبت حبيب الاميرة اليها بمحاسنها وفتنتهُ عنها بدهائها وحيلها لتغلبت الغيرة على الحب وهو لم يسيء اليها وانما اساءَ اليها ابوها بالحكم الذي حكم بهِ على الشاب

***

وهاك بعض ما قيل دفاعاً عن المذهب الثاني . قالت احدى السيدات

لا ريب عندي ان الاميرة دلَّت الشاب على باب الهلاك لانها حبشية نزقة الطبع فائرة الدم لا تطيق ان ترى ضرة لها شأن الاميرات غير المتمدنات ولو كانت متمدنة لكان الامر على خلاف ذلك

وقال كاتب لقد علمت باختبار احوال الناس وسبر قلوبهم وخصوصاً قلوب النساءِ ان الحب والغيرة اسمان لمسمًّى واحد . وكثيرات من النساءِ يفضلن ان يرين احباءَهن امواتاً على ان يتزوجوا غيرهنَّ اذ لا بغض اشدَّ من بغض المرأة للمرأة فلا غرابة اذا سلَّمت الاميرة حبيبها الى الهلاك عفواً واعتباطاً . وقال آخر ان غيرة المرأة اشدُّ وطأة من حبها

***

ومن الكتَّاب من مزج المزح بالجد فقال ان الاميرة دعت مدير معرض الحيوانات اليها وطلبت منهُ ان يضع في احدى الغرفتين نمراً كان حبيبها قد رباهُ وعلمهُ الصراع وصارعهُ مراراً في الميدان امام ابيها وغيرهِ من المشاهدين . فلما أُطلق عليهِ لم يمسَّهُ بسوءٍ بل جعل يدور حولهُ متودداً اليهِ ثم انقلب على جنبهِ كأنهُ ميت . فلما رأى ابو الاميرة ذلك دهش فزوج الشاب ابنتهُ باحتفال حافل



— ٢ —

﴿ معنى الطفولة ﴾ يطلق لفظ الطفولة على الدور الذي يتراوح بين العام الثالث والثاني عشر من حياة الانسان . ولكن ليس هذا التحديد قاطعاً . لانهُ مبني على وجهة نظر خاصة ، واذا نظرنا اليهِ من ناحية اخرى اختلف مدى هذا التحديد . لهذا نرى البعض يجعل الولادة هي بدء عهد الطفولة . فالطفولة تبدأ من العام الاول وليس من العام الثالث في رأي بعضهم

والاختلاف اكثر وضوحاً في الحد الاخير . فالبعض يمد عهد الطفولة الى دور المراهقة او البلوغ وهذا يكون عادة في الرابعة عشرة . كما ان من الباحثين من يمد هذا الدور الى ما بعد السنوات الاربع التي تلي ذلك بما لها من علاقة نفسية وجسمية بعهد المراهقة

وتحديد دور الطفولة او مراحل حياة الانسان ، عملية اصطناعية مبنية على غير اساس طبيعي . لان حياة الانسان وحدة لا تنقسم الى اجزاء او ادوار مستقلة مفككة ، لكل منها مميزاتها وطبائعها ولكن هذه المميزات مختلطة متداخلة لا يمكن تحديد ابتداء ظهورها او انتهائها

فتحديد دور الطفولة قد يبنيه البعض على المميزات الجسمية التي تميز بها هذه الفترة من حياة الانسان ، كنمو بعض اجزاء الجسم (الاسنان مثلاً) او عدم ظهور البعض الآخر (شعر العارضين) وقد نبني هذا التحديد على اساس المميزات النفسية التي تشكل سلوك الانسان في هذه الفترة ، وهذا الاساس له شأن خاص في دراسة سيكولوجية الاطفال

ومن ناحية اخرى قد نجعل نهاية دور الطفولة ، استقلال الانسان بنفسه في الحياة ، استقلالاً اقتصاديًّا . ولكن هذا بطبيعته يختلف باختلاف بيئة كل طفل ونوع الحياة الاجتماعية التي يعيشها هذا من ناحية اقتصادية . اما من الناحية الاجتماعية ، فرجال الاجتماع والقانون يجعلون اساس هذا التحديد قدرة الطفل على حمل المسئولية الاجتماعية، كالمحافظة على القوانين او الانخراط في سلك الجندية

﴿ مميزات الطفولة النفسية ﴾ ومع وجود مثل هذه الاختلافات في تحديد نهاية دور الطفولة ، الاَّ ان هنالك من المميزات الجسمية والنفسية ما يجعل الرجل العادي يفرق بين سلوك الطفل وسلوك البالغ . ومعرفة هذه المميزات العامة ، والمميزات التي تنفرد بها كل سنة من سني الطفولة لازمة لمن يتصل بالاطفال ، اباً كان أم معلماً

سلوك الاطفال يتأثر تأثراً كبيراً باستعداداتهم الفطرية وأهمها الغرائز . فالطفل لا يستقر هنيهة في مكان لانه منساق الى ذلك بطبيعته للحركة ، والطفل اميل الناس الى الاستطلاع للاشياء المجهولة لتأثره بغريزة حب الاستطلاع . فالفرق بين سلوك الطفل والرجل ان هذا الاخير متأثر بتجاربه وبتفكيره ، وبالتقاليد الاجتماعية التي نشأ في وسطها ، فبذلك تهذبت لديهِ هذه الاستعدادات الفطرية التي نراها واضحة في الطفل

واستعدادات الطفل العقلية بوجه عام قاصرة محدودة . فانتباه الاطفال غير مستقرّ وملاحظتهُ للمؤثرات الخارجية غير دقيقة ، لذلك كان من الصعب على المعلم في الفصل ان يجذب انتباهه للدرس مدة طويلة . كما ان الادراك الحسي عند الاطفال قاصر ، وذلك لان الادراك يعتمد على تربية الحواس وهذه بطبيعتها تنمو بالمرانة

ومن مميزات الطفولة شدة الخيال ومرونته . حتى ان الخيال كثيراً ما يكون سبباً لكثير من الاستنتاجات الخاطئة التي يصل اليها بنفسه . او قد يجره الخيال الى ما نعتقد انهُ ذنوب واخطاء كالكذب والاختلاق . لان تحت تأثير خياله المرن لا يفرق بين ما تسترجعهُ ذاكرته وبين ما يتخيله

﴿ تفكير الطفل ﴾ والتفكير عند الطفل غير منعدم ولكنه قاصر . لان الاستنتاج او الحكم على الاشياء يحتاج الى مادة متسعة من تجارب الشخص وهذه بطبيعتها ضيقة عند الطفل . والطفل ليست له القدرة على تحليل الاشياء المركبة . او تصور الاشياء المعنوية التي يعتمد عليها البالغون كثيراً في حياتهم . كما ان شعور الطفل بانه غير مسئول اجتماعيًّا يقلل من اهتمامه بالتفكير المنظم

﴿ النزعة الدينية ﴾ ليس لنا ان نحكم عليه بانه دين تقي او انه شرير اباحي . لأن جل هذه المعتقدات الدينية تثبت في نفس الطفل بالتلقين . ولكن من المشاهد ان الطفل يندفع بطبيعته الى كثير من الاعمال التي نقول عليها بانها (انسانية) كميله الى مساعدة الاطفال الآخرين او الاشتراك معهم في اعمال او كميله لاحترام ابويهِ . ومن كان اكبر منه سنًّا ، او كميله للعطف على الحزين والفقير

وهذه النزعة الدينية تظهر واضحة جلية في حياة الطفل فيما بعد لا سيما وانها متصلة بالانفعالات التي تصاحب كل غريزة من غرائزه ، لذلك كان سلوك الطفل ليس فيه محلّ للمصانعة او المداهنة . فهو يبكي حين يشعر بالالم، ويغضب اذا اعتدي عليه ، ويظهر الدهشة اذا رأى غريباً ويظهر الامتعاض اذا رأى قبيحاً

المقال الثالث

طرق دراسة الطفل

المقال الرابع

النمو الحسي عند الاطفال

المقال الخامس

تطور عقل الطفل في السنة الاولى

ضغط الدم والصحة

بحث صحي مفيد

يقاس ضغط الدم كما يقاس ضغط الهواء بأنبوب دقيق مفرغ من الهواء قائم في حوض من الزئبق فيرتفع مستوى الزئبق في الانبوب او ينخفض بزيادة الضغط او قلته . هذا هو المبدأ الذي بني عليه قياس ضغط الدم وقد استنبط المستنبطون آلة اقرب تناولاً واسهل استعمالاً من الانبوب الدقيق والزئبق يستعملها الاطباء في فحص مرضاهم

فارتفاع الزئبق في انبوب كهذا حينما يكون ضغط الدم طبيعيًّا ١٢٠ مليمتراً للرجال في العشرين من العمر و١١٠ ملمترات للنساء من العمر ذاته . وضغط الدم في النساء عشر ملمترات اقل منهُ في الرجال اذا تساوى العمر ، وكلما تقدم الانسان في العمر زاد ضغط دمه بمتوسط ملمتر واحد في سنتين . فاذا كان الضغط الطبيعي ١٢٠ ملمتراً في سن العشرين للرجال بلغ ١٣٠ ملمتراً في سن الاربعين و١٤٠ ملمتراً في سن الستين . وقد يختلف ضغط الدم عن المتوسط الطبيعي في احد الناس من غير ان يكون خارقاً للعادة فقد يزيد ١٥ ملمتراً عن المتوسط الطبيعي او ينقص عنهُ كذلك . وقد لاحظ كثيرون من الاطباء ان الذين يعيشون عيشة معتدلة غير معرضين للنوبات العصبية لا يزيد ضغط دمهم الزيادة الطبيعية بتقدم السن اي ملمتراً كل سنتين بل قد يبقى ضغط الدم في بعضهم مدة عشر سنين او اكثر في مستوى واحد لا يزيد الزيادة الطبيعية . وهنالك عوامل اخرى غير السن والجنس تؤثر في ضغط الدم اهمها السمن والمزاج وحالة الهضم وقوة العضلات ومقدار التمرين الرياضي والتعب والنوم والخوف والتهيج العصبي والتغيرات الجوية . فكل هذه العوامل قد يكون لها أثر ظاهر في ضغط الدم ولكن هذا الأثر يزول في الغالب بزوال الباعث عليهِ .

على ان الامر الذي يجب الانتباه لهُ هو ان ضغط الدم المزمن حالة غير مُرْضية من الوجه الصحي بل قد يكون منها خطر كبير على الحياة لانها مصدر لكثير من العلل فارتفاع ضغط الدم المزمن مرتبط كل الارتباط بالصداع المزمن وداءِ النقطة وضعف القلب ومرض بريط « التهاب نسيج الكليتين » والارق وسوء الهضم والاحتقان المزمن وبعض انواع الخلل العقلي

وعليهِ يجب ان ننظر في الاسباب التي تؤول الى ارتفاع ضغط الدم فنزيلها ومتى زالت زالت كل نتائجها السيئة او جلّها

اسباب ارتفاع ضغط الدم

اختلف الاطباء في الاسباب التي يعزى اليها ارتفاع ضغط الدم ولذلك سنذكر فيما يلي كل العوامل التي يحسبها الثقات من الاطباءِ اسباباً في ارتفاع ضغط الدم وهي : —

١ — الادوية والمخدرات ٢ — الاكثار من الطعام ٤ — التعرّض للبرد والمرض
٥ — الاجهاد ٣ — السموم ٦ — الحالة العقلية والنفسية

١ — اذا اعتاد احد استعمال دواءٍ من الادوية او مخدّر من المخدرات فعادتهُ هذه تؤدي بهِ مباشرة او غير مباشرة الى ارتفاع ضغط دمهِ . وبعض الثقات يرى ان عادة تناول المخدرات لا تقتصر على تناول مخدر واحد بل لا تلبث ان تحمل صاحبها على تناول مخدر ثانٍ فعلهُ عكس فعل الاول . فتناول الكوكايين مثلاً يرفع ضغط الدم ويحدث توتراً في الاعصاب فيلزم حينئذٍ تناول مخدر آخر كالمورفين الذي يخفف ضغط الدم ويزيل التوتر

ولهذه العقاقير آثار سيئة في الجهاز العصبي والجهاز الهضمي والكبد والكليتين وهذا وحدهُ كافٍ لصرف الناس عن تناولها . فاذا مرض احدهم وشعر بلزوم تناول دواءٍ من الادوية فخير لهُ ان يدعو طبيباً وحينئذٍ يتناول ذلك الدواء باشارة الطبيب اذا لزم الامر

والمشروبات الروحية في الغالب تحدث شعوراً مخالفاً للحقيقة فاذا شربت مشروباً الكحوليًّا شعرت بحرارة اذا كنت بارداً وبقوة اذا كنت ضعيفاً وبغنى اذا كنت معدماً ومن نتائجها المباشرة خفض ضغط الدم ولكن لا يلبث هذا الاثر ان يزول فتشعر بالبرد والضعف والفقر اكثر مما كنت تشعر بها قبلاً . على ان أهم النتائج التي تبقى آثارها في الجسم من ادمان المشروبات الروحية تصلب الشرايين وخصوصاً الشرايين الدقيقة في الدماغ والكليتين

٢ — الغذاء : للغذاء شأن كبير في زيادة ضغط الدم . قال احد الاطباءِ : كلما جاء اليَّ مريض يشكو من ارتفاع ضغط دمهِ احسب السبب « كثرة الاكل » الى ان يثبت لي ان السبب أمر آخر. فلقد وجدت في كثير من الحوادث ان مجرد الاكثار من أكل اللحم يزيد ضغط الدم

ولم اقتنع حتى الآن ان الاكتفاء بالخضراوات دون غيرها من مواد الغذاء خير من غذاء يحتوي على قليل من اللحم وكثير من الخضراوات والفواكه . ولكن يحسن في بعض الاحيان ان يتوقف الانسان عن اكل اللحم شهراً او شهرين . وان يقلل من اكل البيض والخبز . والقاعدة التي لا مناص من اتباعها هي ان المصاب بارتفاع ضغط الدم يجب ان لا يكون نهماً اي لا يأكل فوق حاجتهِ

شاعت منذ سنوات بين الناس « موضة » الاهتمام بمضغ الطعام مضغاً جيداً وهذا امر يجدر بمن ضغط دمهِ فوق المتوسط الطبيعي ان يجري عليهِ قبل كل احد لان مضغ الطعام يكفي القابلية بقليل من الطعام فلا يتعرض الآكل لتناول ما هو فوق حاجتهِ . ويعتقد بعض الاطباء ان التوابل والبهارات تزيد ضغط الدم وتسبب تصلب الشرايين وغير ذلك من الادواء . قد يكون ذلك صحيحاً وقد لا يكون انما الامر الذي لا ريب فيهِ هو ان اكل التوابل والبهارات يهيج القابلية فيأكل الانسان فوق الشبع والاكل فوق الشبع من أهمّ الاسباب الباعثة على زيادة ضغط الدم

٣ — التسمم : بعض الباحثين في اسباب زيادة ضغط الدم يقول ان من اسبابهِ التسمم الذاتي

الناجم عن خلل في نظام الهضم فتتجمع السموم في الجسم من جراء ذلك والاطباء فريقان في النظر الى هذا الامر . قال الدكتور سدلر الاميركي لو كنت مصاباً بزيادة ضغط الدم لكنت اهتم بجعل حركة الامعاء منتظمة مرتين في اليوم ولا اترك مجالاً لاختلال الهضم وتجمع السموم في الاعضاء

٤ و ٥ — التعرض والاجهاد : لا شك ان نظام الحياة العصرية بما فيها من السعي المتواصل ، والمزاحمة الشديدة والسرعة التي نتوخاها في كل عمل من الاعمال تؤثر في الجسم وتنهك قواه ، ومن نتائجها الظاهرة ازدياد ضغط الدم في كثير من الناس . اضف الى ذلك التعرض للبرد وعدم الاهتمام بالعلل البسيطة وهما يسيران عادة جنباً الى جنب مع الاجهاد

يذكر الاطباء كثيراً في كتاباتهم واقوالهم «العدوى المركزية» التي تكون في اللوزتين وجذور الاسنان . ولا شك ان المكروبات المضرة التي تقيم في مثل هذه المراكز تفرز سموماً تدور في الجسم مع الدم ، وهذه السموم هي في اكثر الاحيان سبب ارتفاع ضغط الدم في كثير من الحوادث وهذا ينطبق على العلل المزمنة كما ينطبق على الحادة كالزكام والانفلونزا وغيرها

***

خذ مثلاً احد التجار . يشعر في المساء بتكسر عام في اعضائه ويشكو من ارتفاع قليل في حرارته فهو رجل مريض وقد تكون هذه الاعراض اعراض الانفلونزا الاولى وعليه ان يبقى في بيته للمعالجة . على ان عمله يقتضي وجوده في مكتبه في اليوم التالي . فيغالب المرض وينهض الى المكتب فيبقى كذلك اسبوعين او ثلاثة لانهُ لم يرض ان ينام بضعة ايام يعالج في اثنائها معالجة قانونية ثم لا تلبث ان تظهر في بوله آثار الزلال ويشعر ان كليتيه لا تقومان بعملهما قياماً منتظماً . وقد عرفت كثيرين يقضون سنين غير عارفين آثار التعرض والاجهاد في صحتهم بعد اصابة بسيطة بالانفلونزا كالاصابة المتقدمة حتى يذهب احدهم الى شركة من شركات التأمين على الحياة فيرفض طلبه لان الفحص الطبي اثبت وجود ارتفاع كبير في ضغط الدم وضعف في الكليتين وغير ذلك مما يدهش له الرجل والسبب بسيط بيناه فيما تقدم

فعلى كل احد ان يهتم اهتماماً جديًّا بكل الم يرافقه ارتفاع في حرارة جسمه . فاذا أُصبت بزكام من غير حرارةٍ فقد لا يضرك ان تسير في عملك كالعادة ولكن اذا رافق الزكام ارتفاع في حرارتك ولو قليلاً فاترك كل شيء والزم سريرك واستدع طبيباً وابقَ تحت المعالجة حتى تشفى كل الشفاء . واذكر ان تفحص بولك بعد كل زكام تصاب بهِ او كل اصابة انفلونزا مهما كانت بسيطة فان هذا الفحص يبين لك هل الكليتان تقومان بعملهما او لا

من المعروف ان الروماتزم وعرق النسا « شياتكا » والنيورالجيا تنشأ عن عدوى مكروبية تستقر في الاسنان واللوزتين وهي ما يعرف بالعدوى المركزية كما تقدم فاذا استمرت هذه العدوى

نجم عنها زيادة ضغط الدم وتصلب الشرايين بعد بضع سنوات . وعليهِ يجب فحص هذه الاعضاء عند الاطباء المختصين وابقاؤها نظيفة خالية من كل مكروب

٥ — الحالة العقلية والنفسية . قال سدلر : مضى عليَّ سنون كثيرة وأنا ابحث في العلاقة بين زيادة الدم والحالة العقلية والنفسية فوجدت ان الخوف والهم وما اليهما من الحالات النفسية تزيد ضغط الدم كثيراً حتى لقد يبلغ الضغط درجة يصير فيها خطراً على الصحة ". وزد على ذلك انهُ متى ارتفع ضغط الدم كثيراً حمل صاحبهُ على تعاطي المخدرات . وعلى الضد من ذلك فقد يكون من اثر الحالة النفسية انها تخفض ضغط الدم تحت المتوسط الطبيعي ويرافق ذلك انحطاط وضعف عام في القوى

عرفت شابًّا ارتفع ضغط دمهِ الى ١٦٠ ملمتراً او فوق ذلك . وبعد البحث وجدت انهُ تخاصم مع خطيبتهِ فلما زالت اسباب الخصام وعادت المياه الى مجاريها هبط ضغط دمهِ الى ١٣٥ ملمتراً ولولا اكثاره التدخين لكان هبط الى دون ذلك ، الى المعدل الطبيعي . ويمنعنا ضيق المقام من تعديد الحوادث التي كانت فيها الحالات النفسية سبباً مباشراً في زيادة ضغط الدم

العلاج

العلاج الذي اصفهُ هو الراحة التامة والعناية الطبية بضعة اسابيع او اشهر بحسب ما تقتضي الحالة . فاذا كان احد مصاباً بزيادة ضغط الدم وبلغ هذا الضغط ٢٠٠ ملمتر فيجب ان يبقى في السرير بضعة اسابيع لا يتناول في اثنائها من الغذاء سوى اللبن (الحليب) واذا كان في امعائهِ ميل الى الامساك سمحت له باكل الفاكهة . ويشار على المصابين بزيادة ضغط الدم ان لا يتناولوا الطعام اكثر من مرتين في اليوم وان يقللوا من اكل اللحم والبيض والخبز وان لا يأكلوا فوق الشبع او فوق حاجتهم وهذه هي القاعدة الذهبية التي أشير باتباعها . ولا بدَّ لهؤلاء المصابين من اجتناب كل عمل متعب كالجري وراء سيارة اجرة للركوب فيها او ما الى ذلك مما يؤول الى اجهاد الجسم

وفيما يلي ابسط الوسائل وافعلها في تخفيف ضغط الدم اذا زاد عن المتوسط الطبيعي .

١ — الرياضة اللطيفة الى ان يبدأ العرق بالتصبب من الجسم ويفضل ان تكون الرياضة في الهواء الطلق وبثياب متسعة لا تضغط على الاعضاء . ٢ — الدلك اذا كان المريض لايستطيع ان يروّض جسمهُ في الخارج او كان قلبهُ ضعيفاً لا يتحمل آثار الرياضة فالدلك اللطيف خير ما يحلُّ محل الرياضة . ٣ — الحمامات تمدد جدران الشرايين فيخف ضغط الدم . ويجب ان تكون حرارة الماء بين ٩٦ درجة بميزان فارنهيت و٩٨ اي مثل حرارة الجسم . ويجب ان يبقى المستحم في الماء من ١٥ دقيقة الى ثلاثة ارباع الساعة . ٤ — الاستحمام بالشمس — يخفف ضغط الدم لانهُ يحول جانباً من الدم الى الجلد ، فالتلويح الناتج عن التعرض للشمس نوع من الالتهاب الذي يحوّل الدم من الشرايين في الاعضاء الداخلية الى الجلد . هذا وقد سبق الكلام على النوم والراحة وبساطة المأكل واراحة العقل من الهم والغم والقلق والخوف وما اليهما

باب المراسلة والمناظرة

صورة قلمية

سعيد طلبمات بك

{ جاءتنا هذه الرسالة في تقدير رجل من رجالنا العاملين فننشرها مع الشكر }

المصوّر الاستاذ يؤلف من الوان عدة لوناً واحداً يجعله عمدته في اخراج لوحة باهرة . والطبيعة تجمع مواهب الانسان في فضيلة واحدة تجعلها عماده ومر نجاحه في الحياة . ولقد كان « ديموستينوس » خطيباً فحسب ولكنهُ كان مرهوب الجانب من جميع الابطال الذين لا يدينون الاّ بالقوة . وكذلك تجتمع مواهب الانسان وقواه الطبيعية في فضيلة واحدة يرتفع بها حتى يبلغ القمة

ولعلّ الكمال الحقيقي في التكوين لا يبدو في مظهر ابلغ ولا اجلّ من استخلاص فضيلة واحدة من مواهب مجتمعة . وغالباً ما تتمثل القدوة العليا في هذه الفضيلة ويظل العصر يرى فيها الصورة الكاملة للنبوغ ، كأن اجتماع المزايا والمواهب بهذه الطريقة قوة اخرى تضيفها الطبيعة الى سائر القوى المجتمعة لاظهار عبقرية الانسان وتخليد عمله . ونرى ان المواهب قد تنصرف بكلياتها الى وجه ما من وجوه العمل كالدفاع عن الحق مثلاً ، وامامنا مثل صادق لهذه الحالة يمكن اي تتبينهُ في شخصية سعيد بك طلبمات

هو رجل مثقف هادىء ، قوي الارادة ، واسع افق التخيل شديد الملاحظة ، متسعر الذكاء اوتي من رجاحة العقل وقوة النفس ما لم يرزق كثير . تقابلهُ فتلقى رجلاً من الطراز الاول ، وتصيب فيهِ نديماً ظريف المحاضرة له مشاركة في كثير من العلوم والآداب ، على وجهه الباسم الهدوء والرقة والحزم معاً ، تنظر اليهِ فلا تستطيع ان تقاوم ما فيهِ من قوة ، قوة الرجل الذكي الصلب النافذ البصر ، وهو دائم الابتسام يحدّثك في صوت هادىء وعبارات مفصلة متزنة دون ان يستفيض ، فاذا اعتلى منبر الخطابة انفجر وتعاظم ، وسيطر بقوة بيانه وعلمه الغزير المتدفق على اذهان سامعيه

وقد عرفتهُ محامياً فعرفت فيه كفاءة المحامي وقدرته ، ونبوغه ، وطهـارة خلقه ونزاهته ، وسهولة طبعه ، ولين جانبه ، مع عذوبة في القول ، ووضوح في البيان ، وعرفت فيه لساناً حلواً ، سلساً ، متدفقاً يعفّ عن الهجر ، ولا يعرف الحشو . وعرفته وكيلاً للقومسيون البلدي فعرفت فيه رجاحة الحلم وحصافة الرأي وقوة العارضة ، يتكلم بلسان عربي فصيح في غير تعقيد ولا تكلف ، بل يسترسل استرسالاً كأنهُ يتحدث اليك ، فتنفتح له مغاليق القلوب والاذهان

وسعيد بك تغمره طبيعة الخير من جميع نواحيه ، فما رأيتهُ سئل المعروف من جاهه او ماله الاَّ بذله لمن يعرف ومن لا يعرف ،ولمن يحب ومن يكره ، ما دام قادراً على بذله ،وهو من ائمة القانون، ومن المصريين القلائل الذين احترمهم رجال القضاء والقانون الاجانب لذكائهم وسعة اطلاعهم وقوة حجتهم . والذين عرفوهُ لا يجدون اي فارق بين هدوئه وظرف حديثه وقوته وحماسته في مواقف الخطابة . فكلما ازدادت الصفات قوة ازدادت اتساقاً ولعل الظرف والهدوء اللذين امتاز بهما من مظاهر تلك النفس القوية في مواطن تحتاج فيها النفس الى الاستجمام وليس في ذلك ما يستغرب فان الشخصيات العظيمة لا تني تتطلب من الطبيعة الاستزادة في قواها دون ان تتخلى مع ذلك عن شيء من ظرفها وخلقها الاجتماعي

كلما حادثتهُ ازددت يقيناً بان شخصيتهُ القوية مرآة صادقة لما اوتي من مواهب ومزايا ، وانهُ الرجل الوطني النبيل الحائز لثقة الجميع واعجابهم.ونعتقد ان اجلّ مظاهر الاحتفال التي تقام لشخصية كبيرة لا توازي قيمة الدقائق التي تشعر فيها هذه الشخصية برضاء ضميرها وانها ادت المهمة التي اخذتها على عاتقها نحو الوطن والناس خير اداء . من اجل ذلك يعجب جميع الذين يقتربون من الاستاذ طلبات بتواضعه ولطفه وقوة نفسه . ومن اجل ذلك استطاع ان يحوز ثقة الوطنيين والاجانب على السواء

افتتح حياته العملية بالاشتغال بالمحاماة ثم كان مجاهداً سياسيًّا في صفوف المشتغلين بالدفاع عن القضية المصرية . وكان اول وكيل وطني لقومسيون بلدية الاسكندرية تولى الدفاع عن مصالح الوطنيين . وهو اليوم مستشار قضائي معترف بسعة علمه وقوة رأيه وكفايته. وقد تقدم الى الحياة في البدء بموهبة فذة مستخلصة من قوى مجتمعة فيه وهي موهبة البلاغة والذكاء والمقدرة على الدفاع عن الحق ، واعانته شخصيته الممتازة وصفاته الموروثة والمكتسبة على تولي الزعامة في تقرير حقوق البلاد ومصالحها السياسية والاجتماعية ، ولم يوله جهاده في ميدان السياسة ثقة أعظم ولا اعجاباً اكمل مما حازه في سبيل الدفاع عن مصالح الاهلين في حجرة القومسيون البلدي . وكان سر نجاح هذا المحامي الجليل بل سر استحواذه في وقت قصير على ثقة الجماعة انهُ يعمل دون اعلان عن نفسه ودون ان يطلب جزاء على عمله من اي نوع . فلم يكن في اي وقت ميّالاً الى ان يستعمل نفوذه او الثقة التي احرزها لمصلحة احد او لحيازة مصلحة ما لنفسه وبقي قانعاً بمقدرته ونجاحه على انهما خير جزاء لارضاء ضميره

وقد ارتفع مقامه في نظر الجماهير عند ما تولى مهمته الدقيقة في القومسيون البلدي ووقف يدافع عن مصالح المدينة ويدل بسعة اطلاعه في المسائل الفنية ويطالب بتحقيق المقترحات التي تعيد الى مدينة عريقة في المدنية سالف مجدها وكان في هذه المهمة التي اخذها على عاتقه خطيباً ومشرعاً وانسانيًّا يحض على معونة معاهد العلم والبر بالبلاغة وقوة الاقناع التي دعا بها الى مساعدة المسرح . ولم يكن في هذه المسائل الجدية الدقيقة منعاً يخلو من حب للفن والجمال يحض عليه ذوقه كرجل



سعيد بك طليات

مثقف وعظيم الدراية بفنون الحياة الاجتماعية . وكان استاذاً في المسائل الاجتماعية الكبيرة التي تلائم مواهبه وطبيعة تفكيره وجهاده . وكان في هذه المسائل ايضاً محامياً ومشرعاً

ونذكر ان عند ما وضع قانون نقابة عمال الترام في سبتمبر سنة ١٩١٩ وتولى الدفاع عن حقوق اولئك العمال كان كمن أتم رسالة انسانية كبيرة وحقق غاية تضمن له وللآخرين خلود الذكر . بل تكفل تحقيق ذلك المستقبل الباهر الذي تأمله الانسانية من جهاد النخبة المثقفة . وقد كان اول مستشار لنقابات العمال وهو الذي تولى وضع قانون نقابة عمال الترام المعمول به الى الآن واليه يرجع الفضل في تأليف لجنة التوفيق بين العمال واصحاب الاعمال التي عمل فيها مع جرانفل باشا

ونحن اذا شرحنا نشأة الاستاذ طلبات واتينا بتفاصيل حياته المفعمة بالمواقف الوطنية الجليلة لا نستطيع ان نميزها عن حياة سائر الاقطاب من حيث انها بسيطة وكاملة معاً . وقد انحدر من صلب اب فاضل كان من المقاولين ذوي اليسار وكان جده لابيه من التجار الذين اتسعت معاملاتهم بين مصر والسودان والشام ويتصل نسب اسرته الى الحسن بن علي بن ابي طالب . وكان طبيعيًّا ان تتهادى طفولته في افانين من التربية العالية حتى أضفى عليه الذكاء او الخلق الكريم حلة من نباهة الصيت في مطلع شبابه

وقد كانت المعارف الاولى التي اضاءت ذهن طلبات الفتى هي تلك المعارف نفسها التي تعنى جماعة الفرير ببثها على اعتبار انها عنصر حضارة ومدنية . وكان في حفظ هذه المعارف وهضمها متفوقاً اذ لم يلبث الا بضع سنوات حتى نال شهادة البكالوريا وانتظم في مدرسة الحقوق وتخرج منها سنة ١٩٠٥ وكان طبيعيًّا ان يمتحن هذا الحقوقي الشاب معلوماته ومقدرته في تجارب للمحاماة قضاها بنجاح في مصر واسيوط الى سنة ١٩٠٧ حيث عاد الى الاسكندرية موطن اقامته الاصلي واتخذها ميداناً لمواهبه . وفي الحقيقة انهُ ما لبث ان اشتهر بهذه المواهب وكان اول اشتهاره في العمل مع جماعة الوطنيين المشتغلين بالسياسة وكان صاحب الزعامة وقتئذٍ هو المغفور له مصطفى كامل باشا . ولما شهد الجمهور آيات وطنيته وحماسته عين رئيساً للجنة الحزب الوطني بالاسكندرية وفي سنة ١٩٠٨ زار اوربا للقيام بدعاية واسعة للقضية المصرية والدفاع عن حقوق المصريين وما لبثت ان تقررت في القلوب تلك الثقة العظيمة التي يحرزها عادة المجاهد الذي يدافع عن القضايا العادلة . وفي سنة ١٩٢٢ صار عضواً في الوفد المنتدب عن الحزب الوطني في مؤتمر لوزان وكان الوفد مؤلفاً من رجال دفعتهم وقتئذٍ غيرتهم العظيمة على القضية المصرية الى السعي لتوحيد الجهود اتقاء لكل ما يمكن ان يمس هذه القضية . وهناك في روما تقابل هذا الوفد واتفق مع سائر الذين تولوا وقتئذٍ العمل لحل القضية المصرية على ميثاق وطني كان موضوع ايمان جميع الذين يحبون مصر وحريتها واستقلالها . واشترى طلبات بك بعد ذلك جريدة الامة من الصوفاني بك واخذ يكتب فيها مقالات سياسية بحماسة عظيمة حتى عطلت في عهد وزارة ثروت باشا

وفي سنة ١٩٢٢ اذ كانت شهرة ذلك المحامي الوطني قد اضحت موضوع إعجاب الذين يعرفونه والذين لا يعرفونه انتخب عضواً في القومسيون البلدي وكان انتخابه لهذه العضوية ايضاً متفقاً مع مزاجه وطبيعة المهمة التي خلق من اجلها وهي الدفاع عن المصالح والحقوق

ولما زار المغفور لهُ سعد باشا في «رويا ليبان» اثناء الحقبة القصيرة التي كان يستريح فيها سعد باشا بعد عودته من مالطه اقترنت وقتئذ تحيته للزعيم الخالد بتقدير الزعيم لعمله المجرد الذي يحقق من أجل تحرير الجماعات وخلاصها . وفي اثناء ذلك لم ينقطع طلبيات عن تأليف المقالات الضافية في سبيل شرح المسائل الوطنية . وكان يعنى من جهة اخرى بمسائل المدينة التي يتناولها القومسيون البلدي . ولما كانت حركة الموظفين الاجانب بالبلدية وقاموا يطالبون بمنحهم فوق العلاوات التي يستحقونها مكافآت استثنائية كبيرة عارض في ذلك حتى حمل الاجانب على قبول فكرته ، وقررت الهيئة باجماع الآراء رفض مقترحات الحكومة وترتب على ذلك حل القومسيون . ولما كانت حركة مايو سنة ١٩٢٦ وصدر ذلك القرار الذي قضت فيه وزارة زيور باشا بتوسيع اختصاصات المأمورية البلدية على حساب القومسيون لم يتمالك العضو الخبير بقوانين البلدية واختصاصات دوائرها الاَّ المعارضة الشديدة وترتب على معارضته ان حلّ القومسيون مرة ثانية

ولما تولى وكالة القومسيون وكان اول وكيل وطني تولى هـذه المهمة الدقيقة منذ اربعين سنة ودل على احرازه لثقة الوطنيين والاجانب معاً تمكن من بحث مسائل كبيرة لمصلحة المدينة والاهلين وبخاصة مسألة ترام الرمل التي دلَّ فيها على خبرة واسعة اذ لبث يسعى لانتزاع الخط من الشركة في عهد وزارة عدلي باشا فكللت مساعيه بالنجاح . واصدر عدلي باشا قراراً بتأليف لجنة خاصة تتولى درس المسألة قوامها احمد عبد الوهاب باشا والمسيو اوزوالد غره وطلبيات بك بصفته وكيلاً للقومسيون والاستاذ الفريد ليان وقد اتصلت هذه اللجنة بالمسيو سلفاجو رئيس مجلس ادارة الشركة بغية الوصول الى حل ملائم فلم يأت ذلك بفائدة . ثم جاءت وزارة ثروت باشا فعهدت اليهِ بوضع تقرير مستفيض يتضمن تفصيلات وافية عن تاريخ انشاء الخط في سنة ١٨٩١ والاطوار التي مرَّ بها فاضطر طلبيات بك ان يقيم في القاهرة مدة اربعة أشهر يتصل في خلالها بقلم القضايا ويراجع شتى الملفات المتعلقة بالخط في مختلف الوزارات كالاشغال والداخلية وسكرتيرية مجلس الوزراء واستعان بطائفة من المهندسين الفنيين وقد وضع تقريراً مستفيضاً يقع في مائتي صفحة وكانت النتيجة التي يرجع الفضل فيها الى الاستاذ طلبيات ان الحكومة تولت تدبير الخط وادارته وكان فوزاً للمصلحة الوطنية يعترف فيه لجهاد الاستاذ طلبيات وخبرته وكفايته . كذلك يرجع اليه الفضل في بحث مشكلة سعر النور الكهربائي في الاسكندرية فقد تولى رياسة مختلف اللجان التي الفت لدراستها وله فيها مواقف جليلة انار فيها السبيل امام هيئة القومسيون

وصفوة القول ان طلبيات بك كان قوة فعالة في القومسيون وكانت كلمته في المقام الاعلى في جميع

المسائل وكان يحكم عبارته احكاماً بديعاً عند ما تحتدّ مناقشات القومسيون غير انهُ كان يستعين بفطرته في الدفاع على مباراة اولئك الاعضاء وكان كمحام متفوق تكاد تكون الخطابة في سليقته وطبيعته . وهو بعد كرجل اجتماعي واسع الشهرة لا يترك سبيلاً لنصرة قضية دون ان يجعل لمزاياه وصفاته الكبيرة أثراً ظاهراً في ذلك حتى تعبيراته ومحاوراته باللغة الفرنسية فكانت هذه المزايا والصفات مطابقة للمهمة الجليلة التي اسندت اليه في القومسيون والفضل لهذه المزايا والصفات نفسها في ارتفاع ميزان التقدير الذي كان غير مألوف في البلدية ازاء العنصر الوطني

وقد كان طول المدة التي أدى فيها مهمتهُ في وكالة القومسيون المثل العالي لكل ما يتمناه اولئك الذين وقفوا حياتهم لخدمة الحضارة عن طريق الاصلاح والعمران نقولا شكري

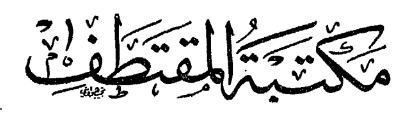
في بحور الشعر

كتب صديقي الدكتور بشر فارس في مقتطف الشهر الماضي كلمة حول نقدي لصنّاجة الرياشي ردَّ بها عليَّ مُدافعاً عن الأبيات التي أحسستُ نشازاً في موسيقاها ، وقال إني واهمٌ في حسبانها ساقطة الوزن وان التحقيق يثبت غير ما ذهبتُ اليهِ حيث قد استعمل الشاعر إباحات عروضية استشهد صديقي على شيوعها وتواترها بأبيات للشريف الرضي ومهيار وأبي تمام وأبي العلاء والبحتري وغيرهم ، وأنا لا أتعرض لرأيهِ إلاَّ من ناحيتين ، الاولى انهُ كان يجدر بهِ أن يقطّع أبيات الرياشي ، والثانية اني لاحظت ويلاحظ كل من يقرأ الابيات التي استشهد بها صديقي أن موسيقاها لم تفقد شيئاً من تسلسلها حتى يشعر بها الذوق مثلما يشعر عند تلاوة أبيات الرياشي التي أشرتُ اليها . وسواءٌ أكان الحق في جانب صديقي أم كان في جانبي فان ما أراه أن الذوق هو الذي يحكم في كل شيءٍ ولحكمه الكلمة المسموعة ، فكم من اشياء لا تختلف في ذاتها عن الحدود التي يجب أن تكون عليها والاصول التي يجب أن تنحصر في دائرتها ، حكم عليها الذوق بالمخالفة

والشعر اول ما يُطلب منهُ موسيقاه ليستهوي قارئهُ فيما يجوب من أودية ويهبط الى أغوار ويرتفع الى سماوات ،والموسيقى إن لم تراعِ حكم الذوق فلا يمكن لها ان تؤثر في السامع

انني أستسيغ من الشاعر استعماله بحوراً مختلفة في قصيدة واحدة على شريطة أن يراعي تقاربها في الروح الموسيقية فلا تكون متنافرة أما أن تكون القصيدة من بحر واحد ثم تحتلها الزحافات احتلالاً سيئاً يقف امامها الذوق وقفة المتمرد الساخط فهذا ما لا أستسيغه . ويرى بعض العروضيين ان من الخير ان يجتهد الشاعر في المحافظة على الوحدة الموسيقية فاذا استعمل شيئاً من الزحافات يجب ان يستعمله بعينهِ في كل الابيات او يلزم الاصل

واني لأنتهز هذه الفرصة فأشكر لصديقي رغبته في البحث عن الحقيقة من وراء المناقشات الهادئة والله يهدينا جميعاً الى ما فيهِ الصواب ؟ حسن كامل الصيرفي



ايفان بونين

الفائز بجائزة نوبل الادبية عن سنة ١٩٣٣

فرح الذين يرون في منح جائزة نوبل الادبية اكليلاً من الغار يكلل حياة مؤلف مجيد ، اذ اعلن انها مُنِحَتْ لايفان بونين المؤلف الروسي المقيم في باريس ، لانهُ في رأي كبار النقدة ، فنّان من الطبقة الاولى لا ريب فيهِ . واثر بونين الادبي واسع النطاق . فهو شاعر ومترجم (ترجم الى الروسية قصيدة هياواثا للشاعر الاميركي لونفغلو وروايات بيرون التمثيلية) ومؤلف اقاصيص وروايات وكتب ورحلات تنطوي على شعر وفلسفة . والبلدان التي شملها بريشته الساحرة تختلف من روسيا الى غرب اوربا الى الجزائر وفلسطين والشرق الادنى . فهو من هذه الناحية يفوق كل كاتب روسي آخر . وقد خلّف آثاراً خالدة في مختلف ابواب الكتابة الادبية . ولكن النقدة مجمعون على انهُ تفوق في الاقصوصة والرواية او بالحري الرواية المتوسطة الطول

هو الآن في الثالثة والستين من عمرهِ . وقد مضى عليهِ زمن طويل منذ ذاعت شهرتهُ في روسيا ورسخت قدمهُ بين كبار ادبائها . فكان يحسب قبيل الحرب امام كتّاب النثر عند الروس ، والوريث الشرعي لعظماء مؤلفي الروايات عندهم في القرن التاسع عشر . وقد ايّدت الاكادمية في بتروغراد هذا الرأي اذ انتخبتهُ عضو شرف فيها سنة ١٩٠٩ وهو فخر لم ينله من قبل الاّ تشيكوف وغوركي . ومع ذلك فبونين لم يرتفع الى ذروة عظمتهِ الفنية ، الاّ بعد الانقلاب الروسي ومعيشتهِ منفيًّا في باريس . وانت تجدهُ في روايتهِ المتوسطة الطول التي عنوانها « حب ميتيا » واقصوصتهِ « ضربة الشمس » وروايتهِ حياة ارسينيف (وفيها طرف من سيرتهِ ولم يظهر منها الاّ اجزاؤها الاولى في الفرنسية والروسية) اعلى مقاماً منهُ في جميع مؤلفاتهِ السابقة . ويقول الناقد الروسي الكسندر نازاروف انهُ بعد الاطلاع على هذه الكتب ، يبدو لك ان ما يدعيهِ المعجبون بهِ من أنهُ يفوق تشيكوف ، كلام ليس فيهِ مغالاة . وهو برهان حيّ يردّ قول القائلين ، بان الكتّاب الروس اذا اقتلعت جذورهم من تربة بلادهم ، ذووا وجفّوا . ما اكثر الآيات الادبية التي كتبت في النفي من مهزلة دانتي الى اشعار هيني . اما مؤلفات بونين ، فمثل آخر في هذه السلسلة المتصلة الحلقات

ذاعت شهرة بونين في بلاده وهو ما يزال في مطلع حياتهِ الادبية ، ولكن الاعتراف العالمي بمكانتهِ ، تأخر حتى اكتهل . نعم ان مؤلفاته المشهورة ترجمت بعيد الحرب الى الانكليزية والفرنسية

والالمانية والسويدية . والنقاد في اوربا واميركا ، حكموا لهُ بالاجادة والتفوق . ولكن الجماهير الدولية لم تقبل على مطالعة كتبهِ ، ولعلَّ ذلك لانهُ لم يحاول قط ان يعالج فيها الموضوعات التي تسترعي النظر بل هو يعمد في الغالب الى معالجة الموضوعات الدهرية فيسبغ عليها فنّاً ونوراً من فنهِ وذكائهِ

وهو الآن اشمط الناصية ، حليق العارضين والشاربين متوسط القامة منتصبها ، لا تدل هيئته على انهُ تخطى الستين . في عينيهِ النافذتين معاني الصرامة التي يأخذ بها نفسهُ وفنَّهُ ، وقوة الارادة والجماح المكبوح . فاذا عرفهُ الرجل عرف فيهِ الدماثة واللطف والحديث الاخّاذ . في حديثهِ المعية متوقدة ، ونكتة بارعة . بل هو مثل تشاليابين الممثل والمغني في مقدرتهِ على تقليد الاشخاص والاصوات ، حتى لتحسُّ انهم منك بملمس ومسمع . أما ان تسمعهُ يقرأ عليك قصصه بنفسهِ ، فلذّة نادرة

ولد في طبقة من الروس ، اخرجت لروسيا ، انبغ نوابغها في الادب الموسيقي والثقافة بوجهٍ عام وهي الطبقة التي تنصبُّ عليها جامات الغضب من الحكومة المستأثرة بالحكم في البلاد ، والجماهير من اتباعها . بل هو متحدّر من اسرة نبيلة ، تسلسل فيها النبوغ اجيالاً متوالية . فمن الافراد الذين انجبتهم اسرة بونين ، أنّا بونين الشاعر الروسية الاولى (القرن الثامن عشر) وزخوفسكي الشاعر ، صديق بوشكين ومعلم الامبراطور اسكندر الثاني . فنشأ ايفان في املاك ابيهِ ، وهي في ناحية من روسيا ، اطلعت من قبل كوكبي تولستوي وترجنيف . هناك ينطق بالروسية على اصفاها واسلمها . فجذور بونين العقلية والروحية متصلة اقوى اتصال ، بالارض الروسية وثقافتها . ومن هنا فهمهُ الذي لا يسامَت لنفس الفلاح الروسي ، على ما صوَّره في قصتهِ «القرية» . وقد قال غوركي في هذه الرواية ما يأتي : — « كان بونين الكاتب الوحيد ، الذي تجرأ على ان يصف الفلاح الروسي كما هو . من دون ان يضفي عليهِ ثوباً لا يلبسهُ عادة ... » ومن هنا ايضاً عنايتهُ بموضوع آخر هو انحلال الاسر الروسية النبيلة ، وتداعي قصورها وانثلال مجدها القديم

وهو لا يخفي احتقاره لكتاب « التجربة السوفيتية العظيمة » ومع ان نقّاد موسكو ينحنون امام فنهِ ، الاَّ انهم يتحدثون عنهُ وفي حديثهم مرارة الحقد ، ويصفونهُ بكونهِ « رجعيًّا في يده سوط » . بيد انك لا تستطيع ان تحسب نزعة بونين الفلسفية ، ناجمة عن شعوره بما اصاب الطبقة التي هو منها ، الاَّ اذا كنت ممن لا يرى في عمل انسان ما غير الاثرة . ومن يعرف بونين يعرف انهُ يحب روسيا ، نبيلها وفلاّحها على السواء . ولذلك لا يستطيع ان يعطف على تحويلها الى معمل تجرَّب فيها التجارب ، التي تقترح بعض اصحاب المذاهب الفلسفية والاقتصادية ، ولكنها تبسط على البلاد ظلال التعس والشقاء . فتحويل روسيا الى امة سوفيتية يعني في نظره موت ثقافة قديمة ، لا ولادة ثقافة جديدة . ويندر ان يتناول روسيا في كتابتهِ ، الاَّ اذا كتب مقالة لصحيفة ، ولكنه وصف نظره الى التجربة السوفيتية وصفاً فنيًّا بليغاً في قصتهِ «الربيع الابدي»

هدية الكروان

هـذا عنوان الجزء السادس من دواوين الكاتب الشهير والشاعر الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد وهو يقع في مائة وخمسين صحيفة ونيف من القطع الصغير ويحتوي على طائفة رائعة من جيد الشعر الحديث وعنوانه مقتبس من الجزء الاول منه خص الشاعر به هذا الطائر المعروف الذي يسمع في الاجواء المصرية من شمال وجنوب . وقد نعى على الشعراء المصريين قلة ما ينظمونه فيه وكثرة مايعنون بالبلبل الذي لانسمعه وعد ذلك بحق «محاكاة منقولة تصدر من الورق البالي وتؤذي النفس كما يؤذيها كل تصنع لا حقيقة فيه» لان العقاد شاعر صادق الشعور صحيح العاطفة مستقيم الفكر لا يتقيد بغيره ولا يهمه من تقدَّمه سواءٌ أمن شعراء الشرق كان ام من شعراءِ الغرب . واظهر ما تتضح فكرته تلك في حشرهِ ذاك الصنف من الشعراء في صنف الببغاء من الطير فيقول :

ما اشتغال بورد لست منه بناهـل
وانصراف عن الذي انت منـه بساحل
أنت عندي بذا وذا جاهـل اي جاهـل

وليس العقاد حديث العهد بمناجاة الكروان فقـد نظم فيه قصيدة نشرها في الجزء الاول من دواوينه ثم إعاد في هذا الجزء نشر بعض ابياتها واندفع بعد ذلك في قصائده الاخرى يخاطب الطائر ويصفه ويناجيه ويساهره ويسامره ويسائله لعوباً بمعانيه عميق التفكير في استخلاص عبر الحياة وشؤونها واسع الخيال في تحليقهِ وحوارهِ

ولا شك ان كروانيات العقاد فتح جديد للشعر الحديث تتدفق نغماً وتسيل روعة وعذوبة

وفي الديوان موضوعات شتى من رائق الشعر ورائعه لم يخرج فيها العقاد عن اسلوبه السابق ومنحاه الذي انتحاه في دواوينه السالفة . ولقد آخذه النقاد لما نشر ديوانه وحي الاربعين ، بان ذلك الشعر كان اكثره افكاراً مقتضبة في نظيم له وعليه اذا صحَّ ذلك النقد في بعض تلك المقطوعات فانهُ اسراف وجور في اخذ ديوانه وحي الاربعين بهِ جملة . غير ان ما من ناقد يمكنه اليوم ان ينسب ذلك الى هدية الكروان . والظاهرة العجيبة في نفسية العقاد انه على كثرة اشتغاله بالسياسة وانصرافه الى عمله الصحافي الذي يستغرق تفكيره وجهوده في حزبيته المعروفة نرى ناحيته الشعرية تزيد نضوجاً يوماً فيوماً وتسلك تطورها الطبيعي في هدوء وسكينة . كأن هذا الشاعر غير ذلك الصحافي المجاهد بينما غيره قد نضبت شاعريتهم واقلعوا عن القوافي والاوزان الى مشاغلهم ومرتزقهم . لان العقاد يجد صحيفة الطبيعة منشورة امامه يقرأ فيها مستريحاً ويستبطن اسرارها ويتغلغل في اعماق تضاعيفها

أما اذا ألممنا بمناحيه الشعرية جملة ودخلنا في تفاصيل خياله وعاطفته فاننا نجد شخصيته تتجلى في قوافيه بقوتها العهيدة ولطفها العهيد وخشونتها العهيدة وتلك مزية الرجولة الحقة فليست العاطفة

مسيطرة على نفسيتهِ لان فكره يتغلب عليها في معظم الاحايين وليست الفكرة مسيطرة على نفسيته لان العاطفة تتخللها فتلطف من حدتها وتكبح من جماحها . ولعل فكره يثير عاطفته اكثر مما تثير عاطفته فكره . فهو كأنما ينقل قلبه الى رأسه أسرع مما يتنزل رأسه الى قلبهُ

وما أحسن قوله يناجي ساعي البريد

يا طائفاً بالدور كالقدر المقدور
بالخير والثبور في ساعة البريد
في لحظة تنتشر منك المنى والعبر
وانت ماض تعبر كالكوكب البعيد
كن ابداً مريدي بالخبر السعيد
وبابتسام العيد يا ساعي البريد

ثم يقول له في قصيدة اخرى

الطريق الآن لا ارقبه لارى وجهك لكن لارى ...

ولسنا ندل على تلك الظاهرة النفسية حتى تقرر تبايناً فيها او مغايرة بينها . كلاً فالعقاد « شعر عاطفي » كما يتظرف المحدثون في هذه التسمية تعدهُ من الطراز الاول في هذا النوع . والمقطوعات « هبوط نفس » صفحة ٩١ و« فوق الحب » صفحة ١٠٠ و« مولد » صفحة ١٠٧ وغيرها كثير هي بلا ريب في الطليعة منهُ . ومن الشعر الذي تغلب الفكرة العاطفة فيه قصيدة « تسلم » صفحة ٦٩ و « صنوف الحب » صفحة ١١٢ على روعتها وغيرها فانها مسرح للخيال والعاطفة ولكن الفكر مسيطر على جملتها

واذا كانت شخصية الشاعر على ما هي عليهِ من القوة والجبروت فانها تقل عن نفسها اذا تناولت موضوعات لا تلائمها واظهر ظاهرة على ذلك قصيدة « كاس وضوء » صفحة ٧٢ فانها غير موفقة على الرغم من ندرة تفكيرها واستقامة اسلوبها ومثيلاتها في الديوان قليلة جداً بحمد الله

ولا شك ان الكلام عن اسلوب العقاد مفروغ منهُ لان جزالتهُ وفخامته واقراره الفاظه المنتقاة في امكنتها من البلاغة مشهورة معروفة فلا يتحذلقن احد بنقده مثلاً في قوله

هنا—ويا حسن ماضمت هنا—قدح تغوي قلوب العطاشى اي اغواء

فيقال له ان القدح هي التي لا شراب فيها والاً فهي كأس وان مهيار الديلمي لا يصح الاستشهاد بقوله

واذكروا حيًّا اذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

نقول ان مثل هذا التضييق على اللغة ومثل هذه الحذلقة في النقد مما لا نفهمهُ ولا نريد ان نفهمهُ

بقي ان نشير الى اروع قصيدة في الديوان وهي قصيدة « كلماتي » صفحة ٨٥ فان فيها من مبتكر التفكير وطريف الحسن وبالغ الشعر ما نود ان يتذوقه كل مطالع لها واليك بعض ابيات تؤيد ما نقول :

هل معيني وحيك الصادق ام وحي اللغات
ما ضياء ثم في الافق وفي كل الجهات
لا من الارض ولا من دارة الافلاك آت
لا تراهُ غير عيني وهو ملء الكائنات
رب عمر طال بالرفعة لا بالسنـــوات
رب آبادٍ تجلت من كوى مختلفات
وقطيرات زمانٍ ملأت كأس حياةٍ
ثروة اتفق منهـا لحياتي ومماتي
ولبعثي يوم ان تبعث في الطرس وصاتي
لا يبوح الصمت الاَّ درجاتٍ درجات

هذا شعر نظن ان الكثيرين لا ممن يقرءون بل ممن يعالجون الشعر الحديث لا يحسون بما فيه من روعة وجمال وبما يفتح على الحياة من آفاق جديدة وقد يقرأونهُ ويمرون بهِ ذلك ان الشعر كالجمال لا يمكن تحديده وتعريفه وتقسيمه لانهُ شعور يختلف قوة وضعفاً باختلاف القوة والضعف من النفوس . و الامر لله من قبل ومن بعد خ . ش

صوت الجيل

بقلم ابراهيم المصري — صفحاته ١٤٩ طبعت بمطبعة سابا بمصر

هذا كتاب بين الملتهب والمتئد . ولولا قوة في المؤلف ومقدرة على التعبير ما استطاع ان يردف البحث الرزين بالنظرات العنيفة

يلتهب ابراهيم المصري حين ينصرف الى وصف الاحوال المصرية ويندد بمناقصها ويصرخ في وجوه الشيب ان تنحوا وافسحوا المكان للشبان فقد افسدتم هذا البلد وقعدتم بهِ عند الجمود بل رجعتم بهِ القهقرى ، وحين يصف العناء الذي يصيب المثقفين اولئك الذين يعيشون في بيئة ليست لهم وليسوا لها من حيث انها جامدة راكدة يتغلب السأم عليها وتضطرب المادة بين جنباتها وحين يعلن انهُ يؤمن بالثقافة ولا يرضى سواها ، وحين يشدد النكير على ما في الحياة المصرية من استهتار وضعف ومسكنة.ثم يتئد ابراهيم المصري اذ ينصرف الى النقد الادبي . فله في ميدانهِ جولات المقدام الثبت . فان هو اخذ يتبصر في الادب المصري اجاد في التحليل والفحص . وله مقالان على جانب عظيم من النفاسة اولهما يبحث في النقد في مصر والثاني في القصة المصرية . ولا شك عندنا ان هذين المقالين بمنزلة الدراسات الغربية من حيث التأليف والبعد في النظر والصدق في القول . وبودنا

لو اطلع عليها نقاد هذا البلد لعلهم يرعوون وقصاصه لعلهم يقصون شيئاً من اجنحتهم المستطيلة —

هذا وان اخذ ابراهيم المصري يتحدث عن الادب الغربي ذهب في النقد الى الحد الذي لا يكاد يترك مطلباً وراءه . ومن امثلة بحثه ما قال في (اناتول فرانس) و(تاغور)

ثم انهُ يتئد فوق هذا حين يعمد الى البحث الفلسفي . ومما تنشرح له الصدور انهُ لا يبذل اقوالاً طالما رددناها او قرأناها ولا يخبط في تعبيره ولا يخلط . ومما ينوه بآرائه انها تثير النقاش والجدل . ومن ذلك اننا لا نذهب مذهبهُ في ان المصريين يسرفون في تغليب العقل على العاطفة فالواقع عندنا على خلاف هذا . ثم اننا لا نرى رأيه حين يقول ان ما من حب متبادل كامل عظيم تمكن من تغذية عبقري بعناصر انسانية جديدة وهيأهُ لفهم جوانب من الحياة كان يجهلها لأن الحب الكامل انما هو صفاء وسكون اقرب الى الجمود والاكتفاء بالواقع منهُ الى النشاط والتجدد وما اليهما — فهل غاب عن المؤلف ان (اوجست كونت) و (بودلير) و (موسيه) لولا النساء اللواتي احبوهنَّ الحب المنيع المطرد ما صنعوا شيئاً او ما كادوا يصنعون

وبعد فما يلاحظ من مقالات « صوت الجيل » ان صاحبها ترجع ثقافته الى الفرنسية . ففيما يكتب بعض مميزاتها الرائعة الخلابة مثل الوضوح والترتيب والتسلسل والاستشهاد

وأما اسلوبهُ فجبار عنيف حين يلتهب صاحبه ورصين متراصٌ حين يتئد . الا انهُ على قوته ودلالته على المعنى احسن دلالة لينقصه الوشي والحبك

ذلك « صوت الجيل » الا انهُ بقي ان نقول ان هذا الكتاب لما يعوّل عليه الباحثون فيما يأتي من الزمان في سبيل تدبر الحياة المصرية وذهنيتها للعهد الذي نحن فيه .وعليه فان «صوت الجيل» لمن المتوقع ان يبقى ولو من هذا الجانب

حميات في الغرب

تأليف سليم خياطة — طبع في بيروت — صفحاته ٣٦٨ قطع صغير

مؤلف هذا الكتاب ، على ما يلوح لنا ، شابٌ متوقد الذهن دقيق الملاحظة واسع الاطلاع زار الغرب حديثاً وتجوّل في انحائه عشرة اشهر او تزيد ، مستطلعاً انباءهُ معنيًّا بصراع الجماعات فيه ، مهتمًّا بتتبع التطوُّر في مُثُلهِ السياسية العليا من فاشستية على صورها المتباينة ، ودمقراطية تحتضر في المانيا (قبل قيام النازي) وتتأهب لتتحوّل في اميركا بزعامة روزفلت ، وشيوعية اخذها لنين عن ماركس ، وحوّل فيها هو واتباعهُ وفقاً لمقتضيات الحالة في روسيا ، وصهيونية تستعملها يد الاستعمار لمحاربة نهضة العرب — على مايقول المؤلف صفحة به — ولمكافحة اتحاد الجمهوريات السوفيتية . وهذا الجزء الذي بين يدينا يشمل مباحثهُ في الصهيونية والفاشستية ، وهو طافح بالملاحظات الطريفة والآراء التي قرأها لكتّاب الغرب ، ثم رأى ما يؤيدها او ينفيها فيما شاهدهُ من الاوضاع والنظم .

ولولا عجمة في اسلوبه ، لكان الكتاب جامعاً لالوان النفاسة في التأليف . ولكنك تتعثر بين جمله ، وانت في ريب من نفسك ، هل هذه آراؤه ، كما يدلُّ سياق الكلام وحرارة الشعور ، او هو كلام مترجم ، كما يؤخذ من تركيب العبارة ؟ ونحن نرجّح الرأي الاول ، ونريد ان نتوقع استقراراً في الاسلوب في كتابهِ التالي ، يجعله خالياً من عجمة التركيب في العبارةِ ونشوز في بعض الالفاظ والمصطلحات . فنحن مثلاً لا نستطيع ان نسيغ بحال من الاحوال قولاً كقولهِ (الدونشه سلاطة تناقضات) او عبارة (نية حميمة تعانق ميول تفكيري ، تناغش فضولي وتهيجهُ) او عبارة (جميع هذه الطلاسم تحفر في الدماغ رهطاً من الافكار ...) . ونحن واثقون ان المؤلف سوف يكون لهُ شأن في عالم الكتابة اذا هو عني باسلوبهِ ، لانهُ يجمع في نفسه عناصر الكاتب الجيد من شدة في الاحساس وسعة في الاطلاع ودقة في الملاحظة واستقلال في الفكرِ ...

الحكيم وسلمى

تأليف توفيق حسن نادر الشرتوني في ١٣٤ صفحة طبع بيروت سنة ١٩٣٣

قصة موضوعها بديع وهي كما يقول المؤلف في المقدمة (قصة كل فتى وفتاة وكل رجل وامرأة لان الطبيعة البشرية واحدة لا تتبدل ولا تتغير يشعر بها كل الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم واجناسهم) . والقصة تعرض فتى وفتاة قد تحابَّا ولكنهما غير متكافئين اخلاقاً وطباعاً وميولاً الشاب يحبها حبًّا شهوانيًّا ويرى ان تكون الشرائع جميعها والتقاليد معبدة لطريقهِ الشهواني وان وقفت في طريقهِ ثار عليها وعدها من مخلفات العصور القديمة التي لا يصح ان تطبق على هذا العصر . والفتاة عفة شريفة تحافظ على شرفها كما تحافظ بجانب هذا على اخلاصها لحبيبها ومن هنا اصطدمت الرغبات الفتاة تحبه ليكون زوجاً شرعيًّا لها وهو يحبها لتكون خليلة له فالقصة تعرض حبًّا غير متكافىء ثم هي فوق ذلك تبين أثر الحكماء في كل عصر وانهم مصابيح هدى ، فلولا الحكيم الذي تولى الفتاة سلمى بنصحهِ وارشادهِ لسقطت بين احضان هذا الفتى الخليع . ثم تعرض القصة فوق كل ذلك لنقطة لها شأنها هي الثورة على الشرائع والميول الاباحية فنرى حبيب سلمى يقول لها ليدفعها عن طريق الزواج الشرعي وليغريها برأيه الاباحي (ما هي أهمية عقد الزواج الذي تريدين ان نتقيد به ان عقد الزواج الصحيح هو ما تعقده الطبيعة على جميع احيائها لا ما يعقده الكهان والقضاه فاذا كان يعوقنا الآن ان نتمم شرائع الزواج دينيًّا او مدنيًّا فلماذا لا نتمم شرائع الطبيعة تلك الشرائع الغريزية التي يوحي بها الوجدان وحفظ الكيان لماذا لا يتزاوج البشر كما تتزاوج الاشجار لماذا لا يتخالطون كما تتخالط الاسماك في البحار والعجموات في القفار لماذا نحافظ على هذه الشرائع العقيمة التي وضعها الاقدمون لعصورهم وهي لا تصلح لعصرنا . . . . الخ) ولقد تناول المؤلف هذه النقطة والرد عليها بشيء من التوسع

فالقصة في الواقع موضوعها جميل غير انه تنقصهُ الصورة الفنية التي يبرز بها فتشتمل عليهِ النفس وتتأثر بهِ . لقد حرمنا المؤلف من الوصف الدقيق والتحليل النفسي العميق فالقصصي في الواقع كالرسام تماماً يجب ان يعطي القارىء صورة دقيقة ترتسم في ذهنهِ تامة الوضوح والتعبير والتناسق . وحظ القصة التي أنا بصددها من هذا قليل جدًّا فليس فيها وصف للاماكن ولا لاشخاص القصة وليس فيها تحليل لنفسيات اشخاصها ولا للحالات التي تلازم نفوسهم في حوادثها . فنرى مثلاً ان المؤلف أوقع الفتاة سلمى في حيرة فهي لا تدري أتسلم برأي حبيبها وتثور على الشرف والشرائع أم تترك هذا الحبيب وتتنكر لهُ ولحبهِ ولكنهُ لم يعرض علينا النضال الذي قام في نفسها بين الشهوة والشرف أو بين الحب العف والحب الدنس واكتفى بان عرض نتيجة هذه الحيرة وهي اما ان تسلم أو تنتحر . ثم هو فوق ذلك يجعل هذه الفتاة التي ترى الانتحار أو التسليم تسلم برأي الحكيم الذي يقضي عليها بترك حبيبها وانتظار شخص آخر يكون جديراً بحبها دون مناقشة أو استياء كأنها لم تكن تعتزم الانتحار وتفضله على ترك حبيبها . وامثال هذه المواقف التي يعرضها دون مقدمات كافية كثيرة في القصة فنراهُ مثلاً في اولها قد جعل الفتاة يستعر في قلبها نار الحب وتقضي الليل ساهرة تتوجع وتتألم كل ذلك لانها رأت في الطريق شابًّا يلحظها ويبتسم لها وأظننا لم نسمع بهذا الحب العنيف الذي تسببهُ ابتسامة من شاب مجهول في الطريق العام . ثم نراه في نقطة اخرى قد جعل الفتاة تحدث الحكيم بحديث حبها وفي صراحة تامة حتى تقول عن حبيبها انهُ (لمس كل موضع من جسمي الاَّ موضع عفتي) مع ان الحكيم رجل مجهول عندها بل لم تعرف اسمه الاَّ بعد مقابلات كثيرة وذلك بمجرد ان سألها بفضول عن سبب حزنها . وقد فات المؤلف ان طبيعة الفتاة الشرقية تأبى ذلك بل ان حديث الحب من العسير جدًّا ان تتحدث بهِ فتاة ومع شخص مجهول عندها

اذا تجاوزنا عن امثال هذا القصور الفني كانت القصة بعد ذلك بديعة يرى فيها كل شاب وفتاة عبرة لهم وعظة

عطيه فهمي شاهين

مختار البيان والتبيين للجاحظ

تصنيف خليل بيدس وشريف النشاشيبي في ٢٤٨ صفحة من القطع المتوسط
وطبع بمطبعة بيت المقدس

الجاحظ امام من أئمة الادب والعلم نشأ عبقريًّا شأنهُ شأن اكثر الادباء في عصره فكان في مستهل حياته يبيع الخبز والسمك ولكنهُ لم يلبث حتى عاف هذه الحرفة وعكف على الادب وساعده استعداده ورغبته وذكاؤه لان يكون علماً من اعلام العلم والادب . وكتابهُ البيان والتبيين نال مكانة عظيمة في عالم الادب وشهرة واسعة وكان يعوق الشباب المثقف عن قراءته هو وغيره من كتب الادب العربي القديم رداءة طبعه وعدم تهذيبه وكثرة استطراداته الامر الذي يسبب الملل والسأم والذي يجعل الاستفادة منهُ قليلة والسير فيهِ عسيراً وهذا على ما اعتقد السبب في عزوف الشباب عن

الادب العربي واندفاعهم الى الادب الغربي الذي يبهرهم حسنه وسهولته .... ولقد احسن المصنفان خليل بيدس وشريف النشاشيبي باخراج كتاب البيان والتبيين في طبعه مبوبة تتفق وذوق المطالع الحديث ولقد قاما حقّاً بمجهود عظيم فقد جاء في المقدمة (وقد اختصرناه على ما يوافق غرضنا من هذا العمل ونحن حرصون على ان نختار افضله واجوده وننتقي اعذبه واطيبه ليكون كتاباً مدرسيًّا قريب المنال صافي المورد وقد جاهدنا جهاداً غير قليل في ترتيبه وتنسيقه فجمعنا كل بحث من ابحاثه في باب على حدة ثم ضبطناه وشرحناه وطبعناه طبعاً متقناً انيقاً على اجود ورق واحسن هيئة ولم نتصرف في ابحاثه بين زيادة ونقصان الا حيث كانت تدعو الحاجة او يضطرنا السياق ولكننا تصرفنا تصرفاً تامًّا مطلقاً في ايراد الاخبار والاقوال على ما يوافق الابواب) ....

والكتاب مصدَّر بترجمة وافية للجاحظ ثم يتلو ذلك ابوابه وأولها حسن البيان وعي اللسان فالبلاغة فالايجاز فالشعر فالخطابة وهكذا الى نهاية الكتاب وهو يطالعنا في كل باب من هذه الابواب باقوال الادباء وآثارهم لا يتقيد في ذلك بعصر من العصور. فالكتاب من هذه الناحية له قيمته الادبية لانه يطلعنا على آراء كبار رجال الادب قديماً في بعض موضوعاته ثم هو فوق ذلك يعرض علينا كثيراً من الخطب والوصايا والحكم والنوادر والشعر. واظهاره على تلك الصورة التي تلائم الطالب تجعله في الحقيقة كتاباً مدرسيًّا مفيداً. اما انه ككتاب ادبي يصح ان يعتبر وسيلة ادبية فهذا لا يتلاءم مع التغير الذي طرأ عليه ع. ف. ش.

محاولات في درس جبران

تأليف امين خالد يقع في ١٠٠ صفحة من الحجم الصغير

بين يدي كتاب صغير في درس جبران خليل جبران وهو في الحقيقة بحث جريء في موضوع جريء فجبران كاتب حر التفكير جريء ولا بدَّ لمن يدرسه من ان يكون جريئاً. والمؤلف في هذه الرسالة عميق التفكير دقيق البحث قوي الملاحظة شديد الانتباه وهي صفات يجب توافرها فيمن يتصدى لدرس امثال جبران فلا يجب ان نأخذ اقواله بمدلولها السطحي بل يلزم ان نغوص معه ونتعمق في معانيهِ حتى نصل الى الفكرة التي قصدها والغرض الذي اراده . ولقد وفق امين خالد في الغالب واطلعنا على نواحٍ من جبران لها خطرها ولكن كنا في بعض الاحيان لا نتفق معاً على النتيجة التي كان يستخلصها من مقدماته ولا على التعليل الذي يعلل بهِ بعض آرائه ...

يبتدىء الكتاب بتوطئة قصيرة ثم دراسة العناصر المؤثرة في شخصية جبران ثم يعقبها نظرة جبران في الحب فنظرته في الاخلاق واللذة والواجب والتوبة ثم انشاء جبران وغير ذلك من الدراسات العميقة لفلسفة جبران وادبه فالكتاب مفيد لمن يريد ان يدرس هذا الفيلسوف الجريء — الذي اخذ الفلسفة من مدرسة الحياة — ويطلع على آرائهِ الحرة المتطرفة ع. ف. ش.

باب الأخبار العلمية

الاجنحة الفرنسية

بين النكبة والظفر

من عجائب الطبيعة ان يتحاذى فيها الجبل والوادي ومن آيات الحياة ان يتقابل فيها الظفر والخذلان والفرح والالم. كذلك فكرنا في ١٦ يناير اذ قرأنا في عمود واحد من احدى صحفنا نبأ عودة السرب الفرنسي من رحلته الجوية الافريقية يوم ١٥ يناير فاستقبل استقبالاً حافلاً في مطار لبورجه ونبأ النكبة التي حلّت بالطيران الفرنسي بسقوط الطيارة «اميرود» واحتراق جميع ركابها في مساء ١٥ يناير نفسه

ففي يوم واحد بسمت الحياة لفرنسا وعبست. واذ كانت الطبيعة تحبو فرنسا بغبطة الظفر في ناحية كانت تهيء لها كذلك مرارة الخذلان والم النكبة في ناحية اخرى. غير ان فرنسا المجيدة تستطيع ان تتسامى بغبطتها وألمها معاً الى امجاد اخرى

وقد اطلعنا في جريدة البوبولو ديطاليا على مقال نفيس للمرشال بالبو الايطالي — قائد السرب الذي طار من ايطاليا الى شيكاغو وعاد الى ايطاليا في السنة الماضية — عن رحلة السرب الفرنسي بقيادة الجنرال فويلمان فرأينا ان نثبت هنا طرفاً مما جاء فيها لمكانة رأيه في هذ الموضوع قال :

ان الطيران الايطالي قد تتبع بعناية كبيرة رحلة السرب الفرنسي بقيادة الجنرال فويلمان لأنها ولا ريب رحلة خطيرة حافلة بالفوائد

لم يهتم الرأي العام الدولي بهذه الرحلة الاهتمام الجديرة به لان الصحف لم تردد انباءها كما فعلت في حوادث اخرى من هـذا القبيل. وخطر هذه الرحلة من وجهة تقدم الطيران انها الرحلة الاولى التي عنيت الحكومة الفرنسية بتنظيمها بعد محاولات الطيارين الافراد من ابطالها في مختلف نواحي الطيران واحرازهم اكليل الفوز في غير واحدة منها. فقد كنا نحن في ايطاليا اول من رأى ان عهد الجهد الفردي في الطيران قد انقضت فائدته وانه لا بد من تجربة التجارب برحلات الاسراب الجوية المنظمة لان ما يجنى من امثال هذه الرحلات اجدى نفعاً على ارتقاء الطيران. ورحلة سرب الجنرال فويلمان تدلّ على ان فرنسا اخذت بهذه الخطة ولا ريب انها سوف تصيب فيها من الامجاد مثل ما اصابته في عهد الرحلات الفردية

انها لن تقف عند هذه المحاولة .. لان الطيارات هي الحضارة. وليس في هذا القول مبالغة رغم الحوائل النفسية وغيرها مما أخر تقدّم

الطيران المنظم حتى الآن تأخيراً معيباً . وقد احسنت فرنسا في انها جعلت رحلتها الاولى مصبوغة بالصبغة الافريقية حيث تمتد امبراطوريتها العظيمة فترتبط بين شعوبها والشعب الفرنسي ولا ريب في ان هذه الرحلة ستفتح طرقاً جديدة للمواصلات الجوية في الصحراء الكبرى. اذ لابد من دك هذا الحائل الكبير — اعني الصحراء الكبرى — التي يهواها طلاب المغامرة ولكنها تقف سدًّا في سبيل ترقية افريقية واستثمار مواردها الغنية لفائدة البشر

وقد افتتحت فرنسا خطتها الجديدة برحلة احسن تدبيرها من كل الوجوه التجارية والفنية . فهي لم تصنع لهذه الرحلة طائرات جديدة ولا محركات جديدة بل قد استعملت الطائرات الشائع استعمالها في السلاح الجوي الفرنسي . ثم ان رحلة يجتاز فيها سرب من الطائرات مسافة عشرين الف كيلو متر في ٣٢ مرحلة في اربعين يوماً تحتاج الى تنظيم دقيق في كل ما يتصل بطعام رجالها وبنزين الطائرات وأماكن اصلاحها اذا احتاجت الى اصلاح ومواقع النزول والقيام بوجه خاص لان اكبر جانب من الرحلة كان فوق صحارٍ قاحلة

وقد اثبت الجنرال فويلمان انه رجل ممتاز وانهُ ادرك مقتضيات الطيران الحديث المنظم فسار في رحلته بعد شهر واحد من التمرين وهي رحلة تحتاج الى صفات نادرة في الرجال من قوة الإرادة ورباطة الجأش وضبط النفس . ان اجتياز سرب كبير من الطيارات للصحراء الكبرى مفخرة عظيمة للطيران العالمي وقد اثبت السرب الفرنسي دقة متناهية في القيام في المواعيد والوصول في المواعيد المعينة للمراحل المختلفة ولم يحدث لهم حادث يستحق التدوين لان السرب سار بحسب النظام الذي وضع له

كانت الرحلة صعبة المراس وكانت الاقطار التي اجتازها السرب يختلف احدها عن الآخر فقد طار فوق جبال شاهقة وجبال متوسطة العلو وصحارٍ قاحلة شاسعة . فالنجاح تاج جدير بهذا الجهد العظيم

سم الاسنان وسم التعب

العناية بالاسنان من مستلزمات الصحة فاذا تركت الاسنان تفسد وتبلى ادى ذلك الى اضطراب الهضم . بل انهُ اذا كان في ميناء السن اصغر منفذ الى الداخل بات ذلك المنفذ الصغير بؤرة تتجمع فيها البكتيريا . وقد أبان الدكتور هيات من اساتذة مدرسة طب الاسنان في كلية جامعة نيويورك ان اصغر ثقب او شدخ في السن يسع ٩ آلاف مليون من البكتيريا . وفحص مليوني سن فوجد انهُ اذا اهملت السن فانها تفسد وتبلى على نسبة ٢٠٠٠ الى ١ . والعلاج الوحيد هو حشو الثقوب التي في الاسنان والانتباه للطعام

ولما كان عدد الذين يهملون اسنانهم ويفضلون احتمال الالم على استشارة طبيب الاسنان كثيراً جدًّا لا عجب اذا كثرت الاصابات بالامراض الخاصة بالجهاز الهضمي وحوادث «التسمم» العام

وهناك سم آخر لا ينتبه له كثيراً وهو سم التعب . وقد عرف ان التعب يولد سمًّا في الدم او « توكسيناً » سماه الدكتور فينخرت الالماني

« كينوتوكسين » . ودرس هو والبروفسور انزلر هذا الموضوع درساً وافياً . واليك خلاصة بحثهما : —

ان معظم الامراض الخطرة يسبقها شعور بالفتور والتراخي الشديدين وكل من اصيب بالانفلونزا او ذات الرئة (النومونيا) اوالقرمزية او التهاب اللوزتين وغيرها يعلم ذلك الشعور بالتعب الشديد عند هجوم المرض وبان الرجلان لا تكادان تحملان الجسم

فوجد الباحثان المذكوران ان سبب هذا الشعور هو امتصاص الجسم للجرثومة الخاصة بالمرض فاستدلاً من ذلك على ان التعب ناشيء كذلك عن «تسمم» الجسم بنوع من التوكسين. وحقن الدكتور انزلر عضلات ضفدع تعبة بمحلول الملح في الاوردة غاسلاً به التوكسين الذي سبب تعب العضلات فعاد الى العضلات نشاطها المعتاد

وتبين له ان حالة التعب ناشئة عن زيادة الحمض في الجسم . ولمقاومة هذه الحالة نذخر في اجسامنا مقادير من المادة القلوية. وهذه المادة تفرزها اجسامنا وتمتصها مدة اشتغالها بعمل شاق متعب . وكذلك تفرز اجسامنا العرق الغزير في الرياضة العنيفة . والعرق حمض مالح مشبع بتوكسين التعب . فاذا تعب الجسم تعباً عادياً فان النوم يزيل هذا التوكسين منه فاذا لم يسترح الاستراحة اللازمة في النوم شعر بالتعب والاعياء واذا دام الحال على هذا المنوال اي اذا تعبنا كثيراً ولم تنل اجسامنا القسط اللازم لها من الراحة والتعويض اما من قلة الغذاء او من قلة النوم فانها لا تلبث ان يدركها الضنى

تهشيم الذرة

اطلق الاستاذ لورنس من جامعة كاليفورنيا دوتونات سريعة جداً على بعض المواد فهشمت بعض ذراتها واطلقت قدراً كبيراً من الطاقة . ووجَّه كروكروفت وولطن من جامعة كمبردج الدوتونات الى عنصر البورون فهشمت بعض ذراته واطلقت قدراً كبيراً من الطاقة . وكذلك وجَّه عالمان من علماء جامعة شيكاغو الدوتونات الى عنصر النيون فوصلا الى النتيجة نفسها . وحولت ذرات الليثيوم في كيل بالمانيا باطلاق بروتونات بطيئة بطئاً نسبياً عليها

* ثبت امكان تحول الطاقة الى كتلة باطلاق نوى ذرات الهليوم على عنصر الليثيوم

الايدروجين الثقيل

ذكرنا في انباء الكيمياء صفحة ٢٥٠ ان احد العلماء اقترح اطلاق اسم بروتيوم على الايدروجين العادي (وزن ١) واسم دوتيريوم على نظيره الايدروجين الثقيل (وزن ٢) وقد قرأنا الآن ان اللورد رذرفورد اقترح اطلاق « دبلوجين » على الايدروجين الثقيل و « دبلون » على نواته

استدراك

جاء في مقال « الطبيعة رائد المخترعين — المنشور في هذا الجزء من المقتطف » البقباق المائي والصواب البق المائي

ونبّهنا الاديب روح شخاشيري نجل الدكتور شخاشيري الى خطإٍ وقع في الصفحة ٤٤ من العدد الماضي سطري ٢٩ و ٣٠ والصواب بابدال لفظ «ماء» بلفظ «هواء» مرتين في السطر ٢٩

العلم في العام الماضي

الطبيعة

* كانت أدنى درجات الحرارة التي بلغها علماء جامعة ليدن بهولندا $\frac{85}{1000}$ من الدرجة فوق الصفر المطلق ، وهي درجة البرد التي تقف عندها حركة الذرّات

* اثبت الدكتور بلاكت والباحث اوكياليني في جامعة كمبردج وجود البوزيترون (الكهرب الموجب) الذي اكتشفه الدكتور كارل اندرسن احد اساتذة جامعة كاليفورنيا

* اطلق اسم دوتون Deuton على نواة الايدروجين الثقيل الذي كشف سنة ١٩٣١ ودعي دوتيريوم Deuterium

* يرى الدكتور بلاكت مثبت وجود البوزيترون ان الفضاء بين المجرّات حافلٌ ببوزيترونات عظيمة الطاقة . وان مجموع كتلتها جزءٌ لا بأس بهِ من كتلة الكون

* دلت المباحث التي قام بها كومطن وملكن في الاشعة الكونية على انها خليط من الدقائق والفوتونات (دقائق الضوء) وقد يكون في بعضها بوزيترونات (كهارب موجبة)

* اثبتت تجارب مركوني ان الامواج اللاسلكية القصيرة تخترق الجبال و تتحدب بتحدب الارض فتبلغ المحطات اللاقطة التي وراء الافق

* تبين من مباحث العلماء في سويسرا وانكلترا ان الاوزون يكثر في الجو على ارتفاع ثمانية اميال فوق سطح البحر

* يذهب الدكتور فرانز كوري Kurie احد اساتذة جامعة بايل الى ان النيوترون دقيقة اساسية من دقائق الكون وليس مركباً من كهرب وبروتون محشوكين معاً اي ان احدها قريب من الآخر حتى يكادان يكونان متلاصقين

الكيمياء

* صنع الاستاذ لوِس (جامعة كاليفورنيا) اثقل ماء عرف حتى الآن لان الماء الذي صنعه كان مركباً (٩٩٫٩ في المائة) من نظير الايدروجين الذي وزنهُ ٢ وهو المعروف بالدوتيريوم . وقد ثبت في جامعة برنستن ان الماء الثقيل (اذا كان ٩٢ في المائة من ايدروجينهِ ايدروجيناً ثقيلاً «دوتيريوم») يميت دعاميص الضفادع وبعض الاسماك والديدان

* اقترح ان يدعى الايدروجين (وزن ١) بروتيوم وان يدعى نظيرهُ (وزن ٢) وهو الايدروجين الثقيل دوتيريوم

* كشف الاستاذ استن (جامعة كمبردج) وهو المعروف بابي النظائر نظيرين جديدين لعنصر الزئبق وزن احدها ١٩٧ ووزن الآخر ٢٠٣

* تمكن الكيماوي المجري زنت جورجي من تحويل السكر والنشاء الى مواد ابسط تركيباً ، بتعريضها لفعل امواج الصوت التي لا تسمع لقصرها. واثبت عالمان من جامعة بنسلفانيا ان امواجاً صوتية مما يمكن سماعه ، تجمّد المواد الزلالية وتحل الادهان النباتية وتحول السكر الى غلوكوز

الطيران

* كان اعلى ما حلّق اليهِ الانسان ارتفاع ٦٢٣٤٠ قدماً بلغه الطيارون الروس في بلون ولم يعترف بهِ اعترافاً رسميًّا . اما الرقم القياسي فهو ٦١٢٤٣ قدماً فوق سطح البحر بلغهُ الكومندر ستل والماجور فوردني من البحرية الاميركية في خلال معرض شيكاغو في اواخر الصيف المضي

* طار الطيار الاميركي وِيلي بوست حول الارض في سبعة ايام وبضع ساعات . بدأ رحلته من نيويورك فعبر المحيط الاطلنطي ثم طار فوق اوربا الى روسيا فاجتاز سيبيريا الى الاسكا ومنها جنوباً الى الولايات المتحدة فقطعها من الغرب الى الشرق. وكان وحده في هذه الرحلة وهو أعور

* ضرب الملازم فرنشسكو آجلو الايطالي الرقم القياسي العالمي للسرعة بطيارة مائية اذ بلغت سرعتهُ في ١٠ ابريل ٤٢٣ر٨٢٢ الميل في الساعة (٦٨٢ر١٦٨ كيلو متر في الساعة) او اكثر قليلاً من سبعة اميال في الدقيقة

* اعلى ما بلغهُ الطيارون بطيارة ٤٤٨١٩ قدماً (١٣ر٦٦١ متراً) وهـذا الرقم القياسي للطيار الفرنسي لوموان

* ضرب الطياران الفرنسيان رومي وكودوس الرقم القياسي العالمي في طول مدى الطيران اذ طارا من نيويورك الى الرياق في سهل البقاع في مرحلة واحـدة والمسافة ٥٦٧٥ر٣٨٧ الميل أو ٩٠١٠٤ر٧٠٠ الكيلو متر — وطار الطيّاران الانكليزيان غايفورد ونيكولتس من انكلترا الى جنوب افريقية الغربية مسافة ٥٣٤١ ميلاً في ٥٧ ساعة و ٢٥ دقيقة — وطار الطيار تشارلس اولم من انكلترا الى استراليا في ستة ايام و ١٧ ساعة و ٥٧ دقيقة

* ظلّ الطيّار الالماني كورت شمت محلقاً ٣٦ ساعة و ٣٥ دقيقة في الهواء بطيارة من الطيارات المعروفة بالسابحات في الهواء (اي بلا محرك)

* واجتاز الطيّار الاميركي الكولونيل روسكو ترنر الولايات المتحدة الاميركيـة من لوس انجلوس الى نيويورك في ١٠ ساعات وخمس دقائق و ٣٠ ثانية . فكان متوسط سرعته نحو ٣٠٠ ميل في الساعة

الفلك

* في ١٩ اكتوبر تساقط في اوربا شؤبوب من الشهب لم يحسب الفلكيون لهُ حساباً

* في اغسطس ظهرت كلفة كبيرة على سطح السيار زحل

* حسب الاستاذ جوي Joy (استاذ علم الفلك سابقاً في جامعة بيروت الاميركية) ان المجرّه تدور كعجلة العربة في مدة قدّرها بـ ٠٠٠ ٠٠٠ ٢٤٠ سنة

* حسب الدكتور مكملن احـد أساتذة جامعة كاليفورنيا ان حرارة قلب الشمس تبلغ ٠٠٠ ٠٠٠ ١٠٠ درجة مئوية على الاكثر

* المرجَّح بحسب مباحث علماءِ الفلك في مرصد مشيعن بمدينة بلومنفلد (جنوب افريقية) ان نجماً من كل اربعة نجوم في الفضاء هو نجم مزدوج

* اكتشف فرع مرصد هارفرد بمدينة جوهانسبرج (جنوب افريقية) نجماً متغيراً يتغير قدره (لمعانهُ) ١٦ مرة في اليوم

* يرى الاستاذ رسل فلكي جامعة برنستن ان بناء العناصر الثقيلة من الايدروجين هو مصدر الحرارة العالية داخل النجوم

* اثبت الدكتور ووترفيلد الفلكي الانكليزي ان لمعان القمر المخسوف يبلغ $\frac{١}{١٠٠٠٠}$ من لمعان البدر

* تبيّن ان العنصر الذي ظنَّ انهُ كشف في الشمس ودعي كورونيوم (اي الاكليلي) هو وعنصر الاكسجين واحد. وذلك بحسب مباحث طائفة من العلماء في مرصد هارفرد ومعهد ماستشوستس الصناعي

* اكتشفت ثلاثة مذنبات، الاول في فبراير كشفهُ احد هواة الفلك والثاني في يوليو كشفه الاستاذ غارورينا احد علماء مرصد مدريد والثالث في اكتوبر كشفهُ الدكتور هوبيل احد علماء مرصد هارفرد

الهندسة

* فازت الباخرة الايطالية «ركس» بقصب السبق في سرعة عبور المحيط الاطلنطي اذ قطعت مسافة ٣١٨١ ميلاً من جبل طارق الى منارة امبروز امام نيويورك في ٤ ايام و١٣ ساعة و٥٨ دقيقة

* بلغت سرعة السر ملكم كمبل بسيارته على شاطىء ديتونا باميركا ٢٧٢٫١٠٨ الميل في الساعة

* صنع حوض جافّ في سوثمتن يتسع لاصلاح او ترميم باخرة حمولتها ١٠٠ الف طن

* اشرف النفق الذي يبنى تحت مرفأ بوسطن (وطولهُ ٥٧٠٠ قدم) على التمام وينتظر ان يفتتح في خلال سنة ١٩٣٤ لسير المركبات فيهِ فيصل مدينة بوسطن بما يعرف عندهم باسم بوسطن الشرقية

* صنع مصعد لاحدى بنايات مدينة روكفلر التي شيّدت في قلب نيويورك يقال ان سرعتهُ ١٤٠٠ قدم في الدقيقة

* تمَّ نقل التيار الكهربائي مباشرة بين نيويورك ومدينة دالاس بولاية تكساس، والمسافة ١٨٥٠ ميلاً

* بني في مدينة اشفيل تنيسي برج لاسلكي علوه ٨٧٨ قدماً هو اعلى الابراج اللاسلكية التي بنيت حتى الآن على ما يُعلم

الطب

* كان البحث في الغدة النخامية، في طليعة المباحث التي عالجها العلماء في السنة الماضية فأثبتوا انها تفرز هرمونات لها اثر في النموّ والحيوية التناسلية، واستعمال الجسم للسكر، وافراز اللبن في الاناث. وبيَّن الدكتور هكتور مورتيمر احد اطباء بوسطن، ان تاريخ فعل الغدَّة النخامية في صحة الانسان ونموه العقلي الجسماني يمكن ان يستخلص مما يصيب الجمجمة من وجوه التغير، على ما يُشاهد في صور الاشعة السينية

* بين الاستاذ ارثر كوكا، احد علماء كلية الطب بجامعة كورنل، ان التلقيح الواقي من

النزلة الصدرية قد يصبح مستطاعاً ، لانهُ اثبت ان الاصابة بها يمكن منعها بحقن تحت الجلد تحتوي على سم جراثيم النزلة . وبذلك يصبح منع هذا المرض ومنع الجدري من قبيل واحد

* اثبت الدكتور سيمون فلكسنر ، احد علماء معهد روكفلر الطبي ان الفيروس المسبب لداء شلل الاطفال ينتقل من الانف الى الدماغ عن طريق خلايا عصب الشم لان فروع هذا العصب معرضة على سطح الغشاء المخاطي داخل الانف

* من اعجب العمليات الجراحية التي تمت في خلال السنة الماضية ، نزع رئة كاملة من صدر طفل مصاب بسرطان الرئة والطفل الآن حيٌّ معافىً . وقد اجرى هذه العملية الدكتور رينهوف في مستشفى جونز هبكنز . وكان قد سبقهُ الى عملية نزع الرئة الدكتوران جراهام وسنجر في كلية الطب بجامعة جورج وشنطن (مدينة سانت لويس)

* يستعمل نزع الغدة الدرقة السوية الآن لازالة احتقان القلب وتخفيض وطأة الذبحة الفؤادية Engina Pectoris

* استخلص الطبيبان غرولمان وفيردر — بجامعة جونز هبكنز — مادة من قشرة الغدد الكلوية ، يظنُّ انها لنقاوتها ، هي هرمون الغدة الصافي . ويقال ان البحث جار الآن ، والامل كبير في صنع هرمون الغدد الكلوية بالتركيب الكيمائي . وقد بيّن الدكتور زويفر — جامعة كولومبيا — ان هرمون قشرة الغدة الكلوية له اثر في تعديل مقدار الماء والملح والجسم ، شبيه بفعل هرمون الغدّة الحلوة — الانسولين — في السكر

* عولجت سبع حوادث من تأخر النموّ — حتى لكاد يكون اصحابها اقزاماً — بخلاصة هرمون الغدة النخامية الذي يزيد النموّ . وعولجت نساءٌ اصبن بالشيخوخة قبل زمانها على اثر ازالة الاعضاء التناسلية بمادة تعرف باسم ثيلين Theelin وهي هرمون الانثى الجنسي (الشقي)

* هُيّجت غريزة بناء الاوكار في اناث الارانب بحقنها بعقار محتوٍ على المادة الفعّالة من غدد امرأة حامل تدعى استر بوجن تيتز من مدينة سنسناتي الاميركية

* صنعت آلة كهربائية لمستشفى الرحمة في شيكاغو ضغطها الكهربائي ٨٠٠ الف فولط ، لتستعمل في معالجة السرطان

* صنع الفيتامين C المانع للاسكربوط بالتركيب الكيمائي في معهد زوريخ البوليتكنيك وقرر الدكتور ملر من اساتذة جامعة بال انهُ وجد علاقة بين الغذاء الذي فقد منهُ فيتامين C وكتاركتا العين وايّده في ذلك جماعة من اطباء اميركا

* ظهر من المباحث التي اجريت في معهد ركفلر الطبي ان الاستعداد للمرض صفة وراثية كلون العينين والشعر والجلد

* ادعى الدكتور مكنلي والدكتورة اليزابت فردر من كلية الطب بجامعة جورج وشنطن (سانت لويس) انهما فازا بزرع مستعمرات من باشلس الجذام في مزدرعات صناعية خارج الجسم

الجزء الثاني من المجلد الرابع والثمانين

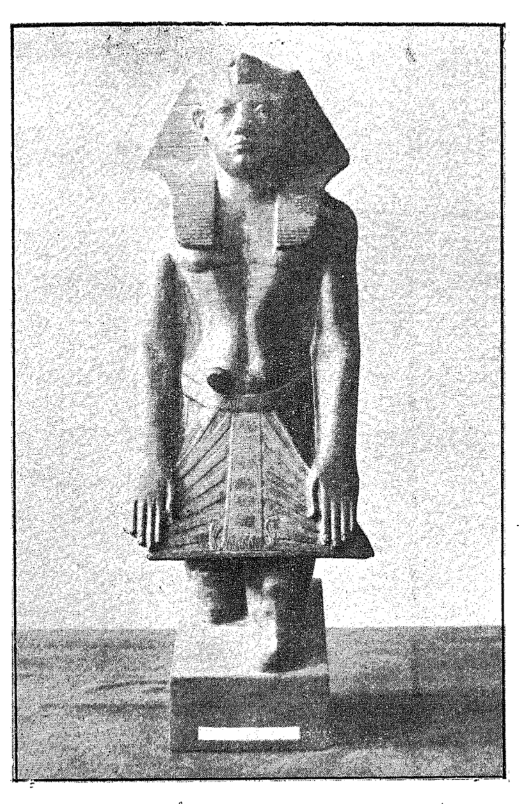
صفحة

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

٣٥ القاموس المصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ « « « (طبعة ثالثة)
٧٠ « « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ « المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ « « عربي انكليزي فقط
١٥ « « انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « « « « « وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في أوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسة « « «
١٠ الآراء والمعتقدات « « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « « «
٢٠ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات « « «
٨ نظرية التطور وأصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله للامير شكيب ارسلان
١٥ الدنيا في اميركا (للاستاذ امين بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبد الله حسين)
١٠ جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥ حصاد الهشيم (للاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني)
١٠ قبض الريح (« « « « «)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الادب المصري (ميخائيل نعيمة)
٥ حكايات الاطفال ج اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « «
٥ « « ثالث « «
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥ مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥ خواطر حمار (« الاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠ تاييس « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠ « فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨ « الانتقام المذيب (اسعد خليل داغر)
٥ « فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢ « باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ « روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ « ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠ « باردليان ، ٣ اجزاء «
٢٠ « الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
٢٠ « الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠ « عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦ « الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦ « كابيتان ، جزآن «
١٦ « الوصية الحمراء ، جزآن «
١٦ « بائعة الخبز «
١٢ « فلمبرج ، جزآن «
١٠ « فارس الملك «
١٠ « ضحايا الانتقام «
٨ « المرأة المفترسة «
٥ « المتنكرة الحسناء «
٥ « مروحة الاسود «
٥ « شهداء الاخلاص «
١٦٠ « دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « «
١٠ « الجنون فنون « «
٨ « حورية « «
٨ « البلاماق الطريداني « «
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٨ النبي (« « «)
٥ آلهة الارض (« « «)



انموذج لتمثال امنمحعت الثالث بمتحف فؤاد الأول الزراعي . والاصل في دار تحف القاهرة . والى هذا الملك يرجع الفضل في انشاء الجزء الاكبر من مشروعات الري العظمى بالفيوم

تصوير الدكتور حسن كمال

المقتطف

مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الثالث من المجلد الرابع والثمانين

١ مارس سنة ١٩٣٤ — ١٥ ذي القعدة سنة ١٣٥٢

من السدم النارية

الى الانسان العاقل

النظام الكوني ومكان الحياة والعقل فيهِ

اي نظام يسود هذا الكون الفسيح ? سؤال يعرض لنا عند ما نرفع بصرنا الى رحاب الفضاء في ليلة صافية الاديم، وعند ما نحدق في المكرسكوب فنرى تلك الكائنات الحية الدقيقة التي تستسرُّ عن بصرنا ولكنها مع ذلك تملك من قوى الخير والضر ما لا يتصوره العقل ، وعند ما نشهد افعال الجسم الحي في الصحة والمرض وما تملكه الاعضاء من عجائب التكوين ومعجزات الاتساق والدفاع والتجدد ، في كل هذه الحالات نسأل ما هو النظام السائد في هذا الكون العظيم ?

وإذ نفكر في هذا السؤال ونتصور انفسنا واقفين على سطح هذا السيار — الارض — نعجب بالشمس وضوئها وحرارتها ، وبالسيارات .نتأمل في اقدارها وابعادها وما يدور حولها من اقمار ، وبالنجوم وابعادها وعددها والرحاب الفسيحة بينها — نسأل : وما معنى كل ذلك ?

كيف بدأ هذا النظام الكوني العجيب ? والى أين مصيره ? وما مقام الحياة فيهِ ? وما مستقبل العقل والذكاء وأثرهما في تسيير شؤونه او تصريف احواله ? هذه هي الاسئلة التي ما زالت الانسانية توجهها الى عباقرها من فجر الخليقة ، او من فجر العقل ، فلننظر الآن بصورة مجملة كيف يجيب عنها ابن السنة الرابعة والثلاثين من القرن العشرين

اننا نقسم الكائنات الى قسمين — عضوي ويشتمل على الكائنات الحية ، وجامد او غير عضوي

كالصخور والمعادن . واذا دققنا النظر في رحاب الكون وجدنا في الغالب ، على ما نستطيع ان نرى ونحقق ، عالماً او كوناً غير عضوي لاننا حتى الساعة لم نكشف عن دليل مباشر ، يثبت لنا ان في رحاب الفضاء او على سطوح اجرامه اثراً للحياة . أما على سطح الارض فالامر يختلف عما تقدم . ان يابستها واغوارها المائية حافلة بالاحياء ، صغيرها وكبيرها ، بسيطها ومعقدها ، نباتها وحيوانها. وكل نوع منها بل كل ضرب ، يستطيع ان يتناسل بطريقة من طرق التناسل العجيبة وأحد هذه الانواع من الاحياء قد تطوَّر في خلال عشرات القرون فأصبح ذا عقل وذكاء ، يجعلانه فذًّا في الكون الرحب، الى حد ما بلغه علمنا اليقيني . ونحن البشر اصحاب هذا العقل وبه نستطيع ان نرود رحاب الفضاء دهشين متسائلين : ما معنى كل هذا ؟

ويجب ان نذكر، ان عقلنا هذا شيء جديد ، او صفة طارئة حديثة . فليس لاحد من الاحياء التي تعمر سطح الارض شيء من هذا ، بالمعنى الذي نقصده . ومع اننا نستطيع ان نعدّ الطرق ونبني السكك الحديدية ونصنع الطيارات والتلسكوبات وآلات الراديو العجيبة ، يجب ان نفهم اننا ما نزال في مستهل عصر العقل، في الشوط الاول من مضماره . قد نظن انه تفذنا بعلمنا الى اعمق اسرار الطبيعة وأحطنا بظواهرها ، والواقع اننا ما نزال من الطبيعة على شاطىء رحب وقد التقطنا من در حصبائه حجراً واحداً — وهو قول للفيلسوف العظيم اسحق نيوتن

اننا لا نعلم هل نحن صورة الحياة الفردة في هذا الكون الفسيح . ولا نعلم هل الارض بين الوف الوف الاجرام المنثورة في رحاب الفضاء هي المأوى الوحيد للعقل والذكاء . فنحن اشبه ما نكون بفريق من الحطابين او الصيادين ، وقد دخلوا دغلاً ملتفَّ الاشجار من الادغال في قلب افريقية ، وهم لا يدرون ، هل في الدغل غيرهم من الناس

مضت قرون ، والناس يسألون انفسهم هذه المسائل واشباهها . ففي عهد بطلميوس ، سأل الناس ما مكانة الانسان في الكون . فأجاب بطلميوس « انه من الكون في المركز . في الصميم » . ولكن غليليو ، من نحو ثلاثمائة سنة ، صرَّح ، بأن جواب بطلميوس لا يمكن ان يكون صحيحاً بل قال ، انه يظن ان الجواب يجب ان يكون كما يأتي : — « ان الانسان يعيش على احد السيارات الصغرى التي تدور حول شمس في المركز » . وانقضت مائتا سنة اثبت العلماء في خلالها ان قول غليليو، لم يكن صواباً كله ، وان الشمس التي تدور حولها ارضنا ، ليست في مركز الكون كما كان يظن ، وقالوا ان هناك الوفاً وملايين من الشموس تدور حول كل منها سيارات ، وقد تكون هذه السيارات مأهولة كالارض . اما فلكيُّ اليوم فيقول بلسان العالم البريطاني السر جيمز جينز : « كأني بالحياة نادرة في الكون ، لاننا لا نعرف نوعاً من الاجرام السموية ، تجتمع فيه العوامل المؤاتية للحياة إلاَّ السيارات التي كالسيارات الدائرة حول شمسنا ، وهذه السيارات نادرة »

مما تقدم نستطيع ان نتبين ، ان الاحياء العاقلة ، نادرة في الراجح ، في بحر خضم من الزمان

والمكان والطاقة . ونحن على الارض اذا ازدنا ان نتكلم عن الحقب الطويلة قسناها بالقرون — القرن مائة عام — ولكن مقاييسنا البشرية صغيرة ضئيلة ، ازاء رحاب الكون الزمانية . لذلك اذا فكرنا في نظام الكون وامتداده الزمني وجب ان نعمد الى ملايين القرون . فقد مضى مثلاً على ارضنا نحو عشرين مليون قرن (٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ سنة) وهي تدور حول الشمس . والادلة الجيولوجية المنتزعة من الصخور المشعة تؤيد هذا التقدير . وقد مضى على الانسان رأس الخلائق على الارض نحو خمسة آلاف قرن (٥٠٠٠٠٠ سنة) وهو حيوان منتصب القامة . ثم ان الادلة تدل على ان الكائن الحي الذي تطوّر الى الانسان ، انتقل من طور القردة من نحو خمسمائة الف قرن (٥٠٠٠٠٠٠٠ سنة) فانقضى عليه قرن يليه قرن ، اضطرّ فيه بحكم الحاجة الى الغذاء والدفاع عن النفس ان يربي ملكات العقل وعلى ذلك يكون قد انقضى على الانسان نحو ٤٩٧٠ قرن بعد ما انتصبت قامتهُ (٤٩٧٠٠٠ سنة) قبل ان اصبح عقله ، قادراً ان يدرك انه سابح في خضم الفضاء ، على سيار يدور حول شمس . لان هذا الادراك لم يأته الاَّ من نحو ثلاثين قرناً اي ثلاثة آلاف سنة

اما كولمبوس فلم يكتشف اميركا الاَّ من ٤٤٢ سنة ، بعد ان عانى ما عانى في اقناع ابناء جيله بان الارض كروية . ومن نحو ٣٠٠ سنة فقط سجن غليليو لانه ذهب الى ان الارض ليست مركز الكون . وكذلك يتبين لنا ، ان العقل او الذكاء شيء جديد ، في التكوين البشري

وهذه الارض ، التي نجدنا عليها ، ونحن نستيقظ استيقاظنا العقلي الذي يبعثنا على توجيه المسائل ومحاولة الاجابة عنها — هذه الارض ترافق امها الشمس في رحلة في خلال الفضاء ، نكاد لا نعلم عنها الاَّ اقل من القليل . الى اين نحن ذاهبون ؟ ولماذا ؟ سؤالان يبعثان في النفس الدهشة والعجب . وأمنا الشمس نجم متوسط بين النجوم . فليس فيها شيء غير عادي ، اذا قيست بالثلاثين الف مليون من النجوم التي تتكوّن مجرّتنا منها . وكوننا ابناء سيار ، من تسعة سيارات تدور حول شمس هي واحدة من ثلاثين الف مليون شمس ، يحملنا على التفكير في هل مقامنا في الكون حيث نظنه نحن خطراً وجلال شأن ؟

ومع ذلك فالمجرة ليست كل الكون . ذلك انهُ لما استطاع علماؤنا ، ان يستنبطوا وسائل جديدة فعالة لريادة الفضاء ، اكتشفوا وراء المجرة مجرات اخرى ، كل مجرة منها اشبه شيء بجزيرة كبيرة ، في خضم من الفراغ ، او ما يكاد يكون فراغاً ، لذلك دعيت هذه الاجسام الكونية الضخمة بالمجرات الخارجية (اي خارج مجرتنا) او بالعوالم الجزرية (نسبة الى جزيرة) . كنا الى ان اكتشف هذا الاكتشاف ، نظن ان المجرة هي كل الكون . واذ نحن مشغولون في التفكير بخطر هذا الاكتشاف جاءت الانباء بأن هذه العوالم الجزرية قد صوّرت بالفتوغراف . فالى اين تمتد ؟ او اين تنتهي ؟

ان اكبر التلسكوبات ، المستعملة الآن ، هو تلسكوب مرصد جبل ولسن ، وقطر مرآته العاكسة ١٠٠ بوصة او نحو ثماني اقدام وثلث قدم انكليزية . وقد ثبت من طرق تصوير الاكوان

الجزرية التي خارج المجرة بهذا التلسكوب ، ان عددها قد يبلغ الملايين ، وكل منها من طراز مجرتنا وقد لا تقل نجومها عن بضعة آلاف مليون من النجوم . بل يظن او يقدر انهُ اذا تم بناء التلسكوب الكبير ، الذي شرع في بنائه الآن ، وقطر مرآته العاكسة ١٦ قدماً وثلثا قدم او مائتا بوصة ، استطعنا ان نجد في الفضاء الذي يستكشفهُ هذا التلسكوب نحو ١٦ مليون مجرة من هذه المجرات . فالى اي مدى في اعماق الكون ، تمتد المجرات ؟ هذا ما يعنى بدرسه اينتشين ، وغيره من فطاحل العلماء

ونحن قد بدأنا ندرك معنى هذا الآن . اننا في الكون نشغل مكاناً لا يؤبه له . فالارض ازاء هذه الاجرام التي لا تحصى ، ولا تعد انواعها واشكالها ، كذرة من الغبار . ونحن الاحياء — الاجسام العضوية — نسكن كوناً لا يأبه للحياة ، اوكأنهُ لا يأبه لها ، فكأننا نفاية من نفايات الكون . فاذا كانت الوداعة مما يهذب الخُلق فيجب ان نكون في الذروة من سمو الخلق ، بفعل الوداعة والضعة اللتين نحس بهما اذ نقلب الطرف ، في هذا الكون ونرى اين نحن فيهِ

***

كيف نشأت ارضنا اولاً ؟ هذا سؤال مهم ، وقد انفق العلماء في الاجابة عنهُ وقتاً طويلاً وجهداً عظيماً وجاؤا بنظريات منوعة . ان الادلة المتجمعة الآن عند البحّاث تدل على ان الارض وسائر السيارات انطلقت من مادة الشمس في شكل ذراع غازية ، عند ما اقتربت منها في العصور الخوالي ، شمس اخرى فجذبتها اليها فانجذب من كتلة الشمس الغازية ، مقدار من المادة اتخذ شكل ذراع ، مستدقة الطرفين متضخمة في الوسط ، كأنها « سيجار هافانا » . ثم ان هذه المادة التي انطلقت بهذا الشكل ، جرت على احكام الطبيعة ، فتلاصقت دقائقها وانفصلت الى كتل ، كل منها اتخذ شكلاً كرويًّا ، وكذلك نشأت السيارات حول الشمس ، وهي تسعة اقربها عطارد وأبعدها بلوطو المكتشف حديثاً ولا نعلم هل وراءهُ سيار آخر وانما نعلم ان بينهما عطارد فالزهرة فالارض فالمريخ فالمشتري فزحل فاورانوس فنبتون

عرف عطارد في العصور القديمة وهو اصغر من الارض ، والراجح انه متجه دائماً بأحد وجهيهِ الى الشمس مشيح عنها بالوجه الآخر ، فهو على احد وجهيهِ شديد الحماوة حتى ليصهر الرصاص على سطحه ، وعلى الوجه الآخر شديد البرد . فالحياة على السطح الشديد الحماوة او على السطح الشديد البرد ، متعذرة ، اي الحياة كما نعرفها نحن . وقد توجد الحياة على سطحهِ ، في المنطقة المتوسطة بين الوجهين ، حيث لا الحماوة شديدة لا تطاق ولا البرد شديد لا يحتمل ، ولكن ليس عند العلماء الآن اقل دليل على ان هذا واقع

ويلي عطارد الزهرة ، وهي كوكب المساء احياناً وكوكب الصباح احياناً اخرى ، وتماثل الارض حجماً بوجه التقريب ، نهارها اسابيع وليلها أسابيع ، ونحن لا نعلم هل على سطحها احياء ، لاننا لا نرى من سطحها الاَّ الغيوم التي تغشاها . اما ارضنا فالحرارة تتباين على سطحها الاَّ عند القطبين

وفي جوارها ، من ١٢٥ بميزان فارنهيت (٥١٫٦ درجة مئوية) الى ٤٠ بميزان فارنهيت (وهي قريبة من درجة الصفر بميزان سنتغراد المئوي) ثم ان للارض جوًّا ، نتنفسهُ ونتنفس فيهِ ، وعلى سطحها ماء كثير لا ينفد لا بد منهُ للحياة . في هــذه الاحوال الطبيعية ، والمؤاتية نشأت الحياة وترعرعت وتطورت والراجح اننا لا نجدها — اي هذه الاحوال — مجتمعة على سطح سيار آخر

هل المريخ مأهول ؟

المريخ سيار يلي الارض في بعده عن الشمس وهو اصغر منها ولكن يومهُ قريب من يومها في الطول ، إذ يومهُ ٢٤ ساعة و٣٧ دقيقة بمقاييسنا الارضية ، ولكن متوسط حرارته اقل من متوسط حرارتها لانهُ ابعد منها عن الشمس فحرارته عند خط استوائه ، ترتفع الى ما متوسطهُ ٥٠ درجة بميزان فارنهيت او ١٠ درجات مئوية (سنتغراد) وتهبط في الليل الى ما دون درجة الجمد ، وفي هوائه بقية رطوبة ، فالحياة كما نعرف خصائصها مستطاعة على سطحه . فاذا كان على سطحه نبــات كما قال الاستاذ لول ، فيمكن اقامة الحجة ، بان على سطحه حيواناً كذلك

وكان الاستاذ لوِل يذهب الى ان الخطوط المستقيمة التي تظهر على سطحه ، ليست من صنع الطبيعة اعتباطاً بل من صنع احياء عاقلين ، ولكن بعض العلماء يظنون ان هذه الخطوط المستقيمة التي قال بها لوِل وغيره ، انما هي من الاوهام البصرية وقد عجز علمــاء الفلك عن تصويرها مباشرة حتى الآن ، ولكن عجزهم لا يمكن ان يؤخذ دليلاً على انتفاء وجودها لقصور التصوير الفتوغرافي من نواح متعددة. وكان لوِل محتماً رأيهُ على ان هذه الخطوط تمثل أقنية ، او ترعاً صنعت للري ، وان النبات الذي ينمو في مساحة عرضها نحو عشرين ميــلاً على ضفتي كل قناة ، جعل رؤية الاقنيــة — كما يدعي — ممكناً . وهذا كل ما لدينا من الادلة على وجود الاحياء على سطح المريخ

ويلي المريخ في البعد عن الشمس طائفة من الاجرام الصغيرة تعرف بالنجيمات كبراها نجيمة تدعى (سيريس) قطرها ٤٨٠ ميلاً فقط وهي اي النجيمات على ما يظن نثار سيار كبير قد تهشم

وراء النجيمات نجد اكبر السيارات ونعني المشتري وقطره اكبر من قطر الارض ١١ مرة وكتلته تفوق كتلتها ١٤٠٠ مرة اي اذا اخذنا ١٤٠٠ جسم كالارض ودمجناها معاً تولد منها جسم حجمهُ حجم المشتري او اقل قليلاً غير ان كثافة جسم المشتري اكثر قليلاً من كثافة الماء ، ودورانه على محوره يقتضي ١٢ سنة بمقاييسنا الارضية . اما حرارته على ما يرى من سطحهِ فتبلغ نحو ١٥٠ درجة تحت درجة الجمد ، فاذا كان على سطحه احياء عاقلة فيجب ان يكون تكوينها غير تكوين الاحياء العاقلة على الارض ، لان هذه لا تطيق حرارة باردة كالحرارة التي على سطحه . اما ما يعرف عن الاحوال على سطح المشتري غير ما ذكرنا فيسير جدًّا لان الغيوم تحجبه

ويلي المشترى السيار زحــل وهو فذٌّ بين السيارات لان له حلقات تحيط به . وكثافته اقل من كثافة الماء ، ومدة دورانه حول محوزه ٢٩ سنة ونصف سنة . ثم له علاوة على الحلقات التي

تحيط به تسعة اقار . والمظنون ان الحلقات مكونة من اجسام صغيرة كالحصى وحبيبات الرمل . أما ما نعرفه عن الاحوال على سطحه فيسير لان سطحه لا يرى من خلال الغيوم التي تحجبه . والراجح ان الحرارة على سطحهِ اذا كان له سطح منفصل عن الغيوم التي تحيط به ، فنحو ١٨٥ درجة تحت درجة الجمد لشدة بعده عن الشمس ، والحياة على سطحهِ كما نعرفها على سطح الارض متعذرة كل التعذر . ثم يجيء السيار اورانوس وراء زحل وهو يفوق الارض اربعة اضعاف حجماً ، وكثافته اقل من كثافة الماء حتى ليظن انهُ غازي وسنته (اي دورانه على محوره) ٣٤ سنة من سني الارض ، ولما كان ابعد من زحل عن الشمس فحرارته في الراجح اقل من حرارتها . والحياة على سطحه مستحيلة

ويلي ذلك السياران نبتون وبلوطو المكتشف حديثاً (من نحو اربع سنوات) وحرارة الاولى نحو ٢٤٠ درجة تحت درجة الجمد ، اما حرارة الثاني فأقل منهُ او اوطأ من ذلك والحياة لا يمكن تصوُّرها في مثل هذا البرد الشديد

***

هؤلاء هم ابناء الاسرة الشمسية ، وهي اقرب الشموس الينا في الفضاء . ومما تقدم نتبين ان الحياة كما نعرفها ونتصور خصائصها ، لا يمكن ان توجد الاَّ في منطقة ضيقة من الاسرة الشمسية نعني الارض ، وقد يجاريها في ذلك المريخ . فالسيارات القريبة من الشمس شديدة الحرارة ، والسيارات البعيدة شديدة البرودة ، والحياة لا تطيق الحرارة الشديدة ولا البرودة الشديدة

***

هل نستطيع التخاطب مع سكان الاجرام اذا كان ثمة سكان عاقلون ؟

لا ريب ان الوسيلة الوحيدة التي نستطيع ان نستعملها للتخاطب ، اذا كان ثمة من يتلقى رسائلنا ، هي امواج الراديو . فاذا كان بين الوف الالوف من النجوم ، نجم او اكثر لهُ امرة من السيارات كأسرة الشمس ، وكان على بعض هذه السيارات احياء عاقلون كالاحياء على سطح الارض ، لتوافُر الاحوال المؤاتية للحياة من دفء ورطوبة وغيرها ، فمن المعقول ان ننتظر اكتشاف هؤلاء الاحياء يوماً ما — وان كان الاحتمال بعيداً — بواسطة التخاطب اللاسلكي ؟ واذا اكتشفنا هؤلاء الاحياء او هم اكتشفونا ، فكيف نتخاطب وبأية لغة نتفاهم ؟ ان ذلك اليوم اذا جاء كسف جميع ايام التاريخ المشهودة !

وثمة ثلاثة اعتبارات يجب ان لا تعزب عن البال اذ ننظر في هذا الموضوع . اذا كان الجرم الذي نحاول الاتصال به كالمريخ جارنا ، يجب ان نذكر ان اشاراتنا اللاسلكية قد تصل اليهِ في نحو دقيقتين من الزمان ، لان الامواج اللاسلكية تجتاز الفضاء بسرعة ١٨٦ الف ميل في الثانية ، وهي سرعة الضوء . فالمريخ من وجهة النظر الفلكية قريب منا كل القرب . ولكن اذا كان ذلك الكائن الذي

مخاطبةُ قاطناً سياراً يدور حول نجم في عنقود هرقل Hercules Cluster لا بدّ ان يمضي على الاشارات اللاسلكية ٤٠ الف سنة قبلما تصل اليه . ثم ان الاشارة التي يردُّ بها علينا من هناك تستغرق كذلك ٤٠ الف سنة قبل ان تصل الينا — فالرسالة اللاسلكية تستغرق ٨٠ الف سنة ذهاباً واياباً ! وهذا زمن طويل اذا قيس بطول حياة الانسان التي تحصى بالستين او بالسبعين . وقد اردنا ان نذكر ما تقدم لنبين شيئاً من معنى المسافات الشاسعة التي تفصل بين الاجرام السماوية

والمسلم بهِ بين العلماء ان الحدث السموي ، الذي اسفر عن تكوُّن اسرة الشمس وقع من نحو الفي مليون سنة الى اربعة آلاف مليون سنة . فانقضت مئات الملايين من السنين قبلما اجتمعت الاحوال المؤاتية لظهور الحياة على الارض من نحو ١٥٠٠ مليون سنة . ولعل الكتلة الحية الاولى ، كانت خلية من البروتوبلاسما

هل ظهرت اولاً على الارض ، او في رحاب الفضاء ، ثم جاءت الارض بطريقة من الطرق على جناحي نيزك هابط من الفضاء ؟ يذهب بعضهم الى أنها ظهرت أولاً نتيجة لتفاعل بعض المواد الكيمائية في بعض الاغوار المائية . وقد حاول العلماء في كل انحاء الارض وبمختلف الوسائل ، ان يحدثوا هذا التفاعل الكيمائي ليخلقوا الحياة فعجزوا وباؤوا بالخيبة . اما اذا كانت الحياة جاءت الارض اولاً محمولة على مادة من مواد الفضاء التي تسقط على سطح الارض كل يوم ، فهي اذن موجودة في اماكن اخرى في رحاب الكون . ولا تنسينَّ ان بعض الاشكال الحية كالبزور تستطيع ان تتحمل درجات عالية من البرد من دون ان تقف قوة الانعاش اذا احيطت بأحوال مؤاتية من الحرارة والرطوبة

***

ولكن سواء اظهرت الحياة على الارض، أم أتتها من الفضاء فالراجح ان الخلية الحية الاولى ظهرت على الارض من نحو ١٥٠٠ مليون سنة . نعم اننا نختلف في اصلها . ولكنها ظهرت على كل حال ونحن — انا الكاتب وانت القارىء — الدليل المحسوس على ظهورها وتطورها . واذن تكون هذه الخلية قد استغرقت ١٤٩٩ ٥٠٠ ٠٠٠ سنة قبلما بلغت في تطورها وتحولها الشكل المعروف بالشكل الانساني . اي ان الانسان ظهر على الارض من نحو ٥٠٠ الف سنة . وهذا حديث اذا قيس بتاريخ ظهور الحياة نفسها . والادلة تدل على انهُ نشأ من حيوان شبيه بالقرد فأصبح منتصب القامة في بلاد مستوية تقل فيها الاشجار حيث كان يحتاج الى الاعتماد على سرعته وذكائهِ في الفرار من اعدائهِ وفي الحصول على غذائه

لما نزل هذا الكائن من الاشجار كان خشن المنظر والملمس . ولكن تطوره في خلال ٤٩٧٠٠٠ سنة انشأ منهُ الانسان الذي نشهده في فجر التاريخ المدوّن . ومن نحو ثلاثة آلاف سنة ، بلغ الانسان في تطوره العقلي مرتبة ظن فيها ، ان الارض تدور حول الشمس (هبارخس) ولكن انقضى عليهِ

بعد ذلك ٢٧٠٠ سنة قبلما تمكن من ان يصنع تلسكوباً . (غليليو من نحو ٣٠٠ سنة) ثم انقضت ٢٩٨ سنة قبلما تمكن من ان يعرف ان للشمس سياراً تاسعاً يدور حولها (بلوطو الذي اكتشف سنة ١٩٣٠) .

وكذلك تبين لنا ، اننا نحن أسيادَ الارض، بمدننا العظيمة وسككنا الحديدية وطياراتنا وآلاتنا اللاسلكية وغيرها من مآتي حضاراتنا المادية والمعنوية نكاد نكون حديثي الانفلات من قيود الحيوانية. فاذا كان الانسان الاول نزل من الاشجار ، واتخذ القامة المنتصبة من نحو ٥٠٠ الف سنة، فالجزء من ذلك الزمن الذي احرز فيهِ تلسكوبات وشوكاً وسكاكين ومعرفة يقينية عن بعض الاشياء ، لا يزيد على ستة اجزاء من مائة جزء من واحد في المائة — اي نحو ٣٠٠ سنة من ٥٠٠،٠٠٠ سنة !

فالانسان انما هو الآن في فجر يقظته العقلية بل هو على عتبة عصر العقل . وهذا هو التعليل الذي نستطيع ان نفسر به قلة معرفتنا عن وجود الحياة ، في انحاء الكون ورحابه . ولا ريب في ان من يخلفنا على هذه الارض بعد قرون ، سوف ينظر الينا نظرنا الآن الى طفل يتسكع قبل ان يمشي او الى رجل يتلمس في الظلام طريقه قبل انبثاق الفجر

***

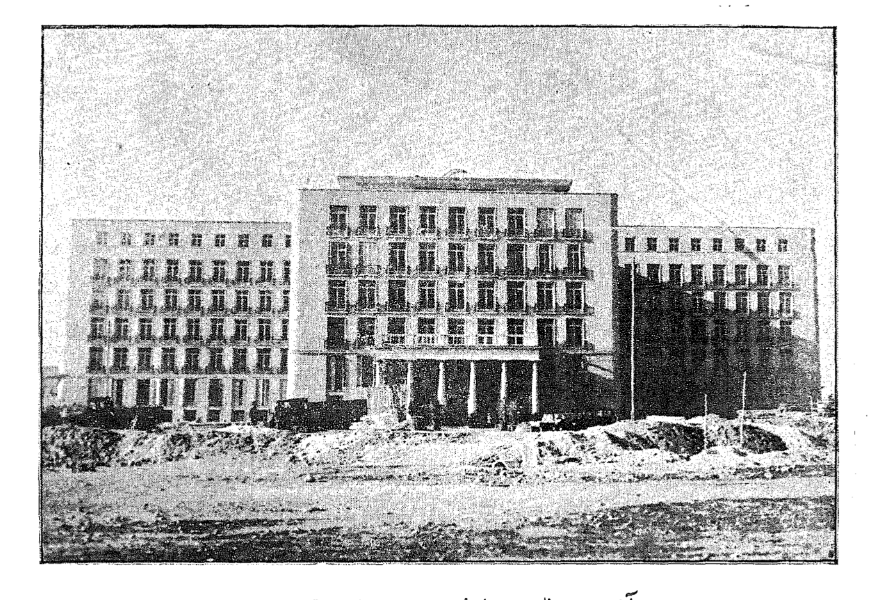
ما هو مستقبل الحياة على الارض ؟

هـذا المستقبل مرتبط بمستقبل الشمس ومصيرها . ولا بدَّ لبقاء الحياة على الارض ، من ان تواصلها الشمس بالحرارة المواتية للحياة ، وهي تتراوح بين ٥٥ — ٦٠ درجة مئوية حرارة ، ونحو ٦٠ درجة تحت الجمد برودة . ولكن اذا نحن نظرنا حولنا ، ورأينا درجات الحرارة تبلغ الملايين من الدرجات المئوية ودرجات البرودة تهبط عن درجة الجمد ، مئات من الدرجات كذلك ، تيقنا ان الشقة من درجات الحرارة والبرودة التي توآتي الحياة انما هي يسيرة جدًّا

ولكن الحرارة على الارض لم تتقلب تقلباً عظيماً في خلال ملايين من السنين ، والراجح انها لا تتقلب تقلباً عظيماً كذلك في ملايين آتية من السنين ، رغم ما تفقده من كتلتها بالاشعاع . فالشمس تفقد كل يوم ٣٦٠ الف مليون طن من كتلتها بالاشعاع ، ومع ذلك فانها اليوم لا تختلف اختلافاً نسبيًّا كبيراً عما كانت عليه من نحو ٢٠٠٠ مليون سنة لما تولدت السيارات . بيد انها كانت من نحو خمسة ملايين مليون سنة ، ضعف ما هي الآن وأشد حرارة وألمع ضوءًا

والامر الذي لا ريب فيه ان الشمس سائرة الى الفناء ، بما تفقده من كتلتها وحرارتها وقوة جذبها . فالمنتظر ان تبعد الارض رويداً رويداً عن الشمس كلما قلت قوة جذبها ، بفقد ما تفقده من جرمها ، وعندئذٍ تأخذ الحرارة على سطح الارض في الهبوط حتى يشتد البرد وتتعذر الحياة

ولكن ذلك لا يمكن ان يتم قبل انقضاء الف الف مليون من السنين



آخر صورة للمستشفى اخذت يوم ١٣ فبراير سنة ١٩٣٤

مستشفى المؤاساة

معهد قومي انساني [1]

قد تستغرب اجتماع القومية والانسانية في معهد واحد . ولكن اذا شئت ان ترى هاتين النزعتين ممثلتين في قالب خالص من الفن والعلم والخدمة العامة فعليك بزيارة مستشفى المؤاساة في الاسكندرية . بل اذا شئت ان ترضي ما يجول في صدرك من عزةٍ قومية ، ورحمة وحنان ، فابذل في سبيل مستشفى المؤاساة ما تستطيع . فهو معهد صحيٌّ مصريٌّ يفاخَر بهِ في اي بلادٍ من بلدان الله . وهو منشأة قومية يصحُّ ان تكون مدرسة ومثلاً للمنشآت القومية النافعة في الشرق ، القائمة على الرحمة والايثار والتعاون

كانت جمعية المؤاساة الاسلامية ، تعنى بجمع المال من المحسنين لتوزعهُ على الفقراءِ والمساكين فرأت بعد ممارسة هذا الغرض الشريف بضع سنين ان تنشيء مستشفى يكون ملاذاً وموئلاً للمرضى البائسين وعملاً قوميًّا ينهض امام مستشفيات الجاليات الاوربية دليلا على تنبّه الامة المصرية الى المطالب الانسانية العليا وسخائها في سبيل تحقيقها ، ومثالاً للمشروعات العظيمة التي تقوم بها الجماعات الخيرية الاهلية . وقد احسنت الجمعية ، في قرارها ان لا يقتصر المستشفى على المصريين بل يرحب « بمعالجة من يدخل فيهِ من الاجانب على اختلاف اجناسهم ودياناتهم اذ ان الانسانية لا تعرف الفوارق ولا تميز بينها » — تقرير ١٩٣١ صفحة ٦ — فندب الدكتور احمد النقيب الجرّاح الاسكندري للذهاب الى اوربا وزيارة المستشفيات لاختيار اصحّ نموذج منها يصلح لمدينة مصرية كبيرة كالاسكندرية فزار انكلترا وفرنسا والمانيا والنمسا وعاد بتقرير فني مسهب اقرت الجمعية مبادئهُ وأقدمت على تحقيق غرضها ، وهي لا تملك الاَّ الايمان بالله والاخلاص للوطن وللانسانية ، والثقة بأن جلالة مليك البلاد وحكومتهُ والشعب المصري والجاليات الاجنبية تؤيدها في هذا العمل النبيل

***

يرى الانكليز ان بناء المستشفيات ، يقتضي السخاء في الانفاق عليها ، فاذا كان المال المرصود لبناء مستشفى ما قليلاً يحتم عمل حساب لكل نفقةٍ كبيرة وصغيرة ، فخير في نظرهم ان لا ينفق

(١) يشكر كاتب هذه السطور لصاحب العزة محمد فهمي عبد المجيد بك رئيس جمعية المؤاساة وسعيد جميعي افندي سكرتير الجمعية ان اتاحا له زيارة المستشفى ويخص بالشكر الدكتور احمد النقيب الذي رافقه في هذه الزيارة يومين متواليين باسطاً له كل ما جل ودق من شؤون المستشفى الهندسية والصحية

ذلك المال في بناء مستشفى . وذلك لان الاساس عندهم في بناء المستشفيات ، الهبات المالية الكبيرة والرخاء في اختيار المعدّات ومواد البناء والاثاث . قيل ان احد الاغنياء الانكليز وهب مستشفى مدلسكس ثلاثمائة الف جنيه ، لبناء جناح خاص بالممرضات ، ورأيهُ في ذلك ان عمل الممرضة من اشق الاعمال وأدقها ، فاذا لم تكن مرحة النفس ، هادئة الاعصاب لم تستطع ان تقوم بعملها ، على خير وجهٍ . واشترط ذلك الواهب ، ان يكون لكلّ ممرضة حجرة خاصة للنوم وأخرى للاستقبال ، وان يحق لها ان تستقبل من تشاء في حجرتها الخاصة . فسلمت ادارة المستشفى بكل الشروط الا الشرط الاخير ، واقترحت ان تمنح الممرضة حق استقبال من تشاء في بهو عام خاص بالاستقبال ، وقالت للواهب انهُ اذا رفض تعديل هذه الشروط اضطرت الى رفض الهبة . فقبل

والخلاصة ان الانكليز يحسبون ان نفقات بناءِ المستشفى تكون بوجهٍ عام بواقع ١٥٠٠ جنيه للسرير الواحد . اي ان انشاء مستشفى فيه ٥٠٠ سرير يكلف نحو ٧٥٠ الف جنيه . غير ان الالمان وجَّهوا عنايتهم بعد الحرب ، الى بناء مستشفيات تجمع مزايا المستشفيات الانكليزية ، ولكن لا تقتضي مثل نفقاتها . فبنوا مستشفى مارتن لوثر في برلين ، فبلغت نفقاته بواقع ٣٥٠ جنيهاً فقط للسرير الواحد . وهو آخر ما بلغهُ فن بناء المستشفيات الحديثة ، من الاتقان وتوافر الشروط التي يقتضيها العلم والفن وقلة النفقة . وعلى مثالهِ بني مستشفى المؤاساة في الاسكندرية . بل ان مهندس مستشفى مارتن لوثر نفسهُ — ارنست كوب — هو الذي وضع تصميم مستشفى المؤاساة وأشرف على بنائهِ

كان الرأي من قبل متجهاً الى جعل المستشفيات مباني متفرقة كل بناءٍ خاص بمرضٍ من الامراض ، او بطائفة متلائمة منها ، وذلك لكي يتوافر للمريض في البناء الصغير ، ما لا يتوافر لهُ عادة في البناء الكبير ، من نور الشمس والهواءِ الطلق . ولكن تقدم علوم الطب الحديث ، وأساليب المعالجة ، جعل حتماً ارتباط المباني بعضها ببعض ، اذ من المحتم على المريض الواحد ، في غالب الاحيان ان ينقل الى جهاز العلاج بالاشعة ، لتصوير عضو من اعضائهِ بالاشعة السينية ، او لتعريضهِ للاشعة التي فوق البنفسجي ، او لتحليل دمهِ او بولهِ ، او لفحصهِ بآلات خاصة ثابتة لا يمكن تنقيلها . ومن الاسراف الذي لا مسوّغ لهُ ، ان يكون في كل بناء من مباني المستشفى المتفرّق ، جميع هذه الادوات ، والخبراء الذين يستعملونها . لذلك نشأت فكرة انشاء المستشفى الحديث في بناءٍ واحدٍ ، تكون اجزاؤهُ المختلفة ، كالاعضاء في الجسم مترابطة منتظمة في وحدة شاملة وعهدوا الى المهندسين ، في تحقيق هذه الغاية بلا تفريط في ما يحتاج اليهِ المريض من النور والهواءِ والراحة . فكان مستشفى مارتن لوثر في برلين ، ومستشفى المؤاساة في الاسكندرية ، مثالاً لهذا الاتجاه الجديد . ومما يدلك على خطورة هذا الاتجاه ، ان مستشفى « غرانش بلانش » في ليون — وهو من اكبر المستشفيات في فرنسا وقد بلغت نفقاتهُ نحو ثلاثة ملايين من الجنيهات — كان قد بدئ انشاؤهُ قبل الحرب على اساس اجنحة متفرقة ، وفقاً للرأي القديم ، فلما بدت لمجلس

ادارته ، مزايا البناءِ الواحد كما اوجزناها ، وعزَّ عليهم هدم مبانيهِ جميعاً ، وحــدوا بينها ، بانفاق واسراب تحت الارض حتى ليستطاع ، نقل المريض في سريرهِ ، بالمصعد آناً ودرجاً في الانفاق آونة ، من بناء الى آخر ، وفقاً لما تقتضيهِ اساليب العلاج الحديث

***

يقوم مستشفى المؤاساة على اكمة ، ترتفع نحو ١٨ متراً عن سطح البحر في بقعة تطل على بطيحة الحدراء وهي من اجمل بقاعِ الاسكندرية واصلحها لاقامة المستشفيات حيث الفضاء متسع والهواء نقيٌّ والراحة موفورة لبُعدِ البناءِ عن ضوضاءِ المدينة وجلبة شوارعها

يطالعك الصرح ، على كتف الاكمة فيروعك ما يتجلى في خطوطهِ من البساطة والجلال . طولهُ مائة وعشرة امتار ، وعلوهُ ٥٤ متراً ومساحة الارض المبنية ٣٠٠٠ متر مربع ، ومساحة حرَمهِ ٣٠٠٠٠ متر مربع وينتظر ان يحوَّل الى حديقة غنّاء . فاذا اقتربت منهُ استقبلك مدخل فخم معمَّد ، وابواب ثلاثة علوّ الباب منها ستة امتار مصاريعها من الحديد والبرونز المخرّم ، كأنها قطع من الدنتلاَّ في دقة صنعها ، تدخل بها الى بهو ، فترى في الجدار الجنوبي الذي يقابلك عند الدخول مكاناً ينتظر ان يزيَّن بصورة زيتية لجلالة الملك وحوالها على الجدران الثلاثة اماكن لصور اخرى شخصية ورمزية ، منها صور امنحوتب وابن سينا وكلوت بك . والى يمين هذا البهو ردهة فخمة خاصة باستقبال جلالة الملك وتقابلها ردهة لاجتماع مجلس الادارة

والبناء ثمانية ادوار ، احدها تحت الارض وآخر على سطحها وستة فوقها . اما الدور الارضي ، فدَوْران في الواقع وفيهما الآلات والماكنات اللازمة لتوليد البخار ، وانابيب المجاري والاسلاك وما الى ذلك . ومما يدلك على عناية المهندس العظيمة ، جعلهُ المجاري والانابيب مكشوفة بدلاً من ان تكون مطمورة في الارض لكي تسهل مراقبتها والسيطرة عليها اذا وقع خلل فيها . ويوزَّع البخار بانابيب ومواسير على المطابخ والمغاسل او على مرجل ماء كبير يموّن المستشفى بما يحتاج اليهِ من الماءِ الساخن لتدفئة الغرف وللاستعمال في مرافق المستشفى العامة . وفي هذين الدورين كذلك ماكنات التبريد ، وهي لازمة للمستشفى لتبريد الثلاجات في المطابخ ، والغرف الخاصة بحفظ الجثث اذا لزم حفظها ، ولتبريد غرف المرضى متى اقتضى الجوّ او العلاج ذلك . وماكنات التبريد تصنع ثلجاً قد لا يحتاج المستشفى الاَّ الى قدر يسير منهُ ، ولكن ادارتهُ اتفقت مع بعض الشركات على شرائهِ منها ، وسوف يكون بيعهُ مصدر ايرادٍ لا بأس بهِ لادارة المستشفى

وفي المستشفى مولّدان (دينامو) للكهربائية احدهما قوتهُ ١٦٠ حصاناً والآخر ١٠٠ حصان فاذا تعطّل الواحد استعمل الآخر ، واذا تعطّل الاثنان — وهو مستبعدٌ — استطاع المستشفى ان يستمدَّ القوة الكهربائية من شركة لبون او شركة سكة حديد الرمل . ولما كانت لجنة المستشفى تعنى عناية خاصة في اقتصاد كلّ ما يمكن اقتصادهُ من نفقات العمل ، ابتاعت مكثفات وبطاريات

خازنة للكهربائية ، حتى اذا كان التيار التجاري رخيصاً ، أخذ وخزن واستعمل حين الحاجة اليهِ

وفي هذين الدورين كذلك آلة تجذب الهواء من الجوّ الطلق فوق المستشفى وتنقيهِ بمصفاة من الزيت وتصفيهِ من الغبار والرطوبة ، ثم تمنحه القدر المطلوب من الرطوبة والدرجة المعيّنة من الحرارة او البرودة التي يحتاج اليها المرضى ، وتدفعهُ في انابيب خاصة بذلك الى الغرف

ولما كان نقل المريض بسريرهِ من حجرتهِ الخاصة الى حيث يعالج او يفحص ، من ضرورات المستشفيات الحديثة ، كان كل باب من ابواب المستشفى على الاطلاق يتسع لكل سرير في المستشفى. فبدلاً من ان يرفع المريض على نقالة ويسار بهِ الى حيث يقتضي العلاج ، يدرج سريرهُ من غرفتهِ الى الممرّ او الى المصعد (الاسناسور) فيؤخذ الى غرف العلاج ، او يهبط بهِ الى الدور الارضي فينقل بسريرهِ الى الحديقة ، او يصعد بهِ الى السطح للمعالجة باشعة الشمس الطبيعية. ولكي تستتبّ للمريض جميع وسائل الراحة ، لا ترى غرفة من غرف المرضى ولها نافذة تطلّ على ممرات المستشفى ، بل لكلٍّ منها بابٌ كبير وشرفة تطلّ على الشمال الغربي او الشرق الشمالي . ومبالغة في الحرص على راحة المريض ، جعل كل باب يطل على الممرّات في حجر المرضى ، مزدوجاً وبين المصراعين نحو نصف متر من الفراغ فتمّ للمريض الراحة التامة من الجلبة او الانين . اما الهواء فيدخل من ثقوب في أعلى جدار الغرفة ، ويفتح القسم الاعلى من باب الشرفة ، بطريقة تسهّل التهوية ، من دون ان يحدث تيّار من الهواءِ ، قد يصاب المريض منهُ بقشعريرة . بل اذا ضغط المريض على زرّ ، لا يقرع جرساً، ولكنهُ ينير نوراً فتهبّ اليهِ الممرضة . ومن غريب ما رأيناهُ في هذا الباب في مستشفى المؤاساة ان في غرفة الممرضة مصباحاً ينبهها بنورهِ الى ان مريضاً يدعوها ، فتهبّ الى نجدتهِ . وعند دخولها تضغط زرّاً خاصّاً بين بابي الغرفة فاذا دعاها مريض آخر وهي تعنى بالاول ، لم ينر المصباح في غرفتها ، بل في غرفة المريض الذي تعالجهُ ، فتعرف ان مريضاً آخر يدعوها . وأعجب من ذلك ، ان في غرفة القهرمانة لوحة تدوّن من تلقاءِ نفسها ، دعوة كل مريض ووقتها ، وتلبية كل ممرضة ووقتها ، فتستطيع ان تعلم في لمحة واحدة ، وبطريقة لاتقبل الخطأ ، المتوانية من الممرضات في القيام بما عليها

اسرّة المرضى في المستشفى ٤٥٠ سريراً ، ٤٥ منها للدرجة الاولى و ٩٠ للدرجة الثانية و٣١٥ للدرجة الثالثة ، وهذه الاخيرة مجانية جميعاً . واذا اقتضت الضرورة امكن زيادة الاسرّة الى ٦٠٠ سرير . ولهُ عيادة خارجية تتسع الآن لنحو ٤٠٠ او ٥٠٠ مريض كل يوم . وانما تنوي الجمعية ان تقيم في المستقبل عيادة خارجية تتسع لنحو ٤٠٠٠ مريض كل يوم . وكل غرفة من غرف المرضى مزدوجة السقف والجدران والارض والابواب . وتحتوي كل غرفة من غرف الدرجة الاولى على سرير واحد ، وكل غرفة من غرف الدرجة الثانية على سريرين ، وكل غرفة من غرف الدرجة الثالثة على ست اسرّة او اقل . بيد ان اللجنة ادركت انهُ اذ ثقلت وطأة المرض على مريض ما. واحتاج الى عناية خاصة ، استوى عند ذلك المريض الغنيّ والمريض الفقير ، فينقل مريض الدرجة الثالثة الى

غرفة خاصة فيها سرير واحد ، وينال من العناية الخاصة ما يناله المريض الغني. وفي أجنحة الدرجة الثالثة خمسون غرفة في كل منها سرير واحد فقط

خمسة من ادوار المستشفى الثمانية مخصصة للمرضى فالدور الاول خاص بالامراض الباطنية للرجال والثاني بالامراض الباطنية للنساء والاطفال والدور الثالث بامراض النساء والولادة وجراحتها والرابع والخامس بجراحة الرجال . وفي الدور الأرضي صيدلية كبيرة ومعمل للتحليلات الكيمائية والبكتيريولوجية وكلاهما مجهز بادق واحدث الاجهزة الكيمائية والبكتيريولوجية . وفيه كذلك ردهة واسعة للاجتماعات والمحاضرات العلمية . اما الدور السادس ففيه المطبخ والحمامات الشمسية وسكن الممرضات المبتدئات اللواتي يتلقين فن التمريض نظراً وعملاً ، ولكل منهن حجرة خاصة فيها سرير وخزانتان وماء جارٍ بارد وساخن . وكل دور من ادوار المرضى مؤلف من اربعة اجنحة ، جناح للدرجة الاولى وثانٍ للدرجة الثانية، أما الثالثة والرابعة فللدرجة الثالثة . وحجر المرضى كلها في مقدمة البناء ،اما حجر المؤخرة فلسكن المرضى والعمليات الجراحية على اختلافها ، وقسم العلاج بالاشعة وقسم خاص بعزل المرضى المصابين بحميات معدية

وتشتمل مرافق المستشفى ، من مطابخ ومغاسل على احدث الوسائل واكثرها اتقاناً . المطبخ على السطح ، وجميع أدواته كهربائية . ترفع اليهِ مواد الغذاءِ من لحم وخضار ولبن بمصعد كبير ، فيطبخ الطعام بحسب ما تطلبه الممرضة المختصة في كل دور من ادوار المستشفى، وهو متصل بمصاعد خاصة بمطابخ صغيرة في كل دور ، وفيهِ غرفتان باردتان لحفظ مواد الغذاءِ وفي كل منها انابيب خاصة للتبريد والتهوية وجميع ادواتهِ كهربائية . وكل مطبخ من المطابخ الصغيرة يحتوي على ثلاجة لحفظ الطعام فيها ، وجهاز آخر لحفظ الطعام الساخن ، وما تحتاج اليهِ الممرضة من ادوات المطبخ لاعداد ما يقتضيهِ بعض المرضى من طعام خاص يحتاجون اليهِ فجأة . اما المغاسل والمناشر والمكاوي ، حيث يغسل بياض المستشفى ويكوى فجامعة لاحدث الوسائل العلمية

***

اما اجنحة العمليات الجراحية فآية من آيات العلم الحديث . وهي في ثلاثة ادوار ، كل دور منها يحتوي على حجرتين للعمليات بينهما حجرة للتعقيم مجهزة باحدث الادوات ، ومنها معقم autoclave الماني جديد يفرغ من الهواءِ ، ثم ينفث فيهِ البخار من أعلى الى أسفل في حجر منفصلة احداها عن الاخرى ومتساوية جميعاً في ضغط البخار فيها ، فلا يبقى اي احتمال لانحصار كرة من الهواءِ الحامل للجراثيم داخل المعقم . ثم هناك حجرة للغسل مجاورة لكل حجرة من حجر العمليات ، بينهما نافذة واسعة ، يستطيع الجرّاح ان يراقب المريض منها وهو يطهر يديهِ بعد اتمام العملية . ومصباح حجرة العملية لا ظلّ لهُ واذا انطفىءَ لحادث مفاجىء في التيار ، والجرّاح يعمل العملية انار مصباح آخر — انارة اوتوماتيكية — يستمد تياره الكهربائي من بطارية كهربائية

خازنة تكفي لانارة المصباح ثلاثة ساعات . وقد بنيت غرف العمليات ، حتى يستطاع عمل العمليات فيها على ضوء النهار — وهو في الغالب غير مستحسن، لانهُ يجيء من ناحية واحدة ويلقي ظلالاً على جسم المريض — او على الضوء الكهربائي . فاذا تبين ان الضوء الكهربائي هنا مفضل على ضوء النهار ، لانهُ يقع وقوعاً عمودياً على جسم المريض ، اقفلت النوافذ اقفالاً محكماً بستائر سود لا تنفذها شعاعة نور . ومن آيات قسم الجراحة غرفة للعمليات فيها جهاز للاشعة السينية . ذلك ان الطبيب اذا شرع في عملية لاستخراج مادة صلبة دخلت جسم المريض ، اهتدى الى مكانها بصورة الاشعة السينية . ولكنهُ احياناً قد يضلّ مكانهُ ، ويتعذر عليهِ نقل المريض ثانية لتصويره بالاشعة السينية وهو تحت المشرط فتستعمل الاشعة السينية مباشرة لتهدي الجرّاح الى ضالتهِ . وقد قيل لنا ان في اوربا الوسطى لا توجد الاَّ حجرة واحدة من هذا القبيل وهي في مستشفى بهيدلبرج بجنوب المانيا . ويقابل غرف العمليات غرف التخدير وغيرها ما يحسب مكمّلا لها

اما قسم العلاج بالاشعة — وقد تبرع بنفقاته البالغة ٤٠٠٠ جنيه المستر رينهارت التاجر الانكليزي بالاسكندرية — ففيهِ أحدث الاجهزة لهذا الغرض، وهو حجرتان رئيسيتان بينهما حجرة صغيرة تجلس فيهِ الممرضة المختصة بهذا العمل ، بعد ما تضع في كل منهما مريضاً ، وتعين لهما قوة الاشعة التي يتعرّضان لها . وفي حجرة الممرضة وسائل دقيقة تمكنها من وقاية نفسها ، لانهُ اذا قويت الاشعة النافذة من بابي الحجرتين او احدهما ، الى حجرة الممرضة تعرضت للخطر ، وهذه الزيادة تستطيع ان تتبينها في الواح زجاجية خاصة بتغير لونها اذا زاد النافذ من الاشعة عن قوة معينة . وعندئذٍ تخفف التيار او توقفهُ بأزرارٍ . وجدران حجرتي العلاج بالاشعة، وحجرة العمليات الجراحية التي فيها جهاز الاشعة السينية مبطنة بالرصاص والباريوم منعاً لاختراق الاشعة لها

***

جمعت جمعية المؤاساة معظم نفقات المستشفى من الاهلين عن طريق « اللوتريات والانصبة » التي نظمتها ، ومن هبات اهل الخير . ومما هو جدير بالذكر ان الاجانب كانوا كراماً أسخياء في تعضيدها فنفحها المستر رينهارت بأربعة آلاف من الجنيهات والمستر فني بألف والمسيو كوتسيكا بمصر بألف والمسيو دفسيو بألف . وقد بلغ ما تبرع بهِ الاجانب لها نحو عشرة آلاف جنيه . واننا لنأسف ان الوطنيين لم يجاروا الاجانب في ذلك حتى الآن . فان الجمعية لم تنل هبة من وطني تزيد على مائة جنيه ومجموع هباتهم قد لا تزيد على الف . ونحن نعلم ان ذلك ليس لتقصير اغنيائنا في السخاء على المشروعات الخيرية ، ولهم في ذلك آيات ، بل اننا نثق انهم اذا علموا ان مستشفى المؤاساة ، مفخرة علمية واجتماعية لمصر وللقومية المصرية ، بادروا الى تعضيدهِ بكل ما يستطيعون ، فيرضون بذلك شعورهم الوطني ، ونزعتهم الانسانية السامية

فؤاد صرّوف

لعلي محمود طه

رجوع الهارب

اذا تمرّد المحبّون على حكم الهوى، وضاق كيوبيد بصراخهم وبكائهم فتح لهم باب ديره فخلصوا منه ناجين بأنفسهم، وانطلقوا هاربين من أسره، ينشدون النسيان والسلو في حياة اصبحت تنكرهم وكأن لم يتصلوا بها من قبل. وهاموا في عالم يجهلهم ويجهلونه، تحوطهم الوحشة وتظلهم الكآبة. هنالك يرجع الهارب نادماً مأخوذاً بسحر تلك الايام التي كانت تشرق عليه من خلال ذلك الدير القديم

قرَّبتُ للنور المشعِّ عيوني ورفعتُ للَّهبِ الأحمِّ جبيني

ومشيتُ في الوادي يمزّقُ صخرهُ قدمي وتدمي الشائكات يميني

وعدوتُ نحو الماءِ وهو مقاربي فنأى وردَّ الى السَّرابِ ظنوني

وَبدَت لعيني في السماءِ غمامةٌ فوقفتُ فارتدَّتْ هنالك دوني

وأصختُ للنسماتِ وهي هوازجٌ فسمعت قصفَ العاصفِ المجنون

يا صبح : ما للشمس غير مضيئةٍ ؟ يا ليلُ : ما للنجم غيرَ مبين ؟

يا نارُ : ما للنَّارِ بين جوانحي ؟ يا نور : أين النورُ ملءَ جفوني ؟

ذهبَ النهارُ بحيرتي وكآبتي وأتى المساءُ بأدمعي وشجوني

حتى الطبيعةُ أعرضتْ وتصامتْ وتنكرتْ للهارب المسكين ! !

***

إنْ لم يكنْ لي من حنانكَ موئلٌ فلمنْ أبثُّ ضراعتي وحنيني ؟

آثرتَ لي عيش الأسير فلم أُطِقْ صبراً ، وجُنَّ من الأسار جنوني
فأعدتني طَلْقَ الجناح وخلتَ بي للنور جنَّةَ عاشقٍ مفتونِ
وأشرتَ لي نحو السماءِ فلم أطِرْ ورددتُ عينَ الطائر المسجونِ
نسيَ السماءَ وبات يجهلُ عالماً ألقى الحجابَ عليهِ أسرُ سنينِ
ولقد مضى عهدُ التنقلِ وانتهى زمني اليكَ بصبوتي وفتوني
لم ألقَ بعدَك ما يشوقُ نواظري عند الرياضِ وليس ما يُصبيني
فهتفتُ أستوحي قديمَ ملاحني فتهدَّجتْ وتعثرتْ بأنيني
ونزلتُ استذري الظلال فعفتني حتى الغصونَ غدونَ غيرَ غصونِ
فرجعتُ للوكرِ القديم وبي أسىً يطغى عليَّ وذِلَّةً تعروني
لما رأيتهُ أغرورقتْ عيناي من ألمٍ وضجَّ القلبُ بعدَ سكونِ
ومضتْ بي الذكرى فرحتُ مكذباً عيني ، ومتهماً لديهِ يقيني
وصحوتُ من خَبَلٍ وبي مما أرى أطراقُ مكتئبٍ وصمتُ حزينِ
فافتحْ ليَ البابَ الذي أغلقتَهُ دوني ، وهاتِ القيدَ غيرَ ضنينِ
وامددْ ذراعيكَ الغداةَ وضُمَّني وأحلَّني الصدرَ الذي يأويني
دعني اروِّ القلبَ من خمرِ الرضى وأنمْ على حِجْر الحنان عيوني
وأعدْ إلى أسرِ الصبابة هارباً قد آبَ من سَفَرِ الليالي الجونِ
عافَ الحياةَ على نواك طليقةً وأتاكَ ينشدها بعينِ سجينِ !!

غرائب الطبائع والعادات

نظرات اجتماعية

في العلائق الجنسية

لامير بقطر

قيل ان الله خلق الرجل واطمأن الى ذلك ، ولم يخطر على باله أن يصنع له شريكة في الحياة ، حتى غافله الشيطان وخلق المرأة . وعلى هذا يكون الرجل من صنع الله والمرأة من صنع الشيطان

غير ان هنالك رواية اخرى صاغها احد علماء الاجتماع [1] في قالب من الدعابة والفكاهة ،ولكنهُ ضمّنها حقائق ملموسة ، وختمها بدروس ومسائل غاية في خطر الشأن وهي ان الاله « توشترى » عند ما وطّد العزم على صنع المرأة ، وجد ان المواد الصلبة ، والعناصر الاولية ، التي خلق منها الرجل ، قد استنفذت برمّتها . وبعد صمت طويل وتفكير عميق ، خطر بباله حلٌّ أخرجه من هذا المأزق ، وهو انهُ اتخذ من القمر استدارتهُ ، ومن الذّبابات ليونتها ، ومن النباتات المتعرّشة التصاقها ومن الحشائش الخُضْر اهتزازها ، ومن عيدان القصب اعتدالها

واتخذ من اكمام الزهور تفتّحها، ومن اوراق الاشجار خفّتها، ومن اشعة الشمس ضياءَها ، ومن نظرات الغزلان سحرها، ومن خلايا النحل تقاربها، ومن قطرات العسل حلاوتها ، ومن النار توهجها

واتخذ من خرطوم الفيل انخراطه ، ومن سحاب السماء بكاءَه ومن هبوب النسيم علّته

واتخذ من الريح تقلّبه ، ومن الارنب جبنَه ، ومن الطاووس زهوه ومن صدر الببغاء نعومته، ومن الماس صلابته ، ومن النمر قسوته ، ومن الثلج برودته

واتخذ من ابي زريق (طائر) ثرثرته ، ومن الحمام هديلهُ ، ومن الكُرْكي ذَبْذَبته ، ومن الشكروا كي وفاءهُ ، أخذ هذه كلها ودقها دقًا ، وطحنها طحناً ، وعجنها عجناً ، وصنع منها المرأة ، وأهداها الى الرجل

وعاد الرجل بعد اسبوع يشكو للاله امره وخرّ على ركبتيه ساجداً ، وهو يقول : أي ربّي !! ان هذه المخلوقة التي اهديتنيها قلبت نعيمي بؤساً ، وجعلت حياتي شقاء .وهي لا تكف ثرثرة لحظة

(1) F. W. Bain, "A Digit of the Moon".

واحدة ، ولا تدعني دقيقة أخلو فيها بنفسي ، وتستغرق كل اوقاتي . تضايقني فوق ما استطيع احتماله ، وتريد ان يوجَّه اليها كل انتباهي . تبكي من لاشيء ، وتلهو بغير انقطاع .... لهذا جئت بها اليك يا ربي ، لان العيش معها امر لا يطاق

فقال الاله : حسناً !! وأخذ مخلوقته الجديدة ...

وعاد الرجل بعد اسبوع آخر ، وخرّ على ركبتيهِ ساجداً ، وهو يقول : ربي !! منذ ان فارقت المخلوقة الجديدة ، قد استحال أنسي وحشة ، وانقلب سروري حزناً ، وايناسي وحدة ، وليس لعيشي بغيرها من سبيل . فكم كانت ترقص لي وتنشد ، وتغرّد وتغني ، وترمقني من طرف عينيها الساحرتين ! وكم كانت تلعب معي ، وتعلق بي ! وكانت بسماتها ربيعاً اذا ابتسمت ، وكان ضحكها موسيقى اذا ضحكت ! ما اجملها كانت اذا نظرت اليها ، وانعمها اذا مسستها !! اي ربي ! اردها اليَّ

فقال الاله : حسناً !! ها كها ...

ولم يغب الرجل سوى ثلاثة ايام وعاد ثانية الى الاله وخرّ على ركبتيه ساجداً وهو يقول : اي ربي ! لست ادري...لقد عدت الى رشدي ، وايقنت ان هذه المخلوقة اشدّ وبالاً عليَّ ، منها اسعاداً لحياتي نخذها ....

فحنق الاله واشتدّ غضبه على الرجل واغلظ له الكلام قائلاً : — تبًّا لك .... اليك عني !!
ليكن هذا آخر ما اسمعهُ منك من الشكوى ...
صرّف امورك تصريفاً يناسب مقتضى الحال ...

فقال الرجل : ربي ! لستُ استطيع العيش معها

فأجابه الأله : ولستَ تستطيعه بغيرها . . . . وأدار ظهره الى الرجل ، ومضى في عمله . . . .

فذهب الرجل يضرب اخماساً على أسداس ، وهو يردد القول : لست استطيع العيش معها ولست استطيعه بغيرها . . . فما العمل ؟ . . .

***

يُعزَى كثير من العادات والتقاليد ، التي تقدسها الشعوب والقبائل ، وتحافظ عليها بأرواح أبنائها ، الى وجوه الاختلاف بين الرجل والمرأة ، على تفاهتها . وقد كانت الفروق الجنسية منذ الخليقة الى يومنا هذا ، قوة فعالة في سن الشرائع ووضع القوانين ومراعاة العرف والتفريق بين مبادىء السلوك والآداب العامة واستهجان بعضها وتسميتهُ رذائل واستحسان البعض الآخر وتسميتهُ فضائل ، وكانت سبباً في وجود طائفة من الطقوس والتقاليد القومية والشعبية والطائفية والدينية

والمرأة لغز لم يستطع الرجل الى اليوم حلّ طلاسمه . وهي آخر ما يتسنى له فهمه في الحياة . والسعادة الزوجية لا تتطلب حتماً فهم الرجل عقلية زوجه ، بل تفرض توافر الحلم والتسامح عندهما

ويقول علماء الاجتماع ان في تاريخ الجنسين يتمثل قانون من أهم القوانين الطبيعية وأعظمها شأناً . وهو قانون التجاذب والتنافر . ألا ترى الطبيعة الانسانية قد اودعت في الجنسين من قوة الجاذبية ما لا يستطاع الفرار منه ، كما انها اوجدت بينهما من اسباب العزلة والتنافر ، في احوال خاصة ، ما لا يتسنى اغفاله ؟ ألا ترى في الرجل والمرأة الحب والبغضاء والتجاذب والتنافر ، القرب والبعد الاباحة والمنع ؟ ألا ترى ان الصفة الواحدة متممة للاخرى ؟

وقبل ان نبدأ في تتبع بعض العادات المعروفة وندرس كيف نشأت ، وكيف ان العلاقات الجنسية كانت من أهم العوامل التي دعت الى توطيد دعائم هذه العادات — قبل هذا ينبغي ان نسارع لننفي عقيدة شائعة بخصوص الآداب الجنسية عند الامم الهمجية والقبائل الفطرية . ليس ثمة ما يستدل منهُ على ان الاباحية كانت تغلب على الشعوب القديمة في الازمان الغابرة . وليس ثمة ما يستدل منه على ان للاباحية أثراً في اي بلد من بلدان العالم اليوم ، حتى بين القبائل البربرية التي لا تزال تعيش عيشة الفطرة ، البريئة من شوائب المدنية ، وصقال التهذيب الذي يضفي على الناس عادة ثياباً من الرياء والتصنع . واذا كان هناك من شيء فان الامم المتأخرة والقبائل المستوحشة والبلدان نصف المتمدينة اكثر محافظة على حرمة مبادئها الجنسية ، واشد اباء وأعف نفساً واكثر اعتدالاً ، في علاقاتها النسائية ، منهم بالشعوب المتمدينة المتحضرة

ومن اسباب الامتناع والاعتدال عند الشعوب الهمجية الخوف من الضعف ، لانهم يظنون ان الفتور الذي يعقب عملية الجماع ، الناشيء عن زيادة ضغط الدم ، ضعف مستديم . ولما كان فخر الشاب قوته ، فان رجالهم يحرصون على السائل المنوي كل الحرص لاعتقادهم انهُ الينبوع الذي يستمد منه الجسم تلك القوة . ومع جهلهم بعلم وظائف الانسان فانهم يعتقدون ان قوة الرجل في خصيتيهِ . ولا غرابة في ذلك فان بعض المتأخرين من فلاحي اوربا الى اليوم يصفون السائل المنوي دواء لشفاء بعض الامراض ، وتقوية الاعصاب . ولا تزال القبائل الهمجية في كثير من انحاء العالم اليوم تحافظ على عاداتها القديمة في الحروب ، فتحرم على الجنود الاقتراب من النساء قبل الحرب بمدة معلومة وفي اثنائها وبعدها بزمن معلوم . وكان بنو اسرائيل يحتمون على الجند ان يطهروا انفسهم قبل النزول الى ميدان الحرب ، حتى بعد الاستحلام . ولا تزال القبائل الاسترالية تشرب ذكورها بول الاناث ، وتشرب اناثها بول الذكور شفاءً للامراض

ويتضح مما سبق ان من أهم أسباب العفة والاعتدال في العلائق الجنسية ، وابتعاد الرجال عن النساء بقدر الامكان عند الامم الهمجية ، المحافظة على القوة والرجولة بكل معانيها فيما يتعلق بالرجال ، وصون الطراوة واللين والانوثة بكل معانيها فيما يختص بالنساء

ومن هذه الاسباب ايضاً الخرافات والاباطيل التي تحوم حول المرأة وكل ما يتعلق بالمسائل الجنسية كما تحوم الخرافات والخزعبلات حول الظاهرات الجوية والطبيعية كالرعد والبرق والنيازك

والكواكب . ولا يخفى ان الهمجيّ يفسّر هذه الظاهرات تفسيراً يتفق وعقليته . وما يقال في هذه يقال في اعضاء التناسل والمرأة وكل ما يتعلق بها وقد ذكر كرولي ان في متحف Für Völkerkunde يوجد حفر على لوح من الخشب من بريطانيا الجديدة يمثّل عصفوراً يجرّ شيئاً من عضو التناسل للمرأة ، دليلاً على اعتقاد سكان تلك البلاد من ان الحيض عند المرأة ينشأ من لدغ ثعبان او نقر عصفور . وفي المتحف عينه اثر آخر من غينيا الجديدة يمثّل تمساحاً يقبض بكفيهِ على رأس امرأة ، وتمساحاً آخر يحاول ايلاج خرطومه في فرجها . ويفسّر بعضهم الاستحلام عند الرجال بقولهم ان روحاً شريرة او « عفريتاً » انثى تضاجع المستحلم ليلاً ، كما انهم يفسرونهُ عند الاناث بقولهم ان عفريتاً ذكراً يضاجع المرأة فتستحلم

ويمتد هذا الاعتقاد الى امرٍ أبعد في حالة حمل الفتاة العذراء ، غير المتزوجة ، بكراً كانت أم ثيّباً ، لانهم يزعمون في هذه الحالة ان روحاً شريراً انقضّ عليها في الاجمة وقضى معها لبانته قسراً . ومتى « ثبت » ذلك نجت من طائلة العقاب

وتبلغ هذه الخرافات احياناً درجة الجنون . ففي بعض الجزر التي لا يزال اهلها على فطرة الانسان الاول لا تأكل المرأة مع زوجها ابداً بأية حال من الاحوال منعاً للارواح الشريرة . ولا يبعد ان تكون هذه الارواح منشأ العادة المعروفة في بلادنا وما جاورها الى اليوم ، وهي عزل الرجال عن النساء عند تناول الطعام . وفي جزائر الكارولين لا تمنع المرأة من مجالسة الرجال اثناء تناول الطعام الاّ متى كانت حبلى . غير ان سكان جزائر فيجي يمنعون المرأة من خدمة زوجها على المائدة وهي حامل

والاصل في عادة اطلاق الرصاص من البنادق قبيل الزفاف ارهاب الارواح النجسة ، وابعاد الخطر الذي يتهدّد الرجل بقدوم المرأة . ويذكر القراء ان هذه العادة لا تزال متبعة في الريف المصري . وليس هذا بالامر الغريب فان آثارها لم تعفُ من اوربا . ومنذ عهد ليس ببعيد كان يطلق الرصاص على رأس المرأة الانكليزية اثر خروجها من الكنيسة عقب حفلة الزفاف المقدسة ، في مقاطعتي درهام وكليفلند في شمالي انكلترا

واذا استثنينا البلدان والاسر المتمدينة فان الزواج يعقد ليلاً عادة . وفي مصر لا يعقد الزواج نهاراً الاّ في الاوساط التي تميل الى التقاليد الاوربية ومنشأ هذه العادة السبب عينه ، وهو ما يساور الناس من المخاوف والاوهام التي تحوم حول المرأة . ولا يقتصر الهمجيون الى اليوم على التزوج ليلاً ، بل يحملون — في بعض البلدان — العروس الى منزل العريس في سلة حتى لا يراها الغير . وأشار المؤرخ فلوطرخس الى ان هذه العادة كانت معروفة عند قدماء الرومان . وتخفي بعض القبائل العروس ليلة الزفاف في منزل حالك الظلام ، ويبعث العريس وراءها يتلمس طريقهُ في الظلماء بحثاً عنها ، ولا تتم عملية الزواج حتى تقع يداه عليها . ومن ابدع ما يقوله علماء الاجتماع تعليقاً على هذه العادة الظريفة انها تتفق والطبيعة تمام الاتفاق ، لان التوالد في النبات يقع ليلاً ويظهر للملأ نهاراً

ومن اسباب الاعتدال في العلائق الجنسية عند الهمجيين التفاخر على الغير والتباهي بالحياء استدلالاً على الرجولة والمقدرة على اخضاع الشهوات ، وعدم الاستسلام لها ومن عادات أهل فيجي انهُ لا يعدّ حسناً ان ينام الرجل وزوجه تحت سقف واحد . فاذا ما أرادا ذلك ضرب معها موعداً rendez—vous للقاء في اعماق الغابة في مكان لا يعرفه الاَّ هما . ومن الغريب ان ما يقرب من هذه العادة معروف بين فئة قليلة جدًّا في اميركا اليوم حيث يتفق الزوجان ان يكون لكل منهما منزله الخاص ، ويدعو احدهما الآخر لتناول العشاء ، فيلبي الدعوة اذا كان غير مرتبط بموعد آخر، ويقوم الزوج الآخر بدوره بدعوة الاول ، وهكذا تبلغ الحرية الزوجية هذا الحدّ المتطرف

ومن العيوب القبيحة عند الهنود الحمر في شمال اميركا ان يزور الرجل مضجع امرأته او ينظر الى سريرها نهاراً . وفي غربي افريقيا اذا عثر احدهم على رجل وزوجه في حالة الجماع يصبح الاثنان عبديه . وهذا يفسر لنا أصل الحذر والحشمة عند الهمجيين فيما يتعلق بالمسائل الجنسية . ومن المشاهد ان الصراحة في الكلام عن هذه المسائل من ثمار المدنية الحديثة ، ففي بعض البلدان ينتحر الرجل او المرأة اذا علم احدهما ان آخر سمعهما يتلفظان باسماء اعضاء التناسل او ما يتعلق بها ، في حين ان المرأة المتمدينة لا تستحي ان تنافس رجلاً في موضوع علمي او اجتماعي وان استدعى ذلك ذكر الفاظ يستحي منها غير المتمدين

وقد حكى لي نوبيٌّ ان الكثيرين من ابناء وطنه المشتغلين في القاهرة وغيرها من مدن القطر ، يرحلون الى قراهم لزيارة زوجاتهم واولادهم ، ولكنهم لا يخاطبون زوجاتهم او يسلمون عليهن قبل مرور اسبوع على وجودهم هناك ، استدلالاً على الرجولة والعفة وضبط النفس ، واتباعاً للتقاليد طبعاً . ولا يخفى على الملمين بالعادات الاوربية والاميركية ان سكان تلك البلدان اكثر اظهاراً لعواطفهم الزوجية امام الغير من سكان الشرق الادنى ، وأمم الشمال في اوربا اكثر صراحة في اظهار هذه العواطف من أمم الجنوب . ففي اوربا يقبل الرجل زوجته امام الغير عند عودتها من سفر ، او يضع يده على كتفها او يضمها اليه ، وهكذا يفعل الصديق مع صديقته ، في حين ان الرجل في مصر لا يظهر شيئاً من هذه العواطف أمام الآخرين ، وقد لا يهز يده بيد امرأته ولو بعد غيبة طويلة ، ألا ترى منشأ هذه العادات ؟

من هذا يتبين ان الاباحية لا تتفق وهذه العادات التي نشأ عليها الانسان غير المتمدين . وربما نستطيع ان نضيف اليها حقيقة جلية ، وهي انه لا يبعد ان يكون الانسان قد استكشف منذ ألوف من السنين ظاهرة بيولوجية في المرأة ، وهي انها لا تتناسل اذا تركت عرضها متاعاً شائعاً لجميع الرجال ، كما هو المشاهد في المرأة البغيّ التي قلما تخطىء الطبيعة في امرها فترزق ولداً . غاية ما في الامر ان المرأة تستطيع ان تتصل برجلين او ثلاثة او اربعة او اكثر قليلاً ، ومع ذلك تحمل وتلد غير ان العدد اذا زاد قلّ احتمال حملها ، ويشاهد في تاريخ الاسرة الى يومنا هذا ان الطبيعة قد

زودت الرجل بعاطفة الغيرة ابقاءً على النسل ، ولا يستثنى من ذلك الاَّ تعدد الازواج عند بعض القبائل التي تتزوج فيها المرأة بأكثر من رجل — ما يسمونه باللغة الانكليزية polyandry وهو ما يقابل تعدد الزوجات للرجل الواحد او ما يسمونه polygamy غير ان كلاًّ من العادتين آخذٌ في الانقراض . ففي القطر المصري يبلغ المتزوجون اكثر من امرأة واحدة اقل من ٥ ./· من مجموع المتزوجين . أما المتزوجون من امرأتين فتبلغ النسبة فيهم ٣ و ./· . والمتزوجون من ثلاث نسوة ٠٣و./· . والمتزوجون من اربع نسوة ٠٠٠ ./· وفي بلاد الهند متوسط نسبة المتزوجين بأكثر من واحدة ٥ ./· ، وفي بلاد الفرس ٢ ./· . أما زواج المرأة بأربعة رجال او اكثر فلا يوجد الاَّ في بعض الجزر ، وقد يكون مثل هذا الزواج في صورة اخرى وهي ان يتزوج خمسة رجال مثلاً خمس نساء ويكون كل رجل منهم زوجاً لكل من النساء الخمس ، وتكون كل امرأة زوجة لكل من الرجال الخمسة . ولا يخفى ان هذا لا يمكن تسميته أباحية ، لانه زواج مشروع جرى بهِ العرف

ومهما ذكرنا من التقاليد الغريبة غير المستحبة في مسائل الزواج عند الامم والقبائل المنحطة فاننا لا نستطيع ان نحكم عليها بالاباحية . نجد مثلاً بين أهالي الكنغو والزولو والكفرة عادة غريبة يلجأون اليها عنـد الاحتفال بالبنات initiation متى بلغن سن المراهقة . وذلك انهم يطلقون لهنَّ الحرية للاتصال بمن يشأنَ من الرجال . ويجمعون احياناً ١٥ او ٢٠ بنتاً في منزل واحد ، فيقبل المدعوون من شبان القرية للدخول عليهنَّ . وأعيد ما قلته ، وهو ان نية هؤلاء القوم لا تنصرف في هذه العادة الى الفسق او الفجور ، بل الى عادة تكاد تكون دينية ، الغرض منها تطهير البالغات من الارواح الشريرة التي تحلُّ بهنَّ ببلوغهنَّ سن المراهقة ، ولو انها تؤول في النهاية طبعاً الى استمتاع بين هؤلاء وأولئك

ومن هذه العادات الغريبة ان في بعض الجزر يتخذ العريس صديقاً (وهو كالشبين) او صديقين او اربعة اصدقاء قبيل عقد الزواج ، وتنحصر مهمة هؤلاء في فضّ بكارة الزوجة اولاً ، والاستمتاع بها ثانياً قبل ان تقدم للزوج ، تطهيراً لها . وفي أحيان اخرى يقوم احد رجال الدين بهذه الوظيفة فيقضي ليلة او اكثر مع العروس ، ويزفها بعد ذلك عروساً طاهراً . ولا يرى في هـذه العادة اهل تلك الاصقاع عاراً او فضيحة . ولا يبعد ان تكون عادة «الدخلة» التي تعد وصمة في جبين مصر (لانها لا تزال باقية بين الطبقة السفلى وبعض افراد المتوسطة) من بقايا هذه العادة غير المعروفة في سوريا او فلسطين او العراق

غير ان في جزائر الهند الشرقية نوعاً من الاباحية ، وهي ان الصغار قبل سن البلوغ ، والشبان او الفتيات قبل الزواج يجوز لهم ان يتصل ذكورهم بأناثهم اتصالاً جنسيًّا الى ان يتزوجوا ، ولو كان بينهم قرابة تمنع التزوج . اي ان الزنا هنالك جائز شرعاً للاعزب ، فتىً كان او فتاة ، محرَّم على المتزوج

ومن انواع الاباحية ما هو شائع في بعض بلدان آسيا ، وهو ان يُعيرَ رجل امرأته لصديق او ضيف ، قياماً بواجب الصداقة او ردًّا لمعروف ، او اكراماً للضيف ، بشرط ألا تكون المرأة حرماً محرَّماً (كالاخت والعمة والخالة الخ) طبقاً لقوانين البلد

ومن هذه العادات تبادل الزوجات في الولائم والافراح وان كانت المرأة حرماً محرماً بالنسبة للرجل . ومن الغريب ان مثل هذه العادة معروفة في بعض البلاد المتمدينة بين طبقات شاذة من اولئك الذين يعيشون كما كان يعيش الرومان في زمانهم ، فلا يعبأون في حياتهم الاَّ بمعاقرة بنت الحان والرقص والاستسلام لشهواتهم في شتى الطرق والاساليب الشيطانية

***

وقد كان للاعتقادات والاباطيل التي سادت على مدى الاجيال بخصوص المرأة السبب الاكبر في التضييق على حريتها ، ومطالبتها بأكثر ما يطالب بهِ الرجل من الحياء وصون العرض ، وعدم المساواة بينها وبينه . ويعتقد بعض الهنود الى اليوم ان الطفل يرث الجسم عن امه ويرث الروح عن ابيه ، والجسم عند الهنود على الاخص لا قيمة له في جانب الروح . وذكر العالم الاجتماعي وسترمرك Westermarck ان المغاربة في جبال الاطلس يحتّمون على نسائهم استعمال الاعداد المغربية القديمة ، ويحظرون عليهن الاعداد العربية الحديثة ، لانها ميزة يختص بها الرجال دون النساء . وفي بعض البلدان الوثنية يحرم على المرأة الصلاة الى الآلهة الذكور ، فتقنع بالآلهة الاناث والغرض من هذه العادة الاشارة الى علو منزلة الرجل على المرأة اولاً ، وغيرة الرجل على المرأة ، وخشية ان تطارح الآلهة الغرام فيما اذا كانوا ذكوراً

وفي مدينة سيول بكوريا يقرع ناقوس الساعة الثامنة مساء ، فيختفي الرجال من شوارعها وأزقتها وتظهر النساء ، فيمررن في المدينة الى الساعة الثالثة صباحاً حينما يقرع ناقوس آخر ، فتحتجب النساء وينفسح المجال للرجال

واذا نظرنا الى الخرافات والعادات السالفة الذكر ، على غرابة بعضها ، وهمجية بعضها ، فانا نجد انها حافظت على الاسرة ومنعت شر الاباحية والعبث بالاعراض والزنا بالاقارب والتزاوج بين المحارم وساعدت على ان يكون احب ما لدى الرجل المرأة التي بلغت اقصى ما تكون من الانوثة ، وأحب ما لدى المرأة الرجل الذي بلغ اقصى ما يكون من الرجولة

ولا يغيب عن اذهاننا ان تحريم الزواج بالاقارب المقربين oxogamy امر حديث العهد ، وليس من طبيعة البشر ان يمتنعوا عن زواج اخواتهم او بناتهم كما يظن العامة . وما هذا الامتناع الاَّ عادة مكتسبة . فقد كان قدماء المصريين يتزوجون من اخواتهم ، ولا تزال بعض الامم تحرّم على الرجل النظر الى بنته او رؤيتها بعد سن البلوغ ، ويحرّم على المرأة كذلك ان تكشف وجهها امام ابنها او تنظر اليه بعد بلوغ تلك السن كما هو الحال في جزيرة سيلان . وما نسمعه احياناً من اتصال

شاب بأخته او رجل بينته الحسناء اتصالاً جنسيًّا بغريب ، فان في اللغات الاوربية كلمة خاصة بهذه الحالة ويسمونها بالانكليزية incest

ومبدأ تحريم التزاوج بين الاقارب الاعتقاد بأن اولئك الذين يأكلون من طعام واحد يحل بهم النحس وسوء الطالع اذا ما تزاوجوا بعضهم من بعض ، ولعل هذا الاصل في تحريم الزواج بين الاخ والاخت في الرضاع . وبهذه المناسبة نقول ان عادة الصلاة القصيرة قبل تناول الطعام عند بعض المسيحيين ، او رسم علامة الصليب عند البعض الآخر او قولهم « بسم الله الرحمن الرحيم » عند المسلمين ، ترجع الى الاعتقاد القديم عند الهمجيين ، من ان هناك اقوالاً ينبغي تلاوتها قبل الاكل طرداً للارواح النجسة

ومن غريب الصدف ان يفكر الهمجيون في تحريم الزواج عند الاتحاد في الجسم communsality والدم consanguinity قبل ان تظهر النظرية البيولوجية المشهورة التي تقول ان الذرية تضعف اذا لم تتسع الدائرة التي يحدث فيها التزاوج ، لان وجوه الضعف في رجل وامرأة من اسرة واحدة تظهر بوضوح في ذريتهما فاذا ما تزوج ابناهما مثلاً من بنت من هذه الاسرة كانت وجوه الضعف اكثر وضوحاً . وهذا يعزز ما يقوله العلماء من ان خرافات الجهلاء والعامة قد تسبق مكتشفات العلماء

غير ان التزوج من الاقارب مختلف فيه . ففي مصر والبلدان الاسلامية يحرم على الرجل زواج اخواته وبنات الاخوة والاخوات ، ويجوز له التزوج من بنات العم القريب ، في حين ان الشريعة اليهودية تجيز التزوج من بنت الاخت . وفي اوربا واميركا لا يستحب مطلقاً ان يتزوج الرجل من بنت عمه القريب . ولا يجوز له ذلك الاَّ اذا اشتد الحب بينهما . ومن الغريب ان في بعض الجزر التزاوج بين اولاد الاعمام او الاخوال endogamy مقيد بهذا القيد ، وهو ان العم لا يجوز له ان يزوج ابنه من بنت اخيه ، ولا يجوز للخالة ان تزوج ابنها من بنت اختها ، ولكن يجوز ان يزوج الخال ابنه من بنت اخته ، او تزوج العمة ابنها من بنت اخيه . والحكمة في ذلك الاَّ يكون الزوج والزوجة متسلسلين من جدٍّ ابويٍّ واحد

يقرأ الرجل العادي عن هذه العادات والتقاليد والشرائع والقوانين والخرافات ، حسنة كانت ام قبيحة ، ولا يهمه من امرها سوى انها طرائف يتفكه بها في اوقات الفراغ ، ولا يسترعي نظره فيها سوى انها أحاج تصلح حديثاً للمائدة وتسلية لقائلها وسامعيه غير ان الذين يراقبون حوادث المجتمع بمنظار هذه العادات وتاريخ نشأتها وكيفية تطوّرها لا يسعهم الاَّ سعة الصدر والتسامح واحترام التقاليد بين الامم الاخرى التي تخالفنا مبادىء وعقائد وآداب عامة . ولا يسعهم الاَّ نبذ التعصب ، وقبول الآراء الجديدة اذا ما اتضح صلاحها ، والقاء الآراء القديمة اذا ما اتضح بطلانها . ولا يسعهم الاَّ التنازل عن مبادىء طالما كانوا يقدسونها ، وعادات طالما كانوا يعبدونها ، وتقاليد طالما تمكنت من نفوسهم فلا يستطيعون الافلات منها ، ولا يسعهم الاَّ التأمل والتفكير في مشاهدات العادات

الاسلوب العلمي

لدى العرب والاسلام

للامير مصطفى الشهابي

ما برح الانسان منذ ما وجد على هذه الارض يتلمس بعقله وحواسه وأخيلته الواسعة مظاهر هذا الكون العجيب واسرار هذه الحياة الدنيا . وما برح يتساءل الى يومنا هذا عن احاجي الكون التي لاعداد لها وعلاقتها بذلك الانسان المسكين! الذي يأتي الى العالم فيجالد في معترك الحياة ويكافح ويجد ويهزل ويفرح قليلاً ويتألم كثيراً ثم يدركه الفناء فيهلك مقهوراً مدحورا . ولكم ناجى هذه الطبيعة وتطلع الى العلة التي تسيرها وتأمل في الفضاء فلم يعثر لهُ على حد ولا بدء ولا نهاية وفحص نفسه فاذا بهِ يجهل ماهيته ويجهل من اين اتى والى اين يذهب. وحول فكره الى العالم فاذا بهِ لا يستطيع ان يعرف هل هو مخير ام مسير بجبرية لا تتزحزح وهل امامهُ رقي عام شامل ام هو يدور ابديًا على حاله . ونظر الى الكائنات فلم يفقه ماهية حركتها العامة ولا الحكمة في تلك الحركة

ولطالما شغلت هذه الامور الفلسفية الناس منذ فجر الخليقة الى يومنا هذا . ولشدما تناقشوا فيها بل تشاحنوا بل تقاتلوا بل تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم . لكن هذه الاحاجي ما لبثت على حالها كما ان العقل البشري ما لبث اعجز عن ان يحير لها جواباً محسوساً او معقولاً يرضي عنهُ العالم الحذر الذي لا يسلم بغير ما يقع تحت الحس او يدرك بدلائل راهنة . وظهر في كل الامم الكبيرة قديمة كانت او حديثة فلاسفة استرسلوا في هذه الموضوعات بحثاً وتعليلاً كما شاءوا وشاءت اهواؤهم الفلسفية وميولهم المذهبية وظهر ايضاً خياليون تجاوزوا في ابحاثهم حدود الحس والعقل فراحوا يتخبطون في اوهام لا نحسها ولا نعقلها وهم اصحاب الاخيلة الشعرية الذين لا يتقيدون بقيد ولا يقفون بتصوراتهم عند حد سواء اكان لتلك التصورات ظل من الحقيقة ام لا . والى جانب هذين الفريقين برز فريق ثالث رزين متواضع وهو فريق العلماء الذين رأوا اخيراً ان الانسان عاجز عن معرفة ماهية الحوادث الكونية فعليهِ اذن بان يقصر ابحاثه على تحري صلة الموجودات الثابتة بعضها ببعض بصرف النظر عن صلتها بمجموع العالم او بالشخص الذي يحس ويفكر . وهذا الاسلوب في التفكير هو الذي يسمونهُ الاسلوب العلمي . مثاله اننا اذا رأينا جسمين يسقطان نحو الأرض بسرعة مختلفة تخبرنا

أسباب هذا الاختلاف في السرعة حتى اذا عثرنا عليها وضعنا قاعدة لسقوط الاجسام دون ان نهتم بماهية الجاذبية واسبابها وعلاقتها بالعلة الاولى او بالانسان . واذا رأينا جسماً يتمدد بالحرارة قلنا ان الحرارة تمدد الاجسام والبرودة تقلصه فاثبتنا بذلك صلة الجسم المذكور بالحرارة والبرودة دون ان نشغل نفسنا باسباب حصول الانبساط او التقلص اي هل هنالك علة اولى او علة كامنة او ملاك او جني جعل ان الحرارة تزيد حجم الجسم والبرودة تنقصهُ . واذا مزجنا جسماً كيماويًّا بجسم آخر تحرينا الجسم الجديد الذي يحصل من هذا الامتزاج دون ان نعتقد قبل المزج اننا سنحصل على جسم معين كأن يكون ذهباً او فضة او اي جسم آخر ومعناه ان عملنا الكيماوي هذا يكون خالياً من كل وهم او اعتقاد سابق وبذلك نصل الى معرفة الحقيقة المجردة

واذا تحرينا التاريخ الذي أفلتَ فيهِ الانسان من الاوهام حتى صار لا يبحث عن العلوم الأ بمقتضى هذا الاسلوب العلمي وحده نجده لا يتعدى عهد باكون وديكارت في الفلسفة وكبلر وغاليليو في العلوم . اما قبل ذلك فالاسلوب الذي كان يتبعهُ معظم المفكرين في جميع الاقوام كان يسمى الاسلوب الغيبي وهو انهم كانوا يعللون حوادث الكون بجعلها خاضعة لأرادة الاصنام اولاً فالآلهة فالأله الأحد فالعلل الكامنة بها المنفردة عنها الى ان انصرف العقل البشري اخيراً فيما يتعلق بالعلوم عن البحث عن اصل الكائنات وغايتها ومدبرها واقتصر على النظر في النواميس الطبيعية التي تسير حوادث الكون بموجبها . ومنذ ذلك الحين اخذت العلوم تتسع وتتقدم

قلت ان جميع الاقوام كانت سواسية في اتباع الاسلوب الغيبي لا نستثني منهم احداً حتى اليونانيين انفسهم . غير ان بعض الباحثين ، (ومنهم استاذ مصري كان ناقشني في هذا الموضوع على صفحات المقتطف منذ بضع سنين) لا يريدون الاعتراف بهذه الحقيقة بل يريدون ان يجعلوا العرب وحدهم منفردين باتباع الاسلوب الغيبي في ابحاثهم العلمية وان يجعلوا الاسلوب المذكور طابعاً لهم وحدهم . وهذا ما سأتوخى دحضه بايجاز في هذه المقالة . اقول بايجاز لانني اذا رحت اذكر جميع الدلائل والامثلة على خلط اليونانيين وغير اليونانيين في ابحاثهم العلمية والفلسفية ملأت بذلك سفراً برأسهِ . فأي تجربة او اي مشاهدة او اي استقراء جعل صاحب كتاب الفلاحة اليونانية مثلاً يقول في الصفحة ١٠٦ من كتابه المذكور المطبوع في مصر . « قال قسطوس اذا نصبت رأس حمار اهلي في وسط المبقلة اسرع نباتها وكثر نزلها واذا عمد الى الرصاص الاسود وصنع منهُ وزحل في برج الميزان تمثال امرأة في يدها ريحانة تشمها ونصب في المباقل اسرع نباتها وكثر ريعها .... واذا نقش على رأس حمار اهلي صورة امرأة بشمع اخضر والقمر في برج السنبلة ونصب في وسط المبقلة اسرع نباتها وكثر نزلها » وفي الصفحة ١٤٤ من الكتاب نفسه « قال قسطوس: اذا كتب اسم الراعف بدمهِ في جبهته ارتفع عنهُ الرعاف» وهذا صاحب المنطق اي ارسطو نفسه وهو من اكبر المفكرين في العالم يخلط في كتاب الحيوان في امور عدة كقوله انهُ ظهرت حية لها رأسان وان ثوراً سفيد والقسح بعد

ان خصي وغير ذلك مما جعل الجاحظ يتحداه ويستهزىء بهِ في كتابه المسمى بكتاب الحيوان . ومن المعلوم ان اليونانيين كانوا اغنى شعوب الارض بالآلهة وبخيالاتها الشعرية التي ينبو العقل السليم عنها وكذا كان الرومانيون . فقد اتخذوا لكل شيء الهاً او اكثر . وجعلوا لهذه الآلهة كل ما يمكن ان تتصوره من صفات بشرية ثم جعلوا العلوم ايضاً تابعة لارادتها الاّ ما لا يمكن تعليله بغير وجه علمي كالرياضيات مثلاً . وهكذا كانت الحال لدى الكلدانيين والبابليين والهنديين والمصريين القدماء وغيرهم من الامم القديمة

ومن البديهي ان لا يشذ العرب عن غيرهم في اتباع الاسلوب الغيبي في كثير من ابحاثهم لانهم تلامذة اليونان في العلوم والفلسفة . ولكن اما كان لدى الشعوب القديمة علماء يتبعون في ابحاثهم الاساليب العلمية المبنية على التجربة والاستقراء . والجواب عن ذلك سهل وهو انه لو خلت تلك الشعوب من أناس كهؤلاء لما كنا وجدنا أسس كثير من العلوم الحديثة متأصلة لدى اليونان ولدى غيرهم من الشعوب المتمدينة القديمة . فالاسلوب الغيبي وان كان طبع جميع الشعوب القديمة بطابعه في اوائل النهضة العلمية الحديثة فان تلك الشعوب لم تعدم عقولاً كبيرة كانت تتبع الاسلوب العلمي المحض في كثير من ابحاثها.ولا شك ان لليونان الفضل الاكبر في اظهار بعض حقائق هذا الكون لكن العرب والاسلام قاموا أيضاً بقسطهم ايام لم يكن غير نورهم الوضاء نبراساً تستنير بهِ البشرية في ظلام الجهل الحالك . فمن العلوم التي عكف عليها بعض علماء العرب ودرسوها درساً استقرائيًّا خالياً من الاوهام الرياضيات . ومن البديهي انهُ لا يمكن البحث في الرياضيات باسلوب غيبي . فاثنان واثنان تساوي اربعة ولا يسلم العقل بانها تساوي اكثر او أقل سواء ارضيت بذلك الآلهة او العلل الكامنة ام لم ترض . والعرب كانوا بادىء بدء تلامذة أرخميدس واقليدس في هذه العلوم . لكنهم ما عتموا ان بذّوا اساتذتهم فأوجدوا او اوضحوا علماً برأسه هو الجبر. وبحثوا في المثلثات وزادوا في معادلات الهندسة مما لا يخفى على كل من تتبع هذه الشئون . واظهر أثر لهم في هذا الباب انهم نقلوا الارقام الهندية والحساب العشري عن الهند فاقتبسها الافرنج عنهم . ولا تزال اسماء الخوارزمي وابن الهيثم وشجاع ابن اسلم وابي جعفر الخازن والسرخسي وجابر بن افلح والقلصادي وغيرهم من الرياضيين الاعلام مفخرة من مفاخر الاسلام في الشرق والغرب

وعلى العكس من الرياضيات الفلسفة . فان ابحاثها لا يمكن ان تكون يقينية في كل نواحيها مهما توخى بعض الفلاسفة قصرها على المدركات وعلى المعقولات . لان هنالك اموراً لا يمكن ادراكها ولا بدَّ للفلسفة من ان تتناولها وان كان العقل البشري غير قادر على بتها . فالعرب والامم التي سبقتهم لم يضعوا الفلسفة المادية (يسمونها ايضاً الفلسفة الوضعية او اليقينية او الطبيعية) وواضعها هو أوغست كونت الفرنسي في القرن الماضي . وهي فلسفة علمية ترتكز على الاستقراء والاستنتاج الحسي والعقلي لكنها لا تتناول سوى النظر في مختلف العلوم لرؤية صورة الكون بها . ولا تتعداها

الى التحليل العقلي والمنطقي للامور التي لا يمكن ادراكها كالعلة الاولى والكون والمبدأ والنهاية والازل والجبرية وغيرها . وهذا الضرب من الفلسفة المتعلقة باسس الديانات خاصة هو ما برز العرب بهِ حتى ادهشوا عدداً كبيراً من فلاسفة اوربة لفرط الدقة في تحليلاتهم العقلية والمنطقية فراح اليسوعيون انفسهم يطبعون كتاب تهافت الفلاسفة للغزالي وتهافت التهافت لابن رشد لان فيهما اقوى جواب للملحدين واجل استنتاج عقلي لوجود الخالق مبدع الاكوان

واشتطَّ غلاة المتعصبين من الافرنج فجعلوا الفلسفة الاسلامية صوفية ملأى بالأوهام وفاتهم ان المسلمين ولا سيما المعتزلة منهم قد هضموا وتمثلوا الفلسفة اليونانية وزادوا عليها في ناحية الدين خاصة وحللوها تحليلاً ما سبقهم اليه احد . ومن ذا الذي ينكر ان نظرهم الى العلة الاولى كان اجل واسمى من نظر اليونان الذين جعلوا لكل شيء إلهاً حتى صار مجموع الآلهة مهزلة من المهازل الكونية . ولا غضاضة على العرب اذا اضطهد بعض رجال الدولة قسماً من فلاسفتهم بتحريض غلاة الفقهاء المتعصبين فان لهذا الاضطهاد أمثلة لا تحصى في الشعوب القديمة ولدى الاوربيين قديماً وحديثاً وما عدم التناحر بين الناس في زمن من الازمان على الآراء الفلسفية والمذهبية كما ان الخيالات والاوهام ما برحت شائعة لدى جمهرة الاوربيين حتى في يومنا هذا . والعامة هي العامة سواء في الشرق أم في الغرب وليس كل رجل من سواد الشعوب الاوربية كغستاف لوبون في تفكيره او كدروين في تحليله . والملة التي فيها عقول كعقول ابن سينا والكندي والفارابي والغزالي وابن باجة وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون وابن الهيثم واخوان الصفاء وابن مسكويه وغيرهم من اعلام الفلاسفة لا يقوى احد على الادعاء بأنها لم تقم بواجبها في سبيل تقدم العقل البشري

واذا انتقلنا الى الزراعة نجد ان العرب حذقوا التجارب الزراعية واصطفاء الاصناف النباتية المفيدة فقد اوجدوا عشرات من اصناف المشمش والتين والعنب والتفاح وغيرها وربوا الخيل والانعام وخبروا اهم امراضها ومداواتها . ولهم في خلق الخيل ولا سيما في الوانها وشياتها ودوائرها ملاحظات فاتت الاوربيين أنفسهم حتى في ايامنا هذه . ففي كتب البيطرة الفرنسية لا يجد القارىء اسماء لدائرة السمامة ودائرة المحيا ودائرة المعوذ مثلاً بل يجد تلك الدوائر وامثالها مسماة باسمائها العربية دون غيرها . وللعرب فضل في نقل كثير من النباتات المفيدة الى اوربة كالقطن وقصب السكر والبطيخ والمشمش ومعظم أشجار الفصيلة البرتقالية وعدد كبير من العقاقير الطبية والابازير والافاويه . وترجمت العرب عن اليونية والنبطية كتباً كثيرة في النبات والحيوان والزراعة والماشية وألَّف ابن العوام الاشبيلي في القرن السادس من الهجرة كتاب الفلاحة الاندلسية وقد ترجم الى الفرنسية والاسبانية . ومدحه العالمان الفرنسيان رنجلمان وباسي وقالا ان هذا الكتاب يدل على ما كان للعرب من نظرات دقيقة في الطبيعة والكيمياء وانه مجموعة لاجل الابحاث والقواعد الزراعية التي كتب فيها الانباط واليونان والرومان عدا ما كان يتبع في الاندلس . ويتضح من ذلك ان

اجدادنا كانوا حفظة العلوم الزراعية ايضاً وانهم اضافوا اليها تجاربهم وملحوظاتهم مما فيه بعض فوائد عملية وحقائق علمية تقرها عقولنا في ايامنا هذه . ويقتضينا الانصاف ان نقول ان ابحاثهم الزراعية لم تكن كلها علمية بل كثيراً ما يجد الانسان في كتبهم بعض الآراء السخيفة بجانب أجمل القواعد المعقولة . وسبب هذا جهلهم حياة النباتات الداخلية في الغالب . وقد كان من المستحيل عليهم ان يتبعوا اسلوباً يقينيًّا محضاً في كل التجارب الزراعية قبل ان يعرفوا اسس النبات ووظائف اعضائه وبناء التراب والهواء كيماويًّا وما هي أغذية النبات وكيف يتناولها . وكل هذه الامور الدقيقة لم تعرف الا البارحة اي في القرن الماضي ، مثال ذلك اننا نقرأ في كتاب الحيوان للجاحظ (ج ٣ ص ١٠٤) وصفاً لجذور النبات وكيف تتغلغل بين اجزاء الصخور وفي الآجر والخزف حتى في الفلس البصري فتثقبه . ويقول الجاحظ ان ذلك ليس لشدة غزّ الجذور وحدة رأسها ولكنهُ يكون على قدر ملاقاة الطباع . فملاقاة الطباع هذه هي الجملة الغيبية التي لا يفهم كنهها وسبب ذكره لها انهم ما كانوا يعرفون في تلك الايام ان الجذور تفرز حوامض تحلل او تذيب الاجسام الصلبة المذكورة فيسهل عليها اختراقها .

***

وللعرب على الطب فضل واي فضل فهم وان كانوا تلامذة ابقراط وسقراط وجالينوس فقد بذُّوا اساتذتهم في كثير من ابحاث العلوم الطبية ولهم في هذا الباب بحوث علمية ليس للغيب اليها سبيل . ولطالما نعى عليهم خصومهم قلة اهتمامهم بالتشريح وامراض النساء لاسباب دينية لكنه لا يسع اشد الناس خصومة لهم الا الاعتراف بانهم هم الذين درسوا ووصفوا الجدري والحصبة وهم الذين فتتوا الحصاة وقدحوا العين وأوجدوا الصيدلة وزادوا في المفردات الطبية والادوية المركبة . ولهم نظرات صادقة لم يسبقهم اليها احد في امراض الاطفال والحميات الخبيثة وامراض الجلد ومعاينة البول والفتق والورم الباسوري وغيرها وهي امراض كثيرة . ولا جرم ان كل الذين يراجعون تاريخ الطب ويقرأون ما دوّنه الاوربيون انفسهم في هذا الباب يجدون ان من امجد الصفحات المكتوبة بماء الذهب تلك التي تبحث عن اعمال الرازي وابن سينا وعلي بن عباس وابي القاسم الزهراوي وابن زهر والفارابي دع جابر بن حيان في الكيمياء ورشيد الدين الصوري وابن البيطار في النبات فهؤلاء علماء لم يكتفوا بنقل العلوم الطبية والنباتية عن اليونان بل مزجوها بعلوم الكلدانيين والهنديين والفرس واضافوا الى كل ذلك تجارب جربوها وادوية اوجدوها وامراضاً كشفوها كلها معقولة محسوسة تقرها عقولنا اليوم كما اقرتها عقولهم في تلك الايام البعيدة . ومن الغريب انني بينما أكتب هذه المقالة في الثامن من كانون اول «ديسمبر» سنة ١٩٣٣ دفع اليَّ موزع الصحف عدد اليوم السادس من الشهر المذكور من جريدة « الأهرام » واذا بي اقرأ فيه خبراً عن محاضرة للدكتور مارهوف في المجمع العلمي المصري بحث فيها «في اكتشاف الدورة الدموية على يد الطبيب العربي ابن النفيس الذي كان

في القرن الثالث عشر من الميلاد» وحسب العرب فخراً ان كتبهم الطبية لبثت بضعة قرون تدرس في اوربة وحيدة لا منافس لها

ومن العرب الذين كان لهم في الفلسفة والعلوم نظرات يقينية صادقة جماعة اخوان الصفاء المشهورين فقد دوّنوا في مقالاتهم شيئاً لا يبعد عما قاله لافوازيه فيما بعد وهو ان لا شيء يتكوّن من العدم ولا شيء ينعدم بل كل شيء يتحوّل . وعللوا حصول المطر اصدق تعليل . وبينوا كيف يمتص النبات غذاءه من التراب بواسطة جذوره وما فيها من قوة جاذبة . وقالوا بمذهب النشوء والانتخاب الطبيعي وتنازع البقاء وفوز الاصلح . ومن البديهي انهم لم يستطيعوا ان يأتوا ببراهين حاسمة على صحة هذا المذهب كالبراهين العديدة التي ادلى بها داروين فجعلته مرجع المذهب المذكور بلا منازع، لان اثبات امور كهذه اثباتاً علميًّا مبنيًّا على الاستقراء وعلى تتبع حيوانات عدة في مختلف صفاتها الخلقية يحتاج الى تقدم العلوم البشرية في كثير من النواحي التي كانت لا تزال مجهولة في العصور ألتي سطعت فيها المدنية العربية . ومع هذا فقد كانت آراء اخوان الصفاء في هذا الباب صحيحة وان اعوزتها الادلة العلمية . ولهم آراء لا بأس بها في تكوّن الجبال والبراري وثبات حرارة الماء في العيون صيفاً وشتاء وحصول المدّ والجزر والبرق والصاعقة وغير ذلك من ابحاث الفيزياء «علم الطبيعة» التي كانت غامضة كل الغموض في تلك الايام سواء لدى العرب او لدى الامم التي درجت قبلهم . اما ابحاثهم في الفلسفة فكانت مستمدة من فلسفة أرسطو خاصة . ولما ابحاثهم في الاخلاق والعلوم النفسية فكانت طريفة تدعو الى اكبار هؤلاء العلماء الذين شغفهم العلم فأولعوا به وعملوا في سبيله وهم لا يبتغون على عملهم جزاءً ولا شكورا

وعلى ذكر الفيزياء لا يجوز ان نهمل ذكر ابن الهيثم ممن عاشوا في القرن الخامس من الهجرة فلقد كان عالماً بالهندسة والفلك وسائر الرياضيات ولهُ في البصريات ابحاث فاق بها بطلميوس اليوناني ولاسيما في انعكاس الضوء والعدسات وتشريح العين وغيرها . ولا بد لنا ايضاً من ذكر ابناء موسى اصحاب كتاب الحيل والبيروني الذي تمكن مع غيره من الوصول الى حساب الوزن النوعي لبعض الاجسام . لكن كل ذلك لا يعد تقدماً محسوساً في علم الفيزياء . والحقيقة ان دساتير هذا العلم المهمة كلها وليدة المدنية الحديثة منذ عهد غليليو ونيوتن في الميكانيكا الى ابحاث فولطا وفرنكلن وفرادي في الكهرباء . ولا يزال في هذا العلم المهم غوامض لم يتمكن العلماء من كشف القناع عنها بالرغم عما لديهم من الوسائل التي تسهل عليهم البحث والتنقيب

ومن المعلوم ان اصعب جزءٍ من اجزاءِ الفلسفة الوضعية واكثرها تعقيداً ذاك الذي يبحث عن علم الاجتماع وقواعده لان علاقات البشر بعضهم ببعض تابعة لعوامل كثيرة ولان سنن الاجتماع لا تسير على وتيرة واحدة في كل الاحوال بسبب تأثير هذه العوامل فيها . ولذلك اعجب الشرق والغرب معاً بذلك الفكر المتقد الذي املى على ابن خلدون قواعده الاجتماعية والاقتصادية في مقدمة

تاريخه الشهيرة حتى عدَّ بحق واضع أسس الاجتماع واصول الاقتصاد السياسي قبل مكيافلّي ومونتسكيو وسميث وغيرهم من علماء الغرب . وقد اخذ بعض العلماء في اوربا يدرسون منذ اواخر القرن الماضي آراء مؤرخنا الفيلسوف ويحللونها ويقارنونها بأمثالها من وضع علماء هذه الايام . وكلهم مجمعون على أن ابن خلدون هو أول من بحث عن أسس فلسفة التاريخ والاجتماع والاقتصاد وان بحثه لها كان على طريقة علمية معقولة لا على طريقة غيبية اي انهُ كان يعلل الحادثات الاجتماعية والاقتصادية تعليلاً مبنيًّا على المشاهدة والاستقراء والاستنتاج العقلي لا على اوهام وخيالات واعتقادات مذهبية قد لا يكون لها ارتباط بالحوادث التي كان يدرسها . وهذه التعليلات المجردة هي التي جعلت لابن خلدون شيئاً كبيراً ومنزلة ممتازة في تاريخ العلوم التي تناولها بأبحاثه الطريفة

وهذا الجاحظ اديبنا الاكبر الذي انقادت له اللغة واطاعهُ البيان حتى اتانا بالمرقص المسكر من آيات قلمه فلقد اعدت الكرة اخيراً على كتابه الشهير المسمى كتاب الحيوان فوجدت في تضاعيفه عدداً كبيراً من الآراء العلمية القويمة وتفنيداً لاقوال بعض علماء عصره الذين كانوا يخلطون في الكلام في الامور العلمية . ولم يستثنِ احداً ممن قرأ لهم كتابات غير معقولة فتناول بقلمه اليونانيين حتى صاحب كتاب المنطق نفسه . ومما علله تعليلاً حسناً ملوحة البحر وعذوبة الامطار والثلج واستحالة الحطب في الاحتراق والزيت في المصباح . لكنهم كانوا يرون في تلك الايام ان النار جوهر مستقل . وعلل صعود الهواء وانحدار الماء لا بالجاذبية والثقل النوعي بل بانجذاب الاجسام بعضها الى بعض. وقال عن بعض العرب ان الجسم يكون بارداً على قدر قلة الحرارة فيهِ والظلام انما هو فقدان الضياء. وهذه الامور نراها اليوم بسيطة وما كانت كذلك قبل عشرة قرون . ولاحظ انطفاء النار في الآبار والحفاير وفتوق الارض واتخذ ذلك دليلاً على عدم امكان الحياة فيها لكنهُ لم يذكر لهذا الحادث اسباباً. وذكر مقاومة الماء وطفو الاجسام ولاسيما المراكب وعلل ذلك تعليلاً لا يأس بهِ . ومما لاحظهُ تأثير البيئة في الوان الاحياء كاخضرار بعض الحشرات في المباقل واسوداد بعض الحيوانات في الحرَّة واغبرار بعضها في السهول. وآمن بحصول هذه التبدلات على كر الايام وعلى مقتضى المؤثرات الطبيعية المختلفة فكأنهُ قال بحصول التطور على كر الدهور . وهنالك مسألة اقضت مضجع شيخنا الكبير وهي كيف تحصل بعض الاحياء بلا بيض وبلا حمل كالحشرات التي تتولد في جمّار النخل وكسوس الحبوب والأرضة ودود الجيف ودود المعدة الذي يحصل من الطعام والطعام خلو منه . وياليته كان لدى شيخنا مجهر اذن لرأى بهِ الجراثيم العديدة وبيض الحشرات الدقيق ولظل على رأيه من ان الحي لا ينشأ الاَّ من الحي . وقد وصف الجاحظ بعض الحيوانات كالخفاش والذر وغيرها وصفاً دقيقاً يدل على شدة فراستهِ وقوة ملاحظته وفرط حذره لئلاَّ يكون في كتابه صفة تخالف حقيقة الحيوان او فكرة لا يقرها العقل ولا توصل اليها التجارب . ولو اردت بيان كل ما ورد في الكتاب المذكور من الآراء العلمية والفلسفية السديدة لكتبت في ذلك عدة صفحات

هذه صورة صغيرة وبسيطة توخيت فيها ان اظهر لكم ان العرب الاقدمين لم يعدموا ابان مدنيتهم الزاهرة عقولاً أخذت بالاساليب العلمية في ابحاثها دون التأثر بآراء فلسفية سابقة . ولئن كان عدد الذين اتبعوا هذه الطريقة من البحث قليلاً او كانت الاساليب الغيبية شائعة في تلك الايام البعيدة فما ذلك الا لأن العقل البشري لا يتكامل واسرار الطبيعة لا تكشف في سنة او سنتين او قرن او قرنين . وليس من الانصاف ان نطعن برجال عاشوا في القرون الوسطى تكتنفهم اسرار الطبيعة وأحاجيها التي لا تحصى اذا هم لم يجدوا لكل باب مغلق مفتاحه . واذا عدلنا في حكمنا عذرناهم كما نعذر فطاحل علماء القرن التاسع عشر كداروين وهكل وبستور وامثالهم اذا هم جهلوا بعض دساتير الكهرباء ومخترعاته مما يقرأه الاولاد في المدارس في ايامنا هذه . ونحن الذين نفخر بسعة معلوماتنا ومخترعاتنا ربما لا يمر قرن او اثنان حتى يرى ابناء تلك الايام اننا كنا نجهل علوماً هي عندهم من بسائط العلوم . وربما رثوا لحالنا لأنهم يتمتعون في الحياة بوسائل لا عهد لنا بها اليوم وذلك كما يتمتع اليوم سواد الشعب حتى من العامة بالضوء الكهربائي والسيارة والطيارة والقطار والسينما والتدفئة ببخار الماء وغيرها مما لم يحظ به الفراعنة والقياصرة والاكاسرة والخلفاء في ابهة الملك وعز السلطان . فحسب العرب فخراً انهم جدوا في سبيل العلم وانفقوا عن سعة ونقلوا علوم الاقدمين واحتفظوا بها وتدارسوها وهضموها وزادوا عليها ثم وقفوا مضطرين لا مخيرين على أثر غزوات المغول والتتر في الشرق والاسبانيين في الغرب . والمنصف لا يلوم أمة نامت عن طلاب العلم وهو يرى رجالها قد قتلوا وبلادها قد خربت وكتبها قد حرقت او القيت في الانهار الكبيرة ويراها كلما جمعت شملها ووقفت تريد العمل منيت بفاتح جديد من سفكة الدماء ومدمري العمران . وأكبر دليل على وجود القابلية التامة في هذه الامة للاخذ بالاساليب العلمية الحديثة انهُ ما كادت مصر والشام تحتكان بعلماء الغرب منذ بضع عشرات من السنين وما كادت مصر تفلت من حكم الاتراك والمماليك وتنعم بحكم الاسرة العلوية الرشيدة وعلى رأسها محمد علي اكبر حاكم مفكر انجبه الشرق في القرون الاخيرة ، حتى رأينا المدارس العلمية تفتح لتلقين العلوم على انواعها ورأينا المعامل والمصانع تؤسس على احدث الطرائق المعروفة

والنهضة الحديثة للاقطار العربية شيء محسوس لا سبيل الى نكرانه . لكن الاديب المصري الذي المعت اليه سابقاً لم يهتد الى حادث او عامل او نقطة ارتكاز كما يقول يصح تسميتها بالمحور الذي اجتمع حوله الاسلوب العلمي الحديث . وهو يرى في مقال نشره في المجلد الثامن والستين من المقتطف ان لا عهد نابليون في مصر ولا عهد محمد علي ولا تعاليم جمال الدين الافغاني ولا ثورة عرابي ولا ثورة ١٩١٩ تصح ان تعد مبدأ انقلاب الافكار في مصر ذلك الانقلاب الذي جعل جمهوراً كبيراً من الشعب يطرحون الاسلوب الغيبي ويتخذون الاسلوب العلمي في تفكيرهم . ومع هذا فهو لا ينكر وجود الانقلاب في التفكير او وجود النهضة نفسها . والحقيقة ان نهضتنا

الاخيرة لا ترتكز على عامل واحد بل على عوامل عدة توالت منذ ايام نابليون الى اليوم . واذا كان كل واحد من هذه العوامل لا يعد في ذاته المؤثر الاكبر الذي ادى الى انقلاب الاسلوب في تفكيرنا فمن خطل الرأي ان ننكر كونه حلقة من سلسلة المؤثرات التي نهضت بنا في هذا الصدد . ففي ايام حملة نابليون بدأ الناس يشعرون برجحان العلوم الحديثة وبالقوة المادية المنبعثة عنها وأخذ مفكروهم يتطلعون الى معرفة هذه العلوم . ثم اتى محمد علي الكبير فأدرك بفرط ذكائه وشدة عزيمته ان لا سبيل الى اتقاء استعمار الغرب الا بنهوض الامة وان نهوضها يتوقف على تلقينها العلوم الحديثة بالاساليب التي اتخذها الاوربيون انفسهم فكان ما كان من فتح المدارس وتأسيس المعامل وارسال التلامذة الى اوربا وقيام المترجمين يترجمون زبدة العلوم الغربية حتى اشبهت ايام محمد علي في القاهرة ايام المأمون في بغداد . ومن البديهي ان الافكار اخذت تتبدل منذ ذلك الحين متأثرة بهذه المؤثرات حتى جاء جمال الدين الافغاني فمحمد عبده وتلامذته فأخذوا يقنعون الجمهور بأن الدين لا ينافي العلم وانه لا ضرر من تعلم العلوم الحديثة على انواعها سواء في المدارس الدينية ام في غيرها . وعندئذ صار النبهاء ينظرون الى العلوم غير نظرتهم الاولى وصاروا يرون الله سبحانه وتعالى فوق النواميس الطبيعية وفوق اعمال البشر الرفيعة منها والوضيعة . ولذلك لا يمكن ان يكون تعلم العلوم الحديثة الحاداً . ثم اتت الصحافة ولا سيما المجلات العلمية فكان لها في هذا الموضوع تأثير كبير . أما اليوم فقد رسخ التفكير على الاسلوب العلمي في رؤوس جمهرة كبيرة من الشعب . وصار لدينا في انحاء البلاد العربية جامعات ومختبرات لا تسير في اعمالها الا بمقتضى هذا الاسلوب . وقد تعدلت مناهج الجامعات الدينية نفسها واضيف الى دروسها جملة صالحة من العلوم المادية . وأرى انهُ لن ينقضي زمن طويل حتى نرى بين شيوخنا المتعممين الاجلاء اختصاصيين بمختلف العلوم المادية . فكما ان النصرانية لا تحول دون تعلم الرهبان دقائق العلوم الحديثة كذلك الشريعة الاسلامية السمحة لا تحول دون ذلك بل تحث عليه . وكما اننا نرى قساوسة صاروا اطباء وعلماء اختصاصيين بالنبات والجيولوجية والهندسة واضرابها كذلك سنرى عما قريب متعممين قد اتقنوا تلك العلوم وصاروا اقدر على بث كلمة الله العليا . واعرف في دمشق دكتوراً في الطب متعمماً ما ترك عمامته اثناء الدرس ولا بعده وهو من اسرة فقهاء ذوي منزلة في الدين رفيعة . ولعله يعد نموذجاً لمن جمعوا بين علوم الدين وعلوم الدنيا فكانوا اصلح من غيرهم لبث فضائل الدين والحث على العمل في هذه الحياة الدنيا

ومما يتخذ دليلاً على رسوخ الاسلوب العلمي في تفكيرنا ان الانكليز عندما تركوا للمصريين امر المدارس في مصر منذ بضع سنين على اثر تبدل سلوكهم السياسي لم تتأخر شؤون التعليم بل تقدمت ففي مدرسة الجيزة الزراعية مثلاً اتسعت موضوعات الدروس التي تلقى وكثرت التجارب وازدادت أدوات المخابر . ثم انشئت الجامعة المصرية وزيد في عدد مدارس الاحداث زيادة لا يستهان بها . ومما

لاريب فيه ان لجلالة الملك فؤاد يداً بيضاء فيما نحن بصدده. لكنه مما لا ريب فيه ايضاً ان صاحب التاج وحكوماته قد وجدوا في نفوس الشعب استعداد لتلقن العلوم الحديثة. وهذا الاستعداد ليس ابن يومه بل هو نتيجة تأثير العوامل التي سردتها والتي ما برحت تعمل عملها منذ أيام محمد علي على الاقل. وهذا العراق القطر العربي الشقيق فهو ما كاد ينفصل عن الترك حتى رأينا شعبه يتجه نحو العلوم الحديثة اتجاه النزيف الى الماء البارد فاسس دور المعلمين ومدارس التجهيز ومئات من المدارس الابتدائية ومدرسة للزراعة واخرى للطب وثالثة للحقوق وبعث مئات التلاميذ الى جامعات الشام ومصر واوربا حتى قطع في عشر سنين ما لم يقطعهُ خلال قرون من العهد السابق . وهنا ايضاً يجب ان نذكر سيدي فيصل طيب الله ثراه ونذكر زعماء العراق بالحمد والثناء لكنهُ يجب ان لا يغرب عن البال ان بوادر انقلاب التفكير كانت كامنة في الشعب العراقي ايضاً لانهُ ما برح متصلاً بحركة مصر والشام الفكرية

واتجاه الاقطار العربية نحو الاسلوب العلمي جعلنا نسيغ العلوم الحديثة ونهضمها لكننا لا نزال الى اليوم تلامذة نتلقن تلك العلوم دون ان يكون لنا اشتراك يذكر في تقدمها . ومن الامثلة على ذلك ان عدد الاطباء الاختصاصيين لدينا كبير لكن عدد الذين كشفوا عن شيءٍ من الامراض والجراثيم وطرائق المداواة قليل . ولدينا في الزراعة مختبرات وحقول للتجارب ندرس فيها امراض الزروع وحشراتها ونتوخى ايجاد اصناف زراعية مفيدة لكن معظم هذه الاعمال يتوفر لها اساتذة أجانب في الغالب . وهكذا حالنا في سائر العلوم على انواعها . ونحن مقصرون حتى في تعرف بلادنا واستقصاء امورها . وقد سابقنا الغربيون في هذا المضمار فسبقونا . مثال ذلك ان الشام مدين الى بلانكنهورن ولارته وزموفن في الكشف عن طبقات أرضهِ والى فرسكال وشوينفرث وبوست في درس نباتاته والى رو في بيان معادنهِ علميًّا واقتصاديًّا والى غريفل الفرنسي في درس حيواناته المائية ومصايد انهاره وبحاره والى بضعة علماء في وصف مصانعهِ وآثاره . وهكذا الحال في مصر والعراق والمغرب والاقطار العربية السائرة . ويجب ان لا يستنتج من ذلك اننا جمدنا على حالة رضينا بها دون ان نطمع الى تخطيها . فنحن اليوم وان كنا نغتذي بزاد الغرب من العلوم فليس ببعيد ان يأتي يوم نساهم فيه بايجاد ذلك الزاد وتجويده كما فعل اجدادنا بزاد علوم الاقدمين من قبل . ومجال العمل في سبيل تقدم العلوم والفنون واسع جدًّا . ولئن كان تناول بعض العلوم المهمة لا يتيسر الاَّ للامم الكبيرة الغنية بالمال وبالمختبرات فأمامنا ما هو دونها من الابحاث العلمية وهو في متناول كل فرد منا اذا صحَّت عزيمته على العمل وكان متحلياً بصفات العلماء

والخلاصة ان مما يثلج الصدر ويبشر بحسن المصير كون الشعوب الناطقة بالضاد قد اخذت تطرح في تفكيرها الاساليب الغيبية القديمة وصارت تنهج نهج الاسلوب العلمي القويم . وليس بمستنكر على امة خطت بالعقل من دياجير الشرك وعبادة الاوثان الى التوحيد العالي وحفظت علوم الاقدمين وانمتها ان تهب اليوم الى العمل مع الشعوب المتمدينة في صلاح الانسانية وتقدم العقل البشري

خليل شيبوب

الزهرة السوداء

الزهرة السوداء واقفة في الروض بين فروعها الخضر
نظرت بعينٍ لا بياض بها مطموسة في السمت والشزر
ترنو ولكن لا ترى احداً فتحار بين بقية الزهر
فكأنها بعض النجوم خبا واشتط بين الانجم الزهر
او منية للنفس خائبة لبست حداد الذل والقهر
مبهوتة لم تبتسم ابداً عن سافر طلق وعن ثغر
مشغولة في نفسها فلها لا فرق بين الروض والقفر
فيها الوداعة والليان وما خُصَّت به الزهرات من طهر
وبها الاريج ومثلها لبست نسجاً من الاضواء والقَطْر
لكنما تجري الحياة لها حزناً وتُغذَى الليل في الفجر

***

يا حبة القلب التي نبتت في الروض زمن اليأس والصبر
اني شقيقك في الحياة ولي ماء الحياة مرارة يجري
وأروح مبهوت الفؤاد بلا امل وأغدو حائر الامر
ويسيل لي هذا الضياء دجى واظل في يأس من العمر
وأرى ولكن لا ارى احداً يدري ومثل سواي لا ادري



النيل في العهد الفرعوني

ترعه ، مدنه ، سفنه ، خزّان الفيوم

للدكتور حسن كمال

اما طريقة تصريف مياه النيل على الاراضي فكانت بواسطة الترع وتقسيم الاراضي الى حياض بواسطة جسور . واعلم ان هذه الجسور كان يعهد في حراستها الى خفراء اكفاء تمنع قطعها في أي بقعة حتى لا يتسبب عن ذلك تلف الزراعة وغرق البهائم والقرى . وقد اهتم القوم كثيراً بهذه الحراسة حتى عهدوا في ادائها الى قوة كبيرة من الفرسان والمشاة واسسوا المكاتب العديدة للاشراف عليها وزودوها بالاعتمادات المالية الكبيرة للمحافظة عليها وجعلها دائماً في حالة جيدة . وفي العصر الروماني كان يعاقب كل من يتلف جسراً بالاشغال الشاقة في الأعمال العمومية او المناجم او يوسم ثم ينفى الى الواحات . قال استرابون ان مشاريع الترع والجسور كانت غاية في النظام والترتيب حتى تمكن القوم بذلك من ريّ الاراضي التي كان يتعذر ريّها لو تركت لطبيعتها وهكذا اصبحت الاراضي البعيدة تروى بالترع كالاراضي التي يغمرها فيضان النيل مباشرة

وبديهي ان فيضان النيل اذا زاد عن الحدّ المعتاد هدّد القطر بالغرق لان القرى مشادة باللبن وهذا الاخير اذا تشبّع بالمياه تحوّل الى كتل طينية . ثم ان غمر القرى بالمياه يحول دون انقاذ اهلها وحيواناتها . قال بلنيوس ان الفيضان اذا زاد على ستة عشر ذراعاً حلّ القحط بالقطر كما يحلّ لو بلغ اثني عشر ذراعاً او اقل . (راجع والكنسون)

وكانت عناية القوم بالترع لا تقلّ عن عنايتهم بالجسور . فكانوا يعهدون الى مديريهم في المحافظة على ترعهم التي كانت مركبة عليها المصارف اللازمة والفتحات التي تمكّن من ري الاراضي بانتظام بحسب الحاجة . وريّ الاراضي في تلك العصور كان مترتباً على ارتفاع سطحها ونوع النباتات المزروعة فيها . فاذا ما تمّ الحصاد وانتهت الزراعة اطلقت فيها المياه من اقرب الفتحات اليها . واذا هبط منسوب النيل وبدأ الفيضان في الزوال تقفل فتحات الريّ وتمنع المياه من الانصراف في النهر او الترع حتى تأخذ الارض ما يلزمها من المياه وتكتسب اكثر ما يمكن من الغرين . وبمجرّد ما بدأ ذلك تفتح الفتحات فتتسرب المياه في النهر وبجفاف الجو وحرارة الشمس في القطر سرعان ما يجفف



أحد ملوك الأسر الأولى يشق الارض احتفالاً بحفر قناة جديدة (مأخوذة عن المستر كويبل)

الارض . لذلك حالما تتسرّب المياه ووقتما تكون الارض رطبة يبدأ الفلاح في تهيئتها للزرع بالطرق المتباينة التي تتطلبها طبيعة الارض وجغرافيتها ونوع النبات المراد زرعه فيها

ولا ادلّ على اهتمام الفراعنة بحفر الترع اللازمة لريّ الاراضي من الاحتفالات الرسمية التي كانت تقام لذلك ويشترك فيها الملك بنفسه . فيأخذ بيده الفأس ويشقّ الارض لاول مرّة مسجلاً بذلك سروره بهذا العمل الجليل . ويجد القارىء في الشكل رقم ١ (المأخوذ عن الاستاذ برستد في كتابه تاريخ مصر القديم) احد ملوك الاسرة الاولى يشقّ الارض بفأس احتفالاً بحفر قناة جديدة لابساً رداءً مثبتاً فوق الكتف ومنتهياً من الخلف بذيل أسد

وكانت للنيل عدة مدن يحتمل انها كانت موقوفة له منها (حات حمي) ، (نويت حعي) ، (نيلوبوليس)

اما سفن النيل فكانت على انواع متعددة . بعضها مصنوع للسياحة الخصوصية او للنزهة والبعض الآخر للشحن . وهذه السفن في مجموعها تختلف شكلاً عن سفن البحر الابيض المتوسط والبحر الاحمر وايضاً عن السفن الحربية النيلية التي كانت تستعمل للحراسة ولفتوحات السودان . اما النوتية فبعضهم كان معيّناً من قبل الحكومة كالذين يعهد اليهم في نقل الاحجار الى المعابد . والبعض الآخر أقلّ درجة من هؤلاءِ يقومون بشحن البضائع الصغيرة وهم اشبه بالبحارة الحاليين في سفن النيل والملاحظ دائماً ان عمل النوتي المكلّف ادارة الدفة كانت محل اعتبار وامتياز . ومثل هذا الشخص في السفن الحربية كان اعلى درجة من سائر النوتية . اما الشخص المكلف ملاحظة (الهلب) فكان يأتي بعد القبطان في المرتبة

وكثيراً ما تشاهد السفن النيلية منقوشة على المقابر المصرية القديمة . فمقبرة (پاحرى) مثلاً التي في جهة الكاب والتي يرجع تاريخها الى الاسرة الثامنة عشرة (١٥٥٥ — ١٣٥٠ ق . م) تحوي رسمين لسفينتين نيليتين احداها مشدودة الشراع متجهة جنوباً (اي ضد التيار) . والثانية مطوية الشراع وسائرة شمالاً بواسطة التيار والمجاذيف . وكلتا السفينتين تشبهُ احداها الاخرى تماماً . وفي كل منهما حجرة صغيرة ذات نافذتين وبسطة بمقدم السفينة واخرى بمؤخرها . وتشاهد عربة على سطح الحجرة وخيل خلف النوتي . ويستنتج من كل هذا ومن الالوان الزاهية المزينة بها هاتان السفينتان انهما كانتا تستعملان لنزهة هذا الامير . وفي مقدم السفينة السائرة جنوباً يلاحظ نوتي قابض على مدراة يسبر بها غور البحر ليجتنب الاصطدام بقاعه . وفوق هذا النوتي كتبت كتابة هذه ترجمتها :—

« دعنا نعطي الاشارة لنذهب ونتجه الى بيت المال تلك البلدة الجميلة الزاهية ! فيردّ عليه القبطان لا تتكلم سدى ايها الشخص الواقف على مقدم السفينة » .

وبهذه الطريقة وامثالها يجد الباحث الكثير من السفن مرسومة على المقابر والمعابد . ومن هذه

الرسوم يتضح للانسان ان السفن كانت اهم واسطة للانتقال بين البلدان البعيدة ولشحن المحاصيل والحيوانات وللقيام بالغزوات والرقابة والنزهة والصيد وغير ذلك وليس هذا مقام الافاضة فيها لذلك سنكتفي الآن بما اوردناه

وقبل الفراغ من هذا البحث يجدر بنا ان نذكر شيئاً عن طرق الري التي انشأها الفراعنة باقليم الفيوم وما جناه القطر من هذه المشروعات العظيمة ومقدار ما امكن توفيره من مياه الفيضان السنوي لينتفع به الوجه البحري بعد زواله

معلوم ان اقليم الفيوم يقع في صحراء لوبيا على ارتفاع ٣٠٠ او ٤٠٠ قدم فوق سطح البحر . اما اسم الفيوم فأصله بالمصرية القديمة (پايوم) اي اليمّ او البحر . وهذا الاقليم هو في الحقيقة اقرب واحة لوادي النيل . وهو خصب التربة جيد المناخ بيضاوي المساحة تحيط بهِ التلال . وقد استمرت شهرة هذا الاقليم عالية حتى العهد البطالسي والروماني . فقد قال عنه استرابون «ان مديرية الفيوم اغرب المديريات بالنسبة الى مناظرها الفتانة وخصبها وزراعتها ، فهي الوحيدة التي تكثر فيها زراعة الزيتون بنجاح . ومعلوم ان كلما حسن الزيتون طاب زيته . وكلما اهملت زراعته ساءت رائحة زيته . ولا يوجد بالقطر المصري اقليم آخر يزرع فيه الزيتون كالفيوم الاَّ حدائق الاسكندرية . لكن في هذه الاخيرة يجد الانسان الزيتون دون الزيت . اما العنب والقمح والحبوب الاخرى وغيرها فتكثر في هذا الاقليم (اي الفيوم)

والى بحر يوسف يرجع الفضل الاكبر في خصب الفيوم. وهذا البحر يتفرع من ترعة الابراهيمية بالقرب من ديروط . ثم ينعطف عند اللاهون ويخترق سلسلة جبال لوبيا . ثم يتفرع هناك الى عدة افرع تتوزع بواسطتها المياه الى سائر جهات الاقليم . وبعد ما يدخل بحر يوسف مديرية الفيوم يأخذ سطح الارض هناك في الانخفاض تدريجاً نحو الغرب حتى الشاطىء الشرقي لبركة قارون (راجع انموذج مديرية الفيوم المجسم بمتحف الجيولوجيا بالقاهرة)

وكانت مديرية الفيوم تعرف قدماً باسم (تي شي) ومعناها (ارض البحيرة) نسبة الى البحيرة الكبرى الوارد ذكرها كثيراً في كتب المؤرخين والجغرافيين اليونانيين تحت اسم «بحيرة موريس» (واصله بالمصرية مو — ار ومعناه البحيرة الكبيرة) . ولم يبق منها الآن الاَّ بركة قارون. وفي اقدم العصور كانت البحيرة تشمل كل الاقليم لكنها جفت تدريجاً في الازمنة التاريخية الى ان اصبحت محصورة بين قصر الصاغة شمالاً وبياهمو وابشواي والعجميين جنوباً ويبلغ طول ساحلها ١٤٠ ميلاً ومساحتها حوالي ٧٧٠ ميلاً مربعاً . اما مسطح مياهها فكان أعلى من مسطح مياه البحر الابيض المتوسط بحوالي ٧٣ قدماً. وهو الآن اقل منه بحوالي ١٤٤ قدماً . وهكذا لما جفت بحيرة موريس القديمة خلفت جنوبها اقليماً خصباً تأسست عليه مدينة (شدت) المعروفة باسم كركوديلو بوليس. والتي كانت محاطة بالجسور لحفظها من الفيضان النيلي . وكثير من حكام الاسرة الثانية عشرة

استوطنوا الساحل الشرقي لهذا الاقليم وعلى الاخص امنمحعت الثالث (١٨٢٠ قبل الميلاد) واختارت الملكة (تي) زوجة امنوفيس الثالث (١٤١١ — ١٣٧٥ ق . م) اللاهون مسكناً لها . وفي العهد اليوناني وعلى الاخص في عهد بطلميوس الثاني المعروف باسم فيلادلفاس صغرت البحيرة بواسطة الجسور الى ما يقرب من حجمها الحالي فاكتسبت بذلك عدة اراضي للزراعة كانت سبباً في عمار هذ الاقليم كما يستدل عليه من المدن اليانعة والقرى الغنية التي كانت مشادة عليها . وفي عامي ١٩٢٧ و١٩٢٨ ميلادية اكتشفت مشروعات الري الكبرى التي أسسها فيلادلفاس المذكور وقد وصف استرابون هذه البحيرة قائلاً : —

ان هذه البحيرة بالنسبة الى حجمها وعمقها كانت تخزن مياه النيل بسهولة بدون اغراق الاهالي والحبوب . فاذا ما انخفض النيل وزالت زيادة مياه البحيرة عن طريق القناة (بحر يوسف) اصبح مقدار المياه الذي فيها كافياً لري ذلك الاقليم . وهناك اهوسة عند طرفي القناة يشرف عليها مهندسون لمراقبة مقدار المياه الداخلة فيها والخارجة منها . ولا تزال بالقرب من اللاهون بقايا هويس قائمة حتى الآن

اما قول هيرودوتس ان هذه البحيرة اصطناعية فخطأ فضلاً عن مناقضته لرواية استرابون وشمال مدينة الفيوم توجد تلال قذرة تعرف باسم كيمان فارس مساحتها ٥٦٠ فداناً هي في الحقيقة بقايا كركوديلو بوليس او ارسينو . وهذه التلال هي اكبر آثار مصرية باقية لمدينة قديمة وقد استعمل كثير من اتربتها للسباخ وصنع الطوب . وهذه المدينة كانت تعرف قدماً باسم (شدت) كما المعنا سابقاً . وكانت مركز عبادة التمساح المعروف قدماً باسم (سبك) والى هذا الاخير كان يعهد في محافظة الاقليم . وهذا هو السبب في ان اليونان سموا البلدة كركوديلو بوليس اي مدينة التمساح . لكن هذه المدينة لم يكن لها شأن كبير في السياسة مدة وجودها . وفي عهد بطلميوس الثاني اصطبغت بالصبغة اليونانية وشيدت فيها احياء يونانية وكذا معابد يونانية ومدارس وغير ذلك . ولما رقيت بعد ذلك الملكة (ارسينو) الى درجة التقديس هناك سميت المدينة باسم مدينة ارسينو . وقد بلغ مقدار سكان هذه المدينة في ريعانها المائة الف نسمة

وفي مديرية الفيوم ترك امنمحعت الثالث اهم آثاره . لكن اول من تداخل في طبيعة هذا الاقليم هو امنمحعت الاول . ولا يزال تمثاله عند مدينة الفيوم يثبت ما اكتسب هذا الملك من مساحة عظيمة من البحيرة الاصلية لاستغلالها للزراعة . ولا يبعد ان يكون الجسر العظيم القريب من المعبد القديم هناك جزءاً من اول خزان شيد لكسب بعض الاقاليم من البحيرة . وهذا الخزان لا بد ان يكون ممتداً حتى إبجيج التي تبعد حوالي ثلاثة اميال او اربعة عن المعبد وذلك في عهد اوسرتسن الاول الذي لا تزال مسلته منصوبة هناك للآن

فلما حكم امنمحعت الثالث قامت حكومته بعمل مشروعات الري الكبرى في الفيوم فانشأت

خزاناً كبيراً (هو في الحقيقة جسر عظيم) طوله حوالي العشرين ميلاً في البحيرة مكتسباً بذلك ما مساحته عشرين الفاً من الافدنة. وهذه الاراضي المكتسبة هي اخصب الاراضي هناك وفي الطرف الشمالي لهذا الخزان (وهو المعروف الآن باسم بياهمو) شيد رصيفان كبيران بالاحجار ونصب عليها تمثالان شاهقان لهذا الملك كل منهما مصنوع من قطعة حجرية واحدة ارتفاعها حوالي ١٣ متراً . وفي المتحف الاشمولي باكسفورد بقايا هذين التمثالين . ولم يكن المقصود من اقامة هذا الخزان اكتساب اراض خصبة للزراعة فقط بل كان الغرض منه ايضاً التحكم في تصريف مياه النيل من البحيرة واليها . وقد استمرت هذه الرقابة حتى زمن هيرودوتوس . وبقيت هذه البحيرة آلاف السنين تستعمل خزاناً لمياه الفيضان للانتفاع به بعد زواله . وهكذا يرجع الى قدماء المصريين الفضل في انشاء الخزانات منذ اقدم العصور (راجع خريطة الفيوم)

ثم اهمل هذا المشروع لسببين اولهما رسوب غرين النيل بنسبة اكبر في الارض القريبة من النهر عنها في الارض البعيدة . فنجم عن ذلك ارتفاع منسوب الاراضي القريبة من شاطىء النيل وارتفاع منسوب قاع النهر نفسه عما كان عليه سابقاً فتعذر بذلك صرف المياه المخزونة في النيل ثانية . ثانيهما ان البطالسة كانوا مهتمين باكتساب اراضٍ واسعة باقليم الفيوم لانشاء مستعمرات للجنود المقدونيين (وخصوصاً في عهد بطلميوس سوتر) . لذلك اقتصر على ارسال مياه النيل في البحيرة بمقادير تكفي فقط لري الفيوم . وهكذا تركت البحيرة تجف تدريجاً . وهكذا تمكن الجنود المقدونيون من الاستيطان هناك هم وعائلاتهم فنشأت المدن وشيدت المعابد

واهتم امنمحعت الثالث بتجميل المعبد الذي اقامه اجداده بمدينة التمساح (كركوديلوبوليس ارسينوا) تلك المدينة التي كانت تعرف وقتئذ باسم (شِدْ) اي المدينة المنقذة او المكتسبة اشارة الى المجهودات العظيمة التي بذلها الفراعنة في انقاذ اراضي البحيرة الخصبة واكتسابها لاستعمالها في الفلاحة

وقدر المهندسون حديثاً مقدار المياه التي كانت تحجز في بحيرة الفيوم وقت الاسرة الثانية عشرة بضعف حجم مياه النيل اسفل اقليم الفيوم لمدة مائة يوم ابتداء من اول ابريل من كل عام

وحكم امنمحعت الثالث مصر مدة خمسين سنة حلّ فيها النعيم والامن والسكينة فى البلاد حتى ترنم القوم بجلالته قائلين ما تعريبه :

هو (اي الملك) يكسو القطرين حلة خضراء اكثر من النيل العظيم
لقد زاد القطرين قوة ..... (كيف لا) وهو نفس الحياة المرطب للانوف . . . .
هو الذي يوزع الخيرات على تابعيه . هو المغذي لخلفائه
هو الغذاء وفي فمه الخير (راجع تاريخ مصر القديم تأليف برستد وترجمة حسن كمال)

مزالق التفكير

كتبت بعد تصفح كتاب « اميل » لجان جاك روسو

لحنا خباز

من البديهيات ان محاربة المرض لا تستلزم اعدام المريض . بل على الضد من ذلك ، ان الحرص على حياة المريض وسلامته هو الداعي الاول لمحاربة المرض والسعي في استئصال شأفته . وقد اخطأ كثيرون من المفكرين هذا الخطأ الفاضح . ومنهم جان جاك روسو ، احد اساطين الادب في القرن الثامن عشر ، وكان ندًّا لفولتير وديدرو ولافري وهلفتيوس . وزاد عليهم تفكيره الخاص ، الذي يلخص في العبارة الشهيرة (عودوا الى الطبيعة)

هذا هو نداء روسو الذي هزَّ بهِ العالم هزًّا عنيفاً . رمى بهِ الى محاربة المدنية والهيئة الاجتماعية والعلم والفن . زاعماً ان اضرار العلم تربي على فوائده . فهو يؤثر الجهل على العلم ، والفطرة على العقل ، والهمجية على الحضارة ، والحيوانية على الانسانية . على انهُ فات روسو ، ومن نحا نحو روسو ، ان الحضارة والعلم والفن والارتقاء هي من الطبيعة التي يدعونا اليها قائلاً (عودوا الى الطبيعة) زاعماً ان تلك الاشياء منافية للطبيعة فالحضارة والارتقاء والهيئة الاجتماعية والعلوم والفنون والسياسة والصحف والجمعيات والاندية وما شاكل ذلك ، هي فروع شجرة الطبيعة . كانت فيها ، اولاً ، بالقوة ، فصارت بعد ذلك بالفعل . فهي في الطبيعة كالنطق والتوليد في الطفل او في الجنين. فان الجنين ، بل والوليد ايضاً ، لا يرى ، ولا يعي ، ولا ينطق ، ولا يمشي ، ولا يلد . ولكن هذه القوى ، وغيرها من الاوضاع البيولوجية والانسانية ، هي فيه بالقوة ، متى كان جنيناً في ظلمات الارحام . فتبدو فيه بالفعل بعد ولادته ، متى حان زمانها ولاءمتها الاحوال . فليست صفة النطق مثلاً ، منافية للطبيعة ، بداعي ان الوليد لم يكن ينطق ثمَّ نطق . ولا يجوز لنا ان نقول للناطقين (عودوا الى الطبيعة) بمعنى (اوصدوا افواهكم ، وكفوا عن الكلام) لان النطق طبيعي في الانسان وان تأخر ظهوره . كذلك النسل طبيعي ، والامر بالتبتل مخالف للطبيعة . كذلك العلم والفن والابداع والحضارة والارتقاء ، وأمثال هذه المعاني ، هي طبيعية فينا ، اولاً بالقوة ثم بالفعل . فكانت اولاً

كامنة في الانسانية كمون الحرارة في اوراق النبات واخشابه . فبرزت الى حيّز الوجود لما تسنت لها الاحوال الملائمة المعروفة في العلم والصناعة

فهل يجوز لنا ان نقول للاخشاب عودي اوراقاً خضراً ، وللرجال عودوا اطفالاً واجنّة ؟ كلاَّ . ومحارب الطبيعة مغلوب . فلا ثمرة تعود زهرة ، ولا شجرة تعود بذرة ، ولا حيوان يعود جنيناً ، ولا نهر يرجع الى مصدره ، ولا ابن الخمسين يرجع الى سن العشرين او ما دون العشرين . تلك امور ضد الطبيعة

***

الفرد الانساني وليداً ، لايحسن النطق ولا الغناء ولا الرقص ولا الشعر ولا المقايسة ولا الادارة ولكن لانكير بان النطق والفن والمنطق والهندسة والسياسة والحب والابداع هي مكنونات صدره وكامنة في نفسه طبعاً . فلا يمكن انتزاعها منه الاَّ باعدام حياته . وذلك ضد الطبع في خط مستقيم فالرجوع من العلم الى الجهل ، ومن الحضارة الى الهمجية ، ومن الفن والابداع الى الحيوانية والجمود ، ليست عوداً الى الطبيعة ، بل شذوذ عن الطبع . فلا امة راقية ترتدّ بحكم الطبع همجية او متوحشة لان التوحش والهمجية والبداوة في الامم اطوار ، كالطفولة والصبوة والشباب والكهولة في الافراد فهل يجرم الطفل اذا صار شابّاً ؟ كلاَّ . فلماذا تجرم الامة ؟

اذا ارتقت من طور البداوة الى طور الحضارة والارتقاء ؟ فنداء روسو « بالعود الى الطبيعة » هو من قبيل تهافت الفلاسفة

اذا كان العلم والمدنية والارتقاء قد اضرَّت فهي ايضاً قد نفعت . ولا يجوز القول بالغائها بداعي اضرارها . فان النار تحرق وتدمر ، ولكنها ايضاً نافعة في الطهي والخبز والصناعة ، فلا يقول احد باخماد النيران . كذلك القطارات الحديدية والسيارات وغيرها من وسائل النقل الحديث قد تضر . ولكن ما قال احد باستئصالها بداعي الاضرار الاَّ تولستوي الروسي ، فانه اقتفى اثر روسو فقال بان هذه الاشياء قسوة وتوحش ، فيلزم العدول عنها الى الحال الفطرية

ولكن قول تولستوي كقول روسو ، هو من قبيل تهافت الفلاسفة . ولا يلزم عن اضرار الآلات الحادة كالسيف والسكين ونحوها من مبضع ومشرط ، الغاءها بداعي اضرارها . كذلك لا يجوز العدول عن المدنية والعلم والفن والابداع بداعي انها تضرّ احياناً

على ان الارتقاء يسير في خط لولبي . والخط اللولبي معروف . فيظهر كأنه التفَّ راجعاً الى حيث كان . على انه لم يعد في سطح واحد ، بل في سطح اعلى . ومن ظنَّ خلاف ذلك كان واهماً

كذلك النهر يجري على سطح الارض في خط كثير التعاريج . وقد يتحول في عكس مجراه الاجمالي كنهر الكنج مثلاً . فانه يصدر من قلب حمالايا فيجري شمالاً ، ثم يعطف شرقاً ، فغرباً فجنوباً . على انه في كل من تلك الاقسام يتعرّج كثيراً . وليس ثمة نهر يسير في خط هندسي مستقيم . افليس هذا

شأن الانسانية في مجراها كثيرة التعاريج ولكنها تسير الى الامام اجمالاً . واذا اعترض مجرى الماء حائل، كالهضبة مثلاً ، فانه لا يرتد الى الوراء ، بل يحاول الالتفاف بها ، واستئناف مجراه الاصلي . وكذلك الانسانية فانها تسير وجهة الحضارة والارتقاء ، فاذا اعترضتها ازمة او عرقل سيرها حائل ، حاولت الالتفاف واستئناف سيرها بما فيها من مرونة . هي سنة الطبع ، ولن تجد لسنة الطبع تبديلاً . وما لاح لك انه عود الى الطبيعة في مجرى الانسانية فهو من قبيل الخط اللولبي . خذ مثالاً لذلك المذاهب الشيوعية ، ومذاهب العراة ، في هذه الايام . فانها لا تعني العودة الى الطبيعة ؛ انما هي محاولة الطبيعة التغلب على العقبات الكأداء التي تعترض سيرها الاجمالي . ومن هذا القبيل تحديد النسل، وحل النظام العائلي ، والفوضوية والغاء النظم الادارية والجنائية . فهذه المذاهب او النزعات هي احد امرين ، اما انها امراض تنتاب الهيئة الاجتماعية ، او انها محاولات ترمي بها الطبيعة الى تطبيق احوالها على العوامل الجغرافية والتاريخية والاقتصادية . والتخلص من الازمات والعقبات . فالمطلوب من وراءها سلامة الحياة ، وادراك السعادة التي يحلم بها الانسان مذ كان في المهد طفلاً . فلا يعني البشر باعتناق هذه المذاهب الرجوع الى ماضيه ، كلاَّ . بل التقدم والارتقاء . فهي ذرائع يتذرَّع بها لبلوغ غاياته ومراميه ، التي يحقّ بحسبها طبيعية

فان الطبيعة في الانسان ، وفي الحيوان ، وفي النبات ، وفي الجماد ، نزّاعة الى الامام ، والى التطور . وليس فيها رجوع . فان الماضي ، بحسب فلسفة برغسن ، يستمر في الحاضر ويغزو المستقبل لكنهُ لا ينقلب راجعاً . فالكل في التيار ، بحسب تفكير هيرقليطس ، والتيار الى الامام . هذا هو مجرى الطبيعة . اما الانقلاب رجوعاً فتحدٍّ للطبيعة ومنافاة لنواميسها

فالتوليد طبيعي كالتقليد . يراد بالتقليد الاحتفاظ بالطبيعة ، وبالتوليد التقدم بحسب نزوع الطبيعة . فالتقليد هجوع كالنوم والاجازة . والتوليد سعي كالشغل والنمو . وباجتماع التوليد والتقليد بلوغ الغرض الطبيعي . رحم الله هيغل المفكر الالماني الشهير . فقد رأى ان النقائض تؤلف اليقينية . فاليقينية ، او الذاتية ، عنده هي التقاء النقيضين . كالتقاء المادة والحياة . والذكر والانثى ، والليل والنهار ، والسلب والايجاب في المجرى الكهربائي والمغنطيسي . فكما ان السكون طبيعيٌ كذلك الحركة طبيعية . وكلاهما ضروري لاستكمال اغراض الحياة . وكما ان النوم طبيعي كذلك اليقظة طبيعية . وكما انموت الخريف طبيعي كذلك احياء الربيع . فالفصل بين النقيضين ، واجازة احدهما مع انكار الآخر، كاجازة النوم دون اليقظة ، والجسد دون الحياة ، والقطب الايجابي دون السلبي ، فهو هدم للطبيعة وافتئات على ربها وعلى نواميسها

فمن التزم الجمود هلك هلاك من قبع على ذروة شاهق يغمرها الثلج والجليد . ومن التزم الاندفاع بكل تيار دون احتفاظ هلك هلاك من تدهور عن ذروة شاهق الى هوة عميقة فتحطم على الصخور . فنقطة اجتماع النقيضين هو مجلى حكمة الطبيعة واصابة من يفهمها

ما هو الموت

الحيوانات والنباتات الخالدة — الشيخوخة واسبابها — غريزة الموت

لنصيف المنقبادي المحامي

يظن معظم الناس ان الموت نتيجة طبيعية لازمة للحياة وان كل كائن حي لا بد ان يموت . ولاشك في ان الظواهر تؤيد هذه العقيدة ولكن من ينعم النظر ويحقق البحث على ضوء الحقائق العلمية الحديثة يتضح له انها عقيدة وهمية تخالف الواقع ولا تستند الى اي سند علمي

سنبين فيما يلي ما هو الموت وكيف ان الشيخوخة ما هي الا مرض كسائر الامراض ناتج من تسمم الجسم تسمماً تدريجيًّا بطيئاً من تخمر فضلات الطعام في الامعاء او في الاعضاء التي تقوم مقامها في الحيوانات السفلى ومن احتراق المواد الغذائية ولاسيما الزلالية مثل اللحم في داخل الانسجة الحية ونكتفي اليوم بان نقدم الدليل القاطع الذي يهدم تلك العقيدة الوهمية من اساسها ونعني به الحيوانات والنباتات الخالدة التي لا تعرف الشيخوخة ولا الموت وهي لا تهلك الا اذا طرأ عليها حادث يقضي عليها قضاءً وقدراً كما يقال في لغة المحاكم

١ — الحيوانات والنباتات الخالدة

كل من يفحص بالميكروسكوب قطعة نسيج من نُسُج اي نبات او حيوان (وفي جملته الانسان) يتضح لهُ انها مؤلفة من خلايا صغيرة متلاصقة لا ترى بالعين المجردة . وتتركب الخلية من مادة زلالية مخلوطة بمواد دهنية وسكرية او نشوية . وفي وسطها نواة من مواد زلالية من نوع آخر . ولمعظمها غلاف او غشاء يحيط بها من مادة زلالية اخرى في الحيوانات ومن مادة جامدة قريبة كيماويًّا من السكر والنشاء وتسمى بالسيلوكوس (مادة القطن) في النباتات

واصل كل فرد من النباتات والحيوانات (ومنها الانسان) خلية واحدة تسمى « بالبيضة » تنتج من تلقيح بويضة من الانثى بخلية خاصة منشقة من الذكر . وتأخذ البيضة بعد التلقيح في النمو بطريق الانقسام فتنقسم الى قسمين متساويين ابتداء من النواة الى المادة الزلالية والغلاف ، يبقيان متلاصقين . وتنقسم كل واحدة منهما الى اثنتين اخريين وهكذا وعلى هذا النحو تتكاثر الخلايا وتتكوَّن النُسُج وينمو الجنين ثم الفرد الكامل

غير انهُ توجد كائنات حية مكونة من خلية واحدة وهي النباتات الاولية مثل الميكروبات

والنبات الطحلبي المسمى « دياتومبه» وغيره ، والحيوانات الاولية مثل الاميبا التي يسبب نوع منها مرض الديسنطاريا ومثل جرثومة الملاريا وغيرها . وكيفية توالد هذه الكائنات وتكاثرها هي ان تنقسم الواحدة منها الى قسمين في بعض الانواع والى اقسام متعددة متساوية في انواع اخرى ابتداء من النواة ثم المادة الزلالية والغلاف او الغشاء كما يحدث لخلايا الحيوانات والنباتات الاخرى السفلى والعليا . الا ان كل قسم وكل خلية او بالحري كل خلية جديدة تعيش هنا حياة مستقلة عن الاصل الذي انشقت منهُ وتنمو ثم تنقسم من جهتها الى قسمين جديدين منفصلين ومستقلين وهلمَّ جرًّا بحيث لا يموت ولا يتلاشى شيءٌ من هذه الافراد

ولكن يحدث انهُ بعد عدة انقسامات تصبح الافراد الاخيرة غير قابلة للانقسام كأنها شاختْ أو هرمت وهذه هي اول صور الشيخوخة في عالم الاحياء ولا شك في ان هذا ناتج مما يتراكم داخل المادة الحية من بعض المواد الافرازية السامة التي لا تفرز باكملها لنقص في تكوين الخلايا والكائنات الحية . ولو بقي الحال على ذلك لاشرفت تلك الافراد على الموت لا محالة . غير انهُ يكفي لاسترداد صباها ونشاطها الانقسامي ان يلتصق كل فردين من هؤلاء الافراد احدها بالآخر ويتبادلان نصف نواتيهما ثم ينفصلان فاذا بها شباب ناهض قابل للانقسام من جديد . وهذه هي اول صورة من صور التلقيح في عالم الاحياء . وليس في التلقيح سرٌّ من وراء الطبيعة بل انهُ يرجع الى تفاعلات كيماوية بين مواد كل خلية من الخليتين فهو ظاهرة طبيعية مثل باقي ظواهر الطبيعة . وهو ليس ضروريًّا لتوالد الاحياء فقد استعاض عنهُ العلماء ببعض مؤثرات طبيعية وكيماوية يسلطونها على الخلية الواحدة التي هرمت وأصبحت غير قابلة للانقسام كأن يضيفوا الى الماء الموجودة فيهِ قليلاً من بعض الاحماض او القلويات الخفيفة او يوصلون اليهِ تياراً كهربائيًّا ضعيفاً فتأخذ هذه الخلية في الانقسام من تلقاء نفسها من جديد كما يحدث عقب اتصالها بخلية اخرى مماثلة لها وتلقيحها منها على الوجه المتقدم . وقد تمكن العلماء من تسليط هذه المؤثرات على بويضات اناث بعض الحيوانات السفلى وبعض الحيوانات العليا مثل الضفادع وهي (اي البويضات) موضوعة في سائل مغذٍّ فكانت النتيجة ان اخذت هذه البويضات التي لم يلقحها ذكر في النمو بطريق الانقسام كما يحدث عادةً على اثر التلقيح الى ان كوَّنت جنيناً ثم فرداً كاملاً لا يختلف عن افراد نوعه التي تولد بالتلقيح سوى انها اصغر جسماً . وقد رأيت بعيني في جامعة السوربون بباريس ضفادع صغيرة من هذا القبيل

نعود الى الاحياء الاولية ذات الخلية الواحدة التي نحن بصددها فنلاحظ ان هذه الكائنات التي تتوالد في الاصل بطريق الانقسام اللاجنسي (اي بلا تلقيح) تلجأ الى التلقيح متى هرمت لكي تتقي الموت فتعود فعلاً الى صباها فكأنها تدافع عن نفسها ضد الفناء بالنزوع الى التلقيح . الامر الذي لا تستطيعه بطبيعة الحال خلايا الحيوانات والنباتات الاخرى نظراً لحياتها مجتمعة مع غيرها لانها من جهة ثابتة في مكانها ملتصقة بغيرها . ولانها من جهة اخرى قد تنوَّعت بحسب النسج التي تشترك

فيها فمن ذلك الخلايا العصبية وخلايا العضلات وخلايا الجلد وخلايا الغدد وغير ذلك طبقاً للوظائف التي تقوم بها هذه الانسجة . فهي لا تستطيع ان تتصرّف في الحياة كما تتصرّف الاحياء ذات الخلية الواحدة الطليقة الحرية التي يمكنها أن تؤدي جميع الوظائف الحيوية معاً دون ان تكون مختصة بعمل واحد . هذا هو السر في ان الحيوانات والنباتات المتعددة الخلايا تموت بالشيخوخة . ذلك لانهُ لا وسيلة لها للتخلص من هذه الشيخوخة والرجوع الى صباها كما تفعل الاحياء ذات الخلية الواحدة بالنزوع الى التلقيح . والمقصود هنا تلقيح الخلية ، اي كل خلية ، وليس تلقيح مجموع فرد الحيوان او النبات

وخلاصة القول ان الحيوانات والنباتات الاولية ذات الخلية الواحدة هي كائنات حية خالدة لا تموت . متى وصل الفرد منها الى تمام نموه ينقسم الى قسمين أو اكثر يصبح كل واحد منها فرداً جديداً ينمو ثم ينقسم وهلمَّ جرًّا دون ان يموت أو يتلاشى شيء منها . فأفراد هذه الاحياء السعيدة لا تهلك الاَّ اذا حدث لها حادث عارض من شأنه ان يقتلها كأن يجف الماء الذي تعيش فيه او يفسد ولكنها لا تقدر هذه النعمة التي خصتها بها الطبيعة لانه ليس لها جهاز عصبي فلا تدرك ولا تشعر وان كانت تتأثر فقط بالمؤثرات الخارجية شأن المادة الحية على العموم وشأن كثير من المواد المعدنية المحض كالمواد المفرقعة ومواد التصوير الشمسي وكثير من المواد الكيماوية

٢ — الشيخوخة وأسبابها

رأينا فيما تقدم اول مظهر من مظاهر الشيخوخة في الحيوانات والنباتات الاولية ذات الخلية الواحدة وهو عجزها عن الانقسام الى ان تتلاقح فتعود الى صباها . وبيّنا ان هذا ناتج من تراكم بعض المواد الافرازية في المادة الحية اثر التغذية مما لا يُفرز بكامله لنقص في تكوين الكائنات الحية او تركيبها

وما يحدث للخلايا المنفردة (اي الحيوانات والنباتات الاولية ذات الخلية الواحدة) يحدث للخلايا المجتمعة في الحيوانات والنباتات الاخرى السفلى والعليا ذات الخلايا المتعددة . فان الدم في الحيوانات والسوائل المغذية في النباتات تنقل الى جميع خلاياها المواد الغذائيـة ، وهذه تحترق او تتأكسد داخل الخلايا لتولد القوة اصليًّا والحرارة ثانويًّا وهما اللازمتان لاعمال الحياة . ونقول اجمالاً ان تراكم بقايا المواد المحترقة او المتأكسدة وهي البقايا المسماة بالافرازات هو الذي يسمم الجسم تدرجيًّا فيسبب الشيخوخة فالموت . ويضاف الى هذا العامل عامل آخر وهو التسمُّم الناتج من تخمر فضلات الطعام في الامعاء

وتفصيلاً لهذا الاجمال نقول ان المواد الغذائية مهما تنوعت مظاهرها تنقسم الى ثلاثة اقسام المواد السكرية والمواد الدهنية والمواد الزلالية . ومعلوم ان المواد السكرية والدهنية كجميع المواد العضوية الثلاثية اي المكونة من الكربون والهدروجين والاكسجين تتحول بعد الاحتراق او التأكسد الى ماء وهو لا يضر الجسم في شيء والى الحامض الكربونيك .وهو غاز تفرزه الرئتان

باكله بعد ان ينقله اليها الدم . فيغلب على الظن ان هاتان الطائفتان من المواد الغذائية (السكر والمواد الدهنية) لا تعودان باحتراقهما في الجسم بضرر ما عليهِ وانهُ لا دخل لهما بالنتائج التي نتكلم عنها . غير انهُ يجدر بنا هنا ان لا نقول هذا الاَّ مع شيء من التحفظ . ذلك لانهُ اذا كانت المواد السكرية والدهنية تحترق وتتحوَّل في النهاية الى ماء وحامض كربونيك فاننا لا نعرف ان كانت تحترق وتتحوَّل رأساً الى هذين الجسمين ام انها تمر اثناء احتراقها او تأكسدها في صور متوسطة قبل ان تصل الى مرحلتها الاخيرة . فالسكر يتحوَّل مثلاً بفعل التخمر الكحولي الى الحامض الكربونيك والى الكحول والكحول يتحوَّل بفعل التخمر الخلي الى الحامض الخلي . والحامض الخلي يتحوَّل الى مواد اخرى اقل تركيباً وفي النهاية الى الحامض الكربونيك والى الماء . كما ان السكر نفسهُ يتحوَّل في ظروف اخرى بفعل التخمر اللبني الى الحامض اللبني . وهذا يتحوَّل الى مواد اخرى وفي النهاية ايضاً الى الحامض الكربونيك والى الماء . وما يقال عن السكر يقال على المواد الدهنية . فهل تحترق هذه المواد دفعة واحدة احتراقاً كاملاً فتنتقل رأساً من حالتها الاولى وهي المواد السكرية والدهنية الى حالتها الاخيرة وهي الماء والحامض الكربونيك ام انها تتحوَّل من مواد الى مواد الى ان تصل الى النتيجة النهائية كأن يتحوَّل السكر مثلاً الى الكحول والحامض الكربونيك ثم الى الحامض الخلي او الى مواد اخرى مجهولة الى ان يتحوَّل الى الماء والحامض الكربونيك اللذين نجدهما في النهاية ؟ هذا ما يجهله العلم الآن

نقول انهُ يُحتمل ان تتحوَّل المواد السكرية والدهنية اثناء احتراقها البطيء او تأكسدها داخل خلايا الكائنات الحية الى اجسام كيماوية متوسطة يجهلها العلم الآن وقد يكون بعضها ضارًّا بالحيوان او النبات فيترك أثرها السيء فيها قبل ان يحترق من جهته فيضاف الى عوامل التسمم التدريجي الذي يسبب الشيخوخة موضوع كلامنا الآن

وخلاصة القول ان المواد السكرية والدهنية لا تلحق في الظاهر ضرراً بالجسم ولكن قد تتولد منها وهي تحترق مواد كيماوية تشترك في تسميم الجسم بالتدريج في الفترة القصيرة التي تمكث فيهِ قبل ان تتأكسد هي ايضاً

اما المواد الزلالية فانها الفاعل الاصلي حقًّا — بحسب التعبير القضائي — في ذلك التسمم التدريجي الذي يسبب الشيخوخة . فهي اهم غذاء وفي الوقت نفسه اكبر عدو لنا ذلك لانها مواد رباعية يدخلها الازوت علاوة على الكربون والهدروجين والاوكسجين . ومن المعروف في علم الكيمياء العضوية ان المواد الرباعية المشتملة على الازوت يتخلف عنها عند احتراقها او تأكسدها مواد اخرى لا تحترق ولا تتأكسد تشمل الازوت . فضلاً عن الماء وغاز الحامض الكربونيك . وهذا ما يحدث للمواد الزلالية عند احتراقها او تأكسدها في اجسام الكائنات الحية فانه يتخلف عنها بعض مواد افرازية مثل المادة البولية ومثل الصفراء ومثل — وعلى الاخص — الحامض البوليك وهي

جميعها مواد ضارة بالجسم لا تفرز بأكملها لنقص في تكوين اعضاء الافراز وبعضها مثل الحامض البوليكي يولّد املاحاً لا تفرز بالمرة فتترا كم داخل الخلايا وفي الانسجة وعلى جدران الشرايين فتصلبها وتقلل من حيويتها . وتؤثر تأثيراً سيئاً في الجهاز العصبي وفي جميع الاعضاء الاخرى وتضعفها فتنحط شيئاً فشيئاً ولا تقوى على القيام بوظائفها وهذه هي الشيخوخة بعينها

يضاف الى هـذا السبب في تسميم الجسم سبب آخر وهو تخمر فضلات الطعام في الامعاء لانه تعيش في الامعاء على الدوام الملايين من جراثيم التخمر . ونتيجة هذا التخمر هو تولد اجسام عفنة سامة يمتصها الجسم مع المواد الغذائية النافعة خصوصاً وان الامعاء هي عضو ملائم للامتصاص اكثر من غيره من اعضاء الجسم وأنسجته

وبالجملة فان الشيخوخة هي مرض كسائر الامراض عبارة عن تسمم تدريجي بطيء ناتج (اولاً) من احتراق المواد الغذائية داخل أنسجة الجسم (ثانياً) من تخمر فضلات الطعام في الامعاء

والشيخوخة باعتبارها مرض قابلة للشفاء وقد اخذ العلماء يحاولون معالجتها ولكنهم ما زالوا مع شديد الاسف في دور النظريات . واهم من طرق هـذا الموضوع العلامة متشنكوف الذي كان في حياته وكيل معهد باستور في باريس . ولكن متشنكوف اغفل العامل الاول — وعندي انه العامل الرئيسي — وتناول العامل الثاني وبحث في ما عساه يطهر الامعاء اولاً بأول . ومما تراءى له في هذا السبيل هو ان يكثر الانسان من تناول اللبن المختمر المسمى « باللبن الرائب — الزبادي » بحجة ان حموضته تطهر الى حد ما الامعاء غير ان هذا الرأي نظري اكثر مما هو عملي منتج

والذي يراه العلماء انه اذا توصل الطب في المستقبل الى تطهير النسج والشرايين من جهة والامعاء من جهة اخرى من تلك المواد السامة تطهيراً تامًا اولاً باول فانهُ يتغلب على الشيخوخة فتطول حياة الانسان، وقد يقهرون الشيخوخة نهائيًا فيمتنع الموت (الاَّ بحادث مهلك) ويخلد الناس على الارض الامر الذي لا يراه العلماء مستحيلاً من الوجهة النظرية بدليل الحيوانات والنباتات الاولية الخالدة التي تقدم لنا الكلام عليها . وقد رأينا فيما تقدم كيف ان العلماء قد تغلبوا على الشيخوخة التي تطرأ عليها بعد عدة انقسامات وتجعلها غير قابلة للانقسام بأن عالجوها بتسليط بعض مؤثرات كيماوية وطبيعية اعادت اليها شبابها إعادة اصطناعية كما يحدث لها عقب تلاقحها ببعضها

٣ — غريزة الموت (؟)

لا يفزع الانسان شيء اكثر من الموت ، وهو في هذا اسوأ حالاً من الحيوانات لان الحيوانات لا تعرف انها تموت اما الانسان فان جميع لذاته وكل حياته تسمها فكرة الموت الذي سينتزعه حتماً يوماً من الايام من بين اهله ومصالحه وكل ما يربطه بهذه الدنيا كما قال الشاعر العربي : « هو العيش الاّ انهُ فاني » . وسبب هذا الخوف من الموت هو غريزة الحياة او حب البقاء التي تجعل الانسان يفزع منهُ ولولا هذه الغريزة لما تعلق بالحياة ولا استطاع ان يطيق متاعبها وأمراضها وآلامها وهمومها وشقاءها

وليست هذه الغريزة هي الوحيدة بل ان جميع احوال الحياة وأعمالها — حياة الفرد وحياة النوع — تديرها غرائز اخرى هي التي تدعو الانسان او الحيوان اليها فيقوم بها مسروراً مغتبطاً كغريزة الاكل وغريزة الشرب وغريزة التناسل وغريزة حب النسل . وقد وجدت في النوع الانساني كما توجد في الانواع الاجتماعية الاخرى مثل النمل والنحل وبعض انواع الطيور الرحالة والقرود العليا ، غرائز اجتماعية وأخلاقية تحمل الافراد على حب الفضيلة ومقت الرذيلة والعمل على مساعدة الغير وخدمة المجموع ، وترى الفرد كلما قام بعمل من هذا القبيل يشعر بلذة داخلية هي راحة الضمير. الاّ الموت فان الانسان يموت وهو يعلم بذلك دون ان تكون لديهِ غريزة تسهل عليهِ استقباله وتمنع الخوف منهُ

غير ان بعض العلماء مثل متشنكوف يتوقع انهُ متى تغلب العلم على الشيخوخة وباقي الامراض وعاش الانسان حياةً طويلة لا تقل عن المائتي سنة او الثلاثمائة عيشة سليمة من كل علة او ضعف فانه حينما يصل الى آخر هذا العمر الطويل وهو قوي الجسم ومعافىً من الامراض يشعر بحاجة الى الراحة النهائية ويستقبل الموت بهدوء وارتياح كما يشعر المرء في آخر النهار بحاجة الى النوم ويرتاح اليهِ . وهذا ما يسمونه بغريزة الموت . وليست هذه الغريزة التي يتنبأ بها بعض العلماء بدعة في عالم الحيوان فانهُ يوجد شيء من هذا القبيل لدى ذكور النحل الذين لا وظيفة لهم في الحياة ولا عمل لهم في مجموعة النحل سوى تلقيح الانثى فانه بمجرد ان يؤدوا عملهم هذا ويتم التلقيح تراهم لا يبالون بالموت ولا يخافون منهُ ولا يحاولون الهروب اذا اقترب منهم احد ، ولا شك في ان غريزة الموت تكون قد قامت فيهم حينئذٍ

وحينما تنشأ هذه الغريزة في البشر يكون العلم قد قهر آخر عدو للانسان وهو الموت حيث تكون قد حُلت من قبل المعضلة الاجتماعية الكبرى الخاصة بتحديد النسل وتوزيع العمل والثروة بين الناس توزيعاً عادلاً ، وتكون الغريزة الاجتماعية والغريزة الاخلاقية قد تأصلتا في الناس بمرور الزمن فتقل الجرائم وقد تمتنع وترتقي الاخلاق وتسود روح التضامن الى حد ان تزول الحكومات او ما يقرب من ذلك على ما يتنبأ هربرت سبنسر كما هو حال النمل وغيره من الحيوانات الاجتماعية . فيعيش البشر في سلام ونعيم دائمين

ولكن هل في قيام تلك الغريزة حلّ نهائي ناجع لمسألة الموت ؟ لا شك في انها متى وجدت فسوف تسهل على الشيخ ترك الحياة غير وجل ولا أسف ولكن — على ما يعترض استاذي المأسوف عليه دستر — هل هذا يمنع ألم الفراق وتمزيق القلب حزناً لدى اقارب المتوفي ومحبيه ؟ وبما ان غريزة الموت لن توجد الاّ قبيل حضوره في اواخر الحياة فهل تمنع هذه الغريزة الشاب والرجل القوي وهما متمتعان بكامل صحتهما ويعلمان بانهما سيموتان لا محالة ولم توجد فيهما بعد غريزة الموت من ان يتألما ويحزنا على مصيرهما

لعبد الحميد السنوسي

في مرقص

الشاعر والغانية

رنا اليها فحيته فحادثها   ودارت الكأس يسقيها وتسقيه
توشجت مثل خطف البرق بينهما   اواصر الود تدنيها وتدنيه
في مرقص عجب بالطيش مضطرب   يكاد من طرب يمشي بمن فيه
عابت عليه عبوسا غير منسجم   مع السرور الذي رقت حواشيه
فيم العبوس ؟ وهذا الحفل مبتهج   انساه حاضره اوصاب ماضيه
فيم العبوس ؟ ألم تفتنك فاتنة   من هؤلاء فتنسى ما تعانيه
انظر الى الرقص واسمع ما تخلله   من الاغاني التي تنحو مناحيه
الرقص متسق بالعزف متصل   والعزف للرقص مثل النار يذكيه
والغيد رافلة تزهى وعارية   والحسن مستوره يغري وعاريه
والكأس دائرة بالهم عابسة   فاشرب بلا حرج حتى تداويه
وانفض غبار الاسى وامرح وغنّ فما   يدري الفتى في غد ماذا يؤاتيه
فأشرقت عينه بالدمع وارتسمت   مخاوف وشجون في مآقيه
فقابلت دمعه بالضحك ترسله   مجلجلا معلناً عن شكها فيه
ظنّت احاديثه لهواً وثرثرة   من ماجن يتلهى في لياليه
وارحمتاهُ لها مما تعانيه   في عالم الغدر والتضليل والتيه
تكاثر المعجبون الطامحون الى   ما يشبع الجسم ساعات ويرويه
لا تطمئن الى قلب تشاطره   وجداً بريئاً وحبًّا غير مشبوه
كم ضحكة ضحكت قسراً وكم مرحت   كرهاً لترضي خلا جد مكروه
وكم دميم تعامت عن دمامته   تبيت ليلتها نعسى تناجيه
ورب شيخ بغيض في تصابيه   ظلت تصانعه طوراً وتطريه
تعلمت كيف تجزي المولعين بها   ميناً بمين وتمويهاً بتمويه
لو تستطيع لصاحت في وجوههمو   صيحات مقت وتحقير وتسفيه
وعلمتهم بأن الحب أبعد ما   يكون عن ماجن بالمال يشريه
بالضحك تغرق ما تطويه من شجن   وبالضجيج تواري ما تواريه
ولو بدا لك ما تخفي جوانحها   ذهلت من ألم طاغ تداريه
يا لهف نفسي لا ماض يؤانسها   بالذكريات ولا آت ترجيه
لم تلق والحسن يكسوها اخا ثقة   فهل اذا عرّيت منه تلاقيه
يؤودها حاضر مخز ويزعجها   ما يضمر الغيب من قبح وتشويه
لكل نفس رجاء تستعين به   على الزمان اذا جارت عواديه
يا ويح من عاش في الدنيا بلا امل   مشرّداً مشمئزاً من امانيه

تشابه الحروف

دير في العراق

وآخر في الشام

تصحيح خطأ لم يتنبه له أحد من الناس منذ ألف سنة الى يومنا هذا

لمحمد عبد الجواد الاصمعي بدار الكتب المصرية

— ١ —

كان خلفاء الإسلام وأمراؤه ووزراؤه وأدباؤه وشعراؤهُ يقصدون الديارات ، انتجاعاً للصحة وطلباً للراحة ، بالبعد عن ضوضاء المدينة، ومتاعب الحياة في بعض الاحيان ، لما كان بها وحولها من البساتين والمتنزهات . وكانوا يتمتعون بسماع الاغاني وأنواع الملاهي في البساتين والمنـازه المحدقة بالأمصار والمدائن . وبلغ من عناية المسلمين بالثقافة العامة في جميع مظاهرها ومناظرها أن جماعة منهم أفردوا كتباً خاصة بتاريخ الديارات وأوصافها وسائر ضروب المعيشة فيها

— ٢ —

كان الخالديان وهما الاخوان المشهوران في الشعر والأدب ونسبتهما (الى الخالدية قرب الموصل) أول من أفرد هذا الموضوع بتصنيف خاص . وبعدهما ألف أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني كتاباً آخر في الديارات ، وقد ضاع هذان الأثران في جملة ما أباده الزمان ، ولم يبق لنا منهما الاَّ ما نقله المؤلفون عنهما او ما سطره أبو الفرج نفسه في كتابه الأغاني (وذلك شيء قليل) . ثم جاء الشابشتي فألف كتاباً في الديارات . وتوجد منهُ نسخة مخطوطة بقلم الاستاذ الشيخ عبد الرحمن زغلول نقلها على نفقة دار الكتب المصرية من النسخة الخطية الوحيدة المحفوظة بالمكتبة الملكية ببرلين وهي ناقصة من أولها بمقدار الثلث (ومحفوظة بالدار تحت رقم ١٧٥٦ تاريخ)

وهنالك رجل رابع قصر بحثه على بقعة واحدة أعني به أبو صالح الارمني ، وكتابه مطبوع بالعربي في اكسفورد سنة ١٨٩٤ ومعهُ مقدمة وترجمة باللغة الانكليزية ، وهو كتاب في تاريخ الارمن بالقاهرة وغيرها من بلاد القطر المصري من وقت استيلاء الغز الأكراد على اقليم مصر سنة ٥٦٤ هـ وتاريخ كنائسهم ومعابدهم وقساوستهم . وفي ذكر من وفد الى كنائسهم واقام بها او رحل عنها ، وذكر الإقطاعات المصرية في ذلك العهد للبيع والكنائس ، فهو ديني تاريخي . أما الكتب الثلاثة السابقة فتضيف الى ذلك شيئاً كثيراً من الادب نظماً ونثراً مع الطرف التاريخية والملح الادبيـة

والنوادر والحكايات . وممن تكلم على ديارات القاهرة ايضاً العلامة المقريزي في خططه (ج ٢ ص ٥٠١—٥١٠ طبع بولاق) وابن دقماق في كتابه الانتصار (راجع الجزء الرابع والخامس المطبوعين بالمطبعة الاميرية ببولاق)

— ٣ —

ولقد عني أرباب التاريخ والجغرافيا بتدوين شيءٍ عن هذه الديارات في مصنفاتهم نقلوه عن هذه الكتب الثلاثة ، نذكر منهم أبا عبيد البكري الاندلسي المتوفي سنة ٤٨٧ هـ في كتابه « معجم ما استعجم » ومؤلف كتاب التنبيه على اوهام ابي عليّ في أماليه المطبوع مع أمالي القالي في طبعته الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٦ . وقد عنينا بتحقيقه وتصحيحه وعمل فهارس وافية لهُ طبعت معهُ . ثم ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» . وآخرهم ابن فضل الله العمري المتوفي سنة ٧٤٩ هـ في الجزء الاول من كتابه « مسالك الابصار » الذي طبع بالمطبعة الاميرية ببولاق سنة ١٩٢٤ م بعناية وتحقيق العلامة المحقق استاذنا الجليل احمد زكي باشا

— ٤ —

إن الناظر الى هذه التآليف القيمة او ما بقي منها او ما وصل الينا عنها ، ليعجب أشدّ العجب لعناية العرب بهذا الموضوع الذي وفوه حقه من الدقة والعناية ، ففيها مباحث طريفة وروايات دقيقة ومشاهدات جميلة عن شؤون هذه الديارات وعن احوال رجالاتها ، الى غير ذلك من المعلومات التي يهتم بها الاديب والشاعر والباحث والمؤرخ ، ولولا تداول هذه الكتب في ايدي الادباء لاخترنا شيئاً منها لما اشتملت عليه من الطرائف التاريخية والملح الادبية والنوادر الفائقة والاشعار الرائقة لذلك نقتصر على أمر واحد لم يتنبه له أحد من الناس منذ ألف سنة الى يومنا هذا

— ٥ —

ان تشابه الحروف العربية وإهمال نقط الاعجام في بعض الاحيان قد يكون من ورائهما خلط غريب ، وغلط ليس له مثيل ، فنحن نعذر الذين يقعون في هذه الهفوات مع ما لهم من الشهرة الذائعة بالنقد والتحقيق ، ولذلك كان من واجب العلم ان نتقدم بتصحيح ما وقفنا عليه وتنبهنا اليه في كلام اولئك العلماء عن دير مُرّان ودير مَرْيان[1] ، أولهما بالشام والآخر بالعراق

— ٦ —

من العجيب أن أول من وقع في هذه الاحبولة هو أبو الفرج الأصبهاني نفسه ، فقد ذكر في كتاب الاغاني أثناء ترجمته للحسين بن الضحاك هذا الخبر (ج ٦ ص ١٩٥ من طبعة بولاق، ص ١٨٨

(١) ورد هذا الاسم في كتاب الديارات للشابشتي ومُعجم البلدان لياقوت ومسالك الابصار لابن فضل الله العمري « مديان » بالميم والدال وهو غير صحيح ، لأن الديارات تسمى باسماء القديسين ولا يعرف قديس باسم « مديان » بالميم والدال ، وانما المشهور «مريان» بفتح الميم وسكون الراء « Marianus » ولذا صححناه هكذا في جميع المواضع التي ذكر فيها في هذا البحث نقلاً عن هذه الكتب فتنبه

من طبعة الساسي) ونصه : روى بالسند عن عمرو بن بانه . قال : خرجنا مع المعتصم الى الشام لما غزا ، فنزلنا في طريقنا بدير مران ، وهو دير على قلعة (كذا) مشرفة عالية ، تحتها بروج (كذا) ومياه حسنة ، فنزل فيه المعتصم فأكل ونشط للشرب ودعا بنا . فلما شرب اقداحاً قال للحسين بن الضحاك : أين هذا المكان من ظهر بغداد ! فقال : لا أين يا أمير المؤمنين ! والله لبعض الغياض والآجام هناك أحسن من هنا ! قال : صدقت والله ! وعلى ذلك فقل أبياتاً يغنّ فيها عمرو ، فقال : اما أن أقول شيئاً في وصف هذه الناحية بخير فلا أحسب لساني ينطق به ، ولكني أقول متشوّقاً الى بغداد ! فضحك وقال : قل ما شئت . فأنشد :

يادير مران (كذا) لاعريت من سقم (كذا) هيجت لي سقماً يا دير مرانا (كذا)
هل عند قسّك من علم فيخبرنا أم كيف يسعف وجه الصبر من بانا
حث المدام فان الكأس مترعة مما يهيج دواعي الشوق أحيانا
سقيا ورعيا لكرخانا (كذا) وساكنها وللخنينة (كذا) بالروحاء من كانا

فاستحسنها المعتصم وأمرني ومخارقاً فغنينا فيها وشرب على ذلك حتى سكر وأمر للجماعة بجوائز» اه

— ٧ —

هذا الخبر ورد هكذا بحروفه وكلماته في طبعتي بولاق والساسي ، وقد قام بتصحيحه في ذلك العهد خيرة المصححين بمطبعة بولاق سنة ١٢٨٥ هـ ، وقام بتصحيح طبعة الساسي العالم الجليل المرحوم الشيخ احمد بن الامين الشنقيطي سنة ١٣٢٣ هـ ومع هذا لم يتنبهوا الى ما وقع في هذا الخبر من اخطاء

فكلمة « قلعة » صوابها « تلعة » بالتاء المثناة في اوله . والتلعة : الربوة المرتفعة من الارض . و« بروج » صوابها « مروج » بالميم في اوله و«دير مران » صوابها « دير مريان » و«سقم » صوابها « سكن » و « لكرخانا » صوابها « لكرخايا » و « وللخنينة » صوابها « وللجنينة »

هذا في الكلمات أما في سياق الخبر فان الخليفة المعتصم طلب من ابن الضحاك نديمه وشاعره أن يقول شيئاً في الجهة التي نزلوا بها في الشام وهي « دير مران » فأجابه بقوله :

« اما أن أقول شيئاً في وصف هذه الناحية فلا أحسب لساني ينطق به ولكني أقول متشوّقاً الى بغداد !! . . . الخ » فضحك الخليفة وأجابه بقوله : «قل ما شئت» فيتضح من هذا ان الشعر الذي أنشده ابن الضحاك أمام الخليفة لم يكن في دير مران كما ورد في هذا الخبر وتناقله الرواة وكتبه النساخ هكذا في كثير من نسخ الاغاني المخطوطة الى أن طبع ، وانما كان في دير مريان بالعراق وهو الذي يعرفه الشاعر ويهواه

— ٨ —

كتاب الاغاني من أمهات المصادر العربية التي يرجع اليها أهل البحث والتحقيق ، وأصبح في

أيدي الفضلاء الباحثين من عرب وعجم وافرنج ، ومع هذا لم يتنبه واحد منهم الى ما وقع في هذا الخبر من خاط ، ولا ندري أكان هذا من المؤلف نفسه كما قلنا ، أو من تحريف النساخ

— ٩ —

فقد نقل ابو عبيد البكري الاندلسي في كتابه معجم ما استعجم (ص ٣٦٢ طبع اوربا) عبارة أبي الفرج الاصبهاني بتصرف في كلامه على دير مران بدون اسناد اليه ، وأغفل الكلام على دير مريان . ويتبين من هذا انه جعل الديرين ديراً واحداً . وجاء بعده ابن فضل الله العمري فنقل ايضاً في الجزء الاول من كتابه مسالك الابصار (ص ٣٣٥ طبع بولاق) عبارة ابي الفرج باسناده اليه في كلامه على « دير مران » . ولا ندري ان كان نقلهما عن كتاب الاغاني نفسه أم عن كتاب الديارات لأبي الفرج

— ١٠ —

قال البكري وابن فضل الله : « إن الحسين بن الضحاك كان مع الرشيد حين نزوله بدير مران » وهذا خطأ ايضاً لان ابن الضحاك نفسه ينفي اتصاله بالرشيد ، فقد قال عن نشأته واتصاله بالخلفاء كما ورد في الاغاني (ج ٦ ص ١٧٩ طبع بولاق) ما نصه :

«كنت انا وأبو نواس تربين نشأنا في مكان واحد ، وتأدبنا بالبصرة ، وكنا نحضر مجالس الادباء متصاحبين ، ثم خرج قبلي عن البصرة وأقام مدة ، واتصل بي ما آل اليه امره ، وبلغني ايثار السلطان بهِ وخاصته له ، فخرجت عن البصرة الى بغداد ، ولقيت الناس ومدحتهم وأخذت جوائزهم ، وعددت في الشعراء . وهذا كله في ايام الرشيد الاَّ اني لم أصل اليه واتصلت بابنه صالح فكنت في خدمته » اه

ويؤيد هذا ما ذكره ابو الفرج في اول ترجمة ابن الضحاك (ج٦ص١٧٠ طبع بولاق) انه «احد ندماء الخلفاء من بني هاشم ، ويقال انه اول من جالس منهم محمد الامين »

— ١١ —

اما مرور الخليفة المعتصم بالشام في بعض غزواته فقد كان في سنة ٢٢٣ هـ كما قال المسعودي في مروج الذهب (ج ٢ ص ١٧٦ طبع بولاق) . ولا ندري اذا كان ابن الضحاك كان مع الخليفة في هذه الغزوة ، او كان بصحبته في غزوة اخرى

— ١٢ —

وأول من ذكر شعر ابن الضحاك في دير مريان هو الشابشتي في كتابه الديارات ، ونقله عنهُ ياقوت في معجمه وقال : « وروى غير الشابشتي هذا الشعر في دير مران وانشده كذا والصواب ما كتب لتقارب هذه الامكنة المذكورة بعضها من بعض »

— ١٣ —

أما دير مريان فقد عرفه الشابشتي بقوله : « هذا الدير على نهر كرخايا ببغداد . وكرخايا نهر يشق من المحول الكبير ، ويمر على العباسية ، ويشق الكرخ ، ويصب في دجلة . وكان قديماً عامراً والماء فيه جارياً ، ثم انطم وانقطعت جريته بالبثوق (القنوات) التي انفتحت في الفرات . وهو دير حسن نزه ، حوله بساتين وعمارة ، ويقصد للتنزه والشرب ، ولا يخلو من قاصد وطارق . وهو من البقاع الحسنة النزهة وللحسين بن الضحاك فيه :

حُثّ المدام فإن الكأس مُترعةٌ	مما يهيج دواعي الشوق أحيانا
اني طربت لرهبان مجاوبةٍ	بالقدس بعد هدوّ الليل رهبانا
فاستنفرت شجناً منّي ذكرت به	كرخ العراق وإخواناً واشجانا
فقلت والدمع في عينيّ مطرد	والشوق يقدح في الاحشاء نيرانا
يا دير مريان لا عرّيت من سكن	ما هجتَ من سقم ! يا دير مريانا !
هل عند قسك من علم فيخبرني؟	أم كيف يسعد وجه الصبر من بانا؟
سقياً ورعياً لكرْخايا وساكنه	بين الجنينة والروحاء من كانا !

وكان أبو علي بن الرشيد يلازم هذا الدير ويشرب فيهِ ، وكان له قيان يحملهم اليه ويقيم بهِ الايام ،لا تفترّ عزفاً وقصفاً ،وكان شديد التهتك ، وكان من يجاور الموضع يشكون ما يلقونهُ منهُ ، فانتهى الخبر الى اسحاق بن ابراهيم الطاهري ، وهو خليفة السلطان ببغداد ، فوجه اليهِ يقبح لهُ فعله، وينهاه عن المعاودة لمثله، فقال : وأيّ يدٍ لاسحاق عليّ ! وايّ امر له فيّ ! أتراه يمنعني من سماع جواري والشرب بحيث اشتهى ! ! فلما أتاه هذا القول منهُ احفظهُ وأمهل ، حتى اذا كان الليل ركب الى الموضع وأحاط بهِ من جميع جهاتهِ ، وأمر أن يفتح باب الدير وينزل بهِ على الحال التي هو عليها ، فأنزل بهِ ، وهو سكران ، في ثياب مصبغة وقد تضمخ بالخلوق ، فقال : سوءة لك ! رجل من ولد الخلافة على مثل هذه الحال . ثم امر ففرش بساط على باب الدير وبطح عليه وضربهُ عشرين درة وقال : ان أمير المؤمنين لم يولّني خلافتهُ حتى أضيع في الامور وأهملها ، ولا حتى أدعك وغيرك من أهله تعرونهُ وتفضحونهُ ، وتخرجون الى ما خرجت اليهِ من التبذل والشهرة ، وهتك الحرمة ، وإخراجهم الى الديارات والحانات . وفي تأديبك صيانة للخلافة ، وردع لك ولغيرك عن هذه الفضيحة . ثم امر بعماريات كانت معهُ فاركب فيها مع حرمه ، ورده الى داره . فبلغ ذلك المعتصم فكتب اليهِ يصوّب رأيهُ وفعله ، ويأمره الاّ يرخص لاحد من أهل بيته في مثله » اهـ

— ١٤ —

والشابشتي هو ابو الحسن علي بن محمد الشابشتي الكاتب . قال ابن خلكان في تاريخه (ج ١ ص ٤٨١ طبع بولاق) : « كان اديباً فاضلاً ، تعلق بخدمة العزيز بن المعز العبيدي صاحب مصر ،فولاه

امر خزانة كتبه ، وجعله دفترخوان يقرأ له الكتب ويجالسه وينادمه ، وكان حلو المحاورة لطيف المعاشرة . وله مصنفات حسنة، منها كتاب الديارات ذكر فيه كل دير بالعراق والموصل والشام والجزيرة والديار المصرية ، وجميع الاشعار المقولة في كل دير . وما جرى فيه ، وهو على اسلوب الديارات للخالدين وابي الفرج الاصبهاني .... الخ » اهـ وكانت وفاته بمصر سنة ٣٩٠ هـ

— ١٥ —

اما دير مران فقد قال ياقوت في معجمه (ج ٢ ص ٦٩٦ طبع اوروبا) نقلاً عن الخالدي ما نصه:

« قال الخالدي : هـذا الدير بالقرب من دمشق ، على تلّ مشرف على مزارع الزعفران ورياض حسنة . وبناؤه بالجصّ ، واكثر فرشه بالبلاط الملوّن ، وهو دير كبير ، وفيه رهبان كثيرة ، وفي هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني ، والاشجار محيطة بهِ . . . الخ» ثم ذكر اقوال الشعراء في وصفه ومدحه . وقد تكلم عليه ايضاً ابن فضل الله العمري في الجزء الاول من كتابه مسالك الابصار

— ١٦ —

والغريب المدهش ان ابن فضل الله تكلم على كل من الديرين وذكر شعر ابن الضحاك فيهما بوجهين ، ففي الجزء الاول من كتابهِ مسالك الابصار (ص ٢٧٧ — ٢٧٨) ذكر دير مريان ونقل ما قاله الشابشتي عنه وأورد الشعر « يا دير مريان » . وفي كلامه على دير مران صحيفة (٣٥٥) نقل ما قاله ابو الفرج الاصبهاني عنه وساق الشعر بنفس الرواية التي ذكرها ابو الفرج «يا دير مران » بدون تنبيه او اشارة الى الرواية الصحيحة

ومما يلاحظ ان هذا الجزء طبع كما ذكرنا بعناية وتحقيق استاذنا الجليل احمد زكي باشا، ولا يكاد القارىء يمرّ بصفحة منه الأ ويجد تحقيق استاذنا الجليل وتمحيصه بهامشها ، بما يشف عن دقة بحث وسعة اطلاع ، وغزارة علم ، وصبر وجلد ، وكيف لا وهو الذي —ادام الله حياته — علمنا كيف ندقق ونحقق وننبه عن كل صغيرة وكبيرة . ومع انه اشار في صفحة (٢٧٧) الى مراجعته لياقوت (ج ٢ ص ٦٩٥) والشابشتي (ورقة ١٢) زاه في صفحة (٣٥٥) اثناء كلام ابن فضل الله على « دير مران» وذكره لشعر ابن الضحاك مكرراً أغفل الاشارة الى ما قاله ياقوت عن هذه الابيات، وانها قيلت في « دير مريان » لا « دير مران» كما انهُ لم يذكر ان هذه الابيات مرت في صفحة (٢٧٨) على الأقل

ولعل لاستاذنا الجليل العذر في هـذا لان اتصالنا به ، وتشرفنا بالاشتغال معهُ سنين طويلة ، حتى بث فينا روح الجد والعمل والنشاط ، جعلنا نعتقد انهذا ناشىء من طول الزمن بمضي الشهور بين طبع كل ملزمة واخرى . وانما الذي لا نلتمس له عذراً قوله في مناسباته التي وضعها لفهرس هذا الجزء ، فقد قال عن «دير مريان » صفحة (ر) ما نصه : « دير مريان (وشعر الحسين بن الضحاك) ٢٧٧» وذكر عن دير مران صفحة (ذ) ما نصه : « زيارة هارون الرشيد وما صنعه الضحاك فيه من الشعر الذي غناهُ لهُ عمرو بن بانه بلحن حنين ٣٥٦ »

— ١٧ —

والذين لا نلتمس لهم عذراً ايضاً اولئك الذين قرأوا كتاب الاغاني بفهم ليفهرسوه كالعلامة المستشرق جويدي الطلياني ومن معه من افاضل المستشرقين . والاستاذ العلامة محمد مسعود بك والاستاذ العلامة عبد اللطيف آل ثنيان البغدادي . وغيرهم ممن صححوا كتاب الاغاني ، او نقلوا عنه ومرّوا على هذا الخبر ولم يدركوا ما فيه من خلط وغلط

— ١٨ —

اما العلامة المستشرق جويدي ومن معه فقاموا بعمل فهارس هجائية وافية لكتاب الاغاني باللغة الفرنسية والعربية ورتبوه على اربعة فهارس وقالوا بفهرس الاماكن ما نصه : « دير مران ٦:١٩٥» ولم يتنبه لهذا الخطأ الاستاذ العلامة محمد مسعود بك عند ترجمته لهذه الفهارس لطبعة الساسي ،فقد ورد في الفهرس الرابع الخاص باسماء الامكنة والجبال والمياه وغيرها (ص ١٦٠) ما نصه : « دير مران ج ٦ : ١٨٨ » ، ويلاحظ ان فهرس الاعلام في طبعتي ليدن ومصر ذكرت فيهِ المناسبات الخاصة بالاعلام ، ومع هذا نجد ان المناسبات الخاصة باسم المعتصم وابن الضحاك بدخول الخليفة المعتصم الى الشام غازياً ونزوله بدير مران وطلبه من ابن الضحاك ان يقول شعراً في هــذه الناحية فلم يجبه وقال شعراً متشوّقاً الى بغداد لم ترد بالمرة واغفلت نهائيًّا مع ورود اسم « دير مران »فيهما بفهرس الاماكن كما ذكرنا . ولا يخفى ما في هذا من اهمال وعدم الدقة والعناية بالمناسبات الخاصة بالاعلام

— ١٩ —

ولم يتنبه لهذا الخلط ايضاً العلامة الجليل الاستاذ عبد اللطيف آل ثنيان من علمــاء بغداد في مناسباتهِ التي وضعها للاعلام بفهرس الاغاني الذي قام بتأليفهِ باشارة من شيخه العلامة الجليل السيد محمود شكري الآلوسي وهو في مجلد مخطوط ومحفوظ بدار الكتب المصرية وكان اهداه اليها بمناسبة إعادة طبعها لكتاب الاغاني للاستفادة منهُ عند القيام بوضع فهارسهِ . ويشتمل هذا المجلد على فهرس لاسماء الشعراء وآخر لاسماء الامكنة والجبال والمياه ونحوها وثالث لايام العرب ورابع للاعلام مع المناسبات الخاصة بها . وقد ابتدأ عمله فيهِ سنة ١٣٢١ ﻫ وانتهى من تبييضه سنة ١٣٣١ ﻫ ويقع في ٦٠٦ صفحة في حجم الربع

وقد اورد في المناسبات التي ذكرها للحسين بن الضحاك في هذا الموضع ما نصه : « مدح دير مران بالشام لما غزاه المعتصم ٦ : ١٩٥ » وذكر في المناسبات الخاصة بالخليفة المعتصم ما نصه :«كان في دير مران فأمر الحسين ان يقول فيهِ شعراً يغنـي بهِ عمرو بن بانه ٦ : ١٩٥ » مع أن الخبر الذي اورده ابو الفرج لا يدع مجالاً للشك بأن ابن الضحاك لم يجب أمر الخليفة المعتصم بان يقول شيئاً في الجهة التي نزلوا بها وهي دير مران وانما قال متشوّقاً الى بغداد ذاكراً دير مريان . واذا كان هذا

شأنه في المناسبات الظاهرة فكيف حاله في المناسبات التي لا تكتب الاً بعد إنعام النظر وكثرة التأمل وإجهاد الفكر . لعله يكتب « ذكر عرضاً » كما لاحظناه مراراً في هذا الفهرس يكررها

— ٢٠ —

ولم يتنبه لهذا الخلط ايضاً الامام اللغوي المرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطي في تصحيحاته التي دوّنها بنسختهِ الخاصة من طبعة بولاق وهي التي جردناها ورتبناها وطبعناها على حدة في رسالة خاصة سنة ١٩١٦ م وتقع في (٧٠ صفحة) من حجم الاغاني مع انهُ رحمهُ الله تعالى صحح في الجزء السادس الذي ورد فيهِ هذا الخبر نحو السبعين غلطة من الغلطات الغامضة التي لا تكاد تدركها الأفهام ، ولا يعلمها الاً الراسخون في العلم ، وقليل ما هم .

— ٢١ —

ولم يتنبه لهذا الخلط ايضاً الاستاذ العلامة المحقق حبيب الزيات في كلمته عن الديارات الواردة في الجزء الاول من مسالك الابصار لابن فضل الله العمري وقد نشرها في مجلة لغة العرب في الجزء الخامس من السنة السادسة ص ٣٢٢ — ٣٤٢

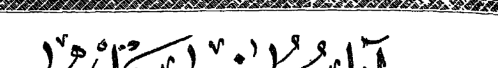
— ٢٢ —

ولم يتنبه لهذا الخلط ايضاً الاستاذ الجليل والكاتب المجيد الدكتور طه حسين حين سمع أخبار ابي الفرج عن حسين بن الضحاك ليملي ترجمتــه التي نشرها بالسياسة بتاريخ ٢٣ ابريل سنة ١٩٢٤ م والتي ضمها في كتاب (حديث الاربعاء) ج ١ ص ٢١٣ — ٢٣١ ويقول فيها (ص ٢٢١) ما نصه : « وله (ابن الضحاك) مع هؤلاء الخلفاء (المعتصم والواثق والمتوكل) جميعاً أخبار حلوة تبسط في روايتها ابو الفرج » ومع اننا نعترف ان الاستــاذ الجليل الدكتور طه حسين في دقة فهمه ونقده لا يضارع ، ومقدرته ونبوغه في تحليله للشخصيات لا ينازعه فيها احد نرى ان هذا الخبر مرّ عليه بدون تعليق او اشارة

٢٣

اما من كتبوا عن الحسين بن الضحاك من مؤلفي هذا العصر المعروفين ، ونقلوا اخباره وشعره من كتاب الاغاني وغيره ليضموها الى مؤلفاتهم في الادب العربي ، ولم يتنبهوا الى ما وقع فيه صاحب الاغاني من خلط ، فكثير ما هم

وفي ختام هذا البحث نذكر اننا اطلعنا استاذنا الجليل العلامة المحقق احمد زكي باشا على ما ورد في الجزء الاول من كتاب مسالك الابصار والكتب الاخرى التي ذكرناها آنفاً ، فهنأنا على هذا التوفيق ، وشكرنا على هذه الدقة في البحث والتحقيق ، وسمح لنا بنشر هذه الحقيقة تعميماً للنفع واتماماً للفائدة ، فلبينا طلبه . و (الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله) .



غرائب الصفات الجنسية

الاولية والثانوية

اذا خصي الحمل صغيراً كبر اجمَّ اي لم ينبت قرناهُ . ويقول اصحاب القطعان ان الحملان المخصيَّة تنبت قرونها ولكنها لا تنمو بل تبقى صغيرة مع ان النعاج جُمٌّ . ويقال في تعليل ذلك ان القرون سلاح الحيوان . والحيوانات التي من جنس الغنم والمعزى والظباء والايائل تستعمل قرونها وقت المزاوجة فيتقاتل ذكورها بها والغالب منها يستبدُّ بالاناث فقويت العلاقة بين القرون والتناسل ، ولذلك تسقط قرون الايائل بعد فصل المزاوجة ، ولذلك ايضاً صارت اناث بعض انواع الغنم جمًّا لا قرون لها وعليهِ لا يبعد ان يتوقف نمو القرون في ذكور الغنم اذا خصيت صغيرة

يراد بالصفات الجنسية الصفات التي تكون في الذكور خاصةً او في الاناث خاصةً فيمتاز بها الذكر عن الانثى . وهي كثيرة كما لا يخفى بعضها اوليٌّ او جوهري يتعلق باخلاف النسل كالخصيتين في الذكر والمبيض في الانثى . وبعضها ثانوي او عرضي كطول الشعر في وجه الرجل وتزوُّق ريش الديك وكبر ثديي المرأة واغبرار لون الدجاجة وهلمَّ جرًّا

اما الصفات الاولية فما يختص منها بالذكور لا يظهر الاَّ فيهم . وما يختصُّ بالاناث لا يظهر الاَّ فيهنَّ . وقد تجتمع هذه الصفات في شخص واحد فيكون ذكراً وانثى معاً وهو الخنثى . وذلك نادر جدًّا في البشر والحيوانات العليا لكنهُ كثير في بعض انواع الحيوانات الدنيا كالبزّاق ويكاد يكون عامًّا في انواع النبات لايستثنى منهُ الاَّ ماكان مثل النخل والصنوبر اذ تكون ازهار الذكر في شجرة وازهار الانثى في اخرى . اما الصفات الثانوية فغير مرتبطة باخلاف النسل ارتباطاً جوهريًّا اي هي خارجة عن اعضاء التوليد ، ومع ذلك تظهر وتنمو حينما يصير الحيوان قادراً على التوليد ، فترى جلية في البالغ منهُ ، ولو لم تُرَ جليةً في صغارهِ كما ترى في الفرق الظاهر بين الرجل والمرأة ، والديك والدجاجة ، والثور والبقرة ، والكبش والنعجة ، والتيس والعنزة ، ولو لم تظهر في صغار هذه الحيوانات . وتظهر ايضاً في الوان الطيور واشكال الاسماك فيراها مربُّو الطيور ، وصائدو السمك ، ولو لم ينتبه لها غيرهم

وليس لهذه الصفات الثانوية علاقة جوهرية بالتوليد ولكن لها علاقة ثانوية . فبعضها من الجواذب التي تقرّب بين الذكر والانثى ، لاخلاف النسل كألوان الطيور واصواتها . وبعضها من الاسلحة التي تمكن الذكور من الحصول على الاناث كقرون الكباش والايائل وبينها وبين الصفات الاولية صفات اخرى بين بين ، اي انها ليست ضرورية ، لاخلاف النسل حتى لا تقوم الولادة من دونها ، ولكنها متعلقة به كإدرار اللبن من اناث الحيوانات اللبونة او الثديية، لتغذية اطفالها. ومنها وجود مثقب لاناث بعض الحشرات تثقب بهِ الثمرة او نحوها لتضع بيضها في الثقب ، حتى اذا ظهرت صغارها وجدت لها طعاماً كافياً ، ووجود اكياس لذكور بعض الاسماك والضفادع تحمل به بيض اناثها الى ان تولد صغارها منهُ

واذا انعمتَ النظر وجدتَ انَّ الصفات الجنسية كثيرة جدًّا مختلفة الدرجات مما هو لازم لزوماً لابدَّ منهُ لتوليد النسل، كالمبيض في الانثى والخصيتين في الذكر الى ما هو عرضي تماماً كصياح الديك ونقيق الدجاجة ومع ذلك لاتنكر علاقة هذه الصفات الثانوية بالتوليد ولوكانت علاقة غير جوهرية

من الامور المشاهدة ان الصفات الثانوية يتوقف ظهورها ونموُّها غالباً على وجود الصفات الاولية ونموها فلا تظهر واضحة الاَّ متى بلغ الحيوان اشدَّهُ ذكراً كان او انثى ، اي متى نمت الصفات الاولية فيهِ وبلغت غايتها والحيوانات التي تتزاوج وتتوالد ، في فصل معلوم من السنة يظهر فيها بعض الصفات الثانوية ، في ذلك الفصل فقط ، كأنها وجدت لاجل التزاوج والتوالد واخلاف النسل لاغير ومن هذا القبيل نمو قرون الايائل ، في فصل المزاوجة وسقوطها بعدهُ. ومنهُ علاقة القرون بالخصي فاذا خصيت الحيوانات ذوات القرون وهي صغيرة قبلما تنبت قرونها بطل نموّ قرونها او نمت صغيرة فاذا خصي الايل صغيراً لم ينبت قرناهُ بعد ذلك . واذا خصي بعد ان كبر قرناهُ ثم وقعا في ميعاد وقوعهما لم ينبتا بعد ذلك او نبتا صغيرين في الفصل التالي . ومن الغنم صنف ذكورهُ قُرْنٌ واناثهُ جُمٌّ فاذا خصيت حملانهُ صغيرة قبلما تنبت قرونها لم تنبت بعد ذلك او نبتت صغيرة واذا خصيت بعد ان تنبت قرونها بقيت على حالها ولم تكبر ، ومنهُ صنف ذكورهُ واناثهُ قرْنٌ ولكن قرون الذكور اكبر من قرون الاناث فاذا خصيت الذكور صغيرة نبتت لها قرون صغيرة كقرون الاناث اي صارت الذكور كالاناث في الحالين اذا خصيت صغيرة

يؤخذ مما تقدم ان هذه الصفة الثانوية ، في ذكور الغنم تابعة للصفة الاولية فيها ، التي تميز الذكور عن الاناث وهي وجود الخصيتين . ومن هذا القبيل كثير من الصفات الثانوية ، فانها لا تظهر اذا نزعت الخصيتان قبلما تظهر او تظهر ضعيفة . ولكن اذا نزعت الخصيتان بعد ما تظهر فان نموَّها يقل او يقف عن الحد الذي بلغته ، وذلك واضح في خصيان البشر ، وأشهر الظواهر شعر العارضين والصوت. واذا نزع المبيض من الانثى (وهو بمثابة الخصيتين في الذكر من حيث صلته بالتوليد) فان نزعهُ يؤثر في صفات الانثى الثانوية ولكن تأثيرهُ يكون اقل من تأثير نزع الخصيتين من الذكر ،فتصير الانثى ميالة الى الزهو والمرح كالذكر ولكنها لا تعدم بعض المزايا الظاهرة المميزة لها.

تقدم ان هذه الصفات مرتبطة كلها باخلاف النسل ، وقد توالى ظهورها وثبتت بالانتخاب الطبيعي والجنسي . فقرنا الكبش نبتا وبلغا الحدّ الذي تراها فيهِ الآن لكثرة ما ناطح اقرانهُ لاحراز الاناث في فصل المزاوجة . فهما مرتبطان بخصيتيهِ ، فاذا نزعتا بطل الباعث على نموّ قرنيهِ . ولا ينتظر ان يكون بين الخصيتين والقرنين علاقة عقلية فيقول القرنان لم يبقَ داعٍ لنموّنا بعد سَلت الخصيتين ، فلا نتعب نفوسنا بالنموّ ولكن لا بدَّ من علاقةٍ ما طبيعية وفسيولوجية ، اي لا بدَّ من وجود شيء في الخصيتين يؤثر في نمو القرنين او في البدن كلهِ فيربط نموها بوجود الخصيتين

وقد عللوا ذلك بأنهُ يفرز من الخصيتين والمبيض مفرزات داخلية (هرمونات) تدور مع الدم وتؤثر في البدن وقد ابان الاستاذ شتيناخ الجرَّاح النمسوي المشهور ذلك ، بأنهُ نزع المبيض والخصيتين من الجرذان وخنازير الهند ، وطعم بعض الذكور بخصي ذكور اخرى او بمبيض الاناث ، والاناث بمبيض اناث اخرى او بخصى الذكور . فالحيوانات التي اكتفى بنزع خصاها او مبيضاتها نمت مثل غيرها ولكن لم تظهر فيها الصفات الجنسية الثانوية او ظهرت ضعيفة . والذكور التي ابقى خصاها وطعمها بخصى ذكور اخرى قويت فيها الصفات الثانوية المميزة للذكور فكبر جسمها وزادت اقتحاماً وطلباً للاناث . والذكور التي طعمت بمبيض الاناث صارت كالاناث في طباعها وشكلها وكبر ثديها وصارت تفرز لبناً كثدي الاناث وترضع اجراء غيرها كأنها اناث . والاناث التي طعمها بخصى الذكور ظهرت صفات الذكور فيها . فانها كبرت وقويت وشرست وصارت كالذكور في طلبها للاناث . والديوك التي تخصى صغيرة لا يكبر عرفها ولكن ريشها لا يختلف عن ريش غيرها من الديوك . فاذا نزع المبيض من دجاجة بدت عليها صفات الديوك فيكبر عرفها كعرف الديك ويطول بعض ريشها ويتلوَّن . ويحدث مثل ذلك في البط . اي ان نزع الخصيتين اقل تأثيراً في هذه الطيور من نزع المبيض . ومعلوم ان اناث الطيور اذا جاوزت السن الذي تبيض فيهِ شابهت الذكور فاتصافها بصفات الذكر اقرب وقوعاً

ويمكن تعليل ذلك كلهِ بأنهُ يفرز من الخصيتين والمبيض مفرزات داخلية تؤثر في الحيوان الذي تكون فيهِ ، فمفرزات الخصيتين تولّد في جسم الحيوان صفات الذكور الثانوية ومفرزات المبيض تولد فيهِ صفات الاناث الثانوية سواء أكان الحيوان ذكر او انثى في الحالين . ولكن يعترض على ذلك بوجود الخصيتين والمبيض في حيوان واحد وتظهر الصفات الواحدة في احد شقيه والاخرى في الآخر . فان بعضهم وجد عصفوراً من العصافير التي صدور ذكورها حمرٌ ، وكان الجانب الايمن من صدره احمر كصدر الذكر والجانب الايسر اصهب ، اي ان احد جانبي صدرهِ ذكر والآخر انثى فقال بعضهم ان هذا ينفي كون سبب الصفات الجنسية الثانوية مفرزات داخلية من المبيض والخصيتين لانهُ لو صحَّ ذلك لابطلت مفرزات الواحدة فعل الاخرى . ولكن ذلك قد لا ينفي فعل المفرزات الداخلية ، اذ يحتمل ان يكون فعلها في الجانب الذي هي فيهِ اشد من فعلها في الجانب البعيد عنها

الطاقة

من نيوتن الى اينشتين

لمحمد عاطف البرقوقي[1]

لعلَّ أهم الابحاث التي شغلت عقول العلماء في العهد القديم والعهد الحديث هو موضوع الطاقة فمن علم الميكانيكا الذي وضع اساسه العالمُ الانكليزي نيوتن نعلم ان الجسم المتحرك لهُ طاقة تسمى طاقة الحركة فالسهم اذ يترك القوس يتحرك بسرعة وتصبح لهُ طاقة يظهر اثرها اذا صدم جسم غزال فان السهم يلهب جسمه ويجرحهُ وكذلك الجسم المقذوف الى اعلى تحت تأثير الجاذبية تقل سرعته وبذلك تقل طاقة حركته ولكن هل تقل الطاقة هكذا دون ان يظهر لها اثر آخر ? بل لا بد من تعويض الطاقة المفقودة بطاقة اخرى تسمى طاقة الوضع في هذه الحالة لان هذا الجسم المقذوف الى اعلى تقل سرعته الى ان تتلاشى وعندئذٍ تنعدم طاقة حركته وتتحول جميعها الى طاقة وضع بحيث اذا لم يمنع الجسم عائق فانهُ يتحرك الى اسفل ثانية من تلقاء نفسه

وليست الطاقة مقصورة على هذين النوعين فقط بل هناك مثلاً الطاقة الكيميائية والطاقة الكهربائية والطاقة الحرارية . ويمكن للطاقة ان تتحوَّل من صورة الى اخرى فالطاقة الكيميائية تتحول الى طاقة حرارية كما لو وضعت بعض المواد في بعض الحوامض فانها تحترق وكذلك الطاقة الكيميائية تتحول الى طاقة كهربائية كما في البطاريات اذ البطارية ما هي الأَّ لوحان من معدنين مختلفين بينهما مواد كيميائية فمن التفاعل الكيميائي يشحن كل لوح بجهد مختلف ومن فرق الجهد بين اللوحين يسري التيار اذا وصل اللوحان بسلك وكذلك الطاقة الكهربائية تتحول الى طاقة حرارية كما لو مرَّ التيار في المدفاة الكهربائية فيسخنها وتشع الحرارة في الغرفة

﴿ العلاقة بين الطاقة الميكانيكية والطاقة الحرارية ﴾ : كان العلماء يعتقدون منذ قرن ان ارتفاع درجة حرارة الجسم ناشىء من وجود سائل خفيف الوزن في الجسم وكلما زاد مقدار هذا السائل في الجسم ارتفعت درجة حرارته فاذا وصل بجسم آخر اقل منهُ في درجة الحرارة سرى هذا السائل من الجسم الساخن الى الآخر وتعرف هذه النظرية بنظرية « السيال الحراري » ولكن هذه النظرية بعد ان مكثت مدة تفسر بعض الظواهر ارتطمت امام التجارب الاخرى اذ أدى الاخذ بها الى نتائج لا تحققها التجارب . وكان اول معول بدأ في هدم هذه النظرية معول «كونت رمفورد» فبينما كان

(1) حائز درجة شرف في العلوم من جامعة برستول واستاذ الطبيعة في المدرسة السعيدية الثانوية بالجيزة

يقوم بملاحظة تقوير الانابيب لعمل المدافع عام ١٧٩٨ كانت برادة الحديد المتناثرة والناتجة من التقوير ساخنة جداً كما لو حككت قطعتي حجر احدهما بالاخرى فان حرارتهما ترتفع وتوقد الفتيل. وقد تبع هذا هادم آخر هو «السر همفري دافي» اذ تمكن من صهر قطعتي جليد دون تسخين بل بالاحتكاك وهما متلاصقتان . فهل كان هناك « سيال حراري » في احدى القطعتين دون الاخرى وهما دون الصفر . فلا بد ان يكون هناك علة اخرى وهي العلاقة المتينة بين الطاقة الميكانيكية او الشغل الميكانيكي وتوليد الحرارة وهذا ما اثبته العالم الانكليزي « جول » اذ اجرى عدة تجارب اثبت فيها انمقدار الحرارة الناتجة من الشغل الميكانيكي تتناسب مع هذا الشغل. وبذلك بطلت نظرية السيال الحراري نهائياً

﴿ طاقة موجات الضوء والحرارة ﴾ : كما ان للحرارة طاقة فكذلك لموجات الضوء طاقة فموجات الحرارة وموجات الضوء كلاها موجات مستعرضة الا ان طول الموجات الحرارية اكبر من طول الاخرى بل هي لكبرها لا تثير حاسة الابصار ويمكن ان تدرك ذلك بالرجوع الى حالة الصوت فنحن نعلم ان كل صوت لا بد ان يحدث من اهتزاز الجسم فالناقوس اذ يدق يهتز والكمان اذ تعطي اي نغمة فان وترها لا بدَّ ان يهتز ويقوي النغمة عمودها الهوائي وهكذا . ولكن هل كل جسم يهتز لا بدَّ ان يصدر صوتاً ؟ لا . وذلك لان الجسم المهتز والذي لا يصدر صوتاً يسبب موجة لا تثير حاسة السمع . رأيت ان اذكر هذا المثل للمقارنة بحالة يسهل ادراكها بسرعة لاننا نشاهدها يومياً في الحياة . ولكن هذه الحقيقة — الضوء والحرارة موجات من نوع واحد — يمكن اثباتها بتجارب كثيرة منها انك اذا أمررت اشعة الشمس من منشور فان الضوء الابيض يتحلل الى ألوان الطيف بحيث يبدأ الطيف باللون الاحمر وينتهي الى البنفسجي فاذا أمررت جهازاً حساساً لادراك الطاقة الحرارية الصغيرة — كالتي نحن بصددها — فان تأثر هذا الجهاز في حالة وجوده عند الجزء الاحمر اقوى منهُ عند الجزء البنفسجي فاذا حركت الجهاز الى ان يقع في الجزء الذي قبل الاحمر فانه يتأثر أيضاً ولو انه في الجزء الذي لا يثير حاسة الابصار. وقد وجد ان لكل لون — او لكل موجة — طاقة خاصة وقد حاول كثير من العلماء تفسير هذه العلاقة فلم يفلحوا حتى جاءهم بلانك Planck واخرج نظريته المساة «نظرية الكم» Quantum theory التي يقول فيها ان طاقة الاشعاع اوطاقة موجات الضوء والحرارة ليست متصلة بل متقطعة — وكل جزء من الطاقة — ويسمى « كماً» — يساوي مقدار ثابت × تردد الموجة . ويسمى هذا المقدار الثابت بثابت بلانك لأهميته الرياضية وقد امكن تفسير ظواهر كثيرة بهذه النظرية وخصوصاً تلك الظواهر الخاصة بالالكترون واشعة اكس

﴿ الطاقة والمادة ﴾ : والطاقة هنا يقصد بها طاقة موجات الضوء والحرارة . كان نيوتن يعتبر ان الشعاع الضوئي يتركب من دقائق تسير في خطوط مستقيمة في الوسط المتجانس وتمكن بنظريته هذه المساة « نظرية الدقائق » Corpuscular Theory — اقول قد تمكن ان يفسر ظواهر كثيرة

مثل حدوث الظل والانعكاس ولكنهُ عند ما حاول. تفسير الانكسار وصل الى نتائج خطأ اذ وجب ان تكون سرعة الضوء في الماء اكبر من سرعته في الهواء وهذا ما لم تثبته التجارب بل اثبتت عكسه لان سرعة الضوء في الماء اقل من سرعته في الهواء فبطلت هذه النظرية وتبعتها النظرية الموجية Wave Theory وهي تفرض ان الضوء لا يتكون من دقائق كما يقول نيوتن بل من موجات مستعرضة تنتشر في الاثير كما تنتشر موجات الماء على سطح البحر ولكن بسرعة هي اكبر سرعة معروفة للآن . وامكن بهذه النظرية تفسير الانكسار تفسيراً يتفق مع التجارب وكذلك تفسير التداخل Interference وتحليل الضوء والزيغ Diffraction وقد عاشت هذه النظرية الموجية الى الآن ولكن في السنين الاخيرة جدت تجارب وظواهر لا يمكن تفسيرها الاَّ اذا افترضنا ان الموجات بها دقائق اي لها بعض صفات المادة وكذلك المادة لها صفات الموجات وبالفعل حاول العلماء تحقيق هذه الفكرة فأطلقوا تياراً من الالكترونات — Stream of electrons — حتى تسقط عمودية على لوح رقيق من المعدن فبدلاً من ان تنفذ مع هبوط في سرعتها او هبوط في شدتها — بدلاً من ذلك نفذت وكوّنت حلقات كما تفعل الموجات تماماً اي ان الالكترونات وهي مادة عملت عمل الموجات — كموجات اشعة اكس مثلاً — وعلى ذلك لم تكن هناك مندوحة من فرض ان الطاقة والمادة اسمان لمسمى واحد يمكن لاحدهما ان ينتج أثر الآخر

﴿ اينشتين ﴾ ذلك العالم الذائع الصيت وصاحب النظريات التي حيرت عقول اكبر اساتذة الطبيعة في الجامعات الاوربية ومع ذلك فالعالم مضطر لقبولها لانها تفسر عدداً غير قليل من المشاهدات الفلكية والتجارب العملية ولعلَّ ادهش وأظهر ما في نظريته النسبية Theory of Relativity افتراض ان كتلة الجسم تزداد بازدياد سرعته تبعاً للعلاقة المشهورة التي استنتجها اينشتين وهي :

$$\text{كتلة الجسم اثناء حركته} = \frac{\text{كتلة الجسم وهو ساكن}}{\sqrt{1 - \frac{\text{مربع سرعة الجسم}}{\text{مربع سرعة الضوء}}}}$$

أما بالرموز

$$ك = \frac{ك.}{\sqrt{1 - \frac{ع^{2}}{ه^{2}}}}$$

بحيث يدل كل رمز على ما يماثله في القانون السابق وباختصار هذه المعادلة نجد ان

$$ك = ك. \left(1 - \frac{ع^{2}}{ه^{2}}\right)^{-\frac{1}{2}}$$

$$= ك. \left(1 + \frac{\frac{1}{2} ع^{2}}{ه^{2}} + \dots\right)$$

$$= ك. + \frac{١}{س^٢} \times \frac{١}{٢} ك.ع^٢ + ...)$$

اي ان كتلة الجسم وهو متحرك = كتلة الجسم وهو ساكن + $\frac{\text{طاقة الحركة للجسم}}{\text{مربع سرعة الضوء}}$

ومن هذه المعادلة نرى ان الجسم اذا تحرك زادت كتلته . وهي نتيجة يدهش لها القارىء المفكر — على ما اعتقد — لانه ربما يسأل وهل القطار المتحرك تزداد كتلته او الطيارة المتحركة تزداد كتلتها . والجواب عن مثل هذا السؤال هو بالايجاب بناء على نظرية اينشتين . ولكن لاتدهش ايها القارىء الكريم فسوف يقل عجبك اذا علمت ان الزيادة لا تكاد تذكر في حالة اسرع قطار او اسرع طيارة ولكن الزيادة كبيرة جداً اذا كانت سرعة الجسم تقرب من سرعة الضوء التي هي اكبر سرعة معلومة للآن كما ذكرت سابقاً . وسأثبت ذلك بمثال :

اكبر سرعة لطائرة في عالم الطيران هي حول ٤٨٠ ميل في الساعة اي حوالي ٢١١٢٠ سنتمتراً في الثانية تقريباً . ولنفرض انه كان يمكن ان نصل الى سرعة ٣٠٠٠٠ سنتمتر في الثانية فتكون نسبة سرعة الجسم الى سرعة الضوء تساوي $\frac{١}{\text{مليون}}$ وهي نسبة صغيرة فما بالك بمربعها

$$\frac{\text{مربع سرعة الطيارة}}{\text{مربع سرعة الضوء}} = \frac{ع^٢}{س^٢} = \frac{١}{\text{مليون تربيع}} = ٠٫٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠١$$

وتكون الزيادة في كتلة الطيارة $= \frac{١}{٢} \times \frac{١}{\text{مليون تربيع}} \times$ كتلة الطيارة وهي ساكنة

فاذا كانت كتلة الطيارة وهي ساكنة تساوي ٥٠ر٠٠٠ كيلو جرام اي حول ٥٠ طناً

فتكون هذه الزيادة في كتلة الطيارة $= \frac{١}{٢} \times$ ٥٠ر٠٠٠ر٠٠٠ $\times$ ٠٫٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ر٠٠١

= ٠٫٠٠٠ر٠٠٠ر٠٢٥ جرام

فانظر الى هذه الزيادة الطفيفة جداً بل المهملة في كثير من عملياتنا الدقيقة مع هذه السرعة الزائدة في حياتنا العملية

ولعلَّ القارىء الكريم يقول وما لنا اذن ولهذه النظرية التي لا تجدي ولا تؤثر — حقاً انها لا تؤثر في كتلة مثل هذه الاجسام وفي مثل هذه السرعة ولكن احسب لنفسك الزيادة في كتلة جسم يسير بسرعة تساوي عشر سرعة الضوء — وليس جزء من مليون — تجد ان الزيادة في الكتلة لا تبلغ جزءاً من الكتلة الاصلية بل اكثر من ضعفين — بل ٢ر٣ مرة من كتلتها وهي ساكنة وهذا ما يحصل في حالة دقائق بيتا B التي تقذف من الراديوم

ولهذه الزيادة قيمتها في عالم التجارب الدقيقة التي تعمل على الالكترون المتحرك بهذه السرعة الكبيرة وبهذه النظرية حققت كثير من التجارب وثبتت نهائياً قيمة الشحنة التي على الالكترون

عودة الروح

تأليف توفيق الحكيم

نقد وتحليل بقلم محمد علي حماد

— ١ —

اشخاص القصة

« عودة الروح » : هي ثاني الاعمال الادبية التي ظهرت للاستاذ توفيق الحكيم بعد « أهل الكهف » روايته البكر التي احدث ظهورها ضجة لا في مصر وحدها بل في العالم العربي بأسره ورفعته درجات في سماء الشهرة والمجد وتكاثرت عليهِ اكاليل المديح والثناء حتى ازدحمت بها صفحات الجرائد والمجلات وتبارى في تقريظها كبار الكتّاب والادباء . و «عودة الروح» هي القصة المصرية الاولى Novel التي يؤرخ ظهورها عهداً جديداً وفتحاً مبيناً في تاريخ الادب المصري . وهي مصرية بمؤلفها وناسج بردتها هذا النسيج المحكم الدقيق ، مصرية بأبطالها ، مصرية بوقائعها ، مصرية بدمها الذي يجري في شرايينها دماً مصريًّا خالصاً ، مصرية بهذا الوصف الذي يعرض لاشخاص واماكن وعواطف وميول كلها مصري صادق اصيل ، مصرية بهذه الصفحات الكريمة التي مجد فيها المؤلف الفلاَّح المصري والثورة المصرية ، وهي اخيراً مصرية بلغتها التي أتحدث بها انا وانت وغيرنا من الاربعة عشر مليوناً من المصريين ، هــذه اللغة المحببة التي هي حديثنا في المنزل وفي الطريق ، في الجمع الحاشد وفي الصفوة المختارة من الاصدقاء ، حيثما كنا واينما اجتمعنا ، هذه اللغة المصرية التي نجد لها في النفس والقلب وقعاً خاصًّا ورنيناً خاصًّا لانجدهما في غيرها من اللغات حتى ولا في هذه اللغة العربية التي نتكلفها تكلفاً بين آونة واخرى لغرض معين او في ظرف معين ، فاذا ما انتهينا من هذا الغرض وقضينا منه وطراً ، واذا ما خرجنا من هذا الظرف الطارىء ، عدنا الى لغتنا نعب فيها ما نعب في سهولة وسير ، وفي طبيعة غير متكلفة ولا ملولة ، ورجعنا بذلك الى احضان البيئة الاصيلة التي نحيا فيها حياتنا اليومية ، وخلعنا عنا رداءً مستعاراً نبدو من بعده في لباسنا الحق ، فاذا نحن مصريون قبل كل شيء ، روحاً وجسداً ولغة

أبطال هــذه القصة قلائل ، او قل ان من يعنينا من اشخاصها قليل ، وعندنا محسن وعبده وسليم ومبروك وزنوبة وهم الذين جمعهم المؤلف تحت كلمة «الشعب» ثم مصطفى وسنية . وغير هؤلاء ثمة شخصيات تمر بها سريعاً ، وأخرى تتريث عندها برهة ثم تمضي . ولكن ما من شخصية من

كل هذه الشخصيات التي تطالعك في ثنايا القصة الا ولها شأنها ولها خطرها ، ولها مكانتها في سياق الحديث والقول . وان المؤلف ليتأنق في عرض ابطاله وفي تصويرهم وابرازهم تأنق الغانية الفاتنة لا تهمل صغيراً من أمر زينتها الا وتعنى بهِ اكبر العناية ، لان من هذا المجموع تتكوّن في عينك الصورة التي تحبها والجمال الذي تعشقه ، ولو وجدت ثمة خدشاً او نقصاً هنا او هناك لنقص جمال الصورة بقدر هذا بل اضعافه لان الاحساس بالنقص يستوي عنده القليل والكثير ، وربّ ذرة من ملح أفسدت على المرء طعامه وشرابه . والمؤلف جدّ حريص على ان تستوي في ناظريك الصورة في اناقة لا تشوبها شائبة ، وفي اطار حلو بارع كل البراعة ، دقيق كل الدقة ، لا تجد فيه خدشاً ، ولا تحس فيه نقصاً

يروعك من هذه القصة لاول وهلة دقة تصوير شخصياتها على اختلاف كبير بين هؤلاء الابطال في النشأة والعلم والاستعداد الشخصي ، وانك لواجد في كل منهم شخصية تخالف الاخرى وتفترق عنها في الكثير والقليل ، تجمعهم احياناً وحدة الحادثة ولكن ما أشد تباينهم تجاهها في الشعور والحس والادراك الصحيح . وما أبلغ هذا التباين في الاندماج في الحياة والانفعال بمختلف ما تأتي بهِ من خير او شر ، من رجاء او خيبة ، من أمل او يأس ، وتكاد تحس فيهم جميعاً طيبة القلب وسذاجة الفطرة ، والتبسط في الحياة ، وتقبل ما تأتي بهِ صروفها من ألم او أمل ، في رضى واستسلام او في غضب هو بالرضى أشبه ، ولكن كلاً نسيج وحده ، وكلاً بعد ذلك له خلقه البارز وطبعه المغاير وشخصيته الفذة التي تترسمها ولا تكاد تخفى على ناظريك طوال القصة ، في معالمها الكبرى وأسطرها الواضحة وحادثاتها الجلى ، بل في تفاصيلها الدقيقة وما بين هذه الاسطر والكلمات ، وما بين تضاعيف القصة من حوادث وصروف وتقلبات

وأظن ان من الخير ان نلم الماماً عاجلة بهذه الشخصيات المحببة التي سرعان ما تألفها وتحبها حتى تشعر وكأنهم أحياء يتحدثون ويتحركون امام ناظريك ، لا أبطال قصة من صنع الخيال من ورائهم المؤلف يحركهم كالدمى الخشبية ويفتعل لهم المواقف والحديث والحركة

﴿ محسن ﴾ وهذا « محسن » بطلنا الناشىء ، الطالب في مستهل دراسته الثانوية ، الشاب في غرارة الصبا واول خطى العمر الغض ، ما اجدره بالحب واخلق بقلبه الفتي ان يفتح مصراعيه لاول طارق وان يصيبه السهم الاول فيدميه ويجرحه جرح الابد . وذلك هو الجرح الذي لا يفتأ على الايام يؤلم ويدمي . و « محسن » يحب ولكن على استحياء وخجل ، وفي صمت وكتمان . فاذا لمح بادرة امل راح والدنيا لا تتسع لنشوته ، واذا داخله اليأس افعم قلبه وروحه وضاقت الدنيا في عينيه بما رحبت . لا يعرف مداخل الرجل الى قلب المرأة ، ولا يدري كيف يغزو الغزاة هذا الحصن المنيع ويحسنون الطرق على أبوابه حتى تنفتح لهم عن جنات ورياض زاهرة من الامل الباسم الحلو ، والسعادة العذبة التي تطغى على القلب والفؤاد وتفعمها حياة وقوة وأملاً زاخراً

ويتعمد المؤلف ان يقدم لنا بطله في صورة الشاب الصغير السن ، القليل التجربة ، ولا يفتأ يذكرنا بهذه الصورة في مناسبات عدة وفي ظروف متباينة ليبني عليها ما يشاء فنه القصصي البارع الدقيق من ملابسات وأخيلة وتصرفات تناسب هذه الصورة وتلائمها كل الملاءمة ، وما تكاد تمضي في القصة صفحات حتى يحدد لك المؤلف عمر «محسن» تحديداً دقيقاً لا يترك مجالاً للبس والابهام فهو في الخامسة عشرة من عمره . ثم يتحدث عنه احياناً قائلاً « الفتى الصغير » او «الغلام» وهذه «سنية» عند ما تستدرج أمها لمقابلته تصفه بأنه طفل ... وتقول مخاطبة امها

— ياستي دا مش راجل . . .

وهذه النظرة من سنية لمحسن لها شأنها الكبير في سياق الرواية ، بل لعلَّ سنية لو تبدَّلت نظرتها هذه لمحسن لتبدَّلت القصة كلها . وسيجيء تفصيل هذا في سياق القول

ولا يقف المؤلف عند هذا . وها هو محسن نفسه يشعر في اعماق قلبه ويحس احساساً قويًّا انهُ صغير . . . لا يصلح لمنافسة الرجال في المرأة وفي محاولة الاستيلاء عليها . ويصف المؤلف هذا الاحساس في نفس «محسن» وصفاً صادقاً دقيقاً ، ويحلله تحليلاً نفسانيًّا بارعاً ، مرتين ، الاولى عند زيارة «عبده» لمنزل «سنية» لاصلاح سلك الكهرباء ، والثانية عند انتهاز «سليم» فرصة تلف بيانو «سنية» ودخوله منزلها مدعياً انه له خبرة بمثل هذه الشئون

ففي الاولى اوحت بعض تصرفات « سنية » لبطلنا الشاب هذا الوحي المرعب « ان النساء قبل كل شيء يهمنَ بالرجل القوي الممتلىء طولاً وعرضاً ذي الصوت الخشن مدفوعات بدوافع خارجة عن ارادتهنَّ . لعلها الغريزة الجنسية . ولعله هو بالنسبة لعبده ما زال طفلاً او غلاماً لا يوحي الى المرأة تلك العاطفة »

ويحس «محسن» من اهمال «عبده» لشأنه وعدم اعتداده بهِ كمنافس خطر يزاحمه على «سنية» يحس الشاب «انه صغير لا يصلح حتى ان يعد غريماً ومزاحماً »

وضرب المؤلف على هذه النغمة في المرة الثانية عقب ان رجع «سليم» من بيت الجيران — اعني بيت سنية كما يعبر عنه المؤلف احياناً — وراح يتحدَّث بمحاسن الفتاة الجثمانية ، ويفصل القول في تقاطيع جسمها تفصيلاً تشمئز منه نفس «محسن» فيضمر لسليم شيئاً لا يدرك كنهه ، ثم

« أحس ذلك الاحساس المبهم مرة اخرى بصورة اوضح . احساس القصور والضعف المذل بالنسبة لسليم . وتصور سليم ذلك الرجل الذكر الذي يتغلب بسهولة على المرأة ولا قبل لها بمقاومته . . . او ان سليم رجل يعرف اشياء لا يعرفها هو . . . او ان . . . او ان . . . لا يدري الصغير محسن ... انها مجرد احساسات غامضة لا يستطيع تعليلها ، ولا يفهم منها الاَّ انهُ بات يكره سليم ويخشاه ويشعر نحوه بشبه اذلال نفسي »

وهنا كان احساس «محسن» بقصوره في « صورة اوضح » ولم يصف في دخيلة نفسه « سليم »

بلفظة « الرجل » فقط كما وصف « عبده » بل تخيله « الرجل الذكر » وذلك لان « سليم » تحدث عن « سنية » تحدث الرجل الذي يتنبه للمرأة بدافع الغريزة الجنسية ومن حيث هي — اي المرأة — جسد يشتهى ويثير في الرجل شهوة بهيمية

فالمؤلف كما ترى لم يترك لك خياراً في الصورة التي تتخيلها عن « محسن » . فقد بدأ وقدمه لك في عبارات صريحة تشعرك بصغره ، سناً وعاطفة ، ثم جعل « سنية » تتحدث عنهُ لامها بما رأيت من انهُ طفل ، ثم ابى اخيراً الاَّ ان يدفع بهذا الاحساس في قلب « محسن » نفسه ويغوص وراءهُ ليقدمهُ لك في صورة صريحة لا لبس فيها ولا غموض . وكأن كل هذا لم يرض المؤلف في رسم الصورة التي يريدها لبطله فجعل « محسن » يأتي من الاعمال ويتصور من الاخيلة والاحلام ما لا يليق الاَّ بعقل طفل ، او شاب حدث لما تكتمل له بعد قوى الرجولة والاعتزاز بالنفس من هذه الناحية . وقصة المنديل تنهض هنا دليلاً ناطقاً بصدق هذه الصورة التي رسمها المؤلف « لمحسن » . الرجل لا يسرق المنديل ولكن يسرق المرأة نفسها ويختطفها اختطافاً . والرجل لا ينتظر هذا الخطاب الذي انتظرهُ « محسن » اياماً كاملة ، فاذا ما وصل اليهِ لا يبني عليهِ كل هذه القصور والآمال ، ولا يستوحي اسطره وكلماته الجوفاء كل هذه الاحلام العريضة التي استنزلها « محسن » من رأسهِ الصغير وقلبه الصغير مدفوعاً بغرارة الصبا ، هذا القلب وتلك الرأس الخليقان بشاعر يعيش في دنيا من الوهم والخيال . والرجل لا يقلب الامور رأساً على عقب فيجعل الحقيقة دون الخيال ويأبى الاَّ ان يصر على احلامه التي تخيلها ساعة او بعض ساعة بعد ان ينكشف له الحق الصراح في جلاء ووضوح . وهذا « محسن » يعرف ان الخطاب الذي وصله في القرية لم تكتبه « سنية » ولكن كتبه عرضحالجي بامضاء « زنوبه » ومع ذلك يلذ له ان يكذب فيما بينهُ وبين نفسه هذا الذي اتصل بهِ ويمضي ممعناً في خياله واوهامه ، محتفظاً بهذا الخطاب يستروح في كلماته من حين لآخر املاً عذباً ورجاءً منشوداً

على ان المؤلف لا يمعن هذا الامعان كله في تحديد صورة بطله الشاب عبثاً ودون غاية معلومة او خطة مرسومة . ولا يلح هذا الالحاح كله في دقة التصوير وفي الوضوح فيهِ لغير شيءٍ ، بل له من وراء هذا كله اغراض وغايات . ودعك من انهُ يقيم العذر لسنية في تجاهلها « محسن » وفي انها لم تحس حياله بما تحسه المرأة حيال الرجل ، ودعك من ان المؤلف يهيء من هذا اللون الطريف لبطله طعاماً دسماً يقدمه لقرائه في شتى مواقف القصة ، دعك من هذا ومن غيره مما اليه بسبيل من هذه الغايات التي يتطلبها الفن القصصي ويستلزمها سياق القول والحديث وقل ان المؤلف عرض بين يدينا صورة رائعة كاملة في معالمها الكبرى وتفاصيلها الدقيقة عن هذا الحب الافلاطوني ، او هذا الهوى العذري بلغة الشعراء ، هذا الغرام الذي يفيض على النفس جمالاً قدسيًّا هو من السماء وليس من هذه الارض ، هو من ملأ اعلى حيث تسمو الروح فوق غرائز الجسد ، وتنمحي هذه

المادة من اللحم والدم ولا يبقى الاَّ معنى من الملائكية يشع نوراً وطهراً ، ويصبح هذا الحب اشبه ما يكون بالعبادة ، ويكون بين الحبيب وحبيبتهِ ما بين العبد والله . ويكون حديث الحب بينهما خليقاً بمحراب او صومعة . ومن هنا احس « محسن » عند حديث « سليم » عن « سنية » وعن تقاطيع جسمها وتفصيله القول في هذا المعنى ، شعر « محسن » « بما يشعر بهِ عابد ورع متنسك وقد رأى احداً يهين معبوده »

ولقد وفق المؤلف في ابراز المعنى الذي اراده في شخصية محسن توفيقاً عجيباً لاتخطئه النظرة العجلى بله النظرة الفاحصة الممعنة التي تزن وتتأمل وتقدر

ثم لنتمهل قليلاً قبل ان نجاوز « محسن » الى غيره من ابطال القصة ولنسأل المؤلف الكريم هل كانت محض مصادفة ان وضع بين يدي بطله رواية « مجدولين » ام لحكمة فعل ذلك ولمعنى خاص لم يرد ان يشير اليهِ بأكثر من هذا الرمز العارض ؟ ولعلَّ « مجدولين » اقرب القصص الى قلب « محسن » لان فيها هي الاخرى صورة من هذا الحب الافلاطوني الذي غمر قلب بطلنا

ومن يدريني . . . لعلَّ المؤلف اراد ان يسخر من « محسن » ومن « مجدولين » ومن هذا الشباب الذي يقبل على مطالعة مثل هذه القصص اقبالاً كبيراً فتعطيه عن الحياة صوراً هي بالاحلام اشبه ، وتجعله يتعلق بأوهام وخيالات تنسيه حقائق الوجود بعد ان تخفيها عنهُ في هذه الاطر الزاهية البرّاقة الالوان من صور المثل العليا التي تفسد علينا في مستهل حياتنا كثيراً من نعيم الدنيا وتزيف امام ناظرينا الحقيقة وتدفعنا الى التعلق بآمال كذاب ، وان كنا نعيش بهذه الاحلام زمناً رغداً ، ولكنها حياة كحلم النائم ، والحلم جميل على أية حال ولكنه ليس اكثر من حلم ، والحقيقة مرَّة ولكنها الحقيقة لا مفر منها ولا محيص عنها . ومع هذا فما اظلم حياة المرء خلت دنياه من هذه الآمال الكاذبة ومن هذا الخيال العذب والامل الحلو

ولكن اين توفيق الحكيم وأين «عودة الروح» ؟ كاد المؤلف ان يضيع في تضاعيف فلسفة الناقد

﴿ سليم ﴾ لعلنا تعمدنا الحديث عن شخصية « سليم » بعد « محسن » ليلمس القارىء معنا مدى ما بين الشخصيتين من التفاوت والتباين في الكل والجزء ، في المجموع وفي التفصيلات . وقد نمضي عليك احياناً مشهد من مشاهد القصة ، او حادثة من حوادثها ، وقد ترمي المؤلف بين الفينة والفينة بالغموض والابهام ، ولكن المؤلف على ما يلوح لي لا يغفر للقارىء ان يتخيل لاحدى شخصياته صورة غير التي يريدها لها او خلقها على مثالها ، ومن هنا كانت شخصيات « عودة الروح » صريحة كل الصراحة ، جلية واضحة كل الجلاء والوضوح

هذه الشخصية يغلب فيها جانب الفكاهة جانب الجد ، فهي ليست فكاهة خالصة ، وليست جداً خالصاً ، ثم هي ترسم الى مدى بعيد طائفة من الناس تزهو على الناس وتحاول ان ترفع من قدرها فوق اقدار الناس درجات . لست اسمّي لك هذه الطائفة ولكنك في غنى عن هذا فانت تعرفها حق

المعرفة ، وانت بها جد عليم ، ولرب قد اختلطتَ ببعض افرادها ورأيت من بينهم من يذكرك « بسليم » ، وحيث تكفي الاشارة اللامحة من الخير ان نكفي أنفسنا مؤونة التصريح المؤلم الممض في غير داع ولا حاجة ملحة . وقد تكون هذه الطائفة من الناس خيراً مما نتوهمهُ عنها ولكن لا نزاع في ان لي ولك ولنا جميعاً فكرة — لست ادري كيف وجدت هذا المدى البعيد — ثابتة عن هذه الفئة ولست اتعرض لاثباتها ولا لنفيها الا لأقول ان « سليم » هو صدى هذه الفكرة في نفوسنا جميعاً

لا تنتهي من الصفحات الاولى للقصة حتى تعلم ان « سليم » ضابط من البوليس اوقف عن عمله لتهوره الذي دفعهُ اليهِ ميله الغريزي لمعاكسة النساء ومحاولة الاتصال بهنَّ دون ان يتخير الطريقة المثلى المأمونة العاقبة . وله في ذلك سبيل أعوج شائك عثر فيهِ مرة ولكن ما يزال يرتجله كل مرة عفو الخاطر كأنهُ طبيعة في دمه او كأنهُ البديهة التي نلهمها ولا ندري من اين هبطت علينا فنساق بها مرغمين . وهو ينظر الى المرأة من ناحية الجسد والمتعة ويسعى وراءها ليشبع غريزة الجنس في الرجل . واذ يرى « سنية » لا يلمح الاَّ تقاطيع هذا الجسد الممتلىء فما يذكر حتى لون « الفستان » الذي كانت ترتديه . وهذا الصنف من الرجال جريء في قحة مبتذلة

دخل « سليم » بيت « سنية » بحجة اصلاح البيانو فما زال بالفتاة يستدرجها حتى عزفت لهُ قطعةً موسيقية ، وقدم بين يديها من عبارات المديح والثناء ما أدخل الزهو على نفسها وجعلها تبادله بعض الفاظ الشكر وظفر منها بما لم يظفر به « عبده » وما لم يكن ليظفر به « محسن » لولا ظرفهُ الخاص . وهو لا يتورَّع ان يجري خلف امرأة في عرض الطريق ينثر حولها تلك الكلمات البذيئة التي لا يحسنها الاَّ لفيف من الرجال قد خلعوا عذار الحياء والخجل ، وقد فعلها « سليم » فأعطانا من خلقه وطينته ما يغنينا عن اطالة الشرح والتفصيل

قلت لك ان هذا الصنف من الرجال جريء ، وقد كان « سليم » من بين افراد « الشعب » الوحيد الذي خطرت له فكرة ارسال خطاب الى « سنية » يتحدث اليها فيهِ حديث الحب والغرام وما اسرع ما نفذ فكرته ، وان يكن قد استعان في كتابته بفقرات من « مجدولين » فذلك لان نفسه لا تتمثل هذا الحب الذي يعينه على كتابة خطاب مثل هذا الخطاب

مرَّ بنا ان « سليم » يمثل صدى فكرتنا عن طائفة من الناس كأن لزيهم الخاص سحراً وطلسماً وكأن ميزاته الامر والنهي والتفرد بالسلطان والقوة . والى ناحية الرجل في « سليم » تجد هذه الناحية الاخرى بارزة واضحة . وهذا البطل لا ينسى حتى في جلسته في قهوة « المعلم شحاته » البلدي ان يصرخ ويصيح كأنهُ امام الطابور يلقي اوامره على الانفار !

ولا ينسى « سليم » اذ يذهب لمنزل « سنية » بحجة البيانو ان يخرج بذلته الرسمية ليرتديها وان يعهد « بالضبابير » الى مبروك يجلوها ويلمعها . . . ولا ينسى ان يدهن شاربه بالكوزماتيك ويمشط شعره ويرسل في الهواء ضربات لاخات من كرباجه الجلد الضباطي . . . حتى ليقول له

« حنفي » هذه الـكلمة التي تصف لك هذه الصورة المضحكة الفكهة ابلغ الوصف وأوجزه
— دهده ! انت لبست بدلة التشريفة ؟

﴿ سنية ﴾ بطلة قصتنا ومعبودة الشعب على حد تعبير المؤلف ، و« الهة الشرفة » عند مصطفى.
وهي المحور الذي تدور حوله القصة من البداية للنهاية ، وكما تجدها في كل قلب تجدها في كل مشهد بل وفي كل جملة ، فهي تسيطر على القصة كلها ، كما تسيطر على ابطالها جميعاً . يحبها الجميع حتى « مبروك » الخادم او من هو في حكم الخادم ، وانهُ ليتأنق في لباسه اذ تؤاتيه الظروف لزيارة منزلها ، ويبتاع له نظارة يلبسها حتى يطابق الصورة التى تخيلتها فيه . ولتجدنَ لها في نفس « سليم » — وما ادراك ما « سليم » — هذا التأثير البعيد الذي يجعله يحس للمرة الاولى في حياته « عاطفة جديدة لم يكن يعرفها من قبل . عاطفة الاعجاب النبيل »

وهكذا بلغ من تأثيرها في نفس « سليم » ان احيت في قلبه ناحية كانت قد اندثرت أو كادت وبعثت منهُ شخصاً آخر وهو من عرفت خلقه وطبيعته !

فتاة في مقتبل العمر ونضارة الصبا لم تتفتح مغاليق قلبها بعد ، ساذجة بفطرتها وبحكم البيئة الطيبة التى وجدت فيها ، وهذه التربية التى درجت عليها ، فيها هذا الخفر الطبيعي الذي تلمسه في الفتيات من سنها وبيئتها ، وفيها جنوح الى هذا العبث البريء الذي هو اشبه بمداعبات الاطفال. لم تحب « محسن » وان كانت قد احست نحوه بعاطفة مثارها هذا الاختلاط اليومي ، وهذا التعلق المشترك بالموسيقى والغناء ، لمحت تأثره الشديد يوم جاء يودعها قبيل سفره بالاجازة الى اهله ، «وأدركت بعض ما به وارتاحت له »، وكأنما لذَّ لها هذا الظرف الطارىء فاعتصرت ما فيه من هناءة عارضة واستبقت « محسن » الى جانبها قليلاً ، وطغى عليها التأثر فبكت ، ثم قبلته وأبت ان تسترد منهُ منديلها الضائع بعد ان اعترف لها انهُ كان عنده ، وإذ تفيض الـكلمات على لسان الفتى بالالم والعتاب ، تمسك بيده المرتجفة وتقول له — ما لـكش حق يا محسن ...! برده كده ؟ اخص عليك ! لو كنت مش مهم عندي ما كنتش أعلمك بيانو . . .

ومقياس مكانة « محسن » عندها انها تعلمه البيانو !! وهذه العبارة في سذاجتها تدل على ان فـكرة الحب كانت ابعد ما تـكون عن ذهن « سنية » ولـكنها احست حياله في هذا المشهد عاطفة وقتية زادها التأثر شيئاً من الحدة والقوة ، ولـكنها بعد كل شيء عاطفة لم تدم اكثر من الهنيهة التي استغرقتها ، ولو ان الفتاة في مثل هـذه اللحظة كانت اكثر ما تـكون استعداداً لتلبية نداء الحب لو طرق سمعها هذا النداء . ولـكن « محسن » ما يدريه بهذه الشئون وهو الطفل الصغير !!

على ان «سنية» ما كادت تلمح الرجل في « مصطفى » . . حتى علقت بهِ وحتى اصبح لها شغلاً شاغلاً . والفصل الذي يقص علينا فيه المؤلف تدرج علاقة الاثنين وبدء تعارفهما من اروع فصول القصة ومن ادقها . وفيه هـذا التحليل الدقيق لعواطف الفتاة التي يختلج في قلبها شعور متباين

غامض، بعضه من الرضا وبعضه من الغضب، والبعض منه مزيج من الاثنين معاً، واول ما يلفت نظر «سنية» في «مصطفى» انه على النقيض من «سليم» لا ينظر الى شرفتها على طول مكثه بالقهوة المقابلة!! كأن النظر الى الشرفة فرض محتوم وواجب لا بدَّ من أدائهِ !! ولماذا بالله ينظر اليها وليس كسليم ممن يتصيدون النساء من النوافذ او في عرض الطريق؟ ولكن هذا الامر عند «سنية» خطير مهول فاهتمت له كل الاهتمام. ولكأني بها وقد غاظها اهمال «مصطفى» لشرفتها أرادت ان تجبره على الاهتمام بها قسراً وعنوة «فجعلت تلبس أبهر اثوابها الواناً وتذهب الى البيانو فتضرب عليه بعد ان تكون قد فتحت كل نوافذ الغرفة عسى ان يبلغ الصوت الطريق. فاذا ما انتهت وقفت بالنافذة وهي تتظاهر بمعالجة فتحها او غلقها في قوة وجلبة. بل بلغ بها الامر ان بات لا يحلو لها أن تنادي جاريتها بصوت عال، او الحديث او الضحك المرتفع الا قرب النافذة».وكانت هذه الاعمال من الصراحة والوضوح بحيث تنبهت لها «زنوبة» فحدث بين الاثنتين ذلك العراك الذي انتهى بالقطيعة بينهما، بل بين اهل المنزلين المتجاورين. او على الاصح بين «الشعب» ومعبوده!!

وبلغ صوت الشجار الى مسامع «مصطفى» فرفع رأسه الى الغرفة والتقت العينان «فخفق قلب سنية بشيء من السرور الخفي». لقد نجحت اخيراً: وانظر اليها الآن وقد اصبح قلبها موطن عواطف مختلفة متباينة تمر على صفحته في سرعة وعجلة كأنها ومضات البرق الخاطف. وهذا احساس من الابتهاج يغمرها... ثم يمضي فيخلف اثراً من الخجل وراءه... وها هي تتصنع الحدة والغضب وتتساءل: لماذا ينظر هذا الرجل الى الشرفة، وبأي حق؟ كأنها لم تسع الى هذه الغاية جاهدة. ثم تتجه الى الشرفة «لا لشيء سوى ان تعلم اذا كان هذا الشاب الجسور ما زال ينظر اليها او الى الشرفة؟»وتقترب من النافذة بعد ان تصلح من شعرها امام المرآة..ولكن يا لخيبة الامل..لقد انصرف الشاب!! وأحست الفتاة بالالم والغيظ«وذلت كبرياء الانثى فيها فشعرت كأن الدموع ستنحدر من مآقيها»

هذا الوصف لهذا التضارب فيما تحسه «سنية» في الموقف الذي اجملته لك من ابدع ما في القصة كلها من الصدق في التحليل والدقة في ابراز عواطف أبطال الرواية واضحة مجلوة في اجمل صورها على ما في هذه العواطف العارضة من التعقيد والتباين. وأحب لك ان تقرأ هذا الفصل كاملاً في مكانه من القصة

وتلتقي النظرتان مرة اخرى وترى «سنية» بسمة عذبة تحييها على شفتي «مصطفى» فتنعم بها ليلتها، وما تكاد تشرق عليها الشمس حتى تشرق على فتاة اخرى تفتحت امام عينيها مغاليق السعادة والهناء، وانها لتحلم احلاماً هنية عذبة، وتحس انها محبة محبوبة، ويداخلها هذا الزهو الذي يداخل قلب «حواء» اذ تشعر ان ثمة من رجل يترقبها ويهتم بها فتختال عجباً وتيهاً على بنات جنسها، وللمرة الاولى ترى نفسها أجمل مما كانت

وتقف امام المرآة طويلاً لتكتشف جمالها الساحر الذي لم تفطن اليه الاَّ اليوم!!

ويخال اليك وانت تقرأ هذه العبارات التي يعرض فيها المؤلف لتحليل ما تحسه بطلته وما تشعر بهِ ، انك امام صورة رائعة من صور الحياة الحقة لا شخصية من شخصيات كتاب او بطلة من أبطال قصة . وهذه الدقة في التحليل تبلغ هنا حد المعجزة

﴿ زنوبة ﴾ فتاة عانس جاوزت الاربعين من عمرها ولما تجد بعد الزوج الذي تنشده والذي هو امل الفتاة ومنتهى ما تصبو اليهِ اطماعها ، تقدم اليها بعض الخطاب ولكنهم ما كادوا يرونها وما هي عليهِ من القبح والدمامة حتى فروا هاربين ، وتقدم رجل يطلب يدها مباشرة من اخيها « حنفي » واراد هذا ان يطمئنهُ على جمال اخته فقال له انها تشبههُ تماماً ، ويصف لك المؤلف هنا قبح وجه « حنفي » وصفاً تشمئز منهُ ، كما يشمئز منهُ طالب الزواج فيمضي على غير عودة ، وبهذا الوصف يعطيك المؤلف صورة عن « زنوبة » لست ادري ان كان قد ظلمها فيها ولكن انصراف الخاطبين الذين رأوها يؤيد هذا الوصف ويؤكده

وفي شخصية « زنوبة » تجد هذه الصورة الدقيقة للنسوة الجاهلات اللواتي يلجأن الى السحر والسحرة لتحقيق اطماعهن تارة ، وللكيد لاعدائهن تارة اخرى ، كما تجد فيها هذه المرأة البلدي.... التي لا تتورَّع عن ضروب كثيرة من الحيلة المكشوفة والوسيلة المستهجنة للفت نظر الرجل وما دام ان الزوج لم يأت اليها فلا بأس من ان تذهب هي اليهِ وتتصيده ولو من عرض الطريق . وما أشبهها « بسليم » من هذه الناحية !! فاذا افلت الرجل مع كل هذا من يديها وفازت بهِ فتاة اخرى انقلبت لبؤة مفترسة وقد وقع الصيد في شراك الغير بعد ان ظنت انهُ من نصيبها وحدها ، ولا تجد هنا ايضاً غير السحر والسحرة تستعين بهم على الكيد لمنافستها بل وللرجل الذي لم يتنازل ويرضى بها حتى لتسحر له ليموت ، ثم تدس للاثنين معاً عند افراد « الشعب » وتتحدث عن « سنية » كما يتحدثون عن بغيٍّ تعرض نفسها عرض السلع على الرجال وتنسى بأنها لم تتورَّع عن هذا ، ويبلغ بها الحقد ان ترسل خطاباً غفلاً الى والد « سنية » تتهم فيهِ فتاته بما تتهمها بهِ من سوء السلوك وفساد الخلق . فلما لم تغن كل هذه الوسائل والحيل عمدت الى معاكسة العاشقين تلك المعاكسات الصبيانية التي لا تزيد عن قذفهما ، وهما في شرفتها تحت نافذتها يتناجيان ساعات من الليل ، ببقايا الخضر والفاكهة وقد تسهر الليل طوله مكبة على عملها بنشاط تحسد عليهِ !

على ان « زنوبة » في كل هذا لا تخرج عن طبيعتها الساذجة ولا عن نداء الغريزة التي تضج بين جوانبها ، فالخيبة المرة اشعلت اتونها وصهرت في قلبها عواطف الرحمة والحنان وعادت الفتاة اشد ما تكون الماً ممضاً ويأساً قاتلاً ولم تجد عزاء الا في السحر فهو معينها على تصيد « مصطفى » فلما أخفق افلا يكون عند حسن ظنها بهِ ويعينها على قتلهِ ؟! ولكن خاب أثر السحر في الاولى والثانية ولم ينفعها « الهدهد اليتيم » ولا « تراب المقبرة » فلم تجد غير « صفيحة الزبالة » تستعين بها وتجبروك وأمرها لله !!

والمرأة في مثل حال « زنوبة » لا يؤلمها اكثر من ان تلوّح لها بمسألة السن ، وان كان النساء جميعاً في هذا سواسية ، فما كادت « سنية » تذكرها لها حتى شبت الحرب واعلنت «زنوبة» النفير العام ، واتخذت من « مبروك » اركان حرب ينفذ لها الخطط ويرسم معها طرق الدفاع والهجوم

على ان المؤلف يسخر من هذه المسكينة ، واني لأحس بكثير من الشفقة والعطف عليها ، سخرية مرّة ولكأنها سخرية القدر الشامت العاتي اذ يقول « لولا زنوبة لما اتجه التفات سنية الى قهوة الحاج شحاته .... ولما رأت مصطفى ... » ويعني ان حركات زنوبة في ادمان النظر الى القهوة وفي التطلع الى مصطفى كانت السبب في لفت نظر سنية . فهو يسخر من المسكينة ومن حركاتها التي كانت من الوضوح بحيث تنبهت لها غريمتها ، ثم يطعنها طعنة قاتلة اذ يضع يدها على سر هائل لعلها لم تدركه ، وانّى لها ان تعلم ان بسببها هي نظرت سنية الى القهوة ورأت مصطفى ثم كانت هذه العلاقة التي هدمت آمال «زنوبة» وذرتها مع الرياح !!

لو طالعت بطلتنا هذه الفقرة لكان للمؤلف الكريم نصيب وافر من كيدها وسحرها . . . . . ولأبقت له من صفيحتها المباركة نصيباً طيباً . . . .

«حنفي» هذه هي الشخصية التي لا شخصية لها ، واعني ان «حنفي» ليست له هذه «الذاتية» التي تحسها لباقي افراد الرواية ولو انه مات في مستهل القصة لمضت الحوادث في سيرها كما مضت ، غير اننا كنا نفقد بذلك هذه الروح الفكهة الطيبة التي نستروحها في «حنفي» وكنا بهذا نخسر خسارة جسيمة لا تعوّض و « حنفي » هو الابتسامة التي تشع في ثنايا القصة كلها وتملأها حياة ومرحاً ونفيء الى ظلها من حين لحين ، نضحك من سذاجتها ونستريح لدعاباتها الحلوة ، ونقف عندها هنيهة لنسخر منها مع الساخرين ثم نمضي

«حنفي» هو رب البيت واكبر الجميع سنّاً ولكن ليس له بينهم جميعاً سلطان ولا نفوذ ولا له أمر ولا نهي فهو رئيس ولكن رئيس شرف !! ولعلّ هذه التسمية من أبدع ماوفق اليه الاستاذ توفيق الحكيم في روايته وفي تحليله ووصفه لابطاله ، وقد اختصر لك فيها كل ما يمكن ان يقال عن هذه الشخصية وعن مكانها بين افراد القصة . و «حنفي» في المنزل لقبه « أبو لحاف » وكنيته في المدرسة وبين الطلبة « أبو زعيزع . . . » همه من الحياة ان ينام ، فما يكاد يدخل المنزل حتى يهرع الى السرير ، ولا يترك السرير — مكره اخاك لابطل — الاّ ليأكل ، وما ينتهي من الاكل ، وقد يختزله اختزالاً ، حتى يسرع الى السرير مرة اخرى ، وعلى هذا النمط يعيش ، ويخيّل اليّ انه لو استطاع ان يتخذ له سريراً في المدرسة يلقي منهُ دروسه على الطلبة وهو تحت اللحاف ... لعاد أهنأ الناس بالاً وأسعدهم حالاً

ذهب مع «محسن» ليودعه عند سفره الى اهله وتطوّع لاحضار تذكرة السفر ، وعلى مقربة من شباك التذاكر وجد مقعداً جلس عليه ليستريح قليلاً فنام ... وفوّت على محسن القطار !!

وهذا المشهد على قصره يعطيك فيه المؤلف ، كما ترى ، صورة بارزة واضحة للناحية الغالبة على هذه الشخصية ويتخير لذلك انسب الفرص التي تؤدي الى الغاية التي يرمي اليها من تصوير أبطاله تصويراً دقيقاً حتى في مثل هذه اللمحة الخاطفة . وتلك بعض نواحي الاعجاز والمقدرة في هذا المؤلف

واذا اردت ان تجد مصداقاً لما قلته لك من ان «حنفي» ليست له «ذاتية» تحسها ولها شيء من الخطر او الشأن فاليك المشهد الذي يقف فيه بطلنا حكماً فصلاً بين « سليم » و « عبده » اذ يتخاصمان فلا يجد غير هذه الجملة .

— معاك حق

ينقل بها القول تارة الى «سليم» وتارة الى «عبده» حتى يقلب الموقف كله هزلاً وعتباً «ويعلم الجميع ان حنفي هازل لا يرجى منه» ويغضب سليم قائلاً

— بيت هلس ! بيت مالوش كبير ! لكن الحق عليّ اعتمد على سي « ابو زعيزع»

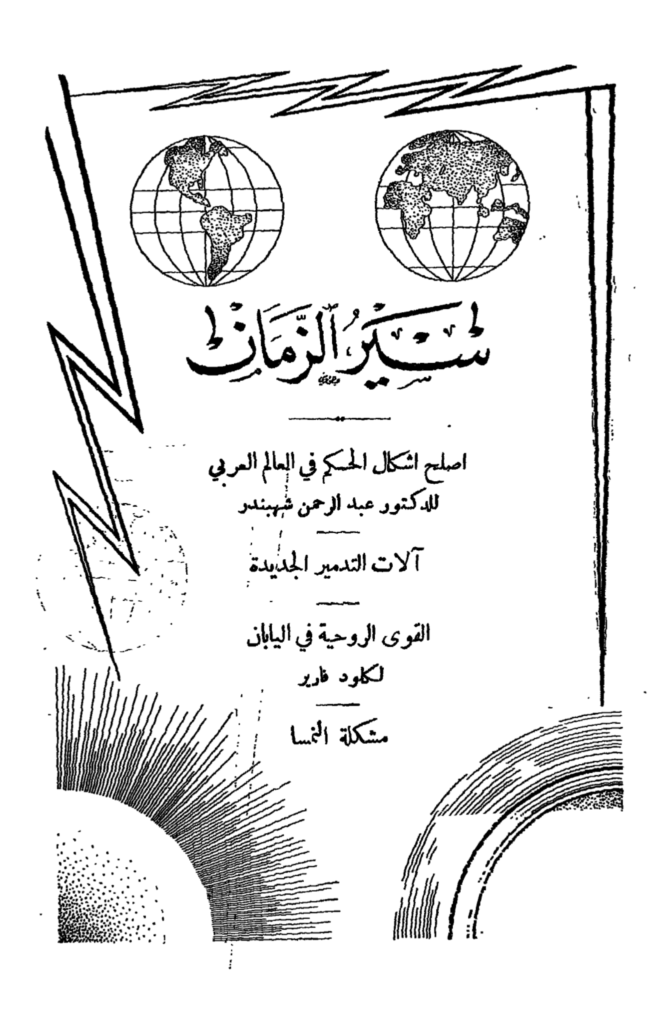
ويضحك الجميع حتى « محسن » من عمه ، وحتى مبروك من سيده . واحب لك ان تقرأ هذا المشهد الطريف في موضعه من القصة في الجزء الثاني ، فهو من أبدع مشاهد القصة كلها ومن أدقها تصويراً لا لشخصية «حنفي» وحده ، بل لناحية من حياة « الشعب » جميعاً

﴿ مصطفى ﴾ تقف شخصية « مصطفى » وسطاً بين شخصيتي « محسن » و « سليم » وتحفظ التوازن بينهما ، فليس هو بالطفل الساذج الغر ، ولا بالرجل الجريء القوي . طلب العلم حيناً في القاهرة كغيره من ابناء الريف وعاش هذه الحياة التي ليست جدًّا خالصاً ولا فراغاً ولا لهواً خالصاً، حياة متزنة هادئة فيها هذا الانكباب على الدرس والتحصيل، وهذا العبث الذي يتورّط فيه الشباب من حين لحين ولا يجدون منه مفرًّا ارضاءً لغريزة الجنس فيهم ، وهو عبث متكلف متصنع لا شبع فيه ولكنه اضطرار وحاجة

مات والد «مصطفى» وخلف له ثروة لا بأس بها ، فعاد الى القاهرة يستعيد فيها ذكرياته الخوالي وما أتفهها ، ولعله لهذا لم يجد غير القهوة المواجهة لمنزله يقضي فيها اغلب ساعات النهار يتتبع ما يعرض امامه من المشاهد المتتالية في اهتمام قليل ويضحك من « سليم » ومن حركاته ، ولست أدري لم اغفل المؤلف ان يقول « ولولا سليم لما تنبه مصطفى الى الشرفة والى سنية ...»

نظر « مصطفى » فتاتنا « سنية » فعلق بها من النظرة الاولى وأدرك بفطرته الصادقة ان « سليم » انما كان يجلس في القهوة من اجلها وأحسّ ان انصرافه انما يرجع الى صدوف الفتاة عنه، وخشي ان يكون له مثل هذا الحظ السيء لولا ان « سليم » ليس بالرجل الذي يعجب المرأة « وأخذ يستعرض صور سليم المضحكة ... ثم اخذ يقيس نفسه به الى ان خرج بنتيجة في صالحه ... انه ليس مثله ولا نظيره ، ولو كان كذلك لألقى بنفسه في النيل من زمان ... »

« البقية في باب الاخبار العلمية »


سير الزمان
اصلح اشكال الحكم في العالم العربي
للدكتور عبد الرحمن شهبندر
آلات التدمير الجديدة
القوى الروحية في اليابان
لكلود فارير
مشكلة النمسا

اصلح اشكال الحكم

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

لقد عرضنا المذاهب السياسية بشيء من الافاضة ووضعنا اصحابها في الميزان لنزوّد جمهور القراء في العالم العربي بخبر الاطوار السياسية العظيمة التي طرأت على الدول والحكومات حتى اذا حانت ساعة العمل وجد الزعماء في الاوساط التي يشتغلون لها شيئاً في القابلية الفردية والتهيؤ العام ، لان البلاء كل البلاء ان يتجه الشعب الى الغاية التي ينشدها ويجهل الطريق الموصلة . وفي وسعنا الآن ان نتساءل ما هو اصلح شكل في الحكم يلائم العالم العربي ؟ اهو الشكل العصامي الديموقراطي ام العظامي الارستوقراطي ، الاستبدادي الاوتوقراطي ام الشوري النقابي ، الشيوعي اللاوطني ام الفاشستي المتطرف في الوطنية ؟ ولو كان العالم العربي على مستوى واحد في الثقافة والاجتماع وفيما يتمتع بهِ من حرية ويمارسه من استقلال لهان الجواب ولكن مستواه متعرج متضرس ، ففيهِ من سما في المدنية حتى كاد يسامت الغرب وفيهِ من لا يزال في الغور كأنهُ من اهل الاعصر الخالية ، وبعضه مستقل استقلالاً تامًّا ناجزاً وبعضه الآخر لا يزال في ربقة الاستعمار ، ولكن الخوف من وثبته وهو على علاته وعلى ما فيهِ من تنابذ وما يعانيه من نقص تنظيم لم يعد وهماً بل هو خوف من الشيء الواقع المحسوس حتى ان عالماً مشهوراً من علماء التاريخ وهو المستر (اوسكار برونتج) استاذ التاريخ في جامعة (كامبردج) يعد العرب واليابانيين الخصمين اللدودين للتوسع الاوربي [١] ولم تعد الدول الاوربية ذات المصالح السياسية والاقتصادية في الشرق الاوسط تخفي ما يساورها من الهموم من هذه النهضة العربية في حين تخطب الدول الاخرى ودّ هذه النهضة وتستميلها اليها تقوية لموقفها السياسي الشرقي وتأييداً لنفوذها العام

وفي وسعنا الآن ان نقول بصورة مجملة تنطبق على احوال هذا العالم الفسيح الاجتماعية وعلى الدرجة السياسية التي بلغها ان الشكل النيابي الصحيح القائم على الانتخاب الحرّ — جهد الطاقة — هو الشكل الذي يجب ان يصر عليهِ الاهلون حيث هم مستقلون استقلالاً مقيداً بالانتداب او الحماية او المعاهدة المصطنعة او غير ذلك من التدخل الاجنبي في شؤونهم ، والاستبدادي العادل

---

(١) A History of the Modern World, p 840

او النير حيث هم يتمتعون بالاستقلال التام . وقد حملنا على هذه النتيجة الاعتبارات الآتية وهي ان البلدان العربية التي للاجنبي عليها سيطرة متفاوتة لاسباب مختلفة والتي يحاول بطرق الدهاء والادارة والشدة والرخاء ان يستثمرها في آخر الامر لنفسه هي بلدان معرضة لزوال سلطانها القومي وما يجر اليهِ من تخلق اهلها بأخلاق اهل المستعمرات الصرفة ، وكل ذلك نذير الانقراض القومي، بيد انهذه البلدان لاسباب سياسية اجتماعية ودواع دولية اقتصادية تتمتع بشيء من حق التصرف الداخلي ولو ظاهراً ، ففي مثل هذه الامراض البدهية يتعذر كثيراً على الشعب ان يعمى عن الخطر المحدق به اللهمّ الاّ اذا كان من الانحلال وضعف الادراك بحيث لا يرتجى برؤه. لا جرم ان الادراك العام في الامة الراقية — بل فيما هو دونها — شديد التأثر بما له صلة وثيقة بحياتها او بمماتها وهو الشعور الدال على درجة وعيها ويصح للزعماء ان يعتمدوا عليه ويتخذوا منهُ سلاحاً ماضياً يحاربون بهِ مرض الاحتلال ولو موقتاً ، وينطبق هذا الكلام خصوصاً على البلدان التي لا تسمح لها احوالها ، بانتهاج المسالك المؤدية الى الاستقلال مباشرة بل هي مضطرة الى التوسل «بالمناورات» السياسية وغير ذلك من الطرق البطيئة الى ان تحين ساعة العمل ، ونحن لم نصل الى هذه النتيجة بطريق النظر بل لدينا عدد من الحوادث التي جرت في السنين الاخيرة في بلدان الاحتلال والحماية والانتداب تحملنا على هذه النتيجة ايضاً، حتى ان قطراً مقموعاً كالقطر الجزائري شغرت فيهِ منذ سنوات بعض المقاعد البلدية التي يجلس عليها الاعضاء بالانتخاب الشعبي فرشحت له الحكومة بعض رجالها ولكن الاهلين على ما انتابهم من ارهاق يعانونهُ منذ قرن كامل اصروا على مرشحهم حتى فازوا بانتخابه فردته الحكومة بما تمحلته من اعذار وأمرت باعادة الانتخاب ولكن الاهلين نجحوا في المرة الثانية ايضاً . ولا يعد اخفاق الحكومة هذا شيئاً مذكوراً بجانب اخفاقها في الانتخابات المتكررة التي جرت في سورية ، وحيثما اصرّ الشعب على اثبات ارادته كانت النتيجة نجاح مرشحيه الاّ اذا ارتكبت الحكومة الخطيئات الادارية البدهية فأغلقت المجلس مثلاً او اوقفت المرشحين او غير ذلك من الاعمال التي خبرها الشرق في ادوار مختلفة . ولا نخال حكومة حريصة على سمعتها تقدم على اعلان افلاس سياستها بهذه الصورة المزرية ، وقد تضطر اذا ما تورطت في التدخل الى عزل من ورطوها من عمالها او الى نقلهم تبرئة لنفسها كما حدث في انتخابات المجلس النيابي الاخيرة في سورية

ثم ان الاجنبي المحتل يدير شؤون البلاد عادة بواسطة نفر من ابنائها يضمن لهم منافعهم الخاصة ويحقق لهم غاياتهم الشخصية وقد يطلق يدهم يتصرفون في الامور كما يشاؤون ضمن الحدود التي رسمتها مصالحه فيجعلهم سلاحاً يحارب بهم الصادقين المخلصين ، ولكن انى لهُ استغواء سائر الشعب واستجلاب بقية افراده بالرشوة وعددهم يربي كثيراً على وسائل اغرائهِ ، فلا عجب ان يكون حكم المجموع والحالة هذه اقرب الى الصحة لانهُ ابعد عن المؤثرات النفسية الذاتية ويصدق فيهِ القول

المأثور « اصوات الخلق اقلام الحق » ، وتكون الطريقة النيابية اذن ترجمان الامة الصادق ومقياس شعورها المضبوط ، ويدفعها تدخل الاجنبي الى زيادة التمسك بمن اولتهم ثقتها . هكذا دلتنا التجارب في البلدان التي تتبعنا شؤونها في السنين الاخيرة ، ولا مفر للحاكم الوطني اذا كان مستبداً على عهد الاحتلال من الالتجاء الى المحتلين في آخر الامر مهما حاول الابتعاد عنهم لانه يجدهم عوناً لمصلحتهِ الشخصية وسياجاً يحتمي بهِ لدفع هجمات الخصوم من ابناء البلاد

***

ومن اهم الحوادث التي حدثت اخيراً وفيها ما يؤيد الحكم النيابي في الاحوال التي ذكرناها ان المجلس النيابي الاخير الذي انتخب في سورية كان عدد الاعضاء الوطنيين فيهِ سبعة عشر فقط والباقون وعددهم يناهز الاثنين والخمسين هم ممن يدعون « معتدلين » وتظن السلطة المحتلة انهم لا يخالفون لها امراً وقد ايدت انتخابهم برؤوس الحراب واطلاق البنادق ، فلما عرضت عليهم في المجلس عقد معاهدة على اساس تجزئة سورية وتقطيع اوصالها لم يستطيعوا مجاراتها بل خيبوا آمالها وسودوا وجه من زعم من عمالها انهم سيكونون اداة عمياء في يدها ، والذي حملهم على هذا الموقف المفاجيء اختبار الرأي العام وشدة وطأتهِ من جهة وخطر التجزئة القتال من جهة اخرى ، ولعلَّ التعديل الاخير الذي احدثهُ المفوض السامي الفرنسي فيما يدعى « دستور » لبنان من احتفاظهِ بتعيين نحو ثلث اعضاء المجلس النيابي مع تعيينهِ رئيساً للجمهورية ذا سلطة واسعة يستمدها من مستشار افرنسي كل ذلك ادراكاً من حكم اللبنانيين العام ، وان ادعت السلطة انهم يهيمون بحبها

اما اذا كان القطر العربي متمتعاً باستقلاله التام فخير ما يناله ان تتاح له يد مستبدة عادلة تنقذه من الفوضى التي تتخبط فيها اكثر الامم الحاضرة خصوصاً من كان منها مثلنا حديث عهد بالشؤون الدستورية ولم يتجهز بعد ابناؤه بالتربية التي تؤهلهم لمثل هذا الحكم الدقيق ، واذا كانت المانيا وهي التي تقود الغرب في كثير من مقومات الثقافة والحضارة قد اخفقت في الديموقراطية اخفاقاً معيباً فلا جناح علينا ان نعترف بهذا القصور ونحن لم ندخل حلبة السياسة العربية الاَّ منذ اوائل القرن العشرين ، ولم نعانِ الحكم النيابي الاَّ منذ الانقلاب العثماني في سنة ١٩٠٨، وفي الحق اننا في اقطارنا المستقلة لفي اشد الحاجة الى اليد الحازمة المدركة لتسير بنا الى الامام على رغم اهل الرجعى منا كما يسير موسوليني بالايطاليين . وانا اسأل في هذا المقام كل من عانى شؤون الادارة والحكم أيرى لمملكة الحجاز ونجد مجلس نواب من الغطغط ومطير والفقير وحرب ام ملكاً حازماً خبيراً بشؤون البدو كعبد العزيز بن سعود ؟ الا تقضي الديموقراطية في تلك الانحاء الابتدائية بتربع الغوغاء في دست الحكم وانهزام الاختبار والاخصاء والتمرين والحصافة انهزاماً شنيعاً لا يلوي على شيءٍ ؟ ولو كان هذا الملك النابغة مسلحاً بسلاح التربية الحديثة ومشبعاً بروح النهضة التي تسير عليها الامم الحية ما اضاع

هذه الفرصة السانحة لالتفاف زعماء العرب حولهُ واتخاذهم الاستقلال الذي يتمتع بهِ مركزاً لبث الدعاية العربية في انحاء العالم. ومن ادعى دواعي الاسف ان جميع الجهود التي صرفت لاستنهاضه قد اخفقت

***

اني اذكر جيداً اننا لما كنا نعاني حشرجة الموت تحت كابوس السلطان عبد الحميد كنا نظن ان مجرد اعلان الدستور واطلاق حرية الانتخاب وترك المنابر للخطباء يتكلمون كما يشاءون ينعشنا ويعيدنا الى مهيع الحياة، وفي شهر تموز — يوليو — من سنة ١٩٠٨ اعلن هذا الدستور بقوة الجيش وبتأثير الاوهام التي تسلطت على السلطان فكان مبدأ انقلاب خطير في جميع بلدان الشرق المتوسط لما عقبه من الثورة في الافكار والاوضاع، ولا انكر ابداً ان بعض الانتخابات دلت على شيء من حسن الاختيار ولكنها ارسلت بالاجمال الى مجلس النواب اناساً لا يختلفون عن العوام كثيراً، واصعدت المنابر بعض الخطباء الذين حولوا قضية الدولة السياسية الخطيرة الى البحث في الحجاب وشكل الغطاء الذي يجب ان يسدل على المرأة، فبينما كانت الدول المعظمة تبحث في بناء الدردنوطات للحروب القادمة وكيف يجب ان يكون طولها وثخانة دروعها. كان هؤلاء الخطباء يقيسون الاحزمة التي يجب ان تشد بها اوساط بنات المستقبل وكثافة البراقع التي يجب ان تغطي وجوههنَّ! والظاهر ان الوطنيين الزائفين في عصر التدجيل مثل العملة الزائفة في عصر التجارات المضطربة يحلّون محل الصالحين من ابناء البلاد

***

وعلينا ان نعترف هنا اعترافاً صريحاً وان آلمنا ونبهنا الى ثقل اعبائنا وهو ان شدة التباين في تربيتنا السياسية الاجتماعية وعمق الهوة السحيقة بين افرادنا وعدم سيرنا على منهاج واحد في بيوتنا ومدارسنا ومكاتبنا وانقسامنا الى طبقتين اثنتين متطرفتين عامة وخاصة لا وسط بينهما كل ذلك يتطلب منا ان يكون امرنا بيد سلطة عادلة نيّرة منا وفينا والينا تحملنا على الاصلاح رغم انوفنا وتجرنا بالقوة في السبل المنتجة وتنحينا عن السبل العقيمة. وأنني لأذكر مع الاسى اولئك « الدكتاتوريين » النفعيين من الشرقيين الذين اظهروا في بعض البلدان العربية المحتلة من الجرأة والاستبداد لتأييد مصلحتهم الخاصة ومصلحة الاجنبي من فوقهم ما لو اظهر جزءاً منه فقط زملاؤهم في البلدان العربية المستقلة لمصلحة الشعب لنالوا مرتبة المصلحين المنقذين

والارتقاء نوعان، نوع هادىء سلس يقوم بهِ مجموع الشعب ويكون للافراد عموماً سهم في احداثه، ونوع مضطرب جموح تجر الشعب الى مهيعه اقلية حازمة هي الطبقة المختارة. ففي النوع الاول تتوقف الخطط التي تختطها الحكومات في الادارة والسياسة على المرتبة النشوئية التي بلغها الشعب في حياته المشتركة. وتكون طبيعة القوانين التي تسنها مجالسها التشريعية متناسبة مع هذه المرتبة، وتكون الجماعة التي تؤلف الدولة متجانسة في قرابتها وثقافتها والمثل العليا التي تنشدها،

وفيها نزعة للتبدل والتكيف والتجدد بحسب الطوارىء في ناموس الارتقاء ، فتأتي الديمقراطية في مثل هـذه البيئة بأطيب الثمرات خصوصاً في أزمنة السلم العادية ، وعلى العكس من ذلك يكون الارتقاء الجموح الذي يجرّ اليه الشعب جرًّا ولا سيما متى كان افراده متباينين في تربيتهم ، لم يتعارفوا تعارفاً اجتماعيًّا سياسيًّا ولا اطلع الواحد منهم على عقيدة الآخر ولا امتزج بهِ امتزاجاً يمكنه من ألفته وألفة عاداته فالديمقراطية في مثل هذه الحال تصبح كما قال «الموجز في علم الاجتماع» وبالاً على اصحابها فلا تعدو ان تكون ادارة الضابط الصغير متحكماً في اتباعه من الجنود

والبلية كل البلية ان يكون الشعب وان تجانس سواد افراده وتشابهوا في عقيدتهم ومثلهم العليا الاَّ ان الجمود هو صفتهم المتفوقة فالديمقراطية في مثل هذه الحال هي تحكيم الاكثرية العظمى الجاهلة من سواد الشعب في النخبة المنتخبة من ابنائه . هنا تسنح الفرصة للذي يجادل في نسيج الحجاب ان يتفوق على الذي يبحث في حديد المدرعة . ووحدة مثل هذه لن ينقذ الشعب منها غير يد الزعيم الحديدية الحازمة

***

فمن الخطل السياسي الاجتماعي العظيم اذن ان يتوهم احد من رجال النهضة في العالم العربي انه في حيز الامكان تأليف دولة عربية مركزية ديمقراطية تضم منذ الآن بين دفتي دستور واحد دمشق والكويت وعنيزة والعسير والمكلا فهذه بلدان وان جمعت بينها اللغة والعقيدة وتشاركت في كثير من اطوارها التاريخية الاَّ ان العادات والتقاليد المحلية واختلاف درجة الثقافة العامة فيها وما الى ذلك من مقومات العقل الاجتماعي الذي لا بدَّ منه لتأليف الوحدة السياسية جعلت شقة الخلاف فيما بينها أبعد من ان يضمها مجلس تشريعي واحد او يلم شتاتها ارادة سلطانية واحدة

وغير نكير ان الدولة العثمانية بسطت سلطانها على جزءٍ كبير من هذه الاقطار اجيالاً تملي عليها شيئاً من ارادتها من وراء البوسفور لكن الاختبارات المديدة علمتها ان تجعل الادارة فيها من الوجهة العملية على طريقة «اللامركزية» فكانت (صنعاء) كما كانت (حائل) متمتعة باستقلال عملي لاغبار عليه ، بل نحن في سورية والعراق على شدة امتزاجنا بالترك واختلاط سدانا بلحمتهم كانت ادارتنا عند التطبيق بعيدة عن المركزية وان ارتبطت بالاستانة مباشرة . وهذه دروس عملية ثمينة ستكون موضع عناية العاملين في القضية العربية في السنين القادمة

ثم من الجهة الاخرى يستطيع العراق وسورية مثلاً منذ الآن ان يؤلفا دولة مستقلة ذات حوزة سياسية واحدة بالنظر الى التشابه فيما بينهما واشتباك مصالحهما خصوصاً ان العراق من غير سورية قصر بلا باب وسورية من غير العراق باب بلا قصر . ومما يدعو الى التفاؤل ان كبار الرجال في هذين القطرين الشقيقين هم كما كانوا في عهد الملك فيصل على تفاهم واستعداد لتحقيق هذه الامنية الغالية وتقديم المثال العملي الصالح لتقتدي بهِ الاقطار العربية الاخرى

آلات التدمير الجديدة

او العلم والحرب المقبلة

العلم لا ينظر الى الحرب ولا الى السلم . فهو يعطينا يد الاسمدة ويد اخرى المفرقعات . والمفرقعات تستعمل للهدم والقتل في الحرب ولكنها تستعمل لحفر الانفاق وفتح المحاجر وشق الترع في زمان السلم والفولاذ لا يحصر استعماله في صنع الاسلحة والاسنة والمدافع بل يستعمل كذلك في صنع المحاريث والسكك والسيارات والحصادات . فالعلم بحد نفسه لا يخدم اله الحرب دون اله السلم وانما يعود الفرق الى نفوسنا وشهواتها وتثقيفها ومثلها الادبية

صرّح المستر بولدوِن زعيم المحافظين ، في اواسط السنة الماضية ، ان العالم يستعد لحرب اخرى «يفتك فيها بالجمهور غير المقاتل فتكاً عامًّا» . ويرى المستر ولز الكاتب الانكليزي الشهير، ان الحرب قد لا تتأخر عن سنة ١٩٤٠ اما جمهور المتنبئة ، فطائفتان طائفة ترى ان ولز بكّر ميعاد الحرب القادمة واخرى أشد تشاؤماً تذهب الى ان الحرب واقعة قبل الميعاد الذي ذكر . اما السر فيليب جبز الصحافي الحربي والكاتب الانكليزي المعروف ، فيرى ان كواهل الامم مثقلة بالديون ، فلن تقدم على خوض غمار حرب جديدة ، ولكن الملتفت الى شؤون الدول العامة ، لا بد ان يقلقهُ ، ما هو ثائر بين الامم من العداوات الجنسية والعنصرية ، والنزعات القومية العنيفة

فلنفترض ان الحرب وقعت غداً ، الاربعاء ٢٠ فبراير سنة ١٩٣٤ فماذا يجري ؟

اذا نشبت حرب غداً بين امتين من الامم الصناعية الكبيرة ، عبّأت كل منها آلات الدمار تعبئة سريعة . نعم لا بد من تعبئة الجيوش ، إذ لا بد من الجنود والضباط لاستعمال آلات الدمار الحديثة، ولكن قلب التعبئة ، يكون تعبئة الآلات ، وفي مقدمة هذه الآلات ، الغواصات والدبابات المصفحة والطيارات . فكل آلة من هذه الآلات ، تستطيع اليوم أن تسير بسرعة لم تعهد في خلال الحرب الكبرى او بعيد انتهائها . وكل منها مجهز بوسائل للهجوم والدفاع ، تجعلها اقوى فعلاً مما كانت في الجبهة الغربية سنة ١٩١٨

ومما لاريب فيهِ انهُ رغم الازمات الخانقة لم يبل النبوغ والابداع الانساني بازمة ما ، اذ لست تجد فرعاً من فروع الخدمة العسكرية تمكن «مكنكتهُ» Mechanization أي جعل الماكينات صاحبة المقام الاعلى والاثر الاقوى فيهِ — الاَّ وقد أضفى عليهِ الباحث العلمي والمستنبط سمة من نبوغهِ وابداعهِ

***

ان ما يتنبأ بهِ العلماء المحدثون في ميدان الاسلحة العلمية الجديدة والمتوقعة ، يفوق في حقيقتهِ خيال جول فرن الوثّاب . خذ مثلاً الجنرال فولر الانكليزي . فهو يتصور ان العهد المقبل في صناعة الحرب ، سوف يكون العهد الكهربائي ، ترسل في خلالهِ آلات الدمار ، على سطح الارض،

وفي الماء والهواء ، خالية من الرجال ، ولكنها ترشَد بواسطة الاشعة اللاسلكية ، فتطلق المدافع ، وترمى القنابل ، وتنشر المواد الكيمائية ، من دون ان تخطىء

ويقول الكولونل بريدى Brady وهو من اقدم وابرع الضباط في سلاح الطيران الاميركي ، ان كل بلدة تصنع فيها الذخائر الحربية وآلات الحرب سوف تكون هدفاً لقنابل الطيارات ، والقنابل ترسل ارسال الصاروخ من اماكن بعيدة . فاذا نحن تدبرنا ، ان الطيارات الحربية المستعملة الآن ، تستطيع ان تحمل خمسة مدافع رشاشة وتسير بسرعة تفوق ثلاثة اضعاف السرعة التي كانت تسير بها الطيارات المستعملة في الحرب الكبرى استطعنا أن نتصور الدمار الذي تحدثهُ هذه الطيارات في الجماعات الآمنة ، التي وراء خطوط القتال ... كان المدفع البعيد المدى الذي استعمل في الحرب الماضية غير واف من الناحية الاقتصادية ، لانهُ كان يذوب ويبرى ، لشدة الحرارة المتولدة في انبوبتهِ ولكن الوسائل الحديثة ، تمكن ضباط المدفعية من تغيير بطانة الانبوبة بغيرها ، وكذلك تتجدد هذه المدافع التي تستطيع ان ترمي قنابل الى مدى مئات من الاميال . ثم ان الدبابة التي استعملت سنة ١٩١٧ تسير سيراً بطيئاً ازاء الدبابات الحديثة ، المبنية من صلب اقوى وأمتن من صلب تلك وتستطيع ان تحمل مدافع ضخمة — نسبيًّا — وتسير بها بسرعة ٤٥ ميلاً في الساعة او اكثر

وما تقدم نبؤات يتنبأ بها رجال الفنون الحربية ، فلنلق نظرة على آلات الدمار المعروفة الآن . من عهد قريب رؤي منظار غواصة فوق سطح البحر كأنه كرة صغيرة على وجه الماء . ثم ما لبثت الكرة ان كبرت رويداً رويداً حتى اصبحت برجاً مثل الابراج التي ترى فوق دكّات الغواصات وبعد بضع ثوان ظهرت الغواصة على سطح الماء ثم فتح البرج وخرج منهُ بعض الضباط وأُخرجوا طيارة مطوية الجناحين فنُشرَ جناحاها ووضعت على رأس سطح منحدر فجرت قليلاً واذا هي في الهواء في مكان قيادتها طائر ، ووراءه ضابط آخر المراقبة . حوّمت الطيارة مدة نصف ساعة في الجوّ ثم عادت ورست على الماء قرب الغواصة ، ثم رفعت الى الغواصة وطوي جناحاها المنشوران وأعيد الى مخبئها ، ثم غاصت الغواصة تحت الماء ، فغابت عن النظر بغتة ، كما بدت للنظر بغتة كذلك

وكذلك ترى ان الطيارة أُضيفت الى الغواصة . فالغواصة التي تستطيع ان تطلق الطرابيد الفاتكة Torpedoes في الماء ، والطيارات الفتاكة في الهواء لهي سيف ذو حدين حقيقة ، ولا بدَّ ان يكون لها شأن وأي شأن في خطط الحرب المقبلة

ولكنها مع ذلك لا بدَّ لها من ان تكافح عدوًّا لها ، اخرجته معامل الطيارات . هذا العدو هو ما يعرف « بالقارب الطيار » وهو عبارة عن طائرة ضخمة ، المسافة بين طرفي جناحيها ٩٧ قدماً وتستطيع ان تقطع ١٥٠٠ ميل من دون ان تحط على سطح البحر ومجهزة ببطارية من المدافع الرشاشة احدها يطلق ١٠٠ طلقة في الدقيقة وفي استطاعة قنابلها ان تخرق درعاً سميكة لان وزن القنبلة

التي يطلَق منها مائة في الدقيقة رطل ونصف رطل فاذا حلّقت هذه الطيارات استطاعت ان تطلق قنابلها الخاصة على الغواصة فتمزق دروعها ولو كانت بضع اقدام تحت سطح الماء ولذلك دعيت هذه الطيارة المقاومة للغواصات « بالمعقل الطائر »

وكانت القنابل التي القيت من الجو في خلال الحرب الكبرى على لندن وباريس ، تزن الواحدة منها ٦٦٠ رطلاً أما قنابل اليوم ، فلا تقل زنة القنبلة منها عن الفي رطل ! وقد جربت التجارب بقنابل زنة القنبلة منها طنان

ومن القنابل الفتاكة التي صنعت قنبلة تعرف « بقنبلة التدمير » طولها ١٣ قدماً ونصف قدم وقطرها قدمان — اي انها طول رجلين طويلين إذ يندر ان يزيد طول الرجل عن ستة اقدام وثلاث بوصات — وزنتها ٤٣٠٠ رطل منها ٢٠٠٠ رطل من المادة المتفجرة . فنصف هذه القنبلة مادة متفجرة ، مع ان مقدار المادة المتفجرة في قنبلة ما ، لا تزيد عادة عن ١٥ في المائة . فاذا انفجرت هذه القنبلة فتحت هوة في الارض عمقها ١٩ قدماً وقطرها ٥٩ قدماً ، ويمتد اثرها ، علاوة على ذلك ، امتداداً افقيًّا الى مدى بعيد ذلك ان هذه القنابل — قنابل التدمير — تدمر بفعل الهزة العنيفة التي تحدثها في جوار النقطة التي تقع فيها وتحدث تلك الهوة العظيمة

ثم هناك « قنابل الاحتراق » وهي محشوة مادة كيمائية تولد حرارة عالية جدًّا ، اذ تصطدم بالارض . فهي تدمر بفعل الحرارة التي تولدها هذه المواد البالغة احياناً ثلاثة آلاف درجة مئوية

***

قلما استعملت الطيارة خلال الحرب الكبرى ، في حرب الغازات . ولكنها اليوم سلاح اساسي في هذه الناحية يعتمد عليه واضعو الخطط الحربية . فقد دلت التجارب ان الطيارات تستطيع ان تلقي الغاز او السوائل المولدة للغاز فوق خنادق الجنود ، او المدن الآمنة على السواء فتمطرها حتفاً من الجو ، ثم تضيف الى ذلك بعض القنابل الخاصة التي تحتوي على الغاز الخانق

أما الغازات نفسها فالامر الذي لا شك فيه ان وزارات الحرب ، في مختلف البلدان تجرب التجارب المتواصلة للكشف عن غازات ، اكثر تنوعاً وأشد سمًّا وفتكاً من الغازات التي استعملت في الحرب الكبرى وقد عزي الى احد الضباط الذين يشرفون على تجارب سم الغازات في احد الجيوش الحديثة : القول بأن الغازات الجديدة تفوق الغازات التي استعملت في الحرب الكبرى خمسين ضعفاً

وقد جاء في انباء فرنسا انهم اكتشفوا هناك سائلاً ، يتحول الى غازاً ، فاذا لمس الجلد لمساً فعل فيه فعل سم زعاف يولده الجسم في خلاياه فيميتها . ويتنبأ احد القواد الالمان — الجنرال منتسش Mentsych — ان في النزاع بين الغازات الخانقة والكمامات الواقية من الغاز ، لا بدَّ للغاز من أن يفوز بأكليل الظفر !

واذ التنافس سائر على قدم وساق ، بين صانعي الغاز وصانعي الكمامة الواقية من الغاز ، نجد تنافساً آخر ، ما زال قائماً بين صنّاع رصاص البنادق ، وصنّاع الدروع الواقية منها . ففي خلال السنوات الثلاث الاخيرة ، صنع نوع من البنادق ، تستطيع البندقية منه ان تطلق رصاصها المصنوع من الصلب بسرعة ميل في الثانية ، وهي ضعف السرعة المعهودة في بنادق الجيوش من قبل . هذه الرصاصة المنطلقة بسرعة ميل في الثانية تخترق درعاً من الصلب سمكها نصف بوصة . وهذه هي السماكة العادية لدروع الدبابات وغيرها من السيارات المصفحة . وقد اعلن في السنة الماضية استنباط قنبلة جديدة ، تخترق درعاً سمكها قدم من الصلب ، على مسافة ثمانية أميال

ولكن صناع الدروع ، لا ينون عن استنباط الدروع التي لا تفعل فيها هذه الطلقات او القنابل ، فقد اعلنوا في السنة الماضية انهم توصلوا الى خليط جديد من الصلب لم يعهد له مثيل من قبل في قساوته . فهو يفوق دروع الصلب القديمة ٤٠ في المائة في صلابته ، فدرع سمكها نصف بوصة من الخليط الجديد ، تحل محل درع سمكها سبعة أعشار البوصة من الصلب القديم

والدبابات الجديدة تدرَّع الآن بهذا الصلب الجديد ، وسمكه في بعض هذه الدروع بوصة كاملة بل قد اضيف الى الدبابات مدافع رشاشة أفعل من المدافع القديمة وأشدّ فتكاً . ثم ان الدبابات نفسها أسرع حركة لها عجلات تسير بها في الشوارع المرصوفة ثم تضاف اليها السلاسل او ما يشبه السلاسل لكي تسير في الحقول والجبال والاودية . ويقال ان سرعتها من دون السلاسل بلغت نحو ٤٥ ميلاً في الساعة وبالسلاسل بلغت ٢٣ ميلاً في الساعة

وبعض الدبابات يبنى الآن ، وله حجر لا يخترقها الماء ومحركات ، كمحركات السفن ، فاذا عرضت للدبابة بطيحة من البطائح ، او نهر ، اجتازتها عوماً كالسفينة ، فهي برية بحرية في آن واحد . وكانت دبابات الحرب الكبرى ، ثقيلة بطيئة ، فكان وزن الدبابة منها ٤٠ طناً ، اما الوزن المفضل الآن فخمسة عشر طناً . وهي مع ذلك امنع وأفتك

وكان أبعد مدى بلغتهُ القنابل البحرية في خلال الحرب ٢١ الف ذراع . ولكنها اليوم تستطيع ان تبلغ مدى ٣٥ الف ذراع . ومن المخترعات الحديثة ، مدافع قطر فوهتها ١٥ بوصة ، تقام على عربات النقل على سكة حديدية ، وتستطيع ان تقذف قنابلها الى مسافة ٤٠ الف ذراع او نحو ٢٣ ميلاً . ثم هناك مدفع آخر يستعمل للدفاع عن السواحل مداه ٣١ ميلاً ، ووزن قنبلته ٢٣٤٠ رطلاً فاذا بلغ نهاية مداه كانت سرعته كافية لاختراق درع من الصلب سماكتها ١٤ بوصة ، او قدم وسدس قدم

***

هذه بعض نواحي التقدم في صنع آلات التدمير ، فهل ساوقها التقدم في تأييد وسائل تنظيم السلام ؟

القوى الروحية

في اليابان

من محاضرة لكلود فارير

قلت من مدة قصيرة إن الصين خلقت اشخاصاً ولم تخلق امة . وأتيت على السبب في ذلك . وأقول اليوم — في مستهل حديثي عن اليابان — ان هناك يابانيين وأمة يابانية كما ان هناك فرنسيين وأمة فرنسية . ويسهل عليَّ شرح ذلك : فاليابان قد تطورت بتطور الايام كما تطورنا نحن على وجه التقريب وكما تطورت أية امة من الامم الاوربية . على ان اليابان ، وقد لا اشك في ذلك ، لم تكن في الاصل امة آسيّة بل صارت الى ذلك فيما بعد ، ولهذا نرى أن الشعب الياباني — خلافاً لسائر الشعوب في آسيا القصوى — بدل ان يتطور على الطريقة التي تطورت عليها الشعوب الصفر جاراتهُ ، عرف جميع المراحل المنظمة التي اجتزناها تباعاً فيما بعد

وهذا يتطلب شرحاً وافياً . فاليابانيون لم يعيشوا دائماً في اليابان فان سلالات أخرى حلت قبلهم في هذه الارض ، ونعرف الاخيرة من هذه السلالات وهي سلالة رجال ضخام الجثث ملتحين ذوي بشرة بيضاء يعرفون بالأ ينوس ولا يزال بعض افراد منهم يقيمون بجزيرة هوكائيدو من جزر الارخبيل.وهؤلاء الاينوس استولوا في الماضي على اليابان بأسرها الى أن أقبل يابانيو اليوم فطردوهم

ولكن من أين أقبل هؤلاء اليابانيون ؟ لا تزال هذه المسألة رهن البحث والاستقصاء ، ويذهب البعض الى أن قبيلة صغيرة نزحت من آسيا وقبيلة كبيرة نزحت من مليسيا (اوقيانوسيا) ، وكل هذا محتمل الوقوع . فنحن لا نجهل أن شعباً عاش في الماضي على حدود مغوليا وترانسبائيكاليا الحالية ، على شاطىء تلك الانهر المعروفة بالكرولين والارجون والامور ، وأن هذا الشعب كثيراً ما اطلق امواجاً هائلة من الغزو على اقطار العالم الاربعة . ولا يخفَ أن أتيلا وجنكيز وتيمورلنك انطلقوا واحداً بعد الآخر من وكر النسور هذا . وغير مستبعَد أن تكون طوائف منهم قد اتصلت الى البحر الياباني او الى البحر القوري mer coréenne ، ولكن أن يكون الفرسان الترك قد غامروا في المياه المالحة وجابهوا الرياح والانواء وعبروا البحار فذلك مستبعد جدًّا ، فلا الترك ولا التتار كانوا في عهد من العهود من الشعوب الملاّحة . إذن فالموجة التي غمرت الاينوس وشيدت مملكة الشمس الشارقة هذه ، تلك المملكة التي لا تزال متألقة منذ خمسة وعشرين قرناً الى اليوم ، إن تلك الموجة قد اقبلت من الجنوب من مليسيا او من الفليبين أو من

الكرولين أو من صاموى أو من جزر المركيز أو من تاهيتي. من يعلم فقد تكون اوقيانوسيا بأسرها جابت جيوب البحر سعياً وراء فردوس موعود بهِ . على أن ثمة أمراً لا شك فيهِ وهو أن اليابانيين عند ما وصلوا الى اليابان لم يكن لديهم يومية ولا طريقة من طرق الكتابة . ولدينا على ذلك حجة نستند اليها ، فالشعوب الآسية عرفت الكتابة قبل الشعوب الاوربية بزمنٍ بعيد ، وبقي الاوقيانوسيون دهراً طويلاً جداً يجهلون طريقة الاحتفاظ بالفكرة ونقلها من جيل الى جيل ، أما اليومية فلا تملكها الا الشعوب التي تحتاج اليها ، أعني الشعوب التي تعرف الفصول ، وهل ثمة فصول بين برج السرطان وبرج الجدي ؟

لذلك أؤكد أن اليابانيين لم يكونوا في البدء رجالاً صُفراً متهدلي الخدود محافظين على التقاليد ، بل كانوا ذوي بشرة حمراء أو سمراء حادّي الاعصاب في مرونة ولباقة ، وينبغي ان يكونوا كذلك ليتاح لهم القيام في مراكب خشبية ذات اشرعة من القش ، بتلك الرحلات البحرية اللانهاية لها في وسط الزوابع والانواء والضباب حيث يموت الانسان من الجوع والعطش . ينبغي ان يكونوا ذوي نفوس مغلفة بالنحاس السميك ليتاح لهم الطواف شهوراً إثر شهور ، رجالاً ونساء واولاداً متراكين بعضهم على بعض ، قبل ان ينتهي بهم السير الى جبهة العدوّ حيث تنتظرهم الحرب الكبرى، التي لا مناص لهم منها

لقد قام اليابانيون بكل ذلك وربحوا الحرب . وهاهم البحريون منهم وها هم الجنود...وقصارى القول هاهم الرجال ! . هكذا كان اليابانيون في الماضي ، وهكذا هم اليوم ، فاليابانيون لم يتغيروا

﴿ هل اليابان شعب مقلد منتحل؟ ﴾ ولم تكن تعوزهم البسالة ولا الذكاء . وتأدية البرهان على ذلك من السهولة بمكان، فهؤلاءِ الرجال الحمر أو السمر الذين عبروا الفاً او اثنتي عشرة مائة مرحلة من الاوقيانوس وبلغوا الى غايتهم على مراكب صغيرة عرفوا أن يلزموا السرعة في تنظيم صفوفهم ،وفي التحوّل من شرذمة الى جيش ، وسنّ نظام اجتماعي ، واختيار قوّادٍ ورؤساء لهم ، والتزام الطاعة لهؤلاءِ القواد والرؤساء ، وايجاد يومية ، واختراع كتابة إذ أن قيادة الجيش تقتضي مواصلات وبعثات لا يصحّ ان تقتصر على طرق شفهية . ولا شك في ان إيجاد يومية في مستطاع أيٍّ كان، واختراع احرف للكتابة في مقدور كثير من الناس ، على ان ذلك يقتضي وقتاً فالكلدانيون ظلّوا قروناً عديدة يتأملون دوران الكواكب ، ولقد اخترع المصريون أحرفاً كتابية ما لبثوا ان هجروها ويعلم الله وحده لماذا هجروا هذه الاحرف ، واخترع الفينيقيون بدورهم احرفاً حلقية ، وتصوّر الاغريق أحرفاً صوتية . وكان باستطاعة اليابانيين ان ينهجوا نهج الكلدانيين والمصريين والفينيقيين واليونان، سوى أنهم كانوا بحاجة الى الاسراع ، فآثروا ان يدوروا دورة الشفق ويبحثوا في جميع الجهات رجاءَ ان يهتدوا في ناحيةٍ من النواحي الى شيءٍ يوفر عليهم مشقة الاختراع . وما انعبروا بحراً او بحرين حتى بدت لهم الصين ، الصين الواسعة المغمورة في عددها واعوامها، الصين التي

عرفت الكتابة منذ خمسة وعشرين قرناً وتعداد الفصول منذ اربعة آلاف سنة ، فاعتنق اليابانيون اليومية الصينية والكتابة الصينية ايضاً وهذا ما اعلق في أذهان البعض ان اليابانيين ليسوا سوى شعب مقلّد ، ناسخ، منتحل ، ولكن، يا للضلال الفظيع ، ضلالٌ لا أجد صعوبة في هدمه وفي هدمه بسرعة

﴿ اللغة اليابانية ﴾ لنبدأ بمسألة اليومية : قد يكون اليابانيون نسخوا اليومية الصينية فهم لم يكن لديهم يومية في عهد من العهود ولا حرج على المرء ان يبني في ارض عذراء ، الاَّ ان مسألة الكتابة تختلف عن هذه ، فاليابانيون وإن كانوا لا يحملون أحرفاً كتابية عند قدومهم من اوقيانوسيا الاَّ انهم كانوا يحملون لغة ناطقة تطورت مع الزمن وبلغت حدًّا من الكمال . واللغة اليابانية الحالية المشتقة منها وغراماطيقها الذي يستلزم بعض الجهود ممن يدرسونهُ اكبر دليل على ما ذكرنا

ثم ان الكتابة الصينية لا تتضمن حروفاً ولا اصوات لها فهي تخاطب الاعين لا الآذان ،وترمي الى هدفٍ واحد وهو تصوير الفكرة تصويراً مباشراً . وهي الى ذلك تتضمن نحواً من ثمانين الف رسم صغير تحلّ محلّ الاحرف فتأملوا اية صعوبةٍ في التعبير بهذه الرسوم الهيروغليفية عن لغةٍ توازي اللغات الاوربية . وكأن اليابانيين شعروا بهذا الجهد العظيم فاحتفظوا بلغتهم الاوقيانوسية القديمة ولم يستعيروا من اللغة الصينية الاَّ طريقة كتابتها

﴿ كيف نشأت الفروسية في اليابان ﴾ ولنتطرق الآن الى التاريخ وهو موضوع اقلّ جفافاً من هذا الاخير . فالتاريخ الياباني ربما كان شبيهاً بالتاريخ الصيني ، فالمراكب الخشبية التي اقلّت اليابانيين الى اليابان لم تكن مراكب كبيرة ، فالواحد منها لم يكن يسع اكثر من عشر عيال او من ثلاثين او اربعين محارباً مع أمتعتهم . وهذا التنظيم الاولي كثير الشبه بالتنظيم الصيني . إلاَّ ان اليابانيين لما وصلوا الى اليابان ادركوا انهم لن يتمكنوا من التغلب على الاينوس إلاَّ اذا جمعوا عصائبهم قبائل رحبة وكوَّنوا من هذه القبائل مملكة واحدة فقاموا بهذا العمل وكوّنوا مملكتهم ، ولم يكن لهذه المملكة إلاَّ رأس واحد ، فاليابان — منذ عهدها الاول الى يومنا هذا — لم تعرف إلاَّ سلالة واحدة حكمت عليها حكماً مستمدًّا من الحق الالـهي هي سلالة الميكادو الابناء الشرعيين للآلـهة « اماتيراس نو أوهومي كامي» الذين يتخذون زهرة الاقحوان شعاراً لهم

ولقد أصبحت المملكة اليابانية مملكة إقطاعية منذ مدرجها . أما الاقطاعية هذه فقد افتتحت عهدها بالولاية الالهية لجميع الاقطاعيات ، فكان هناك زعيم كهنة وأمير سامٍ وحبر أعظم ولا مشاحة في أن القوة التي تأتي من الحق الالـهي لا تقبل جدلاً ، فقد كان الميكادو في الاول امراء مطلقين تأتمر بأمرهم طائفة من الكهنة وأخرى من رجال الحرب . على أن المقاطعين من زمنيين وروحيين ما لبثوا أن اصبحوا امراء شديدي الشوكة كثيراً ما استولوا على السلطة العليا ، على الامبراطور ، فنبذ الشعب وتنومي كما جرى في فرنسا وانكلترا وايطاليا وألمانيا . ولئن كان الحكم الاقطاعي ملائماً للبشر الاولين لانهُ يعجل تطورهم ويحضرهم بسرعة فهو شديد الوطأة على

كواهل المتحضرين المتطورين . فلما شعر اليابانيون بأثرة الامراء استيقظت في نفوسهم نخوة الشرف وهذه النخوة التي ولدت من الفروسية التي ولدت من الاقطاعية نفسها استمرت خمسة قرون أو ستة بعد ان تلاشى اي اثر لاية اقطاعية

﴿ الشرف الياباني ﴾ قلت ان الفروسية نشأت في اليابان على اثر المظالم التي الحقها الامراء بالشعب واطرح عليكم الآن هذا السؤال : من منكم يتراجع أمام أية معركة إن كان الامر متعلقاً بغسل شرف مهان ؟ لا احد . ولكن عندما تقع المعركة في سبيل الشرف ينتهي كل شيء ويحتم على المغلوب ان يلقي سلاحه . اما في اليابان فالفروسية لا تجيز للمغلوب إلقاء سلاحه . فكل من تلحق بهِ اهانة ما يجب عليهِ ان يقتل المهين أو يقتل نفسه

ولا يخيَّل اليكم اني اجسّم الحقيقة ولا ابنيها الا على مستندات قديمة . فسأورد لكم قصَّة رجل عاش في قرننا العشرين هـذا ، قصة رجل يعرفهُ العالم بأمره ويحترم اسمه وذكراه . وهذا الرجل هو القائد «نوجي» الذي ربح معركة «بورت أرثر» وخلق «الربع الساعة الاخير» الربع الساعة الياباني للجنرال نوجي ... وما هي حكاية الربع الساعة هذا ؟ اسمعوا نصَّ الفقرة التي خلق بها القائد نوجي ربع ساعته : «سيكون النصر ، في أية معركة كانت ، حليف الجندي الذي يتيح له البأس ان يتجلد مدة ربع ساعة اكثر من خصمه » وفي هذه الفقرة امثولة بليغة في البأس والانتصار !

عند ما بلغ الجنرال نوجي الى آخر ايامه بعد ان شبع من الانتصارات ونال قسطه الوافر من احترام الشعب ، اتصل بهِ في صباح يوم ان الامبراطور موتسوهيتو قد مات . والامبراطور موتسوهيتو الذي حكم من العام ١٨٦٧ الى العام ١٩١٢ والذي احدث الانقلاب الكبير في العام ١٨٦٨ كان أعظم امراء السلالة الآلهية المتحدرة من أماتيراس ، ربّة الشمس . فلما اتصل بالقائد نوجي هذا النبأ أسرع بقتل نفسه وأسرعت زوجته بقتل نفسها أيضاً . وذكرت الصحف الرسمية وقتئذٍ ان القائد نوجي شاءَ ان يظهر تعلقه بالميكادو فتبعه الى الموت . القصة جميلة ، أليس كذلك ؟ على انها تنافي الحقيقة ، فالحقيقة هي خلاف ذلك ، وقد لا يستطيع ادراكها الاَّ من كان يابانيًّا

اسمعوا : كان نوجي الى خمسين سنة خلت تلميذاً بسيطاً في إحدى المدارس الحربية وكان قد اتحد بعرى صداقة متينة مع امير من امراء الدم الامبراطوري هو الامبراطور العتيد موتسوهيتو . وكان ان احد الاساتذة الضباط أهان نوجي التلميذ فصحَّ عزمه على الانتحار إذ لم يكن بوسعه قتل من أهانهُ . فالنظام يحظر ذلك وقانون الفروسية يوجب احترام النظام ؛ على انه قبيل ان يبقر بطنه بالخنجر سأل صديقه الامير الامبراطوري ان يحضر بنفسه حفلة الانتحار ، فقبل الامير سؤال صديقه . الاَّ ان موتسوهيتو كان أميراً عظيما جدًّا وكان فوق جميع العادات والتقاليد وان تكن مقدسة فقال لنوجي

— لن تقتل نفسك لان الملك بحاجة الى رجال مثلك . لقد أهنت فكان عليك ان تموت ، على ان الاهانة التي لحقت بك قد غسلت لاني أنا ابن الآلهة ، ابن اماتيراس نو أوهومي كامي أحمل اهانتك

على رأسي وآمرك بأن تعيش ! . فالجنرل نوجي مذعناً وعاش وأصبح فيما بعد ضابطاً فقائداً فعظيماً ، ربح مواقع عديدة واكتسب احترام الشعب . ولكن في اليوم الذي مات فيه الامبراطور موتسوهيتو واحتجبت الجلالة الامبراطورية التي كانت تحمل على رأسها الاهانة القديمة عادت هذه الاهانة بعد مرور ٤٠ سنة عليها فسقطت على رأس الجنرال نوجي فأسرع بقتل نفسه ليبقى شرفه سليماً ! ان شرفاً كهذا لن يموت !

﴿ الشعر والفن في اليابان ﴾ ولقد عرف هؤلاء الرجال القصار القامة الذين اعتنقوا الاحرف الصينية ان يخلقوا لنفسهم شاعرية نبيلة بين أنبل الشاعريات جميعاً وان يطبعوا هذه الشاعرية بطابعهم الخاص ، ولقد برهنت هـذه الشاعرية اليابانية للعالم بأسره أنها موجودة وانها الابنة الشرعية للجمال الياباني . وفيمَ نتكلم عن الشعر ولا نتكلم عن الفن ؟ فلليابانيين فنٌ دقيق أُوحي بعضه من الفن الصينيّ وبعضه من الفن الاغريقي اذ ان اغريقية فيدياس وأخيل قد اجتازت آسيا عقيب الملك اسكندر وعقيب الفلاسفة البوذيين ايضاً ، على ان هذا الفن بقي خاصاً لان اليابانيين سكبوا فيه روحهم ، وهذه الروح لم تكن بالروح الاغريقية ولا الهندية ولا الصينية . وان هياكل نيكو التي بنيت في عهد هنريكوس الرابع او عهد لويس الثالث لاكبر شاهد على ذلك

﴿ الاديان في اليابان ﴾ ولكني لم أتكلم بعد عن مختلف الديانات التي مارستها اليابان في منتصف القرن السادس عشر للمسيح

كان ثمة ديانة «الشينتو» وهي الديانة الوطنية القديمة التي تؤكد ان الامبراطور هو ابن الآلهة ، والديانة البوذية التي جيء بها من الهنـد في القرن السادس للمسيح . اما الشينتو ، وهي مزيج من تقاليد قديمة وتوقيرات ابوية ووفاء عائلي ومعتقدات باطلة ولكن شريفة ، فقد كانت ديانة وطنية اكثر منها ديانة ايمان . ولم تكن البوذية التي كانت تعدُّ تسع عشرة طائفة في اليابان معظمها ينكر وجود الله وخلود النفس ، سوى فلسفة ونظرية . على ان اليابانيين كانوا شينتويين لحجة انهم يابانيون وكانوا بوذيين ايضاً بحكم الضرورة لان مراسيم المآتم كانت في حوزة الكهنة البوذيين

وكان ثمة ديانة ثالثة لو اتيحت لهـا الظروف لسهل عليها التأصل في اليابان وهذه الديانة هي النصرانية . ولا يعزب عنا ان اليابان في القرن السادس عشر للمسيح كانت بحاجة الى تعاليم عذبة تطفح بالحلم والرأفة ، الى تعاليم المسيح ، فالياباني الذي يكد سحابة يومه ويشقى يحتاج الى الراحة وليس لهذه الراحة أعذب وأهنأ من المخدة المسيحية . على ان اليابان لم تحصل على هذه الديانة على شدة حاجتها اليها . ولماذا ؟ لانها كانت بعيدة عن روما ، بعيدة جداً عنها ، فالرسالة كانت تستغرق سبع سنوات ، او ثماني لتصل الى روما ويأتي جوابها . ولا مشاحة في ان فرانسوى كزافييه الجزويتي الذي ارسل الى اليابان ليبشر بالدين المسيحي قام في اليابان بأعمال عجيبة ، سوى انهُ لم يكد يموت حتى ضاعت جميع الجهود التي بذلها ، نخلفاؤه كانوا اقل نبوغاً منهُ وكان عليهم ان يقاوموا الشينتو والبوذية فلم يفعلوا لانهم كانوا يجهلون ان الشينتو ليست سوى وطنية وان البوذية ليست سوى فلسفة

وعلى اثر وفاة فرانسوى كزافييه هب اليابانيون لمحاربة الدين المسيحي ، وفي العام ١٧٣٧ صدر مرسوم ياباني يقضي بمنع اي اجنبي كان من النزول على الشواطىء اليابانية . وهكذا اغلقت اليابان ابوابها ونوافذها واعتزلت في الكرة الارضية

﴿ اليابان تتطور ﴾ ولكن ما لبثت الثورة ان انطلقت في اليابان ؛ ففي العام ١٨٦٨ شعر اليابانيون انهم بحاجة الى القوة وأنهم — وقد اوصدوا حدودهم منذ اكثر من مائتي سنة — يجهلون الطريق الصناعي والميكانيكي الذي مهّدتهُ اوربا والذي اوصلها الى البخار والكهربائية والاشتراكية . ولم يجهل اليابانيون اي خطر سيواجهونه في تركهم طرق الاجداد وسلوكهم الطرق التي يسلكها الجنس الابيض ، على انهم لم يجهلوا كذلك انهم لن يستطيعوا المحافظة على حريتهم الا اذا كانوا اقوياء ، واليابانيون يعشقون الحرية ، فكان عليهم ان يقضوا دفعة واحدة على شرائع الجدود وعلى التقاليد المقدسة فقضوا عليها جميعاً بدون تردد واعتنقوا السلاح الاوربي والعادات الاوربية . وكان ان حالفهم النصر ، ولا يزال حليفهم منذ العام ١٨٦٨ الى يومنا هذا

﴿ اليابان في عشرين سنة ﴾ واننا لا نجد فائدة في أن نعرض للحرب الصينية اليابانية التي نشبت في العام ١٨٩٤ وللانتصار البحريّ العظيم الذي ناله اليابانيون في معركة يالو(Yalou) كما اننا لا نجد ايضاً فائدة في ذكر ملحمة العام ١٩٠٤ عند ما خيّل الى روسيا العظيمة انها تستطيع ان تسحق هؤلاءِ اليابانيين القصار القامة الذين سمحوا لانفسهم بالاعتداء على قوريا ومنشوريا وهما ارضٌ محظورٌ القنص فيها إلاّ على القياصرة ؛ فكان ان انهارت روسيا في لياويانغ وبورت ارثر ومكدن وسوشيما كما انهارت الصين من قبلها . ولكن قد نجد فائدة في ان نأتي على ذكر حادث خطير وقع في العام ١٨٩٤ ؛ ففي هذه السنة عندما احتلت الجيوش اليابانية مرفأ «ويأوي » Wei—a—Wei الصينيّ استاءت المانيا واذنت لنفسها بأن توجه الى اليابان هـذا الانذار الشديد

« تفضلي بالجلاء عن ويأوي في مدة اربع وعشرين ساعة او اضطرّ الى التدخل في شؤونك »

كانت المانيا في العام ١٨٩٤ امة عظيمة هائلة ، وكانت اليابان في ذلك العهد لا تزال تختبر اجنحتها ومنقارها ، ففكرت قليلاً ثم ابتسمت وانحنت ، وعملت بموجب الانذار الالماني

ولكن بعد مرور عشرين سنة ، في العام ١٩١٤ ، عند ما هبت المانيا تشهر الحرب على العالم بأسره هبّت امة للوقوف في وجهها ، وهذه الامة هي اليابان ، ففي الوقت الذي أتاح لالمانيا أن تستولي على مرفإٍ تسنغ تاو القريب من مرفإِ ويأوي وجدت اليابان الإِشعار الالماني القديم فمحت منهُ اسم « ويأوي » وكتبت محله اسم « تسنغ تاو » ومن غير ان تبدل حتى ولو حرفاً واحداً طوت الإِشعار القديم وبعثت بهِ الى المانيا

« تفضلي بالجلاء عن « تسنغ تاو » في مدة اربع وعشرين ساعة او اضطرّ الى التدخل في شؤونك »

وهكذا اتيح لليابان ان تثأر لنفسها

مشكلة النمسا

ان الذين يؤمنون بالسعد والنحس قد يجدون في النمسا ما يؤيد مذهبهم فما برحت تلك البلاد منبع مشكلات ومصدر متاعب . وليس بين قرّاء التاريخ من يجهل مصائب آل هبسبرج الذين تولوا حكمها وحكم هنغاريا كما انه ليس منهم من يجهل ان نزاعها الخفي مع سربيا وهو النزاع الذي افضى الى اغتيال ولي عهدها وقرينته اضرم الشرارة الاولى لنار الحرب وهذا علاوة على ما كان بين عناصرها من صراع يدلّ على ما انقسمت اليه بعد الحرب وعودة الجزء البولوني الى بولونيا ونشوء دولة تشكوسلوفاكيا وانفصال هنغاريا وضم العنصر الايطالي الى ايطاليا وما اخذته رومانيا . ثم ما منيت بهِ البقية الباقية من النمسا من ازمات سياسية ومالية لولا توسط جامعة الامم لقضت على كيانها

ثم كانت المشكلة التي تلت هذه بالسعي لضم النمسا الى الريخ او الاتحاد الالماني ومعارضة فرنسا لهـذا الضم واقدامها على اسعاف النمسا لتظل قادرة على صون استقلالها فلا تعظم المانيا ولا تقوى باضافة ثمانية ملايين من خير اهل اوربا اليها علاوة على ان النمسا من اجمل بلدان العالم وعاصمتها في مقدمة العواصم حسناً ونظاماً ان لم تكن أحسنها وأبهاها

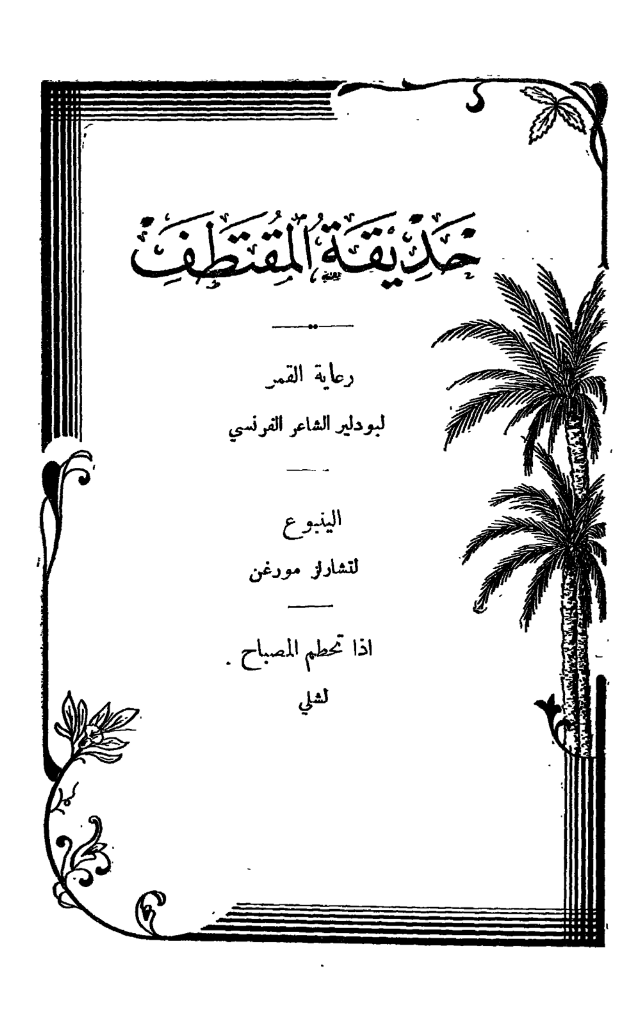
ولم تكد النمسا تجتاز هذه المرحلة حتى اخذت الاقدار تهيىء لها مشكلات جديدة بانقسام اهلها وتعرُّض النازية الالمانية لها وهياج خواطر الاشتراكيين فيها وقد كان لهم الكلمة العليا في فينا وسواها وظهور روح الفاشستية وما تلا هذا كله من صراع داخلي تجلى اخيراً في الفتنة التي نقلت الينا التلغرافات اخبارها وعواقبها وقد انتهت بخضد شوكة الاشتراكية وكبح جماح انصارها وفوز الوزير دلفوس

ولـكن الازمة لم تنتهِ بهذا فقد وقفت الدول تجاه هذا الحادث وقفة حائر ففرنسا تعارض انتشار الروح النازي في النمسا حذراً مما قد يفضي اليه من ضمها الى المانيا . وايطاليا ترى في حوادث النمسا وقوة الهيمفر مجالاً حسناً لانتشار المذهب الفاشستي فهي تعارض المانيا كذلك . أما بريطانيا فتجاري الدولتين ولكنها تخطىء حكومة النمسا كما يخطئها سواها فان اضعاف الاشتراكية يفضي حتماً الى مضاعفة جهود النازي وقد يوقع حكومة دلفوس في حرج لانحصار الصراع بين حزبين وهما النازي والفاشستي

ولا يخفى ان فوز الحكومة النمسوية وقهرها للاشتراكيين لا يكفل لها السلامة والبقاء بالضرورة اذ لا يدري احد كيف يكون التحوُّل الفكري والسياسي في البلاد بعد الازمة الاخيرة فقد تعلو كلمة النازي ويكون لهم الفوز الاخير وحينئذ يتفاقم الخطب لما قد يجر هذا اليه من نزاع فرنسا والمانيا

ولهذا عاد غير واحد الى اقتراح اعادة آل هبسبرج الى حكم النمسا ليكون من اعادتهم حائل يحول دون ضمها الى المانيا حرصاً على استقلالها القومي برعاية اسرتها المالكة السابقة

وهناك عامل آخر لايسع الباحث اغفاله وهو ان الاحزاب الاشتراكية في سائر بلدان اوربا نقمت من الدكتور دلفوس انتقامه من اشتراكيي بلاده والاشتراكية في اوربا قوة لا يسع النمسا إزدراءها



حديقة المقتطف

رعاية القمر

لبودلير الشاعر الفرنسي

الينبوع

لتشارلز مورغن

اذا تحطم المصباح .

لشلي

رعاية القمر

لبودلير الشاعر الفرنسي

نظر إليكِ القمر — ذلك القلَّبُ الحوَّلُ — من وراء النافذة وأنت راقدة في مهدك فهتف في أعماقه

« شدَّ ما اتسقت هذه الصبية على غرار سجيتي»

واسترَقَ الخطى هابطاً درج السحاب متسللا من زجاج النافذة في سكينة وصمت حيث حنا عليك في عطف الأم الرؤوم طابعاً ألوانه على قسمات وجهك

ومن ثمَّ شعشع السندس ملء عينيك ، وشاع الشحوب الرائع في أديم خديك

أجل فعند ما تطلعتِ اليهِ انداحت حدقتاك بدرجة غريبة فطوَّق نحرك بذراعيه المترفقتين في حنانٍ بالغ أورثك الحنينَ الى الدموع

وما هي الاَّ فورة من نشوة فيَّاضة حتى غمر مخدعك بجوٍ مشعَّ من ضوئه الوَّعاف . ذلك الضوء الخالد الذي هتف من سَبُحات تفكيره قائلاً

« ألا فلترتسم عليك قبلتي إلى الابد

«وليكن لك مثل فتنتي وجمالي.ولتحبي كلَّ ما احب وكلَّ ما يحبُّني . من ماء وسحاب . وليل وسكون . من البحر الزبرجديّ المترامي . من الماء المنطاق السيال والمتعدد الاوضاع والاشكال . من المكان الذي لن تطرقيه . من العاشق الذي لن تعرفيهِ . من الزهور التي لم تَدِنها الطبيعة . ومن العطور الفوَّاحة المسكرة.ومن القطط المستلقية في تراخٍ على« البيان» ذات الاصوات الأجشة العذبة الحاكية لتنهدات النساء

«أجل ! ولتكوني فتنة عشاقي . وموضع الاجلال من سماري وندمائي.ولتستوي ملكة على عرش من افئدة الرجال ذوي العيون الخُضْر . الذين اعانقهم وتحويهم احضاني كل ليلة. هؤلاءِ الذين يفتنهم البحر ، البحر المتنائي الاطراف ذو اللجة المصطخبة الخضراء ، والمكان الذي لن يغشوهُ ، والمرأة التي لن يهتدوا إليها ، وازهار الشر المتوقدة كمجامر كاهن مجهول ، والعطور المثيرة المستبدة بالغرائز ، والوحوش الضارية التي ترمز شهواتها المشبوبة الى حماقة هؤلاءِ المساكين

«والآن . .ايتها الصبية اللعينة العزيزة المَشْبوبة ذلك ما يدفعني لأن أجثو على قدميك متلمساً فيك صورة الالاهة المروعة . ربة الارباب القاضية . ظئر السموم لكل صرعى القمر من بني البشر

[اختارها وترجمها عن الترجمة الانكليزية علي محمود طه]

الينبوع

رواية لتشارلز مورغن الكاتب الانكليزي

قطعتان مقتطفتان منها

حياة التأمل

كان لوِس ، في الاسابيع التي تلت سعيداً ، سعادة لم يدركها منذ عهد الطفولة . وبدا لهُ كأن العالم ، عاد لا يُهمّه . فكان يجلس الى خوان « جدول » يوماً بعد يوم ، يطالع او يشاهد القلاع وقد اخذ الشتاء يرتدّ عنها ، مطلقاً لفكرة كتابهِ العنان حتى تنمو في نفسهِ من غير ان يستحثها . وما كان جزوعاً ، لان «التاريخ» لم يكن في نظره ، غاية تطلب لذاتها ، وانما كان رمزاً لطريقة من طرائق الحياة ، او سبيلاً الى تنظيمها وتنسيقها . ولاح لهُ ان الكتاب التام ، ليس هدفاً يستحثهُ ويدفعهُ الى الجزع وانما رآه عمل رجل ، لا بدَّ لهُ من الدرس كسبيل الى الصيرورة . وان الهدف نفسهُ لبُعده ، ليس من هذا العالم

كان لا بدَّ للكتاب من ان يتخذ الشكل التاريخي ، يتتبع فيه تحوّل المثل الروحية في انكلترا من عهد الاحياء ، ثم ربطها ، بفلسفات الماضي السحيق . وانما العمل الذي بين يديهِ ، لا يقتضي تلخيص بعض المفكرين الصوفيين فقط او تأليف تاريخي ديني . ذلك ان محاولة التوحيد ، بين غرض التأمل وغرض التصوف في الحياة ، كمحاولة التوحيد بين جبلٍ واحد الجداول التي تنبع منهُ . وانما كان موضع عنايتهِ ان يعرف ، هل ثمة اية وحدة ملموسة ، بين الجهود العليا للعقل البشري ، هل يمكن ان يربط بين قصد افلاطون ، ربطاً أتم مما يظن عادة وقصد القديس توما الاكويني او فوغان او نيوتن ؟ فاذا كانت هناك وحدة من هذا القبيل ، فما هي ؟ وهل تقتصر على العباقرة ؟ وما أثرها في حياة الرجال والنساءِ الذين لا يميلون بطبيعتهم الى حياة التأمل

وكان هنالك فكر يؤثر فيهِ ، كأنها قوة خارجة عنهُ لا نتيجة جدال داخلي ، مؤدَّاهُ ان حياة التأمل نادرة ولكن الرغبة في التأمل عامة ، وان الرغبة في التأمل هي للروح ، كالشهوة الجنسية للجسد ، المحرّك الاول في حياة الناس . قال ان سكينة التأمل ، ليس الاَّ

اسماً يضفى على حالة من المنعة ، والمنعة هي الغرض الذي يرمي اليهِ الناس . حتى الرغبة في الخلود لا يمكن ان تتكون من دون موطن ضعف فيها ، لانهُ يخالطها ، عنصر التوق الى الراحة او الفناء ، او خوفٌ كخوف حملت من الاحلام الخالدة . ولكن الرغبة في المنعة لا يأتيها الضعف من اية ناحية فيها . فهي متسقة مع توق الانسان للراحة ومع اشتياقهِ وحماستهِ للحياة . بل هي الرغبة الوحيدة التي توفق بين الناحيتين . ثم هي تتضمن معنى السيطرة على الاحلام

***

فنيوتن في بحثهِ عن نظام نهائي للطبيعة الخارجية ، وقديسو الكنيسة الاولون في محاولتهم التوحيد بين ذواتهم وذات الله وفنائهم فيها ، والفلاسفة الذين وقفوا انفسهم على البحث عن الحق المطلق ، الذي لا يُلمس ، وليس لهُ زمان — الم يكن هؤلاء جميعاً يحاولون الوصول من طرق مختلفة الى غرض واحد هو غبطة المنعة لانها خارجة عن الحواس مع انهم لم يفكروا في الخلود . ان رجالاً من طبائع متباينة يبحثون البحث نفسهُ في نطاق الحواس — في ادراك السرعة التي يتلاشى فيها ما دامت ، ادراك الزمان — في الفنون وهي حسية بذاتها اذ ينطلق منها اصحاب النزعات الروحية الى صميم الروح — في الحب الذي يبني معقله في قلب المدينة — تلك هي نعمة التجرُّد التي تردُّ الظلام كما يردّه المشعل في الليل وفي الوقت نفسهِ يعمي المشاهد عن كل شيءٍ الاَّ عن نفسه . ان وصول الانسان بطريقة ما ، الى حالة ، يستثنى منها كل شيءٍ الاَّ هُ ، غرض كل احدٍ . فهو يتعلق بأي وعدٍ فيهِ شبح من هذه الحالة . فمسراتهُ ، ومحبتهُ على الارض ، وفنهُ ، وفلسفتهُ جميعاً لها من القيمة بقدر ما تحتوي عليهِ من ذلك الوعد . انهُ يضحي بالعالم من اجل حبهِ ، لانهُ في صميم قلبهِ يرغب ان يخسر العالم ، ان ينفض غباره عن قدميهِ ، ويدرّع هذه الغبطة التي تقيهِ منهُ . انهُ يرى الاشياء تتحرك من حولهِ ويشهد الوعي كالتيار بين مدٍّ وجزر . فيرغب في ان يكون كالآلهة ، ولو لحظة واحدة ، ساكناً منيعاً لا يقارب

***

وكذلك أحسَّ لورس ، كالمسافر الذي اقبل على ارض بسيطة لا تحدّ ، بعد ما اعتقد انهُ محصور في مضيق ، فبدأ يرى ان التأمل ، ليس منطقة خاصة لا تجوسها الاَّ العبقرية ، بل تاجاً تتوّج بهِ جميع آمال الناس ، هي حالة سلم حيةٍ ، تحمل «الابديّ» في ثناياها ، فارتدَّ الى أفلاطون امامهُ ، يسمع في عباراتهِ ، صوتَ الانسانية لا قول رجل فردٍ

رسالة

بعثت جولي محبوبة لوس بطل الرواية برسالة اليه طيّ كتاب عن الفيلسوف ديكارت ، فردّ بالرسالة التالية لما عثر عليها :—

لماذا بعثتِ بها في كتاب ؟ كان يحتمل ان لا اجدها على الاطلاق . أكان هذا الباعث ؟ اكاد اظن ذلك

من ثلاثة اسابيع عدت من نزهة طويلة ، فوجدت على خواني ، رزمة كتب عليها العنوان بخط « رمزدل » وداخلها كتاب « درك » عن ديكارت ، ورسالة من رمزدل يقول فيها انهُ كان قد اتى بهِ من مكتبة القصر ، وعليّ ان اعيده اليهِ ، متى قضيت منهُ وطري . وما كنت احسّ حينئذٍ برغبة في مطالعة ديكارت ، فعدوتهُ الى كتب اخرى ، وأفكار اخرى منذ ما زارني رمزدل هنا ، ووضعت الكتاب على عتبة النافذة ، حيث اختفى تحت ركام الاوراق والكتب التي تتجمع بسرعة في مسكني الضيق . ولكنني اعمد الى ترتيب اوراقي وكتبي من آن الى آخر ، وقد بدأت ارتبها الليلة فعثرت على ديكارت . فكان ذلك آخر محاولتي . فجلست اقرأ فوقع كتابك في حضني

كتابتك ! انني لأذكر اول رسالة اتتني منك — في الحصن . وما كنت اعرفك ، ومع ذلك لم استطع الهروب مما احاط برسالتك من السر الخفي — رسالة من روح استطيع ان اراه ولكن لا اراه . يدك على الورق وريشتك ترسم الكلمات وعيناك تريانها . والآن يا جولي ، اتيح لي ان ارى امامي ، على خواني وفي متناولي كتاباً منك ! فكأنك انت في الغرفة . بل اكثر من ذلك . كأن سرك او خلاصتك المصفّاة معي ، مع انها لا تلمس ، كعطر ازهار بعيدة يهبّ فجأة من النافذة . كتبتِ من المكتبة وهي باردة في الليل . مع أني استطيع ان أتصوّر البرد والظلام ، فخيالي لا يستطيع ان يسلم بهما دون اي شيء آخر . اراكِ جالسةً على ارض الغرفة ، والشمس مشرقة عليك ، اذ كنا نتحدث في القرن السابع عشر . اراك متحركة ، والشمعة في يدكِ من رفٍّ الى رفٍّ ، لمعانها في شعرك وأخيلتها تتحرك عند قدميك . اراك تحت الاشجار تراقبين التنس ، وعائدة من الملعب وجالسة الى جنبي في عودتنا من رنوك ، وسائرة امامي في الطريق المفضية الى الكوخ . كل هذه الصور ، التي تنبعثين منها ، انما هي صورة واحدة تتصفى فيها الوف التأملات ، بل هي حقيقة اعظم من حقيقة الشيء المرئيّ

هنا ثغرة في كتابي ، مداها ثلاث ساعات او اكثر . لم استطع ان امضي في كتابته . فخرجت اتمشى في المرج ، حيث الاشجار تطقطق في هواء جليدي ، كأن حبالاً من الجمد

تتدلى من اغصانها . ثم جلست احدق في رسالتك ، وفي المصباح ، ومع ذلك لم اتمكن من المضي فيه . انني لا استطيع ان ادرك هدوء عقلك يا جولي . بل انني لا اعلم على ما كنت طويت رسالتك لو انك كتبت اليَّ — لا الى ديكارت

سأقول لك لماذا غادرت جيرة القصر من خمسة اشهر . فمن ناحية انت امرأة والاختيار لك — سبب تقليدي . اما من ناحية اخرى ، فلسبب خاص بي . انني استطيع ان اكتب عنه الآن ، بهدوء ورباطة جأش . أما حينئذٍ فلم يكن لنا الاّ الاستناد الى البديهة . فقضت بداهتك بأن اذهب . فكتبت كتابك في الحال ومن دون تردد . لم تفكري فيهِ بل جلست وكتبتِ . وبعد ساعة جاءني بهِ يعقوب الى الكوخ . فأيدت بديهتي بديهتك . علمت ان حبنا كان قد اصبح اعظم او اسخف مما نفقه — اما الكل او لا شيء . ولكنني لم استطع ان ارى ولا ان اميز . كنت احس ولكنني كنت عاجزاً عن الحكم

الحب الصداقة وكل صلة حميمة بين شخصين ، لها شخصية خاصة مميَّزة عن شخصية كل منهما المنفصلة ، مع انها نشأت من اندماج الشخصيتين . فخيانتها او افسادها او تشويهها او تحقيرها خطيئة لا تغتفر في رأيي . بيد انني لا اعتقد ان متعة الحب الجسدية خطيئة ، وانما هي تصبح خيانة مميتة ، حين يطغى على الصلة الانسانية ، التسليم بهذه المتعة او الرغبة فيها . فأنت وأنا ، باكتشاف احدنا الآخر ، اصبحنا اما ربّين يملكان في صلة احدهما بالآخر مقدرة على خلق جوهر لا يفنى ، اعلى منا كلينا ومستقلا عن لذاتنا ، او حيوانين وقعا في شرك . فاما ان تنمو شخصيتانا ، متجهتين نحو السلام والسكينة عن طريق حبنا وبسببهِ ، او تتلاشيان في الشهوة السخيفة . فحبنا ، قوة من وراء القدر ، في مكنتها ان تخلق شخصية مندمجة اجمل واشد حيوية ، من كلينا ، او هو لذة عقيمة لا غير . وكنت اودُّ ان اعرف ، واحكم على انفسنا . اقول « وكنت اود ان اعرف واحكم » ثم اذا بي لا اريد شيئاً الاّ ان اكون قربك ، وان اهجر الفكر ، في شهوتي لك . ولكن بديهتي كانت الى الذهاب ، كما كانت بديهتك الى امري بالذهاب . ومنذ ما ذهبت فهمت لماذا ذهبت

ثغرة اخرى . كنت في المرج ، حيث بدأ الصباح يتنفّس . وقد قرأت ما كتبتُ — كتاباً من قطعتين . تقولين كتاب محبّك ، وكتاب معلمك . ومهما يكن ، فلا بدَّ من ارساله كما هو ، فانني لا استطيع ان احدث تعديلاً في احد قسميهِ من دون ان اكذب عليك وعلى نفسي . حتى ما كتبهُ معلمك ، فكّر فيهِ محبّك . وفي هذه عذر عن جفافهِ . وكنت قد قلت مرّة انني لن احاول ان ابلغك ما يجول في نفسي ، لانك لابدَّ ان تسخري مني . ولكنني افضل ان تسخري على ان اخدعك ، لانني اراني الآن اكثر مما كنت قبلاً محبّك . . .

لوِس

اذا تحطم المصباح

— لشلي —

اذا تحطَّم المصباح خبا النور في التراب
اذا تفرَّقت الغيمة زال جمال قوس قزح
اذا تكسر القيثار نسيت النغمات الاخاذة
اذا تكلمت الشفاه اودت اناشيد الحب

الموسيقى والجمال لا يبقيان بعد المصباح والقيثار
كذلك اصداء القلب لا توحي النشيد اذا كانت الروح صامتة
لا توحي نشيداً بل نغماً حزيناً كالريح في غرفة متهدمة
او كتلاطم الامواج الذي يشيّع بهِ بحَّار الى القبر

بعد ما تمتزج القلوب يخرج الحبُّ من العش الذي احسن بناؤهُ
فينفرد الضعيف بحمل عبئهِ
ايها الحب الذي يأسى لضعف الاشياء على الارض
لماذا تختار الاضعف ليكون مهدك ودارك ونعشك

ان عواطفهُ تهزُّك كما تهزُّ العواصف الغربان في الفضاءِ
ويسخر منك الذكاء الالمعي كما تسخر الشمس من سماءِ الشتاءِ
في عشّك ينذثر كل عود ، فاذا جاد عقابك
تركك معرّضاً للسخرية ، متى تساقطت الاوراق وهبّت الرياح الباردة



مملكة المرأة

الملكة الممرّضة

لكريم ثابت

فوائد منزلية

اولادنا وتبعة الزواج

لكاتب اميركي

حديث عن الرحمة

لامين نخلة

عقل الطفل في تطوره

لاحمد عطية الله

مميزات الطفل النفسية

زينة البيت

الملكة الممرضة

ملكة البلجيك على ذكر وفاة الملك البرت الاول

لكريم ثابت

لما بلغ الدوق شارل ثيودور فتلسباخ البافاري الخامسة والثلاثين من عمره اعتزل خدمة الجيش بعد ما أبلى فيه بلاءً حسناً وانتظم في سلك كلية الطب بالجامعة وأكبَّ على دروس الطب بجد ومثابرة فلم يشجعه الاساتذة في بادىء الامر ظنًّا منهم ان الامير الطالب يريد تسلية وقتية حتى اذا سئمها كما سئم الجندية من قبلها لم يتردد في مغادرة الكلية وهجرها ، ولكنهم ما لبثوا بعد اشهر ان لاحظوا ان سموه اكثر زملائه اجتهاداً في دروسه وأشدهم مواظبة على تأدية فروضه فتحول ظنهم الاول فيه الى احترام لمواهبه وفي آخر سني الدراسة فاز سموه بدبلوم الدكتوراه في الطب وأراد ان يزاول صناعته اسوة بزملائه الذين نالوا الدبلوم معه فرأى من سداد الرأي ان لا يبدأ العمل في مدينة كبيرة كمدينة « مونيخ » فانتقل الى مدينة « تجرنسي » وفتح فيها عيادة جميلة ثم آثر التخصص فتخصص في امراض العيون وفتح عيادة جديدة في مدينة « ميرانو » ولما ذاع اسمه نقل عيادته الى « مونيخ » وكان قد اصبح من الثقات في الفرع الذي تخصص فيه

***

وكان للامير الطبيب كريمة اسمها « اليصابات » عرفت بالنشاط من حداثتها فطلبت منه ان يسمح لها بمساعدته في عيادته كممرضة فأجابها الى طلبها فاغتبطت اغتباطاً شديداً وأخذت تتردد على العيادة يوميًّا من اول ساعات النهار ولا تنصرف منها الاَّ بعد ما يغادرها آخر المرضى وقسمت مهمتها في العيادة الى قسمين فكانت عند ما يدعوها والدها الى جانبه لتساعده في عمل يعمله تؤدي ما تؤديه الممرضة العادية وعند ما لا تكون معه تجلس مع المرضى ولا سيما الامهات وتواسيهم وتبحث معهم في احوال الشعب الى ان يدق والدها الجرس فتخف اليه مسرعة

ففي جانب من جوانب تلك العيادة درست الاميرة اليصابات البافارية احوال الشعب الحقيقية وتعلمت « فهم الحياة ومعرفتها » كما قالت هي نفسها بعد ذلك

***

وكرّت الاعوام واصبحت الاميرة الممرضة ملكة للبلجيك بزواجها من جلالة الملك البرت الاول ملك البلجيك المتوفَّى حديثاً . ولا يسع الكاتب ان يتكلم عن جلالتهِ من دون ان يتكلم عن جلالتها

« لان كلاً منهما متمم للآخر » كما قال عنهما الكونت سفورزا الوزير الايطالي الكبير وقد عرفهما معرفة وثيقة ، فرأيت ان اصف لقارئات المقتطف جلالة الملكة اليصابات وكنت قد تشرفت بمعرفة جلالتها قبل زيارتي للبلجيك في الصيف الماضي فانهُ لما انتهت زيارتها وزيارة الملك البرت الرسمية لجلالة ملك مصر مكثت جلالتها اياماً اخرى في القاهرة زارت في خلالها جمعية الاسعاف وهناك تلطف سعادة وزير البلجيك المفوض السابق فقدمني لجلالتها ولما كنت في بروكسل في هذا الصيف رأيتها في بعض الحفلات التي اقيمت عند الاحتفال بعيد الدولة الوطني وشاهدت مبلغ تعلق الشعب الشديد بها

وفي اشتغال جلالتها كممرضة في عيادة والدها في صباها وعطفها على البائسين ما يفسر اهتمامها بزيارة جمعية الاسعاف في القاهرة

وفي خلال الحرب العظمى اشتغلت جلالتها كممرضة ايضاً في المستشفيات العسكرية فانهُ بينما كان زوجها الباسل يعيش مع جنوده في ميدان القتال كانت هي تطوف تلك المستشفيات لتضمد جروح الجنود بيديها الكريمتين ولتواسيهم وتبث روح الامل في نفوسهم بالفاظها العذبة وكثيراً ما كانت تقيم لهم حفلات اجتماعية لتسليهم وتنسيهم آلامهم وفي كل حفلة منها كانت جلالتها تعزف على كمنجتها بالبراعة التي اشتهرت بها ويقول العارفون انها من اقدر العازفات على الكمنجة وكان والدها الطبيب ماهراً في العزف على البيانو ويروي المتصلون باسرتهِ انهُ لما كان يجلس الى البيانو كانت كريمته الفتاة اليصابات تضطجع على الارض وتصغي الى عزفه بملء جوارحها

ولما انتهت الحرب وجهت جلالتها عنايتها الى انشاء المستوصفات والعيادات وكان بين الجمعيات التي انشأتها برآستها لهذا الغرض جمعية لمقاومة الامراض التناسلية ، وحدث يوماً ان عظيماً من عظماء البلجيك هنأها بالشجاعة التي ابدتها بتأسيس هذه الجمعية وقبول رآستها فقالت له: « ان معرفة احوال الشعب هي التي اوحت اليَّ بالواجب الملقى على عاتقي وكان هذا الواجب ينطوي على الارشاد الى الطريق بينما كانت النساء الاخريات يترددن وما دامت احوالي تسمح لي بالارشاد الى الطريق الذي يتعين سلوكه كان يجب عليَّ ان افعل ذلك »

وكان بين الحفلات التي اقيمت في بروكسل احتفالاً بالعيد الوطني حفلة لتوزيع «مداليات الشجاعة والنخوة» على الذين عملوا في خلال السنة اعمالاً تدل على الشجاعة والمروءة والنجدة كأن ينقذ شاب زميلاً له أشرف على الغرق او كأن يجازف معلم بحياته فيقتحم حجرة اشتعلت فيها النار لينقذ صبيين حصرا فيها الخ ... وشهد هذه الحفلة جميع افراد الاسرة المالكة احتراماً لتقليد متبع في البلجيك وهو ان تشهد الاسرة المالكة كل الحفلات الشعبية التي تقام احتفالاً بالعيد الوطني

وكانت الملكة لابسة ثوباً بسيطاً كعادتها وتحادث الجالسين حولها ببساطتها العادية ولكن ملامحها وكل حركة من حركاتها ومشيتها كانت تنم على الدم الملكي الذي يسري في عروقها

وفي كل مرة كانت تقف جلالتها لتسلم مدالية لمستحقها كان الشعب يقابلها بعاصفة من التصفيق والهتاف . ومما تحسن الاشارة اليه هنا ان موظفاً كبيراً في وزارة الخارجية البلجيكية قال لي « ان عدد الاطفال الذين سموا البرت واليصابات في الشهر الاول وحده من شهور الحرب العظمى يزيد على عدد الاطفال الذين سموا بهذين الاسمين منذ ما اعتلى الملك البرت العرش الى ان نشبت الحرب وذلك لان ما اظهره الملك والملكة من اليوم الاول من ايام الحرب جعل الشعب يشعر بأن هناك رابطة جديدة تربطه بهما وهي رابطة التضحية المشتركة »

***

ولا اريد ان اختم هذه العجالة عن الملكة اليصابات من دون ان اشير الى زيارتها الاولى لمصر في سنة ١٩٢٣ فانها بعد ما تفرجت على مقبرة الملك توت عنخ آمون عادت الى بلادها وهي مفتونة بعظمة هذه الآثار وجمالها فما كادت تصل الى بروكسل حتى فكرت في تخليد ذكرى هذه الزيارة بانشاء معهد للعاديات المصرية فكاشفت بذلك الاستاذ كابار العالم البلجيكي الكبير فأيد الفكرة وتم انشاء المعهد باسم « معهد الملكة اليصابات للعاديات المصرية » وهو يشغل اليوم جناحاً كبيراً في البناء الاكبر للمتحف الوطني في بروكسل وقد اصدر المعهد حتى الآن مؤلفات شتى عن الآثار المصرية ومصر الفرعونية

وتلقى في المعهد من وقت الى آخر محاضرات نفيسة عن مصر القديمة وفي كل مرة تقريباً يرى المجتمعون لسماع المحاضرة سيدة طويلة القامة نحيلة الجسم تفتح باب القاعة بيدها ثم تسير الى اول كرسي تجده وتجلس عليه كأنها فرد من الافراد فيتهامس الحاضرون قائلين : الملكة

فوائد منزلية

* اذا صب الشاي على غطاء المائدة فذر عليه ملحاً ناعماً حالاً واتركه فمتى غسل لا يظهر فيه اثر الشاي
* اذا اضيفت ملعقة صغيرة الى الخرشوف (ارضي شوكي) حين طبخه بقي لونهُ اخضر ولم يسود
* صب في بالوعة المطبخ كل يوم قليلاً من الماء الغالي والصودا فتأمن صعود الغازات الضارة منها
* يمكن حفظ السمك طرياً مدة يوم او يومين باضافة أوقية خل الى اربعة وعشرين اوقية من الماء واغلائه وتغطيس السمك فيه دقيقتين لا غير ، ثم يعلق في مكان بارد
* أفضل الطرق لتنظيف البسط وهي مفروشة اذا تعذر رفعها ونفضها ان تمسح بخرق مبلولة بالماء السخن والامونيا

اولادنا وتبعة الزواج

لكاتب اميركي

في صباح يوم جميل جاءني صديق عزيز وعلى وجهه أمارات الاسى والغضب. حييتهُ وابتسمت له فرد التحية وقال بصوت فيهِ آثار الانفعال.

— نربيهم ونتعب عليهم ثم انظر ماذا يفعلون

عرفت الى ما يشير لان الصحف كانت قد ذكرت ان ابنهُ وعمره تسع عشرة سنة كان قد فر مع فتاةٍ ليقترن بها. وقصَّ عليَّ قصة ابنه وهي لا تخرج عما يقع عادة في مثل هذا الحادث من تبادل الحب، فالتعاهد على الزواج، فرفض والدي احد المتعاهدين او والديْ كل منهما، فالفرار. فما كاد ينتهي من سرد حكاية ابنهِ حتى بادرته بالسؤال: —

— هل حدَّثت ابنك هذا عن الزواج، وأفهمتهُ ما ينطوي عليهِ من تبعات قبل ان طلبُ منك السماح له بالزواج؟ فقال

— كلاَّ لم احدثه بشيء من هذا. ولماذا يجب ان احدثهُ عن الزواج. انهُ لا يزال في التاسعة عشرة من العمر، ولم يخطر ببالنا انهُ يفعل ما فعل. ولما فاتحنا في الموضوع اخلصنا لهُ القول ومحضناه النصح ولكنه لم يصغ الينا

والحوادث التي على هذا النمط كثيرة فكم من فتاة لا تزال في مقتبل العمر وميعة الصبا، تزوجت وطلِّقت لانها لم تفهم ما هي التبعات الخطيرة التي يلقيها الزواج على الزوجين، قبل اقدامها عليهِ. وكم من شاب هدمت سعادته لان والديه اهملا ذلك

اما انا فلديَّ ابن وابنة، وقد عزمت بعد حكاية صديقي ان اعلمهما ما يتعلق بالزواج قبل ان يصلا الى شفا الجرف، وقد اغمض عينيهما الحب الذي يستولي على الشاب او الفتاة للمرة الاولى. سوف اعلمهما ما في الزواج من خطر الشأن، وما عليهما من واجب، وما يتوقع ان يلقى على عاتقيهما من تبعة، حتى اذا اختار احدهما ان يتزوج فعل ذلك وهو بصير بما اقدم عليه

> كل شيء في الطبيعة يرمز ويتكلم عن الامومة. فالشمس هي ام الارض ترضعها حرارتها وتحضنها بنورها ولا تغادرها عند المساء الا بعد ان تنومها على نغمة امواج البحر وترنيمة العصافير والسواقي. وهذه الارض هي ام للاشجار والازهار تلدها وترضعها ثم تفطمها. والاشجار والازهار تصير بدورها امهات حنونات للاثمار الشهية والبزور الحية. وام كل شيء في الكيان هي الروح الازلية الابدية المملوءة بالجمال والمحبة
>
> [جبران خليل جبران]

اريد ان افهم ابني ما في الزواج من الخطورة والشرف. وان عقد الزواج الذي يعقده مع زوجه هو العقد الوحيد الذي يمتد طول الحياة. من السهل على الفتى ان يهوى فتاة جميلة، او فتاة ذكية او فتاة رشيقة، او فتاة «نغشة» ظريفة،

ولكن الصعوبة كل الصعوبة ، ان يستمرَّ حبها له ، ومن الواضح ان الزواج لايكون هنيئاً الاَّ اذا استمرَّ الحب المتبادل بين الزوجين

وسوف اعلمه ان في كل من الزوجين نقائص وعيوب وهفوات . ولكن عين المحبة الصحيحة المستمرة ، يجب ان تغضي وتتجاوز عن جميع هذه الهفوات . يجب ان يعلم ان نضارة الوجه وغضارة الشباب ، لا يستمران مدى الحياة كما عهدهما اولاً ، ويجب ان يستعد لذلك متزوداً بالمحبة الصحيحة والفهم العطوف

***

كذلك سأفهم ابني ان البنات لسنَ ملائكةً كما يتراءى له بادىء ذي بدءٍ . وان لهنَّ هفوات وزلاَّت كسائر الناس . فالفتاة التي يرى في عينيها بريق العطف والكياسة ، قد تكون سريعة الغضب حادة الطبع ، والفتاة التي تغني بأعذب الاصوات فتطرب ، وتنطق بأليق الالفاظ فتسبي ، قد تنطق في ساعة غضب بما لا تفوه بهِ لو كانت مالكة عنانها . لذلك يجب ان يكون مستعدًّا لتلقي مثل هذه الصدمات ، حتى اذا وقعت عرف كيف يأخذها بصدر رحب وبشاشة تدل على انهُ يفهم ما في الطبع البشري ، من النقص ، وشعور عميق يدل على ان قوة المحبة فيهِ تستطيع التجاوز والتسامح . ثم هناك مسألة أخرى ، وهي ابداً ماثلة امام الشاب ، وهي هل يستطيع ان يقوم بنفقات بيتهِ العتيد ؟

على انني لن اشدّد كثيراً على ابني في هذا الموضوع : لانني اعرف كثيرين تزوجوا ولم يكن لديهم سوى دخل يسير ، فكان زواجهم سعيداً ، بل كان دخلهم اليسير ، باعثاً قويًّا على اجتهادهم ونجاحهم . وانما اريد ان اشدد على ابني في الاسئلة الآتية حين يقع اختياره على فتاة :

ماذا تعرف عن اسرة الفتاة ؟

أتحب والديهما وتسر للقياهما ؟

أينغص عيشك اذا اضطرَّا ان يقضيا باقي عمرهما في بيتك ؟

أتستطيع ان تعيش مع اخٍ لها او اخت لها ؟

هل في اسرتها احد لا تطيق سلوكه ؟

هل تتفق معها في المسائل الدينية ؟

هل تحب اهلها حتى ليدفعك حبك الى مساعدتهم اذا كانوا في حاجة الى مساعدتك ؟

***

هذه بعض مطاليب الزواج يا ابني . نعم انك تتزوج الفتاة دون اهلها . ولكن لا يمضي زمن قبل ان تدرك ان ما كان عزيزاً لديها يجب ان يكون عزيزاً لديك وموضع احترام منك . انك

لا تقدر ان تصرف النظر عن اهلها وتحافظ على محبتها لك . ولا ريب في انك سوف تقضي — في الغالب — جانباً من حياتك معهم وقد يتعين عليك ان تنفق عليهم

قد يظهر لك ان هذه امور سهلة ولكن اذكر ان هذه الامور سوف تستمرُّ مدى الحياة

أتستطيع ان تتجاوز عن هفوات زوجك ومطالبها الخاصة !

أتستطيع ان تغضَّ النظر دائماً عما قد يشوب طبعها من الحدّة !

أتستطيع ان تتجاوز عن ذلك وتحافظ على حبّك اياها ؟

قد يزيل المرض جمالها ، او قد يذوي الحزن زهرة شبابها ، او قد تسبب هموم البيت واعمالهُ ، غضوناً في وجهها ، وخشونة في يديها ، افتستطيع ان تحبّها رغم ذلك ؟ أتستطيع ان تضحّي ببعض مطامحك من اجلها ، اذا كانت لا تقدر ان تسير معك او اذا عجزت عن اللحاق بك في تقدمك ؟

***

اما ابنتي فسوف اعلمها ان الزواج ، رهيب وطاهر . وسوف اعدّها لتكون زوجة امينة واماً صالحة . سوف اعلمها ان الزواج والواجب امران لا ينفصلان . بل سوف ادرّبها حتى لا يعمي الحبُّ عينيها ، عن رؤية الخلق الصالح المتين ، وانها اذا رأت شاباً يجيد الرقص ، او يحسن تزويق الكلام ، فيجب الاَّ تخدَع وتحسب انهُ يستطيع الاجادة في اعمال الحياة الخطيرة

الملائكة بين الرجال قلائل يا ابنتي . والشاب الذي تهوينهُ لا يستمرُّ مدى الحياة على ما عرفتهُ فيهِ من اللطف والدعة والكرم والايثار . هموم الحياة كثيرة . ومقتضيات العيش مرهقة . وقد يجيئك الغد ، بما لم تعهديهِ في زوجك من قبل . فكوني حكيمة يا ابنتي لانك سوف تجدين في زوجك عيوباً لم تكتشفيها من قبل . فكوني ، مستعدّة لمواجهتها بصدر رحبٍ ومحيّاً طلق . واذا كنت تشعرين انك تحبين شاباً ، رغماً عما ترينهُ فيهِ من العيوب وعمّا قد يظهر فيهِ من الانانية والخشونة يوماً ما ، فعندئذٍ اقبليهِ زوجاً لك

***

الاحترام والفهم يجب ان يكونا اساس الحبّ . على المرأة ان تعجب بخلق زوجها ، اذا شاءت ان تمتحن حبّها لهُ وهل يصلح هذا الحبُّ قاعدة للزواج . كذلك على الرجل ان يحمل اعباء الحياة بشجاعةٍ وثباتٍ ، اذا اراد ان يحتفظ بحب زوجتهِ واعجابها بهِ . فأنا اريدك يا ابنتي ان تدركي انك حين تخرجين من حفلة الزواج ، عليك ان تخوضي مع زوجك بحر الحياة الزاخر ، بما فيهِ من اتراح وهموم واخفاق ، وما فيهِ كذلك من بهجة وسرور وظفر . كذلك يجب ان تعاملي اهلهُ كما تنتظري منهُ ان يعامل اهلك . فقد اتحدت الاسرتان في الاسرة الجديدة

حديث عن الرحمة

(كُتبت في المستشفى)

لامين نخله

هذا اول يوم تتلاقى قدماي فيه على الفراش بعد الفرقة . فاضمّ الواحدة الى اختها ، او الفّها عليها ، او ارسلها في ثنايا اللحاف . طلاقة يحسدني عليها مثلاً المسكين جاري في الغرفة المحاذية . وقد مرَّ عليهِ الشهر ، وهو مشدود الى سرير الحديد . وهكذا يقنع بالقليل من الشطر ، من لا يستطيع ان يصيب الشطر جميعاً ! او يقايس كما يقول (ديكنز) بين قليله وقليل الآخرين ، فيقنع بالقلة . وهنا وجدوا (الكنز الذي لا يفنى) ....

ففي فرحة هذا التلاقي تحت اللحاف احنّ الى القلم . فكأن الكتابة (صحة) الكاتب ، كما ان الايراق صحة العود ، والجري صحة الماء

ثم اني احنّ الى المداد لا الى قلم الرصاص . فكأنني لا اريد ان اصيح بالصوت الخافت ، بل بالمداد الازرق ، فأهتف في مسمع العيش عالياً : اني تعافيت !

اذن فهذا قلمي في يدي ، احركه في رفق كثير ، ليس له بهِ عهد . فتشمله الآن نعمة (المورفين) ، اسبغها عليهِ من اطراف اصابعي . و (المورفين) اخت رحمة الله ، في ليالي الارق والتبريح . او الاستغناء الضيق عن تلك الرحمة الواسعة . وهي من جهة شق النفس وذل الطلب كرحمة الله ايضاً . هيهات ان يفضّ الطبيب حقّها ، الاّ بالضراعة وبالتوسل

فياقلمي . لقيتك بعد اليأس والبرح ، فكأني لقيت مفتاح السرور . اغرزك في كل باب من ابواب خواطري ، فيتفتّح على الانشراح والغبطة ، وأطلّ منهُ كما اطل على مباهج الالواح الايطالية فمن خفق جناح على الربوة ، الى لمع شعاع في مرآة الصحو ، الى هبوبٍ حلوٍ ، يتهادى على كتف الشاطىء ، الى الف شيء آخر من افراح المريض ايام النقاهة !

يقول (نيتشه) : « العضو الواهن في الجسم الانساني عبء ، فاقطعوه »

قُطع لسانه ! أما والله لو كنت من جيل (نيتشه) ، لجمعتُ اليّ آلاف الخلائق من المرضى ، وخرجت اليهِ بهذا الجمع المتثاقل الخطوات اصيح في وجهه ، ويرددون من ورائي : نحن الواهنين يا نيتشه ، فاذا اطّرحتنا نسخت الرحمة من الوجدان البشري وقضيت على اكرم الشيم وأفضل الطبائع

وفي الحقيقة ان دنيا عريضة تزخر باصناف البهجات وتعجّ باشكال اللذائذ ، ولكن ليس فيها على ذلك كله يدٌ تقبل على الجريح بكأس من الماء ، لهي دنيا يحقّ لجماعة « اليسوعيين » ان يولولوا عليها باسم (يسوع) ، وان ينبري كتّابهم لسلقها بالاقلام وبالالسنة . ولعلّ هذه

اول مرة اتلاقى فيها واليسوعيين على رأي !

***

كانت ليلتي الثانية في المستشفى « نابغيّة » من اشدّ لياليّ هولاً . فلما تحرّك الصبح حننت الى جرعة ماء . فدخلت عليّ أليس[1] ملاكاً ابيض بلا جناحين . فتناولت الكأس من يدها ، وكأنها تقدّم لي الدنيا على كفها ، فقلت لها : اظافرك هذه في عين « نيتشه » ، ولتغرز غرزاً !

فلم تعرف الممرضة ما « نيتشه » هذا ، وما دخله في كاس ماء وارواء غليل . فقلت : نيتشه نقيض القديس « جان ده ديو » على خط مستقيم . القديس جان خلع حياته على المرضى المساكين . ونيتشه يراهم اعباء ثقيلة على ظهر المجمع الانساني يجب طرحها . ومن حسنات الحظ كان نيتشه لم يترك من بعده ذنباً . فلم يقم كاتب على خلافته . في حين ان جمعية Fate Bene Fratelle التي ألّفها صاحبنا القديس الاسباني تضرب فروعها في كل صوب

قالت أليس : وحقك ان نيتشه هذا المعوعج الاسم ما انتابه وجع رأس في عمره ...

***

ان حكمة « أليس » المختصرة تقطر عقلاً ! وهي على اختصارها ، شرح مسهب في الصدد لقول حكيم العرب الاشهر « ابن اكثم » : يعرف الجنة في النار !

كان فقيد الادب الرفيع احمد شاكر الكرمي — فيّأ الريحان قبرهُ على الجانبين — اتعس ما يكون في خريف ١٩١٩ . فقد ألحّ عليه الداء وبراهُ الضنى ، وانقطع خيط الامل منه . وبيني وبين شاكر ما بين الماء والراح . وداد كالهوى ، وكاسم الهوى طيّب ! فكيف يحول « المكروب » بين شقيقيّ نفس وأدب وصبي في اخريات ليالينا . بخاصة وشاكر على عشية فرقة وازماع سفر طويل . فكنت اقرب الخلق الى فراشه احمل للحبيب المضنى الاحاديث او الذكريات والسلوان حتى يشهق الليل !

وكان (ليون دوده) لايزال بعد في (بلجيكا) ينشر في (الاكسيون فرانسيز) رسائله التي طبقت الفلك يومذاك . فسألني شاكر في احدى العشيات ان انقل له ، وهو يسمع ، مقالة من مقالات (دوده) تلك . فوقعنا على واحدة يأتي الكاتب فيها ، على ذكر الطب واهله ، فيشيد بذكر العباقرة الاطباء ، الذين نفحوا البشر بنوادر العلاج ، في طراز من المديح . يندلع لهُ حسداً لسان « أبي الطيب » نفسه !

فقلت — الرجل درس الطب وتوفر عليه ،

> **ليلة النابغة**
>
> يروى عن الاصمعي انه قال انصرفت ذات ليلة من دار الرشيد وانا اشكو علة ثم غدوت اليه فقال يا اصمعي كيف بت البارحة قلت بليلة النابغة فقال لعلك اردت قوله :
>
> فبت كأني ساورتني ضئيلة
> من الرقش في انيابها السم ناقع
>
> فقلت انما اردت قوله :
>
> كليني لهمّ يا اميمة ناصب
> وليل اقاسيه بطيء الكواكب

(١) مديرة مستشفى رينز في بيروت الآنسة أليس سلامه

قبل ان ينقطع الى القلم « وتدركه الحرفة . . . » فلا تعجب لهذه القصائد المزرّرة ينظمها حنيناً «لاول منزل» . . . فابتسم شاكر ابتسامته الملساء العذبة ، التي لم تستطع يد الغاسل في ما بعد ان تمحوها . ثم قال في جد كثير :

— قسوت على (دوده) — وتطلع الى رفوف في الزاوية ، مكتظ بالكتب — افتحسب انت « انت نفسك ! » ان ملايين الحروف هـذه تفيدني اليوم شيئاً ؟ ؟ هات سرولة واحدة من (الانجيولمف) ، وعلى تصانيف الادب والفلسفة العفاء . واذا قيل : الكاتب فلان لا فضّ فوه ، وجب ان يقال : الطبيب فلان قبلت يده ! وبين عالم الادب وعالم الطب هوّة من الفرق . عالم الطب يزخر رأفة ، وعالم الادب فقدان الرأفة فيه ، ضربة لازب . وما بالك اذا دبّت الرأفة الى اقلام النقدة ، فهادنوا الادعياء والفضوليين ، وتركوهم ينقرون على « مائدة افلاطون » شمالاً ويميناً . فالرأفة اذن سجيّة الطب . والمريض عتيق الرأفة ، يعيش على حواشيها ، ويفيء الى اكتافها !

فشجاني تلك العشية كلام شاكر ، الذي يقطّعهُ عدّان السعال، وتحزّ فيهِ البحّة. وهو يعاودني اليوم وانا عتيق الطب ، فيهدر في مسمعي ، ويضج في ضميري !

فيا اطباء الكون قُبّلت اياديكم . وقد آمنت بحكمة « أليس » وادركتني من عبقري فيكم ، رأفة مسحت جراحي . اما « نيتشه » عدو المريض ، والجريح المؤرق في عتمة الليل ، فالله « يرحمهُ » بزهرة تؤنس الوحشة عند قبره ! ! — بيروت —

خزن ضوء الشمس

في الحلوى

ضوء الشمس المخزون في مختلف المواد الغذائية، من احدث الوسائل لمعالجة امراض الدرن وفقر الدم والكساح. ويقال ان طبيبين من اطباء مدينة فينا كشفا عن طريقة لتعريض الشوكولاطة للاشعة التي فوق البنفسجي من غير ان يفقداها شيئاً من طعمها الاصلي او يغيرا رائحتها ، وقد جرب المخترعان نتاج طريقتهما اولاً في الفيران فأخذا يغذيانها بتلك الشوكولاطة ، المعالجة بالاشعة، فسمنت كثيراً . ثم جرباه في تغذية النـاس فكانت فائدتهُ عظيمة ، اذ استعاد الناس الذين تناولوا هذه الشوكولاطة شهوتهم للطعام ، وقويت دماؤهم ، بمعنى زيادة كرياتها الحمر ومن المعروف ان العلامة ستينبوك الاستاذ بجامعة وسكنصن الاميركية ، اخترع طريقة لاشباع الحبوب الغذائية بضوء الشمس الصناعي فنال باختراعهِ امتيازاً من حكومة اميركا ثم نزل عنهُ الى الجامعة المشار اليها خدمة للانسانية، فقدمتهُ الى مصانع الاغذية التي تصنع المأكولات الخاصة بطعام الافطار واشترطت عليها بيع الاغذية، المشبعة بضوء الشمس الصناعي للجمهور ، على ألاّ تزيد أسعار هذه الاغذية ، لكي يقبل الناس على شرائها واستهلاكها ، فتعم فوائدها الصحية

عَقلُ الطِفلِ
في تطوره

بقلم احمد عطية الله

— ٣ —

﴿ طرق دراسة الطفل ﴾ لعلَّ العناية المتأخرة بدراسة الطفل ترجع الى حد كبير الى الصعوبة في طرق هذه الدراسة . فبينما من السهل ان نحكم على استعداد رجل بالمجهود الذي يبذله في عمل من الاعمال او بالقاء اسئلة اختيارية كما هي الحال في الامتحانات المدرسية ، او نحكم على سلوكه من معاملته للغير او بملاحظة العادات التي تكوَّنت فيه وصارت طبيعة ثابتة ، اذا بالطفل لا يساعدنا على اجراء مثل هذه الاختبارات

الصلة بيننا وبين الطفل صلة غير وثيقة ، فهو اما ان يكون عاجزاً عن استخدام اللغة كأداة للافصاح عن شعوره ، او ان يكون عاجزاً عن التحكم بألفاظه واختيار ما هو انسب وأدق . لهذا كانت النتائج التي قد يصل اليها بعض الباحثين في سيكلوجية الاطفال قابلة للنقد والتفنيد لتأثرها بعوامل مختلفة ، قد تغيب عن ملاحظة الباحث ، او قد يخطيء في تقديرها لنوع العلاقة بينه وبين الطفل . ودراسة الطفل تأخذ طريقين :

(١) مراقبة تقدم الطفل (٢) مقارنة مجموع من الاطفال في سن واحدة

والطريقة الاولى ايسر تطبيقاً اذا اخذنا بها ، لاننا لا نتطلب موضوعاً للدراسة Subject الاَّ طفلاً واحداً او عدداً محدوداً منهم وتتلخص هذه الطريقة في مراقبة سلوك الطفل في كل دور من ادوار حياته ، وذلك بتدوين سجل لحياته العقلية في كل مظاهرها . فاذا جمعنا هذه المادة الاولية امكننا ان نقسمها الى مجموعات ، كل مجموعة تختص بدور معين ، او ان نأخذ اوضح طبائع الطفل في كل دور كميزات لهذا الدور . وبهذه الطريقة يمكننا ان نراقب التطور الجسمي والعقلي والخلقي الذي يسير فيه الطفل

ولكن لهذه الطريقة مساوئها ، لان اعتمادنا على طفل معين ، او مجموعة محدودة من الاطفال تجر الباحث الاستقرائي الى استنتاجات خاطئة ، او الى قوانين لا يمكن تطبيقها تطبيقاً شاملاً . والآباء في البيت هم الذين يتسنى لهم ان يقوموا بهذه المهمة لا سيما في ادوار الطفولة الاولى حيث يقضي الطفل جماع وقته في البيت تحت رعاية امه وعناية والده . وهذا هو الخطر في قيمة هذه

الابحاث ، لان النتائج التي نصل اليها عن هذا الطريق تكون عادة متأثرة بميول هؤلاء الآباء مهما حاولوا التخلص من آثارها . ومما يجدر ذكره ان كثيراً ممن قاموا بمجهودات طيبة في هذا السبيل قد اجروا ملاحظاتهم على ابنائهم

والطريقة الثانية في دراسة الطفل تتلخص في مقابلة مجموع كبير من الاطفال في سن واحدة وجعل بعض طبائع الاطفال محوراً لهذه الدراسة المقابلة ، وكلما اتسعت دائرة البحث واختلفت البيئات التي يعيش فيها هؤلاء الاطفال ، كانت النتائج الاستقرائية التي نصل اليها اقرب الى الصحة لان البيئة وتقاليد البيئة تؤثر في صحة هذه النتائج وقيمتها . فباكتشاف الطبائع والاستعدادات العقلية المشتركة بين هؤلاء الاطفال يمكن ان يستخرج الباحث مميزات لهذا الدور من ادوار الطفولة او ذاك . والصعوبة في الاخذ بهذه الطريقة عدم وجود العدد الكبير من الاطفال الذين في سن واحدة ، الا لافراد قلائل ممن يتسنى لهم الاتصال بمجموع الاطفال الذين يضمهم مكان واحد كالمدارس

والصعوبة الثانية في نجاح هذه الطريقة ، هي ان القائمين بمثل هذه التجارب عادة غرباء عن هؤلاء الاطفال ، لذلك كان من المحال ان نثق باجابة الاطفال اذا كان البحث يحتاج الى سؤالهم . فاذا كان المختبر (السيكولوجي) من معلمي المدرسة التي يختبر تلاميذها ، فان الاطفال يعرفون بطبيعتهم الناحية التي يرون ميلاً اليها من معلمهم فيجعلون اجابتهم محققة لرغبة المعلم . واذا كان المختبر غريباً عن الاطفال ، اكتشف بسهولة اصطناع الاطفال في الاجابة لا سيما اذا كانت اسئلته تدور حول الحياة المدرسية

ولكن مع كل ذلك فالاحصائيات التي تستخلص من مثل هذه التجارب تعتبر بلا شك اقرب صدقاً من الطريقة السابقة لهذا كانت دراسة الاطفال في الوقت الحاضر متجهة الى هذه الطريقة ولا سيما في اميركا

المقال الرابع

النمو الجسمي والحسي عند الاطفال

المقال الخامس

الطفل في عامه الاول

فعل اللبن في النمو

بحث الدكتور مان من اعضاء مجلس البحث الطبي البريطاني ، في تأثير اللبن في نمو الاطفال ، فأخذ ٥٠٠ ولد من اللقطاء وغذى بعضهم بغذاء عادي مغذ حاو للبن والزبدة ، وغذى البعض الآخر ، بغذاء مثله تماماً ولكنه خال من اللبن والزبدة فزاد وزن الولد من الفريق الاول على وزن الولد من الفريق الثاني في خلال اربع سنوات نحو اربعة أرطال الى نحو سبعة ارطال ، وزاد طوله من نحو بوصتين الى اكثر قليلاً من بوصتين ونصف بوصة

مميزات الطفل النفسية

قبيل المراهقة

الحياة بين السنة التاسعة والسنة الثالثة عشرة فريدة بما يمازج حركاتها وسكناتها من العواطف والرغبات الجديدة والاميال والافكار والانفعالات التي لم تظهر قبلاً . فالولد الآن هو غير الطفل الذي كان او الشاب الذي سيصير والفتاة تختلف كل الاختلاف عما كانت عليهِ في سني حياتها الاولى وعما ستصير اليهِ في مستقبلها القريب

١

تبدأ في هذا الدور المميزات الجنسية بالظهور وتكون الصحة فيهِ على اقواها ومقاومة الداء على ارفعها والحركة على اشدها والنشاط على اوفرهِ وقوة التمييز والمحافظة على احدّها ويكون النمو في القسم الاول بطيئاً وخصوصاً في الصبيان ثم يسرع قبيل الدخول في دور البلوغ (المراهقة)

وتلاحظ الامهات ان اكثر المميزات ظهوراً في هــذا الدور هو روح الاستقلال والاعتماد على النفس . فيبدأ الولد بانشاء علاقات شخصية خارج البيت مع اصدقائه العديدين ورفاقهِ في الدرس واللعب. فيؤلفون الجمعيات التي غايتها الذهاب معاً الى السينما او السباحة اوصيد الاسماك او الطيور. والولد في هذا الدور تثيره روح الشجاعة ويدفعهُ حب الاقدام والمغامرة فيقدم على الهرب من المدرسة لكي يتابع ما يرى فيهِ لذة فائقة وبهجة لاغاية وراءها . واذا لاحظنا اعمالهُ وحركاتهِ بدقة وجدنا انهُ عاد لايعنى بالالعاب الخيالية الوهمية التي كان يعني بها قبلاً لانهُ في دور حياتهِ الجديد كما في الادوار السابقة يسعى وراء حسيات الحياة تاركاً معنوياتها جانباً وذلك طبيعي فيهِ . ولكن مع كل ما يظهر فيهِ من حب المغامرة والحركة والمخاطرة نرى ان روح احترام القانون قد شرع يؤثر في حياتهِ تأثيراً يدفعهُ الى اطاعة قوانين العصبة التي ينتمي اليها بفرح وسرور وفضلاً عن ذلك فهو يشعر ان طاعة القانون ضرورية له لكي يتمكن من المحافظة على مقامهِ الاجتماعي الجديد

وظهور المميزات الجنسية تقضي بانفصال الصبيان عن البنات بحكم الطبع لان البنات في هذا الدور يصبحنَ غير قادرات على الاشتراك مع الصبيان في اعمالهم العديدة المتنوعة التي تحتاج الى قوة وشجاعة واقدام والصبيان لا يميلون الى الالعاب التي تلعبها الفتيات ولا الى الجمعيات التي يؤلفنها فبينما نرى الصبيان يؤلفون العصابات التي غايتها القنص والسباحة واصطياد الطيور والاسماك . نرى الفتيات يؤلفنَ جمعيات الخياطة والاحسان وما شاكل

٢

وبظهور الغرائز الاجتماعية وباندماج الاولاد في الجمعيات السابق ذكرها ينمو فيهم وخصوصاً في الصبيان منهم روح احترام الرأي العام . ورأينا الولد في ادوار حياتهِ السابقة يقتدي بوالديهِ ويقلد

معلميهِ . ولكنهُ في هذا الدور من الحياة يتمثل ببعض افراد عصبتهِ الذين حبتهم الطبيعة بالخلال والمزايا التي جعلتهم محترمين مكرَّمين من جميع رفاقهم . انهُ لا يهتم برأي الكبار المحنكين مهما كان الرأي صالحاً والقول صواباً بل يفعل « ما قاله الرفاق » . ولا شك في ان الولد من هذا الامر في خطر عظيم لانهُ قد يعتاد اموراً تضرُّ بهِ وبمستقبله وخصوصاً لان جميع رفاقهِ احداث مثله لم يبلوا الحياة ولم يعركهم الدهر . على ان ما يناله من التمرين على احترام رأي الاكثرية ضروريٌّ لهُ حين خروجهِ الى مدرسة العالم الكبرى حيث يرى الدمقراطية سيدةً في الجمعيات والمجالس والحكومات، تقضي باتباع حكم الاكثرية ولو كانت على شطط . وفي هذا الامر عبرة لنا ابناء الشرق لاننا لم نتعلم بعد احترام رأي الاكثرية بل يظن الواحد منا ان رأيهُ هو الرأي الصواب وقولهُ يجب ان يكون القول الفصل . وما دمنا كذلك فلسنا اهلاً للحكم النيابي الدموقراطي الذي ننشده ونسعى وراءه . جميع بلدان الشرق لم تزل طفلة من الوجهة الدموقراطية ولا تستطيع السير نحو غايتها الرفيعة الاَّ اذا تعلم فتيان اليوم وفتياتهُ الانحناء بخشوع واحترام امام الرأي العام — امام قرار الاكثرية

٣

زد على ذلك ان الولد يبدأ في هذا الدور من حياتهِ يتفهم معنى الشرف والامانة والمحافظة على وعوده والدفاع عن سمعتهِ وسمعة اخوانهِ ورفاقهِ وهذه الصفات من افضل فضائله . ولا يخفى ان آراءه قد لا تُصيب محجة الصواب احياناً وقد تركب في الكثير من الاوقات متن الشطط ولكن في المحافظة على ما يعتقده حقًّا والامانة في تنفيذ وعوده ولو كانت ضارة بهِ فضيلتان يجب ان نحلهما محلهما من الاكرام والتنشيط . فاذا فعلنا ذلك تمكنا من احتلال معاقل نفسهِ والنفوذ الى مكامنها الخفية فنستطيع عندئذٍ ان نساعده على السير في معترك الحياة مرفوع الرأس باسم الثغر ناهجاً سويَّ السبيل متوسلاً بأفضل الوسائل وأصلحها

في الولايات المتحدة في مدينة دنفر قاض في محاكم الاولاد يدعى لندسي . هذا القاضي استطاع ان يخلص اولاداً كثيرين من مسالك الشر ومهاوي التهلكة لانهُ وثق بهم وجعلهم يشعرون انهُ يحترمهم ويثق بمقدرتهم على النهوض من حمأة الرذائل التي سقطوا فيها . واسمهُ اليوم معروف في انحاء العالم المتمدن وكثيرون يقتفون خطواتهِ وينسجون على منوالهِ . وفي ذلك دليل على اننا نستطيع الاعتماد على ما في الفتى من روح الشرف والتفاني في سبيله

٤

وتكثر في هذا الحين احلام الفتى الذهبية ومطامحه الرفيعة وآماله الكبار ولكنها احلام اقرب الى الحقيقة منها الى الوهم ومطامح وآمال يتثبت الولد من حقيقتها لانهُ يرى نتائجها في الرجال الذين يراهم ويقرأ عنهم . اولئك الذين رفعهم اجتهادهم الى أعلى ذرى الشهرة والعظمة . فهو من هذا القبيل كتلة من الامل تبحث عن هادٍ يضعها على طريق الحياة الصالح ونهجها القويم فتسير الى

المجد الذي تضمره الايام في ثنايا لياليها للمجدّ المجتهد . ففي دور الطفولة الثالث تظهر عاطفة عبادة الابطال والنسج على منوالهم والسعي في اثرهم . والولد لا يفرق مطلقاً بين مثل أعلى مجرد والرجل الذي يتجسم فيهِ ذلك المثل او بين مبدإ سام والانسان الحائز عليه . فاذا فكر بالجرأة الادبية تمثل لهُ النائب الفلاني الذي دافع في المجلس النيابي دفاع الابطال مبيناً كل ما يتعلق بالقضية من الحقائق غير خائف في الحق لومة لائم . واذا قرأ عن البذل والتضحية يذكر ممن عرفهم او سمع عنهم شاباً سار مخترقاً اللهب او مقتحماً هول الامواج الطاغية ليخلص طفلاً يحترق او ينجي فتاة تغرق . واذ ذكر الشجاعة والاقدام ذكر القوّاد العظام ورواد القطبين ومكتشفي القارات وغيرهم . لذلك يصعب على المعلم في هذا الدور ان يفهم الولد مبدأً اخلاقيًّا جديداً او مثلاً نفسيًّا عالياً بتفسيره تفسيراً مجرداً بل عليهِ ان يسرد امامهُ اعمال الرجال الذين تمسكوا بتلك المبادىء وساروا وراءَ تلك المثل وسعوا لتحقيق تلك الغايات فكانت حياتهم نعمة من نعم الله على البشرية

هو العمل يرفع الرجال الى مصاف العظام — اولئك العظام الذين يحسن بنا ان نقتدي بهم وان نسرد سيرَهم في البيوت وعلى منابر المدارس . العمل هو الوسيلة المثلى والغاية القصوى في حياة الفرد وحياة الامم . لان مجرد القول والادعاءِ لا يجديان نفعاً . فالمعلم الذي يفعل مايقول ويجب ألاَّ يقول الاَّ ماكان مطابقاً لسنن الحياة النافعة الشريفة يكون له اثر كبير في تكييف حياة تلاميذه لانهم ينظرون اليه كبطل ، بهِ يريدون ان يقتدوا وعلى اثره ان يسيروا

***

قلنا قبلاً ان حياة كلّ احد بوجه عام تاريخ مختصر للجنس البشري وارتقائه . لذلك نرى الولد في اول هذا الدور يعشق التلميذ اوالمعلم القوي العضل الخفيف الحركة القادر على تعاطي انواع اللعب بخفة ومهارة وما ذلك الاَّ لانهُ غير قادر ان يدرك منتجات العقل البشري في العلم والعمران .ولكن حينما تكتمل قواه العقلية يشرع يقدّر اعمال اديسن قدرها فينحني باجلال قوة عقله وينظر نظر المعجب المكبر لخلق لنكلن العالي . وكم في العالم من رجال ونساء لا تذكر اسماءَهم الاَّ ويرافقها الاجلال والوقار

النصح والارشاد قليلا التأثير اذا كان المربي لا يعيش بحسب الخطط التي يرسمها لتلميذه . قد يستطيع المعلم ان يستهوي تلاميذه لانهُ رياضي بدني قوي ولكن ليس ذلك بالامر اللازم ولا هو وحده بالكافي اذ لابدّ ان يشب الولد عن طوقه فيتحوَّل احترامهُ واعجابه الى القوة العقلية والنفسية فعليك اذاً أيها المعلم ان تعلم بأمانة وتعيش بطهارة وعظمة . افعل ما تقول ولا تقول الاَّ كل ماهو حق وعدل وجمال تدركْ ضالتك المنشودة بل غاية التهذيب القصوى لان روح عبادة الابطال لا تنمو في الولد بالملاحظة والكلام بل بالتقليد والاقتداء

٥

في هذا الدور يأخذ الولد ولعٌ شديد بالقراءة والمطالعة . فكم من ولد ينتظر بفارغ الصبر

صدور مجلة روائية اعتادها وكم من ولد يقضي الساعات الطوال مكبًّا على سيرة عنترة او روايات جاك ملتون وجون سنكلر وساكستن بلايك

فيا أيها المربي ! هذه فرصتك السانحة التي اذا فاتت فلن تعود . هـذا هو بدء مرحلة جديدة من مراحل الحياة اذ يجد الولد نفسهُ على عتبة عالم جديد حافل بالوجوه الغريبة والاقوال المتناقضة والآراء المتباينة . يري فيهِ التشاؤم والتفاؤل ، والظلام محاذياً للنور والسعادة ازاء الشقاء . ويشهد الفضيلة تسير مع الرذيلة جنباً الى جنب والمبادىء السافلة تنازع مُثُـلَ الحياة العليا الحياة والبقاء . فابذل جهدك لتعوّد تلميذك انتخاب الافضل والاعلى والاصلح لان الولد ابداً معرّض للسير مع تيار المطابع الجارف فيشتري الروايات الرخيصة الثمن وفيها من الحوادث ما يكفي ميله الطبيعي للحركة والتهيج ولكنها خالية من دروس مطوية في حياة اشخاصها وعبر تتخلل تضاعيف سطورها . على ان هذا لا يوجب علينا ان نعطي التلميذ كتباً علمية فلسفية قد تحدث عكس الأثر الصالح الذي نتوخاه لان مطالعة كتب فوق مقدرة المطالع كالاكل الضخم لمريض ناقه او لطفل لا تزال معدتهُ ضعيفة فينجم عن ذلك ان الولد يفقد اللذة في المطالعة قبل ان تتمكن منهُ العادة ويكون الضرر بالغاً

***

وأرى ان خير الكتب التي يجب ان يطالعها الاولاد سواء الصبيان او البنات في هذه السن نوعان

١ — سير الابطال من رجال وسيدات الذين بلغوا ذرى الشهرة والمجد بجدهم واجتهادهم ومثابرتهم غير حافلين بما يقف في سبيلهم من المصاعب والمشاق بل تخطوها ناظرين ابداً الى المثل الاعلى الذي يلمع امامهم ويبغون الوصول اليهِ . فتكون مطالعة الولد للحوادث والاعمال التي سارت بهؤلاء على طريق النجاح عاملاً قويًّا يبعث فيه حب الاقدام ويدفعهُ الى الدأب والسعي في سبيل العلى والمجد .

٢ — الروايات الادبية الشائقة — يحسب البعض الروايات مجموعة حوادث منسقة ومنمقة تستهوي القارىء بما فيها من الخفايا والالغاز وما توجدهُ من التشوق للاطلاع على اسرارها وخفاياها . والبعض الآخر يضمّـن حوادثها وسير اشخاصها مبادىء خلقية رفيعة وعبراً عمرانيـة ثمينة فتظهر للقارىء نتيجة السير في سبل الحق والتمسك بالفضيلة . والبعض يجعل فيها حقائق تاريخيـة يقبل عليها القارىء بلذة بين هو يعرض عن بعض التواريخ الجافة . وذلك كلهُ بلغة رشيقة تجمع بين المتانة والاناقة والسهولة فتفيد المطالع من حيث الاخلاق والآداب واللغة . ولا يبرح من الذهن ان غايتنا هنا ليست اطلاع الولد على فلسفة الحياة فقط بل تعويده محبة الجمال لان محبة الجمال نور فيّاض ينبعث من النفس فيرفعها الى الملأ الاعلى ويولجها الى هيكل السعادة الصحيحة . فالروايات الجميلة والقصائد الجميلة والصور الجميلة والتماثيل الجميلة كل هـذه ينبوع غبطة فائقة ومصدر فرح عظيم . فعوّد تلميذك التمتع بكل ما هو جميل سام تضع حجر الزاوية في بنائهِ الروحي الذي تنشده

زينة البيت

دخل عظيم من العظماء بيت رجل لا تهتمُّ زوجتهُ بغلاءِ اثاث بيتها كما تهتم بجمال منظرهِ وحسن وضعهِ ، فدهش مما رآهُ في ذلك البيت من حسن الزينة والانتظام فان الكراسي والمقاعد كانت متنوعة وموضوعةً على اساليب ترتاح العين الى رؤيتهِ لا كالاسلوب المتّبع في اكثر البيوت الكبيرة، حيث توضع الكراسي والمقاعد بجوانب الجدران صفّاً واحداً ينبو عنهُ الطرف تعباً وملالاً بعد ان يراهُ مرة واحدة . والجدران كانت مغطّاة بانواعٍ مختلفة من الصور والرفوف والمزاهر والمراوح منتظمة على اشكال بديعة لا تشبع العين من النظر اليها ولا تكلُّ ، لانها ترى في كل جانب منها شيئاً جديداً ورسماً بديعاً بخلاف بعض البيوت الكبيرة التي تغطّى جدرانها بالمرايا ، والورق الكثير التزويق ، فلا يرى الداخل او الجالس الاَّ صورتهُ ، وخطاً واحداً من التزويق متكرراً الف مرة على الجدار الواحد . والوان الكراسي والمقاعد والبسط والستائر في الغرفة التي دخلها ذلك العظيم مختلفة ولكنها متسقة ومتوافقة ، فليس بينها تنافر ، كالتنافر الذي تحسّ بهِ العين اذا وقعت على اللون الاخضر محاذياً للون البنفسجي . ومسألة انسجام الوان المنسوجات والاخشاب التي يُصنع منها الاثاث سرٌّ من اسرار الذوق الحسن في فرش البيوت

اما زينة البيت فليست شيئاً محدوداً منقطع الاتصال كالاجسام الجامدة، بل هي شيء حيٌّ متصل ، يستدعي ان يعتنى بهِ ، ويتعهد بالتغيير والتبديل، كما يتعهد الجسم الحيُّ بالغذاءِ . فكم من مرة يبني احد الاغنياءِ بيتاً ويعهد بفرشهِ الى رجلٍ من مهرة الصناع فيزوق جدرانهُ بالذهب والمرايا ويعلق السجوف الحريرية على كواه وأبوابهِ ، ويبسط البسط الثمينة في ارضهِ ويضع عليها اثمن الموائد والمقاعد والكراسي . ثم لا تمضي ايام كثيرة حتى يتجمع الغبار على اطراف المرايا والسجوف ، وتقع الشمس على الاثاث فينفض لون بعضهِ ، وتلصق الاوساخ ببعض اطرافهِ ويلحس العث البعض الآخر ، فيذهب رونقهُ وتزول طلاوتهُ ، واذا كان في البيت خدم وحشم يتعهدونهُ بالكنس والنفض ، فهم غير مكلفين بتغييره وتبديلهِ . فيبقى على صورة واحدة تنقبض النفس من تكرُّر رؤيتها ، على العين . والميل الآن في زينة البيوت ، الى البساطة قبل كل شيءٍ . ثم الى الراحة . فربَّ غرفة لا تجد فيها الا مقعداً وكرسيين ومائدة وصورة معلقة على الجدار فتراها مستكملة شروط الجمال والذوق . والمقاعد والكراسي تكون في الغالب مما يريح الجالس لا مما يبهره

والبيت الذي فيهِ ربّة حسنة الذوق ، تجعل زينتهُ كالاجسام الحية النامية ، تتعهده وتغير من وضعهِ وتزيد فيهِ وتنقص منهُ بحسب مقتضى الحال . ولكنهُ يكون في كل حالٍ مرآة لشخصيتها . وذلك لا يقتضي نفقة كبيرة ولا عناءً شديداً فربَّ وردة في محلها تشرح الصدر اكثر من مائدة ثمينة في غير محلها

باب المراسلة والمناظرة

في بحور الشعر — لبشر فارس

قرأت في « مقتطف » شهر ديسمبر المنصرم نقداً لديوان « صناجة الرياشي » بقلم الشاعر الاديب حسن كامل الصيرفي واتفق له ان اخذ على الرياشي افندي سقطات في الوزن فوهم فيما اخذ . وقد بينت ذلك في « مقتطف » يناير الماضي . فرد عليَّ يتعنت ويعاند في مقتطف «فبراير» في باب « المراسلة والمناظرة» . ومن غريب ما ذهب اليه في الاستدلال انه يرى في شعر الرياشي سقطات في الوزن بدليل ان هناك ابياتاً غير موسيقية . والتحقيق ان الموسيقى شيء والوزن شيء آخر فالوزن فن موضوعي قائم على قواعد مستقرة حالة ان الموسيقى ترجع الى الذوق والحس وكلاهما أمر ذاتي يختلف باختلاف الادراك السماعي . هذا واما قول الاديب الصيرفي في رده عليَّ انني « كان يجدر بي ان اقطع ابيات الرياشي » فمما يدخل في باب المكابرة . وكان الاولى به ان ينقاد للحق فيعترف بخطائه ولو فعل لكفى نفسه شر اجابتي هذه . أيقول الشاعر الصيرفي للناس ليقطعوا ابيات الشعر وهو لا يقيم اوزانه . وحسبي ان أثبت هنا أبياتاً مكسورة له . قال في مجلة « أبولو » ص ٨٩ (١ اكتوبر ١٩٣٢)

انت من يا « عازفاً » فوق قلبي　　اغنيات تسيل من وجداني
انت من يا «ساكباً » فوق روحي　　ضوء حبٍّ يسيل كالطوفان
انت من يا « من يسرّ » الى النفس　　بنجوى الارواح من رضوان

وقال في « مقتطف » يناير ١٩٣٢ (ص ٩٢ و ٧٣)

« فأتاحت لك الطبيعة عقلاً　　عبقريَّ التفكير صلب المراس »
« فاذا انت لؤلؤة العصر وحق　　ان يسمى هذا بعصر (توماس) »
« جبت في الارض كالسلام نواحيها　　وجزت منها بحارها والجبالا »
« يخرس الموت منطق الشمع اغانيَّ　　ويحبي ما أنت منهُ سناه »
« فوق جسر الحياة مرت خلائق　　شتى من عهد بدء الحياة »
« فتناساهم الذاكرون هواناً　　وتلاشت آثارهم في الغداة »
« كل ما تبتغي خلاص وهديٌ　　«لبني الارض من مغاور الظلمات »

وقال في « مقتطف » يوليو ١٩٣١ (ص ٤٥)

« انا انت لكنْ خبريني　　خبريني هل اعود الى ربيعي »
« انا انت منتشر الغصو　　ن مددت ظلي في الحياة »
« لكن يعود اليك يو　　م تورقين له فهل يأتي ربيعي »
« ويعود ماضيك الجميـــــل　　ولا اعود الى ربيعي »
فلارتوى (كذا) فيض الدمو　　ع لعلَّ تنفعني دموعي »

وقال في « مقتطف » اكتوبر ١٩٣٢ (ص ٣٣٢)

« فمضى خاشعاً وفي يده المنجل　　يهتزُّ اهتزازةً هي ذعر »

واني والله ليسؤني ان اغمز بصاحبي الاديب الصيرفي هذه الغمزة ؟ ولكنه طرح نفسه ذلك المطرح وان بدا لي ان ازيد على ما ذكرت حملته على ان يراجع ما قلت في نقدي لديوان الرياشي والله الهادي الى سواء السبيل

مكتبة المقتطف

كتاب هارون الرشيد

Harun al-Rashid by. H. St. John Philby (Peter Davis, 5 S.)

شيء عن مؤلفه سانت جون فيلبي

للغربيين ولع غريب في تفهم شؤون الشرق وتاريخه ، فسوادهم لا يعلم عن الشرق سوى انهُ مرتع خصب للمؤامرات والمشاجرات والمفاجآت ، وعندهم ان قصة (الف ليلة وليلة) فريدة الادب العربي ، يعدونها جوهرة براقة ، فينسجون من خيوطها التاريخية الوهمية الضعيفة قصصاً وكتباً وتراجم اوهى من خيوط العنكبوت . وتراهم اذا كتبوا عما له مساس بالشرق حلقوا في سماء الخيال والتصور . وظنوا انفسهم في عالم كعالم المريخ ، مغلق مستور ، تغطيه حجب كثيفة ، وتفوح منه روائح الند والعود والكافور ! ويظنون اهله يرفلون في حلل الخز والديباج والحرير . ولعلهم حين يكتبون تآليفهم هذه ، يحسبون الشرق ، كما يتخيل مرتادو دور السينما عندنا ، نجوم الشاشة البيضاء وأبطال هوليود او مدينة نيويورك في الليل ، او مسارح باريس المتلألئة بالانوار

على اننا ونحن نتناول الكتاب الحديث الذي الفه الشيخ عبد الله فيلبي ، الانكليزي الصميم الذي يعمل في جزيرة العرب لحساب دولته ، او تاجر السيارات في جدة اذا شئت ، لا بدَّ لنا من تعريف القراء بهذا المسلم الانكليزي ، صديق ابن السعود ، وذكر كلمة عنهُ وعن اعماله في جزيرة العرب وآثاره الادبية وتآليفه عنها . وهل اولى من فيلبي ان يؤلف كتاباً عن هارون الرشيد — الشخصية البارزة في قصص الليالي العربية — كما يسميها الانكليز

سانت جون ستوارت فيلبي من الرجال الانكليز الذين يتدخلون في كل شيء ، فتراه مسلماً بين المسلمين وانكليزيًّا في انكلترا ، وهو ضد لورنس الذي يعمل في الظاهر والخفاء ، وممن تعتمد عليهم بريطانيا في المهام الخطيرة لتوطيد نفوذها في الشرق

ولقد كان لبريطانيا ابان الحرب في بلاد العرب ممثلان سياسيان ، الاول (لورنس) C. E. Lawrence ملك العرب غير المتوج ! ومندوب انكلترا عند الهاشميين (شرفاء مكة) . والثاني شخص قوي الشكيمة والعزيمة ذو بشرة سمراء فاتحة وعينين شديدتي الزرقة ، صامت ضنين بالحركات قليل الكلام يشتغل سحابة يومه في مكتب على مقربة من مدينة البصرة ، ذلك هو الضابط والموظف السياسي سانت جون ستوارت فيلبي مندوب انكلترا لدى الوهابيين ، ولقد شغل قبلاً

مناصب هامة في حكومة الهند فكان من عمالها المعتبرين ولكن ما كادت تضع الحرب اوزارها حتى رأينا فيلبي ينسحب بانتظام وينزوي في مكان مجهول ، فيختفي عن العيان

ذهب في عام ١٩٣٠ احد الصحافيين الفرنسيين[١] الى شبه الجزيرة العربية فزار جدة ، واتيحت لهُ محادثة المستر فيلبي ، فقصَّ عليهِ تاجر السيارات (المستر فيلبي) ما يلي :

« لقد مضى عليَّ خمس عشرة سنة وانا اعيش في الصحراء ، وانت تعرف انني كنت في اثناء الحرب العالمية موظفاً في العراق ، ولكنهم الحقوني بخدمة ابن السعود وارسلوا (لورنس) لمساعدة فيصل . وانا منذ سنة ١٩٠٨ اشتغل في خدمة حكومة الهند . فلما انتهت الحرب استقلت من عملي ، وكانت لي ثقة عظيمة بابن السعود، الذي لم يكن له علاقة معنا (الانكليز) ، فربح المعركة واستولى على الحجاز ، ويمكنهُ الآن ان يؤلف من بلاد العرب دولة عظيمة ، غنية ، قوية ،وسيأخذ بيد البلاد في طريق المدنية شيئاً فشيئاً . وانك سترى في المستقبل مملكة عربية كبرى » !

للمستر فيلبي ولع خاص بالجغرافيا والاكتشاف ، فهو عضو في الجمعية الجغرافية الملوكية ، وهل ثمة فائدة أعظم من هذين العلمين لبريطانيا ؟ « ان قصة اكتشاف بقية بلاد نجد في القرن العشرين يعود الفضل فيه لسانت جون فيلبي ، الذي قاد في سنة ١٩١٧ — سنة ١٩١٨ بعثة سياسية الى زعيم الوهابيين في الرياض . . . فقد قطع فيلبي الجزيرة العربية من البحر الى البحر،وهذا عمل لم يقم بهِ قبل فيلبي من الاوربيين سوى الكبتن سادلير Capt. Sadlier في ١٨١٩ . واما الطريق الذي سلكه فيلبي في رحلته هذه ، فمن الهفوف فالرياض الى الطائف[٢] » ويعود الفضل في معرفتنا البلاد العربية وخصوصاً الواحات والمدن المحصنة (المحمية) في داخلية البلاد الى السير جون فيلبي الذي فصَّل ذلك في كتابه (قلب البلاد العربية) في سنة ١٩٢٢ The Heart of Arabia . وقد جاء عمله هذا متمماً للكتاب الذي وضعه الرحالة المشهور (دوتي[٣]) عن الجزيرة العربية وسماه Arabia Deserta[٤].

وما عدا هذا ففيلبي كاتب له فيما يكتبه عن الشرق وخصوصاً عن البلاد العربية مقام كبير عند الغربيين . وله من المقالات في الطبعة الاخيرة من دائرة المعارف البريطانية المباحث الآتية : بلاد العرب ، شرقي الاردن، جرترود بل (الرحالة الانكليزية) ابن سعود ، وغير ذلك . واما كتبه التي تبحث عن العرب وبلادهم فهي : قلب البلاد العربية The Heart of Arabia ، الانتدابات العربية Arabian Mandates الحقيقة عن بلاد العرب The Truth about Arabia . وله كتاب آخر ظهر في

---

(١) انظر في مجلة (Vu) الافرنسية مقال La Guerre en Masque Noir. II. — Diner Chez le "Faiseur Je Rois" par Xavier de Hantecloque. Vu No. 135 p 1060—1062, 15 Oct. 1930

(٢) دائرة المعارف البريطانية الطبعة الرابعة عشرة ، المجلد الثاني ص (١٧٢) مادة (بلاد العرب) . لا تنس ايها القارىء ان كاتب هذا المقال في المعلمة البريطانية هو فيلبي نفسه !

(٣) Charles Montagu D. Doughty : كاتب ورحالة انكليزي مشهور (١٨٤٣ — ١٩٢٦)

(٤) دائرة المعارف البريطانية : Encyclpaedia Britannica 14 th ed. vol 2. p. (528)

السنة الماضية عن الربع الخالي The Empty Quarter ، عقب رحلته الاخيرة في صحراء دهنا

اما الكتاب الذي نحن بصدده[1] فقد وضعه المؤلف في شباط (فبراير) سنة ١٩٣٣ عن مكة المكرمة — عاصمة المسلمين المقدسة — بدىء بطبعه في حزيران (يونيو) وانتهى منه في آب (اغسطس) ١٩٣٣ .وقدمه مؤلفه الى ثاني بناته Dora المولودة في بغداد سنة ١٩٢١ بابيات (حطان ابن المعلى[2]) القائل : —

لَوْلا بُنَيَّاتٌ كَزُغْبِ القَطَا رُدِدْنَ مِنْ بَعْضٍ الى بَعْضِ
لَكانَ لي مُضْطَّرَبٌ وَاسِعٌ في الأَرْضِ ذاتِ الطُولِ والعَرْضِ

وترجمها فيلبي الى اللغة الانكليزية كما يأتي :

But for my little girls, like chicks
Of sand-grouse huddled side by sidè,
I would wander freely, roaming
Over the earth so far and wide.

وللكتاب مقدمة صغيرة تقع في ست صفحات يشير فيها المؤلف الى الكتب استعان بها من عربية وافرنجية ، ومن الكتب العربية الحديثة (عصر المأمون) للدكتور احمد فريد رفاعي ، ثم يشكر المؤلف لزوجته مساعدتها اياه في عمل الفهرس واملائه عليها فصول الكتاب . والكتاب ستة فصول وفهرس ، وصفحاته (١٥٩) بقطع وسط

حلب : (سورية) فؤاد عينتابي

روبنصن كروزو

من سلسلة قصص الاطفال — وضع كامل الكيلاني — طبع بمطبعة المعارف بمصر

قال روسو في هذا الكتاب ، «هو عندي اثمن ذخر في التربية الاستقلالية الطبيعية ، وسيكون اول كتاب يقرؤه طفلي اميل» . وليس بعد هذه الشهادة شهادة في كتاب . وقصة روبنصن كروزو من اشهر القصص العالمية . وقلما تجد فتى او فتاة ممن يتكلمون الانكليزية لم يقرأها فهي قصة مغامرة اخاذة ، تنبهُ في الصغار حبَّ الاستطلاع ، وتعوّدهم الدأب وتنشئهم على الحياة الاستقلالية . فاخراج موجز لها ، بقلم كامل كيلاني السَّلِس السليم ، وطبعها ذلك الطبع النظيف الواضح المتقن الذي اشتهرت بهِ مطبعة المعارف ، وتحليتها بالصور الكثيرة ، ذخر جديد ، يُضَمُّ الى مكتبة الاطفال العربية

(١) «هارون الرشيد» لسانت جون فيلبي (٢) (الحماسة) لابي تمام جزء ١ ص (١٠٢) طبعة سنة ١٩٢٧

المجموعة الطبية الصغرى

وضع عازر ارمانيوس الاجزاجي

لا ادري لاي سبب يطلب مني نقد مؤلفات اصدقائي القدماء ولا سيما اذا وضعوا صورتهم وعمرهم في اول الكتاب فهذه الدقة في الصدق ان وافقتهم فانها لا توافق غيرهم ولا ادري كيف اتملص منها الاّ في قولي انهُ عند ما اجتمعنا في الجيش المصري كان هو برتبة يوزباشي قديم وكنت ملازماً حدثاً جديداً ولنترك البحث في الاعمار ونثأر من المؤلف في نقد الكتاب فأقول

هو كتاب صغير الحجم كبير الفائدة اورد فيهِ مؤلفه نحو اربع مائة نوع من النبات شرحها شرحاً طبيًّا موجزاً لفائدة جمهور القراء ورتبها على حروف المعجم وذكر امام كل نبات اسمه اللاتيني والفرنسي والانكليزي وذكر فصيلته بالعربية او الافرنجية وتجنب الاكثار من ذكر المترادفات الكثيرة لكي يسهل على القارىء اختيار الاسم الصحيح.

وانهُ يتعذر عليَّ نقد هذا الكتاب الجليل الفائدة ما لم اورد منهُ بعض الامثلة . قال في مادة اهليلج . هو من الفصيلة الآسية ثم ذكر اسماءه باللاتينية والفرنسية والانكليزية وقال هو لفظ هندي يطلق على عدة اثمار زيتونية الشكل ذات خواص قابضة ملينة معدية كما انها اشتهرت علاجاً في تقرحات اللثة وعلكاً وسنونًا . ثم ذكر انواعهُ وهي الاهليلج الاصفر والاهليلج الصيني ويعرف بالبليلج والاهليلج الكابلي والاهليلج الهندي وهو الهندي شعيري . وقال في الاملج انهُ ليس الاهليلج وليس من فصيلته

ولا يخفى ان الاهليلج خلاف الزقُّوم لان الزقوم من فصيلة غيره والعرب ظنوا الزقوم نوعاً من الاهليلج فينبغي التفريق بين الزقوم والاهليلج فالزقوم يعرف في السودان بالهليج والهجليج وهما تحريف اهليلج لكنه ليس بالاهليلج كما ظنَّ بعض الكتَّاب

وقال في الرمان هو من الفصيلة الآسية ثم ذكر اسمه اللاتيني والفرنسي والانكليزي وذكر خواصه وذكر ان جذره يعرف بالمغاث والحقيقة ان المغاث جذر نبات آخر على ما حققه اديب في مقتطف فبراير سنة ١٩٢٥

وذكر صحة اسماء السليخة والدراصيني والقرفة اي انه فرَّق بينها وذكر صحة الاسم العلمي والعربي للفاشرا كذلك صحة الاسم العلمي للخبازى والخطمي وغير ذلك من صحة الاسماء العلمية والعربية لكثير من انواع النبات وكنت اود لو فرَّق بين العامي والفصيح في بعض الاسماء فأشار الى العامي باشارة خاصة ولكن هذا الكتاب للجمهور والغاية منه ان تفهمه القرَّاء

ومما يؤخذ على المؤلف اغفالهُ فهرساً يذكر فيه الالفاظ الافرنجية لسهولة المراجعة.

امين المعلوف

الينبوع

نظم الدكتور احمد زكي ابي شادي

في اواسط القرن الرابع بدأ الشعر العربي ينزل درجات ، وكان في سقوطه يتحسن بأثواب من جمال اللفظ يواري بها سوآته ويستر عَوْرَتَه وكان الشعراء يتعملون في استخراج انواع من البديع والاستعارة والمجاز والاشارة واستوفوا بذلك غاية بعيدة في تركيب الالفاظ وترتيب الكلام وبقي الشعر يسفل بعد ذلك حتى نجحت في القرن الماضي طائفة من الشعراء ردَّت اليهِ شبابه ، وأعادت عليهِ جدته . إلاَّ ان هذا الشعر لم يكن بالذي يرضي هذا الجيل الحاضر من الادباء ، نخرج عليه جماعة ممن تثقفوا بآداب الاعاجم من دول اوربا فبدأت هذه الجماعة تبتدع لنفسها طريقة في الشعر وذلك باجادة المعاني وتحسينها وتحقيقها والتوسع في النظر الى اوائلها وأواخرها وتابعها ومتبوعها وعلاقتها بالنفس وآثارها في القلب الى غير ذلك من الاغراض. ثم ترى بعضهم قد اهمل اللفظ واستجادته واختياره ، ولم يلقوا بالاً الى الصيغ العربية التي لا يفهم الكلام الاَّ بها ؛ ولا ينعقد المعنى الاَّ عليها . وأغلب الظن انهم يظنون ان هذه العبارة التي ينشئونها تؤدي المعنى الذي ارادوه ، فيلقون بها دون روية او تثبت ، فاذا جاء القارىء ليفهم الكلام على عربيته لم يخرج بشيء ولا يجدي عليه الاَّ ان يتوهم مراد الشاعر توهماً . غير ان الحقيقة التي لا ينكرها احد ان كثيراً من هؤلاء الشعراء قد انطوت اشعارهم على كثير من جليل المعاني ولكنهم افسدوها بضعفهم في البيان وقلة عنايتهم بالاساليب العربية الجميلة التي يطابقون بها بين المعنى الذي ارادوه والصور التي تنشئها هذه الاساليب في ذهن القارىء البصير . ونحن لا نرى للشعر معنى الاَّ بهذه المطابقة بين المعنى المراد والاسلوب المتخذ اداةً للتعبير عنه ، وإلاَّ فان المعاني الشعرية لا تزال قائمة في انفس الشعراء من اول عهد الانسانية الى هذا اليوم ، ولا يتقدم شاعر على شاعر اذا تساويا في المعاني ، الاَّ بالبصيرة البيانية النافذة التي تقع بهِ على الالفاظ والاساليب التي تطابق المعاني القائمة في نفسهِ

هذه كلمة موجزة أردنا ان نقدم بها لذكر ديوان صديقنا (الدكتور احمد زكي ابي شادي) الذي سماه (الينبوع) ورأيي في شعر أبي شادي أنه جيد المعاني، فربما أراد هذا الشاعر معنى جليلاً ولكنهُ لا يأخذ نفسهُ بالمطابقة بين المعنى الذي أراده والاسلوب الذي يعرضه فيه ، وهو يعلم ذلك في شعره فيحتج له ويدافع عنه ولعلَّ الرافعي اراد ذلك حين قال في كلمة سمعتها منهُ ان أبا شادي (مبتدع طريقة) . وذلك ان أبا شادي قد صار في شعره على وحي الخاطر (كما يقولون) دون التنقيح والتصفية والاختيار وجعل هذا مذهباً من المذاهب التي يسلكها الشعراء . وأنا لا أفتات على الرافعي في مراده من هذا الوصف . ولكن ذكرتهُ كما سمعته فان اخطأت في تأويلي فذلك من قبلي لا من قبله

هذا وقد قرأت ديوان ابي شادي الجديد فوجدت فيه نفسه بنشاطها ، وقلبه بشبابهِ ، وعقله

بتوثبهِ ، وعلمه بتنوعهِ ، فهو اكثر شعرائنا استخراجاً للمعاني ولاغراض المعاني . وانت اذا أخذت احد دواوينه أعجبك من شأنه هذا التنوع في الاغراض التي يرمي اليها بشعره ، وهو في هذا كثير المعاني الجيدة وقد تقع له الالفاظ العالية والتراكيب القوية مما يدلنا على انه لو توفَّر على الاخذ بأساليب لغته لأخرج لنا في الادب العربي أدباً باقياً قويًّا ناضراً جميل الظاهر والباطن

ويجدر بنا هنا ان ننقل كلمة للجرجاني في الوساطة فهو يقول عن نظم الشعر ونقده « وملاك الامر في هذا الباب خاصة ، ترك التكلف ، ورفض التعمل ، والاسترسال للطبع ، وتجنب الحمل عليه ، والعنف بهِ ، ولست أعني بهذا كل طبع ، بل المهذب الذي قد صقله الادب ، وشحذته الرواية ، وجلته الفطنة ، وألهم الفصل بين الرديء والجيد ، وتصور أمثلة الحسن والقبح » . فهذه الكلمة نسوقها الى الشعراء فان الشعر اذا كان متكلفاً في استجادة اللفظ واختيار المعاني لم يكن شيئاً ، وخير الشعر هو المرسل على سجيةٍ الآتي من طبع ، ولكن شرط الطبع والسجية هو هذا الذي قاله الجرجاني في كلمتهِ ، ولو اجتمع هذا لشعرائنا لكان لنا من شعرهم فنٌّ تستروح له القلوب وترف عليه الأرواح

***

تقويم التعليم

وضعه أحمد عطية الله — أخرجته دار الهلال

احسن المؤلف ايمّا احسان بوضعهِ هذا التقويم . واحسنت كذلك دار الهلال باخراجه في الشكل الانيق الذي اسبغتهُ عليهِ . كلُّ ما يهمّك من شؤون التعليم المصري ، في درجاتهِ المتعددة من رياض الاطفال الى الجامعة ، وفي نواحيه المختلفة من مدارس صناعية وفنية وبعوث للشبان وللشابات ترسل الى اوربا الى تعليم العميان وتقارير الخبراء الاجانب الذين جاؤوا مصر بدعوة وزارة المعارف لينظروا في خططها التعليمية والمنهج المختار للدراسة ، كل ذلك تجدهُ موجزاً ايجازاً حسناً في فصول التقويم ومزيناً بصور مختارة ، لرجال التعليم وسيداتهِ وحفلاتهِ ومبانيه واعضاءِ البعوث وما اشبه

وقد احسن المؤلف بوضع يومية لشؤون التعليم المصري ، عن سنة ١٩٣٣ ، فذكر اهم الحوادث التي حدثت خلال تلك السنة شهراً شهراً ، بحسب تواريخها ، ففي اول مارس سنة ١٩٣٣ مثلاً انتخب الدكتور منصور فهمي عميداً لكلية الآداب وفي ٧ ابريل قررت مصلحة سكة الحديد افتتاح مدرسة التلغراف فتقدَّم الى الانتظام فيها ٧٢٠ طالباً وفي ٢٤ اغسطس وصلت بعثة الكشافة المصرية الى بودابست وقوبلت بحفاوة بالغة وفي ١١ نوفمبر انشأت مصلحة التجارة والصناعة معهداً للزجاج الخ

فالكتاب يسدُّ فراغاً كبيراً في عالم التقاويم ، وحبذا لو تمكن المؤلف من موالاة اصداره ، مرة كلَّ سنة او مرة كل سنتين ، مراعياً في فصوله ما جدَّ في نواحي التعليم المصري

مبادىء الزراعة العامة

تأليف جعفر خياط خريج جامعة كاليفورنيا ومدرس الزراعة في دار المعلمين ببغداد

طبع بمطبعة الكرخ البغدادية ٤٥٤ صفحة بالقطع الكامل

يحتوي هذا الكتاب على تسعة فصول في مبادىء النبات والاقتصاد الزراعي وابحاث في التربة واصنافها وخصوبتها والاسمدة بانواعها واجرآت فلاحة الارض ووسائلها . والدورة الزراعية أو نظام التعاقب الزراعي والفلاحة اليابسة او الزراعة البعلية على المطر، والري والصرف وملوحة الارض وغسلها وطرق تكثير النبات بالبزور والتطعيم والتجزئة وغيرها والمنتجات الزراعية من محاصيل الحقول (الغيطان) كانت او من ثمار البساتين وزهورها وخضرواتها والصناعات الزراعية كصناعة حفظ المأكولات والمربيات والمخللات وغيرها وصناعة الحرير بنوعيه الطبيعي والصناعي والآفات الزراعية من حشرات وامراض وعوارض جوية وتربية الحيوانات والدواجن — والمروج (ارض المراعي) واخيراً قائمة الاصطلاحات العلمية الواردة في الكتاب

وقد اعجبنا قول المؤلف في مقدمة مؤلفه ان الزراعي الحديث هو الرجل المتعلم الذي يستطيع العمل والاستفادة بمعارفهِ وتجاربهِ ومشاهداتهِ في ادارة المزارع وتكييفها بحسب ظروفه الخاصة ويذكرنا هذا القول بقول امير المؤمنين علي : من عمل بما علم اورثهُ الله علم ما لم يعلم

ان العراق قطر زراعي خصيب قامت بزراعتهِ دول اخرى سادت الدنيا حيناً من الدهر ولا يزال فلاحوه او ما ابقت المظالم منهم يستغلون ارضه او بعضها بما توارثوه عن اسلافهم من المعارف الزراعية فهذه المعارف او عرف هؤلاءِ الفلاحين يجب جمعهُ وتهذيبه وجعلهُ اساساً يبني عليهِ الزراعي الحديث ما يهتدي اليهِ بعلمهِ وتجاربهِ او بعبارة اخرى يجب البدء من الاساس وهو عمل الفلاح فنجمعهُ ونهذبهُ مما يغشيهِ من الابهام والاوهام ثم نزيد عليهِ ما نهتدي اليهِ بتجاربنا وابحاثنا وهذا ما اقترحه الآن على زعماء العراق واساتذته كما اقترحتهُ قبل في مصرنا على صفحات المقتطف والمقطم

ولا شبهة في ان نشر هذا الكتاب يساعد النهضة الزراعية العراقية بل لا بد لها من امثاله (لبناء صرح العراق الاقتصادي الذي لا يقوم الاَّ على الزراعة) كما يقول مؤلفه ونرجو معه ان يكون اول حلقة من سلسلة كتب اخرى زراعية باللغة العربية

ونود لخدمة هذه اللغة وتدوين الفلاحة تدويناً يسهل تناولها ان يستعمل اساتذتنا الزراعيون المعاصرون ما استعمله اسلافهم الاقدمون من الالفاظ والتعبيرات في مؤلفاتهم وان يعتنوا بجمع الالفاظ والتعبيرات الفنية التي يتداولونها في عرفهم الزراعي ويستعملونها فان علماء اوربا — الذين نقتدي بهم — يفتخرون بمثل ذلك كما قال لي المرحوم فقيد العلم في الشرق الدكتور صروف رحمهُ الله وكذلك كان مذهب الجاحظ عالم العربية واديبها الاكبر في ازهى عصورها

احمد الالفي

تاريخ الوزارات العراقية

سفر نفيس ممتع وضعهُ عبد الرزاق الحسني من ادباء العراق ومشاهير كتابهِ ضمَّ بين دفتيه التاريخ السياسي للدولة العراقية من ابتداء نشأتها حتى قيام الوزارة العسكرية الثانية في سنة ١٩٣٦ فهو يورد اسماء اعضاء كل وزارة وبرنامجها والظروف التي احاطت بتأليفها وانسحابها واعمالها والمعاهدات التي عقدتها مع رسم شمسي لرجالها وذلك باسلوب سهل وبعبارات خالية من التحيز والتشيع

ويقع هذا الكتاب في ٢٣٠ صفحة بالقطع الكبير وهو مطبوع طبعاً متقناً على ورق صقيل في مطبعة العرفان بصيدا وقد اهداه مؤلفهُ الى جلالة الملك غازي كما وضع له الاستاذ الكبير محمد رضا الشبي وزير المعارف الاسبق في العراق مقدمة نفيسة اطرى فيها جهود المؤلف ونشاطه

والكتاب مفتتح بالكلام عن الوزارة النقيبية الاولى وقد تمَّ في عهدها انشاء الدولة العراقية وتتويج جلالة الملك فيصل ملكاً عليها وقد استوفى البحث على تاريخ هذه الحقبة الخطيرة من تاريخ العراق واورد الوثائق السياسية الخاصة بهِ ثم اتبعهُ بكلام عن الوزارة النقيبية الثانية فالثالثة فالوزارة السعدونية الاولى فالوزارة الهاشمية فالوزارة السعدونية الثانية فجاء كتابهُ مستوفياً من جميع الوجوه لا يستغنى عنهُ كل مشتغل بالسياسية العربية والشرقية

وقد وعد المؤلف باصدار مجلد آخر يحتوي على تاريخ الوزارات التي تألفت من الوزارة العسكرية الثانية حتى اليوم ولعلهُ يبرّ بوعدهِ قريباً فالحاجة شديدة الى مثل كتابه . وثمنهُ ٢٥ قرشاً صاغاً مصريًّا

ا . س.

حكيم البيت

الدكتور ابراهيم ناجي نطاسيٌّ بارع وشاعر مثقف رقيق وهو من الادباء الذين يتلاقى فيهم جانب الفن وجانب العلم وان كان الشعر أظهر ما عرف بهِ عند الخاصّة . ومن محاسن الاتفاق ان يتفق ظهور غيره بالشاعرية مثله ممن يحترفون الطب او الهندسة او غيرها في جيل واحد وبلد واحد. والدكتور ناجي واسع الاطلاع في آداب الفرنجة وأديب جم النشاط حتى ليحملك ما تشاهدهُ فيهِ من الحركة المستمرة والدأب المتواصل على ان تفكر قليلاً في الوقت الذي يتسع لمثل هذا المجهود الموزَّع بين الطب والشعر

وقد أراد ان يجمع بينهما في صعيد واحد فأنشأ مجلة « حكيم البيت » وهي مجلة أدبية صحية لا تستغني عنها ربّة البيت المثقفة فمن ابوابها باب «اطباؤنا في المرآة» وهي صور قلمية بليغة لاطباء مصر الممتازين وباب صحة الطفل وباب « دائرة معارف العلاج » وباب «التغذية» وغير ذلك من شؤون الصحة والعلاج . وفي آخر كل عدد قصة ، تقرب بعض المباحث الطبية المفيدة بأسلوب يغري القرّاء بالمطالعة

البريد في مصر

وضعت مصلحة البريد المصرية، كتاباً انيقاً كل الاناقة، مفيداً كل الفائدة، في تاريخ البريد في مصر، وارتقائهِ من أقدم العصور الى العهد الحاضر. وطبع هذا الكتاب على ورق فاخر مصقول في المطبعة الاميرية، وزين بصورة ملوَّنة لحضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد وصور اخرى لكبار الاسرة العلوية، ومديري مصلحة البريد المصرية، وبعض مبانيها، ثم رسوم بيانية ملوَّنة تبين ارتقاء اعمال البريدفي مصركما استوضح من الاحصاءات الرسمية

وقد جاءَ في مقدمة الكتاب «البريد نظام يتصل اتصالاً وثيقاً بنظام الدولة ومدنية الشعوب فلا تكاد توجد هيئة اجتماعية وتقوم حكومة وتنظم وسائل المواصلات لنقل الذخيرة والمؤن وجباية الضرائب والهيمنة على شؤون الدولة، حتى يصبح البريد ضرورياً لنقل اوامر الملك وتسهيل اعمال الحكومة، وتمكين العلاقات بين الجماعات والافراد. ولقد يجوز ان نعتبر البريد من حيث انتظامهِ مقياساً لمدنية الشعوب ...»

ثم بيان موجز يحتوي على ما لصاحب الجلالة الملك من الفضل على ارتقاء مصلحة البريد المصرية في العهد الحديث كانشاءِ حساب الامانات، ونظام البريد المستعجل، والبريد الجوّي وما الى ذلك

***

اما الفصل الذي جعل عنوانهُ الكتابة والرسالة والورق فبحثٌ علميٌّ تاريخي نفيسٌ، قد ننقله الى قرّاءِ «المقتطف» في عددٍ تالٍ

وتجيءُ بعد ذلك فصول موجزة، ولكنها بليغة في تتبع ارتقاءِ البريد المصري من اقدم العصور الى الآن، فثمة فصل لعصر الفراعنة وآخر للبطالسة، فآخر للعصر الروماني وهكذا

وفي الصفحة ٦١ يبدأ فصل ممتع في طوابع البريد بوجهٍ عام وطوابع البريد المصري بوجهٍ خاص وكيف تصنع

وحبذا الحال لو كان الكلام على صنعها أوفى مما هو

مطبوعات جديدة

النثر الفني في القرن الرابع
للدكتور زكي مبارك

التجديد في الادب الانكليزي الحديث
لسلامه موسى

تاريخ الصحافة العربية
للفيكونت فيليب ده طرازي

رحلة الصيف
للاستاذ توفيق الحكيم

ابو علي عامل ارتست
لمحمود تيمور بك

حواء بلا آدم
لمحمود طاهر لاشين



ارنست هيكل

Ernst Haeckel

احتفل في ١٦ فبراير الماضي بانقضاء مائة سنة على ولادة أرنست هيكل العالم الالماني ، الذي كان يعدُّ في الطبقة الاولى من علماء البيولوجيا . ولد في بوتسدام في ١٦ فبراير سنة ١٨٣٤ ودرس العلوم الطبية في فرزبرج وبرلين وفينا على ملر وفرشو وكوليكر وغيرهم من اكبر علماء المانيا ونال دبلوم الطب والجراحة سنة ١٨٥٧ وتعاطى صناعة الطب في برلين جرياً على رغبة أبيه لا على رغبته لانهُ كان يحب الانقطاع للعلم والتعليم . ثم اختير استاذاً لتشريح المقابلة في مدرسة يانا (Jena) الجامعة ومديراً لمدرسة علم الحيوان فيها . وانشئت له استاذية لتعليم علم الحيوان فأقام فيها استاذاً لهذا العلم ودعي لمناصب اعلى في ستراسبرج وفينا فلم ينتقل اليها وجعل يانا مقرَّه لم يخرج منها الاَّ للسياحة والبحث عن الامثلة الطبيعية . وألَّف في وصف طوائف الحيوان على اختلاف اجناسها وانواعها كتباً شتى تعدُّ في الطبقة الاولى بين الكتب التي من نوعها . واكتشف انواعاً كثيرة من الحيوانات وبحث البحث المدقق في علم البيولوجيا . واتفق أن نشر داروين كتابهُ اصل الأنواع وهيكل مشتغل بالمواضيع البيولوجية فكان له أثر شديد في نفسهِ فاقتنع بصحته وصار اول أنصار مذهب النشوءِ في المانيا حتى قال داروين ان مذهب النشوءِ انتشر فيها بهمة هيكل وغيرته وبحثه . ولما نشر هيكل كتابهُ في ابنية الاحياءِ Morphology سنة ١٨٦٦ قال الاستاذ هكسلي انهُ طبَّق مذهب النشوءِ على نتائجهِ وانهُ سيبقى أثراً في تاريخ علم البيولوجيا في القرن التاسع عشر . وكانت عبارة الكتاب علمية عويصة فبسطها حتى لا يبقى فهمهُ مقصوراً على الخاصة بل يتناول العامة وطبعهُ ثانية باسم تاريخ الخلق الطبيعي فراج اي رواج وقد بيَّن فيه ان الفرد يمرُّ في نموه على الاطوار التي مرَّ عليها نوعهُ في ادوار ارتقائهِ وقسم الحيوانات الى ذوات الخلية الواحدة (بروتوزوى) وذوات الخلايا الكثيرة (متازوى) فالاولى تبقى كما هي واما الثانية فتبتدئ بخلية واحدة ثم تتعدَّد خلاياها بالانقسام

وهو أول من حاول رسم سلسلة الحيوانات او شجرتها التي بيَّن فيها علاقة انواعها بعضها ببعض وردَّها كلها الى اصل واحد كما تردُّ افراد القبيلة الواحدة الى جد واحد . وجمع خلاصة بحثهِ في هذا الموضوع في المقالة التي تلاها في مؤتمر علم الحيوان الذي عقد بكمبردج سنة ١٨٩٨

واستقصى فيها تسلسل نوع الانسان الى ست وعشرين حلقة من المخلوقات من حيّ لا بناء لهُ كالمونيرا الموجودة الآن الى حي ذي حويصلة واحدة كالبروتستا الى الاحياء الكثيرة التراكيب الى الانسان القديم الذي وجد بعض عظامهِ في جزيرة جاوى سنة ١٨٩٤ وهو في رأيهِ الحلقة المتوسطة بين الانسان الحالي وأعلى طوائف الحيوان

ولم يكتف بدرس مذهب النشوء وتطبيقه على كل انواع الحيوان بل حاول تطبيقه على القضايا الفلسفية والدينية ونشر كتاباً في ذلك سماه «أحجية الكون» لكنهُ تطرَّف فيهِ كثيراً وذهب الى وحدة الخلق الآلي وغير الآلي معاً زاعماً ان خواص الكربون الكيماوية والطبيعية في مركباتهِ الشبيهة بالالبومين هي العلة الوحيدة للحركات التي تميز المواد الآلية من غير الآلية وان الحياة تولدت في المواد الكربونية النتروجينية بفعل ذاتي وان الافعال العقلية من نوع الافعال الفسيولوجية اي انها من خواص المادة الحية فهي موجودة بالقوة في كل خلية حية . وما الافعال العقلية سوى مجموع تلك الافعال المستقرة في الخلايا الاصلية وكما نشأت الحيوانات العليا من الحيوانات الدنيا نشأت اسمى القوى العقلية من القوة الموجودة في الخلايا الاصلية . وانكر خلود النفس وحرية الارادة ووجود الله مستقل بذاته عن المادة

ولا يخفى انهُ قلما لقي من وافقهُ على النتائج التي استنتجها من مذهبهِ الاخير بل قلما لقي من وافقه على المذهب نفسه . ولا ندري كيف كان اعتقاده حينما دنت ساعة الموت ولا كيف تكون آداب البشر اذا انكروا خلود النفس

التطور والحرارة

يتلخص مذهب التطور ، في ان الاحياء تتحول وتتطور ، فتنشأ من تحولها وتطورها انواع جديدة من الحيوان والنبات . حدث ذلك في الماضي . ولا يزال يحدث الآن ولو لم تسهل مشاهدته لان فعل التطور بطيء كل البطء . فهذا المذهب في عرف جميع علماء الحياة الذين توفروا على درس الموضوع ولهم آراء يؤبه لها فيه حقيقة لا مراء فيها ، والادلة التي توجب عليهم هذا القول تستمد من علمي التشريح وتشريح المقابلة وعلم الآثار المتحجرة وعلم وظائف الاعضاء وعلوم النفس والكيمياء وغيرها

وركنا التطور ، هما الوراثة والتحول الفجائي . فالاول يكفل استمرار النوع والصفات الخاصة التي يتصف بها ، والثاني يحدث التغير الذي يكفل تنوع الاحياء وارتقاءها بظهور صفات جديدة فيها تجعل صاحبها اصلح للفوز في معترك الحياة .

وقد كنا الى عهد قريب ، نعتقد ان التحول الفجائي ، في الكائن الحي ، لا سيطرة لنا عليه فهو من الطبيعة ، لا يسرعه ولا يعيقه برد شديد او حر شديد او ما اليهما من الفواعل الطبيعية . ولكن الاستاذ مُلر الاميركي ، من جامعة تكساس ، اكتشف من عهد قريب ، ان الاشعة السينية ، لها تأثير قوي ، في مادة الخلية الحية ، فتزيد ظهور التحولات الفجائية فيها ، والحيوان الذي يفضَّل لمثل هذه المباحث

حشرة تعرف بذبابة الدروسوفيلا ، او بذبابة الفاكهة . فانهُ لما عرَّض هذا الذباب للاشعة السينية زاد متوسط التحولات الفجائية التي تظهر فيه ، زيادة فاحشة . ثم ايد علماء آخرون مباحثه هذه ، فأثبتوا ان للاشعة السينية ، وما هو من قبيلها مما ينطلق من الصخور المشعة يؤثر في ذباب الفاكهة هذا التأثير العجيب

بيد اننا اطلعنا حديثاً في مجلة اميركية صادرة في اواخر يناير سنة ١٩٣٤ ان الاستاذ هارولد پلو وفيليب ايفس قدما تقريراً الى جمعية الوراثة الاميركية ، وصفا فيه عدة تجارب جرياها بذباب الفاكهة المذكورة فثبت لهما ان تعريضه لحرارة عالية ، مدداً قصيرة يزيد متوسط التحولات الفجائية التي تحدث فيه ، وهذا يؤيد النتائج التي وصل اليها الباحث الالماني الدكتور جولد شمث . ويقال ان نسبة ظهور التحولات الفجائية بعد تعريض هذه الحشرات للحرارة الى عدد ما كان يحدث فيها عادة كنسبة ٥ الى واحد

فاذا صحَّ هذا القول فقد كشف الانسان عن طريقة أخرى يتحكم بواسطتها في المادة الحية

القلب والغدة الدرقية

على السائر مع اخوانه في موكب العمران العظيم تبعات عقلية لا يستطيع ان يهملها من دون ان يتخلف عن اخوانه . ومن هذه التبعات العقلية فهمه لبعض الالفاظ الجديدة التي يصح ان يكون كل لفظ منها عنواناً لفصل قائم بذاته من تقدم العلم . وليس المراد ان يتعمق في كل ما ينطوي عليه مدلول هذه اللفظة ، بل ان يحيط بجانب من معانيه يمكنه من فهم المراد به حين ذكره

فمن الالفاظ الجديدة التي تعودناها الآن ، في عالم الصحة والتغذية لفظ « الفيتامين » . ولا حاجة بنا هنا الى تفسير معناهُ . ثم هنالك لفظة اخرى يجب ان نفهم مدلولها ، ونتعوَّد استعمالها ، لانها ولا ريب ، سوف يكون لها اكبر مقام في علم وظائف الاعضاء ، وما ارتبط منهُ بعلم النفس — هذه هي لفظة الهرمون وجمعها هرمونات . اللفظة كما ذكرناها معربة ، ونفضل لها هذا التعريب، لانها ليست ثقيلة على سمعنا ، ولانها تدل على شيء معين أصبح متحيزاً في عالم الفكر الغربي

والهرمون ، افراز داخلي تفرزه بعض الغدد ، مباشرة الى الدم ، من دون ان تفرزهُ عن طريق قناة . وهذه الغدد التي تفرز كذلك ، تعرف بالغدد الصم . ومن الغدد ما لهُ قناة ولكنهُ مع ذلك يفرز هرموناً او اكثر . ومن هذه الغدد التي تفرز هرمونات ولها اثر كبير في حالة الانسان العصبية والنفسية الغدة الدرقية وهي فصان على جانبي القصبة تحت الحنجرة . فالتصميم والاقدام والحزم في اشخاص كنابوليون ، صفات مردها الى هرمون هذه الغدة . وكذلك حالة التوتر العصبي الشديد ، في اشخاص كايفان الرهيب الملك الروسي البطاش . يقابل ذلك ان المصابين بالبلادة العقلية والروحية او بالبله ، يرتد سبب اصابتهم الى نقص في هرمون هذه الغدد. فالبُله الذين يحقنون بخلاصة هذه الغدة ، يشرق نور الذكاء في عيونهم

ولا يخفى ان الجسم ، في نظر علماء وظائف الاعضاء آلة . والظاهر ان الغدة الدرقية ، هي بمثابة الصمام ، الذي يعين سرعة سير الآلة او بطأه . ففي بعض الحوادث التي يصاب بها اصحابها باحتقان القلب ، او بالذبحة الفؤادية ، يرجح ان الصمام مفتوح على مداه ، والآلة سائرة باسرع ما تستطيع ، فاذا حدث مثل ذلك في مصنع من المصانع ، فالمهندس يخفف النار ، ليخفف سير الآلة حتى لا تتحطم . ولما كان الجسم الانساني لا يحتوي على جهاز اوتوماتيكي ليحول دون هذا الاسراع الزائد ، فان القلب يبقى يخفق خفقاناً زائداً حتى ينهك وينتهي الجسم بالموت

فخطر على بال الدكتور هرمان بلومجارت من أطباء مدينة بوسطن ، انهُ اذا ازال في حالة كهذه ، جانباً من الغدة الدرقية ، يكون فعله كفعل المهندس الذي يخفف النار في موقد الآلة . وكذلك فقد يستطيع ان ينجي الحياة المهددة بالموت . وأُعين بمبلغ من المال ، مخصص لهذه المباحث او ما يقابلها في جامعة هارفرد ، فاجرى المباحث الاولية ، ووصل منها الى نتيجة عجيبة ، وهي انه يمكن ازالة الغدة الدرقية كاملة ، وكذلك تستطيع أفعال الجسم الذي ازيلت غدته الدرقية ان تسير سيراً بطيئاً ، وبعد المباحث الفسيولوجية الاولية التي قام بها بمساعدة طائفة من العلماء والاطباء ، أخذ هو والدكتور برلين ، مريضين مصابين بضعف القلب الناشىء عن الاحتقان ، وأزالا من كل منهما تسعة أعشار غدته الدرقية ، فتحسنت الحالتان تحسناً سريعاً ، ثم وقعت نكسة . فقرر الدكتور بلومجارت ان يزيل الغدة الدرقية كاملة وفي ديسمبر سنة ١٩٣٣ عمل الدكتور برلين مساعد بلومجارت اول عملية من هذا القبيل لرجل مصاب بعلة مزمنة من علل القلب ، وكان عاملاً قد قضى ثلاث سنوات اكثرها في الفراش ، فاصبح قادراً أن يرتزق

ولكننا قلنا ان الذين ينقص فيهم هرمون الغدة الدرقية عن المتوسط الطبيعي ينشأون بالداء او بلهاً ، أفلا يقع لهؤلاء المرضى ، الذين تزال غددهم الدرقية كاملة ضعف في عقولهم وبلادة ؟ والرد على ذلك ان الحقن بخلاصة الغدة الدرقية وبمقادير معينة ، يكفي للتنبيه العقلي من دون ان تثقل وطأة العمل على القلب . هذا هو المخرج الطبيعي من المأزق ، على ان الدكتور بلومجارت يحذر من اجراء هذه العملية الاَّ بعد الفحص الدقيق والتثبت من وجوبها

تجفيف النبات و حفظ الفيتامين

يستحسن تجفيف النبات — من خضراوات وثمار وما اليها — لاسباب منوّعة تتعلق بالحالة الاقتصادية من جهة وبالحالة الاقليمية او الجوية من جهة اخرى . بيد ان هذا التجفيف اصبح لا يرضي كثيراً من الناس ، لانهم يعتقدون ان الخضراوات اذا جفّت فقدت ما فيها من الفيتامين . غير ان الاستاذ تشارلز توماس والمستر لبرتون فرون من جامعة كولومبيا الاميركية ، حلاَّ ، على ما يقال هذه المعضلة العلمية الصناعية ، اذ استنبطا طريقة لتجفيف الخضروات من دون ان تفقد ما فيها من الفيتامين . ففي الطرق القديمة

التي كانت تجفف بها الخضراوات كان الهواء الساخن يطلق على النبات الى ان يجف. فطول تعرض النبات للهواء الساخن يميت او يحل الفيتامين الذي فيه . اما النبات في الطريقة الجديدة ، فيدار دوراناً رحويًّا من سرعة معينة في الوسط الساخن فيطرد ما فيه من الرطوبة ، بفعل القوة الصادرة من المركز ، وبفعل الحرارة ، وكذلك لا يطول تعرضه للحرارة فيجف وفيتامينه سليم على ما يقولون

ما هو المرض

المرض هو نشاط الجسم الى دفع عادية فسيولوجية تعرقل افعاله الحيوية بوسائل كيمائية او ميكانيكية

هذا التعريف يجعل المرض قائماً على ركنين هما طبيعة الجسم ، ونوع العادية التي تصيبه . وكثيراً ما يهمل النظر الى طبيعة المرض الثنائية التي اشرنا اليها، حتى لتسمع احياناً اطباء يؤكدون لك ان التدرن ، سببهُ باشلس الدرن . ولكن قليلاً من انعام النظر يثبت ان باشلس الدرن ليس الاَّ ركناً واحداً من الركنين اللذين تقوم عليها الاصابة بالتدرُّن . ففي استطاعة البكتريولوجي ان يستنبت هذا الباشلس في مزدرع خاص من دون ان يصاب هذا المزدرع بأعراض التدرن . وقد يحقن الجواد بهِ من دون ان يصاب بأعراض التدرن التي نشهدها في الانسان المسلول

ونحن نعلم ان امراضاً مختلفة تنتاب الانسان ترتدُّ الى جراثيم مختلفة كالبكتيريا . فالباشلس الذي يسبب الحمى التيفودية ، جسم مستطيل ذو سوطٍ . والكائن الذي يسبب النزلة الصدرية اصغر كثيراً من باشلس التيفود وهو كروي الشكل ولا سوط له. هذان الصنفان من البكتيريا يحدث اولهما الحمى التيفودية والثاني النزلة الصدرية لانهما يعيشان في اعضاء مختلفة من الجسم الانساني ، ويتكاثران بأسلوبين مختلفين، ويفتكان بالنسج الحية بطريقتين متباينتين

ولا يقتصر الاختلاف على الجراثيم التي تسبب الامراض المنوّعة ، وانما يتعداها الى الاجسام . حتى اذا اخذت منطقة يكثر فيها مرض الجواتر (تضخم الغدة الدرقية) وجدت بعض الناس غير مصابين بهِ ، مع ان احوال المعيشة واحدة للمصابين والاصحاء على السواء . فالاجسام تختلف في تفاعلها مع المكروبات وغيرها من عوامل المرض. وهذه حقيقة كثيراً ما نغضي عنها ، فنظن ان النساء والرجال والاطفال سواء امام مرض من الامراض او مكروب من المكروبات

العين الكهربائية تخرق الضباب

اخترعت آلة بحرية جديدة تسمى « عين الضباب» ترى الاشياء الخفية في الظلماء والضباب والدخان الطبيعي والصناعي. وقد جربت في الباخرة (ملكة برمودا) فنجحت نجاحاً حمل كبار موظفي البحرية واصحاب بواخر نقل الركاب على الاعتقاد بأن تلك الآلة العجيبة ستحدث انقلاباً كبيراً في زمني الحرب والسلم

ومن فوائدها منع تصادم البواخر بعضها ببعض في الظلمة والضباب. فتراها في احلك الليالي تنبه ربان الباخرة المركبة فيها على دنو البواخر الاخرى منه وهي على بعد ١٥ ميلاً . وتدل على جبال الجليد عند اقترابها من الباخرة فتدرأ عنها غوائلها . واذا اشرف امرؤ على الغرق استطاع الباحثون الاستدلال عليه بها وهو يكافح الامواج فيوجهون نحوه المصابيح الكشافة فيتسنى للمنقذين الوصول اليه وانقاذه

***

وفي زمن الحرب اذا تسللت احدى سفن الاعداء في الظلام متخفية باطفاءِ مصابيحها استطاعت (عين الضباب) رؤيتها في الحال ويتاح ايضاً لتلك العين الحساسة، الشعور بدنو الطيارات والمناطيد المعادية فتنذر بقدومها . وسر قدرة (عين الضباب) على رؤية الاشياء في الظلمة ، يعرف من قاعدة علمية مشهورة . وهي ان كل شيء أشد حرارة من جسم يجاوره في بيئتهِ يشع اشعة من الحرارة تسير في خطوط مستقيمة تماثل الاشعة التي تصدر من الدفايات الكهربائية المنزلية فتخترق الضباب والدخان والظلمة بسهولة

ومع كون تلك الاشعة لا تراها العيون البشرية بيد ان رؤيتها ممكنة بالبصاصة الكهربائية . وهي الاداة التي جعلها المخترع القومندور پول مكنيل Commander Paul H. Mac Neil (قوام اعين الضباب) . تخترق الاشعة الافق فاذا صادفها شيء حار اثّر فيها تأثيراً يحدث إشارة تتقوّى فتنذر السامع بالخطر الذي يتهدده . وان كان ذلك الشيء اقل برودة من بيئته كجبال الجليد مثلاً اثّر فيها ايضاً فتقوم بالانذار المرغوب . وذلك عدا كون عين الضباب تدل على الحرائق التي تحدث في الغابات قبل استفحالها . وقد ازمع المستر مكنيل تقديم مخترعه هذا الى بحرية الولايات المتحدة لكي تستخدمه في بوارجها بمثابة آلة دفاعية

***

ويجدر بنا في هذا المقام ان نصف مخترعاً آخر اساسه الضوء والبصاصة الكهربائية ايضاً — ونعني بهِ التليلوكس Telelux : —

اخترع العلماء منذ بضع سنين جهازاً سموه (تليڤوكس) اي الخادم الصناعي ثم اخترعوا لهُ حديثاً اخاً صغيراً سموه تليلوكس مداره على النور بدلاً من الصوت الذي يتوقف عليهِ عمل التليڤوكس لان لوكس Lux لفظ لاتيني معناه ضوء وڤوكس Vox معناه صوت

وقد جرّب التليلوكس في معرض كهربائي بمدينة بتسبرج بولاية بنسلڤانيا من اعمال الولايات المتحدة فقام بانارة النور الكهربائي واطفائه وأدى اعمالاً اخرى من هذا القبيل وذلك حين يتلقى الاوامر من سيده كاشارات نورية فينفذها توًّا . ويؤلف دماغ هذا (الخادم المصنوع) من بصاصتين كهربائيتين تحسان بذبذبات الضوءِ فتحولانها نبضات كهربائية مطابقة لها. فان صوّبت شعاعة نور الى تينك البصاصتين حركتا الآلات المقوية للدورة الكهربائية، وهذه تدير (في دورها) جهازاً ميكانيكيًّا ويتيسر للمخدوم ان يقف بعيداً عن ذلك (الخادم المصنوع) مسافة ٧٥ قدماً فيلقنهُ اوامره بضغط زر كهربائي متصل ببطارية تنير نوراً دوريًّا بحسب العمل المطلوب

الغازات السامة والفاسياء

لما أستخدمت الغازات السامة في الحرب الكونية كسلاح للهجوم والدفاع ، خالها جلّ الملأ من المخترعات الجديدة ، كلّ الجدة . وما دروا أن الطبيعة ، أول المعلمين، قد سبقت أن جهزت شتى مخلوقاتها بأمثال ذلك السلاح الذاتي وكان ذلك التجهيز سابقاً بألوف الاحقاب ، لاتخاذ الانسان آلاته من الظرّان

فان كنت تبغي استيقان ذلك ، فعليك ان تؤمَّ الغياض منقباً عن بغيتك ، بين صخورها فلا تلبث ان يطرق سمعك دويٌّ كدوي الغدارة عند انطلاقها ، وتغشاك غمامة صغيرة من دخان ضارب للزرقة ، ينبعثان من كنف خنفساءة ضئيلة . وذلك الدويّ هو ضراط الخنفساءة وتلك الغمامة هي فساؤها تطلقها من مفساها دفاعاً عن نفسها ، عند ما يثير حفيظتها أي خصم من خصومها . لكي تثبط عزيمته وقتيًّا ريثما تلوذ بالفرار . وذانك الفساء والضراط هما سبب تسميتها بالفاسياء او الخنفسة الضراطة .

وثمةضرب من النمل مجهز بجهاز لاطلاق الحامض النمليك ا فان هاجمت نملة منهُ ، رفعت رأسها ، وبزقت من فيها وابلاً من الحامض النمليك الى بعد خمس بوصات

عوض جندي

رجال المال والأعمال

اخذ علينا الاستاذ العقاد . والدكتور زكي مبارك اننا لم ننشر فيكتاب رجال المال والاعمال سير رجال شرقيين تصحّ أعمالهم وسيرهم ان تكون قدوة كسير الغربيين فرأينا ان نتدارك ذلك في لحق ننشره قريباً مع المقتطف

عودة الروح — تابع صفحة ٣٣٦

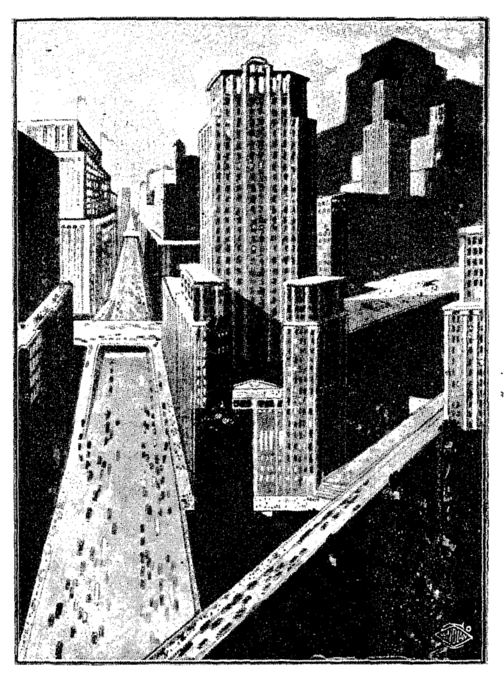
وكذلك رضي « مصطفى » عن نفسه ولم يجد ثمة ما يمنعه من ملاحقة « سنية » والامل رضاها ، فجرت له معها هذه الحوادث المثيرة للضحك والاشفاق معاً ، خصوصاً في حروجة مركزه فيعيادة طبيب الاسنان وفي نومه في الشرفة . وتستطيع ان تتصوّر من هذا بعض نواحي هذه الشخصية التى غيرت مجرى حياتها نظرة عارضة وقعت محض صدفة واتفاق ، ولكنها ليست نظرة الرجل العابث بل الرجل الذي يترقب المرأة التى تسطع في سماء حياته نجماً يهديه ويملأ فراغ قلبه وتكون له نعم الزوج وشريك العمر

وأنت تحب « مصطفى» وقد تضحك منهُ، ولكنك لا تسخر من هذه الشخصية الحلوة ، تعجب بها وتتمنى لها حظًّا وافراً من السعادة والهناءة ، وتلمح في تضاعيفها هذا الخلق النبيل الذي يعمر قلب الرجل النبيل في سعيه وراء الزوجة الصالحة والمرأة الكريمة النبيلة . وتمر على « مصطفى » لحظات من يأس ، ولحظات من امل ، ويتأرجح قلبه بين هاتين العاطفتين طويلاً وبين الجزع والرجاء ، والاقبال والاحجام ، ولكنهُ لا يصمت صمت «محسن» ولا يقتحم اقتحام « سليم » فينتصر من حيث اخفقا ، ويتم التعارف بينه وبين « سنية » ويجد كل منهما في الآخر الشطر الناقص والجزء المتمم ، ولا يكون على « مصطفى » بعد ان خطا خطوته الاولى مع «سنية » وقدكللت بالنجاح ، الاّ ان يقفوهابالخطوةالثانيةمع اهلهافيطلب يدها وتكلل الثانية كالاولى بالنجاح وبالتوفيق والحظ الهنيء

[في الجزء التالي تتمة البحث]

الجزء الثالث من المجلد الرابع والثمانين

صفحة



مدينة المستقبل في الحضارة الصناعية



مجلة علمية صناعية زراعية

الجزء الرابع من المجلد الرابع والثمانين

١ ابريل سنة ١٩٣٤ — ١٦ ذي الحجة سنة ١٣٥٢

العلم والفلسفة

كان عهدٌ وكانت المعارف الانسانية قليلة التنوُّع . ففي عصر الاغريق الاقدمين ، كان حكماؤهم لا يفرقون بين الرياضة والمواليد والسيكولوجيا وأدب النفس فكانت طائفة كبيرة منهم فلاسفة ومصلحين ورياضيين وطبيعيين في آنٍ واحد . بل وكانوا ساسة وجنوداً ومهندسين وتجاراً كذلك ، وهذا يدلك على وحدة المعرفة في عصرهم ، بل على وحدة المعرفة والعمل . حتى التعليم في « الاكاديمية » و « الليسيوم » كان وفقاً للتقاليد الموروثة عن فيثاغورس تعليماً عامَّاً يتناول المبادئ والاصول في الغالب دون التفصيلات . وهذا لا ينفي ان بعض المفكرين في تينك المدرستين حاولوا الانقطاع لفرع واحد من فروع المعرفة والتوفر عليه . ولم تنفصل العلوم بعضها عن بعض وتتحيَّز مباحثها الا في عهد مدرسة الاسكندرية وبعدها

وكان من الطبيعي ان تكون المعرفة وحدة غير مجزأة ، لما كانت العلوم في مهدها . بيد ان موقف الاغريق نحو وحدة المعرفة ، يعدو هذه الظاهرة السطحية . ذلك انهُ يقوم مثلاً واضحاً على الصلة الوثيقة بين ارتقاء الرياضة والعلم من جهة والفلسفة من جهة اخرى . وفي مكنتك ان تتبيَّن اثر هذه الصلة خلال العصور التي تلت عصر الاغريق الى عهد كوبرنيقوس وكبلر ونيوتن . ثم اننا نجد مكتشفات ديكارت الرياضية والعلمية اساساً لاسلوبهِ الفلسفي ، بل ان نظريته الكونية Cosmological والبيولوجية اوحت الى الفيلسوف سبينوزا برهاناً هندسيًّا لنواهي الضمير . ثم انك تقع في فلسفة ليبنتز على فكرة « التناهي في الصغر » فتجدها كسمط العقد تنظم رياضته العالية (حساب التمام والتفاضل) ونظريتهُ في المادة وفلسفتهُ النفسية والادبية وفقههُ الديني

وكانت فلسفة كانت باعثاً على فتح الهوة بين العلم والفلسفة في القرن التاسع عشر . فاصبح العلم متصلاً

اوثق اتصال بالعقل المجرّد قائماً عليهِ . اما شؤون الحياة اليومية وما يلازمها من اقامة الاوزان الادبية فتركت لاحكام العقل العملي والخبرة ، وهذا أسبغ ظلاً من الريبة على مكانة المسائل الفلسفية من العلم . فلما تمَّ للعلم، القائم على العقل المجرّد، سلسلة من الانتصارات الباهرة قامت مدرسة الوضعيين وهبطت مكانة الفلسفة . فتمهَّد السبيل حينئذٍ ، لتفسير الكون والحياة تفسيراً ميكانيكيًّا ماديًّا . وساد الرأي بأن الحقيقة متصلة بالمادة من حيث ان الشيء لا يكون حقيقيًّا الاَّ اذا كان كالمادة ، مما تدركه الحواسُّ ولو ادراكاً نظريًّا كادراك الذرّات واما ما عدا ذلك ، فتخبطٌ في عالم من الاشباح . وغدا حماً على كل باحث عن الحقيقة ان يحلها الى اجزائها ويصفها بما تتركب بهِ من الجزيئات والذرّات

ومن العجيب ان التمادي في هذا التحليل قضى على « الحقيقة » كما نشدها هؤلاء المفكرون

أما وقد اصبحت المادة خليطاً من المكان والزمان والامواج ، فالاساس الذي قام عليه علم القرن التاسع عشر قد انهار . أما وقد زالت الضرورة القاضية بأن حقيقة الشيء يجب ان تنطبق على صفات الاشياء التي تدركها الحواس ، فليس ثمة حائلٌ الآن ، دون حسبان ، ما يوحي به الاختبار الديني او حسّ الجمال، في عداد الحقائق. وكذلك تمهدت الطريق لاعادة النظر في تفسير الكون تفسيراً فلسفيًّا جديداً . وكانت النتيجة الاولى ، لهذا الاتجاه الجديد ، تقريب الشقة بين العلم والفلسفة . فعلماء الطبيعة اخذوا يبحثون عن حلولٍ لمشكلاتهم الخاصة ، في المناطق التي وراء علم الطبيعة كما كنا نعهده . والفلاسفة في اهتمامهم بمباحث العلماء هذه استرعتهم اساليب العلوم ونتائجها، وهبطوا يبحث « ما وراء الطبيعة » الى دور الامتحان . ثم ان فلكيين وطبيعيين من مقام ادنغتن وجينز وبلانك وأينشتين ، اصبحوا لا يحسبون عالم المادة ذا كيان مستقلٍّ عن العقل. وموقفهم هذا نقيض موقف اسلافهم في اواخر القرن الماضي ، اذ كان اولئك يحسبون المادة وحدها حقيقة ، وكل ما عداهُ شبحاً من الاشباح . بل ان هذا الانقلاب يبدو لك ابعث على العجب ، اذ تعلم ان المادة كانت في نظر الاسلاف خاضعة خضوعاً اعمى للنواميس الميكانيكية . ولكنها في نظر المعاصرين متصفة بنوع من حرية الارادة ، وفقاً للمقتضيات التي ينطوي عليها مبدأ هيزنبرج في عدم التثبت . ويعلق الفيلسوفان الكماليان هويتهد ورسل ، بهذه الناحية من صفات المادة شأناً خطيراً

ومن نتائج هذا التعاون في علوم الحياة ، ان الحياة لا يمكن ان تكون نتيجة لافعال المادة الجامدة سائرةً سيراً اعمى وفقاً للنواميس الميكانيكية . بل هي شيء اساسي مبدعٌ ولها قصدها الخاص . ومن هنا نشأت فلسفة تعرف بفلسفة التطور المبدع ، تخلق الحياة بمقتضاها ، اشياء جديدة خلقاً متصل الحلقات . حتى الذين لا يسلمون بالتفريق الاساسي بين المادة والحياة ، يعمدون الى فلسفة البزوغ (Emergence) كهويتهد والكسندر ومورغن او الفلسفة الكلية Holism كسمطس وانداده

فالتعاون بين العلم والفلسفة آية الحياة الفكرية في هذا العصر . ولا يسعنا الآن ان نحسب احدهما وحدة قائمة بذاتها منفصلة عن الاخرى . بل هما عضوان حيَّان في جسم حي هو جسم المعرفة الانسانية

اصلح اشكال الحكم

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

حاجتنا الى التجانس

ليس من مصلحة بلادنا في شيء ان نطلب لها الحكم الديموقراطي قبل ان نحصل على رحى اجتماعية نطحن بها الجماهير العربية فنجعلها متجانسة ونزيل من بينها هذه الفروق التي تجعل وحدة الرأي فيها بعيدة التحقيق ، ومن العبث ان نسوس البلاد بالتعاون والاشتراك والسواد منا يعتقد مثلاً ان الادارة الكاملة هي ادارة القرون الوسطى . والمخرج الوحيد من البلاء الذي نعانيه هو اتحاد كلمة النخبة المنتخبة منا ولم شعثها لتتمكن من جر الدهماء الى الامام بالقوة ، وحسبنا مثالاً نحتذي به الاقليات الفاشستية والنازية والكمالية في بادىء أمرها فهي هي التي انقذت ايطاليا والمانيا وتركيا من الانحلال ومن سلطة المجالس النيابية الجوفاء واضاعتها أثمن الاوقات في القال والقيل على غير جدوى

ولعل حكومة الاقليات او حكومة القاهرين ستمثل دور الانتقال من حكومة الغوغاء الى الحكومة الشعبية التي يتغنى بها منذ اجيال روّاد الحكم النيابي الصحيح ، لان الديموقراطية الحقة المشروحة في كتب السياسة والتي قلما احسنت استخدامها الامم هي في التحليل النهائي الحكم الذي ترتضيه العقول الراجحة وتقبله التربية العالية . فتكون حكومة القاهرين والحالة هذه هي الرحى الاجتماعية المنشودة التي تجعل اجتماع كلمة الشعب على الشؤون الطارئة اقرب منالاً ووحدة الرأي اقرب الى التحقيق — حتى بين المذاهب الدينية المتشاكسة — وتصرف جهود الناس على انواعها في سبيل السعادة العامة والهناءة المشتركة . ثم ان الحرية الفردية التي تلازم الادارة الديموقراطية عادةً لا تقتضي في الشعوب الراقية الخبط والخلط والجموح والاشتغال بالسفاسف كما ذكرنا سابقاً بل تعني التعاون يقدمه الفرد بحسب ملكاته ومزاياه . وقد تمثل لنا ذلك على اتمه في الادوار العصيبة التي جازتها انكلترا في الازمة العالمية الحاضرة ، فان حزب العمال لم يظهر كفاءة ولا انسجاماً ولا كان له من الزعماء من قبض على الشؤون بيدٍ من حديد فخسر الثقة التي تمتع بها ونزل عن دست الحكم من غير جلبة ولا ضوضاء ولا قعقعة . ذلك لان الامة الانكليزية اولت المحافظين تأييداً لم يسبق له مثيل حتى كاد يكون اجماعاً فتولوا الحكم والفوا الوزارة القومية الحاضرة على اهون سبيل

ولا مراء ان الوضع النيابي في البلدان التي استعدت له هو اداة تمكن اصحابها من تكوين الزعامة الفردية وهي زعامة لا تسير الشعوب عادة الاَّ وراءها، وعلى قوتها تتوقف صلابة البناء السياسي جميعاً ، بيد ان هذه الاداة نفسها تجعل الزعماء — على ما يجب ان يتحلوا بهِ من حرية واستقلال في الرأي — خاضعين للرأي العام

ثم ان الفرد من الدهماء عند ما تحجز حريته او يتخيل المظلمة نازلة بهِ يشعر بانحراف الحكومة وضرورة اصلاحها ، ولكنه يعرف في نفسه انه عاجز عن وصف العلاج الشافي ، فاذا لم يكن عائشاً في كنف حكومة نيابية ثار في وجه الاوضاع السياسية للخلاص منها او سقط في شرك الدجالين الاخصائيين في استجلاب العوام او اصبح العوبة بيد أرباب المذاهب السياسية المستحدثة التي تدعي ان لديها الطلسم الشافي من جميع الاوصاب. وبخلاف ذلك لو كانت الحكومة نيابية ديموقراطية فان لمثل هذا الفرد من حق الانتخاب ما يمكنه من استنابة الرجل الاقوى على ايجاد المخرج الذي ينقذه من الضيق . لا جرم ان الحكومة الديموقراطية الصحيحة بالشروط التي اشترطناها هي اقرب الحكومات الى الحيلولة دون الثورة ذلك لانها تجعل الاهلين اجمالاً على اتصال بالسياسة التي تسير عليها الدولة وتجعل لهم علاوة على ذلك شيئاً من السيطرة على هذه السياسة . فلا يجد الشعب نفسه في حالة من الغبن تحمله على الالتجاء الى العنف واستخدام الشدة ، ويكفي لاسقاط حكومة المستر مكدونالد مثلاً أن يقترع مجلس النواب عليها ، ولكن اسقاط موسوليني او هتلر او مصطفى كمال يحتاج الى ثورة ، ذلك ان ايطاليا والمانيا وتركيا ليس فيها مجلس نواب بالمعنى الديموقراطي الاصلي بل اعضاء يرقصون على النغمة التي يدندن بها الدكتاتور. وللديموقراطية شأن آخر خطير وهو ما تفسحه من المجال لارباب المذاهب السياسية والكفاآت الادارية فقد دلَّ الاحصاء على ان الاكفاء يجدون الفرص السانحة لاظهار مواهبهم في الحكومات النيابية اكثر مما يجدونها في الحكومات الاستبدادية، ذلك لان طموح الدكتاتور مثل جمال الحسناء يأبى ان يرى له منافساً

على ان الباب اذا فتح للاكفاء في الديموقراطيات فهو ويا للأسف لا يوصد في وجه الدجالين ايضاً لما في مقدورهم من استجلاب طبقة من النواب لا تختلف عن العامة كثيراً الاَّ في جلوسها على مقاعد النيابة . يستجلبونهم بعزف الانغام المبتذلة التي يطربون لها عادة ، ولا نعرف وضعاً اجتماعيًّا اسيء استعماله في الشرق العربي لغايات سياسية حزبية مثل الدين وحجاب المرأة ، وتكاد تكون كل رجعى قائمة على التظاهر بما يدَّعيه خصوم الانتقال من وجوب الدفاع عن العقائد والاعراض ومحاربة البدع التي يزعمون وجودها في الاوضاع المستحدثة . والعامة واشباه العامة من الناس اذا لم ترسخ في اذهانها القواعد الاولى التي يجب ان تتمشى عليها سياسة الدولة ، ولم تتعلم ان تفرق بين الدعايات الباطلة والصيحات الصادقة سارت على غير هدى وانقادت لكل ناعق ، وقد تفعل فيها الترهات فعل السحر في الاقوام الابتدائية

هذا بعض ما للديموقراطية وما عليها ذكرناه بشيء من التفصيل للشأن الكبير الذي له في التطور السياسي العالمي الحاضر ، وقد حاول الفاتحون بعد الحرب العظمى ان يحصروا قضية البلدان العربية المسلوخة عن الدولة العثمانية في تزويد الاهلين بالمجالس النيابية ظنًّا منهم ان « الديموقراطية » التي خاض الرئيس (ويلسن) غمار الحرب لانقاذها من ايدي (الهنس) العسكريين الاتوقراطيين كلمة تسحرنا وتبهر عقولنا ، ولكن لو كان لنا اختيار ولم نرغم على وضعنا السياسي الحاضر بقوة الحديد والنار و « هيام » المنتدبين بنا — لفضلنا الف مرة مجلساً نيابيًّا مؤلفاً من رقاصين يدندن لهم الزعيم الوطني القاهر على هذه المجالس النيابية الكريمة . ومع كل اعتراضنا على مثل هذه المجالس النيابية في البلدان العربية فنحن نعترف ان نتائج الانتخاب لم تكن لترضي المندوب السامي في كثير من الاحيان ، ولو زادت حرية هذا الانتخاب قليلاً لكان اول قرار يصدره المجلس النيابي الخلاص من المحتلين بقضهم وقضيضهم ، ولا يكون مثل هذا القرار مستغرباً لان دفع الموت الاكيد مقدم في البحث على سائر الاعتبارات ، ومهما بلغت الدهماء في شعوبنا من الغفلة عن الواجب والاسترسال في سخافات القرون الوسطى فهي شاعرة على التحقيق بالهلاك الذي يحيق بها من الاحتلال والاستعمار

وكيف كان الامر فيجوز للبلدان العربية التي لم تتجهز بعد بوسائل الانقاذ التي توسلت بها الامم الحية منذ ثورة اميركا في القرن الثامن عشر الى ثورة بولونيا في القرن العشرين ان تشتغل موقتاً بالوضع النيابي و « بالمناورات » البرلمانية الى ان تحين ساعة العمل ، وما من شيء يقرب هذه الساعة الخطيرة في تاريخ كل قطر من هذه الاقطار مثل تضافر النخبة المنتخبة من ابنائه لخدمة المصلحة العامة ، ثم على هذه النخبة المنتخبة ان تفهم الافراد ان قيمة الواحد منهم تقاس بنشاطه واشتراكه في تحمل التبعة وان من وقف موقفاً سلبيا من الامة وعاش كلاً على جهودها هو طفيلي اجتماعي بالمعنى الحيوي ، وقد انقضى الزمان الذي كان يجوز للفرد فيه ان يمدح على عزلته بل دلنا الاستقصاء العلمي على ان العزلة هذه عرض جوهري من الاعراض الدالة على بعض الامراض العصبية الوبيلة . وقد اجاد الاشتراكيون بقولهم « صوت واحد للعامل الواحد » ليستثنوا من هذا الحظ تلك الخشب المسندة التي لاقيمة لها في القسطاس البشري لانها ليس لها عمل ايجابي في المجتمع

ثم ان المصالح الاجنبية التي طرأت على البلدان العربية مزّقتها وقسمتها على نفسها لتسهيل ابتلاعها ولم تحرم هذه المصالح من نفر من اهل البلاد ايدوها اما لما يضمنون لانفسهم من المنافع الخاصة بهذا التمزيق واما لما في ذهنيتهم من ترهات قروسطية بالية ورثوها ممن استغلوا العقيدة الدينية البريئة ، فعلى العاملين ان يسترشدوا بما زرعه (هيجل) في الامة الالمانية من الطموح الذي سهل بناء الامبراطورية الجرمانية وذلك بما بثه من تلك الروح السامية التي ذهبت بالفوارق العرضية بين اجزائها . وليس بالمتعذر على الباحث ان يبين المنافع التي تجنيها الاقطار العربية من تعاونها وتوحيد اتجاهها لبلوغ غاياتها المنشودة

. . .

ولا يفوتنا هنا ان نعتذر عن تأييدنا سياسية اليد القاهرة الحكيمة لادارة البلدان العربية المستقلة ، فهذا الاستبداد الذي نوافق عليه انما هو لاجل الحرية التي ننشدها ، ونحن نفادي بحرية بعض الافراد الممتازين الغالية مؤقتاً في سلامة مجموع الامة من التناحر والفوضى ، ولو كان مجتمعنا في المنزلة السامية التي يتمناها كل مخلص امين ما فضلنا على الديمقراطية شكلاً آخر من اشكال الحكم لادارته ، وقد جاهدنا في سبيل الدستور على العهد العثماني جهاداً يذكره ابناء وطننا ولكن الخيبة التي اصابت البلاد العثمانية من نقص تربيتها السياسية وعدم استعدادها ايدت هذه النتيجة التي وصلنا اليها . ونحن نعترف هنا والاسى آخذ منا مأخذه ان الحكم القاهر يقتضي الشدة ووضع الحواجز والقيود على الافراد ، وغني عن البيان ان الادارة المملوءة بالنواهي والمحرمات وسائر انواع « التابو » او « اللامساس » هي ادارة وضعت في الاصل لعصر غير عصرنا ، وتعني في التحليل النهائي ان المجتمع الذي تطبق عليه مؤلف من افراد لا يعرفون ما لهم وما عليهم ، وان الطبيعة الحيوانية فيهم متغلبة على سائر الطبائع فيجب ان يساقوا بالقوة ويقرعوا بالعصا ، وهذا لعمري اثر من اثر العقائد التي تحسب الانسان متمرداً قد افسدته وهدمت اخلاقه الخطيئة الاولى التي ارتكبها في الجنة فهو والحالة هذه شرير بالطبع . ولو جاز للوالد ان يحسب اهل بيته اشراراً بالفطرة وان تربيتهم يجب ان تبتدىء على هذا الاساس النظري لرجعنا القهقرى الى حالة الاسرة في الاعصر الغابرة

اننا نعترف بكل ذلك ولكن ما العمل وحكم القاهرين هذا هو السبيل الوحيد للنجاة من التفتت والتفسخ والانشقاق ؟ لقد ايدنا الحكم الاستبدادي العادل للقطر العربي المستقل لاننا اهتممنا بانقاذ مجموع الشعب اكثر مما اهتممنا بانقاذ الفرد ، وقد يتبادر الى الذهن ان هنالك تناقضاً لازماً بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ، حتى ان بعض ارباب المذاهب الفردية افرطوا في اظهار هذا التناقض ، ولكن التتبعات الاجتماعية دلَّت اهل البحث على ان الفرد في الحياة المجتمعة المؤلفة تأليفاً صحيحاً يحقق فرديته تحقيقاً اتمَّ وذلك بما يكتشف فيها من الفرص الملائمة التي تظهر ميزاته ، يعني ان الفرد الذي يعيش في عزلة لا يجد من المجال لبيان ما امتاز به ومن المشجعات على ملكاته الخاصة شيئاً يعادل الفرد الذي يعيش في المجتمع ، وكلما كانت الفرص سانحة ومتنوّعة في الحياة المشتركة وكان الطلب حثيثاً على بعض المزايا ظهرت هذه المزايا في شخص من يسمى « النابغة » او في شخص « رجل الساعة » ظهور البضائع المرغوب فيها في الاسواق التجارية . فلا عجب ان تأتينا الازمات والانقلابات وسائر انواع الشدائد بالنبغاء الجدد بل بأشباه النبغاء ومن هم دونهم وذلك للاسواق الجديدة التي فتحت في طلبهم . وقدماً عرف علماء التاريخ ان الثورات تخلق «رجال الساعة » وفي جميع ذلك ما يدلنا على وجوب فتح المجال للافراد في الدولة كي يظهر النبوغ المستتر فيهم . وهذا ما جعل التعليم الزامياً في البلدان الراقية وفتح الابواب على مصاريعها للطلاب ليكون للفرد الواحد من الحظ ما يتيح له الفرص التي تظهر مزاياه الكامنة . قال (كونكلين) انه

ليرتعش الواحد منا ان يفكر كيف نجا (اسحق نيوتن) بشق النفس من ان يكون فلاحاً بسيطاً او (فارادي) من ان يكون مجلداً للكتب مجهولا او (باستور) من ان يكون دبّاغاً قرويًّا . ويجب ان يكون في التاريخ الكثيرون من امثالهم في النبوغ ممن فاتتهم الفرص السريعة التي سنحت لهؤلاء . ومن عادتنا ان نظن ان العلماء لم يظهروا الاّ في فترات متباعدة ولكننا مع ذلك نعلم ان الازمات الكبرى تكشف عن العظماء دائماً . افلا يعني هذا الكلام ان الرجال جاهزون وانما يحتاجون في الظهور على المسرح الى هذا المنبه الجديد ؟ والميزات التي نرثها من الآباء والجدود كافية لمعظمنا بل هي اكثر مما نتصور ، وكذلك القابليات الكامنة في صدورنا هي عظيمة ولكنها قلّما نجد لها ميداناً تتجلّى فيه[1] » . والعمل المهم الذي تقوم بهِ الحياة الاجتماعية المشتركة لاجل تقوية الفردية هو انها تبحث عن الميزات الشخصية المطلوبة في الاحوال الطارئة على المجتمع كما تبحث الاسواق التجارية عن البضائع التي يكثر عليها طلب التجار ، فالرواج يكون معنويًّا كما يكون ماديًّا ، وقد تتنوّع تلك الميزات المرغوب فيها تنوع هذه البضائع ، لذلك يجد النبوغ مهما كان نادراً وغريباً هواة « يشترونهُ » ، والرواج يخلق البضاعة المطلوبة خلقاً ويأتي بها ولو من الصين

لا جرم ان اتساع المجتمع اليوم وتفرعه بالقياس الى ما كان عليهِ في الماضي والارتقاء الذي تمّ له في البناء الذي يقوم عليهِ والعلائق الدقيقة التي يتماسك بها كل ذلك لا يزيد فقط في طلب النبغاء بل يلحف كثيراً في تنويع النبوغ الذى يتجلى فيهم

وحسبنا من هذه التوطئة التي قدمناها ان نلفت الانظار الى خطأ الذين يحاربون الفكرة العربية العامة ويتطرفون في « اقليميتهم » ، ومن ادعى دواعي الاسف ان يكون اكبر عدد منهم — على قلته — في القطر المصري وهو القطر الذي يجني اطيب الثمرات من الفكرة العربية ماديًّا وادبيًّا ، وبديهي اننا كلما وسعنا مجتمعنا العربي ونوعنا اقاليمه فتحنا اسواقاً جديدة للنبغاء منا او لمن كانت فيهم قابلية النبوغ كامنة ، وشتان بين من يخدم قطراً فيهِ ثلاثة ملايين او اربعة ملايين من البشر كسورية او العراق وبين من يخدم عالماً عربيًّا يمتد من المحيط الى المحيط ، وكما ان القرية الصغيرة لا تنمي الخبراء من اهل الاخصاء لانهم لا يجدون فيها الزبائن الكافين « لشراء » فنونهم كذلك القطر الصغير يميت النبوغ لانهُ عاجز عن تحمل نبوغهم وتغذيته بالمال والاقبال . ولأَهْون على الاقاليم القطبية الجليدية ان تربي الطاووس من ان تنمي (بريدة) او (عنيزة) او (ينبع) المهندس او الكيموي

حكومة الزجر

لقد ايدنا حكومة القاهرين بالمعنى السياسي الاجتماعي الحديث لتسير بالناس الى الامام بالقوة وتحول دون تفتتهم وتطبع في نفوسهم احترام الدولة لكننا لا نرى شرًّا من اقتصار اعمال الحكومة على زجر الرعية فقط ، ولا يسعنا في الختام ان ننهي هذا المقال من غير ان نستنكر الخطط

(١) Major Social Problems, P. 145

العقيمة البالية التي تسير عليها بعض الحكومات في العالم العربي سواء كانت حكومات مستقلة او زائفة، فهي من اساسها قائمة على نظرية الزجر فقط بحيث لا يتورع بعضها من ان يتدخل في شؤون الافراد الخاصة، حتى ان زبانيتها ليكسرون صفائح المقول على رؤوس مستمعيه في زاوية الدار التي يسكنونها، وفي نظرنا ان اعظم تحول طرأ على الحكومات الحديثة هو خروجها من هذا الموقف السلبي — موقف الزجر والحظر و« التابو » و« اللامساس » — الى الموقف الايجابي، موقف تشجيع الافراد والاخذ بناصرهم، ويتجلى ذلك حتى في اشد الحكومات الحديثة استعباداً كالفاشستية والنازية. والاكثار من الزجر والتثبيط بدلاً من الاكثار من الارشاد والتشجيع عمل يستند الى فكرة سخيفة فحواها ان تغيير طبائع الافراد محال فواجب الحكومة والحالة هذه ان تحول دون شر الرعية فقط واما السعي لتحسينها فهو عقيم ولا محل له في مناهجها ! ونحن وان اعترفنا بان المدنية لم تغير بعد تغييراً جوهرياً في طبيعة السواد من الناس في العالم المتمدن ولاسيما في ساعة الغضب والانفعال الا اننا من اشد انصار التربية الايجابية، ولا شيء نسخر منه مثل الاعتراف بالعجز عن الاصلاح، ولئن اعجبنا (ابو العلاء المعري) كثيراً برقة شعوره في التبرم من الخلق وتشاؤمه من فساد فطرتهم فقد اعجبنا الاستاذ (توماس هكسلي) اكثر بتفاؤله بالاصلاح وامله بالتغيير حين قال «يمكن عمل الشيء الكثير لتغيير طبيعة الانسان، فالادراك الذي حوّل الكلب وهو اخو الذئب الى حارس القطعان الامين يجب ان يكون قادراً على عمل شيء لاخضاع الغرائز الوحشية في الانسان المتمدن»(١).

ومن المؤسف الممض ان نكون في شؤوننا الشرعية والاخلاقية والاجتماعية لا نزال متمسكين بالعتيق في حين نرانا في صناعتنا وعلومنا العملية كما قال الاستاذ (باًيندر) على احدث طراز فاذا ما دخلت مصنعاً من المصانع الراقية او مخبراً من المخابر الفنية راعك ما فيه من المستحدثات لكنك لا تجد اصحابه يختلفون في عقائدهم اختلافاً جلياً عن زملائهم في القرون الوسطى، وكم رأينا عاملاً متفنناً او خبيراً من اهل الاختصاص لا تختلف نظريته في الخليقة وتاريخها عما خلفه البابليون في سفر التكوين، وسخافات « العظماء » اشهر من ان تذكر. ومن المهم جداً ان يكون للعالم العربي حكوماته الوطنية تعمل بوحي من عندها لان الارتقاء الذي يحصل عليه الشعب بتطوره الداخلي هو الارتقاء الثابت الذي لا يكون عرضة للتقلب السريع. وليت المتدنين في الشرق وغيرهم من المستعمرين الذين يتظاهرون بالافراط في خدمة المصلحة الشرقية فيتداخلون في كل شيء ينصتون الى قول الاستاذ باًيندر حين قال « لقد دلّ التاريخ على ان الانسان لا يمكن ان يدار من الخارج كائنة ما كانت القوة التي تحاول ذلك. بل هو يدير نفسه بيده. وذلك حين يقوم امام عينيه مثل اعلى للاحتذاء فيجده مناسباً له ومتصلاً به اتصالاً صحيحاً. وتجذبه الى اخوانه من بني الانسان حاجته الى التكامل بهم، وتحمله هذه الحاجة على العمل بطريقة ترقي فيه ذاتية يحتفظ بها سليمة غير منقوصة»(٢).

(١) Evolution & Ethis, p. 82 (٢) Major Social Problems, p. 156.

العلم والحياة الجنسية

مناظرة علمية اجتماعية

[هذه المقالة ملخص مقالتين نشرتا في مجلة السينتفك اميركان المعروفة عند قراء المقتطف بمقامها ورزانتها . وقد كتب محررها في تقديمهما ما مؤداه : هذه مجلة علمية وموضوع الجنس موضوع علمي نتناوله في الحين بعد الحين من دون تردد . فالمقال الاول للدكتور بارشلي الاستاذ في علم الحيوان ومؤلف كتاب : (علم التناسل الانساني—نواحي الجنس البيولوجية) وهو يحسب بين العلماء ثقة في موضوع تناسل الاحياء . ويتناول في مقاله موضوعاً خاصاً تدور حوله الاحاديث وقلما تكتب عنه كتابة علمية . اما المقال الثاني فللدكتور اغناطيوس كوكس وهو قسٌّ واستاذ لادب النفس في جامعة فوردهام الاميركية . وفي تقديم السينتفك اميركان غنى عن ايّ تقديم آخر من قبلنا]

— ١ —

لست أعرف موضوعاً أوثق صلة بحياة الانسان الخاصة من موضوع العلاقة الجنسية، ولا اجابة اصعب من الاجابة عن السؤال الذي وجههُ اليَّ محرر هذه المجلة وهو : هل الاتصال الجنسي ضرورة فسيولوجية ؟ فهو سؤال ، لا بدَّ ان يجيب عنهُ ، كلٌّ على منواله الخاص . لانهُ لا يحق لانسان ، كائناً ما كان—طبيباً او قسيساً او عالماً بالحياة او شرطيًّا يحافظ على الامن العام والآداب العامة— ان يملي رأيه على غيره في هذا الموضوع . لذلك كان الشعور الاول الذي احسستُ بهِ عند توجيه السؤال اليَّ ، ان اعتذر ، أو أن اعالج الموضوع ، من ناحية الحيوانات الدنيا دون غيرها . قلت لنفسي كيف يستطيع انسان ان يجيب عن هذا السؤال ، الخاص بحياة كل انسان الخاصة ، وهو في موضوع تضاربت فيهِ الآراء ، ولم نظفر بعد ، بالحقائق الوافية التي تمكننا من الحكم فيهِ حكماً فاصلاً . ولكن هذه الاعتراضات ، زالت قوتها لما تبيَّن لي ، اننا نستطيع اليوم أن نعالج هذا الموضوع معالجة مجردة من ناحية ما يقضي بهِ العقل ، لا من ناحية ما يلابسهُ من الخرافات والاوهام . ثم اننا لاول مرة في تاريخ الحضارة ، نملك الآن من الحقائق البيولوجية ما يمكننا من وزن الموضوع في ميزان علمي ، لا نقول انهُ الميزان النهائي ، وانما هو على الاقل السبيل الى حكم مستنير

فلننظر اولاً في الحقائق البيولوجية التي يقوم عليها البحث في هذا الموضوع الخطير

***

ان جسم الانسان ، بحكم مكانهِ في عالم الحيوان ، مجهز بوسائل التناسل واخلاف النسل . أي ان النوع الانساني مؤلف من جنسين او شقين يتمم احدهما الآخر ، هما الذكر والانثى . والبناء الفسيولوجي والنفسي ، في هذين الشقين ، يجعل عمل الشقين معاً ، عملاً لا بدَّ منهُ لاخلاف النسل

وحفظ كيان النوع . ففي الانساني بشقّيهِ ، كما في جسم الحيوانات الثديية ،أجهزة عصبية وعضلية وغددية ، دقيقة التركيب مرهفة الحسّ ، تشترك جميعاً في هذا العمل الخطير . ومن السهل على من يدرس التشريح والفسيولوجيا من ناحية المقابلة أن يبين ، كيف يقابل كل جزء من هذه الاجهزة في جسم الانسان ، جزءًا مثله في اجسام الثدييات العليا ، ولكننا لسنا بحاجة الى هذه المقابلة ، لان كل من له المام بالموضوع لا ينكر هذه الحقيقة

غير أنَّ ما يهمنا بوجه خاص هو مسألة السلوك والتصرف . لانهُ اذا سلمنا بأن اجهزتنا التناسلية ، شبيهة بأجهزة الثدييات ، فهل تصرفنا او سلوكنا التناسلي ، شبيه بتصرفهم او سلوكهم ؟ الانسان يختلف عن سائر الثدييات ، في انهُ لا يعتمد طوال حياتهِ على فعل الغرائز ، بل هو يثقف عقله بالتعليم ويحيط حياته بألوان المؤثرات الثقافية . ولكن مع ذلك لا ينكر عالم فسيولوجي ، ان تصرفنا التناسلي لا يختلف في قليل ولا كثير عن تصرفها هي ، وهذا مما لا يعرف بوجه عام ، وان هو عرف فقد تتنكر لهُ التقاليد الاجتماعية

العوامل القوية التي تؤثر في تصرف الحيوان — ومنهُ الانسان — هي عوامل الجوع والجنس والخوف ، أو هي بكلمات اخرى ، الحاجة الى الطعام ، والمزاوجة ، والحماية . فالحيوان من دون الطعام ، يموت . ومن دون المزاوجة ينقرض . ومن دون الحماية لا يجد سبيلاً الى اكتفاء الباعثين الاولين . فهذه البواعث هي قوى تدفع بالحيوان الى تحقيقها ، لانها اساس الحياة ، ولا حياة له من دونها . وكذلك نرى ان الدافع الجنسي ، في النوع البشري ،كما هو في غيره دافع قوي ، ويستحيل قمعهُ او كبته في انسان سويّ . واذكر ايها القارىء ، ان هذه القوة المكتسحة ، ليست غريزة غرضها التناسل ، او رغبة في الاولاد والنسل ، بل هي الرغبة في المزاوجة ، ليس الاَّ ، لان الحيوان اذا احسَّ بهذه الرغبة لا يفكر في حفظ النوع ولا في النسل . وهذه الناحية من الموضوع نسلم بها حالاً ، اذا نظرنا الى الحقائق المشاهدة ، وصرفنا النظر عن التقاليد ، ولا بد من ان نحسب لها حساباً في كل نظر معقول الى الموضوع

ان البحث الحديث في الحيوانات الثديية يبين بوجه عام ، ان الباعث الجنسي او المحرّض التناسلي ، يتخذ شكلين ، هما بحسب ما دعاهما بريفو Briffault الباعث التناسلي ، والباعث التزاوجي . ففي اكثر الحيوانات لا نرى أثراً للباعث الثاني ويقصد به ادمان ذكر واحد لانثى واحدة مدة طويلة . اما الباعث التناسلي الذي يظهر في المزاوجة بين ذكر وانثى ، ينفصلان بعدها ، فهو القوة الطبيعية العامة التي اشرنا اليها . فبعد ان يكفى هذا الباعث ينفصل الذكر عن الانثى ، حتى يحين فصل المزاوجة التالي ويشتدّ هذا الباعث من جديد . واذاً فالاسرة بين الحيوانات تتألف من الام واولادها . ومدى أسرة من هذا القبيل ليس طويلاً لان الاولاد ، لايلبثون حتى يشتدَّ ساعدهم ويروح الذكر يبحث عما يكفي الباعث التناسلي فيهِ ، والانثى كذلك

أما في رتبة الرئيسات (البريمات) — أي القردة والانسان — فتختلف الصلات بين الذكر والانثى عنها في الحيوانات التي دون ذلك في سلم التطور. ذلك ان الصلة بين الذكر والانثى في حيوانات هذه الرتبة، تتسم بسمة من الاستقرار الى حد ما. وتعليل ذلك بسيط، ذلك ان الحيوان في ارتقائه اضاف الى الباعث التناسلي الباعث التزاوجي، من دون ان يضعف الثاني، الاول

وصحيح ان الانثى في حيوانات هذه الرتبة، تحتاج الى حماية الذكر مدة اطول من مدة الحماية التي تحتاج اليها الانثى في الحيوانات التي دون ذلك، لان مدة الحمل اطول، وكذلك مدة الطفولة. ولكن من الخطإ ان نحسب، ان استقرار صلة الذكر بالانثى، الناشيء عن هذه الحقائق البيولوجية سببه نوع من الغيرية او المحبة الوالدية. والذي يربط الذكر بأنثاه في هذه الرتبة انما هو استعداد الانثى للمزاوجة في جميع الاوقات بوجه عام. ففي الحيوانات الدنيا، لا تكون الانثى مستعدة للمزاوجة إلاَّ في فصول معينة وأما في حيوانات هذه الرتبة فاستعدادها لذلك يكاد يكون دائماً

وكذلك ترى ان الباعث الثاني، من باعثي « بريفو » أي الباعث التزاوجي انما هو وسيلة اخترعتها الطبيعة لاكفاء الباعث الاول، بطريقة مستقرة. وهو قائم كما تقدم على خاصة فسيولوجية في الانثى، ويظهر في مظهر تعدد الاناث التي يتخذها الذكر لنفسه، ويدفع عنها رغائب ذكر غيره، ما استطاع الى ذلك سبيلا. والاقتناع بزوجة واحدة او اتخاذ اكثر من زوجة، لا علاقة له بالبيولوجيا، لانه يقوم على عوامل اجتماعية واقتصادية كالحرب والطعام والتوزيع الجغرافي وغير ذلك. والاسرة التي من هذا القبيل كائنة بين طوائف من القردة، كما درسها زوكرمان، وفي النوع الانساني. بل ان هذه الاسرة، هي الخطوة التي تقدمت نشوء الاسرة الانسانية بمعناها المعروف، التي تبدو فيها الظاهرات الانسانية، كالحب الابوي، والحب العائلي، والمحبة الخيالية، واشكال الزواج على اختلافها

وقبل ان نترك موضع الصلات الجنسية في الحيوانات التي دون الانسان، يجب ان نذكر، ان مظاهر الباعث التناسلي في الانسان، هي هي في القردة، الاَّ قليلاً منها، لا محل للتبسط فيه هنا. بل ان العالم ملر، قد أثبت وجود الشواذ التي تتصف بها العلاقة الجنسية الانسانية في القردة

واذن يتضح، ان جهاز الانسان التناسلي، وتصرفه او سلوكه التناسلي كذلك لهما أساس بيولوجي قديم يمكن الارتداد به الى الحيوانات التي دونه، فالحيوانات التي دونها في سلم التطور. وعليه لا يمكن ان تنظر في هذا الموضوع، على انهُ موضوع خاص بالانسان دون غيره من الحيوانات اذا شئت ان تنظر الى الموضوع نظراً علميًّا

فاذا التفتنا الآن الى موضوع مظاهر الباعث او المحرض الجنسي في الحضارة الغربية يجب ان نذكر، ان الانسان ليس مخلوقاً قائماً بذاته، منفصلاً عن سائر الاحياء، ومحرراً من القوى العنيفة التي تدفع تلك الاحياء الى عمل ما تعمل. وليس للانسان مصدر وحي لا يخطيء، يقول له ما يجب ان يفعل، او كيف يفعله، بل على الضد من ذلك أن تصرف الانسان في هذه الناحية، سببه قوى بيولوجية

يشترك فيها مع الحيوانات الاخرى حتى في التفصيلات ، واغضاء النظر عن هذه الحقائق أفضى الى اقامة الحواجز والقيود ،دون هذا الفعل الطبيعي ، وقد بلغت هذه الحواجز والقيود أشدها واعلاها في أوائل القرن الماضي ثم بدأت تنهار وتنحل بتقدم العلم وانتشاره

بعد كل ما تقدم نستطيع الآن ان نعود الى السؤال الاول فنحاول الاجابة عنه اجابة ترضى عنها الحقائق العلمية . كل الرجال والنساء ، الاَّ القلائل الذين ليسوا أسوياء الاجسام ، يحتاجون الى التنفيس او الاعراب عن الباعث التناسلي ،كضرورة فسيولوجية . وليس ثمة أي جواب آخر ، يمكن ان نجيب بهِ ، اذا اعتبرنا حقائق التشريح والفسيولوجيا ، وطبيعة الانسان البيولوجية . ولا ريب في ان هذا التنفيس او الاعراب ، ليس بضرورة — لايستغنَى عنها عاجلاً — لاجل حفظ الكيان الانساني ، كضرورة الطعام وحماية الجسم من أعدائهِ الخفية والظاهرة . ولكن لما كان الباعث الجنسي ، ذا شأن عظيم في فعل التطور ، ومتصلاً اتصالاً عميقاً بفسيولوجية الجسم وسيكولوجيته ، فقمعه او كبته، قمعاً او كبتاً مطلقاً متعذر ، ومحاولة قمعه او كبته مدة طويلة ، قد يفضي الى ضرر فسيولوجي او اضطراب سيكولوجي

أنا اعلم ان هذا القول قد يجد من يعترض عليه ويتحداه ، لانه ليس القول الذي تعودنا سماعه من الذين اتخذوا « ادب النفس » نبراساً لهم في الحياة ، ولكنني اعتقد انه يعرب عن الحقيقة — الحقيقة كما أثبتها البحث العلمي الحديث ، وكما تؤيدها الخبرة الانسانية على مدى العصور

ان التقاليد الاجتماعية والادبية الباسطة ظلها على اجتماعنا، وتقضي على طوائف من الناس بالحرمان الطويل تناقض الاعتبارات العلمية التي بسطناها في هذا المقال ، وتقيم في وجوهنا مشكلة اجتماعية خطيرة . ولا أريد ان اتناول هنا بعض الجماعات التي يختار أفرادها رجالاً ونساء ، ان يكبتوا الباعث الجنسي فيهم بارادتهم . ولكننا اذا نظرنا الى الذين تعدوا سن المراهقة ممن عدا تلك الجماعات الخاصة ، وجدنا طائفة كبيرة من الذكور والاناث الاصحاء الذين لا يستطيعون الزواج لسبب من اسباب كثيرة متعددة ، ولسنا نري في غير التسليم بالرأي الذي يقضي بهِ العلم مخرجاً لهم من مأزقهم . اذ ذاك تصبح العلاقة الجنسية — في ما خلا الاولاد — علاقة خاصة كلَّ الخاصة

— ٢ —

حكم الاستاذ پارشلي في مقاله المذكور بأن « كل الرجال والنساء ، الاّ القلائل الذين ليسوا اسوياء الاجسام ، يحتاجون الى التنفيس او الاعراب عن الباعث التناسلي كضرورة فسيولوجية ، وليس ثمة اي جواب آخر يمكن ان نجيب به اذا اعتبرنا حقائق التشريح والفسيولوجيا وطبيعة الانسان البيولوجية ، ولا ريب ان هذا التنفيس او الاعراب ، ليس ضرورة عاجلة لاجل حفظ الكيان الانساني كضرورة الطعام وحماية الجسم من اعدائهِ الخفية والظاهرة ، ولكن لما كان الباعث الجنسي ، ذا شأن عظيم في فعل التطور ومتصلاً اتصالاً عميقاً بفسيولوجية الجسم وسيكولوجيته ،

فقمعه او كبته ، قمعاً او كبتاً مطلقاً متعذر ، ومحاولة قمعه او كبته مدة طويلة قد يفضي الى ضرر فسيولوجي او اضطراب سيكولوجي »

وقد بعث الدكتور كوكس بالاسئلة الى الاطباء البيولوجيين وعلماء النفس وأطباء العقل يستطلع آراءهم في الموضوع . ثم عمد هو ومعاونوه الى الكتب التي تعالجه يستنطقها ، والنتيجة التي وصل اليها ، مع ان الردود جميعها لم تصله حين كتابة مقاله ، هي ان معتقدات الاستاذ بارشلي ليست قائمة على العلم وان محاولته التوحيد بين هذه المعتقدات والعلم ، عمل صبياني او على الاقل غير علمي

***

حاول الاستاذ بارشلي ان يبين الشبه بين الحياة التناسلية في الحيوانات الثديية العليا وفي الانسان وعلى هذا الشبه بنى كثيراً من ادلته . ولكن القس كوكس عمد الى كتاب حديث اشترك في تأليفه جماعة من الثقات بعد ما بحثوا عشر سنين بحثاً دقيقاً في موضوع « الجنس والغدد الصم » وفيه يقول احد المؤلفين ان البحث في مقابلة حياة الانسان التناسلية بحياة الحيوان الثديي ، تحتاج الى دقة عظيمة في تحديد التجارب والسيطرة عليها حتى لا يتسرب اليها الخطأ لكثرة الفروق في بناء الاجسام والبيئة المحيطة بالفريقين ولقلة الحقائق المعروفة عن فعل التناسل نفسه في الانسان »

ثم يقول الدكتور كوكس : ومما يدل على ان الدكتور بارشلي لم يعن بجميع نواحي الموضوع قبل اخراج حكمه المشار اليه انهُ ناقض نفسه بنفسه ، ومهما تتعدد وجوه الشبه بين حياة الثدييات التناسلية ، وحياة الانسان التناسلية ، فلا ريب ان هناك فرقاً طبيعيًّا يقتضي التفكير ، وهو ان حياة الثدييات التناسلية ، ليست خاضعة لسيطرة الارادة الحرة . اما حياة الانسان التناسلية فخاضعة لهذه السيطرة وحتى الاستاذ بارشلي نفسه لا ينكر ان الاعراب عن الباعث الجنسي خاضع بعض الخضوع للارادة . وانما هو يذهب الى ان اخضاع هذا الباحث اخضاعاً كاملاً (اي قمعه) للارادة الحرة يفضي الى اضرار فسيولوجية وسيكولوجية . بيد ان الطبيعة لا تخلق شيئاً سدى أو على غير هدى او لغير غرض . فهي لم تخضع دورة الدم وفعل القلب لارادة الانسان الحرة . فاذا هي اخضعت الفعل التناسلي لسيطرة الارادة الحرة ، فانما هي تقصد ان يتم الاعراب الجنسي بارشاد الارادة مستنيرة بالعقل . وهنا موضع التناقض في حجة الاستاذ بارشلي . فهو آناً يقول ان الانسان تحيط به عوامل ثقافية منوعة فيتأثر بها ويتحول طبقاً لفعلها، وهذه العوامل تتوقف على الذكاء والعقل . وفي جملة ثانية يقول بوجوب الغاء العقل في الحياة التناسلية، وتنسيق تلك الحياة على مثال الحياة التناسلية في الحيوانات التي لم يبلغ فيها العقل ما بلغه في الانسان من درجات الارتقاء

والغرض الاولي الذي رمت اليه الطبيعة ، من اخضاع الفعل التناسلي للارادة الحرة ، هو ان يستعمل ارادته ، في تدريب الباعث التناسلي وتنظيم فعله ، فيوفق بذلك بين التيارات النفسية المتعارضة . فتقصير الاستاذ بارشلي ، في اقامة وزن ما ، لمآرب الطبيعة في اخضاع الفعل الجنسي

للارادة ، حالة انها لم تفعل ذلك في الحيوان ، يزيل كل اساس لوجه الشبه ، الذي بينه وبين حياة الحيوان التناسلية وحياة الانسان .

***

هذا شيء من الناحية البيولوجية . فالعلم في رأي الدكتور كوكس لا يؤيد وجهة النظر التي اوردها الدكتور بارشلي . فلننظر الى الموضوع من الناحيتين الفسيولوجية والسيكولوجية . يقول الدكتور بارشلي « ان الفعل الجنسي متصل اتصالاً عميقاً بفسيولوجية الجسم وسيكولوجيته ، فقمعه او كبته قمعاً او كبتاً مطلقاً متعذر ، ومحاولة قمعه اوكبته مدة طويلة قد يفضي الى ضرر فسيولوجي او اضطراب سيكولوجي »

أما الدكتور ارثر جاكوبسن وهو عالم ومحرر لمجلة التيمس الطبية — « مديكال تيمس » — فقد ردَّ على سؤال وجهه اليهِ الدكتور كوكس في هذا الصدد بما يأتي : « أنا واثق بأن كبار الثقات في هذا الميدان يترددون في الحكم او التحكم في موضوع هل الحرمان الجنسي مضر ؟ اننا اذا راجعنا كتاب كلبن في موضوع التقدم الحديث في الامراض العصبية السيكولوجية وجدنا اشارة الى فروبيه فيقول اننا قبل ان نستطيع ان نسند حالة عصبية ما الى الباعث الجنسي ، يجب ان تتأكد ان الحالة العصبية نفسها ليست معقدة ، لانها اذا كانت معقدة ، فأسبابها تكون متعددة ولا يمكن الجزم بأن الباعث الجنسي هو وحده سببها ، فاذا أضفت الى ذلك قول ستيكل — وهو ثقة في هذا الموضوع — ان الحالات العصبية النفسية لا تكون الاَّ معقدة ، فهمنا ان الحكم في اسناد احدى هذه الحالات الى بواعث جنسية فيه شيء كثير من التحكم

اما الاستاذ توماس بريانت ، وهو من جراحي بريطانيا الكبار ، ومؤلف كتاب « الجراحة » فيقول : ان الطالب يجب ان يتذكر ان وظيفة الخصية ، كوظيفة الثدي والرحم قد تتوقف عن العمل مدة طويلة ، او مدى الحياة ، ولكن بناءها الحيوي يبقى سليماً ، فتقوم بوظيفتها قياماً طبيعيًّا اذا اثيرت اثارة صحية . وهي تختلف عن سائر الغدد ، في انها لا تضعف ولا تحول بقلة الاستعمال

ثم ان الدكتور هنتر مؤلف كتاب « الاضطرابات في الوظيفة التناسلية » يقول صفحة ٢٦٢ ان « العفة لا تضعف الصحة ، لا من الناحية الفسيولوجية ولا من الناحية السيكولوجية » ذلك « ان اعضاء التناسل مبنية بناء يختلف عن بناء الاعضاء الاخرى في الجسم ، فهي مبنية لكي تقوم بوظائفها في فترات متقطعة ، وقد تتوقف عن عملها توقفاً لا حدَّ له ، من دون ان ينالها ضرر ، في تشريحها (اي بنائها) او فسيولوجيتها (اي قيامها بوظائفها)

ويقول الدكتور جيمس فشر سكوت في كتابه « الغريزة الجنسية » :— « وثمة فكرة خاطئة بأن القيام بالفعل الجنسي ضروري للاحتفاظ بالصحة » ثم يقول « ان الفسيولوجيا التي تعلم ان استعمال الاعضاء التناسلية ضروري للاحتفاظ بالنشاط العقلي والفسيولوجي لهي فسيولوجيا خبيثة ونصف

علمية » . ويقول الدكتور ليونل بيل الاستاذ بكلية الملك في لندن ، في كتاب له موضوعه « ادبنا والمسألة الادبية من الناحية الطبية خاصة » ما يأتي :

ان القول بأنهُ اذا لم يكن الزواج ، فلا بد،لاسباب فسيولوجية،من شيء يحل محله،قولٌ خاطىء ولا اساس له . ولا استطيع ان ابالغ في القول بأن اتم درجات الاعتدال والعفة ، تتفق والنواميس الفسيولوجية والشرائع الادبية في آن واحد ، وان الاستسلام للشهوة لا يمكن تسويغه بالنواميس الفسيولوجية كما لا يمكن تسويغهُ بالشرائع الادبية » . ويقول السر جيمس باجت ، وهو جراح بريطاني كبير« ان العفة لا تضر بالجسم ولا بالعقل ... والزواج يمكن ان يتأخر من دون اي ضرر»

ثم يقول الدكتور كوكس ، ان احد المؤلفين الذين اعتمد عليهم الدكتور بارشلي نفسه يقول القول الآتي : « ورغماً من هذا يؤكد بعضهم ان العفة قبل الزواج ، نوع من التقليد او الفرض الادبي ، وانها مخالفة لحقائق العلم ومقتضياتهِ ، وانهُ يجب ان تلغى من المجتمع . وهولاءِ الذين يقولون هذا القول ، يبنون موقفهم على قراءة ما قيل عن مذهب فرويد . انهم قد تغاضوا عن الحقائق الاساسية .... فاذا اردنا ان نقول في الموضوع كلمة بسيطة ، قلنا ان الاضطرابات العقلية والعصبية ، الناشئة عن الحرمان الجنسي ، لا يمكن أن تشفى بالوصال .... »

وفي سنة ١٩٠٢ اجتمع مؤتمر دولي في بروكسل من الاطباء والعلماء للبحث في هذا الموضوع فأصدر بياناً وقعهُ ١٥٩ طبيباً ومما قالوه فيهِ :« ان الشبان يجب ان يتعلموا ان العفة لا تضر ، بل ان ممارستها اقوى حصن للصحة » ويؤيد ذلك اثنان من اساتذة باريس يدعى احدهما فيريه Féré والآخر هنسار Hensard في كتب لهما مطبوعة ومنشورة . وقد اورد الدكتور كوكس من هذا القبيل أقوال علماء وأطباء كثيرين ثم قال : «وانني لاعجب كيف يستطيع الاستاذ بارشلي بعد كل هذا ان يدعي ان كل العلماء الذين يحق لهم الحكم في هذا الموضوع سواء أكانت آراؤهم هي الآراء التي يبدونها في اجتماعاتهم الخاصة امفي كتبهم ورسائلهم المطبوعة يؤيدون النتائج التيوصل اليها هو ثم ختم مقاله بقوله ، انه حاول ان يردَّ على الاستاذ بارشلي ، في الميدان الذياختاره لبحثه أي الميدان العلمي ، فأثبت ان رأي العلم في الموضوع ليس كما يقول ، وانه اجتنب البحث في الموضوع من ناحية الفلسفة الادبية ، ومن ناحية تعاليم المسيح ، معتمداً على أقوال علماء ثقات ، ليس بينهم كاثوليكي واحد ،حتى يمكن ان يتهم بأن عقيدته الكاثوليكية لوّنت تفكيره في هذا الموضوع ، وان الانسانية في خلال سيرها الطويل من أيام الهمجية الاولى ، الى القرن العشرين ، قد أثبتت بالتجربة والامتحان ، ان التقاليد الخاصة بالعفة والزواج وما اليهما ، هي خير الوسائل للاعراب عن الباعث الجنسي،وقد قبلتها ، لا لانها كانت وحياً هبط عليها من السماء،بل لان فائدتها ثبتت لها بالتجربة ، ولولا ذلك لما ثبتت على كرّ القرون . والنتائج التي وصل اليها الاستاذ بارشلي ، اذا سار بها الشبان والشابات الى نهايتها المنطقية ، اي اذا نفذوها أضرت بهم ضرراً حسيًّا ونفسيًّا ، وبالمجتمع كذلك

السيكلوجية الحديثة

التحليل النفساني — مسمر وبرور

ليعقوب فام

نبت التحليل النفساني في عالم الطب . وانتقل منه الى دائرة السيكلوجية الحديثة على يد فرويد أبي التحليل النفساني بلا منازع

في النصف الاخير من القرن التاسع عشر كانت مدرسة نانسي ومدرسة باريس تعالجان الامراض العصبية وفي حوالي ذلك الوقت (سنة ١٨٧٠) اكتشف مسمر Mesmer التنويم المغناطيسي ، فأخذته المدرستان واستعملتاه في معالجة بعض الامراض العصبية مثل الهستريا والملانخوليا ، وقد تمَّ لهما بعض النجاح في هذا المضمار وذهب فرويد الى تينك المدرستين ليدرس وسائلهما في معالجة هذه الامراض

وفي ذلك الوقت أيضاً كان برور Breuer الطبيب النمسوي يطبق طرق نانسي وباريس على الحالات التي كان يعالجها ، وبالطبع لجأ الى التنويم المغناطيسي فيما لجأ اليهِ من الوسائل ، وذهب اليهِ فرويد ايضاً وأخذ يتلقَّى عليه ويعينه في معالجة تلك الحالات، ولكن برور اكتشف شيئين غاية في الغرابة. أحدهما اصبح حجر الزاوية في التحليل النفساني والثاني غير وسائله وطرقه كل التغير وكان من شأنه ان برور نفسه أعفى نفسه من الموضوع كله وأقام حاجزاً متيناً بينه وبين هذا الضرب من العلاج

***

اكتشف برور اولاً ان المريض بمرض عصبي يشفى من تلقاء نفسه اذا ما ترك ليقص ما يضايقه على الطبيب ، وبعبارة اخرى اترك المريض في حالة راحة وطمأنينة ، واطلق له العنان ليتحدَّث فيقول كل ما يخطر بباله من الامور الخطيرة والتافهة، العظيمة والسخيفة، واغلب الظن انه يشفى مما هو مصاب بهِ من الامراض العصبية . قد يسرد المريض ما يحب ويكره من الاطعمة والملابس وما أشبه ، وقد يروي لك احلامه التي تلازمه بعض الليالي ، وقد يحدّثك عن بعض اختباراته في الطفولة ، وقد يشكو لك أخاه او امه او أباه ، وقد يمدحهم ويفرط في مدحهم او مدح بعضهم ، او قد يسرد عليك ما

يخالجه وهو يجلس أمامك ، او ما تثير زيارته لعيادتك من الخوالج والمشاعر النفسية . قد يفعل هذا او شيئاً يقرب او يبعد منه ، ولكنه سينطلق في الحديث على كل حال وسوف يقص عليك شيئاً ما وفي جميع هذه الحالات سوف يفيد المريض من هذا الكلام ، وقد يشفى مما هو فيه وقد لا يعود اليهِ المرض مطلقاً

اكتشف برور هذا ، وهو كما نفهم أساس التحليل النفساني ، او هو التحليل بذاته ، وهو بذاته ما يطلبه كل طبيب نفسي من مريضه الى الآن ، لا بل لا يطلب الطبيب من المريض شيئاً غير هذا في جميع الحالات، وبالطبع فصّل فرويد هذه الطريقة تفصيلاً ووضع لها قواعد وحدوداً وغايات وأغراضاً ، ثم وضع لها نظريات ترتكز عليها وتحتمي فيها عند ما يناقشها العالم العلمي ، ومع كل ما عمله فرويد وأضافهُ اليها ما تزال في أساسها عين الطريقة التي اكتشفها برور

ولكن برور وجد شيئاً آخر كان من آثاره ان قطع الصلة بين هذا الطبيب وتلك الطريقة ، وبعبارة اخرى اكتشف شيئاً مزعجاً له مربكاً قضى على كل صلة بينهُ وبين مواصلة البحث في طريقة التحليل النفساني كأساس لمعالجة الامراض العصبية

***

كانت الطريقة التي اتبعها هو وفرويد انهما اذا ما عرضت لهما حالة تستدعي العلاج بالتحليل النفساني ، ان ينوّما المريض ، ويطلبا اليهِ وهو في حالة الذهول هذه ان يروي لهما ما يعنُّ لهُ من الخواطر والاحساسات والمشاعر قبيحها وجميلها . يروي كل هذه من غير حرج او تفكير في الآداب الاجتماعية او في قواعد السلوك والعرف ، ولكنهما اكتشفا انهما لم يكونا يستطيعان تنويم جميع المرضى، فان بعض الافراد لم يكن ليمكن تنويمه بأي حال من الاحوال . وبالطبع اذا استعصى التنويم على احد المرضى فقد استعصى العلاج على الطبيب ، لان من مستلزمات هذه الطريقة ان ينعدم كل نزوع او ارادة عند المريض في اثناء العلاج

كانت هذه صدمة كبيرة لبرور ولفرويد ، لانها لم تكن تعني الاَّ الاخفاق المحقق الذريع يواجه الطبيبين ويسد عليهما المنافذ ويفسد عليهما عملهما ويضيع عليهما جهودهما ، ومع كل هذا لم تكن تلك هي الصدمة الوحيدة في هذه السبيل، وانما تلتها اخرى واخرى بحيث قضت على برور ان ينسحب من هذا الميدان انسحاباً تامًّا

***

كان المريض عند ما يستعصى عليه النوم يظل مالكاً لجميع حواسه متقيداً بالعرف والاوضاع الاجتماعية بعيداً عن ان يستسلم للخواطر يتلوها كما تتوارد في نفسه من غير بحث او غربلة . فكان ينتقي منها ما يصح ان يذكرهُ من غير حرج ومن غير ان تتقزز نفسه لذكره ، واما ما كان يخجل منهُ او ما اصطلح الناس بينهم وبين أنفسهم على ان لا يذكروهُ للغير ، فهذا بالطبع كان المريض

يخفيها على الطبيبين ويحاول ان يتملّص او يهرب من ذكرها، وبالطبع كان من شأن هذا التصرف ان يعطل عمل الطبيبين ويشل منهما الحركة ويفوّت عليهما العلاج الذي كان يمكن ان يتقدما بهِ ، هذه هي الصعوبة الثانية التي اعترضت برور وفرويد في عملهما

واما الصعوبة الثالثة — ثالثة الاثافي — تلك التي قضت على برور ان يخرج من هذا الميدان خروجاً لا رجعة فيهِ فهي هذه — عند ما ينام المريض ويتحلل من قيود الشعور Consciousness يطلق لنفسهِ العنان فيذكر بعض الحوادث التي كانت السبب الاصلي في ظهور العقدة او المرض، نقول بعد ان يسرد هذه الاسباب سرداً مستطيلاً ذاكراً بعض التفاصيل التي كان يتردَّد من غير شك في ذكرها فيما لو كان مالكاً لوعيه ، بعد ان يفعل كل هذا ويكشف عن العلة في مرضه وبعد ان يشفى او يكاد ، بعد هذا كله اكتشف برور انهُ في معظم الحالات تتركز عاطفة المريض في الطبيب نفسهِ ، ويصبح عاشقاً له معتمداً عليهِ ، ميالاً اليهِ ، او كارهاً لهُ مغيظاً منهُ — وبعبارة اخرى تتوجه عواطف المريض نحو الطبيب توجهاً غزيراً فياضاً متدفقاً يكاد يغرقهُ ويسد عليهِ منافذ العمل والحركة ، فكأن المريض قد شفي من مرض نفسي ليتردى في مرض آخر ، وكأنهُ تخلص من عقدة ليقع في غيرها ، فبعد ان كان موزَّع النفس، مشتتها ، او في حرب مع نفسه او مع الجماعة ، اصبحت كل قوى نفسه متجهة الى الطبيب ، واصبح الطبيب ذاته هو المرض

هذه الظاهرة الغريبة ، هي ظاهرة نفسية بالطبع ، هي فرع من المرض النفسي يستدعي ان يستقصيَه الباحث ، وينقب فيهِ علَّهُ يتوصل الى فهمه وادراك كنههِ ، فهذه ليست ظاهرة طبيعية يصح ان توجد في الانسان السليم العادي ، وانما هي في الواقع مظهر للمرض او هي نوع آخر من المرض اذا لم يتحلل منهُ المريض فكأنهُ لم يعالج ولم يشف — هذا من ناحية

***

واما من الناحية الاخرى فهي مربكة للطبيب محرجة له كل الاحراج ، متعبة لا يستطيع معها ان يلتفت لعمله كل الالتفات ، اذ ما هو شأن الطبيب في هذه المسألة حتى يصبح فيجد نفسه موضع حب ملتهب حار يتبعهُ كظله يسعى وراءهُ مصرًّا على تحقيق غايته ؟ امرأة متزوجة تذهب الى الطبيب لتعالج فتصبح محبة لهذا الطبيب مفتونة بهِ ، هذا كثير على الطبيب لا يستطيع ان يحتمله ، وهذا بالفعل ما حدث لبرور فاضطرَّ ان يفرَّ من هذا الميدان لانهُ ميدان خطر حافلٌ بالمفاجآت التي لا يستطيع ان يحسب لها حسابها ، والتي تزمع ان تتصل باعماله فتفسدها ، فليس من مصلحة الطبيب ان يكون موضع افتتان النساء اللائي يعالجهنَّ

الى هنا وانتهت قصة برور ، فعند هذه النقطة انقطع برور عن ممارسة علاج الامراض العصبية بطريقة التحليل النفساني ، ومن هذه النقطة استأنف فرويد العمل بمفرده فاستقامت له الزعامة في

هذا الميدان وتلمذ عليهِ كثيرون وأسس مدرسة التحليل النفساني كما هي معروفة في وقتنا الحاضر وهي مدرسة حديثة قوية لها اتباع اقوياء نشروا مبادئها في كل صقع ، ودخلوا بها الى معظم الجامعات الكبيرة في الدنيا ، فالفرويدية مذهب في التحليل النفساني يتمسك بهِ كثير من علماء النفس ويدرسهُ ويبحث فيهِ جميع علماء النفس منهم من يؤمن بها كل الايمان ، ومنهم من يقاومها كل المقاومة ، ومنهم ايضاً من يبحث فيها بهدوء وعقل من غير ان يقيم وزناً للعاطفة او للميول

وليس هذا فقط ولكن تفرّع عن هذه المدرسة مدرستان اخريان ، اسسهما تلميذان لفرويد ، احداها مدرسة ادلر والاخرى مدرسة يونج ، ولكل منهما قصة لذيذة يصح ان نسردها عند ما يأتي اوانها ، ولكل منهما نظرية اساسية ، يصح ان نشرحها في حينها ، ولكن من المستحسن هنا ان نقول ان التحليل النفساني Psychoanalysis عند بعض علماء النفس ، معناهُ فقط فرويد ومدرسته وعند البعض الآخر معناهُ فرويد وادلر ويونج ، هؤلاءِ الثلاثة مع ما بينهم من الفروقات الاساسية والاختلافات الجوهرية . فالسيكلوجية الاكاديمية تضع هؤلاءِ الثلاثة في موضع واحد وتحت باب واحد وهو التحليل النفساني ، واما الثلاثة انفسهم فلا يقبلون هذا الوضع لا بل يحاربونهُ ويثورون عليهِ ، ويريدون على الضد من ذلك ان يؤكدوا التباين في وجهات النظر بينهم

ويحسن بي هنا ان انبه الى اني شخصيًّا اتبع السيكولوجية الاكاديمية لاسباب مهمة سأذكرها في سياق الكلام ، ومن هذه الاسباب بالطبع ميلي الى وضع هذه المدارس الثلاث بعضها مع بعض لانها جميعاً تستعمل طريقة واحدة لا تتغير وان كانت لكل منها وجهات نظر خاصة بها في تفسير الظواهر النفسية التي تعرض لها

***

نستطيع ان ندعو التحليل النفساني سيكولوجية التصرف او السلوك ، وان كانت تختلف كل الاختلاف عن النظرية المسلكية التي شرحناها في عدة مقالات على صفحات هذه المجلة ، ولا ندعوها بهذا الاسم اعتباطاً او تعنتاً ولكننا نراه ينطبق عليها من وجوه كثيرة — ذلك لان التحليل النفساني يعنى العناية كلها بدراسة سلوك المريض وتصرفاته ، ويحاول في نفس الوقت ان يرد هذه التصرفات الى دوافعها الاصلية

ويدعونها هم سيكولوجية الشعور Feeling Psychology ، ذلك لانها — في رأيهم على اقل تقدير — تبحث في المشاعر التي كانت السبب في ظهور الامراض العصبية ، تتعقد هذه المشاعر وتختلط في بعضها ، فتعود لا تضع صاحبها في الوضع الصحيح فيما يختص بنفسه ، او تطغى بعضها على البعض وتتحكم بعضها في البعض فيفقد الانسان توازنه النفسي وتتسلط عليه بعض الامراض العصبية ، او قد تختلط نفسه وتتعقد مشاعره فلا يعود قادراً على وضع نفسه في وضعها الصحيح من هذا

النظام الاجتماعي الذي نعيش فيه فيصبح عاجزاً عن ان ينظر الى الناس كما ينبغي للانسان العادي ان ينظر ، او يضع نفسه بينهم بحيث لا يشعرون بخلاف جوهري بينهم وبينه ، ومن غير ان يكون هنالك شذوذ ظاهر وفرق في وجهات النظر الى الاشياء محسوس يجعلهم يتجنبونه لانه مغاير لجميع الناس العاديين

او يدعونها سيكلوجية الاعماق Depth Psychology لانها في رأيهم أيضاً تغوص في اعماق النفس البشرية ، وتندس في اغوارها الداخلية فتقلبها ظهراً لبطن ، وتنشر خباياها وتمزّق الحجب التي تحجبها عن اعين الناس وعن عيني المريض نفسه ، وهي تزعم بذلك ان تصرفات الانسان المريض او العادي منبعثة عن دوافع ونوازع تخفى في جميع الحالات عن الانسان نفسه ، فقد يظن الانسان انه يعرف الدوافع لتصرفاته ، والحال انه لا يمكنه ان يعرف ذلك ، لان واعيته اذا تولت الكشف عن تلك الدوافع لا تفعل شيئاً سوى انها تبرر التصرفات بأسباب واهية مفتعلة لا اصل لها ولا وجود ، وكل ما تفعله الواعية انها تتطوّع بالتستر على اللاّشعور او العقل الباطن ذلك الذي يملك دون سواه الاسباب الحقيقية للتصرفات ، ان شاء كشفها للدنيا وان شاء حجبها واستخدم الواعية في انتحال الاعذار واختراع الاسباب ، من هذا اطلق اصحاب هذا المذهب النفسي هذه التسمية على مذهبهم ، وهم يحبون ان يعرفوا به

وما قصدنا ان نطيل الوقوف عند الاسماء الاّ لانها من ناحية تساعدنا على فهم نظرية هذه المدرسة عند ما نتناولها بالشرح والتفصيل ومن ناحية اخرى اردنا ان نمهد لشرح النزاع القائم بين هذه المدرسة من علم النفس وبين المدارس الاخرى التي لا تتفق معها في وجهات النظر

***

ويحسن بنا في ختام هذا المقال ان نوجه نظر القارىء الى ان مدرسة التحليل النفساني لا ترى فائدة ولا نفعاً في السيكلوجية الاكاديمية التي تدرس في معظم جامعات الدنيا ، كما انها لا ترى نفعاً في دراسة سيكلوجية الحيوانات كما تفعل الجستالت Gestalt والنظرية السلوكية ، والسيكلوجية التجريبية على العموم ، ثم هي تحتقر المعامل السيكلوجية وترى انها عبث لاطائل تحته ولهو اطفال . وانما هي تعني بأعماق النفس وخباياها كما تزعم ، وترى ان معظم السيكلوجيات الاخرى لا تستطيع ان تلقي ضوءاً على هذه المسألة

***

هذه مقدمات نظرية التحليل النفساني ، اجملناها اجمالاً لضيق المجال ، وأما نظرية التحليل النفساني ذاتها ، وأما فرويد حجر الزاوية من هذه النظرية فسوف نعالجه مرة اخرى اذا سمحت الحال لنا بذلك

الحرير وتركيبهُ الذرّي

الاشعة السينية تنفذ الى أسراره

التعليل الجزيئيّ لتجعيد الشعر الدائم

رسم لنا علم الفلك الحديث كما تناولتهُ اقلام ادنغتن وجينز وغيرهما من كبار الكتّاب صورة تبعث العجب والرهبة في النفوس ،قوامها كون رحيب مترامي الاطراف ، تقع فيهِ حوادث عظيمة من دوران المجرّات وتفرقها الى انبعاث الشموس وانحلالها الى انطلاق الطاقة في أرجاءِ الكون وتحوّلها. وفي الجهة المقابلة نرى رذرفورد وانداده قد اخترقوا الذرة الى صميمها واستنبطوا النواميس التي تجري عليها اجزاؤها. والذرّات كما تعلم متناهية في الصغر حتى اذا أخذتَ قطرة ماءٍ وضخّمتها حتى تصير بحجم الكرة الارضية ، لم يفق حجم الذرّات التي تتكون منها على هذا القياس حجم كرات البلياردو. والعناية التي تثيرها فينا هذه المباحث الذرية ليس منشؤها ، صغر الوحدات التي تتناولها فحسب ، بل تثيرها فينا معرفتنا بأن كل الاشياء المادية من الماءِ الذي نشربه الى الكواكب المنيرة والمجرّات العظيمة مؤلفة من ذرّات . على ان الافتتان بدرس الطبيعة لا ينحصر ، في الاجسام المتناهية في الكبر كالشموس والسدم والمجرّات ، ولا في الاجسام المتناهية في الصغر كالذرّات والكهارب وما اليها ، بل هناك منطقة وحداتها اكبر من الذرّات واوثق صلةً بحياتنا اليومية منها . الى هذه المنطقة انضى العلم الحديث ركائبهُ ووجّه مصابيحه فكشف فيها العجب العجاب

***

ما الفرق بين الذرّات atoms والجزيئات molecules ؟ الذرّات هي الوحدات او اللبنات الاساسية في بناءِ الاجسام المادية وثمة اثنان وتسعون نوعاً من الذرّات ، او قل اثنين وتسعين عنصراً . وذرّات كل عنصر متشابهة في خواصها . اما الجزيئات فطوائف مجتمعة من الذرّات ، كل طائفة منها تتصرف تصرف وحدة كاملة التركيب . وقد تقطّع اوصال الجزيئات ، فتفرقها الى الذرّات التي تركبت منها ثم تعيد تركيبها . والواقع ان تفريق الجزيئات الى ذراتها ثمَّ اعادة جمعها في طوائف جديدة ، هو ما يمنح الطبيعة تلك القدرة العجيبة على تغيير الاشكال . فالذرات تشبه حروف الهجاءِ والجزيئات تشبهُ الكلمات التي تؤلف منها . فأنواع الجزيئات لا تحصى مع ان انواع الذرات لا تعدو اثنين وتسعين نوعاً . كذلك كلمات اللغة لا تحصر مع انها تتألف من حروف لا تزيد على ثلاثين على الاكثر ويغلب في بناءِ الكلمات من الحروف اننا نستعمل بضعة حروف اكثر من غيرها . كذلك الطبيعة

تستعمل ذرات بعض العناصر اكثر مما تستعمل ذرات غيرها . ان نصف الذرات الداخلة في تركيب الارض وما عليها ذرّات عنصر الاكسجين ، والربع ذرّات عنصر السلكون . فالبحار تكاد لا تحتوي الاّ على ذرات الاكسجين والايدروجين لان اتحادهما يولّد الماءَ . اما الصخور فهي في الغالب مركّبة من ذرات الاكجسين والسلكون لان معظمها سِلِكات او اكاسيد

هذا في الجوامد . اما الاجسام الحية فمركّبة في الغالب ، من ذرّات الاكسجين والايدروجين والكربون والنتروجين ، يضاف اليها مقادير يسيرة جدًّا من ذرات بعض العناصر الاخرى . ومن عجائب التركيب في الاجسام الحيّة ، كثرة استعمال الكربون ، لانهُ قلّما يدخل في تركيب الاجسام الجامدة . فالارض والهواء والماء لا تحتوي الاّ على قدر ضئيل من الكربون . اما اجسام الاحياء من نبات وحيوان فحافلة بهِ . وكذلك نرى ان جزيئات الاجسام الحية مؤلفة من ذرات هذه العناصر الاربعة ، يضاف اليها في احوال خاصة ، مقادير يسيرة من الحديد والكلسيوم والفصفور واليود وغيرها ، لتأدية اغراض معيّنة . وافعال الحياة من ناحية كيميائها حلٌّ متواصل للجزيئات او طوائف من الجزيئات ، ثم اعادة بنائها في اشكال جديدة

من اهم الجزيئات في جسم الحيوان ، جُزَيءُ البروتين . وهو جزيءٌ معقّد التركيب مختلف الاشكال . فالعضل والعصب والشعر والصوف والقرن ، جميع هذه نُسُجٌ حيوانية مركّبة من انواع متباينة من جزيئات البروتين . اما ان تكون جزيئات البروتين كثيرة الاشكال فليس بالامر الغريب لانها تدخل في تركيب نسج مختلفة كالعصب والقرن ، بل ان الفرق بين شعر سبط وشعر جعد يسند الى فرق طفيف في جزيئات البروتين التي يتركب منها كلُّ صنف . حالة انَّ علماءَ الكيمياءَ ينبئوننا بأنَّ جزيئات البروتين متشابهة في بعض خواصها الاساسية ، رغم ما تجدهُ بينها من التباين حتى ليصحُّ ان تجمَل كلها في طائفة واحدة من الجزيئات ، يطلق عليها اسم واحد ، هو « جزيء البروتين »

***

ظلَّ الكيماوي عاجزاً عن معرفة ترتيب الذرّات في جزيء البروتين حتى جاءَ الطبيعي الى نجدتهِ . عرف الكيماوي ان الكربون والنتروجين من العناصر الاساسية في هذا الجزيء . وانهُ يحتوي على الاكسجين والنتروجين كذلك ، وبعض العناصر الأخرى احياناً . واثبت انهُ جزيءٌ معقد التركيب يحتوي على عشرات من الذرّات . غير ان الكشف عن ترتيب هذه الذرّات في بناءِ الجزيء كان متعذراً عليهِ او كان صعباً على الاقل . ويجب ان نذكر ان الكيماوي كان يحاول معرفة تركيب الجزيء ، بحلّهِ الى اجزائهِ او باضافة اجزاءٍ جديدة اليهِ وهو لا يستطيع ان يرى الجزيء لصغرهِ ، فيضع الجزيئات جنباً الى جنب ، او يحلّها في الماءِ او اي سائل آخر ثم يراقب تجمعها ، فيحكم بذلك على التحوُّل في خواصّها . وكذلك توصل الى وصفها ، بل بلغ في وصف بعضها مبلغاً من الدقة حتى كأنهُ يراها . وقد كان من الطبيعي ان ينال جزيء البروتين جانباً عظيماً من عناية الباحثين لما لهُ من الشأن الكبير في بناء

الاجسام الحية، والافعال الفسيولوجية، كهضم الطعام وتمثيله ، ونمو الاجسام وفعلها في الصحة والمرض على ان العلم لا يقرُّ بالعجز ، بالغة ما بلغت العقبات التي تقوم في وجهه ، وقد استنبطت في العهد الاخير ، وسيلة جديدة فعالة للبحث في بناء جزيء البروتين وما اليهِ . قلنا ان الكيماوي لا يستطيع رؤْية الجزيء . وسبب ذلك ان الميكروسكوب لا يستطيع ان يجلو الجزيء للعين البشرية ، لان امواج النور التي نرى بها الاجسام ، بانعكاسها عنها ، اكبر من الجزيء ، فهي لذلك لا تبينها . ولكن الاشعة السينية اقصر امواجاً من اشعة الضوء التي نبصر بها . فقد نستطيع ان نرى بها ما لا نراه بامواج الضوءِ اذا كانت عيوننا تستطيع ان تتأثر بها . ولكننا لا نستطيع ان نرى الجزيء حتى ولو وجّهنا اليهِ الاشعة السينية ، لان عيوننا لا تتأثر بها . بيد ان الاشعة السينية تؤثر في الالواح الفوتوغرافية

وليس بالامر اليسير وصف الطريقة التي تجلو بها الاشعة السينية ، شكل الجزيء ، في مثل هذا المقال الموجز . وانما نكتفي بالاشارة اليها . فنحن نريد مثلاً ان نتناول درس جزيء البروتين ، وهو عنصر اساسي في بناء الحرير الطبيعي — وعلى ذكر الحرير الطبيعي يجب ان ننبه القارىء الى ان الحرير الصناعي ، ليست مادة بروتينية ، بل هو مصنوع من السلولوس (المادة الخشبية) ويجب ان يوضع في صف المواد القطنية — فنأخذ قدراً معيناً من الحرير ، ونوجه اليه شعاعة من الاشعة السينية ونضع وراء الحرير ، لوحاً فوتوغرافيًّا يتلقّى الاشعة السينية بعد اختراقها للحرير . فاذا حمضنا اللوح الفوتوغرافي وثبّتناه ، وجدنا عليه رسوماً من شكلٍ معين ، كل رسم منها مؤلفٌ من نقط . فعلينا حينئذٍ ان نقرأ هذه الرسوم ، كما يقرأ العالم بالآثار المصرية ، حجراً نقشت عليهِ كتابة هيروغليفية . وليس هذا بالامر السهل ، وانما المرانة تأتي بالعجائب

لسنا هنا في مجال التفصيل وانما يجب ان نشير الى ناحيتين خطيرتين من نواحي العمل .(اولاً) ذلك اننا ما كنا لنجد رسوماً معينة على اللوحة الفوتغرافيــة ، لولا ميل الطبيعة الى تنظيم الجزيئات في اشكال هندسية نظيمة . حتى الاشعة السينية نفسها لا تستطيع ان «ترينا» جزيئاً واحداً . ولكنها تستطيع ان تجلو مجموعة نظيمة من الجزيئات . ومن حسنات الطبيعة انها تميل الى النظام التام . وقد يكون من آثار ميلها هذا نشوء تلك الكتل النظيمة التي تعرف بالبلورات وأشهرها بلورات الحجارة الكريمة . غير انها في ميلها هذا لا تبلغ دائماً مرتبة البلورات الكبيرة التي يمكن رؤيتها بالوسائل البصرية المختلفة . وهي كذلك في الحرير . فبلورات الحرير اصغر من ان ترى بالعين ولو اسعفت بالمكرسكوب ، ولكن الاشعة السينيه تبصرها وترسمها على اللوح الفوتوغرافي

(ثانياً) ان الرسم الذي طبع على اللوح الفوتغرافي مؤلف من نقط او بقع ، فقوة كل نقطة حيال النقط الاخرى ، بصرف النظر عن موقعها ، يمكن العالِم من فهم طريقة ترتيب الذرات داخل الجزيئات والوصول الى هذه المعرفة أعسر من الوصول الى فهم ترتيب الجزيئات في بناءِ البلورة

أمامي على المائدة مثال مجسّم لما عرفناه عن بناء جزيء البروتين في الحرير الطبيعي . وصفتهُ الاساسية تركيب متعرّج من ذرّات الكربون والنتروجين قد يمتدُّ مسافة طويلة كما ترى في الرسم التالي:

ن ك ك ن ك ك ك ك ن ك ك ن وكذلك ترى ان هذه السلسلة مؤلفة من ذرات نتروجين (ن) وكربون (ك) بنسبة ذرتين من الكربون الى ذرة من النتروجين . والذرّات في المثال الذي أمامي ممثلة بكريّات صغيرة ملوّنة باللون الأسود لذرات الكربون وباللون الاخضر لذرّات النتروجين . والقصد من التلوين سهولة التمثيل لان الذرات في الواقع أصغر من ان تكون ملوّنة (اللون ينتج عن تكسر امواج الضوءِ على الجسم وامتصاصهِ لبعضها دون غيرها وتأثير ذلك في العين والذرّات لصغرها لا تكسر أمواج الضوءِ لانها أصغر منها كثيراً) ولكن ليس هذا كل ما في الجزيء . فكل ذرّة نتروجين تتصل بها ذرّة ايدروجين (يد) . وفي كل زوج من ذرّات الكربون تتصل احدى ذرّتي الكربون بذرة ايدروجين والاخرى بذرة اكسجين (ا ك). فتصبح الصورة كما ترى

يد ا ك يد
ن ك ك
ك ك ن
ا ك يد يد

هذا هو البناء العام لجزيء البروتين . ولكن كيف يختلف جزيء بروتين الحرير ، عن جزيئات البروتين في الاجسام الاخرى ؟ قلنا انَّ احدى ذرّتي الكربون تتصل بذرّة ايدروجين والاخرى بذرّة اكسجين . بيد ان ذرة الكربون المتصلة بذرّة الايدروجين ، لها صلة اخرى ، في جزيء الحرير ، وبهذه «الصلة الاخرى» يختلف جزيء بروتين الحرير ، عن جزيء البروتينات الاخرى . هذه الصلة الاخرى في بروتين الحرير هي كتلة من الذرّات او جزيء صورتهُ الكيماوية (— C H 3 — ك يد ٣) فاذا اختلفت اختلف نوع جزيء البروتين

هذا اذن هو بناء الحرير الاساسي . صفوف من الذرّات وجماعات منها ، تربط بينها قوى ذرّية اضعف من القوى التي تربط بين الذرّات في جزيءٍ صغير واحد . فاذا انقطع خيط حريريّ لم يتهشم جزيء بروتين الحرير بل انفصل جزيء عن آخر ، لان الجزيئات سلسلة متصلة ، وكل جزيء بمثابة حلقة . بيد ان الصوف والشعر يمكن مدّهما ، حتى ليتضاعف طول الشعرة احياناً . وهما مبنيّان كذلك من جزيئات البروتين . فما الفرق بين الحرير والصوف . الفرق قائم في تلك « الصلة الاخرى » . فقد قلنا ان أحد ذرّتي الكربون متصلة بذرة ايدروجين ، في الحرير ، لها « صلة اخرى » مؤلفة من كربون وايدروجين (C H 3) هذه « الصلة الاخرى » في الصوف هي غير ما هي في الحرير ، واكثر تنويعاً وتعقيداً ، وهي في الغالب ، تجذب احداها الاخرى ، جذباً قويّاً ، فتقترب احداها من الاخرى ، ومن هنا جَعَد الشعر والصوف وامكان مدّهما قبل انقطاعهما . والرطوبة ، تفعل في هذه « الصلات الاخرى » فتسهل مدّ الثوب الصوفي اذا بُلَّ . واذا بلَّ النسيج الصوفي او الخيط ، ثم عولج بالحرارة ، امكن الاحتفاظ بالخيط الصوفي سبطاً، اي يمنع حينئذٍ الجذب بين حلقات السلسلة . فاذا أخذتَ خصلة من الشعر وبلَلتَها وكويتها من ناحية واحدة دون الاخرى ، حصلتَ على تجعُّدٍ دائم

الاستعمار والحضارة

بقلم الكاتب الانكليزي ليونارد ولف

تلخيص وتعليق : لمعاوية نور

ينتمي ليونارد ولف الى رهط كريم من كبار مفكري الانكليز الاحرار في العصر الحاضر ، ذلك الرهط الذي ينتظم فيه ولز وشو وبرتران رسل وهارولد لاسلكي وسدني ويب وانداده من « الانتلجنسيا » ذات التفكير الحر . وانهُ لمن الدلائل الطيبة التي تذكر لهذا العصر ان بعض علمائه وفلاسفته ورجال الفنون فيهِ قد اهتموا بمسائله الاجتماعية وجعلوا لها نصيباً كبيراً من تفكيرهم وعنايتهم . فنرى ولز القصصي الاديب في عهدهِ الاخير لا يكتب حرفاً واحداً الاَّ وهدفه الاصلاح الاجتماعي ؛ ونرى برتران رسل يهمه امر الثورة في الصين ويكتب في الشؤون الهندية مثل اهتمامه بالفلسفة الرياضية وسمات التفكير المجرد ، وننظر الى صديقنا العالم البيولوجي الفذ جوليان هكسلي يشتغل بالشؤون الافريقية ويجد لها مكاناً رحيباً الى جانب الحديث عن التطور وخصائص الاحياء والوراثة وما اليها من الشؤون العلمية . فهذا عصر علماؤه ادباء ، وأدباؤه علماء وفلاسفته يشتغلون بالصحافة ، وصحافته لا يفوتها الاشتغال بالعلم والرياضة ودراسة الفلك . ولعلَّ هذه النزعة الانسانية الجديدة « New Humanism » هي من ارقى ما تمخضت عنه الحضارة الغربية في طورها الاخير . هذه النزعة التي ترى العلم والفلسفة والسياسة والادب والصحافة وحدة انسانية من اسمى اغراضها خدمة النوع الانساني « Homo sapiens » والعناية بروح الانسان وجسمه . واذا كان للانسانية أن تعلو وللحالة الراهنة ان تبقى فهي بلا شك مدينة لهذا الروح الجميل ، الذي يذكيه في اميركا « بابت » و « ممفورد » وفي انكلترا « هكسلي » و « ولز » وفي فرنسا « رومان رولان » وفي الشرق امثال « طاغور » . فهؤلاء الكتَّاب يعنيهم شأن الانسان اكثر مما تعنيهم شؤون اوطانهم الضيقة ، ويعنيهم مستقبل الحضارات الانسانية اكثر مما تعنيهم سيادة اوربا او اميركا ، ويهمهم ان تكون علاقات الشعوب بعضها مع بعض طيبة الاواصر ، خيرة الانتاج في احترام متبادل وعطف سام . فهم يخافون ويتوجسون شراً من بواعث المنافسة الرخيصة ، والعداء الجنسي والبغض ، وعوامل الظلم والجشع ، والاستغلال المادي القصير النظر ، وطغيان السياسات العمياء التي دفعت بالعالم

الى الحرب الكبرى وهي على وشك أن ترديه في حرب مثلها أو أهول وأخطر نتائج. فهؤلاء الكتّاب يكتبون الكتب،ويلقون المحاضرات، وينشرون المقالات في الصحف في هذا المعنى. وليس الآن مجال الحديث عن النزعة الانسانية الجديدة بالشرح والافاضة ، وانما نحن هنا بسبيل الحديث عن كتاب واحد كتبه مؤلفه حديثاً عن الاستعمار والحضارة ، عرض فيه لمشكلة الاستعمار الاوربي الحديث في قارتي افريقيا وأسيا ، وعلاقة ذلك الاستعمار بالحضارة الاوربية الراهنة وعلاقة تلك الحضارة في زيها الصناعي المادي بسكان افريقيا وأسيا ، وتناول أسباب ذلك الاستعمار الحديث ومصاحباته ، وأخيراً بحث في ما نتج عنهُ وما أتى به من مساوىء ومشكلات، وما سوف يخلفه من متاعب وصعاب وما سيقود اليه العالم من خراب محقق ان هو استمرَّ على خططه وأساليبه المعهودة . وقد اخترت هذا الكتاب بعينه للتحدث عنه لقراء العربية لعلاقته الوثيقة بأهم ما يشغل بالهم من المشكلات والحركات القومية ولكي يروا كيف يعالج هذه المسائل ذهن عالم صافي التفكير ، ناصع الاسلوب مستقل الرأي غير متحيز لأمة أو ثقافة أو حضارة ، وانما همه الاكبر جلاء الحقيقة وعبادة الحق كما يبدو له

يقول الكاتب ان الحضارة الاوربية الحديثة هي شيء مختلف كلَّ الاختلاف عن كل الحضارات التي سبقت القرن التاسع عشر ،بعد أن تحطمت الحضارات التي كانت ترتكز اشد ما ترتكز على الملوكية والارستقراطية من جراء الغباء الذي صحبها ومن جراء الثورة الفرنسية ثم الثورة الصناعية التي قامت عليها الحضارة الراهنة حضارة الديمقراطية الحديثة والنظم البرلمانية ، والمعمل والآلة والقاطرة والطيارة والنور الكهربائي.فتضخمت الصناعة في اوربا ، واشتدَّ التنافس بين دولها لما ضاقت بهم سبل التوزيع والنجاح المادي . فاضطرت تلك الحضارة ان تبحث عن اسواق جديدة لصناعاتها وجلب المواد اللازمة للانتاج والعمل . ومن هنا شعرت اوربا بحاجتها الى سائر العالم اذا كان لها أن تنجح في نظمها الجديدة،فتنافست الدول الاوربية في الاستئثار بالاقطار الاسيوية والافريقية لتجعلها ملاحق لتجارتها وصناعاتها . وساعدها على ذلك سرعة المواصلات التي سهلت امر اختراق البلدان النائية وربط العالم كله بعضه ببعض . وهذا من اهم الاسباب التي اسبغت على الحضارة الراهنة اهم خصائصها . فقد كانت صعوبة المواصلات في الماضي تحول دون اي حضارة مهما كانت قوية ممتازة ان تجتاح بقية الحضارات او تجبرها على الاخذ بها فكانت العزلة تامة بين اسيا وأفريقيا من حيث اساليب العيش وسبل الحياة والتطور الذي وقع في اوربا بين عامي ١٧٥٠ و ١٨٥٠ وهذا تطور عظيم هائل لم تشهد مثله البشرية في كل تاريخها المعروف . ولعله اعظم قفزة قفزها الانسان

ولما كانت الحضارة الراهنة حضارة صناعية في صميمها ، كذلك كان الاستعمار الحديث اقتصاديًّا صناعيًّا في دوافعه وموجباته ، ولم تستطع اسيا او افريقيا ردَّهُ لانهُ اتاها فجأة بقوة ووسائل ليست في طاقتهما ولا هي تدخل في دائرة معرفتهما واختيارها . فهي في الواقع حضارة استعمارية غازية

بمعداتها الحربية الجديدة وطرق مواصلاتها السريعة . وقد كانت الوسائل الاولى في ذلك الاستعمار عن طريق التجار واصحاب رؤوس المال والشركات المختلفة يعزز من مركز مقامها دولٌ حربية قوية، ويقول المؤلف ان حادث الاستعمار هذا لعله اعظم حادث عرف في التاريخ من حيث السرعة والشمول . ففي خلال مائة عام اي من ١٨١٤ — ١٩١٤ استطاعت اوربا ان تخضع القارة الاسيوية والافريقية وجنوب امريكا لسلطانها الذي لا ينازع

***

وقد كان الاعتقاد السائد في اوربا ان هذا الاستعمار هو الشيء الطبيعي وانهُ في صالح الشعوب الاجنبية اكثر منهُ في صالح اوربا الى ان وقفت الحبشة امام الطليان في عام ١٨٩٦ فدافعت عن ارضها دفاع الابطال وهزمت الطليان شر هزيمة ثم تلا ذلك حادث تغلب اليابان على روسيا عام ١٩٠٥ ومن هنا ابتدأ التشكك في قيمة الحضارة الاوربية عند بعض الاوربيين . فان انتصار اليابان على روسيا يعد نقطة تطور كبير في تاريخ الاستعمار الحديث ، اذ فهمت اوربا لاول مرة ان فتحها وغزوها للعالم باجمعه قد تلاهُ رد فعل قوي من العالم باجمعه ، ثم جاء نجاح اليابان وارتفاعها الى مستوى الدول الاوربية الكبرى حافزاً ألهب حماسة العالم الاسيوي والافريقي ودفع بهِ الى التنقص من امر هذه الحضارة الجاحدة حقوقه التي فرضت عليهِ فرضاً واستعرت عوامل البغض والكراهية ضد الحضارة الاوربية وسبلها المختلفة . ويمكن ان يقال انهُ الى مستهل القرن العشرين لم تقُمْ حركة قوية تناهض الاستعمار الاوربي . غير اننا نرى الآن ان معظم البلدان الاسيوية قد تحررت او كادت تتحرَّر من السلطان الاجنبي ، فتركيا والصين والعجم هي الآن في ثورة ناجحة ضد الاستغلال الاجنبي ، وفي الهند اضطراب قوي رغم كل الاصلاحات الدستورية والحركة الهندية الآن لا ترضى بأقل من الاستقلال التام

وقد رفض الوفد في مصر بأباء منحة استقلال زائف وما زال يطالب باستقلال البلاد استقلالاً تامًّا ، وفي فلسطين حركة عربية واسعة النطاق . وفرنسا تجد المصاعب الدائمة في تونس ، وسوريا تلتهب حماسة وثورة ضدها . وقصة عبد الكريم وقيامه ضد فرنسا واسبانيا في الريف ما زالت ماثلة للاذهان . وفي افريقيا نشأ شعور قوي ضد الاستقلال الاجنبي والسلطات الاوربية . والمؤلف يعتقد ان سبب كل ذلك هو تصادم الثقافات ، وعندهُ ان مشكلة الاستعمار الحديث انما هي مشكلة نزاع عنيف بين حضارة صناعية آلية لا بدَّ لها من الاستعمار في نجاحها وبين حضارات لا تريد الفناء فيها والشيء الجديد في هذا النزاع ان العالم لم يشهد نزاعاً في الحضارة بلغ من الشدة والطغيان مثل ما هو عليهِ الآن . وذلك لان من خصائص الحضارة الاوربية الراهنة انها تطغى على كل النظم والمؤسسات الاجتماعية في الحضارات الاخرى ولا تعرف التساهل او الهوادة في فرض امرها واتباع سبلها . وهي تقوم على القوة الحربية في اساليبها والتنافس الاقتصادي العنيف في نسيجها

ويعتقد ليونارد ولف ان الذين يقولون بأن النزاع الحالي بين اوربا وبقية العالم انما هو نزاع جنسي او ديني او وطني انما هم على خطأ واضح ، ذلك لان العوامل الجنسية والدينية والوطنية غالباً ما تظهر على انها عوامل هامة في هذا النزاع لظهورها ، والحقيقة ان ليس الجنس ولا الدين او الوطنية العامل الاول ولا العامل المهم في هذه الظاهرة . انما يقول طغيان الحضارة الاوربية واساليبها في الاستعمار والاستقلال هو الذي اذكى نار الثورة في الصين والقلاقل في الهند ومصر والتجديد في الدولة التركية وبعض العالم الاسلامي لدول اوربا جميعاً . والذين يخيل اليهم انهم يستطيعون تفسير تاريخ الشعوب والحروب والحركات الانقلابية وتفوّق بعض الشعوب على البعض الآخر بلون الجلد والبشرة يستحقون الاستخفاف والريبة ، فاليابان بعد ان اصبحت دولة مستقلة لا نراها تستقر بمثل هذا العداء للرجل الابيض الذي يشعر بمثله الرجل الصيني . اليابانيون يكرهون الامريكيين لان بينهم خصومة استعمارية دائرة على توازن القوى الحربية في المحيط الباسفيكي . والنزاع الجنسي ما هو الاّ ظاهرة سطحية يوجدها الشعور بالغنى والسيطرة الاقتصادية وليست هي في نفسها بذات قيمة . وكل من يدقق النظر في الحوادث التي تقع الآن في الشرق الاقصى يرى ان السبب الجوهري فيها نزاع بين الحضارات

فالحضارة الاوربية الراهنة في مظهرها الاستعماري الحربي الاقتصادي قد هددت حياة تلك الشعوب ورخاءها وسبل عيشها وعلاقاتها الاجتماعية بالزوال . وليس عجيباً ان تدافع تلك الحضارات الهادئة التي لا تعتبر المادة ولا ترى رأينا في المنافسة الصناعية وقوة المال ضد المعتدين عليها . ومهما اتخذت تلك الثورة من ألوان الوطنية او زي الجنس والدين فان مصدرها بلا جدال هو اختلاف يسير في اسلوب الحياة ارادت الحضارة الراهنة القضاء عليه

***

يجب ان لا يعزب عن البال ان كيان الحضارة الاوربية الراهنة يقوم على التنافس الاقتصادي الصناعي ؛ والتنافس الاقتصادي لا يعرف سوى مبدإ الربح المادي للفرد سواء في اوربا او في أسيا وافريقيا . غير ان مثل ذلك الاستغلال غير ممكن في اوربا لقرب مستوى شعوبها في الوسائل والطرق بعضها من بعض . وأوروبا لا تحس بوطأة مساوىء حضارتها لانها متجانسة قريبة بعضها من بعض . ولكن أسيا او افريقيا تحسَّان بها احساساً يهدد حياتهما ويكاد يفنيها . والحضارة الراهنة التي انجبت الاستعمار في أسيا وافريقيا وخلقت مصاحباته ومشكلاته هي بعينها التي خلقت مشكلات الحروب البشرية والاقتصادية بين الدول الاوربية نفسها

فساوىء الحضارة الاوربية قد ابتدأت اوروبا نفسها تحسُّها في هذا مع ان سكان اوروبا لم يشهدوا اجوانبها المبتذلة مثل ما شهد سكان أسيا وافريقيا . وهذا الفرق في الحضارة الصناعية الآلية قد يقود في اوروبا الى نزاع عنيف بين انجلترا وفرنسا مثلاً اذا كانت الاولى قوية جدًّا في وسائل

الصناعة ومعدات الحرب وكانت الاخرى لا حول لها ولا سلطان من كل ذلك . فالمشكلة اذاً ليست مشكلة جنسية ولادينية ولا قومية . وانما هي مشكلة من صميم الحضارة الراهنة وسبلها ووسائلها. وفكرة الوطنية نفسها هي من نتاج الحضارة الاوربية الحديثة فهي غير معروفة في أسيا وافريقيا بمعناها الحديث . فاذا كانت الشعوب الاسيوية والافريقية تستعملها فانما كان ذلك كذلك لانها تستعمل وسائل هذه الحضارة وسبلها للتحرر منها . كما وقع في اليابان وتركيا مثلاً

***

وقد عقد الكاتب فصلاً عن تصادم الثقافات فيما قبل القرن التاسع عشر وتكلم عن الحضارة الرومانية والاستعمار الروماني فابان الفرق الشاسع بين الاستعمار الروماني والاستعمار الحديث . ففي ذلك الاستعمار لم ترغم روما بقية العالم على أخذ حضارتها والعمل بمقتضاها، وانما كانت تترك لهم كامل الحرية في معظم طرق معيشتهم وحياتهم ذلك لان حاجة الرومان الى الفتح لم تكن اقتصادية صناعية وانما كان دافعها الاول هو حب الفتح ومطامع الملوك في السلطان والتوسع الحربي وليس معنى ذلك ان الحضارة الرومانية لم تمتزج بالحضارات الاخرى او تؤثر فيها ، وانما كان يأتي ذلك تدريجيًّا وفي رفق وهوادة ، حتى ان الرومان أخذوا من الحضارة الاغريقية الشيء الكثير ، مع انهم كانوا الغزاة الفاتحين

والحضارة الاغريقية ايضاً مثل آخر نسوقه ، فقد بلغت تلك الحضارة في اوج مجدها مستوًى رفيعاً في الاجتماع والنظم السياسية والاقتصادية والفنون ، وفتحت معظم شعوب العالم ، فكان لها فارس في الشرق، ومصر في الجنوب والشعوب اللاتينية وفينيقيا في الغرب ، واتصلت بحضارات تلك البلدان وأثرت فيها غير أنهُ لم يقم نزاع عنيف بينها وبينهم ، ولم تتلاشَ أية حضارة في تلك الحضارات من جراء ذلك الاختلاط ، ذلك لان الاغريق لم يحاولوا توحيد امبراطوريتهم الواسعة المختلفة الاشكال والثقافات ، في شؤون السياسة الاقتصادية أو النظم الاجتماعية الاخرى . فقد كانت الحضارة الاغريقية متساهلة كثيرة التساهل مع الشعوب الاجنبية التي دانت لها. وكذلك كان استعمار عصر الإحياء اوالنهضة « الرينصانس » كل غايته التبادل التجاري في المحصولات وفتح الاسواق الاجنبية ، وأخذ المواد الخام ، وقد كانت تلك العلاقة الاقتصادية سلمية لم يعقبها أي فتح حربي ، فلم يقع نزاع بين الحضارات ، لان اوربا لم تكن في معداتها الحربية بأعظم شأناً من الهند أو الصين كثيراً

***

اما قصة الاستعمار الحديث في اسيا فهي معروفة مشهورة ، ابتدأت في اول الامر بالمعاهدات التجارية بين الدول الاوربية والامراء الآسيويين كما حصل في الهند

ويتضح تصادم الثقافات جليًّا ناصعاً في الحركة الهندية الاخيرة التي ابتدأت تشتدُّ بعد اوائل

القرن العشرين ، فهي في الواقع ثورة واسعة ضد الحضارة الاوربية ونظمها الاستعمارية فغاندي ينفخ في امته تعاليمه الهندية لاكتشاف الروح الهندي الصميم والرجوع الى الحضارة الهندية واصلاحها والسموّ بها الى اوج الحضارات الرفيعة . وقد استعمل الشباب الهندي المتعلم في نزاعه هذا كل أساليب الحضارة الاوربية في محاربتها والتخلص منها . ومن الغريب حقاً ان تحمل الحضارة الاوربية نفسها بذور حتفها وهلاكها

وقد ابتدأت الحركة التركية بالدعوة الدينية ، الاسلامية ، ثم قامت بحركة التجديد الغربية لكي تتحرر من العبء الاقتصادي والسياسي الذي لحقها من الحضارة الغربية . يقول المؤلف «ومن نتائج هذا النزاع ان أسيا اصبحت الآن تعبد فكرة الوطنية السياسية ، وهي فكرة غربية بلا جدال وقد دفعت هذه الفكرة باوروبا الى الحرب الماضية ، فاذا لم تعمل اوربا كل ما في وسعها لمساعدة هذه الشعوب الاسيوية للتخلص من طور الاستعمار الى الاستقلال التام من غير عنف ولا نزاع فان العالم سيشهد موجة وطنية كبرى تتلوها كارثة عظمى ، تصبح بجانبها كارثة الحرب الكبرى شيئاً تافهاً قليل الأثر »

***

اما استعمار افريقيا فقد ابتدأ عام ١٨٨٠ وكانت الدوافع اقتصادية من غير شك ، وكان الرحالة الاوربي او الوكيل التجاري لشركة من الشركات يذهب الى اواسط افريقيا ومعهُ الوان من الهدايا والمنح يقدمها للامير الافريقي ثم يطلب منهُ امضاء معاهدة لا يفهم لغتها ، مع الشركات التجارية ، ويفهمهُ ان هذه المعاهدة ستدرّ على شخصه وبلاده الرخاء والثروة ، وقد تمّ استعمار معظم بلدان افريقيا الوسطى على هذه الطريقة الخادعة ، فستانلي حينما قام بالنيابة عن ملك البلجيك بامضاء مثل تلك المعاهدة فاصبحت الكونجو مستعمرة بلجيكية وبهذه الطريقة استولت انكلترا وفرنسا على مستعمراتها في أواسط افريقيا وحينما نشب النزاع بين الدول الاوربية على تحديد اراضي مستعمراتها اتفقوا فيما بينهم على ان كل من امضى معاهدة مع امير من امراء افريقيا على جزء من الشاطىء الافريقي ، فمن حقه الارض الموازية لذلك الشاطىء في داخل القارة الافريقية ، وهنا يقول المؤلف :

« ان الطريقة التي اتبعت في الاستيلاء على تلك الاراضي الافريقية كانت في معظم الحالات وحشية موغلة في الوحشية ، وان تلك الطرق المبتذلة ، قد تركت من غير شك أثرها السيء في العلاقة الراهنة بين سكان أفريقيا وأوربا ، فان تلك السبل الدنيئة ان دلت على شيء ، فهي تدل على ان الحضارة الاوربية تعامل الرجل الافريقي مثل معاملتها لاي حيوان ابكم ، ذلك لان الرجل الاوربي يعتقد انهُ لهُ الحق في الاستيلاء على ارض الافريقي بالقوة او بالخداع »

معجزات السفانة

او صناعة السفن

الباخرة نورمندي ومعداتها الكهربائية العجيبة

ينتظر ان تقلع الباخرة نورمندي الفرنسية البالغ تفريغها ٧٥٠٠٠ طن في الربيع القادم ، راحلة رحلتها الاولى من برّ فرنسا الى برّ اميركا ، مستخدمةً القوة الكهربائية لتحريك رفّاساتها الضخمة ذات القوة التي تعادل مجموع القوى البخارية التي تستخدمها البواخر الكبرى الثلاث وهي: لفياتان، وماجستيك ، وايل ده فرانس. ومتى ازمعت نورمندي الاقلاع ، قامت آلاتها الكهربائية بجر حبالها ، ورفع مراسيها من ثغر الهافر الذي ينتظر ان تبحر منهُ . ثم توجيه سكانها الى الجهة المقصودة ، مقلّة ٣٥٠٠ راكب وملاّح . يخدمهم الف خادم كهربائي تسهر على جميع وسائل راحتهم وطمأنينتهم

وستستوفي نورمندي المعدات الكهربائية ، مما لا نظير لهُ في اية باخرة حتى اليوم فتسيَّر بالقوة الكهربائية الضخمة ، معتزّةً بها على زميلاتها المسيرات مباشرة بقوة البخار ، قاطعة المحيط الاطلنطي، في اقل زمن فتفوز بالسبق وقد كان معقوداً لواؤهُ حتى سنة ١٩٠٧ لزمرة من المراكب التي تسير بالقاطرات ذوات الكبّاس الطردي" العكسي" الحركة Reciprocating engine

ثم طفق السفّانون — صانعو السفن — يزيدون قوة القاطرات شيئاً فشيئاً كلما مسَّت حاجة الناس الى صنع بواخر اكبر واسرع من النوع المسيَّر بذلك الضرب من القاطرات . فابدلوا القاطرة « البسيطة » ذات الاسطوانة الواحدة التي لا تزيد قوتها على بضع مئات من الاحصنة البخارية ، بقاطرات مركَّبة من ذوات الاسطوانتين والثلاث الاسطوانات حتى بلغوا ذروة السرعة البخارية اذ صنعوا قاطرات قوتها ٤٠٠٠٠ حصان بخاري . وكان ذلك لتسيير الباخرة المسماة — ويلهلم الثاني

ودأب مهندسو البواخر في تحسينها ، وزيادة قوتها وسرعتها ، فاستخدموا لنيل غاياتهم التربينات البخارية

﴿ عصر التربينات البخارية ﴾ فبدأوا بالتربينات التي تبلغ قوتها ٧٠٠٠٠ حصان بخاري لتسيير الباخرة المسماة « موريتانيا » المشهورة وجعلوا تلك التربينات متصلة باعمدة الرفاسات اتصالاً مباشراً فتمكنت الموريتانيا من قطع المحيط الاطلنطي بين اوربا واميركا بسرعة تفوق ٢٧ ميلاً بحريًّا في

الساعة . فاسفر ذلك الاختراع عن احداث انقلاب في السفانة — صناعة السفن — كان حافزاً للسفانين من ذلك الحين على اتخاذ التربينات البخارية اساساً لصنع البواخر الكبرى

﴿ بريمن واوربا ﴾ تُسيَّرُ كلٌّ من تينك الباخرتين المشهورتين بتربينات قوتها ١١٠٠٠٠ حصان وقد امتلكتا ناصية السرعة في المحيط الاطلنطي حتى فاقتها الباخرة ريكس التي تسير بتربينات بخارية قوتها ١٢٠٠٠٠ حصان بخاري

وتربينات تلك البواخر الثلاث العظمى متصلة برفاساتها بتروس تتحكم فيها Reduction gears وتمثل هاتيك التربينات ارقى واعظم الآلات المسيّرة للبواخر التي اخترعت حتى اليوم

﴿ نورمندي ﴾ بلغت نفقات صنع نورمندي ٣٠ مليوناً من الريالات — وستكون وسائل الراحة فيها ، والحذق في قيادتها ، وتفوق سرعتها ، وسهولة تسييرها ، منقطعة النظير في البواخر قاطبة — وستصير باخرة فريدة في مياه شمال المحيط الاطلنطي تبزُّ كل ما سبقها . وتمتاز نورمندي بتربيناتها الاربع الضخمة التي تدير مولدات كهربائية بدلاً من ادارتها الرفاسات مباشرة او بواسطة التروس . ومتى دارت تلك المولدات ولّدت كهربائية وهذه تدير اربعة محركات ضخمة متصلة باعمدة الرفاسات . وتتراوح قوة نورمندي بين ١٦٠٠٠٠ و ٢٠٠٠٠٠ حصان بخاري ، تنطلق من عقالها متى ضغط المهندسون البحريون الازرار الكهربائية المهيمنة عليها — وبهذه الوسيلة تستطيع نورمندي زعيمة السرعة في البحار قطع المسافة من ثغر الهافر الى ثغر نيويورك في زمن اقل مما تستغرقهُ اسرع البواخر التي تمخر عباب المحيط حتى الآن

ولا غرو فقد قضى مهندسو شركة ألستوم Alsthom الكهربائية بمدينة بلفور بفرنسا وشركة الكهرباء العامة في امريكا عدة سنين في وضع الرسوم الخاصة بنورمندي وفي صنعها فأضحت سيدة البواخر العصرية بلا جدال. وتستخدم فيها اخر وانفس الاجهزة الكهربائية التي اخترعت حتى اليوم لاستخدامها في البرّ والبحر

وتؤلف القوة المحركة لنورمندي من اربعة محركات صنعت لها خاصة — وقوة كل منها تفوق ضعفي قوة اي محرك صنع لاية آلة برية — وتزيد على سبعة اضعاف قوة اعظم قاطرة بخارية تمَّ تركيبها في اي زمن من الازمان . ولما كان تزويد تلك المحركات الضخمة بالتيار الكهربائي يقتضي عملاً هندسيًّا اعجب مما تقدم وصفه ، لان ادارة المحركات باقصى سرعتها ، يتطلب مولداً يولد قوة كهربائية عظيمة جدًّا ، أُنشئت لتلك الغاية اربعة مولدات كهربائية ذات تربينات ، بلغت قوة كلٍّ منها ٤٢٧٥ كيلو واط لسد حاجات تلك المحركات

وتقوم الكهربائية في نورمندي بالاضاءة والتدفئة والتبريد وتجديد الهواء والطهي وادارة المصعدات والآلات الرافعة للبضائع والمراسي وبتقديم التيار اللازم لمئات من شتَّى الاجهزة الكهربائية التي تمهد سبل الطمأنينة وتوفر وسائل الراحة في سيدة بواخر العالم العتيدة

فلا فندق من الفنادق العصرية ، ولا شركة من الشركات تستطيع مفاخرة سيدة البواخر فيما حوتهُ من المعدات الكهربائية الشاملة — التي تقوم بادارتها ستة مولدات كهربائية اضافية ذات تربينات عدا ما اشرنا اليها قبلاً — تولد قوة ١٨٠٠٠ حصان بخاري

ومتى تأهبت الباخرة نورمندي لرحلتها الاولى ، غدت أعجوبة البواخر الكهربائية ، بل نموذجاً كاملاً لجميع ما اخترع حتى اليوم من وسائل الانتفاع بالكهربائية في الخدمة البشرية

﴿ الباخرة ملكة برمودة ﴾ ويجدر بنا وقد وصفنا نورمندي ان نذكر بعض عجائب أختها التي سبقتها الى السيادة ونعني بها (ملكة برمودة)

وملكة برمودة احدث باخرة تجارية تمَّ صنعها في السنين الاخيرة . وهي تسير بالقوة الكهربائية ايضاً وتحتوي على أفخر معدات الراحة واعظم المخترعات الكهربائية التي ابتدعها العلم حتى اليوم ومع ذلك فان نورمندي ستسبق ملكة برمودة بمراحل

قال الكاتب الاميركي منشىء هذا المقال :— قصدت مشاهدة الباخرة (ملكة برمودة) فآثرت ان استرشد عند زيارتها بمعلومات المهندسين والكهربائيين العليمين بصناعة البواخر الحديثة ؛ فاستصحبت فئة منهم . وما وصلنا الى ملكة برمودة عند مرساها ، حتى قادني مرشدي الى مكان تيسر لي فيه رؤية رفاساتها متحركة ، وبيوت ابرها الجيروسكوبية مدوّمة ، وابوابها المسيكة [1] تغلق باشارات لاسلكية تسيطر عليها من بعيد . حيث رأيت اوساقها ترفع والاطعمة تطبخ في افران ضخمة ، وسكانها العظيم يذعن لنبضات كهربائية تصدر اليه من مرقب أو مرقبة [2] السفينة

وملكة برمودة خالية من مجموعات انابيب البخار التي يضلُّ المرء طريقه اذا شاء تقصيها وهي التي لا تخلو منها باخرة عصرية اذ حلَّت محلها اجهزة دقيقة للانارة والحرارة وغيرها من الاعمال التي تقتضيها سلامة الباخرة . وكلها تدار بالقوة الكهربائية الموصلة اليها باسلاك نحاسية

واتفق ان كانت زيارتي اياها في صباح اقلاعها من الفرضة الواقفة فيها اذ كان ضباط ظهرها والمهندسون المشرفون على تسيير آلاتها على وشك ادارة محركاتها استعداداً للرحلة المقصودة يومئذ فرأيتهم يجربون الآلات المسيرة لتلك الباخرة ليستوثقوا من تمام صلاحها لعملها قبيل المسير . ثم نزلت الى القاعة القاطرة وهي في جوف الباخرة حيث شاهدت لوحة كبرى نظيفة جداً مرصعة بالمفاتيح الكهربائية . وكان اذ ذاك كبير مهندسي الكهربائية ومساعد كبير المهندسين البحريين وفوج من مساعديهم مرتدين ميدعاتهم [3] واقفين كلهم استعداداً لتلقي اوامر المسير

(١) المسيك — يقال سقاء مسيك ومسّيك بتشديد السين اي يمسك الماء ولا ينضح (٢) اخطأ بعض مراسلي الصحف اليومية بقولهم كبري السفينة وهي ترجمة حرفية للفظ bridge الانكليزي لا معنى لها في هذا المقام

(٣) الميدع او الميدعة او الميداعة . ما يصان به الثوب وغيره — (المنجد) — والميدع — ثوب يجعل وقاية لغيره (فقه اللغة) . وهو عندي افضل ترجمة للفظ overalls الانكليزي

وما عتمنا ان جاءتنا برقية من مرقبة الباخرة احدثت لغطاً فاق حسيس التربينات الساكنة ، فحواها (وجوب اتجاه رفاس الباخرة الايسر الى الامام متئداً) فنفـذ احد المساعدين الفنيين ذلك الامر . وكان احد العمال الكهربائيين يدير احدى العجلتين (الضخمتين المطليتين بالنيكل) رويداً رويداً ، وهما المسيطرتان (بواسطة جهاز مجدد للتيار الكهربائي) على حركة التربينات بأجمعها وعلى الحركات التي تسيرها ايضاً وبعد هنيهة عجلت ادارة التربينات فأدير المحرك الايسر ببطء ثم ارسلت برقية الى مرقبة الباخرة بأن عملية اعداد الباخرة للابحار قد تمت . فوردت الارشادات التلغرافية تترى على كل رفاس من رفاسات الباخرة الاربعة فنفذت عاجلاً بسكينة

وحينئذ رأيت الرفاسات قد انعكست حركاتها بادارة عجلة صغيرة دورة ضئيلة . ولا عجب فان ادارة الآلات كلها في تلك الباخرة الكهربائية هينة لينة بحيث ان قوتها البالغة ١٩٠٠٠ حصان بخاري يتاح لعامل واحد فني ان يهيمن عليها برمتها اذا طرأ طارىء

وتقوم القوة الكهربائية في تلك الباخرة المدهشة بكل لوازمها ، فترى في غرفة القاطرة الالات الآتي بيانها تدار بالكهرباء وهي : — مضخات الزيت — مضخات الصابورة — مضخات المياه — وكلها مستعدة للعمل في اية لحظة — وتقوم الكهرباء ايضاً بفتح واغلاق الابواب المسيكة التي في الحواجز الفاصلة لكل قسم عن الآخر من اقسام الباخرة

وفي كل غرفة من غرف الباخرة مراوح كهربائية ضخمة تجعل جوها مريحاً على الدوام . ويدير سكان الباخرة بمهارة جهاز « تتولد فيه الكهرباء بقوة الماء » وفي جوف الباخرة ايضاً جهاز كهربائي لتذويب جميع الفضلات والمواد البرازية وقذفها في قعر اليم ، محافظة على صحة ركابها

***

ويستدل على الزمن في جميع ارجاء الباخرة بالكهربائية — وبها تطبخ الاطعمة وتدفأ وترطب غرف الركاب ، وتثلج المأكولات والمشروبات القابلة للتلف وتغسل الملابس والبياضات ثم تكوى

وفي الباخرة آلة رافعة — ونشات كهربائية — ورافعات للمراسي والبضائع والحبال وقوارب النجاة حيث تلقيها في البحر وترفعها منهُ برافعات كهربائية . وتحتوي الباخرة على جهاز اوتوماتيكي منبه للحريق تبرز منهُ اشارات موقوتة تدل على اشتداد الحرارة في اية جهة من جهات المركب . وفيها ايضاً جهاز كهربائي لمكافحة الحريق توًّا متى شب في اي جانب من جوانبها

وملكة برمودة مجهزة بتلغراف وتليفون لاسلكيين وبيت ابرة لاسلكي وآخر جيروسكوبي وبجهاز تلغراف كهربائي في مرقبتها — وتشمل مقياساً كهربائيًّا لقياس الاعماق . وفيها ايضاً مقياس كهربائي آخر لقياس سرعة سير الباخرة . وببصاصة كهربائية من اختراع مكنيل — وهي العين الكهربائية التي تكشف الاشياء الخفية على بعد اميال في الضباب . (وقد وصفتها في باب الاخبار العلمية بمقتطف مارس الماضي)

﴿ امثال نورمندي في بحرية اميركا ﴾ ومن المستغربات ان الباخرة الكهربائية نورمندي الوشيكة الظهور في المحيط الاطلنطي كاملة المعدات وهي من صنع السفانين الاوربيين ، قد سبق المهندسون الاميركيون ان صنعوا امثلة لها في الاسطول الاميركي وفي مصلحة خفر السواحل بالولايات المتحدة حيث ثبت نجاحها وظهرت فوائدها

وكان المستر (نيقولا تسلا) المخترع الكهربائي المشهور في طليعة المحبذين لها ومن اشد انصارها . وكان لمهندسي الشركة الكهربائية العامة في اميركا شأن يذكر في اتمام اختراع البواخر الكهربائية

وقد ادركوا ان تسيير البواخر بالقوة الكهربائية ذو مزايا لا شبيه لها في الوسائل الاخرى المستخدمة لتسيير البواخر ولا سيما سرعة عكس دوران الرفاسات بمجرد ادارة المفتاح الكهربائي

وكانت بحرية الولايات المتحدة قبل سنة ١٩٢٧ أسبق بحريات العالم جمعاء في صنع البواخر الكهربائية لانها انشأت قبل ذلك التاريخ باخرتين ضخمتين وهما Saratoga وليكسنتون Lexington واستخدمتهما لنقل الطيارات فكانتا اقوى واسرع جميع بواخر العالم في ذلك العهد

وكانت مصلحة خفر السواحل الاميركية المجلية في ابتداع تسيير البواخر بالقوة الكهربائية فأحدثت بعملها هذا انقلاباً عجيباً في صناعة السفن اكسب البحرية الاميركية خبرة عظيمة جعلتها تثق بجليل نفع البواخر الكهربائية وسهولة تسييرها وزيادة قوتها الى حد عظيم عند الحاجة

واستصوب كبير المهندسين في مصلحة خفر السواحل الاميركية كهربة زوارق تلك المصلحة لكي تستطيع الاضطلاع بوظائفها فرسم الخطة التي تتبع في ادارة الرفاسات بالمحركات ، فنفذت الحكومة الاميركية مقترحاته وذلك في ثلاث سفن ألحقت بالخدمة في خفر السواحل الاميركية سنة ١٩٢١ حيث كانت بمثابة نموذج احتذاه صانعو البواخر الكهربائية التجارية الحديثة

وكانت كليفورنيا الباخرة الكهربائية الاولى من حيث الفخامة اذ بلغ وسقها ٢٠٠٠٠ طن واستخدمت في خط پنما الباسفيكي في يناير سنة ١٩٢٨ ثم حذت حذوها قبيل اوائل السنة التالية باخرتان تسيران في ذلك الخط البحري نفسه بالقوة الكهربائية فكان نجاح هاتيك البواخر الكهربائية مشجعاً لبريطانيا العظمى على صنع الباخرة حاكم الهند Viceroy of India وغيرها من البواخر الكهربائية لقطع المسافات الشاسعة بين انكلترا والهند وبينها وبين اوستراليا

***

وقد صنعت في السنوات الخمس التالية سفن اخرى من هذا الطراز في اميركا وانكلترا ولكن نورمندي تفوقها جميعاً تفريغاً وقوة وابداعاً في طرقها ومعداتها الكهربائية ؟

(عن مجلة العلم العام بتصرف قليل) عوض جندي

صور التجديد

في الاسكندرية

أمثلة عليا لبعث حضارة مدينة قديمة على الطراز الاول

لنقولا شكري

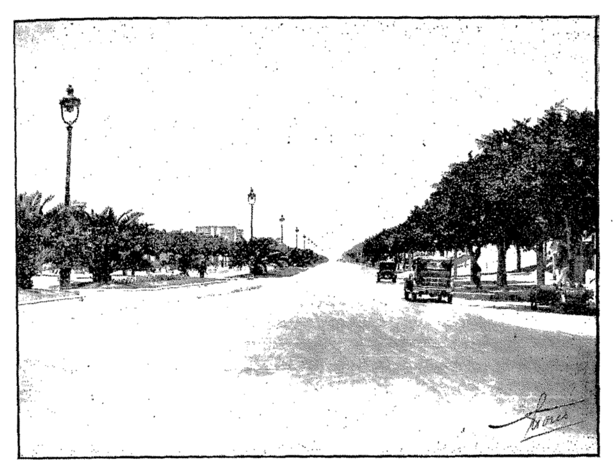
من الطبيعي ان يكون امام الهيئة البلدية برنامج مفعم بمواد التجديد والتعمير والتجميل لمدينة عريقة في الحضارة التاريخية مثل الاسكندرية التي شهدت عظمة الرومان وجلال القياصرة، في شباب الدنيا وصبا العالم، والصفحات الاولى من مجد الانسانية . وان يكون ذلك الثوب الاغريقي الملقى على ساحل البحر الابيض كما وصفها « إسطرابون » موضوع اهتمام جميع اولئك الذين يعلمون ان المدن لا تعيش في الشرق الا مع العناية الكبيرة بتهذيب الاشياء والناس

وقد كانت الاسكندرية لعهد قريب لا تكاد تملك المركز اللائق بها بين حواضر الشرق، كانت المدينة التاريخية التي تحترم اطلالها للذكريات الخالدة التي ترجع الى عهد تلك النهضة العلمية التي قام بها فلاسفة الاغريق ولا تزال آثار ذلك العهد باقية الى اليوم . اما حضارة الاسكندرية التي ينبغي ان تبعث لخير الاجيال القادمة فقد كانت في ذلك العهد القديم مزيجاً من التهذيب والعمران وكانت حضارة تمتاز بكثرة وسائل اللهو والسرور، ونعتقد ان القائمين بتحقيق برنامج التجديد المستحدث في الاسكندرية لم تغب عنهم هذه الظاهرة في تاريخ الاسكندرية . ولعلهم قد ادخروا في ذلك البرنامج امثلة جليلة يمكن ان يتحقق بها بعث تلك الحضارة القديمة

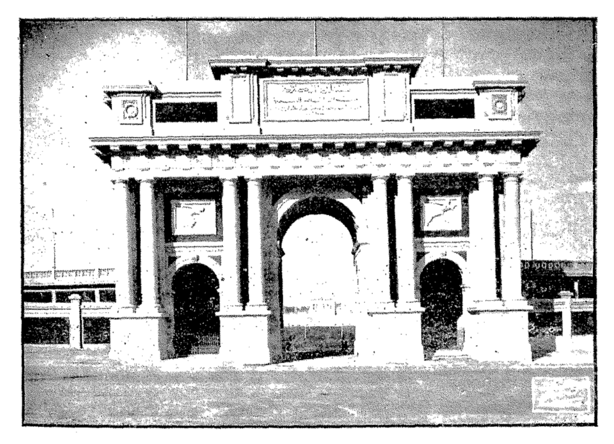
***

في ذلك العصر الذي ساوت فيهِ الاسكندرية مقام عاصمة العواصم في التاريخ القديم وصف احد الفلاسفة المثل الاعلى لمستقبل مدينة عظيمة جمعت كل عناصر المدنية بالمنارة التي ترسل اضواءها الى مسافات بعيدة وترشد اللاجئين الى الثغور . وتحت ذلك الجو الصافي الذي يحنو على امواج البحر الابيض وأصائل الشرق الحارة قدّر لهذه المدينة التاريخية ان تبعث بعثاً جديداً على طراز مستحدث لعله اجمل وأروع طراز عرف في تعمير المدن

أما امثلة ذلك العمران الذي تحقق بجهود البلدية في اوقات كان لا بدّ فيها من الجهاد وبذل



منظر من شارع أبي قير



الباب الكبير لميدان الالعاب الرياضية التابع للبلدية

الهمم في سبيل القضاء على القديم وانشاء صور جديدة للعمران وخطط مستحدثة بعضها على طراز الخطط القديمة ، ونظم من التجديد ، وأفانين من التجميل ، وأساليب من بعث حضارة جليلة ذات أثر خالد في التاريخ ، فانها تتمثل في صور شتى بعضها تحقق لخير الذريات الحاضرة والمستقبلة وهي تلك الامثلة التي سنعددها واحدة فواحدة ، ونحن اذا ذكرنا هذه الجهود التي بذلتها البلدية لتحقيق تلك الامثلة العليا فلا نستطيع ان ننسى مع ذلك مساعي الهيآت التي تشارك البلدية في سبيلها العظيم لبعث هذه المدينة التاريخية . وسيظل ازدهار هذه المدينة آية في تاريخ العصر الحديث يدين بها الاخلاف زمناً طويلاً تخليداً لذكرى الرجال الذين اشتركوا في تحقيق ذلك التجديد وعملوا على انشاء ذلك البعث الكبير لحضارة لا نظير لها في التاريخ

***

وأول ما نذكر من امثلة ذلك التجديد الذي عني المجلس البلدي بانشائه على احدث طراز تلك الطريق التي شقها على الساحل فوهبها تلك الصورة القديمة التي كانت اجل مظاهر الابهة والعظمة في ذلك العصر التاريخي ، وكان الاهالي من الاعيان والطبقة الوسطى يتروّضون على الساحل كما يتروّضون اليوم ولا يكاد ينقص المعاصرين غير بائعات الزهر اللواتي كنَّ في ذلك العهد القديم من صور التظرف والتأنق وغير تلكم الزامرات والراقصات اللواتي كنَّ ينتشرنَ بين المتروّضين والمتروّضات على الساحل . اذن في تنظيم هذا الشارع الذي اطلق عليهِ اسم طريق الكورنيش صورة جليلة من صور البعث لحضارة الاسكندرية واستحداث حياة اولئك البطارقة العظماء الذين عاصروا الفلاسفة وكبار العلماء في مدرسة الاسكندرية وكانت ميزة عصرهم انهُ كان مزيجاً من التهذيب واللهو بل الانغماس في اللهو . وقتئذ كان الذهب يجري على جانبي المدينة القديمة كما تجري الامواه

ومثل آخر من أجلّ صور ذلك النهوض العظيم باحياء مدينة مندثرة شارع ابي قير وقد اشبه مع شارع الكورنيش جناحي الطائر يحنو على المدينة بخوافيه وقوادمه ، او الوادي الذي يضم صورة فذة من صور العمران . وكذلك اريد ان يكون للاسكندرية الطريقان القديمان ، طريق العربات الذي يدعى اليوم شارع ابي قير ولا تكاد تنقطع منهُ السيارات والعربات كأنما قدّر له منذ تخطيطه ان يكون طريق حركة وضوضاء ، وقد احتضنته الاشجار الباسقة المخضلة حتى لا تفارقه الافياء والظلال مع تلك النسائم المنعشة العطرة التي يستنشقها المارة بلا انقطاع . وطريق التروّض القديم وهو شارع الكورنيش الذي لا تكاد تفارقه ايضاً جماعات المتروّضين ولا تكاد تغيب عنه تلك الشموس الحارة التي يلطفها هواء البحر ويهبها صوت الامواج وتكسرها على الشاطىء نغمة رقيقة لعلها أعذب لحن يتطلب ان يستمعهُ عابر سبيل

ولعلّ اجمل ظاهرات تلك الطريق الاخيرة التي تعانق البحر بقوة كأنها تخشى ان يتدفق وهي

بالفعل تحول دون تدفقه ، ان الناظر الى آخرها اثناء الليل يحسب ان البحر طريق معبدة تجتازها العربات اذ ان اختفاء الحاجز الحجري يبيح ذلك التصور الكاذب ، وكذلك شارع ابي قير الذي تشبه حركة السيارات فيه عند الهزيع الاخير من الليل غواصاً يقلد بيديه ماسات وأحجاراً كريمة متألقة اذ لا يكاد الانسان يلمح فيه غير مصابيح تلك العربات

***

ومن أجلّ الامثلة ايضاً التي يراد بها حماية عمران مدينة كأن الطبيعة نفسها تغار من ازدهارها ورواثها حاجز الامواج الذي يظهر الفارق البعيد بين العصرين في طمأنينة حضارة المدينة ورقيها وسلامة الاهلين من اندفاق البحر قد يسلب بعض ذلك الرواء والرونق وينال منهُ ، وقديماً لم يكن يخشى على عمران المدينة من امواج البحر رغم أن امثلة ذلك العمران القديم كانت مجاورة للساحل. ولعلنا نذكر ما رواه المقريزي حين ذكر الاسكندرية عن تلك الآثار الرخامية التي طواها صدر البحر حيناً من الزمن ولعل تلك الآثار هي نفسها التي اشير اخيراً الى استكشافها في شاطىء ابي قير وقيل انها تشمل مقبرة الاسكندر

أما حاجز الامواج الذي تهتم البلدية بامتداده حتى يتحقق به الغرض فيما يختص بالحيلولة بين البحر وعمران المدينة فانهُ مثل مصغّر يتعلق بالسلامة وحدها الآن ولما يتم بالنظر الى تكاليفه والى المناسبات الدقيقة التي تحول عادة دون تحقيق المشروعات الواسعة فان ذلك التريث في مد الحاجز يرجع الى تفكير البلدية على ما نعلم في اقامة منشآت مستحدثة على صدر البحر تجاور ذلك الحاجز او يكون الحاجز جزءاً منها . ولقد كانت الاسكندرية القديمة مثلاً قريباً لذلك الحاجز . كانوا يخترقون بهِ صدر البحر زرافات ، اذن فهو ايضاً صورة جليلة من صور البعث لتلك الحضارة الخالدة في التاريخ القديم

ولو كانت الاسكندرية مثل تلك الثغور اليونانية التي ينبت فيها الرخام والمرمر كما تنبت الاشجار والازهار لكان من السهل تحقيق اثر لا بدَّ منه لاستكمال مدنية عاصمة من أجمل ثغور البحر الابيض المتوسط وهو الملعب او كما يسمونه «ستاديوم». وكان القدماء يعنون بهذه الكلمة المسرح ايضاً او مكان اجتماع الشعب والخطابة . وقد كانت عناية البلدية ببناء ذلك الملعب لا تقل عن عنايتها بتحقيق سائر وجوه التجديد والتجميل في المدينة وان لم يضاه ذلك الملعب الذي أقامه «افيروف» في أثينا على رسم الملعب الاغريقي القديم من المرمر تخليداً لاجلّ اثر في تاريخ بلاده . على ان انشاء الملعب قد سدَّ حاجة كبيرة من حاجات العصر ومستلزماته ، فالملعب البلدي ولو تصورناه بصورته الحاضرة لا يخرج عن كونه اسلوباً ظريفاً من اساليب بعث الحضارة القديمة في الاسكندرية

اما المنشآت الصحية المتعددة التي اهتمت البلدية اهتماماً جديًّا بتحقيقها للعناية بصحة الاهلين

وسلامة الذريات في المدينة التاريخية فانها من أجلّ ما تستحدثه البلديات في مدينة ذات موارد محدودة مثل الاسكندرية فان المنشآت الصحية تحتاج عادة عدا الجهود التي تبذل في سبيل تحقيقها الى نفقات مستمرة تناسب دوائر الاحتياج اليها . من هذه المنشآت الواسعة مساكن العمال . واذا قلنا مساكن العمال لا يكون هذا القول بالطبع مقصوراً على حجرات خاصة بالعمال بل نعتقد ان معناه العناية بصحة العمال وذرياتهم وحياتهم المنزلية واقتصادهم وبالاختصار بمستقبلهم . ولقد كان تحقيق هذا المشروع من أمثلة العمل بالمبادىء العصرية التي لم تغب فوائدها عن رجال البلدية . وقد اصبحت هذه المساكن اليوم تضم المئات من العمال في الاسكندرية . ونقول ان النظر الى هذا المشروع من بعض وجوهه المحلية البحتة يبدي لنا الظاهرة نفسها التي يتمثل فيها بعث حضارة المدينة القديمة فقد كان للعمال في الاسكندرية التاريخية حي خاص لا يتجاوزونه يدعى باسمهم كما كان للاعيان حي آخر منسوب اليهم

ثم تلك الحلقات المنتظمة الصحية كمستشفى الحميات ومغاسل الفقراء والعيادات الطبية المتعددة ومستشفى الولادة ومطعم الفقراء وما الى ذلك مما يشمل الاختصاصات الواسعة المتعلقة بالبلدية في شأن العناية بصحة الاهلين واطفالهم . اما مغاسل الفقراء فقد كانت الى الآن مرآة صادقة لارادة البلدية النبيلة في تحسين حالة الفقراء نوعاً ما وهو مجهود يستحق دائماً الاعتراف بالجميل للبلدية من تلك الطبقات الفقيرة التي تحتاج الى عناية مستمرة بصحتها ونظافتها . ثم مستشفى الولادة الذي يعد نظاماً مستحدثاً في دائرة الاهتمام بالصحة العامة وهو يعطي صورة صادقة من اهتمام البلديات في العالم المتمدين بالمواليد والامومة ومستقبل الاطفال . وفي اعتقادنا ان هذا المشروع الجليل يكفل الحاجة القصوى الى مثل هذه العناية بصحة الطفل . اما العيادات الطبية المنتشرة في المدينة فكلها منسوب الى البلدية وعنايتها القصوى بصحة السكان فانها مثل صادق لجزء من المهام الواسعة الملقاة على عاتق البلدية فيما يختص بصحة المدينة والعناية بالاهلين وتخفيف اعباء الحياة وتيسير وسائل المعالجة والوقاية ، وهي من اجلّ ما ينبغي ان يسهل على السكان في مدينة متحضرة ذات حركة عملية مستمرة

***

وما يقال عن مغاسل الفقراء وفوائدها وأثرها في الصحة العامة يقال ايضاً عن مطعم الفقراء الذي لا نستطيع ان نعده مجرد صورة من صور الاحسان ومؤاساة الفقراء بل نعده وسيلة عملية تعين تلك الطبقة على العمل والاعتماد على النفس . ولعلّ عناية البلدية الموجهة الى هذا الغرض من نوع العناية بالصحة والوقاية اكثر منها مساعدة الفقراء . وكذلك يمكن ان يتألف من مجموع هذه التنظيمات المستحدثة طراز بديع من بعث حضارة تاريخية ذات أثر خالد وان هذه المنشآت اذا عرضناها جملة كوّنت اجمل صورة من صور العمران

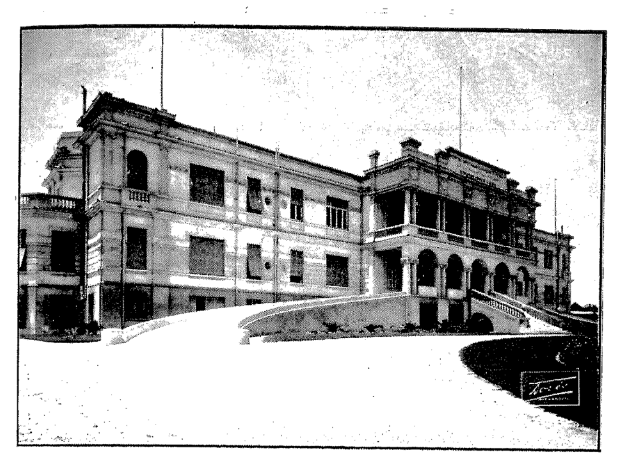
والظاهر ان البلدية بمقدار ما عنيت بالمشروعات الجدية المتعلقة بالصحة والامومة والاطفال ومساعدة الفقراء ارادت ان يكون للمدينة العصرية مظهرها الخاص البارز الذي يذكر بالعظمة الماضية ويكون اشبه بمرآة صادقة تبدي ما احتوت عليهِ من ضروب العمران وصور التجديد والتجميل وافانين التظرف التي تظهرها بعض الاماكن العامة فعنيت عناية ذات شأن كبير في دائرة تجميل المدينة واستحداثها وجعلت هذه العناية وقفاً على ميدان المحطة الجديدة الذي تعمل في تنسيق الحدائق المنشأة امامه والتي تستقبل زوار المدينة وتودّع الراحلين عنها

ولا يمكن ان يستجلي المرء صورة تلك الحدائق والواجهة الضخمة للمحطة الجديدة سوى ان ثمة فكرة عليا للبعث والتجديد. والعمران تحركهُ همم رجال البلدية . اولئك الذين يعوّل على جهودهم في بعث حضارة هذه المدينة ، والى هذا الميدان العظيم يمكن ان نضيف في نسق التوسع والتجميل ما يحكيه او يضاهيه من الميادين المستحدثة وبخاصة ذلك الميدان الذي يحيط بحي العمال بالقباري وتلك الحدائق المتعددة التي تتخلل الاحياء الوطنية لتغذيتها بالهواء والضوء . هذا الى الوسائل المتعلقة بالصحة اكثر من تعلقها بمجرد التجميل وتلك المشروعات القيمة في دائرة تحسين صورة المدينة مثل توسيع حديقة النزهة ومضاعفة المساعي المبذولة في تنسيق حديقة انطونيادس . كذلك نلحظ ان البلدية قد شملت اهتمامها كل وجوه التنظيم والتجديد في المدينة وان موجة هذا التجديد قد فاضت حتى غمرت المدينة من اقصاها الى اقصاها وانها تشمل التأنق والتظرف في وجوه ذلك التجديد والاستحداث قدر ما تشمل التوسيع والانشاء وشق الطرقات الطويلة. وان البلدية قد آلت على نفسها ان تخرج من مجموعة هذه المشروعات امثلة عليا تؤلف في جملتها صورة للمدينة تحيي صورتها التي طواها التاريخ

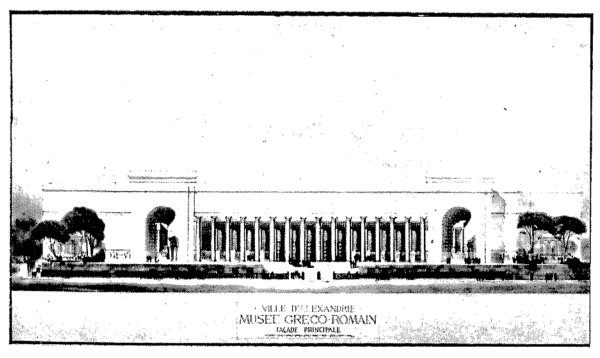
على ان البرنامج الذي يشمل مجموعة تلك المنشآت الجديدة للبلدية لا يزال يشتمل على اشياء اخرى في مثل مكانة المنشآت التي تحققت . من ذلك انشاء متحف جديد ومكتبة جديدة على طراز مستحدث كامل يمكن ان يعيد ذكرى تلك المكتبة الكبيرة التي تعد من مفاخر تاريخ الاسكندرية القديم وقد سبق لنا ان تكلمنا عن هذا المشروع واشرنا الى تقاليد الاسكندرية القديمة فيما يتعلق باقتناء الكتب وكيف كان البطالسة يبذلون الاموال الطائلة في هذا السبيل

وتنوي البلدية أيضاً ان يستكمل في برنامج تلك المنشآت مواضع احياء الحضارة القديمة في تاريخ الاسكندرية وقد تقرر انشاء مسرح بلديٍ واسع على احدث طراز ولعل البلدية تنشىء الى جانب ذلك المسرح ايضاً معهداً للموسيقى مثلاً ما دام الاهتمام بتشجيع الفنون الجميلة من مهامها ونحن نلحظ ذلك في تبرعاتها لاصحاب المسارح ودور التهذيب العلمي والفني

ونذكر الى جانب ذلك الغرض الاسمى الذي تنظر اليه البلدية في توسيع بعض دوائر العمران في المدينة وتخطيط شوارع جديدة تزيد في رونق المدينة وازدهارها وبهائها . نذكر على سبيل



مستشفى الرمد



المتحف اليوناني الروماني كما تريد البلدية انشاءه

المثال شارع اسمعيل الذي يراد اختطاطهُ والعناية بنظامه واشكال بناياته وتجميلها لانهُ سيكون طريق السياح الى قلب المدينة وحتى لا يقع نظر الاجانب الذين يفدون على المدينة الاَّ على منظر يضاهي على الاقل ما الفوهُ في المدن التي عاشوا فيها . ولهذا المشروع شأن كبير من هذه الناحية فقد مضى عصر طويل على تلك الطرقات التي يخترقها السياح دون ان يطرأ عليها أي تجديد او استحداث وأغلبها ينبو عنهُ النظر لقدمه وقبح طرازه . اذن قد عمات البلدية حقـا على سلوك السبيل الى العناية الصادقة بمنظر المدينة وأثرها في نفوس زوارها وحتى لا يكون في دائرة ذلك الانشاء والتجديد نقص يلاحظ عليه . ولقد كان القدماء لا يتخلون عن منشآتهم في سبيل العمران وقصورهم الكبيرة دون ان يحيطوها بقرى واسعة من الحدائق والرياض كأن تلك القرى جزء ملازم للقصور الواسعة كما تلازم الامواج البحر أو كما يلازم بعض الخطوط الملونة اللوحات الجليلة التي يعنى بها أئمة التصوير فان في تلك الخطوط أثر الإمامة والعبقرية . كذلك قررت البلدية ان تحيط تلك الدوائر الكبيرة للتجديد والعمران في الاسكندرية بشبه حدائق منسقة اختارت ان تغرق فيها تلك المنشآت كما تغرق القصور في الخضرة المنبسطة او كما تطفو السفن الكبيرة في زرقة البحر . فأرادت ان يحتضن ذلك التعمير الجليل وتلك الصور الباهرة للتجديد سياج كبير من الخضرة المونقة والزهر وأفانين التنسيق للاشجار . وكان يقال في تاريخ الاندلس ان الوافد على قرطبه كان يجتاز اكثر من خمسين قرية كلها قصور بيضٌ في حدائق خضرٍ وهو ما تنوي البلدية انشاءهُ عن قريب على مثال «جاردن سيتي» في القاهرة حتى يكمل برنامج التجديد والتأنق في تجميل المدينة . وحسب هـذا دليلاً على الذوق المهذب الذي يعنى كل هـذه العناية بجمال الاسكندرية العصرية

ولعلنا اذا نسبنا فضل هذا التجديد الى الاستاذ احمد بك صديق المدير العام للبلدية فانما يعد ذلك اعترافاً بالمواهب الكبيرة والصفات التي اجتمعت في هذا المدير والظروف التي كانت موفقة كل التوفيق في تحقيق هذا التجديد لتخليد اسمه الذي سيظل مقروناً بها

***

ولا شك اننا نستطيع منذ الآن ان نتلمس المستقبل الباهر المدخر لهذه المدينة التاريخية من مجموعة تلك الاصلاحات والتجديدات وما لا يزال يشتمل عليهِ برنامج البلدية من مواد الانشاء والتجميل . ولاشك اننا على قدر ما نلحظ مظاهر هذا المستقبل ندرك قيمة التعجيل بتحقيق مواد هذا التجديد واثره في استحداث عمران مدينة لا تخلو من سحر الشرق القديم الغامض وارجـه المسكر الغريب. فقد كانت مهداً لاحلام رقيقة ينميها ذلك التصافح البديع المؤثر بين الشرق والغرب وتمدها الذكريات الخالدة بفيض من المشاعر اللطيفة . وكانت ثانية عواصم الدنيا بعد روما

الدكتاتورية والرجل العظيم

لاندره موروى

المؤلف الفرنسي المجيد

لما سئل صولون ، هل منح الاثينيين أفضل الشرائع ، أجاب :— «منحتهم اصلح الشرائع لهم وللعهد الحاضر» . وليس ثمة دستور كامل في ذاته ، مفصولاً عن عصره والاحوال التي نشأ فيها . بل ليس ثمة رجل مفكر يستطيع ان يدعي بأن الدكتاتورية عدوٌّ للامة في كل الاحوال على الاطلاق . ففي زمن الخطر المحدق والفوضى الشاملة اذ تقتضي المصلحة الوطنية اجتناب التفرقة والتشتت في القوى الوطنية ، وتوجيهها الى غرض واحد معين ، قد يكون من الصالح قيام زعيم فردٍ . فبونابرت في منصب القنصل الاول اصلح فرنسا التي كانت الجمعيات التأسيسية قد أنضبت دماءها . اما السماح لرئيس الدولة ان يكون في أيام الرخاء والسلام أقوى مما يجب ان يكون ، فقد يفضي الى الحمق والتهوُّر . فهو كالآلة القوية التي تحتاج الى منفذٍ لطاقتها ، تراه مدفوعاً الى خلق الحاجات في قلوب شعبه لكي يحسّ بغبطة تلبيتها وتحقيقها . في هذه الحالة تصبح الدمقراطية رغماً عما تنطوي عليهِ من التحاسد والتجادل ، مرغوباً فيها ، ويصبح الوطني الصحيح ، الذي أيّد الدكتاتورية قبل عشر سنوات ، محمولاً على مقاومتها

ومع ذلك ، تجيء على كل امة ازمات في تاريخها ، تحسُّ فيها مدفوعةً بأسباب معقولة ، الى اقامة رجل عظيم على رأسها . ولما كان وجود هذه الازمات في تاريخ الامم ، لا يحتاج الى دليل ، فعلينا ان نوجه الى أنفسنا الاسئلة التالية :— هل تستطيع الشعوب في احوال من هذا القبيل ان تجد الرجل العظيم ؟ هل ثمة عقول ونفوس ، متصفة بصفات تجعلها متفوقة على سواد الشعب ، حتى لتسلّم الجماهير بالخضوع لسلطتها المطلقة ؟ واذا كان وجود رجال من هذا القبيل مستطاعاً فما هي المزايا التي تعدّهم للدكتاتورية . ولنا على ذلك ثلاث ملاحظات اولية :

اولاً — ان عظمة الرجال كائنة ما كانت ، لتعجز عن الظهور اذا لم تسعفها الاحوال . وليس علينا الآن ان نفحص قائمة الرجال الذين حكموا بلدانهم حكماً مطلقاً ثم نسأل كيف ظفروا بالقبض على أعنّة السلطان

لدينا في المقام الاول اولئك الذين ولدوا امراء او ملوكاً فتمكنوا تدريجاً من تحويل سلطتهم الموروثة الى سلطة مطلقة . ولعلّ أفضل مثل على ذلك الملك لويس الرابع عشر . كان ابن ملكٍ ضعيف ذلك ان الملك لويس الثالث عشر كان اضعف شأناً من رئيس الولايات المتحدة ورئيس الوزارة البريطانية ! اما لويس الرابع عشر فلم يلبث ، وهو أذكى عقلاً وامضى ارادة من ابيهِ ، حتى أصبح دكتاتوراً متوّجاً . ولكنهُ ما كان يستطيع تحقيق ذلك ، لو لم يكن ابن ملكٍ

ثم هناك رجال احرزوا ظفراً حربيًّا باهراً ، في فترة عصيبة من تاريخ بلادهم ، ثم أثبتوا مقدرة ادارية فتمكنوا من الاحتفاظ بسلطانهم الذي احرزوه في ميدان الحرب . والقائد المظفَّر ، الذي تحوّل دكتاتوراً ليس بالنادر في التاريخ . فنبوليون وقيصر أشهر الامثلة على ذلك . وفي العصر الحديث نجد بلسودسكي في بولونيا ، ومصطفى كمال في تركيا . فمصطفى كمال في نظر الاتراك رئيس الدولة ، لانهُ القائد المظفَّر — الغازي — وفي عهد الدمقراطية الاثينية ، كان الظفر الحربي عاملاً من أقوى العوامل في قيام دكتاتور وسقوط آخر . ذلك انهُ اذا تطرّق الخوف والجزع الى نفس الشعب ، استطاع الرجل الذي ينقذهم ويعيد الى نفوسهم طمأنينتها ، ان يحتفظ بهيبتهِ ومقامهِ زمناً طويلاً . ومنذ ما نشأت الامبراطوريات الاستعمارية رأينا قيام حكّام كبارٍ في المستعمرات ، يعود قيامهم لشهرتهم الحربية . فالمرشال ليوتي ، الذي كان اسمياً ممثل الجمهورية الفرنسية وخادمها ، كان في الواقع مدى سنوات ، الحاكم المطلق في مرّاكش ، وكان لهُ من الاثر في تنظيم البلاد ، اكثر من اي دكتاتور وطني . وما يقال عن ليوتي ، يقال كذلك عن بعض الحكام البريطانيين الاستعماريين

واخيراً يبلغ بعض الرجال الى مقام السلطان المطلق ، لانهم استطاعوا في ازمة نفسية من ازمات شعوبهم ، ان يتصرفوا ، كممثلين لرغبات الشعب وعقائده ، واقصد بذلك ان نجاحهم لا يعود في الغالب ، الى قيمة آرائهم الذاتية بقدر ما يعود الى ظهورهم في الوقت الذي يحتاج فيه الشعب الى من يرشده وينطق بلسانهِ . هؤلاءِ الحكام ، يكونون في الغالب ثوّاراً ، اذا كانت آلام الامة التي يعربون عن شعورها ، ناشئة عن فساد الطبقات الحاكمة وانحطاطها . كذلك نودي بالرفيق لنين منقذاً لأمتهِ من حكومة القيصر ، وكذلك كان كرمويل الدكتاتور الديني الذي كنى ما يجول في صدور الشعب الانكليزي حينئذٍ من نزعة بورتانية . ولكن اذا خدعت الامة واصيبت بثوّار قوّالين فقد يكون الدكتاتور من الطراز الارستقراطي . فموسوليني افلح في زحفهِ على روما لانّ الشيوعيين حاولوا ان يحكموا ايطاليا بعيد الحرب بالارهاب . واستقبل نبوليون استقبالاً عظيماً ، لان الدير كتوار كانت قد اثبتت عجزها خلال السنوات العشر السابقة ، فتاق الشعب الى حكومة مستقرة . لا ريب ان نبوليون من العباقرة ، ولكنهُ لو انه حاول القبض على أعنة السلطة سنة ١٧٩٠ لما كان الشعب لا يزال عاجزاً عن ادراك نتائج الثورة ، لباءَ بالخيبة . ذلك ان الدكتاتورية تقوم على ركنين هما الاحوال المواتية وصفات الدكتاتور نفسهِ

ثانياً — لا بدَّ للدكتاتور من قوة يستعملها للبطش . فهو لا يستطيع الاحتفاظ بالسلطان اذا قاومهُ الجيش . ففي الثورتين الفرنسية (اواخر القرن الثامن عشر) والروسية (سنة ١٩١٧) انتقلت سلطة الجيش الى صفوف الشعب . وموسوليني فاز بتأييد المليشيا الفاشستية التي نظمها ، والجيش الايطالي الذي احفظهُ ما كان قد وُجّه اليهِ من عبارات التنديد والتقريع . ومصطفى كمال استطاع ان يحقق أعجب الاصلاحات الاجتماعية لان جنوده كانوا منبثّين في كل مكان . اذا صحَّ هذا فهل يتعذّر قيام دكتاتورية تستند الى قوة معنوية متفوقة ؟ من الصعب الردُّ على هذا السؤال . اذ لا بدَّ للرجل من خصوم بلغ ما بلغ من مراتب الكمال . فزعماء الاحزاب القديمة يتصدَّون لهُ والمتطلعون الى مناصب الحكم يناوئونهُ . فقد يعتمد على قوة العامة بعد تحوّلها الى قوة مسلّحة . ولكن لا بدَّ لهُ على اي حال ، من ان يكون قادراً على قيادة الفرق المسلّحة . وتذكُّر هذه الحقيقة لهُ شأن خطير ، لانهُ يدلّنا على ان مسألة الرجل العظيم تحتجب وراء اعتبارات منوّعة في بحث صفات الدكتاتور . فالدكتاتور يجب ان يتصف قبل كل شيءٍ ، بمقدرتهِ على خلق القوة المسلّحة وقيادتها . وهذا الشرط يزيل من قائمة الدكتاتورين معظم الرجال العظام ، فافلاطون ودانتي ونيوتن وجوته كانوا بلا شك اعظم عبقريةً من نبوليون بيد ان نبوليون كان يستطيع ان يقود الجيوش ، وكذلك كان سلاّ وقيصر من قبلهِ .

ثالثاً — الاخصائي العظيم ليس بالرجل العظيم ، وكثيراً ما نخلط بين الاثنين في حديثنا اليومي . فنقول مثلاً ان لامارتين وشاتوبريان ، كانا رجلين عظيمين . ولكن الاصح ان نقول انهما كانا كاتبين عظيمين . وبين القولين فرق شاسع . وقد ثبت ذلك لما حاول الجمهور ان يجعلهما رجلين من رجال السياسة . فقد كانا متصفين بأرفع الصفات العقلية ، ولكنهما اخفقا لانهما لم يخلقا للقيادة . ومن المتعذر ان نتصور اناتول فرانس او اينشتين او السر جوزف طمسن ، رئيساً لدولة . حتى الذين كتبوا في السياسة من الجهة النظرية ، اخفقوا في ميدان السياسة العملية ، مثل مكياڤلّي ورتز . فلما اتجه الفكر في خلال الحرب ، الى اقامة رجال المال العظام على منصة الدكتاتورية باؤا بالاخفاق . والجندي في الغالب رجل تعوَّد ، النظام ، لذلك يحسُّ قلقاً ان لم يكن فوقهُ ضابط اعلى منهُ او حكومة ، تصدر اليهِ الأوامر . فاذا وجّه الى غرض معين فالراجح انهُ يبلغهُ ، ولكن لا يهمّهُ ان يختار الغرض نفسهُ . خذ مثلاً على ذلك المارشال فوش . فقد كان يجزع من السياسة وقد احسن هندنبرج في رآسة الريخ ، لان نفسهُ ليست نفس دكتاتور . بيد ان الرجل العظيم من طراز نبوليون الذي يجمع بين قيادة الجيش ورآسة الحكومة يختلف عن الاخصائي . فلنحاول ان نجلو الصفات التي ميّزتهُ عن سائر الرجال

الصفة الاولى التي يجب ان يتصف بها الدكتاتور هي صفة الارادة القوية . وهي من اندر الصفات . فالرجال الذين يتصفون بقوة العقل كثرٌ ، ولكن المتصفين بقوة الخلق نوادر . اذ ما الفائدة من ان

تعرف ما يجب ان تفعل اذا كنت لا تملك الجرأة على تنفيذه. فاذا حاول رجل ضعيف الخلق القيام بابسط الاصلاحات واكثرها توقعاً، مُني بالخيبة. ذلك ان الانسانية كتلة جامدة في مجموعها. فاذا شئت ان تكهربها لحملها على الحركة، وجب تسليط الارادة الدائمة عليها، والتذرّع بالعزم لتذليل جميع العقبات وتخطيها. فالرجل المتصف بالخلق القوي، يفوز في النهاية بكل ما يريد. ولو ان مؤرخاً تنبأ من ١٥ سنة بان رجلاً في تركيا يحدث فيها من الانقلاب الاجتماعي والاداري ما احدثهُ مصطفى كمال لوصف بالحمق، ولكن مصطفى كمال حقّق كلّ هذا لان ارادتهُ كانت لا تعرف الرحمة، ولان الاتراك ادركوا انهُ لا يحجم عن هدم كل حائل في سبيل تحقيق اغراضه. والناس في الغالب، يغتبطون بمظاهر الارادة القوية، وقلما يحجمون عن شيءٍ اذا احسّوا ان زعيمهم يحسن قيادتهم

والعقل يلي الارادة. وعقل الدكتاتور يجب ان يكون بسيطاً قادراً على ادراك المشكلات الكبيرة اذ تَعرُض لهُ. فاذا كان عقله دقيقاً يميل الى حلّ المسائل الى اوليّاتها، فقد يرى العقبات التي تعترض سبيلهُ جليةً وهذا يشلُّ ارادتهُ. وتفصيلات كل خطّةٍ يرسمها الرجل العظيم معرّضة للنقد. بيد ان العقل الذي تشغلُهُ الدقّة، تقهرهُ التفصيلات. فالزعيم العظيم لا يرى التفصيلات. ولا هو اخصائيٌّ في موضوع ما. يهتمّ بكل مسألةٍ ولكن اهتمامهُ متجهٌ الى ارشاد الجهد الذي ينفق في تلك المسألة. يحيط بهِ الاخصائيون وهم الذين يعنون بالتفصيلات. قيل انهُ لما سأل احد الوزراء المارشال ليوتي عن المدافع قال عندي رجالي الفنيّون. فسئل وماذا تفعل. فاجاب: انا؟ انا الرجل الفنيُّ المختص بالآراءِ العامة

غير ان الدكتاتور لا يستطيع ان يحرّر نفسهُ من الاستعباد للتفصيلات الاّ على شرط واحد. يجب ان يثق ثقةً عظيمة بمساعديهِ واعوانهِ. واذاً يجب ان يكون قادراً ان يحيط نفسهِ بجماعة من المؤيدين تتصف بالامانة والجدارة. فليس في التاريخ رجل عظيم من الرجال الفعّالين، الاّ عرف كيف يختار معاونيهِ، رجالاً يخلصون لهُ ولآرائهِ ولا يخونون. فالارادة والمقدرة على اختيار الزملاءِ هما الصفتان الاساسيتان في خلق الدكتاتور. والثانية تنطوي على صفات عجيبة، مثل فهم الرجال وسبر غورهم بلمحة شاردة، والعطف الذي يجذب الناس اليهِ ويحببهُ اليهم، وسعة الصدر التي لا تسفُّ الى الحسد، وتسرع الى جزاءِ المحسن على احسانهِ. وكما افلح نبوليون في بث روح الاخلاص في قوّادهِ، كذلك اخضع ليوتي مراكش بمساعدة ضبّاطهِ. وموسوليني مدين، باستقرار نظامهِ الى نشاطهِ في ضمّ من يتوسم فيهِ الكفاءة الى بطانتهِ

اذا اجتمعت هذه الصفات في رجلٍ فقد يجعلهُ اجتماعها فيهِ رجلاً عظيماً. ولكنهُ قد لا يكون رجلاً فعّالاً. اذ يلزم ان يكون الرجل الموهوب هذه الهبات العالية، قادراً على تطبيقها تطبيقاً فعّالاً. يجب ان تحرّكهُ شهوة السلطان. فالعمل في حياة الدكتاتور كالآية في حياة الفنّان أبداً يتجه الى خلقها

شمشون

لالياس ابو شبكة

ليس شمشون ، بطل هذه القصيدة ، ببطل التوراة ، نذير الله من بطن امه ، قاتل الف فلسطيني بلحى حمار والمدفون في ضريح ، منوح أبيه بين صرعة واشتأول ، فشمشون ، بطل هذه القصيدة ، هو الشاعر الجبار والقاضي الانساني الثائر الذي ينغمس في حمأة الحياة كما ينغمس فيها سائر المائتين الاّ انهُ يخرج من الرذيلة فضيلة كما اخرج شمشون التوراة عسلاً من رمّة السبع . إن شمشون ، بطل هذه القصيدة هو الشاعر الجبار الذي تتغلب عليه حيل العالم الشرير فتقص جناحيه وتفقأ عينيه الاّ ان جناحيه في روحه وعينيه في قلبه وليست قوة شمشون هذا في شعره بل في شعوره ، وبهذا الشعور القوي يقوّض دعائم الزور والضغينة والبهتان ويهدم هيكل الرياء المقنع بالارجوان »

ملّقيهِ بحسنك المأجور ... وادفعيه للانتقام الكبيرِ
إن في الحسن ، يا دليلة ، أفعى ... كم سمعنا فحيحها في سريرِ
أسكرت خُدعة الجمال هرَقلا ... قبل شمشون بالهوى الشريرِ
والبصيرُ البصيرُ يخدع بالحسن ... وينقاد كالضرير الضريرِ
ملّقيه فالليل سكران واهٍ ... يتلوّى في خدره المسحورِ
ونسور الكهوف اوهنها الحبُّ ... فهانت عليهِ كالشحرورِ
وعنا الليث للبوءة كالظبي ... فما فيه شهوة للزئيرِ

***

شَبِقَ الليث ليلة فتنزّى ... ثائراً في عرينه المهجور
تقطر الجمّة المسعّرة الشهّاء ... منهُ كأنه في هجير
يضرب الارض بالبراثن غضبانَ ... فيُصدي القنوطُ في الديجور
ووميض اللظى يغلّف عينيه ... فعيناه فوهتا تنّور
ونزا من عرينه تتشظّى ... حُمَمٌ من لظاه في الزمهرير

واللهاث المحموم من رئتيه يشعل الغاب في الدجى المقرور
فسرى الذعر في الذئاب ففرّت وترامى الى عشاش النسور
وإذا لبوة مخدرة الحسن تردّت من كهفها المخدور
تنضح اللذة الشهية منها : خمرة من جمالها المأثور
فتنثّ العبير في مخدع الليل فتشهى حتى عروق الصخور
فتلاشى اللهيب في سيد الغاب امير المغاور المنصور
والعظيم العظيم تضعفه أنثى فينقاد كالحقير الحقير
ملّقيه ففي أشعة عينيك صباحُ الهوى وليلُ القبور
وعلى ثغرك الجميل ثمارٌ حجبت شهوة الردى في العصير
ملّقيه فبين نهديك غامت هوّة الموت في الفراش الوثير
هوّةٌ أطلعت جهنم منها شهواتٍ تفجرت في الصدور
ملّقيه ففي ملاغمك الحمرُ مساحيق معدنٍ مصهور
يسرُب السمّ من شفافتها الحرّى الى ملمس الردى في الثغور

***

خيّم الليل ، يا دليلة ، في الغابِ واغنى حتى الشذى في الزهور
فانشقي فورة الحرارة من جسمي وغذّي قواك من اكسيري
أنتِ حسناء مثل حية عدْنٍ ، كورود الشارون ذات العطور
وكغفر الوعل الوديع وأن كنتِ تناجين عقرباً في الضمير
لستِ زوجي بل أنتِ أنثى عُقاب شرسٍ في فؤادي المسعور
فاشتهي كلّ ليلةٍ مخلبي الدامي على خزّ جسمك المخمور

***

وأتى الصبح ضاحك الوجه يرغي زَبَدُ النور في ضحاه الغرير
أين شمشون يا صحاري يهوذا ؟ أين حامي ضعيفك المستجير ؟
أين قاضيك ، دافع الضيم ، طاغي المستبدين ، صائن الدستور ؟
أعورت شهوةٌ من الحب عينيهِ وكم اعور الهوى من بصير
إن قاضي المستعبدين لعبدٌ وقضاةٌ عورٌ قضاةُ العور

***

حفلت قاعة العقاب بجمعٍ من سراة المسوّدين غفير

هم رموز الشقاق والفتن الحمراء   والغدر والزنى والغرورِ

أقبلوا يشهدون مصرع شمشون   على لذة الطلا والزمورِ

بؤرة تعبق القذارة منها   سُتِّرت بالشفوفِ والبرفيرِ

أيدين الخاطي جناة صعاليك   ويقضي الفجورُ ذنبَ الفجور ؟

وسرت خمرة الوليمة في الحفل   لتقديس ساعة التكفيرِ

وكأنَّ النسيمَ شُوِّق للخمرة   فانسلَّ من شقوق الخدورِ

ولنقر الدفوف صوت غريب   يتحدَّى صوتَ العقاب الاخيرِ

واذا قينةٌ تخالجها السكرُ   على مشهدٍ من الجمهورِ

فتثنَّت تضاجع الجوَّ نشوى   من تلوِّي قوامها المحرورِ

رقصةُ الموت يا دليلة ، هذي   أم تراها اختلاجة في الخمورِ ؟

وصغا الجمعُ للاسير يناديه   بشتى مطاعنِ التحقيرِ

«هيه شمشون، أيها الفاجر الزنديق   يا عبد يهوهَ المقهورِ»

« أحكيم من العتاةِ تذرَّى   شعرهُ قينة ، من الماخورِ ؟ »

فتلوَّى شمشون في القيد حتى   حلَّ فيه روح الاله القديرِ

فنزا ، نزوة الوميض ، من الغلِّ   ودوَّى كنافخٍ في صورِ

بدِّدي ، يا زوابع النار اعداءَ   الهي ، ويا جهنم ثوري

وتنفس يا موقد الثأر، في صدري   وأغرق نسل الريا في سعيري

وامصصي يا دليلة الخبثِ، من قلبي   فكم مرةٍ مصصتِ قشوري

وارقصي ، انما البرا كينُ تغلي   تحت رجليك كالجحيم النذيرِ

وتغني بمصرعي فكثيراً   ما سمعتُ الفحيح في المزمور !

اصبح الليث في يديك اسيراً   فاطرحيه سخرية للحميرِ

واجعلي الغلَّ رمز كل صريحٍ   واليواقيت رمزَ كلِّ غدورِ

إن أكن سقتُ في غرامك شرًّا   فالبرايا مطيةٌ للشرور

غير أني أجني من الجيَفِ الجرداءِ   — مهما قذرتُ — شهد قفيرِ

هيكل الاثم لم أبح لكَ ذلِّي   شبحَ الرقِّ لم أُسلِّمك نيري

فاسقطي يا دعائم الكذبِ الجاني   وكوني اسطورةً للدهورِ

محقَ اللهُ فيَّ شرَّ ظلامي   فلتضئْ في الحياةِ حكمةُ نوري

ان تكن جزَّت الخيانة شعري   في ضلالي فقوتي في شعوري

الحضارة الفرعونية

وتأثرها بالزراعة

للدكتور حسن كمال

لنهر النيل تأثير كبير في تاريخ الحضارة الفرعونية . فضرورة المحافظة على مجراه واستعمال مياهه علمت المصريين هندسة الانهر وما يتبعها من مساحة الاراضي . ولما تفقدوا السماء وجدوا في حركات نجومها واسطة للاستدلال بها على ميعاد فيضان ذلك النهر العظيم . ومن ثمَّ بدأ اهتمامهم بالفلك واتسعت دراستهم له . ولما كان الفيضان اذا طغى على الاراضي محا معالم الحقول تفنن القوم في ابداع المقاييس ومعرفة المساحة . ولما زاد اهتمامهم بالفلاحة اقنع الفراعنة رعاياهم بأن المحافظة على الحدود والاملاك الشخصية امر مقدس تجب مراعاته ويتحتم احترامه . وهذه العوامل بالذات احدثت نفس النتائج في بلاد بابل . وبديهي ان كل زوال للفيضان كانت تعقبه مشاحنات ومضاربات ، ومن هنا نشأت ضرورة سن القوانين وتوقيع العقوبات . وهكذا أجبر النيل سكان واديه أن يضعوا لانفسهم أسس الحضارة الاجتماعية والقوانين والنظم السياسية

ثم بدأ القوم يشيدون العمارات الضخمة لدور الحكومة او التعبد فعمدوا الى النيل لينقلوا بواسطته تلك الكتل الضخمة التي شادوا بها آثارهم الباذخة . وبهذه الطريقة وحدها تمكنوا من تشييد الاهرام ونقل الجرانيت من اصوان الى أنحاء القطر مثل منف وتنيس الواقعة بالقرب من البحر الابيض المتوسط . وهكذا أصبح النيل الشريان الرئيسي للتجارة الداخلية . ومن ثمَّ برع قدماء المصريين منذ أقدم العصور في صناعة السفن فابتكروا المجاذيف والقلاع و « القمرات » وغير ذلك من وسائل الراحة في السفر

ومساحة الاراضي وكَيْل المحاصيل وتوزيعها اضطرتهم لمعرفة اصول الحساب من جمع وطرح وضرب وقسمة . كذلك فن المعمار أجبرهم على معرفة الهندسة الفراغية . والى النيل أيضاً وتطوراته الطبيعية يرجع الفضل في معرفة المصريين لطريقة قياس الزمن . فقد تنبهوا في القرن الثالث والاربعين قبل الميلاد الى ان السنة الشمسية تتكوَّن من ٣٦٥ يوماً . ويعتبر هذا الاكتشاف الميقاتي واستعماله في الشؤون الدنيوية (وأهمها الزراعة وقتئذٍ) خطوة كبيرة نحو الرقي وشرفاً عظيماً للوطن الذى اكتشف

فيهِ . وقسّم المصريون سنتهم الى اثني عشر شهراً وجزّأوا كل شهر ثلاثين يوماً حفظاً للنظام وتسهيلاً للمداولات . وهكذا أثبت سكان وادي النيل ان التوقيت شيء عرفي يصطلح عليه القوم

وللزراعة فضل كبير في ابتكار الكتابة لان هذا الخط مكوّن من عدة رسوم لنباتات وحيوانات وأشخاص وادوات زراعية ومنزلية وحربية وخلافها . فهو والحالة هذه دليل مادي على احوال القوم وقت استعماله من حيث الزراعة والصناعة وهو الموضوع الذي نحن بصدده الآن . لذا وجب التنويه عن تاريخ هذا الخط باختصار . ولا يخفى ان قدماء المصريين استعملوا الكتابة منذ نحو خمسة آلاف سنة . وان كتّاب الاسرة الخامسة الذين أتوا بعد ذلك بألف سنة دوّنوا طائفة كبيرة من أسماء ملوك الوجه البحري وبعض ملوك الوجه القبلي من الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل حكم الاسر كما نسخوا أيضاً عدة نصوص دينية من كتاب الموتى يرجح انها نقلت سابقاً مراراً ومن هذه النصوص استنتجنا معلومات كثيرة عن حياتهم الزراعية وقتئذٍ . والخط الهيروغليفي الذي استعمل في الوجه البحري لاجراءات الملك والحكومة والخزانة لم يكتشف فجأة وقت اعتلاء الملك (مينا) العرش المصري بل كان مستعملاً قبل ذلك بمدة طويلة . ودليلنا على هذا ان الخط الهيراطيقي كان مستعملاً في مبدأ الاسرة الاولى وهو كما لا يخفى اختزال للخط الهيروغليفي . فلا بدَّ اذن ان يكون هذا الاخير قد استعمل قبل عهد الاسر بزمن طويل . لكن لم تصل الينا معلومات تاريخية عن مآثر ملوك الوجه البحري والقبلي الذين يرجع تاريخهم الى ما قبل القرن الرابع والثلاثين قبل الميلاد

﴿ تأصل الزراعة في الديانة المصرية القديمة ﴾ وقد استدلَّ من بساطة هيئة الآلهة المصرية ورموزها ان المعيشة في عهد الاسر الاولى كانت بسيطة أيضاً . فمن هذه الآلهة من يمثّل قابضاً على عصا كالتي يستعملها بدو الصحارى أو على نوع من الغاب (القصب). وتزين رسومها احياناً بالغاب أو ريش النعام أو قرون الاغنام . ولما اعتبر المصريون حيواناتهم المحيطة بهم رموزاً للآلهة احترموها وثابروا على ذلك حتى في أرقى العصور مدنية وحضارة . وليلاحظ ان هذه الحيوانات لم تعبد كالآلهة الاَّ في آخر التاريخ المصري لمـَّا دخل القطر في دور انحطاطه . فلم تكن عبادة الحيوانات معروفة في العصر الاول (الاسر الاولى) وغاية ما في الامر ان المصريين اعتبروا وقتئذٍ بعض الحيوانات كالنسر رمزاً لمعبوداتهم كالشمس مثلاً . ومن ثمَّ اعتبر القوم هذا الحيوان كثيراً واكرموا مثواهُ في المعابد لكنهم لم يعبدوه ولم يقدموا له قرابين كما حدث في الازمنة التالية

ثم ازداد المصري تخيلاً لصورة الحياة الاخروية فتوهم في الجهة الشمالية الشرقية في السماء حقولاً يانعة خُضراً سماها « حقول يارو » او حقول الخيرات كثيرة العدس قمحها اطول من قمح النيل عميمة الرخاء والطمأنينة والسلام والسكون ينال فيها كل فرد نصيبه مما يقدم لمعبوده في الدنيا من خبز وجعة وملبس علاوة على ما ذكر. ثم استصعبوا الطريق الى حقول الخيرات هذه فتخيلوها يحيط بها الماء . لذلك ابتكروا طرقاً مختلفة للوصول اليها . فكان بعضهم يناجي النسر او الطائر ابي منجل

(إيبس) ليحمله فوق طرف جناحه الى تلك الحقول . وربما البعض الآخر اولاد المعبود (حوريس) الاربعة ليحضروا له قارباً يستعين بهِ على عبور المياه . وتوسل فريق ثالث بالمعبود (رع) لينقله في سفينته الى تلك الجهة . هكذا تشعبت عقائد المصريين في فهم الآخرة لكنها لم تتجاوز شؤون معيشتهم الزراعية

ومما يدلك على شدة تأثر القوم في عبادتهم بأحوالهم الزراعية انشودة « الشمس » التي وضعها الملك اخناطون والتي كانت تتلى في المعابد للتوسل بها في خلوة المعبود(آتون)— اي قرص الشمس— وسنذكرها هنا للقارىء لاشتمالها على كثير من الاحوال الزراعية . وقد جعل الاثريون لاجزاء هذه الانشودة كما ترى عناوين تتمشى مع معانيها وقابلوها في الوقت نفسهِ بما جاء في المزمور الرابع والمائة موضحين بذلك الشبه بين الاثنين من حيث الآراء وتسلسل المعاني

النهار والحيوان والنبات

البهائم كلها مستريحة في مراعيها . والاشجار والنباتات جميعها يانعة . والعصافير ترفرف فوق المياه ناشرة أجنحتها ابتهالاً اليك . والاغنام ترقص على ارجلها . والطيور تحلق في الجو تتنسم الحياة اذا ما اشرقت عليها

النهار والمياه

تسير السفن مع التيار وعلى عكسه
وكل طريق عمومي يصبح مسلوكاً
لانك ظهرت في الافق . اما السمك فيقفز
امامك في النهر هكذا تخترق اشعتك البحر الخضم

هذا البحر الكبير الواسع الاطراف
هناك دبابات بلا عدد . صغار حيوان مع كبار
هناك تجري السفن . لوياثا من هذا
خلقته ليلعب فيه (مزمور ١٠٤ آية ٢٥ـ٢٦)

خلق الانسان

انت خالق الجنين في امهِ . أنت خالق نطفة الانسان . انت واهب الحياة للجنين في رحم امهِ . وملطفه حتى لا يتكدر ويبكي . كيف لا وأنت المربي في الرحم . انت معطي نفس الحياة لكل مخلوقاتك . . . . انت فاتح فم الجنين بالكلام ومعطيه حاجاته يوم تلده امه

خلق الحيوان

انت الذي تهب الحياة للفرخ في البيضة فيصيح . فاذا اتممت خلقه ثقب بيضته وخرج منها صائحاً جهده واثباً بقدميه

الخلق عموماً

ما اكثر مخلوقاتك التي نجهلها . انت الآله الاحد . لا شريك لك في الملك . خلقت الارض بارادتك . ولما كنت وحيداً في هذا الكون خلقت الانسان والحيوان الكبير والصغير والمخلوقات التي تدب على الارض او تطير بأجنحتها انت الذي احللت كل انسان في سورية والنوبة ومصر في موضعه وأنعمت عليه بحاجاته فصار كل منهم يأخذ نصيبه ويعيش ايامه المعدودة . لقد اختلفت ألسنتهم وأجسامهم فسبحانك من مميز لخلقك

ما اعظم اعمالك يا رب . كلها بحكمة صنعت . ملآنة الارض من غناك (مزمور ١٠٤ آية ٢٤)

ري الاراضي

انت خالق النيل في الدار الآخرة . انت اوجدته برغبتك فيه لتحافظ على حياة الاهالي . انت سيد الجميع لانهم ضعاف . انت سيد كل اسرة لانك تشرق لاجلها . انت شمس النهار المهيب في الاراضي السحيقة كلها والواهب لها الحياة . خلقت لهم نيلاً في السماء ليسقط عليهم ماؤه فيسيل على الجبال كالبحر الزاخر يروي غيطانهم بين مدنهم . ما ابدع اعمالك ايها السيد الازلي ! فنيل السماء مخصص للغرباء وللدواب من كل البلاد . والنيل الذي يأتي مصر خاصة يأتيها من الدار الآخرة . اشعتك تغذي الجنان . فاذا ما اشرقت اينعت وأنبتت بتأثيرك

الفصول

جعلت الفصول لتخلق فيها جميع مخلوقاتك . فالشتاء يعطيهم البرودة . والصيف يهبهم الحرارة انت الذي رفعت السماء عالياً لتنظر ما خلقت في وحدتك شارقاً حيًّا كآتون ساطعاً متلألئاً ثم راجعاً ثانية الى حيث ابتدأت

* * *

وتغلغلت الزراعة في الديانة المصرية القديمة حتى اكتسحتها تقريباً فأضحى القوم يمثلون النعيم الاخروي او الجنة بالنعيم الزراعي او الفلاحة وكثر هذا التمثيل في المقابر والادراج البردية بشتى الصور ومختلف العبارات . وسنضرب للقارىء مثلاً درج الكاهن (آنى) فقد ورد في اللوحة الخامسة والثلاثين رسم الآخرة ويتكوّن من اربعة اسطر السطر الاول وفيه الكاهن (آنى) يقدم القرابين لمعبود له رأس الارنب وآخر رأس الثعبان وثالث له رأس الثور وخلفه يلاحظ المعبود (تحوت) قابضاً على اللوح والقلم . بعد ذلك يرى (آنى) راكباً سفينة صغيرة يدفعها الى الامام بواسطة مجذاف . ثم السطر الثاني فيه (آنى) وهو يخاطب الطير المعروف بالباشق والموضوع امامه مائدة القرابين ويشاهد بالقرب من ذلك رسمٌ لشخص مقدس وثلاث بحيرات ونقوش هذه ترجمتها : « المعيشة في سلام في حقل السلام واستنشاق الهواء في الانوف » . بعد ذلك يشاهد الكاهن (آنى)

يحصد القمح ثم يدرسه بواسطة ثيران ثم يرى يبجّل الطائر المقدس (بنّـو) . وبالقرب من ذلك تشاهَد كومة من القمح الاحمر واخرى من القمح الابيض وثلاث بحيرات وغير ذلك

بعد ذلك يأتي السطر الثالث من الرسم ويتلخص في طريقة الحرث بالقرب من غدير ماء لايحوي سمكاً ولا ثعابين . ثم السطر الرابع وتتلخص رسومه في مولد المعبود وفي جزيرة صغيرة عليها بعض درجات سلم ثم محل يقال (جوس) ينبت فيهِ القمح الى ان يبلغ طوله ثلاثة اذرع ثم مناظر لسفن وانهار وغير ذلك . (راجع ترجمة كتاب الموتى للاستاذ بدج ص ٣٢٢)

وتأثرت الفنون الجميلة عند قدماء المصريين بالزراعة بشكل واضح جليّ . ويشاهد ذلك على الاخص في النقوش الملوّنة التي استعملت كثيراً منذ عهد المملكة القديمة . من ذلك رسم سرب الاوز بمقبرة بميدوم تتجسم فيهِ براعة المصور المنفي وطول باعه . فقد اتقن الرسّام انعطاف رأس هذا الطائر وبطء حركته وانثناء عنقه وقت التقاطه دود الارض بشكلٍ يقرب جدًّا من الطبيعة . ولاشك في ان مثل هذا الرسم يشهد لصانعه بالقدرة وعظم الاعتماد على النفس وكثرة التمرن في هذا الفن الجميل

اما الاعمدة فصنعت على اشكال كثيرة منها ما يشابه النخيل وآخر يمثل طاقة البردي وثالث على شكل طاقة اللوطس . وساحة امنحوتب الثالث بمعبد الاقصر تحوي عمداً على شكل باقات براعم البردي وعمد صحن المعبد المذكور مصنوعة على شكل سيقان البردي المنتهية بزهرته اليانعة . وساحة الكرنك العظمى تحوي عمداً على هيئة زهرة البردي المفتوحة ايضاً

وهناك امثلة كثيرة اخرى للفنون الجميلة وعلاقتها بالزراعــة . فمنذ الاسر الاولى يجد الباحث ارجلاً لكراسي مصنوعة من العاج المنحوت على شكل ارجل الحيوان . ثم صاغ القوم اكاليلهم على شكل الازهار الزاهية اليانعة كما هو مشاهد في اكاليل دهشور الذهبية التي بدار تحف القاهرة

وفوق هذا وذاك فقد كانت حكومة القطر مصبوغة دائماً بالصبغة الزراعية من حيث النبات او الحيوان . فملوك مصر كانوا يلقبون منذ اقدم الامر بلقب «حوريس» نسبة الى ما ورثوه عن هذا المعبود في عرش مصر . وقد رسم الباز (رمز حوريس) فوق الآثار الملكية فوق شكل مستطيل يمثل باب القبر الوهمي (الذي تخرج وتدخل منهُ الروح) وبداخله اسم الملك الرسمي . اما اسم الملك الشخصي فيكتب مسبوقاً برسم الزنبور (رمز الوجه البحري) وفرع البردي (رمز الوجه القبلي) اشارة الى ان هذين القطرين قد خضعا له . ويصحب هذه الرموز غالباً رمزان آخران هما العقاب (وهو رمز نخبت معبودة الكاب عاصمة الوجه القبلي) والصلّ (رمز بوتو معبودة مدينة بوتو عاصمة الوجه البحري) . ويشاهد الباز على رؤوس التماثيل لملوك تلك الازمنة مرفرفاً بجناحيه ليحميهم من الاذى . ثم اخذت الملوك بمرور الزمن تضع فوق جباههم صِلاً (معبود المملكة البحرية) مشيرين بذلك الى بسط نفوذهم على الدلتا

البصريات عند العرب*

عبقرية ابن الهيثم

لقدري حافظ طوقان

البصريات من البحوث التي تشغل فراغاً كبيراً في علم الطبيعة (Physics) والتي لها اتصال وثيق بكثير من المكتشفات والمخترعات، ولا اكون مبالغاً اذا قلت انه لولا تقدم البصريات (الضوء) لما تقدم علما الفلك والطبيعة تقدمهما العجيب ولما كان في الامكان ان يحلق الانسان في سماء الاختراع والاكتشاف تحليقه الحاضر، وقد يكون هذا من جملة العوامل التي حملتني على البدء بعلم الضوء دون غيره من فروع علم الطبيعة المتعددة، والذي ارجوه ان يتمكن القارىء الكريم بعد مطالعة هذا المقال ان يقف على تطوّر هذا العلم الجليل وسيره عند العرب

يقول الدكتور ماكس ماير هوف «ان العرب قدموا خدمات حقيقية جليلة جدًّا لعلم البصريات الذي فيه تتجلى لنا عظمة الابتكار الاسلامي» . ولقد بقيت الكتب العربية في هذا العلم المنهل العام الذي نهل منه اكثر علماء القرون الوسطى كروجر باكن، وبووتيلو، وليوناردو ده فنشي، وكبار وغيرهم. وتعترف دائرة المعارف البريطانية بأن كتابات العرب في الضوء اوحت اختراع النظارات . ويقول سيديو «لما اشتغل العرب بالفلك التفتوا الى العلوم الرياضية فأتوا بالعجب العجاب في الهندسة والحساب والجبر وعلم الضوء والنظر والميكانيكا [1]» وقد ظهر في أوائل القرن الخامس للهجرة رجل له فضل كبير في تقدم بحث الضوء ولا يخلو كتاب يبحث في تاريخ علم الطبيعة من اسمه فهو في مقدمة الذين اضافوا اليه ويدعى الحسن بن الحسن ابن الهيثم ابو علي المهندس نزيل مصر «وكان عالماً بهذا الشأن (اي بعلم الهندسة) متقناً له متفنناً فيه قيماً بغوامضه ومعانيه مشاركاً في علوم الاوائل أخذ الناس عنه واستفادوا منه [2]» ويقول عنه ابن أبي أصيبعة «وكان فاضل النفس قوي الذكاء متقناً في العلوم لم يماثله احد من أهل زمانه في العلم الرياضي ولا يقرب منه وكان دائم الاشتغال كثير التصنيف وافر التزهد» [3] . وقد ازدهر هذا البحث في عصر التمدن الاسلامي ازدهاراً جعل الاستاذ محمداً نظيفاً في مقدمة كتابه النفيس «البصريات» [4] يقول : «والذي جعلني ابدأ بعلم

---

* فصل من كتاب « الطبيعة عند العرب » يعنى بوضعه الآن كاتب هذا المقال النفيس

(١) سيديو خلاصة تاريخ العرب ص ٢٢١ (٢) ابن القفطي اخبار العلماء ص ١١٤ (٣) ابن أبي أصيبعة طبقات الاطباء ج ٢ ص ٩٠ (٤) « البصريات » هو عنوان لكتاب قيم يبحث في علم الضوء وضعه محمد نظيف الاستاذ بمدرسة المعلمين العليا العلمية ويقع في اكثر من ٧٠٠ صفحة، لا يقل مادة وترتيباً وتبويباً عن أحسن الكتب الاوربية التي تتناول هذا الموضوع وهو الكتاب الوحيد في اللغة العربية الذي يجد فيه الباحث كتاباً يرتفع فوق مستوى المبادىء الاولية التي يدرسها طلبة مدارسنا الثانوية في الوقت الحاضر في علم كانت اللغة العربية لغته حتى عصر النهضة في اوربا

الضوء دون فروع علم الطبيعة الاخرى ان علماً ازدهر في عصر التمدن الاسلامي وكان من اعظم مؤسسيه شأناً ورفعة وأرآء الحسن بن الهيثم ، الذي كانت مؤلفاته ومباحثه المرجع المعتمد عند اهل اوربا حتى القرن السادس عشر . . . . » وفوق ذلك تقول دائرة المعارف البريطانية « ان ابن الهيثم كان اول مكتشف ظهر بعد بطليموس في علم البصريات » ويقول كتاب تراث الاسلام « ان علم المناظر وصل الى أعلى درجة من التقدم بفضل ابن الهيثم » واعترف العالم الافرنسي لويتر فياردو «بأن العلامة كبلر أخذ معلوماته في الضوء ولا سيما فيما يتعلق بانكسار الضوء في الجو بعد اطلاعه على ما ألفه ابن الهيثم وهو شهير بما الفه من الكتب في علم الضوء وما كتبه في الشفق» وكذلك اعترف سارطون بنبوغ ابن الهيثم وفضله فقال « ابن الهيثم اعظم عالم مسلم في علم الطبيعة واعظم علماء الطبيعة في القرون الوسطى ومن علماء البصريات القليلين المشهورين في العالم كله [١] » ، له كتاب في الضوء اسمه (المناظر) وهو من اهم الكتب التي ظهرت في القرون الوسطى ومن اكثر الكتب استيفاء لبحوث الضوء . وقبل ان نذكر بعض محتوياته يجدر بنا ان نعرف معنى (المناظر) عند علماء العرب الاقدمين . قال الانصاري : « علم المناظر علم يعرف منهُ احوال المبصرات في كميتها وكيفيتها باعتبار قربها وبعدها عن المناظر واختلاف اشكالها وأوضاعها وما يتوسط بين الناظر والمبصرات وعلل ذلك ، ومنفعتهُ معرفة ما يغلط فيه البصر من احوال المبصرات ويستعان به على مساحة الاجرام البعيدة والمرايا المحرقة ايضاً . . . » [٢] وقال الصفدي وعلم المناظر « علم ظريف للغاية ولابن الهيثم فيه كتاب جليل رأيته في سبع مجلدات ولشهاب الدين القرافي كراريس اودعها خمسين مسألة من المناظر سماها الاستبصار فيما تدركه الابصار . . » . ومن كتاب علم المناظر تبين ان ابن الهيثم هو الذي اضاف القسم الثاني من قانون الانعكاس القائل بأن زاويتي السقوط والانعكاس واقعتان في مستوى واحد . أما القسم الاول من هذا القانون (وقد وضعه اليونان فهو زاويتا السقوط والانعكاس متساويتان — وقد ادخل في كتابه هذا بعض المسائل المهمة عرف بعضها باسم « مسائل ابن الهيثم » فمثلاً اذا علم موضع نقطة مضيئة ووضع العين ، فكيف تجد على المرايا الكرية والاسطوانية والمخروطية النقطة التي تتجمع فيها الاشعة بعد انعكاسها . واشتهرت هذه المسألة كثيراً في اوربا نظراً الى الصعوبات الهندسية التي تنشأ عنها اذ ينشأ عن حلها معادلة من الدرجة الرابعة استطاع ان يحلها (ابن الهيثم) باستعمال القطع الزائد . وصنع مرآة مكونة من بعض حلقات كرية ولكل منها نصف قطر معلوم ومركز معلوم اختارها بحيث ان جميع الحلقات تعكس الاشعة الساقطة عليها في نقطة واحدة . وقاس كلاً من زاويتي السقوط والانكسار وبين ان بطلميوس كان مخطئاً في نظريته القائلة بأن النسبة بين زاوية السقوط وزاوية الانكسار ثابتة وقال بأن هذه النسبة لا تكون

(١) سارطون مقدمة لتاريخ العلم ج ١ ص ٦٩٨ — ٧٢١ (٢) شمس الدين الانصاري ارشاد القاصد ١٠٧ و ١٠٩

ثابتة بل تتغير [١] ولكنه مع ذلك لم يتوفق الى ايجاد القانون الحقيقي للانكسار [٢] واستعمل لقياس زاويتي الانكسار آلة تشبه الآلة المستعملة الآن في اصول تركيبها . وله جداول ادق من جداول بطلميوس في معاملات الانكسار لبعض المواد [٣] . وقد شرح ابن الهيثم في كتبه بعض الظواهر الجوية التي تنشأ عن الانكسار فكان اسبق العلماء الى ذلك ، ومن هذه الظواهر التي ذكرها وشرحها الانكسار الفلكي اي ان الضوء الذي يصل الينا من الاجرام السماوية يعاني انكساراً باختراقه الطبقة الهوائية المحيطة بالارض ومن ذلك ينتج انحراف في الاشعة ولا يخفى ما لهذا من شأنٍ في الرصد . فمثلاً يظهر النجم على الافق قبل ان يكون قد بلغه فعلاً وكذلك نرى الشمس او القمر على الافق عند الشروق والغروب وهما في الحقيقة يكونان تحته . ومن نتائج الانكسار ان قرص الشمس او قرص القمر لا يظهر بالقرب من الافق مستديراً بل بيضويًّا . هذه الظواهر وغيرها استطاع ابن الهيثم تعليلها تعليلاً صحيحاً واستطاع ايضاً الوقوف على اسبابها الحقيقية. ومن الحوادث الجوية التي علـلها الهالة التي ترى حول الشمس (او القمر) وقال بأن ذلك ينتج عن الانكسار حينما يكون في الهواء بلورات صغيرة من الثلج او الجليد فالنور الذي يمرُّ فيها ينكسر وينحرف مع زاوية معلومة وحينئذ يصل النور الى عين الرائي كأنه صادر من نقط حول القمر او الشمس فتظهر الاشعة في دائرة حول الجرمين المذكورين او حول احدها [٤] . وهو من الذين لم يأخذوا برأي اقليدس واتباع بطلميوس القائل بأن شعاع النور يخرج من العين الى الجسم المرئي بل أخذ برأي ديموقريطس وارسطوطاليس القائل بأن شعاع النور يأتي من الجسم المرئي الى العين [٥] وقد قال أيضاً بالرأي الاخير بعض علماء العرب المشهورين كابن سينا والبيروني [٦] . وبحث في كتابهِ ايضاً في قوى تكبير العدسات . وقد تكون كتاباتهِ هذه هي التي اوحت اختراع النظارات . وكتب في الزيغ الكرى وفي تعليل الشفق وقال انهُ يظهر ويختفي عند ما تهبط الشمس ١٩ درجة تحت الافق وان بعض اشعة النور الصادرة من الشمس تنعكس عما في الهواء من ذرات عائمة وترتد الينا فنرى بها ما انعكست عنهُ ، وبيـن ان الزيادة الظاهرة في قطري الشمس والقمر حينما يكونان قريبين من الافق وهمية [٨] وقد علل هذا الوهم تعليلاً علميًّا صحيحاً لم يسبق اليه [٧] فبناهُ على ان الانسان يحكم على كبر الجسم او صغرهِ بشيئين الاول الزاوية التي يبصر منها Angle of vision او زاوية الرؤية والثاني قرب الجسم او بعده من العين . والغريب ان البعض ينسب هذا التعليل الى بطلميوس ولم يدر ان بطلميوس قال ان الزيادة حقيقية اي انها غير وهمية وهو مناقض لقول ابن الهيثم

---

(١) سارطون — مقدمة لتاريخ العلم — ج ١ ص ٧٢١ (٢) كاجوري — تاريخ علم الفيزياء — ص ٢٢
(٣) دائرة المعارف البريطانية مادة Light (٤) قد يطول بنا المطال اذا اردنا ان نبحث في تعليل العرب لحوادث جوية اخرى كقوس قزح . وقد ارجأت ذلك لكتاب أعنى الآن بتأليفه يبحث في مآثر العرب في علم الطبيعة
(٥) كاجوري تاريخ علم الفيزياء ص ٢٢ (٦) كتاب تراث الاسلام Legacy of Islam ص ٣٣٥
(٧) كاجوري تاريخ علم الفيزياء — ص ٢٣ (٨) سارطون — مقدمة لتاريخ العلم — ج ١ ص ٧٢١

وابن الهيثم اول من كتب عن اقسام العين واول من رسمها بوضوح تام وقد اعتمد في بحوثه هذه على كتب التشريح التي كانت في زمانه ووضع اسماء لبعض اقسام العين واخذها عنهُ الافرنج وترجموها الى لغاتهم[١] فمن الاسماء التي وضعها « الشبكية Retina » و« القرنية Cornea » و« السائل الزجاجي Vitreous Humour » و« السائل المائي Aqueous Humour » وتقول دائرة المعارف البريطانية ان ابن الهيثم كتب في تشريح العين وفي وظيفة كل قسم منها وانهُ بيّـن كيف ننظر الى الاشياء بالعينين في آنٍ واحد وان الاشعة من النور تسير من الجسم المرئي الى العينين ومن ذلك تقع صورتان على الشبكية في محلين متماثلين بينما اليونان قالوا بان الاشعة تخرج من العينين الى الجسم المرئي . وفوق ذلك هو اول من بيّـن بان الصور التي تنشأ من وقوع صورة المرئي على شبكية العين تتكوّن بنفس الطريقة التي تتكوّن بها صورة جسم مرئي تمر اشعته الضوئية من ثقب في محل مظلم ثم تقع على سطح يقابل الثقب الذي دخل منهُ النور والسطح يقابله في العين الشبكية الشديدة الاحساس بالضوء فاذا ما وقع الضوء حدث تأثير انتقل الى المخ ومن ذلك تتكوّن صورة الجسم المرئي في الدماغ . وله ايضاً معرفة بخاصيات العدسات اللامّة والمفرّقة والمرايا في تكوين الصور[٢]

وبحث العرب في ظاهرة قوس قزح . نجد ذلك في تآليف قطب الدين الشيرازي الفلكية[٣] وقد شرحها في كتابه نهاية الادراك شرحاً وافياً هو الاول من نوعه . وكتب ابن الهيثم في المرايا المحرقة ولهُ في ذلك كتاب كما لغيره من علماء المسلمين في القرون الوسطى . وعرّف العرب هذا العلم بما يأتي : « هو علم يتعرف منهُ احوال الخطوط الشعاعية المنعطفة والمنعكسة والمنكسرة ومواقعها وزواياها ومراجعها وكيفية عمل المرايا المحرقة بانعكاس اشعة الشمس عنها ونصبها ومحاذاتها ، ومنفعته بليغة في محاصرات المدن والقلاع .. » وكانت ابحاث ابن الهيثم في هذا العلم جليلة دقيقة دلّت على احاطته الكلية بمبدأ تجمع الاشعة التي تسقط على السطح موازية للمحور بعد انعكاسها عنهُ وكذلك بمبدإ تكبير الصور وانقلابها وتكوين الحلقات والالوان[٤] وقد فاقت كتاباته في هذه البحوث كتابات اليونان[٥] . ولم يقف العرب في البحث عند هذا الحد بل تعدوهُ الى البحث في سرعة النور فقال البيروني ان سرعة النور اذا قيست بسرعة الصوت كانت عظيمة جدًّا وقال ابن سينا ان سرعة النور يجب ان تكون محدودة وبيّـن الاسباب لذلك — وجاءَ في كتاب عجائب المخلوقات للقزويني في سبب رؤية البرق قبل سماع الرعد ما نصهُ : « واعلم ان الرعد والبرق يحدثان معاً لكن يُرى البرق قبل ان يسمع الرعد لان الرؤية تحصل بمراعاة البصر واما السمع فيتوقف على وصول الصوت الى الصماخ وذلك يتوقف على تموّج الهواء ، وذهاب النظر (اي سير النور) اسرع من وصول الصوت .. »

نابلس — فلسطين

(١) و (٢) كاجوري — تاريخ علم الفيزياء — ص ٢٣ (٣) سارطون — مقدمة تاريخ العلم ج ٢ ص ٢٣
(٤) و (٥) كتاب تراث الاسلام ص ٣٣٥

مصطلحات علم النفس

ومشكلة ترجمتها الى العربية

لمحمد مظهر سعيد

ذكرنا في مقال سابق اهم المصطلحات الانجليزية المتداولة في موضوع الشعور والاحساس والادراك بمراتبه المختلفة واستعرضنا نماذج مختلفة للترجمات العربية اقتبسناها من اهم المؤلفات التي تعتبر الى الآن حجة في علم النفس عند طوائف مختلفة من الناس ليعلم القارىء مبلغ الصعوبات التي يعانيها المؤلفون والمترجمون في تحديد معاني هذه المصطلحات ومقدار تضاربهم في ترجمة اللفظ الواحد ووعدنا ان نستكمل البحث بذكر مصطلحات اهم موضوعات علم النفس التي تتناولها المؤلفات العربية وسنتناول في هذا المقال موضوعات الذاكرة والتصور والخيال

﴿ الذاكرة Memory ﴾ تطلق اللفظة الانكليزية الآن في عرف العلماء المحدثين على عملية التحصيل (او ادخال ما يراد حفظه الى الذهن) وقوة الحفظ او الوعي الطبيعية وعملية التذكر او ارجاع المعلومات السابقة المحفوظة في الواعية الى مستوى الشعور مرة اخرى بعد ان كانت تطلق قديماً على قوة الحفظ او عملية التذكر. وقد ترجمها كل المؤلفين باللغة الصحيحة الذاكرة (او ملكة الذاكرة) ما عدا امين بك واصف فقد ترجمها حافظة (راجع مادة Memory في القاموس الملحق بالجزء الاول من كتابه اصول الفلسفة) اما الدكتور شرف فقد وضع لها في قاموسه المعروف كل ما يمكن وضعه من المترادفات بدون تمييز او تفضيل (الذاكرة المفكرة. ذهن. أذكار. القوة الحافظة. الحفظ. الواعية)

اما العملية الاولى Memorizing و Committing to Memory — تحصيل . فقد ترجمها الشيخ شريف هكذا (صفحة ٧٠) وعبد الرازق استذكار (ص ٢٨) والابراشي استظهار او تعلم (ص ٢٢٠ ج ٢) والعملية الثانية — Remenbering, Recall, Recollection, Reproduction — التذكر ترجمها شريف (ص ٣) استحضاراً بعد الانعدام (مع انها لم تكن معدومة) وفي موضع آخر (ص ٢٤) المدارسة — تأخذ قوتك الذاكرة في ان تحضر لك ما القاه عليك استاذك وما ترتبط به مما اودعته في ذهنك يوماً من الايام وفي موضع ثالث (ص ١١٦) تذكر وذاكرة — الذاكرة هي قوة الاستحضار — والجارم (ص ٥٦) ترجمها بالذكر (ولكنه قصره على اعادة ما ادرك بالحواس الى دائرة الشعور في حين انهُ يشمل الافكار القديمة التي خطرت الانسان في وقت ما ولم يكن قد ادركها بحواسه) . وعبد الرازق (ص ٢٨) وكذلك الابراشي (ص ٢٣٣ ج ٢) استحضار او تذكر . اما شرف فقد ترجم Reproduction بالانتاج . او التقدمة الثانية (والثانية هي ترجمة

(representation) اما قوة الحفظ او الوعي الطبيعية Retentivity الواعية فقد ترجمها شريف (ص١١٦) بالحافظة (وهي قوة ابقاء المعلومات في الذهن) . أما عمل الواعية Retention فقد ترجمه قنديل (ص٣ ج ٢) الوعي او حفظ الآثار في النفس والابراشي عن قنديل (ص ٢٢٦ ج ٢) الوعي او الحفظ وغيرهما الحفظ . وفي رأينا ان ترجمة قنديل الواعية والوعي ادق من الحافظة والحفظ لولا انها تختلط بما جرى عليهِ بعض المترجمين من ترجمة الشعور Consciousness بالوعي

اما الفوارق العلمية الدقيقة بين Recall, Recollection, Repooduction فلم يتعرض لها احد

وهناك ظاهرة اخرى تعتبر نوعاً او مرتبة اولية منحطة من مراتب التذكر . وهي المعروفة بكلمة Recognition — التعرف اي مجرد شعور الانسان بأن شيئاً يمر عليهِ الآن قد مرَّ عليهِ من قبل من غير ان يذكر ظروفه الزمانية والمكانية على التحقيق — وقد ترجمها شرف وحده — بالمعرفة والعرفان والاقرار

❁ التصور Imagery ❁ التصور هو عملية عقلية وظيفتها مجرد استحضار صورة في الذهن لشيء او موقف او تجربة مرت على الانسان من قبل. وليس التصور تذكراً بحتاً لان العقل يستحضر الصورة وحدها منعزلة عن سائر ظروفها الزمانية والمكانية كأنهُ لم يكن هناك شيء غيرها في مجال الشعور عند ما ادركها الانسان بحواسه والتذكر البحت يكون لشيء مرتبط بغيره من الاشياء في ظروف زمانية ومكانية خاصة وليس التصور كذلك خيالاً او تخيلاً لان التخيل يكون لشيء جديد على العقل لم يدركه او يجربهُ من قبل

وقد خلط كثيرون من علماء النفس الافرنج بين هذه العمليات العقلية الثلاث ومنهم اعلام كبار مثل James, Baldwin, Sully . وانت تجد هذا الخلط بعينه في ترجمة الذين اخذوا عنهم . ومما يزيد المسألة تعقيداً في العربية ان كلمة تصور تفيد في المنطق منذ ان وضع فهم الحقائق وبخاصة المدركات الكلية او المعنوية ولذلك وضعها واصف بك ترجمة لكلمتي apprehension و concept

اما الخيال فهو كما قدمنا عملية احداث تراكيب جديدة من عناصر التجارب الماضية المألوفة بعد التغيير في نظامها وترتيبها وعلاقاتها وتعديلها تعديلاً قليلاً يجعلها قريبة الشبه بالقديمة اوكبيراً يجعلها كأنها مبتكرة . واللفظة الانكليزية imagination تطلق على القدرة العقلية او الوظيفة وعلى العملية ذاتها وقد ترجموا المعنى الاول خيالاً او مخيلة (جرياً وراء مذهب الملكات العقلية) واعطى لها شرف كل هذه المترادفات (التظنن . الخيال . الواهمة . المتخيلة . المخالة . الخيلولة) وترجموا المعنى الثاني تخيلاً وقال شرف (تخييل . خيال . ظن) ولكنهم على الرغم من ترجمة اللفظة الانكليزية ترجمة عربية صحيحة فقد خلطوا في شرح معنى الوظيفة والعملية بين الخيال والتذكر من جهة والخيال والتصور من جهة اخرى . فيقول قنديل (ص ٧٤) التخيل بمعناه الواسع هو شعور المرء بأشياء غير حاضرة. فهو استعادة المرء في ذهنهِ ما حصل عليه بالحس من قبل (وهذا تذكر لا تخيل). وقال الشيخ شريف (ص ٨٠) اذا كان الحفظ متعلقاً بأشياء لها صور مُحَسّة سمي تخيلاً (وهذا ايضاً التذكر بعينه) وفي (ص ١٣٣) الخيال هو مستودع المحفوظات التي وصلت الى الادراك عن طريق الحس او الوجدان

(وهذه هي الواعيــة) فهو حافظة مصورة (كذا) والتخيل هو استحضارها . واقربهم الى المعنى العلمي الصحيح هو الجارم عند ما يقول (ص١٧٣) التخيل ان يرسم العقل صوراً مستعيناً في رسمها بأحساس او وجدان سابق من غير ان تساعده الحواس أثناء التصوير وعلى الرغم من ان الاستاذ قنديل يعرّف التصور تعريفاً واضحاً بقوله (ص٧٤) هو استعادة ما تركتهُ الاحساسات والمدركات الحسية السابقة في الجهاز العصبي فهو يقول في (ص٧٥) التخيل هو مجرد تكوين الصورة العقلية (أي انه تصور صرف)

وللتخيل أنواع أربعة رئيسية . أولهــا الاستحضاري Reproductive ويطلق على استرجاع الحوادث او المواقف الماضية وانما بصورة تخالف الصورة الاصلية التي حدث بها وان اتفق معها في الجوهر (والاّ كان تذكراً صرفاً) كمن يروي بالقول منظراً رآه بالنظر او يكتب حديثاً سمعه . وقد فات الكثيرين هــذا المعنى الدقيق فاعتبروه تذكراً صرفاً او تصوراً صرفاً فقنديل يقول (ص ٧٩) التخيل بأوسع معانيه نوعان تصور او تمثيل استحضاري . تكون فيه الصورة العقلية مطابقة للمدرك الحسي فتتصور بالعقل ما ادركته فعلاً بالحواس من قبل وتستحضره في نفسك من غير قصد التغيير فيه والتبديل وفي (ص ٨٠) فكأن المرء في هذا النوع من التخيل يذكر أموراً حدثت له من قبل بالحواس ولذلك يطلق عليه التصور او التخيل الاستحضاري

ويقول الشيخ شريف (ص ٨١) التذكر المتوجه لصورة يسمى تخيلاً حضوريًّا ويمثل لهذا بالجنة والنار (ولا نفهم كيف ينطبق هــذا المثال على أي معنى يذهب اليه) ويقول الجارم (ص ١٤٤) ما دامت المحسات في الذهن على الوجه الذي ادركتهُ عليه كان التخيل حضوريًّا . ويقول حامد عبد القادر (ص ٢٥٠ ج ٢) التذكر هو التخيل الاستحضاري او التكراري

والنوع الثاني وهو الخيال المترجم Interpretive يستحضر الانسان فيه صورة لشيء او موقف لم يره هو من قبل ولكنهُ يسترشد بوصف يقرؤه عنه او حديث يسمعه ويتقيد بما يلقي اليه ويكون الصورة قياساً على ما عاثل من تجاربه الماضية عناصر الموقف الجديد

والثالث وهو الابتكاري Creative أو originative وقد ترجمه قنديل (ص ٧٩) بالابتكاري والشيخ شريف الاختراعي او الحصولي وترجمهُ غيرها الانشائي والتأليفي والخلقي وهو خاص بابتكار تراكيب جديدة صرفة . ويطلق على النوعين السابقين الخيالي التركيبي Constrouctive لان الخيال فيه يكون مطابقاً للواقع او ما يمكن ان يطابق الواقع او نتائج مباشرة للواقع او يمكن ان يوصل اليها الواقع فالتفكير فيه منطقي معقول وهناك نوع رابع يكون الخيال فيه غير منتظم ولا منسجم ولا متسلسل . لا ترتبط عناصره ولا تتآلف ولذلك يكون مخالفاً للمنطق والمعقول من مثل ما يحدث للانسان أثناء التهيؤات او السرحان او أحلام العبث ويسمى Fancy Imagination ولم نجد له ترجمة ولذلك نرتاح الى ترجمته بالخيال المفكك

وبعض المترجمين ادخلوا التهيؤات العصبية Hallucination من ضمن أنواع الخيال فسموها تخيلات

كيف تطوّر الانسان

للسر ارثر طمسن

ترجمة : بشير الياس اللوسي

ترمي جميع ابحاث داروِن الى نتيجة واحدة هي ان الانسان وبقية الكائنات الحية ترجع الى اصل واحد هي — الخلية الحية — واستطاع ان يبرهن بقدر ما سمحت له الاستنتاجات العلمية على انتساب الكائن البشري الى اصل شبيه بالقرود او «الانثروبود» Anthropoid . فالانسان ينتمي الى رتبة الرئيسيات Order Primates من قبيل الحيوانات الثديية او اللبونة لانه يشترك معها في تركيب جسمه العام والاعضاء الاثرية في بدنه وكيفية نشوئه الجنيني ومقاسمته اياها بعض الامراض والطفيليات واخيراً لما بينه وبين القرود العليا من تماثل في تركيب الدم

﴿ استنتاجات داروِن ﴾ يقول داروِن في نهاية كتابه : أصل الانسان Descent of Man «يخيَّل اليَّ اننا بحاجة الى العلم بأن الانسان الذي يسمو على بقية الاحياء بمزاياه الرفيعة وعواطفه السامية واحسانه لابناء جنسه ولكل نَفَس حي ، ذلك الذي وهبته الطبيعة عقلاً راجحاً اخترق الحجب الكونية وأماط اللثام عن حركات النظام الشمسي ونشوئه ، لا يزال يحتفظ في بدنه بطابع أصله الوضيع الذي لا يمحى أثره»

بيد ان هذه الاستنتاجات تدعو الى السؤال والاستغراب . فكيف يصح ان يكون الانسان ابن عم بعيد لاحد القرود ؟ وما الذي يدلُّ على قرابته الشديدة برجل الغابة Bushman ؟ [1] وكيف تنشأ الكائنات الحية وتتطوَّر من خلية مجهرية واحدة هي بداية الجنين ؟ ليس مما يضير سمعة شكسبير ان يكون في نعومة اظفاره بليداً ولا مما يحطُّ منزلة نيوتن ان يكون في شبابه بائساً . وهكذا ليس مما يشين الانسان ان يكون منتسباً الى أصل وضيع !

واذا كان من نقد يوجه الى مذهب داروِن فذلك النقد صادر عن اساءة فهم للنظرية الداروينية وعدم تريث النقّاد لفهم الحقيقة . فما من عالم تطوري يقول بنشوء الانسان من القرود الوحشية

(١) تدل بقايا رجل الغابة على انه كان من القرود العليا الكثيرة الشبه بالانسان

Simians المعروفة في الوقت الحاضر والرأي العلمي السائد الآن هو ان الانسان سليل جد مشترك بينه وبين القرود العليا Higher Apes وقد تفرعت العائلة البشرية Humanoid من الاصل الانثروبودي منذ اكثر من مليون سنة

﴿ ثورة فلسفية ﴾ عند ما نتكلم عن أصل الانسان يجيبنا محدثنا بابتسامة تنم على شيء من السخرية ذلك لانه اذ يرى الانسان في منزلته الرفيعة بين سائر الكائنات لا يروقهُ ان يجابه بفكرةٍ تقال من تلك الرفعة او تحط من تلك الكرامة في نظره . وكأننا بهِ يقول : أليس من السخافة بمكان ان اعتقد بنشوء الانسان من نسل القرود ، ذلك الذي تغلغل بعقله الثاقب الى عوالم النجوم وبحث في تاريخه ووضع النظريات الفلسفية عن علاقته بالحياة وذلّل الطبيعة وجعلها طوع بنانه ؟ فالانسان كما يعتقد مثل هذا الشخص ، بعيد عن الحيوانات اللبونة بعداً يصعب معه التسليم باشتراكه معها في النشوء والارتقاء . على اننا اذا لم نسلم بنشوء الانسان من ارومة الرئيسيات فالخيار الوحيد ان نفتكر بأنه نشأ — باعتبار نفسه العليا على الاقل — بطريقة تعجز الاساليب العلمية عن تعليلها . ولكن التخلي عن الاساليب العلمية والاستعانة على تفسير الحادثات الطبيعية بالطرق اللاهوتية يعد هرباً من البحث وتنصلاً من واجب الانسان في البحث والتحليل العلميين . واذا كانت ثمة مشكلات قد استعصى حلها لحد الوقت الحاضر فذلك لان الوسائل العلمية ما زالت قاصرة ومحدودة ومن الواجب علينا ان نحرص على البحث العلمي ونتجنب خلط المسائل العلمية بالاعتبارات اللاهوتية

﴿ القرود العليا والانسان الشبيه بالقرود ﴾ تفرّعت القرود الانثروبودية العليا Anthropoid Apes من ارومة قرود العالم القديم في العصر القليل الحداثة Oligocene وربما في مصر وذهبت القرود الانثروبودية الاولى تجوب اقاصي افريقيا واوربا وآسيا كما فعلت اسلافها القرود القديمة . ومنذ نيف ومليون سنة وفي اواسط العصر المتوسط الحداثة Miocene Period — وربما في شمالي الهند — انتقلت العائلة البشرية من القرود الانثروبودية الجبارة التي ارتقت تدريجيًّا الى الانسان الوحشي (الاورانغ) Orang والبعام والغورلّى المعروفة في الوقت الحاضر . ولكن العائلة البشرية تقدمت في الحياة زمناً طويلا قبل ان نشأ الانسان ولدينا من الادلة ما يؤكد تعاقب « الانسان الوحشي المجرّب » Tentative Man الذي وجدت له آثار مؤلفة من قطع صغيرة هي كل ما عرفناه عن شكله الغامض . وأوطأ أنواع ذلك الانسان الشبيه بالقرود هو الذي سمي بـ Hesberopitheeus — وقد سكن العالم الغربي — لم يخلف لنا الا سنًّا واحداً من اوائل العصر الكثير الحداثة Pliocene في نبراسكا . فليس من الدقة العلمية في شيء ان نتخلص الى استنتاج عام من سن واحد . ولكن اذا كان انسان نبراسكا حقيقيًّا وجب ان نبحث عن كيفية وصوله الى هناك فهذا ما نجهله كل الجهل

﴿ الانسان المجرب Tentative Man ﴾ نقرأ في كتاب « قِدَم الانسان Antiquity of Man » لمؤلفه السر آرثر كيث حكايات طريفة عن بعض انواع الانسان المجرب الشبيه بالقرود وأهمها

البيثيكانثروبس المعتدل Pithicanthropus the Erect المكتشفة آثاره في جاوة Java والايوانثروبس Eoanthropus صاحب جمجمة « بلتدون Piltodwn »

ويجب ان نضيف اليهما الكنز الذي عثر عليه « البروفسور رايموند دارت » في « تونغز Taungs » — التي تبعد نحو ٨٠ ميلاً شمالي كمبرلي في بيجوانالاند — وكانت الآثار التي عثر عليها محفوظة بين متحجرات اخرى في صخرة كلسية على نحو ٥٠ قدماً تحت سطح الارض . وتتألف هذه الآثار من عظام الوجه وبقايا جمجمة اكتشفت فيها الاوصاف التالية بعد الدرس الدقيق : جبهة مرتفعة ، عدم وجود أخاديد نانئة في حجّاجي العين ؛ القسم الاسفل من الوجه يحاكي الشكل البشري ، الاسنان التي يظن انها من النوع الحليبي تشبه الاسنان البشرية شبهاً واضحاً . ويرجح ان هذا المخلوق الذي سمي فيما بعد Australopithecus Africanus كان مرتفع الرأس لا يرخيه كثيراً كما تفعل القرود الحالية . وهناك ما يدل على وجود دماغ كبير نسبيًّا وقد ظهر نقص في هذه الناحية عندما قوبل بدماغ غورلّى . وربما يعزى هذا النقص الى ان هذا الكائن البشري الذي حفظته لنا الصخور صدفة لم يكن انساناً بالغاً

***

يستنتج من ذلك ان جمجمة « تونغز » تتوسط بين جمجمتي « الانتروبويد » و « الهومينيد Hominid » ولا يستبعد انها تنتسب الى سلف واحد يرجع هؤلاء الاثنان اليه . ولهذه الجمجمة ميزات بشرية اكثر مما لجمجمة اي انثروبودٍ آخر

ويظن ان «الهومينيد» تفرَّع الى خطوط جانبية نشأ من احدها نوع الانسان الحديث . ويجب ان لا يعزب عن بالنا ان الانسانين المجريين (البيثكانثروبس والايونثروبس) هما على جانب عظيم من الشأن في تعيين خطوات التطور ولو انهما يقعان بعيداً عن خط التقدم الرئيسي . ان اكتشاف آثار بشرية عديدة في مدة قصيرة نسبة يقوي الامل باكتشاف آثار اخرى في المستقبل

﴿ الانسان اخيراً ﴾ ان اقدم نوع species عرف عن جنس الانسان genus Homo هو انسان هيدلبرغ Heidleberg man ثم عقب « انسان روديسيا Rhodesian man » وبعده بزمن طويل « انسان نياندرتال Neanderthal man » . على ان الانسان الحالي لا ينتسب مباشرةً الى اي واحد من هؤلاءِ وما هم في الواقع سوى فروع جانبية نشأت من اصل واحد ويطلق على مجموع هذه الانواع « جنس الانسان Homo » الذي ينتسب اليهِ « نوع الانسان العاقل species Homo Sapiens » وبالرغم عن اشتراك جميع هذه الانواع البشرية في معركة الحياة فانها لم تنل الظفر الذي حازه نوع الانسان العاقل فجعل منهُ سيداً على بقية الكائنات. وتشعبت من نوع الانسان العاقل جميع السلالات التي نعرفها الآن وهي السلالات الاسترالية والزنجية والمغولية والالبية وسلالة البحر الابيض المتوسط والشمالي وقد استمر اختزال السحنة السوداء التي تشترك فيها الطائفة البشرية Human family مع الغورلّى

والبعام من السلالات الشمالية اكثر من غيره وبذلك اصبحت هذه السلالة تتميز عن بقية السلالات ببياض سحنتها مع العلم بانها لا تخلو من سمات حياتها الابتدائية

قد لا يدرك الفلاسفة اللاهوتيون الذين ينظرون الى جهود الانتروبولوجيين نظرة هزء وسخرية سموّ عملية التطور العظيمة التي انشطر فيها جذع الرئيسيات Primates الى جملة فروع بالتتابع وهي :

(١) فرع قرود العالم الجديد
(٢) فرع قرود العالم القديم
(٣) فرع القرود العليا الصغيرة (الغبون Gibbons)
(٤) فرع القرود الانثروبودية العليا
(٥) فرع الهومينيد

ان القرود الدنيا المعروفة في الوقت الحاضر لم ترتق الى درجة القرود العليا apes ولكن جميعها ترجع الى اصل واحد كان قد انشطر في القديم الى خطين كبيرين (١) خط القرود الدنيا و(ب) خط القرود العليا . وكذلك لم تصل القرود العليا المعروفة في الوقت الحاضر الى درجة الانسان بل كان هناك جذع انثروبودي عام انشطر الى (١) القرود العليا الحديثة غير المتقدمة نسبة و(ب) الهومينيد المتقدمة نسبة . وقد رأينا ان اجناساً عديدة من الهومينيد نشأت قبل الانسان القديم «Homo» ولكنها لسوء الحظ لم تترك بقايا كافية لتنويرنا عن اشكالها واوصافها الحقيقية الاَّ ما دلّ منها على الانسان المجرّب

* * *

ولكن الم تستمر عملية الانتقاء بعد نشوء جنس الانسان omoH ؟ اذ يظن ان انسان نياندرتال Neanderthal الذي كان انساناً حقيقيًّا يحسن استعمال النار ويدفن موتاه هو محاذٍ وليس بجدٍّ لنا . ان البحث لا يزال في طفولته والادلة ما زالت ناقصة ولعلّ الاستنتاج الوحيد الذي نستطيع ان نخلص اليهِ هو ان اجناساً بشرية متوحشة عاشت قبل نشوء الانسان الحالي بزمن طويل وكانت تلك الاجناس تفني حياتها في التجربة والاختبار وتعمل فيها الطبيعة انتقاءً وعلى أثر ذلك تفرعت الشجرة النسبية الى اغصان كبيرة وهذه الى اغصان اصغر فاصغر وهلمّ . ان جميع الذين يدركون حقيقة التطور يستنكرون التعبير الخاطىء بان الانسان وليد القرود

﴿ الحلقة المفقودة ﴾ لا نستطيع التصور ان الانسان الحالي نشأ فجأة في طائفة غير بشرية ولكن الذي يتفق ومعرفتنا الحاضرة هو ان نفترض ان نشوء الصفات الانسانية العليا كالعقل واللغة كان فجائيًّا ويبدو لنا في كثير من الحالات ان التطور كان بشكل وثبات كبيرة يحصل منها تقدم عظيم في خطوة واحدة

وطالما نعترف الآن بان النبوغ ذو مظهر فجائي كذلك يجوز علميًّا ان نفرض ان التحوُّلات الفجائية Mutations حصلت خلال ارتقاء الانسان في سلم التطور. على اننا في الواقع لا نفهم العوامل المؤدية الى حدوث مثل هذه التحوُّلات الفجائية بل نعلم بحدوثها وبما تنطوي عليهِ من قوة تخلدها للاجيال المقبلة

ولا بدَّ لنا من الاعتراف بان الحلقة المفقودة لا تزال مفقودة وبكلام آخر اننا لم نتوصل حتى الآن الى معرفة نوع منقرض يصح اعتباره جدًّا مشتركاً للطائفة البشرية Hominid والقرود الانثروبودية العليا . هذا من جهة ، ومن جهة اخرى توجد كما رأينا كائنات منقرضة كالبيثكانثروبس التي يجب اعتبارها « هومينيدية » بالرغم من انها ليست من نوع الانسان الحديث . اذن فمن الخطاءِ ان يذهب البعض مع الذين لم يدركوا معنى التطور العضوي الى « ان القرد تحوَّل الى انسان »

***

نشأ من الاساس العام لفرع القرود الانثروبودية العليا فرع آخر هو «الهيومانويد» Humanoid وهي طائفة بشرية قديمة وتشعب من هذا الفرع الاخير غصنان صغيران كان الانسان « Homo » احدهما والانسان العاقل Homo sapiens ثانيهما . اذن لم يكن هناك انسان اول — كما يعتقد الكثيرون — كما لم يكن هناك حنطة اولى او حصان اول . ويظن ان نشوء الانسان من الهيومانويد كان بفعل التطور والارتقاء الطبيعي والى هذه العوامل نفسها يعزى تحوُّل بعض انواع الانسان القديم الى الانسان العاقل

﴿ عوامل ارتقاء الانسان ﴾ لعلَّ اوجه الاعتراضات على نظرية ارتقاء الانسان الداروينية هو انها اذ تدلنا على اصل الانسان البعيد تجعلنا في موقف مشوَّش لا ندري فيه كيف حصلت تلك التطورات العظيمة . وبكلام آخر لا نعلم لحد الآن شيئاً كافياً عن العوامل التي كان لها النصيب الاكبر في نشوء الانسان وتطوره المستمر حتى بلغ حالته الراهنة . وكل آرائنا في هذا الباب لا تتعدى القول بأن الانسان الحالي ينتسب الى رتبة كانت تسير الى الامام من حيث تقدم الدماغ وتعدد الكلمات وازدياد العلاقات الاجتماعية. وعند ما تفرع الهيومانويد من الانثروبويد في العصر المتوسط الحداثة حدثت وجوه ارتقاء في الدماغ عظيمة ولكننا لا نعلم لماذا لم يحصل تقدم كهذا في رتب اخرى من اللبونات كرتبة ذوات الاظلاف Ungulates وغيرها . ومهما يكن الحافز لذلك التقدم فالحقيقة واحدة وهي ان تقدم الدماغ ميز الرئيسيات Primates عن سائر الحيوانات ومما لا ريب فيه ان الانسان غالب انسباءَهُ في التقدم فغنم المعركة وغنم السيادة

***

قد يكون من الخطر بمكان ان نفترض أن اسلاف الانسان هجرت الاشجار بينما ظلَّت القرود الدنيا والقرود العليا ملازمة لها وقد نعلّق شأناً خطيراً على انتصاب الانسان وما عقبه من نمو قابلية

التكلم ، ولعلنا نجد مغزى جديراً بالاهتمام في طول المدة التي يقضيها الجنين البشري في رحم امه كما في طول مدة الطفولة التي من شأنها ان تقوي الحياة الاجتماعية وما يلازمها من عطف وحنو بين افراد البشر . ان جميع هذه العوامل تعمل في حقول صالحة فالعطف العائلي يوثق علاقات المجتمع ويسمو بها الى الحب والتعاون ، وارتقاء الدماغ يقوّي لغة الكلام ويزيد كفاءة الفرد والعناية الوالدية هي مبعث العطف والرقة والنبل والعامل في تخليدها في النسل . ان جميع المباحث القائمة حول هذا الموضوع تؤول بنا الى الابتعاد عن تصور الانسان الابتدائي بحالة تنطوي على شيء كثير من القسوة والغباوة والدعارة وحب القتال وهناك من الادلة مايسوّغ اعتبار ذلك الانسان القديم على جانب من المهارة والعطف والمجازفة والاقدام والابتكار

﴿ نظرية البروفسور إليوت سمث ﴾ للبروفسور إليوت سمث Prof. Elliot Smith احد علماء التشريح وزعماء فكرة التطور نظرية في نشوء الانسان يقول فيها « يمكننا ان نعتبر الانسان كنتيجة لارتقاء الدماغ في اتجاه خاص ترجع بدايته الى زمن السعادين المسماة Tree-shrews او Tarsioids فربما حدثت تحوّلات فجائية Mutations آلت الى نشوء الانسان Homo في العائلة البشرية القديمة الهيومانويد Humanoid او «الانسان العاقل » في الـ Hominids . ولكن حصل وراء هذا النشوء ارتقاء عظيم في الناحية العقلية ظهرت دلائلهُ في مقدرة الدماغ على التخيل من جهة وعلى تنظيم الاعمال البشرية المعقدة من جهة اخرى »

﴿ البصر يتغلب على الشم ﴾ نجد في تاريخ تطور الانسال الحيوانية امثلة عديدة يتجلى فيها التقدم المستمر في ناحية معينة وربما كان هو الواقع في نشوء الانسان . فقد تطور في خط من النمو يتميز بارتقائه في قوى التخيل والمهارة اليدوية واتساع حجم الدماغ في مقدمة الجبهة الذي يرجع اليه الفضل في قوة الانتباه وتنظيم الاعمال الفكرية يضاف الى ذلك نمو الحب العائلي وما يلازمه من تقدم في الكلام وما يتضمنه من استعمال الكلمات كمعدات في تجارب التفكير وسواعد في الحياة الاجتماعية .

***

وقد وضع البروفسور إليوت سمث رسماً تخطيطيًّا حريًّا بالذكر في هذا المقام يتضمن هذا الرسم مقابلة ادمغة بعض السعادين مثل Tree-shrews و Tarsiers و Marmosets اظهر فيها التناقص التدريجي لمنطقة الشم والنمو التدريجي لمناطق البصر والسمع واللمس والذكاء والانتباه وما يصدق على « المرموست » وهو أقدم القرود الحية ، يصدق اكثر من ذلك على القرود العليا والانسان بوجه خاص . فالمقابلة بين اوطأ دماغ بشري معروف وأرقى دماغ لغورلّى معروف يظهر البون شاسعاً بين الاثنين

الآثار الاسلامية القديمة

ببغداد

مصطفى جواد

١ — ماذا بقي من مدينة أبي جعفر المنصور ؟

أصبحت بغداد مثالاً لتغير المدن وتحوّلها وتطوّرها ، فلقد تداولتها أيدي الطبيعة وأيدي البشر ، فعفَت على آثارها وطمست حضارتها وزخرفها ، وشوّهت محاسنها ، فهي ثكلى المدن وسجل المصائب ومدفن العسف والعبث ، ولذلك قلنا في رثاء الملك فيصل الاول :

ثبّت العرشَ في مهاوي عروش   قد رماها الزمان رمياً وبيلا

كانت تحرق أو تهدم قصورها ودورها وتغير عليها دجلة حيناً بعد حين فتجعل عامرها كغامرها وآهلها كموحشها ، وتتكانف عليها الاحداث فتضع من مكانتها وتبعد الناس عنها ، وكانت يد العسف والانتقام تسطو على العمارة والحضارة ، حتى اذ ابن بسّام الشاعر لما نعى على أحد الوزراء ما نعى قال له :

بجنبك داران مهدومتا   نِ ودارك ثالثة تهدَمُ
فليت السلامة للمنصفيـ   ـنَ تدومُ فكيف لمن يظلمُ ؟

فعلمنا ان داري وزيرين قد هدمتا بجانب دار هذا الوزير ويخطر ببالي انه «ابن الجراح» واليوم لا ترى عمارة من مدينة المنصور المدوّرة ولا أثراً ، وآخر الحوادث الخاصة بالقبة الخضراء العظيمة التي بناها المنصور بجوار جامعه انجدرانها وقعت في سنة «٦٥٣» هـ أي قبل سقوط الدولة العباسية بثلاث سنوات ، وكانت عالية ينظر الجالس منها من يخرج من الأنبار [١] ، وكان المنصور يجلس فيها متنزهاً ، وما زال الخلفاء يجلسون فيها للفرجة الى أيام الرشيد ثم هجرت وصارت مأوى للبوم والغربان ، وكان بعض الفقراء مجاوراً في جامع المنصور ، فقال في القبة لما رأى ما آلت اليه حالها :

يا بومة القبة الخضراء قد أنست   روحي بروحك اذ يستبشع البومُ
زهدت في زخرف الدنيا فاسكنك الـ   ـربع الخراب فمن يذمك مذموم [٢]

---

(١) الأنبار ذات حوادث عظيمة في تاريخ الاسلام، ولم يهتد أحد الى موضعها بعد . وجاء «في فوات الوفيات بترجمة السفاح « بنيت له الهاشمية الى جانب الأنبار وبها قبره وهي المعروفة الآن بالأنبار لان الاولى درست ١ : ٢٣٢» (٢) الحوادث الجامعة لعبد الرزاق بن الفوطي (ص ٩٤ من نسختنا الخطية)

وجهل الناس موضع مدينة المنصور فلم نجد الاَّ دليلاً واحداً يعين لنا موضعها وهو المسجد المعروف بمسجد « المنطقة » وترى صورته الحاليَّة ذات الرقم « ١ » . قال صفي الدين عبد المؤمن ابن عبد الحق الحنبلي المتوفي سنة «٧٣٩» ﻫ « سونايا » : بضم أوله وبعد الواو الساكنة نون وبعد الالف ياء مثناة من تحت وألف مقصورة ، قرية قديمة كانت ببغداد ينسب اليها العنب الاسود الذي يتقدم ويبكر على سائر العنب . . . ولما عمرت بغداد دخلت في العمارة وصارت محلة من محالها وهي « العتيقة » وبها مسجد لعلي بن أبي طالب يعرَف بمشهد المنطقة »[١]

فهذا هو الموضع الوحيد المحافظ على اسمه من مدينة المنصور المدوّرة . وحوادثه مفصلة في تاريخ الخطيب ومناقب بغداد لابن الجوزي الصغير قتيل هولاكو ، وكتبِ رجال الشيعة مثل «رجال النجاشي» ومسجد المنطقة اليوم في غرب بغداد وقد اتخذه الشيعة مقبرة وفيه حجرة بها اسطوانة سمَّاقية اللون من الرخام بزعم العوام ان الماء نبع منها لما احتاج الامام علي — عليه السلام — الى الماء

٢ — منارة مسجد قمريَّة

ومن الآثار الاسلامية العباسية « منارة مسجد قمرية » ببغداد الغربية اليوم ، وهي التي ترى صورتها مرقومة بـ « ٢ » فهذه المنارة متقنة البناء جميلة التنسيق ، حافظت لنا على طرز من البناء في عهد بني العباس ، قال عبد الرزاق ابن الفوطي في حوادث سنة «٦٢٦» من خلافة المستنصر بالله «وفي شعبان تكامل بناء المسجد المستجد [٢] بالجانب الغربي على شاطىء دجلة المقابل لرباط البسطامي ونقل اليه الفرش والآلات وقناديل الذهب والفضة والشموع وغير ذلك ، وفتح في شهر رمضان ورتب فيه مصليًّا الشيخ «عبد الصمد بن أبي الجيش» وأثبت فيه ثلاثون صبيًّا يتلقنون القرآن عليه ورتب فيه معيد يحفظهم التلاقين ورتب أيضاً فيه الشيخ حسن بن الزبيدي محدثاً يقرأ عليه الحديث النبوي في كل يوم اثنين وخميس ورتب ايضاً قارىء للحديث وجعل في المسجد خزانه للكتب حمل اليها كتب كثيرة [٣]» وبقية أخبار هذا المسجد في الحوادث الجامعة وغيرها وانما نحن نذكر الضروري

٣ — المدرسة المرجانية

يسميها الناس اليوم «جامع مرجان» ويرى في الصورة الثالثة بابها ومنارتها والقبة التي دفن تحتها « مرجان بن عبد الله بن عبد الرحمن » والي بغداد في أواسط القرن الثامن للهجرة ، وهذه الصورة رسمت بعد ما هدم الأزج الذي كان أمام المدرسة ، أمر بهدمه «خليل باشا» القائد العام في العراق وفارس زمن الحرب العامة لاشتقاق الشارع المعروف اليوم بشارع الرشيد وسمي اذ ذاك « خليل

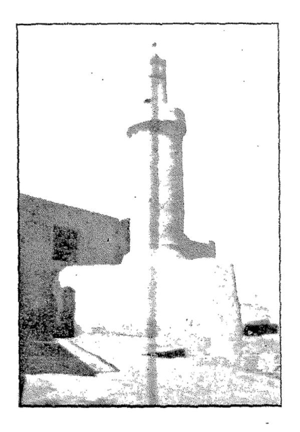
(١) مراصد الاطلاع على الامكنة والبقاع (ص ٢٢٩ من طبعة ايران)

(٢) وفي الحاشية زيادة «المعروف بقمرية» وهي بخط المؤلف كما في النسخة التيمورية

(٣) الحوادث الجامعة (ص ١ من نسختنا الخطية)



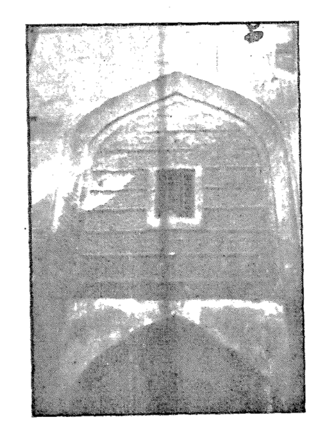
١ — مسجد العتيقة المعروف بالمنطقة قديماً وحديثاً



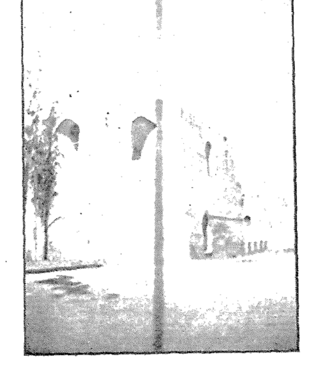
٢ — منارة مسجد قمرية



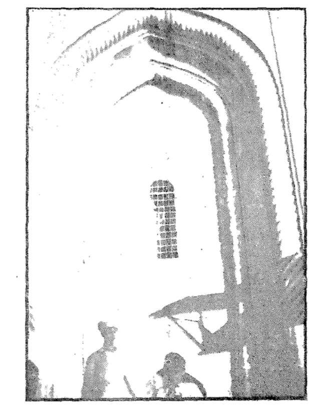
٣ — باب المدرسة المرجانية



٤ — باب خان مرجان المعروف بأورتمه



٥—باب كلواذى احد أبواب بغداد الشرقية



٦ — صورة ثانية لباب المدرسة المرجانية

باشا جاده سي» وقد رمم باب المدرسة المرجانية في عهد الحكومة العربية فأصبح هو والطاق — على ما نرى — في الصورة الرابعة

وفوق باب المدرسة كتابة بديعة تمثل أحسن ما وصل اليه الخط العربي من التحسين في اواسط القرن الثامن للهجرة ويظهر من هذه الكتابة ان أم السلطان الشيخ الجلايري (من المغول) أمرت ببنائها ودونكها وان عفا الزمان بعض كلماتها :

« بسم الله الرحمن الرحيم انما يخشى الله من عباده العلماء ، أنشأ هذه المدرسة المباركة والمصلّى من صدقات . . . . السعيد . . . . أنار الله برهانها في دولة ولدها النويان [١] الأعظم الـ . . . السعيد شيخ حسن . . . الله وكملت في ايالة ولده النويان الاعظم ناشر العدل في العالم سلطان السلاطين غياث الدنيا والدين ومغيث الاسلام والمسلمين شيخ أويس نويان . . . الله دولتهُ بمولاهم الصاحب الاعظم ملجأ وملاذ الامم مربي الملوك وعضد السلاطين وكهف الضعفاءِ المخصوص بعناية الرحمن امين الدين مرجان أسبغ الله عليـه نعمه الجز [يلة] إنهُ هو الكريم المنّان ، ابتدأ عمارة هذا المكان في تاسع جمادى . . . وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد نبي الرحمة وشفيع الامة ومجلّي الغمّة وعلى آله وصحبهِ الطيبين الطاهرين والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين ، كتبهُ العبد الضعيف المحتاج الى رحمة الله تعالى احمد شاه النقاش المعروف بزرين قلم التبريزي غفر الله ذنوبه وستر عيوبه »

وفي وجه هذه المدرسة من الريازة العجيبة والزخرف البنائي البديع والنقش الجميل ما يبهر الناظر ويدهش الالباب ويذكر بفنون دارسة يعجز عن تقليدها بناة القرن العشرين أبداً ، وفي داخل المدرسة كتابات متعدّدة ولاسيما المُصَلَّى ، فقد رقمت على جدرانه « وقفية المدرسة المرجانية » قال عبد الله بن فتح الله البغدادي الملقب بالغياث في تاريخ السلطان اويس بن الشيخ حسن ثاني سلاطين الدولة الجلايرية بالعراق « بويع بالسلطنة ببغداد سنة ستين وسبعمائة وكان محبّاً للخير والعدل شهماً شجاعاً عادلاً خيراً وكان له من العمر عشرون سنة حين بويع وخطب له بمكة وارسل الى مكة مالاً جليلاً وقناديل ذهب وفضة للكعبة فخطب باسمه في الحرم الشريف وكان والي مكة حينئذٍ « عجلان ابن رميثة ». . . واتفق في زمان السلطان اويس عمارة عظيمة لم يتفق في دور احد السلاطين مثلها منها المدرسة المرجانية ودار الشفاء [٢] واسواق وخانات عمّرها « مرجان » آغا وكان طواشيّاً [٣] رومي الاصل يلقّب امين الدين مرجان ،وكان اذا توجه السلطان الى تبريز تولّى مرجان على بغداد... وكان مرجان رجلاً خيّراً استأنف عمارات وجدّد عمارات دائرة من قديم ثم اوقف عليها العقار

(١) النوين بفتح النون واشمامها الضم وتسكين الواو وفتح الياء و «النويان» هو السلطان والامير عند المغول
(٢) دار الشفاء كانت على ضفة دجلة الشرقية وتعرف اليوم بقهوة الشط بل كانت اوسع كثيراً
(٣) الطواشي المملوك .

والضياع — كما نطقت بهِ وقفيته — ونقر ذلك على جدران العمارات وكان لهُ خيرات على الفقراء والمساكين حتى اطعم السنانير والزرازيق وحيتان الشط والطيور من اللحم والخبز والشيلم في صحن دار الشفاء وصحنها على جانب دجله »[1]

٤ — خان مرجان

وهو الذي ترى بعض بابهِ وما فوقه من الكتابة في الصورة ذات الرقم « ٥ » والخطّ يمثل أحسن ما وصلت اليهِ قواعد الخط في اواسط القرن الثامن للهجرة في العالم الاسلاميّ كافة ، وسمى الترك هذا الخان « اوروتمة » لظلامه ، وهو من العمارات المدهشة حقاً ، ودونك ما فوق بابهِ الغربي الشمالي من الكتابة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، امر بانشاء هذا النيم[2] والمنازل والدكاكين المولى المخدوم الامر الصاحب الاعظم الاعدل ملك ملوك الامراء في العالم صاحب العدل الموفور عضد السلطنة والامارة حاوي مرتبة الامارة والوزارة افتخار شُهَّد الاوان المخصوص بعناية الرحمن أمين الدين مرجان الاولاقايتي ، وقفها على المدرسة المرجانية ودار الشفاء بباب الغربة ، كذلك عقرقوف والنصف من القائمية وتل رحيم ومزرعة بالصراة وبساتين بالمخرّمية وبساتين بقرية الفرك والزادمان وخرماباد ورباط جلولا المعروف بقزلرباط ورزين جوي ونصف دوري وبساتين ببعقوبا وبوهرز والبندنيجين وخان ودكاكين بالحلبة واربع خانات ودكاكين بالجوهريين وخان بالجانب الغربيّ ودكان كاغد بالحريم — كما هو محدود مشروح في الوقفية — وقفاً صحيحاً شرعيّاً تقبل الله منهُ الطاعات في الدارين وبلغهُ نهاية المراد ، وكان الفراغ منهُ سنة ستين وسبعمائة ، والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد النبي الاميّ العربيّ الصادق وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه وسلم ، كتبهُ الفقير الى رحمة ربهِ احمد شاه النقاش المعروف بزرين قلم غفر الله ذنوبه »

٥ — باب كلواذى (البصلية)

والرسم السادس لباب كلواذى من ابواب بغداد الشرقية المسوّرة ويعرف ايضاً بباب البصلية وتظهر فيهِ مرامي السهام وصفتها انها كالكوّة الصغيرة من داخل سور الباب وكالشباك من خارجه ليجد الرماة متسعاً لتوجيه السهام وتصويبها إلى نواحٍ كثيرة ، ولهذا الباب ذكر كثير في التاريخ ، وقد رمم واتخذتهُ النافلة الانكليزية البروتستانية كنيسة لها حتى هذه الايام

القاهرة مصطفى جواد

(١) التاريخ الغياثي عن نسختنا الخطية (٢) النيم هو النصف بالفارسية ، والظاهر انهم كانوا يريدون به « نصف سرداب » لقلة دركاته

القضاء في السودان

لخليل الخوري
القاضي بمحاكم السودان سابقاً

القضاء المدني

القضاء السوداني يختلف في شقّيه المدني والجنائي اختلافاً جوهريًّا عن القضاء المصري او غيره في الاقطار العربية المجاورة ولقد رأيت ان اورد لمعة عن القضاء المدني السوداني في هذه المقالة اذكر فيها ما كان مختلفاً عما هو مألوف في مصر وغيرها

يمتاز القضاء المدني السوداني عن القضاء المدني في غير السودان في مسائل شتى منها :—

اولاً — وحدة المحاكم — المحاكم المدنية مختصة بالنظر والحكم في جميع المسائل المدنية فيتناول اختصاصها الاحوال الشخصية على الاطلاق عند غير المسلمين والمسائل المدنية والتجارية وغيرها وسبب هذه الوحدة هو عدم وجود الامتيازات الملية والقنصلية او المختلطة او غيرها من الامتيازات التي احدثت في مصر وغيرها بلبلة في القضاء وادّت الى تنازع الاختصاص الذي ضجَّ منهُ الناس . . والمسلمون وحدهم لهم محاكمهم الشرعية للنظر والحكم في احوالهم الشخصية . فالمحاكم السودانية الاعتيادية لها سلطة على جميع الاشخاص وعلى جميع المسائل الاَّ ما تعلق منها باحوال المسلمين الشخصية

ثانياً — القانون المدني الذي يطبق في المحاكم — ليس في السودان قانون موضوع في المسائل المدنية كالبيع والاجارة والاعارة والوديعة وامثالها من الموضوعات المدنية المعروفة ولكن الحكومة وضعت بعض قوانين للشركات والافلاس والكمبيالات والرهن العقاري وموضوعات اخرى وهذه يجب على المحاكم تطبيقها اما المسائل التي ليس لها قانون خاص فالمحاكم تعمل فيها بحسب مقتضى العدل والانصاف والضمير

ثالثاً — تشكيل المحاكم واختصاصها — في السودان قسمان من المحاكم : الاول المحكمة العليا والثاني محاكم المديريات

اما المحكمة العليا فمؤلفة من رئيس القضاء ومن قضاة آخرين . ومركز المحكمة العليا في الخرطوم ولها اختصاص ابتدائي واستئنافي — فتشكل المحكمة الابتدائية العليا من قاضٍ واحد من قضاة المحكمة العليا يجلس منفرداً للنظر والحكم في جميع المسائل التي ترفع اليهِ كائنة قيمتها ما كانت — واذا قلنا المحكمة العليا فلا يتبادر الى الذهن ان هنالك محكمة مؤلفة من عدد من هؤلاءِ القضاة للنظر في القضايا مشتركين بل المحكمة العليا كناية عن قاضٍ واحد برأس المحكمة وينظر في جميع المسائل وحده واذا وجد اكثر من واحد من هؤلاءِ القضاة فيناط بكل منهم قضايا خاصة او اعمال تشريعية . فقد حدث في وقت من الاوقات ان كان في الخرطوم خمسة قضاة في المحكمة العليا — رئيس القضاء وعمله الاساسي الاشراف على المحاكم في السودان والنظر في استئنافات خاصة وحده والقيام باعمال محكمة نقض وابرام في المسائل الجنائية وحده ورآسة محكمة الاستئناف العليا المدنية — وقاضي محكمة الخرطوم العليا المنوط به النظر في القضايا الابتدائية المختلفة في مديرية الخرطوم كلها والنظر في تظلمات خاصة من احكام القضاة الجزئيين والانضمام في بعض الاحوال كعضو في محكمة الاستئناف العليا للنظر في الاستئنافات التي ترفع في احكام قضاة المحكمة العليا واحكام قضاة المديريات . وقاضي الافلاسات والتنفيذات المنوط بهِ اعمال الافلاس وتنفيذ الاحكام . وقاضي التشريع المنوط بهِ وضع القوانين واللوائح والمنشورات بالاتفاق مع السكرتير القضائي وسائر رجال القضاء لعرضها على مجلس الحاكم العام . ومسجل الاراضي العام الذي هو في الواقع مدير اعمال التسجيل في السودان وليس لهُ عمل قضائي وانما هو قاضٍ من قضاة المحاكم العليا . وجميع هؤلاءِ القضاة كلهم منهم مَن لهُ عمله الاساسي الذي يستغرق اوقاته وعلاوة على ذلك قد ينتدب لعمل قضائي آخر . وفوق هؤلاءِ السكرتير القضائي الذي يشغل منصب وزير الحقانية وهو قاضٍ ايضاً وفي بعض الاحايين يرأس محكمة الاستئناف العليا. وليس هنالك اذن محكمة استئناف دائمة او ثابتة كما هي الحال في مصر او غيرها ولكن رئيس القضاء هو الذي يشكل عند الاقتضاء محكمة الاستئناف من ثلاثة قضاة فيرأس المحكمة هو او يرأسها اقدم قاضٍ بعده على رأي رئيس القضاء وفي بعض الاحوال اذا لم يكن ثمة عدد كاف من قضاة المحكمة العليا لتشكيل محكمة الاستئناف العليا فقد ينضم السكرتير القضائي الى المحكمة ويرأسها في هذه الحالة

***

اما محاكم المديريات فتكون في المديريات التي لم تنشأ فيها محكمة عليا اي لم يعين فيها قاضٍ من قضاة المحكمة العليا وتتنوَّع محكمة المديرية الى محكمة قاضي المديرية ومحكمة قاضٍ جزئي من الدرجة الاولى ومحكمة قاضٍ جزئي من الدرجة الثانية ومحكمة قاضٍ جزئي من الدرجة الثالثة— وهؤلاءِ القضاة يحكم كل منهم منفرداً في القضايا المدنية واختصاص محاكمهم يختلف باختلاف درجاتهم فيحكم قاضي المديرية والقاضي الجزئي من الدرجة الاولى في جميع المسائل بلا قيد ولا شرط من جهة القيمة ويحكم القاضي الجزئي من الدرجة الثانية في القضايا التي لا تزيد قيمة الواحدة منها عن الخمسين جنيهاً

مصريًا ويحكم القاضي الجزئي من الدرجة الثالثة في القضايا التي لا تزيد الواحدة منها عن الخمسة جنيهات مصرية — ولا يصح استئناف الاحكام الا ما زاد قيمتها عن الخمسين جنيهاً مصريًا. اما سائر القضايا التي تنقص قيمتها عن الخمسين جنيهاً فيجوز التظلم من احكامها لا على سبيل الاستئناف بل على سبيل طلب مراجعة الاحكام . وهذه التظلمات ان كانت من احكام القضاة الجزئيين ترفع الى قاضي المديرية وان كانت من احكام قاضي المديرية او من احكام قاضي المحكمة العليا ترفع الى محكمة الاستئناف العليا وفي الواقع ان قُبِل الطلب فلقاضي الاستئناف ان ينظر فيه كأنهُ استئناف وله ان يسمع شهوداً وغير ذلك والفرق بين المراجعة والاستئناف انه في حالة طلب المراجعة يجوز لقاضي الاستئناف ان يرفض الطلب بعد استحضار الاوراق وقراءتها رفضاً ايجازيًا

***

مما تقدَّم يظهر ان القضاء المدني في السودان مبني على نظام الحاكم المنفرد فلا يجلس اكثر من قاضٍ واحد الا في محكمة الاستئناف العليا ونظام القاضي المنفرد برغم ما عزوا اليه من المساوىء فاني اعتقد انه افضل من نظام القضاء المتعدد فهو يوجد في نفس القاضي روح المسؤولية والاجتهاد وهو اضمن لتحقيق العدل والانصاف وانجاز الاعمال ولم نرَ فيه في الواقع شيئاً من العيوب التي يجسمها خصومه وقد جرب في عهد الحكم الفيصلي في سوريا ثم نبذ بعد ذلك لا لسبب سوى الرغبة في اكثار الوظائف والتمكن من تعيين الانصار والمحاسيب

رابعاً — في رفع الدعوى — توخَّى الشارع السوداني في رفع الدعوى واستماعها والحكم فيها البساطة المتناهية والسرعة في الاجراءات — تبدأ الدعوى بتقديم المدعي عريضة الى المحكمة المختصة وفي السودان لا يصعب على الخصم ان يعرف المحكمة المختصة لان تنازع الاختصاص بالشكل المعروف في مصر وغيرها غير مألوف في السودان واهم ما يجب معرفته من أجل ذلك اختصاص المحاكم بالنسبة الى قيمة القضية وبالنسبة الى المقر. اما الاختصاص بالنسبة الى نوع القضايا فليس له شأن في السودان واذا قدمت العريضة الى المحكمة نظر القاضي فيها في نفس اليوم الذي تقدم فيه فان رأى فيها نقصاً صححهُ في نفس الوقت واذا وجد وجهاً لرفع الدعوى قبلها وان رأى أن ليس هناك سبب يجيز رفعها او انه غير مختص بنظرها رفضها وافهم صاحبها في الحالة الثانية بوجوب تقديمها في محكمة اخرى وكل ذلك قبل ان يدفع صاحب العريضة الرسم ومتى قبل القاضي الدعوى عين لها جلسة واعلن الخصم المدَّعى عليه للحضور في اليوم المعين وفي اليوم المعين تنظر الدعوى بحسب الاصول

والاختلاف العظيم بين القضاء السوداني وغيره في رفع الدعوى واعلان الخصوم والشهود وغير ذلك هو ان القاضي في السودان هو الذي يحرك الدعوى وهو الذي يعلن الخصوم والشهود وفي الغالب تنتهي مهمة المدعي بتقديم عريضتهِ الى المحكمة ودفع الرسوم المقرَّرة وهي التي تباشر بعد

ذلك السير في جميع الاجراءات بناءً على طلب المدعي . اما في غير السودان فالدعوى في أيدي الخصوم اذا لم يحركوها بقيت نائمة الى ما شاء الله

خامساً — تنفيذ الاحكام — الطرق التي ينفذ بها حكم بدفع مبلغ من النقود خمس : — الاولى حجز منقولات المحكوم عليه ومبيعها . الثانية حجز ما للمدين لدى الغير . الثالثة بيع عقارات المدين. الرابعة القبض على المدين وحبسه . الخامسة الجمع بين طريقين او اكثر مما ذكر . فاذا طلب المحكوم له من المحكمة تنفيذ الحكم أمرت بحجز منقولات المحكوم عليه ثم بيعها فاذا ادعى احد ملكية المنقولات المحجوزة نظر القاضي الذي أجرى الحجز في تلك الدعوى بوجه السرعة اما في اثناء التنفيذ نفسه ومعه واما في دعوى منفردة يرفعها المستردّ وفي كلتا الحالتين ينظر في دعوى الاسترداد بصورة ايجازية مستعجلة — اما التنفيذ بحجز ما للمدين لدى الغير فيكون باعلان مدين المدين وتكليفه دفع ما عليه بما يفي المبلغ المحكوم بهِ . اما التنفيذ ببيع العقارات فيلتجأ اليه اذا اخفقت الطريقتان المذكورتان واجراءاتهُ سهلة في السودان وها هي : (١) يأمر القاضي المحكومَ له بأن يستحصل شهادة من مكتب تسجيل الاراضي تثبت ملكية المدين للعقار المراد بيعه وهذه الشهادة لا يستغرق الحصول عليها في السودان اكثر من بضع دقائق لانه أُنشيءَ في السودان مكتب تسجيل واحد والمسجل يسجل العقارات لا الاشخاص والنظام المعمول بهِ في السودان هو نظام طورنز فاذا اردت معرفة من يملك العقار الفلاني فما عليك الاَّ ان تتوجه الى مكتب التسجيل وتدفع رسماً بسيطاً قدره ستة قروش لاستصدار شهادة عن العقار المطلوب ومتى اقنعت المسجل ان لك شأناً بتلك الشهادة كأنك تريد شراء العقار او ان لك حكماً على صاحبه او لاي سبب آخر معقول ودفعت ذلك الرسم اليسير أعطاك مكتبه الشهادة ولا يستغرق استصدارها اكثر من بضع دقائق ولا تتكلف اكثر من زيارة واحدة لمكتب التسجيل . والشهادة التي تأخذها تشمل تاريخ العقار وما جرى له منذ المسح والتسوية حتى ساعة اعطاء الشهادة — فمن تقرير ملكيته في اول الامر لزيد ثم رهنه لعمرو ثم فكّ الرهن ثم بيعه لبكر ثم رهنه لخالد ثم فك الرهن ثم رهنه لآخر ثم فك الرهن الاخير وصفاء الملك في آخر الامر لخالد — وهكذا فان الشهادة التي تعطى شهادة صحيحة ووافية وكافية وعلى ضوئها يمكنك ان تسير . واتقان اعمال التسجيل في السودان يسهل على المحاكم اعمالها ومتى حصل المحكوم له على تلك الشهادة توجه بها الى القاضي وأول ما يعمله القاضي ان يصدر انذاراً الى المدين صاحب العقار ينهاه به عن التصرف في العقار المراد بيعه ويعلق نسخاً من الانذار في الاماكن اللازمة تدلُّ الناس على ان العقار محجوز وكذلك يخبرَ مسجل الاراضي بأن لا يسجل ايَّ عقود خاصة بذلك العقار . ثم يصدر اعلاناً آخر يذكر فيه اوصاف العقار ويحدد يوماً لبيعه فاذا جاء يوم البيع وبيع العقار تمَّت اجراءات البيع والنقل بحسب الاصول المعروفة . اما الطريقة الرابعة للتنفيذ فهي بالقبض على المحكوم عليه وبحبسه وهذه تقع فيما لو اخفقت جميع الطرق الاخرى بأن لم يوجد عند

المدين مال منقول او عقار او دين في ذمة الغير واذا كان المدين صاحب عمل يأخذ عليهِ مرتباً شهريّاً او صاحب حرفة ففي مثل هذه الاحوال تأمره المحكمة بأن يدفع المبلغ المحكوم به بأقساط شهرية على حسب استطاعته فاذا ماطل في الدفع وظهرت للمحكمة سوء نيته جاز لها ان تأمر بحبسه لتحصيل الديون في الاحوال التي لا يمكن تحصيلها بها بأية طريقة اخرى غير الحبس. وكثير من الاحكام التي تصدر على اشخاص ليس لهم اموال ظاهرة يمكن حجزها وبيعها تنفذ في السودان بطريقة الزام المحكوم عليهِ بدفع دينه بالاقساط — ومع ان القانون السوداني يجيز حجز رواتب الموظفين غير الحكوميين كموظفي الشركات والبنوك وغيرها من الدوائر والاعمال فيندر ان تلجأ المحاكم الى حجز المرتبات لما يحدثه ذلك من الارتباك والازعاج لرؤساء المحكوم عليهم بل تسير في الاكثر على تكليف المحكوم عليه دفع مبلغ كل شهر. ولكن خوف المحكوم عليه الحبس فيما لو ماطل في دفع الاقساط المحكوم بها يحملهُ على المسارعة الى الدفع من تلقاء نفسه فكأنهُ هو الذي يحجز من مرتبه جانباً معيناً ويدفعه — اما امر الحبس فيصدر عند ثبوت المماحكة وسوء النية بناء على طلب المحكوم له ولا ينفذ اذا دفع المحكوم عليه المبلغ واذا حبس ودفع بعد الحبس أفرج عنه. وثمة حالة واحدة يجوز فيها حجز رواتب مستخدمي الحكومة وموظفيها وهي لا تعرف في مصر وذلك اذا حكم على المستخدم بالافلاس — وفي السودان يجوز اشهار افلاس اي انسان — جاز للمحكمة ان تحجز لدى المصلحة التابع لها المستخدم المذكور جزءاً من راتبه وتوزعه على الدائنين

***

ومما تقدم تختلف اجراءات التنفيذ في السودان عنها في مصر وغيرها بأن الحبس من طرق التنفيذ المقررة في القانون المدني السوداني وهنالك اختلاف آخر في نظام التسجيل يجعل طريق التنفيذ بواسطة حجز العقار وبيعه سهلاً جدًّا وفي مصر وغيرها لا يلتجيء المحكوم له الى التنفيذ على العقار الاَّ في النادر لصعوبة التنفيذ وتعقيد معاملات العقارات والتسجيلات العقارية. ولا اعلم متى تستطيع الحكومة المصرية ان تنفذ في بلادها نظام طورنز القيّم بحذافيره وتوحد مكاتب التسجيل بانشاء مصلحة خاصة لتسجيل الاراضي بعد مراجعة اعمال المسح والتسوية وتوليتها اعمال التسجيل كلها واستيداع السجلات واخراج ذلك من المحاكم المختلطة ومن المحاكم الشرعية ومن غيرها. فاذا اغتفرت فوضى التسجيل في غير مصر فلا تغتفر في مصر وهي ممتعة بحكومة مستقرة منذ اكثر من مائة سنة. ولقد يظن البعض ان حكومة السودان لم تتكبد مشقة كبيرة في سبيل تطبيق نظام طورنز لانها دخلت دخولاً جديداً في بلاد جديدة والحقيقة هي غير هذه وسل عنها الضباط المصريين الذين شاركوا الانكليز في اعمال المسح والتسوية والتحديد والتسجيل الشاقة ينبئوك ان النظام السهل القائم الآن في السودان لا يمكن اجراؤه الاَّ بعد عمل شاق متواصل

يستغرق لا اقل من خمس عشرة سنة ولا اظن ان شيئاً من هذه المشاق قد حاولت الحكومة المصرية تكبده في سبيل تعديل نظام التسجيل في مصر ولو عمدت الى العمل لما وجدت ذلك متعذراً عليها — فقد عمدت حكومة السودان منذ بدء الفتح الثاني الى مباشرة ذلك العمل العظيم عمل تثبت ملكية العقار وكان الضباط المصريون على طول الخط يجاهدون ايما جهاد ويعود اليهم الفضل الكبير في ذلك العمل العظيم والذين تحضرني اسماؤهم من هؤلاء الضباط هم اللواء ابراهيم خيري باشا والاميرالاي محمد بك عزت والاميرالاي مصطفى فهمي بك هلوده والقائم مقام صابر بك طنطاوي والقائم مقام ابراهيم بك زكي وهبي والبكباشي احمد افندي حمدي واليوزباشي احمد افندي حموده والبكباشي ابراهيم افندي صادق واليوزباشي محمد افندي النقيطي واليوزباشي محمد افندي مرسي وكثيرون غير من تقدم ممن لا اذكرهم الآن

***

ومن المسائل التي يختلف فيها القضاء المدني السوداني عن القضاء في مصر وغيرها — مسألة توكيل المحامين ففي السودان يعفى المحامي من ابراز توكيل من موكله بل يقبل قوله انه وكيل عن فلان ولا يطالب بتقديم توكيل منه وهذا النظام يسهل عمل المحامي — ومن ذلك انه يجوز للمحكمة لاي سبب تراه كافياً وقت اصدار الحكم ان تأمر في نفس الحكم بتأجيل دفع المبلغ المحكوم بهِ او بدفعه بأقساط بفائدة او بدون فائدة على حسب ما ترى ولها ان تفعل ذلك بعد صدور الحكم ولكن برضاء المحكوم له وفي كلتا الحالتين اذا حصل تأخير من قبل المحكوم عليهِ في دفع الاقساط كان للمحكوم له ان يطلب تنفيذ الحكم بالمبلغ الباقي كله

ومن المسائل المهمة التي يختلف فيها القضاء السوداني مسألة غلق الرهن وغلق الرهن معناه نقل ملكية العين المرهونة من المدين المالك الى المدين بدينه وهذا الغلق يحصل اذا عرض العقار المرهون للبيع ولم يمكن بيعه بما يوازي المبلغ المحكوم بهِ ومصاريفهِ بل عرض ما دون ذلك ففي هذه الحالة تقرر المحكمة غلق الرهن اي تقرر تملك الدائن للعقار بالدين الذي له فلو كان له الف جنيه والعقار لم يمكن بيعه بغير اربعمائة اخذه الدائن — بالالف جنيه وليس له ان يطالب المدين بشيء آخر فيما بعد — وفي اللغة غَلِقَ الرهن غلقاً في يد صاحبه على وزن سمع بفتح الغين وكسر اللام بقي ملكاً للدائن المرتهن عند عدم مقدرة المدين الراهن على الوفاء عند حلول الاجل وهذا نظام موفق في القضاء السوداني ويا حبذا لو امكن الاخذ بهِ في غير السودان

ومنها امتزاج السلطة القضائية بالسلطة التنفيذية — خذ مثلاً السكرتير القضائي فهو قاضٍ من قضاة المحكمة العليا وله ان يباشر سلطات القاضي المذكور وله ان يرأس محكمة الاستئناف العليا وكذا مديرو المديريات ووكلاء المديريات ومفتشو المديريات ومساعدو مفتشي المديريات ومأمورو

المراكز فهؤلاء جميعهم لهم سلطات قضائية فالمدير او نائب المدير قاضي مديرية ووكيل المديرية والمفتش قاضٍ من الدرجة الاولى ومساعد المفتش قاضٍ من الدرجة الثانية والمأمور قاضٍ من الدرجة الثالثة وهؤلاء لا يباشرون سلطاتهم القضائية الاّ في الجهات التي لم يعين فيها قضاة من قبل المصلحة القضائية — وهـذا الامتزاج او الاختلاط ليس فيهِ ضرر من الاضرار التي يقولون عنها في جمع السلطات الثلاث . وفي السودان هذا الامتزاج نافع في الواقع فتدخل السكرتير القضائي وتدخل الجهات الادارية في الاعمال القضائية لا غبار عليه وهو تدخل موفق في حكومة مثل حكومة السودان مبنية على التضامن والتعاون . ومنها نظام محاكم المشايخ والمحاكم القروية ومحاكم المدن وهـذه كلها أشبه بمحاكم الاخطاط التي انشئت في مصر في سنة ١٩١٢ ثم الغيت بعد ان جربت في مصر تجربة دامت بضع سنين . اما في السودان فالمحاكم المذكورة هي محاكم انشئت منذ سنة ١٩٢٨ على سبيل التجربة ومنتقدوها اكثر من محبذيها وسيظهر الاختبار بعد بضع سنين صواب هذا النظام او خطأه . ومنها انهُ يجوز للمحكمة في اية درجة من درجات القضية التي قيمتها عشرة جنيهات مصرية او اكثر ان تأمر بالقبض على المدعى عليه واحضاره امامها لتقديم ضمان لحضوره في الجلسة او لاثبات عدم ضرورة ذلك في اي الاحوال الآتية : اذا كان قد اختبأ او كان قد غادر دائرة اختصاص المحكمة او اذا ظهر انه يحاول ما تقدم او اذا كان تصرف بماله او ببعض ماله او اخرجه من دائرة اختصاص المحكمة او اذا ظهر انهُ ينوي مغادرة السودان في ظروف تحول بالمدعي دون تنفيذ الحكم الذي قد يصدر ضد المدعى عليه — هذا نص احتياطي يراد بهِ حفظ حقوق المدعي وصيانتها من احتيال المدعى عليه وتهربه من تنفيذ الحكم . ومنها ما هو متعلق بالاثبات والادلة — يجوز في السودان اثبات الدين او الحق بالبينة اي بشهادة الشهود مهما كان المبلغ كبيراً بخلاف الحال في مصر وسوريا وسائر الاقطار المجاورة حيث يقصرون قبول شهادة الشهود على اثبات الدين او الحق الذي لا يتجاوز مبلغاً معيناً او عشرة جنيهات مصرية على وجه التقريب . ونظام السودان هذا اقرب الى العدل والعقل لانهُ توجد احوال كثيرة تحول دون الاحتياط بالادلة الكتابية ولا اعلم لماذا وضع بعض المتشرعين مثل هذا النص وهم يعلمون ما فيهِ من العيب وفوق ذلك فالقاضي غير مرتبط بشهادة الشهود الاّ اذا اقتنع بصدقها ومطابقتها للواقع ولعل سبب هذا النص مسبب عن ضعف الايمان في القضاة اكثر مما هو مسبب عن ضعف الايمان في اقوال الشهود

***

وعلى العموم يمتاز القضاء المدني السوداني عن غيره ببساطة اجراءاتهِ وجلائها والاعتماد هناك على القضاة اكثر منهُ على القوانين وكلما تعقدت القوانين وتشعبت كان تطبيقها اصعب ودلّ ذلك على نية تكبيل القضاة وقلة الثقة فيهم والعكس بالعكس

وسأذكر بعض الشيء في المقال الآتي عن القضاء الجنائي في السودان

نهضة التعليم في العراق

لامين سعيد

لعلّ اعظم ما في العراق هذه النهضة التعليمية العظيمة وهذا الاقبال الزائد على طلب العلم والارتشاف من مناهله العذبة

ولقد كان مؤسس دولة العراق عليهِ الرحمة والرضوان يعمل على تعميم التعليم ونشره بمختلف الوسائل والاساليب ويعنى بوجه خاص بتعليم البنت وكان تعليمها غير معروف تقريباً في العراق ابان العهد القديم لاعتقاده بانهُ لا يمكن انشاء اسرة عربية بالمعنى الاجتماعي المفهوم من هذه الكلمة الاَّ على يد المرأة المتعلمة ، فالمرأة الجاهلة الخاملة نكبة على نفسها وعلى اهلها وعلى اسرتها وعلى امتها . وكذلك كان يعنى بتحضير العشائر — ويؤلف ابناؤها ٥٥ في المئة من مجموع سكان العراق — ويعمل على نشر التعليم بينهم وتعويدهم الحياة المدنية واذاقتهم طعمها العذب لاعتقاده ايضاً انهُ لا يمكن اصلاح وطن يعيش نصف ابنائه عيشة البداوة ويسيرون على سننها وتقاليدها

ولقد سمعت كثيراً عن الاساليب التي كان يلجأ اليها في نشر تعليم البنات بوجه خاص ، ومما رووه لي ان سكان الكاظمية (وهي قرب بغداد وتمد من ضاحيتها وبينهما ترامواي يسير على الخيل والمسافة ٧ كيلو مترات) أبوا ان يرسلوا بناتهم الى مدرسة البنات التي انشأتها الحكومة في اوائل هذا العهد بامر الملك فلم يدخلها في سنتها الاولى سوى تلميذتين او ثلاث ، وظلّ الامر على ذلك تقريباً في السنة التالية فاقترحت وزارة المعارف اغلاقها لعدم الاقبال عليها فقال انهُ لا يغلقها ولو ظلت المدرّسة وحيدة في المدرسة ثم لجأ الى اساليبه الخاصة في حض الناس على التعليم فكان يخاطب الشيوخ والرؤساء والوجهاء الذين يزورونهُ داعياً اياهم الى ارسال بناتهم الى المدرسة ومظهراً فوائد التعليم ولا يدعهم الاَّ بعد ما ينال منهم وعداً باجابة طلبهِ ، على ان مهمتهُ ما كانت تنتهي عند هذا الحد بل كان يرقب تأثير سعيهِ عند الذين خاطبهم ومتى اتصل بهِ ان احدهم ارسل بناته الى المدرسة استدعاهُ اليهِ في الغداة وقرّبهُ منهُ وقضى لهُ مصالحهُ ويسّر لهُ اموره ، فيسمع ذلك جيرانه فيقتدون بصاحبهم . وقد كانت هذه الطريقة من جملة الاساليب التي ادّت الى رواج تعليم البنات

وانتشاره في انحاء العراق وحسبي ان اقول بان في مدرسة الكاظمية وحدها اليوم نحو ٢٥٠ تلميذة يتعلمن القراءة والكتابة وقد انشأت الحكومة داراً نخمة لها بعد ما اعتزمت الغاءها في السابق كما علمت

وخطا تعليم البنات في هذه السنوات خطوات واسعة وانتشر انتشاراً يذكر فاقيمت المدارس والمعاهد فاقبل عليها الناس اقبالاً يذكر فارتفعت ارقام التلميذات وزاد عدد المدارس كما ينطق بذلك الاحصاء الآتي :

كان عدد مدارس البنات في العراق سنة ١٩٢١ المدرسية اي حين انشاء الدولة الجديدة ٢٧ مدرسة ابتدائية تضم ٣٠٤٩ تلميذة فارتفع في سنة ١٩٣٢ — ١٩٣٣ المدرسية الى ٧٤ مدرسة ابتدائية تضم ١٠٦٨٧ تلميذة وتدرّس فيها ٣٧٨ مدرّسة

وهنالك ايضاً ٥ مدارس متوسطة ذات ثلاث صفوف لتعليم البنات : ٢ في بغداد وواحدة في الموصل ومثلها في كل من العمارة والحلة وبعقوبة والبصرة . وقد انشئت مدرسة ثانوية للبنات في بغداد خلال السنة الجديدة وبلغ عدد الطالبات في هذه المدارس خلال السنة الماضية ٤٤٠ طالبة وفي بغداد ايضاً دار معلمات لتخريج مدرسات عدد طالباتها ٣٠

وانشأت حديثاً دار معلمات ريفية في الديوانية لتخريج مدرّسات لمدارس البنات في الارياف وفتحت في هذه السنة ايضاً مدرسة « الفنون البيتية » لتعليم البنات الشؤون المنزلية من تربية الاطفال والعناية بهم والتمريض والخياطة والطبخ والكي ، ويشترط في اللواتي يقبلنَ فيها ان يكنَّ ممن نلنَ الشهادة الابتدائية . ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات ويبلغ عدد تلامذتها ١٥٠ تلميذة في الوقت الحاضر . ولا بدَّ لنا من الاشارة الى بعثات البنات فقد سارت وزارة المعارف على خطة ارسال الطالبات اللواتي يتخرجنَ من المدارس المتوسطة الى مدارس بيروت العالية للبنات لاكمال تحصيلهنَّ . وقد جاء في احصاء رسمي ان عددهنَّ بلغ في سنة ١٩٣٣ الماضية ١٨ طالبة يتعلمنَ على نفقة الحكومة

***

ولقد سارت الحكومة في ترقية التعليم وتنظيمه على الأسس التي سارت عليها في العناية بالصحة وكما انشأت وزارة الداخلية لجنة من الاطبـاء الاخصائيين لوضع تقرير مفصل في الخطط التي يجب السير عليها لمكافحة الامراض ورفع المستوى الصحي فقد جاءت من الولايات المتحدة ببعثة من كبار رجال التعليم لدرس حالة المعارف ونظم التعليم والاشارة بما يجب عمله للاسترشاد بآرائها واختباراتها وقد زار هؤلاء العراق شتاء سنة ١٩٣٢ ووضعوا تقريراً مفصلاً مطولاً طبعتهُ الحكومة العراقية على حدة مترجماً وعدد صفحاته ١٧٦ بالقطع المتوسط . وتتألف هذه البعثة من الدكتور بول منرو مدير المعهد الأممي في كلية المعلمين (جامعة كولومبيا) في نيويورك والدكتور وليام تشاندلر والدكتور ادكار واليس نايت والاخيران من أعضاء المعهد الاممي بدار المعلمين ايضاً وانضم اليهم في بغداد الدكتور محمد فاضل الجمالي (المرشد العام لوزارة المعارف العراقية اليوم خبيراً) فقضت شهرين

وبضعة أيام باحثة دارسة . واليك ما قالته في صدد تعليم البنات : « لم تعجب اللجنة بشيء من امور معارف العراق اعجابها بالاهتمام الحقيقي الظاهر في كل مكان بتعليم البنات والنساء ، ومع قلة عدد المدارس فاستحسان الجمهور لها واضح بدليل كثرة اقبال الطالبات عليها وحسن دراستهنَّ في الصفوف المتيسرة وتبرع الجمهور لها . وهنالك ظاهرة اخرى تبعث على الارتياح الكبير وهي اهتمام الطالبات انفسهنَّ بما تهيؤه لهنَّ المدرسة من فرصٍ للقيام بأعمال مفيدة اجتماعية وقد ظهر للجنة من محادثتها عدداً من طالبات الصفوف المتقدمة في المدارس التي زارتها ان التلميذات مولعات بأن يتدربن في المستقبل ويخدمنَ كمعلمات او طبيبات او ممرضات واختصاصيات حتى ان بعضهنَّ طلبنَ ان يكنَّ محاميات وموظفات في المصالح العامة الخ »

وهنالك المدارس الطائفية الخاصة بالنصارى واليهود وتساعدها الحكومة وعددها ٤٧ مدرسة عدد تلاميذها ١٢٣١٢ الفاً منهم ١٢٢ تلميذة في المدرسة الاميركية للبنات في بغداد و ٩٦٦ في مدارس البنات للكرمليين و ١٥٧٦ في مدرسة يورا خضوري بنات . ومدرسة البنات الاسرائيليات في البصرة وفيها ٢٩٨ ومدرسة القديس عبد الاحد في الموصل وفيها ١٧٦ تلميذاً

***

وتقدَّم التعليم الابتدائي تقدماً عظيماً في خلال هذه المدة فبعد ما كان عدد المدارس في العراق خلال سنة ١٩٢٠ — ١٩٢١ المدرسية ٧٤ مدرسة تضم ٦٧٤٣ تلميذاً و ٣٦٣ مدرساً ارتفع تدريجاً حتى وصل عدد المدارس في سنة ١٩٣٢ — ١٩٣٣ الى ٣٩٠ مدرسة ابتدائية تضم ٤٣٦٤٣ تلميذاً و ١٦٠١ مدرساً وتسير وزارة المعارف على خطة جديدة ترمي الى مساواة الالوية في التعليم وفي عدد المدارس فلا تكثر في مكان ولا تقل في مكان آخر ولا يزاد لهذا ولا ينقص لذاك وهي ترجو ان يتم لها ذلك في سنة ١٩٤٠ فتعم المساواة وينتشر التعليم بنسبة واحدة في كل مكان . وقد انشئت حديثاً في البدعة (شطرة المنتفك) دار معلمين ريفية لتخريج مدرسين للعشائر والقرى

***

ويعنون ايضاً بالتعليم الثانوي ويبلغ عدد المدارس المتوسطة للبنين ١٩ مدرسة وذلك عدا المدارس المتوسطة للبنات وعددها سبع — وعدد طلاَّب المتوسطات ٢٧٣٤ طالباً . وعندهم أربع مدارس ثانوية في بغداد والموصل والبصرة والنجف تضم ٢٥٣ طالباً . وتسير الحكومة على سياسة تعميم المدارس الثانوية ليكون في عاصمة كل لواء واحدة منها ومدرسة للمعلمين في بغداد عدد طلابها ١٦٥

ويعنى ولاة امور وزارة المعارف بالبعثات العلمية ويرون الاكتفاء بها في الوقت الحاضر ومعنى ذلك انهُ لا توجد هنا فكرة ترمي الى انشاء جامعة للتعليم العالي لان الحالة لا تساعد على التوسع

فيه كما انهم يرون وجوب التريث في انشائها ريثما تتكامل النهضة العلمية الحديثة في بلاد العرب فتقوم في بغداد جامعة عربية كبيرة لنشر الثقافة القومية طبقاً للاساليب الحديثة ويرون ان المسألة مسألة زمان لا اكثر ولا اقل . وقد بلغ عدد اعضاء البعثات ١١٠ في الوقت الحاضر (عدا البنات) فنهم ٤٠ في جامعة بيروت الاميركية و٢٣ في انكلترا و ٢٦ في مصر و ٤ في فرنسا و ٣ في تركيا و ٦ في المانيا وواحد في النمسا

ويجب ان لا يؤخذ من هذا ان الحكومة العراقية تهمل التعليم العالي ففي بغداد مدرسة للحقوق تخرج للبلاد ما تحتاج اليه من قضاة وموظفين اداريين ومحامين وأخرى للطب ومدرسة للحربية وكانت هنالك مدرسة زراعية اغلقت سنة ١٩٣٠ لان خريجيها انصرفوا الى طلب المناصب والتهافت عليها بدلاً من الاشتغال بالاعمال الزراعية الحرة ، والمدرسة الزراعية الوحيدة في العراق اليوم هي مدرسة الحلة الريفية وهي تعلم الزراعة تعليماً عمليًّا لشبان الفلاحين ويشترط في طلابها ان لا يقل سنهم عن ١٨ ولا يزيد عن ٢٥ وقد انشئت في السنة الماضية وعدد طلابها ٨٠

***

وتنفق الحكومة العراقية بسخاء على التعليم فبعد ما كانت ميزانية المعارف ضئيلة جدًّا لا تزيد على خمسين الف جنيه في العهد السابق بلغت ٣٦١ الف دينار في السنة الماضية زيد عليها ٨٤ الف دينار للسنة الجديدة فبلغت ٤٤٤ الف دينار ولا يدخل في هذا الحساب ما تدفعه وزارة المالية لبناء دور المدارس من ميزانية المشروعات الرئيسية وميزانية الاعمال العمرانية لخمس سنوات ، فقد دفعت في السنة الماضية ٢٥ الف دينار وينتظر ان تدفع مثله لهذا العام . وزيادة في البيان نقول ان الحكومة العراقية تنفق على التعليم بمعدل ٣٧ : ٨ في المائة من معدل دخلها والتعليم في جميع مدارس الحكومة مجاني

***

وفي العراق مدرستان صناعيتان الاولى في بغداد وعدد طلابها ١٩٢ والثانية في الموصل والتعليم فيها متوسط ومجاني وتنشىء الحكومة في العاصمة مدرستان ، للذكور والاناث على الطراز الحديث الاولى لتخريج طبقة راقية من الموظفين والثانية لتعليم بنات الطبقة الراقية تعليماً راقياً وستكون اجور التعليم فيها باهظة وربما افتتحتا في اوائل السنة الدراسية

وتعني الحكومة بتعليم الاميين وقد فتحت صفوفاً خاصة لهم في المتوسطات والمدارس الابتدائية ويقدر عدد الذين يترددون على هذه الصفوف بعشرة آلاف في انحاء العراق وقد ادرك بعضهم نجاحاً وتسود وزارة المعارف العراقية روح نشاط مشهودة ويدأب رجالها ليل نهار على نشر التعليم وتوسيع نطاقه متخذين لذلك شتى الوسائل وعاملين على رفع المستوى العلمي والاخلاقي في البلاد وقد اثمرت جهودهم ثمرات طيبة تبشر بمستقبل زاهر وكل من سار على الدرب وصل

عودة الروح

تأليف توفيق الحكيم

٢ — نقد وتحليل بقلم محمد علي حماد

جانب الفكاهة في هذه القصة يغلب جانب الجدّ فيها، وان كانت الرواية جدًّا خالصاً في جوهرها ولبها، فالفكاهة هنا ليست اكثر من اطار ضمنهُ المؤلف لوحاته الثمينة، وعليك ان تنفذ من وراء هذا الرواء الخارجي الى ما هنالك من حقائق الوجود والحياة، و «عودة الروح» ككل اعمال توفيق الحكيم لها ظاهرها الملموس الذي لا تخطئه النظرة العجلى، والقراءة العابرة، ولها هذا الجانب الخفي الذي عليك ان تغوص وراءه لتصل الى حقيقته، ولتفهمه حق الفهم، والاّ فقد عرفت شيئاً وغابت عنك أشياء، او انت في الحقيقة لم تفهم شيئاً، ولم تدرك من عمل المؤلف ما كان عليك ان تدركه بالامعان الطويل، والدرس الطويل. ومن هنا وقع بعض الكتّاب في نقدهم لاعمال هذا المؤلف النابه في اخطاء مضحكة تثير كثيراً من الاشفاق والسخرية، لانهم اكتفوا بهذا الظاهر البرّاق الذي لا يخطئه رجل الشارع، ولم ينفذوا الى ما ورائه، ضنًّا بالجهد وايثاراً للراحة والعافية، او قصراً في الفهم وعيًّا في الادراك لحقائق الاشياء

وقد تمثل « عودة الروح » قوى الخلق والابداع في توفيق الحكيم، وتعدد هذه القوى واختلافها اكثر مما تمثلها أية قصة اخرى من قصصه المتعددة، والمجال الذي يتسع للمؤلف في حوالي خمسمائة صفحة لا يتسع له في ثلث هذا او نحو ذلك. و «عودة الروح» هي القصة الوحيدة Novel التي كتبها توفيق الحكيم، بينما له مسرحيات كثيرة، وفي الفن القصصي تتسع دائرة العمل الى اوسع الرحاب، فمن طبيعة هذا الفن الاستطراد والتفصيل والشرح الوافي والاحاطة الكاملة، بيد ان المؤلف مقيد في مسرحياته بحدود ضيقة ثقيلة متعددة، ومن طبيعة الفن المسرحي الايجاز والتركيز. وبعد، فان الفوارق بين الفنين من الوضوح والبداهة بحيث لا تخفى على احد، ومن هنا كانت «عودة الروح» من ناحية تمثيلها لتوفيق الحكيم أتم واكمل من كل مسرحياته الاخرى، فاذا كانت في كل مسرحية ناحية من قوى الخلق والتفكير لهذا المؤلف، فانك تجد في هذه القصة كل هذه النواحي والجوانب مجتمعة محشودة في صعيد واحد، او هنا — اذا استعرنا تعبير المؤلف — الكل في واحد !!

رأيت جانباً من هذه الصور الفكهة التي برع المؤلف في خلقها وعرضها كل البراعة في شخصياته التي عرضنا لتحليلها، كما لمست جانباً آخر منها في بعض الحوادث التي جاء ذكرها عرضاً في سياق التحليل، واليك هذه الصورة الطريفة لوالدة «محسن» التركية الاصل التي لا تنسى في اشد

الاوقات حرجاً وضيقاً ان تتحدث عن حسبها ونسبها اذ تشتبك مع والد « محسن » الفلاح في عراك مضحك . ثم هذا الوصف الصادق الساخر للدكتور حلمي والد سنية في مجلسه اليومي على باب صيدلية مجاورة لمنزله مع لفيف من امثاله أرباب المعاشات يحدثهم عن السودان ، ولا ينسى هو الآخر اذ يغضب لشرفه وكرامته ان يذكر وقائع القتال التي حضرها وخاصة واقعة أم درمان . وعندك الى جانب هذا الحادثتان الطريفتان اللتان وقعتا للعالمة « شخلع » في حفلتي زفاف دعيت لاحيائهما . ثم اليك المشهد الخلاّب الذي يتتبع فيه «مصطفى» خطى «سنية» لاول مرة ، فاذا به في عيادة طبيب لا يدري اي الامراض يعالج حتى يستطيع ان يستعد لمقابلاته بمرض يناسب المقام . . . ويرتبك ويقع في حيرة شديدة ويتصرّف تصرّفاً يثير في نفسك الضحك والاشفاق معاً

والى جانب قوة الفكاهة والسخرية في المؤلف تجد ملكة التصوير والوصف قوية بارزة ، فالمؤلف يصف لك كثيراً من الشخصيات وكثيراً من الاماكن ، ويصور لك كثيراً من الحوادث والمشاهد فتلمس في كل هذا قوة الفنان المبدع ، ومن أبلغ المشاهد التي تتمثل فيها هذه القوة في اكمل صورها المشهد الذي يصف لك فيه منزل الساحر « الشيخ سمحان » الذي قصدته زنوبة ، وحال النساء الجالسات وما يخالجهنّ من شعور ومن فكر

ونجد هذه الصورة الدقيقة لكثير من المشاهد والعادات المصرية ، ففي وصف المؤلف لقهوة (المعلم شحاته) يعطيك للقهوة « البلدي » وصفاً بارعاً كاملاً ، كما ينقل اليك في اسطر قلائل وصفاً شاملاً محيطاً (للموسكي) . وفي حديثه عن « شخلع » العالمة تتمثل لك هذه الشخصية التي كانت في وقت من الاوقات اساساً في صميم حياة المجتمع المصري ، في افراحه ولياليه الساهرات

الى جانب هذا تلمس بين سطور القصة قوة المؤلف في التحليل والغوص وراء خبايا النفس وخلجات القلب ، وابرازها ابرازاً قويّـاً واضحاً على تعقدها واضطرابها ، وقد ذكرت لك عند ما حدثتك عن « سنية » هذا المشهد الذي تلتقي فيه نظرتها « بمصطفى » لاول مرة وقد حلّله المؤلف تحليلاً رائعاً . ومن الآيات في هذا الباب مشهد الوداع بين « سنية » و « محسن » عندما زارها قبيل سفره الى العزبة ، وهو يكاد يبوح لها بحبه فيمنعه الحياء وقلة التجربة ، وهي تكاد تلمح هذا الحب الذي يضج به قلب الشاب فتمر به مجلى ، وان كانت قد ارتاحت اليه . كذلك تقرأ في ثنايا القصة هذا التحليل الدقيق لما انتاب « محسن » من شتى العواطف عند ما وصلهُ خطاب « سنية » او على الاصح الخطاب الذي توهم انه منها ، وتعرض لنا هنا قضية العقل والقلب كما عرضت لنا في « اهل الكهف » . و « محسن » مهيض الجناح بين هاتين القوتين الهائلتين ، فحيناً الغلبة للعقل فمحسن يائس كل اليأس ، وحيناً الغلبة للقلب فمحسن راج كل الرجاء . ويبلغ سلطان القلب عليه حيناً مبلغاً قويّـاً حتى ليغالط نفسه في الحقيقة المروعة التي صرحت له بها « زنوبة » اذ اطلعته على

حقيقة الخطاب وان الذي كتبه « عرضحالجي »فعلاً ... يغالط« محسن » نفسهفيهذه الحقيقة التي لا شك فيها ويحتفظ بالخطاب كأثر مقدَّس من«سنية» ! ! بلها هو يفزع ويمتقعلونه اذ يقرأ«سليم» الخطاب ولا يجد فيه هذه المعاني التي يفرضها « محسن » فرضاً على هذه الكلمات التافهة التي تضمنها الخطاب .و«سليم» لم يفعل اكثر مما فعله «محسن» نفسهفي فتراتكان العقليسود فيها تفكيره.ويصل بمحسن الوهم الى ان يعتقد ان الامر جد، وان«سنية» ارسلت له هذا الخطاب حقاً ، وانه هو الملوم لانه لم يزرها بعد عودته من السفر . وتحت تأثير هذا الوهم يذهب « محسن » فعلاً لزيارة « سنية »

« وكانما الخيال واستمراره اعاره في نظره قوة الحقيقة . . . او ان الوهم انقلب عقيدة . وأنَّى للحقيقة ان تهزم العقيدة ! الاّ ان يهزم العقل القلب ! ؟ » وهذه هي العقيدة في اسمى مظاهرها، او قل ان هذا هو الايمان المطلق لا يحدُّه شيء ، ولا يعوقه شيء عن ان يسمو فوق مدارك العقل وقوى التفكير. فاذا رجعنا الى ما كنا فيهِ من الحديثعن براعة المؤلف فيتحليل نفوس ابطاله كان لزاماً عليَّ ان اشير الى هذا التحليل الدقيق الذي نرى منهُ كيف ان « مصطفى » الذي ظلَّ الاسابيع الطوال جالساً على القهوة ، عاطلاً لاهمَّ له الاّ تزجية الفراغ وقتل الوقت ، « مصطفى » هذا يكاد يقتله الملل والضيق لانهُ جلس ذات صباح زهاء ساعة ولم تفتح نافذة منزل « سنية » ويراها ! ! ويئس من رؤيتها فسأل نفسه فيما اذن جلوسه في القهوة ؟ ! « ونسي انهُ كان يجلس بالقهوة دائماً ... وانهُ كان ينفق الساعات الطوال فما تململ كما فعل اليوم ولم يمض على جلوسه ساعة »

« فان لم يكن قد فكر من قبل في القيام بهذه السرعة فلأنهُ لم يكن ينتظر شيئاً ، ومن لا ينتظر شيئاً يستطيع ان يقعد العمر حتى العفن وحتى يأكله الدود وهو في مكانه »

ونجد هنا وهناك في ثنايا القصة ومضات صغيرة ، من كلمة عارضة ، او اشارة خاطفة ، او جملة عابرة ، ينطوي تحتها الكثير الجمّ من المعاني والصور ، وإنها لتتم لك الصورة التي يريدها المؤلف حتى كأنما نفثت فيها الروح والحياة . فصورة العسكرية الهازلة المضحكة في « سليم » لم تكن ليتم لها هذا الابداع في التصوير لولا « بدلة التشريفة » التي ارتداها عند زيارته بيت « سنية » ليصلح البيانو . وكان « محسن » يقرأ في ديوان « مهيار » فاذا تمثل في بعض حالاته ببيت من الشعر ، تمثل ببيت لمهيار ، وهذا طبيعي ، ولكن هذا هو الاعجاز في مقدرة المؤلف اذ يأتي لك بالصورة التي تحس فيها الطبيعة المألوفة في غير تكلف ولا تصنع ، حتى لتمر بها دون توقف او تمعن. وهذههي الدقة في الفن، ان تخفي الفن فلا يبدو الاّ اثره ، وكأنهُ من صنع الحياة نفسها لا من عمل الفنان المبدع .
فاذا وقف «محسن» على ضريح السيدة وقد امتلأ قلبه باليأس من حب «سنية» امسكباهداب الضريح وتشبث بحديده ولم يقل اكثر من «ياسيدةزينب»وفيهاتين الكلمتين آلام وآمال ، بل حياة كاملة . وكلمة المحزون المتهدماذ يهمس وقت ضيقه ويأسه «يا رب ...» فيها من الفجيعة والمرارة ، ومن الحزن والاسى، ثممن التضرع والرجاء، والامل والتطلع،ومن عشرات بل مئات المعاني ما لاتشرحهُ المجلدات

الضخام. ومما يجيء على قياس هذا ويعتبر من آيات الدقة في تحليل عواطف ابطال القصة، ان كل فرد من افراد الشعب لا يكاد يداخله حب «سنية» حتى يحس وكأنهُ خلق خلقاً جديداً، ويعود الى المنزل ليرى ان الحياة التي يحياها وسط «الشعب» حياة لا تليق بهِ، او انهم ليعجبون، كل بدوره، كيف استطاعوا عليها الى اليوم صبراً!! على اختلاف كبير بينهم في سبب هذا الضيق الذي احسوه

وشعور المرء بعد ان يداخله احساس قوي قاهر كالحب، غير شعوره قبل ذلك. كذلك لم تنتبه «سنية» لما حباها الله من جمال وفتنة الأ بعد ان تيقظت فيها الانثى .... بعد ان لمحت «مصطفى».
ثم ما أصدق هذا التحليل للصلة بين محسن وسليم وعبده تجاه حبهم لسنية، فأيًّا منهم احسَّ الاثنان الآخران انهُ يحبها تحالفا عليه، فاذا عرضت لهما الفرصة المناسبة سخرا منهُ وهزئا به

وكما يكتشف ابطالنا الثلاثة فجأة غرابة هذه الحياة التي عاشوها الى تلك الساعة، الى ان احبّوا سنية، كذلك تنبه «مصطفى» فجأة، بعد ان احب سنية، الى قذارة قهوة المعلم شحاته.... وهو الذي قضى فيها شهرين قبل ذلك ولم ينتبه لهذا. وتنبهت «سنية»، بعد ان احبت «مصطفى» الى ان شرفتهُ تحاذي نافذة حجرتها، فكل بطل في القصة يكتشف بدوره شيئاً له علاقة بالعاطفة الجديدة التي طرأت عليه، وبالمخلوق الجديد الذي طلع في سماء حياته

ثم هذا «محسن» يلقي نظرة على منزل اسرته في دمنهور عند وصوله بالاجازة، ونظرة اخرى على منزل اعمامه في القاهرة، منزل «الشعب»، عند عودتهِ، ولكن شتان ما بين النظرتين، فالاولى تحس فيها نظرة الغريب عن البيئة والوسط، والثانية نظرة العائد الى ارض الوطن، الآيب الى الاهل والاخوان، وقد يبدو لك هذا غريباً، ولكن المؤلف يحلل لك هذا تحليلاً دقيقاً يرد بهِ الامور الى حقائقها، وخلجة النفس الى مبعثها وعلتها، ويريك ان ام محسن نفسها تحس بهذا الفارق بينها وبين ابنها، ولو استرسلنا لعرضنا لمشاهد القصة كلها واحداً واحداً، ففيها كلها دون استثناء تبدو ملكة التحليل النفساني في المؤلف قوية بارزة، كل القوة والبروز. قلنا ان من طبيعة الفن القصصي الاستطراد والاحاطة والسرد الطويل. والمؤلف ينتهز لهذا كله أنسب الفرص وأبرعها، وانه لينحرف بك احياناً عن مجرى القصة فلا تحس بذلك لانه يخلق له الفرصة العارضة التي تلائمه كل الملاءمة، وهذه قصة «شخلع» وحوادثها جاءت عرضاً على لسان «محسن» اذ يقصها بمناسبة ما أبدته «سنية» من الاعجاب بمهارته في الغناء، فيذكر لها انهُ درسه على «شخلع» ثم يمضي محدثاً عن استاذته

ولننتهي من الحديث عن توفيق الحكيم القصصي بعد ان عرضنا لبعض قوي الخلق والابداع فيه، لنفرغ قليلاً لتوفيق الحكيم الباحث المفكر، ولما يعرض من قضايا في ثنايا القصة، على اني اريد ان احذرك من هذا المؤلف فهو ماكر شديد المكر، داهية كبير الدهاء، يحلو له ان يسخر من القارىء والناقد، فيسخر منهما ولكن في حذق كثير ومهارة يحسد عليها، خلق الفرصة المناسبة لدخول «زنوبة» و «محسن» منزل «سنية» ثم «مبروك» وافسد سلك الكهرباء

ليجد « لعبده » عذراً في زيارة منزل الجيران ، وبقي لديه « سليم » من افراد الشعب وكان حتماً لسياق الحادثة ان يقتحم هو الآخر منزل «سنية» ،وكان من الغريب حقًّا ان يفسد البيانو هذه المرة لتخلق الفرصة المناسبة «لسليم» وأحسَّ المؤلف ان الناقد يستطيع هنا ان يدخل أنفه كما يقولون ؛ ليبدي عجبه من هذه الفرص التي تتاح لافراد «الشعب» الواحد بعد الآخر ، فبدأ هذا المشهد قائلاً « لا أحد يدري ان كانت هي مداعبات القدر ام مداعبات شخص من البشر . . . . » وأحال على القدر خلق هذه الفرصة الجديدة لسليم ، وكأنه — اي المؤلف — لا عذر له في ذلك ولا حيلة !! واعترف معي بأن المؤلف يمكر بنا غاية المكر ، بل قل انه ماهر لبق ، وقل معي بأن نواحي القدرة والابداع في ملكاته فاقت كل حد ، ووسعت كل شيء

* * *

من أبرز الصور الوضاحة النيرة في هذه القصة روح التضامن والاجتماع التي يبثها المؤلف في كل سطر ، في اخلاق كل شخصية ، وفي تضاعيف كل حادثة ، وفي علاقة الابطال والحادثات بعضها ببعض ، وانها لتتمثل لك في حياة «الشعب» أبدع تمثيل ، في هذا الارتباط الذي يجمعهم في الحسّ والشعور والعاطفة ، في هذا التعلق الغريب كل فرد منهم بالآخرين ، حتى لنجد ان «محسن» اقرب روحاً وألفة الى اعمامه منه الى اهله ، ثم هذه الوحدة الرائعة في اجتماعهم حول «محسن» اذ يحسون بألمه ، وغرقت شجونهم الفردية في طاطفة المجموع ، وكأنما أصبح «الكل في واحد» وهذا «عبده» اذ يعلم باتصال «سنية» بمصطفى يحس «انه كان احب اليه الف مرة ان تختار سنية سليماً او محسناً من ان تختار هذا الغريب ...»

«ولاحظ وهو يتكلم ويثور انما يتكلم باسمهم جميعاً لا باسمه وحده فقط» ثم هاهم جميعاً تأخذهم هزة جنونية من الفرح والسرور اذ يظنون ان خطاباً وصل لمحسن من سنية ، وكأنما هو لهم جميعاً !! ويرتاح محسن « الى ان ما له أصبح ملكاً للجميع .... » « ورضي ان يذهب لمقابلة سنية علّه يأتي بنتيجة يفرح بها الشعب » وليس ابعد من هذا انكاراً للذاتية في سبيل المجموع ، وليس اروع من هذا تمثيلاً لروح الاجتماع التي تسود القصة ، وتتمثل في بعض صورها الفاتنة في حياة « الشعب » كما تتمثل في حياة القرية ، وفي هذا التضامن القوي العجيب بين الفلاحين ... ، في تقاسم البلوى ومشاطرة المصائب ، كما فعلوا مع الرجل الذي ماتت ماشيته . وتتمثل لك هذه الروح ايضاً في هذا الجمع بين المسافرين الذين سرعان ما يجلسون للحديث والسمر ، ولم تمض دقائق على اجتماعهم ، ومن هذه الصور ، ومن عشرات مثلها منثورة هنا وهناك في تضاعيف القصة ، يريد المؤلف ان يقول ان «اهل مصر شعب أصيل عريق . . . . » وان « الاجتماع في دمنا والحياة الاجتماعية طبيعة نشأت فينا من أجيال »

ويقابل المؤلف بين الفلاح — او المصري اذا شئت — وبين التركي والعربي ، فيرفعه فوقهما درجات ، ويجعلك تسخر من الاول في شخصية ام « محسن » بل انه ليملأك غضباً منه بما تأتيه هذه التركية المتعجرفة من الغلظة والفظاظة . وانظرها تَرد عنها فلاحة قدمت ترحب بها

— بعيد ... بعيد ... حاسي توسخي فستاني ... وتجيبها الفلاحة في حلم وبشر ضاحكة الوجه

— يوه ! مش ستنا نبوس ايدها ! امال نبوس ايد مين ؟

وقابل بين الاثنتين ! او بين الاثنين، الفلاح بوداعته وحلمه وسعة صدره ، والتركي بما ترى منه في هذا المشهد ! . أما ما بين الفلاح والعربي فهذا شيخ العزبة — ولا اقول المؤلف — ينعت العرب بأنهم « جماعة خطافة جرابيع . . . » وقد احيلك اذا شئت ان تعرف رأي المؤلف صراحة في هذا على كلمة له نشرها في مجلة « الرسالة » الغراء بخطاب مفتوح للدكتور طه حسين . على ان المؤلف في القصة يمتدح الفلاح ويرجع هدوءه ووداعته الى كرم الاصل « فهو اصل الاصول » لا الى ذل العبودية، كما يرجعهما الى حياته الزراعية العريقة التي تتطلب السلام والاستقرار ، فهدؤه ليس خنوعاً ولا ذلة ، وجموح العربي وحبه الحرب والثأر والدم ليس بالشرف الذي لا يطاول ، ولكنه بقايا الحياة الهمجية الاولى التي اساسها الغزو والسلب ونهب القبيلة القبيلة !. وكما سمح المؤلف للتركي على لسان ام محسن ان تسب الفلاح، سمح للفلاح على لسان شيخ العزبة ان يسب العربي ،وكأنهُ بذلك يرد الى الفلاح اعتباره،ويوسع له في المجال لينتقم لنفسه من هذه العناصر التى دخلت وطنه فاعتبرت نفسها ، وهي الدخيلة،ربة الدار ، واعتبرت الفلاح — او قل المصري — وهو الاصيل وأصل الاصول ، الدخيل المتطفل . وان المؤلف لجدير با كليل نضر من نبت ارض الوطن جزاءاً لهذا الكريم المعتز بالوطن

وان المؤلف يضفي على الريف المصري لوناً من القداسة حتى لكأنهُ محراب كاهن،ويجعله مناراً لقوة العقيدة الخالصة والايمان الخالص ، ويدفعنا في قوة وعنف الى الوراء ، الى مصر الفرعونية . ويبرز لنا من هذا الريف ومن ابنائه صورة صوفية في تآلفهم وكدهم وتحمسهم في سبيل المعبود ! المعبود المتعدد — على التاريخ — الاسماء والاشكال والرموز ، صورة فيها هذا الجوهر الباقي الخالد الذي يربط بين مصر اليوم ومصر الامس ، روح الجماعة ، او روح المعبد كما عبر عنها المؤلف على لسان الفرنسي في هذا الحوار — الذي هو مفتاح القصة — بينه وبين زميله الانكليزي . وكما وجدت هذه الروح في مصر الفرعونية « فتحول الشعب كله الى كتلة آدمية واحدة تستعذب الالم في سبيل واحد : خوفو ممثل المعبود ورمز الغاية . . . » وجدت مرة اخرى في مصر الحاضرة،ولم يكن ينقصها الآ المعبود « ذلك الرجل الذي تتمثل فيه كل عواطف الشعب وأمانيه ويكون له رمز الغاية . . . » وكما اتت هذه الروح في المرة الاولى بمعجزة الاهرام ، أتت « عودة الروح » في المرة الثانية بمعجزة الثورة ! عادت الروح ، روح المعبد ، روح الجماعة ، عادت وكنت تحت الرماد ، « كنت في البئر . . . في البئر التى خرجت منها الاهرامات ، في القلب ، القلب الذي لا قاع له وهو قوة مصر، وهي بذلك تغاير قوة اوربا الكائنة في العقل تلك الآلة المحدودة التي يجب ان نملأها نحن بارادتنا »

وقد لمست عودة الروح ، روح المعبد ، روح الجماعة ، في ثنايا القصة ، في كل مشهد منها ، وكل حادثة فيها ، في صورتها الصغرى في حياة « الشعب » الذي يتألف من محسن وسليم وعبده ومبروك وحنفي وزنوبة ، وفى صورتها الكبرى في ثورة « الشعب » الذي يتألف من هذه الملايين ،

هذه الروح التى تجعل « الكل في واحد » ، كان المصري القديم يعبر عنها في ندبه موتاه قائلاً « عند ما يصير الوقت خلوداً سنراك من جديد ، لانك صائر الى هناك ... حيث الكل في واحد » ولعلك تدرك معي الآن لماذا سجل المؤلف هذه الجملة على صدر الجزء الاول من قصته . والمصري الحديث يحس هذه الروح في اعماق قلبه . وليست الثورة الاَّ نتاجاً لها ، لهذه الروح ، روح الجماعة ، روح المعبد ، الثورة التي اندمجت فيها الملايين فأصبحت قلباً واحداً ، وعاطفة واحدة ، وفكرة واحدة ، عادت روح المعبود ، واجتمع الشعب حول رمز المعبود الذي تمثل في رجل خرج من صلب الفلاح ، والثورة لا تقوم الاَّ على روح الجماعة ، فلما عادت الروح ، هبت الثورة ، الثورة التي جعلت «الكل في واحد » وعاد المصري يغترف من قلبهِ الذي لا ينضب ، قلبه الذي تجمعت فيهِ رواسب الف قرن !!

ولعلك تعود الى هذا الحوار بين الفرنسي والانكليزي تسمع تفاصيل هذه القضية التي يعرضها المؤلف عرضاً قويًّا أخاذاً ، ولترى هذه المقارنة التي يعقدها بين مصر التي تؤمن بالقلب الذي لا قاع له ولا حد له ، وبين اوربا التي يسوقها العقل المحدود ، والآلة التي تملأها نحن بما نريد !!

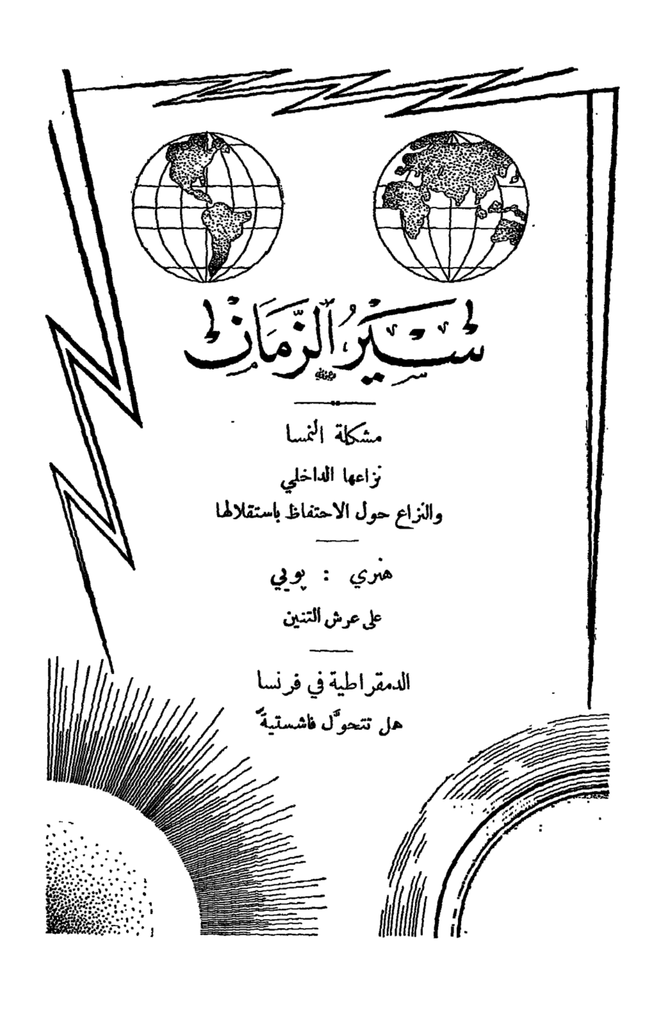
وفي هذا المشهد الذي يرى فيهِ محسن الطفل والعجل يرضعان معاً من ثدي بقرة ، يتحدث فيهِ المؤلف عن قلب مصر ، وعن شعور مصر ، وعن سر تأليه قدماء المصريين للحيوان بل الطير والحشرات.« وكما جعلوا الاله على صورة رجل ، جعلوه ايضاً على صورة الحيوان والطير والحشرات. أليست كل تلك المخلوقات من عمل الله ؟ فلم لا تمثل صورها الاله كما تمثله صورة الرجل !! » ويستدل المؤلف من هذا على ان قدماء المصريين كانوا « يعلمون تلك الوحدة الكونية وذلك الاتحاد العام بين حلقات المخلوقات المختلفة »

« والشعور بالاندماج في الكون ، اي بالاندماج في الله هو شعور ذلك الطفل وذلك العجل الرضيعين ، هو شعور الملائكة ، وهو ايضاً شعور ذلك الشعب العريق المصري القديم ... »

فروح مصر ، هي روح « الكل في واحد » وقلب مصر ، هو هذا القلب الذي يحس بالوحدة الكونية ، ويشعر شعور الملائكة ، ثم ها هو حوريس يصيح « انهض ، انهض يا اوزريس ! انا ولدك حوريس ... جئت اعيد اليك الحياة ... لم يزل لك قلبك الحقيقي ... قلبك الماضي » وليس اوزوريس وحوريس الاَّ رمزاً لمصر القديمة ومصر الحديثة . وقد جاءت مصر اليوم توقظ مصر الامس ، وتبعثها من جديد ، وتعيد اليها الحياة ، بقلبها الحقيقي ، قلبها الماضي ، قلبها الذي يشع طهراً ونبلاً وملائكية

ولعلك ادركت لماذا سجل المؤلف هذه الجملة على صدر الجزء الثاني من قصته

وفي هاتين الجملتين اللتين صدر بهما المؤلف جزئي قصتهِ مفتاح القصة كلها ، والسر الذي ان لمسته فقد استطعت ان تمسك المصباح الذي ينير امامك الطريق لتفهم « عودة الروح » فهماً صحيحاً ، فتنفذ من وراء ظواهرها البراقة الى لبها وجوهرها ، ولست ادعي اني خضت العباب واقتحمت اللجة ، ولكن لعلي وقفت بك على الشاطىء ، ووضعت في يدك المقذاف ، واذا كنت قد ارتك لك قبساً ولو ضئيلاً ، قبساً تخلق منهُ شعاعاً ، ومن الشعاع نوراً يهديك وسط هذا العباب الخضم ، فاني سعيد مغتبط ، لم يذهب جهدي سدًى ولا قبض الريح . وهذا حسبي


سير الزمان
مشكلة النمسا
نزاعها الداخلي
والنزاع حول الاحتفاظ باستقلالها
هنري : بويي
على عرش التنين
الدمقراطية في فرنسا
هل تتحوّل فاشستية

مشكلة النمسا

نزاعها الداخلي والنزاع حول الاحتفاظ باستقلالها

لم تكن الحرب الاهلية التي شبّت نيرانها في النمسا في الاسبوع الثاني من شهر فبراير الماضي ، حرباً بين حكومة وطائفة من رعيتها فحسب ولا كانت دفاعاً من حزب كبير في امة جمهورية عن كيانه فحسب بل كانت معتركاً لقوّى عالمية عظيمة : الفاشستية .والدكتاتورية من ناحية والاشتراكية والدمقراطية من ناحية ، الرأسمالية في جانب والتعاون الاقتصادي او الاندماج الاقتصادي في الجانب الآخر . والنزاع الداخلي في جمهورية النمسا ، الذي ما زالت بواعثهُ تتهيأ من زمنٍ في الخفاء ، كان مظهراً للنضال بين هذه القوى .فالاشتراكيون المسيطرون على عاصمة النمسا واكبر مدنها ؛ كانوا عازمين على الدفاع دون سيطرة الفاشستية على الامة ، ايّاً كان طابعها . والفاشستيون الذين قاوموهم كانوا منفصلين الى معسكرين ففي المعسكر الواحد اتباع هتلر ، وفي المعسكر الآخر انصار موسوليني . فوقفت اوربا ترقب نتيجة المعترك ، لانهُ ينطوي على الاجابة عن مسائل خطيرة — هل تتوسع المانيا في حوض نهر الطونة ؟ ما يكون مقام ايطاليا في قلب اوربا ؟ وما مصير الاتفاق الصغير ، اذ توسعت المانيا في اوربا الوسطى او بسطت ايطاليا عليها ظلّ نفوذها ؟ وما موقف فرنسا من هذا كلّهِ ؟ وكذلك استوقفت هذه الجمهورية الصغيرة انظار العالم ، كما استوقفتها امبراطورية آل هبسبرج في ٢٨ يونيو سنة ١٩١٤ يوم مصرع الارشيدوق فرانز فرديننند في سراييفو

النزاع المثلث

النزاع الداخلي في النمسا ، الذي افضى الى الحرب الاهلية الدامية في فبراير ، نزاع ثلاثي ، بين الاشتراكيين وقوى الحكومة التي يؤيدها الهيمفهر والنازي النمسوي يؤيدهم النازي في المانيا

الاشتراكيون اقوياء في المدن مثل ڤينا ولنز ويمثّلون نحو ٣٥ في المائة من الناخبين .ومع انهم كانوا مسيطرين على بلديات المدن ، كانوا عاجزين عن التأثير في شؤون الجمهورية العامة . ولما كان برنامجهم السياسي والاجتماعي تقع وقعاً حسناً في نفوس عمال المصانع على الغالب كان نفوذهم ضعيفاً في الولايات الريفية والزراعية . ولكنّ سكان العاصمة ڤينا نحو مليوني نفس — وهم ثلث سكان الجمهورية — وفيها معظم ثروة البلاد ، لذلك كانت حكومتها الاشتراكية ومشروعاتها هدفاً لتبرم الناس في الارياف

ويواجه الاشتراكيين الحزبَ الاشتراكي المسيحي (وهو ليس اشتراكيًّا) يؤيدهُ الفلاحون الكاثوليك والطبقة المتوسطة في الولايات ، وعدد الناخبين المنضوين تحت لوائهِ يعادل عدد الناخبين المؤيدين للاشتراكيين . ومن اعضاءِ هذا الحزب رجال منتظمون في الهيمفهر وهو فرقة عسكرية

فاشستية النزعة ، تميل الى اعادة الملكية وتجريد الاشتراكيين من اي كلمة نفوذ في تصريف شؤون البلاد

اما الفريق الثالث فهو فريق النازي النمسوي يؤيدهم اخوانهم في المبدإ والعقيدة في الريخ الثالث (المانيا) . ولما كانت النمسا لم تحدث فيها انتخابات في السنتين الاخيرتين فمن المتعذر تقدير عدد أنصار النازي في الشعب النمسوي وانما يقول بعض المعروفين بصحة الحكم ان نحو نصف الامة النمسوي يرغب في قيام حكم نازي . ومع ان النازي والهيمفهر متفقان في كثير من أصول خطتيهما الاَّ ان النازي يرغب في انضمام النمسا الى المانيا حالة ان الهيمفهر يعلن ضرورة الاحتفاظ باستقلال النمسا

الاشتراكيون واعداؤهم

لما هوت أسرة هبسبرج عن عرش النمسا والمجر في سنة ١٩١٨ تعاون الاشتراكيون في النمسا مع الاشتراكيين المسيحيين على انقاذ ما تبقَّى لهم من امبراطوريتهم التاريخية فتصدّوا لانتشار الشيوعية وصدّوها . فوقفوا في وجهِ دعاة المذهب الماركسي ، ومنعوا حدوث نضالٍ دموي بين العمَّال والطبقات المتوسطة . ومن غرائب الاقدار ان طائفة من هؤلاءِ الذين انقذوا النمسا من الماركسية بعيد الحرب قتلوا في الاسبوع الثاني من فبراير الماضي بحجة انهم من اتباع ماركس

والواقع انهُ منذ ما أنشئت جمهورية النمسا ، نشأت عداوة فيها بين الفلاحين والطبقات المتوسطة في الناحية الواحدة ، وبين الفلاحين والاشتراكيين في الناحية الاخرى . ولما كان الاشتراكيون المسيحيون يخشون سيطرة الاشتراكيين على ڤينا طلبوا انشاء حكومة اتحادية ، بدلاً من تركيز اعمال الحكومة التنفيذية والتشريعية في ڤينا على نحو ما طلب الاشتراكيون . بيد ان الفريقين تعاونا على اخراج دستور اتحادي بعد مساومة طويلة فاحتفظ الاشتراكيون بمقتضاه بالسلطة في العاصمة وقبض الاشتراكيون المسيحيون على اعنتها في الولايات . الاَّ ان الهوّة بين الحزبين لم تردَم . ذلك ان التعاون الذي تقتضيه الصناعة يتنافر مع النزعة الفردية السائدة في الولايات الزراعية ، والشعور الديني الذي يسود الفلاح في الارياف مناقض للنزعة الدنيوية في العاصمة . وكثيراً ما هدّد الفلاحون بالانقضاض على العاصمة من اوجارهم في الجبال ، لابادة أبناء سدوم وعمورة ! فالحاجز بين سكان ڤينا وسكان جبال التيرول وكارنثيا وستيريا ليس الجبال فقط بل النظر الى الحياة ، وهو اهمّ

ووجد الفلاحون انصاراً لهم في المدن في جماعات الملاَّك ، لان هؤلاءِ معادون للاشتراكيين ، لثقل الضرائب التي كانت تفرضها عليهم حكومة ڤينا الاشتراكية ، لكي تبني بها مساكن حديثة النظام للعمَّال . لذلك لما شبَّت نيران الحرب الاهلية في فبراير ، صوّبت مدافع اعداءِ الاشتراكيين الى «كارل ماركس هوف» وغيرهِ من المباني الحديثة التي أقامتها البلدية لسكنى العمال

بيد ان الاشتراكيين لم يعمدوا الى فرض الضرائب على الملاك بعامل الحسد من ثروتهم . ولكن البلدية الاشتراكية واجهت مشكلة خطيرة في ڤينا عند تقلدها أزمة الحكم هي مشكلة نقص المساكن

عما يحتاج اليه سكان المدينة . ففي عهد الامبراطورية كان عمال ڤينا يقطنون مساكن كحظائر القطعان، بل ليقال ان ألوفاً من الاسر كانت لا تجد الاسرة منها الاّ غرفة قذرة صغيرة لسكناها! وكانت مع ذلك غالية الاجر لان أصحابها من المـلاّك كانوا من أصحاب المكانة السياسية في البلاد . وهتلر يؤيد هذا في كتابهِ الموسوم «كفاحي» مع انهُ من أعداءِ الاشتراكية

سنّ الاشتراكيون في ڤينا قوانين حددوا بها اجور المساكن في العاصمة وفرضوا ضرائب ثقيلة على العقارات ، وبما حصلوا عليه من مال الضرائب شرعوا يبنون مباني ضخمة حديثة ، قطنها نحو ستين الف اسرة من اسر العمال . وبلغ من نجاح الاشتراكيين في عملهم هذا ، ان اصبحت مبانيهم هذه مثالاً يحتذى في تشييد مساكن للعمال في اكبر مدن العالم . ولما كانت اجور السكن في هذه المباني رخيصة كل الرخص ، فقد كان من المعقول المتوقع ان تصبح هذه الصروح معاقل للاشتراكيين . وكذلك اصبح الملاّك في عنف حنقهم على الاشتراكيين يحسبون هذه المباني نموًّا غير طبيعيّ في العاصمة . ثم ان حكومة ڤينّا الاشتراكية عمدت كذلك الى الاستيلاء على المرافق العامة وجعلت تنفق ما تحصل عليهِ من الربح والضرائب في تحسين الحال الاجتماعية من صحة وسكن وأجورٍ ورفد في حال التعطّل عن العمل — كل هذا دبّرت لهُ حكومة ڤينّا الاشتراكية ادق تدبير . اما اصحاب المصانع والمتاجر والمباني فكان عليهم ان يسددوا نفقة هذا الاصلاح

قيام الفاشستية

فلما امتدّ ظل الكساد الناشىء عن الازمة العالمية ، فوق اوربا الوسطى ، اتسعت الهوّة بين الملاّك والاشتراكيين . وكان لتطور الحال في المانيا وايطاليا اثر كبير في النمسا . وجعل الفلاّحون الجبليون يميلون الى القوى المعارضة لدعاة الماركسية . يضاف الى ذلك ان ما يصحب النزعة الفاشستية من جلال ومجد ملأ في صدور النمسويين ذلك الخواء النفسي الذي احدثه سقوط اسرة هبسبرج الامبراطورية . وما كان الفلاح ليهتم بالمباحث النظرية في اسباب الكساد العالمي وبواعثهِ بل كان لا يفهم الاّ ان الازمة آخذة بالخناق ولا يطلب من الحكومة الاّ مدداً للعيش . هنا توسط دعاة الفاشستية في النمسا فقالوا للفلاّح ان السبيل الوحيد الى الخلاص انما هو إبادة الاشتراكيين

في هذا الجوّ نشأت فرقتان عسكريتان : الاولى «الشوتزبند» الاشتراكي وعدد افرادها مائة الف و «الهيمفهر» المقاوم للدمقراطية وعدد رجاله ستون الفاً . ومع ان الهيمفهر جمع معظم رجاله من الفلاّحين وابناء الطبقات المتوسطة في الارياف، الاّ ان مدده المالي كان مستمدًّا من اصحاب المصالح الصناعية والتجارية الذين كانوا يرغبون في القضاءِ على الاشتراكيين . ويقال ان الهيمفهر أصاب كذلك مدداً ماليًّا في المانيا وايطاليا . اما البرنس فون ستارمبرج فخلع على هذا الفريق ثروتهُ واسم أسرته التاريخي المجيد

فلما ارتفع كوكب الهر هتلر في سماءِ السياسة ، اخذت حركة النازي في النمسا تتسع وتقوى .

فأيّدها اولاً رجال «حزب الجامعة الجرمانية» وانضمّت اليهم طائفة من رجال الهيمفهر لانها معادية لليهود والاشتراكيين على السواء. واخذ الفلاّح النمسوي يميل من هبسبرج الى هتلر. فلما اهلّت سنة ١٩٣٣ كانت تلك الجمهورية الصغيرة معتركاً لجيوش خاصة مدرّبة ومنظمة ينادي بعضها بسقوط الجمهورية

فلما تمَّ النصر للنازي الالماني في ٣٠ يناير سنة ١٩٣٣ بتعيين الهر هتلر مستشاراً للريخ، اخذ زعماء النازي في النمسا يتصوّرون زحف اصحاب القمصان السمر من المانيا الى ڤينَّا. ولكنهم حينئذٍ لم يحسبوا حساباً للدكتور دولفوس. ذلك انَّ دولفوس اصدر امراً في يونيو سنة ١٩٣٣ بحل الحزب النازي فكان في نظر بعض مواطنيه كالفتى داود يقاوم جليات الجبّار (طول دولفوس ٤ اقدام و١١ بوصة مع ان متوسط طول الرجل قريب من ٥ اقدام و٦ بوصات). وفي خلال ذلك كان النزاع بين الاشتراكيين والمسيحيين الاشتراكيين في البرلمان النمسوي، عنيفاً كل العنف، فحال نزاعهما دون العناية بالتشريع. ومع ان الهر دولفوس كان في حاجة شديدة الى مددٍ لمقاومة النازي خشي ان يتفق مع الاشتراكيين لان الهيمفهر وحزب المسيحيين الاشتراكيين يعارضان في ذلك. فجارى رغبتهما في تشديد الخناق على الاشتراكيين وسنَّ قوانين تضعفهم وحل جيشهم الخاص المعروف «بالشوتزبند»

فلما اقبل الخريف تبيَّن لمراقبي الحالة في النمسا ان الدكتور دولفوس يعتمد على الجيش النظامي والهيمفهر، ونزعة وطنية جديدة عمد الى خلقها في نفوس اتباعهِ، في مقاومة النازي والاشتراكيين. وفي سبتمبر وعد باحداث تعديل دستوري على نمط الدولة المندمجة الايطالية فتحلُّ النقابات والمتحدات الصناعية والزراعية محلَّ الاحزاب، ويتصافى العمال والفلاّحون. ولكن هذا الوعد لم يكن قد أُنجز لما وقعت الحرب الاهلية في الاسبوع الثاني من فبراير

وفي خلال ذلك اشتدَّت حملة النازي في النمسا، وبدت في الهيمفهر دلائل الاستعداد على الاتفاق مع النازي النمسوي مع ان زعماءهُ اعلنوا انهم مقاومون لهتلر. وكذلك واجه الهر دولفوس مشكلة معقدة، وهو منها على مفترق الطرق. وزادت المسألة تعقيداً وارتباكاً لما ظهرت لجان من الهيمفهر امام حكام الولايات مطالبة بانشاء نظام فاشستيٍّ وحلّ جميع الاحزاب بما فيها حزب المسيحيين الاشتراكيين مع ان هذا هو حزب الهيمفهر. فلما ذهب دولفوس في رحلة الى بودابست في اوائل فبراير، امر نائب المستشار الماجور فاي — وهو زعيم الهيمفهر — رجال البوليس بمهاجمة اشتراكيي ڤينَّا. فقام زعيم من حزب المسيحيين الاشتراكيين في مجلس ڤينَّا البلدي واقترح التعاون بين الاشتراكيين والمسيحيين الاشتراكيين. ولو ان اقتراحاً من هذا القبيل جاءَ قبل سنة ونصف سنة لامكن تعاون هذين الحزبين في مقاومة النزعة الفاشستية، من قِبَل النازي كانت او الهيمفهر. فرأى زعيم الهيمفهر في هذا الاقتراح خيانة وسلّم دولفوس برأيهِ فضرب الاشتراكيون الضربة القاضية. ولكن الشوتزبند وهو جيش الاشتراكيين ظلَّ محتفظاً بنظامهِ واسلحتهِ، رغم صدور الامر بحلّهِ في منتصف السنة السابقة فقاوم الحكومة وأتباعها مقاومة عنيفة اراقت الدماء في ڤينَّا وغيرها من المدن

وكان دولفوس يظنُّ ان سير الامور في النمسا ، يتبع سيرها في المانيا ، حيث خضع الاشتراكيون الدمقراطيّون لاوامر هتلر من دون كفاح ولكنهُ أخطأ التقدير

فأيدي الفاشستية في النمسا ملطخة بالدم ، ولا ريب في ان ملايين من النمسويين المؤمنين بالمبادىء الاشتراكية ، يكنّون في قلوبهم كرهاً شديداً لدولفوس وفاي والبرنس ستارمبرج . وعند ذلك فقد يجد رجال الحزب النازي النمسوي ، مرتعاً خصباً لدعايتهم بين هؤلاء الاشتراكيين لان زعماء النازي النمسوي وقفوا بمعزل عن النزاع الدموي ينتظرون سنوح الفرصة

وقد كان الهيمفهر شديد الصخب عالي الضجة في شؤون النمسا في العهد الاخير ، الاَّ انهُ لا يمثل اكثريةً من الشعب . ولكنهُ مع ذلك الحرس الشاكي الذي تعتمد عليهِ الحكومة القائمة . وقد يكون في نية الهيمفهر ، ان يتبع خطة التعاون مع موسوليني ، سواءٌ رضي ان يجاريهُ دولفوس في ذلك او لم يرضَ ، وفي تلك الحالة قد يحاول زعماؤه القضاء على الاشتراكيين والنازي ، اذا جرَّب احد الحزبين ان يرفع رأسهُ . او قد يحاول زعماء الهيمفهر ان يتفقوا مع هتلر ، فيتمُّ بذلك الاتحاد المعنوي بين النمسا والمانيا ، وهم يطلبون في هذه الحالة ان تبقى مقاليد الامور في النمسا في أيديهم

النزاع الخارجي

لما هوت امبراطورية النمسا والمجر في آخر الحرب الكبرى ، ظلَّت جمهورية النمسا وحدة اقتصادية بتراء . لذلك سعت المانيا والنمسا الى توحيد البلادين من الناحية الاقتصادية على الاقل . وكان الاشتراكيون الدمقراطيون في كلا البلادين مؤيدين لهذا التوحيد ، رغم ما فرضتهُ الدول الظافرة دونهُ من الحوائل . لذلك حاول الدكتور برويننغ المستشار الالماني في مارس سنة ١٩٣١ ان يتفق مع الدكتور شوبر النمسوي على انشاءِ اتحاد جمركي بين المانيا والنمسا . فأحدثت هذه المحاولة ازمة اوربية حينئذٍ ، وحكم على المانيا والنمسا بالتخلي عن هذا المشروع

فلما اتسع نطاق الدعوة التي نشرها هتلر ، تجدَّدت العناية بمسألة الاتحاد . ذلك انهُ اذا اشتدَّ ساعد النازي النمسوي وقامت حكومة نازية في ڤينَّا ، أُصبح ضمُّ النمسا الى المانيا مستطاعاً من دون خرق مواد معاهدات الصلح او قرارات مجلس السفراء التي تمنع ذلك ، على ان يكون هذا الضمُّ معنويًّا لان كل حكومة نازية تستمدُّ مبادئها وارشادها من هتلر . وكذلك تصبح اذا وقع انقلاب نازي في النمسا ، مدن ڤينَّا وانسبروك وسلزبرغ وكأنها مهام نازية مسدَّدة الى قلب اوربا . وهذا يقيم في وجهِ فرنسا وايطاليا وتشكوسلوفاكيا وبلاد شرق اوربا الجنوبي مشكلات دولية خطيرة تتصل بحياتها القومية اوثق اتصال

فلما زار السنيور سوفتش وكيل وزارة الخارجية الايطالية ڤينَّا من عهد قريب ، علق في تصريحاتهِ شأناً خطيراً بضرورة الاحتفاظ باستقلال النمسا . وقد ترامت الشائعات بأن موسوليني قد أيَّد الهيمفهر تأييداً ماليًّا وسياسيًّا اعتقاداً منهُ انهُ القوة الوحيدة التي تستطيع ان تصدَّ هتلر ، وتحوِّل النمسا

الى اداة مطواعة تستعملها سياسة ايطاليا الخارجية في اوربا الوسطى وما يليها من جنوب اوربا الشرقي

ومن المتعذر الآن التكهُّن بالمستقبل ، وهل تنتهي الحالة في النمسا بفوز موسوليني او هتلر . ولكن في شمالي ايطاليا ، شعب الماني غير راضٍ عن حالتهِ ، فليس من المرجح ان يقنع موسوليني بالتفرُّج اذا حاولت المانيا تأييد النازي النمسوي حتى يفوز بتقلد ازمَّة الحكم في البلاد

أما فرنسا وتشكوسلوفاكيا ويوغوسلافيا فقد كانت مصالحها ولا تزال مرتبطة بالمحافظة على استقلال النمسا وبقاءِ نظام الحكم دمقراطيًّا فيها . فالقضاء على الاشتراكيين في النمسا ، يزيل سندها الاخير في قلب القارة الاوربية . ثمَّ ان يوغوسلافيا تتّبع الشؤون النمسوية بعناية وقلق . فقد مضى عليها ردح من الزمن وهي تواجه ايطاليا حردة على الضفة الاخرى من البحر الادرياتيك . فاذا استقلَّ الهيمفهر بالحكم في النمسا ، وكان مؤيداً من موسوليني ، اصبح صلة بين ايطاليا والمجر ومكَّن ايطاليا من اتمام الاحداق بيوغوسلافيا

وتشكوسلوفاكيا يهمها طبعاً مصير النمسا وقد اعلنت بلسان وزير خارجيتها انها تعارض في عودة آل هبسبرج الى عرش فينَّا وانها متفقة مع دول الاتفاق الصغير (تشكوسلوفاكيا ورومانيا ويوجوسلافيا) على سحب وزرائها المفوَّضين من فينَّا يوم دخول البرنس اوتو وانها قد لا تحجم عن استعمال القوة لمنع هذا . ويقال ان بنش والرئيس ماسارك ايَّدا اشتراكيي فينَّا تأييد مصلحة ومبدإ . أما المصلحة فخشيتهما من استفحال امر الفاشستية في النمسا ــ هتلرية كانت او موسولينية ــ وأما المبدأ فايمانهما بالنظم الدمقراطية . وشد ما يخشيانهِ على تشكوسلوفاكيا قيام حكومة نازية في النمسا لان ضمن حدود تشكوسلوفاكيا اقلية المانية كبيرة عددها ثلاثة ملايين ، لا بدَّ ان تضلع مع النازي بعد ما ترى سلسلة الانتصارات الباهرة التي فازت بها السلالة الالمانية في ظلّ النظام الهتلري

أما فرنسا ، المعنية الآن بشؤونها الداخلية ، فتدرك ما لمصير النمسا من الشأن الخطير ، في بناء السياسة الاوربية . ذلك ان القنابل التي وجهت الى مباني العمال في فينا ، كانت قنابل معنوية موجهة كذلك الى معاهدتي فرساي وسان جرمان . وفوز النازي في النمسا تحدٍّ خطر لفرنسا وحلفائها . بيد ان تفوُّق النفوذ الايطالي في فينَّا من الجهة الاخرى ، يعني تحديًّا آخر لنظام المحالفات الذي انشأته فرنسا — محالفتها مع دول الاتفاق الصغير — واليهِ تستند في تفوقها العسكري وضمان سلامتها . فاذا اصبحت النمسا اداة في يد السياسة الخارجية تعذَّر اتصال فرنسا بحلفائها في قلب اوربا وجنوبها الشرقي . وكذلك يمتد ميدان النزاع بين ايطاليا وفرنسا من افريقيا الى البلقان

يقابل ذلك ان مساعي النازي الالماني لتأييد اخوانهم في النمسا ، مهَّد السبيل الى شيءٍ من التفاهم والتقرّب بين فرنسا وايطاليا . اما بريطانيا فقد ضمنت استقلال النمسا ولكنها لا ترغب في ان تزجَّ في معترك المشكلات الاوربية المعقدة ، وأملها ان تستطيع النمسا الاحتفاظ باستقلالها بطريقة ما وتكفيها مؤونة التدخل . واما خطة المجر فهي التأهب والانتظار لتميل الى الجانب الذي ترجّح لهُ الفوز

هنري : بويي

على عرش التنين في منشوكو

في الطرف الشرقي من قارة آسيا العظيمة يعيش شعب عدد نسماته اربعمائة مليون او يزيدون ، تناوبت عليهِ حالات اشبه بالحالات التي انتابت الدولة الرومانية قبيل سقوطها

كان امبراطرة الصين يعتقدون قديماً انهم ابناء السماء ، وكفى بذلك دليلاً على الارستوقراطية العريقة والمجد التالد . وكان الشعب الصيني يعتقد ان ابناء السماء اذا حكموا فانما هم بامر السماء يحكمون وان ما يصدر عن ابناء السماء وهم متربعون على عرش التنين ، تنزيل لا ينقض وامر لا يُرَدُّ ، فكنت ترى الشعب الصيني في يد ابناء السماء كأنهُ العجينة تكيفها الاهواء . ولكن ما زالوا يتدانون من الارض شيئاً فشيئاً وحالاً بعد حال حتى انقلب الحكم في بلادهم بين عشية وضحاها ، وتبخر عرش التنين واذا بهِ محل لحكم جمهوري فج لمعت في سمائهِ اسنة الحراب . وقضي الامر . واسر أحد ابناء السماء في قصر من قصور اجداده القدامى ونزل عن سماويته العاليا الى ارضيتنا المتواضعة

ولكن . . . نعم . ولكن ليخرج من قصر الاسر الى عرش التنين مرة اخرى . غير انهُ عرش لم يبقَ من قديمهِ الاَّ الاسم ، لان دُسْرَهُ اخذت هذه المرة من الاسنة اليابانية ، لا من الجبروت السماوي . واذا الامبراطور « بويي » ابن السماء في الامبراطورية الصينية العظيمة قد اصبح « هنري » ابن الارض في دولة « منشوكو » وهي منشوريا احدى مقاطعات الصين قبلاً ، في مصورات الجغرافية. وايُّ عجب في هذا ! . ان اجداد « هنري بويي » خرجوا من منشوريا منذ قرون غزاة فاتحين ، فتبوؤا عرش التنين في عاصمة الصين ، وورثوا بنوة السماء . ولكن الظاهر ان السماء زهدت فيهم الآن فردَّت وريثهم من غربته الطويلة الى حيث خرج آباؤه اول مرة غزاة تخفق على رؤوسهم درافس الحرب ، يزجون تحتها الصفوف الى المواقع المحجلة بالنصر والظفر

من سهول منشوريا الفسيحة خرج اجداد « هنري بويي » . وهو الآن يعود الى منبته الاصلي . ففي القرن السابع عشر هبطت اسرة « المنشو » من سهول الشمال الفسيحة بجيوشهم الجرارة ميممين نحو الجنوب ، بعد ان اخضع جدهم الاول « نو — أوراشو » جميع القبائل القوية التي كانت تتصل بتخوم بلاده واذلَّها . وما زالوا يجتاحون في بلاد الصين السهول والحزون حتى واجههم سور الصين الاعظم فدكوا منه جزءاً لينفذوا الى « بكين » عاصمة الصين المحرَّمة على غير ابناء السماء . ولكن من ذا الذي اعطى لاسرة « منج » وثيقة بأنها وحدها من ابناء السماء ؟ ولماذا لا تختار السماء من ابنائها من هو اصلح لحكم الصين من اسرة قديمة أكل عليها الدهر وشرب القدم ؟ وكذلك انتزع القدر عرش التنين من أسرة « منج » ليجلس عليها اسرة « شنج » اول امبراطرة «المنشو» ولكن ليبقيهم عليه ٢٦٦ سنة لاغير

لقد كانت تلك الاسرة من اعظم الاسر التي عرفها عرش الصين القديم . وعلى أيدي امبراطرتها العظام تسنمت الصين آخر عهدها بالمجد العالمي كأمة متحدة ووحدة سياسية عظيمة . فمن اجداد «يوبي» ملكان من اعظم الملوك الذين يذكرهم التاريخ على مدى العصور وفي كل بقاع الارض . حكم كل منهما ستين سنة ، مع فاصل ضئيل من الزمان بين حكميهما ، فلم تفق الصينَ امةٌ اخرى من أمم الارض قوة ونفوذاً ومدنية في عهدها

ولقد اخطأ المؤرخون اذ نعتوا لويس الرابع عشر بأنه اعظم ملوك الارض في القرن السابع عشر . اما الحقيقة فان الامبراطور «كانج هسي» في بكين كان اعظم ملوك الارض في ذلك الزمان . فقد حكم امبراطورية لا تعد فرنسا برمتها الاّ احدى مقاطعاتها ، وسعى الى توسيع ملكه كما سعى لويس الرابع عشر ، ولكنه امتاز على الملك الفرنسي بأنه لم يرضَ بأن يقوم ملكه على القوة وحدها فعززها بترقية الفنون والمعارف وكل ما يتعلق بمدنية الروح الى جانب كل ما يتعلق بمدنية المادة

وبعد ان مات هذا الامبراطور العظيم (سنة ١٧٢٢) بأربعة عشر سنة تسنم عرش التنين حفيده الامبراطور « شيان منج » فحكم الى سنة ١٧٩٦ ، فبرهن انهُ خليق بأن يكون من سلالة جده العظيم . فوسع في اطراف امبراطوريته ، وأمَّتهُ ملوك آسيا الشرقية اجمعين يحملون اليهِ الجزية او يتقرَّبون اليه زلفى . وكان في الصين كآل مديشى في ايطاليا . فكان شاعراً وكاتباً ومؤلفاً وحامياً للعلم ووليًّا للفنون وناصراً للثقافة ومحبًّا للعمران . ولا غرو ان يحتم «شيان منج» ان يسجد له سفراء الملك «جورج الثالث» عند ما ارسل بهم الى الصين في مهمة سياسية . ولقد عدَّ عليه كثير من مؤرخي اوربا هذا الامر ، ونسوا انه كان على عرش التنين يستمد القوة من السماء ليحكم امبراطورية عالمية هي اكبر امبراطورية في الارض لعهده ، ومن حوله بطانة من العلماء يملأُون طباق الارض علماً ، وحاشية من المثقفين على اخص قواعد التثقيف في بلاد لم يعرف اهلها من ارستوقراطية ، الاَّ ارستوقراطية العلم والثقافة . فلما مات «شيان منج» آذنت شمس الصين بالمغيب ، ودقت ساعة الانحلال ، فتعاقب على عرش التنين خمسة امبراطرة خلال القرن التاسع عشر : كان اللاحق منهم اضعف من السابق ، والخلف اميع من السلف . على أنه من عجب ما يروي التاريخ ان هذه الأسرة لم يحمها على عرشها المزعزع خلال خمسة العقود الاخيرة في القرن التاسع عشر ، الاَّ بسالة امرأة هي الامبراطورة « تسوهسي» التي عاصرت الملكة فكتوريا ، حتى قيل ان طرفي الارض اصبحا أشبه بكفتي ميزان في احداها « تسوهسي » تسوس الشرق وفي الاخرى « فكتوريا » تسوس الغرب

وكانت امرأة من الجبابرة جمعت بين رجاحة العقل وكبر القلب ، وعرفت قيمة القتل والاغتيال وسفك الدماء في سبيل الاحتفاظ بعرش آذنت ساعته ودبَّ فيه الفساد . فحكمت الصين حكماً فعليًّا برغم انها كانت زوج امبراطور سابق سقطت بموته عن اريكة الملك . ولكن من ذا الذي يقف في وجه الذئبة الغبراء ؟ وهكذا حكمت هذه الامبراطورة الصين باسم من جلس على عرش التنين من الامبراطرة، ومن ورائها رجال يخفون تحت دفوفهم مدى محدودة تطير من صفحاتها شرارة الموت تحت جنح الليل

وفي وضح النهار. ولكن الانحلال كان اقوى من ان تحول بينه وبين الصين مدية تتذرع بها «تسوهسي» الى قتل ثائر او اقصاء رجل ظهرت عليه بوادر التطلع الى الاصلاح . فان تحرش اوربا بالصين كان قد بدأ يهز عرش التنين من اساسه ، واجترأت سفن اوربا الحربية ان تدك بكر آتها المتفجرة حصون الصين وتنزل الى الأرض الحرام اول فوج من جيوش اوربا . وكانت المبادىء والآراء الاوربية اخذت تتغلغل في الوحدة الصينية فتمزق منها ما رأبت السنون، وبدت بوادر القلق الاجتماعي تظهر في صور مختلفة ، وكانت اول بادرة منهُ ظهور «صن يات سن» مزوداً بالمبادىء والتعاليم الاميركية ليرأس اول عصبة ثورية في ارض خضعت لابناء السماء حتى اصبح اندلاع ألسنة الثورة قاب قوسين او ادنى

وفي سنة واحدة مات الامبراطور « كوانج هسو » والامبراطورة « تسوهسي » . وعلى أثر موتهما سنة ١٩٠٨ تبوأ «بوبي» وعمره ثلاث سنوات عرش التنين وهو احد ابناء عمومة الامبراطور المتوفي. فكان حكمه قصير المدى اذ شبت الثورة سنة ١٩١١ فتنازل عن العرش سنة ١٩١٢ وجاءَ في اعلان تنازله انهُ يترك العرش بعد ان ظهر له ان الشطر الاعظم من شعبهِ يفضل حكومة جمهورية على حكومة ملكية . ولكن شاءَ القدر ان ينزل «بوبي» عن عرش لم يكن قد ذاق بعد حلوه ولم يعرف مرَّه لصغر سنه ، فأذن لهُ رجال الجمهورية ان « يعيش » وان يعطى ٤٠٠٠٠٠٠ رطل من الفضة راتباً سنويًّا وان يبقى في احد قصور « بكين » اسيراً تؤدَّى له كل المراسم الامبراطورية

على ان طالع زحل قد ادرك الجمهورية ايضاً ، فانها نبتت في ارض الصين كأنها نبات طفيلي من الفطريات ، فكانت سريعة النمو سريعة الزوال . ذلك لان الجمهورية لم تلبث غير قليل حتى تفجرت من حولها الثورات والحروب الاهلية . وبدأت بوادر هذه الحرب تظهر في سنة ١٩١٧ عند هبوط شخص يدعى (شانج سون) كان قاطع طريق ورئيس عصابة خارجة على القوانين جاهلاً مسفًّا ولكنهُ كان من انصار الملكية ، وعلى الرغم من إن الجهر بالنزعة الملكية كان عقابه الموت ، فانهُ رفض ان ينزع عن بزته الشارة الملكية ، ومضى يسير مختالاً بها في شوارع بكين

على ان هبوط هذا الرجل عاصمة الصين لم يكن « نذيراً » بالحرب الاهلية وحدها ، بل كان نذيراً كذلك بان الراحة التي استمتع بها «بوبي» سوف تعصف بها اهواء ذلك اللص السفاح . غير ان ما حدث بالفعل ليس من المستطاع معرفته على وجه التدقيق ، بل الظاهر ان في احدى الليالي كان « شانج سون » يقصف مع رجاله عند باب من ابواب المدينة الجنوبية فاكل وشرب وذهب الى مسرح فشهد رواية تاريخية تقص طرفاً من عظمة الصين وجبروت امبراطرتها فلما لعبت الخمر برأسهِ يمم نحو المدينة « الحرام» واقتحم القصر الملكي ودخل الى الجناح الذي يشغله الامبراطور المعزول ، وايقظ الامبراطور الفتى الذي لا يتجاوز من العمر اثنتي عشرة سنة وجرَّه الى ردهة التتويج والبسه الاردية الامبراطورية الصفر وحياهُ التحية التقليدية التي كان يحيِّي بها الشعب ابناء السماء عند تبوئهم عرش التنين . ولكن ابن السماء كان مذعوراً . وكان يبكي بكاءً مرًّا

أما حاشية الامير فلم تكن اقلَّ ذعراً منهُ ، لان رجالها كانوا يعرفون ما سوف يسفر عنه الغد القريب . ولم يطل انتظارهم ، ففي بكرة الصباح تحركت جيوش الحكومة وبعد معركة قصيرة انهزم « شانج سوِن » وتبددت قواته ، فلجأَ هو الى السفارة الدنمركية ليحتمي بها . ولكن بقي بعد ذلك ما ينتظر من سخط الحكومة على الامبراطور الطفل . فلم يحدث شيء سوى ان ارجع الامبراطور الى الاجنحة المخصصة له في القصر وأُغلقت عليه الابواب ، وعكف على عيشته الهادئة ، اللهمَّ الاَّ بعض ذكريات مؤلمة خلفتها تلك الليلة الرهيبة مرسومة على صفحات نفسه

وظلَّ الامبراطور يطوي العمر في هدوئه وبين جنبات قصره الفسيح ، والمدافع من حوله تدوي والثورات تتوالى والحروب تأْ كل الاخضر واليابس ، فلا يسمع لها دويًّا ولا يأْبه لشيء منها . وكانت موجة التجديد قد اجتاحت كل نواحي الصين ، حتى لقد استطاعت ان تقتحم جدران القصر الملكي الضخمة ، فدخل لأول مرة الى ذلك القصر معلم انكليزي يثقفه في المعرفة الحديثة . ولكنه اراد ان يجرع التجديد جملة بدل ان يأْخذه اجزاء ، فتعلم اللغة الانكليزية ومرن على ركوب الدراجة وخلع ملابس اجداده ولبس الاردية الاوربية ، وتنصر باسم « هنري »

يا للاقدار : أيصبح آخر سلالة ملوك الصين وامبراطرتها ، ابناء السماء وظلّ الله فوق الارض ، « هنري النصراني » ؟ اهذا الشاب هو سليل اولئك الجبابرة الذين كانوا لا يستقبلون سفراء الدول الاوربية منذ مائة عام ، الاّ والسفراء راكعون ، ولا يتقدمون اليهم الاَّ جثواً على الركب ووجوههم نحو الارض ؟ غير ان الحوادث لم تترك هذا الشاب المجدد عاكفاً على عيش الهدوء والتأمل والتطلع الى العلياء من غير ان تعصف بهدوئه . ففي سنة ١٩٢٤ هبت على الصين عواصف حرب اهلية انتصر فيها « فنج يوسيانج » . وكان هذا الثائر الجديد مزيجاً من نزعات مختلفة فكان نصرانيًّا شيوعيًّا ظالماً وقائداً مدرباً ودسّاساً من اقدر من انبتت ارض الصين . فلما قبض على ناصية الصين واحتلت جنوده عاصمتها فكر في ان يقضي على ذلك الوهم الذي يدعي الملكية الصينية . وعلى حين غفلة ومن غير ان يعرف احد ذلك السر نُقل « بويي » من المدينة الحرام ومعه حاشيته الى « تنتسن » ولجأوا الى السفارة اليابانية ، وساءت حاله ونقص معاشه الى ٥٠٠٫٠٠٠ دولار كانت تعطى اليه كلما سمحت ظروف الخزانة ، واصبح يعيش سجيناً في بضعة امتار من ارض الصين وتحت ظل الراية اليابانية ، بعد ان كانت كلمة جدوده شريعة لاربعمائة مليون من النسمات البشرية

ومضى « بويي » يعيش عيش الفقر والذل في ظل الحماية اليابانية حتى هيَّأ القدر له ان تغزو اليابان منشوريا سنة ١٩٣١ وتجعل منها دولة مستقلة وتأْخذ وديعتها في سفارتها الى عرش التنين في الارض التي خرج منها آباؤه غزاة فاتحين قبل ثلاثة قرون . فهل يصدق عليه قول الشاعر

والقت عصاها واستقرَّ بها النوى كما قرَّ عيناً بالاياب المسافر

ام ان القدر يخبأ له من مفاجآته ما لا يدور بخلد انسان ؟

الدمقراطية في فرنسا

هل تتجه الى الفاشستية

في السياسة أزياء ، كما في الادب والملابس . فروما القياصرة أخرجت للعالم زي «الامبراطورية» فتبعهُ العالم ثمانية عشر قرناً . ثم انشأت انكلترا « الحكومة المسؤولة » فكانت مطلب الامم في القرن التاسع عشر . وكان الحكم بواسطة مجلسين يوافق مزاج اهلها . فلقيت في عهده إقبالاً ورخاء فظنت الامم الاخرى ، ان هذا النوع من الحكم ، يوافقها كذلك

وتلا ذلك النجاح الذي اصابتهُ الفاشستية ، في ايطاليا ، والقضاء على الحكم البرلماني في روسيا، فأصبح من زي العصر التنبؤ بزوال الديمقراطية . ففي المانيا نظام فاشستي وزعيم يملك سلطة دكتاتورية . وها هو ذا الدكتور دولفوس حاكم بامره في النمسا . ولا ينكر ان ما يغذي الواحد قد يسمُّ الآخر . ولما سئل صولون الحكيم ، هل منح اثينا الدستور الكامل قال : انهُ منح تلك المدينة أحسن دستور يلائمها في ذلك الزمن . اي ان «الكمال» في الاشكال السياسية نسبي . ولا ريب في ان هناك تحولاً مشهوداً في نظام الحكم في هذا العصر ، فهل هو يهدد الدمقراطية في فرنسا

اذا قلنا إن تيار الفكر ، الذي قلب إنظمة الحكم في البلدان المجاورة لفرنسا ، لم يلق تربة صالحة في بعض الاذهان الفرنسية ،كان الامر باعثاً على الدهشة والاستغراب . وقد مضت اشهر والفرنسيون يقرأون الدعوة الى تأليف حكومة فاشستية وكانت الدعوة صادرة من ناحيتين من اليمين — تحس فيها احياناً بنزعة بونابرتية واحياناً بنزعة ملكية ، ولكنها لا تعدو كونها خطباً تبين ما للسلطة الحازمة من الشأن في تسيير سفينة الدولة — ومن اليسار تدعو الى فاشستية اشتراكية راديكالية على مثال من دكتاتورية الشيوعيين في روسيا والفاشستيين في ايطاليا في آن واحد

فما هو امل هاتين الدولتين في النجاح ؟ لا ريب في ان التنبؤ كثير المزالق. لانهُ قد تقع حوادث لا يستطيع العقل أن يتصورها ، فتقلب التيار ، وتجعل النتائج المبنية على مقدمات معينة ناقصة ، مشوّهة .فلننظر في اهم العوامل التي يمكن ان يبنى عليها حكم في هذه الناحية من الحياة الفرنسية الآن

اولاً — ان قلب النظام الدمقراطي في فرنسا يحتاج الى زعيم والى حزب يستند الى جيش فاشستي. فقد كان لموسوليني او لهتلر ، الوف من الاتباع . وكانوا يطوفون بفرق اتباعهم المنظمة يعرضونها في كل مدينة.وكانت قوتهم معروفة . وكانت الحكومات الضعيفة في بلاديهما لاتستطيع ان تقف في وجوههم ، لصد تيارهم الجارف . ولسنا نجد في فرنسا شيئاً من هذا فليس في فرنسا حزب له جيش منظم على ما نعلم . فاذا حاول بعضهم تأليف ذلك الحزب ، وتنظيم ذلك الجيش ، فالراجح ان الحكومة مؤيدة بالرأي العام وقوة البوليس السياسي لا تعجز عن كبحه وقمعه

ثانياً — ان انشاء هذا النوع من الجيش يجب ان ينبع من وجود تبرم شديد او شكوى صادقة

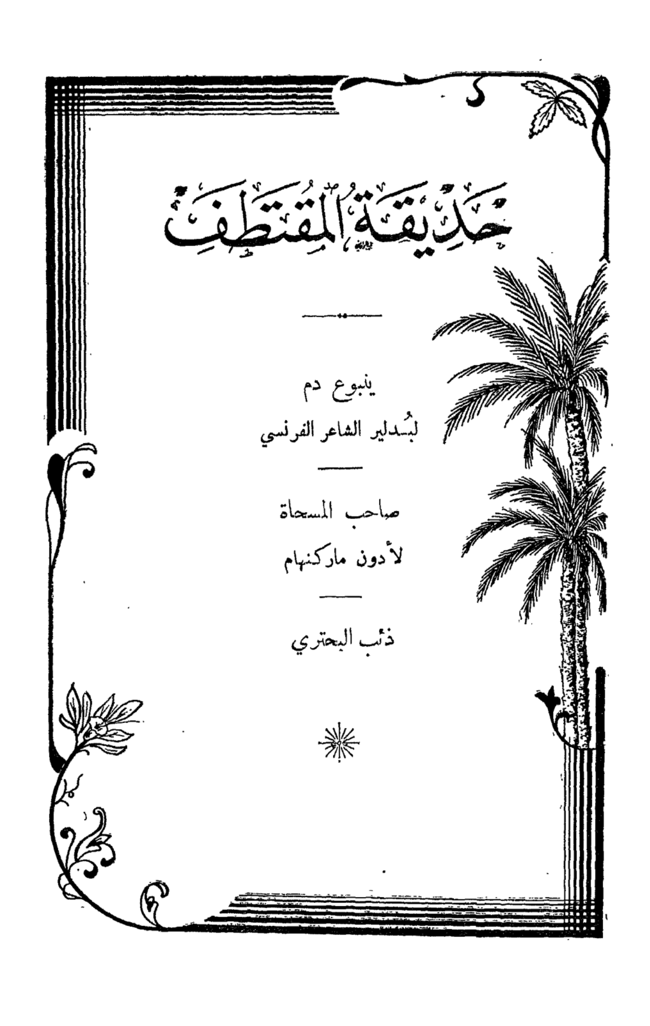
يشكو منها الشعب .في البولشفية ، كان ذلك التبرم تبرم العمال والفلاحين. ولكن الحركة الفاشستية تنشأ في الغالب من الطبقات الوسطى الفقيرة والباعث عليها في نفوسهم ، اما فقرهم المدقع الذي لا يحتمل ، او خوفهم من ثورة العمال . وفي المانيا تحقق الامران بل تحقق امر ثالث كذلك هو الحنق على معاهدة فرساي . اما في ايطاليا فان عنف الشيوعيين ومحاولتهم قلب الحكم واحداث الثورة ، كان الباعث الاول على انشاء الفاشزم ومحاربتهم كانت سبيلها الى النصر . أما في فرنسا ، فلسنا نجد أحد هذين الشرطين ، اللذين نكاد نجزم بأنهُ لا بدَّ منهما لتلقى الدعوة الفاشستية آذاناً صاغية

ومع ذلك لن ينكر ان الديمقراطية في فرنسا معرضة لاخطار كبيرة . ففي العاصمة وفي الارياف تألفت جماعات من دافعي الضرائب للاحتجاج على فداحة نفقات الدولة ، وعلى عبء الضرائب التي يكاد يحني ظهورهم . وأصل هذه الحركة ، متغلغل في طبيعة الفرنسي وخلقهِ لانهُ يميل الى الاقتصاد ، ولا بدَّ لحكومات فرنسا من اعارتهم كل انتباهها وعنايتها . فهل يمكن ان تصبح هذه الحركة نواة لتنظيم فاشستي ؟ ليس من السهل ذلك . لانها تلقى مقاومة شديدة من جميع موظفي الحكومة. وهذا يعني ان تبعة كبيرة تقع على عاتق هؤلاء . فخير لهم ان يتخذوا الحذر رائداً . فهم أول من ينتفع بالنظام القائم ، والحكمة واجب عليهم تقتضيهِ مصلحة الوطن من ناحية والمصلحة الخاصة من ناحية اخرى

ثم هناك تبرم الشبان . فحالة الشبان ، الذين اجتازوا امتحانات الطب ، او القانون ، او الهندسة تبعث على الاسى ، وباب الامل موصد في وجوههم . ففي عهد الوزير شيرون امتنعت الحكومة عن اتخاذ موظفين جدد . فالى م يتطلع الشباب المسلح بالشهادات العالية ، الخالي الوفاض ؟ ان في صفوف الشباب تبرماً وبعضهم يقترح نقص السن التي عندها يحال الموظف الى المعاش، لكي تفتح امام طائفة كبيرة من الشباب أبواب العمل . ولخيرٌ للموظف الذي قضى عمره في خدمة الدولة ، ان تزيد مدة معاشه بضع سنوات على ان يترك الشبان يقودهم القنوط الى الثورة

يضاف الى ذلك الخوف من التضخم. فالفرنسيون الذين جمعوا بجدهم واقتصادهم، ثروة مايعتمدون عليها ، في الشيخوخة او أيام الضيق ، خسروا اربعة اخماسها لما وقع التضخم الاول ، وهوى الفرنك حتى جاء بوانكاره وثبته سنة ١٩٢٦ ومجرد التفكير في احتمال وقوع تضخيم آخر يدفعهم الى الجنون. صحيح ان افراد هذه الطبقة مسالمون ، وليسوا في سن الشباب ، ولكن ما يمنع الدعاة البارعين من ان يستمدوا من صفوفهم قوة كبيرة ؟ فاذا عجزت الحكومات المتتالية عن حلّ هذه المشكلات التي تواجهها فرنسا، فلا يبعد ان يشتد التبرم بالحال شدة تجعل انتشار الفكرة الفاشستية أمراً طبيعيًّا. والحال في باريس أوفق لنشوء الفاشستية منها في سائر المدن والمقاطعات الريفية حيث الدمقراطية فيها راسخة الاصول وفرنسا كبريطانيا تعوّدت الحرية وهي عادة يصعب الاقلاع عنها

على ان هذا لا يمنع اقامة زعيم ومنحه السلطة اللازمة لمدة معينة حتى يعالج مشكلات خاصة لان كل الاعمال الصعبة تقتضي سرعة لا يستطيعها رئيس الوزارة في بلاد دمقراطية كثيرة الاحزاب كفرنسا واقامة دومرج على رأس وزارة قومية تضم ستة من رؤساء الوزراء السابقين من هذا القبيل .



حديقة المقتطف

ينبوع دم

لبُدلير الشاعر الفرنسي

صاحب المسحاة

لأدون ماركنهام

ذئب البحتري

ينبوع دم

للشاعر الفرنسي بُدلير

كأني بدمي يسيل الحين بعد الحين مدرارا
مثل ينبوع له زفرات موزونة .
اني لاسمعه يسيل في جَرْسٍ مديد
ولكني ان تحسَّست الجرح لا أظفر به

ينطلق الدم في نواحي المدينة او حقلٍ مسوَّر
فيحوّل الحجار التي تفرش الارض الى جُزُر صغيرة
وينقع غلَّة الخلق واحداً واحداً
ويردُّ الطبيعة حمراءَ ، حيث يمرّ

طالما رغبت الى خمورٍ خدَّاعة
ان تكشف عني — مدى يومٍ واحدٍ — الهولَ الذي يُضنيني
الاَّ ان الخمر تزيد في صفاء العين ولطف الاذن !

تلمست في الحب نوماً غير ذَكور
ولكنْ ليس الحب عندي الاَّ فراشاً من إبَر
صُنِعَ ليَستقي اولياء البغايا القاسيات !

[اختارها و نقلها الدكتور بشر فارس]

صاحب المسحاة

كتبها الشاعر الاميركي ادون ماركهام

على اثر رؤيته صورة لميليه المصور الفرنسي تمثل عاملاً اضناه العمل

« خلقَ اللهُ آدمَ على صُورتهِ » حديث نبويّ

أرأيتموهُ !! متوكئاً على نِصاب مِسحاته ، قد قوَّست — ما سوّى الله من عوده — اثقالُ السنين ، فهو يُصوِّب الى الارض من نظراته

أرأيتموه !! وفي محيَّاه يتراءى خواءُ الاجيال المتصرمة ، وعلى ظهره اعباء الحياة الدنيا

ألا فمن ذا الذي ردَّه ميتاً لا تنبعثُ منه عاطفة في طرب ، ولا تقشعرُّ فيه جارحة من يأس ؟ من ذا الذي صيره شيئاً لا تحزنهُ نائبة ، ولا يحركه امل . كأنما هو ثور أعجم في بلادته وحيرته ؟

من ذا الذي وطَّأ فكَّه الوحشيَّ حتى استرخى ؟ ولمن كفٌّ دكت هذا الجبين حتى انهزم ؟ ولمن نَفَسٌ عصف بشعلة هذا العقل حتى انطفأت

أهذا هو المخلوق الذي برأه الله وسوَّاه وأخرجه ليكون له السلطان على البرّ والبحر ؟ وليتوسَّمَ النجوم في افلاكها ؟ وليستنبط القدرة من بناء السماوات ، ولينتفض احساسه بنشوة الخلود ؟ سبحانك الله .... فما نظنُّ ان في جهنَّم — ما بين خافيها وباديها — صورة هي ابعث للرعب والفزع من هذه الصورة . لا ولا صورة هي افصح لساناً بخزي هذه الارض في حرصها الاعمى . او صورة هي اجمع للآيات والنُّذر المرسلة لهذه النفس الانسانية . او صورة هي احفل بأشراط الدمار الذي يأتي على هذا العالم

شتَّان مَا هذا الحيوان الذي يحمل اثقال الحياة ، وما حَمَلَةُ العرش من الملائكة المطهرين . ما لهذا العبد الذي يدير طاحونة الحياة ، ولافلاطون وفلسفته السامية ؟

ماله وللثريا وعنقودها الخافق في ارجاء السماء ؟ ماله ولسُبُحات الاغاني المترامية ؟ ما لهذا العبد وتَنَفُّس الفجر النديّ وانبلاجه ؟ ما له وللون الفاتن في الوردة الجميلة

من خلال هذا الشبح المفزع تطل علينا الاجيال المعذَّبة ، وفي هذه القامة المقوّسة تتمثل مأساة الحياة . بل من خلال هذه الصورة شكت الانسانية بثّها الى القدرة العالية التي خلقت السموات والارض ، حين خدعت بالخيانة ، وسُلبت بالمكر ، وأُذيلت باللؤم ، واستُصفِيَت مواريثها بالمظالم . فكان بثُّها وشكواها شُعْبَةً من الوحي والنبوَّة

وأنتم ، أيها الارباب والامراء والحكام في جنبات الارض . . . أهذا ما تُقَدِّمهُ أيديكم من عمل الى ربكم سبحانه ؟ . . . هذا المسخ المشوّه ، . . وقد ذهبتم بنور النفس التي كانت تضيء في قلبه . . . ! ! تبًّا لكم ... كيف تقوّمون مرة اخرى ما تقوّس من هذا العود المعوجّ ؟ انفثوا فيه — ان استطعتم — روح الخلود . . بل ردُّوا عليه النظرة السامية التي كانت لهُ ، بل النور المبصر الذي كان في عينيه ، . . . ردُّوا عليه نَشْوتهُ للطرب ، ولذّته في الاحلام . ارفعوا عنهُ ما نزل به من الفُضُوح الباقية ، وأصلحوا ما كان من الخطايا الشائنة وامسحوا عن قلبه هموماً لا طِبَّ لها

أيها الارباب والامراء والحكام في جنبات الارض

ألا خبرونا أين يضع الغيب المحجوب هذا الانسان ؟ وكيف يجيبهُ عن سؤاله المُتَوَثّب الضاري يوم تزلزل الارض، وتخرُّ الجبال ويتدافع الكون بعضهُ في بعض . . ! ألا وظنُّوا ما يفعل بهؤلاءِ الارباب الظالمين والملوك المتجبرين الذين نَكَّروا الصورة التي سوَّاها الله ثم صوَّروه في تجاليد هذا المسخ الماثل

ظُنُّوا ... يوم تُبدَّل الارض غير الارض والسموات

يوم يأتي القاهر الجبَّار ليحاسب خلقه الجبارين

يوم ينطق الحقُّ الابديُّ، ويسكت الزمن الفاني

« يومَ يَقُومُ الروح والملائكةُ صفًّا لا يتكلمون الاَّ من أذنَ لهُ الرحمن وقال صواباً »

«يومَ ينظُرُ المرءُ ما قدَّمتْ يداهُ ويقولُ الكافِرُ ياليتني كنتُ ترابًا»

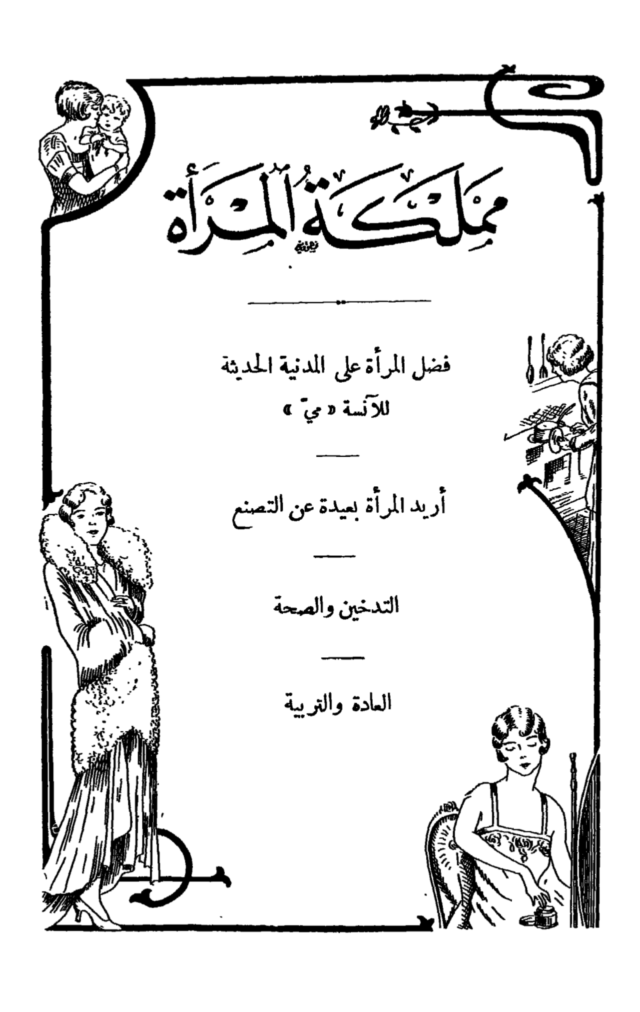
[نقلها بتصرف يسير محمود محمد شاكر]

ذئب البحتري

وليلٍ كأنَّ الصبحَ في أُخرياته حُشاشةُ نصلٍ ضمَّ إفرنده غمدُ
تسربلتُه والذئبُ وسنانُ هاجعٌ بعين ابن ليلٍ ما لهُ بالكرى عهدُ
أُثيرُ القطا الكدريَّ عن جثماتِه وتألفني فيه الثعالبُ والربدُ (٢)
وأطلسَ(٣) ملءِ العين يحمل زورَهُ وأضلاعه من جانبيه(٤) شوًى نهدُ(٥)
له ذَنَبٌ مثلُ الرشاءِ يجرُّه ومتنٌ كمتن القوس اعوجُ منأدُّ(٦)
طواه الطوى (٧) حتى استمر مريرُه فما فيه الاَّ الروح والعظم والجلدُ
يقضقضُ عُصْلاً(٨) في أسرتها الردى كقضقضة المقرور أرعده البردُ
سما لي وبي من شدة الجوع ما به ببيداءَ لم تُعرَفْ بها عيشةٌ رغدُ
كلانا بها ذئبٌ يحدِّث نفسه بصاحبه والجدُّ يتعسه الجِدُ
عوى ، ثم اقعى فارتجزت فهجته فأقبلَ مثل البرق يتبعه الرعدُ
فأوجرته(٩) خرقاءَ تحسب ريشَها على كوكبٍ ينقضُّ والليلُ مسودُّ
فما ازداد الاَّ جرأةً وصرامة وأيقنت أنَّ الأمر منه هو الجدُّ
فاتبعتها أخرى فأضللتُ نصلها بحيث يكون اللبُّ والرعبُ والحقدُ
فخرَّ وقد أوردته منهل الردى على ظمأٍ لو أنَّهُ عذُبَ الوِردُ
وقمتُ فجمَّعتُ الحصى فاشتويته عليه وللرمضاءِ من تحته وقْدُ
ونلتُ خسيساً منهُ ثم تركته وأقلعتُ عنه وهو منعفرٌ فرد

---

(١) الكدريّ ضرب من القطا غبر الالوان (٢) السباع : (سميت هنا بلونها) (٣) الاطلس الذئب الامعط في لونه غبرة الى السواد (٤) الشوى اليدان والرجلان والاطراف (٥) نهد مرتفعه (٦) المنأد المعوج والمحني (٧) الطوى الجوع (٨) العصل الانياب السود (٩) أوجره الرمح طعنه به



مملكة المرأة

فضل المرأة

على المدنية الحديثة

محاضرة الآنسة النابغة « مي »

في جامعة القاهرة الاميركية

جناب الرئيس المحترم ، أيها السادة والسيدات

للمرأة سمعة غير حسنة منذ زمن بعيد ، منذ عهد الفردوس الارضي حيث جرت المفاوضات الشهيرة في شأن التفاحة بين الشيطان المتنكر في زي حية ، وبين حواء الام الاولى . فالى تفاحة حواء تُعزى جميع الشرور المنتشرة في العالم ، وبسببها طرد الانسان الاول من جنة الفردوس نخرج الى هذه الحياة الراهنة بما فيها من نكد وعناء وبغض وعذاب ومرض وموت وحرمان . فلو لم تكن تفاحة حوّاء ، او الثمرة المحرّمة ، ما حكم علينا نحن بني آدم ، بكل ما نكابده من ألم وشقاء . وما كان لنا ان نتدرج في مراتب المدنية التي هي جهاد مستمر ضد الهمجية . فقضية مسلمة اذن ان المدنية كلها نجمت عن تفاحة حوّاء !

قلت المدنية كلّها . لانكم تعلمون اننا عند ما نتكلم عن مدنية الماضي ومدنية الحاضر ، او مدنية الشرق ومدنية الغرب ، انما نفعل بداعي المعاني الموقوتة ولتقسيم الازمان . اما في الواقع فالمدنية واحدة منذ بدء التاريخ تطورت واتسعت وانتشرت دهراً بعد دهر . اذ اخذ منها كل شعب ما يتفق وحاجته وطبيعته ، فزاد عليها أبان نهضته وازدهاره بما ابتكرته عبقريته وحققته حاجته . فاقتبست بعدئذٍ عنه وعن غيره شعوب اخرى ناسخة ومكتفية بالنسخ ، او ناسخة فمبدعة في الابتكار ونتاج الجهود . وهكذا يسير موكب المدنية رحيباً مترامياً ، تشترك فيه جميع الشعوب اشتراكاً سلبيًّا او ايجابيًّا ، وفقاً لذكائها واستعدادها ومواهبها قرناً بعد قرن . ليس هنا مجال البحث في هذا الموضوع الشائق الطريف ، ولكن الالماع السريع اليه كان ضروريًّا لحديثنا

يقول السادة الرجال — عفى الله عنهم وعن ذنوبهم العديدة — : هذه المدنية انما هي صروح وأنظمة وتشريع وزراعة وصناعة وأدوات وآلات وثقافة وعلوم وفنون وآداب . فأين يد المرأة في كل ذلك ؟ الرجل هو الذي ابتكر وانتج ، وما فتىء يبتكر وينتج . والمرأة تستغل ذلك الانتاج وتستهلكه . فأي فضل للمستغل المستهلك ؟

فضل المستغل المستهلك أيها السادة والسيدات يقوم في كونه يمكّن العامل المنتج من المضي في العمل والانتاج ، ويوحي اليه جديد ما يبتكر ، ويغذي حركة الصناعة والتجارة والعمران . فلو لم يكن للمرأة غير هذا الفضل على المدنية لكفى بهِ فضلاً ! ولكني اظن ان للمرأة بعض الافضال الاخرى غير الاستهلاك !

ويقول الرجل الراقي حقّاً : — المدنية في أسمى معانيها هي شهامة وخلق ودين . فأين فضل المرأة في عالم الشهامة والخلق والدين ؟

مثلٌ واحد لا غير ، في كل من الاديان الثلاثة الكبرى التي خرجت من شرقنا هذا الصغير فأسبغت النور على العالم . وكل من هذه الامثلة الثلاثة كافٍ ليشرّف اسم المرأة على الدوام . فلولا ابنة فرعون ما خلص موسى من الغرق ، ولولا عناية ابنة فرعون ما شبّ موسى فصار الكليم الذي يبصر وجه الله فيعود الى قومه بلوحيْ الوصايا . والسيد المسيح في ساعة الاهانة والغم والتفطر ، عند ما توارى من حوله الرجال الصناديد تلاميذه واصدقاؤه — لم يرَ عند قدميه الاّ رجلاً واحداً هو تلميذه يوحنا ، وامرأتين اثنتين هما امه الوجيعة مريم ومريم اخرى هي المجدلية تلميذته . والنبي العربي ، فتى الصحراء الملهَم ، اول من آمن برسالته امرأة . وقد كافأ المرأة كريماً يوم قال كلمة تتجاوبها الاجيال : خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء !

وهذا هو الشرق ، شرق المرأة ، الذي انال العالم بأسره ديناً وشرفاً اخلاقيًّا والهاً

***

تذكرون ، أيها السادة والسيدات ، ان الكاتبة الفرنسية العظيمة مدام دي ستايل ، سألت نابليون يوماً اي النساء أحب اليه . فأجاب لفوره : أحبهنَّ اليَّ المرأة التي هي أم ابناء عديدين ، المرأة الولود . وتعلمون ان هذه الكلمة لم يقلها من نابليون الاّ القائد والامبراطور الذي لم يكن له من وسيلة لتوطيد عرشه الاّ التوسع في فتح البلدان وبسط نفوذه عليها. بالحرب اعتلى العرش وبالحرب وطد ذلك العرش . ولتغذية الحرب وضمان النصر لا بدَّ من عديد الجنود . فلا غرو اذا هو كان شديد الحاجة الى المرأة التي تعطيه رجالاً كثيرين يهلك منهم الهالك فريسة للسيف والنار ، ويحتلّ الباقون البلاد مثبتين فيها نظام الفتح جاعلينها رقعة من الدولة النابوليونية . نابليون القائد والامبراطور هو الذي قال هذه الكلمة . اما نابليون الرجل فقد نقض هذه الكلمة لانه طول حياته أحب امرأة واحدة تغلب حبها عنده على كل حب ، وكان اسمها آخر كلمة تلفظ بها عند موته . وتلك المرأة هي جوزفين التي لم تعطه ولداً !

وهذا القائد والامبراطور العبقري حقًّا ، الذي يودُّ ان يحصر عمل المرأة في اخراج الابناء ، هو الذي كان يحسب للمرأة حساباً في كل شأن فيقول . فتش عن المرأة !

الامومة هي اسمى قداسة في المرأة . فلولا امومة الام ما وجدت في العالم مدنية ولا همجية : ولا كان للنوع الانساني اثر . بيد ان فضل المرأة لم يقف عند هذا الحد على جلاله . نحن نلبي دعوة نابليون نبحث عن المرأة في كل عمل وكل مسعى وكل زمن فنجدها ولا نخطئها . نبحث عنها في حين العالم كان فتيًّا والنوع البشري كالنوع الحيواني يدب على اربع ، فنجد ما يفضي اليهِ بحث العلماء ، من ان ضعف المرأة عند الوضع ، وآلامها الجسدية ، والاوضاع التي تفرضها عليها حالتها الخاصة فتعمد اليها — كل ذلك كان الثمن الاليم الذي ادتهُ المرأة الى الطبيعة لينتقل النوع البشري من الدب على اربع قوائم الى حالة الانتصاب على قدميه . ذلك الانتصاب النبيل الذي ينيل الحرية لليدين وهو اول ما يميز بين الانسان والحيوان فيجعل الانسانية على الحالة التي نود ان نراها فيها . وزاد في تركيز الانسان على قدميه مع اطلاق الحرية ليديه ، ان المرأة اضطرَّت الى حمل طفلها بين يديها لتسير على قدميها تجلب الغذاء له ولها ، كما اضطرت الى الفرار بهِ من العدو المهاجم او من الحيوان المفترس او من اي خطر آخر مداهم

وعند ما انبرى الرجل القديم يهاجم وحوش الغاب بغية الصيد والقنص ، ويقاتل الاعداء دفاعاً وهجوماً ، كانت المرأة تهيىء له اسباب الراحة والرفاهية الميسورة في ذلك الزمن . فاذا عاد من الصيد بالغنيمة ، يد المرأة هي التي كانت تعد تلك الغنيمة طعاماً

وعند ما انقضى طور التشرد في الجبال والغابات واستقرَّ الانسان في مكان ثابت على الارض ، فانطلق الرجل اشد شكيمة وامضى عزيمة الى الصيد والحرب ، كانت المرأة تفلح الارض وتزرع الحبوب وتجني الحصاد ، وتضرب اوتاد الخيمة او تشيد جدران المسكن ، وتمهد السبل ، وتقطع الغصون والاخشاب لتضرم النار ، وتنظم الحجارة موقداً تطهي عليهِ الطعام ، وتكيف الادوات المنزلية من الفخار والخزف . افلا ترون في كل ذلك المحاولات الاولى لوضع مبادىء الزراعة والصناعة والتجارة والبناء وتخطيط المدن وغيرها من الصناعات والعلوم والفنون ؟ وعند ما بكى الطفل حاولت المرأة ان تنغم نبرات صوتها ملاطفة مواسية ، ألم تكن في ذلك ممهدة للموسيقى والرقص والشعر ؟ وعند ما رجع البطل المغوار من مغامراتهِ ويداه ملوثتان بدم العدو وبدم الحيوان ، أليست هي التي قالت له « تعال يا اخي ، اغسل يديك ! » فكانت ممهدة لقوانين النظافة والصحة ؟ وعند ما مرض الطفل او عاد البطل المغوار جريحاً ، أليس انها اضطرت الى ان تدرس ، لا في الكتب ولكن بالتجربة والاختبار ، مفعول الحشائش والنباتات وطريقة استعمالها ، فكانت العجائز القهرمانات طليعة الاطباء دون ان تحملنَ لقب الدكتوراه ؟ افلا ترون في كل هذا مبادىء علوم الكيمياء والطب والصيدلة ؟

وبعدئذ عند ما اصبحت مهمة الصيد او الحرب لا تتطلب اكثر من واحد في الخمسة او في العشرين او في المائة ، فكثرت اوقات الفراغ عند الرجل وتولى بحكم ذلك الفراغ الاعمال التي كانت

المرأة تقوم بها من قبل ، الم يتحوَّل ذكاء المرأة داخل البيت الى ابتكار صناعات وفنون اخرى كالغزل والحياكة والنسج والتفصيل والخياطة وغيرها من الصناعات الضرورية والفنون الكمالية ؟ افلا ترون في كل هذا خدمة للصناعة والفن وفضلاً بيناً على تطور الحضارة ؟

المرأة التي غذَّت النوع البشري جنيناً قرب قلبها ، وحملتهُ طفلاً على منكبيها ، واوقفتهُ على قدميه انساناً ، وقدَّمت له الطعام يافعاً وكهلاً وشيخاً ، وداوتهُ مريضاً جريحاً ، وواستهُ حزيناً ، وزانت بيته بالادوات والمعدات ، هي التي وضعت وهي لا تدري ، اسس العلوم والفنون والصنائع . كل خطوة خطاها الرجل في سبيل التقدم والحضارة ، قابلتها المرأة بخطوتين وكان عملها اشق من عمل الرجل واطول . افتظنون مع ذلك انها صاحت او شكت ، او تذمرت من فداحة العمل ومن شدة وطأتهِ على ضعفها ؟ كلاَّ ! هي تعتقد انها اذا هي القت عنها العبء الذي تحمله كانت جبانة خائنة لنوعها — شأنها شأن الرجل الذي يلقي السلاح من يده وهو في ساحة القتال . ان المرأة تحتمل عناءها كما يحتمل الجندي الباسل جراحه — في سكوت وتجلد !

فلا عجب ، والحالة هذه ، ان قيصر في غزواته وفتوحاته عند ماكان يفرض الرهينة على قبيلة او قوم ، كان يصر على ان تكون الرهينة نساء دون الرجال . لاعتقاده ان المرأة اوفر قيمة واغلى ثمناً . ومجرد وجودها في حدث اجتماعي يرجح الكفة الايجابية على الكفة السلبية . لقد كانت المرأة وسيلة فعَّالة في نجاح الفتوحات الاسلامية وتوطيد دعائمها من الناحية الاجتماعية . لان المسلمين زاوجوا الاهلين في كل بلد فتحوه فاصبحوا من ابنائه في اسرع ما يكون . بينما اليونان والرومان الذين كانوا قد سبقوا المسلمين الى فتح غربي آسيا وشمال افريقيا، ظلوا بعد مئات الاعوام « الغاصبين » وظلت انظمتهم وعاداتهم بعيدة عن حياة الشعب ، لم يقتبس بعضها الاَّ نفر من سكان المدن الكبرى . كذلك ظفر المسلمون بواسطة المرأة بما لم يظفر ببعضه اليونان والرومان بوسيلة من الوسائل

***

ايها السادة والسيدات

عند ما يتكلم كاتب او خطيب عن أثر المرأة في العالم يسارع الى الكلام عنها امًّا وزوجة وسيدة بيت ومثقفة وممرضة ومدبرة وناشرة في جوّ المنزل وفي جو الوطن وسائل السعادة والهناء . وكل ذلك حق . فاذا تكلم عن ذكائها وحميتها ومواهبها ذكر ابلاء النساء جماعات وافراداً في ميادين الآداب والفنون والعلوم والتضحية والاستبسال والبطولة : ذكر مثلاً جان دارك في الفروسية الحربية ، والآنسة پوستافوتيوف البولونية في الحماسة القومية ، واسبازيا اليونانية في النفوذ الاجتماعي ، وهيباثيا المصرية في العلوم الرياضية والفلسفية ، وفلورنس نايتنجيل في بسالة الرحمة ، ومرغريتا كيرش وكارولينا هرشل في علم الفلك ، ومدام كوري في تفردها العلمي في عصرنا هذا ، وايمي جونسن في منافستها الظافرة

لابطال الهواء . وغيرهنَّ ممن لا عداد لهنَّ في مختلف ميادين العلم والبسالة ، والفن والاجتماع والوطنية . حتى في الاعمال المتواضعة التي تتولاها اليوم المرأة في جميع نواحي الحياة . وهذا حق ايضاً . ولو كان حديثي قاصراً على قطر واحد لاستطعتُ ان اشيد بذكر المرأة المصرية وبراعتها رغم حداثة عهدها بالحركة الثقافية والاجتماعية والقومية . بيد ان حديث هذا المساء هو عن المرأة عموماً ، يشمل الجنس النسائي كله في ملايينه الغفيرة التي تخرج الى الوجود مجهولة وتمضي عن الوجود مجهولة . ولكنها لا تمضي الاَّ وقد ادّت في دائرتها جميع الخدم المنوَّعة المطلوبة منها ، والتي لا استطراد للمدنية او لحياة المجتمع من دونها . وهذا التعميم يجعل الموضوع عسيراً ويرغمني على الاختزال مكتفية بذكر تلك الخدم التي قلَّ من يذكرها او يأبه لها . واذا ذكرها ذاكر فعل عرضاً وبغير كثير انتباه

ملايين القرون انقضت والمرأة تكد وتنتج رغم انحطاطها في جهلها وانخذالها . انقضت القرون وجماهير النساء كرطب الرمال على الشاطىء يسير فوقها الرجل فيطبع فيها أثر قدمه ! والمرأة في خدمتها وفي عملها الشاق وموقفها العسير ، تنسى اهميتها وتجهل نفسها فلا تجد ما تباهي به سوى المكانة الاجتماعية والثروة والجمال ! اما ما يعتز به الفرد الانساني من الشخصية المستقلة المكونة من الارادة والضمير والمجهود ، فذلك ما لم تكن تعبأ بهِ المرأة ، ولا هي استطاعت ان تتخيل وجوده الاَّ في حقبات خاصة من التاريخ وفي احوال معينة

ورغم الانحطاط والانزواء ، ظلَّت المرأة مسلحة بسلاح لا يفل ، ظلت مسلحة بالحب الذي هو حياة الاجيال ومغزى الحياة ! بالحب اخرجت النوع البشري كله ، بالحب انجبت اشبال الوطنية والعمران ، بالحب غذت الرجل وعطفت عليه ، بالحب عالجته وأوحت اليه ، وبالحب صانته من غوائل الايام . سواء أكانت المرأة سعيدة في حبها ام شقية ، سواء انصرها الحب ام خذلها ، هي دائماً مستودع الحب وكاهنة الحب والاهة الحب . وأيَّاً كانت آلامها وغمومها في قومها فهي ، بالحب ، تحتمل في اباء وامتثال ما دامت تلك الغموم وتلك الآلام ضرورية لحياة القوم ولراحتهم . فاذا ما ثبتت من ناحية المرأة محاولة جادة في تعديل شؤونها فذلك الدليل القاطع على ان شؤون القوم آخذة في التبدل تبدلاً يفرض التغيير والتعديل في شؤون المرأة ، وان امتثالها القديم لم يعد ذا نتيجة حسنة في حياة القوم او الجماعة

رعدة جديدة سرت في العالم بأسره في هذه الاعوام الاخيرة . رعدة جديدة تناولت النساء والرجال والشيوخ والشبان كما تناولت عناصر الطبيعة على نوع ما ، وشؤون العمران جميعاً . رعدة جديدة قلبت ظروف المرأة بمقتضيات اقتصادية واجتماعية وروحية لم تعهدها من قبل . ولأن المرأة غالية رفيعة الشأن ، ترى الرجل وجلاً خائفاً من النتيجة يندد بشرور المرأة وبما قد ينجم عن تضعضعها من الويلات . ولـكن هذا التضعضع هو من مستلزمات الانقلاب العنيف الذي نحن

فيه ، وهذا الانقلاب هو الخروج من الجمود . ستنتظم الشؤون شيئاً فشيئاً لتأخذ مجراها الطبيعي الذي يطمئن اليهِ الرجل، ولكننا لا ندري هل فيه سعادة المرأة وهناؤها . بيد أنَّ للانسانية الهاً يرعاها ، وعند ما يشتد الضيق يقرب الفرج . هذا ليس مثلاً سائراً فحسب ، بل هو حقيقة ثبتت دائماً . وستظل المرأة دائماً — كما قال اناتول فرانس الذي ينعتونه بالجاف — « مهذبة الرجل ، تعلمه الفضائل الجميلة من التأدب ، الى التحفظ ، الى الاباء الذي لا يتعرض متطفلاً . تعلم البعض فن الارضاء وتعلم الجميع فن عدم الاساءة . منها يتعلم الرجل ان المجتمع ادق وأعوص مما يظنه وهو في الحانات السياسية . وأخيراً يقتنع قربها ان اشباح العاطفة ورؤى الايمان لا تُقهَر ، وان علم المنطق ليس هو الذي يقود العالم . . . »

ستظل المرأة دائماً الوحي الاكبر والمنهل الذي تستقي من مياهه الآداب والفنون ومنهُ تتغذى . ولسنا هنا في حاجة الى ذكر تأثير المرأة في حياة عظماء الرجال . كل رجل عظيم في دائرته ، كل عامل في عمله عظيم ، والمرأة تحيط به من كل جانب أمًّا وزوجاً وأختاً وابنة وغريبة . لذلك لو لم يوجد في قوم سوى مدرسة واحدة لارتأيت ان تخصص تلك المدرسة للبنات دون الشبان . لان ما تعرفه المرأة يتعلمه الرجل بطبيعة الحال منذ الصغر . وأهم من كل شيء آخر هي العقلية التي يولد بها الطفل والنفسية التي يشب عليها ، وهي بالطبع عقلية امه ونفسية المرأة التي تحيط به . وانماء عقلية المرأة وتوسيع نفسيتها انما هو بيد الرجل دون سواه لان المرأة تهذب الرجل وهي التي تضمن استمرار المدنية ونموها وازدهارها بالرجال الذين تنجبهم مهذَّبين بواسل رشيدين . اما الرجل فهو الذي يخلق المرأة خلقاً

***

وفي الختام ، لا يسعني الاَّ ان اذكر تلك الاسطورة التي تجعل مصر تحت حماية المرأة وتحت نفوذ حبها وألمها . اذ تزعم الاساطير المصرية ان النيل الذي خلق الحضارة القديمة ومكنها من الارتفاع الى اعلى مراتب التقدم والمجد ، انما هو بعض نعم المرأة . ضاع الآله اوزيريس يوماً فجلست ايزيس تبكيه ، وتساقطت دموعها على الارض . فاهتزت احشاء الارض وارتعشت لدموع الآلهة الحزينة ، فتفجرت منابع النهر وجرى النيل المقدَّس مهرولاً الى البحر يرضع بمروره فسيح المروج ، ويثير على جانبيه رائع الهياكل والشخوص والآثار !

***

هذه المدنية التي غذتها دموع الوفاء ، هذه الارض التي احياها الحزن الخصيب ، هذا النيل الذي خلقه حب الالاهة المصرية — كل هذا سيكون خالداً في غده خلوده في امسه ، كل هذا سيعتز ابداً مجيداً بابنائه وبناته جميعاً !

أريد المرأة ....

بعيدة عن التصنع

اريد ان يكون جمالها طبيعيًّا لا مستعاراً . ففي كلّ فتاة وسيدة ما يستحسَن وما يحترم لذاته اذا عرفتْ ما هو ، فتجري عند ذلك على مقتضى طبعها من دون كلفة او تصنّع في حركاتها وسكناتها . ولست احسب من التصنع الثقيل على طبعي، مسح الوجهِ «ببودرة» ملائمة للون البشرة لتزيل تلمُّع الجلد الناتج عن مفرزات الغدد الدهنية، وبقليل من «الاحمر» على الخدين والشفتين يزيد الوجه نضرة واشراقاً ، لأنها اذا احسنت السيدة استعمالها ساعدت الطبيعة على اظهار ما تمتاز بهِ . ولكنني امقت المغالاة في ذلك . بل امقت اكثر من المغالاة ، محاولة المرأة اخفاء بشرة سمراء جذابة ببودرة ناصعة البياض ، في حين ان لون بشرة العنق واليدين تنمُّ عليها . ثم انني ارغب في ان توجّه كلُّ سيدة عنايتها الى ارتداءِ ثوب يناسبها لونهُ وتفصيله ويتفق مع قامتها ومقامها لانهُ من التصنّع المقوت ان ترتدي سيدة ثوباً لان سيدة جميلة او مشهورة سبقت الى ارتدائهِ . والمرآة ، بعد تثقيف الذوق بالاصول العامّة ، اصدق صديق للمرأة العاقلة . وتعتقد بعض السيدات ان السمنة قبيحة فيلبسنَ ما يحسبنهُ يخفي السمنة بالتضييق على الاعضاء . ولكنني اعرف سيدة سمينة تعرف ان ترتدي الثوب الملائم فلا تعيبها السمنة . اما علاقة السمنة بالصحة فلها بحث آخر في العدد المقبل

ان تظهر بمظهر يتفق وسنها

ذلك اني احب الصدق في الجمال . ولا جمال حيث الغش والخداع وبوجهٍ خاص بعد انفضاح السرّ وزوال الغشاءِ . كل امرأة تستطيع ان تكون جميلة في الستين على ان تظهر بمظهر يتفق وسنها فاذا حاولت ان تقلّد ابنة العشرين او الثلاثين خرجت مسخاً يثير السخرية . فالتقدم في السن لهُ رونق كرونق الشباب . والمرأة لا تتصف بنضارة الوجه فحسب ، او بسواد الشعر فحسب ، حتى تحسب الشيب او تغضن الوجه ، قاضياً عليها كامرأة . بل للمرأة صفات اخرى تهمُّ الرجال وتسترعي احترامهم واعجابهم . تلك هي الصفات التي تنبع من العقل المثقّف والرأي الحصيف والقلب الفيّاض بالحب والرحمة والحكمة التي ترسلها بداهتها وتصقلها تجاريب الحياة

مثالاً للنظافة التامة

لااريد ان احكم حكماً جائراً على المساحيق والمطريّات واللواتي يستعملنها ، لانني اعلم كما قدمت انهُ اذا استعملتها المرأة بحكمة وذوق واعتدال زادتها بهاءً . ولكن اذا خرجت في استعمالها عن حدّ الاعتدال كان ذلك منها خداعاً ظاهراً . ولكن بعض النساء يحاولن ان يعتضنَ بالمساحيق والاصباغ عن النظافة اذ قد تستسهل المرأة ان ترشّ على وجهها البودرة وعلى ثيابها قليلاً من الكولونيا بدلاً من الذهاب الى

الحمّام واغلاء الماء وتنظيف الجسم . ولا بدَّ من القول هنا، بأن عناية المرأة بنظافتها، ونظافة جسمها، وحسن ترتيبه وزينتها التي تلائمها يجب ان تكون وهي باقية في البيت بقدر ما تكون وهي مدعوة الى سهرة حافلة

ان تلائم المقام

الالماس امير الجواهر وغريزة المرأة تدفعها الى التزيُّن والتحلي به وبغيره كالياقوت والزمرّد واللؤلؤ ولكنني امقت ان ارى سيدة تتناول طعام الغداء وعقد الماس في عنقها واصابعها مختّمة بأغلى الجواهر البرّاقة . ذلك ان جمال بعض الجواهر يزداد اذ يكون النور صناعيًّا، فيعكس عنها ويزيدها سناءً . ولذلك فالماس يجب ان يتقلد في الحفلات الساهرة . ويكتفى في حفلات النهار بعقد بسيط، وخاتم من فصٍّ واحد، ويفضَّل ان يكون من حجر ثمين ملوَّن كالياقوت الازرق او الزمرُّد او العقيق . وكثيرات من الفتيات الخادمات يستطعنَ ان يضاهين سيداتهنَّ جمالاً ورشاقة ولكنهنَّ يخطئنَ القصد اذا ارتدينَ ثياب السيدات وتزيّنَّ بزينتهنَّ حين قيامهنَّ بأعمال البيت . ثم ان بعض النساء يلبسنَ ثياب الرجال او ما هو شبيه بها في الصيد والقنص فيبدو منظر هذه الثياب جميلاً حينئذٍ لانها تناسب المقام . ولكن من يستحسنهنَّ اذا ذهبنَ بها الى حفلة ساهرة او الى كنيسة ؟ فجمال المرأة يزداد اذا لبست لكل حالة لبوسها

ان تبدو كأنها تبغي ان تسر الرجال

المرأة بغريزتها تميل الى استمالة الرجل واسترعاء انظاره ، والرجل يسرُّهُ هذا ، وانا اودُّ ان ارى كل امرأة اقابلها تهتمُّ باستمالتي اليها ، ولكن يجب ان تحذر كل فتاة وكل امرأة من التطرف في هذا الامر ، وعليهنَّ ان يقيّدنَ هذه الغريزة بما يقتضيه شرف النفس وآداب السلوك

ان تكون بشوشاً

ترى كثيرات من النساء على اوفى استعدادٍ لبذل كل شيء في سبيل ازواجهنَّ الاَّ بسمة لطيفة او كلمة عذبة او بشاشة في قسمات الوجه تخفف عنهُ اعباء الحياة . اتخافين ياسيدتي من مناظرة تناظرك في زوجك ؟ من هي ؟ . ليست مناظرتك المرأة الجميلة ولا المتعلمة ولا السريعة الخاطر ولا الحسنة الهندام فقط، بل مناظرتك فوق اولاء جميعاً، هي المرأة البشوش التي يحسُّ الرجل انهُ يستطيع ان يلقي باعبائهِ عند اقدامها

قد تتعجبين لماذا يهتمُّ زوجك بهذه الفتاة او بتلك اكثر من اهتمامه بك والتفاتهِ اليكِ . هل تذكرين انك لا تحدثينه الاَّ فيما يقلقك ويكربك ويثقل صدرك فاذا زاركم زائر هششت وبششت . انا لا أنكر ان على الزوجين ان يتشاطرا همومهما . وان الزوج هو سند المرأة تعتمد عليهِ في الملمات . ولكنَّ لكل أمرٍ وقتاً . وهنا يجب ان تحكمي عقلك ، في اختيار الوقت الملائم لبث الكرب . وانما يجب ان تتخذي البشاشة دستوراً لك . فاذا لم تفعلي شرع يبحث عن اخرى تبشُّ لهُ وتبتسم . هذه هي المناظرة التي يجب ان تخشيها . قد يوافقني بعض السيدات على ما أقول . وقد لا يوافقني . ولكنني أمثـل في قولي هذا طائفة كبيرة من الرجال يرون هذا الرأي وينظرون هذا النظر

تفرغوا للكتابة حتى نسأل هل كان هناك (نثر فني) او لم يكن فان هذا السؤال يقتضي ان يكون في الجزيرة فئة قد تجردت للكتابة فعلت على غيرها من عامة الناس في الاسلوب البياني . هذا والرسول نفسهُ صلى الله عليهِ وسلم كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب ، وكان يعد افصح العرب ، وكان من اصحابهِ من يجيد الكتابة كعُمَر وعليّ وزيد وعثمان رضي الله عنهم ومن يتدبر هذا يجد ان النثر على المعنى المعروف عندنا لم يكن مما تتطلبهُ العرب وتتفرغ له وتتفوق فيه وانما كان كلامهم كله مرسلاً على سجية واحدة الاَّ الشعر فان الذي ميزه هو الوزن والقافية

***

أما قول صاحب الكتاب ان مؤرخي الاسلام اتفقوا على ان العرب لم يكن لهم وجود سياسي او ادبي قبل النبوة فهذا قول مرسل لا حد له وهو كلام لم يقل بهِ احد من العلماء وانما كانوا يعنون بما يصفون بهِ العرب من الجهل والضلال ما يتصل بأمر الدين والتوحيد وإلاَّ فانهم قد استشهدوا في تفسير القرآن نفسه بنوع من كلام العرب وهو الشعر . أما المسألة السياسية والكتلة الدولية فانهم يعنون بذلك ان لم تكن امة متآزرة ذات حكم واحد وسيادة متصلة من أعلى الجزيرة الى اسفلها بل كانت قبائل متنازعة يأكل بعضها بعضاً حتى جاء أمر الله ونزل القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم ليكون مبشراً ونذيراً وهادياً الى الله بأمره وسراجاً منيراً فألّف بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته اخواناً وقاتلوا في سبيل الله حتى فتحوا الارض واستولوا على ملك كسرى وقيصر . وليس في هذا موضع للجدال... ولا اتفاق — كما يقول صاحب الكتاب — يرجع الى ان مؤرخي الاسلام يقولون ذلك تأييداً لنزعة دينية يراد بها اثبات ان الاسلام هو الذي خلق العرب خلقاً وأنشأهم انشاءً فأخرجهم من الظلمات الى النور ، ومن العدم الى الوجود . . هذا على ان القرآن قد اخرج العرب حقيقة من الظلمات الى النور

ثم ان المؤلف اراد بعد ذلك ان يجعل القرآن اثراً جاهليًّا « فانه — نسأل الله المغفرة — من صور العصر الجاهلي ، اذ جاء بلغته وتصوراته وتقاليده وتعابيره » ص ٣٨ فلو كان ذلك كذلك فما فعل القرآن بالعرب حتى اخرجهم من الظلمات الى النور وكيف يجيء ما هو من عند الله مطابقاً لتصورات العرب وتقاليدهم على ما فيها من الطبيعة البشرية الضعيفة الهالكة الجاهلة وهذا القرآن الذي يعدُّهُ صاحب الكتاب اثراً جاهليًّا هو الكتاب نفسه الذي أعجز عرب الجاهلية جميعاً وتحداهم وطالبهم وسخر منهم ووضع من آلهتهم وحقّرها وأثار أحقادهم وأضغانهم . ولو كان هذا القرآن قريباً من كلامهم او شبيهاً بهِ لما عجز بعض بلغائهم عن الاتيان بمثل سورة من سورهِ كما طالبهم بذلك وتحداهم . ونحن لا ننكر ان كل ما في القرآن من لفظ انما هو من الفاظ العرب كما ان اكثر الفاظ كتّابنا الآن بل كتّاب القرن الرابع الذي يتكلم عنه صاحبهُ انما هي الفاظ عربية ، ونحن لا نعدُّ

أسلوبنا او اسلوب القرن الرابع في النثر مقارباً او شبيهاً بالنثر الجاهلي فكذلك القرآن من النثر الجاهلي بهذه المنزلة ، فألفاظ القرآن هي الالفاظ العربية ولكن نظمه وسياقه وبلاغته ومواقع كلماته المعجزة لا صلة بينها وبين اي كلام من كلام البشر في جاهليةٍ او اسلام

ولماذا يعدّ صاحب الكتاب هذا القرآن من النثر الجاهلي ، ويتخذه دليلاً على وجود النثر في الجاهلية مع ان الحديث النبويّ وكلام الصحابة المرويّ بالاسانيد الصحيحة الثابتة هو أقرب في الادلة وفيه بغية صاحب الكتاب . فأنت اذا قرأت السيرة وجدت كثيراً من كتب الرسول الى القبائل والامم وولاة جيوشهِ ووجدت اكثر من ذلك في كلام ابي بكر وعمر وعلي وعثمان وغيرهم من اهل الجاهلية الذي اسلموا واتبعوا الرسول النبيّ الاميّ صلى الله عليهِ وسلّم

القرآن كتاب الله، فاذا أردنا ان نبحث عن الادلة عن النثر الجاهليّ فهو في كلام الصحابة والرسول نفسه

هذا ونحن نعتذر الى القراءِ عن تقصيرنا في الكتابة عن كتاب النثر الفنيّ فانّ لهذا موضعاً آخر إن شاءَ الله

محمود محمد شاكر

رحلة صيف

تأليف توفيق حبيب « الصحافي العجوز » — صفحاته ١٦٠ مزين بالصور
يطلب من مكتبة الفجالة المصرية والثمن خمسة قروش

اصحّ طريقة للحكم على كتابٍ من كتب الرحلات والاسفار هو ان ترحل الى بلاد وتشاهد آيات عمرانها واجتماعها ثمّ تطلع على ما كتبه احد الكتاب فيها . وقد اتيح لكاتب هذه السطور زيارة تركيا في الصيف الماضي ، ومشاهدة بعض اعلامها التاريخية ومنشآتها الاجتماعية ، ثم اطّلع على ما كتبه « الصحافي العجوز » في « رحلة صيف » فوجده فيها قد اجاد الوصف ، وبسط الحقائق التاريخية والاجتماعية ، في خفة روح لا تجارى ، وبساطة اسلوب يُحسد عليها . وعندي ان مقياس الكاتب البارع هو مقدرته على ان يعي التفصيلات المنوعة في ذهنه ، ثم يتناولها في كتابته تناولاً لطيفاً ، من دون ان يظهر على كتابته أثر للكدّ والاجهاد . والصحافي العجوز في فصوله اليومية التي ينشرها في الاهرام ، وفي « رحلة صيف » كاتب بارع حقّاً . وقد اجاد الاستاذ فكري اباظة في مقدمته اذ قال : « لذلك اقرر ان ذخيرة « توفيق حبيب » التاريخية ذخيرة ضاعت من ايدي زملائي جميعاً وتجمعت بكليتها في يديه . ولهذا سهل عليه ان يكون فيّاضاً عندما يعرض للتعليقات التاريخية »

والكتاب عدا كونه رحلة اخّاذة يصف لك نواحي النهضة التركية الحديثة وصفاً ليس فيه افراط ولا تفريط يحف بهِ أطار لطيف من مشاهد اليونان ويوجوسلافيا وايطاليا

فيصل الاول

لامين الريحاني — ص ٢٣٤ — طبع بيروت

صدر هذا الكتاب النفيس — وقد اطلع قرّاء « المقتطف » على نموذج من فصولهِ نشر في عددي يناير وفبراير ١٩٣٤ فرأوا ان الريحاني قد جمع فيهِ الى البحث التاريخي الدقيق ، الاسلوبَ الادبيَّ اللألاءِ — في الشهر الماضي ، فكان درة من هذه الدرر الغوال التي يزين بها الريحاني جيد التاريخ العربي الجديد من وقت الى آخر. وقد اهداهُ الى جلالة الملك غازي « المتمم بعون الله الرسالة العربية العراقية ، رسالة ابيه وجده رحمهما الله». واستعرض بهِ سيرة فيصل في العراق، وقد ابتدأها في كتابهِ « ملوك العرب » فكان حلقة جديدة تضم الى الحلقة الاولى ، وبشرنا بان هنالك كتاباً ثالثاً يعد المعدات لاصداره وهو « الشعب العراقي » فنرجو ان لا يطول الزمن قبل ان يُجلى لقراء العربية فهم معجَبون بكل ما تنتجه براعة الريحاني مرتاحون الى مباحثهِ واساليبهِ

***

كشف الريحاني في كتابه الجديد عن حقائق كانت مجهولة في تاريخ الدولة العراقية الفتاة واماط اللثام عن كثير من الاسرار فجاءَ آية في دقة البحث والاستقصاء ، كما جلا كثيراً من نواحي فيصل الاجتماعية والعلمية والخلقية مما لم يسبقه اليه سابق وقد لا يلحقه في هذا المضمار لاحق، فقد افرد في بعض فصولهِ ابواباً خاصة حلل فيها شخصيته من كل النواحي تحليلاً فلسفيًّا وعلميًّا ومنطقيًّا، تحليل الناقد الخبير، الذي يزن الكلمة قبل ارسالها ويقلب الرأي قبل تدوينه فلا افراط ولا تفريط ولا غلو ولا اغراق

قال في الصفحة ١٦٥ بعنوان « مناقب » « كان فيصل مسلماً سنيًّا حنفيًّا صادقاً وكفى ، وكان بصورة ايمانه سطوح متعددة تنعكس فيها انوار المذاهب الاسلامية الاخرى انعكاساً صافياً ، وقد كنت اشعر في محادثته ان لعقيدته الدينية بطانة من التساهل الذي تخلله الاحترام لسائر الاديان في العالم . هو رجل من رجال العالم الكبار ، وهو مسلم يندر مثله بين حكام المسلمين ، فقد كان في تعقله واعتداله مثل الحكمة العالية ، وفي رحابة صدره وتساهله مثال الحب والاخلاص » ثم قال « يصح ان نقول انه ما كان من رجال الحرب الكبار ، بل كان اولاً وآخراً رجلاً مفكراً ، والفكر وليد السلم ووالده الاكبر ، وقد كان الملك فيصل في حبه للسلم وفي جهاده من اجل السلم شجاعاً غير هياب ، وشهماً لا يذكر الحساب ، شهماً كريماً ، ينسى ولا يلوم ، لقد كان فيصل بعيد عن الجاقة ، بعده عن العنجهية وكان حب الذات عنده رمزاً لحب أسمى ، رمزاً لحب قومي ، رمزاً لحب امته العربية . في سبيل هذا الحب ، وفي سبيل السلم المؤيد له، كان يتحمل فيصل ما لا يتحمله رجل آخر في منزلته ، كان يكظم الغيظ وينكر النفس ، توصلاً الى اغراضه »

وفي باب المناقب كثير من « مناقب » الملك فيصل الغر مما لا يتسع المجال لنشره هنا . وهنالك ابواب اخرى تناول فيها ايضاً شخصية الملك بالتحليل . منها « فوز الملك فيصل » و «شغل الملك فيصل» و« نحن وهارون الرشيد » وهي مكتوبة بأسلوب يستهوي النفس فيغري القارىء بالمطالعة فلا يكاد يبدأ فصلاً حتى يتمه وهكذا حتى يأتي على الكتاب برمته . فهو منسجم منسق في ابدع صورة وتكوين

وقد ختمه برسالة وجهها الى فيصل وضمنها آماله وآمانيه . ثم اثبت كلمته في «النسر العربي» وقد قالها فيصل حين وفاته وتليت في حفلات الاربعين ونشرها المقتطف وسجّل تاريخ الحوادث البارزة في حياة الملك فيصل مسلسلة وبالاجمال فهو من الكتب النافعة المفيدة التي يجدر بكل عربي دراستها واقتناؤها — امين سعيد

مناجاة

بقلم حسين عفيفي المحامي — ١٥٢ صفحة من القطع الصغير — مصورة بصورة طبيعية فنية بالالوان بريشة شعبان زكي — طبع مطبعة سابا بمصر — الثمن ٥ قروش

« مناجاة » هي قطعٌ متخيلة تشبه في تسلسلها الرواية وتتضمن تحليلات عامة في قالب غرامي وأسلوب من النثر الشعري . مؤلفها شاعرٌ يستعمل النثر اداة في التعبير عن افكاره ولكنهُ النثر الذي جاهد في نشره جبران والريحاني واخوانهما في المهجر ، ذلك النثر الشعري الذي يحرص على الموسيقى . والاستاذ عفيفي يشبه في اسلوبه عند تأدية اغراضه شاعر الهند طاغور في كتابيه «هبة العاشق » و « وجيتنجالي» فهو يمزج الفلسفة بالعاطفة مزجاً موفقاً ، ولكنَّ للبيئة المصرية أثراً كبيراً في المؤلف يحسه القارىء في نواحي الكتاب منبثاً ، فهو حائر قلق ، يبحث عن مثل أعلى... فيه حيرة المجتمع المصري وفيه قلقه ، وهذه الحيرة وهذا القلق هما اللذان يجعلانه ينظر الى الحب نظرة الحائر فكأن العالم لا يملأ قرارة نفسه حتى نسمعهُ يناجي حبيبهُ قائلاً « لك قلب يا حبيبتي ولي قلوب ، فأحبيني إن شئت وحدي ، اما انا فلا بد ان أشرك في قلبي غيرك » . ثم يخاطبها في ناحية اخرى قائلاً « دعيني اتقلب بين الحسان حتى لا يفوتني شيءٌ من الجمال الذي من اجله احيا ، ولا تكليني الى عبث الغناء قبل ان احقق منهُ الاماني ، فان حياتي حلم لا يعود »

بهذا الاسلوب الشعري الجميل يتغلغل المؤلف الى صميم الحياة فيتناول موضوعاتٍ تحسها بعيدة عن الشعر ولكنهُ يتركها تلبس رداءها مطرزاً بثوب الخيال ومعطراً بنفحات موسيقى عذبة ولعل حبهُ للحياة الشعرية هو ما يدعوه الى الرغبة في حياة الطبيعة حتى يكاد يرى ما رأى جان جاك روسو ، وهو من اجل ذلك يهدي كتابه الى رعاة الغنم ، لانهم اكثر الناس تمتعاً بالأمِ الحنون...

حسين كامل الصيرفي

أبو علي : عامل ارتست

وقصص اخرى — تأليف محمود تيمور — صفحاته ١٦٢ — طبع بالمطبعة السلفية

بين دفتي هذا الكتاب صور حية لنماذج من الناس يعيشون في ريف القطر المصري وحواضره فثمة صورة الشيخ رأى شيطاناً في ابنتهِ لانهُ فاجأها مراراً « وهي تنظر الى عزازي نظرة كلها فجور واشتهاء » . وادرك ان هذا الشيطان لن يخرج من جسمها الاَّ بعذاب اليم فحبسها وقلل طعامها وبدأ يعذبها حتى ماتت وهو مقتنع انهُ في عملهِ هذا ليس الاَّ محارباً للشيطان. هذه الصورة نموذج لعقلية ما تزال في القرن العشرين «قطعة متلكئة من الزمن» على حد تعبير المازني . ثم هناك حلمي الاديب او المتأدب الذي يلوك الفاظ الحضارة والاشتراكية ويذكر العلوم ويهوّل بسهره للتبحّر فيها وجني ثمرات العقول من المؤلفات المشهورة ، وهو يموّه بذلك على نفسه ويكشفها لاخوانهِ ، وينغمس في الشهوة على حساب ذوي النجدة من أصحابهِ ، ويحاول ان يداري ما يفعل وراءِ ستار شفَّاف قوامهُ : « انني ادرس هذه الاوساط . ادرسها جيداً »

اما قصة « ابو علي عامل ارتست » فصورة بديعة لنموذج آخر من الناس . وقد ابدع المؤلف في تحليل نفسية الرجل . وتطوّرها وعمدَ الى السخرية آناً في رسم بعض خطوطها ، فوضع على لسان الرجل وهو يودّع بيت عمهِ عبارات جُوفاً ولكنها رنّانة — كقولهِ يودّع حجرتهُ « وداعاً يا حجرتي المحبوبة . يا مستودع اسراري ومهبط وحيي . يا مرتع احلامي ومنبع عبقريتي» او كقوله متعالياً على مدير فرقة تمثيلية عند طردهِ منها . « اذن انت تخشى منافستي لك . يا للضعف . . . » او « صرّح لي يا سيدي بكل شيءٍ فما زلت مستعداً للتفاهم معك »

والقصص تبدو كما قال المستشرق السويسري ويدمار ، بسيطة « ولكن هذه البساطة هي السر في قوتها وتأثيرها . . . فالمؤلف يتغلغل في اعماق نفس الشخص الموصوف لكي يبرز عقليتهُ الحقيقية »

أما اسلوب المؤلفَ الكتابي ، فيكاد يكون قنطرة بين اللغة الدارجة واللغة الصحافية الفصيحة وهذا لا بدَّ منهُ في بعض نواحي الكتابة القصصية . لانك لا تستطيع ان تنطق العامل العامي بلغة الجاحظ . فتفسد بذلك الجوّ الذي تحاول ان تخلقه في القصة باستعمال الفاظ العمال وعباراتهم. أما العبارات التي ترد على لسان المؤلف ، كوصف مشهد او تحليل شعور او سوق حكمة ، فيجب في رأينا ، ان يكون بأسلوب لا غبار عليه . ونحن واثقون من ان جوّ القصص التي في هذا الكتاب لا ينقصه شيء اذا جاء في عباراتها «حماسة» بدلاً من«حماس» و«قابض للنفس» بدلاً من « مقبض للنفس » و « في تراخٍ » بدلاً من « في تراخي » . فهذه هنات هينات ونفضل ان نحسبها من قبيل الخطإِ المطبعي وما اكثره في مطبوعاتنا

جولة في ربوع الشرق الادنى

بين مصر وافغانستان

تأليف محمد ثابت — طبع بمطبعة سعد مصر — صفحاته ٢٩٤ بالقطع الوسط

لمحمد ثابت مدرّس الآداب بمدرسة الأمير فاروق الثانوية عناية عظيمة بالسياحة وكتابة ما يشاهده في البلدان التي يزورها في كتب جامعة للذة والفائدة. وكتابه هذا هو الكتاب الرابع في هذا الباب وصف فيه فلسطين وسورية وتركيا والعراق وافغانستان وايران وخص اليزيدية او عبدة الشيطان والشيعة والصابئة والمشاهد المقدسة بفصول . فهو يصف كل بلد يمرّ به كما يشاهده فيرسم للقارىء صورة مجملة لحالة البلاد وشكلها ويصف اهلها وحالة بؤسها أو نعيمها وعزها أو شقائها ثم هو يتبع ذلك بفصل يجمل فيه تاريخ البلد والأدوار التي مرّت به والاحداث التي انتابته وهو بارع في هذه الابواب لانه خبرها عمليًّا في تدريس مواد التاريخ والجغرافيا ثم هو كثير الاطلاع يطبق الامور على حقائقها ويعنى بنشر صور كثيرة في كتبه تصف للعين حالة البلاد فترسخ الصور الذهنية على الصور الفتوغرافية وتزيد القارىء اقبالاً على القراءة . وجملة القول ان المؤلف أفاد القرّاء بكتبه هذه وسهّل عليهم المباحث التاريخية القديمة بما اضاف اليها من الوصف الحاضر فهو يجمع بين حالة البلدان قديماً وحديثاً وينتقل بالقارىء من أوصاف السكان ولهجاتهم واحوالهم الى وصف ما طرأ على المدن من حوادث واحداث مستخلصاً العبر وبذلك جعل لرحلاته منزلة ممتازة في نفوس القرّاء . وكم كان يود كاتب هذه السطور ان يكتب لنا المؤلف الفاضل رحلة في مصر على نسق رحلاته هذه فنحن في شوق لمعرفة قطرنا عواصمه وقراه واحواله قديماً وحديثاً م . ر

جداول تحويل النقود

أهدى الينا حضرة الفاضل سليم أمين حداد استاذ الرياضيات التجارية بمدرسة التجارة العليا كتابين الاول ويحتوي على جداول تحويل النقود المصرية والانكليزية والفرنسية باللغة الفرنسية والثاني دليل باللغة العربية يشرح فيه المؤلف كيفية استعمال هذه الجداول والغرض من عمله هذا هو تسهيل عمليات تحويل النقود وضبط الحساب . وقد اطلع على الجداول مديرو الهيئات المالية في مصر فارسلوا اليه كتباً يثنون فيها على عمله العظيم ومجهوده الشاق وفائدة جداوله العملية والمؤلف في غنى عن الشهرة وهو صاحب المؤلفات الرياضية والتجارية والمالية الراقية المقرّرة رسميًّا من قبل وزارة المعارف بمدرسة التجارة العليا فنشكر لحضرته الثناء ونوجه الأنظار الى هذه الجداول المفيدة

مطبوعات جديدة

❁ تاريخ نابليون بونابرت ١٧٦٩ — ١٨٢١ ❁ كتاب نفيس بقلم الاديب الياس ابو شبكة افرغهُ في قالب يحبب الى القارىء مطالعته وذكر فيه تاريخ حداثه البطل والاعمال المجيدة التي عملها والحروب العظيمة التي قام بها وحسبه ان قال عنه شاتو بريان عقب رسالة حمل بها على نابليون ما يلي « ليس بونابرت كبيراً بكلماته وخطبه وكتاباته وشغفه بالحرية التي لم يوطىء لها السبيل يوماً ، بل هو كبير بخلقه حكومة منظمة قوية ومجموعة قوانين درجت عليها ممالك كثيرة ودور عدل ومدارس وادارة حازمة ما زلنا نعيش في كنفها » والكتاب مطبوع بمطبعة صادر ببيروت ويطلب من مكتبتها

❁ الجغرافية العامة الحديثة ❁ الجزء الاول تأليف سعيد الصباغ » يحتوي على مباحث اوربا وآسيا وأفريقيا وفصول مطولة من جميع الاقطار العربية

وللفائدة ذكر المؤلف مع المباحث الجغرافية لمحات عن حياة الشعوب النائية الموطن الغريبة الهيئات والاطوار ونبذاً تاريخية عن هجرة القبائل العربية الى افريقيا وانتشارهم فيها والكتاب محلى بكثير من الرسوم والخرائط التي تعين الطالب على تفهم مادته وتقربها الى ذهنه وهو مطبوع بمطبعة العرفان وثمنه ١٠ قروش مصرية عدا اجرة البريد

❁ الجغرافية الطبيعية ❁ تأليف ابرهيم شوكت مدرس الجغرافيا بدار المعلمين ببغداد — وهو كتاب مدرسي يهم طلبة المدارس العراقية يشرح فيه المؤلف حالات الجو والارض وجيولوجية العراق ومعادنه ومنابعه المعدنية وأردفه بمعجم للاسماء العربية وبترجمتها بالانكليزية. طبع بمطبعة الاهالي ببغداد

❁ سلاطين بني عثمان الخمسة ❁ تأليف الدكتوره ماري ملز باتريك وترجمة حنا غصن وكامل مروه وكامل صموئيل مسيحه — وهو كتاب تلذ مطالعته ويحتوي على خلاصة تاريخ السلاطين العثمانيين الخمسة الذين حكموا تركيا اخيراً وشرحت حياتهم شرحاً دقيقاً وتحدثت عن الذين كانوا يخشون منهم النور ويريدون ان يظلموا دائماً في الظلام وذكرت حوادث تطور حركة الاصلاح وكيف تنهض الشعوب وكيف انتقلت تركيا من حالة التأخر والاتضاع الى مركز تحسدها الدول عليه . طبع بمطبعة صادر ببيرت

❁ قاموس لبنان ❁ جمعهُ الاديب وديع نقولا حنا صاحب مجلة المعارف وهو يحتوي على اسماء مدن جمهورية لبنان وقراها مع تفصيل واف عن عدد سكان كل واحدة منها ولاية ومديرية ومحافظة مع وصف معاهدها وتجارتها وحاصلاتها ومن اشهر منها رجالاً ونساء — ثمنهُ ليرة سورية ويطلب من جامعة ببيروت

❁ موجز الاغاني العراقية ❁ وضعهُ محمد القبنجي — كتاب تاريخي فني موسيقي فصور يبحث عن المقامات التي هي غناء مدينة بغداد والعتابة والنائل وهي غناء المدن التي في غرب دجلة والابوذية والتوشيح وهو غناء مدن شرقي الفرات وفيه لمحة من تاريخ الغناء العربي. طبع بمطبعة الايتام ببغداد

باب الأخبار العلمية

الاشعة الكونية وانفجار النجوم

يرى العالمان زوكي Zwicky وباد Baade من معهد باسادينا العلمي بكليفورنيا ان انفجار النجوم ، حين تولد « النجوم الجديدة » ، قد يكون مصدراً للاشعة الكونية التي تفرّغ العلماء للبحث فيها في العهد الاخير

ويقصد بالنجم الجديد ، نجم يتحوّل فجأة من قدر صغير الى قدر كبير ، لانفجار يحدث فيهِ . فيزداد لمعانهُ حتى لقد يفوق اسطع الكواكب وأبهاها . ولكن ذلك لا يدوم طويلاً فلا يلبث ان يخفّ بهاؤهُ ويقلّ اشراقهُ ويعود الى ما كان عليه او اخفى قليلاً . والنجوم الجديدة تسترعي الانظار لانها تظهر اما في مكان من السماءِ لم يكن فيهِ نجم من قبل او كان فيهِ نجم لم يرَ قبل اشراقهِ لا بالعين ولا بالصور الفوتغرافية . مثال ذلك ان النجم الجديد الذي رآهُ الدكتور توماس اندرسن اللاهوتي في اواخر يناير سنة ١٨٩٢ في صورة ممسك الاعنة لم يظهر في الصور الفوتغرافية التي صوّرها الدكتور مكس ولف في ٨ دسمبر سنة ١٨٩١ اي قبل اشراقهِ بشهر او شهرين ، وبعد شهرين من اكتشافه ظهر في صورة فتوغرافية صوّرها الاستاذ بكرنج فكان من القدر الخامس اي زاد اشراقهُ نحو مائتين وخمسين ضعفاً في يومين .

وكذلك النجم الجديد الذي اكتشفهُ اندرسن في صورة فرساوس فانهُ لم يظهر في صورة فوتغرافية صوّرت في ٢ فبراير سنة ١٩٠١ ، مع انهُ ظهر فيها نجوم من القدر الحادي عشر ، وبعد يومين صار نورهُ اسطع من نور النجوم التي من القدر الاول دلالة على ان اشراقهُ زاد ستين الف ضعف . والنجم الجديد الذي ظهر في صورة الدجاجة سنة ١٩٢٠ كان تحت القدر السادس عشر قبل ١٦ اغسطس سنة ١٩٢٠ فأصبح في ٢٤ اغسطس في نحو القدر الاول او اقل قليلاً فزاد اشراقهُ نحو اربعمائة الف ضعف في اسبوع . وقد يزيد اشراق نجم من النجوم الجديدة نحو عشرين الف ضعف في بضعة أيام فتعرف حينئذٍ بالنجوم الجديدة الكبيرة Super—novae

فالدكتور زوكي يذهب الى ان نجماً جديداً كبيراً يطلق من الأشعة التي فوق البنفسجي عشرين مليون ضعف ما يطلقهُ من اشعة الضوءِ اي انهُ يطلق من الطاقة في ثانية ما تطلقهُ شمسنا في مائة مليون سنة . واذاً فهو لا يتعجب ان يكون جانب كبير من هذا الاشعاع القصير الأمواج اشعة كونية

وهذا الرأي يقتضي ان يكون انطلاق الاشعة الكونية متقطعاً ، لا متصلاً ، لان ظهور

النجوم الجديدة الكبيرة نادر ، ويقول الاستاذ زوكي انهُ لا يزيد على واحد في المجرّة الواحدة في الف سنة من الزمان . وهذا يعلل عدم انطلاق اشعة كونية من مجرّتنا التي يندر ظهور النجوم الجديدة الكبيرة فيها

والنظرية الجديدة لا تزال قيد البحث بين العلماء

زيت كبد الحوت في الشكولاته

زيت كبد الحوت يحتوي على فيتامين يمنع الكساح في الاطفال . فاذا تعذّر على طفل تجرُّع هذا الزيت لانهُ لا يسيغ طعمه فالراجح انهُ لا يمتنع عن تناوله اذا كان مختلطاً بكأس من الشكولاتة او الدندرمة . وقد ابتدع المستر دنتورث احد موظفي مصلحة الاسماك في كندا ، طريقة لمزج خلاصة كبد الحوت بكأس من الشكولاتة الساخنة من دون ان يفقد خواصهُ الفيتامينية او يجعل للشكولاتة الساخنة طعماً زيتيًّا كريهاً

احدث الروايات الذرية

اذا اصطدم نيوترون ببروتون تولدت ذرّة من ذرّات الايدروجين الثقيل وبعض اشعة غمَّا . فالممثلون في هذه الرواية هم (اولاً) البروتون وهو نواة ذرّ الايدروجين العادي (ثانياً) الالكترون وهو وحدة الكهربائية السالبة وأحد اللبنات الاساسية في بناء الكون . (ثالثاً) النيوترون وهو دقيقة متعادلة الكهربائية يظن انهُ مركّب من الكترون وبروتون محشوكين معاً في حيّز ضيق وقد كشف عنهُ في بريطانيا سنة ١٩٣٠ (رابعاً) الايدروجين الثقيل وهو صنف من الايدروجين وزن ذرتهِ ضعف وزن ذرة الايدروجين العادي . وقد كشف عنهُ في الولايات المتحدة الاميركية سنة ١٩٣٢ ودعي باسماء مختلفة فتارة « نظير الايدروجين من كتلة ٢ » وتارة « دوتيريوم » وتارة « دبلوجين » وهو اسمهُ في بريطانيا

اما تمثيل الرواية فيبتدىء باطلاق النيوترونات من عنصري البولونيوم والبريليوم على البرافين فدهش العلماء الذي راقبوا هذا الاطلاق والاصطدام اذ شهدوا اشعاعاً من قبيل اشعة غمَّا وهي احد انواع الاشعة التي تنبعث من المواد المشعّة كالراديوم . وهم يعلّلون ذلك باصطدام النيوترون ببروتون الايدروجين (الذي في ذرّة البرافين) اولاً . ثم ان النيوترون والبروتون يتحدان لتوليد ذرّة من ذرّات الايدروجين الثقيل . وهذا الاتحاد لا بدَّ ان يسفر عنهُ انطلاق طاقة في شكل اشعة غمَّا تعدل مقدار الكتلة التي تفقدها الدقيقتان في اتحادهما . على ان التحوُّل من الكتلة الى الطاقة يجب ان يطلق اشعة غمَّا من قوة مليون فولط وهذا يقتضي ان تكون طاقة النيوترونات المنطلقة من رتبة ستة ملايين فولط وهو قريب من طاقتها الحقيقية فعلاً

الصودا وجنس المواليد

من غرائب ما ذاع في الولايات المتحدة الاميركية في العهد الاخير ، ان الام الحامل التي ترغب في ان يكون وليدها ذكراً ، عليها ان

تضيف الى غذائها بيكربونات الصودا ، وقد عني الاستاذ دامور D'Amour في جامعة دنفر بولاية كولورادو بامتحان هذا القول في الجرذان فوجد ان بيكربونات الصودا لا اثر لهُ على الاطلاق في جنس المولود على ما جاءَ في مجلة « العلم » الاميركية . فاخذ خمساً وثلاثين زوجاً من الفئران وغذَّاها بطعام يحتوي على بيكربونات الصودا. فلما ولدت الاناث احصى مواليدها فاذا الاناث فيها ١١٥ والذكور ١١٠ . وكان في الوقت نفسهِ قد اخذ ٣٨ زوجاً من الفئران وغذَّاها بطعام يحتوي على اللبن الحامض فلما ولدت احصى مواليدها فاذا الاناث فيها ١١٣ والذكور مائة . وأخذ كذلك ١٤ زوجاً من الفئران وغذَّاها بطعام مألوف واحصى مواليدها فاذا الاناث ١٠٣ والذكور مائة . وكانت الصودا التي اضيفت الى غذاءِ الفريق الاول ½٢ في المائة وزناً واللبن الذي اضيف الى غذاءِ الفريق الثاني ٥ في المائة وزناً

وفاة هابر الكيماوي

فقدت الكيمياء بوفاة الاستاذ فرتز هابر Fritz Haber علماً من اكبر اعلامها في هذا العصر فقد كان من اعلام الكيمياء النظرية والصناعية في آنٍ واحدٍ . وظلَّ حتى آخر ايامهِ ابعد الناس عن الدعوى ومن ادمثهم خلقاً . ولد في برسلو في ٩ ديسمبر سنة ١٨٦٨ وحضر دروس الكيمياء في برلين وهيدلبرج وشارلو تنبرج وزوريخ وبينا وتتلمذ لعلماء كبار مثل هوفن وهلمهلتز وقضى في شبابهِ شهوراً في المصانع ولما كان في السادسة والعشرين من عمره عيّن في منصب مساعدٍ في المعهد الكيمائي الفني بكارلسروهي حيث بدأ عملهُ الكيمائي العظيم . وقضى هناك سبعة عشر عاماً . وفي سنة ١٩٠٦ عيّن مديراً لمعهد القيصر غليوم للطبيعة والكيمياء والكيمياء الكهربائية فنظَّمهُ وبلغ هذا المعهد بارشاده أعلى مرتبة بين معاهد البحث العلمي في العالم قاطبة

ولما نشبت الحرب الكبرى ادرك شدة حاجة المانيا الى التعاون بين منشآتها الصناعية ومعاهد البحث العلمي فيها فعرض خدماته على وزارة الحربية فعيّن رئيساً لقسم « وسائل الحرب الكيمائية » وكان لآرائهِ وعلمهِ اكبر مقام في تلك الناحية من الحرب

فلما وقع الانقلاب السياسي في المانيا سنة ١٩٣٣ واضطهد اليهود فيها ومنهم علماء أعلام، استقال هابر من منصبهِ وذهب الى جامعة كمبردج حيث ظلَّ مقيماً حتى قبيل وفاتهِ . وكان قد سافر في اجازة الى سويسرا انتجاعاً للصحة فمات في مدينة بال في ٢٩ يناير سنة ١٩٣٤

ومباحث هابر الكيمائية خطيرة ومنوَّعة في آنٍ واحد، ولعلَّ اشهر ما يقترن باسمه اكتشافهُ طريقة صناعية تجارية مكّنته من تثبيت النتروجين فاستطاع ان يجهز المانيا بالمواد اللازمة لصنع الاسمدة الكيمائية والمواد المفرقعة في خلال الحرب . ومن مباحثهِ في الكيمياء الصناعية بحثهِ في كيمياء الغاز وطلي الحديد وتحليل الكهربائية التدريجي في النتروبنزول وعليهِ يتوقف تركيب الانيلين الى حدّ بعيد في صناعة الاصباغ . وقد زار مصر في اواخر سنة ١٩٢٨.

الهليوم في ايطاليا

الهليوم يلي الايدروجين في خفة الوزن بين العناصر . على ان الايدروجين غاز يلتهب ولكن الهليوم لا يلتهب . ولذلك يفضل الهليوم في ملء اكياس البلونات. وقد كانت الولايات المتحدة الاميركية اكبر منتج لهذا الغاز الثمين فملأت جميع بلوناتها التابعة لجيشها وأسطولها بهِ . ولكن جاءت الانباء في الشهر الماضي بأن الايطاليين عثروا على هذا الغاز في آبار الغاز البركاني في (لارداليرو) وهم يستخرجون منها الآن نحو اربعة آلاف متر مكعب كل سنة . وانما ينتظر ان يزداد ما يستخرج منها حتى يصبح كافياً لاستعماله في ملء اكياس البلونات الايطالية

الايدروجين الثقيل والحياة

لما كشف الايدروجين الثقيل في اميركا ، بدأ العلماء يتكهنون بخواص الماءِ الذي يصنع منهُ . وقد قال الاستاذ يوري Urey احد مكتشفيهِ ان الماءَ يهمنا من الناحية الكيمائية لانهُ افضل المواد المذيبة المعروفة . وكثير من التفاعلات الكيمائية تحصل في الماء . ثم ان الايدروجين يلي الكربون في عدد المواد التي يدخل في تركيبها . فالمعروف ان الايدروجين يدخل في تركيب نحو ٣٠٠ الف مركب عضوي او اكثر علاوة على الكربون والنتروجين والاكسجين . ولما كانت المواد التي يدخل الايدروجين الثقيل في تركيبها تختلف في خواصها عن نفس المواد اذا كان ايدروجينها عادياً فاكتشاف هذا النظير الايدروجين يفتح امامنا باباً لتركيبات كيمائية جديدة

وقد ثبت من تجارب جرّبت في احدى كليّات اميركا ان الماء الثقيل (اي المركب من اكسجين وايدروجين ثقيل) يفتك بحياة بعض الحيوانات المائية . ثم ان الخمائر لا تنمو فيهِ بنفس السرعة التي تنمو بها في الماءِ العادي. ووجد الكيماوي الاميركي الكبير الاستاذ غلبرت لوِس ان بزور التبغ لا تنتش بعد نقعها في الماءِ الثقيل . ثم اذا نقعت في ماءٍ عادي ، تنتش انتاشاً ضعيفاً غير سويّ . اما الديدان المسطحة فتكاد تموت اذا نقلت ثلاث ساعات في ماءٍ ثقيل ثم تعود الى الحياة اذا نقلت الى ماءٍ عادي . وقد وجدت طائفة من اساتذة جامعة برنستن ان دعاميص الضفدع الخضراء لا تستطيع ان تعيش في الماءِ الثقيل اكثر من ساعة

وقد عاد الاستاذ لوِس حديثاً الى تجربة اثر الماءِ الثقيل في حياة الفئران . فاخذ فأرة وسقاها الماءَ الثقيل بقطّارة لان ثمن الرطل منهُ يبلغ ١٥٠٠ جنيه لندرة الايدروجين الثقيل ولشدة العناءِ في تحضيره . وسقى فأرين آخرين ماءً عادياً . وكانت النتيجة ان الفأرين اللذين سقيا الماءَ العادي ظلاًّ يتصرفان تصرفاً سوياً في اليقظة والمنام. اما الفأر الاول فتصرّف تصرّفاً غريباً . اذ جعل يقفز قفزاً عجيباً ويلحس الجدار الزجاجي في قفصهِ . وكان كلما سقي الماءَ الثقيل يزداد ظمأ . ولو لم ينفد الماء الثقيل عند الاستاذ لوِس لمضى هذا الفأر يشرب وهو لا يرتوي

الجزء الرابع من المجلد الرابع والثمانين

صفحة

قائمة سلسلة المطبوعات العصرية

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

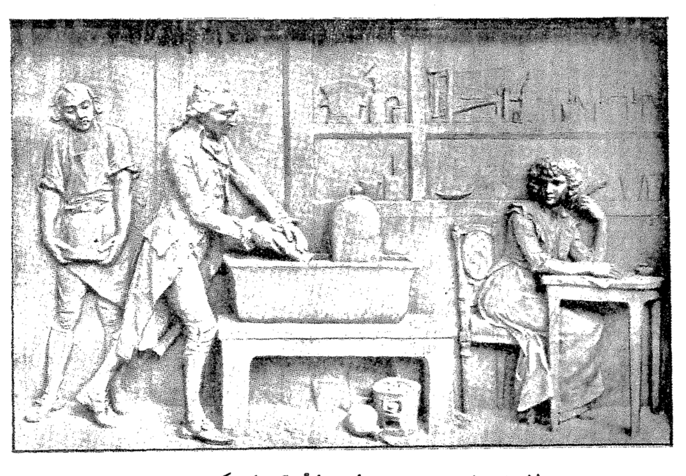
م	
٣٥	القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠	« « « « (طبعة ثالثة)
٧٠	« « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥	« المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠	قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠	« « عربي انكليزي فقط
١٥	« « انكليزي عربي فقط
٧٠	« سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠	« « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠	« « « « « وبالعكس
١٠	التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢	الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠	الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥	في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠	عشرة ايام في السودان « « «
١٢	مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥	روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥	روح السياسة « « «
١٠	الاراء والمعتقدات « « «
١٠	اصول الحقوق الدستورية « « «
٢٠	الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥	حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠	الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥	ملقي السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨	اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠	مختارات « « «
٨	نظرية التطور وأصل الانسان « «
٢٠	اناتول فرانس في مباذله للامير شكيب ارسلان
١٥	الدنيا في اميركا (للاستاذ امين يقطر)
١٠	المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبدالله حسين)
١٠	جريمه سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥	المرأة بين الماضي والحاضر
٥	مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥	حصاد الهشيم (للاستاذ ابرهيم عبدالقادر المازني)
١٠	قبض الريح (« « « « «)
٨	نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠	رسائل غرام جديدة (سليم عبدالواحد)
١٠	الغربال في الادب المصري (ميخائيل نعيمة)
٥	حكايات للاطفال ، اول (مصور بالالوان)
٥	« « ثان « «
٥	« « ثالث « «
٥	تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥	جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦	مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥	مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

م	
١٠	التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥	خواطر حمار (للاستاذ الجمل)
٥	التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥	الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥	ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠	علم الاجتماع (جزآن كبيران « «
١٥	اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠	الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠	المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠	الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥	الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠	تاييس « « « «
٥	مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠	القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠	مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢	رواية اهوال الاستبداد ، مصورة
١٠	« فاتنة المهدي ، او استعادة السودان
٨	« الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥	« فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢	« باريزيت ، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢	« غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥	« روكامبول ، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥	« ام روكامبول ، ٥ اجزاء «
٢٠	« باردليان ، ٣ اجزاء «
٢٠	« الملكة ازابو ٤ اجزاء «
٢٠	« الاميرة فوستا ، جزآن «
٢٠	« عشاق فنيسيا ، جزآن «
١٦	« الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦	« كابيتان ، جزآن «
١٦	« الوصية الحمراء ، جزآن «
١٦	« بائعة الخبز «
١٢	« فلمبرج ، جزآن «
١٠	« فارس الملك «
١٠	« ضحايا الانتقام «
٨	« المرأة المفترسة «
٥	« المتنكرة الحسناء «
٥	« مروحة الاسود «
٥	« شهداء الاخلاص «
١٦	« دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠	« فرنسوا الاول « «
١٠	« الجنون فنون « «
٨	« حورية « «
٨	« الغلامان الطريدان « «
١٢	يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران)
٨	النبي (« « «)
٥	آلهة الارض (« « «)

التي عنيت بنشرها « ادارة المطبعة العصرية » بشارع الخليج الناصري رقم ٦ بالفجالة بمصر

م
٣٥ القاموس العصري انكليزي عربي (طبعة ثانية)
٧٠ « « « « (طبعة ثالثة)
٧٠ « « عربي انكليزي (طبعة ثانية)
٣٥ « المدرسي عربي انكليزي وبالعكس
٣٠ قاموس الجيب عربي انكليزي وبالعكس
٢٠ « « عربي انكليزي فقط
١٥ « « انكليزي عربي فقط
٧٠ « سقراط سبيرو عربي انكليزي (باللفظ)
٥٠ « « « انكليزي عربي (باللفظ)
١٠٠ « « « « « وبالعكس
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية (مطول)
١٢ الهدية السنية لطلاب اللغة الانكليزية (باللفظ)
١٠ الف كلمة الماني (لتعليم الالمانية بسهولة)
١٥ في اوقات الفراغ (للدكتور محمد حسين هيكل بك)
١٠ عشرة ايام في السودان « « «
١٢ مراجعات في الادب والفنون للاستاذ عباس العقاد
١٥ روح الاشتراكية (لغوستاف لوبون) وترجمة (الاستاذ محمد عادل زعيتر)
١٥ روح السياسة « «
١٠ الآراء والمعتقدات « «
١٠ اصول الحقوق الدستورية « «
٢٠ الحضارة المصرية (لغوستاف لوبون)
١٥ حضارة مصر الحديثة (تأليف كبار رجال مصر)
١٠ الحركة الاشتراكية (رمسي مكدونلد)
١٥ ملقى السبيل في مذهب النشوء والارتقاء
٨ اليوم والغد (الاستاذ سلامه موسى)
١٠ مختارات « « «
٨ نظرية التطور واصل الانسان « «
٢٠ اناتول فرانس في مباذله، للامير شكيب ارسلان
١٥ الدنيا في اميركا (للاستاذ امير بقطر)
١٠ المرأة الحديثة وكيف نسوسها (عبد الله حسين)
١٠ جريمة سلفستر بونار (اناتول فرانس)
٥ المرأة بين الماضي والحاضر
٥ مركز المرأة في شريعتي موسى وحمورابي
١٥ حصاد الهشيم (للاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني)
١٠ قبض الريح (« « « « «)
٨ نسمات وزوابع شعر منثور مصور
١٠ رسائل غرام جديدة (سليم عبد الواحد)
١٠ الغربال في الادب العصري (مخائيل نعيمة)
٥ حكايات للاطفال، اول (مصور بالالوان)
٥ « « ثان « «
٥ « « ثالث « «
٥ تذكرة الكاتب طبعة منقحة لاسعد خليل داغر
٢٥ جمهورية افلاطون (للاستاذ حنا خباز)
٦ مراقي النجاح (الارشمندريت بشير)
٥ مريم المجدلية (موريس ميترلنك)

م
١٠ التربية الاجتماعية (للاستاذ علي فكري)
٥ خواطر حمار (للاستاذ الجمل)
٥ التعليم والصحة للدكتور محمد بك عبد الحميد
١٥ الحب والزواج (للاستاذ نقولا حداد)
١٥ ذكراً وانثى خلقهم « « «
٥٠ علم الاجتماع (جزآن كبيران) « «
١٥ اسرار الحياة الزوجية « «
٣٠ الامراض التناسلية وعلاجها للدكتور فخري
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات « «
٢٠ الضعف التناسلي في الذكور والاناث «
١٥ الزنبقة الحمراء (للاستاذ احمد الصاوي محمد)
١٠ تاييس « « « «
٥ مكايد الحب في قصور الملوك (اسعد خليل داغر)
١٠ القصص العصرية (٨٠ قصة كبيرة مصورة)
١٠ مسارح الاذهان (٣٥ قصة كبيرة مصورة)
١٢ رواية اهوال الاستبداد، مصورة
١٠ « فاتنة المهدي، او استعادة السودان
٨ « الانتقام المذب (اسعد خليل داغر)
٥ « فقر وعفاف (للاستاذ احمد رأفت)
١٢ « باريزيت، مصورة (توفيق عبد الله)
١٢ « غرام الراهب او الساحرة المجدورة
٧٥ « روكامبول، ١٧ جزء (طانيوس عبده)
٢٥ « ام روكامبول، ٥ اجزاء «
٢٠ « باردليان، ٣ اجزاء «
٢٠ « الملكة ايزابو ٤ اجزاء «
٢٠ « الاميرة فوستا، جزآن «
٢٠ « عشاق فنيسيا، جزآن «
١٦ « الساحر العظيم ٤ اجزاء «
١٦ « كابيتان، جزآن «
١٦ « الوصية الحمراء، جزآن «
١٦ « بائعة الخبز «
١٢ « فلمبرج، جزآن «
١٠ « فارس الملك «
١٠ « ضحايا الانتقام «
٨ « المرأة المفترسة «
٥ « المتنكرة الحسناء «
٥ « مروءة الاسود «
٥ « شهداء الاخلاص «
١٦ « دار العجائب جزآن (نقولا رزق الله)
١٠ « فرنسوا الاول « «
١٠ « الجنون فنون « «
٨ « حورية « «
٨ « الغلامان الطريدان « «
١٢ يسوع ابن الانسان (جبران خليل جبران
٨ النبي (« « «
٥ آلهة الارض (« « «



لافوازيه في معملهِ وزوجتهُ امامهُ تدوّن لهُ مذكراتهِ العلمية

صدر

المـلاّحُ التّائه

ديوان الشاعر علي محمود طه

طبعة ممتازة

يطلب من المؤلف ومن المكاتب الشهيرة

المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء الخامس من المجلد الرابع والثمانين

١ مايو سنة ١٩٣٤ — ١٧ محرم سنة ١٣٥٣

لافوازييه

LAVOISIER

الجماهير في باريس هائجة مائجة ، والحفائظ منطلقة من الصدور كالقنابل ، والارهاب مخيّم فوق حياة المدينة ، كالضباب الثقيل ينعقد في الجوّ فيرهق النفوس ، فالناس تتهامس وتفضل المنعطفات وحلك الليل على الشوارع ووضح النهار . لقد أُخِذ الملك والملكة من القصر الى السِّجن ، وأقام زعماء الثوّار في قصر التويلري ، يصدرون الاوامر بالقبض على هذا وتنفيذ الاعدام في ذاك

في هذا الجوّ المرهق ، كان احد علماء باريس ، مكبّاً على انابيبه وأنابيقهِ في معمله الكيمائي . وكان هذا العالِم رجلاً تحدجهُ العيون ، لان الملك كان قد ادناهُ وأعلاهُ . وكان هو قد انفق جانباً كبيراً من ثروتهِ ونشاطهِ في خدمة فرنسا . ولكن الصدور كانت موغرة في تلك الايام . وكان اعداؤه كثراً لانهُ من طبقة الاشراف . ومع ان شوارع المدينة كانت تعجّ بالثوار ، والنفوس كظيمة تخشى همسة الريح لئلاَّ تكون اشارة لخطر محدق ، واعداء الرجل يعدُّون المعدات ويدبرونَ الخطط للقضاء عليهِ ، ظلّ هو ملازماً معمله يراقب في سكون وصفاء ذهن عجيب تجربة كان قد اعدَّها لسيجان معاونه ويملي على زوجته الغانية مذكراته العلمية

كان سيجان هذا جالساً في كرسي ، يحيط بهِ كيس من الحرير المطليّ ، لا يدخلهِ الهواء ولا يخرج منهُ . وكان في الكيس قبالة فم الرجل شقٌّ للتنفس ، وكان يتصل بهذا الشق انبوب يفضي

الى انبيق من الزجاج . وكان اتصال الانبوب بالشق محكماً كل الاحكام بواسطة الزفت والتربنتينا . فكان كل ما يفرزه جسم سيجان من عرق او غيره ، يبقى في الكيس ، الاَّ ما يخرج من رئتيهِ عن طريق التنفس ، فكان الهواء الذي يزفره ينتقل في الانبوب الى الانبيق الزجاجي ، لكي يحلل تحليلاً دقيقاً

وكذلك ترى ان لافوازييه كان يبحث حينئذ في افعال التنفس والافراز . فكان يزن بأدق الموازين في فرنسا ، سيجان قبل دخوله الكيس وبعد خروجه منهُ ، والهواء الذي يزفرهُ والكيس قبل التجربة وبعدها . وكان لافوازييه يثق بموازينهِ ثقة عمياء . ولكن لم يتح لهُ ان يتمَّ هذه التجارب . ذلك انهُ وهو يراقب زميله ويملي على زوجتهِ ، فتح الباب فجأة ، فتحاً عنيفاً ودخل رجل يرتدي على رأسهِ قبعة الثوار وتبعه جنود المحكمة الثورية ، ومن ورائهم جمهور صاخب . كان الرجل على رأس الداخلين مارا Marat « صديق الشعب » كما لذَّ له ان يدعو نفسهُ . فما وقعت عينهُ على لافوازييه حتى صاح بالعالم مشهّراً بهِ ، داعياً اياه صديق الملك عدوّ الشعب ، منادياً بالقوم ان الرجل جدير بأن يشنق على عمود مصباح

وكان لافوازييه قد غاظ هذا الرجل من قبل ، اذ حاول هذا ان ينتخب عضواً في اكادمية العلوم ،فأثبت لافوازييه ، ان الرجل ليس كفوءًا من الناحية العلمية لهذا الشرف العظيم

وتقدَّم مارا فقرأ على لافوازييه الوثيقة المشتملة على قرار القاءِ القبض عليهِ.فأصغى اليها العالم في طمأنينة ، وتقدَّم الى زوجه يودعها الوداع الاخير ، والى صديقهِ سيجان ، فالقى اليهِ بمذكراتهِ العلمية ليحتفظ بها . ثم سار مع الثوَّار

وفي مايو سنة ١٧٩٤ دعي امام اللجنة المالية في محكمة الثورة فحوكم وحكم عليهِ ، وحاول بعض اصدقائهِ التوسط لاخلاءِ سبيله ، فذكر احدهم رئيس المحكمة ، بان لافوازييه من اعاظم رجال العلم ، وانهُ انفق خير سني حياتهِ في خدمة بلادهِ ، فردَّ عليهِ الرجل بلسانٍ من نارٍ : « ليست الجمهورية في حاجة الى العلماءِ »

وكان الحكم عليهِ بالاعدام وليس لذلك الحكم مَردٌّ . فنقل في عربة الى ميدان الثورة ، وحزّت عنقهُ مع ستة وعشرين آخرين فكان هو الثالث وكان حموه الرابع . فقال العالم لاجرانج الرياضي الشهير ،حينئذٍ «لقد استغرق حزُّ عنقهِ دقيقة من الزمان او بعض دقيقة ، ولكننا قد نحتاج الى قرن كامل قبل ان ننجب عالماً آخر مثلهُ» . وكذلك لقي لافوازييه — اعظم مجدِّد في علم الكيمياء — حتفهُ . وانت لو بحثت عن مدفنهِ اليوم ، لما عثرت عليهِ ، لان جثتهُ ضاعت ، في تلك الفترة المحمومة

قبل ذلك بشهرٍ واحد كان بريستلي ، الكيماوي البريطاني ، وندّ لافوازييه وصديقهُ قد فرّ من وجه الاضطهاد في بريطانيا . ولكن بريستلي ، كان قد اتمَّ عملهُ او كاد . إما لافوازييه ، فاعدم وهو لا يزال اكمل ما يكون عقلاً واخصب ما يكون انتاجاً علميًّا . ونحن اذا تطلعنا الى مدى قرن

ونصف قرن من تطوُّر العالم ، حكمنا بان اعظم جريمة ارتكبت في خلال الثورة الفرنسية : انما كانت اعدام لافوازييه ؛ لا اعدام الملك لويس السادس عشر

***

كان القرن الثامن عشر ميداناً لجهاد طائفة من الكيماويين يشتغلون بالبوتقة والانبيق والميزان ، فيجمعون الحقائق حتى كثرت كثرة تحتاج الى تنظيم وترتيب وادماج في صلب فلسفة كيمائية عامة . ولكن الضربة الكبرى التي صدّت تقدُّم الكيمياء نحو هذا الغرض ، هي ان نظرية « الفلوجستون » كانت المحكّ ، الذي تمتحن بهِ كل حقيقة كيمائية جديدة . فالفلوجستون ، كان في نظرهم « عنصر الاحتراق » وكل مادة كانت مركبة من هذا العنصر ، وعنصر آخر ماء كان او تراباً او حامضاً . فمدى الاحتراق في أية مادة من المواد ، مرهون بمقدار ما فيها من عنصر الفلوجستون . والاحتراق انما كان ، انطلاق الفلوجستون ، من المادة المحترقة . وقيّض لهذه النظرية رجال وسّعوا نطاقها ، فأصبحت المبدأ الاساسيّ ، في نظر علماءِ القرن السابع عشر ، لكل تفاعلٍ كيمائي . ولما قيل لهم كيف يثقل الجسم المحترق مع ان شيئاً يخرج منهُ بحسب قولكم ، قالوا الفلوجستون يخفف وزن الجسم اذ يكون فيهِ فاذا خرج ثقل ذلك الجسم ! وهو من ابدع الامثلة على مدى ما يذهب اليهِ العقل البشري من العنت في سبيل تأييد فكرة سابقة

فلما ظهر لافوازييه كانت الكيمياءُ في حاجة الى تجديد ، لشدة ما أصابها من الركود بتمسكها بنظرية الفلوجستون فدوّى صوتهُ في المعامل والاندية العلمية ، وكان لكلامه وقع كبير ، لبراعتهِ كعالمٍ ، ومقامهِ في محافل السياسة . فكان بذلك اكبر داعية للكيمياءِ الجديدة ، ولم يذهب صوتهُ صرخةً في وادٍ . قال فيهِ ليبغ الكيماوي العظيم : « لم يكتشف لافوازيه جسماً جديداً ، ولا خاصةً جديدة ، ولا ظاهرة كانت من قبل مجهولة . ان مجده الخالد قائم على انهُ نفخ في جسم العلم روحاً جديدة »

***

كان عقله صافياً منظماً ، لانهُ نُشّيءَ تنشئة علمية ، في الرياضة والطبيعة . وكان والداهُ يرغبان في ان يدرس القانون ، ليبلغ في حكومة بلاده أعلى المناصب ، التي كادت تكون حينئذٍ وقفاً على الاشراف ومن اليهم . ولكنهُ انصرف الى العلم . ذلك ان رجلاً يدعى « غيوم رويل » Rouelle —وكان معيداً في حديقة النباتات— ترك في نفسهِ اثراً عظيماً . وكانت العادة قد جرت ، ان يحاضر استاذ الكيمياءِ في النظريات والمبادىء من دون ان يجرّب تجربة ما . وكان استاذ الكيمياءِ في ذلك المعهد رجلاً يدعى بوردليه ، فكان يلقي محاضراته ، ويختمها بقولهِ « يا سادة هذه هي المبادىء . واني اترك للمعيد ان يبرهن عليها بتجاربهِ » . فاذا خرج بوردليه ، دخل رويل ، فيستقبله

الطلاّب بالتصفيق . وكان كرام باريس يجيئون لسماعهِ . وعندئذٍ يشمّر عن ساعديهِ ، وينصرف الى تجربة التجارب البارعة ولكن التجارب كانت تنقض مبادىء الاستاذ بدلا من ان تؤيدها . كل هذا ولافوازييه جالس مع الجلاّس ، وهو مأخوذ ، كأنما برقية ساحرٍ . ولم ينس في حياتهِ قط ، كيف تحمّس رويل ذات يوم ، فنزع شعره العاري وعلّقهُ على اناء قربه ، ثم خلع صدرتهُ وخرج من الغرفة مسرعاً ، يبحث عن احدى الادوات التي نسيها ، ولكنهُ لم ينس ان يمضي في محاضرتهِ في خروجهِ من الغرفة وايابهِ اليها

وفي احدى الرحلات العلمية التي رحلها لافوازييه لقي لينيوس المواليديّ الاسوجيّ العظيم ، فقرَّر قراراً حاسماً ، ان يجعل العلم طلبتهُ في الحياة

***

وكذلك اكبَّ لافوازييه على البحث . فكان يقضي يوماً كاملاً كل اسبوع في معملهِ لا يخرج منهُ ، وعلاوة على ذلك كان يعمل في فرنهِ الكيماوي ، كل يوم من الساعة السادسة صباحاً الى التاسعة ثم من الساعة السابعة مساءً الى العاشرة . وما كان يبيح لنفسهِ مسرة الاكل الهنيء . فجعل قوام غذائهِ اللبن والخبز ، توفيراً للوقت . فكتب اليهِ احد اصدقائهِ حينئذٍ في استعلاء الحكيم الحذر قائلاً : «انني اتوسل اليك ان ترتّب دروسك على اساس ان سنة واحدة تزاد الى عمرك خير لك من مائة سنة في ذاكرة البشر»

ولكن لافوازييه كان يعمل مدفوعاً ، بحبّ الامتحان والكشف ، لا يفكر في الحاضر ولا في المستقبل . والتاريخ لايهمل على الاطلاق ، طال الزمن ما طال ، رجلاً اخلص للحقيقة

ومن يجهل لافوازييه من طلاّب الكيمياء الآن !

ما أشرف لافوازييه على الخامسة والعشرين من عمره ، حتى كانت رسائله العلمية ، قد بلغت اكادمية العلوم ، وكانت موضوعاتها متباينة من التنويم المغناطيسي الى صنع كراسٍ للمرضى واستنباط اساليب لانارة شوارع باريس . وما لبث ان نال ما هو جدير بهِ من المقام اذ انتخب عضواً في ذلك المجمع الجليل . وفي خلال ذلك تعرَّف برجل يدعى بولز Paulze من الاشراف ، فكان يثوب الى داره حيث يجتمع بأكابر الرجال مثل لابلاس العالم الفلكي العظيم — صاحب النظرية السديمية — وفرنكلن العالم والسياسي الاميركي ، وكوندورسه الرياضي والاديب ، وترجو الاقتصادي الفرنسي المعروف . وما لبث ان تعرّف الى ابنة بولز فأحبها وأحبتهُ ، وشجع والدها تمكين الصلة بينهما ، لأن لافوازييه كان من اجدر الشبان الفرنسيين بالزواج من ابنته . فلما تزوجا اصابا في الزواج نعمة ، مكّنت لافوازييه من متابعة مباحثه العلمية

***

وكان اول بحث كيمائي قام بهِ لافوازييه تحليل الجبس . ثم حوّل براعتهُ في التجربة العلمية ،

الى مهاجمة تلك الفكرة القديمة القائلة ، بان المياه تتحول الى تراب وصخر . كان طاليس الفيلسوف اليوناني قد قال هذا القول ، وارجع جميع الكائنات الى مصدر واحدٍ هو الماءِ . لجاراهُ الناس الى اواخر القرن الثامن عشر ، وقالوا ان التراب والحجارة تتولد من الماءِ بالتبخر . وكانوا قد أقاموا الحجة على ذلك ، باخذ الماءِ في اوعية ، وغليهِ حتى يتبخر ، فاذا هو يترك في قعر الوعاء مادة ترابية قائمة ، فقالوا لا شكَّ انها تولدت من الماءِ ! وادهى من ذلك تجربة رجل يدعى فون هلمونت . اخذ صعدة من الصفصاف تزن خمسة ارطال ، وغرسها في اناءٍ يحتوي على مائتي رطلٍ من التراب . وكان قد جفف التراب ووزنهُ قبل غرس الصعدة فيهِ . وترك الصعدة في الاناءِ خمس عشرة سنة ، لا يغذيها الاَّ بالماءِ . فاصبحت الصعدة شجرة ، وزاد وزنها من خمسة ارطال الى ١٦٩ رطلاً . ولكن وزن التراب في الاناءِ لم ينقص الاَّ اوقيتين . أليس هذا برهان على ان الماءَ قد تحوَّل الى مادة جامدة في الشجرة تزن ١٦٤ رطلاً ! .

***

لكن لافوازيه ادرك وجه الخطاءِ في هذا الكلام . فقال ما زالت فائدة الكيمياءِ ودقتها تتوقفان على الوزن الدقيق لجميع المواد الكيمائية المستعملة في التجارب ، فاننا لا نغلو مهما بالغنا في التدقيق حين وزن هذه المواد

فاستعار من دار ضرب النقود الفرنسية ، ادق موازينها واخذ وعاءً زجاجياً ودقق في تنظيفهِ كل التدقيق ثم صبَّ فيهِ قدراً معيناً من الماءِ قطَّرهُ في وعاءٍ آخر كان قد نظف كذلك ووزن . وكذلك وجد كما كان يتوقع ، مادة ترابية قائمة في قعر الوعاءِ الزجاجي الاول . ثم وزن الوعاءَ الاول بما فيهِ التراب ، وطرح منهُ وزن الوعاءِ نفسه فعرف وزن التراب . ثم وزن الوعاءَ الثاني بما فيهِ الماءِ وطرح منهُ وزن الوعاءِ نفسه فعرف وزن الماءِ . ثم قابل وزن الماءِ المقطر ووزن المادة الترابية بوزن الماءِ قبل تقطيرهِ ، فوجد الوزنين متعادلين . واذاً فالمادة الترابية جاءَت من الماءِ — لا ريب في ذلك

ولكن . . . هل كانت هذه المادة الترابية محلولة في الماءِ ، او هي ماءٌ تحوَّل الى مادة ترابية !

أخذ انبيقاً زجاجياً معقوف العنق . ووضع فيهِ قدراً معيناً من ماءِ المطر المقطَّر وسدَّ فتحتهُ . ووضع الانبيق على النار ، وترك الماءَ المقطَّر يغلي فيهِ مائة يوم متواصلة وبعد مائة يوم ، رأى في الماءِ بضع دقائق جامدة لم تكن هناك قبلاً . ثم وزن الانبيق وما فيهِ . فلم يجد انهُ نقص وزناً . ثم وزن الماء المقطر ، من دون الدقائق التي رآها فيهِ . فوجد ان وزنهُ لم يتغير . ثم وزن الانبيق وحده من دون الماء او الدقائق المذكورة ، فوجد ان وزنهُ نقص نقصاً يسيراً . ثم وزن الدقائق الجامدة ، فوجد وزنها ، يعادل النقص في وزن الانبيق

ليس لهذه الحقائق الاَّ تعليل واحد . الدقائق ترجع الى زجاج الانبيق . اما الماء فلن يتحوَّل الى تراب . وكذلك قضي لافوازييه بميزانهِ ، على فكرة خاطئة طال عليها القدم

ولكن فكرة الفلوجستون ظلّت تقلق باله . فحللها وشرّحها ووجدها لا تستقيم ، ولكنه في تسرعه اقترح فكرة اخرى تحلّ محلها ،اذ أخذ بفكرة «الحرّة » Caloric مجارياً قول من قال ان الحرة سيّال خفي . بيد ان القول « بالحرّة » لم يقنعهُ وانما هو قال بها لينقذ الكيمياء من سخف الفلوجستون فوقع في سخفٍ آخر . وظلّت ظاهرة« الاحتراق ». تسترعي عنايتهُ، وهو لا يرى في الحرّة تعليلاً لها. فصمم ان يصرف جهده الى البحث في الاحتراق وتعليلهِ . فقال : « يجب ان لا نثق بشيء الاّ بالحقائق . فالطبيعة ، تقدمها لنا وهي لا تخدع .وعلينا ان نخضع تفكيرنا في كل حال لامتحان التجربة . ففي حال الاشياء التي لا ترى ولا تحسّ يجب ان نحذر من قفزات الخيال الى ما وراء حدود الحقيقة »ولما كان غنيًّا ، لا يرهقه الانفاق لم يضن بمالٍ او بجهد على توفير اسباب البحث

وبعد سنوات من البحث وصل الى نتيجة . فقام الى مكتبه وكتب مذكرة بعث بها الى اكادمية العلوم ، وطلب ان تظلّ مطوية الى ان يتم التجارب التي بين يديهِ. في هذه المذكرة قال : —

اكتشفت من اسبوع ان الكبريت يزداد وزناً عند احمائهِ . وكذلك الفصفور . فهذه الزيادة في الوزن صادرة من مقدار كبير من الهواء . واني لمقتنعٌ ان الزيادة في وزن الاكاسيد (كان لهذه المركبات اسم خاص حينئذٍ لان الاكسجين لم يكن قد كشف) يرجع الى السبب نفسه . ولما كان هذا الاكتشاف من اهم ما كشف بعد بخر Becher رأيت من الواجب عليّ ان اضع هذه الرسالة بين يدي سكرتير الاكادمية على ان تبقى سرًّا حتى انشر نتائج تجاربي »

***

وكذلك استطاع لافوازييه ، ان يثبت لنفسهِ حق التقدُّم في هذا الاكتشاف الخطير

كان ذلك في اول نوفبر سنة ١٧٧٢ . لم يكن بريستلي ، حينئذٍ . قد وجَّه أشعة الشمس الى الزئبق الاحمر (اكسيد الزئبق) وكان الاكسجين ما يزال من مكنونات المستقبل . ومضى لافوازييه ثلاث سنوات يبحث عن سرّ النار او عن حقيقة الاحتراق

وفي اكتوبر سنة ١٧٧٤ ، جاء بريستلي الى باريس ، وزار لافوازييه في معمله ، وبسط لهُ نتائج مباحثهِ ، وكان ماكيه Macquer يقوّم ما اعوجَّ من رطانة بريستلي الفرنسية . فلما اطلع لافوازييه على تجارب بريستلي ، واكتشافهِ « للهواء الخالي من الفلوجستون » ، قام في الحال الى معملهِ ، وبدأ تجربتهُ الشهيرة التي دامت اثني عشر يوماً . قال في وصفها : —

«اخذت حوجلة زجاج سعتها ثلاث اقدام مكعَّبة ، وعقفت عنقها ، حتى اتمكن حين وضعها على النار ،من ان اجعل عنقها في حوضٍ من الزئبق ، ووضعت في الحوجلة اربع اوقيات من الزئبق النقي . ثم اشعلت النار وحفظتها مشتعلة مدة اثني عشر يوماً . فلم يحدث شيء يستدعي النظر في اليوم الاول . وفي اليوم الثاني ، ظهرت حبيبات حمر على سطح الزئبق في الحوجلة . وزاد عدد

الحبيبات وحجمها في الاربعة الايام التالية ، ووقفت هذه الزيادة بعد ذلك . وفي اليوم الثاني عشر اطفأتُ النار »

ثم فحص الهواءَ الذي خرج من الحوجلة فاذا حجمهُ خمسة اسداس ما كان عليهِ قبل الاحماءِ ولا يصلح للتنفس ولا للاحتراق . فاذا وضعت فيهِ الحيوانات بضع ثوانٍ اختنقت . واذا وضع فيهِ عود مشتعل انطفأ . ونحن نعلم الآن ان الخمسة الاسداس الباقية من الهواءِ كانت نتروجيناً . ثم اخذ جميع الحبيبات التي تكوَّنت وأحماها في أتون ، فتحوَّلت الى حبيبات من الزئبق الصافي وثماني بوصات مكعبة من الغاز . وجرَّب هـذا الغاز ، فاذا هو من افعل ما يكون في صلاحهِ للتنفس وللاحتراق . ذلك الغاز كان الاكسجين فدعاهُ كذلك — ومعناهُ مولد الحموضة — لانهُ ظنَّ خطأً انهُ يدخل في تركيب جميع الاحماض

وكذلك تقدَّم لافوازييه بتفسير جديد للاحتراق من دون « الفلوجستون » او « الحرّة » . نعم كان ليوناردو دَه ڤنشي قد ذهب في القرن الخامس عشر الى ان « النار تدمّر الهواءَ الذي يغذيها » وكان پراسلسس قد كتب في القرن السادس عشر « ان الانسان يموت اذا حجب عنهُ الهواءَ » ثم قال روبرت بويل الانكليزي انهُ يظن ان في الهواءِ « مادة غريبة تجعل الهواءَ ضروريّاً للاشتعال »

***

ولكن اي شأن للهواءِ في الاحتراق والتنفُّس ؟ كان رجل يدعى راي Rey قد قال ان الزيادة في وزن جسم يحترق تأتي من الهواءِ وفسر ذلك بحسب مبدإ الفلوجستون فقال ان الحرارة تجعل الهواءَ لصوقاً فيختلط بالمواد كما يمتزج الماء بالمواد المحلولة فيهِ

ثم جاءَ لافوازييه . فبسط التجربة للاكادمية في باريس . ولكنهُ لم يذكر بريستلي في ذلك البسط ، وهو مما يؤخذ عليهِ ، مع انهُ اعترف بدينهِ لبريستلي في مواطن اخرى

قال لافوازييه ، ان الاحتراق هو اتحاد الشيء المحترق بالاكسجين — والاكسجين هو الاسم الذي اطلقهُ لافوازييه على الغاز الذي اكتشفهُ بريستلي كما قدَّمنا . وان وزن الجسم المحترق وما ينتج عن الاحتراق ، يزداد بمقدار ما يتحد به من الاكسجين. تعليل بسيط . لا فلوجستون ولا حرّة ولا شيئاً مما يزعمون . وها هي ذي شهادة ادق الموازين في اوربا تؤيد ما يقول !

***

من النافل ان اقول ان لافوازييه لقي خصومة شديدة من علماء عصره حتى ان بعض زملائه اشترك في التآمر على حياتهِ ، فراح ضحية النطع ، ولكن رأيه الجديد احرز النصر ، وتأيَّد بالابحاث التي تلت . فاسمه خالد على مرّ العصور ، تحيط بهِ هالة من المجد ، تستمد لمعانها من انهُ نفخ في « الكيمياء روحاً جديداً » على حد قول ليبغ

البرق والأرض

للشيخ فؤاد باشا الخطيب

أيها البرقُ إن بلغتَ الشآما حيِّ عني قصورَها والخياما
أنتَ نعمَ الرسولُ يحملُ شجوي حين لا يأمنُ الانامُ الأناما
نفختْ فيكَ آيةُ العلمِ رُوحاً خوَّلتكَ البيانَ والالهاما
وأفاضت عليكَ سِحراً حلالاً كان في الغابرينَ سحراً حراما
تركبُ السلكَ تارةً ، وأواناً تَطأُ الريحَ واثباً والغماما

***

قُل لمن يوجفُ الركابَ خفافاً ولمنْ ناءَ بالخطوبِ جِساما
ويحَ أمسي إن كنتُ أهبطُ رمسي نازحَ الدارِ مُوجَعاً مُستهاما
يومَ يَرمي القضاءُ بالنفسِ رمياً مثلما (الارضُ) تجذبُ الاجساما

***

كرةٌ تنهبُ الفضاءَ وتَطوي في مداهُ القرونَ والأعواما
تترامى (والشمسُ) دونَ مُناها دَوَرَاناً مِنْ حولها وهياما
كفراشٍ يحومُ حولَ لهيبٍ أجلٌ ساقهُ اليهِ فحاما
ذاتُ وجهين يشهدانِ عليها كلَّ يومٍ نهارَها والظلاما
فهي من جانبٍ تكونُ ضياءً وهيَ من جانبٍ تكونُ قَتاما
كوجوهِ المنافقينَ وأشقى من جِوارِ المنافقين مُقاما

***

نسجتْ من غلائلِ النَّبتِ بُرداً واستعارتْ من السحابِ لثاما
وتراءَت في ظاهرٍ مطمئنٍّ تحتهُ النارُ تستشيطُ ضِراما
كبنيها أو أن حقدَ بنيها فوقَ ما أضمرتْ جوًى وانتقاما

***

تنفثُ الغيظَ مارجاً ودخاناً فتشقُّ الوهادَ والآكاما
وتبثُّ الذي انطوى من لظاها سُحُباً ثرَّةً وسيلاً رُكاما

ضجَّ منها صعيدُها وقديماً خدَّدتهُ السيولُ عاماً فعاما
لخدودِ الباكين سحَّ عليها مهرقُ الدمعِ صيّباً وسجاما
ولكم سدَّدَ القضاءُ إليها منْ خلالِ (المذنَّبات) سهاما
نُذُرٌ كلَّ فترةٍ وعظاتٌ أذنَ اللهُ أن تمرَّ لِماما

***

إيهِ (يا أرضُ) يومَ كنتِ خلاءً هل أحسَّ الحطامُ فيك الحطاما
فتململتِ وحشةً وانفراداً وتغلغلتِ في الوجودِ اقتحاما
فتمخَّضتِ بالزواحف لهواً لكِ تنسابُ في العراءِ سواما
طلعةٌ غثَّةٌ وجسمٌ دميمٌ يصفُ القبحَ هامةً وسناما
لخطوطِ الوليد اولَ عهدٍ عرف الخطَّ فيهِ والأقلاما

***

نشأتْ ثمَّ اعقبت ثمَّ بادت وقطعتِ الصلاتِ والأرحاما
وولدتِ الأنامَ بعد ليالٍ ثقلتْ وطأةً وشطَّتْ مراما
فشهدتِ الحياةَ يومَ استهلَّتْ فيكِ واستقتلت عليكِ زحاما
جئتِ سقطاً بهمْ وطالَ عليهمْ أمدٌ ينشدونَ فيهِ التماما
أقضاءٌ ولدتهم واضطراراً بعد لأيٍ أمْ شهوةً ووحاما
لستُ ادري وليتني كنتُ أدري كيفَ ذقتِ المخاضَ والآلاما
فسل الحيَّ كيفَ يطمعُ منها بسلامٍ ؟ وأين يبغي السلاما
راضَ هوجَ الرياحِ حتى امتطاها ذُللاً أسلستْ اليهِ الزِّماما
واستباحَ البحارَ فوقَ جوارٍ منشآتٍ تُطاولُ الأعلاما
خضعَ العلمُ في يديهِ ولكنْ مسخَ العلمَ فتنةً وأثاما

***

فانفري ما استطعت ايتها الأرْ ضُ فهيهاتَ ترغمينَ النظاما
فانقصي منهُ ذرَّةً أو فزيدي وانظري كيف ينسفُ الاجراما
عمسكٌ بالوجودِ علواً وسفلاً قدرةُ اللهِ سخرتهُ خطاما
كنتِ بالأمسِ شعلةً أو سديماً فاحذري البدءَ أن يكونَ ختاما

نظرية الكونتم

The Quantum Theory

وما لها من الشأن في تفسير بعض خواص الجاذبية

لنقولا الحداد

تُعَد نظرية « الكونتم »[1] من اهم مكتشفات النظريات العلمية الحديثة . وربما عدَّت قبل نظرية النسبية في الرتبة .، وانشطين مكتشف ناموس النسبية يعترف بمقام اكتشاف الكونتم ويبجل مكس بلانك مكتشف هذه النظرية . على ان نظرية الكونتم ليست بغريبة عن محيط التصور العقلي كنظرية النسبية . فاعتقد ان هذا المقال على بساطته كافٍ لبسطها للقارىء ، حتى متى فهمها جيداً سهل عليهِ ان يفهم علاقتها بناموس الجاذبية — العلاقة التي سافرد لها مقالاً خاصًّا في جزء تالٍ . والجاذبية بالرغم من اكتشاف ناموسها الرياضي لا تزال اهم اسرار الوجود ولا تزال فيها قضايا غير محلولة . وربما كان بعضها مستحيلاً حلّهُ . وسافرد لهذه القضايا مقالاً آخر ايضاً مستأذناً محرر المقتطف ان يسمح ببرهنة بعض القضايا بالمعادلات الرياضية البسيطة . لانهُ مهما قلَّ عدد الذين يستلذّون المباحث الطبيعية الرياضية بين قراء المقتطف فهم في عهد نهضتنا العلمية الحالية عدد وافر يجب ان تراعى اميالهم وان تعرض لهم النظريات العلمية الحديثة عسى ان يكون لهم فيها آراء

***

اذا راقبت ساعة من الساعات الكبرى المنصوبة في ميادين القاهرة لكي يراها الناس عن بعد ترى ان عقرب الدقائق ثابت لا يتحرك ، كانهُ معطَّل . ولكن لا تمر دقيقة حتى تراه قد وثب بمثل لمح البصر من خط الى خط آخر . وتمر الدقيقة وهو ثابت في مكانهِ ، ثم يثب فجاءة الى خطٍ آخر . وهكذا دواليك . وحاصل القول ان هذا العقرب لا يتحرك باستمرار على وتيرة واحدة بل ينتظر الدقيقة ثم يثب وثبة تسجل دقيقة . كذلك اذا لاحظت عقرب الثواني في ساعتك الصغيرة تراهُ لا يسير باستمرار بل يقف مدة ثانية ثم يثب وهلمَّ جرًّا

على هذا النحو تتعاقب الصور المتحركة في السينما فهي لا تتحرك حركة استمرارية بل كل صورة منها تقف هنيهة قصيرة جدًّا تجاه « الشاشة البيضاء » ثم تنتقل بسرعة فائقة وتحل محلها الصورة

(١) نترك للمجمع اللغوي العلمي ان ينحت لنا لفظاً يرادف الكونتم الذي سيتضح ماذا يراد به في غضون هذا المقال

التي تليها وتقف هذه بدورها الهنيهة نفسها ثم تنتقل لتحل اخرى محلها — هكذا على نحو انتقال عقرب الساعة كما شرحناهُ آنفاً. وانما الصورة المتحركة تنتقل بسرعة في هنيهات قصيرة جدًّا هي اجزاء صغيرة من الثانية . ولذلك لا نلاحظها كما نلاحظ عقرب الساعة

اية حركة في الكون على الاطلاق كائناً نوعها ما كان لا تكون حركة استمرارية كما تتراءى لنا بل هي حركة متقطعة قطعات متساوية يمكن تحقيقها بالوسائل الامتحانية. وبين كل قطعة واخرى فترة . فهي بعبارة اخرى سلسلة وثبات تتخللها فترات سكون متساوية المدة

وهو معلوم ان الحركة نتيجة فعل القوة في المادة . او بعبارة اصح : القوة تتجلى لنا في مادة متحركة . فاذا كانت الحركة متقطعة الى وحدات معينة كما رأيت فلا بد ان تكون القوة نفسها (التي هي سبب الحركة) صادرة في نبضات متوالية، اي انها ليست كما تتراءى لنا تياراً مستمرًّا . وكل نبضة من القوة تحدث في الجسم المتحرك بها وثبة . وبين كل نبضة واخرى هدنة — هـذا هو المراد بالكونتم Quantum اي هو وحدة القوة الصغرى كما ان الجوهر الفرد Atom (او الذرة كما اصطلح على تسميتهِ حديثاً في مصر) هو الوحدة الكيماوية الصغرى، وكما ان الكهرب هو الوحدة الكهربائية. والمراد بالوحدة الجزء الاصغر الذي لا يتجزأ . والمركّبات تتألف من عدد صحيح من الوحدات كاملة بلا كسور

خذ مثلاً دقيقة الماء فهي مؤلفة من ثلاث ذرّات احداها ذرّة اوكسجين والاخريان ذرّتا هيدروجين . ولا يمكن ان تتألف من ذرّتين ونصف ولا من ثلاث ذرّات ونصف اي ان كسور الذرَّة لا يمكن ان يدخل في حساب الجزيء Molcule الواحد . كذلك ذرّة الهيدروجين تؤلف من بروتون واحد Proton وكهرب واحد Electron كاملين . ولا يمكن ان تتألف من صحيح وكسر

على هذا النمط تصدر القوة في وحدات كاملة . ولا يمكن ان تصدر وحدات وكسور الوحدات. فوحدة القوة او الطاقة (كما اُصطُلِحَ على تسمية Energy) هي الكونتم — جزء الطاقة الاصغر الذي لا يتجزأ . ولكي نعرف كيف تحدث الحركة (اية حركة بلا تخصيص) متقطعة بشكل وثبات متساوية المدة (كوثبات عقرب الساعة) يجب ان نتعرَّف كيف تنبض القوة نبضات متوالية تباعاً في فترات متساوية

مثال ذلك حركة الترام الكهربائي : — يسير الترام بقوة دوران المحرّك Motor الكهربائي الذي فيهِ . وهذا يدور بقوة التيار الكهربائي السائر في اللفافة السلكية التي حوله . وهـذا التيار سائر بقوة المحرّك الاول الذي في معمل توليد الكهرباء . وهذا المحرّك الاول يدور بقوة المحرك البخاري Steam engine . وهذا يدور بقوة البخار المتمدد المنحصر في مرجله . والبخار يتمدد بقوة الحرارة الصادرة من اعتناق ذرّات اوكسجين الهواء لذرّات الكربون والهيدروجين في اثناء احتراق الوقيد تحت المرجل ... وهلم جرًّا

واذا شئنا ان نتتبع القوة الى مصدرها الاصلي عجزنا عن الاهتداء الى ذلك المصدر اذ نبلغ الى حركة لا نعرف سببها. اي لا نعرف المحرك فيها فنقف عندها حيارى . ولكن مهما ظهرت لنا الحركة

في صور مختلفة فاذا تتبعنا سلسلة القوات المؤدية اليها وجدناها فروعاً تلتقي كلها في سلسلة اصلية واحدة — رأينا في التمثيل الآنف ان بخار الماء يتمدد بقوة الحرارة الصادرة من احتراق الوقيد . وهنا يسأل القارىء : اين كانت هذه القوة الحرارية التي صدرت في اثناء الاحتراق ؟ والجواب ان هذه القوة الحرارية كانت كامنة في مركبات الوقيد الكيماوية المسماة اسماً اجمالياً كاربوهيدرات Carbohydrates ففي اثناء الاحتراق انحلّت هذه المركبات الى مركبات أبسط وبانحلالها انطلقت هذه القوة الحرارية التي مدَّدت بخار الماء .... ومن أين جاءت هذه القوة الى المركبات الكاربوهيدراتية ؟ — جاءت في اثناء نمو النبات بقوة التشعع الضوئي Radiation (كأشعة نور الشمس) . هنا اقتربنا الى أقصى مصدر للقوة وصار في امكاننا ان نبين كيفية ورود كل قوة من سلسلة التشعع ونحرك كل حركة في الكون بالقوة الصادرة من هذه السلسلة

القوة العضلية نتيجة احتراق تلك المواد الكاربوهيدراتية في الجسم الحي . قوة المياه المنحدرة نتيجة فعل الجاذبية الارضية . ولكن الذي رفع تلك المياه الى الاعالي مقاوماً فعل الجاذبية هو التشعع الحراري الصادر من الشمس فانه بخّر المياه ومدّد بخارها فصار أخفّ من الهواء فارتفع . ولما برد هبط فأصدر قوة تساوي قوة التشعع التي مدّدتهُ . فيما تقدم رأينا في استقصاء مصادر القوى الميكانيكية والعضلية وقوة المياه المتحدرة سلاسل هذه القوات تلتقي في سلسلة واحدة هي سلسلة التشعع Radiation . فلنرَ ، قبل ان نخطو خطوة اخرى في الاستقصاء هل هذا التشعع الذي هو شكل من اشكال الحركة حاصل صورة من صور القوة — هل هذا التشعع حادث بحسب سنة الكونتم

* * *

لكي نفهم الشيء اللازم لموضوعنا من خواص التشعع ندرس شيئاً عن النور ، لانه ضرب من ضروب التشعع ، وهو دائماً مقترن بحرارة ، والحرارة ضرب آخر من ضروبهِ . يصدر النور من اي جسم حامٍ اضعاف درجة الغليان كنور الشمس ونور اللهيب ونور المعدن الحامي الى درجة الاحمرار (وأحياناً يصدر من الاجسام المفصفرة ونحوها من غير ان تكون درجة الحرارة عالية) وإيّان بحثنا عن مصدر النور وجدناه في الذرّة Atom . والذرّة مؤلفة من نواة يدور حولها كهرب او كهارب معبأة كهرباء سلبية . والنواة اما ان تكون بروتوناً واحداً معبأ كهرباء ايجابية او مؤلفة من اكثر من بروتون وبعض كهارب . ولكن شحنتها الكهربائية موجبة دائماً

وفيما تكون الذرّة تحت عوامل التفاعل الكيمائي او عوامل التكهرب المختلفة يكون كهربها تارةً مطلقاً قوة (او طاقة حسب الاصطلاح الحديث في ترجمة Energy) واخرى مستردًّا ما فقده من الطاقة تبعاً لتلك العوامل . يطلق الكهرب قدراً من الطاقة لكهرب آخر ويسترد مثله من كهرب آخر كما سيتضح فيما يلي . واذا قضت الحال ان يطلق الكهرب طاقة ولم يوجد كهرب آخر محتاج اليها لكي يقتبسها منه مضت هذه الطاقة تشععاً في الفضاء . واذا اطلق الكهرب طاقةً ولم يتيسر له ان يسترد مثلها من غيره لكي يكمل نقصه كان محكوماً عليهِ بالاندثار فتنطلق الطاقة منهُ دفقات متتابعة .

وكل دفقة تسمى فوتوناً Photon . وكل كهرب يصدر عشرة آلاف فوتون تقريباً قبل ان يفنى

كل موجة من امواج الطاقة المتشععة تشتمل على عدد عديد من الفوتونات . فطول الموجة وسرعة تموجها تتوقفان على العوامل التي شظَّت الكهرب الى شظاياه (الفوتونات) . وبالتالي تختلف التشعُّعات وتتنوَّع من حيث عدد موجاتها الصادرة في ثانية ، ومن حيث طول موجاتها باختلاف تلك العوامل التي لا محل لشرحها هنا . وبين طول الامواج وعددها في الثانية من جهة وسرعتها من جهة اخرى نسبة ثابتة لا تتغير بحيث ان الامواج مهما اختلف طولها وتواترت موجاتها في الثانية تسير بسرعة واحدة . وسرعتها في الفراغ المطلق Vacuum ٣٠٠ الف كيلو متر في الثانية . وقد اصطلح العلماء على حرف C رمزاً عن سرعة النور ونحن نرمز عنه بحرف ن (من نور) فاذا رمزنا عن عدد الموجات بالثانية بحرف ع وعن طول الموجة بحرف ط كان لنا ن = ع ط . وبناءً على هذه المعادلة او النسبة كان اطول الموجات اقلها عدداً في الثانية واقصرها اكثرها عدداً

وقد أحصى العلماء العمليون نحو ٦٠ جماعة من جماعات التشعع تسمى كل جماعة منها سلماً Octave . (لما بينها وبين السلم الموسيقية من الشبه في بعض الخواص) . وجماعة التشععات النورية التي نميزها بألوانها السبعة هي احدى الستين جماعة التي نحن بصددها . ولكن الـ ٥٩ جماعة الاخرى لا نحس بها لانها خارجة عن دائرة قدرة بصرنا

كل هذه التشععات التي تصدر من الشمس وغيرها من الاجرام والاجسام ترد الينا جماعات وكل جماعة منها مشتملة على شعاعات مختلفة الموجات بالطول والتواتر Frequency اي بعدد الموجات في الثانية — كل هذه التشععات انما هي حاملة قوات (طاقات) صادرة من كهارب منفعلة او مندثرة . ولكن هذه الطاقات ليست واردة بشكل تيار او مجرى جارٍ باستمرار . بل هي صادرة بشكل دفقات متتابعة اي فوتونات Photons فاذا صادفت الدفقة الواحدة في طريقها كهرباً محتاجاً الى طاقة ليكمل بها نقصه انضمت اليهِ — كما يحدث في التقاط ذرّات المواد النباتية الارضية فوتونات نور الشمس في اثناء النمو . وعلى هذا النحو يدّخر النبات القوة او الطاقة لكي يأخذها الحيوان المغتذي بها ويصرفها في استعمال عضلهِ او في آلاته

* * *

بعد هذا البيان صار سهلاً على القارىء ان يفهم كيف ان القوة او الطاقة هي (وحدات Quanta) منفصلة بعضها عن بعض ، غير متصلة بعضها ببعض . تصدر بشكل دفقات كل دفقة هي وحدة غير قابلة التجزؤ بتاتاً — هي اصغر مقدار للطاقة . ولذلك سماها مكتشفها بلانك Quantum ومعناه «الكم الواحد» او المقدار الواحد . فاذا اصدرت الذرّة Atom تحت اي فعل من الفواعل طاقة اصدرتها « وحدات » كاملة معدودة . واذا تلقت طاقة من الخارج تحت اي الفواعل تلقتها « وحدات » كاملة معدودة ايضاً . فالذرّات من هذا القبيل كالاشخاص المتعاملين تجاريًّا . فهم يدفعون النقود ويقبضونها صحيحة على حساب اصغر نقد كالمليم المصري او السنتيم الفرنسي . فلا تجد في اكياسهم كسور الملاليم او السنتيمات اذ لا وجود لها البتة . كذلك الذرّة تصدر او تقبل « وحدة » من

الطاقة او عدة « وحدات » صحيحة . ولا يمكن ان تصدر او تقبل كسور الوحدة . مثل ذلك لو اشتريت من بائع ورقة دبابيس ، تجدها تحتوي على عدد معين من الدبابيس ولا جزء دبوس فيها اذ لا فائدة منه . فالجزء وعدمه سيان

ولزيادة الايضاح ايضاً نمثل تمثيلاً آخر : الطاقة المتشععة اي الصادرة بشكل امواج متوزعة الى جميع الجهات لا تصدر كسيَّال يصب من ميزاب باستمرار او كنهر جارٍ بل تصدر دفقات مستقلة بعضها عن بعض كدفقات دلاء الناعورة « الساقية » . او بعبارة اخرى لا ترد الينا الطاقة من الشمس او من اي جسم آخر بأي قدر غير محدود كما يرد الينا الماء من الحنفية . بل ترد الينا بكيل محدود كما تقدم الينا كؤوس البيرا في الحانة كؤوس مترعة ، وكما يُقدم الينا التبغ لفافات (سكاير) ذات حجم ووزن محدودين . فلا نطلب في الحانة نصف كأس ولا نشتري نصف سيكارة او نصف رغيف

وهنا يجب توجيه نظر القارىء الى حقيقة ذات شأن وهي ان وحدة الطاقة (الكونتم) ليست ذات قدر واحد في جميع اصناف التشععات بل يختلف قدرها في صنف واحد عنه في صنف آخر . اي لكل ضرب من ضروب التشعع « وحدة » من الطاقة خاصة بهِ تتوقف على طول موجته وتواتر امواجه . يعني ان وحدات التشععات تختلف باختلاف امواجها في الطول او باختلاف عدد امواجها في الثانية (كما ان لكل عنصر من العناصر المادية ذرّة خاصة بهِ تختلف عن اي ذرّة غيرها بالوزن وبقدر ما لها من خاصية الالفة الكيماوية)

بعبارة اخرى : ان وحدة الطاقة في اي صنف من اصناف التشعع تتوقف على طول موجة ذلك الصنف . وربما كانت هذه القضية تتضح جيداً اذا نظر القارىء الى مسألة تواتر الموجات اي العدد الصادر منها او المتتابع في كل ثانية Frequency . لان بين طول الموجة وتواتر الموجات نسبة ثابتة لا تتغير كما تقدم القول . ولما كانت كل انواع الموجات التشععية تسير بسرعة واحدة في الفراغ المطلق (٣٠٠ الف كيلو متر بالثانية) كان ولا بدَّ انهُ كلما كانت الموجات طويلة كان عددها في الثانية اقل . والعكس بالعكس ، اي كلما كانت قصيرة كان عددها اكثر . فاذا كان طول موجة نوع من انواع الراديو او اللاسلكي ١٠٠ متر مثلاً كان عدد موجاته في الثانية = $\frac{٣٠٠٬٠٠٠٬٠٠٠}{١٠٠}$ = ٣ ملايين موجة في الثانية . واذا كان طول موجة النور البنفسجي جزءاً من ٦ ملايين من السنتيمتر كان عدد امواجه = $\frac{٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠}{٠٫٠٠٠٠٠٠٠٦}$ = ٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ موجة في الثانية . ان عدد موجات الاشعة السينية اكثر من هذا الرقم بكثير . وهناك ضروب من الاشعة السينية اكثر من هذا الرقم بكثير وهناك ضروب من الاشعة اكثر امواجاً منها ايضاً

والآن فاذا كانت وحدة الطاقة المتشععة تتوقف على طول الموجة فبالتالي تتوقف على عدد الموجات ايضاً لما بين الطول و « التواتر » من النسبة كما تقدم . اي ان طول الموجة يشتمل على

عدد معين من الوحدات — عدد صحيح بلا كسور — فاذاً بناءً على هذه النظرية ، التشعع الذي يتموَّج (ع) عدد كذا في الثانية يصدر في وحدات كاملة من الطاقة بلا كسور . فاذا رمزنا عن هذه الوحدة الثابتة بحرف ط كانت قيمة الطاقة الصادرة من ذلك النوع من التشعع تساوي ط ع . وقد اصطلح العلماء على تسمية الوحدة الثابتة المذكورة باسم « ثابت بلانك » ويعبرون عنه بلغتهم بحرف h وعن عدد الموجات بحرف v فتكون قيمة الطاقة في اي نوع من انواع التشعع في ثانية واحدة = h v

وأما قيمة هذا الثابت ط كما حسبها بلانك فهي ٦٥٥٥ ٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٫٠ ثانية × ارغ . والارغ (Erg لفظ يوناني الاصل معناه عمل) هو عمل القوة المساوي لرفع ما وزنهُ جرام الى علو سنتيمتر في ثانية — فانظر ما اصغر قيمة الكونتم

بناءً على ما تقدم يشتمل النور البنفسجي على وحدات Quanta كبيرة من الطاقة لان عدد موجاته في الثانية اكثر من عدد موجات النور الاحمر الذي يشتمل على وحدات اصغر لهذا السبب. وكلما كانت طاقة الوحدات اعظم كانت اكثر مقدرة على احداث تغير في الذرّة المصدرتها او الآخذتها . ولهذا السبب يضعف النور الازرق الوانَ الاصباغ ويؤثر في اللوحات الفوتوغرافية ، في حين ان النور الاحمر لا يؤثر فيها

***

ابتدأنا في البحث في نظرية الكونتم بالحركة ثم انتقلنا الى القوة او الطاقة التي هي علة الحركة وبسطنا كيف ان الطاقة مهما كان مقدارها هي مجموعة وحدات متماثلة ، كما ان البحر هو مجموعة جزيئات من الماء متشابهة ، وكل جزيءٍ مؤلفٍ من ذرّة اوكسجين وذرّتي هيدروجين ، وكما ان مكيال القمح يشتمل على مجموعة من الحبوب متساوية متماثلة . والآن نعود الى « وحدة » الحركة — والحركة ناشئة من القوة كما تقدم شرحه — فقد رأيناها فيما تقدم تبدو في شكل امواج وكل موجة تمثل وحدة من وحدات القوة او الطاقة . واذا درسنا كل حركات الاجسام صغيرة كانت او كبيرة ظهر لنا انها متمشية على نظرية « الكونتم » ايضاً . اي انها ليست حركة استمرارية ، بل هي وثبات متماثلة ومتساوية في المسافة ، بينها هدنات متساوية في المدة . فالزمن الذي تستغرقهُ وحدة الحركة يحسب للهدنة بين وثبة ووثبة اي فترة السكون بين وحدة ووحدة . واما الوثبة بين نقطة الى اخرى لا يحسب لهــا زمان ، فكأنها حدثت بسرعة لا يتصورها العقل — سرعة لا تستغرق زمناً البتة — وقد رأيت فيما سبق مقدار هذه الفترة من الثانية

ان اصغر حركة في الوجود هي حركة الكهرب في دورانهِ حول النواة . فهو لا يسير في مداره (اي فلكه) سيراً مستمرًّا بل يسير متوثباً اي انهُ يثب من نقطة الى اخرى في فلكه الشاسع حول نواته كأنَّ فلكهُ هذا مؤلف من محطات متباعدة مرتبة في شكل دائرة حول النواة وهو يثب من محطة الى اخرى وثباً . وبناءً على ذلك لا يكون فلك الكهرب (اي مداره حول نواته) دائرة بكل

معنى الكلمة، ولا تكون كل مسافة بين محطة ومحطة من محطات الوثبات قوساً بل هو شكل متعدد الاضلاع Polygon والمسافات بين المحطات هي اوتار في دائرة موهومة لا اقواس

ثم ان الكهرب يسير في فلك معين حول نواته بحسب سنة الجاذبية . فاذا قضت عليه بعض العوامل ان يتغير فلكه اي ان يصير اقرب الى النواة او ابعد فلا يقترب او يبتعد تدريجيًّا بل يثب وثباً من فلك الى آخر لان الافلاك مقررة حول النواة على ابعاد محدودة (وفي رأي بعضهم ان الافلاك المترامية اقرب بعضها الى بعض من الافلاك القريبة الى النواة) . فكأن هذه الافلاك اثلام او اخاديد مستديرة حول النواة . والكهرب يسير في قعر الثلم ولا يستطيع ان يسير على حرفه الاعلى . فاذا وجب ان ينتقل من فلك الى آخر اضطر ان يثب وثباً من اخدود الى اخدود . فترى مما تقدم ان افلاك الكهارب حول النواة وحدات كمية (نسبة الى كم) ايضاً كدرجات السلم . فاذا رام الكهرب ان ينتقل فعليه ان ينتقل درجة كاملة اذ لا يستطيع ان يثب الى نصف درجة كما انك لا تستطيع ان تصعد على السلم الاَّ درجة فدرجة . ولا تستطيع ان تخطو جزءًا من الدرجة

فاذا كانت نظرية الكونتم في دوران الكهرب حول النواة صحيحة فلا بدَّ ان يكون سببها ان قوة الجاذبية (الجاذبة الكهرب الى النواة) تصدر دفقات متوالية . واعتقد انها كذلك . فقد ثبت بالفعل Practically كما ثبت بالراديو مثلاً ان الجوّ الجاذبي Gravitational field انما هو امواج من نوع الامواج الكهرطيسية كامواج النور والراديو واللاسلكي . واذن فلا بدَّ ان يكون تأثيرها في الكهرب متقطعاً متتابعاً كتتابع الامواج . اي ان كل موجة تدفع الكهرب في مسيره دفعة

واذا كان الامر كذلك فلا بدَّ ان يكون حكم الجاذبية في الاجرام كحكمها في الكهارب اي ان السيارات تسير في افلاكها حول الشمس وثباً حسب قانون « الكونتم » . واذا كان الامر في السيارات هكذا فلا يمكن ان يكون فلك السيار دائرة متصلة مستمرة يمكن تقطيعها الى اقواس منحنية ، بل هي شكل متعدد الاضلاع Polygon وكل ضلع يمثل وثبة من وثبات السيار في فلكه

واذا كان الامر كذلك — ولا بدَّ ان يكون هكذا اذا كانت نظرية الكونتم صحيحة — فاذن ليس في الوجود حركة دائرية بكل معنى الدائرة . اي لا وجود للدائرة على الاطلاق الاَّ في تخيلاتنا وفروضنا ورسومنا الهندسية على الورق . بل ان ما نسميه دائرة ليس الاَّ شكلاً متعدد الاضلاع عديدها

واذا صحَّ هذا الاستنتاج ، واني لاخاله صحيحاً للسبب التالي — يتصحح به عيب في برهان « قانون المسارعة » اي قانون ابتعاد فعل القوة عن المركز Force {Centrifugal / Centripetal} مع ان هذا القانون هو الركن الاساسي لناموس الجاذبية . يتصحح هذا العيب عن يد نظرية الكونتم . وبتصحيحه تنجلي علاقة كبيرة بين الكونتم والجاذبية . وسأفرد لهذا الموضوع مقالاً خاصًّا الفت اليه أنظار أهل العلم ولا سيما الذين تلذ لهم القضايا العلمية المسندة الى البراهين الرياضية . وسيرون ان هذا الموضوع ذو شأن كبير . ولا ادري ان كان أساطين علماء الغرب السابقينا بمراحل قد فطنوا اليه

الصحف البريطانية الكبرى

ومواقفها السياسية

في لندن تسع صحف صباحية توزّع كل صباح نحو عشرة ملايين من النسخ . أما صحفها المسائية فثلاث ولا يزيد مجموع ما يوزّع منها على مليون وثلاثة ارباع المليون من النسخ . ولكن صحف الصباح تنتشر في طول البلاد وعرضها . وعلى الضد منها ينحصر انتشار صحف المساء في العاصمة في الغالب . ويصدر في مدن بريطانيا الاخرى كيورك وبرمنغهام صحف على جانب عظيم من الرقي ، ولكن انتشارها محصور في المدينة التي تصدر فيها وما يجاورها تُستثنى من ذلك جريدة المنشستر غارديان . فاذا قلت صحف بريطانيا عنيت صحف لندن . وليس في هذا اي غضاضة على صحف الاقاليم . فثلاثة ارباع سكان انكلترا يعيشون في اماكن لا تبعد اكثر من خمس ساعات بالسكة الحديدية عن عاصمتهم العظيمة . حتى غلاسغو وادنبره وهما من مدن اسكتلندا في الشمال لا تبعدان عن لندن اكثر من ثماني ساعات بالقطار . وعلاوة على ذلك تطبع الديلي ميل في لندن ومنشستر نسختين متماثلتين توفيراً للوقت في نقل النسخ من لندن الى المقاطعات الشمالية ، وتجاريها الديلي اكسبرس بل وتفوقها لانها تطبع ثلاث نسخ متماثلة — على اختلاف محلي بسيط — في لندن ومنشستر وغلاسغو . فاجتماع هذه العوامل المواتية لتفوق الصحافة اللندنية ، يمكن كل انكليزي ان يكون امامهُ على مائدة الفطور كلَّ صباح نسخة من الصحيفة اللندنية التي يؤثرها

***

يمكن تقسيم صحف لندن بوجهٍ عام الى طائفتين . فطائفة تلذُّ للسواد من الجمهور ، وطائفة تلذُّ للاقلّين . وتقدير مكانة كلّ من الطائفتين ليس بالامر اليسير ، ودونهُ صعابٌ لا يستهان بها ، ولعلَّ الاتفاق على تحديد معنى « مكانة » و« نفوذ » ليس اقلّ هذا الصعاب شأناً . ولكن مما لا ريب فيهِ ان الطائفتين من الصحف ، قادرتان على التأثير في الرأي العام البريطاني ، في احوال مختلفة وبوسائل واساليب متباينة . ومع ذلك قد يكون من اصعب الامور الاتفاق بين كتّاب هذه الصحف وقرّائها ، على مدى تأثيرها في نفوس الجماهير

من صحف لندن الصباحية ، ثلاث يمكن نعتها بقولنا « رزينة » و« ستٌّ » يمكن وصفها بقولنا «شعبية» Popular . فصحف الطائفة الاولى هي التيمس والديلي تلغراف والمورننج پوست ، وعدد ما يوزع من هذه الصحف الثلاث معاً قد لا يزيد على ٧٠٠ الف نسخة . (يقدّر ما يوزّع من التيمس بنحو ٢٠٠ الف نسخة وما يوزّع من التلغراف بنحو ٣٠٠ الف نسخة وما يوزّع من الپوست بنحو ١٥٠ الى ٢٠٠ الف نسخة) اما صحف الطائفة الثانية فهي الديلي ميل والديلي اكسبرس والديلي هرالد ويقدر ما يوزع من كلّ منهما بنحو مليوني نسخة. ثم تليها« النيوز — كرونكل» ويقدّر ما يوزّع منها بنحو مليون ونصف مليون من النسخ ، ثم صحيفتان صغيرتا القطع مصورتان هما السكتش والميرور ولكل منهما انتشار واسع ولكن لم تحاول احداها ان تفوز بمكانة سياسية ما. اما صحف المساء فهي « الايفننج نيوز » او « انباء المساءِ » ويقال ان انتشارها يبلغ نحو ٨٠٠ الف نسخة في اليوم وجريدة الستار Star او الكوكب وانتشارها يبلغ نحو ٦٠٠ الف نسخة وجريدة الستاندرد او العَـلَم وانتشارها قد لا يقلُّ عن نصف مليون من النسخ

اما اللون السياسي الغالب على هذه الصحف فهو اللون المحافظ . فصحف لندن جميعها محافظة الاَّ الهرالد فهي جريدة العمال و« النيوز كرونكل » وهي جريدة الاحرار . اما الصحف التي تصدر خارج لندن فيغلب عليها اللون المحافظ وليس بينها جريدة واحدة للعمال . واما المنشستر جارديان فلونها السياسي حرٌّ وانما تميل الى قضية العمال وهي من صحف الاقاليم الوحيدة التي تباع جنباً الى جنب مع كبريات صحف لندن في جميع انحاءِ البلاد

***

ونحن نستطيع ان نقول بوجهٍ عام ان الصحف الثلاث التي وسمناها « بالرزينة » تحكماً بقصد التفريق في النزعة الاساسية بينها وبين الصحف الاخرى ، تؤثر في الرأي العام بواسطة مقالاتها الرئيسية التي تعرب فيها عن آرائها السياسية والاجتماعية . اما الصحف الشعبية فتعتمد في الغالب على ما تختاره من الانباء وتقدمهُ على غيره بواسطة عنوانات ضخمة تمتدُّ احياناً على عرض الصفحة فيسترعي البصر ويصبح حديث القوم . ولنا في الصحف نفسها ما يؤيد هذا الفرق . فكل صحيفة من صحف الطائفة الاولى ، تنشر كل يوم ما يملأ نحو ثلاثة اعمدة من المقالات الرئيسية ، مكتوبة بأقلام أبرع الكتّاب واعلمهم بموضوعاتها . حالة ان الصحيفة من الطائفة الثانية تكتفي بما يمـلأ عموداً واحداً وتعتمد فيهِ على المقالات القصيرة فقد لا تعدو المقالة الافتتاحية في موضوع واحد في الميل او الاكسبرس بضعة أسطر

***

تحاول الصحف الرزينة — ونعني التيمس والتلغراف والپوست والغارديان — ان تعرض لقرّائها خلاصة عامةً لحوادث اليوم داخل البلاد البريطانية وخارجها مع تعليق محرّريها عليها ورأيهم

فيها . وهي تدعم انباءَ الشركات العامة ببرقيات مكاتبيها الخصوصيين ورسائلهم . والصحف الشعبية تحذو حذوها ولكن الصورة اليومية التي تعرضها هـذه الصحف ليست كاملة من حيث اتساق عناصرها كصورة الصحف الرزينة . فقد تعنى الميل او الاكسبرس او غيرها بحادث من الحوادث يوماً ما او يومين ، ثم تهمله اذ تنقص ما تنشره عنهُ فلا يزيد عن بضعة أسطر ، لأنها وهي تحاول ان تستثير الرغبة العامة بانباءِ حوادث جديدة ، ترى ان الحادث الذي مضى عليهِ يومان قد أصبح مبتذلاً لا يستحق عناية كبيرة . والصحف البريطانية بوجهٍ عام اقل عناية بالانباء الخارجية من جريدة اميركية كالنيويورك تيمس مثلاً ، ولعلَّ سبب ذلك ان اتساع نطاق الامبراطورية البريطانية وترامي اطرافها يحتمان على الصحف البريطانية تعيين مكاتبين خصوصيين لها في كل جزءٍ من أجزائها وهـذا يحول دون تعيين مكاتبين خصوصيين في كل مركز من مراكز السياسة العالمية خارج الامبراطورية البريطانية كما تفعل جريدة النيويورك تيمس فتعتمد على ما يبعث بهِ مكاتبو شركات الانباءِ العامة

يضاف الى ذلك ان بريطانيا ، لم تجرِ كاميركا على عادة تعرف بـ syndication اي الاشتراك في الانباء الخاصة . وهذا مما يقلل نفقات المكاتبين الخصوصيين . فأميركا بلاد مترامية الاطراف ، والنيويورك تيمس قلما تقرأ خارج مدينة نيويورك وما يجاورها . لذلك تتفق النيويورك تيمس مثلاً مع صحيفة في انديانا بوليس واخرى في دنفر وثالثة في ملووكي ورابعة في نيو اورلينس وخامسة في سان فرنسسكو ، على ان تبيعها البرقيات التي يبعث بها مكاتبو التيمس الخصوصيين من روسيا واليابان ومصر وغيرها من البلدان . وكذلك تصيب الصحافة الاميركية عصفورين بحجر واحد . الاول نوعاً من الاشتراك والتعاون على تسديد نفقات المكاتبين وبرقياتهم . وثانياً سنوح الفرصة لصحف اميركا التي ليست من مقام النيويورك تيمس او الشيكاغو نيوز ان تنشر انباءَ العالم كما يرويها مكاتبون مشهود لهم بدقة الاطلاع وصدق النظر

ومن غرائب الاتفاق ان اصحاب الصحف اللندنية الرزينة التي ذكرناها ، ليسوا من الرجال الذين لهم مطامح واغراض سياسية كلورد روذرمير ولورد بيفر بروك . بل ان الرجال الذين يديرون هذه الصحف يشتغلون وراءَ ستار في صحفهم وقلما يعلم الجمهور عنهم شيئاً ولذلك لا يوحّد القرّاءَ بين هذه الصحف واصحابها او رجال معينين يملون عليهم خطة خاصة بعينها بل يحسبونها معاهد عامة لا تخصُّ فرداً دون آخر

***

لقد اجمع اصحاب الرأي ان «التيمس» في طليعة الصحف البريطانية ، فمن المسلم بهِ ان الجمهور في بريطانيا وخارجها يحسبها لسان حال الحكومة البريطانية ، بقدر ما تستطيع جريدة مستقلة ان تكون لسان حكومة . ولكن هذا ليس السرُّ الوحيد في مقامها العظيم . بل الانكليز يحسبونها معهداً بريطانيًّا ، وينظرون اليها ، من صفحة انباءِ السوق المالية الى احوال الجوّ الى برقيات المكاتبين

ورسائلهم الى المقالات الافتتاحية نظرهم الى التاج او البرلمان . والواقع ان صاحبي التيمس (الميجر آستر والمستر جون ولتر قد ادركا هذه الحقيقة ، فقطعا من تلقاءِ نفسيهما عهداً بأن لا يبيعا حصتيهما في التيمس . الاَّ بعد ان توافق على المشتري لجنةٌ مؤلفة من خمسة من كبار رجال الدولة

والتيمس — كسائر الصحف الرزينة — لا تزال جارية على عادة نشر الاعلانات الصغيرة على صفحاتها الخارجية وجعل الصفحتين الرئيسيتين المحتويتين على أهم الانباءِ والمقالات الافتتاحية في صفحتين متقابلتين من الطية الوسطى في الجريدة . وهي مقسمة تقسيماً تجري عليهِ سنة بعد سنة . فاذا اردت انباءَ ناحية من نواحي الحياة عرفتَ اين تجدها فيها لانها قلما تغير مكانها . وهي تنشر في الغالب على صفحتيها الرئيسيتين الانباء التي يبعث بها اليها مكاتبوها الخصوصيون الاكفاءُ من نواحي الامبراطورية او سائر بلدان العالم . وقلما تنشر عنواناً لنبإٍ يمتدُّ على اكثر من سطر واحد . ولمحرّريها الحقُّ في مطابقة رسائل مكاتبيها وفقاً لنزعة الجريدة . ونحن لا نقول هـذا بقصد ان نرمي محرّري التيمس بتعديل الانباءِ وتشويهها وفقاً لرغائبهم ، ولكنك قلما ترى رسالة لمكاتبها في برلين ، اولمكاتبها في وشنطن من دون ان تتبين من خـلال السطور ، رغم سرد دقيق للحوادث ، شكًّـا في فوائد الحكم الهتلري او نجاح خطط الرئيس روزفلت

***

اما الخطة الاساسية التي تجري عليها « التيمس » فهي تأييد الحكومة البريطانية القائمة . وهذه الحقيقة وحدها ، علاوة على ما للجريدة من المكانة الصحافية العالية ، كافية لاقناع الجمهور بان صوت « التيمس » انما هو صوت الوزارة البريطانية . وهذا هو الواقع في الغالب في ما يخصُّ السياسة الخارجية . ولكنهُ لا يصدق كلَّ الصدق على ما يرتبط بالشؤون الداخلية ومواقف الحكومة القائمة منها . ففي السنة الماضية كان الاتجاهُ في خطة التيمس الى نقد خطط الحكومة القومية المتصلة بالضرائب والمسائل المالية والنقدية

وانت اذا استقريت الصحف اللندنية ، وجدتها جميعاً تتكلم بصوت واحد في بعض المسائل الدولية المعيّـنة ، فجميع صحف لندن مثلاً تؤيد نزع السلاح ، واعادة التجارة الدولية الى مجاريها القديمة . وتوثيق اواصر الصداقة مع الولايات المتحدة الاميركية ، وازالة الحواجز الجمركية ، ومقاومة النزعات الجديدة في نظم الحكم كالفاشستية والشيوعيـة والنازية . وانما انت تقع على الاختلاف بين الصحف اللندنية في نظرها الى هذه المسائل ، عندما تفحص عن الوسائل التي تقترحها كل جريدة لتحقيق هذه الاغراض التي تتفق عليها جميعاً . عندئذ يصحُّ عليها المثل الفرنجي القائل ما معناه : «الرأي المستقيم يا الهي هو رأيي انا» . فالمورننغ پوست ترى مثلاً انهُ اذا غالت بريطانيا في رفع الحواجز الجمركية ، كان ذلك افعل الوسائل واسرعها الى الاتفاق على الغائها جميعاً . اما المنشستر

غارديان فترى ان احتفاظ بريطانيا بحرية التجارة — ولا تنسَ ان اركان حرية التجارة البريطانية خرجوا من منشستر — كان افضى الى الغاية المطلوبة

وموقف التيمس من هذه المشكلة — اي مشكلة الحواجز الجمركية — هو موقف الوزارة اي القول بأن بريطانيا جرت في ميدان التجارة الحرة الى اقصى المدى ، فلم تجارها دولة من الدول المنافسة لها ، بل اغرقت اسواقها الداخلية ومنعت بضائعها من اسواق الدول التي تنافسها ، فعمدت الى اقل ما يمكن رفعه من الحواجز ، وهي مستعدة للاتفاق — أيًّا كان — القائم على التبادل . وكذلك في ما يختص بمشكلة نزع السلاح . فالتيمس وتجاريها الصحف البريطانية تنزع الى وجوب خفض السلاح ، ولكنها ترى ان بريطانيا قد ذهبت في خفض السلاح الى مدى ابعد مما ذهبت اليه الدول الاخرى . وهذا هو رأي الوزارة البريطانية بالاجمال . ولا يبعد ان تجاري التيمس الحكومة البريطانية غداً اذا رأت الحكومة ان زيادة سلاحها هي افعل الوسائل للوصول الى اتفاق على خفض السلاح

ثم ان التيمس تستمد مكانتها في الحياة البريطانية العامة من كونها منبراً عامًّا لكبار القوم . فاذا شاء رئيس الوزراء ، او رئيس اساقفة كنتربري او اي عين من اعيان الدولة ان يعرب عن رأي خاص في رسالة عامة ، فالغالب انهُ يبعث بهذه الرسالة الى التيمس اولاً

***

الى يمين التيمس — من الناحية السياسية — تجد صحيفه المورننغ بوست . وأصحاب الكثرة من اسهمها هم دوق نورذمبرلند والسر پري بايتس والكبتن هورد . وهي جريدة مضت عليها مائة وستون سنة ، وهي تخشى ان تعرب عما تعتقد . لذلك تلمس فيما تكتبهُ احياناً نغمة من التحكم وهو ما ينتظر من صحيفة تعد لسان المحافظين المتطرفين . ومع ان مقالاتها الاخبارية تكتب بأقلام كتَّاب بارعين وتعرض عرضاً يسترعي النظر ، الاَّ انها دون « التيمس » في كمال الصورة التي ترسمها للحوادث العالمية . وانما هي تستمد قيمتها في رأي اصحاب الرأي ، من مقالاتها الافتتاحية الصريحة . فكتَّابها في هذه الاعمدة لا يعرفون المواربة . وقد يندر ان ترى في المورننغ بوست نفاقاً في التهليل والتكبير للمبادىء او المنشآت الدمقراطية ، كما ترى احياناً في غيرها . وهذه الصراحة لا تترك مجالاً للشك في موقف المورننغ بوست من أية مشكلة من مشكلات الساعة ، فهي لذلك مفضلة في دوائر المحافظين المستميتين Die hards او المغالين في محافظتهم . ولما كان ذلك كذلك فمن المتوقع ان تراها معارضة للحكومة القومية في سياستها الهندية ، داعية الى ان خير دعامات السلامة اسطولٌ بريطاني متفوق في قوته ، مؤيدة لزيادة الحواجز الجمركية ورفعها ، منددة بالنزعتين الاشتراكية والدولية على السواء ، موافقة بتحفظ على فاشستية ايطاليا وهتلرية المانيا ، محبذة توثيق الروابط بين فرنسا وبريطانيا في معالجة شؤون البر الاوروبي

اما جريدة الديلي تلغراف فهي ثالثة الصحف اللندنية الرزينة . والرجل المسيطر عليها هو لورد كمروز (كان اسمهُ السر وليم بري Barry قبل منحه لقب لورد) . ثم هو يملك مع اخيهِ السر غومر بري حصة كبيرة في جريدتي الصندي تيمس والفيننشال تيمس وطائفة من جرائد الارياف وفي الشركة المعروفة باسم شركة الصحافة المندمجة (أمَلْجميتِدْ پرس) . ولورد كمروز يُعنى عناية خاصة بالديلي تلغراف ولكنهُ لا يطلب الشهرة ، ولذلك قلما يعرف الجمهور شيئاً عما يدور وراء ستار في ادارة «التلغراف» فيحسبونها جريدة مستقلة لا لسان رجل غني

والديلي تلغراف مشهورة بانها صحيفة الطبقة المتوسطة البريطانية ، تتصف بالدقة وحسن التبويب وبراعة الاخراج . ابتاعها لورد كمروز وشقيقهُ من لورد برنهام (كان والد هذا قد انشأ الجريدة) من بضع سنوات فبذلا مالاً طائلاً في توسيعها وتقويتها . فلما خفضا ثمنها من بنسين (اقل قليلاً من قرش صاغ) الى بنس واحد (اقل قليلاً من نصف قرش صاغ) زاد ما يوزع منها من النسخ ثلاثة اضعاف . وهي جريدة محافظة ، ولكنها اكثر اعتدالاً في محافظتها من الديلي تلغراف ، ولعلها اقل اعراباً عن آراء الحكومة الرسمية من التيمس . وقد تحولت من عهد قريب الى الدعاية الى انشاء اسطول بريطاني كبير . ولكنها في الوقت نفسه تؤيد بوجهٍ عام خطة الحكومة البريطانية في نزع السلاح . ثم هي كالتيمس تحاول ان تنهج نهجاً متوسطاً بين عزلة بريطانيا واشتباكها في شؤون اوربا السياسية . وتجاري معظم صحف لندن في مقاومتها لطراز الحكم الفاشستي كائنة صبغتهُ ما كانت وتعارض في القضاء على النظام البرلماني البريطاني واقامة نظام آخر محلهُ

***

هذا من حيث ما يتعلق بالصحف « الرزينة »

فاذا انتقلنا الى النظر في الصحف « الشعبية » انتقلنا الى عالم آخر . هنا نجد لكواكب الصور المتحركة مقاماً اعلى من مقام رجال السياسة . هنا « جرائم الغرام » تستأثر بالصفحات الاولى دون انباء مجاعة في الصين . ان جانباً كبيراً من قراء هذه الصحف يبتاعونها لما تمنحهُ من الجوائز المالية الضخمة . او لان المشترك فيها يؤمَّن باشتراكه فيها على حياتهِ ضدَّ المرض او الموت بالحوادث الطارئة او العارضة . ونذكر اننا كنا في انكلترا سنة ١٩٢٨ لما حدث اصطدام في سكة الحديد بين لندن وبريطن على ما نظنّ — فكلف هذا الحادث الديلي اكسبرس يومها نحو مائة الف جنيه ، دفعتها لاهل الذين قتلوا في هذا الاصطدام من مشتركيها . والديلي اكسبرس تندد بكل هذا ، ولكنها مضطرة الى مجاراة الصحف الاخرى ، لكي تحافظ على سعة انتشارها رغبةً في ما تجنيه من الاعلانات التي تبنى على سعة انتشار الجريدة في المقام الاول . وقد كانت الديلي ميل من نحو ١٢ سنة اوسع الجرائد اللندنية انتشاراً اذ بلغ ما يوزع منها نحو مليون نسخة وكان لها حينئذ نظام معتدل من التأمين للمشتركين فيها . فلما زادت المبالغ التي تدفعها لمن يتمتعون بالتأمين بحسب هذا النظام زاد انتشارها

لجاراتها الصحف الاخرى . وكذلك اصبحت كل من الدايلي ميل والديلي اكسبرس والدايلي هرالد توزّع كل يوم نحو مليوني نسخة . ثم ان لكل من الصحف «الميل» و«الهرالد» و«النيوز كرونكل» طبعتين واحدة في لندن واخرى في منشستر وأما الاكسبرس فلها ثلاث طبعات واحدة في لندن والثانية في منشستر والثالثة في غلاسغو

وأصحاب هذه الجرائد لهم مصالح مشتركة من الناحية المالية ، لأن بعضهم يملك حصصاً في صحف البعض الآخر . وانما يصح ان تقول ان لورد روذرمير مسيطر على الدايلي ميل وما يتبعها (الايفننج نيوز وهي جريدة مسائية والصنداي سباتش وهي جريدة أحدية) ولورد بيفربروك مسيطر على مقدّرات الاكسبرس وما يتبعها (الايفننج ستاندرد : جريدة مسائية والصنداي اكسبرس : جريدة أحدية)

***

وتحسب جريدة الديلي ميل الاولى من نوعها . انشأها الفرد هارمزورث (لورد نورثكليف وشقيق لورد روذرمير) في اواخر القرن الماضي . ولكنها مع ذلك — وهذا عجيب — هي الصحيفة الوحيدة من الطراز الجديد التي لا تزال محافظةً على وقف صحيفتها الاولى على الاعلانات كالتيمس والتلغراف وغيرها . اما الاكسبرس والهرالد فتنشران اهم الانباء على الصفحة الاولى . اما ترتيبها فأحدث ما عرف في الصحافة الاوربية والاميركية ، اي انها تعمد الى العنوانات الضخمة التي تمتد على عرض الصفحة احياناً وتزين مقالاتها بصور تتخلل الكلام . وهي محافظة اسماً ، ورجعية بلا ريب . ولكنها تنهج احياناً مناهج خاصة بها ، فقد تراها في فترة ما موالية لفرنسا في انبائها ومقالاتها الرئيسية . ثم تراها في فترة اخرى تنزع الى عزلة بريطانيا عن الاشتباك في شؤون البر الاوربي . وهي الآن تضرب على وتر خاص بها ، قلما توافقها عليه صحيفة اخرى في بريطانيا وهو ان اعظم ضمان للسلام الاوربي هو عقد محالفة دفاعية بين بريطانيا وفرنسا . او قد تراها يوماً من الايام تندّد بالحكومة لانها لا تقتصد في نفقاتها ولا تخفض الضرائب . وفي اليوم التالي ، قد تندّد بخطة اللين التي تجري عليها الحكومة في الهند وتدعو الى الاحتفاظ بالهند كائنة النفقة او فداحة الضرائب ما كانت . وهي في الغالب تلخّص نهجها السياسي في مسألة من المسائل ، بعبارة قصيرة تسترعي النظر وترسخ في الاذهان

ومع ذلك فلجريدة الديلي ميل نفوذ . فغناها يمكّنها من استكتاب كبار الكتّاب ، والوسيلة التي تعتمد عليها في تثبيت فكرة معينة في نفوس الناس ، بتكرارها ، تمنحها نفوذاً سيكولوجيًّا عظيماً . يضاف الى كل ذلك ان قرّاءها كثرٌ . وقلما يقرأون غيرها ، لانهم من الطبقة المتوسطة غير المتعلمة تعليماً وافياً ، فيعرضون عن الصحف الرزينة لانها ثقيلة على طباعهم . ولعلَّ اشهر مثل على مدى نفوذها ما نشرتهُ عن رسالة قيل ان زينوفيف بعث بها الى العمال البريطانيين ليلة الانتخاب

البريطاني العام سنة ١٩٢٤ فشى الذعر في الناس وخشوا انتصار الشيوعية في بريطانيا ، فنال المحافظون اكثرية عظيمة في الانتخاب

والديلي اكسبرس محافظة كذلك ، ولكن منهجها المحافظ خاص بصاحبها لورد بيفربروك . وصاحبها رجل المعي الذكاء ، جم النشاط كان كنديًّا (اسمهُ ماكس ايتكن) فأثرى ثم أمَّ بريطانيا فارتقى فيها الى مناصب الاشراف وشغل منصب وزير في وقت ما ، وكان لهُ شأن كبير ، لعلاقتهِ ببونارلو الزعيم المحافظ ، في أزمات السياسة البريطانية في اواسط الحرب الكبرى وبعيدها . ثم ابتاع الاكسبرس فجعلها في مقدمة الصحف «الشعبية» البريطانية . انجيلهُ الذي يكرز بهِ « امبراطورية بريطانية تكفي نفسها بنفسها» ولذلك ترى صحفهُ تندد بكل ما شأنهِ ان يشبك بريطانيا بشؤون البر الاوربي ، وتنقد العهد الذي قطعتهُ بريطانيا في معاهدة لوكارنو وتسخر من ضعف سياسة الحكومة الجمركية

تصدر جريدة الديلي هرالد شركة « الاولدهام پرس » ولكن الصحيفة لسان حال العمَّال ، وخطتها السياسية خاضعة لمجلس نقابات العمال . وقد كانت هذه الصحيفة على شفا الافلاس لما اتفقت الاولدهام پرس على الانفاق عليها ، فأحدثت انقلاباً عظيماً في ترتيبها وسياق نشرها للاخبار وجارت بها الميل والاكسبرس فجعلت توزّع الهبات على المشتركين ، ونظمت لها مشروع تأمين لمشتركيها حتى اصبحت اليوم وهي تفوق جرائد بريطانيا قاطبة في عدد ما يباع منها كل يوم . تحاول الديلي ميل ان تنشر الاخبار كما يراها كتابها المحافظون . اما الهرالد فتنشرها كما يراها كتابها الاشتراكيون . وهي في خطتها السياسية تنزع الى التعاون الدولي وحرية التجارة وتؤمن بنزع السلاح وتقاوم مقاومة عنيفة الفاشستية والنازية . ولما كان في بريطانيا نحو سبعة ملايين ناخب من العمال ، فالمجال متسع لجريدة تكون صحيفة عصريةً ولساناً للعمال في آن واحدٍ . والديلي هرالد تحقق هذين الشرطين خير تحقيق

***

بقي علينا من صحف لندن الشعبية جريدة «النيوز كرونكل» وهي لسان الاحرار — وقد قال فيها احد اصحاب النكتة : هي لسان الاحرار الرسميين عندما تدرك مَن هم . وهذه اشارة منهُ الى انقسامهم فرقاً فثمة فريق سيمون وفريق هربرت صموئيل وفريق لويد جورج . تسيطر عليها اسرة كادبوري المشهورة بصنع الشكولاتة المسماة باسمهم . هي دولية النزعة ولكنها ليست اشتراكية وهي تعارض النظم الفاشستية كالهرالد والشيوعية كصحف المحافظين . ولما كانت تؤيد السعي لنزع السلاح ، فقد احدثت هزة في دوائر بريطانيا السياسية ، لما طالبت من عهد قريب بوجوب محافظة بريطانيا على العهود التي قطعتها في لوكارنو . فهي بوجه عام صحيفة اليسار المعتدل

أما المنشستر غارديان فتصدر في منشستر وأصحابها اسرة سكُتْ وهي في رأينا في مقدمة الصحف العالمية التي تدرك ان الصحافة كالتعليم عمل كبير التبعة . ولعلَّ خير شهادة لها ان اتباعها وخصومها يقرأونها على السواء

وحدة الكون

للشاعر السكنديناوي بويزن

قرابة مقدَّسة لا اتخلَّى عنها

تربطني بكل ما يتنفَّس .

انا ابن الارض والبحر والهواء

انشدَتْ العواصف « السلورية »[1] الجشَّاء هدهدتي[2]

وفي اشكال دائمة التغيُّر

من شجر وطير ووحش

كوَّنت الاعصر الجاهدة شكلي

ان هذه الاسلاف الضخمة قد تركت

من نفوسها العظيمة في نفسي ، نفحةً

تتحدى الموت . انمو وأزهر كالشجر

شاعراً بجذور ارضية ذاهبة في الاعماق

تربطني بالتراب . ولكنْ معْ فروعها الذاهبة في الفضاء

ترتفع نفسي الى ملك النور والنهار

---

(١) العصر السلوري احد العصور الجولوجية في الحقبة الاولى (القديمة الحياة) يليه العصر الديفوني (الحجر الرملي) فالعصر الكربوني (٢) هدهدت الام الصبي حركته او غنت له لينام

عجائب الحل الطيفي

السبكترسكوب في معرفة بناء النجوم
وحركة الاجرام السموية

كان الفيلسوف الفرنسي اوغست كونت من اعلم اهل زمانهِ ، ولكنهُ مع ذلك قال ان العقل البشري لا بدَّ ان يبقى جاهلاً بعض الاشياء . وضرب على ذلك مثلاً ببناءِ الاجرام السموية من الناحية الكيمائية . فهذه المسألة كانت في نظر كونت وغيرهِ من علماءِ ذلك العصر ، من وراءِ مقدرة العقل البشري ، لانهم كانوا يجهلون حينئذٍ الوسيلة التي تفتح أمامهم ابواب هذا السرّ المغلق

ونحن اليوم ندرس بناء النجوم ، كما ندرس بناءَ الاجسام المادية في المعمل الكيمائي . والمفتاح الذي فتّح امامنا الابواب ، هو علم الحلّ الطيفي وآلتهُ ، مبيّنة الطيوف (السبكترسكوب) .

فما كاد العلماءُ يكتشفون السبكترسكوب ، حتى اصبح بناءُ الاجرام السموية امامهم كالكتاب المفتوح فيهِ عرفوا العناصر التي تدخل في بنائها ، وقد كشفوا حتى العهد الاخير ، نحو ستين عنصراً من العناصر الارضية في كتل النجوم ، ثم انهم اثبتوا بالحلّ الطيفي ان جوّ المريخ يحتوي على الاكسجين وان لا اثر لهُ في جوّ الزهرة . وبيّنوا بواسطة الخطوط المختلفة التي تظهر في طيوف النجوم والسدم ، ان الذرّات التي على الارض ، كائنة كذلك في بعد السدم وفي اذناب المذنبات وعلى سطوح النجوم البيض التي بلغت حماوتها درجة البياض وبذلك منحنا السبكترسكوب اقوى الادلة على وحدة الطبيعة

من نحو مائة سنة أمرَّ العلاّمة اسحق نيوتن شعاعةً من الضوءِ في موشور من الزجاج في غرفة مظلمة ، فرأى على الجدار المقابل الوان قوس قزح . فأفضى بهِ ذلك الى الاعتقاد بأن نور الشمس مركّب من أشعة مختلفة ، ولكن نيوتن ادخل شعاعة النور الى الغرفة المظلمة من ثقبٍ مستدير ، فكان شبح الشعاعة بعد اختراقها للموشور ونفوذها منهُ رقعة مستديرة من الضوءِ . ولو اتفق لهُ ان يدخل شعاعة النور من شقٍّ مستطيل ، لكان اكتشف علمَ الحل الطيفي حينئذٍ . وهذا ما فعله كرشوف وبنصن الالمانيان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

الى جوزف فرانهوفر يعود الفضل في اكتشاف اهم حقيقة علمية تتعلق بحل الطيف بعد اكتشاف نيوتن وهو ان نور الشمس مركّب من طوائف من الاشعة لكلٍّ لونها الخاص . ذلك ان فرانهوفر اكتشف ما يعرف بظاهرة «الخطوط السود او القاتمة» في الطيف . ومع انهُ توفي سنة ١٨٢٦ وهو في التاسعة والثلاثين من عمره ترك في هذا الاكتشاف اثراً في علمي الطبيعة والفلك لا يزول . كان ابن

خزّاف بافاريٍّ ، فتلقى عليهِ اصول الخزافة ثم تعلمَّ فن صقل الزجاج فأتقنهُ واشتهر فيهِ فاختير لمنصب في معهد بصري optical بمدينة مونيخ ، حيث انتخب عضواً في اكادمية العلوم وعيّن اميناً لمكتبتها في العلوم الطبيعية . هناك استنبط اساليب جديدة لصقل العدسات وقياسها ، وصنع زجاجاً خاصًّا يصلح للعدسات ، وتعلّم كيف يحسب اشكال العدسات المختلفة حساباً رياضيًّا دقيقاً

ولكن همهُ الاعظم كان متجهاً الى صنع عدسات (اكروماتيكية) اي لا يظهر في الاشعة التي تخترقها بقع ملوّنة ، وهذه البقع تنشأ اذا كان سطح العدسة غير محدَّب تحديباً تامًّا فتتكسر الامواج وتتفرّق فتنشأ ظاهرة البقع الملوّنة . ولكي يتمكن من تحقيق غرضهِ هذا ، درس طيوف انوار مختلفة. وكان ذات يوم يدرس طيف نور صادر من مصباح ، فاكتشف في الجزءِ الاصفر من الطيف خطًّا مزدوجاً . هذا الخط يعرف الآن بخطّ الصوديوم . وهو من اشهر خطوط الطيف لان رؤيتهُ سهلة . ولعلك ايها القارىء اذا زرت معملاً علميًّا في مدرسة وطلبت ان ترى سبكترسكوباً ، كان خط الصوديوم هذا اول ما ترى من خطوط الطيف . وامتدَّ بهِ البحث ، فاكتشف هذا الخط في طيوف انوار اخرى ، ولكن الخط كان دائماً في محل واحد من منطقة اللون الاصفر . ثم حلَّ نور الشمس ، فرأى مكان الخطين الاسودين في طيوف انوار المصابيح طائفة من الخطوط المتلازّة وبعضها اكثر قتاماً من البعض الآخر ، بل ان بعضها اسود . ثم فحص فرانهوفر نور النجوم فرأى في طيفهِ خطوطاً تشبه الخطوط التي رآها في طيف الشمس

فدعيت هذه الخطوط خطوط فرانهوفر . ولكن فرنهوفر مات قبل ان يدرك تعليلها ، وما لها من الشأن في ريادة السماء ومعرفة بناء النجوم والسدم وحركات الاجرام السموية

وتلا فرنهوفر في هذا الميدان عالمان المانيان هما روبرت وليم بنصن الكيماوي وغوستاف كرشوف الطبيعي . كانا حينئذٍ استاذين في جامعة هيدلبرج . وكان بنصن قد استنبط المصباح المعروف باسمهِ وكان هذان العالمان يبخران في لهيب هذا المصباح بعض العناصر الكيمائية ثم ينظران الى الوانها بالسبكترسكوب . وكانت هذه الآلة مركبة حينئذٍ من ثلاثة اجهزة اولها طريقة لجمع اشعة الضوء على موشور زجاجي ، ثم الموشور نفسهُ الذي يفرق النور الى الالوان المؤلف منها ثم تلسكوب صغير يجسّم الطيف حتى تستطاع رؤيته . وما لبثا حتى وفّقا الى اكتشاف اساسيّ في هذا الميدان ، وهو ان لكل عنصر خطوطاً لامعة في الطيف خاصة به

وفي يومٍ من ايام سنة ١٨٥٩ ، اكتشفا سرّ الفرق بين خطوط فرنهوفر — وهي خطوط قاتمة في الطيف — والخطوط التي كشفاها وهي خطوط لامعة . ذلك ان اشعلا مصباح بنصن ، وبخّرا في لهيبهِ عنصراً من العناصر ، وراقبا الطيف فوجدا الخطوط اللامعة الخاصة بهذا العنصر . ثم جاءا بنور قوي من مصدرٍ آخر وامرّاه في لهيب المصباح الذي بُخّر فيهِ ذلك العنصر ، قبل جمعه وتوجيهه الى الموشور . فلما راقبا الطيف وجدا ان الخطوط فيه قد اصبحت قاتمة . فأدرك

كرشوف في الحال تعليل ذلك وكان تعليله صحيحاً ايدته المباحث التالية : قال : — اللون الخاص الذي يولده العنصر في لهيب المصباح يعدّل في النور الوارد من مصدر آخر ، الامواج التي من طوله تماماً ، وكذلك يلغي الواحد الآخر ، فيزول اللون الذي كان يولّد في الطيف خطوطاً لامعة ، وكذلك تشهد خطوطاً قاتمة وقد حلّت محلّها

هذا الاكتشاف مهّد السبيل لتعليل خطوط فرنهوفر . كان العلماء قد عينوا مواقع مئات من الخطوط القاتمة — خطوط فرنهوفر — في طيف الشمس . ولكنهم لم يدركوا معنى هذه الخطوط الآ بعد اكتشاف بنصن وكرشوف الاخير ، وتعليل كرشوف له التعليل الصحيح . ذلك ان طبقة الشمس الخارجية Photosphere تطلق امواجاً مختلفة تقابل امواج الطيف المرئي ، ولكن هذه الامواج قبل ان تصل الى تلسكوباتنا وسبكترسكوباتنا يجب ان تمرّ في جوّ الشمس حيث توجد معظم العناصر في حالة غازية متألقة . وكما عدّل النور الصادر من جسم آخر لون اللهيب الخاص بعنصر معيّن في مصباح بنصن ، كذلك تفعل هذه العناصر المتألقة في جوّ الشمس ، بالامواج الصادرة من سطحها . فلذلك نرى خطوطاً سوداً او قاتمة في طيف الشمس . فاذا اتفق موضع خط من هذه الخطوط او موقع طائفة منها ، مع موقع خطّ (او طائفة) خاص بعنصر من العناصر عرفنا ان هذا العنصر موجود في جوّ الشمس . وكذلك نستطيع ان نعرف تركيب الشمس الكيماوي وهي على ٩٣ مليون ميل منا

***

وما كاد كرشوف وبنصن يكتشفان هذه الحقيقة حتى استعملت اداتهما في الكشف عن عنصري الكيزيوم والروبيديوم في المياه المعدنية التي تنبع في دوركيم . وتروى في هذا الصدد قصة كان كرشوف يحبّ ان يرويها قال : كانت المسألة المطروحة على بساط البحث ، هل تكشف خطوط فرنهوفر عن وجود الذهب في الشمس ؟ وكان صرّاف كرشوف يقول له وماذا يهمني ان كان الذهب موجوداً في الشمس ما زلتُ لا استطيع ان آتي به الى هنا . وبعيد ذلك نال كرشوف من احدى الجمعيات العلمية في انكلترا مدالية ذهبية ومبلغاً من المال . فذهب بها كرشوف الى صرّافهِ وقال له لقد افلحت في ان آتي لك بالذهب من الشمس

وتلا ذلك استنباط وسيلة ادق من الموشور للحلّ الطيفي . فكان استنباطها من نصيب رولند العالم الاميركي والاستاذ في جامعة جُنز هبكنز في العقد الاخير من القرن التاسع عشر . ذلك انهُ صنع آلة لتخطيط قطعة من الزجاج خطوطاً عديدة متلازة ويقال ان البوصة المربعة في النادر منها قد تحتوي على ٣٠ الفاً من هذه الخطوط (الانسكلوبيذيا البريطانية) . ومن يملك قطعة منها يحسب انهُ يملك كنزاً علميًّا لانها افضل ما عرف من وسائل العلم لحلّ نور الشمس الى الالوان التي يتركب منها . ثم قضى رولند بعد ذلك سنين عديدة في درس طيف الشمس ، فقال انهُ وجد في مناطق الالوان المختلفة نحو عشرين الف خط ، وان كل خط او كل طائفة منها تشير الى مادة معينة في كتلة

الشمس .فلما اتمّ رولند مباحثهُ ،كان قد كشف في الشمس عن ٣٦ عنصراً من العناصر الكيمائية المعروفة على الارض . وقد كشفت بعد وفاته عناصر اخرى ، لان العلماء صنعوا الواحاً فتوغرافية شديدة الاحساس ، تتأثر بالنور الذي تحت الاحمر ، وكذلك كشف العلماء عن نحو ستين عنصراً من العناصر الكيمائية في مادة الشمس

أما في النجوم فاننا لا نستطيع ان نشهد في طيف نورها التفصيلات التي نشهدها في طيف الشمس . ولكن السبكترسكوبات الكبيرة التي بنيت في العهد الاخير وأُلحقت بالمراصد الكبيرة كمرصد جبل ولسن ، قد كشفت عن عشرات من العناصر الكيميائية في مواد النجوم

ثم ان الخطوط التي تبدو في الطيف لاتكون مستقرة في مكانها ، اذا كان مصدر النور متحركاً بل هي تحيد الى الاحمر اذا كان الجسم مبتعداً عن المراقب ، او تحيد نحو البنفسجي اذا كان الجسم مقترباً منهُ . وعلى هذا الاساس استطاع الباحثون ان يكشفوا عن دور الشمس على محورها وسرعة هذا الدوران وكذلك دوران السيارات وسرعتهُ . وعرفوا ايضاً ان حلقات زحل ليستمادة جامدة بل مؤلفة من كريات صغيرة كل منها بمثابة سيّار صغير . وعليهِ بنيت ادق الحسابات لبعد الشمس عن الارض . ولما طبّق هذا المبدأ على النجوم ، عرفت حركة الشمس بالقياس اليها ، وقيست ابعاد مئات منها ، وكشف عن مئات من النجوم المزدوجة ، وعرفت كتلواقطار بعضها . ثم درست نتائج هذا الحيود ، فيما يرتبط بنور السدم التي خارج المجرّة ، فتبين ان معظمها يبتعد عنا بسرعة عظيمة — قدّرت سرعةابتعاد احد هذه السدم بـ ١٥ الف ميل في الثانية — وعلى هذا بنيت نظرية الكون الآخذ في التمدُّد او الاتساع Expanding universe ثم ان المباحث السبكترسكوبية بينت ان السدم نوعان او طائفتان . فطائفة مكوّنة من كتلٍ من الغاز المضيء او المتألق واما الطائفة الثانية فتطلق نوراً كنور النجوم فيرجح انها مجموعات من النجوم بعيدة عنا بعداً لا يمكننا من رؤية بعض نجومها الفردة

***

واذا كان هذا شأن السبكترسكوب فيعلم الفلك الحديث . فما هو اثره فيميادين العلم الاخرى؟ الكيماوي مدين للسبكترسكوب بالكشف عن عشرة من العناصر ، ولعلَّ اشهرها عنصر الهليوم الذي كشفه لكير في جوّ الشمس قبلما كشفه رمزيعلىالارض بنحو عشرين سنة . وانت تعلممقام الهليوم في المباحث العلمية النظرية ، كتركيب الذرّة وتحويل العناصر ، كما تدرك مقامهُ في الشؤون العلمية ، فهو الغاز الذيلا يصلح غاز مثله ، لملء اكياس البلونات ، لانهُ خفيف وغير قابل للالتهاب . ثم ان للسبكترسكوب شأناً ايَّ شأنٍ في علم الطبيعة النظري الذي يتناول الذرّة وبناءها وتحويلها وكشف العناصر التي توجد منها مقادير ضئيلة في ركازاتها

ولاثر السبكترسكوب في علمي الطبيعة والكيمياء حديث طويل نرجئه الى فرصة اخرى

استدراك على معجم الحيوان

— ٣ —

بقلم الدكتور معلوف باشا

قلت في المقتطف ٣٩ : ٣٤١ ما يأتي

الجَلكَى . الجَلكَا Petromyzum. E. Lamprey. F. Lamproie.

نوع من الاشلاق شبيه بالانكليس ذكره القزويني والدميري وصاحب محيط المحيط . قال الدميري: « الجلكى كَرَطَى نوع متولد بين الحية والسمك اذا ذبح لا يخرج منه دم وعظمه رخو يؤكل مع لحمه يسمّن النساء اذا أكل» . وزاد القزويني على ذلك في قوله انه نوع من الجرّي يشبه المارماهي . فهذا الوصف ينطبق على هذا النوع من السمك لا سيما قوله ان عظمه رخو اي غضروفي ولا اعرف سمكاً كالانكليس فيه هذه الصفة الاَّ هذا السمك والاسماك الاخرى التي من طائفة المواص (Cyclostomes) انتهى . وقد نقلت ذلك في معجم الحيوان ص ١٤٥ ببعض تصرّف اي غيرت الاسم العلمي وما جاء في معجم الحيوان هو الصواب . ثم ذكرت في مقتطف نوفمبر الماضي ص ٤٠٧ ان الاب أنستاس سمى هذا النوع من السمك شِلقاً وقد خطر لي الآن ان الاب العلامة وكاتب هذه السطور بحثا في نوع واحد من السمك فسماه الاب المحترم الشلق وسميته الجلكى او الجلكا كما تقدم والاسمان واحد لفظاً ومعنىً اي ان ما ورد في محيط الفيروزابادي وشرحه في مادة شلق ليس الاَّ ما ذكره القزويني والدميري في مادة جلكى او جلكا اي انهما ذكرا في هذه المادة الشلق عينه وانما بصورة اخرى فقد كتب العرب الفاظاً كثيرة بالجيم التي يضع لها العرب والفرس ثلاث نقط تحتها ويلفظونها كالشين او قريبة من الشين كما في شَوْل (چول وشَرْشَف چارشب وشوبق او شَوبك چُوْبه وشِشْم چَشْم وشاي چاي وشلبي چلبي . على ان هذا غير مطرد . فقد ورد في چنار جنار وصنار وفي چين صين وفي دارچيني وخارچيني دارصيني وخارصيني وهو بحث طويل لا محل له هنا . وانا اجهل الفارسية ولكنها الفاظ التقطها من كتب القوم وما اوردته يكفي لان نقول ان جلكا كما كتبها القزويني او جلكى كما كتبها الدميري هو الشلق عينه بجعل حرف الجيم شيناً اي اننا لو لفظنا جلكا او جلكى شلكا او شلكى اتضح لنا الامر

لا سيما ان القزويني والدميري لم يذكرا كلمة الشلق بل اكتفيا بكلمة جلكا او جلكى عوضاً عنها . بقي عليَّ ان اقول ان فريتغ قرأ كلمة جُلْكا بالضم وتابعهُ في ذلك الدكتور هرتمن اثاي مترجم عجائب المخلوقات وصاحب محيط المحيط والكلونل جاياكار مترجم الدميري والكلونل اسطيفنصن مترجم نزهة القلوب على ان الدميري جعل اللفظة جلكى وضبطها كَمَرَطَى كما تقدم ولا اعلم صحة ضبطها اهي جُلْكا بالضم او جَلَكَى بالفتح لكنني اعلم ان الجلكا او الجلكى هو الشلق عينه مكتوباً على صورة اخرى . ثم ان فريتغ والذين تقدم ذكرهم لم يترجموا الجلكا او الجلكى بل رسموها بحروف لاتينية ولم يتعرضوا لتحقيق امرها او ترجمتها ترجمة صحيحة . ولا اعلم هل لفظة شلق او جلكا يونانية الاصل او انها نشأت في سواحل بحر فارس فأخذها العرب والفرس وسموا بها هذا الحيوان عن اليونانية فقد اوردها ارسطو في كتاب النعوت غير مرة واللفظة اليونانية التي اوردها هي Selache بقي علينا ان نذكر ما جاء في شرح القاموس قال صاحب التاج ما نصه : الشِلْق بالكسر او ككتف سمكة صغيرة او على خلقة السمكة لها رجلات عند الذنب كرجلي الضفدع لا يدان لهـا تكون في انهار البصرة وقيل هي من سمك البحرين وليست بعربية او هي الانكليس من السمك وهو الجِرّي والجريث عن ابن الاعرابي . انتهى

وعلى ذلك تكون صحة ترجمة Lamprey, Lamproie شِلق وشَلِق وجَلَكَى وجُلْكا او الاستغناء عن الكلمتين الاخيرتين فكلمة واحدة صواب خير من عشر كلمات خطأ . فالمرجو اصلاح ذلك في المعاجم المقبلة . وذكر الأب انستاس لمن شاء ذلك وحذف الدميري والقزويني لانهما لم يخبرانا اسم هذا الحيوان العلمي ولم يخبرنا بهِ احد من الذين ترجموا القزويني والدميري ولا اخبرنا بهِ شازي فانهُ لم يترجم القزويني بل ترجم بضع عشرة صفحة منه بطلب ده ساسي ونشرت هـذه الصفحات التي ترجمها في الطبعة الثانية من كتاب الانيس المفيد فتحقيق الجلكى لكاتب هذه السطور دون غيره

وقلت في معجم الحيوان ص ٢٣٨ وما بعدها ما يأتي :—

دَوْلع الواحدة دَوْلعة . دُلاَّع الواحدة دُلاَّعة Strombidae

فصيلة من الحلزون الكبار لها اغطية عطرية تسمى الاظفار واظفار الطيب وفي السودان الظفر او ظفر العفريت تتبخر بهِ النساء . والدُلاَّع انواع كثيرة ثم ذكرت بعضها وهي من جنس يعرف عند العلماء باسم Strombus ونقلت عن فورسكال ان اسمهُ السرنباق بالعربية سمعها في البحر الاحمر وقلت ان الدمشقي ذكر السرنباق في بحر القلزم اي ان لفظة السرنباق قديمة بالعربية ولا بأس من ايراد عبارة فورسكال بتمامها وهى ما يأتي

سرنباق Strombus gallus. Strompak. Arab, Strombak

فالاسمان الاول والثاني هما الاسمان الجنسي والنوعي وقد اعتمدها استاذه ليناوس واضع التسمية

المثنوية . ولا يزال الاسمان المعتمدان في ايامنا . والثالث الاسم اليوناني وقد كتبهُ فورسكال باليونانية فحولتهُ الى احرف لاتينية لسهولة قراءتها . اما الاسم الرابع فكتبه بحروف لاتينية فابقيته على حاله واما الخامس فعربي وقد كتبه بحروف عربية . ولما كان الدمشقي قد ذكر السرنباق وهو اقدم من فورسكال كثيراً فلا شبهة في صحة اللفظة كما اوردها فورسكال ولاسيما ان كثيرين ذكروها بعدهُ مما لا حاجة الى ذكرهِ . ثم اليس من الغريب ان لفظة يونانية قديمة تكون شائعة في البحر الاحمر في زمن الدمشقي وفورسكال وتكون لفظة عربية مثلها شائعة كذلك وهل هذه اللفظة يونانية او نشأت في البحر الاحمر فنقلها اليونان عن العرب وعن سائر اهل سواحل البحر الاحمر كما نقلوا الفرخ واللاطيس والشلبا والبياض عن المصريين حقًّا انها مسألة تستحق النظر وعندي انهُ يتعذر ان يقال ان كلمة عربية هي يونانية الاصل فالقرش مثلاً سمك معروف في البحر الاحمر فهل نقدر ان نقول انهُ يوناني فلماذا لا نقول عكس ذلك اي ان اليونان اخذوه عن اهل البحر في الاماكن التي يكثر فيها هذا السمك وامثلة ذلك كثيرة . ثم انهُ ليس كل حيوان له اسم عند قدماء اليونان هو الحيوان الذي يسمى بالاسم عينه في ايامنا

وقلت في معجم الحيوان ص ٢١ ما يأتي : —

عنقريط (فورسكال) Argonauta argo. Paper nautilus

حيوان هلامي رأسي الارجل اي من طائفة الاخطبوط له صدفة رقيقة جدًّا

هي في نسخة فورسكال المطبوعة عنقريظ بالظاء المعجمة ولعلها خطأ مطبعي والصواب بالمهملة . ولا يخفى ان فورسكال توفي قبل نشر كتابه . وقد اخذها عنه فريتغ كما هي بالمعجمة ونقلها عنهُ البستاني في محيط المحيط وقال ضرب من السمك وصوابه ما ذكر . ولعل اللفظة تعريب الاصل اليوناني . انتهى

وما يأتي عبارة فورسكال بنصها

عنقريظ Argonauta argo. Arab Ankarit

اما الاسمان الاول والثاني فهما الاسم الجنسي والنوعي الذي يعرف به هذا الحيوان عند العلماء في ايامنا ولعلهما من اوضاع فورسكال او استاذه ليناوس كما تقدم لانهُ لا اسماء مثنوية قبل ليناوس وقد يكون الاول اي الاسم الجنسي معروفاً قبل ليناوس وهو اسم منحوت او تركيب مزجي من كلمتين معناهما ملاح السفينة كان يسمى به احد الملاحين الذين صحبوا ياسون في سفره المشهور فلا شبهة ان هذه اللفظة يونانية قديمة جدًّا فهل اللفظة العربيـة التي سمعها فورسكال تعريب اللفظة اليونانية فان كانت تعريباً اليس ذلك غريباً جدًّا اي يعرب اسم يوناني منحوت على هذه الصورة وان لم يكن تعريب الاسم اليوناني فهو اتفاق اغرب جدًّا

الحشمة والعري[1]

مقال يتضمن آراء اشهر الباحثين

للدكتور صبري جرجس

تدل المباحث التي قام بها العلماء في العهد الاخير على ان عاطفة الخجل ليست أصلية في الإنسان، ولكنها ثمرة من ثمار الحضارة، او بعبارة اخرى ظاهرة عقلية نشأت خلال التطور التدريجي للحياة الإنسانية. وهي موجودة إلى حد ما في الإنسان الذي يمارس العُرْي، ولكنها قوية ومميزة للانسان الذي يستعمل الملابس. وقد نمت عادة ارتداء الملابس وعاطفة الخجل جنباً الى جنب وكانتا ترميان الى غرض واحد دائماً. وقد قام علماء علم الأجناس بمباحث انتقادية عدة في هذا الموضوع، وأهمها المباحث التي قام بها هفلوك إليس وستراتز وكارل فون ستاينن

ويذكر هفلوك إليس عاملين للخجل: عاملاً حيوانيًّا وآخر اجتماعيًّا. والعامل الاول تناسلي بطبيعته وهو اقوى نموًّا في المرأة منهُ في الرجل، بل انهُ كان في بدء الامر مقتصراً عليها فقط وكان الغرض منهُ حماية أعضائها الخاصة من هجمات الرجل غير المرغوب فيها. وقد نستطيع ان نلاحظ عاطفة الخجل على هذه الصورة في بعض انواع الحيوان ايضاً

وهو يقول بان عاطفة الخجل التناسلي في انثى الحيوان ناشئة من انها تقصر علاقاتها التناسلية على اوقات خاصة فقط، وهي ايضاً علامة على عدم استعدادها لقبول الحب الاَّ في زمن بعينه. ونحن نرى ان الانثى من الكلاب حين تهيج فيها العاطفة الجنسية تلتمس الذكر وتسعى اليهِ، ولكنها لا تسمح له بالتزاوج الاَّ بعد شيء من الدلال والتظاهر بالامتناع والنفور. وبذلك نرى ان عاطفة الحشمة التناسلية في الانثى هي نتيجة لازمة لنشاط الرجل في العلاقات الجنسية ولهدوئها واستسلامها فيها. وهذا بدوره ناشيء من ان العاطفة الجنسية للانثى في الانسان وكل الانواع القريبة منهُ دورية اما هو فلا يحتاج الى اي رعاية خاصة من هذا القبيل

ويوجّه جروس النظر الى ان تلك الظاهرة البيولوجية والنفسية الهامة — الدلال —. تتوقف الى حد كبير على عاطفة الخجل. بل هي تنشأ من النزاع الداخلي بين الغريزة الجنسية وعاطفة الخجل

(١) معظم الحقائق المذكورة في هذا الفصل مقتبسة عن كتاب ايفان بلوخ « الحياة التناسلية في الزمن الحاضر وعلاقتها بالمدنية الحديثة » وكتاب اوجست فوريل « المسألة الجنسية »

كما ان هناك عاملاً اجتماعيًّا هامًّا في الشعور بالخجل هو الخوف من اثارة الاشمئزاز . ويجدر ان نذكر هنا نظرية لومبروزو (١) عن الاصل في عاطفة الخجل . فقد لاحظ لومبروزو على كثيرات من البغايا امتناعهنّ عن الكشف الطبي اثناء الحيض وهو يقول بان هذا هو الاصل في عاطفة الخجل عند المرأة البدائية الاولى : أي خوفها من اثارة الاشمئزاز في نفس الرجل

وقد قام ريشه بدراسات واسعة عن الاصل في هذه الاشمئزاز فوجد انهُ انطلاق رائحة خاصة تسبب الاشمئزاز والنفور عند كثير من الشعوب البدائية ، وهذا سبب تستُّر النساءِ عن غيرهنّ وخصوصاً عن افراد الجنس الثاني

على ان لعاطفة الخجل علاقة وثيقة بعادة ارتداء الملابس وخصوصاً في الاطوار المتأخرة للحضارة. وذكر كارل فون دن ستاينن في مشاهداته الخاصة عن قبائل البقارى التي تقطن في البرازيل الوسطى ما يأتي :

«لا يمكن ان اعتقد أن عاطفة الحياء التي لا تنعدم تماماً بين هؤلاءِ الهنود العراة عاطفة أولية في الانسان . وأنا مضطر الى الايمان بأن هذه العاطفة لم تبدأ في الظهور إلاَّ بعد ان اعتاد الانسان ستر بعض اجزاء جسده بالملابس ،وأن عُرْي المرأة بدأ يسترعي أنظار الغير حين عمد تعقيد الحياة الاجتماعية والاقتصادية على الزيادة من قيمة الفتاة القابلة للزواج . كما أني اعتقد أننا نزيد من صعوبة هذا التعليل كلما عزونا الى أنفسنا عاطفة من الحياة أقوى مما نملك فعلاً »

وفي مجتمع يحيا فيهِ كل انسان عارياً لا يكون العرْي الاَّ امراً طبيعيًّا لا يدعو الى الخجل ولا يثير الشهوة . بل إن الملابس القصيرة الشفافة التي ترتديها الراقصات في اوربا أقل تحشماً من عرْي المرأة الهمجية . وقد قال احد العلماء الطبيعيين في هذا الصدد ان الجسم الذي تستره الملابس أشد اثارة للعاطفة الجنسية من العرْي المطلق . وقال سنو إن مصاحبة المرأة الهمجية العارية اقل تنبيهاً للعاطفة الجنسية من مصاحبة المرأة الانيقة في « الصالونات » الحديثة . وقال ريد « ليس هناك ما هو اكثر تحشماً ولا اقل اثارة للشهوات من العرْي » . ومن البديهيّ ان هذه الحالة لا تكون صحيحة الاَّ إذا أصبح العُرْي عادة يمارسها الجميع . وقد حاول بعضهم ان يروض المتوحشين على استعمال الملابس بقصد الاحتشام فكانت النتيجة عكس ما أرادوا

والانسان يتعود سريعاً حالة العرْي كما لو كانت امراً طبيعيًّا . أما قبائل البقارى التي تمارس العُرْي المطلق فانها لا تولي «الاعضاء التناسلية» أي اهتمام خاص . وهي تتحدث عنها بعدم الاكتراث التام . ومن السخف أن نعدهم جَرَأة لهذا السبب . اما الكيس الذي يستعملهُ الرجل والفوطة مثلثة الاركان التي تستعملها المرأة فليس الغرض منهما ستر الاعضاء التناسلية ولكن يقصد بهما حماية هذه الاعضاء من عوامل الاذى الخارجية بقدر الامكان

ومن الهزل ان نعد هذه القطع الصغيرة ملابس بالمعنى الصحيح لانها لا تستطيع ان تخفي شيئاً.

(١) كتاب لومبروزو وفريرو « المرأة كجرمة وبغي »

وهي في الواقع وسيلة من وسائل التزين والفتنة ولا علاقة لها بالحشمة مطلقاً

وكذلك نستطيع أن نلاحظ بين بعض قبائل البرازيل الوسطى التي تتبع في حياتها نظام العصر الحجري، كل نتائج العُريْ المطلق، كما نستطيع أن ندرك أن العُريْ لا علاقة له بالشهوة كما نفهمها نحن فان العوامل الفسيولوجية لعاطفة الحياء ليست من القوة بحيث تؤدي الى ظهور هذه الظاهرة النفسية في هذه الصورة الواضحة

وقد قام ستراتز بدراسة ملابس المرأة في الاجناس المختلفة دراسة دقيقة ، وكان مما ذكرهُ عنها « ان الغرض الاول والوحيد من استعمال الملابس عند الانسان البدائي هو الزينة لاستر الجسد ». لان الرجل العاري لا يعرف الخجل بعكس الرجل الذي يستعمل الملابس . وهذا ينطبق على الانسان المتوحش والمتمدن سواء بسواء . بل ان الانسان لا يشعر بالخجل من اي مظهر من مظاهر العُريْ التي تقتضيها منهُ « الموضة » والدليل على ذلك موقفهُ من ملابس السهرة (الديكولتيه)

وتمدّنا دراسة تاريخ الملابس والموضة بالعوامل الهامة لفهم الاصل في عاطفة الحياء عند الانسان الحديث ولتقدير حدودها الطبيعية . هـذا فضلاً عن ان للملابس علاقة مباشرة بالحب كظاهرة نفسية . وقد قال هرمان في هذا المعنى « ما اعظم الأثر الذي يحدثهُ الحب في جميع درجاتهِ في الملابس ! وما اقوى ما تفصح الملابس عن الحب ! »

وقد اثبت وسترمارك وغيره من علماء الاجتماع أن الوشم وصبغ الجسم وغيرها ليستا الاَّ رموزاً للملابس لجأ اليها الانسان البدائي الاول . وقد قال بلوس بارتل في هذا الصدد « لا يمكن أن اشك في ان الوشم عند الانسان الاول كان يرمي الى غرض آخر غير ستر عريهِ ». وكذلك قال جوزيت وهو اكبر الثقاة في الوشم: «كلما قلّـل الرجل من ملابسه زاد في وشم جسده وكلما زاد منها قلل من وشمه»

وللوشم غرض آخر هو التزين والفتنة وتنبيه العاطفة الجنسية . وقد استعمل الوشم في اغراض اخرى طبية او سياسية او اجتماعية (للتفريق بين الطبقات مثلاً) ولـكنهُ كان مع ذلك عاملاً من عوامل الفتنة التناسلية . وليس أدل على هذه الناحية من ان فتيات بعض الاقوام الهمجية يعتدنَ وشم الاعضاء الخاصة . وقد يحسب الناظر لاول وهلة انهنَّ يسترنها بفوطة خاصة وذلك لقرب الشبه بينها وبين الوشم . كما ان بعض هذه الاقوام تقوم بعملية الوشم عند بدء ظهور الحيض . ولا يصح ان نغفل أثر اللون في الوشم . فان العلاقة بين اللون والعاطفة الجنسية وثيقة (لانج)

ويظهر ان الوشم كنبه تناسلي بدأ ينتشر انتشاراً واسعاً بين الطبقات العالية في المجتمع الباريسي رجالاً ونساءً على السواء . ويرسم الوشم على اشكال مختلفة ولـكن يضيق بنا المقام عن احصائها

نرى من ذلك ان الغرض الاول من الملابس لم يكن ستر الجسد وانما كان التزين . اما استعمال الملابس بغرض الستر فقد نشأ فيما بعد ، حين اكتسبت منطقة الاعضاء التناسلية شيئاً من الرهبة والاحترام.. حينئذٍ فقط بدأ الانسان يخفيها حتى يقي غيره شرّها او حتى يقيها شرّ نظرات الناس

وقد تقدم بعض الباحثين بنظرية جديدة يقولون فيها ان استعمال الملابس انما نشأ عن غيرة الرجل الاول . ويستدلون على ذلك بأن المرأة المتزوجة عند بعض الاقوام الهمجية يحتم عليها ارتداء الملابس بينما تمضي الفتاة غير المتزوجة عارية تماماً . وذلك لان المرأة بعد زواجها تصبح جزءًا من متاع الرجل . فلما امتدت فكرة الامتلاك حتى شملت العلاقة بين الاب وابنته غير المتزوجة اضطرت الاخيرة الى استعمال الملابس أيضاً . ومن هنا نشأت فكرة العفاف وعاطفة الحشمة التناسلية

والامثلة كثيرة على ان ستر الاعضاء التناسلية في اول الامر لم يكن ناشئاً عن الشعور بالخجل او الحشمة ، وانما كان — الى جانب اعتباره من وسائل التزين — منبهاً تناسليًّا هامًّا . وقد استعملت كل انواع التزين للفت النظر الى منطقة الاعضاء التناسلية والعجزين . وكانت محاولة سترها تنبه الشهوة اكثر من العُرْي التام . وهذه ظاهرة نشاهدها كل يوم في حياتنا المتحضرة اليوم

ويقول فاري ان وسائل الانسان في الاستمتاع تفوق وسائل الحيوان كثيراً ، لأن الحيوان لا يعرف التزين المتصنع ، اما في الانسان فان هذا الستر الشفاف الناقص الذي تدعي به المرأة اخفاء محاسنها انما يعمل في الواقع على كشفها وعلى اثارة الشهوة في نفس الرجل الى غير حد « فكلما قلّ ما يراه الرجل من جسم المرأة زاد ما يصوره له خياله عنه» وليس العُرْي التام المطلق هو الذي ينبه العواطف التناسلية عند الانسان ولكنه « العُرْي الناقص » الذي يمارسه في حياته الآن . ويقول وستر مارك في هذا الصدد ما يأتي « لدينا أمثلة كثيرة على الشعوب التي تمارس العُرْي التام ولكنها تستعمل بعض الملابس احياناً . وهذه الملابس لا تُرتدى الا لغرض التزين والفتنة فقط ، حتى ان في بعض هذه الشعوب يقتصر استعمال الملابس على العاهرات اللواتي يقصدنَ بها تنبيه العاطفة الجنسية عند الرجال . ونحن نعلم انه في بعض شعوب افريقيا الوسطى تمضي النساء المتزوجات عاريات تماماً بينما تستر الفتيات غير المتزوجات انفسهنّ بالملابس (تنبيهاً للرجل الى الزواج)»

ولعلّ في دلالة الملابس كمنبه تناسلي عند الاقوام البدائية ما يظهر ما لها من الشأن في «الموضة» عند الشعوب المتمدنة . لانهم يتوسلون بها الى تنبيه الشعور الجنسي عند الرجل تنبيهاً قويًّا وذلك بالاستعانة بها على اظهار بعض المحاسن واخفاء بعض العيوب . وقد استغلّ موسى هذا التأثير النفسي للملابس في زيادة الانسال بين قومه ، فأمرهم باستعمال الملابس لاخفاء محاسن المرأة « حتى تنتبه عواطف الرجال ويزيد الانسال» وقد اُعترض على العُرْي بحجة انه أمر غير لائق ، ثم جاءت المسيحية فحرّمته بحجة خروجه على الآداب العامة . ونحن نستطيع ان نجد شبيهاً لهذا التغيير في الرأي في مئات الامثلة التي تزخر بها حياتنا العامة الآن

اما أقوى المنبهات الحسية فهي حالة « الاخفاء الجزئي » أو «العُرْي الناقص» : اي فن اظهار محاسن الجسد مع محاسن الثياب . ولعلّ هذا ايضاً من الأسباب الهامة في ظهور ما يسمى « التعشق الخيالي للثياب » وهو احد الامراض التناسلية النفسية

وأثر الملابس من هذا القبيل مزدوج : فهو اولاً اظهار بعض اجزاء الجسم بصورة قوية واضحة في شكل الملابس ومن قطعها ومن بعض ادوات التزين فيها . والثاني اخفاء بعض الاجزاء الاخرى

ثم ان تقسيم الملابس الى داخلية وخارجية له دلالة تناسلية هامة أيضاً . وقد كانت الزيادة في عدد قطع الملابس هي التي صبغت بالشهوة فكرة « ارتداء الملابس او خلعها » اي فكرة التجمل « والتواليت » . وقد اصطحبت هذه الفكرة بأخرى هي ان الخصر — وخصوصاً في المرأة — يفصل الجسم الى منطقتين : منطقة عليا مختصة بالقوى الذهنية ومنطقة سفلى مختصة بامور الجسد

وقد مهَّد هذا التميز والتقسيم في الملابس ميداناً خصباً تنشط فيه « الموضة » التي يرجع عهدها بالظهور الى القرون الوسطى . فالموضة اذن هي ثمرة من ثمار القرون الوسطى وأهم عواملها المميزة في ذلك الحين هو المشد «الكورسيه »

وقد ذكر ستراتز بهذا الصدد في كتابهِ الشائق «ملابس المرأة» ما يأتي : —

« قد يبدو غريباً ان يكون الاصل في ظهور الكورسيه عند المسيحيين هو عبادتهم لله ، ولكن هذه حقيقة لا سبيل الى الشك فيها . فان رجال الدين في ذلك العهد كانوا يتمتعون — على الاقل في الحياة العامة — بنفوذ واسع النطاق ؛ وكانت النظرة الادبية السائدة اذ ذاك تقضي بستر كل ما يمكن ستره من جسم المرأة وبقمع شهوات الجسد . وكانت تقضي على اي حال بتغطية الاعضاء المميزة للمرأة عن انظار الرجل الخاطئة . وكان الناس يعتقدون ان المرأة وقد ادخلت الخطيئة الى العالم يتعين عليها ان تخفي من أعضاء جسدها كل ما يمكن ان يدعو الى الخطيئة . وبينما نرى ان الرجل كان يحاول جهده في انماء صدره وفي الظهور بمظهر القوة والفتوة ، اذ نرى ان المرأة فيما بين القرن الثاني عشر والسادس عشر كان تعمل على ان يكون صدرها منبسطاً وضيقاً بقدر الامكان . وكانت تستعمل لهذا الغرض نوعاً اوليًّا من الكورسيه »

ومن الغريب ان الموضة استخدمت الكورسيه فيما بعد لعكس هذا الغرض تماماً : أي لاظهار الثديين وابرازهما بقدر الامكان . وقد كانت الموضة منتصرة دائماً على طول الخط في النزاع الذي قام بينها وبين النظرة الادبية في القرون الوسطى

وقد ذكرنا ان الكورسيه باظهاره الفرق واضحاً بين بروز النهدين ورشاقة الخصر قد عمل على زيادة ظهورهما . ثم جاء «الديكولتيه» فكشف عن الجزء الاعلى من الثديين . وهذا امر مشاهد في المراقص والحفلات ولكنه يدعو الى كثير من النقد . حتى ان رجلاً واسع الصدر كثير التسامح في نواح اخرى مثل هيرث اضطر ان يهاجمه بكثير من الشدة والعنف . علاوة على ان تلك الحفلات لا تخلو من الخمر عادة . والرجل تحت تأثير الخمر عرضة لان ينظر الى تلك المحاسن المكشوفة امامهُ نظرة ليست ادبية كلها

على ان للكورسيه — علاوة على الناحية الادبية — عيوباً اخرى تتصل بالصحة . فهو يعوق

التنفس الصحيح ويسبب فقر الدم ويضغط على الاعضاء الداخلية في التجويف البطني ضغطاً مؤذياً (وخصوصاً المعدة والكبد) ويسبب هبوط الكليتين والكبد وارتخاء البطن وقد يؤذي الثديين بالضغط عليهما فينتج عن ذلك ضمورهما واصابة الارضاع بعطل كبير . وهو فضلاً عن ذلك يفسد قوام المرأة افساداً كبيراً ويشوّه العمود الفقري وعظمتي الفخذ وهلمَّ جرًّا . اما فوائده المزعومة فكلها اوهام باطلة . ولن تعرف المرأة القوام الرشيق حتى تتحرر منه . وقد هاجمهُ عدد كبير من الاطباء المعروفين نذكر منهم فون كرافت ايبنج الذي قال عنهُ «انهُ اشد الاخطاء نكراً في ملابس المرأة» ومنج Menge الذي درس آثاره السيئة في المرأة دراسة عميقة وافية

وقد ظهر اثر الفوارق الجسدية بين الرجل والمرأة من ملابسهما . ولعل هذا الفرق اوضح ما يكون في طول ساق الرجل عن المرأة مما يجعله اسرع عدواً منها . ولما كانت ملابس الرجل تظهر سيقانه بشكل جلي فانها لا توافق المرأة وخصوصاً عند وقوفها . وهذا سبب هام من اسباب الخلاف بين ملابس الرجل والمرأة

كما ان ملابس الرجل تتميز عن ملابس المرأة ببساطتها وميلها الى التشابه . وهذا فيما اعتقد راجع الى تفوقه من الناحية الذهنية مما يغنيه عن الاستعانة بالملابس لاظهار شخصيته . وقد كانت المرأة في الزمن الماضي مخلوقاً تناسليًّا فحسب فاضطرت ان تستغلَّ الملابس لعدة اغراض : كوسيلة للفتنة والاستعاضة بها عن حياة النشاط التي كانت تنكرها عليها الطبيعة والتقاليد . أما الرجل فلم يفكر في استعمال الملابس كتنبه من هذا القبيل الاَّ في القليل النادر

ثم ان بين الملابس والحياة التناسلية علاقة اخرى مباشرة : هي اثر بعض مواد الثياب في الجلد . فان الملابس الصوفية والفراء مثلاً من المنبهات التناسلية . وقد شبه ريان أثرها في الجلد بالسياط . وللقطيفة اثر مماثل لهذا ايضاً . كما ان المنبهات الناتجة عن الشم لها أثرها في هذه الناحية . وقد كتب احدهم الى زوجته خطاباً يصف فيه شعور اللذة الذي ينبعث الى نفسه من دفن رأسه في فرائها واستنشاق رائحته . وهو يعزو سحر المرأة وسيادتها الى اثر الفراء فيها !

واذا كنا قد ذكرنا ان ملابس الرجل اقل خضوعاً لرق الموضة من ملابس المرأة فاننا نذكر الآن ان المرأة قد بدأت تنحو نحو البساطة وبدأت تتحرر من اغلال الموضة وتشاد على اساس الصحة والفائدة . ومما يستحق الذكر ان المرأة نفسها هي التي تقود هذه الحركة . وهذا دليل جديد على العلاقة الوثيقة بين الشخصية والملابس ، لاننا اذ نطبق هذه النظرية لا نرى في ميل المرأة نحو بساطة الملابس الاَّ أثراً منطقيًّا لتحررها . ونحن لن نجد مثالاً افضل لحرية الملابس ومطابقتها للبساطة وقواعد الصحة من ملابس المرأة اليابانية . على ان الموضة لا تزال كما كانت في الماضي هي صاحبة السلطان على الملابس النسائية ونحن نرى اثر ذلك كل عام في الاكتشافات الجديدة وفي وسائل التحسين والتجميل وفي طرق الاظهار والاخفاء وفي غيرها من الوان التحايل التي تدخلها عليها .

ولم يظهر لنهضة المرأة بعد سوى أثر واهٍ ضعيفٍ في سبيل تحرير ملابسها من رق الموضة

العلاقه بين عاطفة الحشمة والعري في الحضارة الحديثة : — رأينا كيف ان الموضة في مظاهرها المختلفة تعمل على اضعاف الشعور بالخجل . ولكن الملابس من ناحية أخرى هي السبب الوحيد في ظهور عاطفة الحشمة . فالحشمة لا تعرف الاّ الانسان الذي يستر جسده بالملابس وتنكر الانسان العاري كل الانكار . وهي ترفض الاعتراف بالآثار الخلقية والادبية للعري الطبيعي : فان هذه الحالة من وجهة نظرها نابية على الآداب باعثة على النفور والاشمئزاز . ونحن — الفريق المتحضر من الانسانية — يجب ان نعزو الى الحشمة السبب في ضياع مزاج العري الطبيعي من اذواقنا وكذلك السبب في ضياع عاطفة الخجل الطبيعية

فالعري الطبيعي — وهو الحالة التي يأتي بها الانسان الى هذا العالم — يخرج عن ان يكون موضعاً لتأمل الرجل ذي التفكير السليم الذي لا يرى في الجسم العاري شيئاً يخالف ما يراه في الجسم المغطى بالثياب . والناس المحتشمون يصرحون بهذا حين تتاح لهم الفرصة لرؤية مناظر العري في حالة طبيعية اثناء الاستحمام . ولا يصبح للعري أثر منبه للشهوة الاّ حين تدخله عمداً تلك العوامل الصناعية التي تؤثر في العاطفة الجنسية . فالحشمة اذن ليست الاّ نظرة خاصة ازاء العري تختبيء في طياتها الشهوة

ان اخفاء الامور الطبيعية هو الذي يبعث رغبة الانسان فيها ويهيج شوقه اليها . وقد بالغ الناس في هذا العصر في عاطفة الخجل الطبيعية وتشددوا في كبت نواح طبيعية من الاحساس والنشاط فأدى ذلك الى زيادة الرغبات الخبيثة زيادة كبيرة . وليس هذا في الواقع الاّ وقوداً جديداً يضاف الى نار الشهوات الجسدية أما شعور الخجل الطبيعي الاول فانهُ يضعف من الشهوة . واليهِ يرجع الفضل في السمو بالعاطفة الجنسية . وهو وثيق الارتباط بالامتناع الاختياري المؤقت الذي لا ينكر شأنهُ في حياة الانسان كما انهُ هذب الغريزة الجنسية دون ان ينكر مطالبها

والثقافة الكاملة تقتضي البراءة التامة . وهي تنكر كل الانكار عملاً كالذي اتاه ذلك القسيس المصاب « بمرض الشمة » حين هشم الاعضاء التناسلية لبعض التماثيل القائمة في متحف درسدن ، كما انها لا تجرد الروح الانسانية من الشعور الجنسي ولكنها ترى في العاطفة الجنسية امراً نبيلاً طبيعيًّا

ان الشعور بالخجل حادث مكتسب من الحضارة ولا يمكن تحويله : هو احترام الذات . ولكن هفلوك إليس يقول بحق ان احترام الذات في الانسان المثقف الراقي يقف حائلاً دون الغلوّ في شعور الخجل . لان المعرفة والثقافة تكبح الحشمة الزائفة . والانسان المتثقف يحاول ان يكون طبيعيًّا في كل شيءٍ ، وهو يرى في الحياة التناسلية جزءاً هامًّا لا يتجزأ من الحياة العامة : يرى شيئاً معقولاً لا ضرر منهُ ولا يجوز الاستخفاف بهِ كما لا يجوز الغلو في تقديره كما يفعل المنافقون في تقديرهم للحشمة

السيكلوجية الحديثة

التحليل النفساني

ليعقوب فام

فرويد

عقل فرويد خصب جداً في ابتداع النظريات ، يرسلها ارسالاً كلما وجد حاجة ماسة اليها ، وكلما وجد انها تتفق مع ما يقابله في علاجه من العقبات . انهُ لا يعنى كثيراً بتحقيق هذه النظريات وجمع الادلة عليها من الواقع او من التجارب في المعامل النفسية ، لا يفعل هذا لانهُ لا يؤمن بالسيكلوجية التجريبية كما قدمنا في مقال سابق ، ولا يفعله ايضاً لانهُ معنيٌّ بمعالجة الحالات التي تعرض له دون ان يهتم بالسيكلوجية نفسها كعلم قد ينفع وقد لا ينفع في شفاء الامراض ، وكل ما يهتم بهِ هو هل تنطبق النظرية على تلك الحالة المعينة بذاتها التي يعالجها في وقت معين او لا تنطبق ؟

قلنا في المقال السابق ان برور وفرويد وجدا صعوبات في تنويم المرضى منها انهُ يستعصي على بعضهم ومنها ان بعض من ينام منهم يصبح مفتوناً بالطبيب ، فحلَّ برور هذه المعضلة بان ترك هذا الضرب من العلاج تركاً باتاً ، واما فرويد فقد حلها بأن اغفل التنويم من طريقته في العلاج واستعاض عنهُ بشيءٍ يشبهُهُ قليلاً ويفضي الى النتيجة نفسها ، وهو ان يضع المريض في حالة بين بين ، بجلسة على مقعد مريح ، ويوحي اليهِ بالطمأنينة والثقة ، وانهُ حرٌّ في ان يقول ما يشاء من غير حاجة الى التردد او محاولة كبت بعض الخوالج النفسية ، وبعبارة اخرى استعمل فرويد طريقة تداعي الخواطر بدلاً من التنويم ، فوجد انها تنفع في الحالات التي كانت تستدعي التنويم

ونظريته في تداعي الخواطر «Association» هي انهُ لا بدَّ من ان تقود المريض الى الكشف عن علتهِ الاصلية وعمل الطبيب الذي يكون قد ألمَّ بعوارض المرض وعرف تاريخهُ وملازماته هو ان يترقب الخواطر التي تكون لها صلة مباشرة او غير مباشرة بالمرض ، وان يبحث فيما يقصُّهُ المريض علَّه يجد علاقة بينهُ وبين مرضه ، فيدله على هذه العلاقة ويفتح ذهنه ، ويعينه على ان يضع الاشياء في مواضعها الاصلية من غير مبالغة او مغالاة او اغراق ، والمرض النفسي هو في الواقع نوع من الاغراق والمبالغة في الاهتمام ببعض المشاعر والرغبات

ولكنهُ وجد ان بعض المرضى يغربل تلك الخواطر والمشاعر ويختار منها ما يصرح بهِ وما لا يصرح بهِ ، فيحكم عقله فيما يقول وفيما لا يقول ، فما كان من فرويد الا انهُ سارع ووضع نظرية المقاومة Resistance ليحل هذا الاشكال ، زاعماً ان في المريض شيئاً او قوة او ملكة او سمهِ كما شئت وهذا الشيء يدفعه لان يداري عن بعض المشاعر النفسية ويحتجزها في قرارة النفس كانهُ يبقي عليها ليوم آخر او لظرف آخر ، او كأنهُ لا يملك افشاءها لسبب من الاسباب يجهله هو نفسه في معظم الحالات

***

اخذ فرويد يبحث في هذا الشيء الذي يبقي على بعض الحقائق ويضن بها ان تعلن فيما بين الناس او فيما بين المريض ونفسه ، اخذ يتساءل عن السر في هذه المقاومة ، ولماذا يقاوم المريض اصلاً اذا كان الافشاء لا يقصد بهِ شيئاً سوى شفاء المريض ورده الى حالة الصحة والسلامة . ما الباعث على هذا ؟ وكل الامور تدل على انهُ من حق الطبيب ان يعلم ومن حق المريض لابل من واجبه ان يتكلم

ثم اخذ فرويد يجادل مرضاه ويقنعهم ان يذكروا له كل ما يعنّ لهم من غير ان يتخيروا شيئاً للكلام فيه وشيئاً للضن بهِ ، فكان من المرضى من يقول ان ما يحتجزه هو في الواقع شيء سخيف وتافه لا شأن له في الموضوع ، ومنهم من يقول صراحةً انهُ لا يفضل ان يتحدث فيما توارد على خاطره في تلك اللحظة لانهُ لا يقدم ولا يؤخر في العلاج ، ومنهم من كان لا يقول شيئاً ولكنهُ يتردد في الحديث ويبدو عليه هذا التردد وانهُ يجاهد نفسه في اخفاء شيء بذاته

ولكن ما هذا الذي يصر على التضليل بفرويد ؟ ليس هو المريض بالطبع لان المريض قد حضر ليتعالج وليس ليقاوم الطبيب ويسد عليهِ المنافذ ، لم يأتِ ليجاهد ويناهض ويرتأي الآراء فيما له شأن في العلاج وفيما ليس له ذلك الشأن . وانما اتى طائعاً مختاراً ليسلم نفسه للطبيب ويخضع لنصحهِ ومشورته ، حار فرويد في هذه الظاهرة زمناً ، واجترّها زمناً آخر ، واذا هو يتقدم للعالم ، ذات يوم ، بنظرية طريفة ، وهل يفعل فرويد شيئاً سوى ان يقدم للعالم نظرية لأية حالة معينة قد تقع بين يديهِ

ومحصل هذه النظرية انهُ قسم العقل الانساني ، او النفس الانسانية ، او الشخصية ، او سمها كما شئت الى قسمين قسم واعٍ شاعر بما يعمل ، وهو ما يحسه الانسان ويعمل بناءً على مشورته ، عارفاً في الوقت نفسهِ انهُ ينشط ويتصرف اجابة لداعي هذا القسم ، ثم سمى هذا القسم بالواعية Conscious ، وقسم آخر يشعر ايضاً بما يفعل ويريد ، ويعرف الدواعي لهذا الفعل وهذه الارادة ولكنه يخفي جميع هــذه عن الانسان نفسه ، ويخفيها ايضاً عن الواعية نفسها ويضن بها ان تعرف في اي حال من الاحوال . ومع ان هذا القسم مستور خفي ، لا يحسه احد ولا يشعر بوجوده

احد الاَّ انهُ يملك من الوسائل ما يجعله يستطيع ان يستخدم الواعية كيف يشاء ومتى اراد ، وهذا القسم اسماه العقل الباطن Unconscions ، والعقل الباطن هذا له اغراضه وغاياته التي يسعى الى تحقيقها ، وهو يحققها بجميع الوسائل المشروعة وغير المشروعة ثم يطلب الى الواعية لا بل يأمرها ان تسوّغ هذا التصرف امام الناس وأمام نفسها بأية طريقة تَراها منتحلة له من الاعذار ما يرضيها ويرضي الناس ، هذا شأنها الذي لا يتدخل فيه العقل الباطن ولا يعنى بهِ بحال من الاحوال

ولكن هل حقق فرويد نظريته هذه ؟ هل اجرى عليها التجارب العلمية المطلوبة ؟ هل اختبرها بشكل يقطع كل شك في صحتها ؟ هل يستطيع ان يجزم ان العقل الانساني ينقسم الى واعية ولا واعية ؟ لا بل هل يستطيع ان يجزم بأن العقل الانساني ينقسم اصلاً ، واذا انقسم فهلاَّ يفعل الاَّ بهذه الطريقة وبهذا الوضع ؟ وما هي التجارب العلمية التي اجراها حتى يتحقق من هذا الزعم ؟ اما فرويد فانهُ لم يجر تجارب اصلاً ، ولم يحاول ان يتحقق بوجه من الوجوه من صحة هذه النظرية لا بل نزعم انهُ لا يستطاع التحقق من صحتها بالوسائل السيكلوجية المعروفة لدينا في الوقت الحاضر ، وكل ما نعرفه عنها الآن انها قد تصدق وقد لا تصدق . وكل ما يقوله فرويد هو ان هذا هو الاساس الذي أسير عليه في علاجي ، وأرى انه يفيد ، وأرى انه معقول ، ثم ارى انهُ ينطبق على الحالات التي تعرض لي ، وتستطيع ان ترى صحة هــذه النظرية اذا ما دققت النظر في الحالات التي تعرض عليك

ولنسلّم جدلاً بأن هذه النظرية صائبة ، وانها هي الواقع والحق ، فماذا بعد ذلك ؟ ما هو السبب الذي يدعو الى المرض العصبي في هذه الحالة ؟ العقل الباطن يريد شيئاً فيفعله ، يسعى الى شيء فيحصل عليهِ ، ويطلق الواعية على الناس وعلى الانسان نفسه لتسوّغ هــذا التصرف او هذه الشهوة ، فأين العقدة في هذا اذن ؟ ولماذا تنشأ العقدة Psychoses or Complex اصلاً في هذا النظام ؟

***

عرضت هذه الاسئلة لفرويد كما عرضت لنا الآن . نحن نقف عندها حائرين ، واما هو فلا يحار لانه يحل هذه المعضلة بنظرية اخرى او بتعديل في نظريته الأصلية ، فقد قلنا ان عقل فرويد خصب في اختراع النظريات فبعد ان قسم العقل هذا التقسيم ، عاد فقسم النفس الى ثلاثة أقسام حتى يستطيع ان يوجد مجالاً للعقدة في المرض النفسي او العصبي ، لان العقدة في المرض العصبي كما لا يخفى هي معضلة لم يجد الانسان لها حلاً معقولاً يريح النفس ويجعلها تتفرغ لشئونها ، وانما هي موضع للنزاع العنيف بين بعض عناصر النفس

زعم فرويد ان العقدة تنشأ من ان النفس تنقسم الى ثلاثة أقسام ، اولها هو النفس النزوعة Id. او هي مكمن الرغبات والميول والشهوات ، هذا القسم أناني لا يسعى الاَّ لتحقيق شهواته واهوائه

انه شهوة مستعرة مستديمة ، تطلب شيئاً في كل حين ، وتنزع الى اطفاء غلتها في كل آن ، ليس عليها الاَّ ان تطلب وتلحف في الطلب . لا تفكر الاَّ في نفسها ، وفيما تستطيع ان تحققه لنفسها من المنافع واللذات ، هذا القسم هو في جوهره الرغبة والطلب والشهوة والهوى

وهنالك قسم آخر وهو الشخصية Ego ووظيفة هذا ان يصل فيما بين الانسان وبين الدنيا الخارجة عن ذاته objective التي تحيط بهِ ، بهذا القسم نتصل عن طريق الحواس بالاشياء والاشخاص والآراء ، وبهِ نتفاعل مع هـذه الاشياء والاشخاص والآراء ، بهِ نقوم بوظيفتنا في المجتمع ، يأخذنا الى الديوان ، ويقابلنا بالرئيس ويجعلنا نفهم ما يطلبه منا الرئيس ، ويحرص على ان لا نغضب هذا الرئيس ، او نغضب غيره من ذوي النفوذ والسلطان ، ثم بهِ نؤدي ما يطلب منا في الديوان وفي غيره ، ثم يعود بنا الى المنزل حيث نستريح ونستمتع بالحياة

***

لو سكت فرويد عند هذين القسمين لما استطاع ان يحل المعضلة التي اعترضتنا ، لاننا لو سلمنا جدلاً بصحة هذا التقسيم لما استطعنا ان نرى سبباً للامراض العصبية تنشأ في النفس وتصيبها فتعطلها عن ان تؤدي وظيفتها ، فاننا نستطيع ان نرى انه من الميسور جدًّا ان يكون في النفس قسمان مثل هذين ومع ذلك تعيش بمنجاة عن الامراض العصبية ، تستطيع الشهوة ان تتحقق، وتنال ما تريد من اللذات المحللة والمحرمة ، وتستطيع الشخصية ان تقوم بوظيفتها من ايصال الانسان بالعالم الذي يحيط بهِ في نفس الوقت ، يستطيع كل من هذين القسمين ان يقوم بوظيفته من دون ان يعطل الآخر ومن دون ان يكون ثمة حاجة الى عقدة تنشأ في نفس الانسان ، وبعبارة اخرى لا يستطيع هذا التقسيم ان يعطي سبباً معقولاً للمرض النفسي

وهنا يأتي القسم الثالث من النفس الانسانية حسبما يراها فرويد ، ذلك القسم عجيب حقًّا لانه لا يمكن التحقق من وجوده بأي طريقة علمية فيما نرى . لقد اقترحه فرويد وعلى العالم العلمي ان يقبله او يرفضهُ من غير سؤال او جواب شأننا في معظم ما يتقدم بهِ فرويد . هذا القسم يحل الاشكال في رأي مدرسة التحليل النفساني ، ثم ان هـذه المدرسة تزعم ان له وجوداً فعليًّا في الواقع ، اما كيف نتثبت من صحة هذه المزاعم ، كيف نثبت وجوده من غير ان يتسرب الى منطقنا الشك فهذا لا يعني تلك المدرسة على الاطلاق . لقد قالت انه موجود ، وقالت ايضاً انهُ ينطبق على جميع الحالات التي تعرض لاطباء هذه المدرسة وكفى ، ليس لهم شأن بالشكوك التي تساورنا من جميع النواحي ، ذلك لان السيكلوجية الاكاديمية سيكلوجية ترتاب وتشك في كل شيء ما لم تصدمها الحقائق صدماً عنيفاً ، وما لم يتعذَّر عليها الشك بوجهٍ من الوجوه، ثم يجب ان لا ننسى ان فرويد ومدرسته لا تقيم وزناً للسيكلوجية الاكاديمية اصلاً ، فماذا عليها ان تشك هذه المدرسة او تنكر !

سار فرويد ومدرسته لايلويان على شيء ، ولا يقيمان وزناً لتلك الاعتبارات، فرضا وجود هذا القسم فرضاً ، وسمياه النفس العليا Super—ego ، وهو شيء اشبه بالضمير في اللغة السائدة ، له مثله العليا وهي النفس الانسانية في اعلى مراتبها ، او هو الانسان كما يجب ان يكون ، ليس كما هو الآن في الواقع ، هذا الشيء خاص بالانسان دون جميع الخلائق ، هو عبارة عن المثل الاعلى ، وأقرب تشبيه له هو نظام الاشكال عند افلاطون او كانط Kant's Cotegorical Imperative ، وهذا نرثهُ فيما نرث من آبائنا وجدودنا ، ولكنه ينمو فينا من الطفولة على ممرّ الزمن بشكل من الاشكال ولكن مبادئه والمقاييس الاخلاقية عنده لا تتغير كثيراً ولا قليلاً

* * *

ولنعد الآن الى العقدة او المرض العصبي كيف ينشأ فنقول ان العقدة تنشأ من نشاط هذه الثلاثة الاقسام في النفس الانسانية ، بشرط ان يكون نشاطها في وجهات متضادة ، ويزعم فرويد ان هذا هو الحال مع كل انسان في الوجود عاقلاً كان او مجنوناً ، مريضاً او سليماً ، فهو يقول في هذا الصدد « مرضاي هم الانسانية كلها » فلكل منا في رأيه عقدة نفسية ، او كل انسان مريض في جانب من جوانب النفس ، والانسان العادي السليم خرافة من الخرافات لا وجود له ولا أثر . بالطبع تختلف درجات الصحة والمرض باختلاف افراد الناس ، ولكن كل الناس مرضى على اي حال

وينشأ المرض بهذه الطريقة : — يريد الجزء النزوع منا Id امراً وليكن كبيرة من الكبائر ويلحف في هذه النزعة وتلك الارادة الحافاً شديداً حتى لا تجد راحة او هناءة الا في اجابته الى مطلبه، فتحاول الشخصية الواعية Ego اجابتها الى هذا المطلب فلا بد وان تصطدم باحدى عقبتين ، قد تصطدم اولاً بالاوضاع الانسانية ، او بالشخصيات الانسانية الاخرى ، فترى ان تحقيق هذه الشهوة متعذر لسبب من الاسباب ، فتعود عليها (على ال Id) فتخاصمها وتقاومها ، وتستعر بينهما الحرب الى درجة تصيب الانسان بالمرض العصبي

او قد لا تجد من الدنيا الموضوعية Objective World مقاومة في تحقيق نزعة النفس هذه ولكنها تجد هذه المقاومة من النفس العليا فيشتجر الخلاف بينهما وتمرض النفس ، فكأن المرض ينشأ من ان النزعة والنفس العليا تغفلان الواقع كل الاغفال ولا تهتمان الا بنفسيهما ، احداهما تريد الشر والاخرى تريد الخير بغض النظر عما تستطيع الشخصية تحقيقه من هذا او من ذاك . ان مطلب هاتين النفسين مطلب خيالي لايمت الى الحياة الواقعية بسبب، وما على الجزء العملي فينا او Ego الا ان يشقى بهذه المطالب الخيالية

والنتيجة ان بكل انسان في الدنيا مسًّا من الجنون . اما فرويد فيقبل هذا الحكم واما نحن فنرفضه

وحدة العمر

لحسن كامل الصيرفي

تعالَ فقد عرفتُ حدودَ نفسي وأدركتُ السعادةَ ملءَ كأسي
تعالَ إليَّ واملأ رحبَ حِسّي فإني اليومَ لستُ خيالَ أمسِ !

***

تعالَ فهذهِ الدنيا حيالي رسومٌ لم تجمَّلْ بالظلالِ
وأنتَ ملاذُ أطيارِ الخيالِ وأنتَ لريشتي اسمى مِثالِ !

***

تعالَ فقد تحطَّمت الكؤوسُ ومالت من تفاعُلِها الرؤوسُ
وتاهت في ضلالتها النفوسُ تعالَ إليَّ تتبعكَ الشموسُ !

***

تعالَ إليَّ يتبعكَ الشروقُ وتلمعُ من خواطركَ البروقُ
فقد سكرَ الظلامُ فما يفيقُ وطال على مناجيكَ الطريقُ !

***

تعالَ ، تعالَ أسمِعني غناءَكْ ! تعالَ ، تعالَ صوِّرْ لي سماءَكْ !
تعالَ ، تعالَ أشربني ضياءَكْ فإني اليومَ ظمآنٌ ازاءَكْ !

***

تعالَ فحيرتي اخذتْ تُولّي ! تعالَ فرغبتي بدأت تصلّي
وتنزعُ عن تساميها التدلّي ! تعالَ فأنت اسرارُ التجلّي !

***

تعالَ ، تعالَ طهِّرْني بناركَ وأهلني لأمزجَ في سواركْ
تعالَ إليَّ طهِّرني وباركْ فؤاداً ظلَّ يفنى في جواركْ

***

تعالَ فأنقذِ الإيمانَ ممّا يحاول أن يحيلَ الطهرَ إثما
ويمعنُ في اجتذاب النفس رغما فما أقسى الحياة تفيض لؤما !

تعالَ فهذهِ كأسُ الليالي يحومُ على حفافيها خيالي
وتلمسها يدٌ تدري مآلي فتُقصيني ، وأيُّ يدٍ أبالي !

***

تعالَ فهذهِ اليدُ كم أشارتْ وحامت في الظلام وما توارتْ
وأزعجتِ النفوسَ وما استثارتْ يداً أقوى تحطمها ، فجارت ...!

***

يدُ الأقدار تزعجني دواما وتشهرُ في سكينتيَ السهاما
وتملأ رحْبَ إحساسي زحاما تعالَ نحوّل الدنيا سلاما !

***

سأترمُ كُوّتي وأظلُّ أرنو الى الأفْق البعيدِ وأنتَ تدنو
ونورُ الفجرِ يغمرني ويحنو عليَّ صباحهُ وسناكَ يدنو

***

ستسمع أنت أمواج الاغاني تردّدها مزاميرُ الزمانِ
وتخلدُ في الصدى والصوت فانِ فهل لك ان تخلّدَ لي كياني ؟!

***

ستختلف الحياةُ امام عيني تمرُّ طيوفُها وتغيب عني
وتفنى في محيطٍ من تمنّي وأحلامٍ تلوحُ بكلّ لونِ

***

وما أنا غير طيفٍ من رؤاها تأخّرَ حينُهُ حتى يراها
ويعرفُ ضعفها ومدى قواها وتفرحهُ وتبكيه مُناها

***

تعالَ فربما جاوزتُ داري فتجذبني الحياةُ الى قراري
فأمشي بين أضواءِ النهار الى ليلي ويهزأ بي انتظاري

***

تعالَ وفيَّ أحلامٌ ورُوحُ ! تعال وفيَّ أطيافٌ تروحُ !
تعالَ وفيَّ أضواءٌ تلوحُ ! تعالَ وفيَّ أعطارٌ تفوحُ !

***

تعالَ فقد بلغتُ حدودَ نفسي وأطمعُ أن أحقق طيفَ حدْسي
فهل لك أن تذيب ثلوج يأسي وتمزجَ حاضري بغدي وأمسي ؟

الالتزام العلاجي القروي

اجمال وتعليق

للدكتور كامل هلال

شاهد الطبيب النابه الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك — استاذ علم الطفيليات في كلية الطب المصرية ومدير معهد الابحاث ومستشفى الامراض المتوطنة بمصلحة الصحة العمومية وسكرتير الجمعية الطبية المصرية — بؤس السواد الاعظم من سكان الريف المصري وتفشي الامراض المتوطنة والوافدة بينهم وعجزهم عن اسعاف انفسهم بالتداوي الفني الصحيح لشدة إعسارهم مع ان الاطباء القانونيين متوفرون في البلاد وكثيرٌ منهم في أشد الحاجة الى مرضى يؤاسونهم ويكسبون عيشهم من مهنتهم التي توفروا على دراستها فوضع مشروعاً تقوم الحكومة بمقتضاه بعمل الوسيط بين هذا الجمهور المحتاج من المرضى واولئك الاطباء المستعدين لخدمته فتستفيد الجهتان وتُسعد البلاد

وهذا العمل لا يعدُّ بدعة في الحكومة المصرية . اليست هي التي تقوم بجميع شؤون الري والصرف في جميع جهات القطر ، وكذلك بتوفير سبل المواصلات على انواعها . اليست الحكومة هي التي تقوم بالتعليم العام على مختلف درجاته . اليس لها في الاعمال الصحية القدح المعلى فها مستشفياتها العديدة من ثابتة ومتنقلة يتوفر فيها العلاج لمئات الالوف من المرضى . ومشروع الدكتور عبد الخالق بك هذا الذي دعاه « الالتزام العلاجي القروي » ليس الاَّ صفحة جديدة تضاف الى سجل كبير من الاعمال المجيدة من الخدم الصحية العامة وتكون متممة له

ويلخص هذا المشروع بأن تعين الحكومة لكل عشرة آلاف من القرويين الذين يملك احدهم اقل من عشرين فداناً من الارض او يدفع ضريبة اقل من عشرين جنيهاً في السنة طبيباً واحداً يعيش في وسطهم ويقوم بتطبيبهم واسعافهم وصرف العلاج مجاناً لهم ويحفظ في عيادته سجلاً لكل مريض منهم ويبلغ عن امراضهم السارية ويحرر شهادة الوفاة للمتوفين منهم . وتمهيداً لتنفيذ المشروع يوضع احصاء للاشخاص الذين سوف يشملهم ويعطى كل فرد منهم وثيقة تضع في شكل قرص نحاسي ينقش عليه رقم خاص للشخص ولبلدته ومركزه يعلق في عنقه حرصاً عليه من الضياع والتلف

فيبرزه عند كل زيارة للطبيب الذي عليه ان يرجع اليهِ عند تحرير شهادة وفاة صاحبه . ويحفظ الطبيب بطاقة خاصة لكل فرد من سكان منطقته الذين يلتزم علاجهم يثبت عليها ارقام ذلك الفرد الخاصة وفقاً لوثيقته ويدوّن فيها الطبيب تاريخ الفرد المرَضيّ . وقد ترك على سبيل الاحتياط الحرية لكل فرد ان يختار طبيبه لمدة أربعة أشهر على الاقل من بين الاطباء المجاورين لمنطقته مراعياً أن لايزيد عدد زُبُن كل طبيب عن ١٥٠٠٠ نفس حتى لا يرهق ولا ينقص عن ٥٠٠٠ حتى لا يزهد

***

والحكمة في هذا الاختيار هي اولاً للاستدلال من جانب اولياء الامر على حسن قيام الطبيب بواجبه من شدة اقبال المرضى عليه وبالعكس في حالة انصراف المرضى عنهُ وثانياً لترك المنبه الطبيعي وهو حب الكسب والفائدة يعمل عمله لانه كلما كثر عدد المرضى زادت فائدة الطبيب المادية كما سترى بعدئذٍ

وقد قدّر صاحب المشروع عدد الاشخاص الذين يشملهم هذا المشروع بنحو ١١٫٥٠٠٫٠٠٠ يحتاجون الى ١١٥٠ طبيباً وهو عدد متوافر في البلاد . وان عدد المرضى الجدد الذين سيتولى كل طبيب فحصهم يوميًّا ما بين ٣٠ و ٦٠ مريضاً

ويرى المقترِح ان ايراداً شهريًّا في نحو الخمسة والعشرين جنيهاً مصريًّا لكل طبيب وخصوصاً للاطباء المبتدئين يكون مكافأة عادلة وبالطبع سيدفع من اصلها اجر سكنه وعيادته واجرة خادمه ووسائل انتقاله التي لا ينتظر ان تبلغ اكثر من ربع المبلغ . وهذه المكافأة تدفع للطبيب من جانب الحكومة بمعدل قرش ونصف عن كل فرد يحفظ بطاقته في عيادته مرض او لم يمرض . ومن جانب الافراد بمعدل خمسة مليمات عن كل استشارة طبية وعشرة غروش عن كل زيارة بيتية نهاراً وضعفها ليلاً . والحكمة في فرض جعل على المريض عن كل مراجعة هو كي لا يرهق الافراد الطبيب ويسرفون في العلاج سواء اكانوا في حاجة اليهِ ام لم يكونوا . فجعل هذا الرسم التافه الذي لا يعسر اي فرد عن تداركه تأميناً لعدم سوء استعمال المرضى لهذا الحق

وقد نصّ المشروع على ان الحكومة تجهز عيادة كل طبيب بلوازمها الضرورية وتلفون حكومي وتمده بما يلزم من الادوية الجاهزة للصرف كما هي الحال في العيادات الخارجية في المستشفيات تصرف للمريض باناءٍ يتداركه هو من عنده

وقد ترك المشروع الحرية للطبيب في أن يعالج من يشاء من غير افراد العلاج الالتزامي مقابل اجر يتقاضاه منهم باختياره . وهو كذلك مخيرٌ في تحويل اي مريض من زُبُنهِ الى اقرب مستشفى اذا وجد ان تداويه في عيادته غير ممكن على الوجه الاكمل اما لنقص في ادويته او لحاجة المريض الى عملية جراحية او خدمة خاصة غير متوفرة لديهِ

ولضمان حسن سير العمل يرى حضرته ان اطباء الصحة يجب ان يقصروا همهم وكل وقتهم على اعمالهم الصحية حتى لا يكونوا مزاحمين لاطباء الالتزام وانما يكونون مراقبين لهم كما وانه يرى لزوم تعيين نحو ٢٣ طبيباً مفتشاً يقومون بالتفتيش الدقيق على اعمال اطباء الالتزام . كما ان المشروع هذا لايتعرض لاعمال المستشفيات المركزية التي أنشئت او التي ستنشأ تكميلاً للبرنامج الموضوع بل يرى انها لازمة لتكون الملجأ الاخير للمريض الذي لم يمكن تداويه عند طبيب الالتزام كما بيّنا أعلاه

اما نفقات هذا المشروع فيقدرها كما يلي :

مكافأة اطباء الالتزام وعددهم ١١٥٠	١٧٢ ٥٠٠	جنيه سنويًّا
قيمة ادوية ومرتب عشرة صيادلة لتحضيرها	١٠٠ ٠٠٠	»
مكافأة اطباء صحة المراكز نظير انقطاعهم عن العمل لحسابهم	٠١٧ ٠٨٨	»
مفتشون للمشروع عددهم ٢٣ مفتشاً	٠١١ ٥٤٠	»
تجهيز عيادات الاطباء بالادوات الكتابية ولوازم التبريد والتليفون	٠٣٤ ٥٠٠	»
الادارة المركزية من مدير ووكيل وكتبة اداريون	٠٠٣ ٠٠٠	»
ادوات واحتياطي ونفقات انتقال وبدل سفر الخ	٠٠٩ ٣٧٢	»
	٣٤٧ ٥٠٠	

وهذا المبلغ يوازي نحو سبعة بالمائة من المال المربوط على عموم الاطيان في القطر المصري يجوز توزيعها بين مصلحة الصحة ومجالس المديريات وضريبة اضافية على الاطيان لا تزيد عن ثلثة بالمائة التي ينتظر ان يدفعها المموّلون عن طيبة خاطر لما سينالون من الفائدة من هذا المشروع . نعم ان صاحب الثروة التي تزيد عن العشرين فداناً سيدفع الضريبة للمشروع من غير ان يستفيد منهُ بنفسهِ ولكن عماله ومستخدميه سيستفيدون فيزداد انتاجهم فيعوّض هو ما دفعه اضعافاً

ومع ان هذا المشروع جميل المبنى واضح المعالم قريب التناول ينم على ما تحلت بهِ نفس واضعه من مزية الانشاء والابتكار وما اتصف به من التدقيق والبحث العلمي فقد قامت ضده اعتراضات عديدة نلخصها بما يلي

(١) — ان هذا المشروع هو بمثابة وضع سقف البناء الصحي قبل اساسه والمقصود بالاساس هو اصلاح القرية وتوفير مياه الشرب النقية والتخلص من الفضلات بصورة فنية

(٢) — ان برنامج الحكومة لتعميم المستشفيات الحكومية المركزية عند اكماله يغني عن مشروع الالتزام هذا ولذلك فما ينتظر انفاقه على هذا يجب ان ينفق في تتميم انشاء المستشفيات

(٣) — ان اطبـاء الالتزام سوف لا يجدون منازل في وسط كثيرٍ من القرى تناسب اقامتهم فيها

(٤)—ان مشروع الالتزام سيفرض الطبيب فرضاً على مرضاه ويحد من حريتهم بينما مشروع التأمين الطبي التعاوني المعمول بهِ في بعض الاوساط يفضل عليهِ فيجدر بالحكومة تعميم هذا التدبير الاخير واراحة نفسها من فرض ضرائب جديدة

(٥) — ان احتياج المشروع الى عدد كبير من الاطباء ١١٥٠ دفعة واحدة سوف لا يخلو من صعوبة باختيارهم من بين الاكفاء وربما يؤول ذلك الى تسرب عدد من غير الاكفاء اليهم ، وفرض الاعتماد عليهم على اناس قلما يستطيعون تمييز كفاءتهم

(٦) — ان دفع الخمسة المليمات عند كل استشارة سوف يمنع كثيرين من المرضى من الاستفادة من المشروع فتضيع الغاية التي وضع لاجلها

(٧) — ان قبول الطبيب خمسة مليمات ثمناً لاستشارتهِ فيهِ تحقير للطب والطبيب

ولا يخفى عن القارىء اللبيب ان هذه الاعتراضات بجملتها لا تمنع من تنفيذ المشروع ولو تدريجيًّا ولا تحوي بينها سبباً جوهريًّا يوجب تأخيره او تأجيله فالسبب الاول لا يثبت عدم فائدة المشروع وانما يدل على ما يمكن ان يكون افضل او اكمل منهُ ولكن اذا تعذر الحصول على الافضل فلا بأس من الاكتفاء بما يليهِ فضلاً حتى ولو قدر لنا ان حصلنا على جميع الاصلاحات المذكورة وهي بلا جدال تعد كالمثل العليا في الانقاذ الصحي، فمشروع الالتزام هذا اذا وجد الى جانبها لا يحط من قيمتها بل يزيدها فائدة ويملأ فراغاً خاصًّا يبقى موجوداً . عدا عن ان ظواهر الاحوال تدل على ان اتمام هذه الاصلاحات العظيمة سيحتاج الى سنين عديدة وملايين كثيرة لا يوجد دليل على توفرها في امد قريب

***

اما تعميم المستشفيات الذي بني عليهِ الاعتراض الثاني فلا يغني عن الطبيب الذي يداوي الفرد في منزله ويجعل له به صلة مستمرة يرجع اليهِ للتداوي وللوقاية فهو الصديق النصوح لزبائنه ودليل الحكومة على مواطن الخطر كما هو الحارس الصحي لمنطقته. واذا كنا سننشىء مستشفيات عديدة تكفي لمداواة كل المرضى مهما كانت حالتهم بسيطة فنكون مسرفين اسرافاً لا مسوّغ له . فطبيب الالتزام هو مساعد ومغذٍ للمستشفى وليس مزاحماً له عدا عن ان مشروع الالتزام قريب النضوج داني القطوف بينما تعميم المستشفيات سيستغرق كغيره من المشروعات الضخمة اعواماً عديدة واموالاً طائلة

***

اما السبب الذي بني عليهِ الاعتراض الثالث فلا يتفق مع المشاهَد الواقع . لانهُ في كل مكان تظهر فيهِ حاجة الى منازل متقنة تنشأ حالاً من جانب اصحاب الاملاك طمعاً بتأجيرها والاستفادة منها وهو عمل رابح دائماً . وحتى اذا اقتضى الامر في بعض الحالات الشاذة يستطيع الطبيب ان يتخذ محل سكنه في اقرب مركز ويكتفي بعيادة في وسط القرى

اما عن الاعتراض الرابع فاذا صحّ في بعض البلدان الاجنبية وبين بعض الهيئات الخاصة المصرية فلا يصح على الاطلاق بين الفلاحين والقرويين عموماً لان روح التعاون الصحيح لم يشع بعد في مصر التي تكاد تبدأ التدرب عليه وربما تمضي عدة سنوات قبل انتشاره وتأصله في النفوس ولا يصح ان ينتظر المرضى الى ذلك العهد بل كل عاقل يرى ضرورة قيام الحكومة بهذا الواجب العام وقد تعوّد الاهالي ان ينتظروا كل شيء من الحكومة

اما الاعتراض الخامس فلا يبدو جديراً بالبحث فسهر مصلحة الصحة وعلى رأسها زعيمها الهمام صاحب السعادة محمد شاهين باشا ونظامها الدقيق وخبرتها تكفل حسن اختيار الاطباء كما ان المراقبة المنتظمة تضمن اخراج الطبيب غير الكفء الذي يكون قد تسرّب خطأً الى الوظيفة ولزيادة الحذر يجوز تنفيذ المشروع تدريجيًّا

والاعتراض السادس هو فرض بعيد عن الواقع فمبلغ الخمسة مليمات زهيد لا يعجز اي فرد في الديار المصرية عن تداركه في اي وقت كان وخصوصاً عند ما تكون هنالك حاجة به للتداوي ودفع هذه الخمسة مليمات يبدو ضروريًّا لمنع سوء استعمال الغير المرضى وللحيلولة دون ارهاقهم الطبيب من دون حاجة او اسرافهم بالعلاج

اما الاعتراض السابع فلا يتفق مع الواقع فانهُ يوجد الآن في ذات القاهرة عيادات مشتركة خاصة يتقاضى الطبيب فيها من المريض اجراً لا يزيد كثيراً عن الخمسة مليمات

***

اما اذا توخينا الحقيقة المجردة المنزهة عن كل تحيز ، فيجب علينا ان نعترف بأن هذا المشروع مع كل ما ينطوي عليه من الفوائد العاجلة والآجلة ليس سوى حلقة صغيرة في سلسلة الانقاذ الصحي. فالحالة الصحية في القطر المصري تحتاج الى جهود جبارة وتعاون جميع القوى لاجل اصلاحها الاصلاح المرغوب وانتشال الفلاح المصري وبالتالي الامة المصرية من الادواء التي تنخر في كيانها وكانت منذ اقدم العصور السبب الرئيسي في تأخرها في ميادين الانتاج المادية والعقلية والخلقية

فهذا المشروع مع ضخامة مظهره يرمي الى تلطيف الاعراض ولا يؤثر كثيراً في اصل العلة . اما اذا اردنا ان نجتثّ الداء من جذوره فعلينا

اولاً — نشر التعاليم الصحية بكل وسائل النشر من محاضرات واعلانات ومواعظ ونستخدم المطبعة والسينما والراديو والمنبر والصحافة وكل وسيلة بالامكان استخدامها

ثانياً — جعل التعليم الصحي الزاميًّا في المدارس على اختلاف طبقاتها من روضة الاطفال الى آخر سني البكالوريا ولكل درجة ما يناسبها . وخصوصاً في مدارس التعليم الالزامي الذي شرعت الحكومة في تطبيقه يجب ان يكون لدرس حفظ الصحة منزلة ممتازة

ثالثاً — نشر الامن الحقيقي في الريف المصري فالفلاح لم يختر منزله بشكله الحاضر غرفة واحدة قليلة النوافذ او معدومها يترك مواشيه فيها ويلاصقها منزل جاره الا لكي يستطيع ان يدافع فيه عن حياته وماله من المعتدين واللصوص . ومهما نصحته بتغيير هذا الطراز لعدم ملاءمته الاصول الصحية فلا تجد منه مجيباً فلسان حاله يقول التعرض للامراض من الجراثيم الخفية افضل من التعرض لاعتداء اللصوص من بني البشر . فمتى شعر بالامن والطمأنينة على حياته وماله فعندئذ فقط يغير طراز منزله من تلقاء نفسه ويجعل اقامته في وسط حقله في منزل منفرد كثير النوافذ محاط بأشجاره المثمرة وبالقرب منه زريبة مواشيه . اما اصلاح القرية المنشود قبل نشر الامن التام فغير ممكن قطعاً . اما الطريقة او الطرق المؤدية الى نشر الامن الحقيقي فليست من اختصاصنا وعند اهل الذكر الخبر اليقين

رابعاً — اجبار اصحاب الاملاك الواسعة والتفاتيش الكبيرة على اقامة منازل صحية لعمالهم وفلاحيهم تتوفر فيها المياه النقية والنور ولا بأس من تضحية هؤلاء بجانب من ايراداتهم في سبيل من هم مصدر ثروتهم ويُسرهم . وعندئذ تكون هذه العزب نماذج ينسج على منوالها من هم في جوارهم وتربي في ساكنيها الذوق الصحي حتى اذا انتقلوا منها ينقلون معهم فكرة التجديد فتنتشر تدريجيًّا ويكون الفضل لاسيادهم الاولين

خامساً — تعيين الاماكن الذي يجوز اخذ التراب منها ومقدار التراب المأخوذ حتى لا تتكوّن حفر تصبح بركاً بعد الري والاّ فلا فائدة من ردم البرك الموجودة وحفر غيرها بأسرع من ردمها

سادساً — اقامة مسابقة عالمية لحل مشكلة مياه الشرب في القرى حلاًّ عمليًّا قابل التنفيذ في الحال وفي متناول الحكومة والاهالي والاّ فلا فائدة من الحلول غير القابلة للتنفيذ ولا فائدة من الارجاء والتسويف فالضرورة ماسة والداء فتّاك ولا بدّ من تدارك الحالة بالعلاج الفعّال . ولا اظن ان العلم يعجز عن ايجاد ماء شرب نقي يتمتع به الفلاح المصري كما يفعل امثاله في كل بلاد العالم المتمدن

سابعاً — حل مشكلة المراحيض بما يتفق مع طبيعة الارض وعادات السكان حلاًّ سريعاً

***

هذه هي الحلقات السبع التي تكوّن الجزء الاول من سلسلة الانقاذ التي يتطلع اليها الفلاح المصري منتظراً من حكومته الرشيدة ان تمدها لتنقذه ونسله من لجة بؤسه وشقاءه . ومع كل ذلك ومع انتشار المستشفيات في الاقاليم فمشروع الدكتور محمد خليل عبد الخالق بك (التزام العلاج القروي) اذا نفذ بأيدٍ رشيدة سيكون بلا شك جزيل الفائدة

عناق الادب والعلم

مثال من الادب الانكليزي الجديد

لاسماعيل مظهر

يحدث كثيراً ان نتناول في حلقات الادب والعلم ذكر الاساليب ، ونفرق بين الاساليب العلمية والاساليب الادبية ، ونفصل بين الناحيتين فنقول لغة الادب ولغة العلم ، وهذا اصطلاح ادبي وذاك اصطلاح علمي ، كأننا قد فصلنا بين الناحيتين بفواصل من اللبنات المدرعة بالفولاذ . ويخيل الينا فوق ذلك ان اصطلاحات كل من الناحيتين يجب ان تظل محبوسة بين تلك الجدران التي نظنها ابدية سرمدية ، ونشعر عند ما نحاول ان ندخل اصطلاحاً علميًّا في موضوع ادبي ان ذلك الاصطلاح لا بدَّ من ان يستوحش في موضعهِ الجديد وانهُ لا بدَّ من ان يظهر فيهِ نابياً غير مساغ . والحقيقة اننا امعنا في هذه السبيل الى حد ان لغة الادب قد تنفر من لغة العلم وقد تنفر اصطلاحات العلم من ان تدخل في اساليب الادب ، حتى أن كلمة علمية إن دخلت في موضوع ادبي أخذ ذلك على الكاتب وكان موضعاً لنقده او سبباً للفرار من قراءة بحثهِ اولاً وآخراً لان لغة العلم تفسد الادب . وكذلك الحال مع كاتب آخر يحاول ان يكتب في العلم باسلوب ادبي مختار الالفاظ حسن التراكيب، فان ذلك قد يصرف العلماء عن قراءة ما يكتب ان لم يرم بانهُ اديب وليس عالماً، وذلك لان لغة الادب تفسد العلم

وقد تجلس في دوائر الادباء فتسمع احدهم يقول ان فلاناً تغلب عليهِ النزعة العلمية ، وما يقصد بذلك الاَّ انهُ يغلب عليهِ جفاف العلم ومعنى هذا انهُ قليل الاحساس غير مشبوب الخيال . وقد يضمك المقام مع العلماء فتسمعهم يقولون ان فلاناً اديب ، وتتبع كلمة « اديب » ابتسامات لا تنفرج لها الشفاه عن الثنايا الاَّ بقدر ما تعبر عن حقارة ذلك الشيء الذي يسمى الادب . وما السبب في هذا الاَّ حقيقة مرَّة ، ومحصلها ان ادباءنا لم يتذوَّقوا العلم ، وعلماءنا لم يتذوَّقوا الادب في الغالب . اما الذي ينزع نزعة فلسفية فهو بين الجماعتين كالحبة بين شقي الرحى ، ان افلتت من الثفال لحقتها اللهوة، واهون ما يصدر ضده من احكام الادباء والعلماء انهُ ممسوس اخلق بهِ ان يتفلسف في مستشفى المجاذيب . وسبب هذا حقيقة امرُّ من الحقيقة الاولى ، ومحصلها ان ادباءنا وعلماءنا سواء في البعد عن تذوق الفلسفة

خطرت لي هذه الخواطر وانا اقرأ رواية لاديب لاشك في اني احار أأسمه بالعلم ام بالادب ام بالفلسفة واحار كذلك أأسمي كتابه قصة ام كتاباً في علم النفس أم فلسفة عالية في حقائق هذا الوجود الانساني

اما ذلك المؤلف — وادعوه مؤلفاً لاخلص من حيرتي الاولى — فهو الدوس هكسلي . واما الكتاب — واسمهِ كتاباً لاخلص من حيرتي الثانية — فعنوانهُ « الدنيا الجديدة الجسورة » — Brave New World — ولقد تعجب كيف استطاع ذلك المؤلف الفذ ان يجمع بين روائع الادب

في اسلوب سهل بعيد عن التكلف مختار الالفاظ متسق الجمل ، وبين افكار علمية في علم الحياة والنفس هي آخر ما جادت بهِ قرائح العلماء ، وتأملات في نظام الاشياء الانسانية هي من اعمق ما يفكر فيهِ الفلاسفة . ولا شك انك في النهاية تقرأ قصة رائعة الخيال . ولكنها قصة يستعصى عليك ان تفهم منها شيئاً اذا أنت لم تحط بحقائق ثابتة في علوم الحياة والاجنة والوراثة وعلم النفس ومذهب بافلوف فيهِ ، او بفلسفة الاجتماع الاوروبي في هذا العصر . فكأن الدوس هكسلي قد استطاع ان يجمع في روايتهِ هذه بين الاضداد التي لا تجمع في رأينا وفي أدبنا الحاضر الاَّ اذا اجتمعت الثريا بسهيل ، والثريا شآمية وسهيل يماني

وأعجب من هذا كله ان يستدرجك هكسلي الى هذه الاغوار البعيدة فلا تشعر الاَّ وانت في معمل عظيم تفرخ فيه الاجنة البشرية داخل زجاجات كسيت من داخلها بمادة بريتونية وملئت بسائل دموي تسبح فيهِ الاجنة ، والزجاجات تدور على رفوف متحركة فاذا ادركت الاجنة التي تفرخ فيها استخرجت لترى ضوء النهار لاول مرة . فلا ارحام اذن ولا أبوَّة ولا امومة ، ولاعمومة ولا خؤولة ولكنها البشرية المفرَّخة في معامل يصنعها مفرخها كيف يشاء ويدسّ فيها من الصفات ما يريد ويخرج منها الطبقات التي تكوّن المجتمع الانساني

وقد يرمز لكل طبقة برمز . فالطبقات خمس . اولها طبقة «الفا» والثانية «بتا» والثالثة «غما» والرابعة «ذلتا» والخامسة «ابسلون» على خمسة الحروف الاولى من الابجدية اليونانية ، وعلى الطريقة التي يرمز بها العلماء للاشعة المنبعثة من معدن مشع مثلاً . ولكن كل طبقة من هذه الطبقات تنقسم الى نوعين زائد وناقص . فهناك «الفا» زائد ، وهؤلاء انبغ من تخرج معامل التفريخ البشرية ثم «الفا» ويتبعها الفا ناقص وهكذا الى ان تبلغ الى «ابسلون» ناقص وهؤلاء هم أحط افراد البشرية الذين ينتجهم عالم المستقبل

ولكن اين المساواة التي ينشدها البلاشفة في هذا العصر ؟ هذه لا وجود لها في عالم المستقبل فكأن هكسلي يريد ان يقول ان هـذه الاوهام سوف لا تستولى على انسان العصر المقبل . وأين الحرية ؟ ان الانسانية المفرخة في معامل المستقبل سوف تخرج من المعامل حاملة لكل الصفات الفزيولوجية والنفسية التي تجعلها بعيدة عن التفكير في مثل هذا الخيال الفارغ . فكلّ سيخرج مهيئاً لما سخر له . اما الحرية واما الحقوق المدنية . واما قانون العقوبات فعلى كل هذه العفاء . ولماذا يلجأ انسان المستقبل الى تلقيح المجرمين كما يفعل هتلر اليوم في المانيا ؟ يكفيه ان يختار الحييوينات التي تلقح البويضات من ذكر وانثى ليس فيهما عنصر الاجرام ولا اللجاج ولا المشاحنة ، ويكفي ان يزيد في قارورة هذا المخلوق قليلاً من مادة الكحول ليخرج حاد الذهن ، وفي قرورة ذاك قليلاً من مادة اخرى ليخرج بليداً من «ماركة» ابسلون ناقص . وكيف يستقوى مفرخو المستقبل ومربو ابنائهِ على الصفات التي لا يمكن ان يتغلبوا عليها في الاجنة وهي في القوارير . صفات التطلع والشهوة الى معرفة الاشياء وامتحان كل شيء يقع تحت الحس ؟ ان هذه الصفات لدى الواقع صفات يشارك فيها

الانسان الحيوان، واذا قتلت في الاجنة خرجت انسانية ادنى من الحيوانات . واذن يلجأ مربو المستقبل الى طريقة تحويل الغرائز بالوسائل العملية . وأية وسيلة اقرب من وسائل بافلوف ؟

* * *

والى هنا اشعر بعجزي عن متابعة الشرح من غير ان افصح للقارىء عما هي طريقة بافلوف هذه وعلى الرغم من ان الدوس هكسلي يشير اليها اشارة ، فاني واثق من اني اذا اتبعت طريقته اكون كمن يتكلم بالالغاز . ولتطور هذه النظرية تاريخ طويل يرجع الى أبعد عصور الفلسفة اليونانية وفي المذهب القوريني احد اصولها الرائعة . لهذا اكتفي بشرحها على الصورة الاخيرة التي صبها فيها بافلوف الروسي ، وهو من معاصرينا الاحياء

ولقد حصر هذا العالم تجاربهُ في الكلاب . ومن المعروف ان الكلب ، ككل الاحياء المدركة ، اذا رأى قطعة من الحلوى سال لعابه ، فاستغلَّ بافلوف هذه الظاهرة ، وهي ظاهرة من الظواهر التي تسمى « أفعالاً عكسية » اي انه من الافعال التي يؤديها الجسم بقاسر ذاتي ، ومن غير ان يكون لتجاريب الحياة فيها أقل اثر . وهنالك كثير من الافعال العكسية بعضها اصيل وبعضها مؤصل . ومنها ما يمكننا مشاهدته في الاطفال ، ومنها ما يتأصل على قدر من العمر ومرور من الايام . فالطفل يعطس ويتثاءب ويتمطّى ويحوّل عينيه نحو النور ، ويأتي غير ذلك من الافعال في مختلف اطوار عمره وظروفه ، من غير ان يكون في حاجة الى ان يتلقنها او يتلقاها عن غيره . وكل هذه الافعال تدعى الافعال العكسية او بالاحرى ، كما دعاها بافلوف أفعال عكسية أصيلة Unconditioned Reflex actions وهي بذاتها التي كانت تدعى من قبل الغرائز Instincts والغرائز المركبة لغريزة بناء الاعشاش في الطيور ، تلوح كأنها جملة مندمجة من افعال عكسية . والأفعال العكسية في الحيوانات الدنيا قلما تؤثر فيها تجاريب الحياة . فان البعوضة تستمر تحوم حول الضوء حتى بعد ان يحترق جناحاها . وعلى الضد من ذلك تجد الحال في الحيوانات العليا . فان تجاريب الحياة لها من هذه الافعال العكسية الاصيلة ، تأثير بالغ فيها ، ولا يخرج الانسان عن حكم هذه القاعدة . ولقد قصر بافلوف تجاربه كما قلنا من قبل على سيل اللعاب في فم الكلاب . فخلص من تجاريبه بالقاعدة الآتية التي استخلصها من تحول الافعال العكسية الاصيلة ، قال :

« عندما يقترن بالمنبه الذي يبعث اي فعل عكسي اصيل او يتقدم عليه مرات عديدة الى منبه ثان ، فان هذا المنبه الثاني يحدث مع الزمن نفس الاستجابة Response التي كان يبعثها المنبه الاول في احداث فعل عكسي متحول » . — Conditioned Reflex action

فان سيل اللعاب فعل عكسي أصيل ، لا يحدث اصلاً الاّ عند وجود الطعام في الفم . ومن ثمَّ يحصل عند مرآى الطعام او شم رائحته ، او عند حدوث اية علاقة او اشارة تسبق مباشرة الاكل . وكل هذه الافعال يدعوها بافلوف الافعال العكسية الاصيلة . على انك تجد ان نفس الاستجابة (سيل اللعاب) واحدة في الفعل العكسي الاصيل والفعل العكسي المتحول وانهُ لم

يستحدث في الاخر من شيء الاَّ «المنبه» Stimulus الذي يشترك او يتحد مع المنبه الاصلي من طريق التجربة . وهذه القاعدة هي اساس كل تعليم او استيعاب للمعلومات، واساس الظاهرة النفسية التي كانت تدعى من قبل « تداعي او اشتراك الافكار» ، واساس تعلم اللغات ،واستحكام العادات واستبدادها بالافراد والجماعات ، وعلى الجملة هي الاساس العملي لـكل مناحي السلوك الانساني الخاضع للتجربة

وبعد ان استرشد بافلوف بهذه القاعدة مضى يطبقها ما على يخطر بباله من ممكنات التطبيق . فانه لم يقتصر على امتحان منبهات الطعام الشهي . بل عمد الى الاحماض المكروهة ، يأخذ منها منبهات يستعملها في تجاريبه ، حتى يستطيع ان يؤصل في كلابه استجابات « التوقي » ، كما يؤصل فيهم استجابات «التشهي» فبعد ان ينبه فعلاً عكسيًّا اصيلاً ، يعمد الى قمعه بفعل آخر . فاذا كانت العلامة او الاشارة التي يعمد اليها يعقبها نتيجة مرغوب فيها طوراً ، ونتيجة مكروهة طوراً آخر، فان الكلب يصاب باضطراب عصبي مثل الهستريا أو النورستانيا ، وتظهر عليه كل العلامات المميزة لاحد المرضين

* * *

وبعد . فافرض انك استعضت عن الـكلاب في تجاريب بافلوف بأطفال تريد ان تقمع فيهم غرائز التطلع الى معرفة المجهولات واردت ان تحول غرائزهم تحويلاً لتصبح مجرد شهوات مقموعة بأفعال عكسية محولة فماذا تفعل ؟ تخيل معي الصورة التي رسمها قلم الدوس هكسلي

في مستعمرة التفريخ — ولا تنسى انها مستعمرة تفريخ بشرية — قسم للتربية ، يعهد فيه بالاطفال الى مربيات لا يعرفنَ حنو الامومة ولا مشاق الحمل والولادة ، فيسرنَ في تربية الاطفال على قواعد مرسومة لكل طبقة من الطبقات . اما الاطفال الذين يراد ان تقمع فيهم شهوة التطلع فمن الطبقة الدنيا . ولـكن العناية بهم من حيث تكوين اجسامهم وكفاياتهم العضلية وافية . لهذا يجب ان يعرَّضوا كل يوم لاشعة فيها كل خصائص الاشعة الحيوية الطبيعية في مكان يتخذونه مرحاً لهم وملعباً، وفيما هم يلعبون ويمرحون يلقى اليهم بنسخ من الـكتب المصورة التي تثير في الاطفال شهوة التطلع فاذا امتدت الايدي الصغيرة الى هذه الـكتب وامتدت الانظار تلتهم ما فيها من الصور والالوان ، قذف الاولاد بشحنة كهربائية ، فتلقى الـكتب الى الارض ، ويسارع الاطفال الى الاستلقاء كأفراخ ازعجهم صوت داوٍ شديد. وبتكرار هذا الفعل تقمع فيهم شهوة التطلع وتغرس فيهم استجابة التوقي من الـكتب والتطلع وحب معرفة الاشياء فيخرجون آلات حسنة للتنفيذ دون التفكير

* * *

في نظام اجتماعي كهذا النظام سوف تستولي على العقول افكار نراها متطرفة وان بدت لاهل ذلك العهد المنتظر حقائق عادية لا تثير عجباً ولا تفكيراً . فان هؤلاء سوف يتبدلون من كل العقائد القديمة عقائد جديدة ، وسوف لا يكون لالـه الفضيلة كما نتصورها الآن من محل يشغله في نظام الاشياء التي سوف تقوم في المستقبل ، ولن يكون لالـه من محل اللهمَّ الاَّ آلـه العمل والانتاج . فان اقسم احدهم بقسم أو قطع عهداً قال « بحق فورد » او عاهد على ذكرى « ركفلر » او اقسم باسم « اديسون » . وسوف تصبح الـكاتدرائيات العظيمة والاديرة والبيع آثاراً ان دلت على شيء

فعلى الاوهام التي سيطرت على الانسانية خلال اجيال متطاولة واستعبدت العقول على مدى التاريخ الذي سطَّره الانسان بدمه ليقوم دليلاً واضحاً عند اهل المستقبل على توحشنا وبربريتنا . أما معابدهم ، فالمعامل الضخمة العظيمة والآلات الداوية التي يستمعون لدويها نغماً اشبه بنغم الارغن الجميل او التراتيل الهادئة التي تُلين بفتنتها اقسى القلوب في اماكن العبادة . ولسوف يسقط الايمان عن عرش الغيب ، ليعلق بعرش الشهادة . فلا ايمان الاَّ من طريق الحواس ولا حقيقة الاَّ بعد اختبار . اما منطق العقل وحده فذلك سوف يكون اداة ناقصة للعلم ، وخادماً للمجهر والمنظار المقرّب والسموغراف ولقوائم الاحصاء ، الى غير ذلك من ادوات التجربة والاختبار

ولا شك في ان اول ما سيتقوض من بناء الاجتماع الحالي هو نظام الاسرة . لان المرأة ستشغل مقاماً اقتصاديًّا في المجتمع يكفيها بمؤونة العبودية والاسر الذي يفرضهُ عليها الرجال لا لشيءٍ الاَّ لانهم العنصر المسيطر في النظام الاقتصادي . ففي ايديهم المعامل والمصارف والجامعات والحكومات وعلى الجملة كل ما من شأنهِ ان يمنحهم السيطرة الاقتصادية على الجنس اللطيف. ولكن نظاماً اجتماعيًّا يرزق فيهِ كل شخص على قدر عمله وانتاجه ، لابدَّ من ان يفسح للمرأة فيهِ مجالٌ للعمل لتكسب رزقها الحلال من كدح يديها وبعرق جبينها . واذن فلا تصبح للنساء من حاجة الى سيطرة الرجال واستعبادهم وتسلطهم على نصف البشرية اللطيف . ولسوف تتغير العواطف الانسانية بهذا الانقلاب الكبير فلا غيرة ولا حبًّا أبويًّا ولا شعوراً بامومة ولا قرابة ، وستمحى من القواميس كل الالفاظ التي كانت تدل من قبل على علاقات الاسرة ونظامها ، وتصبح في القواميس القديمة كالآثار المتحجرة في باطن الارض ، ما تذكر الاَّ للفكاهة وما تدور الاَّ على ألسنة بعض الباحثين في تاريخ البشرية في ناحية منبوذة من جامعة كجامعة اكسفورد مثلاً ، التي من قواعدها الموروثة المحافظة على التقاليد

اما الحب الذي يتغنى بهِ الشعراء ، فسوف يصبح مجرداً عن كل المعاني التي نلصقها بهِ الآن . فلا غزل ولا تغزل ، ولا هيام ولا غرام ، لان القاعدة الاساسية في نظام المستقبل سوف تكون قائمة على حكمة الاباحة ، وان كل فرد ملك لكل فرد آخر ، والجميع للهيأة الاجتماعية . فلا اختصاص اذن ، ولا ارتباط برباط الزوجية (المقدس) ولا غيرة ولا شهوة ولا تطلع الى ما في يد الغير ، لان الرغبات ، ستكفيها الاباحة المطلقة ، فما في يدك اليوم يكون من قسمة زميلك غداً ، وانت بعيد عن كل تبعة، اللهمَّ الاَّ تأدية عمل خاص في وقت محدود ، تكون بعدهُ حرًّا في ارضاء شهواتك واكفاء رغباتك بالطريقة التي تراها ارضى لنفسك واشهى لميولك

* * *

ولا يقف بك الدوس هكسلي عند هذا الحد ، بل يسوقك الى صورة متخيلة يصور لك فيها الفرق بين مشاعر الانسان في عصره الحاضر ، ومشاعره في عصره المقبل . ولا أريد ان اصور لك نفس الصورة التي رسمها قلمه ، بل أريد ان أعدّل لك فيها بعض الشيء لعلي استطيع ان ابلغ من الوصف ما أريد . فان الدوس هكسلي يصور لك فتىً وفتاة من أهل دنياه المستقبلة فكّرا في

ان يزورا بقعة من بقاع الارض لا يزال اهلها يجرون على قواعد مدنيتنا الحاضرة . ولكنني اريد ان اجعل هذه الفتاة ترافقني او ترافقك فتزور بيتي او بيتك او بيت لورد من ارستوقراطيي الانكليز واصور لك ما تشعر بهِ وما يقوم في نفسها من العوامل المثيرة

فصوّر لنفسك انك بعثت سنة ٤٠٠٠ بعد الميلاد واخذت تتسكع فوق الاسطح — لان الشوارع ستكون ممرّات للهواء لا غير — فالتقيت بفتاة على سطح ناطحة من ناطحات السحاب في لندن ، وانك توسلت اليها في ان ترشدك الى بيتك في جاردن ستي بمدينة القاهرة . اذا حدث هذا حقيقة فلا تعجب اذا ضحكت منك الفتاة الماكرة ، لان السياحة من لندن الى مصر لا تحتاج الى رفقة ، لانك تستطيع ان تحضر من لندن الى القاهرة وتعود اليها في بضعة ساعات . وكذلك لا تعجب اذا رغبت الفتاة في مرأى القاهرة لانها لا تزال تسمع ان اهلها يأكلون القواقع بالخبز المشوي في افران توقد فيها النار بوقود الخشب او القمامة . وما هي الاّ اشارة حتى تهبط على سطح الناطحة طائرة صغيرة الحجم ويخرج منها نصف انسان من « ماركة » ابسلون ناقص وقبعته في يده ، فتستقلاّنها لتطوي بكما الجوّ الى القاهرة فتبلغانها عند تمام الساعة الثانية عشرة من صباح يوم الجمعة ٢٤ مايو سنة ٤٠٠٠ بعد الميلاد . ويبحث سائق الطائرة عن مكان ليهبط فيه بطائرته فلا يجد الاّ متنزهاً صغيراً يسع الطائرة فيهبط بها ثم يقفز منها ليفتح لكما الباب

ولا تكاد رفيقتك تنزل من الطائرة حتى تتعلق بعنقك رهبة وفزعاً لانها رأت قطيعاً من الماعز يهوي عليهِ ولد صغير بسوط طويل في يده والمعز تلتقط في جريها اوراق الاشجار وبقايا المأكولات الملقاة بجوار الارصفة مثلاً . فقد يستولي عليها نفس الشعور الذي يستولي عليك اذا هبطت بك طائرة الآن في أواسط افريقية ورأيت انك في وسط غابة من الغابات تمرح فيها السباع والوحوش الضارية . فاذا ذهبتَ بها الى بيتك ورأت ابنك يأكل الخبز القديد واسنانه تقضقض فيه وشاهدت زوجك وعلى صدرها رضيع ترضعه ، عرّتْ عن ساقيها فضل ردائها واطلقتهما للريح واستقلت الطائرة لتبلغ لندن عند تمام الساعة الرابعة بعد ظهر ذلك اليوم نفسه . اما سبب الفزع والهرب فلان ابنكْ يأكل ويطحن الاكل بأسنانه ولا يبتلعه في حبوب تغذيهِ ، ولأن زوجك ترضع الطفل . فأنت وهي وأهل مصر اجمعين برابرة ما تزالون في الطور الذي قطعت الانسانية المتمدينة شوطه منذ قرون اي انكم في الطور الذي كانت فيه الانسانية من الحيوانات الولودة

* * *

وبعد فاني اتساءل : اتبلغ الانسانية في المستقبل هذا المبلغ من التطور ؟ وهل يكون من نصيب النظامات المقدسة القائمة فيهِ حولنا ان تنهار وتندك الى الحضيض حقيقة ؟ وهل لنا ونحن في عصر ندعوه عصر التجديد أن نفرق بين لغة العلم ولغة الأدب ، ويظل علماؤنا بعيدَين عن الادب وادباؤنا بعيدَين عن العلم ، ليكون مصيرنا جميعاً كمصيري مع الفتاة الانكليزية التي اقترضتها من مخيلة الدوس هكسلي لاستعين بذلك على رسم هذه الصورة العجيبة من مستقبل الانسانية

الاسنان والعمران

بحث علمي تاريخي

يرى بعض العلماء ان اسنان الناس في اوربا وأميركا صارت الآن اضعف مما كانت من قرن ونصف قرن وقد نتج عن ضعفها أنَّ ضعف الهضم لان المضغ الجيد لازم له . واذا ضعف الهضم كثرت الامراض وقصر العمر ، وأثّر ذلك في نمو الامم وارتقائها لانه يقلل النسل ويمنع الانسان عن اعمال كثيرة . وهذه الآفة اي ضعف الاسنان آخذة في الازدياد حتى اذا لم تتخذ الوسائل الفعالة لتلافيها فالعاقبة وبيلة جدًّا كما يقول أطباء الاسنان . وقد عني احد علماء انكلترا بفحص جماجم شعوب مختلفة لكي يرى ما بين اسنان تلك الشعوب وأحوالها المعاشية من الارتباط لعله يعلم اسباب الحفر الذي أصاب اسنانها حتى اذا تلافيناها نجونا نحن منها . وبيّن في اوائل هذا القرن أن الحفر ليس تغيراً كيميائيًّا مجرداً كما كان الرأي الشائع قبل اربعين سنة بل هو يرتبط بفعل انواع من الميكروبات فاذا أميتت توقف الحفر عند الحد الذي وصل اليه . وقد اثبت ذلك بالامتحان . فربى هذا العالم تلك الميكروبات ووضعها على الاسنان فسببت فيها الحفر أي نخرتها وأكلتها . فلم يوافقه اطباء الاسنان على ذلك اولاً ثم وافقه احدهم ثم رأى كوخ العالم البكتريولوجي المشهور تجارب هذا العالم فاقتنع بصحة اكتشافه وعاد الى برلين وهو مقتنع بهِ وهذا هو الرأي المتفق عليه عموماً الآن . فاذا كان سبب الحفر ان انواعاً من الميكروبات تسطو على الاسنان وتنخرها فدفعه يقوم اولاً بمقاومة هذه الميكروبات وثانياً بتقوية الاسنان حتى تقاومها

والميكروبات كثيرة جدًّا ، كما لا يخفى ، وتتوالد وتتكاثر بسرعة فائقة ، فاذا نظفنا افواهنا منها الآن لا تمضي ساعات كثيرة حتى تدخلها وتتكاثر فيها فلا سبيل الى منعها من دخول افواهنا . ولكن الاسنان في حالتها الطبيعية مغشاة بقشرة بيضاء صلبة جدًّا وهي المسماة بالمينا ، فاذا كانت هذه القشرة صقيلة كما هي في حالتها الطبيعية لم تستطع هذه الميكروبات ان تنخرها مهما كثرت ، ولكن اذا بقيت فضلات الطعام بين الاسنان وفي المنخفضات وعلى تيجانها اختمرت وتولدت منها حوامض تأكل شيئاً من المينا ، فيخشن سطحها وحينئذ يصير للميكروبات سبيل اليها فتأكلها وتنخرها . ولذلك كان تنظيف الاسنان من فضلات الطعام ضروريًّا لوقايتها . ومن الاطعمة ما يزيل فضلات غيرها ولا يبقى منها هي فضلات . فهي اذن تساعد على وقاية الاسنان من الميكروبات

هذا من حيث الامر الاول اي مقاومة الميكروبات

اما الامر الثاني وهو تقوية الاسنان نفسها حتى تقاومها فأهم من الامر الاول والراجح انه اذا بلغت المينا حدها من التكون تعذر على الميكروبات ان تنخرها ولو حاولت فضلات الطعام ان تمهد لها السبيل الى ذلك لان هذه الفضلات لا تستطيع تمهيد السبيل الاّ اذا كانت المينا غير تامة التركيب والنمو فاذا تم نموها وبلغ حده لم يعد للميكروبات ولا لفضلات الطعام سبيل اليها وهي تتكوَّن على الاسنان قبلما تشق اللثة وتظهر . فكونها قوية او ضعيفة يتوقف على احوال الولد في طفولته

ويظهر من البحث في اسنان أمم مختلفة ، في أزمنة مختلفة ان الحفر كان يزيد بازدياد العمران اي بازدياد العيشة غير الطبيعية . فالشعوب المتوحشة سليمة الاسنان مهما كان عصرها ومهما كان اقليم بلادها ، والذين ساروا في طريق العمران ظهر الحفر في اسنانهم والذين اوغلوا فيه تمكن الحفر من أسنانهم حتى أفسدها . فقد اجلى البحث في جماجم الشعوب الافريقية ان اسنانها خالية من الحفر، وفي جماجم الهنود انها لا توجد الاَّ سن واحدة مصابة بالحفر في كل جمجمتين ، فتكاد أسنانهم تكون سليمة منهُ تماماً ، وفي اسنان الصينيين انه لا توجد سن مصابة بالحفر الاَّ في كل ثلاثين جمجمة ، وهذه الشعوب مشهورة كلها بتنظيف أسنانها بالمساويك والغسل المتكرر وببعض المساحيق التي تنظف الاسنان ، وهم يغسلون أفواههم واسنانهم بعد كل طعام . فلما ثبت ذلك من درس الجماجم ثبتت علاقة سببية تاريخية بين تنظيف الاسنان وحفظها من الحفر

ولكن الغريب أنه لما فحصت جماجم الاسكيمو الذين يسكنون في المناطق الباردة الشمالية وهم لا ينظفون اسنانهم مطلقاً ولا يغسلون افواههم ، ظهر ان الحفر لا يوجد الاَّ بمتوسط سن واحدة في كل ٧٢ جمجمة ، وكان الظن ان الحفر يكون شائعاً فيها ، لما ثبت منه وجود العلاقة بين حفظ الاسنان ونظافتها في الجماجم السابقة . ثم فحصت جماجم الاستراليين الذين لم يصل اليهم العمران فثبت ان الحفر لا يقع الاَّ في سن واحدة من كل مائة جمجمة . ويستدل من هذا البحث ان أسنان بعض الناس سليمة من نشأتها لا تقوى الميكروبات عليها ولو كان للنظافة شأن كبير في حفظ الضعيف منها

ومما هو جدير بالذكر في هذا المقام ان اسنان الاوربيين والاميركيين وأسنان نسلهم في مستعمراتهم يزداد الحفر فيها سنة بعد سنة. فمن مائة عام كان الحفر يرى في سن واحدة من كل ثلاثين سنًّا ، اما الآن فيرى الحفر في سن من كل ثلاث اسنان والنظافة لم تزد ولم تقل في خلال هذه المدة بل هي على حالها واذا رجعنا الى جماجم الشعوب القديمة التي بسط العمران رواقه عليها رأينا الحفر كثيراً في اسنانها

فقد فحص احد العلماء ١٤٣ جمجمة من جماجم الرومانيين القدماء فوجد الحفر في ٤١ جمجمة منها . وفحص ٣٦ جمجمة من جماجم المصريين الاقدمين فوجد الحفر في ١٦ جمجمة منها . وفحص عالم آخر الجماجم التي وجدها الاستاذ بتري الاثري الكبير ، في المدافن المصرية القديمة فوجد الحفر نادراً في السابقة منها لعصر التاريخ ، وكثيراً في الحديثة منها . وفحص اليوت سمث الذي كان استاذاً للتشريح في كلية الطب المصرية خمسين الف جمجمة من الجماجم المصرية فوجد ان السابق منها لعصر

التاريخ خال من الحفر ، والذي من عهد الدول الاولى يكاد يكون خالياً منهُ ، ولكن ابتدأ الحفر يظهر في عهد الدول التي بنت الاهرام ولا سيما في اسنان الطبقة العليا من السكان . فانه فحص ٥٠٠ جمجمة من جماجم عظمائهم فلم يجد الأ خمسين جمجمة منها خالية من الحفر

وقد قلنا سابقاً إن اسنان الهنود الآن تكاد تكون سليمة من الحفر ولكن يظهر من بحث الدكتور موثو ان الحفر آخذ في الازدياد فيها باقتباس اصحابها أسباب العمران الاوربي . ويستدل من ذلك كله ان العمران يدعو الى حفر الاسنان ولو كان للنظافة وانواع الطعام شأن كبير في حفظها منهُ

***

ان المينا التي تغطي اسنان الانسان تتكوَّن في صبوته — ما عدا الاضراس الاربعة الاخيرة اي اضراس الحكمة فان ميناها تتكوَّن بعد ذلك — فكل ما فيها من كمال ونقص راجع بنوع خاص الى طعام الولد في السنين الاولى من عمره

ففي العصور الاولى حين كان الانسان يعيش بالصيد والقنص ويأكل الاثمار والحبوب من غير طبخ كان يضطر ان يستعمل اسنانه كثيراً وكان ضعيف المضغ ينقرض من أمام غيره . وكان النساء يرضعن اطفالهنَّ والطفل الذي لا يجد لبناً في ثدي امه يموت جوعاً . ثم تحضَّر الناس وتركوا البداوة واكثروا من استعمال ألبان الماشية وطبخ الطعام وصارت المرأة التي لا يكتفي ابنها بلبنها تسقيه من لبن البقر وفائدة لبن البقر تتوقف على مقدار ما يهضم منهُ . ولبن المرأة اسهل هضماً على معدة الطفل من لبن البقر فيغتذي الطفل من لبن امهِ اكثر مما يغتذي من لبن البقر ثم ان احوال الام الصحية والمرضية تؤثر في ابنها ونموه ، فلما كان الناس على البداوة ، كانت الام الضعيفة تموت ويموت طفلها بعدها . والطفل الضعيف يموت ايضاً فلا يعيش من الاطفال الأ الذين يغتذون جيداً من لبن امهاتهم فتنبت أسنانهم قوية

وكان الناس وهم على البداوة ، يأكلون طعامهم من غير طبخ ، فيضطرون الى الاكثار من مضغه، فتكبر أحناكهم وتقوى لكثرة استعمالها فلما شاع الطبخ وصار اكثر الطعام يؤكل مطبوخاً قلت الحاجة الى المضغ ، فضعفت الاحناك وصغرت وبقي عدد الاسنان على حالهِ ، فازدحمت وضاقت الفسحات التي بينها ، فصار الطعام يتخللها ويبقى فيها فيحمض ويفعل بالاسنان فعلاً كيمائيًّا

يضاف الى ذلك ان الابحاث الحديثة التي قام بها الدكتور ملنبي وزوجته أثبتت ان نقص بعض أنواع الفيتامين في غذاءِ الطفل يضعف مينا اسنانهِ ، وقد جربت التجارب في الجرذان وجراء الكلاب ، فتأيدت هذه النتيجة . ولعلَّ تأثير الطبخ في اضعاف الاسنان ، لهُ من هذه الناحية فعل لم يكن معلوماً من قبل اكتشاف الفيتامين

فاذا غذي الاطفال التغذية الكافية الوافية وهم في سن الرضاع وما بعدها ، واكثروا من مضغ الطعام ، نبتت اسنانهم في الغالب مستكملة بناءها ، وحينئذٍ اذا اعتاد المرء تخليل اسنانه بعد الطعام وتنظيفها جيداً قويت على مقاومة الميكروبات ، ولم تصب بالحفر ولا بغيره من آفات الاسنان

الفلاح المصري القديم

مقامهُ . اعماله . حياته . منزله . مقاييسه . مكاييله

للدكتور حسن كمال

نشوء المدنية المصرية وتقدمها ثم انتشارها في انحاء العالم، كل ذلك نتيجة لخصب التربة في وادي النيل ووفرة محاصيله . وبهذه الوسيلة فقط تمكنت مصر على ضيق مساحتها من تغيير نظام العالم القديم تغييراً يفوق كثيراً ما قامت بهِ سائر الاقطار الاخرى مجتمعة . ومهما قلّب الباحث في الحضارة المصرية القديمة واستقصى اصولها وازداد في ذلك امعاناً ودقة فانه لا يهتدي في النهاية الاّ الى الزراعة ، وكلما تعمقنا في اقدم العصور المصرية المعروفة وجدنا الفلاحة قد بلغت شأواً كبيراً ومكانة عظمى قبل تلك العصور بزمن طويل . والمعروف ان ازالة الغابات الكثيفة التي كانت مكتنفة وادي النيل وتهيئة الاراضي لزراعة الحبوب والفواكه ومراقبة فيضان النيل ساعد على جمع كلمة القبائل التي كانت تقطن الوادي فتكوّنت من ذلك مملكة واحدة متينة الاساس قوية البنيان . وكذلك انقلب الوادي الى مزرعة في منتهى الخصب . لكن القيام بهذا العمل الجسيم تطلب مجهوداً مماثلاً لجسامتهِ . فمنعاً للقحط والموت حفر القوم الترع فامتدّت في انحاء القطر وحافظوا عليها بكل عناية ودقة . ولما كان من الصعب ريّ بعض الاراضي لارتفاع مستواها عمد الفلاح المصري في اقدم العصور الى استعمال الشادوف كي يثابر بهِ على ريّ زراعته حتى الحصاد

وكانت الاراضي منذ اقدم العصور تزرع بواسطة فلاحين مأجورين يقومون بهذه المهمة نيابة عن الملاّك . وهؤلاء الاخيرون هم الملوك او المديرون او الاعيان او كهنة الاديرة او الاضرحة . وكان الملك يعتبر إسميًّا صاحب الاراضي كلها لكنه لم يتمكن من اثبات ذلك اثباتاً عمليًّا حتى في أوج سلطته

ولا بدّ ان يلمّ القارىء بعظم الانتاج الزراعي التي كانت مصر تخرجه قدماً . فثمّة في قصة سيدنا يوسف عليهِ السلام من البراهين على صدق ذلك اقواها وأدعمها . فقد جاء عنها في الذكر الحكيم «تزرعون سبع سنين دأباً فما حصدتم فذروه في سنبله الاّ قليلاً مما تأكلون . ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهنّ الاّ قليلاً مما تحصنون . ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » (آية ٤٦ — ٤٨) . وهكذا تمكن الصديق بكفاءته من تغذية سكان مصر وما جاورها من البلدان مدة أربعة عشر عاماً بمحصول سبعة أعوام فقط

واحتكرت الحكومة بيع المحاصيل المصرية الى البلدان الاجنبية كما يستدل على ذلك بطريقة بيع القمح الى اهل فلسطين الواردة في القصة نفسها «مسّنا واهلنا الضرّ وجئنا ببضاعة مزجاة فأوف لنا الكيل وتصدّق علينا ان الله يجزي المتصدقين » (آية ٨٧) . والمكيال الذي اكتالوا بهِ هو « صواع الملك » (آية ٧١) — اي المكيال الملكي او الرسمي . ولا يبعد ان كبار الملاّك كانوا يبيعون ما يتبقى لديهم من المحاصيل الى الحكومة رأساً . خصوصاً اذا لاحظنا ان الفلاح قدماً كما هو حالاً يقنع دائماً بالقليل من القمح او الشعير مما يسدّ بهِ رمقه . قال ديودوروس الصقلي ان البالغين والاطفال كانوا كثيراً ما يعيشون على جذور النباتات والاعشاب المائية كالبردي واللوطس وغيرها وكانوا يتناولونها نيئة او مشوية او مسلوقة

ولم تتدخل الحكومة في المزروعات التي يرغب الفلاح في زراعتها بل تركت له كامل الحرية بخلاف الحال في عصرنا من حيث تحديد مساحة زراعة القطن والارز . ولا غرابة في ذلك فان الفلاحين وقتئذٍ كانوا بحسب قول ديودوروس الصقلي متمرنين منذ نعومة اظفارهم على الحياة الزراعية . فأتقنوا الفلاحة وتفوقوا فيها على البلدان الاخرى . ودرسوا طبيعة ارضهم وسبل ريها والمواعيد المناسبة للبذر والحصاد وما هو اهم من ذلك من اسرار طرق الحصاد التي توارثوها عن اجدادهم واتقنوها باختباراتهم . وقد اعتاد الفلاحون ان يستأجروا اراضي ملوكهم او ضباطهم او قسوسهم بقيمة يسيرة وان يتفرغوا لفلاحتهـا تفرغاً تامـّاً . اما العمال الذين كانوا يستأجرون للقيام بزراعة اراضي الاغنياء او الامراء فكانوا يعملون تحت رقابة ناظر زراعة يشرف على اشغالهم ويكتب التقارير عنهم بل ويقدمهم الى المحكمة لعقابهم اذا ما لاحظ عليهم اهمالاً او تقصيراً في القيام باعمالهم . وما اكثر ذكر هذه المحاكمات في الآثار المصرية . فالباحث يجدها مرسومة في المقابر كمقبرة (تي) بسقارة وغيرها بل ويجدها مجسّمة بشكل انموذجي كالانموذج الذي في دار تحف القاهرة وقد عثرت عليهِ بعثة متحف المتروبوليتان الامريكي . وبعد زوال الفيضان وابطال الشادوف يبدأ الفلاح في فلاحة أرضه

ففي هذا الوقت تكون الارض رطبة لان المياه تكون قد انحسرت عنها حديثاً . فيعمد الى حرثها حالاً الاَّ في بعض المناطق التي تتجمع فيها المياه الراكدة . والمعروف ان الزراعة المثلى هي التي يبدأ بها في آخر فصل الصيف كما يستدل على ذلك من النقوش الواردة في أعلى المناظر الزراعية بالآثار المصرية مما يشير الى حسن الطقس وتأثيره الحسن في نفوس الفلاحين حينذاك (راجع كتاب مصر للاستاذ ارمان ورانكه فصل ١٧ ص ٥١٧) . خذ مثلاً ما ورد بمقبرة (پاحرى) بمدينة الكاب خاصـّاً بهذا العمل فقد جاء ما ترجمتهُ : —

« هـذا يوم جميل ! الهواء رطب والثيران تؤدي اعمالها (على ما يرام) ! والجوّ صاف كما نشتهيه ! » (راجع مقبرة پاحرى لجريفث لوحة ٣) . وهناك عبارات اخرى مماثلة لها مثل « النيل مرتفع هذا العام » مما يدلُّ على شأن ذلك عند هؤلاء القوم لانه بحسب قولهم « سوف لا تحصل

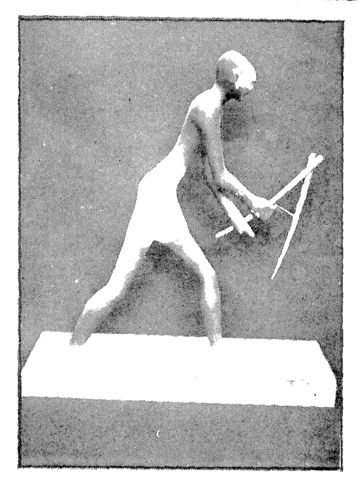
مجاعة في العام القادم بل بالعكس سيكون عام رخاء غزير المحصول ! » وأيضاً « ان الحبوب في العام القادم ستكون وافرة والثيران سمينة (راجع مقبرة پاحرى)» وبديهي ان اول عمل يقوم بهِ الفلاح شق الارض بالفأس ثم حرثها ثم بذرها الخ . وكان الفلاح يلتحف احياناً جلود الحيوانات فوق كتفيه ويصنع منها البسة صغيرة وكان يلبس تارة مآرز كتانية بيضاء قصيرة . اما نسوة الفلاحين فكنَّ يلبسن الملابس الطويلة المنسوجة غالباً من الكتان مبتدئة من الكتفين وواصلة الى القدمين . واستعمل الفلاحون النعال احياناً . وشادوا مساكنهم بالعساليج (جمع عسلوج وهو ما لان واخضرّ من قضبان الشجر) الممزوجة احياناً بالطين . وشاد البعض الآخر مأواهُ باللبن

ومما يشير الى شهرة مصر في تلك العصور الغابرة بالزراعة ما تحمله اسماؤها من معانٍ . فمن هذه الاسماء « بق » ومعناه بلدة الزيتون وسميت كذلك لكثرته فيها. ثم اسم (تمرا) ومعناه الارض المشبعة بالترع وسميت كذلك لتخللها اياها . ثم اسم (قم) ومعناه السوداء اشارة الى شدّة سواد طينها . ثم (ناهى) ومعناه بلد الجميز وسميت كذلك لكثرته فيها

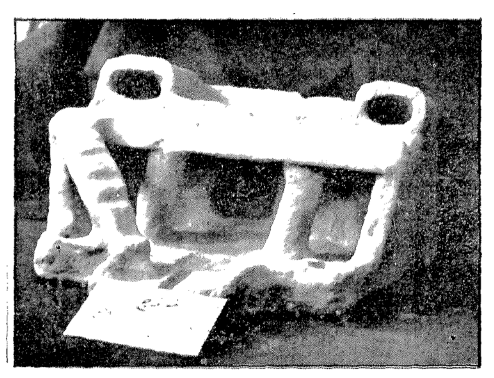
وكان يطلق على الفلاح قدماً اسم (سختي) و (حِنْتيو) و (انوتي) و (مِرْ)

﴿ منزل الفلاح ﴾ لم يبق لنا التاريخ من آثار منازل الفلاحين الاَّ ما ندر . ولم يبق من المدن الأثرية الاَّ القليل جدًّا . والمنازل القديمة مطموسة وقد شيّد عليها منازل حديثة مما يزيد في صعوبة البحث . وتتلخص المباني القديمة التي بقيت للآن في معبد ابي الهول ومنازل اللاهون وتل العمارنة . واهم المراجع لمعرفة منازل الفلاحين وكيفية تنسيقها هي النماذج الصغيرة العديدة التي دفنها القوم مع موتاهم ومنها نماذج كبيرة في دار تحف القاهرة . وبالتأمل في هذه المنازل يتضح للناظر انها صورة طبق الاصل لمنازل فلاحينا . فمنازل الفلاحين الاقدمين كانت غاية في البساطة كما هي الآن . وهي تتركب من حوش سماوي تمضي فيهِ افراد العائلة يومها (وتنام فيهِ ليلاً) وبهذا الحوش تتصل عدة حجرات مظلمة صغيرة وزريبة للحيوانات . وهناك سلم يوصل الى السطح . وقد تشاد فوق الاخير عدة حجرات . والصورة المرفقة بهذه المقالة هي لانموذج منزل فلاح محفوظ الآن بمتحف فؤاد الاول الزراعي . والاصل بدار تحف القاهرة . وفيهِ تتجسم البساطة بكل معانيها وهو يكاد يتفق تماماً مع كثير من منازل فلاحينا الحاليين فحجرتا السطح للنوم والسلم بسيطة الشكل والوضع . وهناك حجرة كبيرة كالردهة تتصل بالحوش . ويشاهد عمودان يحملان السقف من الامام . وفي الركن الايمن تشاهد دائرة لوضع غذاء الحيوان فيها . ولا يبعد ان الحيوانات كانت توثق بالاعمدة

اما منازل كبار المزارعين وعلى الاخص في عهد الامبراطورية الوسطى (٢١٠٠ — ١٧٠٠ ق.م فكانت تتكوّن من حوش ينتهي من الخلف بمصطبة ذات عمد او بدهليز يتجه عادة الى الشمال لالتقاط النسيم البحري ولتجنب حرارة الشمس المحرقة وفي هذه المصطبة او الدهليز يجد الداخل باباً يؤدي الى صالة فسيحة مقدمها محمول على عمد . وبعد ان يخترق الانسان هذه الصالة يجد نفسه في



انموذج لتمثال خشبي لفلاح مصري من عهد الامبراطورية الوسطى محفوظ بمتحف فؤاد الاول الزراعي والاصل بدار تحف القاهرة وهو يمثل الفلاح وقدماه غائرتان في الطين وقابضاً بيديه على فأس من طراز تلك العصور



انموذج لمنزل الفلاح المصري القديم والاصل بدار تحف القاهرة
تصوير الدكتور حسن كمال

حجرة اخرى ذات عمد ايضاً كانت تستعمل على الارجح للغذاء . ومن ثمَّ يتصل الانسان بحجرات النوم المتعددة الخاصة بصاحب المنزل وافراد عائلته من الذكور . اما قسم الحريم فكان يتصل باحد اقسام المنزل الاربعة المذكورة (وهي «الحوش» والمصطبة والصالة وحجرة الاكل) وذلك بواسطة حوش صغير . وفي مقابل قسم الحريم مساكن العبيد والمخازن والمطبخ والاسطبلات والزرابي . ولا يبعد ان هذا التقسيم روعي باستمرار على طول العصور . واتبعت سرايات الملوك النظام نفسه كما يشاهد ذلك في تل العمارنة ومدينة هابو

والمادة الاساسية التي كانت تستعمل في بناء المنازل والسرايات هي اللبن المصنوع من طمي النيل وعرّش القوم اسقفهم بالخشب وغطّوهُ بالقش او الغاب الممزوج من الداخل والخارج بالطين . اما العمد فكانت تصنع عادة من الحجر او الخشب وكانت تحلّى في السرايات بالاحجار الزاهية او الزجاج الملوّن . واعتاد سراة القوم ان يموهوا جدر منازلهم بالالوان البديعة وان يطلوها بالجير . وتجفيف اللبن كان بتعرضه للشمس . وبهذه المادة شاد المصريون ربوع عمالهم وقصور اغنيائهم ومستودعاتهم ومخازنهم وقلاعهم واسوار مدنهم .وذلك لرخص مادته وسهولة استعماله . وكان للبن مصانع خاصة . والمصانع الملكية كانت تختم كل طوبة من صنعها بالختم الملكي تذكاراً للعصر واثباتاً للمصنع. ولما كان المعمار يحتاج دائماً الى الاخشاب وكانت هذه الاخيرة قليلة في وادي النيل اضطرَّ القوم بحكم الضرورة ان يستعملوا اخشاب النخيل والجميز والاثل والسنط بالرغم من رداءة مادتها. ولندرة الخشب الجيد بالقطر كان ثمنهُ باهظاً . لذلك كان السراة يجلبون من سورية ما يلزمهم من خشب الارز . ومن هذا الاخير صنع النجّارون ما ادهش الناظر واخذ بلبّه

﴿ المقاييس الزراعية ﴾ — الفدان المصري القديم يقرب من اربعة اخماس الفدان الحالي ويعرف باسم (ساتا) وهو المعروف ايضاً باسم (أرورا) ويعادل عشرة آلاف ذراعاً مربعة . وقد جزأ القوم هذا الفدان الى نصف اورورا ويقال له (إرمن) وربع اورورا ويقال له (حسب) وثمن اورورا ويقال له (سا) وجزء من ستة عشر جزءاً من الارورا ويقال له (سو) وجزء من اثنين وثلاثين جزءاً من الارورا ويقال له (إرما)

أما مقاييس الطول فهي (١) الذراع الاعتيادي ويقرب من ٥٤ سنتمتراً ، (٢) الذراع الملكي (٧ اشبار او ٢٠ اصبعاً) ، (٣) الذراع الصغير (٦ اشبار او ٢٤ اصبعاً) ، (٤) الساعد (٢٠ اصبعاً) ، (٥) مقياس يقال له تشستر (١٦ اصبعاً) ، (٦) الشبر الكبير (١٤ اصبعاً) ، (٧) الشبر الصغير (١٢ اصبعاً) ، (٨) مقياس يقال له شپوي (٨ اصابع) ، (٩) المقبض (٦ اصابع) ، (١٠) اليد (٥ اصابع) ، (١١) راحة اليد (اربعة اصابع) ، (١٢) الاصبع

أما مقاييس الكيل فتتلخص في (١) الهنّ = $\frac{٩}{٢٠}$ من اللتر ، (٢) التنات = ٢٠ هنًّا ، (٣) ابت = ٤٠ هنًّا ، (٤) حتب = ١٦٠ هنًّا

تحوُّل الآراء الفلسفية

كما تبدو في قصائد

ملتن وپوپ ووردسورث وتنسن وشلي

اذا كان للافكار مرآة فالادب مرآتها . فيهِ تتجلّى نفسية الامة وآراؤها . ويتطوَّر الادب بتطوُّر التفكير في كل امة في كل عصر . والتعمق في درس ادب الامة، ولا سيما شعرها ، يبدي للباحث حقيقة حالها . على هذا الاساس اورد الفيلسوف هوينتهد ، استاذ الفلسفة في جامعة هرڤرد الامريكية ، في كتابهِ : (العلم والعالم الحديث) بحثاً ضافياً تناول فيهِ الرجعة عن العلم الطبيعي ، تحت عنوان : الردّة الرومنتيكية فاستخلصت منهُ هذه المقالة وتكاد تكون طبق الاصل ، مع حذف ما يمكن الاستغناء عنهُ من الاقتباسات والتعليق عليها [هنا خبازه]

***

لدينا اشعار ملتن وپوپ وشلي وورد سورث وتنسن . فنموذج ملتن كتاب : الفردوس المفقود والفردوس المستردّ[١] وهما مسبوكان في قالب لاهوتي ، امتاز بهِ الشطر الاول من القرن الثامن عشر ، من دون ان يتأثر بالعلم المادي . ونموذج پوپ كتاب : تلخيص في الانسان[٢] : وفيهِ نتبين الحركة العلمية التي لاح فجرُها في خلال الستين عاماً بين ملتن وپوپ . ونموذج وردسورث كتاب : النزهة Excursion وفيهِ ردّة واضحة عن عقلية القرن الثامن عشر . والمقصود بهذه العقلية هنا التسليم بالآراء العلمية الى اقصى مقتضياتها . لم يزعج ورد سورث ايُّ تناقض ذهني انما حفزهُ نفور اخلاقي ، فقد شعر ان ذهنية القرن الثامن عشر قد اهملت شيئاً وهذا الشيء الذي اهملت ينطوي في رأيهِ على كل ما هو خطير . اما تنسن ونموذجه الذكرى[٣] فلسان حال الرومنتيكية الآخذة في التقلص وهي تحاول ان توفّق بينها وبين العلم الطبيعي . ففي الشطر الثاني من القرن التاسع عشر ، كان اصحاب الفكر الحديث قد انقسموا الى فريقين متمايزين في فهمهم وتعليلهم « الطبيعة وحياة الانسان » . فوقف تنسن بين الفريقين موقف الحائر . وجد نفسهُ امام مذهبين متناقضين ، لكلٍّ منهما مرجع بديهي لا مندحة له عنهُ . اما المذهب الميكانيكي فهو الذي يزعجهُ . قال :

وهمست : النجوم سائرة على غير هدى

(١) Paradise Lost and Paradise Regained (٢) Essay on man (٣) In Memoriam

في هذا البيت تلخيص القضية الفلسفية التي انطوت عليها اشعاره . واليك البيان : —

تسير كل ذرَّة (في الكون) على غير هدى . وفي الاصل الانكليزي — سيراً اعمى — فالجسم الانساني ، وهو مجموعة ذرَّات ، اذاً يسير على غير هدى . وهذا ينفي التبعة الادبية في افعال الجسم. فانك ، وقد سلَّمت بان الذرَّة تسير سيراً جبريًّا ، مستقلاً عن حكم العقل ، خاضعاً لنواميس ميكانيكا عامة — اذا سلَّمت بذلك ، فلا مناص لك من انكار التبعة . ولكن الاختبار الذهني يستمَدُّ من حركة الجسد وعليهِ فتنحصر وظيفة العقل في قبول الاختبارات التي تقرَّر له ثم يضيف اليها اختبارات مستقلة تستمَدُّ من حركات الجسد . فلنا في شأن العقل نظريتان هما انكار الاختبارات المستقلة عن الجسد ، والتسليم بها . فبانكارها يسقط التكليف الادبي ، وبالتسليم بها يثبت . فيكون الانسان مسؤولاً عن افعاله العقلية ، ولو لم يسأل عن حركات الجسد الطبيعية . والصورة التي بها يتجنب تنسن هذه النتيجة هي مظهر ضعف الفكر في العصر الحديث

كانت هذه القضية على بساط البحث في عصر تنسن . وكان الفيلسوف جون ستوارت مِل يقول بالجبرية في هذا الصدد وقوله هذا كان يقتضي ان يكون النزوع البشري مسيَّراً لا مخيَّراً . وليس في هذا المذهب مخرج من المأزق الذي تحتِّمهُ الميكانيكا . لانهُ اذا كانت الارادة متحكمةً في الجسد فلا يكون سير ذراتهِ على غير هدى . واذا لم تكن الارادة حاكمةً فالعقل في حال من الاضطراب تستوجب اليأس

راج رأي مِلْ ، ولاسيا بين الطبيعيين ، لانهُ يؤذن بميكانيكا مادّية متطرفة . على انهُ لا يحلّ المشكلة لانهُ اما ان تكون الافعال البشرية حركات «على غير هدى» او لا . فان كان الاول فلا علاقة للعقل بحركات الجسد . والمخرج التقليدي من هذا المشكل ، — اذا صدفنا عن تجاهله — هو في ما يدعى المذهب الحيوي : Vitalism : لانهُ يأذن بسير الجوامد وفقاً لقواعد الميكانيكا ثم يضعف فعلها في الاحياء . على ان الثغرة بين الجوامد والاحياء غير جلية . فلا وزن لرأيٍ عرفي كهذا

الاشياء قسمان . عضوية وغير عضوية . تمتاز الاولى بمبدإٍ كلي يتوزع في الفروع الداخلة تحت الكلّ ، دخول الانواع تحت الجنس ، والافراد تحت النوع . فتنشأ بهذا الاعتبار في الحيوان الاحوال العقلية . وللاحوال العقلية اثر في تعديل حركات الذرّات في الجسم العضوي . حتى ان الكهارب وهي تسير على غير هدى في الجسم العضوي وفي الاشياء سواسية . ومع ذلك فسيرها في العضوي منطبق على خطة الجسم العامة ، بما فيه العلاقة العقلية

على ان التناقض بين ميكانيكا العلم الماديّ والبدائه الاخلاقية اللازمة لمصالح الحياة ، اخذ يتجسم مع مرّ العصور . وموقف كل عصر من هذا التناقض يبدو لك في مستهلّ القصائد التي ذكرناها . فقد جاء في خاتمة مقدمة الفردوس المفقود لملتن هذه الطلبة : —

ليتني اسمو بالعناية الى اعالي هذا البحث العظيم فأزكيّ طرائق الله للانسان

غرض ملتن في قصيدتيهِ الفردوس المفقود والفردوس المستردّ: تزكية طرق الله في معاملته الانسان وقد كرَّر ذلك في قصة شمشون

عدلٌ هي افعال الله ومزكَّاة في نظر الانسان

نتبين في ذلك ثقة راهنة لا تزعزعها جرف الشكوك التي قذفها العلم. فالفردوس المفقود نشيد وداعي لليقين الراسخ. والموازنة بين «الفردوس المفقود» واشعار پوپ في الانسان: ترينا التطور الذي وسم الفكر الانكليزي في خلال الفترة بين ملتن وپوپ. فقد خاطب ملتن العزة الالهية، اما پوپ فخاطب اللورد بولينبروك قائلاً:

اترك السخافات للمطامع السافلة وكبرياء الملوك. ودعنا (ما زالت الحياة لا تمكننا الاَّ من نظرة حوالينا يعقبها الموت) نستطلع احراراً مشهد الانسان — تيه عظيم! ولكن لا يخلو من منوال (نظام)

قابل هذا البيت الاخير «تيه عظيم: ولكنهُ لا يخلو من منوال» بقول ملتن «عدلٌ افعال الله». والامر الذي يجب ان نقف عنده في القولين هو رباطة الجأش في وسط عالم مصطخب. هي ثقة لا تساورها الحيرة التي ملكت مشاعر ابناء العصور الحديثة. كان رائد ملتن الاستسلام «لطرق الله» في معاملة الناس. وبعد جيلين نرى الثقة نفسها في شعر پوپ اذ يجد في اساليب العلم الحديث نظاماً كأنهُ خريطة لذلك التيه العظيم

ننتقل الآن الى «نزهة» وردسورث. وهي في الموضوع ذاته. جاء في مقدمتها النثرية انها جزء من مؤلف شعري فلسفي كبير، يشتمل على آراء في الانسان والطبيعة والهيئة الاجتماعية: قال في مطلعها

كان يوماً من أيام الصيف والشمس رأد الضحى

وكذلك ترى ان الردَّة الرومنتيكية لا تبدأ بالله كما في ملتن ولا باللورد بولينبروك كما في پوپ بل بالطبيعة. وفي ذلك رجعة محسوسة عن سمة القرن الثامن عشر. ادرك ذلك القرن الطبيعة بواسطة التحليل العلمي التجريدي. على اننا نرى وردسورث يستعيض من التجريد العلمي باختباره الحسيّ

بين «نزهة» وردسورث، وذكرى تنسن جيل من الاحياء الديني والتقدم العلمي. وكان الشعراء الذين سبقوهما يحاولون المشكل بتجاهلهِ، فلم يتسنَّ ذلك لتنسن. فبدأ شعره بما يأتي: —

ايها الحب الخالد. ابن الاله القدير. اننا ونحن لا نرى وجهك نعتقد وبالاعتقاد وحده نؤمن حيث نعجز عن البرهان

وكذلك ترى ان تنسن تقر في مستهلّ قصيدته على وتر الحيرة، اذ اشار الى الايمان القائم على الاعتقاد حيث نعجز عن البرهان

كان القرن التاسع عشر قرن حيرة لم يسبق لها نظير. ففي العصور السابقة كنت تجد فريقين متمايزين او نظريتين متناقضتين ولكن كلاًّ منهما كانت جلية واضحة. وكان اتباع كل نظرة لا تساورهم اية ريبة في صوابها وتقوم مكانة شعر تنسن بكونه مرآة عصره الخاصة. فقد كان كل فردٍ في عصره منقسماً على

ذاته . بخلاف المفكرين قبل ، اذ كانوا غايةً في الوضوح ، كديكارت وسبينوزا ولوك ولبنتز . ولكن في القرن التاسع عشر كان اقدر اللاهوتيين والمفكرين محيراً مضطرب الذهن . فكانت تتنازعهم تعاليم متناقضة ، انتجت بلبالاً لا محيص منهُ . بل ان متيو ارنولد ، كان اشدَّ جلاءً لهذه الحيرة من تنسن . قابل ذكرى تنسن بختام قصيدة ارنولد التي عنوانها : شط دوفر : حيث يقول

نحن هنا في ساحة قاتمة تجرفنا مخاوف مضطربة من النزاع والفرار حيث تصطدم جيوش جاهلة في الظلام

وقد ذكر الكردينال نيومن في كتابه : الابولوجيا : ان من أهم مزايا بوسي الاكليركي الانجليكاني العظيم انهُ : لم تقلقهُ حيرة عقلية : فيعيد بوسي بذلك ذكرى ملتن وبوب ووردسورث . فهؤلاء على الضد من تنسن وكلو وارنولد ونيومن نفسه لا تعلقهم حيرة فكرية ما . وقد اورد زعماء الرجعة الرومنتيكية اهم انتقادات الافكار العلمية في الشعر الانكليزي المعاصر للثورة الفرنسية والذي تلاها . وأعمق مفكري هـذه النزعة كولردج ووردسورث وشلي . أما كيتس فهو مثال الادب الذي لم يمسّه العلم الطبيعي

كان وردسورث هيّاماً بالطبيعة هيام سبينوزا بالله . وكان ايضاً مفكراً واسع الاطلاع ، فلسفي النزعة . وعلاوة على ذلك كان عبقريًّا . لكنه اوهن حجته بكراهيته العلم . فقد قال : نقتل لكي نشرح الجثث . يبين ذلك نقده العلم . وهو يأخذ على العلم غلوه في التجريد . ورأيه المتردد في اشعاره هو : ان حقائق الطبيعة الكبرى تفلت من المنهج العلمي . فلنا ان نسأل ماذا وجد في الطبيعة مما لا يعنو للبيان العلمي ؟ لا ريب في انهُ عرف ما لا ينكره احد وهو اختلاف الاحياء عن الجوامد . على ان ذلك لم يكن نقطته الرئيسية . بل فتنه مشهد الهضاب الباعث على الابتكار وهو يتعمق في نقد ما يحيط بنا من الغوامض التي تحاور كل عصر . وأهم اشعاره الكتاب الاول من الديباجة : المشحون بفتنة الطبيعة . جاء فيه قوله : —

يامجالي الطبيعة العلوية . والارضية . يا مرائي الهضاب . والهامات المواطن الخالية ! ايمكنني الظن . ان لك املاً ساذجاً باستخدامك . رسالة كهذه يوم فتنتني في خلال السنين . ابان لهوي بتسليات الصبا . في الكهوف والاشجار ، في الحراج والهضاب . ترسمين على كل شكل صفات الخطر او الشهوة ، فجعلتِ وجه الارض قاطبة . بفوزٍ وحبور وأملٍ وخوف . يضطرب اضطراب وجه البحر ؟ . . . . .

ارى في هذا الاقتباس من وردسورث شدة التقيُّد والتناقض في مشهد الطبيعة الذي يوحيه الينا العلم العصري . ويوضح وردسورث ، الى حدود العبقرية ، حقائق ادراكنا التي شوهها التحليل العلمي

ولكن موقف شلي ضد موقف وردسورث من حيث صبغته العلمية . فقد أحب شلي العلم ، وهو لا يني يوضح افكاره العلمية بأسلوب شعري . والعلم عنده رمز الفرح والسلام والبهاء . وكانت الهضاب عنده مختبرات كيميائية لا ملاهي كما كانت في نظر وردسورث . ومما يؤسف له ان نقّاد

شلي الاوربيين لم يدركوا حقيقته ، لبعد ما بين ذهنهم وذهنه لحسبوا معالجته للطبيعة ، شذوذاً مع انهُ السمط الذي يتخلّل اشعاره وينظمها . ولو ان شلي ولد مائة سنة بعد ولادته لكان نيوتن الكيماويين . فلكي نتمكن من قدر شلي قدره يجب ان ندرك افتتانه بالفِكَر العلمية والامثلة على ذلك في شعره لا تحصى فنكتفي بقصيدة : بروماتيوس المطلق : قال بلسان الارض : —

ادور تحت هرم من الليل ـ متجهة الى السماء ـ حالمة بالنشوة ، متمتمة بالفرح المظفر في نوتي المسحور

وهي صورة شعرية ما كان شلي يستطيع بيانها لولا مثال هندسي مرسوم في ذهنهِ

وللطبيعة عنده روعتها وجمالها . وهي في نظره كأن عضوي . فلو اتيح لرجل وصف مضمون العلم الاختباري لكان شلي ذلك الرجل . قال في قصيدة « مون بلان » :

الاكوان المادية الخالدة . تجري في العقل متتالية الامواج . آونة قاتمة — وأخرى باهرة . حيناً تسوء وحيناً تسرّ . حيث يستمد الفكر الانساني مددهُ . من نبوع سرّية لها نصف ضوضائه . كجدول لطيف في قلب الجبال . تنبجس مياهه على الدوام . وشلالاته دائمة الهبوط . فيتفجر ويزمجر

نظم هــذه الاشعار استناداً الى المذهب التصوري ، كنتيًّا كان او باركليًّا او افلاطونيًّا . وكيفما اولّته فهو شاهد على الوحدة التي تؤلف الطبيعة . فشلي وباركلي ووردسورث يمثلون البديهة نابذة العلم المادى الصرف . وهنالك تباين بين نظرتي شلي ووردسورث في الطبيعة . يراها شلي تغيراً وانتقالاً ، كريشة في مهب الريح قال :

كأشباح فارّة من ساحر

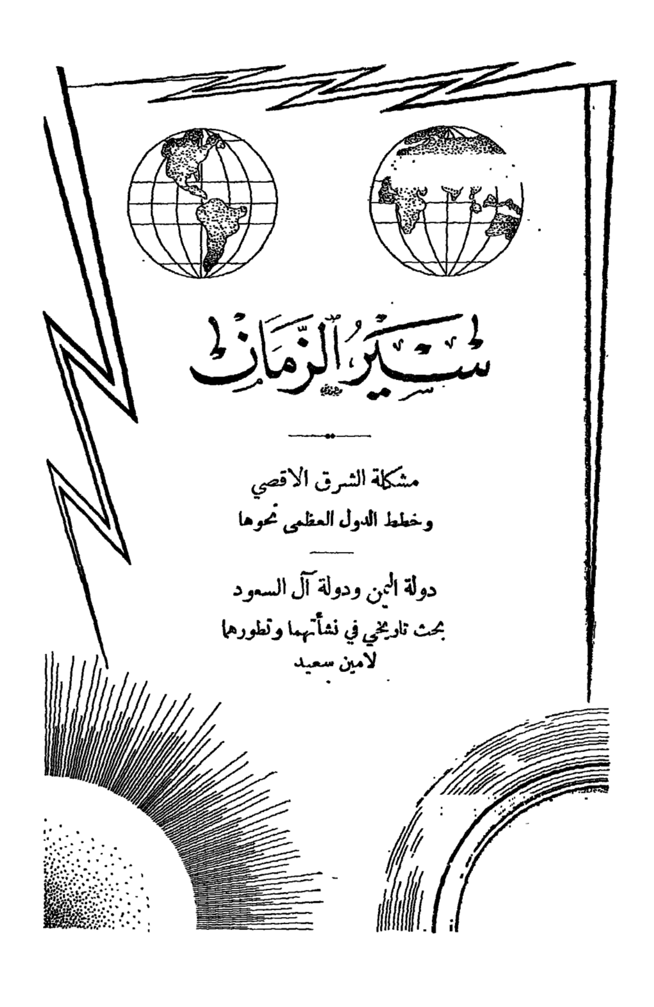
او كقولهِ في قصيدة الغيمة على لسانها « اتحوّل ولكن لا اتلاشى » . وهذا التغيُّر في الطبيعة ليس تغيُّر انتقال بل تحوّلاً في طبيعة الشيء . فتغير الاشياء التي لا تتلاشى هو ما علّق عليهِ شلي اعظم الشأن . اما وردسورث فنشأ في جبال جردٍ ، لا يؤثر فيها تقلب الفصول . فاستهواه ثبوتها فهو يرى تغيرها عرضاً : كسهم في نسيج الثبوت قاطعاً عرض البحار الهادئة الى أقاصي جزر الهبريدس . ففي كل جهدٍ في تحليل الطبيعة فعلان ، التغير والثبوت . يضاف اليهما ثالث هو : الابدية

فالادب الانكليزي القرن التاسع عشر هو مظهر التباين بين بدائهِ الفن ومقتضيات الميكانيكا العلمية . يصوّر شلي تغيُّر الاشياء تغيُّراً صوريًّا . اما وردسورث فشاعر الطبيعة ذات الجمال الرائع . وهنالك الموضوعات الابدية ، وهي عنده : النور الذي لم يحصره برّ ولا بحر :

ويشهد الشاعران ان الطبيعة غير منفكة عن القيم الفنية . وتنشأ القيم عن إنبثاث الكل في اجزائهِ . ونستخلص من اولئك الشعراءِ انهُ على الفلسفة ان تعنى بالاشياء الخمسة التالية :—

التغير : القيمة : الاشياء الخالدة : العضويات : الاصطحاب

فالحركة الرجعية الاوربية في مطلع القرن التاسع عشر هي كفلسفة باركلي قبلها بقرنٍ كامل ، تأبى الحصر في ادراكات العلم الصرف


سير الزمان
مشكلة الشرق الاقصي
وخطط الدول العظمى نحوها
دولة اليمن ودولة آل السعود
بحث تاريخي في نشأتهما وتطورهما
لامين سعيد

مشكلة الشرق الأقصى

وخطط الدول العظمى نحوها

من نكد الدنيا على العاقل في هذا العصر انهُ يستطيع ان يتكلم عن حرب بين اليابان وروسيا، وذكرى الحرب العالمية ما تزال حيّة في الاذهان. ولكن ذلك لا يمنع ان حرباً من هذا القبيل، خرجت عن كونها نظرية تحتاج الى تأييد، واصبحت احتمالاً لاينقصه الاّ تعيين ميعادهِ. فبعضهم يذهب الى ان هذه الحرب واقعة في هذه السنة، والبعض الآخر يذهب الى انها قد تتأخر سنة اخرى او سنتين. ولكن لا بدَّ من نشوبها على أية حالٍ. ولسنا نفشي سرًّا لا يعلمهُ أحد، اذا قلنا، نقلاً عن اوثق المصادر ان وزارات الخارجية، واركان حرب الجيوش، تعدّ معدّاتها على اساس ان هذه الحرب ناشبة بعد بضعة شهور. وقد نتجاهل ما تفعلهُ وزارات الخارجية او أركان حرب الجيوش من هذا القبيل، لانّ اقلَّ باعث من الخطر يحملها على اعداد المعدّات للحرب. ولكننا مع ذلك نظلّ مالكين لطائفة من الأدلة تشير الى ان الحرب واقعة لا بدَّ منها. خذ مثلاً على ذلك عنف العبارة في البلاغات الروسية الى اليابان، وهو لا يتسرّب عادة الى لهجة المذكرات بين امتين الاّ اذا كان الجوّ مضطرباً بينهما والصلة متوترة. واجماع الروس، سواءٌ في ذلك صحافتهم وزعماؤهم، على استعمال هذه العبارات العنيفة في مخاطبة اليابان، يدلُّ على ان الامر جدٌّ كلَّ الجدّ. ثم ان هناك أدلة اقوى من الادلة المبنية على الكلام وتصريحات الرجال المسؤولين. هناك عناية روسيا بحشد جيوشها في شرق سيبيريا وجمع كلِّ ما تستطيع جمعهُ من مواد الحرب وذخيرتها في النقط الرئيسية وتعبئة اسطول جويّ كبير في مدينة ڤلاديڤستوك وهي اقرب المرافىء الروسية في الشرق الاقصى الى اليابان. ومنذ ما فتحت اليابان مقاطعة منشوريا سنة ١٩٣١ عمدت روسيا الى تعزيز مكانتها العسكرية في سيبيريا، مع ان هذا التعزيز اقتضى منها ان تهمل قليلاً مشروعها الصناعي الكبير، العزيز على قلبها

وكانت نتيجة كل هذا ان قوى روسيا واليابان متواجهة الآن في سيبيريا وكوريا ومنشوريا. لاريب ان الصحف هوّلت بكثير من الحوادث ولكن لا ينكر احد ان حوادث وقعت بين الفريقين

والاسباب التي تحملنا على الاعتقاد بأن النزاع قد يتأخر قليلاً بين هاتين الدولتين في الشرق الاقصى هو (اولاً) ان روسيا سوف تجتنبه بكل الوسائل المستطاعة، الاّ اذا اطلقت اليابان العنان، وغزت بعض الممتلكات الروسية و (ثانياً) ان اليابان قد تحاول في الغالب ان تضبط نفسها الآن، او بالحري ان تضبط دعاة الحرب من ابنائها

وليس القول الاول مبنيًّا على محاولة تصوير روسيا بصورة المحبّ للسلام على اطلاق القول. لان

ذلك ليس صحيحاً بوجهٍ عام . وروسيا ما زالت من سنة ١٩١٩ مستعدةً للحرب في سبيل المحافظة على كيان الجمهورية السوڤيتية . ولكننا نقوله لان الحرب ، اذا خاضتها روسيا الآن ، تبطىء عمل التعمير الداخلي ، الذي وجّهت روسيا اليهِ كلَّ عنايتها في العهد الاخير . ونحن لا نعتقد ان روسيا واهمة ، في امكان الافلات من حربٍ مع اليابان ، بل هي ولا شكَّ تدرك ان يوم الحساب معها قادم لا ريبة فيهِ . ومع ذلك ظلّت روسيا لا تحرّك ساكناً رغم فقدها لمكانتها الاولى في سيبيريا ، وتهديدها بفقد مكانتها في مغوليا الخارجية . وسوف تظلُّ كذلك ، حتى تتمّ استعدادها — الاَّ اذا هُتِكت حرمة اراضيها في سيبيريا

اما اليابان فاما ان تنفّذ خطتها بسرعة او قد يتعذَّر عليها تنفيذها على الاطلاق . فكرُّ الزمان ضدُّ اليابان في مغامرتها مع روسيا . ذلك ان كل سنة تمرُّ ، تجعل روسيا ، وهي اقوى من اليابان من جميع الوجوه العسكرية والصناعية . فاذا تمَّ ازدواج سكة حديد سيبيريا ، وانشاء المراكز الصناعية في سيبيريا ، فقدت اليابان ما تمتاز بهِ على روسيا الآن ، من الوجهة العسكرية. والراجح في نظر الثقات انهُ اذا كانت اليابان تنوي ان تغزو شواطىء سيبيريا ، لتجعل كلَّ الاراضي التي تحيط ببحر اليابان ، شواطىء يابانية ، فعليها ان تفعل ذلك الآن ، او على الاقل عليها ان تحاوله الآن ، قبل ان تعزَّز قوى روسيا في الشرق الاقصى . ولكن يقابل ذلك (اولاً) النفقات الهائلة التي تقتضيها الحرب ، مع ان حالة اليابان المالية الآن ، لا تسمح بهذا .(وثانياً) اضعاف اليابان ازاء الولايات المتحدة الاميركية . فعسكريو اليابان يرون العقبة الاولى التي تحول بينهم وبين تحقيق حلمهم في التوسع العالمي ، هي الولايات المتحدة الاميركية لا روسيا . وليست ولايات سيبيريا البحرية ، الاَّ شيئاً صغير ، ازاء السيطرة على الصين . وخصمهم الاول في السيطرة على الصين ، هو اميركا لا روسيا . حتى اذا خضعت لهم روسيا في الشرق الاقصى ، تبقى الولايات المتحدة في حرز حريز ، تناوئهم وتؤلب عليهم العالم ولذلك يجب ان لا يفعلوا ما يضعفهم ازاءها

***

من ذلك نستطيع ان نستنتج ان الحرب بين روسيا واليابان ، قد لا تنشب هذه السنة . ولكن ذلك لا يهمُّ . وسواءٌ انشبت هذه السنة او السنة القادمة او السنة التي تليها فالشرق الأقصى في حالة حرب الآن . ذلك انهُ لما كانت منشوريا بلاداً مستقلة استقلالاً ذاتيّـا ، كانت كالمجنّ بين روسيا واليابان. فلما زال المجنّ تقابلت القوى الروسية واليابانية وجهاً لوجهٍ . بل هناك ما هو انكى من ذلك

لليابان في شرق آسيا جناح معرّض لروسيا الاسيوية . ولروسيا هناك جناح معرّض لليابان كما يبدو لك من مراجعة الخريطة . وموقع كل من هذين الجناحين يقلق صاحبهُ ، اذا بدا من خصمهِ ايُّ ميل لاقلاق الحالة الراهنة . وكلتا الدولتين لها مطامع اسيوية حيوية . أما اليابان فمطامعها استعمارية . وأما روسيا فمطامعها من قبيل ما تقتضيه النزعة الشيوعية وفلسفة الثورة العالمية من تشجيع الانقلاب

الشيوعي حيث تستطيع . ففي اليابان قوى خفية تدفعها غرباً . وفي روسيا قوى خفية تدفعها شرقاً . ولا بدَّ يوماً ما ، من ان تلتقي الدولتان ، لانهما سائرتان في وجهتين متقابلتين في خط مستقيم . فاليابان تهاجم الآن . وروسيا ساكنة تستعدُّ . وهذه حالة دولية لا يمكن ان تبقى مستقرة زمناً طويلاً . وما لم تحدث ثورة عالمية ، او انهيار اقتصادي عام او انحلال اليابان او روسيا من الداخل ، او انتصار الولايات المتحدة الاميركية على اليابان اولاً ، فلا بدَّ من وقوع الاصطدام — قد يكون ذلك قبل نهاية هذه السنة وقد يتأخر سنة او سنتين

فاذا جاء هذا الاصطدام انتقل مركز القوى السياسية العالمية الى آسيا . بل ان الغرب ، قد بدأ يحسُّ بهزَّات الزلزال قبل وقوعهِ ، على ما رأينا من اثر فتح اليابان لمنشوريا في جمعية الامم وعهدة كلوج والآمال الذاوية بخفض السلاح . فاذا نشبت الحرب ، اضطربت آسيا ، كأنها بحر هبَّ عليهِ إعصار ، وتعيَّن على الدول الغربية ، ان تجيب عن مسائل خطيرة ، ترتبط بمستقبلها ومصير العالم . قد يجد القارئ في هذه الكلمات ، نوعاً من التشاؤم الذي لا مسوّغ له ، ولكننا نذكر ما كتب في المجلات البريطانية عن البلقان سنة ١٩١٣ ، وكيف ملَّ الناس تشاؤم اولئك الكتاب ، وكيف حققت الحوادث كلَّ ما انذروا به

ومما لا ريب فيه ان الحرب في آسيا لا بدَّ ان تشمل الصين ، شمولاً مباشراً او غير مباشر . اذ لا يمكن ان تنشب حرب في شرق آسيا من دون ان تشمل الصين . ثم ان الصين لا ترغب في الغالب ان تظلَّ بمعزل عن تلك الحرب . اذ لا بدَّ من ان تدور رحى القتال في منشوريا ، ولا بدَّ كذلك من ان تتصل بالصين الشمالية . وعندئذ لا بدَّ للعصابات الصينية من ان تشنَّ الغارات على القوى اليابانية فتحاول ان تنسف الجسور ومحطات السكك الحديد ومخازن الذخيرة . فتردُّ اليابان على ذلك ، بالانذار اولاً ثم بالتهديد ثم بأخذ الثأر . ولا بدَّ للصين من ان تحاول جهدها ان تعرقل اعمال اليابان الحربية اقتصاصاً منها . ذلك ان صدور الصينيين تغلي فيها مراجل الحقد على اليابان ، منذ ما اطلق هؤلاء قنابلهم على شنغاي . ومما يزيد في مرارة الصينيين انهم يشعرون بهذا الحقد وبعجزهم عن أخذ الثأر . فاذا سنحت لهم الفرصة فلن يدعوها تفلت . فاذا نشبت الحرب بين روسيا واليابان سرت في الصين موجة من الامل باسترداد ما انتزعته اليابان منهم ولذلك فالراجح انهم يقفون في المعترك الى جانب الروس

يضاف الى ذلك ان الشيوعية — او ما يعرف بالشيوعية في الصين — قد اصبحت راسخة القدم في غير ولاية واحدة من ولاياتها . وهي آخذة في الانتشار ، لما منيت بهِ البلاد من الحروب الاهلية وفساد الحكم . وقد يتاح لها الفوز فيها . فاذا خاضت روسيا غمار حرب مع اليابان ، فالراجح ان دعاة الشيوعية يصوّرون روسيا في هذه الحرب ، بصورة « المنقذ » للصين من براثن اليابان . وهذا يساعد على انتشار الشيوعية في الصين . ومما لا ريب فيهِ انهُ اذا كان النصر حليف روسيا ، فالصين بامرها تنقلب شيوعية ، وقد تقتصر شيوعيتها على شكل الحكم ، دون

فلسفتهِ ، ولكنها تنقلب شيوعية على كل حال ، وتنضوي تحت ظلّ الشيوعية الروسية . وعند ذلك ينبثُّ الضباط الروس والممثّلون المدنيون الروس في ولايات الصين يحكمون البلاد جنباً الى جنب مع الحكام الصينيين . ولما كانت خطة روسيا واضحة جلية ، والصين تتلمس طريقها تلمُّساً ، فالراجح في حالة من هذا القبيل ، ان كل القرارات الخطيرة الخاصة بالصين ، توضع لها حينئذٍ في موسكو

قد يسهل ان نتصوَّر النتائج ، ويعسر ان نغالي فيها . اذا انضوت الصين تحت لواءِ روسيا ، عنى ذلك ان الجانب الاعظم من آسيا قد اصبح شيوعيًّا . وكذلك يصبح ثلث البشر منضوياً تحت العلم الاحمر ، وتكون الثورة الاجتماعية ، قد بلغت حدود الهند من ناحية والهند الصينية من ناحية اخرى ، وجزائر الفيلبين وجزائر الهند الشرقية الهولندية . وفي معظم هذه البلدان تتبين الآن حركات قوية تطالب بالاستقلال عن حكم الدول الغربية . عند ذلك تعود المنافسة القديمة بين روسيا وبريطانيا للسيطرة على آسيا ، كما كانت في العقد الاخير من القرن الماضي . ولكن الدبّ الذي يسير كرجل — كما وصف كبلنج روسيا — يكون الآن على جبال حملايا يطلُّ من اعاليها على سهول الهند

واننا لا نستطيع ان نتصوَّر ان الحكومة البريطانية تقف ازاء تطوُّر الحوادث على هذا المنوال مكتوفة اليدين . ولما كان الجانب الاكبر من سياسة بريطانيا لا يرتجل ارتجالاً ، فالراجح انها لا تنتظر حتى تواجَه بالحالة الراهنة ، قبل ان تعيّن النهج الذي تسير عليهِ . فهي لن تقف وقفة المتفرج على اليابان وقد ادركها الخذلان . فلا بدَّ لها من ان تبتدع طريقة للتدخل . كيف تتدخل ؟ وهل تتدخل وحدها او بالاشتراك مع الدول الاخرى ؟ هذه هي المسائل التي تفرَض اجابتها على حكومة بريطانيا في حالة انتصار روسيا . ولا هي تستطيع ان تتجاهل هذه الاسئلة . فانها اذا مرَّت بها مرَّ الكرام ، كان عملها اول خطوة في التسليم بحل الامبراطورية . فبريطانيا لا تستطيع ان تسمح لروسيا باحراز نصر تام ، اذا شاءت ان تبقى لها المكانة العالمية التي لها الآن

ولا فرنسا، تستطيع ان تقف من ظفر روسيا وقفة المتفرج. لان روسيا عندئذٍ تستطيع ان تواجه قارة اوربا المنقسمة على نفسها ، علاوة على تهديدها امبراطورية فرنسا الاستعمارية في الهند الصينية . فهي كبريطانيا محتوم عليها ان تقرّر خطتها ازاءَ بطش روسيا باليابان . والواقع ان الدول الأوربية التي بنت امبراطوريات استعمارية — كبريطانيا وفرنسا وهولندا — لا تستطيع ان تتخذ خطة سلبية ازاءَ ظفر روسيا ، لان في ذلك قضاءً على امبراطورياتها

ولكن ما يكون موقف بريطانيا وفرنسا ازاءَ بطش اليابان بروسيا او احرازها نصراً تامًّا عليها ؟ فمن المرجح الذي في حكم اليقين، ان ظفر اليابان يتلوه ابتلاعها لشمال الصين وتحويلها جنوب الصين الى «حماية يابانية» . ذلك ان الصينيين يكونون بتصرفهم ضدّ اليابان — كما قدّمنا — قد منحوا اليابانيين الاعذار الكافية لاتباع خطتي « الابتلاع » و «الحماية» . حتى اذا وقف الصينيون بمعزل عن الحرب الدائرة ، وفاز اليابانيون ، فانهم لا تعوزهم البراعة في اختلاق الاعذار ، لابتلاع الشمال واخضاع

الجنوب لنظام الحماية . واليابانيون لا يعرفون ضبط النفس في ساعة الظفر . خـذ مثلاً على ذلك موقفهم سنة ١٩٣١ اذ تحدّوا العالم ، وحملوه على مواجهة احتلالهم لمنشوريا كحقيقة واقعة . فهم لذلك يشعرون بأنهم لا يقهرون . ومثل هذا الاعتقاد ليس غريباً عن العسكريين اليابانيين . بل ان جميع الطبقات العسكرية في التاريخ ، كانت تحسّ بأن لها رسالة سماوية يجب تأديتها بالفتح ، واليابان الحديثة خليط من النظام الحديث والعقائد الصوفية . فقد قال احد خبرائهم الحربيين ان الاوربيين عند ما يقدرون قوة اسطولنا الجويّ يقصرون في التقدير . ذلك لان الاوربي عند ما يعمل حساباً للمسافة التي تستطيع الطيارة ان تقطعها يحسب حساباً للذهاب وللاياب . اما طيارونا اليابانيون فلا يحسبون حساباً للاياب . ولذلك فالمسافات التي تقطعها طياراتنا الحربية هي ضعف المسافة التي تقطعها الطيارات الحربية الاوربية . فسياسة اليابان الخارجية قائمة على مزيج من العوامل منها الحاجة الاقتصادية واضطراب الحالة الداخلية وحبُّ العظمة والبسطة الاستعمارية والشعور بأن لليابان رسالة الٓهية تؤديها . وجميع هذه العوامل تتألب في حالة النصر الياباني على تذبيه شهوة الفتح . عند ذلك تتحوّل دعوى اليابان بأنها القيّمة على شؤون الشرق الاقصى ، الى رغبة في الامتلاك . وعند ذلك تصبح سيدة آسيا من بحيرة بيقال الى نجد التبّت . فاذا تمّ ذلك كان النصر الياباني ، موازياً في خطره لخطر النصر الروسي ، في عيون دول اوربا . قد يكون نصر اليابان اقلّ من خطر النصر الروسي في نظر الامبراطورية البريطانية . ووجه ذلك ان خطر بسطة اليابان الظافرة ، لا يقترن بدعاية ثورية اجتماعية كالدعاية الشيوعية . فاليابان اذا فتحت يجب ان تفتح بالسلاح . واما روسيا فتضيف الى السلاح فكرةً واملاً برّاقاً ودعاية منظمة تغوي بها الشعوب الاسيوية لكي تهرع الى لوائها

ولكنهُ خطر عظيم على كل حال . لان بسط ظلها فوق جنوب الصين يجعلها على أبواب هنكنغ وسنقافورة والهند الصينية والفيلبين . وها هي ذي من دون جلالة الفتح تنافس المصانع البريطانية في الامبراطورية البريطانية بل في قلب بريطانيا نفسها . وقد ذاق البريطانيون الامرّين من منافستها هذه في السنتين الماضيتين . فكيف بها وقد فازت في الحرب مع روسيا ، وابتلعت شمال الصين وبسطت حمايتها على جنوبها ، وبدأت تتغلغل بأساليبها التجارية في سومطره وجاوى والهند الصينية والفيلبين ؟ ان أمم الغرب حينئذٍ يجب ان تستسلم لفقد كل املٍ بالاتجار مع هذه البلدان

ونحن لانعرف امة غربية واحدة ترضى ان تسلم بهذه الخسارة ، تسليماً هيّناً بل لسنا نعرف امة صناعية واحدة في الغرب ، تستطيع ان تحتفظ بمكانتها اذا هي سلّمت هذا التسليم . فالحالة الاقتصادية العالمية تقتضي من الامم الصناعية ، الاحتفاظ بأسواقها المالية ، بل والسعي الى إضافة اسواق جديدة اليها . وهذه ضرورة لا مناص منها وفوز اليابان على روسيا فوزاً حاسماً يجعل هذا التسليم امراً لا مندحة عنهُ

السياسة الاميركية الخارجية تقوم على ركنين الاول قاعدة مونرو وليس هذا مجال البحث فيها والثاني يتعلق بالشرق الاقصى ، وهو انها لا تسمح لدولة من الدول بان تحول دون حق الدول

الاخرى في استغلال الصين كسوق عالميّة للتجارة ، سواء أتمَّ ذلك بالضم الصريح ، او ببسط السيطرة الفعلية دون الاسمية . وقد دعي هذا الركن ، في سياسة اميركا الخارجية باسماء مختلفة واشهر اسمائه « سياسة الباب المفتوح » وقد حاولت اميركا ان تضمنهُ جميع المعاهدات والاتفاقات الدولية التي دخلتها ، آناً يذكر صراحةً وآناً لا يذكر . ولكن اميركا كانت تعني في كل حال مبدأ « الباب المفتوح ».والباعث لها على نهج هذا النهج هو باعث المصلحة الاقتصادية . فقد فكّر الاميركيون في البلدان التي تصحُّ ان تكون سوقاً لتوسعهم التجاري . فلم يجدوا من البلدان الكبيرة، التي لم تبسط عليها راية الاستعمار الاَّ الصين . ولذلك وضعوا هذه الخطة ، ورفضوا ان يسلموا الايّ كان بأن يوصدَ بابها في وجوههم . وكذلك تَراهم وهم ينشئون خطة للابتعاد عن الاشتباك في شؤون البرّ الاوربي ، قد انشأوا خطة تزيد من اشتباكهم في شؤون البرّ الاسيوي

ففي سنة ١٩٠٤ كانت روسيا على وشك ان تصبح الحائل الذي يحول دون هذه الخطة او بالحري كانت روسيا على وشك ان توصد باب الصين في وجه اميركا ، بما اتسع لها من نفوذ ، وانبسط لها من سلطان في تلك الارجاء ، فقاومت الولايات المتحدة روسيا . ولما نشبت الحرب الروسية اليابانية (١٩٠٤ — ١٩٠٥) وقفت اميركا في جانب اليابان قلباً وقالباً

ولما اصبحت اليابان اليوم وموقفها كموقف روسيا سنة ١٩٠٤ بدأت اميركا تقاوم اليابان . وما زالت تقاومها . بل ان مقاومة الولايات المتحدة لليابان ، اخذت تزداد بازدياد الخطر الذي يهدّد اميركا في هذه القاعدة الاساسية من قواعد سياستها الخارجية . بل ان الولايات المتحدة وقفت في سبيل اندفاع السيل الياباني العسكري فوق سهول الصين . وقد زاد احتجاج الولايات المتحدة على اليابان في هذا الصدد عنفاً وقوة لهجة من سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩٣١ لما احتلت اليابان مقاطعة منشوريا . وما تزال الولايات المتحدة ، ترفض ان تعترف بانفصال منشوريا عن الصين مع ان منشوكو (الاسم الجديد لمنشوريا) اصبحت امبراطورية ولها امبراطور متوّج . وما نزال نذكر السعي الذي سعاهُ الكولونل ستمسن وزير خارجية اميركا في عهد الرئيس هوفر ، وكيف ألّب مندوبي الدول في جنيف على المعارضة في احتلال منشوريا او الاعتراف بهِ

فاذا تذكرنا كلّ هذا فمن المتعذر ان نصدّق ان الولايات المتحدة الاميركية تقف مكتوفة اليدين امام انتصار اليابان على روسيا . وقد رأينا ان بريطانيا لا تستطيع ان تسلّم بنصر روسيّ كامل في الشرق الاقصى . وكذلك الولايات المتحدة الاميركية لا تستطيع تسلّم بنصر ياباني تام . قد تسلّم بنصر روسي في الشرق الاقصى ، مع ان مصالحها الاقتصادية تتعرض — بعد زمن — للخطر نفسهِ. ولكنها لا بدَّ ان تحاول منع اليابان من الظفر . فماذا تفعل اتتدخل ام لا تتدخل ؟ واذا شاءت التدخل فما وسائله ؟ وهل تعقد له المحالفات ؟ ومع مَن ؟ وما نفقاته ؟ لا ريب في ان الجواب عن هذه الاسئلة ، يقرر مقام اميركا في السياسة العالمية خلال قرن او اكثر من الزمان

دولة اليمن ودولة آل السعود

بحث تاريخي في نشأتهما وتطورهما

لامين سعيد

جلا الترك عن بلاد العرب في ختام الحرب العظمى عملاً باتفاق مُنْدروس المعقود بينهم وبين الحلفاء يوم ٣٠ اكتوبر سنة ١٩١٨ ثم تنازلوا في مؤتمر لوزان (دسمبر — يوليو سنة ١٩٢٣) عن سيادتهم عليها الى اهلها انفسهم لا الى دول الحلفاء وكانت تحتل الجزء العامر منها

وكان في جزيرة العرب يومئذٍ خمس امارات او حكومات تتنازع السيادة والفوز : امارتا الرياض وحايل في الشمال ودولة الحجاز في الوسط وصبيا وصنعاء في الجنوب . وكان العداء مستحكماً بين امرائها فابن السعود صاحب الرياض يناصب ابن الرشيد صاحب حايل العداء ويشن عليه الغارات وكان الحسين صاحب الحجاز ينفر من وجود الامارة الادريسية على حدوده الجنوبيـة ويعد صاحبها مغتصباً ويرى ان تهامة عسير جزء لا يتجزأ من الحجاز فيجب ان تعاد اليه وان يطرد ابن ادريس لانهُ دخيل مغتصب . وكان في نفس الامام يحيي بن حميد الدين من ناحية الامارة الادريسية ما كان في نفس الحسين فقد ساءه نجاح السيد محمد علي الادريسي في توطيد دعائم امارته وكان طامعاً فيها راغباً في الاستيلاء عليها لانهُ يعدها جزءاً من اجزاء اليمن . وزاد في نقمته عليهِ تسليم الانكليز للحديدة بعد الحرب الى السيد الادريسي وهي ميناء صنعاء الكبير وباب العربية السعيدة . ومعنى ذلك ان ابن ادريس كان بين عدوين قويين في الشمال وفي الجنوب يتربصان بامارته دوائر السوء ويكيدان لها المكائد ويترقبان الفرص للانقضاض عليها

ولم تكن العلاقات بين الحسين صاحب الحجاز وابن السعود صاحب الرياض على ما يرام مع ما كان الانكليز يبذلونهُ من مساعٍ للتوفيق والاصلاح بين حليفهم الحسين وصديقهم ابن السعود وقد كان الاول يعمل لاخضاع امارة الرياض لاشراف مكة كما كانت في عهد جده محمد بن عبد المعين اي بعد الغارة المصرية على الحجاز سنة ١٨١١ — ١٨٣٠ فقد خضعت لهم فترة غير قليلة

الانكليز والامارات العربية

وكان بين الانكليز وبين ثلاث من هذه الامارات اتفاقات تنظم علاقاتها بهم وربما كان السيد الادريسي صاحب عسير هو اول امير في جنوبي الجزيرة تعاقد مع الانكليز فقد اغتنم فرصة الحرب العظمى فعقد معهم في سنة ١٩١٥ اتفاقاً اعترفوا فيهِ باستقلال امارته وأمدُّوه بالمال والسلاح وأوفدوا في سنة ١٩١٥ بعثة الى ابن السعود لاستمالته واقناعه بدخول الحرب في جانبهم فعقدت

معه معاهدة العقير يوم ٢٦ دسمبر سنة ١٩١٥ وقد اعترفت فيها انكلترا بأن نجداً والحسا والقطيف وجبيلا وتوابعها هي بلاد ابن السعود كما اعترفت به حاكماً عليها وتعهد (ابن سعود) بأن لا يسلم ولا يبيع ولا يرهن ولا يؤجر الاقطار المذكورة ولا قسماً منها ولا يتنازل عنها بطريقة ما ولا يمنح امتيازاً ضمنها لدولة اجنبية او لرعايا دول اجنبية من دون موافقة الحكومة البريطانية وبأن يتبع مشورتها دائماً بلا استثناء على شرط ان لا يكون ذلك مجحفاً بمصالحه (مادة ٤) وتعهدت الحكومة البريطانية في المادة الثانية بمساعدة ابن السعود — بعد استشارته — اذا اعتدت دولة اجنبية على اراضيه

ونظمت العلاقات بين الانكليز والحسين على قاعدة غير هذه القاعدة فقد اعترفوا بالاستقلال التام للحجاز بدون قيد ولا شرط واعترفوا بدولته كما اعترفوا بالحسين ملكاً عليه . وعاملوه معاملة الند للند . نعم انهم لم يعقدوا معه اتفاقاً رسمياً كالاتفاق الذي عقدوه مع ابن السعود بيد ان العهود التي قطعوها له في ابان الحرب العظمى لا تدع شكاً في صحة ما ذهبنا اليه وقد ايدها الواقع فقد مثل الملك فيصل الدولة الحجازية في مؤتمر الصلح حين افتتاحه واعتبرت الدولة الحجازية من الدول المؤسسة لجمعية الامم ودعيت الى الاشتراك في اعمالها والجلوس بين اعضائها فحال دون ذلك رفض الحسين للتوقيع على معاهدة فرسايل فقد ابى ان يوقعها لاعتبارين جوهريين : ١ — لانها نصت على مبدأ الانتداب وهو لا يقره ٢ — لانها لم تعترف للعرب بالاستقلال التام وفقاً للعهود المقطوعة له[1]

فالخلاف بين الانكليز والحسين لم يكن على استقلال الحجاز وقد كان هذا مفروغاً منهُ وانما كان على مصير الاقطار العربية المحررة وهي العراق وسورية وفلسطين فقد كان يطالب بمنحها الاستقلال التام وفقاً للعهود المقطوعة له . على اننا نذكر ان الانكليز سعوا بعد الحرب لتصفية هذه العهود بمشروعين عرضوهما عليه وقد حمل الاول الكولونيل لورانس الى جدة في سنة ١٩٢٠ وحمل الثاني الدكتور ناجي الاصيل سنة ١٩٢٣ فلم يقبلهما الحسين ولم يقرها[2]

ولم تكن العلاقات بين الانكليز وابن حميد الدين في ذلك العهد على ما يرام فقد سعوا في ابتداء الحرب الى استمالته والتعاقد معه ، كما فعلوا مع الامراء الآخرين واستعانوا على ذلك بسلطان لحج حليفهم وصديقهم فأبى وأقام على ولائه للدولة العثمانية يرعى جنودها المحصورين في اليمن وقد جلوا بعد الهدنة فتسلمها وأنشأ هذه الحكومة في ربوعها

وكان الى جانب هذه الامارة والحكومات الخمس المتنافسة المتناحرة المتعادية امارتان صغيرتان الاولى في الجوف شرقي الشام يسيطر عليها آل الشعلان وكانت في الاصل خاضعة لآل الرشيد في حايل فلما ضعف شأنهم جاهرت بالانفصال عنهم وامارة آل عايض في ابها (شرقي نجد) وغرب امارة صبيا فقد استقل هؤلاء في ابها (عسير السراة) وتسلموها من الترك حين جلائهم في سنة ١٩١٨

(١) عالجنا هذا الموضوع وتوسعنا في بحثه ونشرنا النص الكامل لهذه العهود وتبلغ نحو ١٥ عهداً في كتابنا الثورة العربية الكبرى وهو يطبع الآن في مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر ويقع في ثلاث مجلدات ويصدر في شهر يوليو المقبل
(٢) نشرناها بنصهما الكامل في الكتاب ايضاً

انتصار ابن السعود في نجد والحجاز

تلك كانت حالة جزيرة العرب من سنة ١٩١٨ حتى سنة ١٩٢١ : ثلاث امارات في الشمال : آل الشعلان وآل الرشيد وآل السعود ، وثلاث في الجنوب : ابن حميد الدين وابن عايض وابن ادريس وفي الوسط الحجاز صاحب الدولة المستقلة وحليف الحلفاء وصاحب الجيش المنظم والمطالب بالسيادة على هذه الاقطار كلها والساعي ليحل محل الدولة العثمانية في السيطرة عليها

والواقع ان مطامع الحسين ما كانت تقف عند اخضاع الامارات العربية لسلطانه بل كان يسعى لانشاء دولة عربية كبيرة تضم الاقطار العربية المحررة ونعني بها العراق والشام وفلسطين وقد خاض الحرب لاجلها ، وكانت مسألة الامارات العربية في داخل الجزيرة ثانوية في نظره ولا نشك في انه لو فاز في تنفيذ هذه الخطة وانشأ الامبراطورية العربية الكبرى — وقد رسم حدودها في مكاتباته مع الانكليز وهي تمتدّ حتى خليج فارس وحدود ايران شرقاً وسلسلة جبال طوروس شمالاً والبحر الأحمر غرباً وعدن جنوباً — لساد العرب كلهم في داخل الجزيرة وفي خارجها ولساد هذه الامارات وسيطر عليها واصبح سيد العرب غير مدافع

واول اخفاق سياسي اصيب به الحسين هو تملص الحلفاء من عهودهم الصريحة ومنعهم اياه من التدخل في شؤون العراق وانشاؤهم ادارة بريطانية في فلسطين واصدارهم وعد بلفور لليهود ونزول الفرنسيين في الساحل الشامي ثم تقويضهم الدولة الفيصلية في دمشق . اما خيبتهُ العسكرية فقد تمّت يوم تربه فقد مزّق السعوديون الجيش الكبير الذي اعدّه وسيره الى الرياض في ربيع سنة ١٩١٩ لفتحها والقضاء على الامارة السعودية فكان ذلك اليوم مبدأ تألق كوكب ابن السعود كما كان مبدأ افول نجم الدولة الهاشمية الجديدة ولم تلبث ان هوت في سنة ١٩٢٤ تحت اقدام الغزاة السعوديين

وشجع ابن السعود ما لقيهُ انصاره من نصر في تربه[1] وما غنموه من معدات وذخائر واموال — وكان يرقب سير المعركة عن بعد ولم يشترك فيها بالذات — فزحف على حايل عاصمة آل الرشيد ولم يزل يطاولها وينازلها حتى استسلمت اليه يوم ٢ نوفمبر سنة ١٩٢١ وقاد أميرها محمد بن متعب ابن الرشيد أسيراً الى الرياض ولا يزال فيها حتى الآن . ثم اتبع امارة آل الشعلان في الجوف بامارة آل الرشيد فاستولى عليها وضمها الى املاكه واتجه في سنة ١٩٢٢ نحو عسير فدك امارة آل عايض ثم زحف على الحجاز في سنة ١٩٢٤ فاستولى عليه ايضاً وفي سنة ١٩٢٦ دخلت امارة الادارسة في تهامة عسير تحت حمايته وأشرقت شمس سنة ١٩٢٧ على بلاد العرب وابن السعود يسيطر على شمالها وشرقها وجنوبها وغربها ووقفت جيوشه في الجنوب عند حدود ابن حميد الدين صاحب اليمن الذي اصبح وجهاً الى وجه امام ابن السعود مكتسح الامارات ومبيدها

---

(١) وقعت معركة تربه ليلة ١٧ مايو سنة ١٩١٩ فقد بيت النجديون الجيش الهاشمي عند الفجر فأفنوه ومزقوه . ولم تدر غير هذه المعركة بينهم وبينه .

اول صدام بين اليمانيين والسعوديين

واول مرة وقف فيها زعيما الجزيرة وجهاً الى وجه كانت في سنة ١٩٢٦ فقد حمل ابن حميد الدين في سنة ١٩٢٤ على الادارسة في تهامة فاستولى على مدنهم الشمالية وتقدم حتى ميدي . نخاف هؤلاء العاقبة فلجأوا الى ابن السعود وعقدوا معه معاهدة مكة يوم ١٩ اكتوبر سنة ١٩٢٦ ودخلوا بمقتضاها في حمايته فارسلها على الفور بنصها الكامل مع كتاب الى ابن حميد الدين يرجوه ان يصدر الامر الى قواده بالكف عن مهاجمة امارة الادارسة لانها في حماه . وقد كانت مفاجأة عنيفة فوجيء بها الامام فاما ان يقر المعاهدة ويعترف بها وبذلك تفلت الامارة من يده وقد كان طامعاً باستصفائها والقضاء عليها . واما ان يرفضها ويأمر عبد الله بن الوزير قائد جنده في تهامة بمواصلة الزحف فيصطدم بابن السعود ويدور القتال بين سيد الشمال وسيد الجنوب وتقع الوقعة الكبرى

وجنح الامام الى السلام واقرّ الامر الواقع وابلغ قائده بأن يوقف رحى الحرب ولبى دعوة ابن السعود الى المؤتمر الاسلامي في مكة سنة ١٩٢٦ واشترك فيه فأرسل اليهِ هذا الرسل مع الهدايا في سنة ١٩٢٧ فقابله بالمثل وارسل اليهِ في شهر ابريل سنة ١٩٢٨ وفداً من السيد قاسم بن حسين والسيد محمد بن زبارة والسيدعباس بن احمد ومعهم حاشية فشهدوا الحج سنة ١٣٤٦ وكانت مهمة الوفد مفاوضة ابن السعود في تحديد الحدود بين البلادين وفي عقد معاهدة تنظم علاقاتهما . وعاد يحمل الى الامام مقترحات للاتفاق لم تنل من جانبه قبولاً

معاهدة العرو

وتعددت الرسل والوفود في خلال الفترة المنقضية بين سنة ١٩٢٨ — ١٩٣١ بين صنعاء والرياض للاتفاق على تحديد الحدود وسافر مندوبو الفريقين الى عسير ليبدأوا بالعمل « فاجتمعوا يوم ٢٥ جمادي الثانية سنة ١٣٥٠ (سبتمبر سنة ١٩٣١) في مكان يسمى النظير واقترح السعوديون ان يجلوا اليمانيون عن جبل العرو الذي احتلوه ، الى خط الحدود الاصلي فأبى مندوبو هؤلاء واصروا على الاحتفاظ بالجبل ورفع كل مندوب الى حكومته الامر طالباً تعليماتها فاتصل الملك بالامام اتصالاً برقياً فاجابه انهُ يحكمه في الخلاف فأبرق اليهِ قائلاً بأنهُ يتنازل عن الجبل لليمن حلاً للاشكال

وعقد المندوبون على الاثر معاهدة وقع عليها يوم ١٥ شعبان ١٣٥٠ جاءَ في المادة الاولى منها ما نصهُ « يكون على الدولتين المحافظة على الصداقة وحسن الجوار وتوثيق عرى المحبة وعدم ادخال الضرر ببلاد كل منهما على الآخر وجاءَ في المادة الثانية يكون على كل من الدولتين تسليم المجرمين السياسيين وغير السياسيين المحدثين بعد هذه الاتفاقية كل لحكومته عند طلب حكومة له وجاءَ في المادة الثالثة يكون على كل من الدولتين معاملة رعايا الدولة الاخرى في بلادها في جميع الحقوق طبق الاحكام الشرعية

ثورة الادارسة

ولقد كنا نظن ان العلاقات السياسية استقرت بينهما على اثر عقد هذه المعاهدة . بيد ان ثورة

الادارسة على ابن السعود في سنتي ١٩٣١ — ١٩٣٢ اثبتت ان الامر على الضد من ذلك فقد لجأ امراء العائلة الادريسية وانصارهم الى اراضي الامام في تهامة حينما تغلب عليهم السعوديون فاواهم اليمنيون عملاً بسنن العرب واجزلوا قراهم . ولما كانت معاهدة العرو تقضي على الامام بتسليم هؤلاء وكان تسليمهم يلبس اليمن لباس الخزي والعار فقد عجل الامام يحيى فارسل في اواخر شهر فبراير سنة ١٩٣٣ برقية الى ابن السعود يعلنهُ بوصول السيد الحسن الادريسي ومعهُ جملة من اصحابه وحاشيتهِ الى ميدي ويرجوه منحهم الامان الكامل المطلق والعفو عن كل ما حدث فاجابهُ ببرقية قال فيها ان جميع من التجأ اليكم له امان الله على ماله ودمه وانهُ عفو تام شامل عن جميع ما مضى وحدث في هذه الفتنة الشيطانية سواء حقوق الحكومة او حقوق الاهلين وان جميع من اعطيتموه الامان والمكان فهو تام على وجه ما يحذرون شيئاً سواء في ذلك الحسن (السيد الحسن) وآله وغيره من الرعية

فاجاب الامام ببرقية قال فيها انهُ كتب الى جميع العمال بارجاع كل من لديهم على وجه السرعة وطرد من تأخر وطلب منهُ بان يحرر للسيد الحسن ومن اليهِ « بتحرير عفو وامان له خاص » فرد عليهِ شاكراً له سعيه للاصلاح وقال انهُ يعطي امان الله وعهده للحسن ومن تبعه على دمه وشرفهِ وان جميع ما فات منهُ لايعاقب عليهِ وانهُ سيكون اخاً عزيزاً له . ومع كل ما جرى فقد ظل الادارسة ومن معهم في ميدي ولم يعودوا الى عسير كما وعدوا وتوسط الامام ثانية فتقرر عقد مؤتمر في ميدي يحضره السيد الحسن ورجاله ومندوب لابن السعود ومندوب للامام . وقد عقد هذا المؤتمر في اواخر شهر شوال سنة ١٣٥١ واستمر شهرين وانفضَّ من دون نتيجة فقد طلب الادارسة اعادة الحالة في عسير الى ما كانت عليهِ قبل الثورة واصرَّ مندوب ابن السعود على تقديم الخضوع بلا قيد ولا شرط

مفاوضات صنعاء

وقبل ان تحل مشكلة الادارسة ارسل الملك عبد العزيز رسولاً الى الامام يحيى محمد بن ضاوي يحمل اليهِ اقتراحات لعقد معاهدة دفاعية بين البلادين لمدة عشرين سنة وانشاء اتحاد جمركي وبريدي وقبول مبدأ التحكيم في ما يحدث من خلاف على ان يكون الحكم طبق احكام الشريعة الاسلامية فاجاب الامام بالموافقة مبدئيًّا وطلب تعديل الحدود من جهة عسير ومعنى ذلك ان يتنازل له عنها

وفي شهر ابريل سنة ١٩٣٣ ارسلت حكومة مكة وفداً تألف من خالد بك القرقني وحمد السليمان الى صنعاء لمفاوضة الامام في دائرة تلك المقترحات ، ولم يكد يحط رحاله فيها حتى مرض الامام فانتظره نحو شهرين تقريباً لم يعمل في خلالها عملاً يستحق الذكر

وبينما كان العالم العربي ينتظر ورود الاخبار من صنعاء حاملة بشرى الاتفاق فوجئ يوم ١٠ اغسطس بنبأ اذاعتهُ المصادر السعودية في مصر وخلاصته ان الامام طلب في اثناء المفاوضات تخلي ابن السعود له عن مقاطعة الادارسة في تهامة او عن قسم منها وادخال منطقة نجران في داخل الحدود اليمانية وانهُ ارسل القوات فاحتلَّت نجران كما منع الوفد السعودي عن السفر

ولما وصلت هذه الاخبار الى صنعاء كذبها الامام تكذيباً قاطعاً وقال انها من صنع دعاة السوء وكذبتها حكومة مكة ايضاً واستؤنفت المفاوضات البرقية بين الملك والامام واذيع في اواخر شهر يناير الماضي ان الاخير قبل مبدئيًّا مقترحات الحكومة السعودية لتنظيم العلاقات بينهما وهي :
١ — الاعتراف بالحالة الحاضرة في عسير ٢ — عقد معاهدة دفاعية ترمي الى المحافظة على سلامة الجزيرة وتعزيز القضية العربية ٣ — تنظيم العلاقات التجارية والاقتصادية وعلاقات القبائل وطرق معاملاتها في اثناء تنقلاتها ٤ — تأجيل البت في مصير مقاطعة نجران الى فرصة اخرى

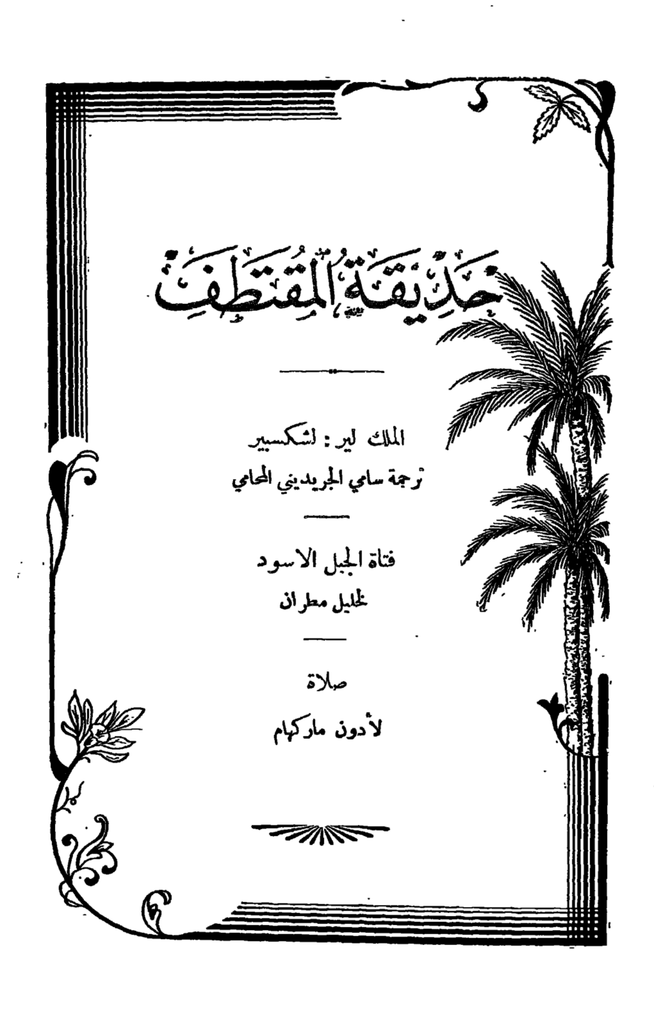
ووافق الامام ايضاً على عقد مؤتمر في ابها يشترك فيهِ مندوبو الحكومتين للبت في هذه الشؤون والتوقيع على الاتفاقات الخاصة بها

مؤتمر ابها

عقد هذا المؤتمر في اواخر شهر فبراير الماضي ومثل الحكومة اليمانية فيهِ السيد عبد الله بن الوزير ومثل الحكومة السعودية وكيل خارجيتها وبدأ عمله في جوٍّ صافٍ اعتقدنا معهُ ان التوقيع على المعاهدة لايلبث ان يتم ولكننا فوجئنا يوم ٢٢ مارس ١٩٣٤ ببلاغ رسمي اذاعته الحكومة السعودية بانقطاع العلاقات بينها وبين اليمن وهذا نصهُ : « بالرغم من استنفاد جميع الوسائل السلمية بقي الامام يحيي ماضياً في خطته العدائية نحونا كاحتلاله جبالنا في تهامة واستعماله القسوة مع اهلها ، فضاعت بذلك الجهود التي بذلت في خلال سبعة اشهر وقد اصدر جلالة الملك امراً الى سموّ ولي العهد بالزحف الى الحدود واسترداد المناطق التي احتلها جنود الامام يحيي منتظرين فرصة المفاوضات »

بهذا البلاغ وبما تلاه اعلنت حكومة مكة وجود حالة الحرب بينها وبين حكومة الامام يحيي فاضطرب العالم العربي ووجل خوفاً مما قد تُسفِر عنهُ من نتائج سيئة وارسل البرقيات والرسائل الى الملكين يرجوهما الكف عن القتال فردّ الامام يحيي يوم ٧ ابريل على برقية لسموّ الامير عمر طوسن ببرقية هذا نصها «بعد انتهاء المراجعات بيننا وبين حضرة الملك عبد العزيز والوفاق على امهات مواد المعاهدة كان منا ارسال المندوبين لعقد المعاهدة مضمرين كل صداقة واخوة للمشار اليه مستبشرين بصلاح الشأن وحقن الدماء حريصين على جمع كلمة المسلمين غير مجوزين شقاقاً . وفي خلال هذا وحضرة المشار اليه يحشد الجيوش في كل جهة حتى اذا اتم استعداده أفاد الينا انه موجه جيوشه علينا فاجبناه بكل لطف وصداقة وكنا افدنا الى حضرتكم في جوابنا انهُ سيكون اعتماد ارشادكم وثباتنا عند حد الدفاع فلم نشعر الاَّ بالتجمع الفعلي بالجنود المجندة للعدوان على اطراف بلادنا ومع هذا فلا ندري حتى الآن ما عليه مندوبنا في ابها . وقد رأينا من واجب الاخوة الدينية اعلامكم بالحقيقة»

واذيع في ١١ منه ان الامام يحيي طلب من ابن السعود وقف القتال وان هذا اجابه مشترط بعض شروط ومع انهُ مضى على ارسال الجواب اكثر من عشرة ايام فلم يرد ما يشعر بقبوله الشروط كما لم يرد ما يدل على ان الحرب اوقفت ولا يزال كل شيء من هذه الناحية مجهولاً حتى كتابة هذه السطور



حديقة المقتطف

الملك لير : لشكسبير

ترجمة سامي الجريديني المحامي

فتاة الجبل الاسود

لخليل مطران

صلاة

لأدون ماركهام

الملك لير : لشكسبير

ترجمة الاستاذ سامي الجريديني المحامي

المشهد الرابع من الفصل الثاني

امام قصر جلوستر والدوق كنت امين الملك مطروحاً ارضاً ورجلاه في مقطرة
يدخل الملك والمجنون وأمين من الامناء

الملك لير — غريب امرهم . يرحلون عن ديارهم سراعاً ولا يردُّون اليَّ رسولي
الامين — لم يكن الرحيل في نيتهم حتى ليل البارحة
كنت — السلام عليك ايها السيد النبيل
الملك لير — ما هذا ؟ أتعبث بنفسك فتلبس هذا العار ماجناً
كنت — لا يا مولاي
المجنون — ها . ها . انهُ متمنطق بجوارب قاسية . ان الخيل تربط من رؤوسها
والكلاب والدببة من اعناقها والقردة من احقائها اما الرجال فمن ارجلهم.
فاذا ما أُصيب رجل باسمٌ في رجله البسوه جوارب خشبية
الملك لير — ومن الذي تجاهل مقامك فوضعك هذا الموضع
كنت — هو وهي — ابنك وابنتك
لير—لا: كنت— نعم. لير—قلت لك.لا . كنت— وأنا اقول نعم.
لير—لا.لا.ما فعلوها . كنت—فعلوها. لير—والله لا . كنت—والله نعم.
لير — انهم لا يجسرون على هذه الفعلة . لا يقدرون . بل ولن يقدموا عليها —
انها افظع من القتل اذ يتعمدون اهانتي . اخبرني واتئد فيما تقول .
كيف استأهلت هذا القصاص وكيف اقدموا هم عليه وانت رسولي اليهم
كنت — عند ما جئت اليهم يا مولاي برسالتك اذا برسولٍ مسرع يلهث نصباً
جاء وأنا بعد لم انهض من تأدية السلام والاحترام بكتبٍ من مولاته
ابنتك جونريل فقرأوها بالحال ولم يعبأوا برسالتي ثم امروا اتباعهم
وشدوا الخيل وقالوا الحقْ بنا نعطك الجواب وتناقلوا بي فنظرت فاذا
الرسول الذي افسد عليَّ رسالتي هو ذلك الذي تطاول بقحته عليكم
فغلبتْ اذ ذاك شجاعتي حسن رأيي . فهممت بهِ بسيفي فملأ الفضاء
بصراخ الجن فجاء ابنك وابنتك وعاقباني بالعار الذي ترى

المجنون — اذا رأيت القطا يطير من هذه الناحية فاعلم ان الشتاء لم ينته بعد .
اذا تدثر الآباء برث الثياب عميت عيون الابناء عنهم اما اذا حملوا
الاكياس مثقلة بالذهب فقلوب الابناء تلين وتشفق . وسوف ترى من
آيات بناتك الرنانة ما لا تستطيع له عدًّا

لير — ما لهذا الداء العياء يصعد الى قلبي . انزل . خفف عني . فليس مكانك
ههنا — اين هذه البنيّة

كنت — مع الدوق في الداخل

لير — ابقوا هنا لا يتبعني احد . (يخرج)

الامين — اما تعدنّ اساآتك ما رويته لنا ؟

كنت — لا . وما الداعي ان يأتي الملك يحرسه هذا العدد القليل من الحراس ؟

المجنون — ان سؤالك هذا جدير بما انت فيه من العقاب

كنت — لماذا يا مجنون

المجنون — سأبعث بك الى النملة تعلمك ان لا عمل في الشتاء . الناس منهم من
تقوده عيناه فيبصر ومنهم من يعمى فيقوده انفهُ فيشم الرائحة . وكلا
الفريقين يهجر الملك . اذا رأيت عجلة تنحدر مسرعة من قمة الاكمة
فابعد عنها لا تمسها يدك لئلاَّ تقع وتدق عنقك اما اذا كانت تتسلق
صاعدة فاردف نفسك وراءها
ان رأيت حكيماً ينصحك بأحسن مني فارجع لي نصيحتي فليس للمجنون
ان ينصح غير الادنياء . ان الرجل الذي يلحق بك للكسب ويتظاهر بالود
لا يلبث اذا امطرت السماء ان يفرّ ويتركك فريسة للعاصفة ، اما انا فلن
ابرح الارض . دع العاقل يهرب اما المجنون فيبقى

كنت — اين تعلمت هذا يا مجنون

المجنون — ليس في المقطرة يا مجنون (يعود الملك مع جلوستر)

لير — ايمتنعون عني ويحتجون بالمرض والتعب وانهم لبثوا ليلهم كله سارين .
انها لاعذار فارغة ودليل المعصية والتبرم . هات جواباً خيراً من هذا

جلوستر — انك تعلم يا مولاي حدة الدوق وتصلبه في ما اعتزم

لير — يا للنقمة . يا لعون الموت . يا للارتباك . ماذا تقول ؟ تصلبه وحدة مزاجه ؟

اي جلوستر اي جلوستر اني اريد ان اكلم دوق كورنوال وامرأته
جلوستر — هذا ما نقلته اليهما يا مولاي
لير — نقلتَ اليهما ؟ الا تفهم ايها الرجل. جلوستر— نعم يا مولاي
لير — ان الملك يرغب في ان يرى كورنوال . ان الاب العزيز يريد ان يكلم ابنته
ويأمرها ان تجيء . هل نقلتَ اليهما هذا ؟ قسماً بحياتي اني لا افهم .
الدوق صعب المراس ! يا لك من دوق صعب المراس . قل لهذا الدوق
الحامي. . . . . لا . لا . مهلاً فقد يكون مريضاً والمرض خادم لا يكرم
العافية . وقد تضغط الطبيعة علينا فنذهل عن انفسنا ويمرض العقل
بمرض الجسد . ساصبر واكبح جماح غضبي

المشهد الثاني : الفصل الثالث
يدخل الملك لير والمجنون

الملك لير — اخفقي ايتها الارواح . مزّقي خدودك واغضبي وانفخي
وانتِ ايتها الاعاصير اقذفي بمائك حتى يطغى فيغرق المنائر المرتفعة
وانتِ ايتها النيران المحرقة المارة مرَّ الفكر المنذرة بصواعق تقدّ السنديان
قدًّا اشعلي بياض رأسي
وانتَ ايها الرعد القاصف اصعق هـذا العالم في دورانه واهدم بنيانه
وامحق نطفةً جاءت بابن آدم العقوق
المجنون — يا عماه ان مياهاً مقدسةً ملكية في دار جافّةٍ خير من ماء المطر في
خارجها . ادخل ادخل يا عماه واطلب بركة بناتك فهذا ليل لا يرحم
العاقل ولا المجنون
لير — اهدر حتى تشبع . ابصقي ايتها النيران واقذفي بمائك ايتها الامطار فليس
المطر والريح والرعد والنار بناتٍ لي
اني لا اتهمك ايتها العناصر بالعقوق فلم اهب لكم ملكاً قط ولم انادِكم
يا بنيَّ ولم تفرَض لي عليكم الطاعة
اسكبوا عليَّ جام غضبكم فهانذا عبدكم . رجل فقير ضعيف كسيح وشيخ حقير .
ولكنني لا اتمالك عن ان ادعوكم عبيداً مملقين تواطأتم مع ابنتين شريرتين .
وأثرتم في السماء حرباً عواناً على رأسٍ شاخ واشتعل شيباً . يا للعار يا للعار

المجنون — من له بيت يأوي اليهِ يضمن لرأسهِ غطاءً وافياً . الرجل الذي يؤثر كعبه على رأسه يتألم من العقر ويأرق ليله . ابغني امرأةً حسناء لا تقلب وجهها امام المرآة

لير — ساكون قدوةً للصابرين واسكت

***

دع الآلهة التي صبّت هذه الكارثة على رؤوسنا تبحث عساها ان تجد غريمها ارجف جزعاً ايها الشقيّ الذي خبأ جريمته فلم ينله سوط العدل . اختبئي ايتّها اليد الدامية وايها الحانث بيمينه وايها المرائي المدعي العفة وهو فاسق : لترجف عظامك جزعاً ايها البائس المتظاهر بالود والمتآمر على حياة الناس

وانتِ ايتّها الذنوب المطوية في الصدور اسلمي نفسكِ واستغفري لذنبك من حكم هذه الصواعق

المجنون — (يغني) ان الجوّ يمطرنا كل يوم فمن كان يملك مسكةً من العقل استطاع ان يجمع بين حاجته ودهره في السرّاء والضرّاء والريح والمطر

لير — صحيح هذا يا غلام — تعالى نذهب الى الكوخ

المجنون — سأتنبأُ قبل ان اذهب

اذا اهتمّ الكهنة بالعرض دون الجوهر
واذا خلط الخمارون النبيذ بالماء
واذا اخذ النبلاء يعلمون خياطيهم اتقان الزيّ
واذا عدل عن حرق الكفار الى حرق الفسقة
واذا كانت كل دعوى صواباً في نظر القضاء
واذا لم يبق الشريف مديناً والكريم مفلساً
واذا هجرت النميمة ألسنة الناس
واذا ابتعد النشالون عن الجماهير
واذا بنى القوّادون والعواهر الكنائس

ففي ذلك الزمن تسوء حال انكلترا ويكون وقت تمشي فيهِ الناس على اقدامها . ومن يعش يرَ . هذه نبوءة سيتنبأ بها مرلن نبي بريطانيا الذي سوف يجيء بعدي

فتاة الجبل الاسود

استخرجنا هذه الابيات الروائع من قصيدة للشاعر الكبير خليل مطران

وكان من الترك جمعٌ قليل على رأس منحدرٍ أصلد
كثير الثلوم كأنّ الفتى اذا زلّ يهوي على مبرد
وقد نصبوا فوقه مدفعاً يهزّ الرواسخ ان يرعدِ
وحفّوا كاشبال ليثٍ بهِ يداعبهُ بعضهم باليد
ففاجأهم هابطٌ كالقضاء في شكل غضّ الصبي أمرد
فتىً كالصباح باشراقهِ له لفتة الرشإ الأغيد
يدلّ سناهُ وسيماؤه على شرف الجاه والمحتد
تردُّ سواطعُ أنواره سليمَ النواظر كالأرمد
أقبُّ الترائب غضّ الروادف يختال عن غصن أميد
لهيبُ الحروب على وجنتيهِ والنقع في شعره الاسود
وفي عينهِ مثل برق السيوف وظلُّ المنية في الأغمد
فأكبرَ كلهمُ أنهُ رآه تجلّى ولم يسجد
وظنّوه مستنفراً هارباً أتاهمُ بذلّة مستنجد
ولم يحسبوا ان ذا جرأة يهاجم جمعاً بلا مُسعد
ولكنّ كثرتهم لم ترُعْهُ فأقدم اقدام مستأسد

وما لبثوا ان أحاطوا بهِ فدانَ لهم صاغراً عن يد
ولولا اتقاء الخيانةِ فيهِ لكان الالدُّ له يفتدي

* * *

فسيق الى حيث كان الامير في نفر منهم مُوفدِ
فأوقع امراً بأن يقتلوهُ بمرأى الجنود غداةَ الغد
فاقصى الفتى عنهُ حرّاسهُ وشقّ عن الصدر ما يرتدي
وابرز نهدَي فتاةٍ كَعابٍ بطرف حييٍّ ووجه ندي
كحقّي لجين بقفلي عقيقٍ وكنزين في رصد مرصد
فكبّر مما رآهُ الامير وهلّل كلٌّ من الشّهد
وراءهم ذانك التوأمان وطوقاها من دم الأكبد
وَوثبهما عند ما اطلقا الى ظاهر الدرع والمجسد
كوثب صغار المها الظامئات نفرنَ خفافاً الى مورد

صلاة

للشاعر الاميركي ادوِنْ ماركهام

علمني ايها الأب ان اسير متئداً كما تنمو الاعشاب
انزل السكينة على قلبي حتى يصمد، لصدمات العالم المفتون، كالصخر الاصمّ
وليكن له في احتدام قوته، رقة الزهرة .
ودَعْ هذا القلب الظامىء يترع كأسهُ
ليستقبل السماء في بشر الشقيق الريَّان .
واذا ما افعم القلب ريًّا ، ودبَّت الحياة الجديدة فيه
فليحمل تاجهُ في وداعة الشقيقة الموقَـرة بالندى

***

علمني ايها الأب ان امنح عطفي دون مللٍ
كما تمنح الشجرة ظلّها للعابرين
هذا الظلّ الذي يشيع روح الطرب في الجنادب الغرِدة تحته عند الظهيرة
وتستروح بنسماته العليلة هذه الحشرات الدؤوبة في رحلة الحياة .
فدعني اذاً انشر البهجة والهناءة على ما حولي
من مراعٍ سحيقة وشعاب نائية كظلال تلك الشجرة الحانية .
فتفيء اليها الارواح العابرة المتعبة لحظاتٍ افرغت فيها الحياة كلّ صفوها وجمالها

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ	سقاه مضاعف الغيث العميمِ
نزلنا دوحة فحنا علينا	حنوَّ المرضعات على الفطيم
وارشفنا على ظمإٍ زلالاً	ألذَّ من المدامة للنديم
يردُّ الشمس أنّى واجهتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حاليةَ العذارى	فتلمس جانب العقد النظيم



مملكة المرأة

مصير المرأة العصرية

عقل الطفل في تطوره
لاحمد عطية الله

الجمال والعمل البيتي

المرأة فى البادية
للارشمندريت ميشيل عساف

مصير المرأة العصرية

الى البيت والمطبخ في المانيا

حريات جديدة في البلدان المحافظة

ما كادت المرأة الالمانية تفوز بمساواتها للرجل في المانيا بحسب دستور ڤيمار ، حتى جاء هتلر وأعادها ثانية الى البيت والمطبخ . فردّت على ذلك جمهوريات اميركا الجنوبية بمنحها النساء حقوق الرعوية جميعاً أسوةً بالرجال. اما في اسبانيا فقد اشترك النساء في الانتخاب الاخير، وكان لاشتراكهنّ أثر في فوز أحزاب اليمين . واما في روسيا السوفيتية ، فللمرأة من الحرية ، وعلى عاتقها من التبعة ، ما لم يؤثر عن عصر سابق ، حتى في عهد النساء المترجلات (امازون)

وهذا كلهُ يشوّش على الناس افكارهم في مصيرها ، من أنصار حرية المرأة كانوا او من غير انصارها . فاننا لم نعهد في العصر الحديث عهداً ، انقسمت فيهِ الآراء في مصير المرأة ، كما انقسمت في عهدنا هذا . وليس الغرض من هـذا المقال البحث في الادلة التي تسرد لتؤيد حرية المرأة او تنقضها . فهذا في رأينا قد فرغ منهُ ، في ناحية تأييد حريتها . وانما غرضنا ان نجول خلال بلدان العالم مستطلعين مكانة المرأة فيها ومدى ما حققتهُ من الاغراض التي بدأت تطالب بها من نحو قرنٍ من الزمان ، وما رأي العالم فيها الآن

فلست تجد مثلاً قارّة من القارات ، ليس للنساء فيها حقّ الاعراب عن آرائهنّ في الشؤون العامة بطريقة من الطرق . حتى اميركا الجنوبية ، التي كانت حتى عهدٍ قريب ممتنعة عن منح النساء حق الانتخاب ، منحتهنّ اياه كاملاً غير منقوص في مؤتمر الجامعة الاميركية الذي عقد في منتيفيديو هذه السنة . ففي سنة ١٩٠٢ لما انشىء الاتحاد الدوليّ للانتخاب النسائي ، لم يكن للمرأة حق الانتخاب الاّ في الولايات المتحدة الاميركية . حتى في تلك البلاد ، كان حقّ النساء الانتخابيّ محصوراً في بعض الولايات الغربية فقط . اما الآن فالنساء يملكنَ حقّ الانتخاب في ما لا يقل عن اربعين بلداً من بلدان الله

ويجب ان نسلّم في هذا المقام ، بأن حقّ الانتخاب ، انما هو ناحية واحدة من المسألة . وان هذا الحقّ منح للنساء في بعض البلدان منحاً نظريًّا فقط . ففي بلاد اكوادور منح نساؤها حق الانتخاب سنة ١٩٠٩ ولكنهنّ لم يستعملنهُ الاّ في بضع السنوات الاخيرة في نطاق ضيق وفي كثير

من التردد والاحجام ، واما في ايطاليا فللنساء حق الاقتراع في الانتخابات البلدية لملء بعض المناصب. ولكن الانتخاب لهذه المناصب ، قد الغي لان موسوليني يعيّن فيها من يشاء ، من دون ان يقترع له رجل او امرأة

***

ويصحب حق الاقتراع عادة حق الانتخاب لملء المناصب العامة . فانت تجد نساء قد انتخبنَ اعضاء في المجالس النيابية في انكلترا والدنمارك والنرويج والسويد واسبانيا والولايات المتحدة الاميركية. وقد سبق ان اختيرت سيدة لتكون عضواً في وزارة بريطانية سابقة ، واخرى في وزارة دنماركية سابقة . ووزارة العمل في حكومة الرئيس روزفلت تشغلها سيدة الآن . ثم ان نساء مثّلن امهن في جمعية الامم غير مرة . وقد بعثت البرازيل من قبلها بسيدة لتمثلها في مؤتمر دولي للطرق . وسفير الولايات المتحدة الاميركية في الدنمارك سيدة .. اما في تركيا فقد ابيحت لهنّ المناصب العامة . وقد رأى كاتب هذه السطور ، سيدة تركية في ازمير تشغل منصب مستشار بلدي ، واخرى جالسة في محكمة الجنايات . ويقال ان منصب المحافظ في احدى مدن الاناضول تشغله سيدة

ولا يقلّ النجاح الذي اصابتهُ النساء في ميادين الاحكام الشخصية عن النجاح الذي اصبنهُ في ميدان السياسة . فالاتجاه في كل الشؤون الخاصة بالمُلك والزواج والطلاق وحفظ الاولاد ، نحو مساواة المرأة بالرجل

اما في ناحية التعليم فقد تفتحت الابواب في وجوههنّ في خلال الثمانين السنة الاخيرة . ثم تمهّدت لهنّ سبل الصناعات والحرف المختلفة وقد اصبنَ فيها نجاحاً يشجعهنّ على المضي . نعم انهنّ لايدعينَ ان ابرع المحاميات بلغنَ مرتبة اعظم المحامين . ولا ان المهندسات المعماريات يستطعنَ ان يبارينَ المهندسين المعماريين في تشييد نواطح السحاب، او المباني الفخمة . ولكن الزمن الذي انقضى عليهنّ وهنّ يمارسنَ هذه الحرف اقصر من ان يتيح لهنّ ازدهار الملكات الكامنة في نفوسهنّ

***

واعجب ما تمّ من وجوه الانقلاب ، تمّ في اشدِّ البلدان محافظة . فقد كانت اسبانيا في مسألة النساء محافظةً اشدَّ المحافظة . ولكن الدستور الجمهوريّ الجديد يمنحهنّ جميع الحقوق اسوةً بالرجال الاَّ حق الخدمة في الجيش . اما في تركيا ، فقد الغى مصطفى كمال تعدُّد الزوجات ، وشجَّع النساء على طرح الحجاب ، وبعث بالبنات الى المدارس والكليات ومنحهنّ نفس الحقوق التي تمنح للرجل في شؤون الزواج والطلاق . بل تجد من النساء التركيات ، ضباطاً في البوليس ، وقد قيل انهنّ الآن يطالبنَ بحق الخدمة في الجيش

اما المرأة الاميركية فكانت اكثر بطئاً في تطوُّرها من اختها الاسبانية او التركية . فانت اذا نظرت في شؤون المرأة الاميركية الآن ، رأيت ما يدهش جدَّها لو رآهُ . فهي تعنى ببيتها واولادها ،

ولكنها مع ذلك تشتغل في المكاتب او المعامل او المدارس ، وتلعب الالعاب وتحضر المسارح وتنتخِب وتنتخَب . والمرأة الاميركية ، تجاري الشاب الاميركيّ في حسن التعليم وهي ولا شك الحاكمة بامرها في الاجتماع الاميركي . اما في ميدان الحرف ، فلا تزال ماضية بصبرها المعهود تشق طريقها فيهِ الى المقدّمة

وما يصح على النساءِ الاميركيات الآن ، يصح بوجهٍ عام على النساءِ الانكليزيات . فقد فازت النساء الانكليزيات سنة ١٩١٨ بحق الانتخاب — ضمن حدود معينة — ثم منحنَ حق الانتخاب المطلق سنة ١٩٢٨ اسوةً بالرجال ، فدخلنَ ميدان السياسة واصبنَ فيهِ نجاحاً لا بأس بهِ . وفي البرلمان الحالي خمس عشر سيدة بين اعضائهِ

ولكن .... ولكنَّ النساءَ الانكليزيات لم يتقدمنَ كثيراً في تحقيق مطالبهنَّ بعد سنة ١٩٢٨ نعم ان عددهنَّ في المدارس والصناعات قد زاد ، ولكن هيئة موظفي الحكومة متشدّدة معهنَّ . فلا ينلنَ نفس الاجر الذي يناله الرجل ولو كان العمل واحداً . والاتجاه الآن الى اخراج النساء المتزوجات من اعمالهنّ لاحلال الرجال محلهنَّ

***

بدأت الحركة النسوية العصرية في اميركا وبريطانيا في القرن الماضي فازدادت قوة لما انضمت اليها نساء البلدان السكنديناوية بزعامة الن كاي Ellen Key ونساء الالمان والهولنديين وغيرهم من الامم. فلما نشبت الحرب ، وخرجت النساء من بيوتهنَّ ، الى ميادين العمل في البلدان المحاربة ، اصبحت الحركة النسوية وكأنها موجة تكوَّنت في عرض البحر ، وسارت تجمع قوة وعزماً في سيرها ، حتى وضعت الحرب اوزارها ، ونال النساء في كثير من البلدان حق الانتخاب ، مع انهنَّ لم يكن لهنَّ في بعضها اي حق من الحقوق من قبل

ومضت الحركة من ظفر الى ظفر حتى بلغت مداها في روسيا . ثم بدأ موسوليني حياتهُ الدكتاتورية ، فمنح حق الانتخاب لطوائف معينة من النساءِ اولاً ، ولكن ذلك لم يكن الاَّ اشارة وقتية من ناحيتهِ ، لانهُ ما لبث حتى صرَّح برأيهِ في المرأة ، اذ قال ان مكانها انما هو حيث تنجب جنوداً ووطنيين لايطاليا الفاشستية . وبعد ذلك جاء هتلر . فأزال بجرَّة قلم ما كان النساء الالمانيات قد غنمنهُ في دستور فيمار (راجع مقتطف مارس ١٩٣٢ ص ٣٤٧) ووضعهنَّ في مكان دون مكان الرجل ، وجعل ميادينهنَّ الخاصة بهنَّ المطبخ والمدرسة والكنيسة . وكذلك بدأت حركة الرجعة

فمن بضعة اسابيع وقفت السيدة « كاري تشابان كات » — وهي سيدة بلغت الخامسة والسبعين قضت معظمها في خدمة نهضة المرأة — فحذرت النساءِ من موجة الرجعة هذه التي اخذت تكتسح العالم . نعم ان ما فعله هتلر ، هو تمادٍ في التطرُّف من ناحية الرجعية . ولكن يظهر ان الاتجاهات

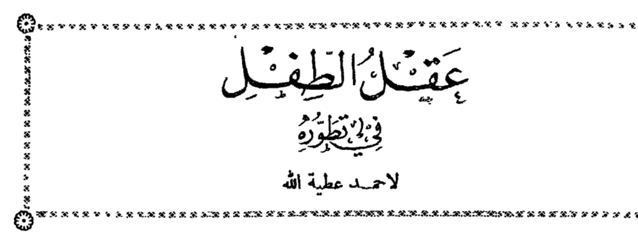
السائدة الآن في البلدان الاخرى هي في ناحية الرجعية في الغالب وان كانت اقلّ تطرّفاً من عمل هتلر فالهمة فاترة في معظم الجمعيات النسائية في اميركا والسويد . واما المرأة الفرنسية ، وهي المرأة الوحيدة التي لم تتسع دائرة حقوقها بعد الحرب فيظهر انها قد اخذت تفقد كل عناية بالمطالبة بحق الانتخاب

والظاهر مما تقوله الكاتبة الاميركية ملدرد ادمز ان القضية النسوية لم تتقدَّم في العهد الاخير الاَّ في جمهوريات اميركا الجنوبية (كما نتبين من قرارات مؤتمر منتيفيديو) واسبانيا وروسيا . والتقدم في اسبانيا ، كان في نواحي التعليم والعمل والاعمال الاجتماعية اولاً ثم في ناحية السياسة . ولكن النساء الاسبانيات — راهبات كنَّ او نبيلات — اشتركنَ في الانتخاب الاسباني الاخير ، فاقترعنَ ضدَّ الاحزاب التي منحتهنَّ هذا الحق ، وفي هذا دليل على ان الافكار في اسبانيا ليست مجمعة على ما هي حقيقة التقدم

اما روسيا السوفيتية فهي البلاد الوحيدة التي منحت النساء ، جميع ما تطالب بهِ زعيمات الحركة النسوية ، فهي مساوية للرجل في الحقوق والتبعات . لها الحق ان تنتخِب وان تتوظف وان تشتغل بأية صناعة ، وان تنتظم في الجيش . بل ان الدعاية الى وجوب استقلال المرأة من الناحية الاقتصادية، قد تغلغلت في نفوس الروسيات ، حتى لا تستطيع ان تجد امرأة روسية تسلِّم بان ليس امامها الاَّ اللَّبث في البيت . فيجب عليها ان تقوم بنصيبها لتسديد نفقات زوجها اذا مرض . ونفقات اولادها اذا انفصلت هي عن ابيهم . ثم لها الحق ان تملك ما تكسب ، وان تتعاقد ، وان تطلب الطلاق

***

هذان هما الاتجاهان . المانيا تطلب عودة المرأة الى البيت ، لانها كنبوليون تعتقد ان الواجب الاول على المرأة هو انجاب الجنود . اما الفلسفة التي من وراء النظام الروسي فتميل الى السلم دون الحرب ، ولكن مع ذلك يجب على نساءِ البلاد ان يستطعنَ السير بصناعة البلاد اذا نشبت حربٌ . ثم هناك عامل آخر وهو عامل الرياضة . ففرنسا حيث المرأة لم تنل شيئاً من الحقوق التي تتمتع بها نساءُ البلدان الاخرى، وفي اسبانيا حيث كانت الفتاة تحجب عن خطيبها ويفصل بينهما بحاجز من القضبان الحديدية المشبكة — في هاتين الامتين خرجت الفتيات الى ملاعب التنس واحواض السباحة ومباريات الدرّاجات . وفي تركيا تجد الفتيات التركيات يسقنَ طياراتهنَّ وينتظمنَ في مباريات الجمال العالمية . ثم ان النساءَ في كل البلدان ، تعنينَ الآن بكل ما من شأنهِ ان يساويهنَّ بالرجال في الشؤون الجنسية فضبط النسل موضوع تهتمُّ بهِ نساءُ الجمهوريات في اميركا الجنوبية ، وتحليل الاجهاض تهتمُّ بهِ نساءُ البلدان السكنديناوية كالدنمارك وغيرها . وتعليم الصحة الجنسية في مدارس انكلترا ، كان من المطالب التي تقدَّمت بها النساءُ الانكليزيات الى اولي الامر . ولا ريب بعد هذا ان دائرة المرأة قد اتسعت اتساعاً عظيماً في العمران الحديث سواءٌ أرضي بذلك هتلر وموسوليني ام لم يرضيا



— ٤ —

«النمو الجسمي للطفل» لدراسة نمو الطفل من الناحية الجسمية شأن كبير في التربية للعلاقة الوثيقة بين « التغيرات الفسيولوجية » التي تحدث في الجسم وبين تطوّره العقليّ مع ان الخطين البيانيين اللذين يوضحان التغير الفسيولوجي والتطوّر العقلي لا ينطبقان تماماً . ومع ذلك ترى ان النمو الجسمي في الطفل يلازم تطور النمو العقلي اذ أن كثيراً من استعدادات الطفل العقلية تعتمد على نمو الاجهزة التي تؤدي هذه المهمة

ان جميع أجهزة الجسم واعضائه لا تفتأ في تغير وتطور اثناء الحياة وهذا التغير يشمل تكوينها ووظائفها فالطفل بعد ولادته لا تكون جميع اعضائه كاملة النمو بل هي تختلف في نموّها من حيث السرعة او ميعاد الاكمال. فبعض الاعضاء كالرأس يكاد يكون كاملاً بينما أجهزة اخرى كالاسنان لا تظهر الاّ في اواخر السنة الاولى عادة : ولا يتمّ هـذا التغير الفسيولوجي الذي يطرأ على الجسم بنسبة واحدة عند جميع الاشخاص بل ان نسبة هذا النمو تختلف باختلاف الاشخاص . لذلك نرى أنهم لا يصلون الى درجة واحدة من النمو الجسمي اذا ما بلغوا سنّاً معينة

فاذا قابلنا بين اطفال في سن واحدة نجد فروقاً من حيث درجة نموهم الجسمي . ولو ان هذه الفروق تزداد وضوحاً بالتدرُّج كلما تقدم الطفل في السن

والقياسات التي اخذت عن النمو الجسمي تبين ان النمو في سني الطفل الاولى يكون في بادىء الامر سريعاً . ثم يبطىء هـذا النموّ فجأة قبل التاسعة عند الفتيات والحادية عشرة عند الصبية ثم يسرع مرة اخرى في دور المراهقة ويصل الى أقصاه في الثانية عشرة عند الفتيات وفي الرابعة عشرة عند الصبيان ، ويأخذ في الهبوط بعد المراهقة حتى يكاد الجسم ان يكون في حكم الوقوف اذا ما وصلت الفتاة الى السابعة عشر والصبي الى العشرين. الاّ ان العضلات تستمرّ في النمو وكذلك المجموع العصبي لا يفتأ نامياً بعد ذلك بسنين عدة وبعض الأعضاء كما سلف ذكره اكثر نموّاً من الاعضاء الاخرى : فالاطراف مثلاً أثناء الطفولة تكون اسرع نموّاً من الجذع حالة ان نمو الرأس لا يكاد يذكر لانهُ يكاد يتم قبل الولادة

﴿التطور الحسي﴾ لا يمكنا ان نستخلص نوع الحياة العقلية التي يعيشها الطفل بعد الولادة مباشرة ولكن كل ما يمكن ان نصل اليه نستخلصهُ من شعور المولود بالراحة او الألم . ومن هذا يمكننا ان نقول ان المولود يشعر شعوراً غامضاً بالضوء وعند اقترابه من الماء والهواء والملابس

اما الحركات التي يقوم بها فحركات انعكاسية بسيطة لا يستطيع ضبطها . واذا لم يوجد ما يستثير هذه الحركات فالوليد يكون في حالة نوم ، والدور الاول من حياتهِ هو دور حسي محض ومعنى ذلك ان الطفل لا يدرك ما يراهُ وما يسمعهُ ولكنهُ يحس بشيء مما هنالك لان ادراك الطفل للاشياء يعتمد على نمو اعضاء الحس وعلى كمال نمو المجموع العصبي

وأعضاء الحس بعد الولادة مباشرة لا تقوم بعملها على الوجه الاكمل ولا شك ان في ذلك شأناً كبيراً من حيث ان المولود لا يصطدم دفعة واحدة بفعل المؤثرات الحسية من اصوات او اضواء

(١) الذوق الشمي : اثبت بعض العلماء ان الاحساس الذوقي كالتمييز بين الحلو والمر والحامض في استطاعة الطفل بعد الولادة مباشرة وكذلك الحال مع الاحساس الشمي ، فالمولود يبدي رضا او اشمئزازاً من وضع أشياء حلوة او حامضة على لسانه او بتقريب رائحة قويَّة من أنفه

والشم يقترن دائماً بالذوق لذلك كثيراً ما نجد المولود يخلط بين ما يشم وما يذاق فيضع الوردة ذات الرائحة العطرة في فمه اذا قرّبت اليهِ ولكن رائحة الطعام أسهل تمييزاً على الطفل من غيرها ولسرعة تقدم هاتين الحاستين عند الطفل كان من العسير ان نجبر حتى المولود على تناول طعام لا يستسيغه او يأنف من رائحتهِ

(٢) اللمس : للوليد قدرة على الشعور بالاشياء التي تلامسه غير أنه يكون عاجزاً في بادىء الامر عن تحديد موضع اللمس ومع ذلك فبعض أجزاء الجسم تكون بطبيعتها أشد احساساً من الاجزاء الاخرى كراحة الكف

وحاسة اللمس تكون على اشدها عند الطفل الذي لا تزيد سنه عن بضعة اسابيع في الشفاه وفي اللسان لذلك تراهُ يستحلب كل ما يقع تحت يده

وهو يستطيع ان يفرق بين الحرارة والبرودة ففي الحالة الاولى تراه يظهر شيئاً من الحركات التي تدل على التراخي . وفي الحالة الثانية تراه يقوم

كان في قديم الزمان تاجر غني ، وكان يملك في ردهته العظيمة علاوة على كنوزه ، ثلاثة كراسي كرسي من فضة ، وآخر من ذهب ، وثالث من الماس . ولكن كنزه الاعظم ، كان ابنته الوحيدة ليلى

وكانت ليلى ، جالسة ذات يوم في غرفتها ، فاذا باب الغرفة يفتح فجأة فتدخل منه سيدة رائعة الجمال تحمل في يدها دولاباً وقالت :

يا ليلى ، ماذا تفضلين أشباباً هنياً ، ام شيخوخة هنية ؟

فدهشت ليلى ولم تدر بما تجيب . فأعادت السيدة سؤالها قائلة « ماذا تؤثرين . اشباباً هنياً ام شيخوخة هنية »

وتأملت ليلى في السؤال فناجت نفسها : اذا فضلت الشباب الهني تعين علي ان اشقى طوال ما يتبقى لي من حياتي لا . اني افضل ان احمل الشقاء الآن ، وان اتطلع الى شيخوختي الهنية . ثم نظرت الى السيدة وقالت : هبيني شيخوخة هنية

فقالت السيدة : فليكن ما تريدين . وأدارت دولابها ، فاختفت فجأة كما ظهرت . وكانت تلك السيدة الرائعة الجمال مثالا لما صارت اليه ليلى في شيخوختها

بيعض حركات انعكاسية كالعطاس ولكن هذه الحاسة كالتي سبقتها تكون غامضة غير محدودة عند الوليد وتأخذ في الدقة بالمرانة

(٣) البصر : بعد الولادة مباشرة يكون الطفل في حكم الاعمى ولما كان غير قادر على الاحساس بالالوان او بالاشكال فهو لا يميز المرئيات اطلاقاً ففي اليوم الثاني من حياته لا يفتح عينيه الاَّ في الظلام ويفضلهُ على الضوء

وفي خلال الاسبوعين الاولين يبدي لامهِ عدم راحة لمقابلة الضوء فلذلك نراه يغمض عينيهِ اذا عرض امامه جسم شديد اللمعان او ضوء قوي

ولكن بعد الاسبوع الثالث يبدأ يعوّد نفسه مواجهة الضوء بل ويظهر سروراً عند وجوده في مكان مضيء. وفي بادىء الامر لايوجه الطفل بصره الى شيء خاص . حتى اذا بلغ الاسبوع الثامن بدأ يوجّه انتباهه الى الاشياء الجذّابة القوية . ومن الصعب ان نعين قدرة الطفل على تمييز الالوان في الاسابيع الثلاثة الاولى من حياته ولكنهُ بعد الاسبوع الثامن يظهر سروراً عند رؤية الأُلوان الزاهية مثل اللون الاحمر ثم الاصفر

والمولود لا يوجه نظره الى الاشياء التي تقع أمامه مباشرة اذ ان من الصعب عليه ان يحول رأسه يمنة او يسرة . ومدى إبصار المولود الذي لا يزيد عمره على ثلاثة اسابيع لا يتعدى ثلاث ياردات الاَّ ان مدى ابصاره يتسع اتساعاً كبيراً لا سيما بين العام الاول والخامس من حياته

لذلك كان من الضرر ان نجبر الطفل في هذا الدور على ملاحظة الاشياء الدقيقة القريبة منه . حتى اذا بلغ الطفل بضعة اسابيع من العمر ابتدأ يدرك هيكل المرئيات اذا كانت واضحة قوية : كما ان عينيه في بادىء الامر لا تستطيعان الحركات التوافقية الاّ ان اهتمامه بملاحظة الاشياء ذات الشأن عنده كالام او التي تسترعي انتباهه استرعاءً كالالوان الزاهية تساعد على التغلب على هذا النقص فتتقدم قدرته على الملاحظة البصرية عند ما يمكنه تحريك جسمه لمساعدة عينيه في عملهما

(٤) السمع : عند الولادة يكون الطفل اصمّ وذلك لخلو طبلة الاذن من الهواء ولكن بعد بضع ساعات يستطيع المولود ان يتأثر بالاصوات العالية باظهار شيء من الجزع . وفي خلال الاسابيع الاولى لا يستطيع الطفل تمييز الاصوات اذ انها تصل اليه مشوّشة متداخلة ولكن بعد الشهر الاول او بعد الاسابيع الستة الاولى يبدأ الطفل في التفريق بين الاصوات (بسماع النغمات الموسيقية) فيبدي فزعاً من الاصوات المتنافرة كما يبدي غبطة وسروراً بسماع الاصوات الموسيقية المؤتلفة . ولعلّ اول ما يميزه الطفل هو صوت والدته . وميل المولود للموسيقى نشاهده في ميل الاطفال الذين يتراوح عمرهم بين شهرين او ثلاثة لسماع الاغاني . الاّ ان قدرة الطفل على تمييز الاصوات لا تأتي الاّ متأخرة بل انها تبقى كذلك اذا لم نعمل على تنميتها فيه

الجمال والعمل البيتي

كتبت سيدة انكليزية في احدى المجلات النسائية مقالاً عن عناية المرأة بجمالها كائنة اشغالها ما كانت قالت :

زرت امس صديقة لي متزوجة وعندها ولدان . ولكنها ليست غنية . اي انها مضطرة ان تقوم بمعظم اعمال بيتها بنفسها . وكانت ، لما وصلتُ قد انتهتْ من اعمال البيت ، وبدت عليها امارات الاعياء فنظرَتْ اليَّ وقالت : الفرق كبير بيننا . انت تظهرين كأنك صورة من احدى مجلات الازياء أما انا . . . ولكن ما العمل لست اجد متسعاً من الوقت للعناية بنفسي . ان ذلك لا يهمني . فقلت : ولكن يجب ان يهمك . فدهشت لجوابي وقالت اتلقين عليَّ عظة ? اذاً افضل ان اسمعها جالسة لفرط تعبي . فقلتُ : عظة وأية عظة . تقولين ان العناية بمظهرك لا تهمك لكثرة عملك . اتظنين اني البث في البيت طول النهار لا ادري ما اعمل ، فاوجّه كل عنايتي الى وجهي وعينيَّ ويديّ . انا اعمل مثلك طول النهار ، ولكن في مكتب ، يقتضي مني كل دقيقة من ساعات العمل . ومع ذلك اجد من الوقت متسعاً للعناية بنفسي . المسألة مسألة نظامٍ . واذا كنت انا احتاج الى ان اظهر بمظهر لائق امام الرجال الذين اشتغل معهم ، افلا تظنين ان زوجك جدير بمثل هذا ? انا ادرك انك متعبة . ولكن لو كان منظرك ابهج مما هو لكان شعورك بالتعب اقلّ

قلتِ لي من اسبوع مثلاً ان بشرتك جافة . فانت تستطيعين ان تتغلبي على هذا الجفاف بدلكهِ بقليل من « الكولدكريم » كلَّ ليلة قبلما تبدأين حمام الولدين. وعندئذٍ يفتح بخار الماء الساخن مسامّ جلدك فيتخللها « الكولدكريم » فاذا حان ميعاد نومك ترين الجلد وقد اصبح طريًّا ناعماً . عندئذٍ ازيلي « الكولدكريم » وامسحي وجهك بقليل من الماءِ البارد ، فتحسّين بنشاطهِ بعد عمل النهار المضني ، ثم امسحيه بقليل من القطن المغموس باحد المستحلبات الخاصة بذلك

او خذي مسألة الشعر . فاذا كان جافًّا افركي جذورهُ بقليل من زيت الزيتون ثم اعصبيهِ في خلال العمل فترينهُ لمّاعاً متى انتهيت من عملك واردت ان تستقبلي زوجك او زوّارك . اما اذا كان شعرك كثير الدهن فذرّي قليلاً من النشاءِ المسحوق حتى يتغلغل الى جلدة الرأس واعصبيهِ فاذا انتهيت من عملكِ ازيلي المسحوق بالفرشة فترين ان كثيراً من الدهن قد زال

او خذي يديك . امسحيها بعد العمل ، بعصير ليمونةٍ حامضة . ثم ادلكيهما بمعجون مطرّ ، فتحتفظين ببشرتهما غضة وتمنعين القشب . وما زلنا نتكلم عن اليدين يجب ان تستعملي قفّازين في اثناءِ قيامك بعمل البيت . تعوّدي استعمالها ، ولا تنسيْ ان في شؤون الجمال يصدق القول المأثور « درهم وقاية خير من قنطار علاج » . والقفازان في هذه الحالة يقيان يديك من كثير من الآفات

هذا بعض ما اقترحهُ عليك واذا شئت المزيد فاني رهن امرك

المرأة في البادية

خلاصة المحاضرة التي القاها في النادي الكاثوليكي للشبيبة السورية
حضرة الارشمندريت ميشل عساف رئيس المدرسة البطريركية للروم
الكاثوليك في القاهرة

المقدمة

لقد حار الكتّاب في أمر المرأة وذهبوا في وصفها وتحليل نفسيتها وادراك كنه قلبها وتصوير عواطفها مذاهب عديدة متباينة متناقضة . فمنهم من صوّب اليها سهام سخطهِ وصبّ على رأسها جام غضبه ونسب الى عينيها والى لسانها والى خبث طبيعتها شرور هذا الكون

ومنهم من تغنى بطيب عنصرها وجمال فضائلها فقال : هي ملاك أرضي ، وهي شمس تبعث النور والحياة ، وقال أحدهم « ان للمرأة سلطة في نظراتها اكثر نفوذاً من القوانين ودموعها اقوى حجة من الشرع » وقال آخر «تبدأ الاعمال العظيمة اولاً بالمرأة »

ولا تزال الآراء متضاربة في تحليل تلك النفسية العميقة كالبحر ، الصافية كالسماء ، القاتمة كالغيوم ، المنفجرة كالرعود القواصف ، المشرقة كالصباح الوضاح

لكن المرأة هي مرآة الرجل اذا صَلُح صلحت واذا فسد فسدت . والرجل هو كل فرد وهو المجتمع وهو كل الشعوب . ولما كانت هي في هذه الحياة أمًّا لذلك الرجل ومربيته ورفيقته ومتعته ومحط آماله وقبلة حياتهِ فهي لذلك وان كانت الثانية طبيعة وشرعاً فهي الاولى في المجتمع البشري فعلاً وأثراً واقتداراً . فاذا ساواها الرجل بنفسه واحترم ضعفها وهذّب اخلاقها وكان لها معيناً ولشدائدها نصيراً أضحت هي بدورها لعقلهِ نوراً ولارادتهِ قوة ولقلبهِ سعادة

اما اذا عمل الرجل على امتهان كرامتها وافسادها كان انتقامها ذريعاً فأفسدته ضعف ما هي عليهِ

فهي شيطان اذا أفسدتها   واذا اصلحتها فهي ملك

وربّ معترض يقول : من هي المرأة البدوية حتى نتكلم عنها في هذا النادي الادبي الكبير أليست ذلك المخلوق الحقير الجاهل الدفين في بطون الفيافي وغياهب الصحاري . هل كانت شيطاناً في قومها او ملاكاً في عشيرتها حتى يكون لها شأن كاخواتها ربات الخدور في العواصم والقصور

فيجيب المؤرخ والبحاثة جرجي زيدان : ان المرأة البدوية كانت مساوية للرجل . ونبغ من مضارب البادية نساء اشتهرنَ بالشجاعة والاقدام والحزم والرأي والتجارة والادب والشعر وغيرها

المرأة البدوية في بيتها

الابنة عند العرب حين تولد فهي المخلوقة الحقيرة . وحين تبلغ فهي المسكينة الاجيرة . وحين ينضج شبابها فهي اللؤلؤة الكبيرة . وحين تتزوج فهي الاميرة الخطيرة

— قلنا حين تولد فهي الحقيرة لأن العرب يكرهون ولادة البنات ويؤثرون عليهنّ البنين .

والسبب في ذلك ان البدوي يعيش في ظلال سيوفهِ فاذا كثرت رجاله عظم امره وان قلَّت رجاله صغر شأنه . ويقول المثل البدوي : عد رجالك ورِد الماء

ومن العرب من كان يئد البنات خوفاً من ان يخرج منهنَّ من يلحق العار بالعشيرة

— ثم حين تبلغ فهي الاجيرة خادمة البيت للكنس والغسيل والحياكة وحمل الماء وخدمة الضيف

هو الضيف يا ليلى هاتِ الرُطب وهاتي الشواء وهاتي الحَلَب
وهاتي من الشهدِ ما يُشتهى ومن ممنة الحي ما يُطلب

— ثم حين تبلغ سن الزواج فهي اللؤلؤة الكبيرة وسنتكلم عنها في باب الزواج

— وتصبح الاميرة الخطيرة اذ تصير زوجة فلان وام فلان وفلان . فالمرأة كبيرة المنزلة عند العرب يحترمها الكبير والصغير والصديق والعدو على السواء . ولقد تمرّ بين صفوف الرجال فلا يجرؤ احد ان يكلمها ولا ان يسلم عليها احتراماً ووقاراً حتى ولا زوجها

والعار الاكبر عند العرب ان يعتدي الرجل على امرأة ولا سيما في شرف وقداسة عرضها . ولذلك فان التاريخ لا يذكر ان الفحشاء او البغي قد تفشيا عند العرب . وبذلك يتباهى عنترة بقوله :

لئن أكُ أسوداً فالمسك لوني وما لسواد جلدي من دواءِ
ولكن تبعدُ الفحشاءُ عني كبعد الأرض من جوّ السماء

والعفاف عند نسائهم هو اظهر زينة لهنَّ واكرم فضيلة . وكان الحب العذري مألوفاً عندهم أعني ذلك الحب الذي لا تشعر به الريبة . ولقد نقل الينا التاريخ اخبار قيس وليلى ، وجميل وبثينة، وتوبة وليلى الاخيلية ، وذهبت حكايتهم مذهب الامثال مدى الاجيال

— ان المرأة البدوية لا تخالط الرجال لا في الاكل ولا في المجالس العامة ولا في الافراح ولا في المآتم . ولكن ليس في ذلك امتهان لكرامتها بل حرمة لها وصيانة لسمعتها من ان تنالها العين بسوء . ولا تعتبره المرأة اذلالاً لها بل رفعة لشأنها

فما البيد الاَّ ديار الكرام ومنزلة الذم الوافية

والمرأة البدوية تحب بيتها وباديتها وحالها رغم ما هي عليهِ من شظف العيش . وترى ان الحياة لذيذة في بيوت الشعر

وبيتٍ تخفق الارياح فيهِ احب اليَّ من قصر منيف

فبيتها هو لها معقل الشرف والامانة والانفة ، معقل الحرية اللذيذة المقيدة بقيود العز والاجلال، معقل الفضائل الشرقية العالية من قرى الضيف وخدمة الزوج وتربية البنين والانتصار لقومها والصبر على الشدائد والتعقل والرصانة . وهي الفضائل الاجتماعية الحقة

— اما الرقص فلقد اعتاده العرب لاسيما في الافراح . ولكن لا ترقص نساؤهم ورجالهم معاً . بل يجتمع الرجال حلقة وينشدون الرجز ويرقصون ويصفقون . وتقوم احدى الشابات في وسطهم

ترقص بالسيف . الاَّ ان رقصهم بعيدٌ عن جمال الكياسة ولو كان حليف الحشمة واللياقة
وتلبس المرأة البدوية ثوباً بسيطاً عريض الاردان ، طويل الاذيال

هل رأيتم كغادتي   اذ اتت تسحب الردا
تدخل اليوم واذ   يالها تدخل غدا

والمرأة البدوية تمشي سافرة وتستعمل الحناء والكحل والعطور وانواع الطيب

المرأة البدوية والحكم

لقد قام بين نساء العرب من اشتهرنَ بالحكم ولبس التاج وحمل الصولجان : خلد وشقيلة وجميلة في سلع (وادي موسى) عاصمة الانباط . وبلقيس في سبا — ولاسيما زينوبيا في تدمر فان سيرتها اقرب الى سير الابطال منها الى سير النساء ، فضلاً عن جمالها وهيبتها

المرأة البدوية والتعقل والحزم

المرأة البدوية هي عموماً عاقلة حكيمة لما تمتاز بهِ من عزة النفس وما هي عليه من شظف العيش في البادية . ولقد وصلت الينا اخبار بعضهنَّ في ذلك

اولهنَّ خديجة بنت خويلد التي يرجع الى حزمها وحكمتها الفضل الكبير في نشر الدعوة الاسلامية بين رجال قريش . ثم عائشة بنت ابي بكر زوج محمد . واختها اسماء ام عبد الله بن الزبير الشهيرة في تاريخ حصار مكة . والخنساء وسفانة بنت حاتم طي وسلمى بنت عمر

المرأة البدوية والزواج

لقد درج العرب على ان لا ينظروا في الزواج الى رغبات بناتهم . فليس للابنة ان ترغب في فلان وتريده بعلاً لها . بل الامر كل الامر بيد الاب او الاخ او العم او اقرب الرجال اليها في عشيرتها وهي تعتبر ذلك سنةً بل شرفاً لها

سألت يوماً احدى البنات البدويات معترضاً — وكانت مسيحية — أليس امركِ في يدكِ . فاجابت على الفور : معاذ الله ان يكون امري في يدي . لان امري لا يكون في يدي الاَّ يوم يموت كل رجال عشيرتي

والرأي عندي ان ذلك ليس اجحافاً بحق الابنة كما هو الحال في المدن اولاً لان الاب لا يغصب ابنته بمن يختاره عريساً لها . ثانياً لانها لما كانت لا تعاشر الشبان فلا يكون قلبها قد علق بفلان دون فلان . ثالثاً لانها شبت على ذلك الاعتقاد فلا تراهُ قسراً وظلماً . وربما كانت البوادي من هذا القبيل هي البلاد اقل تحطيماً لقلوب الفتيات واخف فجيعة في حياة الشابات

— ثم ان صاحب الحق الاول في الزواج من الابنة هو ابن عمها . والمثل البدوي يقول : «ان ابن العم له الحق ان ينزل من على الفرس » حتى في حفلة زفافها وهي راكبة الفرس

ولا اذكر زواجاً في مدة السنوات الخمسة التي قضيتها في الشرق العربي جرى بلا « دُفٍّ » كما يقولون

أعني بلا مشاكل . وكثيراً ما صار الضرب وجرت الدماء . وكلما حميت المعركة بسبب عروس ولعبت العصي بالرؤوس كلما فرحت تلك العروس وترنحت لدلالة ذلك على قيمتها ورغبة الشبان فيها . حتى في البادية فالمرأة هي هي : تيه وعجب ودلال

واذا اشتهر الحب بين اثنين منعوا زواجهما لئلاّ تثور الاقاويل عليهما كما جرى لقيس وليلى وجميل وبثينة

والمرأة عند العرب لا ترث والسبب في ذلك عادات الضيافة عند العرب واعتزاز القبيلة برجالها

ورغبة العرب الاولى في الزواج هي ولادة الاولاد والاكثار منهم . ورغبتهم في الذكور دون الاناث لان العشيرة برجالها يذودون عنها ويحمون ذمارها ويأتونها بالغنائم واسلاب الغزو، ويرفعون من شأنها في غمار الحروب . واذا رغب رجل في عروس ثم اعرض عنها يقول بلهجة المستخف : لا آخذها ولو كانت تلد لي الصبح ولداً والمساء ولداً

المرأة البدوية والحرب

للمرأة البدوية شأن عظيم في حروب البادية فهي المثيرة للهمم وهي المداوية للجروح وهي الواقفة صفاً منيعاً وراء الصفوف تحمل الماء وتنشد الاغاني الحماسية وترد الخائف وتخزي المنهزم واذا ما رأت الابطال وقعوا صرعى كثيراً ما تركب الخيل وتشن الغارة وتبلي البلاء الحسن

المرأة البدوية والشعر

الشعر نغمة سماوية لا تهب الاَّ في ربوع الحرية . فكلما ساد الاستبداد في بلاد سكتت بلابل الشعر . وأينما رفرفت اعلام الحرية تفتحت القرائح الشعرية . ولقد نبغ في صناعة الشعر غير واحدة من نساء البادية وهي بلاد الحرية . ولكن النساء اللواتي خلدنَ اسماً مجيداً في رياض الشعر فهنّ :

في القرن الخامس للميلاد ليلى العفيفة ٤٨٣ . وفي القرن السادس الخرنق ٥٧٠ وجليلة بنت مرة ٥٣٨ . وفي القرن السابع الخنساء ٦٤٦ وليلى الاخيلية ٦٤٠

ولم يقم بين شعراء البادية من صاغ شعراً متهتكاً او وصفاً بذيئاً او كلاماً وحشاً في التحدث عن المرأة او التغني بها ، كما نرى عند بعض كتّاب الغرب . بل كانت البيادي ولا تزال رمالاً نظيفة وفيافي شريفة ومياهاً صافية وهنالك طبقة من النساء شغفنَ بالشعر وحفظنه للمذاكرة فيه في المجالس. ويرجع الفضل ايضاً للمرأة البدوية في تفوق بعض المعلقات

الخاتمة

هذه هي المرأة في البادية رسمتها رسماً موجزاً رسماً مجملاً فبدت كوكباً متلألئاً تكتنفه هالة من الجمال والجلال والوقار والاثر البعيد في حياة تلك البوادي التي يخالها الناظر اليها صامتة ساكنة وهي ملأى حياةً وعاطفة فياضة تنبعث من نواظر المرأة البدوية ومن لسانها ومن قلبها

باب المراسلة والمناظرة

في المصطلحات الطبية

للدكتور داود بك الجلبي

بعث اليّ صاحب المقال الآتي كتاباً قال فيه « اني أود ان تنشروا ما كتبته في احدى المجلات لينتقده من اراد » فعرضته على رئيس تحرير المقتطف وطلبت نشره بنصه فتفضل بذلك . أما الحواشي فهي لي   امين المعلوف

حضرة الفريق الدكتور امين باشا المعلوف المحترم

وصلني كتابكم وطيه نسخة من مقالكم للجمعية الطبية المصرية حول المصطلحات الطبية وسألتموني رأيي فيه . اقول اني متفق معكم تمام الاتفاق في لزوم توحيد المصطلحات وفي العلاج الذي اقترحتموه لهذه الغاية وهو تكليف طبيب واحد من المشتغلين بالمصطلحات الطبية في كل من مصر والشام والعراق بوضع مصطلح واحد لكل مرض وعَرَض مثلاً وبعد اتمام عملهم يجتمعون في احدى العواصم يقابلون الالفاظ التي وضعها كل منهم ويتفقون على مصطلح واحد منها ، وما لا يتفقون عليه يعرضونه على الاطباء للمناقشة على صفحات المجلات . ثم يكلفون وضع مصطلحات للتشريح والفسيولوجيا مثلاً ثم غيرها وغيرها على النمط المذكور . ولا ارى من الصواب ترك هذا الامر لغير الاطباء ، للمجمع اللغوي الملكي مثلاً ، فما حكَّ جلدك مثل ظفرك ونحن ادرى بلساننا الفني . ولا بأس باستشارة المجمع وغيره عند الاقتضاء ، او ان يؤلف المجمع لجنة رسمية من الاطباء كما ذكرنا تقوم بهذا الامر

والاقتصار على مصطلح واحد مهم جدًّا . ولذا اراكم مصيبين جدًّا بقولكم : « وانما ينبغي ان لا يكون تناقض في معجم واحد او ان يكون فيه مترادفات كثيرة لا يدري الواحد ايها يختار » . وانا استثني من ذلك اسماء الحيوان والنبات فانهُ يستحسن بل يجب ذكر جميع مترادفاتها بشرط ان يعتمد على الاسم الافصح والاكثر استعمالاً عند المؤلفين القدماء وتكتب المترادفات بين قوسين مع الاشارة الى البلد الذي يستعمل فيه ذلك الاسم ان امكن

أما مبدأي في انتخاب المصطلحات فانكم تعلمونهُ من مكالماتنا ومخاطباتنا الكثيرة في العراق .

وهو اني ابدأ بتحري مصطلح لما اريد في كتب الطب العربية القديمة . فان وجدت فيهِ والاَّ راجعت كتب اللغة . فاذا لم اجد فيها ما اطمأن اليه عمدت الى الترجمة او الاشتقاق . وأنا اتوسع في الاشتقاق فلا اقول ان الاشتقاق ينحصر في ما سمع من العرب كما يقول بعض الجامدين الذين يسدون بقولهم هذا باب التوسع على اللغة . واذا لم يمكن الاشتقاق اضطررت الى التعريب . ولا اغفل ما كتبه الاطباء المحدثون على أمل ان اجد فيهِ مصطلحات موافقة . غير اني ارجح تعريب الكلمات التي هي واحدة عند جميع الامم المتمدنة كلما وجدت ان تلك الكلمة غير نافرة عن العربية

ولما كان دأبي اخذ ما في الكتب العربية القديمة اولاً فاني اكره اشد الكره المصطلحات التي يضعها بعضهم حديثاً في حين ان في كتب اسلافنا مصطلحات لعين هذه المسميات . من ذلك كلمة زحار حين ان اسلافنا قالوا دوسنطاريا . وما الزحير وما الزحار الاَّ الـ Ténesme ولو كسروها على صيغ شتى . ولما كانت لفظة الزحير قديمة في الطب فلا حاجة للزحار وقد اعتبرهما صاحب المخصص مترادفين لجمعهما بقوله والزحير والزحار داء يصيب المبطون « المخصص ٥ — ٧٨ » وهل يظنون انهم اذا جعلوها على وزن فُعال ينتقل المعنى من العرض الى المرض ؟ اذا كان هذا ظنهم فهم مخطئون . لان فعال للعرض كما للمرض ، كالسعال والصداع وهما عرضان لا مرضان . او ربما ارادوا تجنب الدوسنطاريا المعربة ووضع كلمة عربية صرف مكانها غيرة منهم بحسب زعمهم

ان هذه الغيرة المفرطة لا محل لها لانهم لا يستطيعون نبذ جميع المعربات . وأي لغة خلت من كلمات غريبة عنها . وهذا القرآن فيه عشرات من الكلمات المعربة . غير ان هذه الغيرة المفرطة مضرة لانها تقطع الصلة بيننا وبين ما كتبه اسلافنا . وكل كلمة عربت ودرجت في لساننا تعد منه لا غريبة . وأخذ المصطلحات عن اسلافنا يوفر علينا تعب تحري مصطلحات جديدة . واني لا اعدل عن مصطلحاتهم الاَّ نادراً جدًّا . مثال ذلك لا احب تسمية الهستريا باختناق الرحم[1]. فلا اقول للرجل انت مصاب باختناق الرحم . بل اسميها « الهَرَع » (انظر تاج العروس) . ولا عبرة بكون كلمة هستريا مشتقة من هستيرا اليونانية وهي الرحم . فانك ان كلمت فرنسيًّا وقلت له ان مرضه الهستريا لا يذهب فكره الى الرحم بخلاف ما اذا قلت للعربي انهُ مصاب باختناق الرحم فان كلمة رحم تقرع اذنه وهو يعرف ما الرحم وانه رجل لا رحم له . وكذلك اكره تسمية الديدان الشريطية بالحيات . فلا اقول لمن كان مصاباً بها ان في بطنه حية . بل اعدل الى تسميتها بالـ (صَفَر)

وبعد فاني اتفق معكم في اغلب المصطلحات التي اتيتم بها في مقالكم المذكور بعد ان محصتم ما جاء به غيركم . ويبقى هناك بعضها اورد عليه بعض ملاحظات علها تعجبكم

لا اقول للـ Interstice الاَّ (خلل) تجنباً للمترادفات ولأن بعض اللغويين قالوا ان خلال جمع خلل كجبال وجبل (تاج) . وكذلك اقول خللي في النسبة ولا اقول خلالي

(١) هذا يذكرني بجندي أصيب بهذا الداء فشخص الطبيب مرضه اختناق الرحم وكتبه كذلك في ورقة التشخيص المعلوف

قلتم : «ولا اظن ان ابن سينا ذكر الدوسنطاريا[١] في قانونه» . اقول ذكرها في الجزء الثاني في المقالة الاولى من الفن السادس عشر من الكتاب الثالث في فصل في كلام في استطلاق البطن.. الخ. ص ٤٢٤ س ١٩ ، و ص ٤٢٥ س ١٠ و ٧ ، و ص ٤٢٨ س ١٥ . وفي المقالة الثانية من الفن السادس عشر في معالجات اصناف الاستطلاقات ص ٢٣٥ س ٢٣ «طبعة المطبعة العامرة في مصر سنة ١٢٩٤» أما (سحج الامعاء) فعرض من اعراض الدوسنطاريا وهو بالفرنسية الـ Abrasion « انظر معجم ليتره Littré الطبي »

والآن نأتي الى وضع مصطلحات لمتعلقات الجنين وما يخرج معه عند الولادة . وهذا صعب جداً اتعبني كثيراً واظنني وفقت الى نتيجة حسنة . اني جمعت ما عثرت عليه من الكلمات التي من هذا القبيل في التاج والمخصص فكانت : (السخد ، السلى ، الحضير والحضيرة ، المشيمة ، النُخط ، الشاهد والشهود ، الفَقء والفُقأة والفاقياء ، السي والسابياء ، المسكة والماسكة ، الصاءة ، النَفْس ، الرَهَل ، السِقْي ، الغِرْس ، السكبة ، الحولاء ، الضواة ، القُضاة ، الرَدْن ، مدْرع الردن ، المُلْجة ، المِخذفة ، المِنتجة ، المكْوَة ، القُنْبُعة ، السمحاء ، السمارى ، الفَنفجة ، النُكْزة) . فهذه ٢٩ كلمة . نطرح منها التسع الاخيرة ، الملجة وما بعدها ذكرها صاحب المخصص ولم يذكرها التاج . وقال ابن سيدة عنها نقلاً عن ابن دريد انها واحد وهو الغرس الذي يكون فيه الولد . وقال عن الغرس انهُ الذي يخرج مع الولد كأنهُ مخاط . ونطرح كذلك الردن ومدرع الردن فهي في المعنى عينه .وقيل عن القضاة انها جلدة رقيقة على وجه الصبي حين يولد وعندنا المسكة تغني عنها والضواة كأنها الفاقياء للناقة فلنهملها . والحولاء ماء يكون في السلى او جلدة تخرج مع الولد . ولنا غنى عنها في الكلمات الباقية . والسكبة الغرس فلا لزوم لها . ولنترك الغرس نفسه لنستعمله مقابل Glaire وهو مخاط لزج ذو قوام يخرج من الامعاء في نزلاتها . وقد استعمل الاطباء (الغرس) بهذا المعنى قديماً فقالوا : قيام الاغراس . يريدون بالقيام الاسهال. ولنترك (السقي) لماء الحبن Liquide ascitique . ونترك الرهل لنقابل به الـ Sérosité . فقد استعملتهُ اطباء العرب بهذا المعنى وبمعنى المائية التي تجتمع في خلال الانسجة فتكوّن الاوذيما . اعلمُ انكم كنتم تريدون تسمية الـ Sérosité بالغسّاق وقد وردت هذه الكلمة في القرآن وفسروها بما يسيل من جلود اهل النار.فلو قلتم لقسيس يسيل من جرحه مائية هذا غساق لربما هان الامر ولكن هل يمكنكم ان تقولوا ذلك لاحد الشيوخ؟ وجاء في التاج « رهل لحمه بالكسر اضطرب واسترخى وانتفخ» ورهله كثرة النوم ترهيلا هبّج وجهه وانتفخت محاجره .. واصبح مرهلاً اذا تهبج وجهه من كثرة النوم »

اما الكلمات الباقية فقد اعطى اللغويون كلا منها معاني شتى فتداخلت واشتبكت . ولكننا نتمكن بالتمحيص ان نخصصها كما يلي :

---

(١) قوله ان الدوسنطاريا وردت في ابن سينا صواب وكان قولي هذا سهواً مني — المعلوف

لا شك في ان(السُخد) هو الـ Placenta . فقد عرّف في مستدرك التاج خير تعريف حيث قيل : « هنة كالكبد او الطحال مجتمعة تكون في السلى » فهذا التحديد لا يترك مجالاً للتردد . واني اظن السخت معرباً عن كلمة (سَخت) الفارسية ومعناها صلب شديد متين . والبلاسنتا هي اشد واثخن قسم في متعلقات الجنين

ولاشك ايضاً في ان (السلى) هو الـ Chorion . فقد جاءَ في المخصص « السلى الجلدة التي يكون فيها الولد » . وفي القاموس « السلى الجلدة يكون فيها الولد من الناس والمواشي » . ولقد تحققت ان هذا الاسم معروف ومستعمل بهذا المعنى عند اهل البادية اليوم . فلنخصص السلى للخوريون. اما اذا قلتم : ولكن كيف سموا الطبقة من طبقات العين بالمشيمية وهي بالافرنجية Choroïde قلت اما كان ذلك غلطاً درجوا عليهِ او انهم ارادوا الكل بدل الجزء كما سنرى في كلمة مشيمة

ونخصص (الحضيرة) للـ Amnios فقد جاءَ في التاج عن ابي عبيدة انها « لفافة الولد » . والامنيوس هو الغشاء المحيط بالجنين والخوريون فوقه

اما (المشيمة) فلم تستعملها اطباء العرب الاَّ بمعنى(Arrière--faix (Délivre اي مجموع ما يخرج بعد الولد عادةً من سخد واغشية . فقالوا خروج المشيمة والقاء المشيمة Délivrance [الخلاص حديثة اتى بها ضعفاء المترجمين] وقالوا احتباس المشيمة ودواء مخرج للمشيمة . فلنتابعهم في هذه التسمية

واما (النُخط) فهو الـ Liquide amniotique . جاءَ في القاموس : « الماء الذي في المشيمة »

واما (الشاهد) فهو Bouchon gélatineux . جاءَ في التاج : « والشاهد شبه مخاط يخرج مع الولد جمعه شهود .. وقال ابن سيدة الشهود الاغراس التي تكون على الحوار »

واما (الفاقياء) فهي الـ Poche des eaux اي القسم الذي يكون امام رأس الجنين من الغشاء وبينهُ وبين الرأس قسم من النخط ، ثم انهُ ينفقىء عن رأس الجنين فيسيل ذلك النخط . جاءَ في القاموس : « القافياء السابياء وهي التي تتفقأ عن رأس الولد . ومثله في المخصص

لكني ارى ان الفاقياء شيء (والسابياء) شيء آخر . وهي وان وردت في كتب اللغة في مادة سبي فليس لها صلة او معنى يجمعها مع هذه المادة . وعندي انها محرفة ومعربة عن (سَر آبه) بالفارسية سر هو الرأس وآبه ماءَة اي طائفة من الماء من آب ماء . وهو الماءَ الذي ينسكب عند انشقاق الفاقياء ويعرف في الموصل بماء الرأس . اذاً هو Eaux de la poche . جاءَ في التاج: « وقال الازهري في تفسير الحديث السابياء هو الماء الخارج على رأس الولد اذا ولد » وهذا عندي اصوب معنى اعطي للسابياء . وفي المخصص ايضاً عن ابي عبيدة « السابياء الماء الذي يكون على رأس الولد »

واما (الماسكة) فهي قشرة تكون على وجه الصبي [المخصص والتاج] فهي اذاً الفاقياء اذا انفصلت وبقيت على وجه الوليد ان لم تكشف عنهُ مات مختنقاً . واظن ان الفرنسيين يسمونها Masque او voile

واما (الصاءة) فيجدر بها ان تخصص لما يعبرون عنهُ بالـ Sérotine (راجع معجم ليتّره) وهذه مشتقة من serotinus ومعناه المتأخر. جاءَ في التاج عند الكلام على الحِولاء: «... ثم يخرج بعد ذلك بيوم او يومين الصاءة ...»

واما (النَفَس) فهو الـ Lochie (المخصص ١ — ٢١)

واسمي الـ Allantoïde (الغشاء اللَقَانقي [1]) او (اللقانقي) باختصار. واللقانق وهو الطعام المعروف اليوم بالمنبار والنبار عُرِّب قديماً من الفارسية (لقانه) ووردت في الكتب القديمة منها بحر الجواهر بخلاف السجق والمنبار فانهما لم يجيئا في الكتب المعتبرة. ولا أدري من اين أتتنا كلمة منبار

وليس لنا الآنّ ان نترجم Caduque ترجمةً فنقول (الغشاء الساقط) او (الساقط) فقط

ولنجمل أدناه ما ذكرناه:

Caduque	ساقط
Allantoïde	لَقانـقي
Amnios	حضيرة
Liquide amniotique	نُخط
Chorion	سلى
Placenta	سُخَد
Arrière-faix (Délivre)	مشيمة
Bouchon gélatineux	شاهد
Poche des eaux	فاقياء

(١) جاء في بحر الجواهر ما نصه: لقانق بالضم لقانه وهي الحوايا المحشوة من اللحم والبصل والشحم المشوية في الادهان. قلت ويقال نقانق ولقالق ومقانق والاخيرة شائعة في بيروت. قال دوزي في مادة نقانق: هي لقانقا باللاتينية ويراد بها امعاء الضأن محشوة باللحم المهروم (المفروم) مع الفلفل الاسود والملح واللبن الحامض وعصير الرمان تشوى في التنور. ونقل عن ابن البيطار في مادة امعاء عن الرازي ما نصه: اما الامعاء فلا تصلح لطبخ الاسفيذجات بل للنقانق فاذا اتخذت نقانق فليكثر فيه من الابازير والتوابل. وقال لكلير مترجم ابن البيطار في حاشية له لا يعلم ما هو النقانق واظنه السجق. فتجد ان صاحب بحر الجواهر لم يقل انها معرب لقانه بل فسر اللقانق باللقانه ولعل هذه فارسية كذلك دوزي فانه لم يقل انها لاتينية معربة بل قال انها لقانقا باللاتينية ولم اعثر على هذه اللفظة في المعجم اللاتيني الذي عندي ولعلها لاتينية حديثة او نسبة الى لقانيا كورة في جنوب ايطالية ولا ادري اهي فارسية معربة ام لاتينية الاصل ولايحل هذا المشكل الا احد اثنين هما من دعاميص الرمل او دعاميص الجن وقد تتبعا لفظة فونقس واخواتها ومرادفاتها في مجلة المشرق ومجلة المجمع العلمي العربي ومجلة لغة العرب مدة خمس وعشرين سنة الى ان قبضا عليها في أساطير الاولين وقاداها ذليلة صاغرة الى حظيرة اللغة العربية اما السجق او اللقانق فيتخذ من الحوايا اي الامعاء الدقيقة واما المنبار فيتخذ من القولون اي المعى الغليظ لذلك يسمونه في بيروت بالفارغ لانه يكون عادة خالياً من البراز. والله اعلم المعلوف

سابياء	Eau de la poche
ماسكة	Masque ? voile ?
صاءة	Sérotine
نَفَس	Lochie

الـ Orgelet هي (الشعيرة) لا غير في الاصطلاح الطبي . ولغة هي الجدجد والقمع والكدكد (بحر الجواهر) والظبظاب ايضاً . ولنعلم ان اللغويين والعوام لا يفرقون بين البردة والشعيرة

لا اقول لـ Blépharite التهاب جفني ولا رمد جفني ، بل اقول (التهاب الجفن) او (التهاب الاجفان) واحسن منها (السُلاق) كما قلتم . اما الرمد فيقابل الـ Ophtalmic . وللسلاق عند اطباء العرب اسماء ودرجات كثيرة نظراً لاعراضه ومظاهره ، منها جسأ الاجفان Sclérosis وسعفة الأجفان Teigne des paupières وجرب الأجفان Galle des paupières او Pseurophtalmic اوحكة الاجفانGratelle des paupières و(السلاق)التيني اوالتينةSycosisوانتثار الاهداب Madarosis

واقول لـ Blépharite ciliaire (السلاق الهدبي) ولـ Blépharo-adénite التهاب الغدد الجفنية وربما كان هذا المرض هو المقصود بتسميتهم بالـ (توتة) توتة الاجفان . اما تسميتكم هذا المرض بالشرناق فغير مصيبة . فالشرناق هو الورم الشحمي اذا كان على الجفن العلوي خاصةً Lipome . جاء في كامل الصناعة الطبية (٢ — ٢٨٧) :

« فأما علل الاجفان فأولها علة الشرناق وتسمى اوراطيس ومداواتها باستفراغ البدن الى ان يقول : ثم من بعد ذلك يشق الجفن عرضاً ويخرج منه الجسم الشحمي » . وصاحب بحر الجواهر ايضاً يصرح بكونها تحتوي على شحم ويميزها عن السلعة . وفي تذكرة داود ان السلعة انواع منها عسلية ومنها اردهالجية ومنها شيرازية ومنها شحمية . اذن يكون عنده الشرناق سلعة شحمية . وتعلمون ان الشيراز هو اللبن المُمَصَّل . ولم اهتد لكلمة اوراطيس اليونانية واظنها محرفة[1]

Caroncule lacrymale هو (لحم الموق) . (انظر المخصص ١ — ١٠٨ وكامل الصناعة ٢ — ٢٩٠) اما اللخصة والبخصة فهما انتفاخ وغلظ اصول الاجفان خلقةً . واجدر ان يسمى بهما الشحم الذي وراء المقلة . وليستا لحم الموق

(١) لعل اوراطيس تحريف اوداطيس او هوداطيس ذكرها كذلك في المقالات العشر ص ١٣١ واوردها مايرهوف في مادة شرناق ص ١٩٠ و١٩١ (المقالات العشر طبعة مايرهوف) . ثم اني عثرت على لفظة شرناق في معجم انكليزي قال في تفسير مادة Axirnach هي كلمة عربية قال أبو القاسم الزهراوي انها ورم شحمي في الجفن الاعلى اكثر ما يصيب الاطفال وعليه يكون الشرناق ورم في الجفن الاعلى اي سلعة Cyst اما عسلية او اردهالجية او شيرازية او شحمية اي كما قال داود الانطاكي معلوف

الاحسن ان نسمي الـ Acné (العُدّ) ونسمي البثرة الواحدة من العد (عدة) Acromégalie (الفَتَخ) جاء في التاج «الفتخ عرض الكف والقدم وطولها. وذكره المخصص ايضاً (٢—١٢و٦٠) Angiome (ورم عروقي) ولا اقول وعائي . والنسبة للجمع هنا أنسب . واقول للـ Vaisseau عرق ولا أقول وعاء[1]

Cancroïde (شبه السرطان) . اما (الأكلة) فهي ترجمة Noma حرفياً . فان nomein هو القضم والقرض والاكل باليونانية . جاء في بحر الجواهر : « الأكلة في الفم علة صورتها صورة القروح غير انها تسعى في زمان يسير الى مواضع كثيرة من الفم ولها رائحة كريهة » . وهذا التعريف يقطع جهيزة كل خطيب

لابأس بتسمية الـ Cachexie بالدنف او الضَنى او الحَرَض. ولكن اسلافنا قالوا (سوء القِنْية) والقنية هي الكسب فكأن ما يملكه البدن من الاخلاط قد ساء في هذه الحالة المرضية . وقد جاء في بحر الجواهر « القنية عند الحكماء هي الملك وهو كون الشيء بحيث يحيط به وينتقل بانتقاله كالتعمم والتلبس . وجلد الانسان محيط به فينتقل بانتقاله وهو في هذا المرض يسوء حاله ولذلك يقال لهذا المرض سوء القنية ، وان كان الاستسقاء اولى بذلك الاسم . لكن لما اختص هو باسم خاص فيبقى هذا الاسم خاصاً بهذه الحالة وهو مقدمة الاستسقاء »

Cansanguinité (وحدة الدم) في البشر والخيل وسائر الحيوان . اما الاضواء فقد يكون نتيجة لوحدة الدم بعضاً . فقد يتعالى النسل بوحدة الدم وقد ينحط « انظر معجم ليتره »

تسمية الـ Fomentation بالـ (كِماد) صحيحة . اما النطول فهو ان يصب الدواء السائل الفاتر على العضو صباً

اسمي الـ Astigmatisme بالـ (لا محراقية) . فان هذه الكلمة الافرنجية مركبة من حرف النفي a ومن stigma وهي النقطة اريد بها المحراق

اما Centrifuge و Centripède فلا احسن من مقابلتهما بكلمتي (الصادر) (والوارد) لابد انكم شاهدتم عين ماء او بئراً او خريجة في الصحراء ورأيتم طرقاً تتجه اليها من جميع النواحي وقد غدت هي مركزاً لهذه الخطوط المطروقة . فالآتي على هذه الخطوط للمورد اي المتجه للمركز يسمى الوارد والراجع عليها اي المتباعد عن المركز يسمى الصادر . وهذا يطابق تماماً

Diurétique (المدر للبول ، يدر البول)

لقد طال الكلام فلا اريد ان ابحث عما ذكرتموه من مصطلحات النبات . ولا اخالكم الا مصيبين في ما ذكرتموه منها في مقالكم الموصل الدكتور داود الجلبي

(١) قلت هذا مخالف لرأي الاب انستاس في مجلة معهد الطب العربي السنة الاولى ٤٢٦ معلوف

كتاب فيصل الاول

تأليف امين الريحاني

تفضل رئيس تحرير المقتطف فسلمني كتاب فيصل الاول في الشهر الماضي فألقيت عليه نظرة عجلى وكتبت عنهُ كلمة مجملة نشرت في الجزء الماضي فطلب اليَّ ان ادرسه درساً وافياً جديراً بكتاب مثله فعدت اليه فقرأته قراءة الناقد المدقق ، لا قراءة المتصفح السائر

ويمتاز الكتاب كما وصفته في كلمتي الاولى بأسلوبه القصصي الاخَّاذ وانسجام ابحاثه وتسلسلها وتنوع مواضيعه وتعددها ، وتلك من خصائص استاذنا الريحاني فلا يبارى فيها ولا يشق له غبار

ولذلك سأتكلم عن الناحية التاريخية فيه ، والظاهر انها لم تنل من عناية المؤلف ما نالته النواحي الاخرى فأخذ بالشائع المتداول من الروايات من دون ان يكلف نفسه مؤونة التدقيق في البحث فوقعت هفوات رأيت ان انبه اليها وان كانت مما لا ينقص قيمة الكتاب ورائدي خدمة التاريخ الخدمة الحقة الواجبة على المشتغلين بهِ

قال في الصفحة ٢٢ : وكان الشريف فيصل في النصف الاول من العقد الثالث عند ما عاد الى الحجاز مع ابيه الذي تقلد منصب الامارة في مكة فعينه مديراً لشؤون البدو فكانت وظيفته تستوجب الحملات التأديبية من حين الى آخر. هذا ما قاله . والصواب انه لم تكن في امارة مكة وظيفة اسمها (مديرية شؤون البدو) يتقلدها او يختص بها بل كانت هنالك اعمال مشتركة يعملها بالتعاون مع اخويه (علي وعبد الله) وكان والدهم ينتدبهم للمهام بحسب الحاجة

وقال في الصفحة ٢٤ وهو يتكلم عن الشريف فيصل في مجلس النواب « بيد انهُ انتمى الى الحزب العربي » والصواب انهُ لم ينتمِ الى هذا الحزب — والذي انتمى اليهِ هو الامير عبد الله اما فيصل فكان موالياً للاتحاديين يرى ان السلامة كل السلامة في التعاون معهم

وقال في الصفحة نفسها « وقعت الحرب العظمى ودخلت تركيا الحرب وكان الشريف فيصل في سورية » والصواب انهُ كان عند دخول الدولة الحرب وذلك في شهر نوفمبر سنة ١٩١٤ يقيم في مكة بقرب والده ، فقد غادر الاستانة في شهر اغسطس مع شقيقه الامير عبد الله على اثر وقف جلسات مجلس النواب العثماني فجاءا القاهرة ومنها سافرا الى مكة. وقضى الشريف فيصل السنة الاولى من الحرب في الحجاز وفي شهر سبتمبر سنة ١٩١٥ غادر مكة الى الاستانة ليشكو وهيب باشا والي الحجاز يومئذٍ ويطالب باقالته ، وليسعى لتكون امارة مكة ارثاً في بيتهم (بيت الحسين) ومرَّ بدمشق وكان الطريق البحري مغلقاً — وتلك هي المرة الاولى يزورها فيها فحل ضيفاً على آل البكري وعرف بما اقترفهُ جمال باشا من فظائع [1] فابلغها الى الصدر الاعظم سعيد حليم باشا وشكا منها وسلمهُ مذكرة وصف

(١) أعدم جمال باشا رجال الرعيل الاول في بيروت صباح ٢١ اغسطس سنة ١٩١٥ اى قبل وصول الشريف فيصل الى دمشق بزمن قليل

فيها حالة العرب وقال ان والده على استعداد لتأييد الدولة اذا اعترفت باستقلال الحجاز على اساس اللامركزية وبالشريف حسين اميراً على ان تكون الامارة ارثاً في اولاده من بعده[1]

وعاد الى دمشق في شهر نوفمبر سنة ١٩١٥ وقد سبقتهُ برقية من انور باشا الى جمال باشا يوصيه فيها بالحفاوة بالامير وان يتخذه مستشاراً له يساعده على تهدئة الحالة في البلاد العربية وان يحل آراءه المكان اللائق بها . ولم يطل الاقامة في دمشق بل غادرها الى مكة لاطلاع والده على ما وقع له ولابلاغه اماني الجمعيات العربية وقد اتصل بها للمرة الاولى مدة اقامته في دمشق وعرف باستعدادها لاضرام الثورة في البلاد السورية . وجاء دمشق ثالثة في يناير سنة ١٩١٦ ليقيم قرب جمال باشا ، طبقاً لاشارة انور باشا ظاهراً ، وكانت مهمته السرية مراقبة الحالة عن كثب والاتفاق مع زعماء العرب على العمل ، واغتنم الفرصة في شهر مايو سنة ١٩١٦ فسافر الى المدينة لاستقبال المجاهدين القادمين من مكة باسم جمال باشا والعودة على رأسهم الى فلسطين فتخلص من الترك بحجة انهُ ذاهب لوداع اخيه الامير علي وهاجم في اليوم الذي افلت فيه وهو ٢ يونيو سنة ١٩١٦ مواقع الترك حول المدينة

وقال في الصفحة نفسها: «وفي شهر حزيران (يونيو) شنَّ الشريف حسين الثورة على الاتراك وعين فيصلاً لقيادة الجيش الشمالي » وحقيقة ما وقع هو انهُ لم يكن لدى الشريف حين اعلان الثورة جيوش منظمة ليولي ابناءه او غيرهم قيادتها وانما اختص كل واحد منهم بالعمل في ناحية فعمل عبد الله حول الطائف وعمل فيصل على طريق المدينة — ينبع وظل هنالك حتى شهر يناير ١٩١٧ ففي يوم ١٦ منه غادر ينبع الى الوجه بعد ما توطدت اركان الثورة في الحجاز وفازت وانتفى كل خطر عنها . وفي الوجه بدأ بانشاء الجيش الشمالي ثم انتقل مقره بعد ذلك الى العقبة ودمشق

وقال في الصفحة نفسها : وما كاد يدق الاوتاد على شاطىء الحجاز بين العلا والعقبة حتى ظهر على المسرح الكولونيل لورانس الانكليزي رسول الحكومة البريطانية» والصواب ان لورانس ظهر على المسرح في ينبع لا في العلا والوجه ، فقد زار جده في شهر اكتوبر سنة ١٩١٦ لدرس حالة الثورة العربية عن كثب ثم قصد ينبع فالتقى فيها للمرة الاولى بالشريف فيصل في وادي الصفرا على طريق المدينة . ويقول لورانس نفسه في الصفحة ١٨ من كتابه « ثورة في الصحراء » عن هذه المقابلة ما ترجمته « وعلى الجانب الابعد من ساحة الدار الداخلية وقف شبح ابيض ينتظرني بلهفة وشوق ولما وقعت عيني عليهِ شعرت بأنهُ الرجل الذي قدمت الجزيرة العربية في طلبه الخ »

واثار في الصفحة ٢٥ قضية ما كان لمثلهُ ان يثيرها واصدر على العرب حكماً قاسياً فزعم ان سبعين من الفضل في نجاح الثورة العربية او اكثر او اقل هي للخيال الانكليزي (الجنيه) . ويلوح لنا ان تسرع استاذنا الريحاني في اصداره هذا الحكم وغمطه حق العرب ناشىء عن عدم دراسته الثورة العربية الدراسة الكافية واعتماده على ما كتبه بعض المؤلفين الانكليز في موضوعها

ويجب ان لا يؤخذ من هذا اننا ننكر ما اسداه الانكليز للثورة من تأييد وامدادهم اياها

(١) من مذكرات علي فؤاد باشا رئيس اركان حرب الجيش الرابع اثناء الحرب

بالسلاح والمال فنحن نعرف ذلك ونعرف ايضاً ان لهذه المساعدة شأناً كبيراً في نمو الثورة واتساع نطاقها ولكننا نعرف الى جانب هذا ان فائدة الانكليز من الثورة كانت اعظم من فائدة العرب انفسهم وان ما دفعوه وبذلوه لا يعادل الثمرات التي جنوها منها فقد مكنتهم من عبور قناة السويس وسهلت لهم فتح بلاد الشام والانتصار على الترك وهم الذين قضوا السنوات الاولى من الحرب مخندقين وراء حصونهم في القناة لا يجرؤون على مغادرتها . ويقول جمال باشا في مذكراته ان اول مرة عبر فيها الانكليز القناة كانت بعد ثورة العرب . يضاف الى هذا ان العرب كانوا ينازلون ٣٠ الف جندي للترك في الحجاز و الشام . ولولاهم لاشتركوا في قتال الانكليز ولصدوهم عن البلاد او على الأقل لشغلوا ٥٠ الف جندي انكليزي . وما لنا نذهب بعيداً في الاستنتاج وهذا هو الكولونيل لورانس وقد رافق الثورة العربية وعرف ما أسدتهُ للحلفاء من خدم يقول عنها في كتابهِ « كلنا يعرف ان فيصلاً بذل جهداً كبيراً في نشر الوية الثورة التي اعلنت في مكة وفي توسيع نطاقها فتمَّ له ما اراد وبفضل بسالتهِ وحكمته اسدت هذه الثورة اعظم خدمة للحلفاء في ميدان فلسطين

« وكلنا يعرف ايضاً ان الجيش العربي الذي اعدّ وانشيء في ساحة القتال بين نيران المدافع صار جيشاً منظماً كامل العدة والعدد بعد ما كان في ابتداء أمره شراذم من البدو وقد تم له أسر ٣٥ الف جندي من الترك كما اخرج عدداً لا يقل عن هذا من صفوف القتال وغنم نحو ١٥٠ مدفعاً واستولى على ما مساحتهُ مائة الف ميل مربع من الاراضي ولقد أدّى هذه الخدمة في زمن كنا في أشد الحاجة اليهم فنحن مدينون لهم »

وقال في الصفحة ٢٦ « وعند ما انتدب الملك حسين ابنه الامير فيصلاً ليمثل العرب في مؤتمر فرساي كانت حاشيته الكبيرة امة مصغرة وقد تباينت فيها النزعات» والصواب ان الذين رافقوا الامير يومئذ هم نوري السعيد رئيس اركان حربه ورستم حيدر رئيس ديوانه والدكتور احمد قدري طبيبه الخاص وتحسين قدري مرافقه العسكري وفايز الغصين سكرتيره الخاص . هؤلاء الذين رافقوه في المرة الاولى وما هم بالحاشية الكبيرة المختلفة النزعات . ولو اطلق هذا الوصف على الذين رافقوه في الرحلة الثانية[1] لما عدا الصواب فقد سافر معه يومئذ الجنرال حداد باشا والشيخ فؤاد الخطيب والامير امين ارسلان والدكتور سامح الفاخوري والخوري يوسف اسطفان وأمين التميمي ومحمد اسماعيل والدكتور احمد قدري وتحسين قدري

وقال في الصفحة ٢٧ ان الامير والمسيو كلمنصو وقعا الاتفاق بالحرف الاول من اسميهما والصواب ان الامير وعد الفرنسويين بأن يسعى لحمل السوريين على قبول الاتفاق ولم يوقعه

هذا ما رأيت ان انبه اليه في الفصل الاول . وسأعود الى الفصول الاخرى في الشهر المقبل ان شاء الله

أمين سعيد

(١) كانت الرحلة الاولى في شهر نوفمبر سنة ١٩١٨ وكانت الثانية في شهر سبتمبر سنة ١٩١٩

في بحور الشعر

لما تناولت بالنقد « صنّاجة الرياشي » وأشرت الى ما في ابيات الشاعر من خلل الوزن او من عجز الموسيقى لم يكن غرضي بداهةً سوى النقد الفني الصرف ، وكذلك كان شأني في التعليق على رد صديقي الدكتور بشر فارس ، ولذلك اعتب عليه لمحاولته تصويري بصورة المتعنت المكابر المعاند ولا احب بدوري ان اصفه بهذا الوصف ، كما اني لا اعدُّ ما كتبه عني من باب الغمز ، فاني احترم النقد الادبي وافترض دائماً حسن النية وأرحب بما كتبه الصديق الكريم .

فأما ما عابه على شعري فليس هذا مقامه ، وانما مقامه حين يصدر احد دواويني الشعرية وله حينئذ ان يؤاخذني بما يشاء وأطالبه بأقسى مما كتب وأنا احتمل نقده بكل ارتياح ، ولكنني اذكّره الآن بأننا في معرض شعر الرياشي لا شعر الصيرفي . كما اني اعتب عليه لمحاولته الاستشهاد ببيت يتفق مع ما يليه ولكنه يجذبه فيلصقه ببيت آخر اتفق مع ما يليه ايضاً وحاولت أنا تغيير النغم في مقطع عنه في غيره ، فمحاولة الدكتور بشر في جذب مثل هذين البيتين من مكانيهما ليفهم القارىء انني مخطىءٌ لا اراها من باب الانصاف ، كذلك لا ارى من الاعتزاز الادبي التهكم على زميل يقوم بتجاريب نظمية جديدة

غير انني اعود الى موضوعنا فأدعوه مرة اخرى للفائدة الادبية — لا للمكابرة — ان يقطّع ابيات الرياشي ولمثل هذه الغاية ادعو الاستاذ البشبيشي والدكتور زكي مبارك للمساهمة في هذا التحقيق العروضي ما دام صديقي الفاضل يريد ان يستبعد من المناقشة الذوق الموسيقي الشائع ، وأملي ان لا يعد هذه الدعوة من باب التحامل عليه ما دام غرضه كغرضي الخدمة الادبية الخالصة وإظهار الحق ، وأكرر له اخيراً شكري على هذه المساجلة المفيدة

حسن كامل الصيرفي

[المقتطف] لا ريب في ان الابيات التي اوردها الصيرفي من صناجة الرياشي (مقتطف دسمبر ١٩٣٣ صفحة ٦٣٠) مستقيمة عروضاً ، الاَّ ان ثالثها فيهِ ضعف . واما الابيات التي اوردها بشر فارس من شعر الصيرفي (مقتطف مارس ٣٧٥) فاليك الرأي فيها : الابيات الثلاثة الاولى صدورها من المديد واعجازها من الخفيف. والبيت الرابع مستقيم ، والخامس والسادس لا يستقيمان والسابع مستقيم على ضعفٍ . وأما ما بقي منها الى السادس عشر فخطأٌ الاَّ البيتان الثاني عشر والرابع عشر وهما مستقيمان . وبهذا نختم هذه المناظرة

مكتبة المقتطف

كتاب مؤتمر الموسيقى العربية

يعلم قراء « المقتطف » ان مؤتمراً للموسيقى العربية انعقد في مصر في ربيع سنة ١٩٣٢ . وقد نشرنا في شهر ابريل من تلك السنة رسالة مسهبة في اغراض هذا المؤتمر وطرق الوصول اليها لبشر فارس الدكتور في الآداب من جامعة باريس . وقال فيما قال : انهُ من الخطأ ان يخلط الناس بمصر الموسيقى العربية بالموسيقى الشرقية لان الموسيقى الشرقية شيء والعربية شيء آخر . وهذا مرسوم ملكي قد صدر بتسمية معهد الموسيقى في مصر « معهد الموسيقى العربية » بدلاً من الشرقية

انعقد ذلك المؤتمر وكان في اعضائه مصريون وشرقيون وافرنجة . فبذل جهده في ضبط بعض نواحي الموسيقى العربية وتحديدها . وقد برز الآن تقرير ضخم عن اعمال هذا المؤتمر . وهذا التقرير في ما يزيد على ٧٠٠ صفحة من القطع الكبير . وهو منقسم ثلاثة اقسام . الاول يبحث في الشؤون الادارية من مكاتبات ادارية واوامر ملكية وبيانات تنظيمية وبرامج عملية ولوائح اسماء الاعضاء الى غير ذلك . والقسم الثاني يبحث في الامور الفنية وفي هذه الامور طرق تنظيم الموسيقى العربية وترقيتها ، ثم حصر المقامات الموسيقية وترتيبها وتحليلها الى اجناس ومقابلتها بما هو مستعمل في غير مصر ، ثم في بيان انواع الايقاعات المستعملة في مصر وغيرها من البلاد العربية وتحليل هذه الايقاعات ، ثم بسط انواع التاليف الغنائي والصامت المستعملين في مصر وغيرها والبحث عن انواع اخرى ، ثم بحث التجارب التي اجريت لاثبات مقادير الابعاد السبعة للسلم واثبات قيمة الاربعة وعشرين صوتاً والتوصل الى طريقة تدوين الالحان ، ثمّ حصر الآلات العربية وبحث مقدار ادائها وطلب تحسينها والنظر في اضافة الآلات الاوربية الى الآلات العربية ، ثم تسجيل الالحان بالنظر الى مقامها والبحث في كيفية دراسة الاسطوانات ثم النظر في الجماعات الموسيقية بين شرقية وغربية بمصر واحصاء من يتعلم الموسيقى العربية والغربية والمشاورة في تعميم التثقيف الموسيقي في مصر وكيف يكون والى اي غرض يرمي واي نحوٍ ينحو، ثم احصاء المؤلفات الغربية والشرقية التي تبحث في تاريخ الموسيقى العربية والنظر في تشجيع نشر المؤلفات واعداد تقرير يشمل تاريخ سلم الموسيقى العربية وتطوراتهِ في العصور المختلفة والتنقيب عن مخطوطات في الموسيقى العربية. واما القسم الثالث فمجموعة من صور الموسيقيين والآلات الموسيقية وصور من العرض المدرسي غاية في الاتقان

هذا وان في نهاية ذلك التقرير فصلاً طويلاً عن جلسة المؤتمر السابعة التي بحثت في « خير

الطرق التي تتبع لامكان تنظيم الموسيقى العربية وترقيتها لتؤدي كل الاغراض المطلوبة من الموسيقى على العالم مع الاحتفاظ بطابعها » . وفي هذا الفصل سرد الاساليب التي بها تتقدم الموسيقى وتتدرج الى الكمال . وفي هذه الاساليب بعض ما اشار اليه الدكتور بشر فارس في المقال الذي اشرنا اليه في مقدمة الكلام مثل تأليف كتب النماذج Methods وتثقيف من يطلب الموسيقى تثقيفاً رفيعاً يتراوح بين اسلوب الموسيقى العربية والموسيقى الافرنجية وغير ذلك

تاريخ الصحافة العربية (الجزء الرابع)

تأليف الفيكنت فيليب دي طرازي — المطبعة الاميركانية في بيروت ١٩٣٣ — ٥٤٥ صفحة من الحجم المتوسط

ان الفيكنت فيليب دي طرازي من أعلام اهل لبنان ومن مفاخر الشرق العربي . وانه على شرف بيته وكرم خلقه ، لمن اولئك الرجال الذين وقفوا حياتهم على خدمة اللغة العربية فبذلوا في سبيلها مالهم وهناءتهم. بل انهُ من اولئك الرجال الذين بهم تساجل الفرنجة في ميدان العلم والاستشراق

عني الفيكنت منذ فتوتهِ بالصحافة العربية . فراح يجمع الصحف والمجلات في اي بلد برزت حتى استقامت له مجموعة لا مثيل لها في العالم تحسدهُ عليها دور التحف وخزانات الكتب. وقد عرض الفيكنت مجموعته في بيروت لبضع سنوات خلت. فأصاب العلماء هنالك ما لم يدر لهم ببال . وخرجوا من المعرض مذهوباً بهم

على ان الفيكنت دي طرازي لم يقصر همه على الجمع والعرض ، بل صنَّف في تاريخ الصحافة العربية كتباً نفيسة ما تزال المرجع الوحيد بل الوثيق في بابها . وقد وقعت من المستشرقين أحسن وقع حتى لانهم نقلوها الى لغاتهم . فالجزءان الاولان ترجمها الالمان واما الجزء الرابع فقد ترجمه الاميركيون

وهذا الجزء الرابع اخرجه الفيكنت اليوم وطيه جميع فهارس الجرائد والمجلات العربية في انحاء العالم منذ نشوء الصحافة العربية حتى سنة تسع وعشرين وتسعمائة والف

وقد رتب الفيكنت هذه الفهارس احسن ترتيب حتى يصيب فيها المطلع غرضهُ في اسرع من ارتداد الطرف . وقد جاء هذا الترتيب على ضربين متسايرين فترتيب جغرافي تنقسم فيهِ الفهارس خمسة اقسام تتناول مدن كل من القارات الخمس على حسب وضعها السياسي المشهور الآن . ثم ترتيب تاريخي ناهض على تسلسل الصحف في الزمان . ثم ان لهذه الفهارس شروحاً علق بها الفيكنت على بعض الحوادث النادرة اللطيفة اللاحقة بالصحف

ذلك هو الجزء الذي ابرزه الفيكنت اليوم فمرحباً بهِ ولعل الفيكنت لا يقعد عن اخراج ما بقي لديهِ من الاجزاء ، فان العلم نفسه يطلبها اشد الطلب

بشر فارس

التجديد في الادب الانكليزي الحديث

تأليف سلامه موسى

الادب الانكليزي أدب فائدة وليس ادب لفظ وصنعة . والادب الانكليزي ينظر الى حياته الخاصة ووسطه العام فيتأثر بهما ويؤثر فيهما . يدرس الحياة على انها موضوعة يستدعي إرشاد ما فيها من معانٍ غامضة . والحياة عند المجددين من الادباء الانكليز تُنقد وتُعرف على حقائقها الاجتماعية والفكرية والمادية . فيظفر القارىء من الكاتب بفائدة جديدة كان يجهلها أو يعرفها معرفة سطحية. فليست غاية الاديب الانكليزي ان يكتب ويجيد الكتابة على النحو الذي يفعله مثلاً بعض الادباء الشرقيين بل ان يعيش المعيشة الادبية أي ان تكون القاعدة في الادب عنده تصوير الحياة بما فيها من مثل عليا على أدق الصور الحديثة في التحليلات النفسية . والادب الانكليزي لذلك يدرس كل يوم شيئاً جديداً . فهو يدرس الانظمة الاجتماعية . والتطور الفكري . والمخترعات الحديثة . والوان العلوم . وشؤون الحكم . وبعض الادباء يتخيل انسب وسائل الحكم للجيل الحاضر او المقبل كما تحدث « ولز » في كتابه « الطوبى الجديدة » . فقد رسم لنا طريقة موفقة في شأن المعاملات المادية والاجتماعية . وفيها ايضاً ينزع من نفوسنا النزعة الدموية التي تطغى على عواطفنا فتجنح بنا الى الثورات والحروب . فالحياة في هذه « الطوبى » بعيدة عن الحياة الواقعة ولكنهُ خيال العلم الذي لا يبعد ان يكون حقيقة الغد . وكذلك يؤلف « ولز » الكتب العلمية المحضة وهذا كتابه في « علم الحياة » بالاشتراك مع جوليان هكسلي يعد في طليعة المؤلفات الخاصة بنظرية التطور ونشوء الحياة . وتجده يؤلف القصص يبحث فيها العلل الاجتماعية الخاصة بالعائلة ونظام النسل وتأخذها شركات السيما ودور التمثيل ليشهدها الجمهور ويتمتع بما فيها من معانٍ جليلة عالية . فالادب الانكليزي يتجدد بمرور الايام ولا يقف وان كان يحوي في ثناياه بعض الاساليب الرجعية في الفكر واللفظ ولكن حتى الرجعيين من اصحاب هذا الادب كانوا يمجدون الفن ويؤثرونهُ على الصنعة وكانوا يكرهون الآلات ويؤثرون عليها الجمال الذي نلمسهُ في الصناعة اليدوية ..والادب الانكليزي ادب علم وفن واختراع لا أدب حسن وبيان وصنعة ويضطلع باعبائهِ الكتاب والشعراء على السواء وإن اختلفت عندهم الوسيلة فالغاية التي ينشدونها واحدة ولا يهتم الكاتب الانكليزي الاّ بالمعنى دون اللفظ فالاسلوب عنده شيءٌ ثانوي ولذلك نجد انهُ ليس في انكلترا « اكادمية » للغة كما هي الحال في فرنسا .. وقد تحدث مؤلف هـذا الكتاب في كتابه عن منحى الادب الانكليزي في الاربعين السنة الماضية في مختلف نواحيه في دراسة تحليلية قوية لا تظفر بامثالهـا الاّ في كتب النقدة الكبار . وهو من اصحاب المذاهب الحديثة في الاسلوب والتفكير . فيكتب بعقل العـالم وباسلوب مختصر مفيد .. فهو مجدد في الناحيتين الفكرية والقلمية يدعو الى شؤون عديدة في حياتنا الاجتماعية من

ادب وعلم وخُلق ورياضة . وهو متأثر الى حدٍّ بعيد بالادب السكسوني وارى انهُ الاديب المجدد لحياتنا قبل ان يكون صحفياً او كاتباً بالمعنى العام من هذه الكلمة .. وادبهُ يصدر عن نفس تشعر بوجوب معالجة النقص في مناحي الحياة المصرية ولعل كتابه هذا أبلغ رسالة كتبها لادبائنا الجامدين وهي وإن كانت مقتضبة اقتضاباً شديداً وتحتاج الى كثير من الشرح والاسهاب الاَّ انها قوية موفقة ترضي القارىء من وجهتي العقل والشعور

حليم متري

تقويم الحكومة المصرية

عن سنة ١٩٣٤

اهدت الينا المطبعة الاميرية نسخة من التقويم الجديد الذي تصدره كل سنة وغرضها منهُ على ما جاء في كلمة التقويم مساعدة « الجمهور على ايجاد فكرة عامة عن وزارات الحكومة المصرية ومصالحها وما تتولاهُ كلٌّ منها من الاعمال وعن أهم ما يوجد في القطر من الجمعيات العلمية والشركات والبنوك وما يؤديه كلٌّ منها من عمل » . وناشرو التقويم يعترفون انهُ رغماً عما بذل من العناية في جمعهِ فانهُ لا يزال يحتاج الى معونة كل من يطلع عليهِ فيرشد الى نقص او خطإ وقع فيهِ او اقتراح يزيد في فائدتهِ . والكتاب يقع في ٧٦٠ صفحة من القطع الوسط ، تقع فيها على كل ما يهمك ان تعرفهُ من شؤون الادارة المصرية مبوَّباً أحسن تبويب مسوقاً اليك في ايجاز بليغ . فتحنا الكتاب عند الصفحتين ٢٩٨و٢٩٩ فاذا هما يحتويان على ملخص تجارة مصر الخارجية مع انكلترا ومستعمراتها وفرنسا وايطاليا والمانيا والولايات المتحدة الاميركية وبلجيكا ولكسمبرج وشيلي . وفتحناه عند الصفحة ٢٤٩ فرأينا في منتصفها الاسفل وصفاً موجزاً دقيقاً لقناطر نجع حمادي اليكهُ : «تقع هذه القناطر على النيل عند الكيلو ٥٨٨ قبلي القاهرة واربعة عشر كيلو متراً بحري كوبري السكة الحديد بنجع حمادي ، وتتكون القنطرة التي بدىء في بنائها في اواخر سنة ١٩٢٧ وانتهت في اكتوبر سنة ١٩٣٠ من مائة فتحة سعة كل فتحة منها ستة امتار ، وفي الجانب الغربي للقناطر هويس عرضهُ ١٦ متراً وطولهُ ٨٠ متراً وهذا الهويس في مقاساتهِ كهويس قناطر اسنا وقناطر اسيوط . وتختلف هذه القناطر عن قناطر اسنا واسيوط في ان سعة فتحاتها ستة امتار بدلاً من خمسة أمتار . وببناءِ هذه القناطر قد تمَّ ريٌّ جميع حياض الوجه القبلي اذ ان بوجودها بين قناطر اسنا واسيوط سيكون ري مديرية جرجا ومركز نجع حمادي من مديرية قنا مضموناً بقطع النظر عن انخفاض الفيضان . والمساحة التي تحكمها هذه القناطر نيليًّا حوالي نصف مليون فدان وستكون في المستقبل اداة لتحويل ٤٥٠ الف فدان من ري نيليّ الى ري مستديم . . . . » الخ

ويلي ذلك وصف التعلية الثانية لسدّ خزان اسوان . فالكتاب من حيث ما يشتمل عليهِ من الحقائق المبوَّبة سجلٌّ لا يستغني عنهُ احدٌ من المشتغلين بشؤون مصر العامة

ديوان الماحي

نظم محمد مصطفى الماحي — صفحاته ٢٥٦ قطع صغير

قال الشاعر في ما دفعهُ الى الشعر : « . . . . فكان لي — في الفينة بعد الفينة — خاطرة توحي بها مناسبة او فكرة يتفتح عنها الذهن ويصورها الخيال ، او ذكرى تتمثل للخاطر فتجيش بها العاطفة ، او حادث يثير كوامن الاشجان . وكنت اذا اكملت شيئاً من ذلك آثرت ان اطويه قانعاً بارضاء جانب الادب من نفسي كالمثَّال المتواضع ما يزال يعصر ذهنهُ ويستوحي ملهمهُ حتى يحسن ويبدع ثم يرى ان يحجب ما الهمه ليستجمَّ مؤثراً ان يرضي جانب الفن من نفسه . . . واشهد الله اني رجل لا ازلق الى الاغترار بمدحٍ ولا الى الاعتداد بشعرٍ . . . بل كنت انطق جاهداً عن الشعور الصادق وعن همسات النفس وخلجات القلب ووحي الضمير ، وما خطر لي يوماً اني سأواجه عالم الادب العربي بنشر هذا الديوان»

وقال خليل مطران في الديوان « فجعلته مرآة عصرك »

وقال عبد الله عفيفي : ... وانك لتقرأ شعره فتجد صورته وصورة ما يحيط به واضحة جلية لا يعتورها نقص ولا يشوبها كلف ولا يزيدها زخرف او تمويه ، ففي الديوان الذي بين يديك تجد صولة الحب وثورة العاطفة وسورة الشباب وزهوة الامل ولوعة الحزن وشكوى الزمان ومساجلة الاخوان وفيه ذكر الحوادث العامة ونقدٌ لحالات الاجتماع

***

اما محمود عماد فيشير في ما يشير اليه ، الى مكانة بين فريق المتشيعين للادب القديم وفريق النازعين الى التجديد فيقول : ولسنا الآن في سبيل تفضيل فريق على فريق . ولكن بسبيل ان نتعرف موقف « الماحي » الشاعر منها . والذي نراه انهُ لم يتحيَّز الى فريق بعينهِ ولكنهُ وقف في منتصف الطريق واتخذ له بين الادبين خطةً وسطاً قال :

كم في القديم جديد الحسن مؤتلقٌ يوليك من قسمات الحسن الوانا
إما بعثنا — على الايام — جدتهُ اوفى على جدد الآداب ميزانا
وكم جديد نعمنا من نضارتهِ في ابهج الروض اطياراً وأفنانا
كلاهما تملأ الدنيا محاسنه وتستجدُّ بهِ الآداب إحسانا

ولم يجد توسطهُ بين الادبين عن عمدٍ ولكنه جاء من وحي الطبع والغريزة وذلك لان الصفة الغالبة في طبعه هي « الاعتدال »

وبعد اطلاعك على هذه الآراء المحكمة يجدر بك ان تطالع ديوان الماحي لتحكم بنفسك

حوّاء بلا آدم

بقلم محمود طاهر لاشين — قصة — صفحاتها ١٦٠ قطع وسط

القصة مصرية في روحها واشخاصها . فالشيخ مصطفى والحاج إمام والجدّة والباشا والشاب رمزي والشابة حوّاء ، اشخاصٌ تحيا . وهي بحديثها وتصرّفها في هذه القصة كأنها قطع من بعض نواحي المجتمع المصري الذي يريد المؤلف ان يرسمهُ وينقدهُ في آنٍ واحد

الحياة التي تحياها الجدّة « قوامها العاطفة . العقل فيها راكدٌ . والعقل يأبى الركود . فاذا حاول ان يرضي الفطرة لم يستطع الاّ العمل التافه من التشبُّث بالتفاؤل والتشاؤم واقامة الوزن للاحلام ، ومن ثمَّ الاتصال بالجن والشياطين ، تتخذ لهم الاسماء ، وتسبغ عليهم المِلَل والنحل والاشكال والالقاب، ويبايَعون بالسيادة ، فيخضع العقل السليم لهؤلاءِ « الاسياد » الذين اخترعهم

ومن هؤلاءِ الاسياد عفريت يدعى سرور وصفهُ المؤلف وصفاً لطيفاً صفحة ٣٤

اما حوّاء فنشأت في هذا الجوّ . نشأت فيهِ فألِفتهُ ثم أنِفت منهُ . . . واصابها في صغرها ما يعرف الآن في علم النفس الحديث بعقدة الضِعة فنزعت الى التفوّق في طلب العلم فتفوقت وارسلت في بعثة الى انكلترا وعادت منها مدرِّسةً « تعلم الرياضة فاقتصدت في الاختلاط بزميلاتها المدرسات . وتكوّنت لها حيالهنَّ شخصية فيها تعالٍ ولكن ليس فيها حماقة . فكنَّ يحترمنها ولا يكرهنها . بل كانت الحكَمَ اذا اختلفنَ جميعاً ... » ثم انضمَّت الى احدى الجماعات النسائية فراحت تعمل بنفس تريد العمل... وكذلك اضافت حياتها الجديدة الى نفسها ما طغى على انوثتها، حتى ايقظها فيها الشاب رمزي وهو نجل باشا كانت تختلف حواء الى دارهِ لتدرّس اولاده . فكانت هذه اليقظة الانثوية في نفس حوّاءٍ بعد ٣٠ سنة قضتها في طلب التفوُّق ، عنيفة كالنار ، لا بدَّ ان تأكل صاحبتها اذا هي اصيبت بالاخفاق . وكذلك كان

فالحكاية الغرامية ليست الاّ سمطاً واهياً ينظم الصور العديدة التي يريد المؤلف ان يرسمها لنواحٍ من المجتمع المصريِّ ، ولكنهُ مع ذلك يجعل القصة كلاًّ مندمجاً لا يتجزأ . ولغة الكتاب فصيحة في الغالب ، تتطرق اليها الالفاظ والعبارات العامية احياناً كقوله « ومضى يحدث بانفهِ شوشرة كبرى » او يغلب عليهِ التعبير الفرنجي احياناً كقولهِ «احتلَّهُ امتعاض مَنْ رأى شيئاً كريهاً»

وللمؤلف نكتة بارعة مشربة بألوانٍ من السخرية كقولهِ « ... على شرط ان يطلق زوجه الاولى فطلَّقها بحجة انها لم تلد له الاّ إناثاً . وانهُ يريد « النسر الصغير » . وكقولهِ « فالحاج امام وحدهُ هو الذي لا يؤمن بالجرس الكهربائي ويرى عصاتهُ للباب اقرب للتقوى »

وله كذلك نقدات اجتماعية يسوقها اليك منسجمة مع حوادث القصة كوصفهِ رمزي اذ قال : «ولم يتعمّد رمزي ان يثقف نفسهُ ثقافة خاصة . وانما كان يشتري الكتب غثّها وسمينها على السواءِ،

اذا تساوت في اناقة الشكل وجمال الطبع . فمكتبتهُ اذاً عامرة باهرة . وانهُ ليمضي الساعات في ترتيبها واعادة ترتيبها . ويداخله من عرفان اسماء المؤلفين شعور بانهُ يتمشى مع الحركة الادبية ، بيد انهُ يقرأ اهم الصحف اليومية ، وكافة المجلات الاسبوعية وللاخيرة عنده مجموعات ينفق على تجليدها بسخاءٍ . . . . . الخ »

الاعشاب

ديوان لمحمود أبو الوفا — صفحاته ١٢٧ قطع صغير

الفرق بين شعر محمود ابو الوفا في ديوانه هذا وشعره في ديوانه الاول كالفرق بين «الاعشاب» و «انفاس محترقة » . فمحور شعره في الديوان الاول بثّ نفسهِ الكليمة فاذا هو يقذف شواظ نارٍ حيث يقول « سر الحياة اليمّ » او حيث يقول :

اريد وما عسى تجدي اريد   على من ليس يملك ما يريد

او حيث يقول :

لغة البلابل اين تذ   هب بين هدهدة الهداهد

او حيث يقول :

ابي وفي النار مثوى كل والدة   ووالدٍ انجبا للبؤس امثالي

او حيث يقول :

لعجيب ان يطرب الناس عودٌ   شبَّ يسقى السموم من احزانهِ !

أما « الاعشاب » فميدانه اعمُّ . وأغراضهُ اكثر تنوعاً . فقد خرج فيهِ الشاعر من حرم نفسه الى رحاب بيئتهِ . فهو آناً يسجل ، وآناً ينتقد . يسجل زيارة جلالة الملك الى اوربا في قصيدة حسنة . ويحتفل وحده بتكريم شوقي ، بقصيدة من خير ما قيل في ذلك المهرجان :

مزهرٌ غنَّت الطبيعة فيهِ   مرسلاتٍ اوحَت بهنَّ السماءُ
في بيان تنافس الصبح فيهِ   حين يروي قصيدَهُ والمساءُ
في معان سرينَ من كل حيٍّ   موضع الحسّ فهي فيهِ الدماءُ
كلمات كأنهنَّ نجومٌ   وقواف كأنهنَّ الماءُ

وكذلك سجَّل وفاة فيصل ومأساة الطيارين المصريين اللذين سقطا واحترقا في طريقهما من انكلترا الى مصر ووفاة عدلي باشا وداود بركات وما توحيه هذه الحوادث من الوان الشعور

أما نقده فوجَّه في الغالب الى عيوب المجتمع المصري :

الخاطئون بها همو نجباؤها   فهمو الذين تفرقوا اهواءَ
شقيت بأحزاب وهم فيها شقوا   فغدوا جميعاً في الشقاءِ سواءَ

والله ما كان العدوّ ببالغ لو لم يجد من اهلها نصراءَ

او حيث يقول :

سلوا «الوساطات» في مصر وما اصطنعت سلوا « الادارات » من دونٍ ومن حال
كم من كريم كبت فيه مطامحهُ وكم لئيم بها طلاّع آمال

او قوله : كل شعبٍ صلحت اطفالهُ كان هذا الشعب مرجوّ المآل

على ان قصائد« تكريم شوقي » و«حديقة الجار » و« يوم اللقاءِ » و« الجسر والنهر »« وحلم العذارى » فيها نفحة شعرية تحب ان يعنى الشاعر بتوجيه اكبر جانب من عنايته اليها فهي للكلام النظيم كالأجنحة السحرية ترتفع عليها الى ابعد الاجواء

مجلة كلية الآداب

الجزء الثاني . دسمبر ١٩٣٣

نهضت كلية الآداب وذاع صيتها وحسن عملها ولا نشرة لها تعزز مكانتها حتى قام نفر من الاساتذة وتعاقدوا على اخراج مجلة لها

ان الجزء الثاني من هذه المجلة بين يدينا الآن . ففيه من المباحث الطريف والمحكم ، بعضه مكتوب باللغة العربية والآخر بالانجليزية او الفرنسية . ومما يؤسف له ان بعض الاساتذة المصريين عدل عن العربية الى الانجليزية كأن ليس في لغتهم متسع لكلامهم . وشدّ ما يُخشى ان يصير اساتذنا مصير كتّاب المغرب والهند : هؤلاء يؤلفون في الانجليزية واولئك في الفرنسية . وان كان للقوم عذر نجهله او نعرفه فما عذر اساتذة كلية الآداب بالجامعة المصرية

موضوعات هذا العدد

العناصر المصرية وغير المصرية في تدرج الحضارات في افريقية الغربية (للشرقاوي)
حفائر الجامعة المصرية بالمعادي (لمصطفى عامر)
اسماء بعض النجوم المختلف فيها (لتيلور)
الادب القديم (الكلاسيك) : رأي في تحديده (لبير)

خزانة مخطوطات القس بولس سباط

مطبعة فردريخ بمصر

القس بولس سباط من المولعين بجمع المخطوطات وقد انقطع لذلك خمس عشرة سنة حتى استقامت له خزانة جليلة فيها خمس وعشرون ومائة الف مخطوطة في فنون شتى ، منها الدين فيدخل فيها ، الاسفار المقدسة بين صميمة وموضوعة ، وتفاسير وتآليف آباء الكنيسة وتصانيف الهيئة فلسفية ومنطقية واخلاقية ومناظرات ، وتعاليم دينية ، وسير الانبياء وآباء الكنيسة ، وطقوس على حسب المذاهب والطوائف ، وكتب في التقشف والزهد والرهبنة والعبادات والصلوات . ومنها اللغة العربية فيندرج فيها : القواعد والادب والشعر والمراسلات والخطابة والعروض والمعجمات والقصص والسياحات . ومنها التاريخ — ومنها العلوم ، فينطوي تحتها : الطب والعقاقير والهندسة والجبر والحساب والقانون وعلم الحيوان والجغرافية والفلك والتنجيم والفراسة والكهانة والعرافة والسحر والطلاسم والكيمياء والمعادن — ومنها الدين الاسلامي على اختلاف فنونه

ثم ان هنالك مخطوطات سريانية وارمنية ويونانية وقبطية ولاتينية وتركية وفارسية

والخلاصة ان مثل هذه المجموعة لمما يعتدُّ بهِ ، وحسناً فعل القس المحترم في نشر فهارس تحليلية مسهبة لتلك المخطوطات . وعسى ان يبقى على جمعه فانّا لفي حاجة الى امثاله

الشرق والغرب

اسم الكتاب الماعُ الى فحواه . فان نفساً حية ، سرى فيها الاخلاص للانسانية ، ووازنت بين الشرق والغرب ، فتبينت البون الشاسع بينهما ، رمت بهذا التأليف الى حث قومها على المساهمة في تراث الانسانية « العلم والارتقاء » . والمؤلف شاب لم تتسنَّ لهُ الوسائط العلمية في جامعات اوربا ، ولا في جامعات الشرق حتى ، فكانت عزيمته هذه ، وثقتهُ من نفسه ، فريدة في بابها

هذا هو رشيد سرحان شكور كاتب « الشرق والغرب » في نحو ٤٠٠ صفحة حسنة الطبع ، واضحة البيان ، نزيهة النزعة ، انسانية المرمى ، عربية الاختصاص

يتلخص الكتاب في احدى وعشرين مقالة ، حافلة بالفوائد التاريخية والاجتماعية ، في الهند والصين والعرب والترك واوربا واميركا ، اورد فيها خلاصات في زعماء الدنيا ، وقد وضعهم فوق الاديان التي نشأت عن حياتهم وتعاليمهم . وهو يروم ان يتبع ابناء العربية مثالَ الاوربيين من

حيث التعويل على العلوم الاختبارية الطبيعية ، وصرف النظر عن النظريات الروحية مع احترام واضعيها . ومع اني لا اوافقه في كل آرائه ارى من واجبي ان اشجعهُ ، لانهُ ثائر على القيود ، والشرق يحتاج الى مثل هذه الثورة . الاَّ ان المسعى الذي يتوخاه طويل شاق ، ودونهُ قدٌّ برد يمانية . وان الذين يروم انتشالهم من لجج الاوهام والخرافات ينظرون اليهِ نظرة عدوٍّ لدود ، دفاعاً عمَّا ألفوهُ وذوداً عن سبلٍ نشأوا عليها . فعلى امثاله بالصبر وانكار النفس ، لان النتائج المنتظرة من امثال هذا المسعى لاتتاح قبل عشرات القرون

احصر كلامي بهذا الالماع لان المؤلّـف لا يحتمل اكثر من ذلك . كما اني احجم عن نقد الكتاب للسبب نفسه راجياً ان يكون من الذرائع لتحرير الشرق ورفعة اقوامهِ حنا خباز

التربية بالقصص

وضع الاديب المهندس حامد القصبي حلقةً اخرى من حلقات « التربية بالقصص » لمطالعات المدرسة والمنزل . وهذه الحلقة تشتمل على قصص سهلة المأخذ قريبة التناول ذات مغاز ادبية عالية وكل صفحة من صفحات الكلام يحيط بها اطار من الرسوم ، وبعض هذه الرسوم ملوَّنٌ . فنشكر للمؤلف عنايته بالاشتراك في اعداد مكتبة عربية للاطفال نحن في اشد الحاجة اليها

زردشت باستاني وفلسفته

ظهر هذا التاريخ النفيس من تأليف المؤرخ الحاج ميرزا عبد المحمد خان ايراني صاحب جريدة جهرنما الفارسية بمصر وهو يبحث في الديانة القديمة الزردشتية التي كانت سائدة في ايران قبل الاسلام والتي تشغل من تاريخ ايران شطراً مجيداً والنبي زردشت كان في مقدمة المعلمين الدينيين ولا يزال يتبع تعاليمه طائفة كبيرة من اشياخ هذا الدين في الهند وفي ايران . وقد اورد المؤرخ كل ما يتصل بتاريخ زردشت منذ نشأتهِ وقيامهِ ودعوتهِ ونشره لمذهبه وما كان بينه وبين الملوك المعاصرين وتناول وفاته ومن خَلَفهُ وكيف انتقل الكثيرون من اشياخ هذا الدين من ايران الى الهند وما كان من أثر ذلك في ايران وما عداها وكان اعتمادهُ في تصنيف كتابهِ على المصادر الموثوق بها من التواريخ الايرانية واليونانية والرومانية والتركية والعربية وعلى ما جمعهُ كبار المستشرقين من الانكليز والاميركيين وسواهم والكتاب باللغة الفارسية

باب الأخبار العلمية

تعاون هواة اللاسلكي العالميين

على حلّ احدى معضلاته

اتحفنا الاستاذ محمد سعيد لطفي رئيس قسم الاذاعة العربية ، في محطة الاذاعة اللاسلكية للحكومة المصرية، بعدد من مجلة «ورلد راديو» وأشار فيه الى اذاعة علمية احبّ ان يكون للمقتطف نصيب في نشر مؤداها حتى يتاح لهواة اللاسلكي من قرائه في الشرق العربي التضافر مع اخوانهم في انحاء العالم على جمع الحقائق الخاصة بموضوع يعنى بهِ علماء اللاسلكية الآن . واليك ملخص المقال :

عني الاستاذ ابلتن، الطائر الصيت في الدوائر اللاسلكية العلمية في السنوات الاخيرة بدرس ظاهرة الاصداء اللاسلكية التي ترد الينا من الفضاء . واشتركت معهُ في ذلك طائفة من العلماء . وانت تعلم ان الهوائي يذيع امواجاً لاسلكية تنتشر في جميع الجهات ، الاّ اذا كان موجّهاً توجيهاً خاصًّا . هذه الامواج الحاملة لرسائل معينة تنطلق من سطح الارض الى الفضاء ولكن قلما يتاح لها ان تفلت من جو الارض الى الفضاء الكائن بين الاجرام السماوية. ذلك ان في اعالي الجو ثلاث طبقات من الذرات المكهربة وقد سميت بثلاثة احرف من الابجدية الانجليزية هي D و E و F تردُّ الامواج من اعالي الجو الى سطح الارض ، فتجعل التخاطب اللاسلكي البعيد المدى مستطاعاً. فطبقة D تعلو ٣٠ ميلاً عن سطح الارض وترد الامواج اللاسلكية الطويلة اما طبقة E (وهي المعروفة بطبقة كنلي هيفيسيد) فترتفع نحو ٦٥ ميلاً عن سطح الارض وتردُّ الامواج اللاسلكية الطويلة والمتوسطة . و اما طبقة F (وهي المعروفة بطبقة ابلتن) فعلوها ١٥٠ ميلاً وترد معظم الامواج القصيرة . ولكن بعض

الامواج اللاسلكية يستطيع ان يخترق جميع هذه الطبقات وينطلق الى الفضاء وراءها

انما يظهر ان هذه الامواج التي يبدو لنا انها تنفذ الطبقات الثلاث الى الفضاء ، لا تنطلق فعلاً الى الفضاء الخارجي ، بل هناك فوق الطبقات المذكورة ما يردُّها الينا

ففي سنة ١٩٢٧ لاحظ احد هواة اللاسلكي الهولنديين ، في خلال التقاط اشارات لاسلكية مرسلة من أيندهافن ، انهُ يسمع احياناً الاشارة الواحدة ثلاث مرات فبعد ما سمع الاشارة الاصلية ، لبث سُبْع ثانية فسمعها ثانية كأنها واردة من جهة مقابلة ، وبعد ثلاث ثوانٍ سمعها ثالثة . اما الصدى الاول (اي الذي يسمع بعد انقضاء سبع ثانيــة على الاشارة الاولى) فيمكن تعليله بأنهُ تم بعد ما دارت الاشارة الاصلية حول الارض . وهذا يقتضي سُبْع ثانية من الزمان لان المسافة حول الارض تبلغ سبع سرعة الامواج اللاسلكية في الثانية (نسبة ٢٤٨٠٠ ميل محيط الارض : ١٨٦٠٠٠ سرعة الضوء والامواج اللاسلكية في الثانية) ولـكن من اين جاء الصدى الثالث ؟ فان مجيئه بعد ثلاث ثوانٍ يقتضي ان يكون قد قطع ٥٤٨٠٠٠ ميل قبل رجوعهِ الى الارض . فاذا كانت الامواج اللاسلكية تسير بسرعة واحدة في انطلاقها من سطح الارض وارتدادها اليها ، فالطبقة التي ردّت الصدى الاخير ، يجب ان تكون على ٢٧٩ الفاً من الاميال فوق سطح الارض . وفي سنة ١٩٢٨ سمعت اصداء لاسلكية بعد انقضاءِ ١٥ ثانية على سماع الاشارة الاصلية ، وهذا يقتضي نظريًّا وجود ما ردَّها الى الارض على بعد ٢٣٢٥٠٠٠ ميل من سطحها

فماذا يمكن ان يكون على هذه المسافة فوق سطح الارض ؟ هل هناك طبقة من الذّرات المكهربة، او تيار من الدقائق منطلق من الشمس او غيمة منبسطة من الغبار الكونيّ ؟ وهل هذه الطبقة ، كائنةً ما كانت ، تدور مع النظام الشمسي او لها حركة ذاتية خاصة بها ؟ ولماذا تتأثر هذه الاصداء المرتدة الينا من ابعادٍ سحيقة بالنور القطبي وكلف الشمس ؟ وفي كم موقع على السطح الارض يمكن التقاط الصدى اللاسلكي الواحد في وقت واحد ؟ النظريات كثيرة ولكن الحقائق التجريبية يسيرة وكلّ ذلك ما يزال لغزاً غامضاً

ولما كان العلماء يحتاجون الى جمع المشاهدات الخاصة بهذا الموضوع التي يشاهدها اكبر عدد من الهواة اللاسلكيين تقرر انشاء عصبة سمّاع اللاسلكي التجريبيين والغرض من هذه العصبة ارسال اشارات لاسلكية معينة في اوقات معينة ، ثم على كل عضو في العصبة ان يدوّن ميعاد سماع الاشارة الاصلية والاصداء التي تليها وفترات الوقت بين الاشارة واصدائها . وقد وافق الاستاذ ابلتن على انشاء هذه العصبة ووعد بالتعاون معها بل هو الذي اقترح جعل تجربتها الاولى خاصة « بالاصداء اللاسلكية المتأخرة ». وتعرف هذه العصبة بالحروف الافرنجية الاولى من اسمها . وهي W. R. R. L ومن شاء من القرّاء الانتظام فيها فعليه بالكتابة الى العنوان الآتي:

Ralph Stranger c/o Editior World—Radio B. B. C. Broad Casting House. Portland Place, London, England.

ويقول له انه يودُّ الانتظام في هذه العصبة W. R. R. L. وما هي مؤهلاته العلمية ونوع اللاقط اللاسلكي الذي يستعمله

الهمُّ والصحة

ذكر الدكتور كالب وليمز صليبي في كتابهِ : الهمّ داء العصر : ان فتاة خطبت ثم اضطربت أحوال خطيبها وتعسرت اموره فاضطر ان يؤخر زواجه . فقلقت لما اصابهُ . وأثر قلقها في صحتها فزالت البهجة من وجهها وتولاها الارق . ففي اول الامر صار نومها خفيفاً كما ظهر من كثرة احلامها ثم قلَّ نومها وطال ارقها وانتابها الكابوس الدال على سوء الهضم ثم اصبحت لاتنام مطلقاً.وصلحت احوال خطيبها بعد ذلك فتزوجا وزال ما يدعو الى قلقها وأرقها ، ولكن الارق لم يزُل . اي ان همها السابق بقي تأثيرهُ فيها . وصارت سريعة الشعور بالتعب

***

وكان هضمها قبل ذلك غاية في الانتظام فلما قلقت اصابتها تخمة شديدة لغير سبب ظاهر ، مصحوبة بنوب من الالم الشديد حتى اذا كانت ماشية واعترتها احدى هذه النوب خادت رجلاها لا تحملانها . وقد مضى عليها بعد زواجها اربع سنوات وسوء الهضم لم يفارقها يوماً واحداً مع ان طعامها لم يتغير عما كان عليهِ قبلما اصابها القلق . وكل ظواهر سوء هضمها تدلُّ على انهُ عصبيٌّ لاطبيعي ايْ انهُ حادث من تأثر اعصابها المتسلطة على الهضم

ونحف جسمها جدًّا ، وقد يعلل هذا بانهُ نتيجة سوءِ الهضم ، ولكن اصابها من نحافة جسمها ان ضعف شعرها وسقط اكثره،وهذا لا يعلل بسوءِ الهضم ومعلوم ان الهمّ والقلق يضعفان الشعر اي يقلّلان تغذيتهُ فيسقط او يشيب باكراً وفي ذلك قال المتنبي

والهمُّ يخترم الجسيم نحافةً
ويشيب ناصية الصبيِّ ويهرم

واذا كانت الشيخوخة سبب الصلع ابتدأ في مكان واحد . ثم يتسع نطاقه رويداً رويداً ويبقى شعر القذال غالباً . ولكن اذا حدث الشيب والصلع من الهمِّ والقلق اصابا شعر الرأس كلهِ في الغالب اي انتشرا فيهِ انتشاراً.وقد سقط ثلثا شعر هذه المرأة وبقي ثلثه فلم يصبها الصلع في بقعة واحدةٍ من رأسها بل قلّ شعرها كله بوجهٍ عام

***

ويمتاز صلع الهم عن صلع الشيخوخة بأن الاول لا يلزم ان يستمرّ لانهُ حادث من سبب عارض وهو قلة التغذية الناتجة من ضعف الاعصاب المتسلطة على توزيع الغذاءِ في الجسم فاذا زال سببهُ اي اذا زال الهم واستردَّت الاعصاب المغذية قوتها وانتظامها عاد الشعر الى نموه لان بصلاتهِ تكون باقية في الجلد حيَّةً ولا ينقصها للنموّ الا الغذاء الكافي ، فمتى زال الهم وصلحت تغذية الجسم كلهِ تغذَّت بصلات الشعر معهُ . وقد حدث ذلك في هذه المرأة فان شعرها نما ثانيةً وعاد الى اصلهِ

حول الهرم الرابع

في المنطقة المجاورة لهرم خوفو وابي الهول كشف الاستاذ سليم حسن ، عن الهرم الرابع الذي كان مطموراً بالرمال ، ومدينة الاحياء التابعة له ، ومدينة الاموات الخاصة باهرام الجيزة جميعاً . في هاتين المدينتين ، عثر الباحث المصري على آثار تملأ بعض الفجوات في التاريخ المصري القديم ، وآيات فذة ، ما زال علماء التاريخ المصري يقرأون عنها في الكتب القديمة ولا يرون لها في الآثار التي كشفت ما يؤيدها

مدينة الاحياء مبنية بالطوب الاخضر واما مدينة الاموات فمنحوتة في الصخر الاصم لان الحياة في اعتقاد قدماء المصريين زائلة ، وأما «ما بعد الموت» فهو الباقي . ففي مدينة الاحياء بقايا جدران يختلف ارتفاعها من قدم فوق سطح الارض الى متر ومما يسترعي النظر فيها ان الطوب كبير الحجم حتى لقد يبلغ طول الطوبة الواحدة احياناً خمسة واربعين سنتمتراً . وفي بعض المباني قواعد لاعمدة من الالبستر ، قطر القاعدة منها نحو متر . وقد استوقف نظرنا قيام اعمدة من الالبستر في مبان من الطوب فقال الاستاذ سليم حسن هــذا ما جرى عليه المصريون ، وتعليل ذلك ان الالبستر بلورات من سلفات الكلسيوم ، والتبلور يقتضي وجود الماء فاذا عرضت البلورات لما يزيل بعض مائها تفتتت . وهذا من عجائب ما كشفه المصريون من العلاقات العلمية في ذاك العهد السحيق . ولا يزال في بعض الدور آثار الاجران المستديرة التي كانت تستعمل لخزن الحبوب والحنطة

وزرنا في مدينــة الأموات مدفناً لمدير سراي الملك فيهِ حجرة مستطيلة رسمت على احد جدرانها رسوم بديعة لصاحب المدفن وهو يسلم وصيته لابنهِ . والجديد في هــذه الوصية انها موقعة من خمسة عشر رجلا ، كل رجل منهم يمثل حرفة او صناعة . ويلي ذلك لوحة نقشت عليها رسوم بارزة تمثل الصناعات في ذلك العهد مع تفسير للصناعــة التي تمثلها بالكتابة الهيروغليفية . ففي احد الرسوم قزمان يصنعان عقداً وترى مراتب صنع العقد وعند اتمامه يقول احدهما للآخر ما معناه : «لا بدّ ان تسر السيدة التي صنع لها هذا العقد» . اما الرسوم الاخرى فتمثل صهر المعادن واستقطار الجعة وعمل الخبز وطرق المعادن وحفر التماثيل وصنع التوابيت والصناديق وما شابه

وقد رأينا كذلك حوضاً لا يقل طوله عن ثلاثة أمتار وعرضه عن مترين ونصف متر وعمقه عن متر ونصف متر ينزل اليهِ بسلم وقد كان يستعمل لاستحمام الملكة . وتطل عليهِ سلسلة من المقابر اقربها اليها خاصة بالكاهن الذي كان يشرف على استحمام الملكة . وفي ناحية اخرى وجدوا حديثاً البئر التي كانوا يستمدون منها الماء في ذلك العهد

ومن ابدع ما شاهــدناه قبر رجل يدعى عنخ تف تدخل اليهِ بباب واطيء ثم تنحرف الى اليسار فتدخل حجرة ضيقة ، ثم تنحني وتضع عينك على ثقب في الجدار الايمن قد لا يزيد ارتفاعه على متر وربع متر ، فيقع بصرك على

تمثالين ناصعي البياض من الحجر الجيري السلطاني يصدق فيهما قول شوقي حيث قال :

ونقوش كأنما نفض الصا
نع منها اليدين بالامس نفضا

احدها يمثل صاحب المقبرة بحجم يقارب ثلث الحجم الطبيعي والآخر وهو اصغر من الاول تمثال فتاة عارية راكعة على ركبتيها ومنحنية الى الامام وهي تعجن وهذان التمثالان لم تمسهما يد ولا وقعت عليهما عين انسان بعد ما اقفلت تلك المقبرة الى ان عثر عليها الاستاذ سليم حسن في هذه السنة

وقد عثر غربي الهرم الرابع على قارب كبير طوله نحو ٣٠ متراً محفوراً في الصخر الاصم والمسافة بين قعره وسطح الصخر الذي حفر فيه نحو عُشرة امتار او تزيد وهو فذّ في تاريخ الآثار المصرية . ذلك ان مراكب من هذا القبيل كشفت من قبل، منها المركب الذي كشفهُ (ألان رو) من نحو عشر سنوات شرق الهرم الكبير . ولكن لم يكشف من قبل مركب منها غرب هرم من الاهرام . ووجه الخطر في هذا الفرق ان المراكب كانت في عقيدة المصريين القدماء تعَدُّ لنقل النفس مع الآلهة رع من الشرق الى الغرب ، ثم تحت الارض من الغرب الى الشرق فالمراكب التي كشفت شرق الاهرام كانت سطحية ومعدة لنقل النفس في النهار من الشرق الى الغرب . واما التي تنقل النفس في الليل وتحت الارض من الغرب الى الشرق فلم يكتشف منها مركب قبل هذا المركب الكبير. وليس هذا كل ما رأيناه . ولكنهُ أهم ما بقي في الذاكرة

الكهارب في الصناعة

من الصفات التي يتصف بها كبار العلماء قوة الملاحظة ، ولولا هذه القوة ، في احد ائمة المستنبطين لظلَّ الالكترون موضوعاً للبحث النظري ، ولما اصبح ، كما اصبح الآن ، ركناً من اركان الصناعة والثروة

منذ نحو خمسين سنة اكتشف مستنبط عظيم، اكتشافاً لا شأن له — وخاصة حينئذٍ — اذا أخذ بظواهر الامور . كان ذلك المستنبط توماس اديصن ، الذي رغم حصوله على امتياز بصنع المصباح الكهربائي ، ظلَّ مكبًّا عليهِ يحاول البلوغ بهِ الى مرتبة الكمال . وما كان يرمي اليهِ من هذه الناحية ، انما كان اطالة عمر المصباح باطالة عمر السلك الدقيق الذي يتألق فيهِ ، وفي اثناء البحث لاحظ اديصن امراً غريباً وهو ان السلك يضعف وينقصم في نقطة معينة

ولو ان مستنبطاً آخر لم يؤت زكن اديصن ونفوذ بصيرته ، شاهد هذه الظاهرة ، لمرّ بها مرَّ الكرام ، ولكن ارتقاء العلم والصناعة في العصور الحديثة يقوم في الغالب على العناية بأمثال هذه التفصيلات ، وقد كانت مشاهدة اديصن ، الحلقة الاولى في سلسلة محكمة الحلقات أفضت الى استخدام الالكترون — احد اجزاء الذَّرة — في الصناعة

درس اديصن هذه الظاهرة التي تقصر عمر السلك في مصباحه الكهربائي ووصفها وصفاً دقيقاً في الدفاتر التي كان يدوّن فيها مشاهداتهِ وملاحظاتهِ في تلك الآونة ، ثم تركها وشأنها ،

لانهُ كان معنيًّا حينئذٍ بحل مسائل اخرى تتطلب سرعة الحل لشدة الحاجة اليها

هذه الظاهرة التي اكتشفها اديصن ووصفها تعرف الآن لدى علماء الطبيعة باسم «فعل اديصن» Edison's Effect وهي التي افضت بالباحثين الى استنباط الانبوب المفرغ واتقانه ، والانبوب المفرغ كما لا يخفى اساس التليفون اللاسلكي والتلفزة والصور المتحركة الناطقة وغيرها من غرائب المستنبطات الحديثة

وقد اشترك العالم النظري ، والمستنبط في اتقان الانبوب المفرغ . الا ان بحث العالم تقدم تطبيق المستنبط . والعالم في خلال بحثه ، لم يكن مهتمًّا بما يستخدم له الانبوب المفرغ قدر اهتمامه بمعرفة ما الانبوب المفرغ وما تعليل ما يقع فيه لان العلماء يبحثون عن العلل . وكان الالكترون (الكهرب) قد اكتشف فساعد العلماء الباحثين في الكشف عن حقيقة الانبوب المفرغ وما يتصل بهِ من الظاهرات

وقلما يستطيع الانسان ان يتصور ان هذا الكهرب الدقيق ، الذي بدأ يتسرب الى معجمات اللغة من عهد قريب فقط (كان اكتشافهُ في اواخر القرن الماضي) ويبلغ في صغر حجمه دون ما تكشف عنهُ عيون المجاهر ولو قوّي إبصارها الف الف ضعف ، قد اصبح في العقد من السنين الذي تلا الحرب الكبرى ، مداراً لصناعات واسعة النطاق ، تقدّر الاموال المثمرة فيها بعشرات الملايين من الجنيهات

ولكن دعنا نرجع الى منشأ كل هذا — في اوائل هذا القرن ، عني عالم انكليزي شاب يدعى رتشردسن (O. W. Richardson) وهو احد الاساتذة الذين تلقى عليهم الدكتور مشرفة العلم فيما نذكر وقد قدم رسالة مشرفة التي عنوانها « ثنائية المادة » الى الجمعية الملكية البريطانية) بدرس القواعد الرياضية التي يقوم عليها فعل اديصن فمنح لبحثه هذا جائزة نوبل الطبيعية سنة ١٩٢٨

فلما أتم رتشردسن بحثه صار في امكان العلماء ان يفهموا لماذا يحترق السلك في مصباح اديصن ، وينقصم في نقطة معينة ثم انهُ اثبت ايضاً ان ثمة علاقة محدودة بين حرارة السلك وعدد الكهارب الذي يتطاير منهُ ، كما تجد علاقة معينة بين حرارة الوقيد تحت ابريق من الماء ومقدار البخار المائي الذي يطير منهُ . فلما قرأ رسالته التي تنطوي على هذه المباحث في الجمعية الملكية البريطانية كان بين الحضور مهندس يدعى الآن السرجون امبروز فلمنغ فجعل هذا المهندس يدون على ظرف في يديه ما يستفيده من رسالة رتشردسن هذه

على هذا الظرف ارتسمت الفكرة الأولى التي بني عليها الانبوب المفرغ . كان انبوباً ناقصاً من جميع الوجوه اذا قيس بأنابيب اليوم المتقنة التي نجدها في أجهزة الالتقاط اللاسلكي ولكنهُ كان مع ذلك خطوة حاسمة خطيرة ، في ترقية المخاطبات اللاسلكية . فهذا الانبوب أصبح الباحثون قادرين على التقاط الأشعة اللاسلكية من مسافات كانت ممتنعة عليهم من قبل . ودعا فلمنغ أنبوبه هذا الصمام الترميوني وهو الصمام الذي قلب التلغراف اللاسلكي

رأساً على عقب وجعل التليفون اللاسلكي مستطاعاً ولكنهُ لم يبلغ ما بلغهُ من شدة الاحساس ودقته وتعدد نواحي استعماله، الاَّ بعد ما تناوله الدكتور لي ده فرست الاميركي وأدخل عليهِ تعديلات جمة جعلتهُ صالحاً للاغراض التي يستعمل لها الآن وهو الآن حجر الزاوية في صناعة الادوات اللاسلكية على اختلافها — وما اوسع نطاقها!

العمل وقياس الضوء

ليس قياس قوة الضوء بالامر الجديد. فقد تعلمنا في كتب الطبيعة ان الآلة المستعملة لذلك تدعى «فوتوميتر» اي «مقياس الضوء» وبها يقاس الضوء بالنسبة الى ضوء الشمعة الواحدة. ولكن مقياس الضوء هذا أداة علمية، لا تصلح للتناول العملي اليومي. لذلك استنبطت في اميركا آلة عملية جديدة، مبنية في مبدئها على «الفوتوميتر» ولكن خارجها مدرَّج، كمقياس الحرارة «الترموميتر» فتستطيع ان تعلم قوة الضوء بها كما تعلم درجة الحرارة بعد وضع مقياس الحرارة في فم المريض. وعلاوة على ذلك كتب على خارج هذه الآلة، الاعمال المختلفة التي يصلح لها الضوء من قوة معينة. فثمة علامة لقوة الضوء الذي يصلح لانارة سلالم البيت، وعلامة لقوة الضوء التي تصلح للقراءة او للخياطة على اختلاف درجاتهما من الدقة. فلمحة واحدة الى خارج الآلة تنبئك هل المصباح الذي تقرأ على ضوئهِ هذه الكلمات كاف لقراءتها او لا. فالعمل العادي الذي لا يقتضي دقة استعمال النظر، كترتيب الكتب على رف، او العزف على البيانو، يحتاج الى ضوء تكون قوته قوة عشر شمعات على القدم المربعة، وأما القراءة في كتاب دقيق الحروف فيحتاج الى ضوء قوته تبلغ ثلاثين شمعة على القدم المربعة. أما ترتيب هذه الآلة فبسيط. ذلك ان قطعتها الوسطى عبارة عن قرص من النحاس مغشى بغشاء من اكسيد النحاس. واكسيد النحاس هذا شديد الاحساس بالضوء. فاذا وقع عليه الضوء ولَّد فيه تياراً كهربائيًّا ضعيفاً. وهذا التيار الذي يتولد في الغشاء المذكور بفعل الضوء يسري في الآلة فيحرك ابرة معينة. فاذا زاد الضوء زادت قوة التيار. واذا ضعف الضوء ضعفت قوة التيار، وكذلك تتحرك الابرة لتدل على الاعمال التي يصلح لها الضوء المولّد للتيار الجاري فيها

الكهرباء والزرع

في بلدة جليزدورف على مقربة من مدينة غراتز بالنمسا، يقيم رجل يدعى رتشارد هيس يملك مزرعة لتجربة التجارب العلمية فيها وقد عني في السنتين الاخيرتين بامتحان اثر الكهربائية في تفريخ البذور وانتاشها ونمو النباتات بعد ذلك. فأخذ في مايو سنة ١٩٣٣ قدرين متساويين من بذور معينة وزرع القدر الاول في اول مايو ثم زرع القدر الثاني في اواسط يونيو، ولكن بعد ان عرض البذور للكهرباء. ومع ان الفرق بين ميعادي الزرع يبلغ نحو ستة اسابيع، كانت النباتات التي انتشت من البذور جميعاً في حالة واحدة من النمو. وكذلك اخذ قدرين من بذور البنجر، وزرعهما في وقت واحد، ولكنهُ عالج احد القدرين بالكهرباء قبل زرعه فاستطاع ان يجنيه قبل القدر الآخر بمدة ليست يسيرة

هل افرست اعلى القمم

تعلمنا في كتب الجغرافية ان قنة افرست في سلسلة جبال حمالايا هي اعلى قنن الجبال فوق سطح الارض . ولكن ماذا تعني (بأعلى جبل) وما هو «مقياس العلو» . مقياس العلو هو ارتفاع قنة الجبل عن مستوى سطح البحر . وعلى ذلك يكون أفرست اعلى الجبال على ما جاء في كتب الجغرافية. ولكن اذا حسبنا مقياس العلو بُعد القنة عن مركز كرة الارض، كان جبل شمبوزازو وهو احد قنن سلسلة جبال الاندس في جنوب اميركا أعلى الجبال ، بل لفاق هذا الجبل ، قنة أفرست بنحو ألفي متر وعند التدقيق (بسبعة آلاف ومائتي وسبعة عشر قدماً وثمانية أعشار القدم ٧٢١٧٫٨ قدم)

لذة التدخين : تفسير جديد

نشر عالمان من علماء جامعة يابل الاميركية — وهما الدكتور هورد هنجرد والدكتور ليون جرينبرج — ان لذة التدخين ناشئة ، من ان التدخين وخاصة عند ما تكون متعباً، يزيد مقدار السكر في الدم . ذلك ان نيكوتين التبغ يفعل في الغدد الكاوية (الادرينالية) فيحفزها على زيادة ما تفرزه من الادرينالين . فينجم من ذلك ان السكر المخزون في الكبد والعضلات في شكل غليكوجين، يتحول الى سكر عادي وكذلك يكثر مقدار السكر في الدم . وزيادة مقدار السكر في الدم تزيل عوارض الاعياء و«توتُّر الاعصاب» لان هذين العرضين ينشئان عن قلة السكر في الدم فاذا أكلت أو دخنت زاد مقدار هذا السكر فيزول هذان العرضان . وهذا يعلل ان المدخن يعمد الى التدخين اذ يحس بالجوع او التعب فالنيكوتين يزيل الشعور بالتعب او بالجوع ، ازالة مؤقتة لانهُ يزيد مقدار السكر في الدم

نور الحباحب

يقول الاستاذ نيوتن هارفي ، من جامعة برنستن الاميريكية ، ان النور الذي يظهر من الحباحب ، ونحوها من الحشرات ، المضيئة ، حادث من اكسدة مادة فيها تدعى لوسفرين Lucifrin اذا وجد معها مادة خميرية تدعى لوسفراس

والفرق بين هذا النور والنور المتولد من احتراق الزيت والشمع وما أشبه هو ان المادة الناتجة من أكسدة اللوسفرين ، يفارقها او كسجينها حالاً فتعود لوسفريناً بسيطاً اي ان دقائق اللوسفرين تتحد بالاكسجين فتنير. ثم يفارقها الاكسجين فتعود الى حالتها الاولى، مستعدة للاتحاد بالاكسجين من جديد ، وهذا على الضد من دقائق الكربون . فانها اذا اتحدت بالاكسجين صارت ثاني اكسيد الكربون وطارت في الهواء . واذاً فأسلوب الانارة في الحباحب اقل الاساليب نفقة ، لان اللوسفرين ينير أولاً ثم بعد ما يفارقه الاكسجين ينير ثانية وهكذا

نور الحباحب الكهربائي

لعوض جندي

الحباحب — ذباب يطير بالليل له شعاع كالسراج . ومنهُ نور الحباحب او هي ما اقتدح من شرر النار في الهواء من تصادم الحجارة — الفيروزابادي

قلت في كتابي «مشاهد اليابان» : «وطالما حار العلماء في تعليل نور الحباحب فأصبحوا يرجحون تولده من مواد كيماوية غريبة كامنة في النسيج الشحمي ، تضيء اذا اتحدت بعنصر الاوكسجين الذي يصل اليها من انابيب التنفس التي في جانبي الحشرة . وقد حملهم هذا الظن على محاولة توليد نور صناعي فصفوري مثله فخابت آمالهم . وذهبت مساعيهم هباءً منثوراً . ولا غرو فماهية ذلك الضوء لا تزال سرًّا محجوباً عن مداركهم . وحسب تلك الحشرات شهرة ان رجالات العلوم ، على كل ما أوتوه من سعة المعارف الكيماوية كما تقدم القول لم يسعهم تقليد ذلك « النور البارد » اي الضوء الذي يشعُّ من أجسامها من دون حرارة . فيالها من آيات بينات تدل على خطير صنع الآله القدير »

ويسرنا الآن ان نزف الى قرّاءِ المقتطف بشرى جاءتنا بها حديثاً مجلة العلم العام الاميركية اذ قالت : —

ليتصور القارىء النور البارد الخفي الذي يشع من أجسام الحباحب مضاعفاً الوف المرات، مودعاً في أنبوب زجاجي ! ! وهو الاختراع المدهش لعالم اميركي شاب من بروكلين تمكن من صنع مصباح كهربائي متألق ينير بلا حرارة فعبَّد بهِ السبيل لايجاد نوع جديد من النور الكهربائي المنزلي . حقًّا ان هذا المصباح الحديث لم يتم استعماله الاَّ في المختبرات العلمية ولكن قد صنعت منه نماذج لانارة المساكن . وستجرب في القريب العاجل ، وهي تشبه في شكلها المصابيح الكهربائية الحالية (واری ان افضل تسمية لها «المصابيح الدرية» Incadescent) وبكونها يمكن انارتها بوصلها باي تجويف كهربائي منزلي بلا تغيير في الاسلاك المركبة في الحيطان . وتختلف عنها بان نورها لا يتولد من سلك كهربائي دقيق يحمى حتى يبيضّ من الحرارة فيضيء ضوءا دريًّا ، بل من غشاءٍ معدني متألق يغشَّى بهِ باطن الانبوب المحتوي على المصباح فلايسخنهُ عند الاضاءة . وذلك الغشاء يضيء بانطلاق مجرى من الاشعة السلبية اي الالكترونات عليهِ . وهذه تنبعث من كرة في وسط زجاجة المصباح . ومتى ركبت الزجاجة على تيار كهربائي منزلي خفيف ، قام سلك معدني دقيق في باطن الكرة بتسخينها لكي يساعد على توليد تلك الاشعة غير المنظورة ومتى استعملت لاجل تيار عالٍ كما هي الحال في انارة المصانع والاعلومات التجارية — اليفط — تيسر الاستغناء عن ذلك السلك الدقيق . ويتسنى الحصول منها على اي لون من الانوار ومنها الابيض وذلك طبقاً للغشاء المعدني الذي يستعمل

والذي يهتم له العلماء في هذه المصابيح الطريفة انها تولِّد النور البارد المماثل لنور

الحباحب الذي طالما غبطوها من اجله وطمحوا الى محاكاته ، فأخفقوا كما ذكرنا آنفاً . وقد اجمع الخبراء على ان اجود المصابيح الكهربائية الحالية مضيعة للمال وليست طبق المرام ، لانها تحوّل جلّ التيار الكهربائي الذي تستنفده الى حرارة الى ضرر محقق لا فائدة منها للمستهلك وربما تتحول

وقد اخترع الباحثون اخيراً مصابيح مختلفة الاشكال بأن استعملوا فيها اعمدة من الغاز المنير لكي يزيدوا قوتها . ولكن استعمال الفلزات المتألقة التي تتأثر بالقذائف الكهربائية فتضيء بغير حرارة ، حلٌّ جديد من كل الوجوه لتلك المعضلة العلمية

ويرى مستر جلبرت شميدلنج مخترع هذه المصابيح الحديثة ان قوامها مزيج جديد متألق شديد البهاء . والمواد المتألقة نفسها ليست شيئاً جديداً لان المعروف من مركباتها يبلغ ١١٠٠٠ نوع وكلها لها خاصة التألق الغريبة عند انطلاق الاشعة الكهربائية الخفية المختلفة الانواع عليها . ومنها دهان الراديوم الذي تدهن به موانئ الساعات . ومنها اهداف اشعة رنتجن التي يستعملها الجراحون ، واهداف انابيب الاشعة السلبية التي تستعمل في لوحات التلفزة . وقد كان مستر شميدلنج يفحص الوفاً من هاتيك المواد ابتغاء الوقوف على مبلغ صلاحها للوحات التلفزة ، فعثر عرضاً على مزيج منها ولّد نوراً يكفي تألقهُ او لمعانهُ للشغل والقراءة . وثبت له بالتجارب امكان استعماله في مصباح كهربائي ينير كالمصباح المألوف ولا يستنفد اكثر من سدس التيار الذي يستهلكه

تكريم العقاد وزكي مبارك

اقام ادباء مصر وكرامها في آخر ابريل حفلتين فخمتين لتكريم الاستاذ عباس محمود العقاد والدكتور زكي مبارك . وأقيم الاحتفال بالأستاذ العقاد في مساء الجمعة ٢٧ ابريل في مسرح حديقة الازبكية . وشهده حضرة صاحب الدولة مصطفى النحاس باشا وجمهور كبير من رجال الوفد المصري وكرائم السيدات والكتّاب والصحافيين والشبان . وكان الجوّ ينبض وطنيةً صادقة . وكان من خطباء الحفلة الشيخ عباس الجمل والاستاذ محمد توفيق دياب صاحب جريدة الجهاد (العقّاد الصحافي) والدكتور طه حسين (العقّاد الشاعر) والاستاذ ابراهيم عبد الهادي المحامي

اما حفلة الدكتور زكي مبارك فاقيمت في مسرح الحمراءِ في مساءِ الاحد ٢٩ ابريل برآسة الشاعر الكبير خليل مطران وكان من خطبائها وشعرائها الدكتور ابرهيم ناجي والدكتور ابو شادي والاستاذ محمد خالد والاستاذ محمود رمزي نظيم والاستاذ عبد الباقي ابرهيم عوض . وغنّى فيها الاستاذ محمد عبدالوهّاب

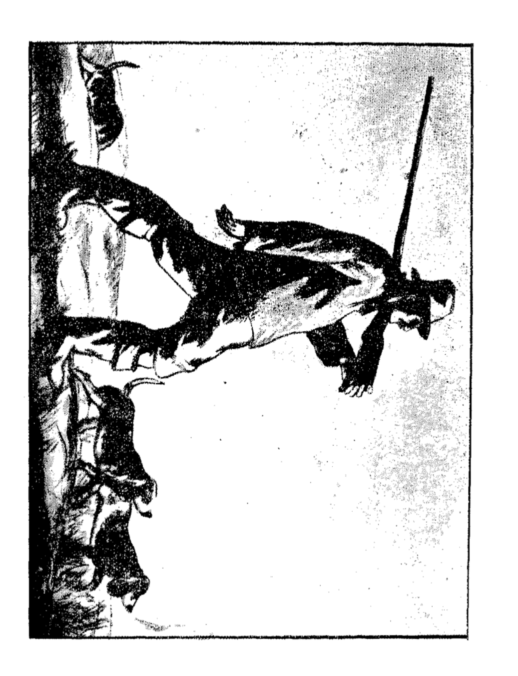
فكانت الحفلتان دليلاً على نزعة كريمة في المجتمع المصري لتقدير الادب والعلم

تصحيح خطإٍ

في اول السطر الثالث عشر من الصفحة ٥٥٠ — مقالة عجائب الحل الطبيعي — قلنا «من نحو مائة سنة أمرَّ العلامة نيوتن . . . » الخ وصوابها « من نحو مائتي سنة امرَّ العلامة نيوتن . . . » الخ

الجزء الخامس من المجلد الرابع والثمانين

صفحة



المقتطف
مجلة علمية صناعية زراعية
الجزء السادس من المجلد الرابع والثمانين
١ يونيو سنة ١٩٣٤ — ١٧ صفر سنة ١٣٥٣

أيام الخليقة

في بدءِ الكون كان فضاءٌ كرويٌّ اصغر نطاقاً من فضاءِ اليوم . وكانت المادة في هذا الفضاءِ منتشرة انتشاراً متسقاً ، بمعدّل بروتون واحدٍ ، والكترون واحد ، في كل لترٍ منهُ . وقد يبدو لك أيها القارىء ان تسأل ، لماذا وصفنا الفضاءَ بالكرويّ . ونعتناه بالصغر اذا قيس بفضاءِ اليوم . ولماذا وزعنا المادة فيهِ توزيعاً متساوياً . والردُّ على جميع هذه الاسئلة عند علماءِ العصر. اما أنَّ الكون كرويٌّ ، فلانَّ الحقائق المشاهدة والمعادلات الرياضية اثبتت لهم ان هندسة الكون تعلل افضل تعليل اذا هم افترضوا ان الكون محدودبٌ في شكل كرةٍ . ولكن لماذا قلنا انهُ كان اصغر مما هو الآن ؟ لأن الدلائل تدلُّ على ان الكون في مرحلة من مراحله بدأ يتسع وما يزال آخذاً في الاتساع . ولماذا حكمنا بأن المادة فيهِ كانت موزَّعةً توزيعاً متساوياً ؟ ليس لهذا سند علميٌّ . بل هو في الغالب يستند الى سند من الفلسفة وحسّ الجمال . فالعقل الانسانيّ يفضل ان يتصوَّر الاشياء على ابسط ما يمكن ان تكون . فاذا افترض ان المادة في ناحية من الفضاء البدائي ، كانت اكثف منها في ناحية اخرى ، اضطرَّ العقل ان يرجع بهذه الحالة الى حالة ابسط منها سبقتها، لما كانت المادة موزعة توزيعاً متساوياً في انحاء الكون . ولذلك نفترض التوزيع المتساوي للمادة، قبل ان اختلف التوزيع، واصبحت المادة في نواحٍ اكثف منها في نواحٍ اخرى . ثم ان الاستاذ ادنغتن قد قال ان لا فرق اساسي بين العَدَم والاتساق الكوني العام في جميع الصفات . فالخليقة الكونية اذن بدأت يوم سرى التنوُّع الى هذا الاتساق او الى هذا العدم

فاذا حدث ؟

لا يعلم احدٌ ما حدث او كيف حدث او لماذا حدث ؟ ولكن ذلك التشابه الكونيّ الشامل ،

دبَّ اليه دبيب التنوُّع . كان في كل لتر من الفضاء بروتون واحد والكترون واحد . فاذا بعض النواحي قد احتشدت فيها البروتونات والالكترونات ، واذا النواحي الاخرى قد اصبحت فراغاً . ولو ان فعل التجاذب أُطلق في تلك الساعة العصيبة ، لتهاوت مادة الكون بعضها على بعض ، ولتقلص الكون بتجمع مادتهِ واحتشادها ولما نشأت الاحوال المواتية لنشوء الشموس والسيارات وظهور الحياة على بعضها . ولكن ذلك لم يحدث . لان قوة اخرى اطلقت من عقالها . ونحن لانعلم عن هذه القوة الاَّ النزر اليسير ولكننا ندعوها قوة التنافر او قوة التنابذ الكوني . فما شرعت المادة تتكتل ، حتى اخذت دقائق تلك الكتل تتنابذ ، فانفجر الكون وتشتت ، بدلاً من ان يتكتّل ويتقلص

وليست هذه الصور من بنات الخيال الوثّاب . بل ثمة من الادلة ما يؤيدها . انها نتيجة للارصاد التي يقوم بها العلماء بآلات التقريب والتصوير والحل الطيفي . فنحن نعلم ان الكون أَخَذَ في الانفجار والتشتت لاننا نراه الآن كذلك

فخارج المجرّة التي منها نظامنا الشمسي ، عدد لا يحصى من المجرّات . واذا حلل ضوء هذه المجرّات بالمطياف (آلة حلّ الطيف) دلَّ التحليل على انها آخذة في الابتعاد عنا ، وفي ابتعادها بعضها عن بعض على عجَل . وسرعة ابتعادها بعضها عن بعض تتزايد بتزايد بُعدها عنا . ولقد قيست سرعة احد السدم البعيدة ، في ابتعادها عنا فاذا هي نحو ١٢ الف ميل في الثانية . فاذا انقضت بضعة ملايين من السنين ، غابت في ابتعادها ، عن انظارنا ، الاَّ اذا استطعنا ان نستنبط آلات احدّ بصراً من الآلات التي بين ايدينا الآن . والدليل على ابتعاد هذه السدم عنا ، يترك اثره في نورها ، الذي نلتقطهُ بآلاتنا ونحلهُ بمطايفنا (جمع مطياف) . فالقطار الصافر اذا كان مقترباً منا علا صفيره . واذا كان مبتعداً عنا انخفض صفيرهُ . ذلك ان امواج الصوت في الحالة الاولى تتلاحق في مدى يقصر باقتراب القطار ، فتقصر اذا قصر ، فيرتفع الصفير . اما اذا كان القطار مبتعداً فان امواج صفيره تتلاحق في مدى آخذٍ في الاستطالة بابتعاد القطار عن السامع ، فتطول الامواج ، فاذا طالت انخفض الصفير . وكذلك في الضوء . فلاضواء النجوم خطوط خطوط مميزة تظهر في طيوفها . فاذا كانت هذه الخطوط متحركة في الطيف دلّت حركتها على حركة مصادرها . فاذا كانت هذه الخطوط متجهة في حركتها الى اللون البنفسجي ، دلّت على ان امواج الضوءِ آخذة في القصر . فمصدر ذلك الضوء آخذٌ في الاقتراب الينا . واذا كانت حركة تلك الخطوط متجهة الى اللون الاحمر دلت على ان امواج الضوء آخذة في الاستطالة واذاً فمصدر ذلك الضوءِ آخذ في الابتعاد عنا . وقد دلّت ارصاد السدم على ان معظمها آخذ في الابتعاد عنا ، وقدّرت سرعة ذلك الابتعاد . وما عرف من سرعة الابتعاد ومواقع تلك السدم ، يمكننا من عمل حساب لليوم الذي انطلقت فيهِ اولاً ، مبتعدة بعضها عن بعض — وهو يوم الخليقة الكونية

فاليوم الاول في الخليقة الكونية ، هو ذلك اليوم الذي انفجر فيهِ الكون فأخذ يتسع .

اما اليوم الثاني فهو يوم ولادة المجرَّة ، ونظامنا الشمسي جزء منها . فبعد اليوم الاول انتشرت في الكون قطع من السحاب الكوني — وهي ما نطلق عليها اسم سديم — في كل الجهات . وكل منها يدور على نفسه ، فأخذ يتقلص بفعل التجاذب . واحدى هذه القطع تجلَّت على مدى الزمان جميع النجوم التي منها شمسنا

كانت هذه القطعة في البدء كروية كالكون الذي تجلَّـها . ولكنها بفعل دورانها على محورها اخذت تتسطح عند قطبيها ، كما تسطحت الارض عند القطبين بفعل دورانها على محورها . ولكن لما كانت تلك القطعة غازية ، كان أثر الدوران في تسطيحها ابعد مدى من أثر دوران الارض في تسطيحها عند قطبيها . ومضت في ذلك السبيل حتى اصبحت كالقرص . والمراصد تمكننا من رؤية السدم في مختلف ادوار نشوئها منذ كان كروية تامة الكروية الى ان تسطحت قليلاً عند قطبيها الى ان زاد تسطيحها عند القطبين الى ان اصبحت كالقرص . غير ان دوران السديم وتقلصه ، جعلا من المتعذر عليهِ الاحتفاظ بكل مادتهِ . ففي مرحلة من مراحل نشوئهِ تكونت حوله حلقات من مادة ، ما لبثت حتى انفصلت عنهُ ، وتكونت منها النجوم

وبعد انقضاءِ ملايين السنين على تكوُّن النجوم في المجرَّة تكوَّن نظامنا الشمسي . ولكنهُ احتاج الى صدفةٍ لكي يتكوَّن . وهذا هو اليوم الثالث من الخليقة الكونية

في القرن الثامن عشر تصوَّر سويدنبرغ وكانط قطعة سديمية عظيمة في دور التقلُّص وقالا بان السيارات نشأت منها بالانفصال فبقيت كتلتها المركزية وهي الشمس . على ان بوفون الفرنسي رأى ان النظام الشمسيَّ نشأ من اصطدام حدث اتفاقاً بين كتلة الشمس ومذنب كبير . فخالفهُ لابلاس ذاهباً الى ان حدوث اصطدام من هذا القبيل بعيد الاحتمال . ومن البحث في الخلاف بين الرأيين خرج لابلاس بالنظرية السديمية في نشوءِ النظام الشمسي وملخصها ان قطعة سديمية تسطحت في اثناءِ دورانها على محورها ثم اخذت تتقلص ، وتقلصها زاد سرعة دورانها ، فلما بلغت سرعة دورانها حدًّا معيناً ، تعذَّر التماسك بين اجزائها ، فانطلقت منها حلقات وهذه الحلقات تقلَّصت فنشأت منها السيارات . فاقبل العلماء على هذا الرأي اولاً . ثم ظهرت الاعتراضات عليهِ ، وتوالت المذاهب ، الى أن استتبَّ الامر الآن لرأي جينز ومن نحا نحوهُ وهو ان شمساً ، اقتربت في خلال سيرها في الفضاءِ ، من شمسنا فأحدثت مدًّا في سطحها ما زال يعلو حتى انطلق في شكل ذراع كالطوربيد ثم تقلصت دقائقها كتلاً كتلاً فنشأت السيارات . وكان جفريز من اتباع جينز اولاً ثم تحوَّل الى القول بوجوب تماسّ الشمسين . اما فيما خلا ذلك فرأيهُ ورأي جينز واحد . على ان النجوم بعيدة بعضها عن بعض . وتوزيعها في الفضاءِ من قبيل توزيع عشرين كرة صغيرة في باطن كرة قطرها ثمانية آلاف ميل . فاحتمال اقتراب احدى هذه الكرات من كرة اخرى حتى تصير على بضعة امتار منها كنسبة واحد الى مائة مليون ولذلك قلنا ان اليوم الثالث من ايام الخليقة احتاج الى صدفة لكي يكون

في ربيع اليأس

لامين الريحاني

اليأس ، مثل كل حسٍّ بشري ، يتنوَّع ويتفاوت في الناس . فقد ييأس الفلاَّح مثلاً من جفاف في الطقس حرق زرعه ، او من وباءٍ ذهب بمواشيه . وقد ييأس الفيلسوف من نظرية يعالجها لاستئصال الوباء ، او من آلة يخترعها للسيطرة على الجو والمطر . وكذلك يختلف يأس الشاعر عن يأس البقال . وكذلك قل في يأس المجرمين ويأس الانبياء ، اي في ما تحت وما فوق يأس جميع الناس

اعود بك الى امثلة من اليأس الاعلى الذي لايزال نوره يشعّ في العالم ، الى المسيح في الجثمانية ، والنبي محمد في الكهف ، والرسول بولس في مركب تتقاذفهُ الامواج ، والشاعر دانته في المنفى شريداً طريداً ، وابي العلاء المعري في محبسيْهِ — فهل كان يأس هؤلاءِ ، يا ترى ، مثل يأس جيرانهم الفلاَّحين والنوتيين والعشارين او مثل يأس زملائهم الادباء والشعراء ؟

وهل يأس الاديب الشاعر الذي ينتهي في قصيدة ينظمها ؛ او تنقيد اشواقه اليوم بتقريظ في جريدة ، او بعشاءٍ على مائدة امير ، او بظفر في حفلة راقصة ، مثل يأس مَن له سلّم لولبيٌّ من الاشواق والآمال ؟

قد يكون الجوهر واحداً . ولكن الكمية ، واللون ، والبيئة ، وما يتصل بالبيئة من سابق ولاحق في الحياة ، تختلف كلها اختلاف الآمال والاشواق في الناس ، واختلاف الثروة الروحية في الافذاذ من الناس

***

كان ليأسي شتاءٌ ، وكنت فيهِ الاديب المجاهد في سبيل — المجد !

ألا في سبيل المجد ما انا فاعلُ ...

وكنت بين كتبي واوراقي وصوري وتحفي الفنية كالقائد لجيش عاصٍ متمرد . وما الفائدة من السلاح والذخيرة — من القلم والافكار ، ومن العلوم كلها ؟

ماذا تفيدك الرياضيات وانت لا تدري في اية دورة من الفلك تصل النجدة؟ ولا حرب بلا مال. وماذا تنفعك الفيزيولوجيا وانت لا تستطيع ان تصلح قلبك المكسور او قلب المحبوب القاسي؟ وماذا تفيدك معرفة البلدان وانت عاجز عن السفر الى حيث تخف تكاليف الحياة وتنعم جنباتها؟ وماذا تنفع الفلسفة وانت في لجج الاحزان من اضعف الناس؟ وما الفائدة في الطب وشرايين قلبك تزداد تصلباً يوماً فيوماً، او المكروب يفتك برئتيك؟ وما نفع الفنون الجميلة كلها والعالم كله في نظرك هو لوحة تلميذ في مدرسة الفنون العليا؟

كان ليأسي شتاء، وكنت فيه الاديب العالم المجاهد في سبيل — المجد والشهرة! ولكن ذلك اليأس فتح امامي باباً من ابواب الحياة كنت اجهلها

خرجت ذات يوم من بيتي، من غرفتي التي كفنت فيها اعز عزيز لديَّ. بل خرجت من الغرفة ليلاً لاني لم أطق ان ارى ما كنت اتخيله امامي: تابوت احلامي، فررت منهُ في ليلة عاصفة. وكان الثلج يتساقط عليَّ، ويتراكم تحت قدميَّ، ويتجمد ألماً بين جنبيَّ. وكنت، لستاره الكثيف وللرياح التي انحنت تحتها رقبتي، لا ارى غير موطىء قدمي. فتصادمتُ في تلك الساعة وشخصاً آخر حاله في العاصفة مثل حالي، فاعتذرت. وكان الصوت الآخر المعتذر صوتاً ناعماً رقيقاً، انقطع مرتين في كلمتين: «لا تؤاخذني». هو صوت فتاة بائسة شريدة... جمع الثلج والليل بيننا، وربطت العاصفة قلبينا...

سرت بها الى بيتي، الى غرفتي التي تركت فيها تابوت احلامي. واجلستها بين كتبي وادواتي وصوري الفنية والتذكرية. فقالت فوراً. ليتها تؤكل! فاخرجت كل ما في الخزانة الصغيرة، فأكلت وهي لاتزال ترتعش من البرد. فشببتُ النار، ولم يكن عندي ما يكفي من الفحم فأشعلت سفراً من الاسفار

وانساني لهيب تلك الصفحات احلامي. وانستني البائسة الشريدة الضالةَ المنشودة. لله من الحياة! أبمثل هذا البؤس وهذه الآلام تكون، وانا وامثالي، بين الكتب والاوراق والالاعيب الفنية، ننشد الشهرة والمجد، ونود ان نحرق المدينة، ونعزف بالناي مثل نيرون فوق طلولها، لانها لا توالينا ولا تفتح لنا ابواب قصورها؟

كنت والبائسة تلك الليلة كآدم وحواء — آدم وحواء لا في الفردوس، بل في الجحيم. وفي تلك الليلة تحوّل يأسي، وتضاعفت احزاني. لم افكر بعد ذلك بضالتي المنشودة، وامحي من مخيلتي رسم تابوتها. بيد أني انتقلت الى الحياة الكبرى التي تتبارى فيها المحاسن والمآثم، واللذات والآلام. لله من نير الحياة الذي يقرن العقم بالفضيلة والبؤس بالجمال

تحوّل يأسي كما تتحوّل الدودة فتصير فراشة. فوددت لو كان في امكاني ان أخرج حواء وآدمها — كلَّ امرأة وكلَّ رجل — من جحيم هذا الزمان، وأعود بهما الى الفردوس الاول. هيهات

هيهات ! وكان هذا اليأس في قلبي احرّ من نار الجحيم ، وآلم من كل ما قاسيته من الآلام . فلا عجب اذا فررت منهُ . فررت هارباً من آدم وحواء في الجحيم . هربت من المدنية ، ومن المدينة — جحيمهما

***

هربت الى البادية ، فنسيت آدم ، ونسيت حواء ، ونسيت الجحيم . وكانت سنة من السياحة فيها من الابتهاج مثلما فيها من الحرمان ومن المشقات . وكيف يكون ابتهاجٌ مع مشقة ، وكيف يلتئم الحبور والحرمان ؟ !

ليس من شأني التلاعب بالكلام والافكار . وانهُ ليؤلمني ان اترك القارىء مخدوعاً بكلمة واحدة من كلماتي ، كما اني لا اطيق مخادعة النفس

كنت قبل الفرار الى البادية في شتاءِ اليأس ، بل في باب الربيع منهُ . ولكني لضعفٍ روحيٍ او ادبي ، او اجتماعي — وقد يكون الضعف في الثلاثة — لم اثبت في الجهاد . فتقهقرت ، ثم عدت ادراجي الى الشرق ، الى البادية العربية . فكنت فيها مغتبطاً على ما قاسيت ، محبوراً على ما حُرمت

وكيف ذلك ؟ رأيتني في البادية امشي في ظل الشهرة التي طاردتها في المدينة ، ورأيتني محفوفاً بالتجلة والاكرام ، ورأيتني مستمتعاً بما كنت اتوق اليه — بالمجد — قبل ان امّحى من مخيلتي تابوته ، وقبل ان اجتمعت بحواء في الجحيم

اذاً ، في فراري الى البادية عدت الى الوراء ؟ اذا ما نظرنا في الامر نظرة سطحية اقول : نعم . عدت الى الوراء سنة واحدة . وكان من العلم ، ومن الخدمة لقومي ، ومن معرفة الله في تلك الدهناء وتلكم النفود ، ما يبرر هذه السنة التي تتخلل اليأسين ، يأس الشتاء ، ويأس الربيع

***

ايها القارىء العزيز — وما انت بعزيز اذا كنت لا تتفهم كل كلمة اقولها ، وما انا برسول الحقيقة والخير اليك اذا كنتُ لا اتحرى الصراحة والصدق دائماً في كل ما اقول . ترأني لذلك افتح كتاب النفس لاطلعك على صفحة من صفحاته الشخصية الخصوصية . وقد ادركتَ السر في ابتهاجي في البادية ، وستدرك المعنى كله في عنوان مقالي هذا ، فلا تتهمني بعد ذلك بالتلاعب بالاحساسات والالفاظ

سنة في البادية انتهت بعزلة في الجبل ، ولكنها عزلة جثمانية فقط . فهناك الكتب والاوراق والالاعيب الفنية تشاركني في هذه العزلة . وهناك الجرائد والمجلات تحمل اليّ اخبار العالم وأنباء الحياة في العالم

العالم الذي فررت منهُ هارباً والحياة التي نبذتها ! ترى الاول يجالسني كلما جلست استريح ، فيحدثني وهو يبسم بسمة جنية فظيعة . وترى الثانية تجيئني سامرة ، فتثرثر وهي تقهقه قهقهة الفاجرة

العالم يقطع عليَّ العزلة ليقول : وما الحق لغير القوة . وما الرجال بغير المال . وما الانتداب غير نوع جديد من الاستعمار . وما الالف والباء والجيم منه غير درجات في الظلم والاستبداد . وهذا حقٌّ ما زال الحق للقوة . خلق الضعيف لخدمة القوي . والضعيف من الامم والشعوب ، مثل الضعيف في الناس قسطه النير

وها كم قويًّا في العالم الجديد يسيطر على اقوياء العالم القديم . يسيطر بالمال ، بالذهب . وها كم في الشرق الاقصى دولة تقلد دول الغرب بما يودّ مصلحو هذا الزمان تطهير الغرب منه — بالقوة المادية والشره الاستعماري . وها كم الشرق الصيني يئن بين براثن الحرب الاهلية التي تغذّيها سرًّا دول الغرب . وها كم الشرق الهندي وفيه الاسد والفيل يتنازعان المُلك ويتصارعان . والى شمال ذلك الشرق دولة تشرئب بعنقها الى الغرب وتود ان يكون لها في جوار الهند ما لليابان في جوار الصين

وها كم في الشرق الادنى طرَفي الحقيقة « ان الحق للقوة » : ففي انقرة نخط الحقيقة بأحرفها الكاملة ونلفظها : جمهورية كمالية . وفي طهران نخطها بماء الذهب بالحرف الفارسي ونلفظها : مملكة رضوية . وفي نجد والحجاز نخطها على الرمال بالاحدب البتار فتسفيها الرياح وهي تردد اسم ابن سعود . وفي الشرق العربي لا نكاد نخطها حتى يمحوها ببصره الخنوع ويكتب مكانها : لتحي بريطانية العظمى ! وهذه بريطانية العظمى بعد ان استعادت شيئاً من الصولة التي فقدتها في الحرب الكونية ، تقلد الطائع في الشرق العربي نيشاناً ، وتهدد بالمدرعات والطيارات ، السيادة الوطنية ، والحرية القومية في وادي النيل وفي فلسطين

وفي هذه البلاد السورية كُتبت الحقيقة بعشر لغات — لغات الطوائف — فكان للدولة المنتدبة فيها عشر قراءات مختلفات بعضها عن بعض ، وكلها تعود الى مصدر واحد : الحقّ للقوة

***

بذا يحدثني العالم وهو يبتسم بسمته الخبيثة المؤلمة . والحياة تقطع عليَّ عزلتي فتجيء سامرة وتقول : انما الحق لمن يحسن الرثاء ، والقوة لمن يبرع في المداجاة . الحق والقوة والوجاهة والثروة والسيادة كلها للأمّعيين . لاولئك الذين يقفون مطأطئي الرؤوس امام كل كبير من السادة الزعماء ، وأمام كل من وقف حولهم في ظلال السلطات الثلاث ، المدنية والدينية والمالية

الحق والقوة والوجاهة والثروة والسيادة لمن يقول ! نعم ، نعم ، على الدوام . ذلك ان القوة الايجابية في الحياة هي القوة الغالبة . ولا يقول لا ، لا ، غير المصابين بعسر الهضم ، والمجانين ، والانبياء . اتبغي المال والرفاه ، والترف والجاه ؟ نعم ، نعم . أتبغي السيادة والقوة والمجد ؟ نعم ،

نعم . سيّارة تتصدر فيها ؟ نعم . عصاً من الذهب وثوباً من الارجوان ؟ نعم ، نعم . عضوية في المجمع العلمي ، او رآسة في البلدية ، او في الرابطة الادبية ؟ نعم ، سيدي نعم . . . وفساطين يا سيدتي من باريس ؟ نعم ، نعم . وأميراً صاحب كيس ؟ كيف لا . والحب لأبليس ؟ نعم ، لأبليس ... هي ذي الحياة ، حياة كل يوم ، تجيئني في الجرائد ، وهي تثرثر وتقهقه ، ثم تختفي وهي ترقص الرقصة الجديدة

فاخرج من المنزل لأستنشق الهواء النقي ولأحدث النجوم . وكأني بها ، وهي تدور في افلاكها تذكّر بمن وقف تحتها في غابر الزمان من الانبياء والعلماء ، وهي تقول : نعم ، نعم ، لكل ما قالوه

***

وهل من حاجة الى ان اردد على مسمع القارىء ما قاله الانبياء ؟ فقد بدأ احدهم وصاياه ب « لا ، لا » . ووقف احدهم امام عروش الظلم وقال : « لا ! » لاربابها. ومشى الآخر مع الفقراء وذوي القلب الوديع فقال لهم مراراً : انا هو خبز الحياة . ومن اضاع حياته من اجلي يجدها . واوصى الآخر بالامر بالمعروف وبالنهي عن المنكر . وقالوا كلهم بالحب ، والسلام ، والاخاء الانساني . وجميعهم يئسوا من الانسان

— ووقف الانبياء في ربيع اليأس فصرخوا من اعماق قلوبهم قائلين : سمع الانسان كلمة الله وظلّ عتيًّا . وآمن الانسان وظلّ ضالاً . ومشى الانسان على الاثنتين وهو لا يزال في كثير من صفاته مثل ذوي الاربع . وعلمناه التوحيد وهو لا يزال يقول : موسى وعيسى ومحمد وبوذا وازدرشت . وعلمناه المحبة وهو لا يزال يصنع القنابل والمدافع والبارود . وعلمناه الرحمة والعدل وهو لا يزال في سبيل شهواته ، يمشي على القلوب البشرية الدامية ، ولا يزال ، في سبيل مطامعه ، اما ضبعاً او ثعلباً

ونفض الانبياء ايديهم من الانسان . ولكن صرخات اليأس ، يأسهم ، سمعتها القرون ، ورددتها الاجيال . رددها في كل جبل افراد من الناس ، من اولئك الذين يعطون حياتهم ليجدوها ، وكان لترددهم فترات من تجديد الصلاح في الناس . وكان لتجديد الصلاح ، ازدياد في صفوف من يقولون: « لا ! » ومن يؤمنون في قلوبهم ، وفي اعمالهم . ولذلك ترى الواحة في بيداء الحياة تزداد اخضراراً وتتسع كل مائة من السنين

***

كذلك يزهر يأس الانبياء . وانا المقيم في هذا الوادي ، في هذا الزمان ، زهرة من يأس الانبياء

زهرة نوّرت ، فذوت ، فتناثرت اوراقها ثم انتثرت من قلبها بذور الحياة ، فحملتها الرياح في النواحي الاربع من الارض

***

زهرة من يأس الانبياء غدت بستاناً ، واضحى البستان ربيعاً ، وكان للربيع صوت ، هو الذي تسمع الآن ! هو صوت صاعد من ربيع اليأس

— لله من ظلم يتجدد في حكومات العالم الحرة . لله من شعوب تنفر الى الماضي لتمتص من عظام الاموات شيئاً من الحياة . لله من حياة تزداد اعباؤها كلما ازداد الانسان علماً ونوراً . لله من شعوب في هذا الشرق يرددون كلمات التوحيد وهم في الشرك يعمهون ، وفي الشقاق يهلكون

ان في السماء الـهاً واحداً وان تعددت اسماؤه . وان على الارض لناموسه ، مظاهر ، تتجسم كل جيل في افراد من الناس ، فينيرون جادة من جادات الروح ، ويفتحون باباً من ابواب الخلاص — الرقي — للامم

هم ازهار ذالك الربيع ، ربيع يأس الانبياء . ولهم يومهم ، ولهم عملهم ، ولهم يأسهم المزهر المنير . لولا ذلك ليئسنا حتى من الله . ولكننا من المؤمنين الذين لا يؤمنون بسواه

***

ان يأسي لفي ربيعه ، وان في هذا الربيع لكل امة من الامم ، ولكل شعب من الشعوب ، زهرة طيبة الأريج

ولكني وان قالت أمي : العذراء ، اقول : الله
وان قال اخواني في الغرب : المسيح ، اقول : الله
وان قال اخواني في الشرق : بوذا ، اقول : الله
وان قال اخواني العرب : محمد ، اقول : الله
وان قال اخي الفارسي : آهورا ، اقول : الله
وان قال اخي الصيني : كنفوشيوس ، اقول : الله
وان صوتي ، وان كان من اصوات اليأس ، لمن أصوات الله
ولولا هذه الاصوات ، المرسلة من اليأس أشعةً وحياةً لتجديد الامل والجهاد ، لما مشت الاجيال الى المحجة العليا ، ولما اتسع اخضرار الواحة في البادية ، كل مائةٍ من السنين

الفريكة — لبنان

الري في مصر

وثيقة فنيّة خطيرة

لحسين بك سري وكيل وزارة الاشغال

خطبة الرآسة في المجمع المصري للثقافة العلمية

نظرة تاريخية

لي الشرف ان اتحدث اليكم في موضوع من اهم الموضوعات التي تعني بها مصر لعلاقتهِ الوثيقة بالزراعة اهم مرافق هذا القطر وعماد ثروتهِ وينبوع رخائهِ وأقصد بهِ « الري في مصر »

وأود قبل ان اتكلم عن الري في الوقت الحاضر أن ارجع بذاكرتكم الى العصور الغابرة لنستعرض معاً ما كانت عليهِ اراضي وادي النيل في ذلك الوقت ثم الادوار التي مرت قبل ان وصلت نظم الري الى حالتها الحاضرة من التقدم وقبل ان يتمكن سكان مصر من التحكم في مياه النيل يطلقونها بقدر معلوم ويستخدمونها وفقاً لرغباتهم . يحبسون ما فاض عن الحاجة منها ليعودوا فيصرفوهُ في الوقت الذي يقف فيهِ ايراد النيل عاجزاً عن أن يفي بحاجة الاراضي الزراعية

لو اننا القينا بنظرتنا على هذا الماضي البعيد وتخيلنا ما تنطق بهِ سطور التاريخ عنهُ لامكننا ان نتصور اراضي مصر في ذلك الوقت مكوّنة من سهول مجدبة لا زرع فيها وكثبان من الرمال وأدغال تملؤها المستنقعات ، ولتصورنا مياه النيل تفيض على هذه السهول من عام لآخر فتغمرها فترة من الزمن ثم تعود فتنحسر عنها بعد ان يمر الفيضان ولا تتركها الاّ وتكون قد خلّفت وراءها طبقة من الطمي كان لها الاثر كله في تكوين اراضي مصر الزراعية وفي تجديد خصبها وقوتها عاماً بعد عام . ثم لتصورنا ساكن مصر الاول ينظر فيجد امامهُ ارضاً رواها النيل بمائهِ من دون ان يقوم هو في سبيل ذلك بمجهود او يتكبد نفقات فيرمي ببذوره فيها ولا يلبث ان يراها زرعاً يجني ثمرهُ بعد زمن قصير. واذ كان لنا ان نسمي هذه العملية طريقة ري فانها تكون اقدم ما عرفهُ الانسان من طرق الري

مرت القرون بعد ذلك الى ان فطن قدماء المصريين الى هذه المزايا التي حبت بها الطبيعة واديهم ورأوا امامهم قوًى تضيع دون ان يفكروا في الانتفاع بها فأخذوا ينظمون جهودهم . وتقدم ملكهم « مينا » فرأى ان يقيم للنيل جسرين على طول مجراه ليمنع مياههُ من ان تطغى على شواطئهِ فتكتسح امامها البلاد . إلاّ انهُ وجد هذا العمل شاقّاً لا يقوى على تنفيذه ففكر في ان يقصر جهوده على احد الجسرين فقط وبدأ بالجسر الايسر حيث العمار والمدن الكثيرة وترك الضفة اليمنى يطغى عليها النيل ما سمحت مناسيبهُ بذلك . وقامت أمامهُ بعد هذه الخطوة صعوبة توصيل مياه

الفيضانات الواطئة الى الاراضي المنخفضة البعيدة عن مجرى النيل فشقّ الترع خلال اراضي الشواطىء العالية لتوصيل المياه الى تلك الاراضي المنخفضة وأقام جسوراً عمودية على جسر النيل ليمنع بها فيضان المياه على مواطىء الاراضي الشمالية وكانت هذه اول خطوة لتنظيم الري الحوضي

وقف مجهود القدماء بعد ذلك عند هذا الحد الى ان كان عصر الاسرة الثانية عشرة فأقاموا جسر النيل الايمن الاَّ انهم خشوا بعد اتمام الجسرين ان تمزقهما الفيضانات العالية وتغرق البلاد او تكتسح اراضي الدلتا الواطئة فرغبوا في الاحتياط لذلك وقاموا بتوصيل مجرى النيل بالمنخفض الذي كان معروفاً ببحيرة موريس ليصرفوا فيهِ ما زاد من مياه الفيضانات العالية . وما لبثوا بعد ذلك ان فكروا في العمل على اعادة هذه المياه الى مجرى النيل حتى يمكن الاستفادة بها في الفترة التي يقل فيها ايراد النهر ولعلَّ في ذلك ما يقوم دليلاً على أن فكرة تخزين المياه كانت وليدة العصور الماضية

استمرَّ نظام الري في مصر على هذه الحال الى ان غزا العرب مصر ورغب ولاتهم في زيادة ثروتها فلم يجدوا امامهم الاَّ الزراعة مورداً يتعهدونهُ بعنايتهم حتى تؤتي ثمارها وورث كل والٍ منهم عن سلفه العناية بالشؤون الزراعية حتى نمت وترعرعت وجنت البلاد من ورائها الربح الوفير فزادت مساحة الاراضي المنزرعة من مليون ونصف في اوائل حكمهم الى ثلاثة ملايين في آخر مدتهم . ولم يتغير نظام الري في عهدهم عنهُ في العهد السابق بل ظلت اراضي مصر العليا والوسطى تروى بنظام الحياض تغمرها مياه النيل وقت الفيضان وتبقى عليها زمناً ثم تصرف في مجرى النهر وتبذر البذور في الاراضي بعد ذلك وتترك حتى يتم نضج المحاصيل ثم حصادها . واستمرت اراضي الدلتا تروى بهذه الطريقة ايضاً وتخترقها فروع النيل العديدة تمدها بالمياه اللازمة لها وقت الفيضان

وكان للبلاد ان تلمس هذا المغنم الذي لقيته من وراء عنايتها بالشؤون الزراعية وان تعمل على الاحتفاظ بهِ الاَّ انها منيت بحكم المماليك الذين استولوا على الاراضي الزراعية وخصوا بها انفسهم وتابعيهم وبقي الاهلون يعملون في اراضٍ لا يملكونها مما دعاهم الى هجرها وعدم العناية بها فأجدبت وقلَّ محصولها

ولما ان وَلِيَ محمد علي باشا حكم مصر وجد الاراضي تروى بنفس الطريقة التي كانت متبعة مدة حكم العرب . وانها لا تنتج تحت هذا النظام الاَّ محصولاً واحداً في السنة مما لا يتفق مع التوسع الزراعي الذي ينشده والذي يرى انهُ الوسيلة الوحيدة لزيادة ثروة البلاد . فبدأ بأراضي الدلتا وأدخل فيها زراعة بعض محاصيل جديدة أهمها القطن وكان قد استحضره من البرازيل والهند عام ١٨٢٠ — ودعت زراعة القطن الى تغيير نظام الري المتبع وذلك لان هذا المحصول يحتاج الى ريات متتابعة ولا يتفق وقتُ زرعهِ مع الفترة التي ترتفع فيها مياه النيل فاضطرَّ ساكن الجنان أمام هذه الحال الى اكمال جسور فرعي النيل حتى لا تطغى المياه وقت الفيضان على الاراضي المنزرعة قطناً . وعمَّق الترع لدرجة تسمح بدخول مياه الصيف الواطئة فيها وبنى عليها القناطر المتعددة ليتمكن بذلك من رفع المياه امامها الى منسوب تقل معهُ نفقات رفعها الى الاراضي . وكانت اراضي الدلتا بعد

هذه الخطوة تزرع فيها الحبوب بعد صرف المياه التي تغمرها وقت الفيضان وبعد ان يتم حصاد الحبوب تطهر الترع مما يكون قد رسب فيها من الطمي لتسمح بأمداد الاراضي المزروعة قطناً بالمياه مدة الصيف وفي شهر اغسطس كانت تعمل قطوع في جسور الترع لري مواطيء الحياض حتى اذا ما تم حصاد القطن في شهر سبتمبر تغمر الاراضي بمياه الفيضان وبعد صرف المياه تبذر فيها بذور الحبوب وهكذا. أي ان اراضي الدلتا كانت تروى بطريقتي الري الحوضية والمستديمة. وهذا اول العهد بأدخال نظام الري المستديم في مصر

الاَّ ان الجمع بين نظامي الري على الوجه السابق اقتضى نفقات كثيرة كانت تصرف في حفر الترع الى منسوب واطيء ثم صيانتها على هذا المنسوب بتطهير مقادير الطمي الكبيرة التي كانت ترسب مدة الفيضان مما دعا محمد علي باشا أمام هذه النفقات وكثرة الايدي التي يتطلبها هذا العمل الى التفكير في تحسين الطريقة المتبعة فكلف مهندسيه البحث عن وسيلة يمكن بها رفع مياه الصيف بحيث تدخل الترع من غير حاجة الى تعميقها فعرض عليهِ مهندسوه مشروع اقامة قنطرتين على فرعي النيل عند قمة الدلتا . ولما صادفت هذه الفكرة قبولاً لديه امر بأعداد ما يلزم لذلك ثم اعتمد المشروع وبدأ العمل في تنفيذه عام ١٨٤٣ واستمر بناء القناطر بعد ذلك تعترضهُ الصعوبات فتوهن من عزيمة القائمين بهِ وتفلُّ ثقتهم بنجاحه ثم يرجعون فيواصلون العمل فيه حتى تم بناء القناطر سنة ١٨٦١

وقبل استعمال القناطر في الموازنات رأى القائمون بالامر في ذلك الوقت اختبارها فعجزت عن تأدية ماطلب منها ولم تتمكن من رفع منسوب المياه امامها الى الدرجة المطلوبة وكان ذلك داعياً لاعادة البحث فيما يمكن تنفيذه لمقابلة احتياجات نظام الري الجديد وبدت لهذا الغرض فكرتان احداهما تقضي باقامة آلات لرفع المياه اللازمة والاخرى بترميم القناطر الاَّ ان الآراءَ عادت فاقرت الفكرة الثانية وبديءَ بترميم القناطر ولما فرغوا من ذلك لم يكن الحجز عليها الى المنسوب المطلوب فأعيد ترميمها مرات انتهت باقامة سدود غاطسة خلفها سنة ١٩٠١ وبعد ذلك امكن للقناطر ان تقوم بالغرض الذي بنيت من اجله

وباتمام القناطر تم وضع الحجر الاساسي في نظام الري المستديم في الدلتا وامكن بواسطتها امداد هذه الاراضي بما يلزمها من المياه مدة الصيف مما ساعد على تحويل المساحات الحوضية لتروى بطريقة الري المستديم وكانت مساحة الاراضي التي تزرع فيها بعض المحاصيل الصيفية لا تتعدى المليوني فدان وقت البدء في بناء القناطر زادت بعد ذلك الى ثلاثة ملايين تتمتع بنظام كامل من الري المستديم ولا يخفى ما كان لهذا التوسع من أثر في زيادة مقدار المحاصيل وما ترتب عليهِ من ازدياد موارد القطر وازدياد ثروتهِ بارتفاع ثمن اراضيهِ . وبذلك تكون الجهود المتواصلة التي بذلها المغفور له محمد علي باشا قد اثمرت وتحقق الامل الذي طالما تطلع اليهِ

وفي اثناء بناء القناطر تمَّ حفر ثلاث ترع كبيرة تأخذ من النيل أمامها وهي الرياح التوفيقي والرياح المنوفي ورياح البحيرة ليروي الاول شرق الدلتا والثاني وسطها والثالث غربيها

ولما تولى الخديو اسماعيل باشا حكم مصر ورأى ثمرة جهود جده التي بذلها في العناية بالشؤون الزراعية

اراد ان يتتبع خطواتهِ فأمر في سنة ١٨٧٣ بحفر الترعة الابراهيمية التي تعد من اكبر الترع في العالم وكان الغرض من انشائها في بادىء الامر امداد مزارع القصب الخديوية بالمياه مدة الصيف واستعملت بعد حفرها في ري مساحة صيفية قدرها حوالي نصف مليون فدان واخرى حوضية مساحتها نحو ٥٠٠٫٠٠٠ فدان ولقد كان انشاء هذه الترعة الخطوة الاولى لادخال نظام الري المستديم في مصر الوسطى

ولما لمس سكان مصر الوسطى أثر محصول القطن في الثروة الزراعية عملوا على زراعته في بعض مساحاتهم الحوضية وكانوا يحيطون هذه المساحات بجسور تقيها من طغيان المياه عليها مدة الفيضان ويرفعون اليها ما يلزمها من المياه بالآلات من النيل او من الآبار الارتوازية — ولما ازداد عدد السكان وتطلبت هذه الزيادة حاجتها من المزروعات اتجهت الانظار الى اراضي مصر الوسطى بغية تحويلها الى الري المستديم الاَّ ان زراعة الاراضي مدة الصيف تقتضي ريها في هذا الوقت الذي تقل فيهِ تصرفات النيل ويعجز ايراده عن ان يمدها بحاجتها من المياه . لذلك كان على القائمين بأعمال التوسع في كل مرحلة أن يفكروا في توفير المياه اللازمة للمساحات الصيفية ومن هنا عادت فتجددت فكرة التخزين وحجز بعض مياه الفيضان الزائدة عن الحاجة ليمكن الاستفادة بها مدة الصيف . وسبق ان قلنا ان اول من فكر في تخزين المياه هم ملوك الاسرة الثانية عشرة الفرعونية وبدت هذه الفكرة من بعدهم لمحمد علي باشا فامر مهندسهِ لينان باشا بدراسة هذا المشروع وفكر هذا في منخفض بحيرة موريس القديم ولما رأى ان النفقات التي تلزم لتنفيذ فكرته باهظة عدل عنها وفكر في اقامة قناطر عند جبل السلسلة لتخزين المياه امامها الاَّ ان تصدع القناطر الخيرية بعد بنائها لم يشجعهُ على المضي في تنفيذ فكرته . وفي سنة ١٨٨٠ تجددت فكرة التخزين عند جبل السلسلة وكانت سعة الخزان المقترح انشاؤه عند هذا الموقع سبعة مليارات من الامتار المكعبة . وتقدم اقتراح آخر باستعمال منخفض وادي الريان خزاناً تحجز فيهِ بعض مياه الفيضان الاَّ ان الحكومة لم تأخذ بأحد الاقتراحين بل نبذت فكرة التخزين ولعلَّ السبب في ذلك ما شاهدتهُ من ضعف القناطر الخيرية

ولما اسفرت اعمال الترميم في هذه القناطر عن بعض النجاح واصبح من الممكن الحجز عليها شجع ذلك الحكومة على المضي في تنفيذ فكرة التخزين واخذت هذه الفكرة تتطور فتتجه احياناً الى جبل السلسلة ثم تنحرف عن هذا الاتجاه لتعود الى منخفض وادي الريان وهكذا الى ان بدت في سنة ١٨٨٩ فكرة استخدام مجرى النيل نفسه للتخزين واخذت الحكومة بعد ذلك في بحث هـذا الاقتراح وعهدت الى لجنة من المهندسين الاخصائيين باختيار الموقع المناسب لهذا الخزان فقررت اللجنة بعد دراسة مجرى النيل بين حلفا والقاهرة ان أنسب موقع يبنى عنده السد هو شلال النيل الاول عند اسوان شمال أنس الوجود وتم تحضير المشروع بعد ذلك . وكان تصميم السد في بادىء الامر يسمح بالحجز عليهِ الى منسوب ١١٢ متراً وتبلغ سعة الخزان عند هذا المنسوب ما يربي على المليارين من الامتار المكعبة . الاَّ ان الرغبة في المحافظة على المعبد الذي

يقع في حوض الخزان حالت دون تنفيذ هذا المشروع واقتصر في بناء السد الذي بدأ في سنة ١٨٩٨ وتم سنة ١٩٠٢ على جعل منسوب التخزين ١٠٦ امتار بدلاً من ١١٢ متراً وبذلك لم ينشأ الخزان الاَّ ليسع ملياراً واحداً فقط من الامتار المكعبة

وللانتفاع بمياه التخزين رأى رجال الري في ذلك الوقت ان يعملوا على رفع منسوب مياه النيل عند فم ترعة الابراهيمية ليتمكنوا بذلك من اعطاء مصر الوسطى نصيبها من هذه المياه مدة الصيف . وكانت ترعة الابراهيمية تتغذّى من النيل بدون قنطرة تساعد على رفع المياه امامها الى الدرجة التي تكفي لامداد الزمام المترتب ريهُ على هذه الترعة بالمياه اللازمة له . ولمعالجة هذه الحال استقر الرأي على اقامة قناطر على النيل عند اسيوط وتم بناء هذه القناطر سنة ١٩٠٢ وبذلك امكن لترعة الابراهيمية ان تأخذ نصيبها من المياه مدة الفيضان والصيف من دون ان يكون لمناسيب النيل أثر كبير عليها . وبعد اقامة هذه القناطر امكن تحويل ٤٥٠ الف فدان من حياض مصر الوسطى الى الري المستديم

وفي سنة ١٩٠٣ تمت اقامة قناطر زفتى على فرع دمياط وكان الغرض من بناء هذه القناطر رفع المياه امامها في اوائل الفيضان لتغذية اراضي شمال مديرية الدقهلية والجانب الشرقي من مديرية الغربية في الوقت الذي لا تقوى فيهِ القناطر الخيرية على امداد الترع التي تأخذ من امامها بالمياه اللازمة

وامتدت الجهود بعد هذه المرحلة الى العناية بتحسين وسائل الري في اراضي مصر العليا التي تروى بطريقة الري الحوضية ولما رؤي ان اراضي مديرية قنا تحتاج الى تحسين حالة الري فيها فكر في اقامة قناطر اسنا على النيل لترفع امامها مياه الفيضان بحيث تكفي لغمر هذه الحياض وبدىء في اقامة هذه القناطر سنة ١٩٠٦ وتم بناؤها سنة ١٩٠٨

ولم يكن للقائمين بأمر التوسع ان تقف جهودهم عند هذا الحد بعد ان تمَّ انشاء هذه الاعمال الكبيرة في مجرى النيل بل دعتهم قلة الايراد الذي اتت بهِ السنين الشحيحة بعد ذلك الى اعادة التفكير في تخزين مقادير اخرى من المياه غير التي تحجز كل سنة في خزان اسوان واتجهت انظارهم الى هذا الخزان يفكرون في العمل على رفع منسوب التخزين بهِ لعلهم بذلك يسدون النقص في الايراد الطبيعي للنهر مدة الصيف عن احتياجات الاراضي الزراعية التي زادت مساحاتها . وانتهى تفكيرهم الى البدء في تعلية خزان اسوان للمرة الاولى وتمت هذه التعلية سنة ١٩١٢ وأصبحت سعة الخزان بعدها مليارين ونصف من الامتار المكعبة واستخدم مقدار المياه الاضافية في تحسين حالة الري وفي التوسع في جانب من الاراضي البور في الوجهِ البحري . ولما تمَّ الانتفاع بهذه الزيادة كانت مساحة الاراضي المنزرعة بالدلتا ٣٫٣٥٠٫٠٠٠ فدان ومساحة الاراضي التي تروى ريًّا مستديماً في مصر الوسطى ١٫٠٥٠٫٠٠٠ فدان وبذلك يكون قد امكن الانتفاع بمياه التخزين كلها عند اسوان في استصلاح ٣٠٠٫٠٠٠ فدان من اراضي الدلتا وفي تحويل حوالي ٤٥٠٫٠٠٠ فدان من حياض مصر الوسطى

التوسع في الاراضي الزراعية

والآن انتقل بعد الكلام عن تاريخ الري في مصر الى التوسع المقترح في اراضيها الزراعية ثم الاحتياجات التي يتطلبها هذا التوسع والخطوات التي يقترح اتباعها لزيادة الايراد حتى يمكن مقابلة التوسع الجديد في كل مرحلة من مراحله المستقبلة

تبلغ مساحة الاراضي التي تروى ريّا مستديماً في الوجهين البحري والقبلي حوالي ٤٫٤٠٠٫٠٠٠ فدان وتحتاج هذه المساحة لكي تأتي بالفائدة التي ترجى من زراعتها الى امدادها بكفايتها من المياه مدة الصيف . وفي هذه الفترة من السنة يقل ايراد النهر بحيث لا يفي مع ما يضاف اليهِ من المخزون عند اسوان باحتياجات الاراضي الزراعية ، ويضطر رجال الري أمام قلة الايراد ان يقسموا مدة اطلاق المياه في الترع الى فترات تخصص كل واحدة منها لري جزء من زمام كل ترعة ثم يمنع هذا الجزء من الري طيلة الفترات الباقية . وهم في ذلك يبغون توزيع المياه ما امكنهم على الاراضي الزراعية توزيعاً نسبيًّا بل تضطرهم قلة الايراد في السنين الشحيحة جدًّا الى اطالة الفترات التي تحرم فيها الاراضي من الري . ولهذا من الاثر في الزراعة ما يقل معهُ مقدار المحاصيل وخصوصاً محصول القطن مطمح انظار المزارعين وأملهم الذي يترقبونهُ طول عامهم . وهناك ايضاً من نتائج قلة الايراد ما يتصل بمحصول الذرة عماد غذاء الفلاح المصري وذلك أن شُحّ الايراد يمنع التبكير بطفي الشراقي اعداداً لزراعتها بهذا المحصول . وفي تأخير زرعها الاثر السيء في مقدار ما يجنونهُ منها

يضاف الى هذا — الازديادُ المستمر في عدد سكان مصر وما تتطلبهُ هذه الزيادة من المزروعات ولو اننا رجعنا الى الاحصاءات التي عملت لسكان مصر في السنين الماضية لوجدنا ان عددهم يتكاثر بمعدل ١٤٠٫٠٠٠ نسمة سنويًّا ومع هذا المعدل نرى ان أهالي مصر ينتظر ان يصل عددهم الى ١٨ مليوناً في سنة ١٩٤٨ والى ٣٠ مليوناً في سنة ٢٠٠٠ ولا شك ان هذه الزيادة سوف تتطلع الى الاراضي الزراعية ترجو الحصول منها على ما يقوم باحتياجاتها

ومن الضروري ازاء هذه الحال ان تتجه الانظار الى التوسع في الاراضي الزراعية باستصلاح البور منها وبتحويل الحياض الى الري المستديم حتى تزيد مقادير المحاصيل التي تأتي بها . ولا سبيل لمقابلة هذا التوسع الا الرجوعَ الى ايراد النيل الذي ظلّ قبلة المصريين في كل عصر يولون وجوههم شطره ويلتمسون من ورائهِ رزقهم وما يتمتعون بهِ من ثروة . وما شجع دائماً على التفكير في ايراد النيل في كل خطوة من خطوات التوسع أن مجموع ايراده طول العام يزيد عن احتياجات الزراعة في مجموع فصول السنة الا انهُ يأتي بايراد يزيد كثيراً عن حاجة الزراعة مدة طويلة من السنة ويعجز عن الوفاء بها مدة الصيف . وهذا ما اوحى الى الاولين فكرة التخزين وما حدا وزارة الاشغال الى أن تعمل على زيادة المخزون من المياه لتمد الزراعة المستقبلة بمطالبها

ولو انهُ امكن تخزين جميع المياه التي تفيض عن الحاجة من مجموع ايراد النيل في السنوات

المتوفرة الايراد للانتفاع بها في السنين الشحيحة وفي الفترات التي يعجز فيها ايراد النهر الطبيعي عن الوفاء بحاجة الاراضي الزراعية لامكن بذلك ضمان زراعة ما لا يقل عن ٢٠ مليون فدان أي ما يعادل تقريباً ثلاثة أمثال أقصى مساحة تصل اليها الاراضي الزراعية في الوادي بالقطر المصري في المستقبل اذا لم نعر الصحارى التفاتاً ما

وسارت وزارة الاشغال في سبيل زيادة المخزون وفكرت في تعلية خزان اسوان للمرة الثانية. ولما تأكدت من امكان هذه التعلية شرعت فيها واتمتها اخيراً. وبدأت في بناء خزان جبل الاولياء. وباتمام هذين العملين سيزيد المخزون من المياه بمقدار ٤٨٠٠ مليون متراً مكعباً منها و٢٨٠٠ مليون من خزان اسوان و٢٠٠٠ مليون من خزان جبل الاولياء سينتفع بها :—

اولاً — في تحسين حالة المناوبات والتبكير بطفي الشراقي في الوجهين البحري والقبلي وضمان زراعة ٢٠٠٫٠٠٠ فدان ارزاً

ثانياً — في استصلاح حوالي ٤٠٠٫٠٠٠ فدان من الاراضي البور في الوجه البحري

ثالثاً — في التوسع في الوجه القبلي بتحويل حياض مساحتها حوالي ٤٥٠٫٠٠٠ فدان واعطاء مياه لمساحة قدرها حوالي ٥٠٫٠٠٠ فدان من الاراضي البور والسواحل

ولقد بدأ التوسع في هذه المساحات من السنة الحالية وسيستمر حتى يتم استنفاد المخزون الاضافي بخزان اسوان لمنسوب ١٢١ م وذلك في سنة ١٩٣٨ وفي هذا التاريخ يكون قد تمَّ بناء خزان جبل الاولياء وأمكن الحجز عليهِ فيبدأ باستخدام مياههِ الى ان يتم الانتفاع بها حوالي سنة ١٩٤٦ — ويتبقى بعد ذلك مقدار آخر من المخزون يمكن الحصول عليهِ برفع منسوب التخزين بأسوان متراً فيخصص لاستصلاح بعض المساحات البور في الوجه البحري ابتداءً من سنة ١٩٤٦ الى سنة ١٩٥٣ وبذلك يكون قد تمَّ الانتفاع بمياه الخزانين حوالي سنة ١٩٥٣

ويستلزم الانتفاع بهذه المقادير أن ترجع الوزارة أولاً الى القناطر الرئيسية المقامة على النيل لتدرس حالتها وتتأكد من انها تقوى على الحجز عليها الى المنسوب الجديد الذي يمكن معهُ اعطاء الترع الآخذة من امامها نصيبها من هذه المياه. ولقد انتهت الوزارة الى ضرورة تقوية قناطر اسيوط حتى تسمح برفع منسوب المياه أمامها بحيث يكفي لتحسين حالة المناوبات على الترعة الابراهيمية وتحويل بعض المساحات الحوضية بمصر الوسطى الى الري المستديم ولامكان التوسع في بعض المساحات البور بمديرية الفيوم. ويحتاج التوسع في الوجه البحري الى زيادة الحجز على القناطر الخيرية وهذه القناطر لا تقوى بحالتها الحاضرة على تحمل الحجز الجديد لذلك رؤي ضرورة تقويتها او بناء قناطر جديدة بدلاً منها ولم يستقر الرأي بعد على احد الحلين

وهناك قناطر اخرى يتجه التفكير نحو اقامتها على فرع رشيد بدل السد الترابي الذي يقام كل عام ليمنع بهِ دخول المياه المالحة في الوقت الذي تنخفض فيهِ مناسيب النيل ولتتجمع امامه مياه الرشح

التي يمكن الانتفاع بها في ري جزء من الاراضي الشمالية بمديريتي الغربية والبحيرة . وتستلزم اقامة هذا السد كل عام صرف مقادير من المياه لطرد المياه المالحة قبل قفل السد . وسيكون لهذه المقادير أثر في ملء خزان أسوان في مراحل التوسع المستقبلة وهذا ما دعا الى التفكير في اقامة هذه القناطر

ويجدر بي ان اشير الى القناطر التي تمَّ بناؤها على النيل سنة ١٩٣٠ في وسط المسافة تقريباً بين قناطر اسنا وقناطر اسيوط واقصد بها قناطر نجع حمادي وقد اقيمت لضمان الري الحوضي في مديرية جرجا ولامكان تحويل الاراضي الحوضية بمديريتي اسيوط وجرجا الى الري المستديم بعد اتمام اعمال التخزين . وتمَّ حفر ترعتين تأخذان من امام هذه القناطر وهما الترعة الفؤادية بالبر الايسر للنيل والترعة الفاروقية بالبر الايمن . وستحوّل المساحات التي تتحكم فيها هاتان الترعتان الى الري المستديم لتنتفع من مياه خزاني اسوان وجبل الاولياء

وبعد هذه المرحلة لا تكون مصر قد اتمت كامل التوسع في اراضيها الزراعية بل يبقى هناك حوالي ٧٠٠٫٠٠٠ فدان من اراضي الوجه القبلي باقية تحت نظام الري الحوضي وحوالي ٩٥٠٫٠٠٠ فدان بور بالوجه البحري بما في ذلك ما يستجد منها بعد تجفيف الجانب الاكبر من البحيرات الشمالية. وحين يتم هذا التوسع تصل مساحة الاراضي الزراعية في مصر ٧٫١٠٠٫٠٠٠ فدان وتحتاج هذه المساحات زيادة على ايراد النهر الطبيعي الى حوالي ٨٠٠٠ مليون من الامتار المكعبة مدة الصيف وذلك بخلاف المخزون بخزان اسوان بعد تعليته الثانية وقدره ٥٣٠٠ مليون متر مكعباً — وما سيخزن في جبل الاولياء وقدره ٢٠٠٠ مليون متر مكعباً

ويمكن الحصول على هذه المقادير من الوجوه الآتية : —

١٤٠٠	مليون من خزان بحيرة تسانا
٥٦٠٠	» » » البرت بعد انشاء قناة السدود
١٠٠٠	» » » كيوجا
٨٠٠٠	المجموع

ويستلزم الانتفاع بالمقادير التي ستحجز بخزانات تسانا والبرت وكيوجا غير الاعمال العادية تقوية قناطر اسنا . وينتظر ان تبنى هذه الاعمال في التواريخ الآتية : —

العمل	تاريخ البدء	تاريخ الانتهاء
تقوية قناطر اسنا	١٩٥٠	١٩٥٤
انشاء خزان تسانا	١٩٥٠	١٩٥٤
انشاء قناة السدود	١٩٥٥	١٩٦٥
انشاء خزان البرت	١٩٦١	١٩٦٥
انشاء خزان كيوجا	١٩٧٥	١٩٧٩

ويتم الانتفاع بهذه المقادير حوالي آخر القرن الحالي . واذا كان لأولي الامر بعد ذلك ان

يتطلعوا الى زيادة التوسع فان عليهم ان يتجهوا الى الصحراء ليصلحوا بعض المساحات فيها . ويمكنهم الحصول على المياه اللازمة لها عن طريق انشاء خزان آخر على بحيرة فكتوريا ويجدون من المياه الغزيرة التي تسقط على هذه البحيرة وحوضها ما يوفر لهم مقادير كبيرة من المياه ويكون الانتفاع بهذه المقادير آخر مدى تقف عنده الجهود في التوسع . والآن انتقل لا تحدث اليكم عن موضوع الصرف والخطوات التي اتبعت لتحسين وسائله وتعميمها في الاراضي الزراعية

الصرف

للصرف ما للري من خطر الشأن اذ يتوقف انتاج الاراضي الزراعية عليهما معاً فلا تجود الارض بمحصولها ولا يبقى لها خصبها الا اذا توفرت لها المياه وتم امدادها بوسائل الصرف اللازمة والاراضي اذا ما رويت تخللت المياه طبقاتها الى اسفل حتى تصل الى منسوب المياه الجوفية فتأخذ هذه المياه في الارتفاع . واذا ما استمر ري الاراضي على فترات متقاربة زاد ارتفاع مستوى المياه الجوفية الى الحد الذي لا يجد النبات معهُ طبقة من الارض يستطيع ان يرسل بجذوره فيها من دون ان تخنقها المياه . كذلك في الفترات التي يوقف فيها ري الاراضي تعلو المياه التي تتخلل طبقاتها الى السطح بفعل الجاذبية الشعرية ثم تعود فتهبط الى اسفل ثانية في فترات الري وهكذا تستمر المياه في الهبوط والصعود فتذيب معها كمية من الاملاح المختلطة بطبقات الارض وتسير معها في حركاتها المختلفة . فاذا ما وصلت المياه المحملة بالاملاح اثناء هبوطها الى مستوى منخفض فان كمية الاملاح التي في الطبقة العليا تقل تدريجيًّا . أما اذا كان مستوى المياه الجوفية عالياً فان هذه الاملاح تعلو الى سطح الارض مع المياه اثناء صعودها بفعل الجاذبية الشعرية حتى اذا ما تبخرت المياه بقيت الاملاح في الطبقة التي تتخللها جذور النباتات فتؤثر فيها وتكون بذلك مهلكة لحياة الزرع ويقل معها خصب الارض ويضعف انتاجها . وترون من ذلك ألاَّ فائدة من توفير المياه للاراضي الاَّ إذا كانت المصارف تخترقها وتعمل دائماً على تخفيض منسوب المياه الجوفية

ولقد دلت الابحاث التي عملت سنة ١٩٠٨ لمعرفة الباعث على نقص محصول القطن ان ذلك راجع الى فساد الارض لاستمرار ريها وعدم امدادها بالمصارف وكان أثر ذلك اوضح في اراضي الدلتا لطول عهدها بنظام الري المستديم

ودعت هذه الحال إلى توجيه العناية الى شؤون الصرف واستمرت العناية بها الى أن شبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ وحال ذلك دون مواصلة تنفيذ مشروعات الصرف إلى أن وضعت الحرب أوزارها فعادت الايدي وتناولت هذه الاعمال واتجهت أولاً الى اراضي الدلتا فبدت مقترحات متعددة في شأن أفضل الوسائل التي تتبع لصرف هذه الاراضي الى ان تم تفضيل احداها وتتلخص فيما يأتي:—

قسمت أراضي الدلتا الى الاقسام الثلاثة الآتية : —

(١) القسم الاول — ويشمل أراضي شمال الدلتا وتبلغ مساحتها حوالي مليون فدان . وهذه

الاراضي ذات منسوب واطىء ولا يمكن صرفها الاَّ بالآلات لذلك تقرر انشاء ثماني عشرة محطة طلمبات فرعية لصرفها على أن تستمد هذه المحطات التيار الكهربائي اللازم لادارتها من ثلاث محطات رئيسية بالعطف وبلقاس والسرو . ولقد تمت اقامة المحطات الرئيسية وأغلب المحطات الفرعية

(٢) القسم الثاني — ويشمل الاراضي التي تلي المنطقة السابقة جنوباً وتبلغ مساحتها حوالي المليون فدان أيضاً. ومناسيب هذه الاراضي أعلى من الاراضي الشمالية وتخترقها شبكة من المصارف الفرعية تصرف مياهها في أخرى رئيسية وهذه تصب بالراحة أما في البحيرات الشمالية أو في البحر. وينبغي لتحسين صرف أراضي هذا القسم زيادة عدد المصارف الفرعية لتتمتع جميع الاراضي بطرق صرف وافية

(٣) القسم الثالث — ويشمل أراضي صدر الدلتا العالية . وكان المتفق عليه فيما سبق انها سوف لا تحتاج الى وسائل الصرف . الاَّ ان استمرار ريها بالراحة أثر فيها وبدأ الفساد يتطرق اليها كما بدأت الاملاح تظهر فوق سطحها . وأظهر الادلة على ذلك ما شوهد من فساد أراضي مديريتي المنوفية والقليوبية وقد كانت حتى سني الحرب أغنى أراضي مصر الى أن عمها نظام الري بالراحة تخفيفاً للعبء الذي كان ملقى على عاتق الاهلين في ري أراضيهم بسبب ارتفاع ثمن الوقود اللازم لادارة طلمباتهم في فترة الحرب . ودعا ري هذه الاراضي بالراحة وعدم وجود المصارف اللازمة لها الى فساد تربتها وقلة غلتها حتى اضطر رجال الري أخيراً الي توجيه جهودهم الى العمل على امداد هذه المناطق بوسائل الصرف اللازمة . ولقد سار تنفيذ مشروع صرف اراضي المنوفية مرحلة طويلة . ولا تلبث ان تتم دراسة مشروع صرف أراضي القليوبية ويبدأ في تنفيذه . ولو أنني أعتقد ان الحل الحقيقي لتحسين حالة اراضي هذا القسم هو ارجاع طريقة الري بالآلة التي كانت متبعة في ري هذه الاراضي حتى سني الحرب

اما اراضي مصر الوسطى فيخترقها مصرف واحد تطلق عليه أسماء متعددة في أحباسه المختلفة وتصب فيه المصارف الفرعية التي تشق هذه الاراضي ويصرف هو مياهه في رياح البحيرة وتصله في بعض طوله وصلات بالنيل ليصبَّ فيه مياهه اذا سمحت مناسب النيل بذلك . كما تصله وصلات أخرى ببحر يوسف لنفس الغرض السابق . وتحتاج أراضي مصر الوسطى الى تحسين وسائل الصرف فيها وهو ما يقوم رجال الري في الوقت الحاضر بدراسته والمأمول أن يبدأ تنفيذه في القريب العاجل

يتبقى بعد ذلك أراضي الحياض في الوجه القبلي وهي التي ستحول الى نظام الري المستديم وهذه الاراضي سيراعى في تنفيذ المشروعات بها أن تسير أعمال الصرف جنباً الى جنب مع اعمال الري حتى لا يأتي ذلك الوقت الذي تبدو عليها فيه آثار الفساد نتيجة استمرار ريها وعدم امدادها بوسائل الصرف

نفقات الاعمال

وأود في هذا الجزء الاخير من محاضرتي أن أذكر لكم المبالغ التي يجب على مصر ان تنفقها حتى تكمل هذا التوسع المقترح في أراضيها الزراعية

تبلغ نفقات الاعمال التي يستلزمها الانتفاع بماء خزاني أسوان وجبل الاولياء ما يأتي : —

التعلية الثانية لخزان اسوان	٤٫٨٠٠٫٠٠٠	جنيه
انشاء خزان جبل الاولياء	٤٫٣٠٠٫٠٠٠	«
تقويه قناطر اسيوط	١٫١٠٠٫٠٠٠	«
تقوية القناطر الخيرية او انشاء قناطر جديدة	٣٫٢٠٠٫ ٠٠	«
انشاء قناطر على فرع رشيد بدل السد الترابي	٧٠٠٫٠٠٠	«
تعديل الري والصرف في الوجه البحري	١٣٫٠٠٠٫٠٠٠	«
استصلاح اراضي بور في الوجه البحري	٣٫٢٠٠٫٠٠٠	«
تحويل الحياض بالوجه القبلي	٦٫٥٠٠٫٠٠٠	«
اقامة المحطات الرئيسية والفرعية لصرف شمال الدلتا والخطوط الكهربائية اللازمة	٢٫٤٠٠٫٠٠٠	«
اقامة محطات الصرف الاخرى بالدلتا	٨٠٠٫٠٠٠	«
الصرف في مصر الوسطى	٢٫٣٠٠٫٠٠٠	«
الملاحة	٧٠٠٫٠٠٠	
	٤٣٫٠٠٠٫٠٠٠	«

أي ان مجموع نفقات هذه الاعمال يبلغ ٤٣٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه ينتظر ان تصل قيمة ما يصرف منها لغاية السنة المالية الحالية حوالي ١٣ مليون جنيهاً والباقي هو ما يلزم صرفه في مدى العشرين السنة القادمة بمعدل سنوي متوسطه حوالي ثلاثة ملايين جنيه في الثلاث السنوات الاولى ومليونان في التسع السنوات التالية ثم يهبط هذا المتوسط الى حوالي ٣٠٠٫٠٠٠ جنيه في السنوات الباقية

وتقدر قيمة الاعمال التي يستلزمها التوسع في المرحلة الثانية أي بعد سنة ١٩٥٣ ما يأتي : —

انشاء خزان تسانا	٢٫٧٠٠٫٠٠٠	جنيه
« قناة السدود	١٠٫٠٠٠٫٠٠٠	«
« خزان بحيرة البرت	٣٫٠٠٠٫٠٠٠	«
« « « كيوجا	٢٫٠٠٠٫٠٠٠	«
تقوية قناطر اسنا	٨٠٠٫٠٠٠	«
استصلاح اراضي بور شمال الدلتا	١١٫٠٠٠٫٠٠٠	«
تحويل باقي الحياض بالوجه القبلي	٩٫٠٠٠٫٠٠٠	«
	٣٨٫٥٠٠٫٠٠٠	«

أي ان مجموع ما ستصرفهُ الحكومة على اعمال التوسع حتى آخر القرن الحالي تربي على ٨٠ مليون من الجنيهات . ولا شك ان البلاد ستجني من وراء تنفيذ هذه الاعمال أضعاف ما تنفقهُ عليها . ولو اننا رجعنا الى ما صرف على خزان أسوان منذ انشائهِ الى تعليته الاولى وقدرنا الفائدة منهُ لوجدنا أنهُ عاد على البلاد بالربح الوفير . واني أضع أمامكم فيما يلي موازنة بين النفقات التي صرفت على هذا الخزان والفوائد التي جنتها البلاد منهُ : —

بلغت نفقات انشاء الخزان	٣٫٠٥٠٫٠٠٠	جنيه
« « تعليته الاولى	١٫٥٠٠٫٥٠٠	«
	٤٫٥٥٠٫٥٠٠	«

واستخدمت مياهه لاستصلاح حوالي ٣٠٠٫٠٠٠ فدان من الاراضي البور في الوجه البحري وتحويل نحو ٤٥٠٫٠٠٠ فدان من حياض الوجه القبلي الى الري المستديم . فاذا قدرنا ان ما انفقتهُ الحكومة في عملية تحويل الاراضي الحوضية كان بمعدل ١٢ جنيهاً للفدان . وفي شق الترع والمصارف للاراضي البور خمسة جنيهات للفدان . وان ما صرفهُ الاهالي في الاراضي الحوضية كان بمعدل ٤ جنيهات للفدان وفي الاراضي البور ١٢ جنيهاً للفدان فان جملة النفقات تكون : —

(١) — ما أنفقتهُ الحكومة

نفقات انشاء الخزان وتعليته الاولى	٤و٥٥٠٫٠٠٠ جنيه
تحويل الحياض ٤٥٠٫٠٠٠ × ١٢	٥٫٤٠٠٫٠٠٠ «
استصلاح البور ٣٠٠٫٠٠٠ × ٥	١٫٥٠٠٫٠٠٠ «
	١١٫٤٥٠٫٠٠٠ «

(٢) — ما أنفقهُ الاهالي

تحويل الحياض ٤٥٠٫٠٠٠ × ٤	=	١٫٨٠٠٫٠٠٠ جنيه
استصلاح البور ٣٠٠٫٠٠٠ × ١٢	=	٣٫٦٠٠٫٠٠٠ «
		٥٫٤٠٠٫٠٠٠ «
فيكون مجموع النفقات	=	١٦٫٨٥٠٫٠٠٠ «

وقد زادت قيمة الاراضي البور بعد استصلاحها بمعدل ٧٠ جنيهاً للفدان وارتفعت اثمان الاراضي الحوضية بعد ان تم تحويلها بمعدل ٥٠ جنيهاً للفدان وبذلك تكون الفائدة التي عادت على ثروة البلاد من التوسع في المساحات المذكورة : —

(١) تحويل الحياض ٤٥٠٫٠٠٠ × ٥٠ =	٢٢٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه
(٢) استصلاح الاراضي البور ٣٠٠٫٠٠٠ × ٧٠ =	٢١٫٠٠٠٫٠٠٠ «
	٤٣٫٥٠٠٫٠٠٠ «

وهناك فائدة أخرى عادت على هذا التوسع بزيادة الايراد السنوي الذي تأتي بهِ الاراضي الجديدة التي استصلحت والتي حولت لتروى بنظام الري المستديم فاذا قدرنا الزيادة في ايراد اراضي الحياض التي تم تحويلها بمعدل ٣ جنيهات للفدان سنويًّا وان قيمة ايراد الفدان البور بعد استصلاحهِ بمعدل ٥ جنيهات للفدان سنويًّا وهي أرقام متواضعة كما ترون لكانت الزيادة في الايراد كما يأتي : —

(١) تحويل الحياض ٤٥٠٫٠٠٠ × ٣ =	١٫٣٥٠٫٠٠٠ جنيه
(٢) استصلاح الاراضي البور ٣٠٠٫٠٠٠ × ٥ =	١٫٥٠٠٫٠٠٠ «
المجموع	٢٫٨٥٠٫٠٠٠ «

ومن هذه الارقام ترون ما لقيته البلاد من الربح بعد خزان اسوان وتستنتجون ما ستلقاه من وراء انفاقها على اعمال التوسع المستقبلة

مصطلحات علم النفس

ومشكلة ترجمتها وتعريبها

لمحمد مظهر سعيد
استاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية اصول الدين

٣ — الفكر والتفكير

يجد المتتبع لترجمة مصطلحات هذا الموضوع الهام في علم النفس نوعاً جديداً من التخبُّط في المؤلفات العربية . فقد اتفق الكتّاب والادباء والمؤلفون والمترجمون على اتخاذ كلمة فكر او تفكير ترجمة لكلمتي Thought و Thinking الانكليزيتين ولكنهم تخبطوا في تحديد معنى العمليات العقلية التي يصح ان يطلق عليها كلمة تفكير ، تخبطاً يستحيل معهُ على الباحث ان يعرف بالضبط حدود هذه العملية ووظيفتها والفوارق الجوهرية التي تميزها عن غيرها من وظائف العقل . فالادباء والكتّاب من ناحية اطلقوا كلمة التفكير من غير قيد او تحديد ، على كل عملية يقوم بها العقل سواء أكانت مجرد تذكر حادثة قديمة او استحضار صورة ذهنية لشيء معروف او التأمل في امر يتمناه الانسان ويشتهيه او يشعر نحوه شعوراً خاصًّا او تدبُّر مستقبله وكيف يرجو ان يكون من غير ادنى تفريقٍ بين ما هو حاضر امامهُ يدركه بحواسه وما هو غائب عنهُ يعرفهُ بصورتهِ او ذكراه . فأصبح المعنى الدارج يتضمن كل سانحة شاردة وكل ذكرى تافهة . وكل حلم من احلام النهار واليقظة . وكل ما يترى في الذهن من حلقات متنافرة متناثرة غير منسجمة ولا متصلة ليست من التفكير الصحيح في شيء

وخطا رجال التربية وعلم النفس خطوة قصيرة فأطلقوه من ناحية اخرى على الفكرة التي تخطر في الذهن عن شيء او شخص لا يكون موجوداً ولا يدركه العقل عن طريق الحس كالذكريات والصور والخيالات — ونحا بعضهم نحو قدماء علماء النفس في الغرب فاعتبروا التفكير مرادفاً لمراتب الادراك المختلفة من ادراك المحسوسات الى العلاقات بين المواقف المحسوسة الى الاستقراء والملاحظة فالتجريد والتعميم والقياس الى التعليل في حين ان لكل من هذه العمليات العقلية شخصيتها التي تحتفظ بها وان اندمجت معاً في المواقف العقلية المعقدة . وسيجد القارىء من هذه المقتطفات أنهم الى جانب هذا اطلقوا الفكر (او التفكير) على هذه العمليات التي لا تمت للتفكير بصلة كالتحصيل والحفظ والاستظهار والانتباه والتصور والارادة . وهذه الامور التي تتصل

بالفكر اتصالاً وثيقاً ولكنها ليست منهُ كالفهم وادراك المعنى والعلاقات وادراك الكليات

١ — يقول المرحوم الشيخ شريف (ص ٣٥) الفكر هو قوة للنفس تتمكن بها مع استخدام العقل من الحصول على المعارف وحفظها واستحضارها (وهذا يقصد بهِ الذاكرة . وغريب جداً ان يفرق بين العقل والفكر)

٢ — ويقول الجارم (ص ٩٧) توجيه النفس وحصر « الفكر » في الحادث (وفي ص ٩٨) الانتباه توجيه « الفكر » وحصره فيما يعرض عليهِ من الاشياء (فهو في الاولى يقصد الانتباه وفي الثانية الشعور جملة)

٣ — ويقول قنديل (ص ٧٥) عند المقارنة بالتخيل : التفكير هو تكوين رأي في الصورة. فهو يشمل الصورة وما تدل عليهِ من حيث معناها وقيمتها (وأفهم من هذا انهُ يقصد التصور ولكني لست افهم معنى الحكم على الصورة الا اذا قصد بها المشكلة او الموقف الذي يفكر فيهِ الانسان وهذا ليس صورة . لأن الصورة الذهنية لا تتطلب حكماً)

٤ — ويقول الجارم (ص ١٠٧) وهو يمثل لضعف الارادة : كأن يظل الطفل مشتت الفكر (ومعنى الفكر هنا غير واضح على الاطلاق وكذلك العلاقة بين الفكر والارادة)

٥ — ويقول الشيخ شريف (ص ٩) — حركة النفس في فهم حقائق الاشياء ونسبها تسمى فكراً (وهذا يتضمن المعنى الصحيح للتفكير لولا انهُ استخدم كلمة الفكر بدون توضيح)

وفي (ص ٧٣) : أثر القوة الفكرية في تدبر المعاني (ومعنى تدبر هنا غير واضح على الاطلاق) وزاد الامر تعقيداً بقوله (ص ٧٧) اسناد الاشياء بعضها لبعض يسمى حكماً وتعقلاً او تفكراً او تصرفاً الخ

٦ — ويقول قنديل (ص ١٥٨) التفكير هو موازنة شيء بغيره لادراك ما بينهما من علاقات قريبة او بعيدة . او ادراك ما بين الاشياء بعضها وبعض من اوجه الشبه (وقصر التفكير على خطوة واحدة من خطواتهِ وهي ادراك العلاقات والاقتصار في العلاقات المدركة على مجرد الشبه والتشابه نقص كبير)

٧ — وحدد (في ص ١٥٨) انهُ عملية ادراك الكلي نفسها وهذا تحديد غريب في بابهِ لان ادراك الكلي هو مجرد خطوة من خطوات التفكير وليس التفكير كله

اما التعليل Reasoning وهو نوع من انواع التفكير يقصد بهِ البحث عن علة الاشياء او اسباب المواقف فلم يحددها واحد منهم غير واصف بك فقد ترجمها في قاموسه بالقياس الفكري او النظر ولكنهُ قصر التعليل بهذه الترجمة على القياس واخرج الاستقراء الذي هو خطوة هامة من خطوات التعليل . فهل يستطيع القارىء الذي لم ينل قسطاً كبيراً من دراسة علم النفس الحديث في المراجع الغربية بلغاتها الاجنبية ان يعرف بالتحديد معنى التفكير والفوارق الجوهرية بين هذه العملية الهامة وغيرها من العمليات العقلية

ولكننا مع هذا نلتمس العذر كل العذر للمؤلفين والمترجين . فقد وقع علماء الغرب الذين نقلوا

عنهم في نفس هذا الخطأ حتى ادرك المحدثون ان التفكير الصحيح لا يتعين فيهِ ان تتوالى الوحدات بعضها وراء بعض وتتعاقب وترتبط مجرد ارتباط فحسب . بل لا بد لها ان ترتبط ارتباطاً محكماً بحيث تستند كل خطوة الى سابقتها . وتحدد التي تأتي بعدها فتكون حلقة متصلة في سلسلة الافكار . وكذلك لا يكون مجرد التأمل في شيء غير حاضر للحس تفكيراً . فقد يتخيل المرء حادثة منسجمة الاتصال . مترابطة الاجزاء كما يفعل القصصيون والروائيون من غير قصد اثبات شيء او نفيه او الاعتقاد في حقائق او نظريات او التصرف في موقف «عن طريق ايجاد العلاقات الصحيحة بين اجزائهِ حتى نستطيع الحكم عليهِ جملة في حدود هذه العلاقات التي يصبح الموقف بدونها عديم المعنى »[1]

فالتفكير بمعناه الحديث — الذي حدده الفيلسوف الامريكي جون ديوى وعنهُ اخذت المدارس الحديثة — « هو العملية العقلية التي يقوم بها العقل عند شعوره بأنهُ يواجه موقفاً معقداً غير مألوف لديهِ او مشكلة جديدة تتطلب منهُ ان يتصرف تصرفاً خاصًّا مقيداً بالظروف والعلاقات القائمة فعلاً — او التي يستنبطها العقل — بين اجزاء هذا الموقف . او بين هذا الموقف وموقف آخر يتصل بهِ او يماثله»[2] .وبعبارة اخرى «هو عملية عقلية يكيف بها الانسان نفسه حتى يتصرف في الموقف الذي يجدُ لهُ ويشعر المفكر ذاته بهذه الملاءمة ولو كان الموقف حسيًّا بحتاً »

فالاصل في التفكير اذن وجود مشكلة متشعبة الاطراف لها حل واحد او جملة[3] حلول يجدها العقل او يفضل واحداً منها على البقية — او حالة ارتباك وشك تدفع العقل الى محاولة ايجاد مخرج منها او الوصول الى نظرية او رأي او مشروع تحل بهِ عن طريق البحث وكشف الحقائق التي تساعد على الوصول الى الحل

وعلى وجه العموم لا يصح لنا أن نسمي العملية العقلية تفكيراً الاَّ اذا تضمنت العناصر الآتية :

(١) — الشعور بضرورة التصرف في المشكلة القائمة (٢) — تقدير القيم النسبية للموقف واجزائه وادراك ما بينها من علاقات وتعليل الموقف لاستخلاص نتيجة معينة (٣) — الحكم على الموقف او الموضوع بالصحة او البطلان

وفي ضوء هذا الرأي يصح ان نعتبر ان التفكير يتم في كل مستويات الادراك وليس هو بقاصر على مستوى ادراك الكليات كما كان يقول قدماء علماء النفس والمنطق . في مرتبة الادراك الحسي يكون موضوع التفكير خاصًّا محدوداً مميزاً وفي الادراك الكلي يكون معقداً متناولاً لمجموعات كاملة او كليات مجردة عن الحس وهو كذلك يتضمن كل عمليات المقابلة وفرض الفروض والتجربة والتعليل والحكم التي كانت ولا تزال تعتبر في المنطق عمليات قائمة بذاتها

فاطلاق ترجمة التفكير على الاحساس والتذكر والتصور والخيال خروج عن الموضوع — وعلى مجرد ادراك العلاقات او الكلي او الحكم والتعليل تقييد مخل لا معنى له — وعلى الفهم والتأمل توسع غير مقبول . ومن شاء المزيد فليقرأ كتابي في الادراك والتفكير « علم النفس النظري والتعليمي »

---

(١) Betts : Mind & its Education (٢) Dowey : How We Think

(٣) Collins & Drever : Exp.Psychology

بماذا تتفوق السلالات

أبالدم تفوقها ام بالبيئة

على ذكر القول بتفوُّق السلالة النوردية

قلما يختلف اثنان في ان السلالة النوردية — السلالة التي تنطوي تحتها شعوب اوربا الشمالية — سلالة عظيمة ولها مكانة خطيرة في تاريخ الحضارة ولكن اذا ادَّعى احد بأن السلالة النوردية هي اعظم السلالات البشرية على الاطلاق ، وان جميع الحضارات الراقية من بنائها ، هبَّ غير واحد من العلماء لتحدّي هذا القول وردّه

مثل هذه الاقوال المتطرفة ، وخاصة اذا ارسلت باسم العلم ، دليل على ان شؤون الحياة العاطفية ، تميل بالعقل عن ميزانهِ العادل . فاذا كنا نورديين وقيل لنا القول المتقدم عن تفوق السلالة النوردية ، آمنَّا بصحتهِ ، لانهُ يرضي في نفوسنا ، عزتها وكرامتها ، فاذا نحن اقتنعنا بتفوق سلالتنا الخاصة ، او عقيدتنا الخاصة ، او بلادنا الخاصة ، صار من السهل علينا ان نستنبط الادلة ، التي تؤيد هذا الاقتناع . حتى العلماء ، يتعرضون لمثل هذا المزلق الخطير . فنهم من يرى رأياً علميًّا ، ويقتنع بهِ ، فيروح يبحث عن الادلة التي تؤيدهُ ، ولو كان يحتاج الى كثير من العنت في سبيل ذلك

وليس في الدعوى القائمة على تفوق السلالة النوردية شيء جديد ، بل هي ناحية جديدة من مذهب سرى في خلال القرن التاسع عشر مؤداه ان بعض طوائف من الناس لها حق منزَل في ان تسود الطوائف الاخرى . ومن قبل ذلك احسَّ المؤلف الانكليزي دانيال ديفو مؤلف رواية روبنصن كروزو بانهُ مطالب من قبل نفسه ، بل ومن قبل الحق والعدل ، بأن يهبَّ الى السخرية من مثل هذا الرأي الذي يرمي الى تبويء سلالة معينة المكانة العليا في تاريخ الانسانية كأن هذه المكانة خاصة بها من طريق الوضع الالهي . ولكن العواطف الانسانية قوية لتأصلها في الطبيعة البشرية ، فتطغى على صوت العقل ونوازع المنطق ، فتبدو نظرية « التفوق العنصري » او « تفوُّق سلالة خاصة » مرة بعد اخرى في خلال عصور التاريخ مع ان العقل والعلم لا يؤيدان الاركان الواهية التي تقوم عليها

ونحن الآن نشهد انبثاق هذه الفكرة او هذه النزعة من جديد بعد ما كنا قد ظننا انهُ قُضي عليها في اواخر القرن التاسع عشر

ونظرية « التفوق النوردي » هي فرع من نظرية التفوق الآري (اي تفوق الشعوب الآرية) التي كان زعيمها ذلك الارستقراطي الفرنسي كونت جوزيف أرثر ده جوبينو الذي توفي سنة ١٨٨٢ . فده جوبينو هذا ، ذهب الى ان الشعوب الآرية وحدها دون غيرها هي التي خلقت كل ما له قيمة في الحضارة ، وحافظت عليهِ . وفكرة وجود سلالة آرية ، نشأت من تشابه اللغات الهندية الاوربية ، مما حدا الى القول ، بانها جميعها ترتد الى اصل واحد ، هو اللغة الآرية . والقول بتفرع اللغات الهندية الاوربية من اللغة الآرية ، قول له سند علمي صحيح . اما ما ذهب اليهِ جوبينو من ان وجود لغة آرية اصلية — تفرعت منها اللغات الهندية الاوربية — يقتضي كذلك وجود سلالة آرية فقد كان وهماً من الاوهام

فلما خلقت هذه السلالة الموهومة على الطريق المتقدم ، أُسندت اليها جميع الفضائل ، وقيل انها منبع جميع الحضارات العالية ، من قديم الزمان الى حديثه ، . وقيل ان النورديين ، هم سلالة الآريين الذين توطنوا شمال اوربا في القِدَم ، ومنهم الشعوب التوتونية والانجلوسكسونية .ومع ذلك لم يستطع احد من العلماء ان يأتي بسند علمي واحد، على ان السلالة الآرية كانت موجودة حقيقة ، إذ ليس ثمة علاقة حتمية ، بين اللغة والسلالة . « فالآرية » لغة ، واستعمالها للدلالة على سلالة معينة — كما يستعملها الالمان اليوم — ليس له مسوّغ علمي واحد

اما الشعوب النوردية فلا يعلم اصلهم على وجه التحقيق ، بل ليس من المؤكد انهم ينتمون الى سلالة صريحة النسب

ومهما يكن من اصل الشعوب النوردية ، فلا ريب في انهم كانوا شعوباً جمة النشاط . ثم لا ريب كذلك في ان دماءهم التي اختلطت في فترات مختلفة من التاريخ بدماءِ بعض الشعوب في اوربا الجنوبية ، كان لها اثر كبير في ارتقاء جنوب اوربا . ولكن هذا القول يمكن أن يطلق على شعوب مختلفة . فان اختلاط شعبين ، من سلالتين مختلفتين ، اذا كان الشعبان نشيطين متفوقين في استعدادهما الحيوي والذهني ، لا بدَّ ان يسفر عن شعب جديد متفوق في الغالب على الشعبين اللذين نشأ منهما

وليس في امكان العلماء ، والعلم في حالته الراهنة ، ان يقولوا ، بان سلالة بعينها من السلالات ، —او طائفة من سلالات — متفوقة بطبيعة تركيبها ونشأتها على السلالات الاخرى . بل انهم لا يعلمون هل بين السلالات هذه الفروق التي تجعل السلالة الواحدة متفوقة على الاخرى ، لانهم لم يستنبطوا حتى الآن مقاييس لقياسها . نعم لقد ابتدعت مقاييس الذكاء ، ولكن هذه المقاييس ، لا تقيس الأ أثر البيئة والثقافة في الذكاء ، وقلما تستطيع ان تقيس الذكاء الاصلي ، الذي لم تؤثر فيهِ عوامل البيئة والثقافة

ومع ذلك تستمر خرافة تفوّق السلالة النوردية فيقول اصحابها ان مجد اليونان عائد الى الشعوب النوردية التي غزت بلاد اليونان ، وان روما استطاعت ان تحافظ على عظمتها طوال ما احتفظت بدمها الآري نقيًّا غير مدخول ، وان قيام الحضارة الاسبانية يعود الى دماء القوط الذين غزوها ، وان انحطاطها بدأ لما اختلط هذا الدم بدماء الشعوب الاخرى ، وان عصر الاحياء في القرون المتوسطة وما بعدها كان ظاهرة نوردية بحتة

***

فلننظر الآن في المبادىء التي تقوم عليها هذه الدعوى . اي صحة في قول القائل بان اليونان والرومان والاسبان كانوا نورديين صراح النسب لما كانوا في اوج عظمتهم ؟ من الصعب ان تعين العناصر المختلفة التي تدخل في بناء امة من الامم في فترة ما من فترات تاريخها ولكننا نستطيع ان نتيقن من شيءٍ واحد ، وهو ان الحروب والغزوات والفتوحات المختلفة قبل عهد التاريخ المدوّن ، وفي فجر التاريخ ، كانت من بواعث اختلاط الشعوب بعضها ببعض وان دماء سكان اوربا في عهد اليونان ثم في عهد الرومان لم تكن صريحة من ناحية السلالة على الاطلاق . والقول بان الشعوب الرومانية واليونانية كانت صريحة السلالة لا تقوم الاّ على الرغبة في تصديق هذا القول . وليس لها اي سند من المباحث الانثربولوجية . فالعلامة دكسون يقول ان الاسبرطيين — وهم في نظر دعاة النوردية شعب نوردي حر — من الشعوب الالبينية . وكذلك الاوترسكانيون كانوا يحسبون نورديين ولكن هرتز يقول في كتابه « السلالة والحضارة » ما يأتي : « وثمة حقيقة واحدة ثبت ان لا ريب فيها وهي ان هؤلاء القوم لم يكونوا من النورديين ولا من الهنديين الجرمانيين « Indo—Germans »

ومجرد التناقض بين دعاة « النوردية » يكفي للقضاء على مكانتها من الوجهة العلمية . فبعضهم يحسب ان النهضة او الاحياء في ايطاليا ، نتيجة لاختلاط الدماء التوتونية بدماء الايطاليين في عصر انحلالهم . أما ده جوبينو ، وهو منشيء هذه الفكرة في القرن التاسع عشر ، فيؤكد ان النهضة (الرينيسانس) من آثار قوًى غير توتونية . وليس هذا بالمثل الوحيد على تناقضهم

***

قد يكون من الحمق ان تنكر اثر السلالة في نشوء الامم وارتقاء الحضارة ولكن من الصعب ان تفرق بين اثر السلالة وأثر العوامل الاخرى المتعددة في نشوء الامم وارتقاء الحضارة . على ان الذين يقولون بتفوق بعض السلالات على غيرها ، يتجاهلون هذه العوامل الاخرى ، كل التجاهل . فمن يقول بأن حضارة اسبانيا ترتد الى الدم النوردي ، وان انحلالها يرتدّ الى ضعف هذا الدم باختلاطه بدماء الشعوب الاخرى ، يغضي او يتغاضى ، عن اثر العوامل الاخرى في تقدم الحضارة الاسبانية كالعوامل الجغرافية والاقتصادية على اختلافها . واذ جارينا اولئك على ما يقولون — وهو ان النورديين هم سبب حضارة اسبانيا — فكيف نستطيع ان نعلل ان حضارة المغاربة في اسبانيا ،

كانت مدى عهد طويل ، ارقى الحضارات الاوربية ؟ او هل نستطيع ان نقول ان المغاربة من اصل نوردي ؟ !

قد يكون من السهل ان نفند مزاعم « النورديين » . ولكن ليس من السهل ان نعلل ، تعليلاً وافياً ، قيام الحضارات وانحطاطها . فالمسألة معقدة كل التعقيد . وقد لا يمكن حلها على الاطلاق . وانما نستطيع ان نشير الى امر واحد ، يحملنا على الحذر في اصدار مثل هذه الاحكام . فشمال اوربا مضى عليهِ قرون عديدة ، وهو مباءة شعوب نوردية ، صريحة في نورديتها الى حد بعيد ، ولكن شمال اوربا هذا ظل غير متمدن ، بمعنى التمدن الحديث الى عهد قريب في التاريخ . بل انك لا تستطيع ان تدعي ان حضارة ابتدعت في شمال اوربا . وان النورديين لم ينشئوا قط حضارة خاصة بهم مميزة لهم ، في موطنهم هذا . فهل كانوا عاجزين عن ذلك ؟

اننا نعلم ان الحضارة بدأت اولاً في اقاليم جنوبية ، تقطنها سلالات غير السلالة النوردية — في الهند والعراق ومصر وكريت — هذه البلدان كانت مواقع الحضارات الاولى . ثم انتقلت الحضارة رويداً رويداً من شرق بحر الروم الى اواسطه الى غربه ، ثم الى البلدان الشمالية . وكذلك لم يكن للشعوب النوردية اي شأن في ترقية الحضارة او ابتداع اصولها وأركانها ، قبل ان انتهت اليهم حضارات البلدان التي ذكرنا ، بعد مطافها الطويل من شرق بحر الروم الى غربه خلال العصور

واذا كانت السلالة هي العامل الوحيد ، او العامل الرئيسي في قيام الحضارة ، فلماذا ظل اولئك النورديون الشقر في شمال اوربا ، في حال الهمجية ، بينما كانت الشعوب الاخرى غير النوردية تخترع حروف الهجاء ، وتبني الامبراطوريات ، وتستكشف سطح الكرة ، وتربط بين اجزائها بروابط التجارة ؟ ثم كيف نعلل تقلدهم — اي النورديين — زعامة الحضارة بعد همجية طويلة ، لم يتغير في خلالها تركيبهم العنصري ، تغييراً كبيراً ؟

***

كل هذه الامثلة تبين ما للعوامل الجغرافية والتاريخية من اثر في توجيه مصير الامم . فالجزر البريطانية بموقعها الجغرافي كانت بعيدة عن تيارات التجارة والثقافة ، اذ كانت هذه التيارات محصورة في بحر الروم . فحال ذلك دون بلوغها مكانة عالية في شؤون العالم — قبل القرن الخامس عشر . فلما كشف كولمبوس اميركا وبدأ « العهد الاتلنتيكي » في تاريخ العالم اصبحت بريطانيا فجأة ، وكأنها على خشبة المسرح العالمي

فموقعها في الطرف الشمال الشرقي من المحيط الاتلنتيكي ، مواجهةً للعالم الجديد ، خصها بامتيازات مكنت اهلها من تقلد الزعامة العالمية . وعلى الضد من ذلك كانت ايطاليا ، في مركز العالم لما كانت الحضارة محصورة في بحر الروم ، فلما انتقلت الى المحيط الاتلنتيكي ، فقدت مكانتها ، ذلك أنهُ لما

كشفت الطريق البحرية الى الهند ، حول جنوب افريقيا ، فقد بحر الروم مكانته كسبيل للتجارة العالمية ، وانحطت المدن الايطالية ونقصت ثروتها

فاذا نحن تدبرنا كل هذا ، لم نستطع بحال من الاحوال ان نسند انحطاط ايطاليا ، الى عوامل السلالة والدم دون غيرها

***

ثم توالت المكتشفات والمخترعات ، فأضيف الى العامل الجغرافي في قيام الحضارات ، وارتقاء الامم ، عامل جديد . فالآلة البخارية والعصر الصناعي الذي تلاها ، احدثا انقلاباً سياسيًّا وتحولاً اقتصاديًّا . ففي خلال القرنين الماضيين كان تفوّق الامم ، يكتسب في الغالب بمقدار ما تملكه من الطاقة المحركة (عدد الاحصنة البخارية) والقوة البخارية المحركة تعني حديداً وفحماً . فمن الحمق ان نتجاهل الحديد والفحم في درس تفوق السلالة النوردية ، وان نتكلم عن الدم فقط . وقد يكون من الصعب ، ان نعين مدى اثر الفحم والحديد ، في تاريخ بريطانيا والولايات المتحدة ، ازاء العوامل الاخرى ، ولكن الراجح انهُ لولا وجود مناجم الفحم الغنية في بريطانيا والولايات المتحدة ، لكان تاريخ القرنين الاخيرين غير ما كان

***

فتاريخ كل حضارة ، كحياة كل انسان ، تفاعل دائم بين الوراثة والبيئة . فالجغرافي يقدم عوامل البيئة ، وقد اشرنا الى بعضها . وليس الغرض من هذا المقال ان نقابل بينها ، وبين العوامل الاخرى ، وانما الغرض ان نثبت ان عوامل البيئة تعين حدوداً ، قد لا تستطيع الامة ان تتعداها . فشعوب المايا في اميركا المتوسطة انشأت حضارة عالية . ولكن القول بأنها شعوب منحطة لانها لم تعادل في حضارتها حضارة اليونان ، جهل وحمق . ذلك ان هؤلاء الناس انشأوا حضارة وهم لا يملكون حديداً ولا حيوانات لحمل الاعباء فبيئتهم لم تمكنهم من هذين العاملين المهمين

اننا لا ندري ما كان اليونان يستطيعون ان يفعلوا لولا الخيل والماشية والحديد . وهذا كلهُ ورثوه من شعوب اخرى . أما بيئة شعوب المايا فلم تتح لها هذه المزايا . ومع ذلك فبعض العلماء يقول ان شعوب المايا فاقت اليونان في بعض النواحي

وليس ثمة اية فائدة تجنى من هذه المقابلات . لانها لا تفيدنا شيئاً عن القوى الذهنية مجرّدة عن عوامل البيئة . فنحن لا نعلم البواعث على انحطاط حضارة المايا ولكن لا يحق لنا ان نسندها تحكماً الى ضعف اصيل في السلالة . والعلماء مختلفون في ذلك . فالاستاذ هنتنغتن مثلاً يسندها الى تغيُّر الاقليم . وأدلته في هذه الناحية مقنعة . فالسلالة عامل واحد من عوامل الحضارة ، كالموقع الجغرافي والاقليم والتربة والحيوانات والنباتات والمعادن [عن السيتنفك اميركان بتصرف يسير]

البحث عن الثروة المعدنية

بالقطر المصري

للدكتور حسن بك صادق[1]
مراقب مصلحة المناجم والمحاجر

سادتي : في البلاد رغبة ملحة تظهر واضحة عند كل مناسبة في اجتماعات مجالسنا النيابية وعلى صفحات جرائدنا ومجلاتنا وفي الاسئلة التي توجه الينا بين آونة واخرى من كل من يهتمون بشؤون البلاد الاقتصادية للوقوف على ثروة مصر المعدنية والمدى الذي يمكن الاعتماد عليها عند تقدير الثروة الأهلية العامة وللبلاد في هذه الرغبة خير قدوة في شخص مليكها العظيم فؤاد الأول الذي يحبو بعطفه الكريم جميع القائمين بشؤون التعدين في مصر ، وقد أولاهم عام ١٩٢٧ شرف زيارتهم في اماكنهم النائية والوقوف بنفسه الغالية على ما يبذلونه من جهود . وقد سنّ حفظه الله بتلك الزيارة سنّة اتبعها من بعده الكثيرون من اولي الامر فكانت لزياراتهم خير الثمرات

وليست هذه الرغبة للوقوف على ما قد يكون للبلاد من ثروة معدنية كمينة فحسب ، بل هو مظهر من المظاهر التي تجلت في السنين الاخيرة نتيجة ما نشعر بهِ جميعاً من ان الزراعة وان كانت هي العماد الاكبر لثروتنا الاهلية والتي تتجه نحو انمائها اعظم جهودنا لا يجب ان تنفرد دون غيرها باهتمامنا بل يجب ان تتجه جهود بعض ابنائنا وجهة الصناعة والتجارة حتى تقوم مدنيتنا الحديثة على أساس استقلالنا في كل ما يمكن ان نستقلّ فيهِ من المرافق عن البلاد الأخرى

وللثروة المعدنية من خامات ووقود علاقة وثيقة بمختلف الصناعات فلا تقوم لهذه قائمة الاّ اذا توافرت لها بعض ما يلزمها من خامات في داخل البلاد او كلّهُ

تلبيةً لهذه الرغبة وتطميناً لجميع من يهتمون بمرافق الدولة الاقتصادية ، رأينا ان نعرض على حضراتكم بياناً مختصراً للجهود التي بذلت فيما مضى وما يبذل في الوقت الحاضر وما يجب ان يبذل في المستقبل للوقوف على كنه الدفين من هذه الثروة في الاراضي المصرية وما يجب ان يتخذ من الاجراءات نحو استثمارها والاستفادة منها في اقامة صناعات مصرية لسد حاجة البلاد والتصدير

ولكي تقدروا تقديراً صحيحاً عظم هــذه الجهود التي يجب ان تبذل في البحث نذكركم بأنّ مساحة القطر المصري تبلغ نحو ٢٤٠ مليون فدان منها ٧ ملايين فقط هي الاراضي المزروعة او

(١) محاضرة القيت في المؤتمر السنوي الذي عقده المجمع المصري للثقافة العلمية في الاسبوع الثاني من شهر ابريل الماضي

القابلة للزراعة في وادي النيل والدلتا اي ما لا يزيد عن ٢ في المائة من مجموع المساحة . اما السبعة والتسعين الباقية فهي أراض صحراوية يعوزها الماء صعبة المواصلات غير مأهولة الاّ بالنذر اليسير من البدو الرحل الذين لا يفقهون من أمور الحياة سوى رعي الابل والاغنام . فهذه المناطق الشاسعة لا أمل لها في الحياة الاّ بقدر ما قد يوجد في بطون صخورها من ثروة معدنية دفينة

ولا شك أنكم تقدرون ان المجهود الذي يجب ان يبذل في فحص هذه القفار الشاسعة تحت هذه العوامل القاسية يجب ان يكون مجهوداً جباراً منظماً متصلاً يستمرّ بغير كلل او ملل مدى سنين كثيرة وبغير ان يكون لما يناله في أي مرحلة من مراحله من نجاح او اخفاق اي أثر في استمراره

هذا المجهود يتطلب من القائمين بهِ أن يكونوا شديدي الثقة والايمان في المهمة التي القيت على عواتقهم وأن يكونوا قد تزوّدوا من علوم التعدين والجيولوجيا احدثها . وان يكونوا ذوي أناة وصبر على الشدائد ، ورضى بشظف العيش ، راضين بما قسم لهم قانعين بما ينال عملهم من نجاح وان لم يعد عليهم شخصيًّا بربح مادي فعلى الاقل بالشعور أنهم يقومون نحو وطنهم بخدمة من أجلّ الخدمات وأشرفها

ولا تقف صعوبة ظروف الصحراء عند حدّ عمليات البحث بل تلازم ايضاً عمليات الاستغلال فوسائل العمل والنقل وتدبير الماء والوقود والعناية بالعمال وتغذيتهم بحاجتهم من ماء ومأكل ، كل ذلك يتطلب ممن يقومون بتدبير شؤون العمل في المناجم المصرية حيلة واسعة لاستنباط وسائل تجمع بين القصد في النفقات والكفاية للعمل . وقد يكون من ألذّ الدراسات الاحاطة بما يبتدعه مهندسو المناجم المشتغلون في الصحاري المصرية من وسائل لمقابلة ما يصادفهم من عقبات ومغالبتها والتغلب عليها

امام هذه الظروف القاسية وما يتطلبهُ التغلب عليها من نفقات احياناً ما تكون طائلة قد يتعذر على الفرد وحده ان يقوم بمجهود موفق في البحث بل يجب ان يضطلع باعبائهِ جماعة او شركة او الحكومة المصرية نفسها . والاخيرة بحكم ملكيتها للاراضي التي تستكن في بطونها الخامات المعدنية وبحكم ما لها من الهيمنة على انماء الشؤون الصناعية في البلاد يقع عليها قبل غيرها واجب البحث عن المعادن وتشجيع استثمارها

وقد كانت هذه الحال منذ أقدم عصور التاريخ المصري فكان فرعون مصر هو الذي يوفد البعثات للبحث عن الذهب والنحاس والاحجار الكريمة في مجاهل الصحاري

وفي خزائنه كانت تودع المعادن التي تعود بها هذه البعثات . وكان هو الذي يتولى توزيعها على اتباعهِ وحتى على من يدينون له بالولاء من ملوك البلاد الاخرى . وفي الخطابات التي تبادلها بعض الملوك الفراعنة مع ملوك الشام وآسيا الصغرى أصدق دليل على ما نقول

وانا لنطأطيء الرؤوس اجلالاً للدقة التي كانت للمصريين القدماء في البحث عن المعادن . فلسنا

مبالغين اذا قررنا انهُ فيما يختص بالذهب على الاقل لم يعثر الباحثون بعد على عرق واحد لم يقم المصريون القدماء بفحصه واستغلاله . ولا يختلف الحال عن ذلك كثيراً في شأن المعادن الاخرى التي كانت لها قيمة عندهم كالمغرة (اوكسيد الحديد) والاحجار الكريمة (الزمرد والزبرجد) والنحاس

كذلك كان هناك نشاط في استغلال مناجم الذهب والاحجار الكريمة كالزمرد والزبرجد والفيروز ابان الحكم العربي الاسلامي ، وكتب المقريزي والمسعودي وغيرهما تفيض بالشرح عن اخبار هذه المناجم وما كان يستخرج منها من كنوز . ولا شك ان استغلالها كان على يد بعثات حكومية كما كان في عهد الفراعنة

تولت مصر بعد ذلك عصور ضعف واضمحلال اضطرب فيها الحال في الصحاري واستوحش البدو القاطنون بها فحالوا دون اي توغل فيها او استغلال لمعادنها فأسدل ستار كثيف عليها وأضحت الصحاري المصرية محوطة بظلام حالك من الاوهام الباطلة ومضى عليها في ذلك بضعة قرون

على انهُ في القرن الثامن عشر كان يفد على مصر من وقت لآخر بعض الرحالة من علماء الفرنسيين والطليان والانكليز نذكر من بينهم Sicard عام ١٧١٧ و Donate ١٧٥٩ — ١٧٦٢ و D'anville عام ١٧٦٦ و Bruce عام ١٧٩٠ وغيرهم

فكان من بين ما زاروه ووصفوه وادي النطرون وبعض جهات الصحراء الشرقية وخاصة جبل الزيت ومناجم الزمرد والزبرجد ومحاجر الالباستر قرب بني سويف ، ولو ان اوصافهم كانت تعوزها الدقة العلمية التي امتاز بها من جاء بعدهم

وفي اوائل القرن التاسع عشر غزا مصر نابليون بونابرت واصطحب معهُ اليها جماعة من كبار العلماء الفرنسيين فكلفهم القيام بدراسة علمية مستفيضة لمختلف الموضوعات الخاصة بمصر فقام من بينهم Valentia عام ١٨٠٩ بفحص مناجم الذهب بوادي العلاقي بالصحراء الشرقية بين اسوان والدر وكذلك Quatremere عام ١٨١١ ففحص مناجم الزمرد بسكيت وزبارا على مقربة من شواطىء البحر الاحمر جنوب القصير

وامتاز من بينهم جميعاً de Roziere بدقة ملاحظاته وواسع اطلاعه وله في كتاب وصف مصر Description de l'Egypte عام ١٨١٣ كتابات قيمة عن الجيولوجيا المصرية ووصف بعض الاحجار التي كانت قد استغلها القدماء واستعملوها في معابدهم وهيا كلهم

ولما استعاد ساكن الجنان محمد علي باشا الكبير مؤسس الاسرة العلوية الكريمة لمصر وحدتها القومية واراد ان يجعل منها بلاداً حية قوية ، رأى انهُ لتحقيق ما كان يصبو اليهِ من اقامة مختلف الصناعات لا بدَّ لهُ من الوقوف على ما في البلاد من ثروة معدنية فاستعان بعدد كبير من علماء الاوربيين جهزهم في بعثات الى مختلف نواحي الصحراء ، وكان يشرف بنفسه على تنفيذ خطته ويتتبع عن كثب النتائج التي وصلوا اليها تباعاً وبهذا بدأت المرحلة الاولى في البحث المنظم عن المعادن المصرية

وقد كان اظهر هؤلاءِ العلماءِ واكثرهم اتصالاً بالموضوع الذي نحن بصدده : —

Caillaud ١٨١٥ — ١٨١٨ الذي قام بفحص مناجم الزمرد فحصاً دقيقاً و Ruppel ١٨٢٩ وكانت جهوده موجهة نحو شبه جزيرة سينا حيث استكشف خامات النحاس والحديد و Sir J. Wilkinson ١٨٣٥ الذي زار جبل الزيت وفحص البترول الذي ينضح على مقربة منهُ . ومواطن الكبريت في جمسا ومحاجر الالباستر قرب تل العمارنة واسيوط ومناجم الزمرد والرصاص وغيرها

و Brocchi ١٨٤١ — ٤٣ أعاد فحص مناجم الرصاص والزمرد والذهب وزار محاجر الحجر السماقي الامبراطوري بجبل الدخان

على ان Russeger ١٨٤١—٤٨ كان اظهرهم جميعاً اذ كان اول من وضع خريطة جيولوجية للقطر المصري مع تدوين اوصاف دقيقة عن بعض المناطق التي تحتوي رواسب معدنية مما سبقت الاشارة اليها

اما Figari Bey ١٨٤٤ فكان من اكثرهم تنقلاً في الصحاري المصرية وطبع خريطة جيولوجية كبيرة الاَّ انهُ كانت تعوزه الدقة العلمية فقد اظهر البحث فساد الكثير من نظرياته . وكان يعتقد اعتقاداً راسخاً في وجود الفحم الحجري وقام بابحاث كثيرة عنهُ بينما كان لا يتفاءل كثيراً في وجود البترول وقد ظهر ان الحال على الضدّ من ذلك فيما بعد

ومن الطليان ايضاً Forni الذي قام بابحاث بأمر والي مصر عام ١٨١٩ ولم تطبع ابحاثه الاَّ عام ١٨٥٩ وقد تناول فيها وصفاً دقيقاً لاغلب المواطن المعدنية المعروفة

ومن اشهر هؤلاءِ العلماء Linant de Bellefond الذي بعثه محمد علي باشا في بعثة نيلية الى ما فوق اسوان فلما ان وصل الى بلدة العلاقي عاق سير سفينته تيار شديد من جراء انحدار مياه السيول من وادي العلاقي فرسا بمركبهِ وفحص الحصى الذي قذفت بهِ السيول فوجد بينها حصيات من الكوارتز الحامل للذهب فدعاه ذلك الى ترك السفينة والقيام برحلة الى اعالي وادي العلاقي فزار مناجم الذهب القديمة في سيجع ودرهيب ووصفها جميعاً عام ١٨٦٨ وصف خبير دقيق . على انهُ لم يصحب وصفه بخريطة تحدد مواضع المناجم التي زارها

هذا قدر مختصر يدل على المجهود الكبير الذي بذله محمد علي باشا للكشف عن ثروة مصر المعدنية واذا لم توفق هذه البحوث الى استغلال المناجم فكان لها على الاقل الفضل الاول في اماطة اللثام عن لغز الصحاري المصرية . وكانت المعلومات التي جمعها هؤلاءِ العلماء والنتائج التي حصلوا عليها نوراً استضاءَ بهِ من جاءَ بعدهم

ولم يكن المغفور له اسماعيل باشا أقل اهتماماً بالمباحث المعدنية او اقل تشجيعاً للقائمين بها من جده العظيم فساعد فيجارى ولينان دي بلفون على الاستمرار في بحوثهما التي شرعا بها قبل توليه حكم مصر كما انه فتح الباب على مصراعيه لغيرهما من الرواد وقد امتاز من بينهم Oscar Fars الالماني عام ١٨٦٧ بمباحثه في سينا وعلى الطريق بين قنا والقصير التي بلغت مبلغاً كبيراً من الدقة

و Bauermann عام ١٨٦٩ الذي كان اول من لاحظ وجود خامات الحديد والمنجنيز بشبه جزيرة سينا وLartet ١٨٦٩ الذي كان اول من اعطى بياناً ضافياً عن الصخور المصرية من الناحية البتروجرافية

وكان من اشهر من جابوا الصحارى في عصر اسماعيل Schweinfurth ١٨٧٥ — ٧٨ الذي ضمن بحوثه في الصحراء الشرقية خرائط دقيقة وكانت لكتاباته أهمية في مباحث البترول بجبل الزيت. وكذلك Karl Von Zittel الذي كان له الفضل عام ١٨٨٠ في تبويب وتهذيب النتائج العلمية التي وصلت اليها بعثة Rholfs الشهير

الى هنا انتهت المرحلة الاولى من مراحل البحث وهي التي قام بها الروّاد بزيارات واسعة المدى لمختلف المناطق. فاذا لم تؤد مباشرة الى استغلال مناجم معينة فكان لها فضل تعبيد الطريق الى البحوث المنظمة فيما بعد. وبدأت المرحلة الثانية بانشاء قسم المساحة الجيولوجية عام ١٨٩٦ وكان انشاؤه على اساس مذكرة قدمها الكابتن (كولونيل) ليونز Lyons مدير المساحة اذ ذاك وكانت عبارة عن مجموعة الادارات الفنية في الحكومة المصرية. والمقدمة التي وضعها الكابتن ليونز لمذكرته توضح الغرض الذي من اجله أنشئ ذلك القسم وقد جاء فيها ما ترجمته :—

« إن الغرض من انشاء قسم للمساحة الجيولوجية هو قبل كل شيء لفحص الموارد المعدنية للبلاد ولتدوين المعلومات عن مختلف الرواسب وبخاصة من بينها تلك التي لها قيمة اقتصادية كالفحم والعروق المعدنية ورواسب الاملاح وغيرها. يأتي بعد ذلك في المقام تدوين هذه المعلومات بطريقة سهلة التناول كوضعها على خرائط وفي مذكرات وتقارير تفسيرية الخ. وبمجرد الوقوف على حقيقة التركيب الجيولوجي لاي منطقة تسهل معرفة الطبقات الصخرية التي يجب اختراقها في اي نقطة وتقدير سمك كل منها بتقريب دقيق »

وقد عقّب الكابتن ليونز على هذه المقدمة بتفصيل الخطة التي اتبعت فيما بعد وعادت بأحسن النتائج كما سنبينه. وقد استعان في تنفيذ خطته الموضوعة بشبان من الانكليز الذين تخصصوا في العلوم الجيولوجية قاموا بأجل الخدمات للجيولوجيا المصرية والبحث عن المعادن في هذه البلاد نذكر من بينهم الدكتور هيوم Hume المستشار الجيولوجي للحكومة المصرية والدكتور بول Ball مدير قسم مساحة الصحارى والذي جعل من مساحة الصحارى فنّاً دقيقاً ذا قواعد علمية ثابتة وبيدنل Beadnell وبارون Barron وغيرهم

فاختصّ كل واحد منهم بناحية من نواحي الصحراء الشاسعة استكشفوها استكشافاً جيولوجيّاً عامّاً ودوّنوا مشاهداتهم في تقارير مستفيضة هي عمدة معلوماتنا الجيولوجية المصرية. ثم قورنت النتائج التي وصلوا اليها جميعاً وبوّبت ووضعت في خريطة جيولوجية مقياس ١ في المليون نشرتها مصلحة المساحة عام ١٩١٠. ويمكننا ان نقرر ان هؤلاء العلماء قد وضعوا بعملهم هذا الاساس العلمي الذي يجب ان يقوم عليه البحث المنظم للكشف عن الثروة المعدنية المصرية.

ولم تكن بطبيعة الحال خريطة عام ١٩١٠ كاملة في كل النواحي على ان العمل المستمر بعد ذلك والذي اشترك فيه جميع من انتظموا بالقسم الجيولوجي قد مكن من سد الفراغ وتصحيح بعض المعلومات حتى ظهرت عام ١٩٢٨ الخريطة الجيولوجية الكاملة التي لا تقل دقة عن مثلها في البلاد الاوربية وقد اعتبرها المؤتمر الجيولوجي خليقة بادماجها في الخريطه الجيولوجية للعالم . وقد اثمرت هذه البحوث الجيولوجية ثمراتها المباشرة فأدت الى اكتشاف الفوسفات عام ١٨٩٧ ولو ان الاجراءات الخاصة بفحصه فحصاً تعدينيًا تطلب وقتاً طويلاً فلم يبدأ استغلاله فعلاً الاّ عام ١٩٠٨ بالمناطق القريبة من سفاجه على البحر الاحمر . كذلك استكشف معدن المنجنيز عام ١٨٩٨ ثم بدأ استغلاله بعد ذلك عام ١٩١١ . وهكذا كانت النتائج التي وصل اليها الجيولوجيون في هذه المرحلة سبباً مباشراً في بدء استغلال الكثير من المناجم المصرية الحالية

أما البترول فقد قدمنا ان وجوده كان معروفاً منذ القدم ثم زار مواطنه بعض المستكشفين الذين اتينا على ذكرهم كما ان الاعمال التي قامت بها احدى الشركات التي كانت تستغل معدن الكبريت بجمسا اثبتت عام ١٨٦٣ على وجود مقادير منهُ خليقة بأن تشجع الاعتقاد في امكان انتاجه انتاجاً رابحاً

وقد اتخذت الحكومة المصرية خطة ايجابية في شأن البحث عن البترول منذ عام ١٨٨٥ عند ما كلفت احد المهندسين الاخصائيين في حفر الآبار بحفر بئرين في جمسا وأخرى في جبل الزيت . فأسفرت آبار جمسا عن نتيجة ايجابية اذ وجد في احداها زيت البترول على عمق ١٠٦ قدم بقوة ٣٫٥ طن في اليوم وفي الثانية على عمق ١٣٧ قدم وقوة ١٥٠ طن يوميًّا على انها رغم ذلك وبحجة انها تكبدت نفقات طائلة في بحثها قررت عام ١٨٨٨ تعطيل العمل وسدّ الآبار وهكذا قضي على مشروع استغلالي حكومي ان يقبر على ان يستأنف مرة اخرى فيما بعد وبنشاط اكبر على يد احدى الشركات الاجنبية التي تقدمت لاستغلال منطقة جمسا عام ١٩٠٨ وبذلك بدأت مصر تتبوأ مركزها بين البلاد المنتجة للبترول

وكان النجاح الذي صادفته هذه الشركة في جمسا مشجعاً لشركات اخرى وللحكومة نفسها على العناية الجدية بالبحث . فقامت شركات عديدة بفحص مواقع متفرقة على مقربة من شواطيء خليج السويس وفي الجزائر الواقعة عند ملتقى ذلك الخليج بالبحر الاحمر . واذا كانت قد اخفقت اغلبها الاّ ان واحدة من بينها وفقت في النهاية الى استكشاف حقل الغردقة الذي يُربي مجموع انتاجه في العشرين السنة الاخيرة على ثلاثة ملايين طن من البترول

كذلك قامت الحكومة بنصيبها من البحث واستعانت على ذلك بآراء الاخصائيين في شؤون البترول . واذا كانت بحوثها اوقفت ابان الحرب العالمية الكبرى الاّ ان هذه الحرب نفسها قد علمتها ما لمواد الوقود من الشأن الخطير في حياة الامم فأعادت البحث النشيط بمجرد زوال ضرورات الحرب ولم تقف عند حد البحث العلمي بل تعدته الى عملية دق الآبار فوفقت الى انتاج صغير

من حقل ابي دربة على شاطىء سينا قرب بلدة الطور وهو الحقل الذي اعطى امتيازه فيما بعد الى زكي ويصا بك الذي يستغله حتى الآن

كذلك حفرت بئراً في ابي شعر قرب حقل الغردقة ولكنها لم تصادف فيه نجاحاً

وللاخفاق في البحث عن المعادن قيمته لمن يعلم كيف يستفيد منهُ . ذلك ان اخفاق الحكومة واخفاق الشركات كان نتيجة حالات جيولوجية خاصة يتطلب حلها الاستعانة في البحث بوسائل علمية جديدة هذه الوسائل هي المعروفة بالوسائل الجيوفيزكية اي التي تعتمد على خواص الارض والصخور والمعادن وهي التي افردنا لها محاضرة في المؤتمر الاول من مؤتمرات هذا المجمع

ومع ان هذه الوسائل هي حديثة الابتكار وتطبيقها في البحث هو وليد الحرب العالمية نفسها الاَّ ان الحكومة المصرية لم تتوان في الاخذ بها وقد استوردت للقيام بها في مناطق البترول المصرية بعض الاخصائيين من الالمان وكان للنتائج التي وصلنا اليها قيمة خاصة ولو انها لا تزال في حاجة الى مباحث تكميلية نرجو ان تزول قريباً الظروف المالية التي ادت الى العدول عنها

الى هنا قام البحث على اكتاف اجنبية وبأموال جلها اجنبيٌّ على ان النهضة القومية التي عمت البلاد في عهدها الحالي تحتم علينا ان بقاء هذا الحال من المحال وان عزتنا وكرامتنا القومية تقضيان بأن نقوم بأنفسنا بهذا الواجب . وقد تلمست الحكومة افتقار البلاد الى الاخصائيين في الجيولوجيا وعلوم التعدين فأوفدت بعثات عديدة من الشبان النابهين الى اميركا للبترول وانجلترا للجيولوجيا والتعدين والمانيا للعلوم الجيوفيزيكية وقد عاد اغلب هؤلاء بعد ان استكملوا عدتهم من العلم واشترك بعضهم فعلاً في البحوث التي قامت بها الحكومة في السنين الاخيرة وهم جميعاً متحفزون لتسلم شعلة العلم والبحث ورفعها والنهوض بها لخير البلاد

وهنا ستبتدىء المرحلة الثالثة من مراحل البحث وهي مرحلة البحث التفصيلي الذي يقوم على أساس المعلومات التي وصلت الينا نتيجة المرحلتين السابقتين

هذه المرحلة هي اشقها جميعاً لانها تقتضي منا صبراً وأناة وتتطلب من القائمين بها دقة وعناية ومن المشرفين عليها ان لا يصرفهم الاخفاق مرة اخرى عن الاستمرار بها

وسيكون اساس البحث في هذه المرحلة الاخيرة تقسيم الصحاري المصرية الى مناطق يقوم كل باحث بفحص منطقة معينة فحصاً يتناول كل دقيق في التركيب الصخري والمعدني للمنطقة . وبودنا جميعاً ان يمتاز عصر فؤاد الاول باتمام هذه المرحلة والوصول بها الى نتيجتها الموفقة وان تبز المراحل الاخرى جميعاً في ان تقوم على اكتاف ابناء البلاد . ومن دواعي اغتباطنا أن حضرة صاحب المعالي وزير المالية قد لمس هذه الحاجة لاستعادة نشاط البحث في رحلتهِ الاخيرة لمناطق البحر الاحمر فلم يتأخر لحظة عن مد يده باعتماد مبلغ من المال يخصص لهُ — نرجو ان يكون اول الغيث كما اننا نرجو ان نوفق في فرصة قادمة الى ايقاف حضراتكم على مدى ما سيصيبه شباننا الباحثون من النجاح

عتاب واستصراخ

خليل مطران

{ من قصيدة طويلة قيلت في الحرب الاولى بين الترك والطليان حين حاول هؤلاء فتح طرابلس سنة ١٩١١ }

صدقتُ في عَتْبكم او يصدق الشمَمُ — لا المجد دعوى ولا آياتهُ كَلِمُ
يا أمَّتي حسبنا بالله سخرية — منّا ومما تقاضى اهلها القدمُ
هل مثلما نتباكى عندنا حزَنٌ — وهل كما نتشاكى عندنا ألمُ
ان كان من نجدةٍ فينا تفجُّعُنا — فليكفنا ذلنا وليشفنا السقمُ
تمتّعوا وتملَّوْا ما يطيب لكم — ولا تَرَعكم محاظيرٌ ولا حُرَمُ
او اعلموا مرةً في الدهر صالحةً — علماً تؤيّدهُ الافعال والهممُ
بأيّ جهلٍ غدونا امة همَلاً — وأيّ عقلٍ تولت رعينا الامَمُ

* * *

لا تُنكروا عَذَلي هذا فمعذرتي — جرح بقلبيَ دامٍ ليس يلتئمُ
نحن الذين أبحنا الراصدين لنا — حمًى بهِ كانت العقبان تعتصمُ
لولا تغافلنا لولا تخاذلنا — لولا تواكلنا تالله ما اقتحموا
هي الحقيقة عن نصحٍ صدعتُ بها — وما النصيحة الاّ البرّ والرَحِمُ
لم أبغِ من ذكرها ان تيأسوا جزعاً — خيرٌ من اليأس ان يُستقدم العدمُ
اليأس منهكة للقوم موبقة — في حمأةٍ تتلاشى عندها الشيَمُ
ما مُطلب الفخر من أيدٍ منعَّمةٍ — رطيبةٍ ونفوسٍ ليس تحتدمُ
يأس الجماعات داءٌ ان تملَّكها — فهو التحلل يتلوهُ الردى العممُ
كالشمس يأكل منها ظلُّ سُفْعتها — متى يبيد شعاع الشمس والضَّرَمُ
لاتقنطوا كَرِهِ الله الأُلى قنِطوا — اليوم يعتزم الأبرار فاعتزموا
اليوم ان تبخلوا اعماركم سَفَهٌ — والجاه فقرٌ ومقصوراتكم رُجَمُ

* * *

اني لأسمع من (حِزْبِ الحياة) بكم — « نصراً لامتنا سحقاً لمن ظلموا »
نعم لتُنصر على الباغين أمّتنا — لا بالدعاء ولكن نصرها بِكمُ
لِتبقَ يقظى على الادهار نابهةً — لاالأمن يهفو بها سكرى ولا النعمُ
لِتحيَ وليَمُتِ الموت المحيط بها — من حيث يدفعهُ اعداؤنا الغُشُمُ

الكريم والفتى والسيد

What is a Gentleman ?

للدكتور امين باشا المعلوف

دعاني الى البحث الآتي مقال « للصحافي العجوز » في جريدة الاهرام قال فيه ما نصّهُ :

شيعت بالامس جثة « الجنتلمان » عدلي يكن . وجنتلة عدلي يكن مثل جنتلة مصطفى فهمي ، شهد بها الانكليز لكل منهما . واولئك الاشراف المعقولون ، قومٌ عمليون لكل كلمة عندهم معناها ودلالتها العملية . الترجمة الحرفية لكلمة جنتلمان هي الرجل اللطيف او الرجل الظريف . اطلقها الانكليز اولاً على أرباب المال والعقار من الناس الطيبين الذين يحسنون معاملة عملائهم عامة ومستأجري عقارهم خاصة . والكلام انما يوضع للتعبير عن المعاني والمعاني تختلف بتطور الاخلاق والعادات واختلاف المقاصد وتنوع الحاجات . وكلمة جنتلمان أصبحت بالتواتر تشمل معاني كثيرة. ولا يزال الناس يذهبون مذاهب جديدة في تحديد المناحي المختلفة التي ترمي اليها

قال كاتب اميركي ان المعنى العام لكلمة جنتلمان هو « عدم الاساءة الى احد » و « وجوب الاحسان عند المقدرة »

وقد تناول الموضوع أديب سوري في صحيفة « الهدى» العربية التي تطبع في نيويورك فقال :

«ليس جنتلمان الرجل الذي يقبل متبختراً على رصيف الشارع . يحسب الدنيا قد خلقت كلها له . وحين يمرّ بك يدفعك بمنكبه ليوقعك في اوحال الشارع . ولكن الجنتلمان هو الذي اذا زلت بك قدم اندفع بعامل المروءَة لنصرتك وانتشالك من ورطتك

« ليس جنتلمان الرجل الذي رعى فؤاده الحسد، وتضيق في عينهِ الدنيا عند ما يراك سائراً الى الامام مجدداً ومجوداً في عملك ، وحين لا يقدر على مجاراتك يعمل على مقاومتك

« ليس جنتلمان الرجل الذي يسخر وظيفته لغير غاياتها الشريفة

« ليس جنتلمان الرجل الذي يبطن غير ما يظهر»

وكما يحار الانكليز الآن في تحديد كلمة « جنتلمان » فان كتّابنا وادباءنا لا يزالون حائرين في ترجمتها باحدى الكلمات الآتية : نبيل ، سري ، حصيف ، غطريف ، كيّس . ويؤكد أخونا كامل كيلاني: ان كل هذه النعوت لاتؤدي المعنى المقصود من «الجنتلمان» والكلمة العربية الحقيقية هي (زول)

عبثاً حاولت ان اقنعهُ ان الكلمة سودانية معناها (ابن آدم) رجلاً كان او امرأة . وان هناك قبيلة تعيش في جوف افريقية اسمها (الزولوس) وتعرف بلادهم باسم «الزولولاند». وراجعت القاموس فوجدت فيه : الزول الظريف الخفيف يعجب من ظرفه . والجمع ازوال والانثى زولة. ووصيفة زولة نافذة في الرسائل ، وتزوّل ، تناهى في ظرفه ، والزول (بتشديد الزاي) الشجاع الذي يتزايل الناس من شجاعته . والزّوّل « بتشديد فسكون الجواد . والزولة ، المرأة الفطنة الداهية، وقيل الظريفة

ومن هذا القدر اليسير يدرك القارىء خطأ الاديب الكيلاني وبعد كلمة زول عن المقصود من « الجنتلمان » وان اقرب المعاني اليها الحصيف والكيّس ولو أبى استاذنا خليل مطران الذي استخدم كلمة (غطريف) في رواية عطيل ترجمة لجنتلمان

ومهما يكن في أمر الكلمة وتحديدها وتكييفها وترجمتها فان الجنتلمان الانكليزي وكل من ينعته الانكليز بالجنتلة هو جنتلمان على طول الخط

اما نحن فالجنتلة عندنا منحة وقتية . تكون صفة لشخص عند ما يكون في وظيفته ، وعند ما يكون صديقاً لنا ، وعند ما يسدي الينا يداً ، وعند ما يوافقنا على رأي سياسي معين . بل قد تكون جنتلمان عند ما تركب الدرجة الاولى في عربات ثورنيكروفت وتفضلت بالقيام لسيدة . لا لأنها امرأة بل لانها حسناء انيقة الثياب . ثم تكون انت بذاتك (طورمان) عند ما تقف في عربة الدرجة الثانية لثورنيكروفت او الاتوبيس نمرة ١٧ « مثلاً » متشعلقاً في الجلدة

قد تكون الجنتلة كلها . ولكن لا يدركها فيك احد لانك فقير

وقد تكون جنتلمان . وليس في يدك ما تبرهن بهِ على هذه الجنتلة

والجنتلمان عندي صاحب المروءة والاخلاق العالية والآداب الراقية

ولكن ليس للناس كلهم أعين ترى وعقول تدرك

ورحمة الله على عدلي يكن الجنتلمان « صحافي عجوز »

***

انتهى كلام الصحافي العجوز والصواب الصحافي الفتى الكريم وسيرى بعد قراءة ما يلي انهُ الفتى وانهُ الكريم ولا اريد بالفتى الشاب الحدَث ولا بالكريم السخيّ فقد يكون الصحافي العجوز سخيًّا معطاءً وهّاباً لكنهُ ليس شابًّا في ريعان الشباب وترارته بل فتىً وكريماً . وهكذا شيخه فهو سيد كريم وفتىً بيّن الفتوّة ولو انهُ راسخ في الشيخوخة والمشيخة اي انهُ شيخ مثلّث . فالصحافي العجوز فتىً من فتيان الفجالة والدرب الواسع وشيخه فتىً وسيد كريم من فتيان كسروان وساداته ولو انهُ انهزم في الايام الاخيرة شرّ هزيمة . اما الآن وبعد هذه المداعبة الوجيزة فاني لست ذاكراً احداً من الاحياء فالبحث دقيق فيهِ كرم ولؤم فاذا وجدت كرماً ذكرته في الاموات اما الاحياء فلست ذاكرهم لا في كرم ولا في لؤم

ولنبحث الآن في كلمة جنتلمان الانكليزية ونتتبع اصلها واصل بعض الفاظ لها علاقة بها عن امهات اللغة الانكليزية . اما في الفرنسية وان كانت هذه الالفاظ شبيهة بالالفاظ الانكليزية ومن اصل لاتيني مثلها لكن الاستعمال جعل لها معاني اخرى تختلف عن المعاني الانكليزية اختلافاً بيناً فالاعتماد في بحثنا على المعاني الانكليزية دون غيرها. وفي ما يلي بعض هذه الالفاظ عن معجم وبستر المطوّل طبعة سنة ١٩٢٤

Noble. a. (French noble from latin nobilis that can be or is known, well known, famous, highborn, noble akin to noscere to know)

يقول وبستر في اصل الكلمة انها عينها بالفرنسية وهي لاتينية الاصل ومعناها معروف ومشتهر وعالي الحسب وانها تمتّ الى فعل معناهُ عَرَف . ثم ان هذه اللفظة قد ترجمت في كثير من المعجمات ترجمة صحيحة منها نبيل وشريف ونبيه واثيل واصيل وحُرّ ونجيب وحسيب وكريم ورفيع وماجد وغير ذلك مما تجده في كتب القوم . فما جاءَ في مادة شرف في كتب اللغة العربية ما يأتي عن التاج قال : والشرف المجد يقال رجل شريف اي ماجد او لا يكون المجد والشرف الاَّ بالآباء يقال رجل شريف ورجل ماجد لهُ آباء مقدَّمون في الشرف واما الحسب والكرم فيكونان في الرجل وان لم يكن له آباء قاله ابن السكّيت او الشرف علوّ الحسب قاله ابن دريد . انتهى ما اريد نقله . واننا اذا رجعنا الى هذه المادة وجدناها تدل على العلوّ في كثير من معانيها اي ان الكلمة العربية والكلمة اللاتينية اصلها واحد في المعنى . ومثل ذلك مادة نبه فاننا نجد انها تدل على الشهرة والشرف فمن معاني النبيه المشهور والشريف اي ان الشريف والنبيه بالعربية مثل اللاتينية اصلاً ومعنىً . اما الكريم فيختلف عن الشريف كما تقدم وله لفظة أخرى لاتينية غير هذه واصلها يختلف عن اصل ما يقابل الشريف كما سيجيءُ في الالفاظ الآتية

Gens. n. Plural gentes (Latin, see gentle.) Roman History. A clan or family connection, embracing the families of the same stock in the male line; a subdivision of the Roman Curio

هي كلمة لاتينية يقابلها لفظاً جانُس باليونانية وجنس بالعربية ويقابلها معنىً الأُسرة والعِترة والعشيرة بالعربية . وكان الرومانيون يسمون باسم الأُسرة او العِترة او العشيرة ابناء العشيرة جميعاً ومثلهم العرب فيقال زيد الهاشمي او زيد من آل هاشم او بني هاشم او الهاشميين والمأمون العباسي ومن آل العباس وبني العباس والعباسيين وجَبَلة بن الايهم وابن جفنة ومن آل جفنة ومن الجفنيين كذلك في ايامنا فيقال فلان الشهابي لكل من الشهابيين وقد يضيف بعضهم اسم الاب فيقال الامير بشير قاسم الشهابي ومثل ذلك عبد المحسن الفهد السعدون واصلها عبد المحسن آل فهد آل سعدون وما اشبه وهذا كثير جدًّا عند العرب في جزيرتهم وفي الشام والعراق وقليل في مصر وانما يحسن تعميمه لاسباب يطول شرحها

Genus. n. (Latin, birth, race; akin to Greek genos)

هي كلمة لاتينية يقابلها جنس بالعربية لفظاً ومعنىً وسواء كانت الكلمة اصلية في العربية او معرّب جانس باليونانية كما في محيط المحيط فلا شبهة ان بين الكلمتين تجانساً في اللفظ والمعنى

Gentle. a. (Middle English gentil. French gentil noble, pretty, graceful, from latin gentilis of the same clan or race, from gens, gentis, tribe, clan, race, originlly that which belongs together by birth from the root genere, gignere, to beget; gentle, property, of birth or family, that is of good or noble birth)

يقول وبستر هنا ان هذه اللفظة هي عينها بالانكليزية المتوسطة والفرنسية ومعناها بالفرنسية شريف وظريف وكيّس وهي لاتينية الاصل ومعناها من العشيرة او من النسل عينهِ من مادة جنس اي قبيلة او عشيرة او نسل واصلها ما كان متولداً معاً في العشيرة من مادة معناها ولَّد او انشأ . كريم نسباً اي طيب الاصل او شريفه

هذا ما اورده وبستر في اصل هذه المادة وليس معناه انها بالانكليزية كما في الفرنسية تماماً لان لها معاني اخرى بالانكليزية كما سيأتي وهذا سرّ المسألة في ترجمة لفظة جنتلمان الانكليزية فهي ليست بمعنى نظيرتها بالفرنسية فالفرنسيون يعبرون عنها بالفاظٍ اخرى . ثم ان وبستر بعد ايراده اصل المادة ذكر لها ثمانية معانٍ هي ما يأتي

1. Well-born; of a good family position, although not noble. British society is divided into nobility, gentry and yeomanry, and families are either noble, gentle or simple.

2. Excellent; of fine quality; of animals of fine breed—Obs. except in gentle falcon.

3. Honourable; of, or approporiate to good birth or distinguished position; as a gentle occupation; manifesting the qualities of one of gentle birth, chivalrous, knightly

4. Hence, refined in manners; not rough, hard or stern, mild, kind; aimiable; as a gentle nature, temper or disposition; a gentle manner; a gentle voice.

5. An appelation of respect, kindness or conciliation, as gentle reader, gentle airs, gentle Jew.

6. Tamed; quiet, tractable, and docile; as a gentle horse; also of fruit etc. cultivated

7. Soft; not violent or rough; not strong, loud or disturbing; not stormy; easy, soothing; as gentle touch; a gentle rule; a gentle medicine.

8. Moderate; as a gentle warmth; a gentle declivity

فترجمة المعنى الاول كريم لا الكريم بمعنى السخي بل بمعنى الطيب الاصل فان للكريم معاني كثيرة كما سيجيء . وقد يقال بهذا المعنى حرّ ونجيب وكريم النسب ولكن كلمة كريم تغني عن ذلك ولا يخفى ان الكريم غير الشريف كما تقدم . ولما كان الغرض ترجمة الكلمة الانكليزية دون غيرها فلا ارى اصلح من الكريم لهذا المعنى . ثم ان وبستر قسم الاجتماع البريطاني الى ثلاثة أقسام

النبلاء او الاشراف والكرام او علية القوم وعامة الناس . ولما كانت كلمة جنتلمان بمعناها الاول كما سيجيء مركبة من هذه اللفظة مع لفظة رجل فلا أرى أصلح من قولنا رجل كريم لهـذا المعنى الانكليزي لا الفرنسي . ثم ان لفظة كريم تصلح للمعاني الاخرى من ترجمة جنتل هذه او ما جاء بمعنى الكريم في كتب اللغة كما سيجيء . فترجمة المعنى الثاني من معاني هذه الكلمة كريم وحرّ وعتيق ونفيس وجميعها وارد بمعنى كريم فيقال طائر حرّ وصقر حرّ وفرس كريم وعتاق الطير . وترجمة المعنى الثالث كريم وفتى وشَهْم . وترجمة المعنى الرابع كريم ولين وظريف وكيّس ولطيف ورخيم . وترجمة المعنى الخامس كريم فيقال قارىء كريم ونحوه . وترجمة المعنى السادس في شقه الاول كريم وسهل القياد وفي شقه الثاني اي اذا كان ثمراً او شجراً كريم وحرّ وعتيق كما في قولنا حرّ البقل وعتيق الشجر وحرّه وكريه . وترجمة المعنى السابع كريم ولين وهادىء ورخاء ولطيف وسهل . وترجمة المعنى الثامن كريم ومعتدل وسهل . وصفوة القول ان جميع المعاني يصلح لها الكريم فالكريم من كل شيء احسنه كما سيجيء في مادة كرم

See etymology and derivation of gender, genealogy, generate, generosity, genesis gentile, gentility etc.

انظر اصل الالفاظ المتقدمة واشتقاقها فتجد ان جميع هذه الالفاظ المتجانسة من اصل واحد اي من مادة جنس او عشيرة المتقدمة الذكر ومثل ذلك كثير من هذه الالفاظ اللاتينية الاصل ان بالانكليزية وان بالفرنسية لكن الاستعمال جعل لها بعض الاختلاف في هذين اللغتين كما لا يخفى . وفي ما يلي بحث في كلمة جنتلمان وهي عقدة العقد

Gentleman. a. (Middle English gentilman, nobleman)

1. A man well born; one of good family though not noble
2. One of gentle or refined manners. A well bred man of fine feelings, espiciall[illegible] one of good character raised above the vulgar by education, habits, and social esteem
3. A servant; especially a valet of a man of rank.
4. A man, irrespective of condition; used especially in plural in addressing men in popular assemblies etc.
5. A respectable man who engages in no occupation
6. An amateur as gentleman jockey

ولما كانت ترجمة هذه الكلمة دقيقة جدًّا فاني أراني مضطرًّا الى ايراد بعض الامثلة وانما من غير الاحياء . فترجمة المعنى الاول رجل كريم لا الكريم بمعنى السخيّ بل الكريم نسباً وربما كان أحسن منها السيد الكريم كما قال رئيس تحرير المقطم في عدلي باشا يكن . فقد جاء في أخبار عمر ابن ابي ربيعة ان اخاه الحارث كان شريفاً كريماً وسيداً من سادات قريش وعدلي باشا كان شريفاً كريماً وسيداً من سادات مصر . هذا هو المعنى الاول والاصلي لهذه الكلمة . وانما الاستعمال الانكليزي

يختلف بعض الاختلاف عن الاستعمال الفرنسي فالفرنسيون لا يسمون بهذا الاسم الاَّ من كان من بيت نبل وشرف والانكليز يسمون بهِ غيرهم ايضاً فترجمة هذا المعنى الاول عند الفرنسيين رجل نبيل وترجمته عند الانكليز رجل كريم هذا في اصطلاح القوم في النبل والكرم عندهم فالنبيل Nobilis والكريم Gentilis وقد تقدم ذكرهما فالنبيل واحد عند الفرنسيين والانكليز اما الكريم عند الفرنسيين فمعناه النبيل والظريف وهو ليس كذلك عند الانكليز . وأحسن مثل للتمييز بين النبل والكرم عند الافرنج هو ما كانت الحالة عليه في العراق ولبنان عند ما كان نظام الاقطاع شائعاً فيهما فكل رجل مثلاً من السعدونيين او غيرهم من ابناء البيوت القديمة في العراق يطلق عليه اسم Gentilhomme بالفرنسية وترجمته Nobleman بالانكليزية وكل رجل من الشهابيين او غيرهم من اصحاب الاقطاع في لبنان يطلق عليه احد هذين الاسمين وكل واحد من ابناء البيوت الكريمة الاخرى في العراق ولبنان يطلق عليهِ كلمة Gentleman بالانكليزية في معناها الاول اما الفرنسيون فلا يقولون Gentilhomme بهذا المعنى بل يقولون

Homme bien-né ou de famille honorable

هذه مسألة دقيقة جدًّا وانما ضربت الامثلة المتقدمة لأُبين الفرق في استعمال هذه الكلمة عند الفرنسيين وعند الانكليز وسببه نظام الاقطاع والعرف عند كلٍّ من الفريقين لذلك ارى ان الرجل الكريم او السيد الكريم اصلح تعبير لهذا المعنى الانكليزي الاول وان شئت فقل الكريم فقط كما في الحديث الذي اورده صاحب التاج عن يوسف بن يعقوب وسيأتي ذكره

واذا اتصف السيد الكريم بصفات الفتوَّة يقال فتىً فعبد المحسن السعدون كان فتىً بيّن الفتوّة A thorough gentleman قال عنه ذلك احد كبار الانكليز في العراق فانه عند ما نعي اليه كتب كتاب تعزية قال فيه ذلك [1] . وفيصل الاول كان فتى فتيان العرب غير مدافع . قال المتنبي في رثاء اخت سيف الدولة وكان المتنبي يومئذٍ في العراق

ارى العراق طويل الليل مذ نعيت   فكيف ليلُ فتى الفتيان في حلب

فاذا قلت ان فيصلاً كان فتى فتيان العرب فاني است مبالغاً وقد قيل في جده «لا فتى الاَّ علي» وملك البلجيك السابق كان فتىً وربما فتى فتيان اوربة كلها وهو ما يقوله الانكليز عن ملكهم او ولي عهده The first gentleman in England اي فتى فتيان انكلترة . وشيخ الصحافة داود بركات كان فتىً وكريماً وشهماً . هذا هو الفتى والكريم والشهم ولا يقال كذلك الاَّ لمن اتصف بالمناقب الكريمة مهما علت منزلته

(١) ترجم الكتاب صديقي عبد المسيح وزير رئيس المترجمين في وزارة الدفاع وترجم اللفظة الانكليزية بالفتى وهي ترجمة في غاية الجودة والكتاب الاصلي وترجمته في محفوظات وزارة الدفاع على ما اذكر

. اما ترجمة المعنى الثاني فكذلك اي رجل كريم وفتىً وشهم ويراد بالكريم كل رجل كريم في نفسهِ وفي تربيته وخلقهِ وان لم يكن كريماً في نسبهِ والعامة في الشام تقول آدمي وفي مصر بني آدم اي من بني آدم كأن العامة ترى ان يتخلق جميع البشر بخلق الكرام منهم وحبذا الامر لو كانوا كذلك . وبعضهم يقول شريف لسمو اخلاقه . وبعضهم يقول هو شهم ويريدون بذلك صاحب نجدة ومروءَة وهي واردة بهذا المعنى فقد جاءَ في التاج ما نصهُ : والشهم السيد النجد النافذ الحكم في الامور.وقال الفراء الشهم في كلام العرب الحمول الجيد القيام بما حمل الذي لا تلقاهُ الاَّ حمولاً طيب النفس بما حمل وكذلك هو في غير الناس . وقالوا في ترجمة هذا المعنى الظريف والكيّس والشلبي لكن الفتى اصلح كثيراً فالكيس والظريف لا يؤديان المعنى الانكليزي لكن الفتى يؤديهِ بل ربما فاقه . وان اقرب كلمة للظريف والكيّس كلمة چلبي (شلبي) ولعلها تركية او من اصل آخر اعجمي وكانت لقباً لبعض ابناء السلاطين من آل عثمان وهي شائعة بهذا المعنى اي بمعنى الكيّس في الشام والعراق ولكن كلمة الفتى تفوقها بمعنى جنتلمان . ولا يخفى ان كلمة چلبي او شلبي لقب في العراق يلقب بهِ بعض التجار واصحاب الاملاك وهو لقب كبير المولوية ولعله سمي بذلك لكياسته هو وجماعتهُ او ان اللفظة منقولة في الاصل عن معنى الفتى بالعربية اي انهم ترجموا الفتى بكلمة چلبي لان بعض المتصوفة كانوا فتياناً من الفتوَّة لا الفتاء والمولوية منهم وسيأتي ذكر الفتى والفتوة . وهذا لا يمنع ان لفظة چلبي تركية او فارسية او غير ذلك كقولهم انها من صليبي اي افرنجي او نحو ذلك . اما الكيّس فقد ظن بعضهم ان كلمة جنتلمان الانكليزية معناها الكيّس لان من معاني جانتيل الفرنسية الكيّس فالكياسة والظرف واللطف من الصفات المحمودة في الانسان ولكن جنتلمان ليس الظريف ولا الكيس ولا اللطيف فقد يكون الانسان ظريفاً وكيّساً ولطيفاً ومن ابعد الناس عن الكرم ومن اقربهم الى اللؤم لذلك لا ارى اصلح من الكريم والفتى والشهم لهذا المعنى . فالكرم والشهامة غريزتان يكونان في نفس الانسان ويولدان معهُ ولا يأتيان بالعلم والتربية او بالتكلف او التصنع او حسن الهندام او مغازلة الحسان بطريقة سمجة تأباها النفس او بالتبجح بطرق شتى مكروهة عند الكرام

***

واما ترجمة المعنى الثالث ففتى وهو وارد في القرآن الكريم وفي كلام العرب بهذا المعنى كما سيجيء ومن الغريب ان العرب والانكليز قد اتفقوا في كلمة واحدة لمعنيين مختلفين تمام الاختلاف

واما ترجمة المعنى الرابع فسيّد كقولنا ايها السادة ومثله المعنى الخامس اي سيّد كقولنا سيد من ارباب الاملاك . كذلك المعنى السادس فيقال سباق السادة اي اصحاب الخيل اي ان كلمة جنتلمان يقابلها بالعربية كريم وفتى وسيّد وشهم منها كلمتان من الاضداد هما السيد والفتى . وفي الجزء التالي تتمة البحث في الفتى والكريم.

امين المعلوف

توريث الصفات المكتسبة

للدكتور شريف عسيران

الصفات في اصطلاح علم الوراثة نوعان : الوراثية التي تنتقل من الآباء الى الابناء او من السلف الى الخلف بواسطة العوامل الوراثية التي في الكرموسومات وهي تخلق من الفرد او تكون كامنة فيهِ منتقلة اليهِ من آبائهِ تمييزاً لها عن الصفات الاكتسابية وهي التي لا تخلق مع المرء بل يكتسبها من المحيط ومتى ظهرت فيهِ تنتقل منهُ الى نسله بحسب رأي طائفة كبيرة من العلماء الافذاذ لهم منزلتهم في العلم والبحث . وقد احتدم الجدال حول قضية توريث الصفات المكتسبة احتداماً شديداً فنهم من ينكرها ومنهم من يثبتها ومنهم من يتردد بين النفي والاثبات ولعلك لا ترى اختلافاً في مختلف فروع العلم اكثر من الاختلاف في هذه النظرية وسنقص عليك احسن القصص ونأتيك باصدق الانباء عن هذا الموضوع اللذيذ

﴿ تحديد الصفات المكتسبة ﴾ : يجدر بنا قبل الخوض في الموضوع ان نحدد الصفات المكتسبة لكي يكون بحثنا فيها واضحاً . الصفة المكتسبة هي التي تنشأ في خلايا الجسم في دور من ادوار حياة الفرد بتأثير عامل خارجي من عوامل البيئة يؤثر فيها مباشرة وتبقى تلك الصفة ظاهرة في الفرد بعد انفصاله عن المحيط الذي ولّدها ثم تنتقل منهُ الى نسله بحسب رأي بعضهم دون تعريض النسل للبيئة الذي ولّدت تلك الصفة في سلفهِ

زعيم هذه النظرية هو العالم الفرنسي الاشهر لامارك (١٧٤٤ — ١٨٢٩) ويعرف هذا المذهب باسمه لاماركزم او اللاماركية . وُلد هذا العلامة في بازنتين من اعمال فرنسا في اول اغسطس سنة ١٧٤٤ ومات في ١٨ دسمبر سنة ١٨٢٩ . وبين حياته وحياة مندل العالم النمسوي شبه كبير فكلاهما اكتشف اكتشافاً عظيماً في عالم الوراثة ولكنَّ مندل كان اوفر حظاً في ثبوت نظريته. وجهل الناس قدريهما في حياتهما ورفعوا اسميهما بعد مماتهما وكلاهما عاش فقيراً خامل الذكر. بيد ان مندل كان اكثر تقديراً لان جثة لامارك طرحت بعد موته في الحفرة العامة مع الكلاب. وكلاهما انتظم في سلك الرهبنة فان والد لامارك حمله على دخول الدير ولما توفي والده انتظم في الجيش وكان شديد الميل اليهِ. ومال الى علم الفلك والكيمياء. ولكن مواهبه تجلت في علم النبات فألّف فيهِ كتباً عديدة اشهرها نباتات فرنسا في ثلاثة مجلدات . وقد قدر العالم نظرية مندل بعد انقضاء ١٥ سنة على موته ولم تقدر فرنسا لامارك الاَّ بعد انقضاء مائة سنة على وفاتهِ وعاش فقيراً معدماً واصيب بالعمى قبيل وفاته

ان للامارك مع ما هو عليهِ من العلم آراء غريبة في الوراثة فهو يزعم ان تغير البيئة يدعو الى نشوءِ حاجات جديدة في الحيوان فتحملهُ على ان يسلك مسلكاً جديداً يقتضي استعمال اعضاء كانت كامنة فيزيد حجم تلك الاعضاء بالاستعمال او تنشأ لها وظائف جديدة . وعلى الضد من ذلك يؤول اهمال غيرها من الاعضاءِ التي عادت غير صالحة للاستعمال الى تلاشيها . فلو نقلنا بزور نبات تعوّد ان يعيش في ارض رطبة الى ارض جافة فان ذلك النبات يلائم نفسه للمحيط الجديد ويتحول الى نوع جديد يختلف عن الاول في صفاته بسبب تغير المحيط وتنتقل الصفة المتغيرة الى نسله . ويحدث مثل ذلك في الحيوانات . فالمحيط الجديد يتطلب حاجات جديدة تتولد منها عادات جديدة فينشىء صفات جديدة تنتقل بالوراثة الى النسل . فالزرافة (معجم الحيوان) Giraffe مثلاً التي تقتات اوراق الشجر وتضطر الى مد عنقها طلباً للقوت كلما علا الشجر اضطرت الى زيادة مد عنقها فصار عنقها طويلاً لهذا السبب واستطالت قوائمها الامامية والخلفية للسبب عينه وانتقلت هذه الصفة الى نسلها . هذا بحسب رأي لامارك . وتضطر الطيور التي تتطلب قوتها في الماء الى بسط اقدامها لتتمكن من السباحة فيتمدد جلد الرجلين ويتولد نسيج الاباهم . وقد اورد امثلة عديدة من هذا القبيل لاحاجة الى التوسع فيها اذ لم تثبت لها قيمة علمية . وقد ايد العلامة داروين هذا المذهب ونوه بفضل لامارك وتصدى له كثيرون من العلماء الحديثين فادعى برون سيكار الفرنسي انهُ اذا اتلفنا عضواً من اعضاء الآباء في الخنازير الهندية سواء اكان الاتلاف موضعيًّا او عامًّا فان تأثيره يظهر في النسل فيصاب بالصرع او بتر طرف من اطرافه او ابهام من اباهمهِ الى غير ذلك

وزعم غيره ان تعريض الجسم للشمس يصيّرهُ اسود وان هذا هو سبب سواد جلد الزنوج فاذا نقلنا رجلاً ابيض الى منطقة حارة اسودَّ جلده بسبب حرارة الشمس . والحقيقة ان لون الجلد ناشىء عن وجود اصباغ في طياته يتلون بلونها والحرارة الزائدة تؤذي الجلد وبوجهٍ خاص طبقاته الداخلية فيحصل ردُّ فعل غريزيٍ فيتنبه الجلد ويفرز مقداراً زائداً من الاصباغ التي تمتص حرارة النور وتمنع اذاها عن الجلد

وقالوا ان صنعة الحداد تسبب تضخم عضلاته وتنتقل هذه الصفة الى نسله . واهمال عضو من الاعضاء كعدم استعمال العين مثلاً يسبب ضررها وهذا الضرر ينتقل الى الابناء . والامثلة على ذلك كثيرة ولا حاجة الى الاطالة فيها

ومن اهم المعارضين لهذا المذهب والضاربين به عرض الحائط العلامة الاشهر ڤيسمن صاحب النظرية الصحيحة في الوراثة وهي نظرية استمرار تأثير الخلايا التناسلية وقد مرَّ ذكرها في الفصول التي اثبتناها عن الوراثة . واشتهر ڤيسمن بمعارضته لاصحاب مذهب توريث الصفات المكتسبة اكثر مما اشتهر بنظريته في الوراثة لان في الاخيرة نقصاً واما معارضته فلا عيب فيها . وجاء انصار مذهب انتقال الصفات المكتسبة بشواهد عديدة تأييداً لنظريتهم دحضها ڤيسمن بالادلة العلمية المقنعة منها

طريقة البتر فاذا بتر عضو من الاعضاء يصير البتر صفة في الفرد تنتقل منه الى نسله . فالهرة التي يقطع ذنبها صدفة او عمداً تلد هرة لا ذنب لها ومثلها الكلاب والابقار التي يتلف قرنها تلد عجلاً ذا قرن واحد وقد بين ڤيسمن ان الهررة التي تلد هررة لا ذنب لها متولدة من نوع خاص خال من الذنب خلقة ويعرف بهررة مانكس[١] Manxcats وان ولادة العجل بقرن واحد ناشيء عن عيب خلقي واستشهد ايضاً باليهود والمسلمين الذين يمارسون الختان من قرون عديدة ومع ذلك لا يولد ابناؤهم مختونين خلقة بل يخلق بعضهم وفيهم ما يشبه الختان بسبب شواذ جنينية وهو يظهر في غيرهم ممن لايختتنون . وقد مضى على البشر الوف السنين وهم يتكلمون اللغات ومع ذلك يولد الطفل ولا يستطيع ان يتكلم لغة بعينها ومتى بلغ العمر الذي يتكلم فيه ينطق باللغة التي يتدرب عليها فاذا كان عربيًا ونشأ في بيئة افرنسية تكلم الافرنسية والعكس بالعكس . هذه خلاصة مختصرة لهذا المذهب

وسنتبسط فيه الآن بصورة اوضح ونذكر مختلف الابحاث والتجارب التي ترشدنا الى الحقيقة.
ظهر من ناموس التباين والتحول ان الاشعاع يؤثر في العوامل فيولد صفات جديدة وان النبذ الاختياري Selective elimination يختار انواعاً ويستغني عن اخرى وزعم انصار توريث الصفات المكتسبة ان المحيط عامل ثالث في خلق صفات جديدة. وقد ثبتت نظرية الاشعاع الذي يحدث تحولاً في الانواع . ومع ان اكثر التحولات مضرة بالنوع فلم يقم دليل على عدم وجود تحولات نافعة وقد جرب العالمان Babcock و Collins تجارب بذباب الفواكه فناسلوا عدة انواع منه بعضها في محيط قليل الاشعاع واخرى في محيط اشعاعه الطبيعي ضعف الاول فكان التحول في الاقليم الكثير الاشعاع اكثر منهُ في الاقليم الذي قلّ اشعاعه

غير ان تأثير الاشعاع ضئيل جدًّا فقد يؤثر في عامل ويعف عن جاره . وزعم بعض العلماء ان هناك مؤثرات اشد فعلاً منه ولها تأثير كلي في تغيير الصفات كالحرارة العالية والواطئة والمواد الكيماوية والغذاء. ووجد ملر H. J. Muller ان تحولات ذباب الفواكه اكثر في الحرارة العالية منهُ في المنخفضة واطعم هلسبْ J. W. Helsop بعض انواع الفراش طعاماً فيه مواد معدنية فاخذ هذا الفراش بتعاقب الايام يتلون بلون قاتم مائل الى السواد . ثم صار نسله يتلون بهذا اللون دون اطعامه الطعام المحتوي على المواد المعدنية بل انتقلت اليه صفة اللون بالارث وفقاً لمذهب مندل ولم يظهر هذا اللون في النسل الذي لم يتغذَّ اسلافهُ بالغذاء المذكور . فمن البديهي ان تكون المواد المعدنية هي التي سببت هذا التحول والتبدل

يكثر الدخان في انحاء انكلترا الشمالية حيث مركز الحركة الصناعية فيحمل مختلف املاح المعادن الصاعدة من المصانع وقد سبب دخان تلك المصانع تغيراً في انواع الفراش الذي كان لونه فاتحاً فصار اسود قاتماً. ويعتقد هرِيسُنْ Harrison ان منشأ هذا التلون اقتيات الفراش المذكور بورق الشجر المغشى

(١) نسبة الى جزيرة مان Isle of Man في البحر الارلندي .

بالدخان الحامل املاح المعادن وزعم آخرون ان الغذاء الرديء يضر العوامل الوراثية وينشيء نسلاً معتلاً وان هذا هو سبب منشأ عاهات البشر. ولكن اذا تذكرنا إن في الخلية مادتين مغذية ومولدة تمكنّا من دحض هذا القول فاذا كان في الاب مادة مضرة فمن الممكن ان تؤثر في السيتو بلازم من دون ان تصيب العوامل الوراثية بأذى فينشأ النسل معتلّ الجسم ويخلق النسل الذي بعده صحيحاً اذا تغذى تغذية جيدة. وقد رأينا ان كثيراً من العوامل تنشأ معتلة دون ان يعيش الابوان في بيئة ملائمة او غير ملائمة وظهر في ذباب الفواكه الذي عاش في ظروف ملائمة مئات العيوب الوراثية التي انتقلت وولدت نسلاً عليلاً فالعيوب تظهر في بيئة غير ملائمة ونفس العيوب تظهر في البيئة الملائمة كذلك. فالعيوب تتوقف على العوامل الوراثية لا على الغذاء. فهل العيوب التي تظهر في النسل المتولد من سلف عاش في بيئة غير صالحة اكثر من عيوب نسل تحدر من سلف عاش في بيئة صالحة ؟ هذا ما سنجيب عنهُ الآن

لنبدأ بالحيوانات الوحيدة الخلية Protozoa ان المحيط الرديء يسبب انحطاطاً وراثيًّا في البروتوزى فقد عرّض A. R. Middleton الستيلونيكيا Stylonychia لتأثير حرارة عالية فجاء نسلها ضعيف الحيوية وقلّ معدل تناسلها مقدار الربع. فاذا اعدنا النسل المتولد من سلف عاش في الحرارة العالية الى الحرارة الطبيعية تضعف حيويته بالقياس الى غيره ممن لم يخضع لهذا العامل مما يدلّ على انه السبب في توريث ضعف الحيوية بتأثير الحرارة العالية. وتوصل الى نفس النتيجة V. Tollos الذي عرّض بعض الحيوانات النقاعية عدة اجيال متعاقبة لتأثير نترات الكاس ، فانخفض معدل تناسلها ولما فصل نسلها عن ذلك المحيط بقي معدل تناسله منخفضاً بتأثير الوراثة عن النوع الذي لم يتعرض لنترات الكاس. واجرى غيرهم تجارب عديدة من هذا القبيل توصلوا فيها الى نفس النتائج

يجري التناسل في الحيوانات ذات الخلية الواحدة بانقسام الخلية الواحدة الى اثنتين وتنقسم في التي اعلى منها الوف الخلايا فينشأ الفرد ويحملنا هذا الفرق على ان نتوقع اختلافاً في نشوء وتوريث العيوب التي تتولد من المحيط ولدينا تقارير تبين ان بعض العيوب الخلقية والوراثية تتولد من المحيط حتى في الحيوانات التي اعلى من البروتزوا. ولقد وجد Little and Bagg بعض العيوب في نسل فئران عرضت لاشعة اكس ولم تظهر تلك العيوب في الفئران التي لم تعرّض. ومما يسترعي النظر ان العيب ظهر في عدد قليل جدًّا من الفئران التي عرّضت لتأثير الاشعة فمن الممكن ان تكون تلك العيوب كامنة وظهرت. وقد مرَّ بنا ان الاشعة سبب من اسباب التحولات الفجائية فما يدرينا ان تلك العيوب ليست وليدة التحول. ووجد M. F. Guyer ان عيباً وراثيًّا ينشأ في عيون الارانب اذا ادخلنا مصلاً غريباً الى اجسامها ولكن هذا العيب ظهر في عدد قليل من الارانب التي اجريت عليها التجارب. ولم يتوصل غيره الى نفس النتيجة فمن الممكن ان منشأ العيب في العوامل الوراثية لا في المصل وعيوب كهذه تظهر دائماً في عيون الارانب

« للبحث تتمة »

هل البربر عرب ؟

وهل لغتهم لغة ضاد اخرى ؟

لمحمد سعيد الزاهري*

قال الشيخ ابو القاسم : زارني ذات يوم مستشرق فرنسي كان ضابطاً في الجيش ثم احيل على المعاش ، ولم يكد يستوي جالساً حتى قال : لقد أتيتك اليوم مستفهماً سائلاً . فقلت : حبًّا وكرامة ، ولكني ارجو من فضلك ان لا تسألني عمـا ليس لي بهِ علم . قال : سأسألك عن مسألة من مسائل التاريخ . قال فقلت : ومن قال لك انني من المؤرخين ؟ . قال : انا سائلك عما تعلم ، وما اريد ان اشقّ عليك . قلت : سلْ . قال : ان المؤرخين العرب الذين بحثوا عن اصل البربر قد ذكروا كل مذهب ، ونقلوا كل قول في هذا الموضوع ، ثم عطفوا على ذلك كله بالنقد والتمحيص فنفوا ما نفوا وأثبتوا ما أثبتوا . ولكن مذهباً واحداً قد أهملوه ، فما تكلموا عنهُ ولا اشاروا اليهِ ، وهو مذهب الذين يرونَ ان البربر هم من اصل « لاتيني » . فهل تعلم لماذا اهملوهُ ؟ وهل اهملوهُ متواطئين ؟ قلت : لعلَّ ذلك لانهُ لا يزال حديث العهد ، وليس المؤرخون العرب هم الذين اهملوهُ وحدهم فقد اهملهُ من قبلهم المؤرخون من اليونان بل والمؤرخون من الرومان . قال : نعم ، هو مذهب — كما قلتَ — لا يزال حديث العهد ، لا يَعُدُّ من العمر الاَّ بضعَ سنوات . واذا كان هذا هو عذر المؤرخين القدماء من اليونان والرومان والعرب ، فما بال هؤلاءِ المؤرخينِ من العرب المعاصرين ؟ . قلتُ : هذا الرأي اقل ما يقال فيهِ انهُ ما زال رأياً مفروضاً لم يقم عليهِ ادنى دليل يؤبهُ لهُ من العلم والتاريخ . فكل ما فعل اصحاب هذا الرأي هو، انهم عمدوا الى النقوش والصور التي لا يزال بعض البربر الى الآن يضعونها على الاواني التي يتخذونها من الطين وهي صور ونقوش مصرية لايشك في مصريتها احدٌ من اهل العلم — فقالوا عنها انها تشبه من بعض الوجوه نقوشاً وصوراً وجدت في ايطاليـا . واذاً فهي « لاتينية » لا « مصرية » واذاً فهي دليل على ان البربر هم من اصل « لاتيني »

ويُمعنون في اثبات هذه الدعوى ، فيزعمون ان البربر حينما كانوا « لاتيناً » وكانوا نصارى نبغ منهم رجال في السياسة والادب والدّين مثل سانت اوغست البربري ، وانهم بعد ما صاروا عرباً مسلمين انحطّوا وتأخّروا . ثم يقولون انهُ من الخير للبربر أن يعودوا « لاتيناً ونصـارى ، ومن الخير لهم ان لايبقوا عرباً ولا مسلمين ... وكذلك بمثل هذا المنطق يحثّون البربر على ان يقطعوا كلّ ما لهم بالعرب من صلة القربى ، ويطلبون اليهم ان يخلعوا « جنسيتهم » كما يخلع الناس الملابس

* من مراجع هذا البحث : تاريخ الجزائر في القديم والحديث للاستاذ مبارك الميلي . الاستقصاء في اخبار المغرب الاقصى للناصري السلاوي . تاريخ آداب العرب للاستاذ مصطفى صادق الرافعي . ديوان العبر لابن خلدون

والثياب ! وهذا كلام (كما ترى) هو ترويج لاهواء السياسة ، ودعاية ضد الاسلام ، وليس مذهباً من مذاهب التاريخ . فمن الحقّ الواجب على كلّ مؤرخ يتوخّى الحقيقة والانصاف ان يهمل مثل هذا الكلام، وان لا يورّط نفسه ، ولا قرّاءه في خصومة سياسية او في جدَل ديني . فقال الضابط : انهم جاؤوا بدليل آخر على هذه الدعوى ، وهو كلماتٌ والفاظ بربرية وجدوا لها في « اللاتينية » ما يشابهها في اللفظ والمعنى . قال الشيخ فقلت : لقد سلك رِنْ Rinn المؤرخ الفرنسي نفس هذه الفلسفة اللفظية واعتمدها وحدها في معرفة اصول البربر ، فجعلهم اوزاعاً بين الامم والشعوب ، وانتهى الى انَّ اكثرهم هنود وآريون ، حتى زعم ان عرب بني هلال الذين جاؤوا هذه البلاد هم ايضاً « طورانيون وآريون » ! ! فقال الضابط ان هذه المشابهات اللفظية بين لغةٍ ولغةٍ لا يمكن ان توجد عفواً من غير ان تدلّ على شيءٍ . فكلمة « آرّوس » التي تعني في « البربرية » جبلاً معيَّناً قريبة من كلمة « الروس » التي هي اسم روسيا ، وهذا التقارب بين اللفظتين يمكن ان يدلّ على ان بين البلدين نوعاً ما من التقارب المعنوي . قلت : الكلمة البربرية هي « أوْراسْ » وليست « آرّوسْ » ، ومع ذلك فانَّ بين « أوْراسْ » و« روسيا » صلةً اخرى . قال : وما هي ؟ قلتُ ان العشائر البربرية التي تسكن هذا الجبل هي عشائر زراعية تعيش من زراعة الذرة . ومن العجيب ان مزارعها واراضيها لا تزال مشاعة بين رجالها وابنائها يقسمونها بين من يحملون المساحي ، و« يتبعون المحاريث » وهم يتّبعون في ذلك نظاماً قديماً توارثوه خلفاً عن سلف يشبه ان يكون نظاماً « شيوعيًّا » لانهُ لا يعترف بحق التملك لاحدٍ كائناً من كان . ومع ان هذا « الوضع » يرجع الى عهد بعيد جدًّا ، ومع انهُ آخذ في الزوال ، فانهُ لا يبعد ان يكون مقتبساً من الاوضاع الشيوعية الحاضرة التي تقوم اليوم في بلاد السوفييت ! ثم هو لا يبعد ايضاً ان يكون دليلاً على ان البربر هم من « الروس » وليسوا من « اللاتين » !! فضحك الضابط ، وقال : دعنا من الهزل ، غير انهُ دهش لهذا الاتفاق الغريب ! قال الشيخ : ومضيت احدثهُ ، واقول : الرُّمان هم اوّل من اطلق كلمة «البربر» على هذا الجيل ، يذمونهم بهذا الاسم ، ويعنون بهِ انهم همج متوحشون ، وما كانوا ليذموهم بهذا ، لو انهم كانوا يمتون اليهم بقرابة او نسب . فقال : والعرب ايضاً يذمونهم بهذا الاسم الذميم . قلت : كان ذلك بعد ما اشتهروا به وصار لهم علماً يعرفون بهِ بين الشعوب ، على ان عامة هؤلاءِ العرب الذين لم يتأثروا بهذا الاسم الروماني لا يسمونهم « البربر » بل يسمونهم « الشّلْح » يمدحونهم بذاك ، ويعنون انهم اهل نجدة وشجاعة ، وانهم اولو قوة ، واولو بأس شديد . وما كانوا ليمدحوهم بمثل هذا المدح لو لم يكونوا لهم ذوي رحم وأُولي قربى . قال : أفتعتقد انَّ البربر عرب ؟ قلتُ : يكاد يجمع المؤرخون على ان البربر يجمعهم جِذْمان عظيمان : البُتر والبرانس ، ويكادون يجمعون على ان البتر من ابناء برّ بن قيس بن عيلان بن مضر ، وانَّ قبيلتي كتامة وصنهاجة (من قبائل البرانس) هما من عرب اليمن تركهما افريقش (احد تبابعة اليمن) هنا في ليبيا هذه التي سميت

باسمه « افريقية » فيما بعد . وذلك حينما رجع من غزوها . وروى ابن عبد البر عن بعض النسابة من البربر ان البتر والبرانس هما جميعاً لاب واحد هو النعمان بن حمير بن سبإ . ويرى المسعودي وغيره أنهم اوزاع من اليمن وغسان ولخم وجذام وغيرها من قبائل العرب . وقيل هم من العماليق . وقيل من العبر والفينيقيين . وقيل من المصريين الاّ ان ابن خلدون يرى ان البربر كلهم من ولد مازيغ ابن كنعان بن حام بن نوح ، ولا يستثني الاّ قبيلتي كتامة وصنهاجة الحميريتين . على ان ابن خلدون ليس له دليل على دعواه هذه الاّ ما حكاه من ان البربر لا يزالون يتسمّون « الامازيغ » . وهذا لا يكفي في اثبات هذه الدعوى ، فقد تكون فئة « مازيغية » اندمجت في البربر فغلب عليهم اسمها . وقد انقرض اليوم هذا الاسم بالمرة . الاّ ان قبيلة بربرية صغيرة لا تزال الى الآن تسمي لغتها « تمازيغت » اي المازيغية » وليس من الحق ان نترك ما يراه جمهور المؤرخين من عروبة البربر ، وما يقوله نسّابة البربر انفسهم عن اصلهم العربي ، لكي نعتمد هذا القول الذي لا نجد عليه دليلاً ، وان رآه ابن خلدون . وها انت ترى ان كثيراً من المؤرخين يرون ان البربر عرب ، وانهم ينزلون من العروبة في صميمها ولست انا وحدي ارى هذا . قال الشيخ : فقال لي الضابط : الآن انحلّ المشكل . فقلت : وأي مشكل ؟ قال الذي حار فيه اكثر الفرنجة الغربيين الذي كتبوا في تاريخ البربر . قلت : وما الذي حاروا فيه ؟ قال : امتزاج العرب والبربر امتزاجاً شديداً ، حتى صاروا في مدة قليلة امة واحدة متجانسة الاخلاق والعادات ، وهذا امر عجب له كتّاب الفرنجة اشد العجب ، وحاروا في تعليله ومعرفة اسبابه ، وقالوا انه لم يوجد له مثيل في التاريخ . وها انت قد حللت المشكل ، وقلت ان العرب والبربر هما من عنصر واحد يجري في عروقهما دم واحد . قال الشيخ فقلت : نعم ، والعرب حينما توغلوا في هذه البلاد يفتحونها لم يضطر احد منهم ان يتخذ لنفسه ترجماناً بينه وبين البربر وهذا معناه ان اللغة البربرية لم تكن يومئذ تزيد على انها لهجة عربية محرّفة يفهمها العربي دون مشقة او عناء وكان يومئذ اكثر اسماء الاعلام عند البربر عربيًّا . وهذا « طارق بن زياد » القائد المشهور ، وفاتح الاندلس قد قال عنهُ التاريخ انهُ بربري ، وانهُ هو صاحب الخطبة المشهورة ، ولئن سمي « طارق » باسم عربي في اوائل الفتح الاسلامي ، فقد سُمّي ابوهُ قبل ذلك « زياداً » ! وأنا لا اشك في نسب طارق ، ولا في نسبة الخطبة اليه . ولكن هذه الخطبة التي هي آية خالدة من آيات البيان العربي ، هي ايضاً تمثل « النفسية » العربية في اكرم صورها وأسمى معانيها . ومعنى ذلك ان « طارقاً » عربي بطبعه ومزاجه ، وعربية تلك النفس التي بين جنبيه ، وعرب قومه : هؤلاء الذين يسمونهم « البربر » او « الامازيغ »

على ان كل ما قيل في اصل البربر انما ينطبق على البربر قبل الاسلام ، أما هؤلاء البربر المسلمون فهم اصرح في العروبة من بربر الجاهلية الاولى ، وهذه ناحية من نسب البربر غفل عنها المؤرخون فما عنوا بها ، ولا بحثوها . وأنا اريد ان اعرض لها في هذا المقال . فقد ذكر بعض المؤرخين

الفرنجة ان البربر في منتصف القرن السادس للميلاد قد خسروا خمسة ملايين من الانفس في حروبهم مع الروم البيزانطيين وذكر المؤرخون العرب ان البربر خسروا في حروبهم مع العرب — ايام الفتح الاسلامي — خلقاً كثيراً . واذا انت اضفت الى ذلك ما خسروه من قبل ومن بعد في الفتن والثورات ايقنت ان اكثرهم قد تلاشى . ولم يبقَ منهم الاّ فلول وبقايا قد اعتصموا بقنن الجبال ، ولاذوا بالصحاري . ثم حدَّثنا التاريخ ان موجات عظيمة من العرب قد غمرت بلاد البربر هذه في اوقات مختلفة . وقد احصيت موجة واحدة من هذه الموجات العربية فاذا هي تربي على مليون نسمة ، وهي موجة بني هلال وحلفائهم الذين نقلهم الفاطميون في القرن الخامس الهجري من صعيد مصر ، وارسلوهم نقمة على دولة الصنهاجيين الذين كانوا يومئذ ينصرون مذهب اهل السنَّة في هذه البلاد ، ويضطهدون مذهب الشيعة فيها . وكانت المذاهب الدينية الاسلامية يومئذ بمنزلة الاحزاب السياسية اليوم ، يصطنعها اولو الامر لتمكين نفوذهم وتأييد مُلكهم ويتخذها المتطلعون الى العروش والتيجان وسائل ومطايا الى انتزاع الحكم والسلطان

وكان النزاع بين هذه المذاهب قاسياً عنيفاً في منتهى القسوة والعنف لا يتورّع فيه المتنازعون عن الاغتيال وسفك الدماء . وكان لكل مذهب دعاة وزعماء قد انبثّوا بين قبائل البربر ينشرون دعوتهُ ، ويستعملون كل وسيلة من وسائل الاغراء والارهاب ليحملوا الناس على ان يعتنقوه طوعاً وكرهاً . وكان العرب من هؤلاءِ الدعاة والزعماء « يتبربرون » استمالةً للبربر ، واخفاءً لانفسهم ولغاياتهم عن « الخلافة » القائمة يومئذٍ ، وتضليلاً لعيونها وارصادها وكانوا يكثرون التزوّج من النساء البربريات ، استكثاراً للحماة والخوّل والانصار . وقد اصبح ابناؤهم بعد ذلك « بربراً » أقحاحاً . وهؤلاءِ اهالي وادي مزاب في جنوب الجزائر يتكلمون اليوم اللهجة البربرية كلغة منزلية ، ولكنك اذا اطّلعت على انسابهم واصولهم وجدتهم كلهم من العرب الذين « تبربروا » لسبب من مثل ما اقول . ويحدّثنا التاريخ ان الادارسة الطالبيين قد فرّوا الى البربر واندسّوا بينهم هم ومن كانوا حولهم من الاشياع والاتباع والمريدين ، ثم صاروا بالفعل « بربراً » ، وذلك فراراً بانفسهم من سيف هادم دولتهم موسى بن ابي عافية ومن سيوف رجاله الذين امعنوا فيهم تشريداً وقتلا . وكذلك ما دالت دولة الاَّ و« تبربر » اكثر اشياعها وانصارها ، وكلما قامت دولة الاَّ واندسَّ خصومها بين البربر ، واختفوا من الميدان . و« عملية التبربر » هذه هي عملية بسيطة جدًّا فما هي الاَّ ان يقيم العربي بين البربر مدة من الزمن حتى يصبح منهم . وقد شاهدنا عرباً خلّصاً افراداً وجماعات قد اضطرتهم مصالحهم الحيوية او الحروب الاهلية الى الاقامة بين البربر فلم يكد يمضي عليهم زمن قليل حتى « تبربروا » عن بكرة ابيهم واخرى تدلُّ على عروبة البربر ، وهي انهم يحبون العروبة ويميلون اليها كل الميل. وقد قرأنا تاريخ البربر ، ودرسنا حياتهم الحاضرة فما وجدنا في خاصتهم ولا في عامتهم ادنى اثر لهذه « الشعوبية » التي لم تكد تنجو من شرّها امة من امم الاسلام الاخرى

ولقد اسّس البربر دولة كبرى في هذه البلاد ، وأسسوا في بعض انحائها امارات صغرى ، ولكن لم تقم ولا واحدة منها على العصبية البربرية ، بل قامت كلها على دعوات دينية محضة لا أثر « للبربرية » فيها . وأكثر الاسر البربرية التي اسست هذه الدول والامارات ، قد ادّعت لنفسها العروبة وادعت ان نسبها يتصل بآل البيت . فبنو عبد الواد ، وبنو زيّان ، وبنو مرين ، والموحدون كلهم قد ادعوا أنهم عرب ، وانهم من السلالة الهاشمية . أما محمد بن تومرت البربري فلم يكتف بادعاء العروبة وبالانتساب الى آل البيت النبوي الكريم، بل زعم انهُ هو «المهدي المنتظر». والّفوا كتباً كثيرة في اثبات «شرف» هذه الاسرة البربرية مثل «قلائد العقيان في شرف بني زيّان» وغيره. وهذا انلم يدلّ على ان هذه الاسر البربرية هي من السلالة الهاشمية فهو يدل على منزلة البربر في العروبة وعلى مكانة العروبة في انفسهم . وأنا لا استبعد ان يكون هؤلاء عرباً، ولا ان يكونوا « هاشميين»

ولو ان ابن خلدون نظر الى اللغة البربرية لكان له رأي آخر في اصل البربر ، واذن لوجد فيها ما يدله على عروبة البربر ، او ما يدله في الاقل على اصلهم السامي . فهذه اللغة البربرية هي عربية لا في الفاظها ومفرداتها فقط ، بل ايضاً من حيث تراكيبها وحروف المعاني فيها . ولا تزال تلازمها بعض خصائص اللغة السامية الاولى ، فضمير الغائب فيها مثلاً هو حرف السين فهم يقولون « كتابسْ » اي كتابه او كتابها ، ويقولون « مَـعَـسْ » اي معه او معها ونحو ذلك . وحرف العين لا يوجد في كلمة بربرية ، وكل كلمة فيها عين فهي عربية « مبربرة » او ان هذا الحرف لا يوجد في كلمة بربرية الاّ في النادر القليل . ولقد قالوا ان اللغة السامية الاولى يعبَّر فيها عن ضمير الغائب بحرف السين ، وانها لا « عين » في كلمة من كلماتها . ومخارج الحروف في البربرية هي عربية خالصة حتى انك لا تجد فيها حرفاً غير عربي . ومن العجب ان هذه اللغة هي ذات ضاد كالضاد العربية تماماً. فالفعل المضارع المسند الى المخاطب يختم فيها دائماً بحرف ينطقهُ كثير من البربر ضاداً عربية فصيحة . وهنالك اسماء بربرية فيها هذه الضاد ، منها : « آضِيلْ » : العنب . «آحبّـوض» : التمر في لغةٍ « تيحبّـوض» : البطن في لغةٍ اخرى . « آفرضالْ » : العظيم او الكبير . « آمتشيض » : التين . «إيضارنْ»: الارجل او الاقدام. قال الشيخ : وادليت الى الضابط بالنتائج التي كنت انتهيت اليها في هذا الموضوع بعد الدراسة المستفيضة والاستقراءِ الشاقّ الطويل، وهي ان هذه البربرية ليست لغة مستقلة بنفسها ، وانما هي عربية في اصلها ، قد تحرفت بطول الزمن حتى اصبحت اكثر بعداً عن العربية الفصيحة من هذه اللهجات العامية المختلفة التي تتكلمها الشعوب الناطقة بالضاد . ويجوز مع ذلك ان تكون العربية قد غزت البربرية وامعنت فيها حتى نسفت كيانها وافقدتها كل الخصائص والمميزات

ثم قال الشيخ : وماكنت اظن ان هذا الضابط الفرنسي سيعلن في احد المؤتمرات هذه المعلومات ويقرّر انّ هذه البربرية انما هي عربية من غير ان يشير بكلمة واحدة الى انهُ اخذ ذلك كله عن هذا الشيخ العربي . وهنا قام الشيخ غضبان أسفاً ، ثم ودّعنا ومضى

وهران (الجزائر)

هل الانسان آلة

الجدال يتسع نطاقه ويتشعب

هل شكسبير وأديصن واينشتين والآلة من قبيل واحد ؟

في اللغة العربية ثمانية وعشرون حرفاً ، تجدها في مؤلفات الجاحظ والرازي وابن سينا كما تجدها في اشعار البحتري والمتنبي والمعري وشوقي . وفي الطبيعة اثنان وتسعون عنصراً تتركب منها الجمادات على اختلافها والاحياء على تنوُّع مراتبها من الاميبا الى الانسان . فالمواد الاساسية واحدة في الانسان وحجارة الاهرام واليواقيت الكريمة وخراطين الارض وزواهي الازهار . فاذا نزلت مراتب السلَّم الحيوي رأيت الخلايا قد قربت في شكلها وتصرُّفها من بعض الجوامد . بل كلما اقتربت من الاميبا وهي ادنى الاحياء ، رأيت الجسم الحيّ وقد اصبح اوثق ارتباطاً ببيئتهِ وأشد اعتماداً عليها ، من الاحياء العليا التي تستطيع ان تستقلَّ عن بيئتها بعض الاستقلال ، او ان تعدّل فيها وفقاً لحاجتها . فالخلية الواحدة في هذه الاحياء الدنيا تصبح في عرف علم الحياة «تكويناً كيمائيًّا طبيعيًّا» Physico-chemical-system خذ مثلاً على ذلك قطرة من الكلوروفورم وصبّها على قطعةٍ من اللكّ Shellac فتتحرك القطرة عليها حركة شبيهة بحركة الاميبا . فيسند الطبيعي حركتها هذه الى قوة الجاذبية السطحية ، التي تمكّن الحشرات من المشي على الماء ، وتجعل قطرات المطر تتجمع كريَّات صغيرة على سطحٍ لا يخترقهُ الماء . او خذ قطرة من الكلوروفورم وضعها على خرزةٍ مغطَّاة باللكّ ، فتنتشر حول الخرزة المغطاة وتأكل اللك وتهضمهُ ثم تقذف الخرزة نفسها . ولو كانت الاميبا محلها لما استطاعت ان تفوقها في تصرُّفها هذا

كل ظاهرة من ظاهرات الحياة تمكن اعادتها في المختبر ، حتى ظاهرة التكاثر ، على ما ترى في بلورات الشبّ او كبريتات النحاس . ومع ذلك يظلُّ الفرق كبيراً جدًّا ، بين كتلة من البروتوبلاسمة ، وقطرة من الكلوروفورم تبتلع اللكّ وتهضمهُ . ولكن اذا صعدت سُلَّم الاحياء ، وجدت الفرق بين الحي وغير الحي واضحاً لا شبهة فيهِ . الانسان مستقل عن بيئتهِ الى حدّ بعيد ، ولكن الاميبا ليست مستقلة.* ومع ذلك فالانسان ليس الاَّ نظاماً معقداً من البروتوبلاسمة لا فرق في تركيبهِ الاساسي ، بينهُ وبين مادة الخلية البدائية

وقد نشأت في خلال العصور مدرستان من مدارس الفلسفة ، الاولى وهي المدرسة الحيوية

يقول اصحابها ان الانسان مخلوق مميز بالروح والشعور والارادة الحرة . أما اصحاب المدرسة الثانية — المدرسة الآلية — فيردُّون على اولئك بأن الانسان كالاميبا ، « تكوين طبيعي كيائي » انما هو اشدُّ تعقيداً منها في تركيبهِ . ليس ثمة روح ولا ارادة حرَّة . واذا كان يبدو لكم ان الانسان حر الارادة فذلك لان سَبْرَ استجابتهِ للمنبهات او الحوافز المختلفة الناشئة عن بيئتهِ معقد وصعب، لم تجدوا اليهِ السبيل بعد . وكلما اتسع نطاق معرفتنا ببيولوجية الانسان وسيكولوجيتهِ ، نزداد اعتقاداً بأنهُ اقرب الى ان يكون « آلة معقدة التركيب »

ومن المتعذر ان تخضع هذه المذاهب والآراء للامتحان . لان الجسم البشري ما يزال متسماً بسمة مقدسة تجعل تجربة التجارب الحيوية فيهِ امراً متعذراً . فالعالم فساليوس اضطهد في عصره لانهُ شرَّح جثة . ولست تجد الآن طبيباً او بيولوجيًّا يجرؤ على اجراء تجربة ما على طفل قبل ان يمتحنها امتحاناً دقيقاً بتجربتها اولاً في الحيوانات . بل ان استعمال الحيوانات في بعض هذه التجارب ، مقيَّد في بعض البلدان بقيود ثقيلة . والمذهب الآليّ يمكن امتحانه باحدى طريقتين . إما بدراسة التوائم وإمَّا باستنباط الآلات التي تتصرف تصرفاً يشبه السلوك الانساني في نواحيهِ العامة

فلنبدإ بالتوائم . فالتئمان اولاً يجب ان يكونا من بيضة واحدة (Identical) لان الشبه التام بين تئمين من هذا القبيل يجعل التفريق بينهما متعذراً حتى على الام

خذ مثلاً على ذلك تئمين من هذا القبيل يدعيان « جمي » و « جوني » . امهما عاملة تلفون ووالدهما سائق سيارة . فمنذ ما بلغ هذان التئمان عشرين يوماً من العمر ، عنيت بهما الباحثة مرتل ماكرور من علماء معهد الامراض العصبية بنيويورك . فجعلت تستقدمهما اليها في كل صباح . كان « جوني » اضعف بنية عند ولادتهِ من تئمهِ « جمي » . وقد بلغا من العمر عشرين شهراً الآن . أما «جوني» الضعيف عند الولادة فقد درّب ومرّن ، حتى أصبح يستطيع ان يتزحلق على القباقيب وان يغوص في الماء ويسبح فيهِ وان يتسلق سلَّماً . أما تئمهُ فلم يدرَّب بل ترك وشأنهُ . فهل يستطيع ان يجاري «جمي» تئمهُ في شيءٍ ؟ كلاَّ . بل اذا وضع على رف مرتفع قليلا بدأ يعول خوفاً واستنجاداً وعند المقابلة الآن ترى كأنَّ « جوني » ، يفوق« جمي » ذكاءً ومقدرة

فنحن هنا امام طفلين بلغا في تشابههما عند الولادة اقصى ما يمكن ان يبلغ التشابه بين كائنين ، ولكنهما يختلفان الآن اختلافاً كبيراً ، بعد سنةٍ واحدةٍ من المرانة والتدريب

ولكننا نشكُّ كثيراً في اننا نستطيع بلوغ الحقيقة في هذا الموضوع عن طريق دراسة التوائم . واذا كان الانسان آلة فيجب ان يكون في وسع البيولوجي ان يستنبط آلة خاليةً من الروح ، ولكنها تتصرَّف كما يتصرَّف الكائن الحيّ . والعلماء لم يغفلوا ذلك ، بل انَّ طائفة منهم قد حاولتهُ

ففي اوائل هذه السنة ، وقف طالب من طلاب معهد ماستشوستس الفني الصناعي Techonology ويدعى نورمن كرِم Krim امام قسمٍ من اقسام معهد المهندسين الكهربائيين في اميركا، وقرأ رسالة

عنوانها « الفعل العكسي المحوّل ومقابلهُ الكهربائي الميكانيكي » . وفي هـذه الرسالة وصف آلة كهربائية يَبِضُ فيها احياناً وميض العقل الانساني ، ثم تكتنفها غياهب الجمود . واشار كرِمْ في مقالتهِ الى انهُ تتبَّع مباحث الاستاذ كلارك هَلْ وصحبهِ في جامعة يايل الاميركية ، حيث بنوا آلات مختلفة ، تستطيع ان تتذكر وتنسى . وهؤلاءِ المستنبطون ليسوا واهمين في نظرهم الى الآلات التي استنبطوها . فانهم لا يتوهمون ولا يريدون ان يوهموا انهم صنعوا الانسان الميكانيكيّ (Robot) الذي تصوَّرهُ الكاتب التشكوسلوفاكي كابك في مسرحيتهِ ، ولا ان يصنعوا آلات للاعمال التجارية والمالية تحصي وتعدُّ وتجمع وتطرح من تلقاءِ نفسها . بل هم من اصحاب المذهب الآلي في طبيعة الحياة ويحاولون بما يقومون بهِ من المباحث واستنباط ما يستنبطونهُ من الآلات ، ان يكشفوا السرّ الغامض اذا امكن من هذه السبيل

فهم يعتقدون ان كلمات « العقل » و« الروح » و« النفس » الفاظ لا معنى لها ، ورثناها من مخلّفات الماضي الغيبية ، وان الانسان سواء أكان عبقريًّا كاينشتين او ابله ، لا يعدو ان يكون نظاماً معقَّداً من المادة يتفق ان تكون في حالة ندعوها حالة الحياة ، وانهُ لا بدَّ في النهاية من تفسيرها بقواعد الطبيعة والكيمياءِ والكهربائية . والواقع ان الغرض من الآلات التي بناها كرِم وهَل وصحبهما ، انما هو اقامة الدليل على ان الانسان آلة Automaton — مخلوق تعلَّم ان يستجيب لقوى داخلية وخارجية استجابة طلقة Spontaneous عند ما تفعل هذه القوى في الحواس وما وراءها من الجهاز العصبي . ففي جميع المحاولات التي حاولوها صنعوا آلات ميكانيكية وكهربائية وكيمائية كهربائية ، تستطيع ان تفعل فعل « التأثير العكسيّ المحوّل » الذي اشتهر بهِ العلاَّمة الروسي ايڤان بافلوف .

ولسنا في حاجةٍ الى الافاضة في موضوع بافلوف فقد سبق لنا وصف المباحث الاساسية التي اشتهر بها فقد حصر[1] هذا العالم تجاربهُ في الكلاب . ومن المعروف ان الكلب ، ككل الاحياء المدركة ، اذا رأى قطعة من الحلوى سال لعابه . فاستغلَّ بافلوف هذه الظاهرة ، وهي ظاهرة من الظواهر التي تسمى « افعالاً عكسية » اي انهُ من الافعال التي يؤديها الجسم بقاسر ذاتي ، ومن غير ان يكون لتجاريب الحياة فيها أقل اثر . وهنالك كثير من الافعال العكسية بعضها اصيل وبعضها مؤصل . ومنها ما يمكننا مشاهدتهُ في الاطفال ، ومنها ما يتأصل على قدر من العمر ومرور من الايام . فالطفل يعطس ويتثاءب ويتمطّى ويحوّل عينيهِ نحو النور ، ويأتي غير ذلك من الافعال في مختلف اطوار عمره ، من غير ان يكون في حاجة الى ان يتلقنها او يتلقاها عن غيره . وكل هذه الافعال تدعى الافعال العكسية او بالاحرى ، كما دعاها بافلوف افعال عكسية أصيلة Unconditioned Reflex actions وهي بذاتها التي كانت تدعى من قبل الغرائز Instincts والغرائز المركبة كغريزة بناء الاعشاش في الطيور ، تلوح كأنها جملة مندمجة من افعال عكسية . والافعال

(١) راجع مقال « عناق العلم والادب » مقتطف مايو ١٩٤٣ صفحة ٥٧٩

العكسية في الحيوانات الدنيا قلما تؤثر فيها تجاريب الحياة . فان الفراشة تستمرُّ تحوم حول الضوء حتى بعد ان يحترق جناحاها . وعلى الضد من ذلك تجد الحال في الحيوانات العليا . فان تجاريب الحياة لها في هذه الافعال العكسية الاصيلة ، تأثير بالغ فيها. ولا يخرج الانسان عن حكم هذه القاعدة. ولقد قصر بافلوف تجاربهُ كما قلنا من قبل على سيل اللعاب في فم الكلاب . فخلص منها بالقاعدة الآتية قال :

« عند ما يقترن بالمنبه الذي يبعث اي فعل عكسي اصيل او يتقدم عليهِ ، مرات عديدة منبه ثان ، فان هذا المنبه الثاني يحدث مع الزمن نفس الاستجابة Response التي كان يبعثها المنبه الاول في احداث فعل عكسي متحول » . — Conditioned Reflex action

فان سيل اللعاب فعل عكسي أصيل ، لا يحدث اصلاً الاَّ عند وجود الطعام في الفم . ومن ثمَّ يحصل عند مرآى الطعام او شم رائحته ، او عند حدوث اية علاقة او اشارة تسبق مباشرة الاكل . وكل هذه الافعال يدعوها بافلوف الافعال العكسية الاصيلة . ثم قرن تقديم الطعام بقرع جرس وكرَّر ذلك مراراً . ثم استغنى عن تقديم الطعام فاصبح قرع الجرس يسيل اللعاب في فم الكلب فالاستجابة (سيل اللعاب) واحدة في الفعل العكسي الاصيل والفعل العكسي المتحول ولم يستحدث في الامر من شيء الاَّ « المنبه » Stimulus الذي يشترك او يتحد مع المنبه الاصلي من طريق التجربة. وهذه القاعدة هي اساس كل تعليم او استيعاب للمعلومات ، واساس الظاهرة النفسية التي كانت تدعى من قبل « تداعي او اشتراك الافكار » ، واساس تعلم اللغات ، واستحكام العادات واستبدادها بالافراد والجماعات ، وعلى الجملة هي الاساس العملي لكل مناحي السلوك الانساني الخاضع للتجربة

وبعد ان استرشد بافلوف بهذه القاعدة مضى يطبقها على ما يخطر بباله من ممكنات التطبيق . فانهُ لم يقتصر على امتحان منبهات الطعام الشهي . بل عمد الى الاحماض المكروهة ، يأخذ منها منبهات يستعملها في تجاريبه ، حتى يستطيع ان يؤصل في كلابهِ استجابات « التوقي » ، كما يؤصل فيهم استجابات « التشهي » فبعد ان ينبه فعلاً عكسيًّا اصيلاً ، يعمد الى قمعه بفعل آخر . فاذا كانت العلامة او الاشارة التي يعمد اليها يعقبها نتيجة مرغوب فيها طوراً ، ونتيجة مكروهة طوراً آخر ، فان الكلب يصاب باضطراب عصبي مثل الهستريا او النورستانيا ، وتظهر عليهِ كل العلامات المميزة لاحد المرضين

ففي كل فعل عكسي عنصران. الاول هو الحافز او المنبّه وهو بمثابة الضغط على زناد البندقية . والثاني الاستجابة ، وهو ما يقع بعد الضغط على الزناد اي انطلاق البندقية

فهل الجسم آلة تسيطر عليها قوى من قبيل ما يعرف بالحوافز او المنبّهات Stimuli ؟ اما بافلوف واتباعهُ فيرون ذلك . ثم ان الدكتور وطسن الاميركي قد بنى فلسفة نفسية كاملة على هذا الاساس، تعرف بالسيكولوجية السلوكية Behaviouristic فاذا صحَّ هذا ، فمن العبث ان نبحث عن سرّ عظمة اديصن واينشتين ولنكن ونيوتن في اندماج خاص من الخلايا الحية تلقوها وراثة من اسلافهم . انهم على ذلك يصبحون آلات حية ، تطبّعت — والتطبّع قائم على قاعدة الفعل العكسي المحوّل —

بحوافز بيئتها لتخرج خططاً اجتماعية خطيرة كالرئيس لنكن ، او مصابيح كهربائية وغراموفونات كاديصن ، او نظريات في الكون كنيوتن واينشتين

واصحاب هذه النزعة لا ينكرون الحب والبغض والبطولة . وانما يقولون ارونا السلوك الذي تطلقون عليهِ صفة الحب او صفة البغض او صفة البطولة ونحن نشرع في تجربة تجارب تمكننا من الانباء بدقة عن الوان هذا السلوك . فاذا قبلت هذه النظرية ، اصبحت الخطوة التالية ، جلية بل محتومة ، وهي بناء شيءٍ يتصرف كالحيوان ولو كان في ابسط عناصر تصرُّفهِ

كيف يفسر اصحاب المذهب الآلي الفعل العكسي البسيط والمحوَّل ؟ كيف يفسرون سيل اللعاب عند رؤية الطعام ؟ يقولون ان العين تبعث رسالة الى الدماغ . فيصدر الدماغ الاوامر الى الغدد اللعابية واللسان والفكين والفخذين وغيرها من الاعضاء . فتنشأ كذلك صلة بين مراكز الحسّ ومراكز الحركة ، التي تسيطر على الغدد والفكين وغيرها . ثم ان مباحث السر تشارلز شرنغتن الانكليزي قد اثبتت ان رسالة العصبية من قبيل التيار الكهربائي

فانعد الآن الى احدى الآلات التي استنبطها هَل وكرم وصحبهما . فهي عبارة عن دورة كهربائية تحتوي على بطرية وزرٍّ للكبس ومصباح . اضغط على الزر . فهذا الضغط في الآلة هو المنبه ويقابل مشاهدة الكلب للطعام . فينير المصباح وهذه الانارة هي الاستجابة وتقابل سيل اللعاب في فم الكلب

اما الفعل العكسي في الكلب — اي سيل اللعاب عند رؤية الطعام — فقد تحوَّل . فأصبح يسيل عند قرع جرس بعد مرانةٍ . فكيف نعلّل ذلك ؟ ليس ثمة صلة مباشرة بين العين والاذن . ولكن وراء العين والاذن نجد الدماغ وهو اشبه شيء بمركز كهربائي . بل هو يفوقهُ ، في انهُ مركز تنسّق فيهِ الرسائل العصبية حتى لا يتعارض بعضها مع بعض . فكلما قرع الجرس استثيرت العين والاذن ، استثارة غير مباشرة ، عن طريق الدماغ (اي الجزء من الدماغ المعروف بالمخيخ) . بل لتستطيع ان تستغني عن المخ في حياة الكلب وتظلُّ قادراً ان تحدث في الكلب فعلاً عكسيًّا محوَّلاً كاسالة اللعاب لدى قرع الجرس بدلاً من اسالتهِ عند رؤية الطعام

ثم لننتقل من الفعل العكسي المحوَّل الى الآلة . فنضيف اليها بطرية ثانية وزرًّا ثانياً ومصباحاً ثانياً . اضغط على الزر الثاني ، فلا ينير المصباح الاول . فكأنك قرعت الجرس امام الكلب لاول مرّة فلم تتأثر بصوتهِ غدده اللعابية . ثم اضغط على الزرّين معاً فيضيء المصباحان معاً . فكأنك قدمت الى الكلب الطعام وقرعت الجرس معاً فسال لعابهُ . وامضِ في ضغط الزرّين . فكأنك تعلم هذه الآلة نوعاً من تداعي الافكار . او كأنك تدرّبها على تحويل فعلٍ عكسيّ اصيل . وبعد ان تفعل ذلك عشر مرات او عشرين مرةً ، اضغط على الزر الثاني وحده — هو الزر المقابل لقرع الجرس — فيضيء المصباح الاول وهو المقابل لسيل اللعاب !

ولكن امض في ضغط الزر الثاني ، فينير المصباح الاول عدّة مرات . ثم يتوقف عن الانارة . وهذا يقابل ما يقع تماماً للكلب . فانك بعد ان تعوّده الاستجابة لقرع الجرس بسيل اللعاب يمضي يسيل لعابهُ عدة مرات كلما قرع الجرس . ثم كأنَّ كيانهُ يستيقظ الى ان الغرض من سيل اللعاب هضم الطعام ، وقرع الجرس هذا لا يقدم لهُ طعاماً ، فيرفض كيانهُ بعد ذلك ان يُسيل اللعاب في الفم عند قرع الجرس اي ان الفعل العكسي المحوّل يرتدّ فعلاً عكسيًّا اصيلاً

او خُذ آلة اُخرى مبنية من عيون كهربائية تتأثر باللونين الاحمر والاخضر وادوات كهربائية اخرى لا يهمّنا التوسع في وصفها . فقد وضع المستنبط هذه الآلة في صندوق يشبهُ في شكلهِ رأس الانسان واقامهُ على عجلات تسير على قضبان ، فتستمدّ الآلة الطاقة من طريق هذه القضبان

اقرع الجرس . فتتجاهل الآلة قرعك او امسك بالجزَر او الاسبانخ امامها . فلا تستجيب . ولكن جرّ هذه الآلة على القضبان عبر الغرفة عشر مرّات ثم اقرع الجرس ، فترى الآلة وقد سارت على القضبان من تلقاءِ نفسها . او امسك بالاسبانخ امام عيونها الكهربائية ، وفي الوقت نفسهِ شُدّ اذني الرأس . فبعد ان تفعل ذلك عشر مرّات ، تهزّ الآلة رأسها من تلقاءِ نفسها عند مجرّد رؤية الاسبانخ . واذا لوّحت بالجزر امامها وربّتَ على قفا الرأس في الوقت نفسهِ عشر مرّات كذلك، هزّت الآلة رأسها عند رؤية الجزر من دون ان تربتها . والآلة تتصرف التصرف نفسهُ اذا ابدلت الاسبانخ بلوحة خضراء والجزر بلوحة برتقالية ، لان اللون هو العامل الفعّال في هذه التجربة

***

ان ما تفعلهُ هذه الآلة ، يكاد يكون لا شيء ازاءَ ما يستطيعهُ جسم حيٌّ بسيط التركيب كالاميبا مع ان الاميبا ابسط الاحياءِ على الاطلاق . وقد يكون في متناول العلماءِ ان يصنعوا جهازاً يتصرف تصرّف الاميبا . ولكن بناءَ جهازٍ يستطيع ان يتصرف تصرف الدماغ الانساني فمستحيل على ما نعلم الآن . ذلك ان المادة السنجابية في الدماغ تحتوي على نحو عشرة آلاف مليون خلية عصبية . وهذه الخلايا مترابطة وعدد الصلات بينها يبلغ الوف الملايين وكل عملٍ من اعمال الانسان العكسية والشعورية يقتضي عمل طائفة كبيرة مترابطة من الخلايا

***

اما الحيويون فيقولون بلسان هولدين : يحسن بنا ان نزن الانسان ونحلّل نُسُجَهُ والمواد التي تدخل في تركيبها ولكن ذلك لا يمكننا بوجهٍ من الوجوه من ادراك كنهُ الصفات التي يتصف بها سلوكهُ الشعوري او الواعي Conscious اي ان هولدين يعترض على هذه الآلات ، لانها اذ تتصرّف تصرّفاً شبيهاً ببعض نواحٍ من تصرّف الجسم ، لا يكون تصرّفها هذا واعياً او شعوريًّا . فيردّ الآليون عليهِ ، مستندين الى بافلوف قائلين : ونحن غرضنا ان نبين ان الشعور او الوعي ليس الاّ مجموعة من الافعال العكسية المنفصلة بعضها عن بعض

فاجـــــنر

WAGNER

وتلخيص أوبرة « لونجرين »

أتاح لنا شاعر الفرنسية الموهوب ، المصري المثقف « خيري بك » فرصة ثمينة مرَّت كما تمر على المرء اسعد اوقات حياته، ساعة ان تحدَّث الى سامعيه وعارفي قدر أدبه عن موسيقى ڤاجنر في معهد الموسيقى الملكي. تحدث عن موسيقى هذا الفنان في نواحٍ متعددة تدل على انهُ جهد جهداً موفقاً في دراسة ادب ڤاجنر وفنهِ الموسيقي واوپراتهِ . وما ظنك بشاعر يصرف من زهرة عمره اكثر من عشرين ربيعاً يدرس فيها حياة هذا العبقري العظيم ... فانت اذا سمعته وهو يتحدث عن ڤاجنر لا تنصرف عنهُ الاَّ ولك ثقة تامة تحت تأثير العاطفة والشعور الموسيقيين بأن هذا المصري طُبع بروح ڤاجنر نفسه فتحدث الينا عن موسيقاهُ وفنه وعن أدبه واُپراتهِ في ليلة من الليالي المعدودة في العمر

«جميع بواعث النغم دانت لارادته . فكان أميراً للالحان الصاخبة وقد اتسمت من موج البحار بايقاعه العجيب . بها يأمر السماوات ان ارعدي او اخلدي الى السكون . كان يحس بالموسيقى الكامنة في أكمةمن الجرانيت ، ويسمع كل همسة من همسات النسيم في الاشجار . بالمحبة والبغض، بالفرح والحزن والنشوة ، كان يجعلها في القلوب ناراً او يجعلها جداً . فاذا جاء يوم في المستقبل البعيد ، واستشرف الناس الماضي الغابر المجيد ، للبحث عن امارات الخلود قالوا : «انه كان نسيج وحده. ان سمفونياته الحية تتردد الليلة اصداؤها في درب التبان. فتدخل الطمأنينة على السكان في عنقود الثريا »

[للشاعر فتزهيو مينجرود]

ولد وليلهم رتشرد فاجنر المؤلف الموسيقي العظيم في مدينة ليبزج عام ١٨١٣ ومات عام ١٨٨٣ رجلاً تمثلت فيه العصامية والاعتماد على النفس . درس الموسيقى في المام وإسهاب هيئا له كرسي الاستاذية في مسرح ڤرزبرج حيث كان مشرفاً على الموسيقى وما يتصل بها . ولقد ذهب الى باريس عام (١٨٣٩) حيث قضى فترة من عمره الى سنة (١٨٤٢) ومن ثمَّ رحل الى درسدن حيث عين استاذاً ايضاً للموسيقى . ولقد حدث ان نفي من المانيا عقب ذلك للاحوال السياسية الخاصة بثورة (١٨٤٩) فنزح الى سويسرا وصرف فيها اثني عشر عاماً متنقلاً منها الى انكلترا وايطاليا وفرنسا . ولقد مضى من سنة (١٨٦١) الى سنة (١٨٦٤) فيما بين فينا وميتز مجدًّا في سبيل رزقه الى ان ظفر بمرتب مستديم نفحهُ بهِ « لدفيج الثاني » ملك بافريا

وظلَّ مقيماً في سويسرا الى عام ١٨٧٢ وبعدها نقل الى « بايرويت » Baireuth حيث امضى الشطر الاخير من حياته وقضى نحبه في مدينة البندقية في ١٣ فبراير سنة ١٨٨٣. ولقد تزوج فاجنر في حياته مرتين . الاولى من « مينابلانر » والثانية من « كوزما فون بيلو » ابنة الموسيقار لِسْت.

***

اشتهر فاجنر «بأوپراته» الموسيقية فألف منها ما يُعَدُّ الى الآن في اوربا نوعاً فريداً من الانواع الحية الفتانة . « اوپراته » فيها عبقرية موسيقية يقبل عليها عشاق فاجنر من الجمهور المستمع فضلاً عن أئمة الفن والنقد . . يكفي ان يقال فيها انها موسيقى رجل نبت عصامياً وعاش لفنه وفي سبيله هائماً من بلد الى بلد كالطائر الطريد الصدّاح !! ومن سوء حظه ان استعدى عليهِ خصومه اصحاب القوة فنفي من وطنهِ وظلَّ مشرَّداً الى ان ضمهُ مليك بافريا فتمرَّد ايضاً على الحياة لانها عنده لاشيء . . ولان الجمال الروحي في عاطفته فطري يغذيه

تلك هي الشاعرية الطريدة التي تعيش لنفسها وتعمل للناس تسمو بالحياة الى المعاني العالية الرفيعة . . تلك الشخصية الفذة العظيمة لا ترفعها الحياة بل تنازلها . تصارعها الشدائد فتخرج اصلب عوداً . وتعجمها الحوادث والمحن لتعود اكبر نفساً واقوى مراساً

استطاع فاجنر في حياته الفنية ان يهذّب من فن الاوپرا فأودع فيها من التجديد ووسائله ومن السبك والوانه ما جعل لها قيمة جدية في عالم البقاء . فقد ضمن للاوپرا القوة التي نلمسها في القصة التمثيلية التي لا يستطيع الانسان هضمها واساغتها بغير الموسيقى . والروح الموسيقي الذي يكوّن الاوپرا في مذهب فاجنر وتدور عليهِ الحوادث نفسها مبعث القوة والنهوض فيستثير كوامن النفس ويلهب منها العواطف والاحاسيس . ويفسر فاجنر مذهبه الموسيقي باكساب الحركات والحوادث لباس الروح العاطفي الذي لا يستطيع الكاتب او الشاعر ان يبرزه في شيء من التأثير كما يوفق الى ذلك الموسيقي الملهم . الموسيقي الشاعر بفطرته . الموسيقي الروحي الذي تلهمهُ الانسانية المعذبةَ رسالة الألم وعبارة الرجاء . .

واشهر اوپرات فاجنر التي اعدّت للتمثيل وشهدتها معظم مسارح اوربا هي « داي فين » سنة ١٨٣٣ و « داي ليبسقربوت » ولم يمثلا حتى وفاته . ولقد مثل في حياته الاوپرات « طان هومر » سنة ١٨٤٥ و « خاتمة النبلنجين » و « داي رينجولد » و « فلكيري » و « سيجفريد » و « غسق الآلهة » و « الهولندي الطائر » ولقد بدأ تأليفها حوالي عام ١٨٥٠ وراجعها كلها عام ١٨٦٩ واتمها سنة ١٨٧٥ . وشهدت دار الاوپرا العظيمة في مدينة « بايرويت » « خاتمة النبلنجين » واوپراته الاخيرة ومنها « لونجرين » و « پارسيفال » التي تعد من اقوى ما ألفه فاجنر في الادب والموسيقى

واني اقدم هنا تلخيص «اوپرته » لونجرين التي أحرزت نجاحاً كبيراً قلما يعدلهُ نجاح آخر والتي بهرت كبار رجال الفن واعجب بها كثير من النقاد

أوبرة « لونجرين »

تعتبر لونجرين من اقوى اوپرات فاجنر التمثيلية . ويكفي ان يكون واضعها تمثيلاً وموسيقى فاجنر فقد لا يوجد صبي في المانيا لا يعرف اغنية « كوكب الدجاجة » عند ما يدفع لونجرين الاوزة . . . وقد استقى فاجنر اوپرته من النصوص القديمة التي تحدثنا عن مصير لونجرين البطل الغامض وحارس « السر الاعظم »

في هذه القصة صراع عنيف بين الحق والباطل وبين القوة والقانون وفيها صراع عنيف ايضاً بين حب الخطيبة وشهوة الزوجة . فيها اتهام يلقى على النفس الشريفة كأقوى ما يكون الاتهام . وفيها من الألم ما يمس صميم النفوس الكبيرة فيكاد يقضي على موضع العزة فيها والشرف . . . فيها صراع قوي بين الزوج والزوجة . . . وما رأيك في زوج نبيل يذهب ضحية زوجة مفتونة بسحرها تتعمل السحر للايذاء والشر فتغير من الصور الانسانية في سبيل شهوتها وإثرتها ... كثير على زوج ان يتحمل المأ وتضحية في سبيل امرأة تسخر من الزوجية في سبيل ثأر تناله ومأرب وضيع تصبو اليه نفسها ولكن هي المرأة وكفى . . .

***

نحن بجوار « أنتورب » حيث يستعرض هنريك فوجلر ملك المانيا جيوشه الجرارة امام سكان مقاطعة «برابانت» ليدرأ اعداءه الغزاة الهنجاريين . فيجد الملك الناس في هرج ومرج فيتفهم هذا فيعلم ان الكونت فريدرك تيلرامند يتهم إلزا صاحبة برابانت بقتل اخيها الصغير « جود فري » وارث دوق برابانت الذي توفي قبل امد قصير تاركاً اطفاله لعناية « تيلرامند » ولقد كانت إلزا خطيبة تيلرامند ولكنهُ تزوج « اورترد » صاحبة فريزلند . وكان يطالب بحقه في وراثة دوقية برابانت

تعلن إلزا براءتها من قتل اخيها لانها لا تعلم عن امره شيئاً . فكل ما تذكره انهُ اختطف اثنا نومها فاذا عرض الامر على الملك اصدر قراراً فحواه ان يترك شأن هذا الحادث للعناية الالهية دون غيرها لتصدر فيه ما تراه . ولكن تيلرامند لوثوقه من حقه يرى ان يعلن استعداده لمبارزة من يرى الدفاع عن إلزا . فأما ابطال برابانت وعظماؤها فيرفضون طلبه ولا يقبلون عليه حتى المليك نفسه الذي يعتقد في براءة إلزا . ولكن ابطال برابانت والمليك ايضاً يعتقدون ايضاً أن الحق يبدو في جانب هذا الرجل المعدود في طليعة الابطال

تلتزم إلزا الهدوء وتتضرَّع الى السماء حتى اذا اقبل الليل واستلقت في مخدعها تخيلت ذلك البطل الالهي المرسل من السماء يحملها رسالة الدفاع والذود عنها . وأما هي فقد تتحدث الى نفسها في الصباح عن تلك الرؤيا الجميلة . وتعلن في غير ما تردد أو تهيب بأنه اذا تحقق لها هذا

الخيال فهي لا تتوانى ان تمنحه يدها وأملاكها . فأما هي فتكثر من هذا الحديث وتبتهج لروعة هذا المنظر وان هي الآ لحظة حتى ترى فارساً يتمنطق بالدرع ويرتدي لباساً فضياً لامعاً لا تكاد العين تنصرف عن رؤيته لجماله وتأثيره . يركب قارباً مسطحاً تسيره في الماء « اوزة » جميلة اللون شائقة المنظر .. حتى اذا انتهى الى الساحل ودَّع القارب والاوزة واتجه الى قصر إلزا فتقبل عليه تحييه . . وتعلم فيما بينها وبين نفسها ان هذا هو البطل الذي تخيلته في حلمها . أما هو فيسر اليها انه سيذود عنها ما امكنه الذود . على ان تكون له زوجة وان لا تفكر من اين هبط عليها او ان تفكر في اصله . . تقبل إلزا هذا في غير عسر او مشقة . ويبدأ الصراع بين الفارس وتيلرامند فيفوز الفارس على خصمه فوزاً مبيناً ولا يفكر في قتل تيلرامند بل يهبه حياته التي في متناول يده والتي كانت ستطوح بآمال زوجته « اورترد »

***

أما « أورترد » فكانت ساحرة وفقت الى ان تخدع زوجها الذي يؤمن الايمان كله بقتل « جود فري » بينما هي اختطفت الطفل ولم يدرِ بها احد . بل استطاعت ان تهزأ بعقل زوجها بما لم يكن يتوقعه احد

فاذا كان الفصل الثاني فنحن في قصر « ديكال » حيث تعد معدات الزواج الذي اغتبط له قوم واستاء منه آخرون . أما إلزا فسعيدة بهذا الزواج يحدوها فيه الامل ويدفعها اليه الرجاء . وأما « اورترد » فتبرمة بهِ يدفعها الغيظ لتقف في طريقهِ . وأما زوجها فحانق عليها لانها كانت الباعث في امر هزيمته . وهو هذا العظيم القوي امام قومه ! يتحدث اليها في شيء من الألم والتأثر وتجيبه في شيء من الهدوء وفي غير مبالاة حتى يتهمها بأنها سبب هزيمته وانها لا تأبه لشرفه المثلوم فتجيبه في شيء من الهدوء وقلة الاكتراث عما تصنع وما حيلتها في الجبناء ! يتحرج الموقف بينهما فتسرع الى ابتسامة متكلفة وتعلمه بأنها ستعمل على فض الزواج بأية سبيل . . . فتلجأ الى إلزا لتقول لها كيف يتم لها زواجها بشخص لا تعلم شيئاً من امره بل ولا تعلم اسمه . حتى اذا قنعت إلزا بهذا أخفق الزواج وهي كساحرة تعلم العلم كله بأن قوة هذا الفارس ستفنى اذا اصطدم بهذا الحديث الذي تحمله اليه إلزا

تقف إلزا في نافذة قصرها الفخم تستعرض جمال الطبيعة . . وتشكر الله القدير . . . وتنصت فتسمع الى نداء حزين هو نداء منكوب او خائر القوى . . لا يكاد يقوى على الحديث ... إلزا ... إلزا . . . فتجيب بعد ان يخفق قلبها تأثراً وألماً . . وتبحث عن المنادي فاذا به « اورترد » تبكي بين يديها . تستعطف إلزا في شيء من الرفق والاخلاص . هي ترى ان إلزا ستكون ضحية لطيبة قلبها وتسليمها امرها لهذا المستقبل المجهول . . واذن فإلزا متأثرة بهذا الشعور . . وهنا يتناول الشك موضعه في قلب إلزا . . والآن فقد احتشد الناس في الكنيسة في الصباح المبكر ليشهدوا

عرس إلزا العظيم وقد اقبلت إلزا لتأخذ مكانها بجانب زوجها . . . فتندفع اورترد بين الصفوف لتذكر إلزا بما سبق ان اسرّت بهِ اليها . ويتسابق تيلرامند الى الفارس الغريب ليتهمهُ . . . ولا يتظاهر بهذا حتى يندفع الى الوراء بتدفق الجماهير . . . وإلزا تصرح « لأورترد » بأن رسالتها في النصح جاءت متأخرة . ولكن الشك يزداد والامل في مستقبلها السعيد يصبح ضعيفاً . هي مستسلمة اذن لحديث « اورترد » ولكنها تدفع عن زوجها ما يكاد يلم بهِ من امر تيلرامند وتلجأ اليهِ ان يحمي نفسه ويحميها . . . ولكنهُ يصر على ان يتركها وشأنها . . . ويتقدم تيلرامند الى الملك يستعطفه في ان يعلم اسم هذا الغريب ويسأل عن شأنه . . ولكن لونجرين — الفارس — يرفض ذلك الاّ اذا صدر السؤال عن زوجته . . . ولكن إلزا تمتنع مع ما بها من شك ان تسأله

***

نحن الآن في الفصل الثالث حيث يقيم الزوجان في قصر إلزا . . يرفرف عليهما طائر الفرح . . ولكن قلب إلزا لم يزل كما هو . . . فيه شك وفيه ألم . . . بل فيه خوف وفيه اضطراب . . . الم تودع فيه «أورترد» هذه العواطف كلها ... تصرح إلزا في غير تردد بأن مصيرها مجهول . والواجب يدعو زوجها ان يخفف من غلوائه فيذكر لها موقفها اذا تركها وذهب الى طريقه بل وعاد الى سمائه . وبينما هما في هذا الحديث يشعر بأن تيلرامند مقبل لقتله غيلة . فيفلت منهُ ويطعنهُ طعنة نجلاء . . ترديه قتيلاً . . . وأما هو فيأخذ زوجته الى ساحة المليك ليطلعهُ على حقيقة أمره . . . وعن رسالته . . . . ومن هو . . أما السر فهو انهُ حارس السر الاعظم وخليفة « پارسيفال » . والسر الاعظم هو « دم المسيح المحفوظ » الذي يحرسه الفرسان بالوراثة في القصر الاعظم . . على الجبل الاعلى ... والآن لا يسعهُ اذ قد باح بهذا السر الخطير ان يقيم وزوجتهُ بل يعود من حيث اتى . . وانظر اليهِ فقد تلفت الى امامه فوجد الأوزة قد اقبلت نحوه فيأخذ من عنقها سواراً صغيراً ذهبيًّا يمنحه الى الزا ويعطيها كذلك درعه وسيفه . . لكي تدفع بهما كل عداء وكفاها ما فيهما من سر . . .

يهم الفارس بأن يذهب فيستمع الى اورترد بأنها هي التي سحرت الطفل فصنعت منهُ اوزة وانهُ كان في مقدوره ان يعيد الطفل الى كيانه الاول لو لم تسرع إلزا بسؤاله عن حقيقة امره ... يستمع لونجرين هذا في ألم . فيرفع وجههُ الى السماء ويصلي بقوة طالباً نجدة الطفل ... ويتقدم اليهِ واضعاً الذهب في عنق الاوزة .. فيختفي الطائر الى حيث الماء لحظة ثم يعود فاذا به « جودفري » نفسه قد رجع ... واذا وارث عرش برابانت قد اقبل ... واذا الفارس يذهب الى قاربهِ في الماءِ وقد أقبلت حمامة من السماء تدفع القارب ... واذا لونجرين قد ابتعد عن الشاطىء وغاب عن الانظار .. واما إلزا فقد قامت تضم اخاها لها ... وخرجت اورترد حسيرة النفس يائسة »

حليم متري

السيكولوجية الحديثة

التحليل النفساني

ليعقوب فام

فرويد

قلنا في مقالنا السابق ان فرويد قسم النفس الى ثلاثة اقسام وأسماها (Id, Ego and Super Ego) وبلغتنا : الشخصية والنفس العليا والشهوة ، او الضمير والعقل والنفس باللغة القديمة ، او أستطيع ان نستعمل مؤقتاً الاصطلاحات التي كانت تستعملها السيكولوجية من خمسين سنة وهي العقل والشعور والارادة — هذه الثلاثة هي الاركان التي تقوم عليها النفس الانسانية

ثم قلنا ان مدرسة التحليل النفساني تزعم ان الامراض العصبية تنشأ في الاصل من ان الشهوة تلحف على الشخصية بالمطالب التي لا تستطيع هذه ان تؤديها فتتولد عن هذا العجز ازمة نفسية حادة او خفيفة ، وهذه الازمة هي المرض بذاته ، هي محاربة اجزاء النفس بعضها لبعض ، وقيامها بعضها على البعض الآخر ، اما ان الازمة تنشأ من خلاف بين الشخصية والشهوة ، او تنشأ بينها وبين المثل الاعلى للانسان

هذا ما يذهب اليهِ فرويد ، وهذا ما بيناه بالتفصيل في المقال السابق ، ولكننا نعود الآن فنقول انهُ في الواقع ليس هنالك ما يسوّغ وجود هذه العقدة في النفس على الاطلاق حتى ولو قبلنا هذا التقسيم على علاتهِ من غير بحث او مناقشة . لنذهب مع فرويد الى آخر الشوط ، ولننسَ كل الشكوك التي تساورنا في صحة هذا التقسيم ، ومع كل هذا فلسنا بمستطيعين ان نرى بشكل من الاشكال كيف تقوم هذه الصعوبة اصلاً ، او كيف تخلق العقدة ، وكيف توجد الامراض العصبية في الانسان ، ولكي نوضح وجهة نظرنا في هذه المسألة نضرب لذلك مثلاً ، ولزيادة التبسط في الموضوع دعنا نحصر النزاع بين الشهوة والشخصية

تريد الشهوة امراً من الامور ، وتركز كل نشاطها وقواها في هذا الامر ، ولنفرض انها تلحف في طلبها هذا وتصر عليهِ ، وتصر ايضاً على ان لا تنساه ، وتظل تذكر الشخصية في كل حين ان لها قبلها مطلباً لم يتحقق بعد ، وانها لن تستريح او تريح الا اذا اجابتها الشخصية الى مطلبها وقضت لها حاجتها ، ثم لنفرض ان الشخصية ترى ان تحقيق هذا المطلب عسيرٌ او مستحيلٌ ، ترى ان الحالة الاجتماعية او القوانين الوضعية لا تسمح بهذا ، ويجب ان نذكر القارىء عند هذه النقطة ان

الشخصية او (Ego) هي التي تصل فيما بين العالم الداخلي والعالم الخارجي ، او هي الصلة بين النفس الداخلية وبين الدنيا حواليها ، فهي بطبيعة وظيفتها اقدر من جميع قوى النفس على تفهم ما يستطيعهُ الانسان وما لا يستطيعهُ ، ما يمكن تحقيقهُ في الواقع وما لا يمكن تحقيقهُ ، ذلك لان احدى الناحيتين الاخريين عمياء والاخرى خيالية ، وأما هذه فواقعية محضة (Realistic)

فرضنا ان هذا ما قد وقع بين الشهوة والعقل (آسف جدًّا للخلط في اسماء هذه النواحي لاني لا اعرف لها اوضاعاً صحيحة في اللغة العربية) . فرضنا ان هذه تطلب امراً وذاك يعجز عن تحقيقهِ ، وفرضنا ان هذه تظل متمسكة بمطلبها وذاك متردياً في عجزه ، وبعد هذا ماذا يكون ؟ وماذا يحدث ؟ هل تحدث ازمة نفسية تؤدي الى المرض

اما ان ازمة نفسية تحدث فنعم ، واما ان هذه الازمة تؤدي الى المرض فلا ، ذلك لان الازمات تحدث كل يوم وكل ساعة ، فلست اظن ان انساناً عاش من غير تلك الازمات في لحظة من اللحظات ويستطيع كل انسان ان يذكر منها الشيء الكثير من طفولته الى وقتهِ الحاضر ، وما على من ينكر هذه الحقيقة الاَّ ان يراقب اطفاله بضع دقائق ، وانا واثق انهُ سوف تمر عليهِ بعض ازمات نفسية عند هؤلاءِ الاطفال ، وان هذه الازمات ستمضي الى حال سبيلها من غير ان تترك اثراً في نفسيتهم ، او يستطيع ان يراقب نفسهُ في يوم بذاته ليرى كيف ان نفسه تتوق في كثير من الاحيان الى اشياء بذاتها وانها تشعر ان سعادتها لا تتحقق الاَّ بتحقيق هذه الرغبات ، ثم ان نفسه تطلب الى قواهُ الواعية ان تعمل على تحقيق هذه الرغبات ، والايام تمر والرغبات لا تحقق ، والنفس غير راضية ، والعقل منهمك في شؤونهِ العادية من غير التفات الى هذه المطالب ، ومع كل هذا فلا يقع الانسان فريسة لامراض عصبية او غير عصبية

كم من الامور كنت اريدها ؟ وكم من الامور كنت اظن اني لا استطيع العيش من دونها ؟ وكم من الرغبات عندي الآن ؟ وكم يشقى عقلي وبدني في العمل على تحقيقها ؟ ومع هذا كله فلا زلت سليماً معافىً ولا زلت اقوم بعملي واؤدي واجبي وانشط في كل ما تنشط فيهِ بيئتي التي اعيش فيها ، واظنني خالياً من العوارض الفرويدية بقدر ما اظن ان معظم اصدقائي خالين منها

لست متجنياً على فرويد ، ولست ظالماً لهُ ، لانهُ هو نفسهُ شعر فيما يظهر بأن المشكلة التي اضطلع بحلها لم تحل بعد ، كما اشعر انا الآن ، والفرق بيننا اني تشككت في صحة ما ذهب اليهِ بعض الشيء ، أما هو فقد لجأ الى حيلتهِ القديمة — تلك الحيلة التي كان يلجأ اليها علماء الطبيعة في القرن التاسع عشر في مسألة الاثير ، لقد فرضوه فرضاً ، ثم فرضوا لهُ الخصائص التي كان يجب ان تكون لهُ فيما لو كان موجوداً حقًّا ، وكانوا كلما اعوزتهم الحيل فرضوا لهُ خاصية اخرى مناقضة تمام المناقضة لسابقاتها الى أن اصبح وجوده مستحيلاً في الواقع

هكذا يفعل فرويد ، وجد ان تقسيم النفس الى هذه الاقسام لا يكفي في ذاته لتفسير الظواهر

النفسية التي يطلق عليها الامراض العصبية ، فلجأ الى فرض شيء آخر في النفس حتى يزداد التعقيد فيها فيستطيع هو أن يصف الداء ، وجد أن العقل يستطيع ان يغفل الشهوة ويدعها وشأنها ، ثم يسير في شؤونهِ كأن الشهوة لم توجد اصلاً ، وكأنها لم تطلب شيئاً ، وماذا عليهِ منها ومن مطالبها من الصواب أن يغفلها كل الاغفال

ولكن لا ، فرويد يريد أن يحل الاشكال في وجود الامراض العصبية وفي معالجتها بالتحليل النفساني ، فاذا كانت جميع نظرياته السالفة لا تكفي لهذا الغرض فما عليهِ الاَّ أن يمعن في فرض النظريات السيكولوجية واحدة تلو الاخرى الى أن يستقيم له وصف الداء والدواء ، لهذا فرض للنفس رقيباً Censor يختبيء في زاوية من زواياها يستطيع أن يستدعيه فرويد فينشط ويجيء نشاطه مصداقاً لنظريات فرويد

هذا الرقيب موجود اذن في نفس الانسان ، ولكي تتم النظرية وتستقيم يجب أن لا ينشط الاَّ بناء على اشارة النفس العليا Super Ego تأمره فيفعل ، وتومئ اليهِ فيتحرك ، ويجب أن يكون نشاطه موجهاً الى الشخصية ، يأمرها أن تنسى ما تطلبهُ الشهوة ويجب أن يكبت الشهوة نفسها كبتاً ويضغطها ضغطاً حتى لا تعود تظهر في النور . وحتى لا تبرح الخفاء ، يجب على هذا الرقيب أن يكتم أنفاس الشهوة ويحرم عليها الظهور في وضح النهار بحال من الاحوال

فصارت النفس عند ما تريد شيئاً تخشى الرقيب وترتعد فرائصها منهُ فتبقيه مكتوماً في خباياها الداخلية مندسًّا في ثناياها ، ويصير العقل الواعي عاجزاً عن أن يحس لها وجوداً على الاطلاق ، وهناك في مداخل النفس الداخلية تفعل الشهوة فعلها وتربك النفس وتقض منها المضاجع وتقلبها على الشوك والقتاد من غير أن تحس الواعية بأن هنالك شيئاً على الاطلاق ، وبأن نفسه الداخلية غير مستريحة الى شيء ، كل هذا يحدث والواعية منهمكة في شؤونها اليومية العادية من الاتصال بالناس وبالاشياء ومن توفير وسائل الطعام والشراب والامور المادية الصرف

وبينما الانسان يسعى لشؤونهِ المعاشية وبينما عقله منهمك في ترتيب الدنيا التي تحيط بالانسان ، وبينما هو مأخوذ باتقاء الحر والبرد والظواهر الطبيعية والاهتمام بمطالب الجسد المادية ، بينما يحصل كل هذا يكون الرقيب مهموماً بالشهوة يتكفل بكتمها وكبتها ، والانسان بخير ما دام هذا هو الحاصل وما دام الرقيب يقظاً ساهراً قائماً بوظيفتهِ خير قيام

ولكن الرقيب ينام ، او يغفل او يغفو ، ولكن الامور تخرج عن طوق الرقيب في بعض الاحيان ، وهنا الطامة الكبرى والداهية العظمى ، لان الواعية لا تشعر الاَّ وهي محوطة بظواهر نفسية غريبة لم تألفها ولم يكن لها بها عهد ، يرى العقل الواعي نفسهُ امام احساسات ومشاعر غريبة عنهُ ليست منهُ وليس هو منها ، او كأنهُ يرى نفسهُ يدير شخصية اخرى غير تلك الشخصية التي كان يديرها ويرعاها ويسهر على رضاها وشؤونها

يحار العقل الواعي في هذا ويشكل عليه الامر فلا يعود مستطيعاً ان يميز هذه الشخصية من غيرها ، يعجز عن ان يعرف هل هذا هو الانسان بعينهِ الذي كان يخدمه فيما سلف ، ام هو انسان غيره ، هل هذه الميول و الاتجاهات الفكرية كانت له من قبل ، ام هي شيء جديد طارىء ، واذا كانت شيئاً جديداً طارئاً فما اصلها وما سببها ؟ ما الدافع لها ؟ وما الغرض منها ؟ ليس هذا فقط ولكنهُ ايضاً يحار في طرق حلها وتسوية تلك المشكلة الجديدة التي هبطت عليهِ من الجحيم

ترتبك الواعية وتفقد توازنها من هذه الضربة التي انقضت عليها على غرة ، تختلط قيم الاشياء عندها ، وتنقلب معاييرها رأساً على عقب فلا تعود مستطيعة ان تضع الاشياء في مواضعها ، وان تحفظ للانسان مكانته في هذا النظام الاجتماعي الذي يعيش فيهِ . و لما كانت الواعية هي القوة النفسية التي نيطت بها الصلة بين الانسان وما يحيط بهِ ، ولما كانت هي دون غيرها التي تتعامل مع الدنيا الخارجية ، فأول ما يختلط عليها هو تلك العلاقات بين الانسان والدنيا الخارجية ، تفسد هذه العلاقات فيبدأ الناس يشعرون بالتحول في هذا الانسان، وان عقله مدخول، مغاير لعقول الناس ، وان نظرته للاشياء معيبة غير سليمة ، ولو ملكت الناس امورها لاخذوه من يده ووضعوه في مستشفى المجاذيب

ومحصل القول في هذا ان اغفال الرقيب عن تأدية وظيفتهِ كان سبباً في ظهور الخبايا التي كانت النفس العليا Super Ego تصر على ان تكبتها وتداريها من الواعية حتى لا ترتبك هذه فيما لا طائل تحتهُ وتعجزها عن مقابلة الدنيا الخارجية وجهاً لوجه من غير ان تميد الارض من تحتها ، كانت النفس العليا تود اخفاء هذه المشاعر اولاً لانها لا تتفق والمثل الاعلى الذي تطلبهُ هذه النفس وتود اخفاءها ثانياً لان الواعية تعجز عن تحقيق تلك الرغبات لان الحالة الاجتماعية التي يعيش فيها الفرد تحول دون ذلك

ولا يخفى أن وجود الرقيب وعمله هما في الواقع اصل الداء والسبب المباشر في الامراض العصبية التي تنتاب الانسان ، لانهُ أولاً يكبت الشهوات والرغبات غير الاجتماعية في الانسان ، أو يكبت منها ما لا يستطيع النظام الاجتماعي ان يسيغهُ ، ولانهُ ثانياً يلقي ستاراً كثيفاً على عيني الواعية حتى لا تعود ترى ما يحيط بها في داخلية النفس ، فكأن وظيفتهُ بعبارة اخرى هي أن يضلل بالواعية ويتغفلها حتى تصبح عاجزة عن مواجهة حقائق النفس ، ومعالجتها بالحكمة والقصد حتى تمر هذه الازمات بسلام من دون ان تثير ما تثيره من المشاكل والصعوبات النفسية

ولسنا متجنين على الفرويدية في هذا الزعم لانها في الواقع لا تسير في علاجها للمشاكل النفسية الاَّ عليه ، فهي تزعم أن العلاج لا يكون الاَّ باعانة الواعية على فهم الدوافع النفسية لهذه الخوالج والمشاعر ، ووظيفة الطبيب في التحليل النفساني اعادة التوازن للقوى الواعية حتى تستطيع أن ترى لنفسها اصل الداء ، ووظيفته ان يدل العقل الواعي على وجود هذه الرغبات المكبوتة ، ويفهمه انها مشروعة من وجهة النفس البشرية ولا غبار عليها بغض النظر عن العرف والتقاليد الاجتماعية . يعين الطبيب الواعية على ان تواجه هذه الحقائق مواجهة وتفهمها على علاتها وتجيب منها ما تستطيع

اجابته ، وتعترف بشرعية ما تعجز عن تحقيقه منها ، وتعترف ايضاً بوجود الازمة ، ثم تسير في شؤونها اليومية وهي شاعرة بأن هنالك في زوايا النفس مطلباً لم يتحقق بعد ، واغلب الظن انهُ لن يتحقق . ولكنهُ موجود على كل حال، ويجدر بالواعية ان تعترف فيما بينها وبين نفسها بوجوده ، ثم تنشط في شؤونها العادية . لقد نجح فرويد — من وجهة نظره فقط — في التعليل عن السبب في وجود العقدة النفسية ولكن لنا سؤالاً واحداً نريد ان نسأله ثم نترك الموضوع عند هذه النقطة وهو هذا :

ماهي هذه الرغبة او الشهوة التي تستطيع ان تقيم الدنيا وتقعدها ؟ ما هي هذه الامنية التي ان لم تتحقق لايمكن ان يبقى في النفس ركن قائم او حجر على حجر ؟ لماذا كل هذه المبالغة والتهويل في مطالب النفس ؟

اما من جهة المبالغة والتهويل فهما ضروريان جداً في نظام فرويد والاَّ لن تستقيم نظريته ولن يستطيع ان يدل على اصل الداء ، اما هذه الشهوة التي تقوم لها النفس وتقعد والتي تستطيع ان تدك كل القوى النفسية دكًّا فيقول فرويد انها الغريزة الجنسية

الحق انك تستطيع ان تفسر كل الظواهر الاجتماعية والنفسية من الدين الى الادب الى السياسة الى الجنون الى العقل بالغريزة الجنسية ، ولن يقول فرويد الاَّ انك اصبت الاصابة كلها

زهد الخلفاء الراشدين

لست تقرأ في كتب الادب اجمل مما قيل عن زهد الخلفاء الراشدين : « روي عن ابي بكر الصديق انهُ لما حضرتهُ الوفاة قال لعائشة « انَّا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم ديناراً ولا درهماً ولكنا قد أكلنا من جريش طعامهم ولبسنا من خشن ثيابهم وليس عندنا من فيء المسلمين الاَّ هذا العبد وهذا البعير وهذه القطيفة . فاذا متُّ فابعثي بالجميع الى عمر . فلما مات بعثتهُ الى عمر . فلما رآهُ بكى حتى سالت دموعهُ الى الارض وجعل يقول رحم الله ابا بكر لقد أتعب من بعدهُ ويكرر ذلك وأمر برفعهِ . فقال عبد الرحمن بن عوف سبحان الله تسلب عيال ابي بكر عبداً وناضحاً وسحق قطيفة ثمنها خمسة دراهم فلو أمرت بردها عليهم فقال لا والذي بعث محمداً صلى الله عليهِ وسلم لايكون هذا في ولايتي ولا يخرج ابو بكر منهُ وأتقلدهُ انا »

وقيل ان زوجتهُ اشتهت حلواً فقال ليس لنا ما نشتري بهِ فقالت أنا أستفضل من نفقتنا في عدة ايام ما نشتري بهِ . قال افعلي ففعلت ذلك . فاجتمع لها في ايام كثيرة شيءٌ يسير . فلما عرَّفتهُ ذلك ليشتري بهِ حلواً اخذهُ فردَّهُ الى بيت المال وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقتهِ بمقدار ما نقصت كل يوم وغرَّمهُ لبيت المال من ملك كان لهُ . وكان يحلب للحيّ أغنامهم . فلما بويع بالخلافة قالت جارية منهم الآن لايحلب لنا منائح دارنا . فسمعها فقال بلى لعمري لأحلبنها لكم واني لأرجو ان لا يغيّر بي ما دخلت فيهِ . فكان يحلب لهم . ثم تحوَّل الى المدينة بعد ستة اشهر من خلافتهِ

العناصر المشعة وتركيب الذرة

لمحمد عاطف البرقوقي
مدرس الطبيعة في المدرسة السعيدية الثانوية

﴿ مندليف والجدول الدوري ﴾ قبل ان نحاول معرفة تركيب الذرة من الوجهة الحديثة يجب ان نلم بعض الالمام بالعناصر المختلفة او بالذرات المختلفة في الكيمياء . ولعلني لا اكون مبالغاً اذا قلت ان اساس اكتشاف العناصر الجديدة بل ومعرفة تركيب الذرة ذلك التركيب الحديث انما يرجع جُلّ فضله الى العالم الروسي « مندليف »

ولد مندليف في فبراير سنة ١٨٣٤ وأصبح له شأن يذكر في علم الكيمياء حتى اختير استاذاً لعلم الكيمياء في احدى جامعات روسيا . وأهم عملٌ ينسب اليهِ هو اكتشافه « للجدول الدوري » عام ١٨٧٠ وقد صار لهذا الجدول اثر كبير في تحديد عدد العناصر التي يجب ان تكتشف . بل ومعرفة صفات هذه العناصر قبل كشفها . ولشد ما كانت دهشة العالم اذ رأى ان العناصر الجديدة التي اكتشفت بعد الجدول الدوري كانت تثبت التجارب ان صفاتها تتفق مع ما عرف عنها قبل كشفها

وكذلك لهذا الجدول فضل كبير في الابحاث الحديثة التي يجريها كثير من العلماء لمعرفة تركيب الذرة . والجدول الدوري هو نتيجة لمحاولات عدة وتركيبات مختلفة وحقائق جمعت عن جميع العناصر التي كانت معروفة في عهد مندليف — التي بلغت ٦٣ عنصراً في زمنه وأصبحت الآن ٩٢ عنصراً . وفي هذا الجدول نجد ان العنصر لا يشابه العنصر الذي يليه اذا رتبت العناصر بحسب اوزانها الذرّية بل ان العنصر يشابه عناصر اخرى تقع في ترتيب دوري فالصوديوم لا يشابه المغنسيوم كيميائيًّا بل يشابه البوتاسيوم ولذلك نجد الصوديوم والبوتاسيوم والروبيديوم والكيزيوم كلها تقع في عمود رأسي واحد ولذا فهي تتشابه كيميائيًّا وتسمى Alkalis اي القلويات . وكذلك الهيليوم والنيون والارجون تقع في عمود رأسي آخر وهذه العناصر تتشابه كيميائيًّا وتسمى Inert gases اي الغازات غير الفعالة . ولاهمية هذا الجدول وترتيب العناصر بهذه الكيفية وجد ان تطلق كلمة العدد الذري Atomic Number على ذلك العدد الذي يدل على مكان العنصر في الجدول . والعدد الذري للايدروجين واحد وللهليوم ٢ وللبثيوم ٣ وللكربون ٦ وللاكسجين ٨ ولليورانيوم ٩٢ وسنعرف فيما بعد العلاقة المتينة بين العدد الذري وعدد الالكترونات في الذرة

﴿ تركيب الذرة ﴾ يرجع الفضل في معرفة تركيب الذرة الى كثير من الابحاث الحديثة

والتجارب الدقيقة في اشعة اكس فهذه الاشعة بجانب فضلها على الطب لها فضل كبير في اهدائنا الى معرفة تركيب الذرة . وكذلك دراسة (Radio - activity) او دراسة العناصر التي تخرج اشعة ، لها فضل كبير في ذلك الموضوع . ويشتغل بهذه الابحاث علماء قديرون مثل العالم الانجليزي رذرفورد Rutherford واعوانهُ في كمبردج والعالم الدانماركي Bohr وملكن وكمطن وطمسن الصغير وشرويدنغر وغيرهم

والذرة هي الجزء الذي لا يتجزأ من العنصر او هي تشبه حرف الهجاء في لغة من اللغات وكما ان هناك ٢٨ حرفاً في اللغة العربية فكذلك يوجد حول ٩٢ عنصراً وكما تنتج الكلمات من اتحاد الحروف كذلك تنتج الجزيئات من اتحاد الذرات . فمثلاً ذرتان من الايدروجين وذرة واحدة من الاكسجين تتحد كيميائيًّا فتكوّن جزيء الماء . وقد كان يظن ان الذرة هي آخر ما يمكن ان تصل اليهِ من التجزيء ، ولكن لعلماء الطبيعة — لا لعلماء الكيمياء — الفضل كل الفضل في تكسير الذرّة ومعرفة ان الذرة ليست وحدة بل ان كل ذرة مركبة من الكترون او عدد من الالكترونات تدور[١] حول نواة بها بروتون Proton او عدد من البروتونات والالكترونات اي ان الذرة تتركب من وحدتين الالكترون والبروتون . فاذا رجعنا الى مثل الحروف الهجائية وجدنا ان تلك الحروف ليست هي الوحدات التي لا تتجزأ والتي تتكوّن منها اللغة بل ان تلك الحروف يمكن ان تتكوّن جميعاً من نقطة وشرطة — واظنني وفقت في هذا التشبيه — لان العلاقة بين الالكترون والبروتون من جهة الوزن كالعلاقة بين النقطة والشرطة . فكما ان النقطة صغيرة جدًّا بالقياس الى الشرطة فكذلك كتلة الالكترون يمكن اهمالها بجانب كتلة البروتون او بمعنى آخر ترجع كتلة الذرة الى مجموع كتل البروتونات التي فيها . ومن جهة اخرى الالكترون بهِ شحنة كهربائية سالبة تعتبر اصغر شحنة يمكن ان توجد على حدتها والبروتون بهِ شحنة كهربائية مساوية لشحنة الالكترون الاّ انها مضادة لها اي ان شحنة البروتون موجبة ولما كنا نعلم ان هناك قوة تجاذب بين الشحنات المتضادة فلو ان الالكترون بقي ساكناً بالقرب من البروتون لانجذب الاول الى الثاني. الاّ ان هذا لا يحصل في الذرة لان هناك قوة اخرى طاردة تضاد قوة التجاذب وهذه القوة الطاردة هي القوة الناشئة من دوران الالكترون في مدار دائري — او حول قطع ناقص — كما تدور الارض حول الشمس. فلولا دوران الارض حول الشمس لهبطت الارض منجذبة نحو الشمس. ولذلك يسمى هذا النظام في تركيب الذرة النظام الشمسي للذرة . فمثلاً ذرة الايدروجين وهو اخف العناصر تتركب من بروتون واحد وحوله يدور الكترون واحد في مدار دائري . وذرة الهليوم — ووزنه الذري اربعة — تتركب من اربعة بروتونات والكترونين في النواة وحول النواة الكترونان آخران . او باعتبار الشحنة النهائية (Net Charge) فان ذرة الهليوم تتركب من شحنتين

(١) الكلام منصب في هذا المقال على ذرة رذرفورد وبور المشبهة بالنظام الشمسي

موجبتين في النواة وحولها شحنتان سالبتان . والالكترونات التي في نواة اي عنصر تزيد في تماسك الشحنات الموجبة

وكلما زاد وزن العنصر زاد معهُ عدد البروتونات في النواة وعدد الالكترونات المتحركة في المدارات . ومن غرائب الصدف ان العدد الذري — لا الوزن الذري — وهو العدد الدال على ترتيب العنصر في الجدول الدوري يبين عدد الالكترونات المتحركة حول النواة . فالايدروجين عدده الذري واحد وعدد الالكترونات المتحركة في ذرتهِ واحد . والهيليوم عدده الذري اثنان والالكترونات المتحركة في ذرتهِ اثنان. والليثيوم عدده الذري ثلاثة وعدد الالكترونات ثلاثة حتى نصل الى أثقل العناصر وهو اليورانيوم وترتيبه في الجدول الدوري ٩٢ فنجد عدد الالكترونات المتحركة حول نواتهِ ٩٢ وكذلك ترى ان للعدد الذري شأناً كبيراً في تركيب الذرَّة

***

ومن دراسة الطيف لكل عنصر وجد انهُ من الضروري افتراض ان للالكترونات المتحركة عدة افلاك متغيرة لا فلك واحداً كما للارض . فالالكترون المتحرك يصح ان يدور في فلك قريب من النواة او في فلك بعيد عنها . وليس ضرورياً ان تتحرك جميع الالكترونات في فلك واحد في الوقت الواحد بل هناك في الذرَّة الواحدة عدة افلاك وفي كل فلك يدور عدد من الالكترونات. ومن الغريب انهُ قد لوحظ ان الصفات الكيميائية للذرَّة لها علاقة وثيقة بعدد الالكترونات في الفلك الخارجي فاذا كان الفلك الخارجي في اي ذرَّة كامل العدد كان عنصر هذه الذرَّة لا يميل للاتحاد الكيميائي مع اي عنصر آخر . وهذا ما يحدث في جميع الغازات غير الفعَّالة (Inert gases) مثل النيون والارجون وغيرها. اما الذرَّات التي فيها المدارات الخارجية ناقصة فتميل الى ان تكملها. فمثلاً ذرَّة البوتاسيوم تميل الى ان تتحد بذرَّة الكلور . وقد فسّر ذلك بان الالكترون من البوتاسيوم يمر الى المدار الخارجي في ذرة الكلور فيتممهُ وهذا سبب الالفة الكيميائية بين العنصرين. وبالاختصار فان جميع العناصر المتشابهة كيمائيًا لها عدد واحد من الالكترونات في المدار الخارجي

ومن ذلك ترى ان الذرة تبنى من الالكترون والبروتون[1] بنظام خاص بحيث يكون هناك نواة بها عدد من الالكترونات والبروتونات وحول النواة افلاك تدور فيها الالكترونات . فاذا كان الامر كذلك فلماذا لا يمكن تكسير الذرة الى وحدتيها الاساسيتين — الالكترون والبروتون ؟ هذا ما فكر فيه العالم الانجليزي رذرفرد — تسنّت لي مقابلته في حفلة افتتاح احدث بناء لدراسة الطبيعة في جامعة برستل عام ١٩٢٧ — وقد افلح رذرفورد هذا في تكسير ذرة النتروجين وعدده الذرّي ١٧ الى دقائق كل دقيقة عبارة عن نواة الايدروجين . وكسر كذلك غيره من الذرات . وقد لاحظ رذرفورد أن العناصر التي يمكن تكسير ذراتها هي العناصر التي عددها الذري هو عدد فردي كالعدد ١٧ و١٩

(١) المباحث الحديثة تثبت دخول البوزيترون والنيوترون في بناء نوى بعض الذرات ولهذا بحث آخر

وان العنصر الذي عدده الذري زوجي لا يمكن تكسيره بل لاحظ ايضاً وجود نواة الهليوم تخرج او تقذف من بعض العناصر مما يدل على ان نواة الهليوم متماسكة جداً ولا يمكن تفتيتها

وهنا يجدر بي ان اقدم للقارىء بحثاً من الابحاث التي افادت كثيراً في تنوير الاذهان في موضوعنا هذا — تركيب الذرة — واهم هذه الابحاث هو بحث العناصر المشعة

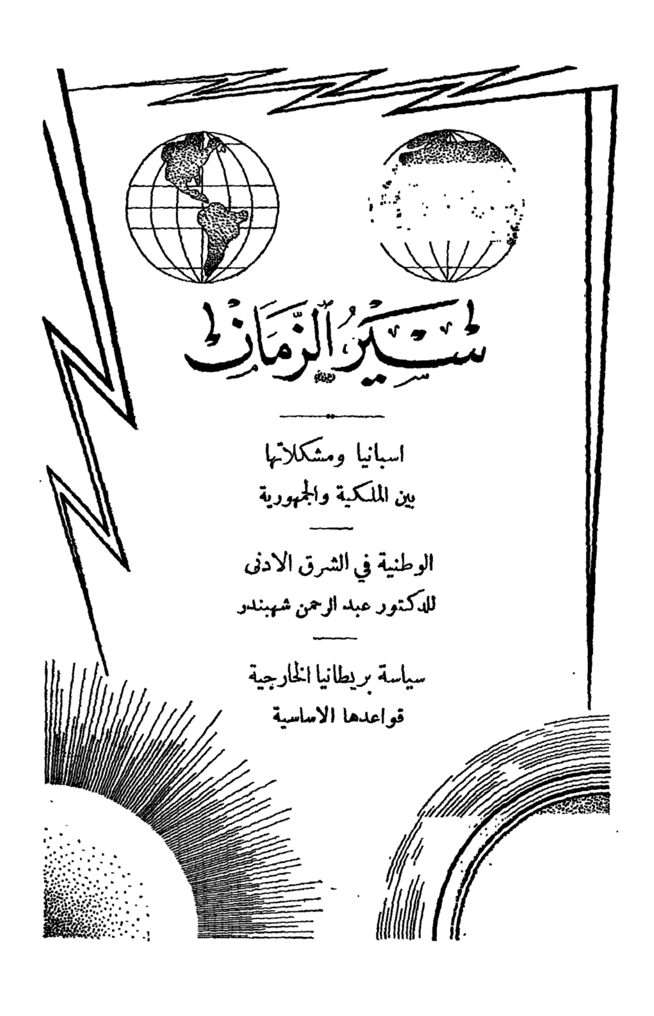
﴿ العناصر المشعة ﴾ اكتشف هذه الظاهرة العالم الفرنسي بكرل Antoine Henri Becquerel عام ١٨٩٦ بعد ان اكتشفت اشعة اكس X—Rays عام ١٨٩٥ وقامت بقسط وافر في اتمام البحث مدام كوري . وهذه الظاهرة خاصة ببعض العناصر ذات الوزن الذري الكبير مثل اليورانيوم والثوريوم والراديوم . وهذه العناصر لها القدرة على الاشعاع او اخراج مقذوفات والاشعة التي تخرج منها لها صفات كثيرة منها انها تؤثر في اللوحة الفوتوغرافية وهذه الصفة هي السبب في اكتشافها اولاً . ذلك ان بكرل كان قد وضع في درج مظلم لوحة فوتوغرافية وقطعة يورانيوم فوجد ان اللوحة صورت قطعة اليورانيوم رغم الظلام ولذلك لم يجد هذا العالم بدًّا من تعليل هذه الظاهرة بأن اليورانيوم يصدر اشعة لها هذا الأثر في اللوحات الفوتوغرافية . اما مدام كوري فقد وجدت ان حجارة البتشبلند الذي يستخرج منهُ اليورانيوم اقوى في الاشعاع من اليورانيوم نفسه وعزت ذلك الى وجود عنصر آخر اقوى في الاشعاع من اليورانيوم وبذلك اكتشفت العنصر المسمى الراديوم وهو ذلك العنصر الثمين الذي يستعمل في الطب الحديث . والراديوم اقوى في الاشعاع من اليورانيوم مليون مرة وجرام الراديوم يقدر ثمنهُ بعشرات الالوف من الجنيهات ولذلك تجد الحكومات تساعد المستشفيات الكبيرة في شراء جرام الراديوم او جزء منهُ لما لهُ من الفائدة الكبيرة في الطب . واذكر ان الامة الاميركية اهدت الى مدام كوري جراماً واحداً من الراديوم بواسطة الرئيس هاردنج تقديراً لخدماتها في هذا المضمار عند زيارتها لاميركا سنة ١٩٢١

والاشعة التي تخرج من العناصر المشعة مثل الراديوم واليورانيوم وغيرها على ثلاثة انواع سميت بالحروف الاولى من الحروف الهجائية اليونانية فسميت اشعة الفا ، وبيتا ، وجاما ويمكننا في الواقع ان نسميها او نصطلح على تسميتها باشعة الف واشعة باء واشعة جيم على الترتيب. واشعة الف واشعة باء قد أمكن البرهنة على أنها دقائق لها كتلة وشحنة الاَّ ان اشعة باء هي في الواقع الكترونات تخرج من الجسم بسرعة تقرب من سرعة الضوء وعلى ذلك تكون كتلتها مثل كتلة الالكترون اي صغيرة جدًّا وهي تساوي $\frac{١}{١٨٥٠}$ من كتلة ذرة الايدروجين . اما اشعة الف فشحنتها موجبة وكتلتها اكبر كثيراً من كتلة اشعة باء بل ان كتلتها تساوي ٧٤٠٠ مرة كتلة الالكترون أو تبلغ اربعة امثال كتلة الايدروجين . اما اشعة جيم فليس لها كتلة ولا يصحبها شحنة بل هي في الواقع مثل اشعة اكس أي انها موجات مستعرضة الاَّ ان طول موجتها اقصر من طول موجة اشعة اكس

والآن فلنتكلم عن اشعة الف واشعة باء اللتين أفادتا في فهم تركيب الذرة . وقد برهن رذرفورد على أن الدقيقة من اشعة الف هي نواة ذرة الهليوم وقد اثبت ذلك بتجارب كثيرة . وهذه النواة كما ذكرنا من قبل كتلتها اربعة امثال كتلة ذرة الايدروجين وبها اربعة بروتونات والكترونان اي ان عليها وحدتين من الشحنات الموجبة وقد وجد انها تخرج من العنصر بسرعة تقرب من $\frac{1}{10}$ سرعة الضوء واذا ما خرجت من الذرة فان الذرة يقل وزنها طبعاً وبذلك تصبح ذرة عنصر جديد وله مكان جديد في الجدول الدوري . وقد وجد أن هذا المكان يبعد عن المكان الاصلي خانتين في الاتجاه المتناقص . اي ان الذرة اذا فقدت شحنتين موجبتين — ولا يكون هذا الاَّ من النواة — فان العنصر يتزحزح خانتين اي يتخذ مكان عنصر آخر اي يتحوَّل اليهِ

اما اذا فقـدت النواة دقيقة من اشعة باء فان عدد الشحنات السالبة في النواة ينقص . ومعنى هذا ان الشحنات الموجبة في النواة يزيد أثرها بمقدار الوحدة فتتغير الصفات الكيميائية للعنصر مع عدم تغير كتلة الذرة ويحتل العنصر مكاناً جديداً في الجدول الدوري . ولكن في هذه المرة في الاتجاه المتزايد . اي ان الذرة اذا فقدت دقيقة من اشعة الف فان الذرة تنقص خانتين في الجدول الدوري . واذا فقدت دقيقتين من اشعة باء فان الذرة تزيد الخانتين ثانية اي ترجع الى مكانها الاصلي في الجدول الدوري وبهذا يصبح عندنا في الجدول الدوري عنصران يحتلان مكاناً واحداً في الجدول الدوري وهذان العنصران يختلفان في الوزن ويتفقان في الصفات الكيميائية . ومثل هذين العنصرين يسميان نظائر Isotopes وهذا الموضوع —وهو موضوع دراسة النظائر— قد اهتم بهِ العالم الانكليزي استون Aston وبرهن على ان جميع العناصر لابد ان يكون وزنها الذري عدداً صحيحاً فان لم يكن كذلك فلا بد ان يتكوَّن من مزيج من نظائر اي ان الكيميائيين لا يستطيعون فصل هذه النظائر كيميائياً ولكن يمكن فصلها طبيعياً . فمثلاً إذا كان الوزن الذري للكلور — وهو الغاز السام — ٣٥٫٥ فقد برهن استون على انهُ يتركب من نظيرين وزنهما الذري ٣٥ و ٣٧ بنسبة خاصة على الترتيب . وكذلك برهن على ان النيكل Nickel ووزنهُ الذري ٥٨٫٧ يتركب من نظيرين وزنهما الذري ٥٨ و ٦٠ على الترتيب. وقد يتساءل البعض وكيف يمكننا فصل هذه النظائر بعضها عن بعض . والجواب انهُ يمكن فصلها بطريقة القوة الطاردة Centrifugal Force كما تفصل القشدة عن اللبن او كما تفصل الحجارة الكبيرة عن الاخرى الصغيرة بتحريكها حركة رحوية

وقد حاول قدماء الكيميائيين تحويل مادة الى اخرى فلم يفلحوا ولكن قد افلح علماء الطبيعة الحديثون بفضل مباحثهم في العناصر المشعة وتركيب الذرة . ولكن بدلاً من ان يحوّلوا العناصر البخسة الى الذهب — وهو بغية قدماء الكيميائيين — اقول بدلاً من ذلك اكتشفوا انهُ يمكن أن يتحول الراديوم وهو أغلى بكثير من الذهب الى نوع من الرصاص . ولكن اذا هم اخفقوا في الحصول على الذهب من العناصر البخسة فقد فازوا بتوسيع نطاق المعرفة وهو اهمُّ


سير الزمان
اسبانيا ومشكلاتها
بين الملكية والجمهورية
الوطنية في الشرق الادنى
للدكتور عبد الرحمن شهبندر
سياسة بريطانيا الخارجية
قواعدها الاساسية

اسبانيا ومشكلاتها

بين الملكية والجمهورية

كأنَّ اسبانيا بعد انشاءِ امبراطوريتها الاستعمارية في القرن الخامس عشر وما يليهِ ، أقامت بمعزل عن اوربا . فالمُثُل الدمقراطية التي ذاعت في اوربا بعد الثورة الفرنسية ظلّت لا تلقى الاَّ صدىً ضعيفاً في اسبانيا . وظلَّ ملوكها مستبدّين بامرهم حتى سنة ١٨٧٦ ، اذ سلّموا بوضع دستورٍ والاصغاءِ الى مشورة مجلس نيابيّ . ومع ذلك ظلّت اسبانيا بعد الدستور بلاداً رجعيةً يسيطر عليها اصحاب المصالح من رجال الكنيسة ورجال الجيش . ولكنها اليوم جمهورية تميل الى الاشتراكية بعد ثورة غير دامية ثلّت عرش آل بوربون . ونحن لا نستطيع ان نفهم الانقلاب الاسباني الذي وقع سنة ١٩٣١ على حقيقتهِ ، الاَّ اذا طوينا السنين الى مطلع القرن الحالي . ففي سنة ١٩٠٢ لبس الفونسو الثالث عشر — وكان قد وُلد ملِكاً اي ولد بعد وفاة ابيهِ — التاج والارجوان وتقلّد الصولجان واقسم بالقسم التالي : «اقسم بالله العظيم والاناجيل المقدسة بان ارعى الدستور والقوانين. فاذا فعلت ذلك فليجزني الله والاَّ فليدعني الى الحساب »

وكانت مهمّة الملك الشاب مهمة صعبة . فحركة العمال في اسبانيا لم تكن قد نظّمت بعد، ولكن الفقر كان ضارباً اطنابهُ بين جماهيرهم ولاسيما في ولاية الاندلس ، حيث اتجهُ العمال في اطيان الملاّك الكبار الى الشيوعية ، وفي مدريد حيث شرع عمال الصناعات ينظمون صفوفهم وفقاً لآراءِ سورل الاشتراكي الفرنسي ، وفي برشلونة حيث فزع القطالونيون من استبداد القشتاليين الى الفوضوية . اما الفونسو فلم يواجه المشكلات مواجهة الرجل . وكان يميل بطبعهِ ونشأتهِ وتربيتهِ الى تأييد الكنيسة والجيش وكبار الملاّك واصحاب المصانع . اما القطالونيون فكان يكرههم فاضاف الحنق الى الكرهِ، لما رمى احد فوضوييهم قنبلة على مركبة عرسهِ، ثم لما قتلوا كاناليِاس اعلى وزرائه مقاماً في نفسهِ

فلما نشبت الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ رغب زعماءُ الحياة الفكرية في اسبانيا في الانضمام الى الحلفاءِ وكان في مقدمة هؤلاءِ الفيلسوفان اونامونو Unamono واورتيجا ايكاست Ortega y Casset حتى انهم اوفدوا وفداً (وكان من اعضائهِ السفيور ازانا رئيس الوزارة الاسبانية في عهد الجمهورية) الى باريس . ولكنَّ الملك الفونسو ومؤيديهِ من الاحزاب المحافظة قضوا بوجوب بقاءِ اسبانيا على الحياد . فلما وضعت الحرب اوزارها رأت اسبانيا ان ثروتها قد زادت ، ولكن حكومتها ظلت في معزل عن رغبات الشعب ، تعوزها الكفاءة في تدبير شؤون البلاد . وكان الفونسو ادرى الناس

بمواطن الضعف في حكومته ، فظن ان خير علاج انما هو تدخّله الشخصي . فكانت محاولته الاولى خائبة . ذلك أنهُ بعث ، من دون معرفة الحكومة او قيادة الجيش ، بقائد يدعى سلفستر لتنظيم هجوم على الريف في مراكش ، فهزم شر هزيمة . وليس ثمة ريب في ان تبعة هذه الهزيمة واقعة على كتفي الملك . فاغتاظ الملك لهذه الهزيمة ، ودبَّر انقلاباً يحرره من قيود الدستور . وكانت الوزارة قد طلبت استرجاع الجنرال بريمو ده ريفيرا من قيادة الجيش في قطالونيا ، فرفض الملك ان يوقع الامر ، وأجبر وزير الحربية — الكالا زامورا وهو رئيس الجمهورية الآن — على الاستقالة . ثم سمح للجنرال ده ريفيرا ان يحمل وزير الخارجية على مغادرة اسبانيا ، ورفض ان يسمح للكورتس (المجلس النيابي) بالاجتماع

من بريمو ده ريفيرا الى الثورة

كان ذلك في ١٤ سبتمبر سنة ١٩٢٣ ، فكان هذا العمل ايذاناً بأن الدستور الاسباني قد اصبح حرفاً مماتاً . وظن الفونسو ، ان ذلك اليوم هو بدء حكمه المطلق . ولكنه اخطأ الظن ، لانهُ كان بدء حكم مطلق يمارسهُ بريمو ده ريفيرا . وده ريفيرا رجل دكتاتوري الطبع من ولادته . وصفهُ السنيور مادرياغا فقال : شديد الوطنية ، قوي الخيال ، لا يصبر على البطء والاناة ، سريع الانفعال ، قليل العلم ، يعتمد على البداهة ، ويحاول ان يعالج اعوص المشكلات بأبسط الاساليب كأنهُ الاسكندر ، يقطع العقدة بالسيف بدلاً من ان يفكّها . ثم هو متصف بالجرأة الادبية والشجاعة . كريم الطبع لم يحقد في خلال حكمهِ المطلق على معارضيهِ . كان اندلسيًّا واذن كان داهية يحسن تصريف الامور . . . . » . وقد لبث ده ريفيرا في منصّة الدكتاتور ، سبع سنوات ، فأصلح من خلل الحكومة وأصاب بعض وجوه من النجاح في ادارة شؤون البلاد. فكانت القطارات تقوم وتصل في مواعيدها . ومنع الاعتداء عليها . وأقبلت التجارة والصناعة في عهده . فانهُ خفض سعر العملة لكي يشجع تجارة الصادر . وأزهرت الزراعة . وأنشىء بنك زراعي . وخفت سورة العمال بالسماح لهم بانشاء نقابات على مثال النقابات الايطالية

ولكن ثمن ذلك كان باهظاً . ذلك ان الدكتاتورية لا تعيش الاّ اذا كُمّت الافواه والاقلام ، وقلما يرضى شعب بذلك طويلاً . فقد مارس ده ريفيرا رقابة شديدة صارمة على الصحافة . فتوقف عن الصدور عدد من الصحف الاسبانية التي كان يكتبها اعلام المفكرين والاحرار وكانت من امجاد الصحافة الاسبانية . ونفي زعماء الفكر الاسباني كالفيلسوفين اونانومو وجراست ، وقضي على النزعة الحرة في الدين ، كما قضي على النزعة الحرة في السياسة ، وأصبح التعليم احتكاراً للكاثوليك وكان نصف اطفال اسبانيا — بنين وبنات — لا ينالون من التعليم الاّ مبادئه الاولى ، وسمح للكنائس بوضع كتب الدراسة وفرضها على مدارس الحكومة لاستعمالها

ولذلك ما لبثت الاركان التي تقوم عليها الدكتاتورية حتى تصدعت . فالزعماء في عالم التجارة اخذوا يخشون نتيجة الوسائل الحديثة المبتكرة التي يعمد اليها ده ريفيرا في ميادين المال والاعمال. وكان تخفيض سعر العملة ذا فائدة اولاً ، ولكن التخفيض افلتت السيطرة عليهِ من يد الحكومة وبدأت العملة تتدهور وليس هناك ما يكبحها او من يكبحها . ثم ان عدم التوازن في الميزانيات المتوالية احدث قلقاً في النفوس ، فاستفحلت الريبة في اعمال الدكتاتور وفائدتها . حتى الجيش اخذ يتردد في تأييد الحكم القائم . فكان فيهِ فريقان فريق يبغي الاصلاح ويرمي اليهِ ، وفريق يؤيده ويدفع عنهُ .ومن وراء ذلك كان الفونسو يبحث عن وسائل يتخلص بها من ده ريفيرا نفسهِ. ذلك ان الدكتاتورية كانت دكتاتورية الجنرال لا دكتاتورية الملك ، ومع ان الدكتاتور كان يتظاهر دائماً باحترامهِ وولائهِ للعرش الاَّ ان رغبات العرش كانت لا تلقى منهُ العناية الوافية

فلما احسَّ الملك في سنة ١٩٢٩ ان عبء الحكم مدى سبع سنوات قد ناء بكلكله على الدكتاتور الجنرال ، ظن ان الفرصة قد سنحت ، لانشاء دكتاتوريته الخاصة . وكان المعروف حينئذ ان ثورة ذات اغراض جمهورية تتحفز للثوران في حامية الجنوب ، فاقترح ده ريفيرا ان يقيم استفتاءً عسكريًّا ليعرف ميل الجيش بوجه عام . وكان هذا الاقتراح غريباً في بابهِ ، فاتخذ الملك منهُ عذراً ليطلب من الدكتاتور استقالتهُ ، فاستقال من دون اية مقاومة او اعتراض

وكان همّ الفونسو حينئذ ان يقنع الامة بأنهُ كان غير موافق على الدكتاتورية ، ولا يرغب فيها فألف وزارة جديدة أقام على رأسها الجنرال برانجر . وأعلن أن المحافظة على الدستور سوف تكون دقيقة كل الدقة في المستقبل.ولكن الامة رفضت ان تصدق ، ان الفونسو ما كان يرغب في الانقلاب الذي احدثه ده ريفيرا . وعلى كل حال رأت الامة ان دكتاتورية ده ريفيرا تفضل ديكتاتورية الملك او الجنرال برانجر اذا كان لا بدَّ من التفضيل بين الديكتاتوريتين لانها في ظل الاول كانت اكفأ منها في ظل الثاني. ووعدت الحكومة الجديدة باجراءِ انتخاب عام في مارس سنة ١٩٣١ لاقامة بناء الدولة على اساس نصف دستوري . ولكن الاحرار والجمهوريين ادركوا ان الانتخابات سوف تكون مهزلة فأعلنوا قرارهم على مقاطعتها . عند ذلك اضطر الملك في فبراير ١٩٣١ ان يعيد الضمانات الدستورية فاقتنع الاحرار بالرجوع عن قرار المقاطعة ولكن زعيمهم كونت رومانوز اعلن انهُ سوف يطلب انشاء جمعية تأسيسية لوضع دستور جديد.فلما عرفت نية رومانوز ألغتْ الحكومة الانتخابات العتيدة ، ولكنها عجزت عن البقاءِ في مناصبها فاضطرت ان تستقيل ، فحاول الملك ان ينشيءَ وزارة تنهض باعباءِ الحكم الدكتاتوري فلم يجد الاَّ الاميرال ازنار

ولكن الميل الى الجمهورية في اسبانيا كان قد بدأ ينتشر ويذيع . وارتفع في مدن كثيرة ، صياح الجماهير « ليسقط الملك الفونسو » . وبدأ اهل قطالونيا ينادون ويطالبون باستقلالهم . فلما سمح للفيلسوف اونانومو ان يعود من المنفى استقبله الشعب ، وطوائف الشباب بوجه خاص ،

استقبالاً حافلاً ، فكان في هذا الاستقبال ريح من العاصفة التي تتحفز عند الافق للانطلاق

ولما انقضت سنة على سقوط ده ريفيرا بدا لمراقبي تطور الحالة في اسبانيا ، ان الملكية مقضيٌّ عليها . وكان الفونسو ذكيًّا ، فتبين هذا التحول قبل غيره . وفي ابريل سنة ١٩٣١ أجريت الانتخابات البلدية فكان الفوز فيها للجمهوريين ساحقاً ، فلم يبقَ امام الملك الاّ ان ينسحب . فغادر البلاد وحدهُ من دون ان يتنازل عن العرش . وانشئت حكومة وقتية ثم وضع الدستور لاسبانيا الجمهورية وانتخب زامورا رئيساً

الدستور الجمهوري والاصلاح الاجتماعي

في نوفمبرسنة ١٩٣١ أُقرَّ الدستور في الكورتس باجماع ٣٦٨ عضواً من اعضائهِ (وامتنع ٩٨ عضواً عن الاقتراع) . وكان منشئوهُ من اصحاب النزعة الحرّة ، الذين تصوّروا السبيل الى علاج مشكلات اسبانيا سبيلاً خالياً من التطرُّف والعنف . بهذا الدستور اصبحت اسبانيا جمهورية دمقراطية لها مجلس نيابي واحد (في فرنسا مجلسان احدهما للنواب وآخر للشيوخ ، وكذلك في الولايات المتحدة الاميركية) ينتخبهُ الرجال والنساء على السواء . ومنح الناخبون حقَّ المراقبة على المجلس ، بمنحهم حق طلب الاستفتاء . فاذا وافق ١٥ في المائة من الناخبين على وجوب استفتاء الشعب في مسألة ما وجب استفتاؤهُ فيها

وحلَّ الدستور مشكلتي اسبانيا القديمتين . اما الاولى فمشكلة المكانة الممتازة التي تتمتع بها الكنيسة في اسبانيا وقد حلّها بمصادرة جميع املاك الكنيسة . ذلك ان الثورة كانت ضدَّ الاكليروس ولكنها لم تكن ضدَّ المذهب الكاثوليكي . فالاسبان ما يزالون كاثوليكاً مستقيمي الرأي ولكن الدستور قضى على سيطرة اليسوعيين على التعليم في اسبانيا ، وعلى تمتع رجال الرهبنات والاديرة المختلفة بالريّ والشبع والشعب حولهم يتضوّر جوعاً ويتحرّق ظمأً . ومنع رجال الاكليروس بواسطة الدستور من الإشتراك في عمل التعليم

واما المشكلة الثانية فمشكلة العمال ، وقد خطا الدستور نحو حلّها خطوة اولى ، اذ منح العمال في كل منشأة صناعية او تجارية — اذا زاد عددهم على خمسين — حق تأليف لجانٍ يحق لها ان تطالب بتنفيذ عقود العمل ، وفحص حسابات الشركة ، وحضور اجتماعات المديرين . ولكنهم لم يمنحوا حق الاقتراع في جلسات المديرين ، وهذا ما اعترض عليهِ الشيوعيون في اسبانيا ، وعلى اساس اعتراضهم هذا لم يعترفوا بالدستور الجمهوري . وفي سبتمبر سنة ١٩٣٢ وافق الكورتس على القانون الزراعي او قانون الفلاحين Agrarian Law . وبمقتضاه منحت الحكومة السلطة ان توزع على الفلاحين افراداً او جماعات ، ما صادرتهُ من املاك الفونسو واراضي اليسوعيين وبعض الملاّك والملكيين منهم بوجهٍ خاص ممن اشترك في فتنة الجنرال سان خورخو . بل ومنحت كبار الحكومة كذلك حق مصادرة

الأملاك البور او التي لم تحسن زراعتها على ان تعوّض اصحابها قدراً من المال على اساس اثمان تلك الاراضي كما دوّنها اصحابها في دفاتر الحكومة لفرض الضرائب عليها . وكان غرض وزير الزراعة ان يكون توزيع الاراضي للجماعات دون الافراد في الغالب تنشيطاً للروح التعاونية

اما مقاطعة قطالونيا فتعرف في دوائر السياسة باسم «ارلندة» اسبانيا . اي ان موقفها من اسبانيا كموقف ارلندا من بريطانيا . فالشعب القطالوني يختلف عن القشتاليين سلالة ولغة وتقاليد . ولكنهم مع ذلك يعتمدون في حياتهم الاقتصادية على القشتاليين ، والقشتاليون يعتمدون عليهم . ظلمتهم الحكومة الاسبانية في القرن التاسع عشر فحظر عليهم استعمال لغتهم وألغيت محاكمهم وعملتهم . وفي اواخر القرن التاسع عشر ، ظهرت بينهم بوادر نهضة قوية ، انتهت في سنة ١٩٣١ — لما وقعت الثورة الاسبانية — الى اعلان استقلالهم وانشاء جمهورية قطالونية مستقلة . فواجهت الحكومة الجمهورية الوليدة في مدريد ، مشكلة الاعتراف باستقلال قطالونيا من دون ان تنفصل عن الجمهورية الاسبانية . وفي سبتمبر سنة ١٩٣٢ اقرّ الكورتس مشروع استقلال قطالونيا الذاتيّ Autonony فاصبح لها برلمانها الخاص ومجلس تنفيذي — اي وزارة — ورئيس . ولما اقيم الاحتفال الرسمي بهذا الاستقلال شهدهُ السنيور ازانا رئيس الوزارة الاسبانية حينئذٍ وخطب فيهِ فقال موجّهاً الكلام الى الكولونيل مارسيا رئيس قطالونيا : « حريتكم والجمهورية متصلتان لا تنفصم عقدتهما »

أما في الناحية الاجتماعية فقد منحت النساء حق الاقتراع في الانتخابات ، واعترف بشرعية الطلاق ، والقضاء على الوصمة التي يوصم بها الاطفال المولودون خارج النطاق الزوجي . وهذا كلهُ من شأنهِ ان يبدل العلاقة الكائنة بين الرجل والمرأة ويغير من شكل الاسرة . ففي بلاد كانت فيها المرأة مستعبدة لا حقوق لها ، وموقف الرجل نحوها موقف سيطرة وامتلاك لجسمها وروحها ، لا بدَّ ان تسفر هذه القوانين عن تحوُّل كبير في مقامها الاجتماعي

وكانت الحكومة الجمهورية قد اعدّت مشروع خمس سنوات تنشىء بموجبه في خلالها ٢٧ الف مدرسة وأُنشىءَ منها في اواخر السنة الماضية (١٩٣٣) نحو سبعة آلاف مدرسة . ولكن ثمة مشكلة خطيرة نشأت عن الغاء مدارس الاديرة ذلك أن نحو ٦٠٠ الف تلميذ وتلميذة لا يجدون مدارس يتعلمون فيها غير ان وزارة المعارف تقدر العدد بنحو ٣٠٠ الف ، وهو على كل حالٍ عددٌ لا يستهان بهِ

اما الموقف الآن فمحفوف بالشك . احزاب اليمين لا تجاهر بنزعتها الملكية ، وانما تطلب الغاء قوانين الاصلاح الاجتماعي التي اقرّها الكورتس الجمهوري الاول ، كقوانين العمال والفلاحين والرهبنات . واما احزاب اليسار فبعضها يرى الجمهورية في خطر ، والمتطرف منها غير راضٍ عن الجمهورية كما انشئت لانها اقرب الى البورجوزية منها الى الاشتراكية او الشيوعية . فالطريق الآن ممهّد لاسبانيا لتتخذ احد سبيلين . اما الرجعية ونقض ما تمّ على أيدي الجمهوريين او المضي في الثورة الى نتائجها المنطقية . والموقف الآن موقف حيرة وتردُّد فكل تنبؤ في هذا الصدد كثير المزالق

القضايا الاجتماعية الكبرى

في العالم العربي

للدكتور عبد الرحمن شهبندر

الوطنية

الوطنية شعور عميق يحدو صاحبه الى مؤاخاة عدد عظيم من النـاس (هم الامة) يعتقد انهم يشاركونهُ في مثل عليا يقدسها في نفسه وهي تستلزم حقوقاً وواجبات ، وتختلف هذه المثل العليا باختلاف المقاييس الاخلاقية الزمنية والنظرات المعنوية الاعتبارية ولكنها بالاجمال تجمعها كلمة عامة هي الثقافة

وتزداد سرعة الامم التي فيها عروق الحياة نابضة الى الاعتصام بحبل الوطنية المتين على قدر هبوطها في هوّة المصاعب وتعرّضها لعوامل التفتت والاستغلال

فالامة تتألف اذن من افراد يشعرون كما قال الاستاذ (مكدوجال)[1] بانهم متماسكون تماسكاً طبيعيًّا بروابط لها عندهم من القوة والصدق بحيث يكون في ميسورهم ان يعيشوا بالسعادة والهناءة اذا كانوا معاً ولكنهم يصابون بالضيم اذا ما تفرقوا . وهم يرفضون كل خضوع وانقياد للشعوب التي لا تشاركهم في هذه الروابط . فما هي هذه الروابط يا ترى ؟

هي في نظري قائمة على أساس جوهري مبناهُ التجانس والاتصال وما الى ذلك من اسباب التشابه ، فهي تتطلب التماثل في الاوضاع والعادات والانساب ، والاتصال الزمني واتحاد المصلحة ، هي في عالم الانسان مصداق للمثل الذي يطلق على ذوات الاجنحة « ان الطيور على اشكالها تقع » بل هي مصداق للحديث « الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف ». ومع كل ما يقف في سبيل الوطنية الصادقة من العقبات وما يعتور زعماءها من المقاومات الداخلية والخارجية فهي كما تنبأت دائرة المعارف البريطانية في احدى طبعاتها الاولى « تتقدم بسرعة والمرجح ان تكون عاملاً قويًّا في اوربا لمدة اجيال قادمة فتؤدي الى انشاء وحدات سياسية وتعيد الى سالف العهد لغات قد انحطت وتستولد ادبيات مستحدثة »

ولما انتشرت الافكار الاشتراكية المتطرفة واشتدت شوكة الشيوعية عقب الحرب العالمية خيف

---

(1) The Group Mind, p. 136

على الوطنية وظن الناس ان عهد كافور وغاريبالدي وماتسيني وبسمارك ومن حذا حذوهم من اعلام القوميات لم تعد له صلة بزماننا لان الجامعة الوطنية عند اصحاب هذا الظن هي كالجامعة الدينية اصبحت من مخلّفات القرون الوسطى، ولكن نهضة الطليان والترك والالمان الحديثة وما تبعها من انتشار الافكار الفاشستية الوطنية بصورة فعّالة حتى في بلاد الديمقراطيات العريقة كل ذلك خيّب آمال اللاوطنيين الاندثاريين وقضى—ولو مؤقتاً— على فكرة الذين يزعمون ان الانسان يستطيع ان يتخلى عن تراثه القومي وثقافته الوطنية. ومالم تشترك جميع الامم الراقية اشتراكاً اقتصاديًّا وسياسيًّا في هذا الاندثار والتخلي فمن المستحيل ان تتحقق فكرة الاشتراكية الدولية او الاخوة العالمية، لانهُ من انكر النكر ان تبثّ في سورية او في مصر مثلاً فكرة الاخوة الانسانية وفي فرنسا او انكلترة فكرة تنازع البقاء في آن واحد. ولعلّ اخفاق عصبة الامم يرجع سببه في الدرجة الاولى الى ان المسيطرين عليها قد اصرّوا على ان تبقى جميع القوة في ايديهم وان يتنازل غيرهم عن جميع اسباب دفاعه، وهكذا نسوا ان يبدأوا بأنفسهم فينهوها عن غيها، ويعلموها ما يحاولون ان يعلموهُ غيرها

ونرى روّاد الوطنية الحديثة قد قاوموا بكل ما اوتوه من قوة النظريات الانسانية العالمية التي بثّتها الثورة الفرنسية لان مثل هذه النظريات تفتت الشعب فتحوله الى افراد لكي تؤلف منهم فيما بعد خليطاً من الغوغاء. فلا عجب ان يعلن (ماتسيني) حرباً عواناً على اللاوطنيين الارضيين الذين يدعون الناس ان يحب بعضهم بعضاً من غير تفريق في الجنسية، لانهُ يعد مثل هذه الدعوة عبثاً وقائماً من الاساس على المستحيل عقلاً

وعند (ماتسيني)[1] ان الامة مرتبة وسط بين الفرد من جهة وبين مجموعة الجنس البشري من جهة اخرى، وفي طاقة المرء ان يفهم امته ويحبها لانها مؤلفة من مخلوقات تشبههُ، وهي تنطق اللغة التي ينطق بها وتتحلى بالميول الطبيعية التي يتحلى بها، وقد أدبتها التقاليد التاريخية المشتركة، وفي الامكان تصويرها في الذهن وحدة وطنية مستقلة فالامة والحالة هذه مرتبة وسط بين البشرية وبين الفرد. (ترجمة حياة ماتسيني ص ٢٧٣). وفي وسع المرء ان يحيط بالبشرية وذلك بان يتصورها فسيفساء من أمم كل منها يتألف من افراد متجانسين، والامم هي رعايا البشرية كما ان الافراد هم رعايا الامة. اما عهد الانسانية فلا يجوز ان يمضيه الافراد بل تمضيه الشعوب الحرة المتساوية ذات الاسماء والاعلام الخاصة والتي تخص بحوزتها المستقلة

وقد مثلت الوطنية كما فهمها بسمارك وماتسيني في القرن التاسع عشر دوراً خطيراً في نشوء الوعي السياسي في اوربا، ولكن الكتّاب زعموا عقب الحرب العالمية انها لا تصلح لحلّ المعضلات التي استجدت، فما قولهم دام فضلهم في مساعي الهتلريين في يومنا الحاضر لضم النمسا متجاوزين في ذلك

(١) Human Nature in Politics p. 276.

حدود النظرية البسماركية وذاهبين في التطرف الى ابعد منها ؟ أليس التجانس اللغوي والثقافي واتصال البلاد ومصلحتها وتنظيمها السياسي كل ذلك من القواعد الوطنية التي ساقت النازي الى هذا العمل ؟ ألم تدلنا الوطنية الفرنسية في الغرب وفي الشرق، في فرساي وفي عصبة الامم، في المؤتمر الاقتصادي العالمي وفي مؤتمر نزع السلاح، في بلاد الحماية وفي بلاد الانتداب، على ان قاعدة بسمارك التي تلاها في خطابه سنة ١٨٥٠ لا تزال محترمة تحز مفاصل الامم في سنة ١٩٣٤ وفحواها «ان المبدأ الصحيح الوحيد للخطة التي تسلكها الدولة المعظمة انما هو الانانية السياسية» ألم يدخل الجنرال غورو دمشق الشام في سنة ١٩٢٠ مفتخراً بسحق سورية التي يرأسها حليفه، والتي نالت قبل ذلك ببضعة عشر شهراً تصريحاً مشتركاً من فرنسا وانكلترا بحقها في الاستقلال، والتي قال عنها الحلفاء انفسهم في عهد عصبة الامم انها اهل له ؟ وأما جميع تلك التفاسير التي فسرت بها هذه الوعود والعهود الشفهية والخطية، الرسمية وغير الرسمية، لدخول المستعمرين البلاد فاتحين مغتصبين فهي تفاسير اهل الحيل الشرعية الذين يؤولون اصرح النصوص وأقدس العقود لمصلحتهم الشخصية او مصلحة وكلائهم المادية. وقد سمعت في احد الايام شيخاً اشترته فرنسا بالوظيفة يدعو الناس الى طاعتها في سورية بما تلاه عليهم من نص القرآن «يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الامر منكم» ثم ان القوي يتمتع منذ القدم بحق تفسير الشرائع السماوية والارضية لمصلحته وأما الضعيف فيرفع يديه الى السماء طالباً الرحمة، ولو انهُ بدلاً من ان يرفعها الى السماء لطم بها وجه المنافقين لكان اقرب الى استنزال الرحمة واستدرار البركة

***

كذلك نحن اذا حللنا خطة فرنسا في شمال افريقيا تحليلاً دقيقاً وجدناها قائمة على الفكرة البسماركية ايضاً، وبدلاً من ان يكون النموذج البروسي في هذه القضية هو الذي يجب ان يهضم غيره ويمثله نرى النموذج الفرنسي اللاتيني هو الذي يحاول «بالدم والحديد» كما قال بسمارك ان يمتص غيره من عناصر العالم العربي. وهذه لعمري وطنية التوسعيين من اهل البسطة السياسية، وان نجحت طريقتهم في البلدان المتجانسة ذات الثقافة المماثلة فهي محكوم عليها بالاخفاق في البلدان الاخرى، وحسبنا ان نشير هنا الى ايرلندا والصراع العنيف الذي دام حقباً لكلترتها الى ان سنحت فرصة الحرب العالمية فأعلنت استقلالها المعلوم وهي تقطع اليوم عرى اتصالها ببريطانيا ولا تقبل مع انكلترا غير معاملة الند للند

وقاعدتنا في تحديد الحلف العربي القادم هي قاعدة ليس فيها دم ولا حديد كقواعد المتغلبين هذه بل قائمة على تجاذب روحي يناسب المستوى العقلي الذي بلغناه ويجمعها قولنا «طاقة الثقافة العربية بأوسع معانيها ان تضم تحت جناحيها جميع العناصر التي اكتسبت التماثل والتجانس بفعلها واما ما لا تتسع لهُ معدتها فيكون خارجاً عن حوزتها»

وقد يعترض علينا معاشر السوريين معترض فيقول : ما بالنا نبحث في الحلف العربي الاكبر ونحن في عقر دارنا مقسمون ممزقون الى دويلات ؟ وهل من الحصافة في شيء ان نحبر المقالات الطوال في وصف (الشوكولاته) وطبخها للذين يموتون من الحاجة الى الخبز على قارعة الطريق ؟ والجواب ليس عسيراً متى عرفنا ان الوعي القومي اذا دبَّ في الافراد اصبح خالداً وان الامم الحية واصلة الى غرضها ولو لاقت في سبيل ذلك اضعاف ما لاقى الصربيون واليونانيون والبولنديون

﴿ شأن الوطنية عند المعاصرين ﴾ ومما يدلنا على المقام الرفيع الذي تتمتع به الوطنية الصادقة في الشعوب الحية المعاصرة المسألة الآتية التي لم نعهد لها مثيلاً في الشرق على اقل تقدير وهي ان المحافظة على العقائد الدينية في الاقطار عامة — ولا سيما التي فيها نزعة روحية ظاهرة — امرٌ مرغوب فيه يتطلب عناية الذين يقودون الشعب في نهضته السياسية ، وذلك لحاجتهم الى الاستعانة بالرأي العام والتأثير في الدهماء ، لان الخروج على العقائد هو مثل امتهان حرمة التقاليد المقدسة يدعو الى النفرة في سواد الشعب ، والقائد هو في حاجة دائماً الى استرضاء الجنود واستمالتهم والاَّ ما حاربوا تحت لوائه ، ولكن زعيماً سياسيًّا حربيًّا مثل مصطفى كمال باشا لم يهمل قضية الدين فقط بل حاربها محاربة جبارة قد لا تقل من بعض الوجوه عن محاربة (لنين) لها وضربها في الصميم ، ولم يدخر وسعاً في قلبها من الاساس من غير ان يفقد شيئاً عظيماً من هيبته ، وهو وان احدث لهُ خصومة لا يستهان بها في العالم الاسلامي ، الاَّ ان المعجبين بهِ من المسلمين انفسهم الذين يحلونه المحلَّ اللائق بهِ من الاعتبار — مع احتفاظهم بعقائدهم الدينية — هم لا يستهان بهم ايضاً ، فكأن عمله الباهر في ميدان الحرب والسياسة قد طغى في نظرهم على سائر الاعتبارات فغفر لهُ ما تقدم من ذنبهِ وما تأخر ، وكأن انقاذ الشعب المستعبد من ربقة الذل ولعنة الاستعمار حدث يجبُّ ما قبله ويمحو ما بعده ، ومما يسترعي الانظار ان الحملة عليهِ في العالم الاسلامي لم تبلغ جزءاً من شأو الحملة على الالحاد البولشفي في العالم النصراني . ولعلَّ للدعاية الرأسمالية الواسعة شأناً في هذا المضمار

***

﴿ تتمة ﴾ : وقصارى القول اننا لا نخطىء اذا قلنا ان الوطنية مثل الاشتراكية — ومثل سائر المذاهب السياسية التي تتناول سعادة الافراد ورفاهيتهم — هي دين له كتبه المقدسة وانبياؤه وشهداؤه وحروبه ، وتزداد الحماسة التي تحفز اهله الى الاقدام وتحملهم على البذل بقدر الخطر الذي يهدد حوزتهم من الدول حولهم . ولا جرم ان تسمو الوطنية في اعين الشرقيين خاصة ويعلو كعبها ، ذلك ان بلدانهم اصبحت هدفاً يرمى وغنيمة تقتسم ، وما لم يهبوا للدفاع عنها كما هبت الشعوب في القرون الوسطى للدفاع عن العقائد الدينية المقدسة كانت النتيجة كفراً بنعمة الوطن وخلوداً في جحيم الاستعمار

سياسة بريطانيا الخارجية

قواعدها الاساسية وصلتها بنزع السلاح [1]

كثيراً ما يقال ان سياسة بريطانيا الخارجية غير جلية ، وان البلدان المتصلة بها بصلة السياسة والاقتصاد قلما تدري ما تستطيع ان تتوقعهُ من موقف بريطانيا في المسائل المختلفة . بل يقال انهُ لو حددت بريطانيا موقفها في مطلع سنة ١٩١٤ او قبل ذلك لاجتنب وقوع الحرب ، ويقال كذلك انه لو وقفت بريطانيا موقفاً حازماً من مشكلات منشوريا ومسألة النزاع بين المانيا وفرنسا ، ومعضلة تنقيح معاهده فرساي ، وهي المسائل التي تقلق بال العالم اليوم ، لحلت هذه المشكلات حلاً نهائيًّا. واذن يعزى استمرار القلق العالمي ، الى تردد بريطانيا وغموض سياستها . والمسألة التي يثيرها هذا الكلام مسألة اساسية . فلننظر في تفصيلاتها

لننظر اولاً اليها من الوجهة التاريخية . في الفترة بين سنة ١٦٨٩ ومعركة واترلو ، كانت بريطانيا مشتبكة في حرب ما ، في كل سنة من سنتين من سني هذه الفترة — فسنو الحرب خلالها كانت ٦٣ سنة وسنو السلم كانت ٦٣ سنة كذلك . فنشأ عن ذلك ان الامة البريطانية احسَّت انها سئمت هذه الحال . فلما انشئت الحكومة الديمقراطية الصميمة في بريطانيا، بعد اصلاح سنة ١٨٣٢ جرت بريطانيا على مبدأ الامتناع عن الاشتباك في حروب البر الاوربي كطريق نحو السلام . فانقضت عليها نحو مائة سنة بعد ذلك — لولا حمق الانزجاج في حرب القريم — وهي متمتعة بالسلام ، صادفة عن نزاعات البرّ الاوربي. وكانت نتيجة ذلك انها اصابت اقبالاً ماديًّا، وكان نجاحها المادي ذا فائدة لها ولجيرتها، بل وللعالم قاطبة ، ككل نجاح مادي على الاطلاق

فالمسألة التي واجهها رجالها في مطلع القرن العشرين ، كانت هذه : هل ثمة باعث كاف يبعثهم على تغيير خططهم التي جروا عليها

***

من السهل ان نلتفت الى الحوادث بعد وقوعها ونقول كان يجب ان نفعل كذا او كذلك ، وقد يسهل الآن ان نقول انهُ لو فعلت بريطانيا كذا او كذلك قبل سنة ١٩١٤ لاجتنب وقوع الحرب الكبرى . ولكن الذين كانوا يعيشون في غمار الحوادث المتتابعة حينئذٍ ما كانوا يرون ما نراهُ الآن او يحسون بما نحسُّ بهِ

قال السر هربرت صموئيل : ولما كنت وزيراً في الوزارة البريطانية التي سبقت الحرب مدة خمس

---

(١) عن بحث السر هربرت صموئيل احد زعماء الاحرار البريطانيين ووزير الداخلية سابقاً

سنوات وأشرفت على اعلانها اظن اني اعرف كيف سارت الامور حينئذ . وانني اذا التفت الى الوزاء، الآن ، على ضوء ما حدث بعد ذلك ، اجدني غير متفق مع الذين يقولون انهُ لو اعلنت بريطانيا في جلاء ووضوح انضمامها ، الى فريق فرنسا او الى فريق المانيا ، لاجتنب وقوع الحرب . بل اني لاعتقد ، انهُ ما كان في وسع اية وزارة بريطانية ، ولا اي حزب بريطاني ، ان يسلك هذا المسلك. ذلك انهُ لو فعلنا ، لكنا عدنا مرة اخرى ، الى الاشتباك في مشكلات توازن القوى الاوربية . وهذا النظام من توازن القوى لم يكن في وقت ما ، ضماناً من ضمانات السلام . بل على الضد من ذلك كان دائماً باعثاً من بواعث الاحتكاك المفضي الى الحرب . ولو ان بريطانيا تحالفت مع احد هذين الفريقين لتحتم عليها ان تتحمل تبعة الاعمال التي يعملها حلفاؤها . وكيف نعلم ان حلفاءها لا يندفعون في سبيل المطامح المنطوية على خطر على السلام اعتماداً على مساعدتها وتأييدها ؟

وعلى الضد من ذلك ، ان موقف بريطانيا المنعزل او المنفصل كان يمكنها من ان تستعمل نفوذها في سبيل السلام . كذلك فعلت في حروب البلقان سنتي ١٩١٢ و ١٩١٣ اذ استعملت نفوذها ، لمنع تلك الحروب المحلية من الامتداد كالنار في الهشيم . وليس ثمة ما يدل على انهُ لو وقعت حينئذ حروب اخرى لتعذر عليها ان تستعمل مكانتها في سبيل تأييد السلام ، كما استعملتها في حروب البلقان. بل ان السر ادورد جراي ، استعمل نفوذه ومكانته باخلاص تام ، في صيف سنة ١٩١٤ لهذا الغرض العظيم ، ومرّت بنا لمحة من الزمان ظننا فيها انهُ قد يفوز

يقال احياناً ، انهُ لو اعلنت بريطانيا المانيا ، اعلاناً رسمياً ، بانهُ اذا اخترق حياد البلجيك ، حمل ذلك الاختراق بريطانيا على خوض المعترك اي لو اعلنت بريطانيا المانيا بهذا ، لما كانت الحرب . هذا ما يقال . ولكن اعلاناً من هذا القبيل كان يعني ضمناً ان بريطانيا تبقى على الحياد اذ كان زحف المانيا على فرنسا من غير طريق البلجيك

نعم لا بدَّ ان تعنى حينئذ قيادة الجيش الالماني بتغيير خطتها . ولكن الحرب بعد ذلك تصبح اقرب وقوعاً بدلاً من اجتنابها بمثل هذا التصريح . اما اذا كان تصريح بريطانيا لا يعني وقوفها على الحياد اذا هوجمت فرنسا على الاطلاق ، فهو يعني انها اصبحت في صف فرنسا مهما يكن من امر المانيا . وهذا عود منها الى موقف ما زالت تريد ان تتجنبهُ . أما اذا رفضت المانيا ان تقيم وزناً لتصريح بريطانيا كائناً ما كان فالحالة تبقى على ما كانت عليهِ بل وتزيد تعقداً وخطراً

***

هذا من الناحية الخارجية وملابساتها . اما من الناحية الداخلية فان انضمام بريطانيا الى احد الفريقين ، او تصريحها التصريح الذي كان ينتظر منها على قول بعضهم ، من شأنه ان يقسم الامة البريطانية الى فريقين . ذلك ان الديمقراطية البريطانية شيءٌ متأصل في النفوس، والاعراب عن حرية الرأي حق لا نتنازل عنهُ . والوقوف قبل سنة ١٩١٤ الموقف الذي يقال الآن انهُ كان يجب علينا

ان نقفه كان لا بد ان يلقى حينئذٍ ، معارضين ومؤيدين وكذلك تنقسم البلاد وتنتابها ازمة خطيرة

ثم ان الشعب البريطاني، لكي يقتنع بوجوب التضحيات العظيمة التي تقتضيها الحرب، يجب ان يقتنع اولاً بان الحرب تشهر في سبيل غرض صالح وانهُ كان من المتعذر اجتناب تلك الحرب بوسيلة شريفة . ولو ان حكومة بريطانية ، كائنة ما كانت ، حاولت في مطلع القرن العشرين ان تنضم الى احد الفريقين الاوربيين الكبيرين — فرنسا وفريقها أو المانيا وفريقها — او لو أنها صرحت تصريحاً يعني ضمناً انضمامها الى احد الفريقين في حالة نشوب حرب بينهما ، لكان نشأ في بريطانيا حينئذٍ جدال سياسي خطير ، لا بد ان يفضي في النهاية الى انقسام الامة بعضها على بعض . ذلك انهُ من المتعذر في حالة كهذه الحالة ، ان تقنع الجمهور بان الغرض من هذا الانضمام او من هذا التصريح، هو منع الحرب ، كما يقال . بل لهاجم الكتّاب الاحرار الوزارة مسندين انضمامها او تصريحها ، الى اغراض امبريالستية، او الى رغبة منها في القضاء على خصم قبل ان يشتدَّ ساعدهُ . واذا اضطرت الحكومة حينئذٍ ان تزيد الانفاق على اسطولها — كما اضطرت حكومة بريطانيا بين سنة ١٩٠٨ وسنة ١٩١٤ — لما صدق الشعب ان الغرض من هذه الزيادة انما هو الدفاع عن كيان البلاد ، بل لَعَزا هذه الزيادة ، الى غرض الاستعداد للحرب التي اعترف بها ضمناً في انضمام الحكومة الى أحد الفريقين . ثم اذا كان لا بد من وقوع الحرب حسبت الامة نشوبها نتيجة للسياسة التي جرت عليها الحكومة وعندئذٍ فقد تلقى الحكومة معارضة فتكون النتيجة اللازمة لخطة كهذه ، خيبتين ، خيبة في السلم واخرى في الحرب !

ثم ان خطة بريطانيا الخارجية مرتبطة من ناحية اخرى ببلدان الدومنيون المستقلة استقلالاً ذاتيًّا — اي كندا واستراليا وزيلندا الجديدة وجنوب افريقية (لم تكن ارلندا حينئذٍ في عدادها) — وهذه البلدان تصر على ان تكون مقدَّراتها في ايديها . وبريطانيا تسلم بذلك . بيد أن حكومة لندن مضطرة ، اضطراراً مستمرًّا الى اتخاذ قرارات عامة ، لها صلة بشؤون كل جزء من الامبراطورية البريطانية . لذلك تحيط حكومة لندن حكومات الدومنيون والهند ، علماً بتفصيلات كل مشكلة دقيقة تعرض لها او كل قرار خطير تتخذهُ . وهذه بحكم الطبع لا تميل الى الاشتباك في شؤون اوربا المعقدة

***

تكلمنا عن الاركان التي تقوم عليها السياسة الخارجية البريطانية بوجه عام وأثرها في موقف بريطانيا من الحرب الكبرى قبيل اعلانها . ويقول السر هربرت صموئيل ان الحالة اليوم تشبه بوجه عام الحالة قبيل الحرب . فالشعب البريطاني الآن يتردد كل التردد قبل الاقدام على الاشتراك في اي حرب لأي غرض . فهو يمقت الحرب ويحسبها على ما قاله فيها احد كبار قواده «سخفاً مكروهاً » . ولكنه — اي الشعب البريطاني — يقدر التبعة الملقاة على عاتقه في وجوب التعاون للمحافظة على السلام . وقد مضى في ناحية النهوض بهذه التبعة ، الى مدى عقد معاهدة ضمان عسكري في غرب اوربا (المقصود معاهدة لوكارنو سنة ١٩٢٥) وهذه المعاهدة تنطوي على

مخاطرة عظيمة . فاذا اقتضت الحال وجوب تدخل بريطانيا في غرب اوربا فان الشعب البريطاني ، مع شدة مقته للحرب ، لا يتأخر عن تنفيذ العهود التي قطعها . غير ان الرأي العام البريطاني ، معارض الآن معارضة صريحة في توسيع نطاق هذه المعاهدة

وبلاد الدمنيون توافق بريطانيا على هذا الموقف بوجه عام . ولكن خشيتها من الاشتباك في الشؤون الاوربية عظيمة جداً ، حتى انك لا تجد بلاداً واحدة منها، قد ابرمت معاهدة لوكارنو. فهي تحتفظ بحقها في الحكم ، اذا اقتضت الحال خوض بريطانيا غمار حرب اوربية تنفيذاً لعهدة لوكارنو . وحينئذ فاما ان تعاونها وتشترك معها ، واما ان تعرض عن ذلك

ويرى السر هربرت صموئيل ان الرأي العام البريطاني يفضل الانسحاب من الشؤون الاوربية لو كان ذلك في نطاق السياسة العملية، ولكنه يدرك في الوقت نفسه ، ان هذا الانسحاب غير عملي. وهو الى ذلك معارض اشد المعارضة في انتهاج خطة تقوم على عقد المحالفات . واذن لم يبقَ أمامه الاّ احد سبيلين — أما السبيل الاول فهو استعمال الاساليب التي كانت مستعملة قبل الحرب الكبرى ، اي الاساليب الدبلوماسية والنفوذ الدبلوماسي والتدخل الدبلوماسي بين حين وآخر ، اما السبيل الثاني ، فهو السبيل القائم على الاشتراك في المفاوضات واستعمال وسائل جمعية الامم . والكثرة الغالبة في بريطانيا تفضل الاسلوب الثاني على الاول . فسياسة بريطانيا قائمة على اساس جمعية الامم وفي هذا تؤيدها بلدان الدمنيون وحكومة الهند

ولكن الطريقة الثانية ، لا يرغب فيها الشعب البريطاني ، الاّ اذا كانت اممية بالمعنى الصحيح ، لان بريطانيا لا ترغب ان تقوم وحدها ، في الشؤون العالمية ، مقام البوليس ، فهي لا ترغب ان تتعهد بان تبعث بالجنود البريطانيين والبحارة البريطانيين معرضة حياتهم للخطر ، الى مكان بعيد ، حيث يقوم نزاع بين دولتين او اكثر ، مع ان مصالحها في ذلك المكان لا تفوق مصالح غيرها من الدول الاخرى . ولما كانت الضرائب التي يؤديها الشعب البريطاني اكبر من الضرائب في اية امة اخرى ،فانه يرفض ان يتخذ على عاتقهِ تبعات جديدة تزيد نفقاته والضرائب المفروضة عليهِ

اما اذا اشتركت جميع الامم في عمل دولي ما ، فان الشعب البريطاني حينئذٍ لا يحجم عن القيام بنصيبهِ التجاري والمالي وما اليهما ، للاقتصاص من دولة خرقت عهدة كلوج (عهدة تحريم الحرب سنة ١٩٢٨) او عمدت الى الاعتداء على غيرها ، وهذا العمل في حد نفسه ، ينطوي على مغامرة عسكرية لا يرغب فيها الشعب البريطاني بوجه عام . ولكنَّ السر هربرت صموئيل يعتقد انهُ لا يحجم عنها اذا اشتركت الامم الاخرى معهُ في ذلك

***

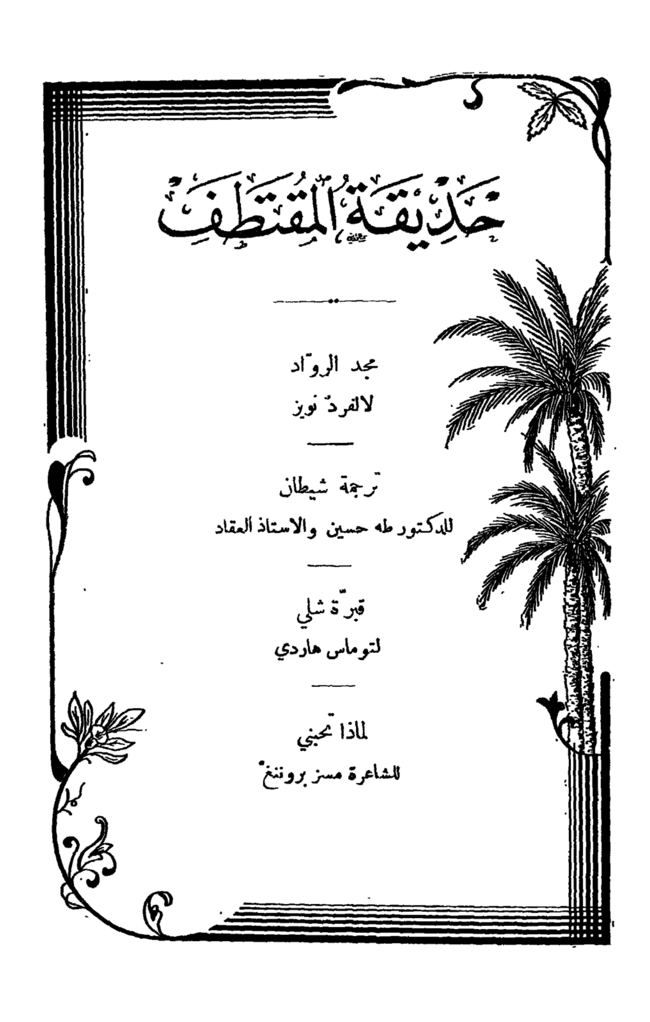
خذ مثلاً على ذلك مشكلة المحيط الهادي — والمحيط الهادي كما تعلم منطقة من مناطق الخطر في السياسة العالمية الآن . ان الامم التي تهمها هذه المشكلة في المقام الاول ، هي روسيا واليابان

والولايات المتحدة الاميركية وبريطانيا . ولكن واحدة فقط من هذه الدول عضو في جمعية الامم . فبأي حق تدعى احدى هذه الدول وحدها — المقصود بريطانيا لانها الوحيدة بينها المنتظمة في الجمعية — من قبل الجمعية للنهوض بتبعات كبيرة كان يجب ان تشترك الدول الاربع جميعاً في حمل عبئها

في هذه المسائل الدولية الخطيرة تنظر بريطانيا بعين العناية العظيمة الى موقف الولايات المتحدة الاميركية . قال السر هربرت : قال لي احد الاميركيين مرة ، لو ان بريطانيا واميركا تتفقان على العمل معاً لكانتا تحكمان العالم. فأجبتهُ الجواب المنتظر ، ولماذا تريدها ، او لماذا تريدان هما ان تحكما العالم ؟ خير للعالم، ان يحكم نفسهُ . ولكن الواقع انهُ اذا اتفقت الولايات المتحدة الاميركية والامبراطورية البريطانية على العمل معاً ، كان لهذا الاتفاق اثر عظيم في السياسة الدولية على شريطة ان توجها نفوذهما الى الخير العام لا إلى اغراض ضيقة خاصة . واذا شاءتا ان تكون خطتاهما مشتركتين او متحاذيتين وجب زيادة التشاور والتعاون بينهما

اذا تبصّر القارئ في هذه القواعد التي عرض لها السر هربرت في بحثهِ ، استطاع ان يدرك تلكؤ بريطانيا في قبول فكرة « الضمانات » التي تطلبها فرنسا ، شرطاً لعقد اتفاق نزع السلاح . فبمقتضى المشروع البريطاني ، الخاص بهذا الموضوع ، والمذكرة البريطانية التي عدّلت فيها بعض مواد المشروع الاصلي ، تقترح بريطانيا على فرنسا ان توافق على تسلّح المانيا باسلحة دفاعية معيّنة . وان تنقص فرنسا سلاحها في بعض النواحي . فأعربت فرنسا في ردّها عن قبولها ذلك اذا ضمن تنفيذ الاتفاق . وحجّتها في ذلك ان المانيا قد تخلّ بمواد الاتفاق وتصنع اسلحة ممنوعة فيهِ ، وان لجنة الرقابة الدولية قد تثبت ذلك . فماذا تفعل الدول حينئذٍ وما هي الوسائل التي تتخذها لقسر المانيا على المحافظة على العهود التي قطعتها في الاتفاق الذي وقعتهُ . اما بريطانيا ، فتقول ، استناداً الى خطتها التقليدية ، انها تعيدُ في حالةٍ كهذهِ بالتشاور في الوسائل التي يمكن اتخاذها لتنفيذ الاتفاق المعقود. اما فرنسا فتقول ان الوعد بالتشاور لا يكفي وانها تطلب وعداً بالعمل . فلما وجّهت حكومة بريطانيا الى حكومة فرنسا ، سؤالاً عن الضمانات التي تطلبها فرنسا ، بعثت فرنسا بمذكرتها الاخيرة وفيها رفض ان تسلّم بشرعية تسلّح المانيا وباجراء مفاوضات نزع السلاح في غير حَرَم مؤتمره بجنيف

ولكن اذا امتنعت بريطانيا جرياً على خطتها المعروفة عن توسيع نطاق معاهدة لوكارنو ، اي اذا امتنعت عن قطع عهود حربية اخرى على البرّ الاوربي ، فما حجّتها في الامتناع عن قبول الضمانات الاقتصادية ، كقطع الصلات المالية بالبلاد المعتدية ومنع التصدير اليها او الاستيراد منها ؟ حجّتها في ذلك انهُ اذا لم تشترك الولايات المتحدة الاميركية في هذه الضمانات ، فقد تصطدم بريطانيا ، وهي تنفذ الضمانات الاقتصادية بالولايات المتحدة الاميركية الباقية على الحياد . وهذا ما تتحاشاهُ . ولكن اقتراح الرئيس روزفلت بان تمتنع الحكومة الاميركية في احوال معيّنة عن أي عمل من شأنهِ عرقلة القرار الدولي لمعاقبة امة معتدية قد يكون فيهِ مخرج من هذا المأزق



حديقة المقتطف

مجد الروّاد

لالفرد نويز

ترجمة شيطان

للدكتور طه حسين والاستاذ العقاد

قبرة شلي

لتوماس هاردي

لماذا تحبني

للشاعرة مسز بروننغ

مجد الروّاد

الفرد نويز Alfred Noyes شاعر انكليزي في الطبقة الاولى بين شعراء انكلترا المعاصرين . استشرف بنظره تاريخ ارتقاء المعرفة فاختار من سير روادها الحوادث التي كانت معارك فاصلة بين جيوش النور وجيوش الظلام ونسج من ذلك ملحمة شعرية عظيمة سماها « حملة المشعل » . وفي ما يلي قطعة اجراها على لسان تيخوبراهي — وهو فلكي دنماركي من علماء القرن السادس عشر قضى ٢١ سنة برصد الافلاك في مرصد اورانينبرج ثم اضطر ان يغادر بلاده ويلجأ الى رودلف الثاني في براغ وكان جلّ همه ان يعين مواقع الف نجم قبل ان يموت ولكنه لم يعين الا مواقع سبعمائة منها قبل طرده من بلاده — مخاطباً مريديه قبل مبارحته وطنه

ما اقلّ ما اعلم — عملتُ عمل قزمٍ ! ان الرجال الذين سوف يتبعونني
قد يزيدون ، بفنّ ادقّ من فنّي ، عشرات الالوف . ولكن مجموعتي تنقذهم
من عناء خمس وعشرين سنة ، وتقربهم الى هدفهم ، الى ملك النواميس
الذي لن ارى . اننا على عتبة عصر من المكتشفات العظيمة . فأنا احسُّ
كما يحس الحالم ، بالفجر ، قبل ان يفتح عينيه . كثيرون منكم سوف يشاهدون
تلك المكتشفات . وفي ذلك اليوم تذكرون اجتماعنا الاخير في اورا نتبرج
وكيف قلت لكم ان عملنا هذا لا بدّ ان يفضي الى انتصارات العصر المقبل .
قد ينسانا المنتصرون . وماذا يهمنا ذلك ؟ سوف يظفرون بسعف النخل
واهازيج الثناء . اما مجدنا فمجد الآباء في ابنائهم : غبطتنا غبطة
المانح ، غبطة العامل على صفحة الصخر الصلد طوال الليل ، يحفر
فيهِ مواقع الاقدام ، ليرتفع عليها من يجيء بعده ، الى الاعالي
فيطيل التحديق في العوالم المكتشفة حديثاً .
عندئذ لا تجدونني على القمة ، فاذا هبطتم ، ابحثوا عني في الظلام
عند سفح الاكمة ، تحت الاوراق المتناثرة . هناك نختبيء نحن
الروّاد ! لان فينا كِبْراً ، وعلى العالم ان يبحث عنا
قبل ان يكتشف قبورنا !

ترجمة شيطان

رأي الدكتور طه حسين في قصيدة الاستاذ العقاد [1]

«...لست اخفي عليكم اني قرأت له قصيدة لن ينقضي اعجابي بها وقد اقرؤها عشرين مرة او ثلاثين والسبب في ذلك اني اجد فيها كلما قرأتها معنى جديداً ، او معاني جديدة. ثم هذه الطرافة المدهشة وتستطيعون ان تبحثوا عن مثلها في الشعر القديم فلن تجدوا لها شبهاً . هي طويلة ، ولكنها على طولها قصيرة تبلغ مائتي بيت وعشرين

«أما موضوعها فشيطان . اراد العقاد ان يترجم لشيطان ، ويظهر ان العقاد سئم ترجمة الناس ، وسئم نقد الناس وما يكتبون وما ينظمون فأبى الاّ ان يبحث فوفق الى شيطان خلقه خلقاً ومشى معهُ وأبعد في المشي . انهُ خلقهُ في اول القصيدة وصعد معهُ السماء وهبط بهِ الى الجحيم ومن حسن الحظ انهُ قتله في آخر القصيدة . هذا الشيطان غريب ، خلقهُ واذن له كما اذن للشياطين ان يغوي الناس ما استطاع فهبط الى بلاد الزنج ولكنهُ لم يكد يرى هذه البلاد وأهلها حتى ضاق بالارض وسكانها ورأى انهُ ارفع من اغواء الزنوج فارتحل عنهم وطوف الارض وما زال يطوف حتى بلغ بحر الروم او بحر العجم حيث البلاد المتحضرة ، وهناك استطاع ان يخدع الناس فأخرج لهم شيئاً يسمى الحق ، ولكنهُ الاعتداء الشنيع المنكر الذي افسد الحياة الانسانية افساداً ، ثم كلفه ان ينوب عنهُ في فتنة الناس . نظر الى الناس وقد وقعوا جميعاً في شركه وخضعوا لفتنته فاحتقرهم ، وكفر الشيطان بالشر ، ارأيتم شيطاناً يكفر بالشر الاّ عند العقاد ؟ والطريف ان هذا الشيطان خالف طبيعته وظفر بما لن يظفر بهِ شيطان ، ظفر بالعفو ، واذن الله له في ان يصعد الى الجنة ويعيش بين الملائكة عيشة راضية في مكان لا سبيل الى تصويره في الشعر بأجمل من تصوير العقاد . ولكنهُ شيطان لا يرضيه شيء ولا يقنع بشيء ، وما اسرع ما ضاق بالجنة ورفاقه الملائكة ، حتى خيل الى الذين يرافقونهُ انهم ينظرون الى الجحيم وقد تجسد في وجههِ ، ثم يوحي الله الى الجنة فاذا هدوء شامل ، وسلام كامل ، وأمن وسكينة واذا الشيطان المتمرد قائم أمام جلال الله . أترون انهُ خضع او اضطرب او احسَّ شيئاً مما تحسهُ النفس وهي في مثل هذا الموقف ؟ كلاَّ ، ظلَّ مرفوع الرأس شامخ الأنف متحدياً ، ينكر على الله آياته ، ويتحدى الله ان ينزل بهِ المكروه ، ثم ينزل المكروه بهِ فاذا النار قد استحالت

---

(١) من خطبته في حفلة التكريم التي اقيمت يوم ٢٧ ابريل الماضي وأشير اليها في مقتطف مايو

حجراً . ومع ذلك فطبيعته لم تتغير حتى بعد المسخ بعد ان اصبح حجراً هامداً · طبيعته مفسدة دائماً . أليست تتخذ الصور الخلاَّبة من هذا الصخر؟ هذا الشيطان الذي احياه العقاد وأماتهُ وصوَّر لنا حياته هذا التصوير البديع ، هــذا الشيطان اسمحوا لي وليسمح لي العقاد وأنا أعترف بأني متأسف جدًّا ، هذا الشيطان هو شيطان العقاد وشعره ، وهذه النفس الطامحة التي لا حدَّ لآمالها ، هذه النفس التي لا يرضيها شيء ولا تستريح ولا تطمئن الى شيء ، ولا ترضى الاَّ لتسخط ، ولا تستقر الاَّ لتتحرك حركة لا حدَّ لها حتى اذ خرجت من الحياة وانتهى عهدها بالوجود فان آثارها ما تزال قائمة تعمل في النفوس وتغريها وتبعث فيها الحركة ، وان كان الشيطان قد استحال الى رماد في القبر هذا الشيطان هو سحر صاحب الفن والذي نلحظه في كل أثر من آثار العقاد او الشعراء النابهين أمثال العقاد (انظر ديوان العقاد ج ٣ ص ٣٣٨)

« أعترف اني عند ما قرأت القصيدة وقرأتها وقرأتها ، فكرت في شعراء آخرين ليسوا عندنا ولا هم بين شعرائنا ولكنهم يعيشون في اوربا ، يعيشون في اوربا القديمة والحديثة ، فكرت في جوت حين يصور ابليس وهو يتحدى خالقهُ ، فكرت في بول فاليرى وهو يصور الحية حين أغوت حواء ، وفكرت في ملتون حين يصور الجنة الضائعة . ومع ذلك فهل كان العقاد مقلداً لهؤلاء الشعراء ، هل أخذ عنهم ، أو هل أخذ العقاد عن شعراء العرب القدماء .

«كلاَّ أيها السادة ، لم يأخذ العقاد عنهم بل قرأ هؤلاء ، وهو لا يقرأ الاَّ فهم ، ولا يفهم الاَّ دقق وهو بهذه القراءة وبهذا الدرس المتصل الذي لا يعرف العقاد له حدًّا ، والذي فرضهُ العقاد على نفسه فرضاً ، بهذا الدرس المستمر الطويل قد خلق لنفسه قوة لم يعرفها غيره من شعرائنا ، قوة خاصة خارقة لا يعرفها شعراء العرب لأنهم من أقل الناس قراءة في هذا العصر ، خلق العقاد لنفسه قوة شاعرة لا نجد لها نظيراً الاَّ في اوربا حيث يلتمس الشعراء الفن لا في الادب وحده بل في العلم وفي كل شيء آخر . من هــذا كله استطاع العقاد ان يكون هذا المارد المتمرد هــذا الشيطان الذي لا حدَّ لهُ »

تعليق الشاعر

« ترجمة شيطان » هي احد أثرين من آثاري الادبية انتجتهما الحرب العظمى فأما الاول فنثور وهو رسالة « مجمع الاحياء » وقد كتبتها في اوائل الحرب

وشرحت فيها فلسفة القوة ورجحت عليها جانب الحق وانتهيت منها الى ان الطبيعة توحي الى الاحياء ان تتصارع وان الصراع يمحضها وينشيء بينها ميزات القوي وهو الحق في النهاية

فلما قاربت الحرب العظمى ان تضع اوزارها ولم نرَ لها نتيجة حاضرة ولا متوقعة تكافيء اهوالها واخطارها غامت على النفس غيمة حزن يأس وبدا لي كأن حوادث التاريخ لا تعدو ان تكون اضطراباً متقلباً كاضطراب العناصر الطبيعية التي لا تحفل شيئاً بمقاييس الاخلاق والمثل العليا ، وان الامم العاقلة المتحضرة تثور الى الحرب كما يثور بركان او يثور اعصار ، فلا فرق بين غوص حضارة في اعماق التاريخ الانساني وغوص جزيرة في اعماق الاوقيانوس ، وهذه هي الحالة التي عبرت عنها في « ترجمة شيطان » . وجعلته من اجلها يقول وهو يحتقر ان يفسد الناس لان غاية الصالح والفاسد منهم سواء :

ما له يفسد قوماً عدموا آية الرشد ، وهبهم رشدوا !
وعلام السلب مما غنموا وهمُ لو غنموا لم يُحسدوا

***

كلهم طالب قوت والثرى ذلّ قوم او تعالوا مخصب
وقصارى الامر في هذا الورى راسب يطفو وطاف يرسب

ومما يحسن ان اسجله في هذا الصدَد ان الجزء الثالث من ديواني كان وشيكاً ان يظهر دون ان تظهر فيهِ هذه القصيدة ، لان الغيمة اليائسة التي اوحتها اليَّ تغيرت شيئاً فشيئاً واصبحتُ انظر الى الحياة واطوار التاريخ بغير تلك النظرة . وانما نُشرتْ مصادفة لانني كنت اتحدث الى بعض الاخوان ومنهم الاستاذ عبد الرحمن صدقي — اثناء طبع الجزء الثالث — عن القصائد التي انوي حذفها ومنها هذه القصيدة . فسألوني عنها وعن موضوعها وأصرُّوا اصراراً شديداً على وجوب نشرها ، ثم انتهيت بعد مراجعة نفسي الى أن أضمنها الديوان واقدم لها بتمهيد قلت فيهِ :

« ولما شرعت في طبع الشعر المجتمع لديَّ خطر لي ان احذف القصائد التي اشرت اليها لتغير الباعث على نظمها وعدولي عن محور الرأي فيها ، ولكنني عدت الى نفسي فقلت : ولماذا احذفها ؟ ان الضرر الذي امنعه بحذفها أقل من الضرر الذي انا مانعه بنشرها ، وحسبها انها لم تكن الاَّ طوراً طبيعيًّا من اطوار فكرة وفترة معقولة من حياة قلب ، فلم ارتضِ حذفها لاجل ذلك وليعلم الذين تعرض لهم هذه الاطوار انهُ ما من حالة يبلغ اليها الشك واليأس الاَّ ومن بعدها للاطمئنان سبيل »

الشيطان امام الله

فاذا الجنة أمن وسكون   كسكون الليل في ضوء القمر
خشعت حتى الشوادي في الغصون   وصغت حتى وريقات الشجر

ساعة ثم انجلى موقفها   عن جلال الله فرداً في علاه
غابت الاملاك لا تعرفها   وبدا الشيطان معروفاً تراه

وبدا الشيطان معروفاً ترى   كبرياء الكفر في وقفته
عالي الجبهة يأبى القهقرى   وتؤجُّ النار من نظرته

وتنحّى كلُّ مشهود فما   ثمَّ الاَّ الله والطاغي المريد
ويكاد الكون ما بينهما   يغلب الشك عليه فيبيد

ساعة اخرى وقد حُمَّ القضاء   وانقضى العفو وحق الغضبُ
ساعة للنحس حلّت والبلاء   ومتى حلت فأين المهربُ ؟

حاقت اللعنة . حاقت كلها   وقضاها المنعم المنتقم
وجناها وهو لا يجهلها   ذلك الجاني الذي لا يندم

***

هاتف في الخلد لما هتفا   نفذ السهم فمن ذا الهاتف
أهو الرحمن ؟ لا وا أسفا   بل هو الروح العصيّ العاصف

هو روح يحسد الله وما   أعجب الحاسد لله الصمد
كلما أبصرهُ محتكما   أصغر الكون وازرى بالأبد

هو ناع سمجت في عينه   نعمُ الله فأمسى يجتويها
حبة يزرعها في كونه   تلكم النعمى، فأين الجود فيها ؟

هو طاغ يأنف الصفو الى   سائل يسأله عما جنى
يحسب الصفو عقاباً قد غلا   كيف لو أعذر او لو أذعنا ؟

فرمى بالهُجر لا يحفله   حيث لا يبدأ خلق بالكلام
ويجدُّ القول او يهزله   ولعينيه وميض وابتسام

مختارات من بيرون

﴿البحر﴾ ختم لورد بيرون « تشيلد هارولد » — وهو عنوان قصيدةٍ من ابلغ قصائدهِ الطويلة — بما تواضع النقاد على تسميتهِ « نشيد البحر » . ففي الدور الاول من هذا النشيد يتجلى نفورهُ من الاجتماع واستئناسهُ بالوحدة والانفراد «لا لانهُ يبغض الانسان بل لان حبهُ للطبيعة اشدّ » ثم تمرُّ في مخيلتهِ صور الدول التي نشأت ودالت وما تعاقب على العمران من آيات التغير والانقلاب فخاطب البحر قائلاً

« والعالم في تغيُّر مستمرّ الاَّ انت يا بحر ! لا يقدر الزمن ان يخطَّ على جبهتك الزرقاءِ اساريرِ الهرم ولا ان يرسم على محيّاك آثار الضعف والشيخوخة » . ثم « ايتها المرآة الصقيلة التي نرى فيها صورة الخالق في كل زمان ، سواءٌ اكنت ساكناً او كنت ثائراً ، في النسيم العليل او في العاصفة المجتاحة ، حول القطب ثلجاً وجليداً او عند خط الاستواءِ خضمّاً زاخراً عظيماً »

﴿مشهد طبيعي﴾ « هذه هي الساعة حين تسمع من الاغصان نغمات العندليب الشجية . هذه هي الساعة حينما تبدو عهود المحبين حلوةً في كل كلمة يهمسونها . والنسيم العليل ، والماءُ الصافي يطربان الاذن بموسيقاهما . الندى رطَّب كل زهرةٍ وفي الفضاءِ انبثقت الزُهَر . وقد زاد ازرقاق البحر . وقد قتم لون الاوراق . وفي السماء ذلك الابهام الواضح الذي يعقب انخذال النهار . والشفق اخذ يذوب امام القمر ... »

﴿الجبل الابيض﴾ « الجبل الابيض ملك الجبال . توّجتهُ (يتكلم الشاعر بلسان روح المكان) عليها من زمن بعيد . على عرش الصخور في حُلَل الغيوم . التاج من الثلج . وحول وسطهِ الحراج . وفي يده جرف الثلج المنهارة . لكن قبل ان ينهار الجرف قاصفاً كالرعد يجب ان يلبث هنيهة ليتلقى الاوامر مني . والنهر الجليدي البارد الذي لا استقرار لهُ ، يتقدم يوماً فيوماً . لكن أنا الذي آذن لهُ في المسير او في البقاءِ مع سائر الجليد . انا روح المكان . اخضع الجبل لي او ازعزع اركانهُ ... »

﴿تشاؤم﴾ وا اسفاه ! ما الحياة الاَّ حلم لا يوقظنا منهُ غير الموت . وما عدا ذلك اوهام تتغير بتغيرنا . كلٌّ منها يخدعنا بدوره . حتى يسدل الموت ستاره فنرى الحقيقة الرهيبة . اليس من الغريب انهُ كلما ازداد شعورنا بأن الحياة عبءٌ ، ازداد تعلّقنا

باهدابها ، بكل ما نملك من قوة ؟ هذا دليل آخر على ما فينا من طبيعة الحيوان . لانهُ لو كان الروح العالي الذي نفخهُ فينا الخالق ، متسلطاً على الطبيعة الحيوانية ، لكنَّا نسرُّ بطرح العبءِ الذي يثقلنا ونئنُّ منهُ ، باحثين عن وجود آخر يتغلب فيهِ النور على الظلام . مَنْ بلغ الخامسة والثلاثين ولم يشعر بالسأم يسمُّ الجذل اليسير الذي يكون نصيبهُ في بعض الاحيان . نبدأُ الحياة برجاءِ الحصول على السعادة ثم ينكشف لنا ان ذلك محال ، فنطلب الملذات، ولكن حتى الملذات تتملص من قبضتنا، فننتهي الى التوق الى الراحة ، ولا ننال الراحة الاَّ بالموت »

﴿ رجاء ﴾ «ايها الالم .. انت تلين الانسان كما يلين اللهيب الحديدَ .. فمن لم يعرفك ايها المعلم ، لم يعرف من الحياة الاَّ اسمها الاجوف . بل هو يطفو على وجهِ الحياة كما لو كان طافياً على غيمة من غيوم الصيف ، ليس لهُ أثر يتركهُ وراءه ... لا قطرة عرقٍ من جبينهِ . ولا دمعة تذرف من عينيهِ .. وقدمهُ لم تدمِها الحجارة المبثوثة في طريقك .. »

لماذا تحبني

للشاعرة مسز بروننغ زوجة الشاعر روبرت بروننغ

اذا كان لك ان تحبني ، فليكن لاجل الحب فقط .
لا تقُلْ انا احبُّها لبسمتها ، لنظرتها ، لحديثها اللطيف
للفتةٍ في فكرها تتسق مع فكري وتنشيء شعوراً
بالراحة والطمأنينة كل يوم من ايام الحياة .
لان هذه الاشياء بحد ذاتها ، يا حبيبي ، قد تتغير
او قد تتغير في نظرك ، والحب الذي نُسِج منها
ينحلُّ كما نُسج . ولا تحبني لما تشعر بهِ من الاشفاق
اذ تمسح الدموع على خديَّ . فقد ينسى الكائن الذي
تطول نعماه في عطفك ، ان يبكي ، فيفقد حبك كذلك .
ولكن احبني للحب ، لكي يمضي حبنا ، حبًّا الى الازل

قبرة شلي

لتوماس هاردي

نظمت على مقربة من ليجهورن — حيث نظم شلي قصيدته في القبرة

هنا في مكان ما ، من هذه المرجة ، يرقد في حمى الارض النسَّاءة
لعهدها العمياء عن وفائها ، شيءٌ بعث النبوءة في روح شاعر .
انهُ حفنة من تراب تجاوزتها العيون وأهملها الناس

هو التراب — تراب القبَّرة التي سمعها شلي
وبعثها روحاً خالداً في ثنايا الزمان ، مع انها عاشت كـكل طائر
غيرها ولم يدر بخلدها معنى خلودها ! !

لقد نعمت بحياة هانئة وديعة ثم هوت يوماً ما كومة من الريش
والعظام . . لا يُعرَف كيف ماتت .. ولا متى غنَّت اغنية الوداع ..
ولا ايَّان حلل الفناء عناصر حياتها ! !

ومن يدري ! ربما تستقر هذه الروح في صعيد هذه المخضرة التي
تضطرب في مسارح عيني ! او ربما تخفق في خضرة آسة متزاهرة !
او تغفو في صبغة عنبة على منحدرات هذه الارباض

فانسلَّي يا بنات عبقر . . . انسلي وابحثي عنها . . .
عن هذه الحفنة الصغيرة من التراب الذي لا يقوَّم بمال
وهاتي حُقَّةً مبطنةً بالفضَّة مغلَّفة بالذهب مرصعة بالجواهر !

ولنضجعها فيها بسلام مقدسة على الزمن، جزاء
ما اوحت به الى شاعر ، فسما الى عليا طبقات
الافتنان والسحر في سماء الفكر والالحان ! !

[ترجمة م . ع . الهمشري]



مملكة المرأة
المرأة الفرنسية
حقوقها وآدابها ومكانتها الاجتماعية
الزوجة ام الولد
للشاعر تنيسون
الجمال والصحة
الاكنة او حب الصبا
عقل الطفل
لاحمد عطية الله
الامراض النفسية
للدكتور شكري جرجس

المرأة الفرنسية

حقوقها وآدابها ومكانتها الاجتماعية

قبل ان وفداً ذهب الى الامبراطور لويس فيليب لينبئهُ بأن فرنسا عادت لا تحتاج الى خدماتهِ على العرش فقال « لست اميل الى اجابة طلبكم . ولكنني على كل حال لا اتحرك من هنا قبل ان اسأل زوجتي» ! وقد كان لويس فيليب من طبقة فرنسية متوسطة وموقفهُ نحو زوجتهِ انما كان موقف طبقتهِ نحو المرأة الفرنسية . وليس من يستطيع ان ينكر ، ان للمرأة في فرنسا سلطاناً على رجلها تحسدها عليهِ نساءُ البلدان الاخرى . فقد تفاخر نساء تلك البلدان بما فزنَ بهِ من الحقوق التي لا تتمتع بها المرأة الفرنسية وقد يشفقنَ عليها لانها متى تزوجت تعامل معاملة القاصر، ولكنهنَّ على كل حال يحسدنها على المكانة العالية التي نالتها بحكمتها وحسن تدبيرها

وليس في العالم امرأة أسيء فهمها كما اسيء فهم المرأة الفرنسية . فالمذكرات التي نشرت عن حياة المرأة في بلاط الملوك تصوّرها بالصورة التي اجملها ڤولتير بقولهِ « كل امرأة متزوجة في البلاط يحق لها ان يكون لها عشيق واحد على الاقل» . اما كتّاب العصر الحديث، وبوجه خاص كتّاب الروايات ، من جوتيه الى فرانس الى موپاسان وكوليت وبروست، فقد شرّحوا عواطفها ورسموها في صورة المرأة التي لا عمل لها الاَّ الاستسلام لشهواتها . ولكن من تتَح لهُ فرصة النفوذ الى حقيقة المرأة الفرنسية ، كما اتيح للمسز بروملي احدى زعيمات الكواتب الاميركيات ، يقل معها ، ان المرأة الفرنسية هي رأس البيت ومدار الاسرة

نعم ان القانون الفرنسي يعاملها معاملة القاصر الذي يحتاج الى وصيّ . وهذا القانون يرتدُّ الى عهد نبوليون ولم يصب من التحوُّل بعد ذلك الاَّ شيئاً قليلاً . وفيهِ ان الزوجة الفرنسية لا تستطيع ان تغادر بلادها الاَّ اذا اذن لها زوجها في ذلك . ولا تستطيع ان تفتح حساباً في بنك من دون سماحهِ، الاَّ اذا كانت تمارس صناعة او تجارة . ولا تستطيع ان تزور اصدقاءها او تختلف الى محلات عمومية اذا رفض زوجها الموافقة . وللزوج الحق في السيطرة على الاولاد ، والتصرف بملكها كيف يشاءُ الاَّ اذا ضمّن عقد الزواج شرطاً خاصّاً بانفصال عقار الرجل عن عقار المرأة . بل واغرب من هذا كلهِ ان رجلاً مطلّقاً يستطيع ان يسحب مالاً من مال لزوجتهِ اودعتهُ في البنك باسم ابنهما ، ولا قبل لها بمعارضة ذلك او منعهِ ، ما زال المال باسم الولد

والازواج الانذال كثيراً ما يستغلّون هذه القوانين التي تستعبد المرأة الفرنسية لزوجها . ولكن الزوج الفرنسيّ بوجهٍ عام ، لا يفكر في نهب زوجتهِ لان الزوجين في رأيهِ متحدان لا ينفصل احدهما عن الآخر . وهو شديد الوداعة ، فلا يفتح رسائلها الخاصة ، ولا يملي عليها

ما يجب ان تفعله في زياراتها ولو كان القانون يبيح له ذلك . نعم تجد في بعض المناطق الريفية حيث العقيدة الكاثوليكية ما تزال متسلطة على النفوس ان سيطرة الرجل معترف بها ، ولا بدَّ للمرأة من التظاهر بخضوعها لزوجها . ولكن الزوجة الفرنسية في الريف ليست مظلومة ، كما يتصور الغريب عن فرنسا عند مطالعة القانون الخاص بحقوق النساء

واذا تحدثتَ الى المرأة الفرنسية قالت لك ان الحرب اطلقت حريتها في كثير من النواحي . فقبل سنة ١٩١٤ كانت المرأة الفرنسية الكريمة من سكان العاصمة كانت اومن سكان غيرها من المدن لا تجرؤ على ان تظهر في مقهى من المقاهي او مسرح من المسارح الاّ مع زوجها . ومجرّد الاقتراح على السيدة ان تسوق سيارتها بنفسها او ان تشترك في العاب رياضية عامة او ان تنتظم في سلك حرفة من الحرف ، كان يحدث صدمة اجتماعية . وكانت الفتاة الفرنسية خاضعة لمراقبة دقيقة حتى زواجها . فكل ما تقرأه كان يراقب . وكان تعليمها اما خاصًّا في دار والديها او في مدرسة من مدارس البنات

فلما جاءت الحرب وولَّت كانت جميع هذه الحواجز قد اندكَّت . فلا يندر الآن ان تجد فتيات الطبقة المتوسطة الراقية او الطبقة الارستقراطية ، يذهبنَ الى مدرسة عالية او كلية ، يذهب اليها اشقاؤهنَّ . ولا ريب في ان اتساع افق الحياة امام الفتاة الفرنسية والمرأة الفرنسية ، قد كان باعثاً على نمو قواها في نواحٍ مختلفة . ولكن ذلك لا يمنع ان المرأة الفرنسية كانت حتى قبل ايام الحرية الجديدة ، مخلوقاً له مكانة عظيمة في المجتمع الفرنسي

في استطاعة المرأة الفرنسية ان تهزَّ كتفيها استخفافاً بالقيود التي يقيدها بها القانون الفرنسي . لانها تستطيع ان تسيطر بذكائها وحكمتها على زوجها فينقاد لرأيها . فهي تقول في ذات نفسها « عليَّ ان اضمن سرورهُ وراحتهُ ورفاهتهُ في كل ساعة من ساعات النهار » وهذه هي القاعدة الاولى في دستور حياتها . فاذا علمت ان زوجها أكولٌ اعدّت لهُ من الوان الطعام ما يشتهي ، واعدّت بيديها الاطباق التي يفضلها على غيرها . واذا دَرَت ان يومهُ في عمله كان شاقًّا ، كانت اول من يقترح البقاء في البيت في ذلك المساء . واذا عرفت انهُ يكرهُ الانتظار ، بذلت ما تستطيعهُ لتكون دقيقة في جميع المواعيد . واذا رأت من الحكمة قضاء اجازة الصيف في الريف في سبيل صحة الاولاد ، ولم يستطع زوجها ان يقضي اكثر من اسبوع او اسبوعين معهم ، تركت في دارها في المدينة الخادم الذي جمع كلَّ ثقتها للعناية بزوجها

ثم ان الزوجة الفرنسية تفعل كل ما تستطيع لكي يصبح زوجها وهو لا يستطيع الاستغناء عنها. وليس عن عبثٍ تقلدها زمام الانفاق على الاسرة . وانما ذلك لحكمة وهي انها تدبر مالية الاسرة خيراً مما يدبّرها هو. ثم انهُ يبيح لها ان تشرف على نفقاتهِ لان له ثقة بتدبيرها . فهي تستطيع مثلاً ان تصنع من فستانين قديمين فستاناً جديداً . واذا وجب ان تقيم في بيتها مأدبة صغيرة لبعض اصدقاءِ الاسرة، فهي في الغالب تستطيع ان تعدَّ المعدّات من دون اية نفقةٍ كبيرة . ومن المشاهد في فرنسا بعد الحرب ،

ان ارتفاع نفقات المعيشة وهبوط الدخل قد حتم على الفرنسيين ، وعلى الفرنسيات بوجهٍ خاص ، مواجهة صعاب كثيرة . ولكن المرأة الفرنسية نهضت بهذا العبء على خير وجهٍ . فقد تستغني عن بعض خدمها ، وتتخذ في دارها نزلاء لزيادة دخل الاسرة ، وهذا يقتضي منها زيادة عملها ولكنها تفضل ذلك ، كما قالت كونتسة فرنسية ، على ما تواجههُ من الهمّ في آخر كل شهر عند ما يستحقّ عليها دفع النفقات الرتيبية

وتروي مسز برومِلي ، انها تعرف سيدة فرنسية بارعة الجمال ، رشيقة الملابس ، قد تظنُّ اذا حادثتها لاول مرّةٍ ان كل ما يهمها في الحياة شؤون الادب والفن . ولكن هذه السيدة تنفق كل يوم احدٍ من صباحهِ الى ظهرهِ مع زوجها في مكتبه ، تراجع معهُ دفاتره . وهو من ناحية يستشيرها في كل صغيرة وكبيرة من شؤون عملهِ . ولكنها ، بحكمتها ، لا تقف منهُ موقف المشير المتعالي ، بل تعرض الرأي كأنهُ رأيه فيحسُّ هو ان زوجتهُ لا تتعدّى على حقوق الرجل وامتيازاتهِ

ثم ان المرأة الفرنسية بارعة كل البراعة في توجيه زوجها او اقناعه . فهي تقول في ذات نفسها «ان القانون الفرنسي ينصُّ على ان الزوجة يجب ان تتبع زوجها . ولكنني سوف اقوده في السبيل الذي يجب ان يسير فيهِ لانهُ لا يستطيع ان يصمد لقوة ارادتي ، وتخفى عليهِ اساليب دهائي » . فهي اذا ارادت ان تقنعهُ بشيءٍ عمدت الى ترديد حجتها اولاً وثانياً وثالثاً حتى يسلّم اعياءً . ويروى ان جوريس الاشتراكي الكبير — وقد كان ملحداً — كان يختلف وزوجته في موضوع تعليم اولادهما تعليماً دينيًّا . وان زوجتهُ تغلبت عليه في آخر الامر فسلّم بتعليم اولاده التعليم الديني الذي ترتضيه زوجتهُ . ذلك انهُ كان محبًّا للسلام والسكينة علاوة على كونهِ ملحداً فآثر السلام والسكينة في بيته على مخالفة زوجته في هذا الموضوع

ولكن المرأة الفرنسية تعمد في الغالب الى اساليب الاطراء والتملق في سبيل رأيٍ تراهُ . قيل ان زوجة ارادت ان تبعث بأولادها الى مدرسة دينية فعارض زوجها في ذلك . فقالت : « اني اراك متفوقاً على سائر الرجال في قوة الخلق ، واحترم فيك اعجابك بالصفات المعنوية العالية ، وهذه الصفات الممتازة رسخت في نفسك بواسطة تعاليم الكنيسة في حداثتك فلماذا تريد ان تحرم اولادك منها ؟ » وكان ذلك الرجل معجباً بصفاتهِ وخلقهِ ، فاقرَّ ذهاب اولاده الى مدرسة دينية

وقلما تصرّح المرأة الفرنسية برأيها كاملاً في موضوع ما . فاذا اختار زوجها شقة للسكن تبعد عن حيّ صواحبها قالت ان الشقة ليس فيها غرفة مريحة للتدخين — اذا كان زوجها من مدمنيه — او قالت هي بعيدة عن مكتبه . وتروى حكاية عن رجل مثقف يحسن الغناء ويميل الى انشاد قطعة معينة وهو يحلق في الصباح او في مناسبات اخرى . والراجح ان زوجتهُ سمعتهُ يردد هذه الاغنية مئات المرّات . ولكن قلما اعربت تلك الزوجة بخلجة واحدة من خلجات وجهها عن تبرّمها بها ، بل كانت تقول دائماً « ما أعجب ذا كرتك يا فرنسوى » او ما هو من قبيل ذلك . وروت مسز برومِلي

كذلك ان صديقة مثقفة من صديقاتها كانت قد تزوجت رجلاً لا يمتاز بشيءٍ الاّ باسمهِ الضخم. وكان من الشائع المعروف ان هذه الزوجة تسيّر هذا الزوج كما تشاءُ او « تقوده من انفهِ » كما يقول الفرنسيون . ففي ذات ليلة ، كان هذا الرجل يمحض شاباً على وشك الزواج النصح على مسمع من الضيوف في مأدبة بداره ، واطال في وجوب كون الرجل سيّد الاسرة . ثم التفت الى زوجتهِ وقال « المرأة تريد ان تحكَم أليس كذلك » ؟ فأجابت « ميه وي فيليب » وعلى ثغرها بسمة لطيفة وليس في صوتها اثرٌ للكد او الاستنكار

والمرأة الفرنسية تقوم بوظيفتها كأمٍ ، خير قيام . فهي حريصة كل الحرص على الوديعة الثمينة التي القتها الحياة بين ايديها ، حتى لقد تمتنع احياناً عن اطلاق هذه الوديعة من قيود عنايتها بعد بلوغ السن القانونية . وهي تربي اولادها تربية طبيعية ، لا تفسح فيها مجالاً للنظريات المتضاربة في علم النفس الحديث ، فتطبعهم بطابع الصدق والحرص وحسن السلوك . وقد تكون الام طبّاخة تشتغل اثنتي عشرة ساعة في النهار ، ولكن ذلك لا يحول بينها وبين الاشراف على تعليم ابنائها وتثقيفهم . او قد تكون محامية، فلا يمنعها ذلك عن السهر لصنع ملابس طفلها . او قد تكون من سيدات الطبقة الراقية تحضر السهرات والمآدب . على ان واحدة من اولاءِ السيدات ربّت سبعة اولادٍ، كان اربعة منهم اولادها وثلاثة اولاد شقيقتها ، وما كانت تهمل ان تشرف بنفسها كل صباح على شؤون نظافتهم ولبسهم قبل ذهابهم الى المدارس ، او مساعدتهم بعض الظهر في اعداد دروسهم

والوالدان الفرنسيّان يحسّان بتبعة كبيرة قِبَل اولادهما . فهما لا يقنعان بتعليمهم وتثقيفهم ، بل قد يقتّران على نفسيهما شديد التقتير ، لكي يبتاعا داراً او مزرعة او اي عقار ، يورثانهِ لهم

وكثيراً ما يظلُّ الوالدان الفرنسيّانِ — والام بوجهٍ **خاص** — باسطين جناحيهما على اولادهما ، حتى بعد تزوُّج الاولاد واستقلالهم في الحياة

ولما وضعت الحرب اوزارها تمهد امام المرأة الفرنسية كثير من السبل التي كانت وعرةً ، قبلها . فابواب المهن الحرّة مفتوحة امامهنَّ الآن، وكذلك الجامعات . وقد اصابت بعض النساء نجاحاً عظيماً في الاعمال التي مارسنها ، ولكنّ حكمة المرأة حفظتهنَّ من غضب الرجل المهدَّد في ميدان عمله لان المرأة الفرنسية احتفظت في ميدان الاعمال برشاقتها وانوثتها ، وامتنعت عن جرح الرجل في كبريائهِ

وقد ظلت بعض النساء الفرنسيات تمارسنَ الاعمال بعد الزواج . ولكن هؤلاءِ لسنَ القاعدة. والمرأة الفرنسية تدرك ، او تعتقد ان « البيت » هو اهم ما في الحياة . فهي لذلك تفضل « البيت » على « العمل » اذا كانا متعارضين او لا يمكن الجمع بينهما

لا ريب في ان الفرنسي يؤخذ عليهِ عدم انصاف المرأة من ناحية التشريع . ولكن المرأة الفرنسية ببراعتها وحكمتها قد نالت مكانة اعلى من المكانة التي يمنحها اياها القانون . والفرنسي يعلم ذلك . وليس عبثاً ان يكون الرمز الذي تتمثل فيهِ فرنسا في طوابعها واوراقها الرسمية — صورة امرأةٍ

الزوجة أم الولد؟ (١)

— ١ —

تفشى بين قوم آمنين وباء جارف
وتلاه جوع عاث في الارض فساداً
فمات جمهور كبير بالوباء
وبقي الآخرون يتضورون من آلام الجوع
وهب الجميع يصرخون ويولولون
«ان الاله انزل بنا المصائب لذنب أتيناه»
وهرول الكهنة الى المذبح يسجدون ويضرعون
« انقذنا من المرض ، نجنا من الجوع
خذ منا ما تريد ومن تشاء
اطلب أعز شخص علينا واقرب انسان الينا
فنحن لك من الطائعين »

— ٢ —

ولكن ازدادت مصائبهم وتعددت ضرباتهم
وجاءهم جيش العدو ينهب ويقتل ويستبيح
جرت الدماء انهاراً ، وتكدست اشلاء القتلى تلالاً
فجعل الناس يصعدون زفرات حرى ويبعثون انيناً ملأ الفضاء
حاسبين الطبيعة ثارت عليهم بكل قواها وحملت عليهم بجيوش عناصرها
فصلوا للاله وتضرعوا ، حتى سمعوا الجواب
« ان ملككم سعيد بزوجته وولده
أعطوني أعزهما عليه واقربهما الى قلبه »

— ٣ —

ذهب الكاهن يطوي الفيافي ويتوقل الجبال
والملك لاه عنه بالصيد والقنص
لا يهتم بأمور العرش ولا يعبأ بمهام الملك.
وجد الكاهن الملكة ومعها ولدها الوحيد

(١) ترجمة فيها تصرف يسير لقصيدة نظمها الشاعر تنيسون وعرض فيه لهذا السؤال

جميل الوجه ، طلق المحيا ، باسم الثغر ، ذهبي الشعر
نظر اليهِ الكاهن فحسبه الضحية المطلوبة
فصرخ وقد هزه الفرح واستخفه السرور
« ان الآلهة اجابنا فلنقدم له الولد »

— ٤ —

رجع الملك ولم يصب من الصيد نصيباً وافراً
واقبلت عليهِ الملكة تذرف دموعاً تزري بالجمان
« لقد أخذوا ولدنا ليهدروا دمه انقاذاً للبلاد »
فالحالة تاعسة والوباء والجوع ملأا الارض جيفاً منتنة
والآلهة يجب ان تعطى شيئاً يرضيها
لتكف عن تعذيب هذا الشعب المنكود
بربك قل لي وقد اخذوا ولدنا للتضحية
أهل هو أعز شيء عليك ام أنا زوجتك ؟

— ٥ —

اطرق الملك ملياً وقد ارتجت عليه أبواب الكلام
وخفق قلبه وجلاً واضطراباً لذلك السؤال المفاجيء
« ما نفع الجواب ايتها الحبيبة وقد حكم الكاهن والحكم نافذ »
ثم أخذ يناجي نفسه ويسأل ضميره وكلاهما لا يحير جواباً
« ايهما اعز عليَّ ؟ لا اقدر ان احكم — لا اقدر ان احكم »
لكن الكاهن فرح لاستجابة صلاته فأخذ الولد وهو يقول
«قد حصلنا على أعز شخص عليه ، ولده الوحيد »

— ٦ —

شحذوا المقصلة وعرّوا الولد من الثياب
وقف الكاهن على المذبح وقد رفع السكين
وما أوشك ان يهوي على عنق الولد حتى رأى الام تحول بينهما وهي تقول
« اذبحوني أنا »
عبثاً حاول الملك ان يرجعها ، وعن قصدها يثنيها
لكنها تملصت من قبضتهِ وصرخت من صميم الفؤاد
« انا اعز شخص عليهِ ، انا اقرب انسان الى قلبه »

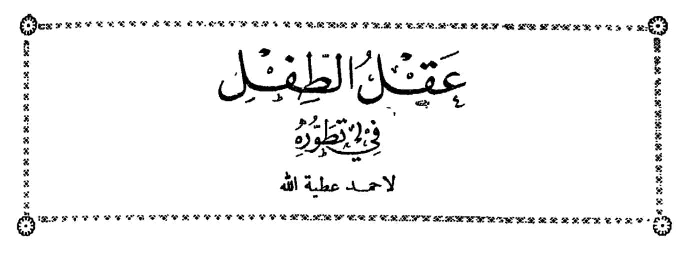
وارتمت على المذبح وهي تقول « اذبحوني انا »
فرح الكاهن بذلك لانه علم ان البلاد لا شك خالصة فرفع رأسه نحو السماء وقال :
ايها الآلهه ، ها نحن نقدم لك حياة بشرية
أيهما اعز عليه ، ايهما اقرب الى قلبه — لا نعلم
الجمال و الصحة

الاكنة او حب الصبا

تظهر الاكنة او حب الصبا في الجبهة والانف والذقن والصدر والظهر والكتفين وأماكن اخرى من البدن ولكن اكثر ظهورها في الوجه . ويكون ظهورها غالباً بين السنة الرابعة عشرة والسنة العشرين من العمر ، ولا سيما في الذين يكثر برد ايديهم وافواههم او الذين تكون دورتهم الدموية ضعيفة . وتزيد بالامساك وقد يرافقها سوء الهضم . وتشتد اذا قلت الرياضة البدنية ، وقلَّ غسل الوجه ، لضعف فعل الغدد الجلدية . ومن اعراضها العامة القبض وسوء الهضم وضعف الدورة الدموية ، وهي تفعل كاسباب لها . وحب الصبا نفسهُ نقط سود صغيرة تدلُّ على ان افواه القنوات الدهنية قد سدَّت بالغبار والوسخ ، واذا عصرت خرجت منها مادة دهنية كالدودة الدقيقة . اوكثيراً ما يكون هناك انتفاخ محمرٌّ والنقطة السوداء في رأسهِ ، وقد يكون صغيراً اصغر من حبة العدس ، ويزول سريعاً ، او كبيراً اكبر من الفولة ، ويبقى اسابيع او اشهراً ، ويقيح ثم يشفى ويبقى مكانهُ ندبة او تصلب دائم

ومن اشدِّ الهموم التى تعرو الفتاة في الصبا ، هو عند ما تبدأ هذه الاكنة بالظهور . فالفتاة تخشى ان يتحول بعضها كبيراً ويتقيح ويترك مكانهُ ندبة تشوه صفاء الوجه

﴿ العلاج ﴾ يجب الالتفات الى الصحة العامة . ومداواة سوء الهضم والقبض ونحوها ، بالرياضة وحسن اختيار الاطعمة التي تترك فضلات تسهل حركة الامعاء . واذا كان الجسم ضعيفاً وجبت تقويته بشرب زيت السمك ، مثلاً ، او غيره من المقويات ، وبالرياضة في الهواء الطلق ونور الشمس على حسب ما يحتمل الجسم من ضروب الرياضة . واذا كان مصاباً بفقر الدم وجبت معالجتهُ ، واذا كان قليل الحركة والرياضة وجب ترويض الجسم في الخلاء ، وتعهده بالغسل بالماء البارد ، وتنشيطه بالمناشف الخشنة . وتقوى غدد الجلد على افرازها بدهنها بدهون خاصة قبل النوم يصفها الطبيب ثم غسلها صباحاً ومساء ، بمذوَّب خفيف جداً من السليماني جزء منهُ في عشرين الف جزء من الماء او قمحة منه في اقة من الماء ، او بماء كولونيا . ولا بدَّ من عصر امكنة النقط السود مراراً كل يوم بعد غسلها حتى يخرج ما فيها . اما البثور التي يظهر فيها القيح ، فتلمس بعود دقيق غمس في الحامض الكربوليك النقي فيساعد على شفائها وزوالها



﴿الدور الاول : من الولادة الى الثالثة﴾ انجسم الطفل بعد الولادة يكون غير متناسق الاعضاء . لان بعض هذه الاعضاء يكون متقدماً في نموه على الاجزاء الاخرى . ويأخذ نمو الجسم في التكامل والتناسق بسرعة فتتعادل الاطراف وتقوى العضلات فلا ينتهي هذا الدور إلاً ويكون للطفل القدرة على الحركة والمشي والكلام

كما أن حواس الوليد لا تقوم بوظيفها على وجهها الاكمل في بادىء الامر . وتأخذ في الدقة والتطور بكثرة استعمالها «راجع المقال السابق» واغلب الحركات التي يقوم بها الطفل في هذا الدور أعمال منعكسة لا يمكن أن يُسيطر عليها . وعندما يتم نمو عظامه وعضلاته يظهر ميل الطفل للحركة . وتبدو الغرائز المختلفة المتصلة بهذه الغريزة كالميل للاستطلاع والتقليد والحل والتركيب واللعب والتطور الجسمي والعقلي الذى يحدث في هذا الدور نلخصهُ فيما يلي

﴿الاسبوع الاول﴾ يميز الطفل الفرق بين الاشياء المضيئة والمظلمة . يراقب الاشياء التي تمر ببطءٍ أمام عينيهِ . يبدأ في استعمال الاذن في اليوم الرابع

﴿بعد الشهر الاول﴾ يمكن للطفل ان يميز بين الاصوات . يفرق بين الاشياء الحلوة والمرة . يدرك الروائح النفاذة . يظهر اشمئزازه أو ألمهُ وذلك بتحويل رأسه بعيداً عما يضايقه.أو ببكائه

﴿بعد ست أسابيع﴾ ترتقي قدرتهُ على الانتباه . بمعنى أنهُ يستطيع أن يدير وجههُ الى المكان الذي يصدر منهُ الصوت او يندفع إلى اتجاه شيءٍ يريد أن يبلغهُ يميز صوت الانسان عن غيره من الاصوات

﴿بعد الاسبوع السابع﴾ يمكن للطفل ان يظهر استحسانهُ بالابتسام ويقدر على تمييز والدته . كما انهُ تسكن هائجته بسماع الاغاني

﴿بعد الاسبوع التاسع﴾ يكون للطفل القدرة على الحركة ولكن بلا قصد ولا غاية . تظهر غريزته لتقليد الاصوات . وكذلك تظهر عليهِ معالم الانفعالات لا سيما الغضب والاستغراب والخوف . وعلى الاخص الخوف من التغيير الفجائي كما اذا حملناه فجأة من مجلسه

﴿بعد الشهر الثالث﴾ يظهر الطفل استعداده للمزح ومقدار قدرته على الضحك

﴿بعد الشهر الخامس﴾ يمكن للطفل ان يجلس منفرداً دون مساعدة ، ويحمل الأشياء بيده ويضعها في فمه كما انهُ يبسط ذراعيه طلباً لحمله ويستطيع ان يميز بين شخص وآخر

﴿بعد الشهر السادس﴾ يراقب الاشياء التي تسقط من يده على الارض . يدرك صورته في المرآة ويراقبها بشغف . كما انهُ يشير الى الصورة بأصبعه

﴿بعد الشهر الثامن﴾ يظهر الطفل سروراً للاصوات يحدثها ويرمي الاشياء الى الارض بقصد

﴿بعد الشهر التاسع﴾ يبدأ الطفل ينطق بعض الالفاظ البسيطة لا سيما الاسماء التي يطلقها على ابويه . مثل بابا . ماما . نينا . دادا وان كان هذا الاستعداد يظهر في بعض حالات قبيل هذه السن

﴿بعد الشهر العاشر﴾ تظهر غريزة الميل للحركة كما انه يبدي لذة وارتياحاً الى الاكل الذي يتناوله ويميز والديه بعد غياب بضعة ايام

﴿بعد الشهر الحادي عشر﴾ يحاول الوقوف على قدميه

﴿بعد الشهر الثاني عشر﴾ تبدو في الطفل علامات الغيرة ، كما تظهر فيه بعض الميول الاخلاقية فهو يشعر بالخطأ والصواب

﴿الشهر السادس عشر﴾ تبدأ قدرته على نطق بعض الكلمات الاختيارية مثل لا ثم . آ . نعم . ويبكي اذا نهرناه

﴿الشهر الثامن عشر﴾ يمكن للطفل في هذا السن ان ينطق ببعض جمل صغيرة عن والده ويميز بعض الاشياء الغريبة كالحصان او القطار

﴿الشهر التاسع عشر﴾ يقدر الطفل على استعمال ذاكرته . يظهر ميله للاقتناء . ويأخذ مظهر الانانية والأثرة بأن يخطف اللعب التي في يد غيره من الاطفال ويبحث عن المكان الذي يريده بنفسه

﴿الشهر العشرون﴾ يظهر ميل الطفل للاجتماع والاختلاط

﴿بعد عامين﴾ تظهر عناية الطفل بنظافة نفسه فلا يميل مثلاً الى بلّ ملابسه او جسمه بالماء او الى اللعب في الطين والوحل

﴿الطفل في عامه الثالث﴾ ظهور غريزة اللعب باستعمال الادوات التي يجد انها وسائل للعب . فيتخيل العصا قطاراً ، والصناديق الفارغة جنداً . تظهر قدرته على تقدير الزمن الماضي المستقبل . يميل والى الاعتداد بنفسه والى العناد ، يبدأ في الشعور بأنهُ له شخصية مستقلة عمن هم حوله . يقدر الطفل على التمييز بين الكذب والحقيقة . يفرق بين ما يقوم بقصد المزاح او بقصد الجد . يمكنه اذا أمر ان يعين اذنه او فمه او انفه تعييناً صحيحاً او في صورة تعرض عليه . يمكنهُ ان يكرر جملة لا تزيد على ست كلمات بلا خطإ . يمكنهُ ان يكرر رقماً مكوناً من عددين . يمكنهُ ان يعدد الاشياء المعروفة لديه على صورة معروضة امامهُ . يمكنهُ ان يعدد أسماء بعض افراد عائلته

الامراض النفسية

الهستيريا (الهرع : الجابي)

للدكتور شكري جرجس

عرف هذا الداء منذ القدم وكانوا في العصور الوسطى ينسبونهُ الى الشياطين والجن او السحرة او غضب الآلهة . ولم يزل هذا الاعتقاد سارياً عند عامة الشعب المصري حيث يستعملون الزار لاخراجهِ . ثم اعتبر من الامراض التي تنتاب النساء فقط وزعموا انهُ ناتج من «بخار بيت الرحم الحار»

ولقد ظهر هذا المرض بشكل وباء من وقت لآخر ولم يزل يظهر حتى الآن في بعض الاوساط المدرسية

واول من شرع يدرس هذا المرض درساً علمياً هو العلاَّمة الدكتور الفرنسي (شاركو) فكان يظن ان الفكر اهمّ باعث من بواعثهِ . ولذا ابتدأ بحثه من هذه الوجهة فاسفر عن نتائج باهرة وخصوصاً على يد تلميذه البرفسور (جانيت) بباريس الذي اعتقد ان اصل الداء هو اضطرابات في العقل ولقد ادَّى هذا الاكتشاف الى تغييرات هامة في الطب ثم جاءَ الاستاذ (فرويد) النمسوي فاخرج نظرياته الهامة في التحليل النفسي

***

هذا المرض لا ينحصر في مملكة واحدة او جهة واحدة بل هو عام في كل زمان ومكان غير انهُ يقال ان بعض الشعوب كاللاتين والصقالبة واليهود اكثر تعرضاً له من غيرهم . ويكثر ظهوره حوالي سن المراهقة ويندر بعد الخامسة والعشرين ولا يعرف قط بعد سن الخامسة والاربعين . وهو كثير الانتشار في الاطفال وخصوصاً البنات . ولقد يكون للوراثة اثر خطير فيهِ نظراً للوسط والحالات التي يوجد فيها الطفل في اول نشأتهِ . اما العنصر المهم الداعي لظهور هذا الداء فهو الذعر والخوف الشديد . ولكن في بعض الاحيان تكون العوامل المسببة له هي عدم الرضى عن الحياة باجمعها او عن المعيشة التي وجدت في وسطها المريضة مثل عدم الارتياح الى الحياة الزوجية او قد ينشأ عن ان المريض لا يرتاح الى وظيفته او مهنته او عن حمله تبعة كبيرة فوق طاقته . او قد يكون سببه في بعض الاحيان موت بعض الاقارب فجأةً او ضياع محبة عزيز على النفس . وقد ينتشر هذا الداء فجأة في شكل وباء في المدارس وخصوصاً الداخلية منها وكذلك في الاوساط الدينية كالاديرة وغيرها

﴿ اجتناب هذا الداء ﴾ اما عوارض هذا الداء فكثيرة ومتنوّعة حتى انهُ غالباً ما يشتبه فيها بعوارض اي مرض آخر ويمكننا تقسيمها الى : —

(١) عوارض عصبية
(٢) عوارض نفسية
(٣) عوارض حسية
(٤) عوارض تختص باعضاء الانسان

فالعوارض العصبية تظهر في شكل نوبات تشنجية تنتاب المريضة من وقت الى آخر وغالباً تكون بعد تغير نفساني شديد وهـذا اما يعقبه رأساً او بعد مضي وقت قصير او يتخلله بكاء وضحك على التوالي . وفي هذه الحالة تشكو المريضة من احتقان في العنق مع بعض آلام شديدة في بعض اجزاء الجسم وبعد ذلك تتشنج المريضة وتصير في شبه غيبوبة فتقع على الارض. وقد تستمر هذه الحالة بضع دقائق وبعدها تعود المريضة الى رشدها . هذه النوبات تختلف عن حالات اخرى تعرف بنوبات الصرْع Epilepsy ففي هذه الحالة تفقد المريضة وعيها فقداً تامًّا وفجأة تقع على الارض وتجرح نفسها جروحاً خطرة وتعض لسانها وتتنفس بسرعة وتغمض عينيها بشدة حتى لا يمكن فتحها بالقوة ويعقب كل ذلك غيبوبة طويلة

***

اما العوارض النفسية فأولها ضعف الارادة والتشوق الى الحب والحنان والتأثر باقل فكرة عارضة. ولقد ينتهر المريض اقاربهُ واصحابهُ نظراً لسوء فهم حالاتهِ النفسية وهذا مما يزيد الطين بلة . ولربما كانت حالتهم العقلية من حيث الذكاء جيدة ، ولو انهم بعض الاحيان يصابون بفقدان الذاكرة نظراً لتضارب العوامل النفسية فيهم . فاذا كانت شديدة تكوّنت تلك العوارض التي يسير فيها المريض مسافات بعيدة على غير وعي ولا هدى ويفقد الشخصية بأجمعها

﴿ الهرَع والحزن المستمر ﴾ يصف الطب الحديث نوعاً مخصوصاً من هذا الداء يسمى (هستريا الزعل) وهي تختلف عن الهستريا الجسدية . ولو ان لكليهما سبباً واحداً نفسانيًّا . ففيها كما يدل اسمها يصبح المريض عبداً لتأثيرات حزن عميق واوهام خيالية Phobia وهذا النوع كثير الانتشار حتى انهُ ليندر ان نجد شخصاً لا تنتابه هذه العوارض . فمثلاً الخوف من الظلام . وعلى ذلك لا يمكن للمريضة ان تدخل او تجلس في غرفة مظلمة . كذلك الخوف من بعض الحيوانات كالفيران والهررة وغيرها او الخوف من السكاكين او اي شيء مدبب والخوف من المكروبات او من علوّ شاهق او من السير في الصحارى . فالمريض يمتلئ رعباً اذا حاول السير في ميدان فسيح لا يوجد بهِ انسان وكذلك الخوف من اماكن ضيقة كالسفر في القطارات او عبور نفق او الخوف من الامراض او اخذ العدوى او غير ذلك من انواع الخوف المختلفة التي لا يمكن حصرها . ولقد تتركز هـذه

العوارض في بعض اجزاء الجسم وفي هذه الحالة يجب على الطبيب الحاذق ان يفرق بين الحالات الحقيقية والحالات الناشئة من الهستريا التي غالباً ما تكون مصحوبة بأرق وانقباض النفس . ولقد تزداد هذه العوارض ويستهدف المريض الى نوع من الجنون

ومن ضمن العوارض التي ربما لا يلاحظها المريض هي فقد الحس في بعض اجزاء الجسم وغالباً تكون في جهة واحدة منهُ على ان المريض لا يجد غضاضة من ذلك . ولكن في بعض الاحيان تزداد حساسة بعض الاعضاء كالعين مثلاً ولذا يتألم من الضوء البسيط ويحب الحجر المظلمة

﴿ الشلل الناتج من الهستريا ﴾ اما الشلل الناتج من الهستريا فلا يؤثر في عضل واحد بل في مجموعة بذاتها كاليد او الرجل ولكن لا تضعف هذه العضلات وتضمحل كما في الشلل العادي وفي بعض الاحيان تظهر حالات عجيبة اخرى بدلاً من وقوع الشلل فمثلاً ينتفخ البطن وتظهر المرأة كأنها حامل . كذلك في بعض الاحيان توجد رعشات متوالية اما في اليد او في العنق او ان القلب ينبض نبضاً سريعاً ويقل التنفس مع سعال شديد

ولقد تظهر الهستريا بشكل عوارض في القناة الهضمية او آلام في المعدة او سوء هضم او صعوبة في البلع او بشكل قيء يستمر بضع سنوات ونفور من الاكل مما يفضي الى هزال المريضة وضعفها . وفي بعض الاحيان يظهر انتفاخ في الجسم كله (Oedema) واسهال شديد وغير ذلك من العوارض الكثيرة

***

ومن الحالات العجيبة التي رأيتها ان اصابع اليد التي يمسك بها الانسان القلم تأخذها حركة ميكانيكية وتتقلص كلما وضع قلم بها وهو ما يعرف برعشة الكاتب

اما كيفية تشخيص هذا الداء فأتركه للطبيب الحاذق لانه ليس من السهل التفريق بين العوارض الحقيقية والعوارض الناشئة من الهستريا فعلى الطبيب ان يتعرَّف الحالات النفسية التي تختلج في ضمير المريض والوسط الذي يعيش فيهِ حتى يمكن تشخيصه بدقة

وهذا الداء ليس بخطر على حياة المريضة ولكنهُ ينغص عيشتها وعيشة من حولها من الاقرباء ولقد تعمد المريضة في بعض الاحيان الى الانتحار بعد ان تيأس من شفائها وخصوصاً بعد ذهابها عبثاً الى عدة اطباء وكثرة المصاريف التي صرفتها

﴿ منشأ الداء ونظرية التحليل النفسي ﴾ ان أول من درس هذا الداء درساً علميًّا هو (جانيت) بباريس ولقد برهن ان سببه هو انفعالات نفسية في العقل الباطن تظهر بشكل هذه العوارض ثم اتى بعد ذلك الدكتور (بابنسكي). وأثبت ان الهستريا عبارة عن تأثير الايحاء الذاتي (Autosuggestion) لان اغلب هؤلاء المرضى ضعاف الارادة وعلى ذلك يسهل الاستهواء النفسي. واستمرت تلك النظرية حتى اتى العلامة (فرويد) وتقدم خطوة اخرى وبين ان الافكار المعارضة

للرغبات في الصغر تحفظ في العقل الباطن لما يصحبها من آلام او حزن او غير ذلك وتلك الافكار تحاول ان تظهر بشكل هذه العوارض الهسترية وهو يقول ان تلك الرغبات او الاحلام اللذيذة تتعارض مع ما يجده الانسان من الحالات الحقيقية المرة وعلى ذلك يحب المريض ان يعيش في عالم آخر ويفضل احلامه اللذيذة عن مواجهة الحقيقة ويؤكد الاستاذ (فرويد) ان اكثر تلك الرغبات تتعلق باللذة التناسلية بأكبر معانيها وخصوصاً في عهد الطفولة . وحيث ان هذه الرغبات قد اودعت في العقل الباطن (Sub-Conscious) ومنعت من الظهور في العقل الواعي (Conscious Mind) فتجتهد ان تجد لها منفذاً وغالباً ما تظهر بشكل مستتر نظراً الى المقاومة التي تجدها في العقل الواعي . واذا حللنا معظم هذه العوارض نجد ان اغلبها ينطبق على هذه النظرية لان معظمها عبارة عن ارضاء لتلك الرغبات فالقوة الكامنة في العقل الباطن من تأثير هذه الرغبات تتحوّل الى عوارض جسدية

﴿ كيف يمكن علاج الداء ﴾ ان اهم نقطة يجب ملاحظتها هي الاجتهاد في منع ظهور هذا الداء قبل وقوعه . فلقد تبين لنا انهُ يجب تربية الاطفال تربية حقة وتثقيف مداركهم وخصوصاً بما يتعلق بحالاتهم النفسية . ومع انهُ يوجد في بعض العائلات استعداد لهذا المرض غير انهُ يمكن اجتنابه بتعليم ماهية الغرائز وخصوصاً غريزة التناسل التي يعتبر الاستاذ (فرويد) Freud انها تبتدىء من عهد الطفولة . ويجب الاحتراس من قمع تلك الغرائز بالقوة ويجب ان يدرك جميع الآباء خطر هذا الموضوع ويدرسوه بدقة من كل الوجوه لانهُ ربما يكونون هم السبب في تعريض مستقبل الطفل لذلك الداء بجهلهم تلك الحقائق

***

اما العلاج الذي كان يصفهُ بعض الاطباء كالتدليك او الكهرباء بنوعيها او غير ذلك من العلاجات الطبيعية فلا فائدة منها لان اصل الداء ليس جسمانيًّا بل هو عقليٌّ . ولو ان هذه العلاجات تفيد في بعض الاحيان اذا كانت لها تأثير نفسي بالايحاء الى المريض . اما المسكنات كاملاح البروميد وغيرها فلا تفلح بل غالباً ما تضر الشخص . واحسن علاج اكتشف في العصر الحاضر هو العلاج النفسي Psycho-therapy فهو العلاج الوحيد للشفاء فالاستهواء يفيد في اكثر الحالات ولكن اضمن علاج هو التحليل النفسي Psychonalysis انما هناك بعض عقبات لهذا العلاج منها طول المدة التي يضحي بها الطبيب ومجهوده الذي يبذله لاظهار الافكار الكامنة في العقل الباطن المسببة لهذا الداء ثم وضعها امام العقل الواعي وبهذه الطريقة امكن شفاء عدة اشخاص بالقطر المصري كانوا قد يئسوا من رجوعهم الى حالاتهم الطبيعية الاصلية

باب المراسلة والمناظرة

العرض عند عرب الجاهلية

بين الاب لامنس المستشرق وصاحب الكتاب

بقلم بشر فارس

يعلم قرّاء المقتطف انني اخرجت كتاباً باللغة الفرنسية عنوانه « العرض عند عرب الجاهلية »* (ارجع الى «مكتبة المقتطف » يونيو ١٩٣٣) وبهِ نلت شهادة الدكتوراه في الآداب من جامعة باريس

وقد أراد الله لهـذا الكتاب ان يظفر برضى المستشرقين فضلاً عن نقاد الصحف والمجلات في الشرق العربي وفي اوربا . الاَّ ان الاب لامنس المستشرق المقيم ببيروت والكاتب في مجلة المشرق بدا له اذ يعيب كتابي . فعقد في «المشرق» (يوليو ١٩٣٣ صفحة ٥٤٨) فصلاً ذهب فيهِ الى ان في كتابي مواضع للنكير والغمز . فرددت عليه من فوري . فأبى ان ينشر ردي ، بل عاق عليه تعليقاً مضطرباً . فأدركته بردٍّ آخر كان حظه حظ الاول . وكأني بالاب لامنس يعيب كتابي ثم يأبى ان ينشر اجابتي لأني تتبعت تآليفه عن العرب تتبع من لا يعرف الهوادة ولا التواني . وبيان ذلك انني اخذت عليه تحامله على الاسلام واستخفافه بالعرب ، ثم اشرت الى سقطاته في الترجمة وأوهامه في التعليل ونبهت الى اضطراب مصادره . هذا ، ثم اني لما رأيت مجلة المشرق قد سُدَّت دوني ، خروجاً على سنة المناظرة فزعت الى المقتطف الرحب وهاءنذا انقل ما دار بيني وبين الاب لامنس

اولا — نقد الاب لامنس الاول

الشرف (العرض) عند العرب قبل الاسلام

لقد كان من السهل لخمسين سنة خلت، ان يؤلف كتاب كهذا . وذلك ان الناس كانوا يقرّون اجمالاً بصحة نسبة الشعر الجاهلي بكامله وبصحة نسبة الاحاديث المتعددة وما اليها من نوادر وشروح وتعاليق اما اليوم فقد اصبح العلم ينظر نظر الشاك الى الكثير من هذه المواد . على ان المؤلف لا يجهل ذلك، بل يعرف خاصة نظريات طه حسين في الموضوع،ويحاول تفنيدها بطريقة تضطرب بين النجاح والفشل

هذا والكتاب حسن الطبع ، مقبول المظهر، لا بأس في انشائهِ الفرنساوي (كذا) على الغالب ، ولا بأس كذلك في اسلوب البحث فيهِ وهو الاسلوب الذي استفادهُ المؤلف من اساتذة علم العمران في فرنسا . اما مواد البحث فتظهر كافية على الغالب . الاَّ ان المؤلف لا يستند في اكثر قياساتهِ الاَّ

---

* L'Honneur chez les Arabes avant l'Islam

الى كتاب او اثنين من مؤلفات العرب . فضلاً عن ان كثيراً من الاستنتاجات لا تركز على اس متين ، حتى يسهل (كذا) على الناقد ان ينقضها بمشرات الشواهد تفيد عكس ما يرمي اليهِ الكاتب . وفوق ذلك تراهُ يستند ، في ما خص حادثة جاهلية ، الى الدكتور غوستاف لوبون . وهذا لعمري غاية الغايات ، اذ لا يخفى على احد ان ذاك الطبيب لم يكن ليحسن كتابة اسمه بالحروف العربية

ثانياً — ردي على هذا النقد

حضرة رئيس تحرير مجلة « المشرق الغراء »

أما بعد فقد اطلعت في « المشرق » على نقد للكتاب الذي ألفتهُ وعنوانهُ « العرض عند عرب الجاهلية » ، ولي في ذاك النقد آراء ، وفي مأمولي ان يفسح لها مكان في « المشرق »

ان ناقد كتابي يأخذ عليَّ معالجة موضوع عولت فيهِ على الشعر الجاهلي على حين هذا الشعر مشكوك في صحته . والحقيقة انني لم اعتمد عليهِ اعتماد من يريد ان يفحص عن الادب الجاهلي ولكني استندت اليهِ لأتدبر العقلية الجاهلية ذهاباً مني الى ان ذلك الشعر يدل عليها ويشفُّ عنها وان كان غير صحيح ، ذلك بان الذين وضعوه كله او بعضهُ حملوه على شعراء الجاهلية فاضطروا الى ان يعارضوا الشعر الجاهلي المعارضة كلها فجاءت قصائدهم على نحو قصائد الجاهليين مبنىً ومعنىً ، ولقد بينت ذلك في مكانهِ (ارجع الى ص ٩ وما يليها) . ثم ان الناقد يأخذ عليَّ رجوعي الى الحديث النبوي، فانهُ يعده موضع نظر بل محل شك . والتحقيق انني رجعت اليهِ على غير اندفاع ولا تهوّر . هذا واني اقمت ميزاناً موزعاً بين فقه اللغة والقرائن في سبيل تمحيص الاحاديث التي عولت عليها (ارجع الى ص ٦ و ٧ الحاشية). وبعد فما لا مساغ فيهِ للشك ولا مجال للجدل انهُ لا منصرف عن الشعر الجاهلي والحديث لمن يريد ان يتدبر الجاهلية

ثم ان الناقد يحكم في بعض فصول كتابي متنقصاً اياها طاعناً فيها دون ان يقيم الادلة على حكمه . مثال ذلك قوله « ان طريقة تفنيدي لآراء الدكتور طه حسين تضطرب بين النجاح والفشل » ، وقوله « لا بأس في اسلوب بحثي » ، وقوله « ان مواد البحث تظهر كافية على الغالب » ، وقوله « ان استنتاجاتي لا تركز على اس متين ، حتى (كذا) يسهل على الناقد ان ينقضها بعشرات الشواهد تفيد عكس ما ارمي اليه »

وهنالك مطاعن لا تثبت عند النظر . منها قوله انني استشهد بالدكتور (غوستاف لوبون) . والحقيقة انني لم اعتمد على تصانيف الرجل الاَّ في تحفظ وحذر . (وقد صرحت بذلك في ص XXII) والدليل على قولي هذا انني ذكرت كلامه ثلاث مرات : مرة حين تحدثت عن الحياة الصحراوية الشاقة (ص ١٢٠) ولا يختلف اثنان في هذا . وأما المرتان الاخريان (ص ٢٤ ، ١٧٦) فلم اذكر (غوستاف لوبون) الاَّ في تحفظ ما بعده تحفظ ، وشاهد ذلك انني نقلت كلامه في صيغة الشك والاحتمال التي يفطن اليها كل من له اطلاع على النحو الفرنسي . ومن تلك المطاعن أيضاً قوله « انني لا استند في اكثر قياساتي الاَّ الى كتاب او اثنين من مؤلفات العرب » . والواقع انني عوّلت في تصنيف كتابي على ما يزيد على سبعين مصنفاً عربيًّا قحًّا (ارجع الى جدول المصادر)

على انني اذكر الآن من تلك المصادر «القرآن والحديث والسيرة وكتب التاريخ التي ترجع الى الجاهلية وصدر الاسلام وامَّات كتب الادب والاخبار كمثل كتاب الاغاني والبيان والتبيين للجاحظ وكتاب الحيوان له وكتاب البخلاء له والعقد الفريد لابن عبد ربه والاشتقاق لابن دريد والاصنام لابن الكلبي والمعارف لابن قتيبه وعيون الاخبار له والميسر والقداح له وطبقات الشعراء لابن سلاّم ومجمع الامثال للميداني والكامل للمبرد والامالي للقالي والعمدة لابن رشيق والمزهر للسيوطي ثم الحماستين وديوان حسان وديوان السموأل والمفضليات وشعراء النصرانية، فضلاً عن المعجمات وكتب اللغة»

ثالثاً — تعليق الاب لامنس على ودي (المشرق ٢٦ نوفمبر ١٩٣٣)

لقد أثار وصفنا لكتاب الأديب بشر فارس (في مشرق هـذه السنة، ص ٥٤٨ — ٥٤٩) حماسة المؤلف فأتحفنا بكتاب طويل، نسي فيه ان يشكر لنا التقريظ (كذا)، ولكن لم ينسَ ان يحتج شديداً على النقد. اما نحن فليس علينا الاَّ ايضاح واحد، وهو اننا لم نقل ان المؤلف يجهل موضوعه، بل اشرنا الى انهُ يكتفي غالباً بشاهد او شاهدين في تأييد أمرٍ يسهل على الناقض نقضه بعشرة شواهد تفيد عكس ما يرمي اليهِ الكاتب

رابعاً — تعليق على ايضاحه

نقدت مجلة «المشرق» الغراء في عددها الصادر في يوليو هذه السنة كتابي «العرض عند عرب الجاهلية» الذي الفته باللغة الفرنسية فرأيت في ذلك النقد ما لا يجدر بكتابي فبعثت الى «المشرق» برد على ذلك النقد ولكنهُ لم ينشر «لشدة اسلوبه» ؟ الاَّ ان صاحب النقد عاد الى الموضوع في شهر نوفمبر الماضي فصرح بأنهُ لم يأخذ عليَّ الاَّ شيئاً واحداً هو اكتفائي غالباً بشاهد او شاهدين في تأييد أمرٍ يسهل على الناقد نقضه بعشرة شواهد تفيد عكس ما يرمي اليهِ الكاتب

والذي عندي ان النقد لا يثبت على هذا النحو. ولقد كان يحق لمن نقد كتابي ان يضرب الامثال فيما يذهب اليهِ. هذا ثم ان صاحب النقد رأى انني لم اشكر له ثناءه على كتابي فاني اعتذر اليهِ من فعلتي. على انني لم افطن البتّة انه وصف كتابي الوصف الحسن

* * *

ذلك ما دار بيني وبين الاب لامنس ثبّت الله قدمه

والذي استخلصه من هذا كله ان الرجل نقم عليَّ دفعي بعض نظرياته وأقواله في العرب والاسلام. وعندي ان الاولى بالاب لامنس ان ينازلني في الميدان الذي جلت فيه فيصرعني والحجج المواضي بين يديه. فان العلم لا يدفع الاَّ بالعلم. وان بدا للاب لامنس ان يجادلني بعد هذه فليبادر — بادىء بدء — الى التنصل مما رميته بهِ وليسع سعيه في رد الاوهام المختلفة التي نسبتها اليهِ من طريق علمي

ووالله ثم الله لولا اني رأيت واحداً ممن يلحق بالمستشرقين قد عاب ناحية من نواحي كتابي مستنداً الى نقد لامنس لما شغلت باب المراسلة والمناظرة الى هذا الحد. واما ذلك الذي عاب كتابي فلقد ارسلت الى المجلة التي نشر فيها نقده («دير اسلام» الالمانية، العدد الاخير) ما يدفع قوله دفعاً

الملاّح التائه

ديوان علي محمود طه — ١٦٠ صفحة قطع وسط — ثمنه ٨ غروش

اذا أردت ان اكتب عن شعر فقرأته كان من دأبي ان اقرأه متثبتاً اتصفح عليه في الحرف والكلمة الى البيت والقصيدة الى الطريقة والنهج الى ما وراء الكلام من بواعث النفس الشاعرة ودوافع الحياة فيها وعن اي احوال هذه النفس يصدر هذا الشاعر وبأيها يتسبب الى الالهام وفي ايها يتصل الالهام بهِ وكيف يتصرف بمعانيه وكيف يسترسل الى طبعه ومن اين المأتى في رديئه وسقطه وبماذا يسلك الى تجويده وابداعه

ثم كيف حدة قريحته وذكاء فكره والملكة النفسية البيانية فيه وهل هي جبارة متعسفة تملك البيان من حدود اللغة في اللفظ الى حدود الالهام في المعنى ملكة استقلال تنفذ بالامر والنهي جميعاً او هي ضعيفة رخوة ليس معها الاّ الاختلال والاضطراب وليس لها الاّ ما يحمل الضعيف على طبعه المكدود كلما عنف بهِ سقط بهِ ؟

اتبين كل هذا فيما اقرأ من الشعر ثم ازيد عليه انتقاده بما كنت اصنعه انا لو اني عالجت هذا الغرض او تناولت هذا المعنى ثم اضيف الى ذلك كله ما اثبته من انواع الاهتزاز التي يحدثها الشعر في نفسي فاني لاطرب للشعر الجيد الوثيق انواعاً من الطرب لا نوعاً واحداً وهي تشبه في التفاوت ما بين قطرة الندى الصافية في ورق الزنبقة وقطرة الشعاعة المتألقة في جوهر الماسة وموجة النور المتألهة في كوكب الزهرة

وأكثر الشعر الذي ينظم في ايامنا هذه لا يتصل بنفسي ولا يخف على طبعي ولا اراه يقع من الشعر الصحيح الاّ من بعد وهو مني انا كالرجل يمر بي في الطريق لا اعرفه فلا ينظر اليَّ ولا انظر اليه فما ابصر منهُ رجلاً وانسانية وحياة اكثر مما اراه ثوباً وحذاء وطربوشاً . والعجيب انهُ كلما ضعف الشاعر من هؤلاء قوي على مقدار ذلك في الاحتجاج لضعفه وأُلهم من الشواهد والحجج ما لو أُلهم بعدده من المعاني والخواطر لكان عسى

فاذا نافرت المعاني الفاظها واختلفت الالفاظ على معانيها — قال : ان هذا في الفن . . . هو الاستواء والاطراد والملاءمة وقوة الحبك . واذا عوص وخانه اللفظ والمعنى جميعاً وأساء ليتكلف وتساقط ليتحذلق وجاءك بشعره وتفسير شعره والطريقة لفهم شعره — قال : انهُ اعلى من ادراك معاصريه وان محرفة معانيه هذه آتية من ان شعره من وراء اللغة ، من وراء الحالة النفسية

من وراء العصر . من وراء الغيب . كأن الموجود في الدنيا بين الناس هو ظل شخصه لا شخصه والظل بطبيعته مطموس مبهم لا يبين ابانة الشخص . واذا اهلك الشاعر الاستعارة وأمرض التشبيه وخنق المجاز بحبل — قال لك : انهُ على الطريقة العصرية وانما سدد وقارب وأصاب وأحكم . واذا سمى المقالة قصيدة .... وخلط فيها خلطه وجاء بها في اسوأ معرض وأقبحه وخرج الى ما لا يطاق من الركاكة والغثاثة — قال لك : هذه هي وحدة القصيدة فهي كلٌّ واحد افرغ افراغ الجسم الحي رأسه لا يكون الاّ في موضع رأسه ورجلاه لا تكون الاّ في موضع رجليه ...

تلك طبقات من الضعف تظاهرت الحجج من اصحابها على انها طبقات من القوة غير ان مصداق الشهادة للاقوياء عظامهم المشبوحة وعضلاتهم المفتولة وقلوبهم الجريئة أما الالسنة فهي شهود الزور في هذه القضية خاصة

***

هناك ميزان للشاعر الصحيح وللآخر المتشاعر فالاول تأخذ من طريقته ومجموع شعره انهُ ما نظم الاّ ليثبت انهُ قد وضع شعراً والثاني تأخذ من شعره وطريقته انهُ انما نظم ليثبت انهُ قرأ شعراً ... وهذا الثاني يشعرك بضعفه وتلفيقه انهُ يخدم الشعر ليكون شاعراً ولكن الاول يريك بقوته وعبقريته ان الشعر نفسه يخدمه ليكون هو شاعره

اما فريق المتشاعرين فليمثل له القارىء بمن شاء وهو في سعة ... واما فريق الشعراء ففي اوائل امثلته عندي الشاعر المهندس علي محمود طه . اشهد : اني اكتب عنهُ الآن بنوع من الاعجاب الذي كتبت بهِ في المقتطف عن اصدقائي القدماء : محمود باشا البارودي واسماعيل باشا صبري وحافظ وشوقي . رحمهم الله واطال بقاء صاحبنا . فهذا المهندس الشاب اوتي من هندسة البناء قوة التمييز ودقة المحاسبة ووهب ملكة الفصل بين الحسن والقبح في الاشكال مما علته من العلم وما علته من الذوق وهذا الى جلاء الفطنة وصقال الطبع وتموج الخيال وانفساح الذاكرة وانتظام الاشياء فيها وبهذا كله استعان في شعره وقد خلق مهندساً شاعراً ومعنى هذا انهُ خلق شاعراً مهندساً وكأن الله تعالى لم يقدر لهذا الشاعر الكريم تعلم الهندسة ومزاولتها والمهارة فيها الاّ لما سبق في علمه انهُ سينبغ نبوغه للعربية في زمن الفوضى وعهد التقلقل وحين فساد الطريقة وتخلف الاذواق وتراجع الطبع ووقوع الغلط في هذا المنطق لانعكاس القضية فيكون البرهان على ان هـذا شاعر وذاك نابغة وذلك عبقري — هو عينه البرهان على ان لا شعر ولا نبوغ ولا عبقرية . وهذه فوضى تحتاج في تنظيمها الى (مصلحة تنظيم) بالهندسة وآلاتها والرياضة واصولها والاشكال والرسوم وفنونها فجاء شاعرنا هذا وفيه الطب لما وصفنا فهو ينظم شعره بقريحة بيانية هندسية أساسها الاتزان والضبط ، وصواب الحسبة فيما يقدر للمعنى ، وابداع الشكل فيما ينشىء من اللفظ ، والاّ يترك البناء الشعري قائماً ليقع، اذ يكون واهناً في اساسه من الصناعة ، بل ليثبت ، اذ يكون اساسه من الصناعة في رسوخ وعلى قدر

وديوان «الملاح التائه» الذي أخرجه هذا الشاعر لا ينزل بصاحبه من شعر العصر دون الموضع الذي اومأنا اليه ، فما هو الاَّ ان تقرأه وتعتبر ما فيه بشعر الآخرين حتى تجد الشاعر المهندس كأنه قادم للعصر محمّلاً بذهنهِ وعواطفه وآلاته ومقاييسه ليصلح ما فسد ، ويقيم ما تداعى ، ويرمم ما تخرَّب ، ويهدم ويبني

***

ديوان الشاعر الحق هو اثبات شخصيته ببراهين من روحه . وها هنا في «الملاح التائه» روح قوية فلسفية بيانية ، تؤتيك الشعر الجيد الذي تقرؤه بالقلب والعقل والذوق، وتراه كفاء اغراضه التي ينظم فيها، فهو مكثر حين يكون الاكثار شعراً ، مقل حين يكون الشعر هو الاقلال ، ثم هو على ذلك متين رصين ، بارع الخيال ، واسع الاحاطة ، تراه كالدائرة يصعد بك محيطها ويهبط ، لا من انهُ نازل او عال ، ولكن من انهُ ملتف مندمج ، موزون مقدر ، وضع وضعه ذلك ليطوح بك

وهو شعر تعرف فيهِ فنية الحياة ، وليس بشاعر من لا ينقل لك عن الحياة نقلاً فنيًّا شعريًّا ، فترى الشيء في الطبيعة كأنهُ موجود بظاهرهِ فقط ، وتراه في الشعر بظاهره وباطنه معاً ، وليس بشعر ما اذا قرأتهُ ، واسترسلت اليهِ لم يكن عندك وجهاً من وجوه الفهم والتصوير للحياة والطبيعة في نفس ممتازة مدركة مصورة

ولهذا فليس من الشرط عندي ان يكون عصر الشاعر وبيئته في شعره ، وانما الشرط ان تكون هناك نفسه الشاعرة ، على طريقتها في الفهم والتصوير وانت تثبت هذه النفس بهذه الطريقة ان لها ان تقول كلمتها الجديدة ، وانها مخولة له الحق في ان تقولها ، اذ هي للعقول والارواح اخت الكلمة القديمة — كلمة الشريعة التي جاءت بها النبوة من قبل

وليس في شعر علي طه من عصرياتنا غير القليل ، ولكن العجيب انهُ لا ينظم في هذا القليل الاَّ حين يخرج المعنى من عصره ويلتحق بالتاريخ ، كرثاء شوقي ، وحافظ ، وعدلي باشا ، وفوزي المعلوف ، والطيارين : دوس وحجاج ، والملك العظيم فيصل. فان يكن هذا التدبير عن قصد وارادة فهو عجيب ، وان كان اتفاقاً ومصادفة : فهو اعجب ، على انهُ في كل ذلك انما يرمي الى تمجيد الفن والبطولة في مظاهرها ، متكلمة ، وسياسية ، ومغامرة ، ومالكة

اما سائر اغراضه فانسانية عامة ، تتغنى النفس في بعضها ، وتمرح في بعضها وتصلي في بعضها ، وليس فيها طيش ولا فجور ولا زندقة الاَّ ... ظلالاً من الحيرة او الشك ، كتلك التي في قصيدة « الله والشاعر » واظنهُ يتابع فيها المعري ولست ادري كم ينخدع الناس بالمعري هذا ، وهو في رأيي شاعر عظيم غير ان له بضاعة من التلفيق تعدل ما تخرجهُ « لانكشير » من بضائعها الى اسواق الدنيا

ومما يعجبني في شعر علي طه انهُ في مناحي فلسفتهِ وجهات تفكيره يوافق رأيي الذي اراه دائماً ،

وهو ان ثورة الروح الانسانية ومعركتها الكبرى مع الوجود — ليستا في ظاهر الثورة ولا في العراك مع الله كما صنع المعري وأضرابه في طيشهم وحماقتهم ، ولكنهما في الهدوء الشعري للروح المتأملة ، ذلك الهدوء الذي يجعل الطبيعة نفسها تبتسم بكلام الشاعر كما تبتسم بازهارها ونجومها ويجعل الشاعر اداة طبيعية متخذة لكشف الحكمة وتغطيتها معاً ، فان العجيب الذي ليس اعجب منهُ في التدبير الالهي للنفوس الحساسة — ان زخرفة الشعر وما يجري مجراه في الفن إنما هي ضربٌ من زخرف الطبيعة حين تبدع الشكل الجميل لتتمم اغراضها من ورائهِ ولو ثارت الازهار — مثلاً — على الوجود وخالقه ثورة اولئك الشعراء لما صنعت شيئاً غير افساد حكمتها هي ، وما يتصل بهذه الحكمة من المصالح والمنافع ، ولن تنتصر الاَّ ببقائها أزهاراً ، فذلك حربها وسلمها معاً

***

وأسلوب شاعرنا أسلوب جزل ، أو الى الجزالة ، تبدو اللغة فيهِ وعليها لون خاص من الوان النفس الجميلة يزهو زهوه فيكثر منهُ في النفس تأثيرها وجمالها وهذه هي لغة الشعر بخاصته . ولا بد أن ننبه هنا الى معنى غريب ، وذلك انك تجد بعض النظامين يحسنون من اللغة وفنون الادب ، فاذا نظموا وخلا نظمهم من روح الشعر — ظهرت الالفاظ في اوزانهم وكأنها فقدت شيئاً من قيمتها كأن موضعها في هذا النظم غير موضعها في اللغة ، وما اختلف اللفظ ولا تغير ، ولكن موضعه ثمَّ هو الذي اعلن افلاسه ، اذ اقامه مقام الذي يريد ان يعطي ثم هو اذا وقف لا يصنع شيئاً الاَّ ان يعتذر بأنهُ لم يجد ما يعطيه .... فهذا كان رجلاً من الناس ، وكان في ستر وعافية ، فلما وقف موقفه انقلب مدلساً كاذباً مدَّعياً فاختلفت بهِ الحال وهو هو لم يتغير

وما الاسلوب البياني الاَّ وسيلة فنية لمضاعفة التعبير ، فان لم يكن هذا ما يعطيه كان وسيلة فنية اخرى لمضاعفة الخيبة وهذا ما تحسه في كثير من شعر النظامين او البديعيين في العصور الميتة وتحسه في الشعر الميت الذي لا يزال ينشر بيننا

وعلي طه اذا حرص على اسلوبه ، وبالغ في اتقانه واستمرَّ يجريه على طريقته الجيدة متقدماً فيها ، متعمقاً في اسرار الالفاظ وما وراء الالفاظ ، وهي تلك الروعة البيانية التي تكون وراء التعبير وليس لها اسم في التعبير ، معتبراً اللغة الشعرية — كما هي في الحقيقة — تأليفاً موسيقيًّا لا تأليفاً لغويًّا — فانهُ ولا ريب سيجد من اسعاف طبعه القوي وعون فكره المشبوب ، والهام قريحته المولدة — ما يجمع له النبوغ من اطرافه ، بحيث يعده الوجود من كبار مصوريه ، وتتخذه الحياة من بلغاء المعبرين عنها في العربية ، ومن ثم تنظمه العربية في سمط جواهرها التاريخية الثمينة ويصله السلك بشوقي وحافظ والبارودي وصبري الى المتنبي والبحتري وابن الرومي وابي تمام ، الى ما وراء ذلك ، الى الجوهرة الكبرى المسماة جبل النور البياني ، الى امرىء القيس

وليس هذا ببعيد على من يقول في صفة القلب :

يا قلب عندك اي اسرار	ما زلن في نشر وفي طي
يا ثورة مشبوبة النار	اقلقت جسم الكائن الحي
حملته العبء الذي فرقت	منهُ الجبال واشفقت رهبا
واثرت منهُ الروح فانطلقت	تحسو الجحيم وتأكل اللهبا
وعجبت منك ومن ابائك في	اسر الجمال وربقة الحب
وتلفُّت المتكبر الصلف	عن ذلة المقهور في الحرب
ووهمت ناراً ذات ايماض	فبسطت كفك نحوها فزعا
مرت بعينك لمحة الماضي	فوثبت تمسك بارقاً لمعا
والارض ضاق فضاؤها الرحب	وخلت فلا أهل ولا سكن
حال الهوى وتفرق الصحب	وبقيت وحدك انت والزمن

ولو ذهبنا نختار من هذا الديوان لاخترنا اكثره ، فقصائده ومقاطيعه تتعاقب ، ولكن تعاقب الشمس على أيامها تظهر جديدة الجمال في كل صباح ، لان وراء الصباح مادة الفجر ، وكذلك تأتي القصائد من نفس شاعرها

مصطفى صادق الرافعي

شهرزاد

تأليف توفيق الحكيم . طبعة دار الكتب ١٦٢ ص ٥ من القطع الكبير

هذا الكتاب الثالث الذي اخرجهُ الاستاذ توفيق الحكيم في مدة سنة واحدة . وهذا الكتاب منسوج على منوال الكتابين الاولين من حيث انهُ يعمد الى اسلوب بعض الروائيين الفرنسيين وغيرهم الحاليين امثال جيرودو Giraudoux ولنورمان Lenormand ومترلنك Maeterlinck وهذا الاسلوب معروف بالرمزي Symbolisme وميزتهُ انهُ يرمي وراء تحريك الاشخاص الموهومة الى فكرة فلسفية او خلقية بعيدة

والواقع انك لاتصيب فكرة بعيدة الغور عند الاستاذ توفيق الحكيم في رواية شهرزاد فمحورها أن الانسان ربما سئم الماديات وتاق الى الروحانيات فلا يستقر على حال لانهُ متصل بالحياة اتصالاً عنيفاً حتى انهُ يظل كالمعلق بين السماء والارض . وهذه الفكرة تدور لكل ذهن

الاَّ ان براعة الاستاذ توفيق الحكيم انما هي في السياقة . فهو يحكم سرد الرواية ويحكم الحوار ويحكم تهيئة البيئة . وكأني بهِ قد حذق فن الروايات التمثيلية . ومن هذه الناحية فهو صاحب فن حقا

واما لغة الرواية فتتراوح بين الفصاحة والاضطراب . فانك تراها تصعد الى البلاغة ثم تنحدر الى الضعف . ولكن الاسلوب حيٌّ وهّاج

وبالجملة ، ان شهرزاد لقطعة من قطع الفن المسرحي بمعناهُ المحدود ، ثم انها لطليعة الفن الرمزي في المسرح العربي

بشر فارس

استشارات الطبيب الممارس

الجزء الاول في امراض الاطفال لمؤلفيه الاطباء

ترابو استاذ السريريات الطبية والعصبية في المعهد الطبي العربي والمجاز في اللغة العربية من المفوضية الافرنسية وعضو مراسل وطني لجمعيتي المستشفيات الطبية والامراض العصبية في باريز. ومحمد محرم الاستاذ في المعهد الطبي العربي وعزة مريدان مساعد المخابر في المعهد الطبي العربي
طبع بمطبعة الجامعة السورية سنة ١٩٣٣

هو كتاب في عشرة مجلدات صدر الجزء الاول منه في امراض الاطفال وطلب مني نقده فقرأته واني أبدي فيه الملاحظات الآتية

اهداء الكتاب : — قلما يصدر كتاب في الشرق الاَّ ويهديه مؤلفه الى ذي منصب كبير او شهرة واسعة او سريّ او ثريّ او ما اشبه ومما لفت نظري في هذا الكتاب انهُ لم يهدَ الى المفوض السامي او رئيس الجمهورية او الى احد الوزراء او السراة او الاغنياء او الى رئيس من رؤساء المؤلفين مما يدل على انهم رجال علم وعمل يعلمون كيف يحفظون كرامة انفسهم ولو انني رأيت ان الكتاب اهدي الى رجل كبير من رجال الدولة كنت القيته من يدي كما وقع لي قبلاً وقرظته مرضاة لصاحب المقتطف او حياء من مؤلفه) ولكن هذا الكتاب مصنّف علمي انقده عن رضى وسرور بلا حكم سابق على مؤلفيه او لهم

مقدمة الكتاب : — وجيزة جدًّا وخالية من التبجح شأن العلماء الحقيقيين فأخذ الكتاب يرتفع في نظري ووضعت علامة حسنة جدًّا لمؤلفيه ولا سيا للدكتور ترابو مع انهُ اخرجني من الشام برؤوس الحراب فما كاد يختفي ذيلي سنة ١٩٢٠ حتى ظهر رأسه فخرجت من دمشق قائمقاماً طريداً شريداً وعدت ودخلتها بعد عشر سنوات من الباب الشرقي فريقاً رافع الرأس . فانا وزميلي الدكتور ترابو على صلح دائم الى ان يقضي الله امراً كان مفعولاً

طبع الكتاب : — حسن جدًّا وهو مطبوع على ورق صقيل وبحرف جميل ومعتنىً بتصحيحه أشد العناية فلم أرَ فيه من الخطإِ المطبعي الاَّ النادر جدًّا مما لا يعتد بهِ

لغة الكتاب : — لغته عربية علمية فصيحة خالية من التعقيد واني اذكر مثالاً منها وهو ما ورد في الصفحة الاولى حتى لا يقال انني انتخبت المثال فقد جاء فيها ما نصه : لا يعطى الوليد في اليوم الاول من الولادة شيئاً من الحليب واما في الايام التالية فيعطى ثمانين غراماً في اليوم الثاني ثم يضرب هذا المقدار في عدد الايام كلما تقدم عمر الوليد حتى اليوم السادس وهذا المقدار من الغذاء يقسم الى ثماني رضعات على ان تكون الفاصلة بينها ساعتين ونصفاً وعليه يمكن تلخيص ارضاع الوليد الذي تتراوح سنه بين يومين وستة أيام على الوجه الآتي . ثم يلي ذلك جدول فيه رضعات الايام الستة الاول ثم جدول آخر فيه تغذيته في السنة الاولى . فقوله الوليد خير من قوله الطفل الحديث الولادة وقوله الحليب خير من قوله اللبن لان اللبن قد يكون حليباً وقد يكون خاثراً او حامضاً والمراد هنا اللبن الحليب دون غيره فالعبارة فصيحة وخالية من الحشو والتعقيد ويتعذر ان

يزاد عليها حرف او ينقص منها حرف بلا تغيير المعنى وهي عبارة علمية موجزة صريحة المعنى

وهناك مثالاً آخر وهو ما جاء في ص ٣٣٩ في علاج التهاب الشغاف قال : توضع المنفطات على الناحية القلبية كصبغة اليود او القطن اليودي او المنفطات الطيّارة والافضل وضع كيس من الجليد الخ . وجاء في ص ٣٤١ في علاج التهاب التامور قال : اذا كان التهاب التامور حادًّا يحمى المريض الاّ عن اللبن ويستريح راحة مطلقة ويوضع على قلبه كيس من الجليد وهو في الاضطجاع الظهري ويوضع في وضعة نصف الجلوس متى لم يحتمل الاضطجاع ويجتنب الجهد والحركة الخ

ثم ان رؤوس الفقرات مكتوبة بالعربية والفرنسية واذا وردت كلمة اصطلاحية كتبت بالعربية والفرنسية والكتاب كلهُ على هذه الصورة يفهمهُ العامة ولا تنبو عنهُ الخاصة اي ان الكتاب علمي دقيق الشرح فصيح العبارة موجزها فهو في جلائهِ ودقتهِ وايجازه شبيه بالمؤلفات الفرنسية وهي تفوق المؤلفات الاخرى في ذلك على ما اعلم اي الايجاز في الوضوح ولعل ذلك من خصائص هذه اللغة . وهذا الكتاب يدل دلالة واضحة على ان اللغة العربية لا تقل عن غيرها في الايضاح العلمي ودقة التعبير فالذنب ليس ذنبها

المصطلحات الطبية . — لا ريب انها عربية فصيحة معتنىً في انتقائها اشد العناية وهو ما جرى عليهِ اساتذة هذا المعهد في استعمال المصطلحات العربية فما لم يعثروا له على اسم عربي قديم وضعوا لهُ مصطلحاً عربيًّا . اما بالترجمة او بالاستعارة او بالتعريب ولو احببت ان اذكر المصطلحات التي جروا عليها لذكرت لهُ شيئًا كثيراً منها وقد اصابوا في معظمها تمام الاصابة واني اضرب بعض الامثلة فقط منها الخديج والوليد والرضيع والطفل وهي الفاظ عربية معروفة ومشهورة ولكن هؤلاءِ الاساتذة احسنوا اختيارها وساروا على وتيرة واحدة في استعمالها ولم يخلطوا فيها ولا مرة واحدة بل استعملوا كلاًّ منها ومن امثالها في المكان الذي يجب فيهِ استعماله وهي كثيرة جدًّا ولولا ضيق المقام لاوردت بعضها . ثم ان جميع هذه المصطلحات العربية قد كتبت وكتب ما يقابلها بالفرنسية . واني اعيد ما قلته قبلاً في توحيد المصطلحات الطبية في مقالٍ تلي في المؤتمر الطبي في الاقصر ان من رأيي في توحيد هذه المصطلحات ان يمثل اهل سورية طبيب من اطباء الجامعة السورية والاَّ فمن العبث ان ينفرد اطباء مصر على كفاءتهم بهذا الامر الجوهري

وانهُ يتعذَّر عليَّ ان أفي هذا الكتاب حقهُ من التقريظ فهو مثل جميع المؤلفات التي تصدر من الجامعة السورية جدير بالعلماء ان يطالعوه وان يقتبسوا منهُ ولما كان هذا الكتاب خاصًّا بتلامذة الطب والاطباء فاني اشير على كل تلميذ وطبيب عربي اللغة ان يقتنيه ويقتني سائر مؤلفات هذا المعهد ففوائدها العلمية واللغوية كثيرة جدًّا

يطلب هذا الكتاب من احد مؤلفيهِ الدكتور ترابو من اساتذة المعهد الطبي العربي بدمشق والثمن اربعون فرنكاً فرنسيًّا يضاف اليهِ اجرة البريد وهو ثمن زهيد بالنسبة الى فوائد الكتاب . فعسى ان يتحفنا اساتذة المعهد الافاضل ببقية الكتب التي وعدونا بها امين المعلوف

هوامش الصحفي العجوز

برسوم العريان وآخرون

لا أعرف في هذا العصر كاتباً للتراجم والسير والشخصيات أقدر من هذا الصحفي العجوز — انهُ يعمد الى الشخصية ملأت الدنيا وشغلت الناس يقص سيرتها عليك فاذا بهذه الشخصية الطويلة العريضة لا تشغل اكثر من هامش واحد في صحيفة الاهرام على أنك قد تقرأ عشرات الكتب في تلك السيرة بعد ولكنك لن تجد شيئاً واحداً يستحق الذكر لم يأتك بهِ هذا الهامش السحري العجيب

وعندي ان مقدرة الصحفي العجوز في هذا الضرب من الكتابة راجعة الى ما في الرجل من ألمعية وفن موهوب — ويقولون في تعريف الالمعي بأنهُ هو الذي يظن بك الظن كمن رأى وقد سمع — فاذا كان هذا صحيحاً فالصحفي العجوز من اكثر الناس ألمعية لانهُ من أقدرهم على استخلاص الحقائق مما يحيط بها من الزيف فهو اذا نفذ الى قضية من القضايا التي تقع في دائرة ابحاث المؤرخين فليس حكمه عليها الاَّ توقيع الزمن وخاتمه على سجل تلك الحقيقة. بل ليس هو الاَّ الرسوم الذي تصدر بهِ تلك الحقيقة للأجيال — أما الفن فلا أظن لهذا الرجل فيهِ ميزة اكثر من قدرته على الاستهواء وأنا أتحدَّاك ان تأتيني في كل ما تقرأ للصحفي العجوز باستعارة او تشبيه او شيء من هذا الذي يصطنع توشية للكلام في عرف البيانيين. وانما انت في كل لفظة واجد حقيقة وفي كل حقيقة واجد فائدة وفي كل فائدة واجد لذة . وهكذا يقبض الرجل على قرائهِ فلا يتركهم حتى يعطيهم كل ما عنده من المعلومات وهو في نفس الوقت لا يشعرهم انهُ يعطيهم شيئاً. ولعله حقيقة لا يحس بأنهُ يعطي اي شيء — هو يعطي من على (الهامش) فكأنهُ يقول خذوا هذا الشيء السهل البسيط — وهنا يسمح لنا السيد توفيق حبيب بالقبض عليهِ بتهمة التلبس بالفلسفة أجل اني أتهم السيد توفيق بالفلسفة وبالشعر ايضاً . ولا اظنه مهما تبرأ من الشعر وتنكر للفلسفة يستطيع ان ينجو من هذا الاتهام اللهمَّ الاَّ ان يغير عنوانه «على الهامش» ويكتب بدله «في صميم الحياة» ، فالحياة لا هامش لها وكل ما يقع فيها منها ومن صميمها كما يقول الدكتور هيكل وكما هو رأي الصحفي العجوز ذاته غير ان صاحبنا العجوز يريد ان يجعل من عنوانه «على الهامش» اشعاراً لقرائه بأن اختبارات العلماء من امثاله — وتحقيقاتهم وتدقيقاتهم كل اولئك في نسبتهِ للحياة لا يزيد عن الهامش في نسبته للكتاب العظيم او في نسبته لجريدة الاهرام — واذن هل الشعر والفلسفة شيء غير هذا يا سيد توفيق وايت شعري اي صميم للحياة وراء ما جئت بهِ في الهوامش ألست في هامش تتكلم عن برسوم العريان او القديسة كاترينه. وفي هامش آخر تتكلم عن فورد أليس هذان هما الجانبان — المادي والروحي، اللذان يتكوَّن منهما هيكل هذه الحياة وهل تتألف الحياة الاَّ من المادة والروح او من الاشخاص والآثار

أشهد اني قرأت في هوامش الصحفي العجوز تراجم سير وشخصيات فحسبتني أولاً اقرأ كتاباً في الحياة وعدت ثانياً فحسبتني اقرأ الحياة في كتاب. وهكذا ظلَّ يستهويني الرجل ويفتنني ويصبيني حتى وددت لو أملك ان اقيم كتابه في معرض ثم اطلق عليهِ متحف الصحفي العجوز محمود أبو الوفا

لندن

تأليف احمد عطية الله — صفحاته ٣٦٨ قطع المقتطف — مطبعة عيسى البابي الحلبي

السفر مدرسة الحياة . والارض كتاب لا يقرأ منهُ المقيم في بلدٍ واحد ، الاَّ فصلاً واحداً . لان السفر يصقل الطبع ، ويثقف العقل ، ويقيد الخيال بقيود الحقيقة ، ويطلق الفكر من اغلال التحزُّب الاجتماعي والتاريخي ، ويوسع افق النظر الى الحياة والعمران

فاذا كان كاتب الرحلة راوياً لحوادث التاريخ وعبره ، ملمًّا بآداب الامم وطبائعها ، استطاع ان يجعل وصفه لرحلة ما ، قطعة من الادب العالي ومن هنا اقبال الناس على مطالعة الرحلات او ما كان من قبيلها

وكاتب هذه السطور يعجبه في كتب الرحلات ، استيفاء كل موضوع في فصل على حدة . كعقد فصل مثلاً لاسباب المواصلات في مدينة من المدن ، وآخر لمنشآتها الصحية ، وآخر لمعاهدها العلمية العامة . لانهُ يعتقد ان الكتابة على هذه النحو ترسم صورة اوضح في ذهن القارىء من تجزىء الموضوعات وتفريقها في صفحات الكتاب فلا يستطيع القارىء ان يلمسها الاَّ بعد جهدٍ جهيد . . ولكنه يعترف كذلك ان الرحلة نفسها لا تماشي هذه الجمع والاجمال . فالمسافر يتعرَّف الى الاشياء والاعمال والمنشآت والطبائع كما تتوالى على حسهِ . وترتيب المادة في كتاب من كتب الاسفار وفقاً لهذا التوالي يحمل القارىء على الاحساس ، بانهُ مصاحب للكاتب في مراحلهِ المختلفة ، فهو افضل في اغراءِ المطالع بمواصلة المطالعة من طريقة الاستيفاء على الاسلوب الاول

ولعلَّ هذا الاعتبار هو الذي حمل مؤلف « لندن » على تجزئتهِ فصولاً قصيرة ، تتوالى عليك كما تتوالى مشاهد بلاد جديدة رحلت اليها ، ففي كل فصلٍ طرافة الشيء الجديد ، وخفة اللمحة الاولى

خذ وصفه « لحمام ترافلجار » ترى فيهِ هذه اللمحة العابرة . فان هذه القطعة على ايجازها صورة كاملة لمظهر من المظاهر التي تنفرد بها لندن ثم تعليق اجتماعي حسن للمؤلف قال :

في ميدان ترافلجار الفسيح ، وهو الميدان الفريد في لندن ، وتحت ظل عمود نلسن الهائل وتحت اقدام الكثير من تماثيل الاسود الفرسان والقوَّاد التي تحيط به ، تجد مئات من الحمام الاسمر ، يطير ويحط على ارض الميدان وعلى حنايا هذه التماثيل ، ثم على اكتاف السائرين

حمام اليف ، لم يعد يخاف الانسان ، ولا يهرب منهُ — بل يهرع الى كل سائر يرمي له بالحب وبفتات الخبز . وما اشبه هذا الميدان الفسيح بتماثيله ، وما اشبه هذا الحمام الوديع بميدان سان مارك في البندقية

وهذا الحمام رسول السلام ، ورمز الحب . ولكنهُ لم يجد مكاناً يرفرف فيهِ الاَّ ميدان ترافلجار ميدان اخذ اسمه من الحرب ومن القتال . ولست ادري ماذا كان يصنع هذا الحمام لو درى بهذه الحقيقة؟

ولكن لعله يريد ان يكون رسول السلام في ميدان بني لتخليد رجال الحرب ، ويعلّم الانسان كيف الخلاص من نير الحروب

ما ارق قلب هذا الشعب الذي لا يرضى بحبس الحمام ، بل يتركه طليقاً ، ولكن بين تماثيل الفرسان والقواد الذين خلدتهم الحرب والنيران

وتمر السيدة الريفية بميدان ترافلجار ومعها اطفالها ، وتشير بأصبعها من نافذة عربة الامنيبوس الى عمود نلسن الهائل ، تذكر أبناءها بموقعة الطرف الاغر التي احالت مياه المحيط الى حمرة قانية تذكرهم بنلسن العظيم : لتذكي في دمائهم حرارة الفروسية وتنسى تلك المئات من الحمام الاسمر الذي يطير ويحط على حنايا هذه التماثيل ، وعلى اكتاف السائرين ، تنسى ان هذا الحمام رسول السلام ورمز الأخاء على الارض ...

وكذلك تنتقل مع المؤلف من ميدان ترافلجار الى دار البرلمان الى الستي حي الاعمال الى معرض الشمع (معرض مدام توسو) الى سراديب لندن التي تسير فيها قطارات الانفاق الى عالم المسارح الى مقبرة العظماء في دير وستمنستر الى مدرسة اللغات الشرقية الخ ... الخ ...

وكل فصل يحتوي على الحقيقة البارزة في الموضوع الذي يعالجهُ المؤلف ، فتخرج من قراءة الكتاب وفي ذهنك صورة عامة للندن كما هي الآن ، وصورة لأهم منشآتها وأساليب معيشتها وطبائع سكانها وآدابهم ، ولو تعذر عليك ان تقول انك تملك صورة واضحة لناحية بعينها من حياة هذه المدينة العظيمة لان عناصر الصورة التامة قد تكون موزعة في فصول متفرقة

وقد تخلل الفصول الكثيرة التي وضعها المؤلف ،فصول قليلة ولكنها مختارة مترجمة عن طائفة من ابرع كتاب الانكليز في وصف نواح من حياة لندن فثمة فصول لروبرت لند والكاتب اديسن وجيمس ملن ورنيير وغيرهم

والكتاب في ٣٧٠ صفحة من قطع المقتطف وفيهِ طائفتان من الصور مبثوثة في صفحاته، الواحدة فوتوغرافية والاخرى كاريكاتورية مرحة . اما وقد طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر فشهادة له بجودة الطبع

رسائل في النقد

تأليف رمزي مفتاح

لو برز هذا الكتاب في عهد صفت فيه الانفس لنبذ . الاَّ ان مصر قد اصبحت اليوم ميدان سباب وقدح ، ومن اسوإ ما يترتب على هذا ان السباب يقابل بمثله والقدح بما هو اشد منهُ ، فتضطرب المقاييس ويصيب مصر وادباءها ما يجرّس بها وبهم في الخارج

اما هذا الكتاب فالاعتساف في سطوره مستفيض والتحامل فيما بينها مستكنٌّ . وفيه اخطاء تاريخية لا ندري وروحه ما ذكرنا اعفواً جاءت ام عمداً . وجل ما يقال فيه انهُ لولا هذا التحامل وذلك الاعتساف لأخذ الناقد بهِ واستخرج منه آراء ربما كان لها شأن في نقد الادب العربي الحديث

كمعلم او كمشرف على التعليم ، لا على النظريات العامة التي لا يمكن تطبيقها مباشرة في كل بيئة . فلو ان الاستاذ قد عدد لنا من ملاحظاته الخاصة او ضرب لنا الامثلة من مشاهداته ، لكان هذا القسم من الكتاب اكثر تشويقاً واعظم فائدة

وكان من ضرر التمشي مع كتاب ارشادات للمعلمين ان تناسى المؤلف او نسي نواحيَ هامة في المواضيع التي بحثها ، كانت جديرة بالدراسة والبحث ، بل انها جعلت الكثير من الطرق التي بحثها المؤلف بعيدة التطبيق على النظم المدرسية التي نسير عليها في الشرق العربي . فمثال ذلك انهُ قسَّم طريقة تدريس المادة الواحدة الى قسمين صفوف دنيا وصفوف عليا تمشياً مع النظام الانكليزي Senior and Junior مع انهُ كان من الاجدر ان تتمشى طرق التدريس اما مع نوع المدرسة (اولية او ابتدائية او ثانوية مثلاً) وإما بحسب سن الاطفال

ونتيجة اخرى لذلك انهُ ترك في بحث تدريس اللغة العربية نقطاً لها شأن كبير جداً لم يتعرض لها تعرضاً ما ، مع انها موضع اختلاف المشتغلين بالتعليم في الوقت الحاضر ومثال ذلك انهُ لم يذكر متى وكيف يدرس التشكيل او ربط الحروف او قواعد اللغة وانواع الخط العربي وطرق المحادثة والأناشيد الخ . .

كما اننا نشاهد نتيجة الاعتماد على كتاب « ارشادات المعلمين » واضحاً كثيراً عند الكلام على تدريس التاريخ ، اذ المؤلف لم يجد امثلة لتوضيح نظرياته غير الامثلة الانجليزية فذكر اسماء الشوارع الانجليزية التي لها اساس تاريخي ولم يحاول ان يساير الفكرة فيذكر شيئاً من الامثلة المحلية فبدلاً من ذكر Wailing St. يذكر المبكى مثلاً ، وبدلاً من ذكر Grey Friars يذكر باب الخليل ، والاستاذ اعرف مني بذلك

كما انهُ في تدريس الحساب لم يذكر ولو تلميحاً طريقة منتسوري في تدريس الحساب (وهو لم يذكر هذه الطريقة في تدريس اللغة للاطفال) مع ان هذه الطريقة من انسب الطرق الحديثة لتدريس الصغار ، وهي منتشرة انتشاراً واسع المدى في جميع رياض الاطفال حتى تلك التي لا تسير على طريقة منتسوري . وبعد كل ذلك اراني عاجزاً عن تقدير هذا الكتاب القيم ، الذي ولا شك اننا في كبير حاجة الى امثاله في اللغة العربية . وانني اهنىء الاستاذ الخالدي بمجهوداته المشكورة في سبيل تزويد المكتبة العربية من حين الى حين بمثل هذه المؤلفات الجديرة بكل تقدير واعجاب

القاهرة احمد عطية الله

المحفوظات

الجزء الاول لمدارس البنات تأليف مهدي احمد خليل

هو مجموعة وافية من الحكم والنصائح والحكايات الادبيـة مما يلذ مطالعته لمدارس البنات الابتدائية فنثني على مؤلفه النشيط . طبع بمطبعة مصر

﴿ سعادة الاسرة ﴾ قصة ادبية تأليف الفيلسوف الروسي ليو تولستوي ترجمها الى العربية الاديب مختار الوكيل وهذه القصة جامعة ما بين الترجمة الشخصية والرغبة الفنية الى درجة ما وفيها تصوير لاحلامه واماني الزوجية . وقد كتبها قبل زواجه بثلاث سنوات فهي ذات صبغة خاصة تستحق عنايتنا لانها تتناول موضوعاً يشغل في الوقت الحاضر جميع الاذهان . وعنيت بنشرها المطبعة السلفية ومكتبتها

﴿ فن طبع الاصابع ﴾ تأليف عبد الجبار فهمي — وهو كتاب مفيد نافع لكل من ينتسب لاسرة القانون حاوياً كل ما يتعلق بهذا الفن من النظريات والتطبيقات فلا يستغني عنهُ كل من قام بعبء التحقيق كبيراً كان او صغيراً ، وادارة البوليس في حاجة ماسة اليهِ كما يحتاج اليهِ كبار المحامين واساطين القضاء ففيه تاريخ طبع الاصابع وشرح واف في فن طبعها . طبع بمطبعة النجاح في بغداد

﴿ القاتلة ﴾ رواية محزنة حيث يقضي الحبيب ضحية لغرامهِ وتنهض المرأة لتنتقم لحبها الضائع فتكون المعركة واذا بالحب يصيب قلبها من جديد وتقع بين حبين وتتصارع بين عاطفتين ولكنها تمضي في طريقها اذ لا بد من الانتقام — ترجمها الاديب عبد المنعم حسن ونشرها فهمي يوسف في مجلدين وتطلب من مطبعة التقدم التجارية ومكتبتها وثمنها ٤ غروش

مطبوعات جديدة

وراء الغمام
نظم الدكتور ابراهيم ناجي

ملوك الطوائف
تأليف دوزي — ترجمة كامل كيلاني

ديوان عبد المطلب

غاندي والحركة الهندية
لسلامه موسى

دراسة القانون
للاستاذين مصطفى رضا بك والدكتور محمود احمد الحفني

الحموضة والقلوية
للدكتور محمد صلاح الدين الكواكبي

حياة وحياة
للدكتور محمد كامل الصي

﴿ طريقة منسي ﴾ جريدة فرنسية نصف شهرية لصاحبها ومحررها الاستاذ احمد ابو الخضر منسي وهي خاصة بتعليم المبتدئين اللغة الفرنسوية باسلوب بسيط سهل اخاذ . وفيها من الحكايات الطريفة والحادثات والمصطلحات مما يساعد طلبة الكفاءة والبكالوريا (اضافي)

﴿ الذئاب ﴾ رواية ادبية ترجمها الاديب عبد المنعم حسن نشرت تباعاً بجريدة الاهرام . ونشرها فهمي يوسف في مجلدين وتطلب من مطبعة التقدم التجارية ومكتبتها وثمنها ٤ قروش

﴿ تقويم الاتحاد الفلكي المصري لسنة ١٣٥٣ هـ ﴾

يشمل الاوقات الشرعية لجميع الاقطار الاسلامية واحوال الكواكب والتوقيعات ومواقيت الزراعة وغير ذلك . طبع بمطبعة الوفاق ببلقاس

باب الأخبار العلمية

علاج خطرٌ للصداع

من العقاقير المستعملة في معالجة الصداع ، عُقّار يدعى «بيراميدون» Pyramidon وهو يستعمل احياناً لازالة الالم بالتخدير في حالات عرق النسا والالتهاب المفصلي . والمرجّح الآن ان هذا العقار وما هو من قبيلهِ يضرُّ بنخاع العظم حيث تتولد بعض كريات الدم . وهذه حالة مرضية تعرف باسماءٍ مختلفة في عالم الطب ، وتبدأ عادة بحرارةٍ والتهاب الحلق فيُظَنُّ ان البرد سببهما . ثم تظهر قرح على اللوزتين واللسان واللثة ، وتنتشر انتشاراً سريعاً . ولعل اهمَّ اعراضها نقص كبير في عدد كريات الدم البيض . ففي المتر المربَّع من الدم نحو ٦٠٠٠ الى ٧٠٠٠ كرية بيضاء فينقص هذا العدد الى الفين . اما عدد الكريات الحمر ومقدار الهيموغلوبين في الدم فيظلاَّن على حالتهما السوية ، ويلي ذلك ان المصاب بهذه الحالة يلقى حتفهُ في الغالب رغم العلاج

اكتشف هـذا الداء سنة ١٩٢٢ اذ راقبهُ طائفة من الاطباء الالمان ولكن العلاقة بينهُ وبين البيراميدون لم تكشف الاَّ هذه السنة . فقد لاحظ الطبيبان ماديسن وسكوير من اطباءِ مدينة ملووكي الاميركية ، ان اعراض هذا الداء تشتدُّ بزيادة ما يتناول من البيراميدون وعقاقير اخرى تحتوي على مادة Barbiturate فدرسا ثلاث عشرة حالة من هذا القبيل توالت تواليـاً يدعو الى الاستغراب فوجدا ان جميع هؤلاء المصابين تناولوا احد هذه العقاقير ، مدداً مختلفة الطول، قبل ظهور اعراض الداء عليهم. فحاولا حينئذٍ تجربة هذه العقاقير في غذاء الارانب فلم تلبث حتى ظهرت في احدها أهمّ اعراض هـذا الداء وهو نقص عدد الكريّات البيض وظهر في ثلاثة ارانب اخرى حؤول في نخاع العظم

وكان الدكتور كراك Kracke من جامعة اموري Emory قد اشار سنة ١٩٣١ الى امكان وجود علاقة بين العقاقير المستخرجة من قطران

الفحم الحجري واحد الاشكال التي يظهر فيها هذا الداء . وقرّر في سنة ١٩٣٢ ان ثمانية من تسعة مصابين بهِ كانوا يتناولون عقاقير تحتوي على المواد الكيماوية القائمة في تركيبها على ما يعرف « بحلقة البنزين » . والبيراميدون احد هذه المواد

فاستعمال البيراميدون وحدهُ او مختلطاً بعقاقير اخرى ، يجب ان يكون باشراف الطبيب ولا بدَّ لهذا ، من احصاء كريات الدم البيض في الجسم مراراً كل اسبوع لكي يتمكن من معرفة اثر هذا العقار في الدم ونخاع العظم

الذهب في ماء البحر

في ماءِ البحر ذهبٌ ، ولكن ما مقدارهُ ؟ كان العلماءُ قد قدَّروا انَّ كلَّ طنٍ من ماءِ البحر يحتوي على قمحة من الذهب . فلما وضعت الحرب اوزارها ، وفرضت على المانيا تلك الغرامة الباهظة ، ظنَّ العالم الكيماوي فرتز هابر ، انهُ يستطيع ان يغنم لوطنهِ من ماءِ البحر قدراً من الذهب ، يساعدهُ في تسديد مال التعويض المفروض عليهِ . فجرَّب التجارب الكيمائية ووجد انهُ يستطيع ان يستخرج الذهب من ماءِ البحر اذا استعمل وسائل معيَّنة للترسيب والتصفية والتكتيل . وكان العلماءُ من قبل قد حاولوا ذلك فآبوا بالخيبة ولكنهُ ظن انهُ قد يفلح حيث اخفقوا هم . فسافر في سفينة خاصة اعدَّ لهُ فيها معملٌ كيمائيٌ تامُّ الاجهزة ، وجعل في خلال سفرهِ ، يتناول نماذج من مياه البحار التي يجتازها ، ويحلّلها ليعلم مقدار ما فيها من الذهب فثبت لهُ ان تقدير العلماء مبالغ فيهِ وان الطن من ماءِ البحر لا يحتوي على اكثر من $\frac{٢٤}{١٠٠٠٠٠}$ من القمحة ذهباً ، فكتب بعد ذلك ما مؤداه انهُ يرجح استحالة استخراج الذهب من ماءِ البحر

تبغ خالٍ من النيكوتين

في انباءِ المانيا انَّ معهد فور شهَيْمر للبحث في التبغ بمدينة فرانكفورت قد توصَّل الى تأصيل اصناف جديدة من التبغ بعضها خالٍ من النيكوتين خلوًّا تامًّا وبعضها مقدار النيكوتين الذي فيهِ قليل . وقد شرع الدكتور بول كوينج مدير المعهد يوزّع فسائل التبغ الجديد على طائفة من الفلاحين لزرعهِ وجنيهِ

الطيارات وابادة الجراد

جاء من دربان في جنوب افريقية ان الحكومة تعد حملة جوية على الجراد ، فأعدت طائرتين تحمل احداهما طنًّا من « زرنيخات الصوديوم » وسوف لا يهاجم الجراد وهو في الجو اذ يحتمل ان يعرقل آلات الطيارة ويسبب سقوطها ، بل سيفاجأ الجراد عند هجوعه وقت الفجر فتطير الطائرات على ارتفاع منخفض فوق حقول البنجر ثم ترش المادة السامة من مضخات فيها فوق المناطق التي حطت فيها اسراب الجراد وهذه المناطق تميز بواسطة رايات تنصب قبل العملية . ويلبس الطيارون كمامات واقية اثناء قيامهم بمهمتهم هذه . وفي الاستطاعة ان تعمل الطائرات عملها خلال الليل وفي هذه الحالة توقد مشاعل لارشادها الى مواقع الجراد . والمعتقد ان هذه الطريقة الجديدة ستقلب الطريقة المتبعة في جنوب افريقيا رأساً على عقب وهي استخدام المواد الملتهبة في ابادة الجراد

الاشعة المستحدثة وبناء الذرة

اقوى الاشعة التي تنطلق من المادة اشعة غمَّا التي تنطلق من الراديوم والثوريوم. وطاقتها من رتبة ٢٥٠٠٫٠٠٠ ڤولط. ولكن العالمين الاميركيين لورنزن وكراين من معهد كاليفورنيا الذي يرأسهُ العلاّمة ملكن قد صنعا اشعة غمَّا اقوى من اشعة غمَّا الطبيعية التي تنطلق من العناصر المشعة لانطاقة الاشعة التي استحدثاها من رتبة ٣٫٥٠٠٫٠٠٠ ڤولط. وكان قد سبقهما الى عمل من هذا القبيل الاستاذ جوليو وقرينتهُ (وهي ابنة مدام كوري) والدكتور لورنس من اساتذة جامعة كاليفورنيا. فالاستاذ جوليو ومدامتهُ وجَّها دقائق الفا المنطلقة من الراديوم بسرعة ١٢ الف ميل في الثانية الى المادة غير المشعة فأصبحت مشعة. اما لورنزن وكراين فوجَّها نوى الايدروجين الثقيل (وتعرف في اميركا باسم دوتونات) الى الكربون والبورون والليثيوم او البريليوم. فخرج منها نوع من النتروجين يطلق اشعة غما. ولكن هذه المقدرة على الاشعاع المستحدث بوسائل صناعية لا يطول اكثر من عشر دقائق ثم يتحول النتروجين بعد عشر دقائق اخرى الى كربون. وقد يكون لهذه الاشعة المستحدثة — اشعة غما — فائدة في معالجة السرطان مع قصر حياتها، لان طاقتها اقوى من طاقة اشعة غما الطبيعية. واهم من ذلك ان هذه الاشعة حملت العلماء على اقتراح آراء جديدة مؤداها ان بناء الذرَّة قد يكون ابسط جداً مما يُظَنّ الآن

اشعة اكس والمواليد

في الاجتماع الذي عقدتهُ الجمعية الفلسفية الاميركية في اواسط ابريل تلا الدكتور جون غوِن Gowen احد علماء معهد روكفلر الطبي في برنستن، رسالة بيَّن فيها ان التجارب التي اجراها بتعريض الخلايا التناسلية في ذباب الفاكهة لاشعة اكس اسفرت عن زيادة المواليد الذكر في نسلها

مدور مرصد حلوان

قرأنا في مجلة نايتشر ان الدكتور محمد رضا مدْور الفلكي المقيم بمرصد حلوان قد عين مديراً خلفاً للمستر كري. والدكتور مدور من علماء الفلك المتفوقين، وهو عضوٌ في الجمعية الفلكية الملكية والمجمع المصري للثقافة العلمية. ونشْر نبإِ تعيينهِ في مجلة نايتشر دليل على ما يتمتع بهِ من المقام في الدوائر العلمية الاجنبية

مجمع تقدم العلوم البريطاني

يلتئم مجمع تقدم العلوم البريطاني هذه السنة في مدينة ابردين باسكتلندا في الاسبوع الواقع بين ٥ سبتمبر و ١٢ منهُ، برآسة السر جيمز جينز الفلكي الرياضي المعروف وصاحب المؤلفات العلمية الدقيقة والمبسّطة في الآراء الكونية الحديثة ومن اشهرها «الكون الذي حولنا» و«النجوم في مسالكها» و«الكون المحجّب بالاسرار». وينتظر ان تدور خطبتهُ على نظريات علم الطبيعة الحديث

الجزء السادس من المجلد الرابع والثمانين

صفحة

